إِتْحاف المُحِبِّين

بِذِكْرِ مَنَاقِبِ الإِمام الشّيخ
عَبْدِ اللهِ سِرَاج الدّين الحُسَينيّ
رحمه الله تعالى ورضي عنه

١٣٤٢ - ١٤٢٢ هـ

جمع وترتيب
وَلَدِهِ المهندس
مُحَمّد مُحيي الدّين سِراج الدّين
دكتوراه في الدراسات الإسلامية

اعتنى بتخريج أحاديثه وضبطَ ألفاظه
وترجمَ الأعلام والأعيان المذكورة فيه
خادم العلم الشريف
بكري بريمو السمان

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها القارىء الكريم
هَبْ ثواب قراءتك سورة الفاتحة
إلى العلامة الكبير والعارف الشهير
الإمام الحافظ المفسِّر الشيخ
عبد الله سراج الدين الحسيني
وإلى والده العلامة العارف الكبير
حامل لواء الحُجَّة بالكتاب والسنة الشيخ
محمد نجيب سراج الدين الحسيني
رضي الله عنهما وجزاك الله خيراً

الموقع الرسمي للشيخ الإمام
www.srajalden.com

كلمة شكر وتقدير

يقول سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم :

[لا يشكر الله من لا يشكر الناس] [1]

تحقيقاً لنصوص الكتاب الكريم والسنة الشريفة في إسناد المعروف إلى أهله وشكرهم على إتقانهم عملهم ، فإني أتقدَّم بالشكر والثناء لمن كانت له يد بيضاء وجهد خفي ـ منذ سنوات عديدة ـ في إظهار ما صدر من الكتب المتعلقة بما نُقل عن الشيخ الإمام رضي الله عنه من بيانات ونصوص ودروس ومحاضرات ـ وما سيصدر إن شاء الله تعالى ـ ، وإخراجِها بهذه الحلّة النافعة الزاهرة ، وأخص بالذكر هذا الكتاب ، تجلّى ذلك خاصة في ضبط الألفاظ من حيث اللغة ، والتوسع في تخريج الأحاديث النبوية الشريفة وضبط ألفاظها ، فلم يَكْتفِ بالموسوعات الإلكترونية وشبكة المعلومات الدولية (الإنترنت) ، بل رجع في توثيق ذلك إلى المكتبات العالمية كمكتبة الإسكندرية والمكتبات الوقفية وغيرها ، والمخطوطات الموجودة فيها ، وكذا ما وجد عند كبار أهل العلم من كتب بطبعات قديمة كالطبعات البولاقية والميمنية ، بالإضافة إلى تفصيل ترجمة الأعيان والأعلام الواردة في الكتاب .

إن الذي قام بذلك هو :

خادم العلم الشريف الأخ الأستاذ : بكري بريمو السمان

بن المرحوم الحاج محمد ناجي[2]

---

[1] رواه الترمذي في سننه في كتاب البر والصلة وصحَّحه ، ورواه أبو داود في سننه في كتاب الأدب عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

[2] وقد توفي الحاج محمد ناجي والد الأستاذ بكري عام ١٤٣١هـ رحمه الله رحمة واسعة

وفقه الله تعالى لما فيه رضاه ، وبارك في نفعه المتواصل في التربية والتعليم .

وقد لازمني أخي بكري منذ سنة ١٤١٨ هـ وأكرمه الله تعالى بالأخذ عن مولانا الشيخ الإمام في مجالسه الخاصة في بيته المبارك ، وشملته أنظار ودعوات مولانا الإمام ، وعندما استأذن الأخ بكري مولانا رضي الله عنه في الذهاب إلى العمرة خصّه بمكرمة كبرى حيث قال له :
اعتمر بدلاً عني وقل :
(يا رب أُهدي ثواب هذه العمرة لسيدي الشيخ عبد الله سراج الدين)
وقد امتثل الأخ بكري أمر الشيخ الإمام تقبل الله منه ... آمين

ومرة قَصَّ أخي بكري على سيدنا الشيخ الإمام رؤيا مباركة رأى فيها حضرة النبي الأعظم صلى الله عليه وسلم فأقرَّه مولانا وبشَّره ببشارة عظيمة وأجازه بورد خاص وأوصاه بالمحافظة عليه ..
ثم طلب من مولانا الإمام أن يتفضل عليه بالإجازة فقال له رضي الله عنه :
(أجيزك يا بنيّ بما أجازني به شيوخي من الحديث الشريف والتفسير المنيف وبما لي من مرويات ومقروءات ومسموعات وبما سمعته مني وما لم تسمعه مني ، وأجيزك بإجازة من تراه أهلاً لذلك ، راجياً من الله تعالى أن لا يقطع هذه السلسلة الطاهرة المباركة إنه لسميع الدعاء) .اهـ

وبعد وفاة مولانا الإمام رضي الله عنه رأيت شيخنا الإمام مرات مرات راضياً عن أخي بكري مبشراً له ومسروراً بجهوده وإخلاصه .

وقد خَصَّ الله تعالى أخي الأستاذ بكري بالعناية بتحقيق تراث مولانا العلمي كلَه ، فمن الكتب التي اعتنى بها وطُبعت بحمد الله وتوفيقه :

(دروس حول تفسير بعض آيات القرآن الكريم) و(محاضرات حول مواقف سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم مع العالم) الجزء الثاني والثالث و (محاضرات حول الفضائل المحمدية) و (محاضرات حول الإيمان بالقضاء والقدر) و(محاضرات حول الإسراء والمعراج)
و(محاضرات حول هجرة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم)

و (محاضرات حول عالم الجنة) ..
وغير ذلك كثير مما لم يطبع بعد ونسأل الله المزيد من فضله .

وقد عرفت في شخص أخي بكري الصدق والإخلاص والتفاني في خدمة مولانا الإمام رضي الله عنه ومحبته ونشر تراثه العلمي ، وله ديوان في مديح النبي صلى الله عليه وسلم والأولياء والصالحين لم يُطبع بعد .

وقد حصل الأستاذ بكري على ثانوية التعليم الشرعي الخاصة ، وتخرّج من معهد التعليم الشرعي (الشعبانية) بحلب بتفوق باهر سنة ١٤٢٠ هـ
إلى جانب حصوله على الثانوية السورية العامة .
كما نال الإجازة العالية (الليسانس) في علوم الحديث النبوي الشريف سنة ١٤٢٥ هـ .
ثم حاز على الماجستير في علوم اللغة العربية وآدابها سنة ١٤٣١ هـ
وأسأل الله أن ييسر له الحصول على الشهادة العالمية (الدكتوراه) ويسدّد خطاه .
ولأخي الأستاذ بكري خبرة عملية في تدريس العلوم الشرعية واللغة العربية منذ سنة ١٤١٧ هـ ، لأن الله تعالى فَطَره على حب العلم تعلّماً وتعليماً منذ سِني طلبه الأولى ، كما أن له خبرة في تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها ، ولا يزال يقوم بالتدريس في الكلّيات العامة والخاصة ، وفّقه الله تعالى لما فيه رضاه .

وللتواصل معه عبر شبكة المعلومات (الإنترنت)

www.ostazbakri.com

ostazbakri@gmail.com

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

والحمد لله رب العالمين .

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، أما بعد :

فإن للتقوى مكانة عظيمة عند الله تعالى ، وإن لاتِّباع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أثراً كبيراً في الارتقاء في المراتب السامية الرفيعة .

وإن من مظاهر تكريم الله تعالى للمؤمن الكاملِ الاتباع لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم :

أن الله تعالى يكرمه ببقاء آثاره الصالحة من بعده بمختلف أشكالها وأنواعها، ويديم ذكره على ألسنة الناس يلهجون بمدحه والثناء عليه ، فيبقى حياً في ضمائرهم ووجدانهم وإن غاب شخصه عن نواظرهم .

وإنني إذ لمست حاجة الناس إلى قدوة صالحة وأُمثولة حسنة وعالِم فذّ يستقون من معينه وينهلون من مورده - وهذا لا يكون إلا بزيادة التعرف عليه لمن خُصّ بقربه ، وبالاطلاع على جوانب حياته لمن فاته ذلك - عندها أدركت ضرورة كتابة ترجمة موجزة عن حياة سراج حلب وإمام المسلمين ، وكبير علماء الأمة المحمدية في هذه الفترة الزمنية :

سيدي ووالدي الإمام المفسِّر المحدّث الشيخ عبد الله سراج الدين رحمه الله تعالى ورضي عنه .

ويشهد الله أنني لم أكن أجرؤ يوماً أن أخطّ بيدي عبارات تتضمن المدح والثناء على ذلك العلّامة الكبير والعارف الشهير ، إلا أن ما لا يُدرك كلّه لا يُترك جُلّه ، لذا رأيت أن أجمع كتاباً حول مناقب شيخنا الإمام ، متحدثاً بإسهاب في بعض الجوانب ، وباختصار في الأمور التي سبق أن ذكرْتُها في أوائل كتاب (مواقف سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم مع العالم) وفي هذا المصنَّف أنوار ساطعة وأضواء لامعة ، تُبرز جوانب من حياة الشيخ الإمام رضي الله عنه التي عمرها بالعلم والتعليم والعمل ، والشيء من معدنه لا يُستغرب ، فشيخنا الإمام رضي الله عنه من سُلالة بيت النبوة ، ذلك البيت الذي جُمعت له المكارم والفضائل كلها .

ويرحم الله القائل :

وأرى النَّجَابة لا يكون تمامُها لنجيب قوم ليس بابن نجيب

شَرَف تتابعَ كابراً عن كابر   كالرمح أنبوباً على أنبوب [1]

وقد حظي الشيخ الإمام رضي الله عنه بأثر من سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم شاع وانتشر في أجزائه وذرّاته وذرِّيته ، وذلك لمّا أخذ تَفْلة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وابتلعها كما سيأتي بيانه .

وكان والده الأجلّ الشيخ محمد نجيب رضي الله عنه قد نال أيضاً تفلة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونخامته الشريفة ، ولا بد لهذا الأثر المحمّدي المبارك الطيب أن تظهر بركاته وخيراته وأنواره وأسراره في ذات وذرّات من فاز به .

وقد ذكر الإمام أبو نعيم في حِلية الأولياء[2] :

أن الإمام الحسن البصري رضي الله عنه كان ابناً لجارية السيدة أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم ورضي الله عنها ، فبعثت السيدة أم سلمة جاريتها في حاجتها فبكى الحسن بكاء شديداً ، فَرَقَّت عليه السيدة أم سلمة رضي الله تعالى عنها فأخذته فوضعته في حِجرها فأرضعته ، فكان يُقال :

إن المبلغ الذي بلغه الحسن من الحكمة هو من ذلك اللبن الذي شربه من السيدة أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه و سلم . اهـ

وهذه مباحث شريفة ومناقب لطيفة مختلفة ومتعددة ، لا يجمعها باب ولا يربطها فصل ، وإنما يربطها شيء واحد :

ذلكم أنها تتعلق بسيرة شيخنا الإمام رضي الله عنه .

ولم يكن من قصدي إظهار هذا الكتاب ، لأنني أعلم أني لن أبلغ الغاية المنشودة في إحصاء مناقب الشيخ الإمام رضي الله عنه ، ولكن أشار عليّ من لا تَسَعني مخالفته بإظهار ما يمكن إظهاره ليستفيد منه أحباب الشيخ ويأنسوا بسيرته ، ويتعرّف إلى جنابه من سمع به .

ويرحم الله القائل :

إنِّي إذا ادَّعيتُ يوماً حُبَّهُم   لِعبءِ وِزْري يا هُذَيْمُ أسْتَحي
لأنَّ مِثلي وعَزيزِ قَدْرِهم   لِرُتبةِ الحُبِّ لهُمْ لم يَصْلُحِ
لكنْ كَمِ الكريمُ من عاداتِهِ   يُولي الضَّعيفَ فَضْلَهُ ويمْنحِ

فإذا رأيت - أيها القارىء الكريم - صواباً فمن الله تعالى ، وإذا رأيت خللاً فمن وَهْمٍ صدر مني بسوء الإفهام ، لعدم تأهلي لذلك وقصوري عن

---

[1] أي : أن قرابة الولادة يتفرع فيها البعض عن البعض ، ويتولّد البعض من البعض ، كالشيء الواحد الذي يتزايد على نسق واحد .
(انظر تفسير الإمام الرازي ٩ / ٥٢١)

[2] ٢٧٢/١

الوصول إلى ما هنالك ، لأن المتصدي للتأليف والمعتني بالتصنيف ولو بلغ السُّهى في النُّهى [1] فقد استهدف ، ومن أنصف أسعف .
على أني - والله عزوجل يعلم - في أكثر مدة جمعي له في همّ وحزن ، ومع قلة المعين والناصر والمنبّه والذاكر ، فإن تَصَفّح فيه الناظر الغلط فليصفح ، ولا يكن من أناس بالأغاليط يفرحون ، وليُصلح بعد التأمل ما يجده فاسداً ، فإن الله تعالى ذمّ رهطاً فقال سبحانه :
(يفسدون في الأرض ولا يصلحون) .
وقد تضمَّن كتابنا هذا الحديث عن نشأة الشيخ الإمام رضي الله عنه ، وطلبه العلم ودروسه القيمة ومؤلفاته النافعة ، والحديث عن زهده وورعه وكمال أدبه ولطفه ، وفيه درر منثورة من بيانات الشيخ الإمام لقضايا علمية دقيقة وتنبيهات وتحقيقات نادرة أكرمني الله بسماعها من فمه المبارك وكتابتها .
وحوى الكتاب ذكر إجازاته رضي الله عنه وبعض الكرامات والبشائر ولطائف المنن التي أكرمه الله تعالى بها .
كما أنك - أيها القارىء الكريم - ستجد في طيات الكتاب أدعية عظيمة كان سيدنا الشيخ يَلْهَج [2] بها في مختلف الأوقات والمناسبات ويلفت إلى أهميتها وفضلها .
وترى في الكتاب بياناً وافياً شافياً لمن أراد الاطلاع على عمل الشيخ الإمام في اليوم والليلة ، لينظر المؤمن أين هو من سلوك الشيخ الإمام وأعماله رضي الله عنه ، وما ذاك إلا لأن عادات السادات هي سادات العادات .
قال مولانا الوالد رضي الله عنه نقلاً عن بعض العلماء عند كلامه على مقام التوبة :
إن هناك من العباد السالكين إلى الله تعالى من يتحرّى أوقات الإجابة والقبول ، ويعمل بالأذكار التي ورد في فضلها المضاعفةُ على غيرها ، وبذلك يطوي مراحل كبيرة في السير والسلوك إلى الله تعالى ، ويسبق غيره والذين لم يعملوا بمثله . اهـ
وذكر في ذلك البيت الآتي :

من لي بمثل سيرك المُدَلَّل ... يمشي رويداً ويجي في الأول

ولله در القائل :

هَيهاتَ لا يَأتي الزَمانُ بِمِثلِهِ ... إِنَّ الزَمانَ بِمِثلِهِ لَبَخيلُ

[1] السُّهى : النجم الصغير الخفي ، والنُّهى : العقول .
[2] يقال في اللغة : لهج بالأمر : أُولع به واعتاده . اهـ (لسان العرب)

ويرحم الله القائل :

حَلَفَ الزَمانُ ليأتيَنّ بِمِثلِهِ كَفِّر يَمينِكَ مُسرِعاً يا مُقسِمُ

وفي الختام أرجو أن يكون هذا الكتاب نبراس هدي ومشكاة نور وبحر جود ، يغرف منه محبّو الشيخ الإمام ومريدو الاتباع والالتزام ، يغرفون منه محبة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وضرورة الاتباع الكامل لجنابه الشريف صلى الله عليه وسلم في الأقوال والأفعال والأخلاق والآداب ، ليسعدوا سعادة الأبد .

وأسأل الله تعالى أن يجعل ثواب ذلك في صحيفة شيخنا الإمام وكتاب أعماله الواسع إنه سميع مجيب ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون والحمد لله رب العالمين

وكَتَبَهُ

د . م . محمد محيي الدين سراج الدين

ولادة مولانا ونشأته الكريمة
١٣٤٢-١٤٢٢ هـ

ولد الشيخ الإمام سيدي الوالد عبد الله بن محمد نجيب سراج الدين رضي الله عنهما سنة ١٣٤٢ للهجرة النبوية الشريفة في بيت عُرف بـ (بيت الفضل والكرم والعلم) ، وذلك لِما اشتهر عن والده رضي الله عنه بحلّ المعضلات العلمية ، وبيان ما التبس فهمه واشتبه أمره من العلوم والمعارف العالية ، إذ إن والده هو الإمام الشهير والعلامة الكبير العارف بالله تعالى الشيخ محمد نجيب سراج الدين[1] ، ابن السيد الفاضل محمد سراج الدين المريد المقرّب من العلامة الشهير الشيخ أحمد ترمانيني [2] المشهور بعلمه وحسَبه وكراماته .

وقد كان كبار العلماء في ذلك الوقت يقصدونه ، فإذا قال لهم قولاً أذعنوا له ، وكان قوله هو القول الفصل ، ولذلك كانوا يتساءلون فيما بينهم :

ماذا قال الشيخ محمد نجيب في ذلك ؟

رضي الله عنه ونفعنا بعلومه وبركاته.

وقد عُرف عن الشيخ محمد نجيب رضي الله عنه علوّ المكانة ، ورفعة المقام والمنزلة في قلوب أهل عصره ، فقد درج على ألسنة كثير منهم كلمات التكريم والتعظيم لمقام الشيخ محمد نجيب رضي الله عنه إن هُم ذكروه ، أو سمعوا شيئاً من كلامه ، أو عن مناقبه .

والدته : السيدة الكريمة خديجة مكتبي [3] بنت الشيخ وحيد مكتبي [4]الذي ذهب لقتال الأعداء أيام الحرب العالمية الأولى ، ولكن السلطان عبد الحميد لمّا رأى علمه وكفاءته للتعليم أعفاه من القتال ، وأمره بتعليم الناس ونفعهم ،

---

[1] سيدي وجدي المحدث المفسر الشيخ محمد نجيب سراج الدين المتوفى سنة ١٣٧٣ هـ رضي الله عنه ، وقد أفرد شيخنا الإمام الوالد لمولانا والده الكريم رضي الله عنهما كتاباً يتحدث عن ترجمته فارجع إليه تجد ما ينفعك إن شاء الله تعالى .

[2] المحدّث المفسر الفقيه الشافعي الكبير العلامة الشيخ أحمد بن الشيخ عبد الكريم بن الحاج نعمة الله الترمانيني الأزهري الزاهد العابد المُجمَع على علمه وفضله ، وجلالة قدره وولايته ، ولد في قرية ترمانين سنة ١٢٠٨ هـ وتوفي يوم الأحد الثالث عشر من شهر ربيع الثاني سنة ١٢٩٣هـ ودفن في تربة الجبيلة رضي الله عنه

[3] جدتي الكريمة المتوفاة سنة ١٤٠٠ هـ رحمها الله رحمة واسعة

[4] هو الشيخ وحيد بن الحاج مصطفى بن الشيخ عبد الوهاب بن الشيخ أحمد بن الشيخ محمد الشهير بـ (المكتبي) ، توفي رحمه الله سنة ١٣٣٠ هـ

إلى أن توفي في الآستانة رحمه الله تعالى وكانت السيدة خديجة وقتها لم تبلغ العاشرة من عمرها ، فكفلها عمها العلامة الكبير فقيه عصره الشيخ أحمد المكتبي رحمه الله تعالى [١]، فنشأت وترعرت في كَنَفِهِ .

في هذا البيت العامر باليُمن والبركة ، المشهور بالعلم والمعرفة، المعروف بالنسب والحسب ، كانت ولادة مولانا الإمام الشيخ عبد الله رضي الله عنه سنة ١٣٤٢ هـ .

وقد حظي شيخنا الإمام رضي الله عنه منذ صغره بدعوات وبركات من العلماء والأولياء والصلحاء ، الذين كانوا يزورون مولانا الشيخ محمد نجيب ، أو يزورهم ، لأنه كان بصحبته في غالب الأحيان .

قال مولانا الوالد رضي الله عنه :

وكان والدي وسيدي الشيخ محمد نجيب رضي الله عنه يصحبني معه منذ صغري لزيارة الصالحين ، وكثيراً ما يسألهم الدعاء لي ، فنِلت - بحمد الله وفضله علي - نلت أثر دعواتهم وبركاتهم ، وكان من عادة الشيخ محمد نجيب رضي الله عنه زيارة سيدي الشيخ أبي بكر الوفائي [٢] فيذهب الشيخ ويصحبه اثنان من أصحابه : أحدهما السيد محمود الحاج كريم[٣] ، وأكون معهم في غالب الأحيان ، إذ يَعِد السيدُ محمود صاحبَ عربة - ويكون ذلك أول النهار- يعِده أن يعود إليهم بعد صلاة العصر ليوصل الشيخ محمد نجيب إلى داره ، فيجلس سيدي ووالدي هناك في مقام الشيخ أبي بكر ويقرأ من كتاب الله تعالى ما تيسر له ، ثم من دلائل الخيرات وأدعية وابتهالات أخرى .

ولا أزال أذكر ذلك حين كان يجلس أمامي والدي في المحراب وهو متوجه بكليته إلى الله تعالى بالدعاء والتضرع والصلاة على حبيبه صلى الله عليه وسلم وهكذا . اهـ

قلت : وقد جرى شيخنا الوالد على سنّة والده الأجلّ رضي الله عنه ، فكان يزور الشيخ أبا بكر الوفائي رضي الله عنه كل أسبوع تقريباً وبصحبته بعض أحبابه وأولاده وقد أكرمني الله بذلك والحمد لله .

---

[١] هو الشيخ أحمد بن الحاج مصطفى بن الشيخ عبد الوهاب بن الشيخ أحمد بن الشيخ محمد الشهير بـ (المكتبي) توفي رحمه الله سنة ١٣٤٢ هـ

[٢] هو سيدي أبو بكر بن أبي الوفا الحسيني المشهور بـ (أبي بكر الوفائي)
ولد في حلب الشهباء في محلة (سويقة علي) سنة ٩٠٩ هـ وتوفي سنة ٩٩١ هـ ودفن خارج حلب شماليها في المكان المشهور بالجبل الأوسط ، وقبره مشهور يُزار ويتبرّك بزيارته الأخيار . اهـ

[٣] المحب الصادق وقد توفي قبل وفاة الشيخ محمد نجيب رضي الله عنه بسنوات قليلة

ولعل في اختيار الشيخ محمد نجيب ليوم الثلاثاء في زيارة الشيخ أبي بكر حِكماً وأسراراً ، إذ إن أولياء الله تعالى قد تولّاهم الله بعنايته وولايته الخاصة فلا تأتي أفعالهم وتصرفاتهم دونما نظر ثاقب وبصيرة نافذة ، والله أعلم .

نسبه الطاهر الطيب

لقد أكرمني الله فعثرت أخيراً ـ بحمد الله وفضله ـ على نسبنا الطاهر الطيب المبارك من النّسّابة السيد الشيخ أحمد الحيدري الأويسي الحسيني أمتع الله به ـ والسادة الحيدرية الأويسية اشتهروا بثبوت نسبهم الطاهر إلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم كما أن عندهم شجرة نسب عائلات كبيرة في حلب وغيرها ـ .
وقد صنّف السيد محمد ويس الحيدري الأويسي[١] صنّف كتاباً في ذلك سمّاه : (الدرر البهية في النساب الحيدرية والأويسية)
فأقول بحمد الله :

بسم الله الرحمن الرحيم

هو والدي سيدي فضيلة الإمام العلامة المفسر المحدّث الشيخ عبد الله سراج الدين ابن سيدي فضيلة الإمام العلامة الشهير والعارف الكبير الشيخ محمد نجيب ابن السيد الحاج محمد بن السيد يوسف بن السيد عبد الرحمن بن السيد الأمير حسين ابن السيد ياسين ابن السيد حسين ابن السيد محمد ابن السيد طه ابن السيد عبد الكريم ابن السيد عقلة ابن السيد عبد الله ابن السيد محمد ابن السيد أحمد البريدي ابن السيد محمد عجرف ابن السيد محمد ابن السيد علي ابن السيد عبد الله ابن السيد خالد ابن السيد قاسم ابن السيد رحيل ابن السيد عبد الرحمن ابن السيد علي عز الدين ابن السيد نعيم[٢] ابن السيد أحمد ابن السيد إسماعيل الرفاعي ابن السيد علي ابن السيد يحيى ابن السيد ثابت ابن السيد حازم ابن السيد أحمد المرتضى الهاشمي المكي ابن السيد علي المغربي الإشبيلي الأندلسي ابن السيد رفاعة الحسن[٣] أبي المكارم

---

[١] المتوفى سنة ١٤٠٥ هـ رحمه الله رحمة واسعة

[٢] وإن السيد عز الدين أبو حمرة رضي الله عنه هو أخ للسيد نعيم رضي الله عنه كما هو مذكور بعد صفحات

[٣] والسيد عز الدين الصياد هو ابن السيد عبد الرحيم ممهّد الدولة الذي هو صهر الإمام أحمد الرفاعي الكبير ، والسيد عبد الرحيم هو ابن السيد سيف الدين عثمان بن السيد حسن بن السيد محمد عسلة بن السيد علي الحازم ابن السيد أحمد المرتضى ابن السيد علي المغربي ابن السيد رفاعة الحسن

الهاشمي المكي ابن السيد محمد مهدي المكي التقي الزكي ابن السيد محمد أبي القاسم البغدادي الحسيني ابن السيد قاسم الحسن شيخ بني هاشم

ابن السيد حسين الرضى المحدّث ابن السيد أحمد الأكبر أبي الفضائل ابن السيد موسى الثاني أبي سبحة أو ذي السبحة - ولقّب بذلك لكثرة تسبيحه - ابن السيد إبراهيم المرتضى المُجاب الهادي الى الله ابن السيد الإمام موسى الكاظم ابن السيد الإمام جعفر الصادق ابن السيد الإمام محمد الباقر ابن السيد الإمام علي زين العابدين السجّاد ابن الإمام الهمام كوكب الإسلام سبط رسول الله عليه الصلاة والسلام تاج الأولياء أبي عبد الله سيدنا الحسين شهيد كربلاء ابن أسد الله وسيد أولياء الله وابن عم رسول الله الليث الغالب مُظهر العجائب ومُفرّق الكتائب سيدنا ومولانا أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكرّم وجهه .
وأم سيدنا الحسين سيدتنا وقرة عيوننا البضعة الطاهرة ذات النور فاطمة الزهراء رضوان الله وسلامه عليها ، وهي بنت معدن الكرم والفضل والجود شفيع اليوم الموعود صاحب المواثيق والعهود ذي المقام المحمود سيدنا ونبينا ومولانا محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم. [١]

أما الإمام عز الدين أبو حمرة فهو من قبيلة النّعيم ، قال عنه الشيخ يوسف النبهاني رحمه الله ورضي عنه في كتابه (جامع كرامات الاولياء) الصفحة ٣٠٣ :
عز الدين بن النعيم
قال السراج : روينا أن السلطان الملك الظاهر ركن الدين أبا الفتح بيبرس بن عبد الله الصالحي رحمه الله ، جاء يوماً الى زيارة الشيخ عز الدين ابن النعيم .

---

[١] مصدر النسب من الشيخ أحمد الحيدري الويسي الحسيني - أمدّه الله بالعافية - ابن عبد الرحمن الحيدري الأويسي الحسيني المتوفى سنة ١٣٩٧ هـ رحمه الله رحمة واسعة ، وكان هذا عن طريق الأستاذ الشيخ أحمد عز الدين الأويسي جزاه الله خيراً ، وسنذكر ترجمة موجزة لبعض السادة الأعلام الذين جاء ذكرهم في النسب الطاهر في آخر هذا البحث

وقال في الصفحة ٣٠٤ :
قال السراج : والشيخ عز الدين هذا هو من أكابر الأولياء وسادات المحققين ، وله أحوال ظاهرة وكرامات خارقة ، كان مقامه بأرض سلمية من أعمال حماة ومات سنة ٦٧٥ هـ رضي الله عنه . اهـ .
وأقول : السيد عز الدين دفين السلمية هو السيد عز الدين أبو حمرة ابن موسى بن عز الدين أحمد الصياد بن عبد الرحيم ممهد الدولة الرفاعي الحسيني فيكون سيدي أحمد عزّ الدين الصياد رضي الله عنه جد سيدي عز الدين أبي حمرة لأبيه .
ولقب رضي الله عنه بـ (أبي حمرة) لأنه كانت عنده بنت اسمها حمرة ، وقيل لأنه كانت عنده فرس حمراء .
(وقبيلة "النعيم" هي واحدة من القبائل التي سكنت منطقة الجولان في بدايات القرن الخامس عشر الهجري تقريباً، تنتشر قبيلة "النعيم" في سورية والعراق والإمارات العربية المتحدة والأردن والسعودية وعُمان وقطر والكويت وفلسطين ولبنان ومصر وليبيا وتركيا
ويعود نسب قبيلة "النعيم "إلى سيدنا "الحسين بن علي أبي طالب"رضي الله عنه ، وجدّ العشيرة السيد "موسى ابن أحمد الصياد "الملقب "بالنعيم"، ابنه السيد "عز الدين أبو حمرة" المدفون بمحافظة "حمص" بقرية "عزالدين" التي سميت باسمه) [١] اهـ
وقد ولد السيد أحمد عز الدين الصياد رضي الله عنه سنة ٥٧٤ هـ قبل وفاة جده لأمه السيد أحمد الرفاعي الكبير بأربع سنوات ، وأمه السيدة زينب بنت الإمام أحمد ، وكان يقال له في الشام : (أبو علي) ، وفي اليمن : (أبو الخير) ، وتوفي سنة ٦٧٠ هـ ، ودفن في قرية متكين المعروفة في زمننا بـ (خان شيخون) وهي من أعمال حماة
واشتهر بالصياد لأن كل من حضر مجلسه انجذب قلبه إليه ولازمه ، لذلك قالوا عنه : (صياد القلوب) ، وكان بعضهم يقول عنه :
(صياد المناقب والمَفاخر) .
وروى عن الإمام الرفاعي الكبير جُلّ أوراده وأدعيته في كتاب سمّاه :
(السير والمساعي في أوراد سيدي الرفاعي رضي الله عنه)
وقد أعاد الشيخ الإمام طباعته مرات عديدة والحمد لله

---

[١] ما بين قوسين هو من كلام الشيخ "رضوان محمد حمد الطحان" شيخ قبيلة "النعيم" بالجولان

وقد وهب الله للإمام الرفاعي رضي الله عنه بنتين :
الأولى هي السيدة فاطمة ذات النور ، تزوّجها السيد علي مهذّب الدولة فأنجبت سيدي إسماعيل الكيالي [1]
والثانية هي السيدة زينب ، تزوجها السيد عبد الرحيم ممهّد الدولة فأنجبت سيدي أحمد عز الدين الصياد ، فيكون سيدي إسماعيل الكيالي و سيدي أحمد عز الدين الصياد يكونان ابنَي خالة .
وإن شيخنا الإمام عبد الله سراج الدين صياديّ ، رفاعي النسب ، وكيّالي ، رفاعي الطريقة ، كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى
قال شيخنا الإمام :
ورأى بعض أولادي في المنام أن باب بيتنا يُطرق فأسرع وفتحه ، فإذا النبي صلى الله عليه وسلم يريد زيارتنا وتشريفنا ، فأسرع ولدي ليخبرني بذلك فقال له النبي صلى الله عليه وسلم :
تعال يا ولدي ، تعال يا ولدي ، تعال يا ولدي .
وقد رأيت جملة من البشائر تثبت نسبنا إليه صلى الله عليه وسلم
وقد كان جدي السيد محمد سراج الدين رحمه الله تعالى يُعرف بين أصحابه بلقب : فخر الأشراف ، والأشراف هم الذين ثبت نسبهم إلى رسول الله . اهـ
قلت : وقد ثبت نسبنا الطيب الطاهر إلى النبي صلى الله عليه وسلم بالأدلة النقلية والبشائر المنامية منها : أن الشيخ تاج الدين الصيادي نقيب أشراف حلب سابقاً قد ذكر لنا أن شجرة نسبنا الواسعة عنده [2]
وذكر لنا بعض أصحابنا من أهل النسب أن نسبنا عندهم
وكان السيد يوسف سراج الدين بن السيد محمد يرسل إلى والده رسائل يُطلعه فيها على أمور تجارية عاملاً بنصحه فيصدّر تلك الرسائل بقوله :
إلى والدي فخر الأشراف السيد الحاج محمد .
كما أنه ثبَت نسب مولانا الوالد إلى سيدنا رسول الله من جهة أمه السيدة الفاضلة خديجة بنت الشيخ وحيد آل مكتبي ، لأن آل مكتبي ثابت نسبهم إلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أيضاً .

---

[1] وسمي السيد إسماعيل بـ (الكيالي) لأنه حصل في قريته جدب وقحط شديد ، فاستغاث به أهل قريته ، وكان إلى جواره كيل فقال للكيل : (كِل بإذن الله) ، فجعل يكيل للناس حتى اكتفوا ، ولم ينفد ما عنده رضي الله عنه ، وقد توفي سنة ٦٨٥ هـ ودفن في قرية شمال حلب تسمى (ترنبة) على طريق باب الهوى .
[2] قلت : وقد أخبرني بذلك مرات عديدة سنة ١٣٩٧ هـ ، وقد توفي الشيخ تاج الدين الصيادي في عمان سنة ١٤١٦ هـ تقريباً

وبهذا يكون شيخنا رضي الله عنه قد جمع بين الحسب والنسب ، فالنسب هو طهارة الأصل وطيبه ، والحسب هو التحلّي بالفضائل والمكارم ، فهو رضي الله عنه ذو حسب ونسب ، والحمد لله رب العالمين .
ومما سمعناه من مولانا الوالد في هذا الباب أن السيد المرحوم صادق بن عبد الوهاب آل فنصة [1] - وكان من المقربين لسيدي الشيخ أحمد الترمانيني رضي الله عنه - أنه لما أراد الزواج استشار سيدي الترمانيني أن يتشرف بزواجه بامرأة من آل بيت سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأشار عليه الشيخ أن يطلب يد بنت الحاج محمد سراج الدين ، وقال له :
إن آل سراج الدين هم من أهل النسب والحسب .
وعمِل السيد صادق آل فنصة بنصيحة شيخنا الترمانيني ورزقه الله ذرية صالحة .
وإن العبرة في ثبوت النسب إما بالاستفاضة والشهرة بين طبقات النّسّابة والعلماء ، وإما بالتوثيق بما يؤكد ذلك ، وكلاهما حاصل والحمد لله رب العالمين
فائدة :
يطلق على كل من ثبت نسبه إلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : (السيد) واشتهر هذا في بلاد الشام والحجاز .
وهو مأخوذ من قوله صلى الله عليه وسلم عن الحسن رضي الله عنه :
[إن ابني هذا سيد] [2]
وأما في مصر فقد تعارف أهل مصر على إطلاق كلمة : (الشريف) على من ثبت نسبه إلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهي مأخوذة من الشرف وهو : علو الرتبة والمنزلة ، أو عُلوّ المكان ، ومنه كلمة : (الشّرفة) فهي عالية وتشرف على غيرها ، وقد اجتمعت هذه المعاني كلها في آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم .

[1] المتوفى سنة ١٣٥٨ هـ رحمه الله
[2] طرف حديث في صحيح البخاري كتاب الفتن وسنن أبي داود كتاب السنة وسنن الترمذي كتاب المناقب

وتعارف أهل اليمن على إطلاق كلمة (الحبيب) على من ثبت نسبه إلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقصدُهم من الحبيب أي المحبوب لأنه من أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإن حب آل البيت آية وعلامة على حب رسول الله صلى الله عليه وسلم كما قال صلى الله عليه وسلم :

[أحبّوا الله لما يَغْذوكم به من نعمه ، وأحبّوني لحب الله ، وأحبوا أهل بيتي لحبّي] [1]

[1] رواه الترمذي في سننه في كتاب المناقب والحاكم في المستدرك عن ابن عباس رضي الله عنهما

ترجمة موجزة لبعض السادة الأعلام الذين جاء ذكرهم في النسب الطاهر رضي الله عنهم أجمعين

١- سيدنا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب : رضي الله عنه وكرّم وجهه
عمره : ٦٣ سنة .
مولده : ولد بالبيت الحرام بمكة المكرمة يوم الجمعة في اليوم الثالث عشر من شهر رجب السنة العاشرة قبل البعثة النبوية ، وهو أول هاشمي وُلد من هاشميين .
أمه : فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف رضي الله عنها .
كنيته : أبو الحسن.
ألقابه :
١- الأمين : لبقائه في مكة لرد الأمانات التي كانت عند سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم.
٢- أبو تراب : كنّاه به النبي صلى الله عليه وسلم (كما في الصحيحين) .
٣- أمير المؤمنين .
٤- المرتضى .
٥- الإمام .
٦- المجتبى .
مات رضي الله عنه شهيداً ليلة الجمعة ٢١ رمضان سنة ٤٠ هـ بالكوفة.

٢- سيدنا الحسين : السبط الشهيد رضي الله عنه :
عمره : ٥٦ سنة و٥ أشهر
مولده: سنة ٤ هـ وكان بين ولادة أخيه سيدنا الحسن رضي الله عنه والحمل به ٥٠ يوماً وقيل : غير ذلك .
أمه : السيدة البتول فاطمة الزهراء بنت سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وسميت بـ : (فاطمة) لأن الله تعالى فطمها وفطم من أحبّها عن النار [1] .

---

[1] كما في كنز العمال معزواً إلى الديلمي عن أبي هريرة رضي الله عنه وهو في تاريخ بغداد للخطيب البغدادي عن ابن عباس رضي الله عنهما .
قلت : ويشهد لذلك ما رواه الشيخان أن النبي الكريم صلى الله عليه وسلم قال في حق السيدة فاطمة رضي الله عنها : [فاطمة بضعة مني] - بضعة : بفتح الباء وسكون الضاد أي : قطعة .
وقال صلى الله عليه وسلم للسيدة فاطمة رضي الله عنها :
[أمَا ترضين أن تكوني سيدة نساء أهل الجنة أو نساء المؤمنين] ؟

كنيته : أبو عبد الله.
ألقابه :
١- سيد شباب الجنة : قاله سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم - كما في مسند الإمام أحمد وسنن الترمذي وابن ماجه - .
٢- السبط .
٣- الشهيد .
مات رضي الله عنه شهيداً : سنة ٦١ هـ في كربلاء.

٣- سيدنا علي زين العابدين بن الحسين:
عمره : ٦٢ سنة .
مولده : سنة ٣٣ هـ
أمه : السيدة شهربانو بنت يزدجرد كسرى الفرس.
واسمها يعني في اللغة العربية : (ملكة النساء) .
كنيته :
١- أبو محمد .
٢- أبو الحسن .
ألقابه :
١- زين العابدين : لاجتهاده في العبادة.
٢- السجّاد : لكثرة سجوده .
٣- علي الأصغر : لأنه الابن الثاني لسيدنا الحسين الذي أطلق عليه اسم علي .
توفي رضي الله عنه : يوم السبت ٩٥/١/١٨ هـ بالمدينة المنورة ، ودفن في البقيع.

وفي رواية : [يا فاطمة ألا ترضين أن تكوني سيدة نساء المؤمنين أو سيدة نساء هذه الأمة] ؟
وروى الترمذي في سننه والطبراني في معجمه الكبير وغيرهما عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
[أحبوا الله لما يغذوكم من نعمه وأحبوني بحب الله وأحبوا أهل بيتي بحبّي]
وجاء في سنن الترمذي أيضاً قوله صلى الله عليه وسلم :
[ومن أحبني كان معي في الجنة]

٤ـ سيدنا محمد الباقر بن علي زين العابدين:
عمره : ٥٧ سنة.
مولده : ولد بالمدينة يوم الثلاثاء وقيل الجمعة ١ / ٧ / ٥٧ هـ
أمه : السيدة فاطمة بنت الحسن بن علي بن أبي طالب.
كنيته : أبو جعفر .
ألقابه:
الباقر :
ـ قال في مختار الصحاح :
التبقّر : التوسع في العلم ، ومنه لقّب سيدنا محمد بـ (الباقر)
لتبقّره في العلم ـ .
توفي رضي الله عنه : سنة ١١٤ هـ بالمدينة المنورة ودفن في البقيع.

٥ـ سيدنا جعفر الصادق بن سيدنا محمد الباقر:
عمره : ٦٥ سنة.
مولده : بالمدينة فجر الجمعة ويقال الاثنين ٢٠ / ٣ / ٨٣ هـ.
أمه : السيدة فروة بنت القاسم بن محمد بن سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنهم أجمعين
كنيته : أبو عبد الله .
ألقابه :
الصادق .
توفي رضي الله عنه : يوم الاثنين ١٥ / ٧ / ١٤٨ هـ بالمدينة المنورة ، ودفن في البقيع.

٦ـ سيدنا موسى الكاظم بن جعفر الصادق:
عمره : ٥٥ سنة .
مولده : بالأبواء ، الثلاثاء ٣ / ٢ / ١٢٨ هـ وقيل سنة ١٢٩ هـ.
أمه : السيدة حميدة
كنيته :
١ـ أبو الحسن .
٢ـ أبو ابراهيم
ألقابه:
١ـ الكاظم : لفرط حلمه وتجاوزه عن المعتدين عليه ، فكان كاظماً يجازي المسيء بإحسانه اليه ويقابل الجاني بعفوه عنه .

٢- العبد الصالح : لكثرة عبادته .
توفي رضي الله عنه : مسموماً بسجن الرشيد يوم الجمعة ٢٥ / ٧ /١٨٣ هـ ببغداد ودفن في مقابر قريش [1] .

٧- سيدنا إبراهيم المرتضى بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق:
أمه : السيدة نجيّة
كنيته :
١- أبو يحيى .
٢- أبو محمد .
ألقابه:
١- المرتضى .
٢- أمير اليمن .
٣- الأكبر .
٤- المجاب .
٥- الهادي إلى الله .
٦- الأمير .
ولد رضي الله عنه في المدينة المنورة عام ١٤٦ هـ وتوفي في بغداد عام ٢٠٩هـ
وعليه: أجمع النسابون ان إبراهيم المرتضى هو ابن موسى الكاظم وأعقب موسى الثاني أبا سبحة
٨- سيدنا موسى أبو سبحة بن إبراهيم المرتضى بن موسى الكاظم:
كنيته:
١- أبو الحسن .
٢- أبو يحيى .
ألقابه :
١- الأصغر .
٢- الثاني .
٣- أبو سبحة .

---

[1] الحضرة الكاظمية هي ضريح الامام موسى الكاظم وحفيده الإمام محمد الجواد، بنيت فوق قبرهما في منطقة الكاظمية في بغداد ، كان هذا الموقع في العصر العباسي مقبرة تسمى (مقبرة قريش) وقد دفن فيها الكثير من الرموز الدينية والعلمية .

٤- رئيس بغداد .
توفي رضي الله عنه : سنة ٢١٠ هـ ببغداد ، ودفن بالقرب من جده موسى الكاظم رضي الله عنهما في مقابر قريش .

٩- سيدنا أحمد الأكبر بن موسى أبي سبحة بن إبراهيم المرتضى :
كنيته : أبو عبد الله .
ألقابه:
١- الأكبر .
٢- الصالح .
٣- أبو الفضائل .
توفي رضي الله عنه : سنة ٢١٦ هـ ببغداد ودفن وراء مشهد جده موسى الكاظم رضي الله عنهما في مقابر قريش.

١٠- سيدنا حسين الرضى بن أحمد الأكبر بن موسى أبي سبحة :
وله اسم أخر لم يشتهر به هو : عبد الرحمن .
كنيته : أبو عبد الله .
ألقابه:
١- الرضى .
٢- محدّث بغداد .
٣- المحدّث .
توفي رضي الله عنه : سنة ٢١٩ هـ ببغداد ودفن في مقبرة القطيعة ببغداد.

١١- سيدنا قاسم بن حسين الرضى بن أحمد الأكبر :
كنيته : أبو موسى.
ألقابه :
١- الحسن .
٢- رئيس بغداد .
٣- شيخ بنى هاشم .
٤- نزيل مكة (المكي) .
توفي رضي الله عنه : سنة ٢٢٦ هـ في مكة المكرمة
وقيل : إن وفاته كانت سنة ٢٤٦ هـ .

١٢- سيدنا محمد أبوالقاسم بن قاسم بن حسين الرضى :
كنيته: أبو القاسم.
ألقابه :
١- البغدادي (ولد ببغداد ونزل مكة مع أبيه حسن القاسم) .
٢- المكي .
توفي : سنة ٢٦٥ هـ في مكة المكرمة.
وعليه: فإن أبا القاسم محمد هو ابن قاسم الملقب بـ الحسن ، وأعقب السيد (مهدياً) وحده.

١٣- سيدنا مهدي بن محمد أبي القاسم بن قاسم:
كنيته : أبو رفاعة.
ألقابه :
١- التقي .
٢- الزكي .
٣- المكي : لولادته ونشأته ووفاته في مكة .
توفي رضي الله عنه : سنة ٢٩١ هـ في مكة المكرمة.
وعليه: فإن المهدي هو ابن محمد المكي وأعقب رفاعة الحسن المكي .
١٤ - سيدنا رفاعة الحسن المكي بن مهدي بن محمد أبي القاسم :
كنيته : أبو علي ، وأبو محمد.
ألقابه:
١- الحسن .
٢- أبو المكارم .
٣- الأصغر.
٤- النّقي .
٥- التّقي .
٦- المكي .
٧- الإشبيلي .
مولده : بمكة سنة ٢٨٠ هـ .
هاجر من مكة إلى إشبيلية في بلاد الأندلس عام ٣١٧ هـ
توفي رضي الله عنه : سنة ٣٣١ هـ في إشبيلية ودفن في مقابر قريش.

١٥ - سيدنا علي بن رفاعة الحسن المكي بن مهدي :
ألقابه:
١- المكي .
٢- الإشبيلي : لنشأته في إشبيلية بالأندلس.
٣- أبو الفضائل المغربي .
٤- الصالح .
أمه : السيدة نبهاء بنت أحمد بن علي بن عبد الله بن عمر بن إدريس الأصغر بن إدريس الأكبر ملك المغرب .
توفي : سنة ٣٥٣ هـ في إشبيلية ودفن في مقابر قريش.
وعليه: فإن علياً الإشبيلي هو ابن رفاعة الحسن المكي وأعقب السيد أحمد.

١٦- سيدنا أحمد المرتضى بن علي الإشبيلي بن رفاعة الحسن المكي:
كنيته : أبو علي .
ألقابه :
١- المرتضى .
٢- ابن رفاعة .
توفي رضي الله عنه : سنة ٣٧٠ هـ في إشبيلية ودفن في مقابر قريش .

١٧ - سيدنا حازم بن أحمد المرتضى بن علي الإشبيلي :
يسمى : (علي) أيضاً .
كنيته: أبو عبد الله
ألقابه :
١- علي أبو الفوارس .
٢- ابن رفاعة المكي .
توفي رضي الله عنه : سنة ٣٨٥ هـ في إشبيلية ودفن في مقابر قريش.
وعليه: فإن أبا الفوارس هو علي الحازم ابن أحمد المرتضى واسمه حازم ويطلق عليه أحياناً الحازم علي أبو الفوارس .

١٨- السيد علي أبو الحسن والد السيد إسماعيل الرفاعي :
له ثلاثة أعقاب وهم :
١- الغوث الكبير أحمد الرفاعي : وأعقب صالحاً قطب الدين وتوفي في عهد أبيه ولم يعقب، والسيدة فاطمة ذات النور وتزوجت ابن عمها علي مهذّب الدولة ، والسيدة زينب وتزوجت ابن عمها عبد الرحيم ممهّد الدولة

٢- السيد سيف الدين عثمان وأعقب علياً مهذب الدولة وعبد الرحيم ممهد الدولة زوجي ابنتي الغوث الكبير سيدي أحمد الرفاعي
٣- السيد إسماعيل الصالح وله أربعة أعقاب وهم :
محمد جميل وهودفين حماة وله ابن يدعى السيد نور الدين
والعقب الثاني نعيم وهو جد النعيم وهو والد السيد عز الدين الذي يملك سبعة أعقاب وليس ثمانية وهم :
(محمد - عبد الرحيم - موسى - منصور- عبد الوهاب - عثمان - يوسف)
والعقب الثالث هو السيد فرج وله ابنة تدعى السيدة حسيبة وله عقب ولد واحد اسمه : حياة .
والعقب الرابع : وهو عز الدين ولم يعقب إلا ابنة واحدة تدعى حمرة وهو عم السيد عز الدين جد النعيم والله أعلم ، وهذا بالشهود والدلائل فعز الدين جد النعيم الأشراف السادة هو ابن السيد نعيم بن السيد أحمد بن السيد إسماعيل الصالح أخ الغوث الرفاعي أكرمه الله ورضي عنه

١٩- سيدنا عز الدين أحمد الصياد
عمره : ٩٦ سنة
مولده: سنة ٥٧٤ هـ في واسط بالعراق.
كنيته : أبو علي ، ويقال أبو علي الصياد.
ألقابه:
١- عز الدين .
٢- أبو الخير .
٣- الصياد .
٤- أبو القاسم .
٥- الكبير.
توفي رضي الله عنه : سنة ٦٧٠ هـ في متكين بسوريا وهى تعرف بـ (قرية الصياد) الآن بعد أن اندثرت معالم قرية متكين ، وقرية الصياد الحالية تابعة لمحافظة حماة السورية .

حول خلقه وخلقه

لقد جبل الله تعالى شيخنا الإمام رضي الله عنه منذ صغره على خُلُق الحِلم والأَناة في أقواله وأفعاله [1] ، وكان لا يُقْدِم على أمر إلا بعد أن يفكر فيه مليّاً وينظر في عاقبته وما ينشأ عنه من أثر ، وكان البرّ والإحسان إلى والديه الكريمين رحمهما الله تعالى دَيْدنَه وغاية اهتمامه ، كما حكى عنه ذلك مولانا الشيخ محمد نجيب لأحبابه ، وكذا والدته الكريمة رحمها الله التي كان يقوم بتأمين ما تطلبه من متاع واحتياجات المنزل .

وكل ذلك لم يؤخّره أو يُلكّئه عن الجدّ في طلبه العلم ، ومواظبته على دوامه في المدرسة الخسروية ، حيث كان ينظّم أوقاته على شكل مَرْضيّ يعطي كل ذي حق حقه وكل وقت ما يتطلبه منه .

وكان رضي الله عنه طيب القلب ، زكي النفس ، محباً للمسلمين ، متواضعاً لا ينسب لنفسه شيئاً ، ولا يرى لنفسه فضلاً على أحد .

وكان يكرر قوله :

أنا معلّم للقرآن الكريم والحديث الشريف .

كان رضي الله عنه صبوراً يتحمل الأذى والمشقات والآلام بنفس راضية وثقة عظيمة بالله تعالى ، وفيّاً لا ينسى الفضل لأصحابه ، وهذا ما تجلى في تعامله مع أساتذته بتوقيره وإجلاله لهم وتأدبه معهم .

كان كريم النفس سخيّ اليد ، جواداً مِعطاء كثير البذل لا يردُّ سائلاً ، حادّ الذكاء متوقّد الذهن سريع البديهة ، وفي الجملة فما من خصلة من خصال الخير إلا وهو متصف بها .

---

[1] وهذان الخلقان جاء فضلهما عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي قال فيه للأشج - أشجّ عبد القيس المنذر بن عائذ- : إن فيك خصلتين يحبهما الله : الحلم والأناة - كما في صحيح مسلم - والحديث في سنن أبي داود وابن ماجه ومسند الإمام أحمد بزيادة : فقال الأشج : قال يا رسول الله أنا أتخلّق بهما أم الله جبلني عليهما ؟ قال : بل الله جَبَلَك عليهما ، قال الحمد لله الذي جبلني على خُلّتين يحبهما الله ورسوله .

أما من حيث خَلْقه وطلعته البهية فقد كساه الله تعالى حلّة الجمال في السمْت والهيئة ، فكان معتدل القامة جميل الوجه أبيض اللون مشرباً بحمرة ، أزرق العينين ، واسع الجبهة ، سهل البطن ، وكان أشقر الشعر لم يتساقط من شعره رغم تقدم سنه إلا القليل ، لحيته كثيفة كثّة [1] ، طولها يوافق السنة الشريفة ، وقد شابت على نحو مميز إذ لم يظهر فيها البياض المعروف ، وإنما ظهر اللون الفضي ، وكان مولانا الوالد رضي الله عنه يعزو ذلك إلى أنه مرّغ وجهه بقدمي سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الشريفتين عندما انكبّ عليهما يقبّلهما في رؤيا منامية [2] - أخبرنا بها رضي الله عنه - وسيأتي ذكرها.

وكان أشبه الناس بوالده الشيخ محمد نجيب رضي الله عنه - كما ذكر ذلك من عاصر جدي سيدي الشيخ محمد نجيب وعاصر والدي سيدي الشيخ عبد الله رضي الله عنهما ، وذكر ذلك من لم يدرك الشيخ في حياته ورأى رسمه [صورته] وحكم بالتشابه الواضح بينهما .

أما صورته واقفاً لما تقدمت به السن وظهر بعض احديداب في ظهره وجعل يحمل العصا - اتباعاً للسنة أولاً ، وله فيها مآرب أخرى حيث كان يقول : إنها تقرّب البعيد وتُبعد القريب - .

---

[1] قال في لسان العرب :
لحية كثة : كثرت أصولها وكثفت وقصرت وجعدت فلم تنبسط . اهـ .

[2] روى الإمام أحمد في مسنده واللفظ له وابن حبان في صحيحه والحاكم في مستدركه عن أبي زيد عمرو بن أخطب الأنصاري رضي الله عنه قال :
استسقى رسول الله صلى الله عليه وسلم ماء فأتيته بقدح فيه ماء ، فكانت فيه شعرة فأخذتها ، فقال صلى الله عليه وسلم : اللهم جمِّلْه
وفي المسند أيضاً أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : ادن مني ، فمسح بيده على رأسه ولحيته ، ثم قال : اللهم جمِّلْه وأَدِمْ جماله
قال : فلقد بلغ بضعاً ومائة سنة وما في رأسه ولحيته بياض إلا نبذ يسير ، ولقد كان منبسط الوجه ، ولم ينقبض وجهه حتى مات .

فكان الذين ينظرون إليه من بعيد وهو يحمل العصا بيده يشبهونه برسم الشيخ المحدث بدر الدين الحسني رضي الله عنه [1] والشيخ علي العمري الكبير [2] وحقّ لهم أن يشبهوا مولانا بأمثاله من مشاهير العلماء والأولياء رضي الله عنهم أجمعين .

وكان من كلامه رضي الله عنه : إن في احديداب ظهر الإنسان إذا تقدمت سنه تحقيقاً لقوله تعالى :{ ومن نعمره ننكّسه في الخلق }

أي في التخليق فيظهر على هيئة جسم الإنسان الاحديداب في الظهر مثلاً ، وفيه إشارة إلى الميل إلى الأرض التي منها خلقه الله وإليها سيعيده ثم يُخرجه منها تارة أخرى ، فيحنّ إلى أصله الترابي ، بينما تسمو روحه وتعلو إلى أصلها العلوي الملكوتي ، فيحمل العصا بحيث يصير بجملة سَمْته كالقوس والرمح ، وفيه معنى الصلوحية والجاهزية المطلقة للانطلاق حيث مراد الله له .

ولم يقارب الصواب من جنح في تشبيه شيخنا الإمام رضي الله عنه بأمير الشعراء أحمد شوقي [3] رحمه الله تعالى - رغم صلاحه وأشعاره في الحكمة ومدائح النبي صلى الله عليه وسلم - إذ لم تكن له لحية ولا عمّة وكان حليق الذقن فلا أدري ما وجه التشابه بينهما ؟!! .

---

[1] محدث الديار الشامية الأكبر سيدي محمد بدر الدين بن يوسف بن بدر الدين الحسني المتوفى سنة ١٣٥٤ هـ رضي الله عنه

[2] سيدي الشيخ علي العمري الشاذلي الطرابلسي ، هو من سلالة سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وكان رضي الله عنه على جانب عظيم من كمال الصفات والتواضع لجميع خلق الله تعالى ، وقد توفي رضي الله عنه سنة ١٣٢٢ هـ في طرابلس الشام ودفن فيها

[3] الشاعر المصري المعروف الملقب بـ (أمير الشعراء) المتوفى سنة ١٣٥١ هـ رحمه الله

زواجه الطيب المبارك ـ أولاده

كان السيد الحاج محمد بن صالح بن حسين ططري الحسيني [1] ممن يحضر دروس مولانا الشيخ محمد نجيب سراج الدين رضي الله عنه ، وكان لا يألو جهداً في دعوة الشيخ رضي الله عنه لزيارته في داره الكائنة في محلة باب الأحمر ، وهي دار واسعة فسيحة تتوسطها بركة ماء جميلة المنظر ، ذات شكل هندسي عجيب ، وتتضمن الدار اثنتي عشرة غرفة ما بين أرضية وعلوية ، وقد حقق الشيخ محمد نجيب مراده وزاره في بيته ، وسُرّ عنده وانشرح صدره لحسن استقباله وكريم ضيافته للشيخ ومن معه من أحبابه ، وظل الحاج محمد رحمه الله يلحّ على الشيخ في تكرار زيارته حتى استجاب الشيخ محمد نجيب رضي الله عنه له ، وأخذت الزيارة طابعاً دورياً منتظماً كل أسبوع أو عشرة أيام ، وكان يحضر فيها معه الشيخ محمد سعيد الإدلبي الرفاعي [2] رضي الله عنه ، وجمع من الأحباب ، وفرقة المنشدين برئاسة السيد الشيخ بكري الكردي [3] ومعه الشيخ أحمد السمان المدني [4] والحاج محمد بن علي فتال [5] وغيرهم

قلت : ولم تكن مجالس الشيخ محمد نجيب رضي الله عنه الخاصة وسهراته عند أحبابه لم تكن تخلو من المنشدين أهل التقى والصلاح ، فكان إذا فرغ من كلامه الذي فيه بيان معاني آيات الله أو أحاديث سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أشار إلى المنشدين ليبدؤوا بالأناشيد الدينية والمدائح النبوية والقصائد التي فيها ذكر شمائله الشريفة صلى الله عليه وسلم ، وكان الحاج مصطفى طراب مشهوداً له بحسن أدائه القصيدة الطويلة .

---

[1] المتوفى سنة ١٣٧٧ رحمه الله رحمة واسعة

[2] هو الشيخ محمد سعيد بن الشيخ أحمد بن الشيخ محمد بن الشيخ عبد القادر الإدلبي الرفاعي الشافعي الحلبي المتوفى سنة ١٣٧٠ هـ رحمه الله تعالى ورضي عنه

[3] الشيخ بكري الكردي من أعلام مدينة حلب في الألحان الدينية من مواليد مدينة حلب عام ١٣٢٧ هـ وتوفي سنة ١٣٩٩ هـ وكان اسمه باكير مصطفى لكن غيّر اسمه لمحبته للشيخ أحمد الكردي الكبير

[4] الشيخ أصله من المدينة المنورة ، وقد نال شرف الأذان في المسجد النبوي الشريف لسنوات عديدة ، وتوفي في المدينة المنورة سنة ١٤٠٢ هـ ودفن في البقيع ، رحمه الله رحمة واسعة

[5] المتوفى سنة ١٤١٩ هـ رحمه الله رحمة واسعة

وأخبرني الشيخ عبد القادر راجح - رديف - [1]أنه لما صحبه والده الشيخ محمد راجح – رديف - إلى مجلس الشيخ محمد نجيب رضي الله عنه أول مرة عرّفه إلى الشيخ فدعا له ، ثم أشار إليه أن يشرع بقصيدة يمدح فيها سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم

قال : فاستحييت واحمرّ وجهي وعرِقت ولم يجر على لساني إلا قصيدة مطلعها :

طارَ نحوَ الحَبيبِ شُحْرورُ قلبي بِجناحِ الغرامِ والأشْواقِ [2]

فالتفت الشيخ محمد نجيب إلى الشيخ رديف مبتسماً وقال له :

ولدك - حفظه الله - طيار منذ صغره .

وفيه إشارة من سيدنا الشيخ محمد نجيب إلى أن الشيخ عبد القادر سيبلغ رتبة عالية في الإنشاد وفي أشغال الذكر ، وهذا ما حصل بعد ذلك فلم يكن يمر يوم إلا وله فيه حصة من ذكر أو مولد في النهار أو بين المغرب والعشاء أو بعد العشاء .

قلت : وكان مولانا الوالد رضي الله عنه يحضر مجالس والده الشيخ محمد نجيب رضي الله عنه كلها ، وقد أَمَرَه الشيخ محمد نجيب أمره مرة أن يرتل آيات من كتاب الله تعالى ، فقرأ شيخنا الإمام رضي الله عنه بصوت ندي ولحن شجي ، لَفَتَ الحاضرين وأخذ بمجامع قلوبهم حتى خشعت قلوبهم وظهر أثر ذلك عليهم ، وكان المجلس في دار الحاج محمد ططري رحمه الله تعالى ولم يبلغ الوالد عندها العشرين عاماً من عمره المبارك .

ثم إن الشيخ محمد نجيب رضي الله عنه عرض على مولانا الوالد الزواج من السيدة فاطمة كريمة الحاج محمد ططري وذكر له من نسبهم وحسبهم [3]

---

[1] عُرف الشيخ عبد القادر رديف بعلمه بموشحات وأناشيد الأذكار في مدينة حلب ، وتلقى هذا الفن عن والده رديف رحمه الله تعالى حيث كان رئيساً للمنشدين في وقته ، وقد توفي الشيخ عبد القادر رديف سنة ١٤١٧ هـ أما والده محمد راجح المعروف بالشيخ رديف فتوفي سنة ١٣٩٣ هـ رحمهما الله

[2] وهي للإمام بهاء الدين الرواس رضي الله عنه

[3] قلت : وإن آل ططري أهل نسب إلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن طريق سبطه سيدنا الحسين رضي الله عنه ، وفي شجرة نسبهم كانوا آل جمال الدين لكن أحد أجدادهم قرّبه أحد سلاطين بني عثمان وعمل عنده لنقل الرسائل من وإلى السلطنة ، فسمي ططري ودرج هذا اللقب عليهم ، وإن نسب آل ططري موجود عندنا ، كما أن هناك تصديقاً على صحته من السلطان رشاد رحمه الله تعالى ، وإن أحد أجدادهم مدفون في جامع المستدامية وله مزار واسمه السيد جمال الدين النفيس وقد توفي سنة ٨٥٤هـ رحمه الله وقد أنشأ المدرسة المستدامية يحيى بن جعفر

وصدقهم وإخلاصهم .
قال مولانا الوالد : ولم يكن أمر الزواج يخطر ببالي ، حيث إنني مشغول بطلب العلم ، ولم تتهيأ لدي أسباب الزواج بعد من دار ومتاع ومورد ، ولكنني أعلم يقيناً أن والدي الكريم إذا أشار علي بأمر فالخير كل الخير فيه ، لأنه لا يتكلم به إلا عن إلهام ونور كاشف ، ومرت أيام وفكري يجول فيما قاله لي والدي رضي الله عنه ، وفي إحدى الليالي رأيت في منامي السيد الحاج محمود كريم وقال لي :
أنا الآن قدِمت من عند سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو يأمرك أن تتزوج السيدة فاطمة التي أشار إليها والدك .
فلما قصصت الرؤيا على والدي قال لي :
انتظرتَ حتى جاءك الأمر من سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم !
قال مولانا الوالد رضي الله عنه : فامتثلت الأمر وتم بحمد الله وتوفيقه وبركته ، وتزوجت من السيدة فاطمة آل ططري بنت الحاج محمد رحمه الله تعالى وسكنت في دار الوالد الواسعة .
وكانَ ما كانَ مِمّا لَستُ أَذكُرُهُ فَظُنَّ خَيراً وَلا تَسأَل عَنِ الخَبَرِ
قال أبو الفرج غفر الله له : وقد أكرمني الله برؤية سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام جالساً على أريكة ، وأمامه منضدة فوقها إناء فيه تفاحة كبيرة إلى جانبها سكين ليقطع بها التفاحة ، وعلمت في المنام أنه صلى الله عليه وسلم سيشرّف حفل زفاف الشيخ عبد الله سراج الدين من السيدة فاطمة ططري ، وأنه سيقطع التفاحة نصفين ليطعم كلاً منهما ، والحمد لله على هذه البشارة الطيبة المباركة .
ويرحم الله القائل :
إن بيتاً أنت ساكِنُهُ غيرُ محتاجٍ إلى السُرُجِ
وعليلاً أنت عائدُهُ قد أتاه الله بالفرجِ
وجهُك المأمولُ حجَّتُنا يوم يأتي الناسُ بالحُججِ
أما عن أولاد مولانا الوالد الشيخ الإمام رضي الله عنه فقد وهب الله تعالى له تسعة أولاد ، خمسة ذكور وأربع إناث ، وإني أذكرهم على حسب ولادة كل منهم وأبدأ بالأكبر سناً ثم مَن بعده وهكذا

الدافعاني البغدادي سنة ٦٢٠ هـ وجدّدها مستدام بيك بن عبد السلام في عهد السلطان قانصوه الغوري .

١ـ السيدة حميدة : ولدت سنة ١٣٦٤ هـ ، سماها بهذا الاسم مولانا الشيخ محمد نجيب رحمه الله ودعا لها أن تكون محمودة عند أهل السماء والأرض ، والحمد لله هي حقاً كذلك حامدة ومحمودة ، لأن لفظ (حميد) على وزن (فعيل) يستوي فيه معنى الفاعل والمفعول .
فهي تتحلى بالأخلاق الطيبة يزينها الرفق والحلم والأناة ، تزوجت من ابن العمة أمدهما الله بقوته وعونه السيد الدكتور نور الدين بن الحاج محمد عتر [1]

والدكتور نور الدين أشهر من نار على علم في كليات الشريعة في دمشق وحلب وغيرهما من البلاد أطال الله بقاءه وعطاءه .
وفي أواخر الثمانينات من القرن الهجري الماضي لما أكمل الدكتور نور الدين دراسته وحصل على الدكتوراه وعاد إلى مدينة حلب - ولم يكن ثمة كلية شريعة إلا في دمشق - أراد أن ينفع طلاب العلم بتعليمه فتقدم بطلب للتدريس في كلية الشريعة في جامعة دمشق ولولا مساعي والدي الكريم وجهده الدؤوب لِقبول الدكتور نور الدين مدرّساً ما كان له ذلك ، ويندرج هذا في أعمال الشيخ الخيّرة وعطائه الواسع رحمه الله رحمة واسعة
٢ـ السيدة نجاة : ولدت سنة ١٣٦٥ هـ ، سماها مولانا الوالد بذلك لأنه بُشِّر بولادتها وكان يقرأ قوله تعالى : { ويا قوم مالي أدعوكم إلى النجاة } الآية ومن مزاياها الظاهرة عليها : السخاء والكرم والابتسامة التي تعلو محياها وإدخال السرور على من تراه مهموماً حزيناً ، تزوجت من ابن عمها السيد المرحوم الحاج منذر [2] بن محمد نور الدين سراج الدين رحمهما الله تعالى وعنيت برعاية وخدمة والدتنا الكريمة ولم تزل كذلك حتى وفاة السيدة الوالدة الكريمة أحسن الله إليها وجزاها خير الجزاء .
٣ـ السيد محمد نجيب : كناه مولانا الوالد بـ (أبي الخير) ، وسماه مولانا الوالد بهذا الاسم ليكون سميّ جده الإمام الشيخ محمد نجيب ، وقد توفي الجد رضي الله عنه وعُمر السيد محمد نجيب خمس سنوات ، فنال مسحاته ودعواته ، درس في الثانوية الشرعية ثم تابع العلوم الشرعية في جامعة الأزهر ،وحصل على الشهادة العالمية التي عرفت فيما بعد بـ (الدكتوراه) متخصصاً بالفقه المقارن وقد حقق كتاب :
(الإشراف على مذاهب أهل العلم) [3]

---

[1] وقد توفي الحاج محمد سنة ١٤٠٥ هـ رحمه الله
[2] المتوفى سنة ١٤٢٩ هـ رحمه الله
[3] مؤلفه محمد بن ابراهيم بن المنذر النيسابوري المتوفى سنة ٣١٨ هـ

نال شرف التدريس في المعهد الشرعي (الشعبانية) في حياة الإمام الوالد رحمه الله ، ولما لزم مولانا الوالد بيته سنة ١٤٠٧ هـ عهد إليه بإدارة المعهد الشرعي (الشعبانية) وكان يعمل بتوجيهات الوالد الأجلّ وتعاليمه رضي الله عنه .
وفي عام ١٤١٥ هـ أمرني سيدي الوالد رحمه الله تعالى أن أكون عوناً لأخي الشيخ محمد نجيب في إدارة المعهد وما يتعلق بذلك ، فالتزمت أمره وجعلت أواظب على الحضور إلى المعهد مع أخي بشكل شبه يومي ، نتدارس معاً قضايا المعهد ونعرض كل ذلك على مولانا الوالد رحمه الله تعالى ، وبقيت على ذلك حتى سنة ١٤٣٠ هـ بسبب ضرّ مسّني أعاقني عن القيام بشرف عملي في المعهد ، والله تعالى أسأل أن يقيل عثرتي ، ويوفقنا لما يحبه ويرضاه . آمين .
٤ ـ السيد أحمد يحيى : كناه الوالد بـ (أبي الفضل) وسماه بهذا الاسم عملاً بقوله صلى الله عليه وسلم [تسموا باسمي] [١] ، ولد عام ١٣٧٠ هـ ، درس العلوم الشرعية في الثانوية الشرعية ثم في جامعة الأزهر ، وحصل على شهادة الليسانس وكان ـ إضافة إلى دراسته ـ يعمل بالتجارة ، ثم إنه بعد رجوع والدي الكريم رضي الله عنه من مجاورته في المدينة المنورة إلى حلب تفرغ للعلوم الشرعية فنهل من والدي منهلاً عذباً روياً وله حلقات علمية في قراءة الحديث الشريف وعلومه .
كما أنه سابقاً كان قد تلقى علم القراءات عن الشيخ عادل حمصي [٢]

---

[١] طرف حديث رواه الشيخان عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما
[٢] الشيخ عادل عبد السلام حمصي أحد كبار شيوخ القراء في حلب ، تلقّى منظومة الطيبة في القراءات ـ وهي منظومة من بحر الرجز في القراءات العشر ناظمها الإمام ابن الجزري محمد بن محمد بن محمد بن علي بن يوسف، أبو الخير، شمس الدين، العمري الدمشقي ثم الشيرازي الشافعي، الشهير بابن الجزري: شيخ القراء في زمانه المتوفى سنة ٨٣٣ هـ رحمه الله
وقد عرض ابن الجزري في طيبة النشر ، للقراءات العشر الكبرى وهي قراءة نافع وقراءة ابن كثير وقراءة أبي عمرو وقراءة ابن عامر وقراءة عاصم وقراءة حمزة وقراءة الكسائي وقراءة أبي جعفر وقراءة يعقوب وقراءة خلف ، وسمى ابن الجزري قصيدته (طيبة النشر) لأنه نظمها وفق كتابه الشهير : (النشر في القراءات العشر) فهو أصلها وأساسها.
قرأ الشيخ عادل حمصي الطيبة على الشيخ محمد نجيب خياطة الحنفي فرضي حلب وشيخ قرائها المتوفى سنة ١٣٨٧ هـ رحمه الله ، كما أنه تلقى الشاطبية ـ وهي قصيدة لامية من البحر الطويل في القراءات السبع المتواترة، واسمها (حرز الأماني ووجه التهاني) ناظمها الإمام القاسم بن فيرة الشاطبي ـ نسبة إلى مولده بشاطبة في

رحمه الله ثم قرأ على الشيخ عبد العزيز عيون السود رحمه الله تعالى ، وكان الشيخ عبد العزيز يُسرّ لقراءته ويثني عليه ويرى فيه الكفاءة التامة لتلقي علوم القرآن الكريم وقراءاته وتعليمها .
٥- السيدة عائشة : ولدت سنة ١٣٧٣ هـ ، سمّاها مولانا الوالد بذلك تبركاً وتيمناً بأم المؤمنين زوج النبي صلى الله عليه وسلم حبيبة حبيب الله

الأندلس - الذي كان غاية في القراءات، حافظاً للحديث، بصيراً بالعربية، إماماً في اللغة، ووصفه تلميذه السّخاوي بأنه سيد العلماء المتوفى سنة ٥٩٠ هـ
وقد اعتمد الشاطبي في قصيدته على كتاب (التيسير في القراءات السبع) لأبي عمرو الداني، فاقتفى أثر أبي عمرو واقتصر على القراء السبع، وهم: نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي، ورواتهم الأربعة عشر، والطرق التي اعتمدها أبو عمرو الداني وقرأ بها على شيوخه، إلا أن الشاطبي زاد على ما في التيسير زوائد هامة وفوائد جمّة.
والدرّة هي :تتمّة القراءات العشر المتواترة المقبولة، حيث إن هذه القراءات الثلاث كانت معروفة ولربما كان يعتبرها البعض أشهر لكن ضعف الاهتمام بها ولم يتناولها علماء القراءات. كما تناولوا السبعة فتناولها ابن الجزريّ وأكد ثبوتها إلى قرائها وقبولها ، وجمعها أوّلا في كتاب (تحبير التيسير) ، حيث جمع الكتاب القراءات السبع حسب ما وجد في التيسير، وأضاف لها القراءات الثلاث هذه . وقد نظم هذه القراءات الثلاث في قصيدة (الدرة المضية) التي هي على نمط الشّاطبية من البحر الطويل ، حتى يسهل على الطالب الذي جمع القراءات السبع من طريق الشّاطبية إكمالها حتّى العشر بقصيدة من نفس الوزن.

تلقى الشيخ عادل حمصي الشاطبية عن الشيخ أديب شهيد الذي بدوره تلقاها عن الشيخ محمد نجيب خياطة وقد تلقى الشيخ أديب شهيد الطيبة من الشيخ عادل حمصي رحمهما الله وكان الشيخ الإمام رضي الله عنه استدعاهما لتدريس القراءات في دار تحفيظ القرآن الكريم وقراءاته التي أنشأها الشيخ الإمام سنة ١٣٩٨ هـ
وقد توفي الشيخ عادل حمصي رحمه الله سنة ١٤٣٣ هـ
أما الشيخ محمد ديب شهيد فولد في حلب سنة ١٣٤٤ هـ وكفله عمه الشيخ الصالح أحمد شهيد .
قرأ رواية حفص عن عاصم على الشيخ أحمد مصري .
وقرأ الشاطبية و الدرة على الشيخ محمد نجيب خياطة و أجازه الشيخ بهما وقرأ الطيبة على الشيخ عادل حمصي .
كان الشيخ إماماً في المدرسة الشعبانية، وكان شيخنا الإمام عبد الله سراج الدين لا يحب أن يناديه بكلمة (ديب) ويقول له : (أنت الأديب) .
توفي يوم الاثنين ١٤ ربيع الأول ١٤٣٣ هـ رحمه الله رحمة واسعة .

المبرّأة في كتاب الله السيدة الصديقة بنت الصديق سيدنا أبي بكر رضي الله عنه .
درست العلوم الشرعية في الثانوية الشرعية ، وأكملت المرحلة الإعدادية ثم تفرغت لخدمة ومساعدة والدتي رحمها الله ، إلى أن تزوجت من السيد محمد بن الحاج محمود بللو [١] رحمه الله تعالى .
قلت : وكان السيد الحاج محمود بن يوسف بللو من المحبين المخلصين لمولانا الشيخ الإمام رضي الله عنه حتى أفصح لي مرة أنه سأل ربه أن لا يموت حتى يرى أحد أولاد الشيخ قد تزوج من بناته ، وأحد أولاده قد تزوج من بنات الشيخ ، وقد حصل هذا في حياته رحمه الله تعالى فقد تزوجتُ أصغر بناته سناً بإشارة من والدي رضي الله تعالى عنه ، وقد رأيت فيها المرأة الصالحة المباركة - زوجتي - وهي بحقّ ربّة الصون والعفاف ، ونعم المعين لي على أعباء الحياة جزاها الله عني خير الجزاء وأجزل مثوبتها .
وكان الحاج محمود بللو رحمه الله تعالى طيب القلب زكي النفس ، حتى إنني سمعت أكثر من مرة الشيخ أحمد الإدلبي [٢] رحمه الله تعالى يخاطب الحاج محمود فيقول له :
(يا حاج محمود قلبك أبيض كالشاش الأبيض) - أي في نقائه - ، وذلك لما كان يزوره في محله في خان الجمرك في سوق المدينة .
٦- السيد إبراهيم : كناه الوالد بـ (أبي الجود) ، ولد سنة ١٣٧٥ هـ ، درس في المدارس العامة وتفوق في دراسته حتى نال الدرجة الأولى في شهادة الكفاءة على القطر وكذلك في البكالوريا ، ثم انتسب إلى كلية الطب في جامعة حلب وتخرّج منها وتخصص في طب العيون في جامعة حلب ، وحاز على الشهادة التخصصية من الكلّية الملكية في إنكلترا ، واشتهر بالمهارة والبراعة في مهنته ، يتمتع بذكاء قلّ نظيره وحلم وأناة في شخصه ، أسأل الله له دوام الإمداد بالعون والقوة ليبقى معطاء كما عهدناه .

[١] وقد توفي الحاج محمود بللو سنة ١٤١٢ هـ رحمه الله

[٢] الشيخ أحمد بن الشيخ محمد سعيد بن الشيخ أحمد بن الشيخ عبد القادر الإدلبي الرفاعي الشافعي الحلبي أحد كبار القراء في مدينة حلب توفي رحمه الله سنة ١٤٠٠ هـ ودفن في مقبرة الصالحين رحمه الله ورضي عنه .

٧- محمد محيي الدين : - كاتب هذه السطور - كناه مولانا الوالد بـ (أبي الفرج) -، ولد سنة ١٣٧٨ هـ ، وقد سماه الإمام الوالد بذلك الاسم لأنه رأى الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي رضي الله عنه رآه في منامه برؤيا طيبة مبشرة نافعة صالحة ، وكان ذلك قبيل الولادة ، درس في المدارس العامة ثم انتسب إلى كلية الهندسة المدنية ، و في سنة ١٤٠٨ هـ حبّب الله إليه العلوم الشرعية فتوجه إلى دروس والده المسجلة سماعاً وفهماً ودراسة وإلى كتب والده رحمه الله تعالى وكتب أخرى كان الشيخ الإمام يرشد إلى قراءتها ، ولا يزال أمره كذلك والحمد لله .
٨- السيد عماد الدين : كناه مولانا الوالد بـ (أبي الفتح) ، ولد سنة ١٣٨١ هـ ، درس العلوم الشرعية في المعهد الشرعي [الشعبانية] ، ولما أنهى الدراسة صحبه الوالد رضي الله عنه في مجاورته في المدينة المنورة في شهر ربيع الأول من سنة ١٤٠٠ هـ حتى أوائل شهر ذي القعدة سنة ١٤٠٣ هـ .
وأثناء مجاورة مولانا الوالد ذهب إلى القاهرة للدراسة في جامعة الأزهر .
لزم الوالد رضي الله عنه في حلّه وترحاله منذ صغره ، وكان يستقبل ضيوف الوالد والوفود التي تأتي لزيارة مولانا الوالد رضي الله عنه من حلب وغيرها .
ثم تفرغ لخدمة مولانا الوالد رضي الله عنه خاصة آخر سني عمره المبارك رضي الله عنه ، ولم يزل يقوم على رعاية والدتي الكريمة حتى توفيت رحمها الله وجزاه الله عنا خير الجزاء .
٩- السيدة زهراء : ولدت عام ١٣٨٦ هـ ، سماها الوالد الكريم بذلك تيمناً بسيدة نساء أهل الجنة السيدة فاطمة الكبرى بنت سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فهي عليها السلام الزهراء على الحقيقة أي البهية النيرة وكان للوالد رضي الله عنه لفتة خاصة إليها نظراً لأنها أصغر أولاده ، تزوجت من السيد محمد ياسر لطفي بن الحاج أحمد [١] ، وكان الحاج أحمد محباً صادقاً لمولانا الوالد وسمعت منه أنه شهد من الوالد الكريم كرامات عديدة .
فائدة : اعلم يا أخي - رعاك الله - أن من أحبَّ أحداً أحب جميع من يلوذ به وما يتعلق به وما يُنسب إليه ، وإذا سمع عن محبوبه شيئاً تعامى وتصامّ عنه لأن محبته لمحبوبه لا تريه فيه إلا الخير والحسن والكمال ، وإذا كان هذا في المتحابين على وجه العموم فما بالك بحال من يدعي محبة شيخه وأنه صادق مخلص في حبه ثم تراه من بعيد يتتبع زلات أولاد الشيخ

[١] وقد توفي الحاج أحمد لطفي سنة ١٤٠٧ هـ رحمه الله رحمة واسعة

ويتربص بهم منتظراً هفوة منهم ؟!
إن من لوازم محبته للشيخ أن يحب أولاده ويكرمهم ويعظم قدرهم لأنهم أولاد الشيخ فهم بِضَع منه وأجزاء منه تفرّعوا عنه ، فيحبهم ويجلّهم لا لأعمالهم واستقامتهم فهذا أمر آخر، فهو يحبهم أولاً لأنهم أولاد الشيخ ثم يحبهم لصلاحهم وتقواهم ، والأمر يتحتم وجوبه خاصة إذا كانوا من أهل بيت سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .
قال الله تعالى مخاطباً نبيه الكريم صلى الله عليه وسلم :
{ قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى }
وإليك ما قاله الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية الكريمة :
حكى البخاري وغيره رواية عن سعيد بن جبير رضي الله عنه أنه قال:
معنى ذلك : (أن تودّوني في قرابتي) ، أي: تحسنوا إليهم وتبروهم .
وقال الإمام السيوطي في الدر المنثور :
أخرج أبو نعيم والديلمي من طريق مجاهد ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم - في تفسير قوله تعالى -
{ لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى } :
[أن تحفظوني في أهل بيتي وتودّوهم بي] .
وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه من طريق سعيد بن جبير رحمه الله عن ابن عباس رضي الله عنهما قال :
« لما نزلت هذه الآية : { قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى }
قالوا : يا رسول الله مَن قرابتك هؤلاء الذين وجبت مودّتهم؟
قال : علي وفاطمة وولداها » .
وأخرج سعيد بن منصورعن سعيد بن جبير في قوله تعالى :
{ إلا المودة في القربى } قال : (قربى رسول الله صلى الله عليه وسلم) .
وأخرج أحمد والترمذي وصححه والنسائي والحاكم عن المطلب بن ربيعة رضي الله عنه قال :
« دخل العباس على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إنا لنخرج فنرى قريشاً تحدّثُ ، فإذا رأونا سكتوا ، فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم ودرّ عرق بين عينيه ، ثم قال :
[والله لا يدخل قلبَ امرىء مسلم إيمانٌ ، حتى يحبكم لله ولقرابتي] .
وأخرج البخاري عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال :

ارقبوا محمداً صلى الله عليه وسلم في أهل بيته [1]
وقال الإمام الخازن في تفسيره :
فإن قلت : طلبُ الأجر على تبليغ الرسالة والوحي لا يجوز لقوله تعالى في قصة نوح عليه السلام وغيره من الأنبياء :
{ وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين }
قلت : لا نزاع في أنه لا يجوز طلب الأجر على تبليغ الرسالة .
بقي الجواب عن قوله تعالى : { إلا المودة في القربى } .
فالجواب عنه من وجهين :
الأول : معناه : لا أطلب منكم إلا هذه وهذا في الحقيقة ليس بأجر ،
ومنه قول الشاعر :
ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم   بهنّ فلول من قِراع الكتائب
ومعناه : إذا كان هذا عيبهم فليس فيهم عيب بل هو مدح فيهم ، ولأن المودة بين المسلمين أمر واجب ، وإذا كان كذلك في حق جميع المسلمين كان في أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم أولى ، فقوله تعالى : { قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى } المودة في القربى ليست أجراً في الحقيقة لأن قرابته قرابتهم فكانت مودتهم لازمة لهم ، فثبت أن لا أجر البتة .
والوجه الثاني : أن هذا الاستثناء منقطع ، وتمّ الكلام عند قوله تعالى : { قل لا أسألكم عليه أجراً } ثم ابتدأ فقال : { إلا المودة في القربى } أي : لكن أذكركم المودة في قرابتي الذين هم قرابتكم فلا تؤذوهم .
وقال صلى الله عليه وسلم [أَحِبّوا الله لما يغذوكم به من نعمه ، وأحبّوني لحب الله - أي بسبب حب الله لي - وأحبّوا أهل بيتي لحبي] [2]- أي بسبب حبي ، فإن كنتم تحبونني فأحبّوا أهل بيتي لأنهم أهل بيتي لا لغرض آخر .
وكونهم آل بيت سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خصّهم الله تعالى بالفضائل والمكارم دون غيرهم ، وانظر كتاب : (إحياء الميت في فضائل آل البيت) للإمام السيوطي ، وكتاب (الشرف المؤبد في فضائل آل محمد صلى الله عليه وسلم) للإمام يوسف النبهاني [3] .

---

[1] كما في صحيح البخاري كتاب المناقب ، وقال الحافظ ابن حجر في فتح الباري : أي : احفظوه فيهم فلا تؤذوهم ولا تسيئوا إليهم .
[2] مستدرك الحاكم كتاب معرفة الصحابة واللفظ له وسنن الترمذي كتاب المناقب عن ابن عباس رضي الله عنهما
[3] الإمام العارف العاشق لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم السابح في بحور أهل الله تعالى يوسف بن إسماعيل بن يوسف النبهاني ، نسبته إلى بني نبهان من عرب

ومن زعم أن أولاد الشيخ ليسوا على منهج والدهم فيقال :
هل هذا الكلام يرضي الشيخ ويسرّه أم يسوءه ويحزنه ؟
لاشك أنه يُحزنه ويسوءه سماعه ، فكيف يجرؤ من يدعي المحبة الصادقة أن يؤذي شيخه في أولاده أو في أحدهم ؟!.
ويرحم الله القائل :

وعين الرضا عن كل عيب كليلة ولكن عين السخط تبدي المساويا

ولله درّ من قال :

وإذا الحبيب أتى بذنب واحد جاءت محاسنه بألف شفيع

وكان من وصية مولانا الشيخ لأحدهم :
لا تنظر إلى أولادنا نظرة من يراهم بالمجهر ، فترى منهم الهفوة صغيرة وترى الصغيرة كبيرة ، فهم بَشَرٌ يخطئون ويصيبون ويذنبون ويتوبون ، ولا ندعي العصمة بل نسأل الله الحفظ [والغنيمة من كل بر والسلامة من كل إثم][1] . اهـ
وقد قال تعالى :{ والذين آمنوا } أي إيماناً كاملاً
{ واتبعتهم ذريتهم بإيمان } أي ببعض إيمان ، فليس لهم أعمال وطاعات وقربات كآبائهم بل يتقاصرون عنهم لكنهم على اتباع لهم ما استطاعوا
{ ألحقنا بهم ذريتهم } أي ألحقنا الفروع بالأصول إكراماً للأصول الصالحة
{ وما أَلَتْناهم } أي : ما انتقصنا من أجور وحسنات الأصول شيئاً وأعطيناه للفروع ، بل ألحقناهم بهم ليتم نعيمهم وسرورهم وفرحهم بهم ، لأن المؤمن لا تتمّ فرحته إلا وذريته معه ، فلقد ألحق الله الفرع بأصله الطيب فأكرم الفرع بسبب صلاح الأصل ، وإذا كان هذا في الآخرة فهو في الدنيا آكد وأشد ، فإذا كانت سنة الله تعالى أن يلحق الفرع المقصّر بالأصل الطيب أفلا يجب على كل مؤمن أن يتّبع سنة الله في خلقه وخاصة فيمن يدعي محبة شيخه وأنه وأنه ... ؟! سبحانك ما أَحْلَمك !

البادية بفلسطين، كان رئيساً لمحكمة الحقوق ببيروت .
توفي سنة ١٣٥٠ هـ رحمه الله ورضي عنه .

[1] ما بين قوسين طرف حديث في سنن الترمذي كتاب الصلاة ، وسنن ابن ماجه كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها عن عبد الله بن أبي أوفى الأسلمي رضي الله عنه .

وفي الحديث عَنْ ابن عمر وعن أبى هريرة وعن عمار بن ياسر رضي الله عنهم قالوا : قَدِمَتْ دُرَّةُ بِنْتُ أَبِي لَهَبٍ الْمَدِينَةَ مُهَاجِرَةً، فَنَزَلَتْ دَارَ رَافِعِ بْنِ الْمُعَلَّى الزُّرَقِيِّ، فَقَالَتْ لَهَا نِسْوَةٌ جَلَسْنَ إِلَيْهَا مِنْ بَنِي زُرَيْقٍ :
أَنْتِ دُرَّةُ بِنْتُ أَبِي لَهَبٍ الَّذِي يَقُولُ اللَّهُ تعالى :
{ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ }
مَا يُغْنِي عَنْكِ مُهَاجَرَتُكِ ؟ !
فَأَتَتْ دُرَّةُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم فَشَكَتْ إِلَيْهِ مَا قُلْنَ لَهَا فَسَكَّنَهَا، ثُمَّ صَلَّى بِالنَّاسِ الظُّهْرَ وَجَلَسَ عَلَى الْمِنْبَرِ سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ : [يَا أَيُّهَا النَّاسُ، مَالِي أُوذَى فِي أَهْلِي؟
فَوَاللَّهِ إِنَّ شَفَاعَتِي لَتَنَالُ قَرَابَتِي حَتَّى أُرْحَاءَ وَحَكَمًا وَصُدًى وَسَلْهَب [1] بِمَا لَهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِقَرَابَتِي] [2] .
وفي رواية البيهقي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ :
كَانَتِ امْرَأَةٌ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ تَحْتَ رَجُلٍ مِنْ قُرَيْشٍ، فَكَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا شَيْءٌ، فَقَالَ لَهَا : سَتَعْلَمِينَ وَاللَّهِ أَنَّهُ لا يَنْفَعُكِ قَرَابَتُكِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم شَيْئًا، فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم مُغْضَبًا فَقَالَ :
[مَا بَالُ رِجَالٍ يَزْعُمُونَ أَنَّ قَرَابَتِي لا تَنْفَعُ، وإني لَتَرْجُو شَفَاعَتِي صُدَى وَسَلْهَبٌ] ، قَالَ الراوي : فَسَأَلْتُ أَبَا عُبَيْدٍ عَنْ صُدَى وَسَلْهَبٍ، قَالَ : حَيَّانِ مِنَ الْيَمَنِ [3]
وعن عبدالرحمن بن أبى رافع أن أم هانئ بنت أبي طالب خرجت متبرجة قد بدا قرطاها فقال لها عمر بن الخطاب : اعملي فإن محمداً لا يغنى عنك شيئاً ، فجاءت إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبرته به ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
[ما بال أقوام يزعمون أن شفاعتي لا تنال أهل بيتي ، وان شفاعتي تنال حا وحكم] [4] - و(حا) و (حكم) قبيلتان - .

---

[1] أسماء لقبائل من العرب
[2] انظر معرفة الصحابة لأبي نعيم والآحاد والمثاني لابن ابي عاصم والمعجم الكبير للطبراني
[3] انظره في كتاب البعث والنشور للبيهقي
[4] قال الهيثمي في مجمع الزوائد : رواه الطبراني وهو مرسل ورجاله ثقات

وروى الإمام أحمد في فضائل الصحابة والإمام عبد الرزاق في مصنفه ومعمر بن راشد في جامعه عن قتادة قال :
رأى عمر امرأة في زيّها فقال : أترين قرابتك النبي صلى الله عليه وسلم تغني عنك من الله شيئاً ؟
فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم :
[إنه لترجو شفاعتي صدا وسلهب] . اهـ
ومن كان على غير هذا الأدب مع شيخه ومع أولاد شيخه فينطبق عليه قول القائل رحمه الله تعالى :

وكلٌّ يدّعي وصلاً بليلى وليلى لا تقرّ لهم بذاكا
إذا اشتبكت دموع في خدود تبيّن من بكى ممّن تباكى

ومنهم من يدعي أن بينه وبين الشيخ علاقة خفية أو سراً خاصاً أو سلكاً متصلاً وما شابه ذلك من ألفاظ الغرور ، ويتناول أولاد الشيخ بالذم والقدح.
فيقال له - أعاذنا الله من شره -:
أنت في واد والمحبة في واد ، ولم تشمّ رائحة المحبة فضلاً عن كونك محباً ، وأنت تظن أنك على شيء ولا تدري أنك ممن يتحقق فيه - بوجه من الوجوه - قول الله تعالى :
{ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا }
ويرحم الله القائل :

سوف ترى وينجلي الغبار أَفَرَسٌ تحتك أم حمار

وإن في هذه الكلمات الموجزة تذكرة للمحب وتنبيهاً لغيره ، وأسأل الله الصدق في محبته جل وعلا ومحبة رسوله صلى الله عليه وسلم ومحبة أوليائه سبحانه وتعالى .

بداية طلبه العلم

لما بلغ الشيخ الإمام رضي الله عنه الخامسة من عمره المبارك حَبّب إليه والده مولانا الشيخ محمد نجيب رضي الله عنه ، حبب إليه الانتساب إلى حلقات تعليم تلاوة القرآن وتجويده التي كان يقيمها الشيخ القارئ عثمان بن قنديل المصري [1] في جامع سليمان الأيوبي الكائن إلى جانب دار شيخنا ومولانا محمد نجيب رضي الله عنه ، فتعلّم تلاوة القرآن الكريم وتجويده وتعلّم القراءة والكتابة ومبادئ العلوم ، ثم نقله والده إلى مدرسة دار الفلاح السلطانية وكان يديرها ويدرّس فيها الشيخ الأستاذ الفاضل محمد خير الدين اسبير الحلبي [2] .

وكانت ذات صفوف متعددة ، منها : الشعبة التحضيرية لتعليم تلاوة القرآن الكريم ، ثم الصف الأول ، ثم الثاني ، ثم الثالث ، فبدأ يتدرج في هذه الصفوف ، وتعلّم في هذه الفترة شيئاً من فقه العبادات وعلم النحو ، وحَفِظ من أشعار العرب وخطبهم بما في ذلك الكثير من القصائد والأناشيد النبوية التي كان الشيخ محمد خير الدين اسبير يُمليها عليه مع طلاب المدرسة ، كما تعلّم الرياضيات الحسابية على مستوى الإبتدائية والمتوسطة إجمالاً .

---

[1] هو الشيخ عثمان بن قنديل الطنطاوي المصري ثم الحلبي ، وقد هاجر من مصر إلى مدينة الباب قرب حلب ، ثم نزل إلى حلب وأقام فيها في محلة القصيلة ، وكان عالماً قارئاً حسن الصوت صالحاً ورعاً ، استلم التدريس وتعليم القرآن وتجويده في كُتّاب جامع سليمان الأيوبي ، ويقع شرقي جب قرمان ، والكتّاب من أوقاف الشيخ سليمان الأيوبي الذي بنى الجامع .

توفي الشيخ عثمان سنة ١٣٨٨للهجرة ودفن في تربة الشيخ جاكير العباسي بحلب رحمه الله تعالى وجزاه خير الجزاء .

[2] هو الشيخ محمد خير الدين بن الشيخ مصطفى اسبير الحلبي الحنفي وكان الشيخ أستاذاً فاضلاً وأديباً شاعراً، يدير ويدرّس في مدرسة دار الفلاح السلطانية التي تقع أمام قلعة حلب من جهة الجنوب ، تعلم وتفقّه بحلب واشتغل بعلم الحساب المسمى بـ (الدوبيا) وكان فيه ممن لا نظير له ، وقد غلب عليه الأدب والشعر وله ثلاثة من الدواوين الشعرية وهي : (الحقائق الجلية - نسمات الصفاء - نفحات مسك)

وقصيدة في الحج والمدينة المنورة والبقيع ، وقد أُجيز بالحديث المسلسل بالأوّليّة من الشيخ يوسف دادا ، وحديث المصافحة ، وأجاز بهما الشيخ الإمام رضي الله عنه ، توفي الشيخ محمد خير الدين اسبير سنة ١٣٩٠ للهجرة رحمه الله تعالى .

وبعد الانتهاء من صفوف مدرسة دار الفلاح نقله والده رضي الله عنه إلى مكتب المقرئ الكبير الشيخ عبد الوهاب المصري الحلبي [1] ، وهو مكتب عائد إلى وقف المدرسة العثمانية لتحفيظ القرآن الكريم عن ظهر قلب .
قال الشيخ الإمام رضي الله عنه :
وقد رغّب إلي والدي رضي الله عنه حفظ القرآن منذ صغري ، ويسّر علي ذلك بأسلوبه الحسن ، فأرشدني أولاً إلى حفظ آخر خمسة أجزاء من القرآن الكريم ، فلما أتقنتُ حفظها قال لي : احفظ خمسة أجزاء من سورة الإسراء ، وتبدأ من الجزء الخامس عشر ، فلما حفظتها قال لي : احفظ خمسة أجزاء من أول القرآن الكريم ، فلما أتقنت حفظ ذلك كله قال لي :
بقي عليك خمسة عشر جزءاً فاحفظها ليتم لك حفظ القرآن الكريم .
فكنت أقرأ على شيخنا الشيخ عبد الوهاب المصري بالتجويد ، وحفظت لذلك متن الجزرية في علم التجويد ، وقرأت شرحه على الشيخ عبد الوهاب ، كما قرأت عليه دروساً في القواعد النحوية وعلم الصرف .
قال الشيخ الإمام رضي الله عنه :[فحفظت القرآن الكريم في سنتين حفظاً راسخاً متيناً ، وقد بلغت الثانية عشرة من عمري وكان ذلك ذخراً كبيراً لي ، وعوناً لي على الانتساب إلى المدرسة الخسروية حيث قُبلت فيها ، ولم يكن يُقبل فيها إلا من تجاوز الخامسة عشرة من عمره].

---

[1] وكان شيخاً فاضلاً قارئاً عالماً بالقراءات ، تلقّى علم القراءات عن الشيخ أحمد أبي التيج المدني الذي قدم إلى حلب ونشر فيها علم القراءات عن طريق الطيبة للإمام الجزري والشاطبية للإمام الشاطبي .
كان الشيخ عبد الوهاب المصري يدير ويدرّس في مكتب تابع للمدرسة العثمانية يُعنى بتحفيظ القرآن الكريم عن ظهر قلب .
قال الشيخ الإمام رضي الله عنه : (وقد قرأت على الشيخ عبد الوهاب : شرح متن الجزرية في علم التجويد ومخارج الحروف وصفاتها ، وهي من شرح الشيخ بشير الغزي .
قال : ولم تسمع أذني قراءة من قارئ يجيد القراءة ومخارج وصفات الحروف مثل قراءة الشيخ عبد الوهاب رحمه الله تعالى) وقد توفي رحمه الله سنة ١٤٠٥ هـ .

متابعته طلب العلم في المدرسة الخسروية

قال الشيخ الإمام رضي الله عنه :
وكان من أساتذتي في المدرسة الخسروية :
الشيخ محمد ناشد في النحو والصرف [١]، والشيخ محمد لبابيدي[٢] في الفقه الحنفي ، والشيخ راغب الطباخ [٣] محدث ومؤرخ حلب .
وقد حضرت دروس الشيخ الكبير إبراهيم السلقيني [٤] المعروف بورعه وزهده وكثرة بكائه من خشية الله تعالى .
ومن أساتذتي أيضاً :
الشيخ محمد بن الشيخ إبراهيم السلقيني [٥] ، في الفقه الحنفي قسم العبادات .
والشيخ عيسى البيانوني [٦] المعروف بصلاحه وحبه وَوَلَعِهِ بسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد قرأ علينا مادة الأخلاق .
ومنهم : الشيخ أحمد الكردي [٧]مفتي حلب وقتئذ ، إذ قرأ علينا الجزء الأول من حاشية ابن عابدين في الفقه الحنفي[٨] ، وأبحاثاً أخرى مهمة من الكتاب ، وذلك في مدرسة الإسماعيلية .
ومنهم : الشيخ عبد الرحمن العبقري المعروف بتمكنه في علوم التفسير ، والشيخ الزاهد الورع أحمد الشماع [١] .

---

[١] الشيخ محمد بن الشيخ هلال الناشد الحلبي الحنفي
وقد توفي رحمه الله سنة ١٣٦٥ هـ
[٢] المتوفى في أوائل ذي الحجة سنة ١٣٦٠ هـ رحمه الله
[٣]وقد نقل عن الشيخ راغب الطباخ أنه كان يقول لإخوانه من المشايخ :
إن الشيخ عبد الله يكتب في الامتحان كتابة كبار العلماء الأجلّاء أهل التحقيق ، وهو في الصف الثاني .
والشيخ هو محمد راغب بن الحاج محمود بن هاشم بن السيد أحمد بن السيد محمد المعروف بـ(الطباخ) توفي سنة ١٣٧٠ هـ رحمه الله تعالى
[٤] هو الشيخ الفقيه الأصولي المفسِّر إبراهيم بن الشيخ محمد بن الحاج سعيد خطيب الشهير بـ (السلقيني) نسبة إلى بلدة سلقين وقد توفي سنة ١٣٦٧ هـ رحمه الله تعالى
[٥] هو الشيخ الحنفي العالم العامل الفقيه الأصولي محمد بن الشيخ إبراهيم بن الشيخ محمد بن الحاج سعيد خطيب الشهير بـ (السلقيني)وقد توفي رحمه الله سنة ١٤٢٢ هـ
[٦] هو الشيخ عيسى بن حسن بن بكري بن أحمد البيانوني نسبة إلى قرية بيانون وقد توفي رحمه الله سنة ١٣٦٢ هـ ودفن في البقيع
[٧] هو الشيخ أحمد بن محمد عساف الكردي الحنفي العلامة الأصولي
وقد توفي رحمه الله سنة ١٣٧٣ هـ
[٨] وتسمى : (ردّ المحتار على الدّر المختار شرح تنوير الأبصار)

وأذكر من أساتذة الخسروية :
الشيخ فيض الله الكردي[2]، والشيخ عمر مارتيني [3] رضي الله عنهم أجمعين وجزاهم الله تعالى خير الجزاء .
قال الشيخ الإمام رضي الله عنه :
ولقد كنت بفضل الله تعالى من المتفوقين في دراستي ، ولم تكن علامة امتحاني تنقص عن العلامة التامة طيلة سني دراستي من الصف الأول حتى السادس . [4]
وأذكر مرة أن الشيخ راغب الطباخ رحمه الله تعالى - وكان أستاذنا في مادة الحديث الشريف وعلومه - كان قد شجَّعني على حفظ جملة من الأحاديث ، ومنها : حديث (أم زَرْع) المعروف بطوله وغريب ألفاظه ، وكنت وقتئذ في الصف الثاني ، فحفظتها بإتقان وتمكّن حتى ألقيتها في مسابقة جرت بين المتفوقين من الطلاب على مرأى ومسمع من جملة من المشايخ الأجلاء والأساتذة الفضلاء ، ولم أتلعثم أو أتلكأ في إلقائي ، وقد بلغ السرور والرضا من الشيخ راغب مبلغاً كبيراً حتى إنه قام من مجلسه وتبسّم واهتز طرباً ونشوة ، وحمل عمامته ووضعها على رأسي ، ولما طلبت منه أن أبين للحضور شرح مفردات حديث أم زرع قال لي :
كفى كفى فقد أحسنت وأجدت . اهـ .
قلت : ويحسن في هذا السياق أن نذكر حديث (أم زرع) المُشار إليه فيما تقدم ، فقد روى الشيخان والترمذي [5]- واللفظ له - عن السيدة عائشة رضي الله عنها قالت :

---

[1] هو الشيخ أحمد بن الشيخ محمد الشماع الرفاعي المحدث المفسر وقد توفي رحمه الله سنة ١٣٧٣ هـ

[2] بيت الكردي "نسبة إلى " الكرد " الشهير وهو جبل كبير ، وإليه ينتسب بعض أهل المدينة المنورة، ومنهم الشيخ فيض الله الكردي ، قَدِمَ إلى المدينة المنورة سنة ١١٧٠ هـ ، وكان رجلًا فاضلًا عالمًا عاملًا .

[3] هو السيد الشريف عمر بن السيد الشيخ أحمد المارتيني بن السيد أحمد بن بركات بن حسين بن شهاب الدين البعاجي المهناوي الكيلاني الحسني توفي سنة ١٢٧٥ هـ

[4] هذه المرحلة الدراسية معروفة في عصرنا بـ المرحلتين الإعدادية والثانوية ، أما المرحلة الابتدائية فكانت مقتصرة على الكتاتيب - جمع كُتّاب - حيث يُعلّم الطالب قراءة القرآن الكريم وتجويده ومبادىء اللغة العربية .

[5] انظر صحيح البخاري كتاب فضائل النكاح وصحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة والترمذي في الشمائل المحمدية

جلست إحدى عشرة امرأة فتعاهدْن وتعاقدْن أن لا يكتُمنَ من أخبار أزواجهنَّ شيئاً [1]
فقالت الأولى : زوجي لحم جمل غَثٍّ ، على رأس جبل وعر ، لا سهل فيُرتقى ولا سمين فَيُنْتَقَل [2]
قالت الثانية : زوجي لا أَبُثُّ خبرَه ، إني أخافُ أن لا أذَرَه ، إن أذكرْه أَذكرْ عُجَرَه وبُجَرَه [3]
قالت الثالثة : زوجي العَشَنّق [4] إنْ أَنْطِقْ أُطَلّقْ وإن أَسْكُتْ أُعَلَّق
قالت الرابعة : زوجي كليل تِهامة [5] لا حرَّ ولا قَرّ ولا مخافة ولا سآمة ،
قالت الخامسة : زوجي إن دخل فهِد وإن خرج أَسِد ولا يَسأل عما عهِد [6] ،
قالت السادسة : زوجي إن أكلَ لفَّ وإن شربَ اشتفَّ وإن اضطجع التفَّ ولا يولجُ الكفّ ليعلم البثّ [7]
قالت السابعة : زوجي عَياياء [8] أو غياياء ، طباقاء ، كلُّ داء له داء ، شَجّكِ أو فلّكِ أو جمع كلاً لك [9]
قالت الثامنة : زوجي المسُّ مسّ أرنب والريح ريح زَرْنَب [1]

---

[1] أي على أن لا يخفين شيئاً من أخبار أزواجهن مدحاً أو ذماً بل يذكرن جميع ذلك .
[2] تعني أنها تشبه زوجها في رداءته بلحم جمل غث - أي شديد الهزال - كائن على رأس جبل وعر - أي : صعب الوصول إليه - والمقصود : أن زوجها متكبر سيء الخلق لا يُوصل إليه إلا بمشقة ولا ينفع زوجته في عشرة ولا في غيرها .
[3] أي : لا أنشر ولا أظهر خبره ، ثم عللت ذلك بقولها : إني أخاف أن لا أذره - أي : إني أخاف أن لا أتركه - يعني أنها تخاف من ذكره أن يطلقها ويترتب على ذلك الشقاق والفراق وضياع الأطفال ، وقيل : المعنى إني أخاف أن لا أذره بعد الشروع في خبره ، والمراد بالعجر والبجر : عيوبه الظاهرة والخفية .
[4] هو السيىء الخلق ، السفيه .
[5] تهامة هي مكة المكرمة وما حولها من الأغوار والمقصود من هذا التشبيه أن تصف زوجها بكمال الاعتدال في أموره وسهولة أخلاقه - كما في [حاشية البيجوري].
[6] تعني أنه كالأسد في الحروب في قوته وشجاعته ، ولا يسأل عما عهد - أي : عما علم في بيته من الطعام والشراب وغيرهما لجوده وكرمه [انظر حاشية البيجوري].
[7] أي : إن أكل أو شرب لم يبق بقية لعياله ، ولا يتفقد حال أهله إذا مرضن أو اشتكين وقيل غير ذلك كما في حاشية البيجوري
[8] عياياء : أي عاجز عن إحكام الأمور وتدبيرها ، غياياء : ذو ضلالة وغي ، طباقاء : أحمق إذا اجتمعت عليه الأمور فلا يهتدي لها
[9] أي : إن ضربك جرحك أو فلّك : أي كسرك ، أو جمعهما لك .

قالت التاسعة : زوجي رفيعُ العماد[٢] طويل النِّجاد[٣] عظيم الرماد[٤] قريب البيتِ من الناد[٥]
قالت العاشرة : زوجي مالِك ، وما مالِك ؟
مالك خير من ذلك ، له إبل كثيرات المبارك قليلات المسارح ، إذا سمعنَ صوتَ المِزهر أَيقنَّ أنهنَّ هوالك[٦]
قالت الحادية عشرة : زوجي أبو زرع ، وما أبو زرع ؟
أَناسَ من حليّ أُذُنيَّ[٧] وملأ من شحمٍ عضديّ[٨] وبجّحني فَبَجِحت إلي نفسي[٩] ، وجدني في أهل غُنَيمة بِشَقّ فجعلني في أهل صهيل وأطيط ودائس ومنَقّ[١٠] فعنده أقول فلا أُقَبّح ، وأرقد فأتصبّح وأشربُ فأتقمّح[١١]
أمُّ أبي زرع فما أم أبي زرع ؟ عكومها ردَاح[١٢] وبيتها فَساح

---

[١]فهي تمدحه بأن مسه يشبه مس الأرنب في اللين والنعومة ، وبأنه طيب الرائحة كريح الزرنب : وهو نوع نبات رائحته طيبة .
[٢] كناية عن علو حسبه وشرف نسبه .
[٣] تصفه بطول القامة ، والنجاد : حمائل السيف ، فالطويل يحتاج إلى طول حمائل سيفه - والعرب تمدح بذلك .
[٤] تصفه بالجود ، وكثرة الضيافة من اللحوم والخبز ، فيكثر وقوده فيكثر رماده .
[٥] النادي والندي : مجلس القوم ، فهي تصف زوجها بالكرم ، لأنه لا يقرب البيت من النادي إلا من صفته الكرم ، كما في شرح النووي .
[٦] تعني أن له إبلاً كثيرة ، فهي باركة بفنائه ، لا يوجهها تسرح إلا قليلاً قدر الضرورة ، فإذا نزل به الضيفان كانت الإبل حاضرة ، فيقريهم من ألبانها ولحومها ، ويضرب لهم المزهر والمعازف ، فإذا سمعت الإبل أصوات المزهر علمت أنه قد جاء الضيفان وأنهن منحورات هوالك . اهـ من شرح النووي .
[٧] قال الإمام النووي : ومعناه حلّاني قرطة وشنوفاً ، فهي تنوس - أي تتحرك - لكثرتها .
[٨] المعنى : أنها سمنت عنده وامتلأت شحماً .
[٩] أي فرّحني ففرحت ، وعظّمني فعظمت نفسي عندي .
[١٠] الصهيل : صوت الخيل ، والأطيط : صوت الإبل ، والمعنى : أنه وجدها في أهل غنم قليلة ، فهُم في ضيق عيش فحملها إلى أهل خيل وإبل وبقر ، تدوس الزرع في بيدره لتخرج الحب من السنبل ، ومنق : بفتح النون وتشديد القاف ، وهو الذي ينقي الحب وينظفه من التبن بعد الدوس ، وروي : منق : بكسر النون من نقت الدجاجة إذا صوتت ، كما في [حاشية البيجوري على الشمائل].
[١١] والمعنى تشرب حتى تروى ، وتدع الشراب من شدة الري .
[١٢]العكوم : الأعدال ، جمع عكم ، والرداح : العظيمة - والمعنى : أن أعدالها وأوعية طعامها عظيمة ثقيلة .

ابن أبي زرع فما ابن أبي زرع ؟ مَضجعه كمَسلّ شطْبة وتُشبعه ذراع الجَفرة [1]
بنت أبي زرع فما بنتُ أبي زرع ؟ طوع أبيها وطوع أُمِّها وملء كسائها وغيظ جارتها
جارية أبي زرع فما جارية أبي زرع ؟ لا تبثُّ حديثنا تبثيثاً [2] ولا تَنْقُثُ ميرتنا تنقيثاً [3] ولا تملأ بيتنا تعشيشاً [4]
قالت أم زرع :خرج أبو زرع والأوطاب تُمْخَض [5] فلقي امرأة معها ولدان لها كالفهدين يلعبان من تحت خصرها برمانتين فطلقني ونكحها فنكحت بعده رجلا سَرِيّاً [6] ركب شَرِيّاً [7] وأخذ خَطِّيّاً [8] وأراح علي نِعَماً ثرياً [9]
وأعطاني من كل رائحة زوجاً [10] وقال : كلي أمَّ زرع وميري أهلكِ ،
فلو جمعتُ كل شيء أعطانيه ما بَلَغَ أصغر آنية أبي زرعٍ .
قالت عائشة رضي الله عنها : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
[كنت لك كأبي زرع لأم زرع].
وجاء في رواية الهيثم بن عدي :
[كنت لك كأبي زرع لأم زرع في الألفة والوفاء ، لا في الفرقة والجلاء].
وزاد الطبراني في روايته : [إلا أنه طلقها ، وإني لا أطلقك].
وزاد النسائي والطبراني : قالت عائشة رضي الله عنها :
[يا رسول الله بل أنت خير من أبي زرع]. اهـ

---

[1] قال الإمام النووي : الجفرة بفتح الجيم ، الأنثى من أولاد المعز ، وقيل من الضأن ، وهي ما بلغت أربعة أشهر وفصلت عن أمها والمراد : أنه قليل الأكل - والعرب تمدح به .اهـ .
[2] أي : لا تشيع حديثنا ، بل تكتم سرنا وحديثنا كله .
[3] الميرة هي الطعام المجلوب - ومعناه : لا تفسده وتفرقه ولا تذهب به فهي أمينة .
[4] المعنى أنها مصلحة للبيت معتنية بتنظيفه .
[5] الأوطاب : أسقية اللبن ، وتخمض : تحرك لاستخراج الزبد من اللبن .
[6] أي : من سراة الناس وأشرافهم .
[7] أي : فرساً يستشري في سيره ، ويمضي بلا فتور .
[8] الخطي : الرمح .
[9] أي : كثيرة من : الثروة في المال وهي كثرته .
[10] أي : من كل ما يروح من الإبل والبقر والغنم ، أعطاها زوجاً ، أي اثنين أو صنفاً كثيراً .

قال الشيخ الإمام رضي الله عنه :
ولما انتهيت إلى الصف السادس في المدرسة الخسروية ، ومضى من العام الدراسي ثلثه تقريباً ، أجْرت إدارة المدرسة تعديلاً على المناهج والمقررات ، وتقرّر إدخال بعض المواد الكونية إضافة إلى المواد الشرعية ، وألزموا طلاب الصف السادس الرجوع إلى الصف الرابع لدراسة تلك العلوم ، وهذا خلاف مقتضى النظم المدرسية فإنها تقتضي في مثل هذه الحالة أن يكمل من أراد من طلاب السادس النهائي دراسة المنهاج السابق ثم يُمنح الشهادة على حسب السابق ، ومن أراد الرجوع عن طيب نفس إلى الصف الرابع فلا مانع من ذلك .
قال الشيخ الإمام رضي الله عنه :
ففكرت في نفسي ، واستشرت شيخي ووالدي رضي الله عنه :
هل أرجع إلى الصف الرابع لدراسة تلك العلوم الكونية المحدثة ،
أم أترك المدرسة بعد أن أوشكَ العام الدراسي على الانتهاء ؟؟
وكانت رغبتي ومقصدي من الدراسة دراسة العلوم الشرعية فحسب ،
وما خطر في بالي يوماً أن أحصل على شهادة رسمية من أجل الوظيفة أو التدريس .
وأسدى إلي شيخي ووالدي رضي الله عنه رأيه في الأمر، ووافق ذلك ما كان في نفسي بترك المدرسة والتفرغ لطلب العلم الشرعي حباً في الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم ، فخرجت من المدرسة بعد أن كدت أن أتخرج بتفوق ، وخرج معي بعض طلبة العلم .

حرصه على طلب العلوم الشرعية وحفظه الحديث الشريف

قال الشيخ الإمام رضي الله عنه :
وكان من جملة المقررات علينا في المدرسة الخسروية في علم النحو والصرف : حفظ سبعمائة بيت من ألفية ابن مالك [١] ، وقد يسَّر الله علي فحفظت الألفية كلها .
كما حفظت (ألفية الحافظ السيوطي) في علم المصطلح [٢] ، و(متن السلّم) في علم المنطق [٣] ، ومتن (عقود الجُمان) في علم البلاغة [٤] ، ومتن (الرّحْبية) في علم الفرائض [٥] ومتن (الجوهرة) في علم التوحيد [٦] ، ومتن ومتن (المنظومة البيقونية) في علم مصطلح الحديث [٧] أيضاً .

---

[١] ألفية ابن مالك هي متن يضم جميع قواعد النحو والصرف العربي في منظومة شعرية يبلغ عدد أبياتها ألفاً وبيتين ، وهي أبيات على وزن بحر الرجز أو مشطوره ، وصاحبها هو محمد بن عبد الله بن مالك الطائي الجياني نسبةً إلى جيان بالأندلس التي بها ولد، وشهرته ابن مالك، جمال الدين المتوفى سنة ٦٧٢هـ رحمه الله تعالى .

[٢] السيوطي هو الحافظ المشتهر المتوفى سنة ٩١١هـ رحمه الله ورضي عنه ، صاحب التصانيف الكثيرة ، له قصيدة في المصطلح دعاها :
(نظم الدرر في علم الأثر)، وتعرف بـ (ألفية السيوطي)، وهي مؤلفة من ألف بيت إلا أحد عشر بيتاً، وقال السيوطي في أول شرحه عليها: احتوت على جميع علوم ابن الصلاح وزوائد ألفية العراقي ، وزادت بضعف ذلك تماماً .

[٣] واسمه : (السُّلَّم المنورق في علم المنطق) لمؤلفه أَبي زَيْدٍ عَبْدِ الرَّحْمنِ بنِ مُحَمَّدٍ الصَّغيرِ الأَخْضَرِيّ المتوفى سنة ٩٨٣هـ رحمه الله .

[٤] واسمه : (عقود الجمان في المعاني والبيان) للحافظ السيوطي رحمه الله ورضي عنه .

[٥] واسمه : (بُغْيَةُ الْبَاحِث عَنْ جُمَلِ الْمَوَارِث) ، الْمَشْهُوْرُ بِـ (مَتْن الرَّحْبِيَّة) لِلإِمَامِ موفق الدين أبو عبد الله محمد بن علي بن محمد بن الحسن الْمَشْهُوْرُ بِـ (الرَّحْبِي) المتوفى سنة ٥٧٧ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى

[٦] (جوهرة التوحيد) أحد أهم متون علم العقيدة والكلام عند أهل السنة والجماعة ، والمتن عبارة عن منظومة شعرية تتألف من ١٤٤ بيتاً لمؤلفه إبراهيم بن إبراهيم بن حسن بن علي بن عبد القدوس بن الولي الشهير محمد بن هارون اللقّاني المالكي المصري ، لقبه : برهان الدين ،وكنيته: أبو الإمداد، وأبو إسحاق.
واللقاني نسبة إلى لقانة - قرية من قرى مصر -
وقد توفي رضي الله عنه سنة ١٠٤١ هـ

[٧] وناظمها هو الشيخ عمر بن محمد بن فتوح البيقوني الدمشقي الشافعي المتوفى سنة ١٠٨٠ هـ رحمه الله تعالى ، وقد شرحها الشيخ الإمام رضي الله عنه شرحاً كافياً

كما حفظت مطولات المنظومات والقصائد في سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم وفضائله وخصائصه ومدائحه صلى الله عليه وسلم ، ومنها قصيدة (بانت سعاد) التي ألقاها الصحابي الجليل : (كعب بن زهير) بين يدي سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقبِل رسول الله عذره وخلع عليه بردته الشريفة صلى الله عليه وسلم.[1]

ومنها قصيدة البردة للإمام البوصيري[2] والتي نظمها إثر مرض عُضال أصابه ، - والمرض العضال هو الذي يُعجز الأطباء فلا دواء له - فامتدح بقصيدته سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وذَكَر ما فضّله الله تعالى به وخصّه به ، ثم توسَّل به صلى الله عليه وسلم إلى الله تعالى ، فرأى النبي في المنام يخلع عليه بردته الشريفة فاستيقظ وقد بَرَأَ من مرضه .

وقد نظم أحمد شوقي رحمه الله تعالى عدة قصائد في مدح المصطفى صلى الله عليه وسلم وسمّى إحداها : (نهج البردة)
متأسياً فيها بالبوصيري في بردته .

قلت : وقد كان الشيخ الإمام رضي الله عنه كثيراً ما يردد أبياتاً ويثني على ناظمها المرحوم أحمد شوقي وأذكر منها :

يا أحمد الخير لي جاه بتسميتي وكيف لا يتسامى بالنبي سمِي

ومنها :

فما عرف البلاغةَ ذو بيان إذا لم يتَّخذك له كتاباً

ومنها :

إن جلّ ذنبي عن الغفران لي أمل بالله يجعلني في خير معتصم
ألقي رجائي إذا عزّ المجير على مفرّج الكرب في الدارين والغمم

وافياً في مؤلف يجد فيه طالب هذا العلم غرضه وسمّاه :
(شرح المنظومة البيقونية في مصطلح الحديث)

[1] قال الحافظ الزرقاني في شرح المواهب :
وفي رواية أبي بكر بن الأنباري وابن قانع من مرسل ابن المسيب "أنه - أي : سيدنا كعب بن زهير - لما وصل إلى قوله:

إن الرسول لنور يُستضاء به مُهنَّد من سيوف الله مسلول

رمى عليه الصلاة والسلام إليه بردة كانت عليه". اهـ ٤ / ٦١

[2] إمام المديح النبوي سيدي محمد بن سعيد بن حماد بن عبد الله الصنهاجي البوصيري المصري، شرف الدين، أبو عبد الله ، نسبته إلى بوصير - من أعمال بني سويف، بمصر -
وتوفي في الإسكندرية سنة ٦٩٦ هـ رحمه الله ورضي عنه

ومنها :
مدحتُ المالكين فزدت قدراً وحين مدحتُك اقتدت السحابا
قال الشيخ الإمام رضي الله عنه :
وقد حفظت أيضاً ألفية الحافظ العراقي [1] في السيرة النبوية [2]، ونثر الإمام البرزنجي [3] في ذكر مولد النبي الكريم وسيرته وفضائله صلى الله عليه وسلم ، لأن سيدي ووالدي الشيخ محمد نجيب رضي الله عنه كان يقرؤه في الجامع الأموي الكبير وجامع بانقوسا وجامع الحموي في ذكرى مولد الرسول صلى الله عليه وسلم في شهر ربيع الأول .
ثم إني حصلت على كتاب (مجموع المتون الكبير) المشتمل على واحد وستين متناً من مهمات المتون المستعملة في أهم غالب الفنون ، فتناولته بالحفظ حتى أنهيته - ولم أتخرج بعد من المدرسة الخسروية - وهو كتاب من ضبط وتصحيح الشيخ إبراهيم بن حسن الانبابي ، وطباعة دار المصطفى البابي الحلبي بمصر . اهـ .
أما عن أحاديث سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد قال الشيخ الإمام رضي الله عنه :
لقد حبَّب الله تعالى إليَّ قراءة حديث سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وحفظه لما كنت أسمعه من الأحاديث في دروس شيخي ووالدي رضي الله عنه ، فإنه كان يأتي بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية كالوابل الصيّب [4]
وكان أول ما حفظت من الأحاديث : كتاب الإيمان والعلم والأدب والرقاق من مختصر صحيح البخاري للزبيدي [5]

---

[1] الإمام الحافظ عبد الرحيم بن الحسين بن عبد الرحمن بن أبي بكر بن إبراهيم الكردي الرازياني العراقي الأصل المهراني ، المصري المولد ، الشافعي المذهب، كنيته: أبو الفضل، ويلقّب بـ (زين الدين) توفي رضي الله عنه يوم الأربعاء الثامن من شعبان سنة ٨٠٦ هـ عن عمر ناهز إحدى وثمانين سنة، وكانت جنازته مشهودة، صلّى عليه الشيخ شهاب الدين الذهبي ودفن خارج القاهرة رحمه الله.
[2] المسماة : (نظم الدرر السنيّة في السِّير الزكية) .
[3] السيد جعفر بن حسن البرزنجي الحسيني - والبرزنجي نسبة الى قرية (برزنجة) ببلاد الأكراد - ولد في المدينة المنورة عام ١١٢٨ هـ وتوفي عام ١١٧٧ هـ
من مؤلفاته رضي الله عنه :
المولد النبوي الشريف المسمى : (عقد الجوهر في مولد النبي الأزهر) .
[4] الوابل : مطر السماء الغزير .
[5] واسم المختصر : (التجريد الصريح لأحاديث الجامع الصحيح) لمؤلفه الحافظ أحمد بن أحمد بن عبد اللطيف الزبيدي المتوفى سنة ٨٩٣ هـ رحمه الله ورضي عنه

وذلك في أول مراحل دراستي في الخسروية .
ثم وفقني الله تعالى إلى كتاب [تيسير الوصول] [1] المختصر من كتاب جامع جامع الأصول[2] ، وكانت النسخة في مكتبة سيدي ووالدي رضي الله عنه ، وكانت جيدة الورق والطباعة ، فأخذت الأجزاء الأربعة وبدأت بحفظها لمّا كنت في المدرسة الخسروية ، فكنت أحفظ في كل عطلة صيفية جزءاً حتى حفظت الأجزاء حفظاً متقناً ، لأني كنت لا أحفظ شيئاً جديداً إلا بعد أن أراجع المحفوظ السابق وأتمكّن منه .
قال الشيخ الإمام رضي الله عنه :
وإن أيام حفظي لكتاب الله تعالى وأيام حفظي لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم هي من أسعد الأيام التي مرّت علي ، إذ كنت أشعر بتجليات ربانية ونفحات محمدية تغمرني بالبهجة والسعادة ، ولم يكن يدفعني إلى ذلك إلا حبي لكلام الله تعالى وحبي لكلام سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وليس لي مقصد آخر ، ولم أُطْلع على ذلك أحداً ، ثم إنه بعد خروجي من المدرسة الخسروية جعلت أقرأ كتب الحديث من (جوامع الصحاح) ، و(السنن)، و(الترغيب والترهيب) للحافظ المنذري[3]،

---

[1] لمؤلفه الحافظ الإمام : وجيه الدين عبد الرحمن بن علي الزبيدي المشهور بـ (ابن الديبع) - والديبع بفتح الدال وبالياء الساكنة فالباء المفتوحة آخره عين، ومعناه بلغة السودان : (الأبيض)، وهو لقب جده عليّ بن يوسف ، وقد توفي سنة ٩٤٤ هـ

[2] لمؤلفه : ابن الأثير القاضي العلامة مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد الشيباني الجزري ثم الموصلي ، عاش ثلاثاً وستين سنة ، توفي سنة ٦٠٦ هـ بالموصل رحمه الله .
أما عن كتاب جامع الأصول فقد اطلع ابن الأثير الشيباني على كتاب رزين بن معاوية السرقسطي إمام الحرمين المتوفى سنة ٥٣٥ هـ (تجريد الصحاح) الذي جمع فيه بين البخاري ومسلم، والترمذي، وأبي داود، والنسائي فوجد أنه كتَبَ أحاديث كثيرة، وقارن بينه وبين أصول الكتب الستة التي جمع بينها، فرأى أحاديث كثيرة لم يذكرها، فقام بتهذيب كتابه وترتيب أبوابه، وتسهيل مطلبه، وأضاف إليه ما حُذف من الأصول، وأتبعه شرح ما في الأحاديث من الغريب والإعراب والمعنى، وغير ذلك مما يزيده إيضاحاً وبياناً وأسماه (جامع الأصول في أحاديث الرسول) .

[3] الإمام العلامة الحافظ زكي الدين أبو محمد عبد العظيم بن عبد القوي بن عبدالله بن سلامة المنذري الشامي الأصل ، المصري الشافعي وقد توفي سنة ٦٥٦ هـ رحمه الله ورضي عنه

و(مشكاة المصابيح) [1] ، وكنت أحفظ منها ما ليس موجوداً في (تيسير الوصول) .
وقد حصلت على أول نسخة طبعت من كتاب (جامع الأصول) ، وحصلت على الطبعة الثانية أيضاً واستعنت بها وأعجبني شرح مقدمة جامع الأصول لبعض أجلّة علماء الأزهر .
وفي تلك الفترة كنت قد حصلت على غرفة سيدي ووالدي رضي الله عنه في المدرسة الشعبانية [2] - وهي غرفته أيام طلبه العلم ومجاورته فيها حتى صار من أساتذة المدرسة الشعبانية - التي كانت تعرف وقتئذ : بـ (أزهر حلب)، لِما خرّجت من أكابر العلماء ، ولِما فيها من مناهج علمية عالية - .
قال الشيخ الإمام رضي الله عنه :
وقد جاورت في تلك الغرفة ما يقرب من سنتين ، لا أذهب إلى البيت إلا لقضاء حاجات أمي وامتثال أوامر شيخي ووالدي رضي الله عنه .
وتناولت في تلك الفترة مطوّلات الكتب في أمهات العلوم من التفسير والحديث والتوحيد والفقه ، وقد قرأت بقية كتب الحديث من المسانيد والمعاجم كـ (مسند الإمام أحمد) رضي الله عنه الذي قرأته قراءة سريعة على وجه الاطلاع ، وفهْرستُ بعض الأحاديث له .
وقد لازمت حضور درس الفقه في المدرسة الاسماعيلية عند الشيخ العلامة الكبير الفقيه الأصولي الشيخ أحمد بن محمد عساف الحجي الكردي أمِين فتوى حلب ، المفتي العام في الديار الحلبية وقتئذ ، رحمه الله تعالى ، إذ كان يدرِّس الفقه عقب صلاة الظهر، فحضَرْت عليه الجزء الأول من كتاب (الدر المختار)[3] ، وأبحاثاً مهمة من باقي الأجزاء .

[1] اعتمد مصنفه الإمام التبريزي - المتوفى سنة (٧٤١ هـ) - رحمه الله في تأليفه على كتاب مصابيح السنة للفراء البغوي - المتوفى رحمه الله في ١٧ شوال سنة ٥١٦هـ - وذلك أنه وجد هذا الكتاب أجمع كتاب صنف في الباب ، حيث جمع فيه معظم مايحتاجه المسلم من أحاديث العقيدة والفقه ولكن صاحب المصابيح أغفل إسناد بعض الأحاديث، ولم يذكر مخرّجيها، فجاء الخطيب التبريزي، فذكر ما أغفله صاحب المصابيح، وأودع كل حديث في مقره

[2] وهي الغرفة الثانية من الجهة الشرقية بعد باب المدرسة ، وإلى جانبها غرفة الشيخ الكبير الشهير الشيخ ياسين سريو المتوفى سنة ١٣٨٦ هـ رحمه الله رحمة واسعة .

[3] (الدر المختار شرح تنوير الأبصار) في فقه مذهب الإمام أبي حنيفة لمؤلفه الإمام العلامة محمد علاء الدين بن علي الحصكفي المتوفى : ١٠٨٨هـ رحمه الله تعالى وقد ألف الإمام ابن عابدين حاشيته على الدر المختار وسماها :
(رد المحتار على الدر المختار) وتُعرف باسم : (حاشية ابن عابدين)

وكان الشيخ أحمد الكردي رحمه الله تعالى من جملة أساتذتي في المدرسة الخسروية ، وحضرت عليه قراءة فقه العبادات من (الميداني على القدوري) [1]في الصف الثاني ، إلا أنه ترك المدرسة لما بُدّلت مناهجها .

والعلامة ابن عابدين هو محمد أمين بن عمر بن عبد العزيز بن أحمد بن عبد الرحيم بن محمد صلاح الدين وعرف بـ (ابن عابدين)، وهي شهرة تعود إلى جدّه محمد صلاح الدين الذي أُطلق عليه هذا اللقب لصلاحه ، توفي سنة ١٢٥٢ هـ

[1] كتاب : (اللباب في شرح الكتاب) شرح فيه الميداني كتاب القدوري في الفقه الحنفي ، مؤلفه الإمام العلامة الشيخ عبد الغني بن طالب بن حماده بن سليمان الغنيمي الدمشقي الحنفي الشهير بـ (الميداني) توفي سنة ١٢٩٨ هـ رحمه الله تعالى
أما الإمام القدوري فهو أبو الحسين أحمد بن أبي بكر محمد بن أحمد بن جعفر بن حمدان، الفقيه البغدادي المعروف بـ (القدوري)
وقد توفي في بغداد سنة ٤٢٨ هـ رحمه الله تعالى .

سلوكه طريق العبادة والتقرب إلى الله تعالى

لقد حبب الله تعالى إلى شيخنا الإمام رضي الله عنه منذ صغره حبَّب إليه تلاوة القرآن الكريم ، وقراءة كتاب : (دلائل الخيرات) في الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم للإمام الجزولي[1] رضي الله عنه .
وبعد أن استظهر القرآن الكريم وهو ابن ثلاث عشرة سنة ، كان يختم القرآن الكريم كل سبعة أيام ، وربما في ثلاثة ، خاصة في الأيام الفاضلة كأيام رمضان وعشر ذي الحجة وهكذا ، لأنه كان أيضاً يراجع محفوظاته من الأحاديث الشريفة وأمهات المتون ، وكان يقرأ كل يوم أيضاً مجموعة (الصلوات الإدريسية) وهي عدة منظومات في الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، من نظْم الإمام العارف بالله تعالى الشيخ أحمد بن إدريس رضي الله عنه [2].
وكانت هذه المجموعة وشروحها موجودة في مكتبة والده الإمام الشيخ محمد نجيب رضي الله عنه ، وكانت تعجبه كثيراً ، وينشرح لقراءتها لِما فيها من أسرار ومعان عرفانية عالية .
ثم وفقه الله تعالى إلى قراءة أوراد السادة الرفاعية رضي الله عنهم ، خاصة كتاب : (السير والمساعي في أوراد سيدي أحمد الرفاعي) رضي الله عنه ، وكذلك (حزب الفرج) لسيدي أحمد الرفاعي رضي الله عنه أيضاً .
ثم جَمَعَ رسالة في الأذكار والأدعية المأثورة عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصباح والمساء ، وكانت هذه من جملة أوراده اليومية رضي الله عنه .
وكانت له أوراد في الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم بأعداد كبيرة ، وأوراد خاصة ببقية الطرق : كالطريقة القادرية ، والطريقة البدوية رضي الله عن أهل الطريق أجمعين .
وأما عن قيامه في الليل للتهجد ، فلم يَدَعْه منذ صغره حتى آخر أيام عمره المبارك ، كما أخبرتنا بذلك الوالدة الكريمة رحمها الله رحمة واسعة .

---

[1] الإمام أبو عبد الله محمد بن سليمان الجزولي
توفي سنة ٨٧٠ للهجرة رحمه الله تعالى ورضي عنه .

[2] هو سيدي أحمد بن إدريس الحسيني أبو العباس صاحب الطريقة الأحمدية المشهورة في المغرب ولد رضي الله عنه سنة ١١٧٢ هـ في ميسور - من قرى فارس - في المغرب وتوفي في اليمن سنة ١٢٥٣ هـ رحمه الله ورضي عنه

وكان يجهر في قيامه بتلاوة القرآن ، وبالأدعية المأثورة عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قلت : وكثيراً ما كان شيخنا الإمام رضي الله عنه يحث على قيام الليل ويرغّب فيه في مجالسه العامة والخاصة ، ويقول :

[لقد دلت أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الواردة في ذلك على أن من أراد خير الدنيا والآخرة ، والوصول السريع إلى مقامات القرب من الله تعالى : فعليه بالمواظبة على قيام الليل ، ولو قبيل الفجر بوقت يسير ، لئلا تفوته ساعة التجلي الأكبر على العباد بالجود والعطاء].

وكان رضي الله عنه إذا أراد أن يختم القرآن الكريم جمع من كان في البيت من أولاده وأحفاده وشرع في الختم ثم الدعاء ، وذلك عملاً بما جاء عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال مولانا الشيخ رضي الله عنه في كتاب (الدعاء)

في بيان أن من أوقات الإجابة : الدعاء عند ختم القرآن الكريم :

روى الطبراني عن العرباض بن سارية رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

[من صلى صلاة فريضة فله دعوة مستجابة ،
ومن خَتَمَ القرآن فله دعوة مستجابة] [1]

وروى الدارمي في سننه عن حميد الأعرج قال :

[من قرأ القرآن ثم دعا أمّن على دعائه أربعة آلاف ملك].

وروى أيضاً عن ثابت رضي الله عنه قال :

[كان أنس رضي الله عنه إذا ختم القرآن جَمَعَ ولده وأهل بيته فدعا لهم]

وروى أيضاً عن أبي قلابة رَفَعَهُ قال :

[من شَهِدَ القرآن حين يُفتتح فكأنما شهد فتحاً في سبيل الله تعالى ،
ومن شهد ختمه فكأنما شهد الغنائم حين تُقسم] .

وروى ابن النجار في تاريخه عن رزين بن حصين رضي الله عنه قال :

[قرأت القرآن من أوله إلى آخره على علي رضي الله عنه فلما بلغتُ الحواميم قال لي : قد بلغتَ عرائس القرآن ، فلما بلغت اثنتين وعشرين آية من { حم عسق } بكى ثم قال :

---

[1] انظر [الجامع الصغير] وقد روى البيهقي وكذا الخطيب وابن مردويه نحو هذا . اهـ ، وقد ذكر سيدنا الشيخ رضي الله عنه روايات الحديث في كتاب : [تلاوة القرآن المجيد] في فصل استحباب الدعاء عند ختم القرآن الكريم .

(اللهم إني أسألك إخبات المخبتين ، وإخلاص الموقنين ، ومرافقة الأبرار ، واستحقاق حقائق الإيمان ، والغنيمة من كل بِر ، والسلامة من كل إثم ، ورجوتُ رحمتك ، والفوز بالجنة والنجاة من النار) .
ثم قال : يا رزين إذا ختمت فادع بهذه فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرني أن أدعو بهن عند ختم القرآن .[١]
وقال مولانا الشيخ في كتابه [تلاوة القرآن المجيد] :
قال الإمام النووي رحمه الله تعالى :
ويستحب حضور مجلس ختم القرآن استحباباً متأكداً فقد ثبت في الصحيحين : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر الحيّض بالخروج يوم العيد ليشهدن الخير ودعوة المسلمين .
وروى الدارمي وابن أبي داود بإسنادهما عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان يجعل رجلاً يراقب رجلاً يقرأ القرآن فإذا أراد أن يختم أَعلَمَ ابن عباس رضي الله عنهما فيشهد ذلك .
وأخرج الطبراني بإسناد الثقات عن أنس رضي الله عنه أنه كان إذا ختم القرآن جمع أهله ودعا .
وعن الحكم بن عتيبة قال : أرسل إلي مجاهد وعبدة بن أبي لُبابة فقالا : إنا أرسلنا إليك لأنا أردنا أن نختم القرآن ، والدعاء يُستجاب عند ختم القرآن ، وإنه كان يقال : إن الرحمة تنزل عند خاتمة القرآن .
وقال مجاهد : كانوا يجتمعون عند ختم القرآن يقولون : تنزل الرحمة [٢] اهـ .
قلت : وكان شيخنا الإمام رضي الله عنه في السنوات الأخيرة من عمره المبارك يختم القرآن الكريم كل ثلاثة أو أربعة أيام .
ويا ليت عين كل مؤمن تنظر إلى تلألؤ وجهه بالبهاء والنور ، خاصة حينما كان يقرأ القرآن أو يدعو الله تعالى .

---

[١] انظر الدر المنثور للإمام السيوطي ٦٣/٩
كما عزاه إليه شيخنا الإمام في كتاب (الدعاء) ص ١٩١
[٢] انظر كتاب (تلاوة القرآن المجيد) للشيخ الإمام ص [١٣٤] وما بعدها .

إجازة الشيخ الإمام لكبار العلماء وإجازتهم له

نظراً لمكانة الشيخ الإمام العلمية ولما كان يحفظه رضي الله عنه من أحاديث كثيرة واطلاعه الواسع على كتب الحديث بادر كبار العلماء والمحدثين إلى إجازته للرواية عنهم بما أجازهم به شيوخهم ، واستجازته بما أجازه به شيوخه ، وكان أول من أجاز شيخنا الإمام رضي الله عنه والده الإمام العارف بالله تعالى المحدّث العلامة المفسر الشيخ محمد نجيب سراج الدين الحسيني الحلبي الحنفي رضي الله عنه - وكان ذلك لمّا بدأ شيخنا الإمام – وكان في العشرينات من عمره المبارك - ، بدأ التدريس نيابة عن والده الشيخ محمد نجيب رضي الله عنه - فأجازه والده العلامة بجميع مالَه من مسموعات ومرويات ومقروءات من الحديث الشريف والتفسير المنيف وهذا نص الإجازة :

[بسم الله الرحمن الرحيم

وإنني محمد نجيب سراج الدين قد أجزت ابني عبد الله سراج الدين بجميع مسموعاته مني ، وجميع مالِي من مرويات ومقروءات ومسموعات ، وبما سمعه مني ، وما لم يسمعه مني ، من الحديث الشريف والتفسير المنيف ، راجياً من الله تعالى أن لا يقطع هذه السلسلة الطاهرة المباركة ، إنه لسميع الدعاء]

محمد نجيب سراج الدين

وهذه إجازة أستاذه الشيخ محمد خير الدين اسبير له :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله تعالى، والصلاة والسلام على سيدنا محمد تتوالى .. أما بعد :

فيقول الراجي عفو ربه ومغفرته محمد خير الدين بن الشيخ محمد بن الشيخ مصطفى اسبير المقيم بمدينة حلب الشهباء ، وفقه الله تعالى والمسلمين لما فيه الخير وخدمة العلم والعلماء :

قد طلب إلي صاحب الفضيلة العالم العامل والمرشد الكامل التابع الفياض الأستاذ الشيخ : عبد الله نجل المرحوم سيدي وشيخي العلامة النّحرير والعارف الكبير الشيخ محمد نجيب سراج الدين أغدق الله عليه من سحائب رضوانه ، بأن أحدّثه بحديث الرحمة المتسلسل بالأوّلية الحقيقية ، وأن أُسمعه إياه وأجيزه به .

فحدثته وأسمعته إياه ، وهو أول حديث سمعه مني بالأولية الإضافية فإني أرويه بالسماع والإجازة عن الأخ في الله الهائم بذكر الله والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله شيخ السجادة المولوية المرحوم الشيخ يوسف بن المرحوم مصطفى دادا المقيم بمدينة حلب ، وهو يرويه عن العلامة الفاضل مفتي دمشق الشيخ عطاء الله بن السيد إبراهيم الشهير بـ (الكسم) رحمه الله ، عن شيخه العالم العلّامة والعمدة الفهّامة سيدي الأستاذ الشيخ عبد الله بن السيد درويش الركابي الشهير بـ (السكّري) من ذرية القطب الكبير العارف الشهير سيدي الشيخ أحمد الرفاعي ، وهو يرويه بالسماع عن العالم العلامة والعمدة الفهامة الشيخ عبد اللطيف فتح الله مفتي بيروت ، وهو أول حديث سمعته منه ، وهو يرويه بالأولية الحقيقية عن الشيخ العلامة الشيخ المنجي الطرابلسي وهو يرويه بالأولية الحقيقية عن محدث البلاد الشامية شارح صحيح الإمام البخاري الشيخ إسماعيل العجلوني الجراح .

قال في ثبته : حدثنا شيخنا محمد الوليدي المكي وهو أول حديث سمعته منه حين اجتماعي به في مكة المشرفة في دار الخيزران في سنة ثلاث وثلاثين ومائة وألف حين حَجَجْت .

قال : وهو أول حديث سمعته من شيخنا أحمد بن محمد البنا الدمياطي قال : وهو أول حديث سمعته من الشيخ محمد بن عبد العزيز المتوفى المعمّر ، قال : وهو أول حديث سمعته من أبي الخير بن عموس الرشيدي ، قال : وهو أول حديث سمعته من شيخ الإسلام زكريا ، قال : وهو أول حديث سمعته من الحافظ ابن حجر العسقلاني ، قال : حدثنا الصلاح محمد الحكري الصوفي وهو أول حديث سمعته منه ، قال : حدثنا الحافظ زين الدين العراقي وهو أول حديث سمعته منه ، قال : حدثنا أبو الفتح محمد الميدومي ، وهو أول حديث سمعته منه ، قال : حدثنا أبو الفرج عبد اللطيف بن عبد المنعم الحراني ، وهو أول حديث سمعته منه ، قال : حدثنا أبو الفرج عبد الرحمن الجوزي وهو أول حديث سمعته منه ، قال : حدثنا أبو سعيد إسماعيل النيسابوري وهو أول حديث سمعته منه ، قال : حدثنا والدي أحمد أبو صالح المؤذن وهو أول حديث سمعته منه ، قال : حدثنا أبو طاهر محمد الزيادي وهو أول حديث سمعته منه ،قال : حدثنا أحمد بن محمد البزاز وهو أول حديث سمعته منه ، قال : حدثنا عبد الرحمن بن بشير النيسابوري وهو أول حديث سمعته منه ، قال : حدثنا سفيان بن عيينة وهو أول حديث سمعته منه ، عن عمرو بن دينار عن أبي قابوس مولى عبد الله بن عمرو بن العاص عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

[الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء] [1] .
وفي رواية : [ارحموا أهل الأرض يرحمكم من في السماء] [2] .
وقوله [يرحمكم] : قال في الإسعاف : بالرفع في الرواية كما قاله البرهان العمادي فالجملة دعائية مستأنفة ، ونقل مثله عن النجم الغزي ، ولا يمتنع الجزم ، وهذا الحديث عظيم مروي عن أئمة الحفاظ وفيه تحريك لسلسلة الرحمة من أول وهلة .
قال شيخ مشايخنا إبراهيم الكوراني في كتابه :
(مسالك الأبرار إلى أحاديث النبي المختار) :
إن الحافظ العراقي قال في رواية بلفظ :
[الراحمون يرحمهم الرحمن تبارك وتعالى ، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء] .
هذا حديث صحيح أخرجه أبو داود عن أبي بكر ابن أبي شيبة .. إلى آخر ما نقله ..، وقد نظمه كثيرون منهم الحافظ ابن حجر العسقلاني فقال :

إن من يرحم أهل الأرض قد ... آن أن يرحمه مَن في السما
فارحم الخلق جميعاً إنما ... يرحم الرحمن منّا الرحما

وكذلك أرويه بطريق الأولية الحقيقية عن الشيخ التميمي شيخ عباس خديوي مصر ، وهو يرويه بالأوّلية الحقيقية عن العلامة الشهير محمد الأمير الكبير ، وأخبرني أنه عاده وكان مفلوجاً وطلب منه سماع الحديث المسلسل بالأولية فأسمَعَه إياه وأجازه به ، وسنده مذكور في ثبته .
وكذلك أرويه بطريق الأولية الحقيقية عن العالم الفاضل الشيخ محمد القاوقجي بسنده المذكور في ثبته ، ثم إني أذنت له بأن يجيز به من هو أهل لذلك ، وكذلك صافحته بكفي هذا الذي هو أربعة عشر كفاً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإني قد صافحت بكفي هذا حضرة الأخ في الله الصوفي المخلص الشيخ يوسف المولوي ، وهو قد صافح بكفه فضيلة الشيخ عطاء الله مفتي دمشق الشهير بـ (الكسم) رحمه الله تعالى ، وهو قد صافح بكفه العالم العلامة الشيخ عبد الله بن السيد درويش الركابي الشهير بالسكري من ذرية القطب الكبير سيدي أحمد الرفاعي ، وهو قد صافح بكفه كلاً من شيخنا فقيه النفس المكنّى بأبي حنيفة الصغير الشيخ سعيد الحلبي ، وشيخنا المحدث الكبير الشيخ عبد الرحمن الكزبري ،

---

[1] سنن الترمذي كتاب البر والصلة
[2] سنن أبي داود كتاب الأدب والمسند ٦٢٠٦

وهما يرويانه عن والد الثاني العلامة الشيخ محمد الكزبري ، وهو يرويه عن المسند المحدث الشيخ محمد بن أحمد عقيلة المكي قال في مسلسلاته :
وقد صافحني شيخنا ومولانا وبركتنا الشيخ أحمد بن محمد النخلي ، وقال : صافحني العارف بالله تعالى مولانا الشيخ تاج الدين النقشبندي قال :
صافحني الشيخ عبد الرحمن الشهير بـ (حاجي رمزي) وقال : صافحني الشيخ الحافظ علي الأوبهي قال : صافحني الشيخان : الشيخ محمود الاسفزازي ، والسيد أمين علي الهمداني قال : صافحنا الشيخ أبو سعيد الحبشي الصحابي المعمر
قال : صافحني النبي صلى الله عليه وسلم .
ثم قال المسند المحدث الشيخ محمد بن أحمد عقيلة المكي في مسلسلاته :
هذا السند كله مشتمل على الثقات الأجلاء العلماء العرفاء ، وعلى هذا السند رونق القبول .
فحينئذ تكون يد سيدنا الأستاذ العلامة الشيخ عبد الله الركابي الشهير بالسكري اليد الحادية عشرة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ،ويد شيخي وأستاذي عطاء الله بن السيد إبراهيم مفتي دمشق الشهير بالكسم اليد الثانية عشرة .
ويرويه بسند آخر متصل بالمعمر أبي العباس الملثم قال :
كذلك صافحني رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال :
[من صافحني أو صافح من صافحني إلى يوم القيامة دخل الجنة][1] .
وأجزته بها وأنا خادم العلماء العاملين وأذنت له أن يصافح ويجيز أهل الصلاح ، وحررت له هذه الإجازة في شهر ربيع الثاني سنة ١٣٧٦ للهجرة . اهـ .

محمد خير الدين اسبير

[1] والحديث المسلسل بالمصافحة ورد في بعض الأسانيد من ستة طرق : اثنان من طريق أبي سعيد الحبشي وأربعة من طريق المعمّر أبي عبد الله

ولقد استجاز الشيخَ الإمام رضي الله عنه كبارُ علماء بلاد الشام والمغرب والحجاز لما علموا من أسانيده العالية فأجازهم وأجازوه ، وهذا ما يعرف عند أهل الحديث بـ (التدبيج) [١]، وهو رواية الأقران ، وإليك بعضاً من هذه الإجازات :

أولاً : إجازة الشيخ المحدّث السيد حسن المشّاط للشيخ الإمام :

وقد أجاز المحدث العلامة الشيخ حسن بن محمد المشاط المكي المالكي[٢] الشيخ الإمام إجازة عامة مطلقة تامة بقوله له :

(أجزتك بمالي من مرويّات وأسانيد ومصنفات) .

ومن مصنفاته كتابه :(الإرشاد بذكر بعض مالي من الإجازة والإسناد) ونص إجازته :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وكفى ، وسلام على عباده الذين اصطفى ، أما بعد :

فإني أروي عن عدة شيوخ ولهم في العلم قدم ورسوخ ، منهم : مولانا محمد حبيب الله عن سيدي محمد بن جعفر الكتاني عن السيد علي بن ظاهر الوتري [ح] وعن السيد علي الوتري بالإجازة العامة عن الشيخ أحمد منّة الله الشباسي عن العلامة الأمير الكبير ، وباقي السند في ثبته ، ومنهم الشيخ عمر باجنيد عن السيد أحمد دحلان عن الشيخ عثمان بن حسن الدمياطي عن الشيخ محمد الشنواني ، وباقي السند في ثبته الشهير ، ومنهم السيد محمد عبد الحي الكتاني صاحب (فهرس الفهارس) المشتمل على اثني عشر مئة من الأثبات أو أكثر ، ومنهم غير ذلك .

وقد أجزت بكل مالي من رواية ودراية ومصنّف ومؤلّف :

الأخ الفاضل النّابِه الشيخ عبد الله سراج الدين الحلبي إجازة عامة مطلقة تامة راجياً له من الله تعالى مزيد العلم والعمل والقيام بتعليم أبناء المسلمين والأخذ على أيدي المبتدعين والجهاد في سبيل العلم ونصرة هذا الدين .

وفقنا الله تعالى وإياه لما فيه الرضا ، وأوصيه ونفسي بتقوى الله عز وجل وأن لا ينساني من دعائه الصالح .

أبو علي حسن محمد مشاط

---

[١] والتدبيج مأخوذ من ديباجتي الوجه أي تساويهما في الهيئة والشكل

[٢] هو الشيخ أبو علي حسن بن محمد بن عباس بن علي بن عبدالواحد المشّاط المكي المالكي ، من مؤلفاته : (إنارة الدجى - الجواهرالثمينة - رفع الأستار - التقريرات السنيّة) توفي بمكة المكرمة سنة ١٣٩٩ هـ رحمه الله تعالى ورضي عنه

ثانياً : وأجازه المحدث العلامة الشيخ محمد مكي الكتّاني [1]الحسني المغربي ثم الدمشقي الذي روى عن والده السيد محمد بن جعفر الكتاني الحسني المغربي عن الشمسي محمد أمين بن عبد الغني البيطار عن محمد بن علي التميمي التونسي ثم المصري عن شيخه العلامة أبي عبد الله محمد بن محمد الأمير الكبير بما في ثَبْته .

وأجازه بما يجوز له وعنه روايته ، وبما أُجيز به من شيوخه بما يجوز لهم وعنهم روايته .

وروى السيد محمد مكي الكتّاني الحسني عن والده السيد محمد بن جعفر الكتاني عن المحدث الشيخ علي بن ظاهر الوتري عن شيخه المحدث الشيخ عبد الغني الدهلوي المدني عن الشيخ محمد عابد السندي عن الشيخ يوسف بن علاء المزجاجي عن المحدث العلامة الشيخ إبراهيم بن حسن الكوراني صاحب الثبت بما في ثبته : (الأمم لإيقاظ الهمم) .

وروى السيد محمد مكي عن والده محمد بن جعفر الكتاني عن القاضي أحمد بن الطالب بن سودة القرشي الفاسي [2]عن سيدي محمد بن علي السنوسي بما في أثباته المشهورة .

وعن شيخه السيد عبد الكبير والد محمد عبد الحي الكتاني وعن عمه السيد أحمد بن جعفر الكتاني وعن عبد الباقي بن علي الأنصاري اللكنوي وعن الشيخ عبد القادر بن توفيق الشلبي وعن المحدث الأكبر المسند الشيخ بدر الدين محمد بن يوسف الحسني الدمشقي ، وعن مفتي دمشق الشيخ عطاء الله بن إبراهيم الكسم الدمشقي ، وعن أبي الخير محمد بن أحمد بن عمر بن عبد الغني عابدين الحسني الدمشقي الحنفي ، وعن الشيخ يوسف بن إسماعيل البيروتي النبهاني رحمهم الله تعالى وإيانا . آمين . اهـ

---

[1] رئيس رابطة العلماء مفتي المالكية محمد مكي بن محمد بن جعفر الكتاني الحسني وقد توفي في دمشق سنة ١٣٩٣ هـ رحمه الله ودفن في مقبرة أسرته بالباب الصغير

[2] نسبة إلى مدينة فاس التي هي ثاني أكبر مدن المملكة المغربية وقد تأسست مدينة فاس على يد إدريس الثاني الذي جعلها عاصمة الدولة الإدريسية بالمغرب

أما مرويات الشيخ الإمام رضي الله عنه عن السيد محمد مكي الكتاني رضي الله تعالى عنه :
فإن الشيخ الإمام المحدِّث المفسِّر العلامة الشيخ عبد الله سراج الدين الحسني الحلبي الحنفي يروي عن مجيزه السيد الشيخ محمد مكي الكتاني الحسني عن والده السيد محمد بن جعفر الكتاني عن الشمسي محمد أمين بن عبد الغني البيطار عن محمد بن علي التميمي التونسي ثم المصري عن شيخه المحدث العلامة محمد بن محمد الأمير الكبير بما في ثبته :
(سد الأرب من علوم الإسناد والأدب).
ويروي عن مجيزه السيد محمد مكي عن والده السيد محمد جعفر الكتاني الحسني عن الشيخ علي بن ظاهر المدني بما في : (التحفة المدنية في المسلسلات الوترية) ، عن شيخه المحدث عبد الغني بن أحمد الدهلوي بما في ثبته :(اليانع الجني في أسانيد عبد الغني).
عن شيخه المحدث الشيخ محمد عابد السندي الأنصاري المدني بما في ثبته (حصر الشارد في أسانيد محمد عابد) ، عن الشيخ يوسف بن علاء المزجاجي ، عن شيخه المحدِّث العلامة برهان الدين الشيخ إبراهيم الحسني الكوراني ثم المدني بما في ثبته :(الأمم لإيقاظ الهمم].
ويروي عن مجيزه السيد محمد مكي الكتاني عن والده السيد محمد بن جعفر عن القاضي أحمد بن الطالب القرشي عن الحافظ الشيخ محمد بن علي السنوسي الحسني بما في أثباته المشهورة ومنها :(الشموس الشارقة في ما لنا من أسانيد المغاربة والمشارقة].
(ح] ويروي عن مجيزه السيد محمد مكي عن عمه أحمد بن جعفر عن مشايخه بأسانيدهم .
(ح] ويروي عنه عن السيد عبد الكبير (ح] وعنه عن أبي شعيب الدكالي
(ح] وعنه عن مسند المدينة المنورة الشيخ عبد الباقي الأنصاري اللكنوي
(ح] وعنه عن نعمان وقته المحدث الشيخ عبد القادر بن توفيق الشلبي المدني بأسانيدهم
ويروي الشيخ الإمام رحمه الله تعالى عن مجيزه السيد محمد مكي الكتاني الحسني المغربي ثم الدمشقي عن شيخه المحدث الأكبر المُسند العلامة الشيخ بدر الدين محمد بن يوسف الحسني الدمشقي بأسانيده المشهورة بإجازاته ومشايخه .
ومنه عن والده السيد يوسف بن عبد الرحمن الملقب ببدر الدين الحسني البيباني المصري ثم الدمشقي الشافعي بما في أسانيده ومروياته .

ويروي عن مجيزه السيد محمد مكي الكتاني عن سماحة الشيخ عطاء الله بن إبراهيم الكسم مفتي الحنفية بدمشق عن شيخه سليم العطار عن جده الشيخ حامد العطار عن والده الشهاب أحمد العطار الدمشقي عن شيخه محمد الغزي الشافعي عن الشيخ محمد ابن أحمد العجمي القاهري عن الشيخ محمد الشوبوري عن الشمسي محمد الرملي عن شيخ الإسلام القاضي زكريا الأنصاري عن الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني بما في معجمه بأسانيده الكثيرة .

ويروي عنه عن شيخه العلامة أبي الخير محمد بن أحمد عابدين الحسني الدمشقي عن والده أحمد بن عمر عابدين وعن ابن عمه الشيخ علاء الدين وهما عن خاتمة المحققين علامة الزمن السيد محمد أمين بن عمر عابدين عم الأول ووالد الثاني بما في ثبته (عقود اللآلي في أسانيد العوالي][1]

ويروي عن مجيزه السيد محمد مكي الكتاني عن الشيخ العلامة القاضي الشيخ يوسف بن إسماعيل النبهاني البيروتي بما في ثبته (هادي المريد إلى طرق الأسانيد) .

ويروي عن مجيزه السيد محمد مكي الكتاني الحسني عن مسند الحجاز الشيخ عبد الباقي بن علي اللكنوي الأنصاري المدني عن ابن خالته الشيخ عبد الحي بن عبد الحليم اللكنوي عن الشيخ عبد الغني بن أحمد الدهلوي العمري المدني بما في ثبته (اليانع الجني في أسانيد عبد الغني).

ويروي عن مجيزه السيد محمد مكي الكتاني الحسني عن شيخه مسند الحجاز الشيخ عبد الباقي اللكنوي الأنصاري المدني بما في أثباته الثلاثة : (الإسعاد بالإسناد) و(نشر الغوالي من الأسانيد العوالي) و (المناهل السَّلسَلة في الأحاديث المسلسلة).

ويروي عن مجيزه السيد محمد مكي الكتاني عن نعمان وقته وفريد عصره المحدث الشيخ عبد القادر بن توفيق الشلبي الطرابلسي المدني الحنفي نزيل المدينة المنورة ، عن شيخه المحدث الشيخ حسين الجسر صاحب (الرسالة الحميدية) عن السيد محمد علاء الدين عن والده العلامة محمد أمين بن عمر عابدين الحسني الدمشقي الحنفي عن المعمر الشيخ محمد بن صالح الفلاني المدني عن المعمر الشيخ محمد بن محمد بن سنة العمري عن المعمر مولانا الشريف محمد بن عبد الله الولاتي عن محمد بن أركماس

---

[1] ويحوي على أربعين ثبتاً بيّن ابن عابدين إسنادها فيه وهو مطبوع موجود عند الشيخ محمد عابدين المفتي العام السابق رحمه الله تعالى في مكتبته الخاصة في منزله آخر سوق صاروجا جوار جامع الورد .

الحنفي عن الحافظ الإمام أحمد بن علي بن حجر العسقلاني بأسانيده [1]
وبما لنعمان وقته وفريد عصره من أسانيد وأثبات .

[1] ومعجم ابن حجر مخطوط موجود في المكتبة العثمانية برقم (١٤٢خاص) .
وأسانيد الشيخ عبد القادر بن توفيق الشلبي المدني الحنفي بإجازته لشيخنا الحجة علم الدين أبي الفيض الشيخ محمد ياسين الفاداني المكي الشافعي مُسَجَّلة في كتابه :
(الروض النضير) صفحة ٤١و٤٩

مرويات الشيخ الإمام رضي الله عنه لكتب الحديث

إن مرويات الشيخ الإمام رضي الله عنه كثيرة ، ونذكر منها الكتب الستة في الحديث الشريف :
أولاً : روايته صحيح الإمام البخاري رضي الله تعالى عنه :
فهو يروي الجامع الصحيح للإمام البخاري بسند عالٍ عن والده العلامة المحدّث المفسر الشيخ محمد نجيب سراج الدين الحسيني الحلبي الحنفي عن العلامة المحدث مُسند الديار المغربية أبي الإسعاد وأبي الإقبال السيد محمد عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني الحسني المغربي الفاسي [1] عن المعمّر أحمد بن الملا صالح السويدي البغدادي الشافعي عن نادرة المتأخرين السيد محمد مرتضى الزبيدي الحسيني عن المعمر محمد بن سنة الفلاني عن الشيخ أحمد بن العجل اليمني عن القطب محمد بن أحمد النهروالي عن أبي الفتح أحمد بن أبي الفتوح الطاوسي عن المعمّر بابا يوسف الهروي عن محمد بن شاذ بخت الفارسي الفرغاني عن أبي لقمان يحيى بن عمار بن شاهان الختلاني عن محمد بن يوسف الغربري عن الإمام محمد بن إسماعيل البخاري رضي الله تعالى عنه .
فبين الشيخ الإمام وبين الإمام البخاري اثنا عشر رجلاً من الرواة وهذا سند عال جداً ، وبينه وبين النبي صلى الله عليه وسلم باعتبار ثلاثيات البخاري خمس عشرة واسطة من الرواة ، وله طرق غيرها إلا أننا اقتصرنا على أعلى إسناده إلى صاحب الصحيح .

[1] نسبة إلى مدينة(فاس) المغربية

ثانياً: رواية الشيخ الإمام صحيح الإمام مسلم رضي الله تعالى عنه :
ويروي الإمام المحدّث الشيخ عبد الله سراج الدين عن والده العارف بالله تعالى الإمام المحدث الشيخ محمد نجيب سراج الدين الحسيني الحلبي الحنفي عن مجيزه المحدث العلامة الشيخ بكري بن محمد الزبري الحلبي الأزهري الشافعي الحنفي عن شيخه البرهان الشيخ إبراهيم بن محمد الباجوري الشافعي المصري عن شيخه محمد بن محمد الأمير الكبير المالكي عن شيخه المحدث الشيخ علي بن محمد العربي السقاط الفاسي [1] ثم المصري عن شيخه البرهان الشيخ إبراهيم بن موسى الفيومي عن شيخه المحدث الشيخ أحمد الفرقاوي عن شيخه المحدث الشيخ علي بن محمد الأجهوري عن شيخه نور الدين الشيخ علي بن أبي بكر القرافي عن الإمام الجلال السيوطي عن القاضي الشيخ صالح بن عمر البلقيني عن المحدث أبي إسحاق إبراهيم بن أحمد التنوخي عن تقي الدين سليمان بن حمزة المقدسي عن أبي الحسن علي بن الحسين المعروف بابن المنير البغدادي عن أبي الفضل محمد بن ناصر السلامي عن عبد الرحمن بن منده الأصبهاني عن أبي بكر محمد بن عبد الله الجوزقي الشيباني النيسابوري عن أبي الحسن مكي بن عبدان التميمي النيسابوري عن إمام السنة أبي الحسين الإمام المحدّث العلامة مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري رضي الله تعالى عنه .

[1] نسبة إلى مدينة فاس المغربية

ثالثاً : روايته سنن الإمام أبي داود رضي الله تعالى عنه :
ويروي الإمام المحدّث الشيخ عبد الله سراج الدين سنن أبي داود عن والده العارف بالله تعالى المحدّث الشيخ محمد نجيب سراج الدين عن مجيزه العلامة الشيخ كامل الحنبلي المُوقّت الحلبي عن والده المحدث العلامة الشيخ أحمد الحنبلي الموقت الحلبي عن والده المحدث العلامة الشيخ عبد الرحمن الحنبلي الموقت الحلبي عن والده المحدث العلامة الشيخ عبد الله موفق الدين الحنبلي الموقت الحلبي عن والده المحدث العلامة الشيخ عبد الرحمن بن عبد الله الحنبلي الشامي ثم الحلبي صاحب ثبت :(منار الإسعاد في طرق الإسناد) عن شيخه المحدث العلامة الشيخ محمد المواهبي عن جده المحدث العلامة أبي المواهب محمد الحنبلي الدمشقي عن والده المحدث العلامة تقي الدين عبد الباقي الحنبلي البعلي الدمشقي عن المحدث العلامة الشيخ عمر القاري عن البدر محمد بن محمد الغزي عن تقي الدين ابن قاضي عجلون عن الشيخ فخر الدين عن أبي حفص عمر بن محمد المعروف بابن طبر زد الدراوردي عن الفتح مفلح بن أحمد الدومي عن الحافظ أبي بكر البغدادي عن أبي عمر القاسم بن جعفر بن عبد الواحد الهاشمي عن أبي علي محمد بن أحمد اللؤلؤي عن الإمام أبي داود سليمان بن الأشعث الأزدي السجستاني صاحب السنن .
فبينه وبين الإمام أبي داود ثمانية عشر رجلاً من الرواة وهذا سند عال جداً.

رابعاً : روايته جامع الترمذي رضي الله تعالى عنه :
ويروي الإمام المحدّث الشيخ عبد الله سراج الدين يروي جامع الترمذي - ومِن أهل العلم والحديث مَن سمّاه : (سنن الترمذي) - يرويه عن والده العلامة المحدث المفسر العارف بالله تعالى الشيخ محمد نجيب سراج الدين عن مجيزه المحدث العلامة المسند الشيخ بدر الدين محمد بن يوسف المعروف بـ (المحدِّث الأكبر) الحسني الدمشقي عن شيخه المحدث العلامة برهان الدين الشيخ إبراهيم بن علي السقا عن شيخه الإمام المهذّب محمد بن سالم بن ناصر الفشني المعروف بالشيخ ثعيلب عن الشهاب أحمد بن عبد الفتاح الملوي والشهاب أحمد بن الحسن الجوهري كليهما عن شيخهما عبد الله بن سالم البصري المكي صاحب ثبت :
(الإمداد بمعرفة علو الإسناد) عن شيخيه زين العابدين وأخيه علي عن أبيهما المحدث العلامة السيد الشيخ عبد القادر بن محمد الطبري عن جده يحيى بن مكرم الطبري إمام مقام الخليل بمكة المكرمة عن جده الإمام محب الدين محمد بن محمد الطبري عن أبي بكر بن حسين المراغي المدني عن المعمّر المحدث الكبير المسند أبي العباس أحمد بن أبي طالب الحجار الصالحي الدمشقي عن أبي المنجا عبد الله بن عمر المعروف بابن اللتي عن عبد الأول بن عيسى السجزي عن المحدث محمود بن القاسم بن محمد الأزدي عن عبد الجبار بن محمد الجراحي المروزي عن الثقة أبي العباس محمد بن أحمد بن محبوب المحبوبي التاجر المروزي عن الحافظ الحجة أبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة السلمي البوغي الترمذي صاحب السنن رضي الله عنه .
فبين الشيخ الإمام وبين الإمام الترمذي سبعة عشر رجلاً من الرواة وهذا سند عال جداً .

خامساً : روايته سنن الإمام النسائي رضي الله تعالى عنه :
يروي الإمام المحدّث الشيخ عبد الله سراج الدين سنن الإمام النسائي عن مجيزه المحدث العلامة أبي علي الشيخ حسن بن محمد المشاط المكي المالكي عن شيخه المحدث العلامة المعمّر الشيخ محمد بن إبراهيم العربي المصري عن شيخه البرهان الشيخ إبراهيم بن محمد الباجوري الشافعي المصري عن شيخه المحدث العلامة محمد بن محمد الأمير الكبير المالكي عن شيخه نور الدين أبي الحسن الشيخ علي بن أحمد الصعيدي العدوي المالكي عن شيخه المحدث محمد بن أحمد بن عقيلة المكي عن شيخه المحدث الشيخ حسن بن علي العجيمي المكي عن المحدث الشيخ أحمد بن محمد العجل اليمني عن الإمام يحيى بن مكرم الطبري عن الحافظ عبد العزيز بن فهد المكي قال : أخبرنا المسند أبو اليمن محمد بن محمد بن عبد الله آل الزفتاوي قال : أخبرنا القاضي مجد الدين إسماعيل بن إبراهيم الكناني الحنفي قال : أخبرنا به الأصيل أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن عبد العزيز الأيوبي المعروف بابن المملوك سماعاً لجميعه إلا الجزء الأول فإجازة ، قال : أخبرنا به شاكر الله بن غلام الله بن الشمعة قال : أخبرنا به الصفي أبو بكر عبد العزيز بن أحمد بن باقا البغدادي قال : أخبرنا أبو زرعة طاهر بن محمد المقدسي قال : أخبرنا أبو محمد عبد الرحمن بن أحمد الدومي ، قال: أخبرنا أبو نصر أحمد بن حسين الكسار قال : أخبرنا الحافظ أبو بكر أحمد بن محمد الشهير بابن السني الدينوري عن مؤلفها الإمام الحافظ أبي عبد الرحمن أحمد بن علي بن شعيب بن علي النسائي صاحب السنن رضي الله عنه

سادساً : روايته سنن ابن ماجه رضي الله تعالى عنه :
ويروي الشيخ الإمام المحدّث عبد الله سراج الدين سنن ابن ماجه بسنده المارّ بروايته لسنن الترمذي إلى المحدث العلامة محب الدين محمد بن محمد الطبري عن الزين المراغي عن المحدث أحمد بن أبي طالب الحجّار الصالحي عن المسند عبد اللطيف بن محمد قال : أخبرنا أبو زرعة طاهر بن محمد المقدسي قال : أخبرنا أبو منصور محمد بن الحسين المقدسي قال :أخبرنا أبو طلحة القاسم بن أبي المنذر الخطيب قال :أخبرنا أبو الحسن علي بن إبراهيم القطان قال :أخبرنا مؤلفها الإمام أبو عبد الله محمد بن يزيد المعروف بابن ماجه الربعي القزويني الإمام السادس من المحدثين عند أهل السنة رضي الله عنه .

مروياته الإجمالية

ويروي الشيخ الإمام الكتب الحديثية كـ مسند أبي حنيفة ، وموطأ الإمام مالك ، ومسند الإمام الشافعي ، ومسند الإمام أحمد بن محمد بن حنبل ، ومسند الدارمي ، ومسند الدارقطني ، ومسند الطيالسي ، وسنن البيهقي ، وبقية السنن ، والشمائل المحمدية للترمذي ، والشفا للقاضي عياض اليحصبي ، والمعاجم للطبراني ، وغير ذلك من الكتب الحديثية الكثيرة عن طريق مجيزيه الذين سبق ذكرهم .

ويروي الأثبات التي خلا ذكرها عن مجيزيه أصحاب الأسانيد وهم :
شيخه ووالده العارف بالله تعالى الإمام المحدث الشيخ محمد نجيب سراج الدين الحسيني الحلبي الحنفي والشيخ محمد خير الدين اسبير الحلبي وأسانيده في إجازته له وقد مرت .

والشيخ حسن بن محمد المشاط المكي وأسانيده كثيرة في مشايخه وقد مر ذكرهم ، وقد ذَكَرَهم في كتابه :
(الإرشاد بذكر بعض مالِي من الإجازة والإسناد) .

والشيخ السيد محمد مكي بن السيد محمد بن جعفر الكتاني الحسني وقد تقدم ذكر أسانيده في مشايخه إلى أصحاب الأثبات ومنهم إلى أئمة الحديث وعنهم بأسانيدهم إلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في أحاديثه الشريفة وسنته المنيفة .

قلت : وكان شيخنا الإمام رضي الله عنه يحفظ من الأحاديث النبوية ما يزيد على مائة ألف حديث ، فضلاً عن اطلاعه الواسع على كتب الحديث كلها .

وقد أجازه واستجازه ثُلَّة من محدِّثي بلاد الشام والمغرب والحجاز والهند ، أذكر منهم : المحدث الشيخ حبيب الرحمن الأعظمي [1] لمّا قدِم حلب ، والشيخ الجليل السيد عبد القادر السقاف الحضرمي رحمه الله [2]

---

[1] هو الشيخ حبيب الرحمن بن الشيخ محمد صابر الأعظمي ، محدث محقق جليل ، ولد سنة ١٣١٩هـ بالهند بمديرية أعظم وتوفي سنة ١٤١٢هـ رحمه الله .

[2] الشيخ الصالح الداعية العلامة الفهامة الحبيب عبد القادر بن أحمد بن عبد الرحمن بن علي بن عمر بن سقاف بن محمد بن عمر بن طه السقاف ولد بمدينة سيؤن بحضرموت وتوفي في جدة فجر السبت ١٩ ربيع الآخر ١٤٣١هـ ،وصلي عليه في داره بجدة عصر الأحد ثم صلي عليه بالمسجد الحرام بمكة المكرمة شرّفها الله عقب صلاة العشاء ودفن بمقبرة المعلاة بمكة المشرفة ، رحمه الله تعالى

والحبيب محسن بن سالم العطّاس الحبشي [1] والشيخ يوسف بن إبراهيم الكتّاني المغربي الحسني ، والحبيب زين العابدين بن إبراهيم بن سميط [2] .
وحصل مرة أن تلاحى رجلان من أهل العلم من أحباب شيخنا الإمام رضي الله عنه ، وممن كان يحضر دروسه ، وهما من أهل مدينة حماة ، حتى قال أحدهما للآخر : امرأتي طالق إن لم يكن شيخنا الإمام رضي الله عنه يحفظ أكثر من مئة ألف حديث ، ثم انطلقا إلى المدرسة الشعبانية ، لسؤال شيخنا الإمام واستفتائه عما جرى بينهما ، فأطرق شيخنا الإمام رضي الله عنه ثم قال للرجل الذي صدر منه لفظ الطلاق :
(امرأتك لا تطلق ، وأعظك أن تجنّب لسانك ألفاظ الطلاق والحرام) .
قلت : ولعموم الفائدة ينبغي أن تعلم أن عدد أحاديث الكتب التسعة لمن أحصاها على وجه التقريب هو ستون ألف حديثاً ، وبالإضافة إلى الأحاديث التي جمعها الإمام عبد الرزاق في مصنفه والطبراني في معاجمه وابن أبي شيبة في مصنفه فتزيد على تسعين ألف حديث شريف .
ولا تعجب من حفظ شيخنا الإمام رضي الله عنه لهذا العدد الكبير من الأحاديث النبوية الشريفة فإن من علماء السلف من أكرمه الله تعالى بحفظ عدد كبير من الأحاديث النبوية ، فقد نُقل عن الإمام البخاري أنه قال :
أحفظ مائة ألف حديث صحيح ومائتي ألف حديث غير صحيح .
وقال أبو زرعة : كان أحمد - أي : الإمام أحمد - يحفظ ألف ألف حديث. [3]
وقال السيوطي في تدريب الراوي :
ومما روي فى قدر حفظ الحفاظ قولُ أحمد بن حنبل:
انتقيت المسند من سبعمائة ألف حديث وخمسين ألف حديث " اهـ
واعلم أن الشيخ الإمام رضي الله عنه لم يستخلف أحداً بعده إلا أولاده ، مع أنه أجاز في الحديث والطريقة ثلة من أهل العلم وغيرهم ممن سأله ذلك ، إلا أنه استخلف أولاده وأجازهم بجميع ما أجازه به شيوخه .
وقد قال كلمته المشهورة مرة أمام أساتذة المدرسة الشعبانية كلهم ، ومرة أمام طلاب الصف العالي وقتئذ ، قال رضي الله عنه :
(أولادي هم خلفائي من بعدي) وذلك تحرزاً من أن يقول قائل أو يدعي مدّع غير ذلك .

---

[1] المتوفى سنة ١٤٠١ هـ رحمه الله

[2] المولود في (جاوة) ثم حط رحله في المدينة المنورة للتدريس فيها سنة ١٤٠٦ هـ أمتع الله به .

[3] انظر فيض القدير للمناوي ٣١/١

إجازات الشيخ الإمام رضي الله عنه في الطرق

تلقى شيخنا الإمام رضي الله عنه الطريقة الأحمدية - وتعرف أيضاً بـ (الإدريسية) - تلقّاها عن والده الأجلّ سيدي الشيخ محمد نجيب سراج الدين وسميت الطريقة بـ (الإدريسية) نسبة إلى الإمام الكبير سيدي أحمد بن إدريس الحسيني رضي الله عنه [1]

وتلقى رضي الله عنه الطريقة الرفاعية [2] عن الشيخ محمد إسحاق [3] بن الشيخ حسن بن طه الكيالي

وتلقى الطريقة القادرية والخلوتية من كبار شيوخها في الديار الحلبية رحمهم الله رحمة واسعة

كما تلقاها عن طريق الرؤيا المنامية عن الشيخ عبد القادر الهلالي الكبير [4] وقد ذكرت تفصيلها في موضع آخر من هذا الكتاب

وتلقى الطريقة البدوية المنسوبة لسيدي أحمد البدوي [5] عن الشيخ إبراهيم السلقيني الكبير [6]

ومن الجدير ذكره في هذا المقام أنه ما من شيخ اشتهر في زمنه بنشر طريقته وذاع صيته وأكرمه الله بزيارة مولانا الشيخ رضي الله عنه إلا وتبادل مع الشيخ الإمام الإجازات تبركاً به وجرياً على عادة أئمة القوم رضي الله عنهم .

---

[1] ولد رضي الله عنه ونفعنا به سنة ١١٧٢ هـ في ميسور (من قرى فارس) في المغرب وتوفي في اليمن سنة ١٢٥٣ هـ

[2] وتنسب إلى الامام القدوة العابد الزاهد شيخ العارفين أبي العباس أحمد بن أبي الحسن علي بن أحمد بن يحيى بن حازم بن علي بن رفاعة الرفاعي المغربي ثم البطائحي المتوفى سنة ٥٧٨ هـ رضي الله عنه

[3] والشيخ محمد إسحاق هو آخر شيوخ الزاوية الكيالية المتوفى سنة ١٣٦٨ هـ وهو من ذرية الشيخ إسماعيل الكيالي الكبير بن السيد علي مهذب الدولة المتقدمة ترجمته

[4] هو الشيخ عبد القادر بن الشيخ أحمد أبي بكر بن الشيخ محمد بن الشيخ إبراهيم الهلالي الدرعزاني شيخ الطريقة القادرية الخلوتية في الزاوية الهلالية في محلة الجلوم بحلب ، المتوفى سنة ١٣٨٦ هـ رضي الله عنه

[5] هو السيد الجليل الشيخ أحمد بن علي بن محمد بن أبي بكر البدوي الشريف الحسيب النسيب، المتوفى سنة ٦٧٥ ه في طنطا بمصر وقبره مشهور يُزار رضي الله عنه

[6] المتوفى سنة ١٣٦٧ هـ وقد تقدمت ترجمته

وكان شيخنا رضي الله عنه يدير حلقة الذكر على منهج يتفق مع جميع الطرق الموصِلة إلى الله تعالى ، ولكن كانت السِّمة الغالبة على حلقة الذكر سِمَة الطريقة الرفاعية ، وكان شيخنا الإمام رضي الله عنه يوصي الشيخ أحمد الحفار [1] أن يقف إلى جانبه الأيسر في الحلقة لضبط أصوات الذاكرين على شكل منتظم دون خروج عن الآداب الشرعية في الذكر ، ولا يتصرف الشيخ الحفار بشيء من تلقاء نفسه أثناء الذكر إلا بإشارة خفية من الشيخ الإمام رضي الله عنه كما هو حال المنشدين ، فيتلقى الشيخ المنشد عبد القادر راجح المعروف بـ (الشيخ رديف) يتلقى إشارة من الشيخ الإمام فيعمد إلى أشغال في الإنشاد ترفع طبقة صوت الذاكرين أو يتلقى إشارة لإنهاء فصل والدخول في غيره .

ومن المنشدين أيضاً : السيد عبد الوهاب صباغ [2] رحمه الله الذي أطلق عليه سيدي الشيخ محمد نجيب لقب : (الكردي الثاني) .

وكان موعد الذكر ليلة الثلاثاء من كل أسبوع في جامع سليمان الأيوبي ، ثم نقله شيخنا الإمام إلى جامع العثمانية لاتساعه ، بسبب إقبال الناس على حضور حلقة الذكر .

---

[1] هو الشيخ أحمد الحفار بن الشيخ أحمد ، تلقّى الطريقة الرفاعية عن والده الشيخ أحمد الحفار الذي تلقى الطريقة الرفاعية عن الشيخ علي الحريري الرفاعي الأحمدي المتوفى سنة ١٣٦٦ هـ ، وإن الشيخ أحمد الحفار وأخاه الشيخ بكري جدّدا المبايعة مع ولد الشيخ علي وهو الشيخ أحمد الحريري وكان شيخنا الإمام رضي الله عنه يقول : إن الشيخ أحمد الحفار أدرك الشيخ حسن الكيالي (المتوفى سنة ١٣٢٩ هـ والمدفون في تربة العبارة خارج باب الفرج) أدركه آخر سنواته وحضر الأذكار في الزاوية الكيالية فهو على معرفة وخبرة بإدارة الذكر وضبط أصوات الذاكرين نظراً لأنه جهوري الصوت قوي الهمة ، وقد توفي الشيخ أحمد الحفار رحمه الله سنة ١٣٩٧ هـ ولما توفي خلفه في الوقوف إلى جانب الشيخ الإمام أخوه الشيخ بكري الحفار المتوفى سنة ١٤١٦ هـ رحمهما الله تعالى

[2] والسيد عبد الوهاب صباغ من المنشدين والملحنين المشهورين تتلمذ على يد الملحن الكبير بكري الكردي ولحّن الكثير من الأناشيد والموشحات وأطلق عليه سيدي الشيخ محمد نجيب سراج لقب : (الكردي الثاني) لما وجد فيهما من تشابه في الأصوات والألحان ، وأن ألحانه تتماشى على قدم السيد بكري الكردي رحمهما الله تعالى ، و الشيخ بكري الكردي من أعلام مدينة حلب في الألحان الدينية من مواليد مدينة حلب سنة ١٣٢٧ هـ وتوفي سنة ١٣٩٩ هـ وكان اسمه باكير مصطفى لكن غيّر اسمه لمحبته للشيخ أحمد الكردي الكبير .

ومن الفوائد الخفية التي ذكرها لنا السيد عبد الوهاب صباغ رحمه الله أنه لما حضر إلى حلب السيد الشيخ أبو العباس الدندراوي [1] رحمه الله وأقام مجلس ذكر وإنشاد كان من جملة المنشدين : السيد عبد الوهاب صباغ ، فلما حضرت صلاة المغرب أشار إليه الشيخ أبو العباس أن يؤذن ويقيم للصلاة فلما فرغ من أذانه وإقامته استدعاه وأخذ منكبه وهزّه غاضباً وقال له :

لمَ لم تذكر لفظ السيادة في حق سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم في أذانك وإقامتك ؟؟

فما وسع السيد عبد الوهاب إلا أن يقول : عفواً سيدي ، عفواً سيدي

قلت : فانظر يا أخي - رعاك الله - إلى أدب القوم مع جناب سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم واحترامهم وتعظيمهم لجنابه .

فإن قيل : إن لفظ السيادة لم يرد في حديث الأذان

فيقال : إن تعظيمه صلى الله عليه وسلم واجب كلما ذُكر في الأذان وغيره وقد قال صلى الله عليه وسلم : أنا سيد ولد آدم[2]

فما هو الحرج إن ذكرناه صلى الله عليه وسلم بلفظ السيادة أثناء الأذان ؟

لقد ذكرناه بما وصف به نفسه صلى الله عليه وسلم

فلما قال : أنا نبي الله [3]، قلنا : يا نبي الله

ولما قال : أنا رسول الله [4]قلنا : يا رسول الله

ولما قال : أنا حبيب الله [5]قلنا : يا حبيب الله

ولما قال : أنا أكرم الأولين والآخرين على الله [6]

قلنا : يا أكرم الأولين والآخرين على الله

ولما قال : أنا سيد ولد آدم [7] قلنا : يا سيدنا

لأننا كلنا ولد آدم عليه السلام

فما وجه الخلل الشرعي في ذلك ؟

---

[1] وهو كبير الأسرة الدندراوية وقتها ، وقد تأسست الأسرة الدندراوية عام ١٢٩٠ هـ في صعيد مصر

[2] طرف حديث في صحيح مسلم كتاب الفضائل وسنن الترمذي كتاب تفسير القرآن

[3] طرف حديث في مسند الإمام أحمد ١٦٦٨٩

[4] طرف حديث في صحيح البخاري كتاب الصلح وصحيح ابن حبان كتاب السير

[5] طرف حديث في سنن الترمذي كتاب المناقب

[6] طرف حديث في سنن الدارمي في المقدمة

[7] تقدم تخريجه

وكما هو مطلوب من كل إنسان إذا سمع الأذان أن يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم بعد الأذان ويدعو بدعاء الوسيلة ، فهو مطلوب أيضاً من المؤذن ، فلقد صلى على النبي صلى الله عليه وسلم جهرة كما أذّن جهرة . وفي هذا تذكير للسامعين أيضاً أن يصلّوا على النبي صلى الله عليه وسلم ويدعوا بعدها بدعاء الوسيلة كما ورد ، فلا يلتبس الأمر عليك وتأخذه بالشدة وتتهم من فعله بالبدعة لأن كل ذلك يندرج تحت أصل شرعي مشهور ومعمول به .

قال الله تبارك وتعالى في وجوب تعظيم رسوله واحترامه :

{ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ }

قال ابن عباس وغيره : {وَتُعَزِّرُوهُ }أي : تعظّموه

{ وَتُوَقِّرُوهُ } من التوقير وهو : الاحترام والإجلال والإعظام [1]

وجاء في تفسير الخازن أن التعزير هو النصر مع التعظيم ، والتوقير هو التعظيم والتبجيل [2]. اهـ .

ومما لا شك فيه أن إطلاق لفظ السيادة على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم هو أقل ما يجب علينا فعله في تعظيمه وتوقيره صلى الله عليه وسلم .

---

[1] انظر تفسير ابن كثير للآية الكريمة

[2] ٥ / ٤٣٣

طريقته رضي الله عنه في الدروس العامة

كانت مجالس دروسه مجالس صفاء ونقاء ، وسمو وارتقاء ، ينشرح لها الصدر ، ويصفو بها القلب ، وتسمو النفس في مراتبها ، ويشعر المرء فيها بالتجافي عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود ، إذ تنساب إلى قلبه معاني آيات الله تعالى ، وأحاديث سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بأسلوب سهل العبارة ، رقيق الكلمة ، خاصة أنه رضي الله عنه كان يكثر من ضرب الأمثلة التي تبيّن للسامع ما أراد ، ولا يلجأ إلى الكلمات العامية المنتشرة على ألسنة الناس ، إلا إذا أراد أن يبين غموض كلمة ، أو يوضّح جملة دقيقة المعنى .
وكان أسلوبه في الدرس أسلوب الإلقاء ، فلا يقرأ من كتاب أمامه ويشرح عباراته ، بل كان قبل أن يذهب إلى الدرس يجمع في صدره ما يريد إلقاءه ، ثم يأتي به كالوابل الصيب ، بكثرة الأحاديث النبوية التي تدور في موضوع المحاضرة والتي يأتي بها على وجهها لفظاً وتخريجاً ، مع ذكر اسم الصحابي الراوي لها عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان يحذّر من طريقة كثير من المدرسين والخطباء الذين يأتون بالحديث على معناه ، ويقولون في آخر الدرس أو الخطبة : أو كما قال صلى الله عليه وسلم ، وكان يستهجن هذا العمل لأنهم كانوا كثيراً ما يغيرون من ألفاظ الحديث النبوي الشريف ولا يأتون بمعناها الصحيح .
وقد أحصى بعضهم عدد الأحاديث التي أتى بها في بعض محاضراته فبلغت سبعة وعشرين حديثاً برواتها .
وقال شيخنا الإمام رضي الله عنه :
(ولقد لمست في الناس في السنوات الأخيرة جهلاً شديداً في أمور دينهم ، حتى صارت القضايا الفطرية المسلّمة تحتاج إلى دليل وبيان ، وسبب ذلك قلة مجالس العلم ، والتفات الناس إلى أمور الدنيا وزينتها ، كل ذلك جعلني أقتصر في دروسي على بيان أمور الدين الضرورية التي لابد للمؤمن من معرفتها والإحاطة بها ، اعتقاداً وعملاً وتخلقاً وأدباً ، وتناولت ذلك بأسلوب سهل ، وكلمات مألوفة ، لأن قصدي انتفاع الناس بما يسمعون) .
وكان له درس في جامع بانقوسا كل يوم جمعة بعد صلاة العصر ، وله كل يوم درس في جامع الحموي بعد شروق الشمس ودخول وقت الضحى عدا يوم الجمعة .

ثم اقتصر التدريس في جامع الحموي على ثلاثة دروس في الأسبوع وهي أيام الأحد والأربعاء والخميس وذلك لكثرة مشاغل الشيخ الإمام وعدم اتساع وقته ، لا سيما أنه كان يدرّس طلاب العلم في الثانوية الشرعية وكذلك في معهد التعليم الشرعي (المدرسة الشعبانية) والتي كان قد أسّسها ، وكان يقرأ عليهم التفسير والحديث وعلومه .
أما دروسه رضي الله عنه في جامع بانقوسا فكان يتناول فيها البحث في قضايا الإيمان العلمية الاعتقادية بأركانها وتفاصيلها .
وقد بحث في بداية دروسه في قصص الأنبياء عليهم السلام من لدن آدم عليه السلام إلى أن انتهى الأمر به إلى خاتم الأنبياء وإمام المرسلين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فكان يتناول ذكر كل نبي وما جاء به ، وما جرى بينه وبين قومه من مناظرات ، وذكر ما أيَّد الله به كل نبي من بيِّنات عقلية ومعجزات كونية تشهد له بصدق نبوته ورسالته ودعوته .
كل ذلك من خلال الآيات القرآنية التي ذكرها سبحانه في كتابه ، وما جاء على لسان سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحاديث حول أخبار الأنبياء والرسل عليهم السلام .
وقد طال البحث في هذا الموضوع بضع سنين ، ويا ليتها كانت قد سُجّلت أو دُوّنت .
قال الشيخ الإمام رضي الله عنه :
ولما انتهى بي المطاف إلى ذكر سيرة سيدنا رسول الله وشمائله وخصاله وخصائصه الشريفة وما جاء به صلى الله عليه وسلم ، وقفتُ عند بابه ولم أَحِدْ عنه ، وحططت في رحابه صلى الله عليه وسلم .
وصدق القائل :
وعلى تفنّن واصفيه بحسنه يفنى الزمان وفيه ما لم يوصف
صلى الله عليه وسلم
ولقد بقي رضي الله عنه يبحث في دروسه حول مواقف سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم مع العالم حتى آخر عمره المبارك رضي الله عنه .
فكان يفتتح الدرس بمقدمة يُجمل فيها الكلام على مواقف الرسول صلى الله عليه وسلم مع العالم والتي ذكرها سبحانه بقوله :
{ لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين }.
فلقد امتن الله تعالى على العباد ببعثة النبي الأكرم صلى الله عليه وسلم ، وبيّن الحكمة في إرساله صلى الله عليه وسلم وهي أن يتلو على الناس آيات الله تعالى ويزكيهم ويعلمهم الكتاب ـ أي القرآن الكريم ومعانيه ـ

ويعلمهم الحكمة - وهي أحاديثه الشريفة صلى الله عليه وسلم .
ومن مواقف الرسول صلى الله عليه وسلم مع العالم ما بيّنه سبحانه في الآية :
{ يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً * وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً }.
ومن مواقف الرسول صلى الله عليه وسلم مع العالم أنه جاء هادياً لهم إلى الله تعالى ، قال سبحانه :{ إنما أنت منذر ولكل قوم هاد }.
وقال تعالى :
{ وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم * صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض ألا إلى الله تصير الأمور }.
ومن مواقفه صلى الله عليه وسلم مع العالم أن الله تعالى أرسله رحمة للعالمين في جميع العالمين فقال تعالى :
{ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين }.
وقد بيّن رضي الله عنه في دروسه وجوه الرحمة المحمدية للعالمين وآثارها .
ومن مواقفه صلى الله عليه وسلم مع العالم موقف الوعظ والتذكير ، قال تعالى : { وعظهم وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً }
وقال جل وعلا :{ فذكّر إنما أنت مذكر }.
لقد جاء بيان تلك المواقف المحمدية مع العالم في دروس الشيخ الإمام رضي الله عنه في جامع بانقوسا في مدة تقرب من عشرين عاماً ، إذ كان له في كل يوم جمعة بعد صلاة العصر درس يستغرق ساعة زمنية أو أكثر وكان شيخنا الإمام رضي الله عنه يجلس في الدرس كهيئة جلوسه في الصلاة ، وذلك في مقدمة السّدة المعروفة في كل من جامع با نقوسا والجامع الأموي الكبير ، ويجلس متوجهاً إلى القبلة ، وأمامه رحلة صغيرة كتلك التي يوضع عليها المصحف أثناء التلاوة في المسجد .
وطريقته في التدريس طريقة المحاضر الذي يلقي محاضرته دون القراءة من كتاب ، أو حتى ورقة تحوي رؤوس أقلام البحث الذي سيلقيه ، بل كان يضع نسخة من كتاب : (صحيح البخاري) الذي جمع فيه الإمام البخاري طائفة واسعة من أحاديث سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يضعها أمامه للتبرك ، ولتكون محط نظره أثناء سكتاته القليلة حين إلقائه المحاضرة .

وهذه الطريقة في التدريس تحتاج إلى جهد كبير وإعمال للفكر ، خاصة أنه يأتي بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية كالوابل الصيب ، كل ذلك عن ظهر قلب كما كان عليه فضيلة مولانا الشيخ محمد نجيب رضي الله عنه .
وكانت دروسه رضي الله عنه متسلسلة في الموضوع الذي يتناول البحث فيه ، فيبتدئ الدرس بعد المقدمة بتلخيص ما سبق في الدرس الماضي حتى يستحضر السامع فكره ومعلوماته ، وليربط درسه الذي سيلقيه بالدرس الماضي .
وكان إذا شرع في الدرس استغرق فيه ، وارتفع صوته ، واحمر وجهه ، ولا يشعر بمرور الوقت ، فلا يتعب ولا يسأم ، لكنه يراعي أحوال الحاضرين في الدرس ، وكان قد كلّف بعض أصحابه أن يمر أمام المحراب إذا مضى من الوقت خمسون دقيقة ، فإذا وقع بصره عليه شرع في ختم الدرس ، وكثيراً ما كانت تتجاوز فترة الدرس الساعة وربع الساعة ، ولا أحد من الحاضرين يمل أو يكل ، بل يراهم الناظر مصغين خاشعين ، متوجهين بقلوبهم إلى كلام الشيخ رضي الله عنه ، وبأبصارهم إلى وجهه المنير رضي الله عنه .
قال شيخنا الإمام رضي الله عنه : وكنت قد رأيت سيدنا زكريا عليه السلام في المنام فقال لي :
(إنك إذا جلست في الدرس جعلت أنظر إليك حتى تنتهي من درسك) .
قال شيخنا الإمام رضي الله عنه : (وهذه من البشائر المتوالية علي بفضل الله تعالى ، وأننا محفوفون بأنظار سيدنا زكريا عليه السلام ، كما أن أنظار خير البرية وإمام الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم لا تنقطع عنا ، كما أتتني البشارة بذلك في عدة مناسبات ، وعلى لسان من لقينا من أهل الله تعالى ، ومنهم السيد الكبير العارف بالله تعالى الشيخ أحمد الحارون الدمشقي [١] وغيره رضي الله عنهم أجمعين).
وبعد عودته رضي الله عنه من المدينة المنورة عام ١٤٠٣ هـ - وكان قد جاور فيها ما يزيد على ثلاثة أعوام ونصف عام - افتتح دروسه في جامع بانقوسا بالكلام حول تفسير سورة الفاتحة، إذ إنه قد رأى في المنام أنه قد رجع إلى حلب وافتتح درسه في جامع بانقوسا بقوله تعالى : {الحمد لله رب العالمين } وشرع في الكلام حول تفسير سورة الفاتحة ،

---

[١] سيدي أحمد بن محمد بن غنيم الحارون الحجار الصوفي العارف بالله صاحب الكرامات الظاهرة توفي رضي الله عنه سنة ١٣٨٢ هـ ودفن بجوار قبر سيدي العارف الكبير الشيخ أرسلان الدمشقي المتوفى سنة ٥٤١ هـ رضي الله عنه .

وقد صدق الله تعالى تلك الرؤيا فبقي في دروسه يتكلم على سورة الفاتحة أسبوعياً ما يزيد على السنة والنصف ، ثم انتقل إلى الكلام حول تفسير أواخر سورة البقرة وأواخر سورة آل عمران ، والآيات الأوائل من سورة الحجرات ، وظلَّ يبحث في ذلك فترة زادت على السنتين ثم توقف عن التدريس في جامع بانقوسا بسبب اعتلال صحته ،وكان ذلك عام ١٤٠٧ للهجرة وبقي مستمراً في تدريسه في الجامع الأموي الكبير يوم الاثنين بعد صلاة الظهر من كل أسبوع حتى عام ١٤٠٩ للهجرة النبوية الشريفة .
أما دروسه في الجامع الأموي الكبير فكان يتناول فيها الكلام حول أركان الإسلام العملية والقضايا المتعلقة بالنبوات ، وكان يفتتح الدرس بحمد الله والصلاة على نبيه صلى الله عليه وسلم ثم بقراءة سورة الفاتحة ثم يقول :
(أما بعد ، بالسند المتصل إلى الإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه الجعفي البخاري قال :حدثنا عبيد الله بن موسى قال : أخبرنا حنظلة بن أبي سفيان عن عكرمة بن خالد عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
[بُني الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والحج وصوم رمضان] [١] .
ثم يشرع في الدرس ويستغرق ساعة أو أكثر ثم يعود إلى البيت ويأخذ قسطاً من الراحة ثم يتناول طعام الغداء ويختلف التوقيت بين أيام الصيف وأيام الشتاء ، حتى إذا حان وقت العشاء صلى العشاء وانطلق إلى جامع العثمانية ليفتتح حلقة ذكر الله تعالى التي تتضمن صنوفاً من أنواع الذكر : فهناك تلاوة القرآن الكريم ثم الدعاء بأسماء الله الحسنى ثم الأوراد المتضمنة نظماً متعددة في الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ثم ذكر الله تعالى بالتهليل واسم الجلالة ، ويتخلل ذكر الذاكرين شيء من الاستغاثات والمدائح النبوية .وقد يستغرق ذلك كله ساعتين تقريباً ، وكان رضي الله عنه يتوقف عن إقامة حلقة الذكر أيام الصيف حيث يقصر الليل خشية أن يفوت أحد الحاضرين صلاة الليل والفجر .
وسنذكر فيما يلي واحداً من دروسه في جامع بانقوسا ، وواحداً من دروسه في الجامع الأموي الكبير ، ليتبين القارئ مدى نفاسة تلك المحاضرات التي ألقاها رضي الله عنه ، ومدى قيمتها العلمية ومنزلتها الدينية .

---

[١] صحيح البخاري كتاب الإيمان

أولاً : محاضرة في جامع بانقوسا
حول بيان معاني اسمه سبحانه (السلام)

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين
سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم .
{ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ }
{ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ }
تقدم الكلام على قول الله تعالى :
{ لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين }
امتنّ الله تعالى على العباد ببعثة النبي الأكرم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وبيّن الحكمة في إرساله عليه الصلاة والسلام :
وذلك أن الله تعالى أرسل النبي عليه الصلاة والسلام إلى العالم لأجل أن يتلو عليهم آيات الله تعالى ، ويزكيهم ، ويعلمهم الكتاب والحكمة .
ومن جملة هذه المواقف : أنه صلى الله عليه وسلم جاء يعلّم الناس الكتاب ، وهو القرآن الجامع للعلوم كلها ، والمتضمن لذكر العوالم كلها .
وتقدم بعض الكلام على بعض العلوم القرآنية ، كما بيّنه النبي صلى الله عليه وسلم .
ومن أهم العلوم القرآنية : العلم بقضايا الإيمان والتوحيد ، وهذا ما يسمى : (علم الإلهيات) و (علم التوحيد)
ولقد بيّن سبحانه في القرآن الكريم قضايا الإيمان ، وذكر لها الأدلة .
كما تقدم معنا أن الأدلة التي ذكرها القرآن الكريم هي أقوى الأدلة ، وهي أدلة العيان وأدلة البرهان العقلي القاطع ، وبعد العيان والبرهان لا حاجة لكلام ولا بيان.
ولقد بيّن سبحانه قضايا الإيمان به جل وعلا ، وقضايا الإيمان بالرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، وقضايا الإيمان بالملائكة واليوم الآخر ، والجنة والنار وما هنالك مما يجب الإيمان به .
أما الإيمان بالله تعالى : فهناك الإجمال ، وهناك التفصيل .

أما الإجمال: وهو أساس العقيدة والإيمان برب العالمين ، فهوأن تعتقد أولاً: أن الله تعالى هو حقٌّ ، أي واجب الوجود ، وأنه سبحانه قديم لا أول له ، وباقٍ لا آخر له ، كما بحثنا هذا فيما مضى .
ثم تعتقد أنه سبحانه واحد لا شريك له ، أحد لا شبيه له ، فَردٌ ، لا ندّ ولا ضدّ له ، كما سبق بيان هذا فيما مضى .
ثم تعتقد أن الله تعالى مُتَسَمٍّ بالأسماء الحسنى ، ومتَّصف بالصفات العليا ، وصفاته سبحانه صفات كمالات ، فهو متّصف بالكمال المطلق ، ومنزّه عن النقائص والآفات .
وأما تفصيل ذلك : فأن تعتقد أن الله تعالى متصف بالكمال المطلق ، فإن الكمال قد يكون نسبياً كما هو في الإنسان ، ومن كمال الإنسان أن يأكل ويشرب ، وهذا كمال نسبي ليس مطلقاً ، أما رب العزة فله الكمال المطلق .
وأن تعتقد أن أسماءه سبحانه لا نهاية لها ، لأن أسماءه سبحانه أسماء صفات ، والصفات تابعة للكمالات ، وكمالات الذات الإلهية لا نهاية لها ، فأسماء الله تعالى لا نهاية لها ، ولكن من جملة هذه الأسماء : أن هناك تسعة وتسعين اسماً لها خصوصية ، من أحصاها دخل الجنة ، وعليها تتوقف صحة الإيمان والدرجات في الجنان .
روى الشيخان [1] عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
[إن لله تسعة وتسعين اسماً ، مائة إلا واحداً ، من أحصاها دخل الجنة]
ولقد ذكر لنا سبحانه في القرآن الكريم جملة واسعة من أسمائه سبحانه وتعالى ، ومنها ما ذكره في آخر سورة الحشر إذ قال جل وعلا :
{ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ * هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ * هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ }
ولقد ذكرها سبحانه في القرآن الكريم حتى نؤمن بها ، ونعتقد بها ، ونعبد الله تعالى بها ، ونتعرّف إلى الله بها ، فلقد تعرّف إلينا بأسمائه جل وعلا ، وذكرها لنا حتى نفهمها ونعبده بها ، ونتقرب بها إليه سبحانه وتعالى .
ولقد تكلمنا فيما مضى على هذه الأسماء إلى اسمه جل وعلا { السلام } .

[1] البخاري في كتاب التوحيد ومسلم في كتاب الذكر والدعاء

فمن أسمائه سبحانه وتعالى اسم { السلام }، ومما ينبغي أن تعلمه أيها الإنسان ، أن الأسماء الإلهية لها آثارها في العوالم ، فما معنى { السلام}؟
نعم هو مصدر أريد منه اسم الفاعل ، كما تقول فلان عدل أي عادل ، فالسلام يعني : السالم من الآفات والنقائص والعيوب ، فلا تغيّره الحوادث ولا تعتريه العوارض ، وهو سبحانه السلام في ذاته وفي صفاته وأفعاله وأحكامه وشرعه ، فكل هذا لا يعتريه خلل ولا نقص ولا عيب .
فهو السلام في ذاته ، فلا يعتري ذاته تغير ، كما تقدم في الحديث :
(ولا تغيّره الحوادث ، ولا يخشى الدوائر) [1]
وهو السلام في صفاته جل وعلا .
ومن صفاته جل وعلا : أنه حي ، قيوم ، عليم ، قدير ، قوي ، فهو سبحانه متصف بالحياة التي لا يعتريها موت ، ولا نوم ، ولا مرض ، ولا آفة ، ولذلك هو الحي القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم ، فهو الحي ، والحياة التي اتصف بها متصفة بالسلام ، فلا يعتريها سِنة ولا نوم ، ولا ضعف ولا موت ، ولذلك تقول : هو حي لا يموت ، وهو سبحانه القيوم ، وهو السلام في قيوميته ، فلا يعجزه شيء في السموات ولا في الأرض ، ولا يعتريه التعب ولا النصب ، بل هو قيوم السموات والأرض ومن فيهن ، قال تعالى :{ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ }أي من تعب ولا نصب .
وهو سبحانه السلام في علمه ، فلا يعزب عنه شيء في الأرض ولا في السماء ، ولا يعتريه نسيان ، كما في الآية :{ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى }
وهو سبحانه السلام في أحكامه وشرعه ، فلا ظلم ولا جور في حكمه وشرعه ، وقد قال تعالى :{ أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ }
أي يخافون أن يظلمهم في حكمه إن تحاكموا إلى شرعه
{ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ } .
وهو سبحانه السلام في كلامه ، فكلماته تامة لا تتبدل ولا تتغير .
وهو جل وعلا السلام في أمره ، كما قال جل وعلا :

---

[1] طرف من دعاء رواه الطبراني في الأوسط من حديث أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم مرّ بأعرابي وهو يدعو في صلاته يقول :(اللهم يا من لا تراه العيون ...) إلى آخره . قال في مجمع الزوائد : ورجاله رجال الصحيح غير راو واحد لكنه ثقة .

{ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ } أي على تنفيذ أمره ، ولا معقّب لحكمه ولا رادّ لقضائه جل وعلا .
وهكذا فهو السلام في كل صفاته جل وعلا ، وهو السلام في قضائه وقدره ، فلا يجري في قضائه ظلم ولا جور ، ولا ما يخالف الحكمة ، بل هو السلام والحكيم في قضائه ، وليس فوق حكمة الله تعالى حكمة.
وهو سبحانه السلام ، ولا سلام إلا منه ، وقد نبّه عليه الصلاة والسلام إلى ذلك ، فقد روى الإمام مسلم [1] وغيره عن ثوبان رضي الله عنه قال :
كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثاً ، وقال : [اللهم أنت السلام ، ومنك السلام ، تباركت يا ذا الجلال والإكرام]
أي أن السلام وصف ذاتي لك يارب ، فأنت السلام في ذاتك ، وصفاتك ، وأفعالك ، وأحكامك ، وشرعك ، ومنك السلام لا من غيرك ، ومنك التسليم لا من غيرك .
ومن آثار اسم السلام :
تسليم الله وسلامه جل وعلا ، فهو يسلّم من شاء من عباده ، ويسلّم على من شاء من عباده .
فيسلّم سبحانه من شاء من عباده ، يسلّمه من المكاره والأهوال والشدائد ، ويسلّم على من يشاء من عباده ، إكراماً وتفضيلاً وثناء وتمجيداً ، وقد تقدم قوله سبحانه وتعالى { وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ } أي سلّم رسوله صلى الله عليه وسلم وأصحابه من أذى المشركين وكفاهم ما أهمهم .
وقد جاء في الصحيح في حديث الشفاعة :
[فيضرب الصراط بين ظهراني جهنم ، فأكون أول من يجوز من الرسل بأمته ، ولا يتكلم يومئذ أحد إلا الرسل ، وكلام الرسل يومئذ : اللهم سلّم سلّم] [2] أي جعل كل رسول يدعو لأمته أن تسلم في العبور على الصراط ، وإلا فإن الرسل في سلام الله وأمانه .
فقولهم (سلّم سلّم) أي سلّم أتباعنا ومن آمن بنا من أهوال الصراط ومخاوفه ، حتى يجتازوه بسلام وأمان .
وهو سبحانه السلام الذي يسلّم على من شاء من عباده ، ولقد سلّم سبحانه سلام تحية وتكريم وإنعام وتفضيل ، سلّم على رسله عليهم الصلاة والسلام ، ولا زال يسلّم عليهم ، فقال جل وعلا :{ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ }

---

[1] في كتاب المساجد ومواضع الصلاة وسنن الترمذي كتاب الصلاة واللفظ له
[2] صحيح البخاري في كتاب الأذان

وسلّم سبحانه على المؤمنين عامة ، كما تقدم في قوله تعالى
{ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ } وهم المؤمنون { وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ } .
وقد سلّم سبحانه على خاصة هذه الأمة المحمدية المصطفاة فقال جل وعلا :{ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى } .
وقد اختلف علماء السلف رضي الله عنهم : هل السلام في الآية سلام من حضرة الله تعالى على أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، أم هو أمر من الله تعالى لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يسلّم على أمته ؟
فقال كثير من العلماء في الآية :
{ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ } أي وقل يا رسول الله : سلام على عباده الذين اصطفى .
فهو أمر من الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم أن يسلّم على أمته .
وقال بعضهم في الآية : { قلِ } أي يا رسول الله { الْحَمْدُ لِلَّهِ }
{ وَسَلَامٌ }أي من حضرة الله تعالى { عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى }.
ومؤدّى القولين واحد .
والأمة المصطفاة هي أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم التي قال الله تعالى فيها :
{ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ } الآية .
وهي المصطفاة بنص قوله تعالى :
{ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ }
أي أورثنا هذا القرآن من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أمته إلى يوم الدين ، فأتباع سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم على اختلاف مراتبهم هم الأمة المصطفاة .
وهو سبحانه يسلّم على المؤمنين حين يلقونه بعد الموت ، كما قال تعالى :
{ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا } .

ومن حضرة اسمه سبحانه (السلام) شرع سبحانه السلام ، كما في الحديث عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :(السلام اسم من أسماء الله تعالى وضعه في الأرض [١] ،فأفْشوه بينكم [٢] ، فإن الرجل المسلم إذا مر بقوم فسلّم عليهم ، فردّوا عليه ، كان له عليهم فضل درجة بتذكيره إياهم السلام ، فإن لم يردوا عليه ردّ عليه من هو خير منهم [٣])

والسلام في الإسلام عبادة وليس عادة ، ولا تقوم أي تحية مقامه مهما كانت ألفاظها ، بل يؤتى بكلمات الترحيب بعد السلام وردّه حسب ما شرع الله تعالى .

وقد بيّن عليه الصلاة والسلام أن للسلام منزلته في الدين بدءاً وردّاً .

أما فضله في البدء : فهو من خير أعمال المسلمين ، فقد روى الإمام الشيخان [٤] عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن رجلاً سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أيّ الإسلام خير [٥] ؟

قال :(تُطعم الطعام ، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف)

فاعتبَرَه صلى الله عليه وسلم من أفضل وخير أخلاق المسلمين .

وأما تخصيص السلام على من تعرف فهو خلاف ما شرع الله تعالى ، وهو من علامات الساعة ، كما ورد أن من علامات الساعة أن يكون السلام بالمعرفة .

فقد روى الإمام أحمد في مسنده [٦] عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

[إن من أشراط الساعة : أن يسلّم الرجل على الرجل لا يسلّم عليه إلا للمعرفة] .

---

[١] أي أنزله إلى الأرض ووضعه وضعاً شرعياً .

[٢] أي بسلام التحية فيما بينكم .

[٣] قال المنذري في الترغيب :
رواه البزار والطبراني ، وأحد إسنادي البزار جيد قوي . اهـ

[٤] كلاهما في كتاب الإيمان

[٥] أي : أيُّ أعمال وخصال الإسلام خير ؟

[٦] ٣٦٥٥

وبيّن صلى الله عليه وسلم أن من أراد القرب من الله تعالى فلينشر السلام على المسلمين ، كما روى أبو داود [١] عن أبي أمامة رضي الله عنه قال :
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
[إن أولى الناس بالله مَن بدأهم بالسلام] أي فمن بدأ المسلمين بالسلام ، فهو أولى بمحبة الله تعالى وإكرامه ومغفرته وفضله .
وجاء في رواية الترمذي [٢] عن أبي أمامة رضي الله عنه قال :
قيل : يا رسول الله ، الرجلان يلتقيان ، أيهما يبدأ بالسلام ؟
فقال صلى الله عليه وسلم :[أَولاهما بالله] .
أي من سبق البدء بالسلام فهو أولى بمغفرة الله تعالى ورحمته سبحانه .
ومن هنا تفهم أيها المؤمن أن السلام في الإسلام هو من مقتضيات الإيمان ، لا من باب الامتنان ، وهو من العبادات ، لا مما ألفه الناس من العادات .
وقد قال صلى الله عليه وسلم :
[أفشوا السلام تسلموا] [٣] أي من البغضاء بينكم .
وقال صلى الله عليه وسلم :[أفشوا السلام كي تعلُوا] [٤]
فإن من بدأ السلام له درجة وفضل على الآخر ، وإن البدء بالسلام أفضل من الرد .
وروى الترمذي [٥] عن عبد الله بن سلام رضي الله عنه قال :
لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ، انجفل الناس إليه [٦] ، وقيل : : قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجئت في الناس لأنظر إليه ، فلما استبَنتُ وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم - وفي رواية الحاكم : فلما تبيّنت وجهه - [٧] عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب [٨] ، وكان أول شيء تكلم تكلم به أن قال :
[أيها الناس ، أَفْشُوا السلام ، وأطعموا الطعام ، وصلّوا والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام]

---

[١] في سننه في كتاب الأدب
[٢] في سننه في كتاب الاستئذان .
[٣] مسند الإمام أحمد ١٧٧٩٩ وصحيح ابن حبان كتاب البر والإحسان
[٤] قال المنذري في الترغيب : رواه الطبراني بإسناد حسن . اهـ .
[٥] في سننه في كتاب صفة القيامة والرقائق .
[٦] أي : أسرعوا إليه صلى الله عليه وسلم .
[٧] مستدرك الحاكم كتاب الهجرة .
[٨] أي : بل هو وجه سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم لِما فيه من الآيات والأنوار .

فقد ذكر صلى الله عليه وسلم إفشاء السلام وعدّه في جملة من العبادات ، كصلة الأرحام ، والصلاة في الليل ، وإطعام الطعام ، مما يدلك على أن إفشاء السلام من جملة العبادات والطاعات المقرِّبة إلى الله تعالى .
وعن أبي شُريح رضي الله عنه أنه قال :
يا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أخبرني بشيء يوجب لي الجنة
فقال صلى الله عليه وسلم :[طيب الكلام ، وبذل السلام ، وإطعام الطعام[١]]
وفي رواية للطبراني بسند جيد[٢] قال : قلت : يا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - دلّني على عمل يدخلني الجنة
فقال صلى الله عليه وسلم :
[إن من موجِبات المغفرة : بذل السلام ، وحسن الكلام] .
أما ما ورد في فضل رد السلام : فقد روى الطبراني [٣] - وأصله في سنن أبي داود والترمذي من حيث المعنى [٤]- أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :
[من قال : (السلام عليكم) ، كُتبت له عشر حسنات ، ومن قال : (السلام عليكم ورحمة الله) كتبت له عشرون حسنة ، ومن قال : (السلام عليكم ورحمة الله وبركاته) كتبت له ثلاثون حسنة] .
وردُّ السلام يعطي صاحبه ما يعطي البادئ به ، لكن للبادئ في السلام زيادة درجة ، وإن رد السلام من الواجبات ، وأما البدء به فمن السنن المؤكدة ، فلا تهمله أيها المؤمن .
ومَن ترك رد السلام على من سلم عليه ، فقد ثبت عليه حق يطالبه به البادئ بالسلام يوم القيامة ، يدل على هذا ما رواه الإمام أحمد في المسند [٥] عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال :
مررت بعثمان بن عفان - رضي الله عنه - في المسجد [١] فسلّمت عليه ، فملأ عينيه مني ، ثم لم يردّ علي السلام ،

---

[١]رواه الطبراني وابن حبان في صحيحه والحاكم وصححه كما في الترغيب
[٢]كما في الترغيب أيضاً وانظرها في المعجم الكبير للطبراني
[٣] في المعجم الكبير
[٤]انظره في سنن أبي داود كتاب الأدب وفي سنن الترمذي كتاب الاستئذان والأدب بلفظ : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : (السلام عليكم) فردّ عليه السلام ثم جلس فقال النبي صلى الله عليه وسلم : [عشر] ، ثم جاء آخر فقال : (السلام عليكم ورحمة الله) فردّ عليه فجلس فقال صلى الله عليه وسلم: [عشرون] ثم جاء آخر فقال : (السلام عليكم ورحمة الله وبركاته) فرد عليه فجلس فقال صلى الله عليه وسلم : [ثلاثون] .
[٥] ١٣٨٣

فأتيت أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ فقلت : يا أمير المؤمنين ، هل حدث في الإسلام شيء ؟ مرتين .
قال : لا ، وما ذاك ؟
قال : قلت :لا [٢] ، إلا أنني مررت بعثمان ـ رضي الله عنه ـ آنفاً في المسجد فسلمت عليه فملأ عينيه مني ثم لم يردّ علي السلام قال : فأرسل عمر ـ رضي الله عنه ـ إلى عثمان ـ رضي الله عنه ـ فدعاه ، فقال : ما منعك ألا تكون [٣] رددت على أخيك السلام ؟
قال عثمان رضي الله عنه : ما فعلتُ .
قال سعد رضي الله عنه : قلت : بلى [٤]
قال : حتى حلف وحلفت .
قال : ثم إن عثمان رضي الله عنه ذَكَرَ فقال : بلى وأستغفر الله وأتوب إليه ، إنك مررت بي آنفاً وأنا أحدّث نفسي بكلمة [٥] سمعتُها من رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ذكرتها قط إلا تغشى بصري وقلبي غشاوة [٦] .
قال : قال سعد ـ رضي الله عنه ـ : فأنا أنبئك بها ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر لنا أول دعوة ، ثم جاء أعرابي فشغله حتى قام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاتبعته فلما أشفقت أن يسبقني إلى منزله ضربت بقدمي الأرض ، فالتفت إلي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : من هذا ، أبو إسحاق ؟
قال : قلت : نعم يا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ
قال : فمَهْ [٧]؟
قال قلت : لا والله إلا أنك ذكرت لنا أول دعوة ثم جاء هذا الأعرابي فَشَغَلك
قال صلى الله عليه وسلم :
[نعم ، دعوة ذي النون إذ هو في بطن الحوت { لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين } فإنه لم يدعُ بها مسلم ربه في شيء قط الا استجاب له] .

---

[١] زمن خلافة عمر رضي الله عنه .
[٢] أي : ليس هناك شيء
[٣] أي أن تكون
[٤] أي فعلتَ .
[٥] أي فكنت مشغول البال ولم أنتبه إليك .
[٦] يعني اهتماماً بها .
[٧] أي : ما جاء بك ؟

وروى الحاكم [١] عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال :
كنا جلوساً عند النبي صلى الله عليه و سلم فقال : ألا أخبركم بشيء إذا نزل برجل منكم كرب أو بلاء من بلايا الدنيا دعا به يفرّج عنه ؟
فقيل له : بلى
فقال صلى الله عليه وسلم :
دعاء ذي النون :{ لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين}
وفي رواية للحاكم أيضاً [٢] عن سعد رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : [هل أدلُّكم على اسم الله الأعظم الذي إذا دُعي به أجاب و إذا سئل به أعطى ؟
الدعوة التي دعا بها يونس حيث ناداه في الظلمات الثلاث :
{ لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين }
فقال رجل : يا رسول الله هل كانت ليونس خاصة أو للمؤمنين عامة ؟
فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم : ألا تسمع قول الله عز وجل
{ ونجيناه من الغم و كذلك ننجي المؤمنين } .
وقال رسول الله صلى الله عليه و سلم :
[أيّما مسلم دعا بها في مرضه أربعين مرة فمات في مرضه ذلك أُعطي أجر شهيد ، و إن برأ برأ وقد غفر له جميع ذنوبه] [٣]
أي ينبغي الدعاء به في الشدائد كلها .
ولقد أخبر سبحانه أنه هو يصلّي ويسلّم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأَمَرَنا أن نصلي ونسلم على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا لأن كل إنسان يحب السلام من الله تعالى ، لأن سلام الله على عبده فيه حفظ ووقاية له من المكاره والآفات ، والزيغ والضلالات ، والردّة والشرك ، وفيه الحفظ والأمان من مكاره الدنيا والآخرة ، فقد قال سبحانه في سيدنا يحيى عليه الصلاة والسلام :
{ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا }
وقال سبحانه مخبراً عن سيدنا عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام :
{ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ } أي من ربي { يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا } .
ومعنى ذلك : أن سلام الله تعالى هو حفظ وأمان منه على عبده الذي سلّم عليه ، أمان له في الدنيا وبرازخ الآخرة كلها .

---

[١] كما في المستدرك في كتاب الدعاء .
[٢] في المستدرك في أول كتاب المناسك
[٣] طرف حديث في مستدرك الحاكم كتاب المناسك عن سعد بن مالك رضي الله عنه

وإن أعظم الأهوال حين ينتقل الإنسان في العوالم ، فالانتقال من عالم الرحم إلى عالم الدنيا يوم الولادة يحتاج الإنسان فيه إلى سلام الله وأمانه وحفظه من الشدائد الحسية ، ومن تسلّط الشياطين أيضاً ، فإن الشيطان يتولى همز الإنسان ووخزه حين ولادته .[1]
وكذلك يحتاج الإنسان إلى سلام الله وأمانه حين موته وانتقاله من عالم الدنيا إلى عالم البرزخ ليسْلم من الشدائد والكربات ، ويسلم من فتنة القبر ووحشته ، وكذلك يحتاج الإنسان إلى السلام من الله تعالى يوم الحشر وبعث الخلائق ومن سلّم الله عليه فقد سلّمه من الآفات والعاهات ، وسلّم له دينه وعمله من الحبوط ، وسلّم له إيمانه من الزيغ ، فلا يموت إلا مؤمناً بالله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم .
وأما السبيل لنيل سلام الله تعالى والزيادة منه على طريق الدوام :
فهو أن تسلّم على حبيبه الأعظم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، فقد قال سبحانه :{ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ } أي ويسلّمون كما عُرف هذا من تمام الآية { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا }.
فقد أمر الله تعالى عباده أن يصلَوا ويسلَموا على رسوله سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم حتى ينتظموا في سلك الملائكة الذين يصلون ويسلمون على النبي صلى الله عليه وسلم .
وصلاة الملائكة هي سؤالهم الله ودعاؤهم إياه أن يصلي ويسلم على حبيبه صلى الله عليه وسلم ، وكذا صلاة المؤمنين من عباد الله على رسول الله صلى الله عليه وسلم .
وأما صلاة الله على رسوله صلى الله عليه وسلم فلها معان كبرى ، تتضمن رفع مقامه صلى الله عليه وسلم ، وعلو درجته ، وإفاضة الله تعالى عليه من الأسرار والأنوار ما لا يعلمه إلا الله تعالى .

---

[1] جاء في صحيح البخاري كتاب التفسير عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :
[ما من مولود يولد إلا والشيطان يمسّه حين يولد ، فيستهل صارخاً من مس الشيطان إياه ، إلا مريم وابنها]
ثم يقول أبو هريرة : واقرءوا إن شئتم :
{ وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم }
وفي صحيح مسلم كتاب الفضائل : ما من مولود يولد إلا نخسه الشيطان ، فيستهل صارخاً من نخسة الشيطان ، إلا ابن مريم وأمه . اهـ .
قال في فيض القدير : (نَخَسه) أي طعنه في جنبه

وقد أمر الله تعالى عباده أن يصلوا ويسلموا على النبي صلى الله عليه وسلم حتى ينالوا كرامته وفضله سبحانه ، بأن يصلي ويسلّم عليهم ، وما أحوج العبد إلى صلاة الله وسلامه عليه .
وقد روى الإمام أحمد [١] عن عبد الرحمن بن عوف قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فاتبعته حتى دخل نخلاً فسجد فأطال السجود حتى خفت أو خشيت أن يكون الله قد توفاه أو قبضه ، قال : فجئت أنظر فرفع رأسه فقال ما لَكَ يا عبد الرحمن ؟ قال : فذكرت ذلك له ، قال : فقال صلى الله عليه وسلم : إن جبريل عليه السلام قال لي : ألا أبشّرك إن الله عز وجل يقول لك : من صلى عليك صليتُ عليه ومن سلّم عليك سلّمتُ عليه .
وفي رواية : فسجدت لله عز وجل شكراً [٢]
وروى النسائي [٣] عن زيد بن سهل رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء ذات يوم والبشرى في وجهه فقلنا :
إنا لنرى البشرى في وجهك
فقال صلى الله عليه وسلم : إنه أتاني الملك فقال : يا محمد - صلى الله عليه وسلم - إن ربك يقول : أَمَا يرضيك أنه لا يصلي عليك أحد إلا صليت عليه عشراَ ولا يسلم عليك أحد إلا سلّمت عليه عشراً ؟
وروى الإمام أحمد في مسنده [٤] عن كعب بن عجرة رضي الله عنه قال : لما نزلت : { إن الله وملائكته يصلون على النبي }الآية ، قالوا : كيف نصلي عليك يا نبي الله[٥] ؟
قال : [قولوا : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد ، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد] .

---

[١] المسند ١٥٤٧
[٢] المسند ١٥٧٥
[٣] في سننه في كتاب السهو .
[٤] ١٧٤٣١
[٥] أي كما علّمتنا يا رسول الله صلى الله عليه وسلم في التحيات كيف نسلم عليك فعلَمنا كيف نصلي عليك .

وروى الإمام مسلم في صحيحه [1] عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلّمنا التشهد كما يعلمنا السورة من القرآن [2]فكان يقول : [التحيات المباركات الصلوات الطيبات لله ، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله] .
واعلم أن المصلي يتنقل في صلاته من منزلة إلى أخرى ، ما بين قيام بين يدي الله تعالى وركوع وسجود لله تعالى ، حتى إذا جلس للتشهد ، فقد دخل حضرة خاصة ، وكأنه جلس بين يدي الله تعالى ، فلزم عليه أن يحيّي رب العالمين جل وعلا ، فيأتي بصيغة التحيات التي علّمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إياها ، وليس من اللائق أن يحيّي ربه بمثل ما يحيّي به العباد بأن يقول : السلام على الله ، فإن الله هو السلام ، فقد جاء في الحديث الذي رواه الشيخان واللفظ للبخاري عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، قال : كنا إذا كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في الصلاة ، قلنا :
(السلام على الله من عباده ، السلام على فلان وفلان) .
فقال النبي صلى الله عليه وسلم : [لا تقولوا : (السلام على الله) ، فإن الله هو السلام ، ولكن قولوا : التحيات لله والصلوات والطيبات ، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، فإنكم إذا قلتم أصاب كل عبد في السماء أو بين السماء والأرض ، أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، ثم يتخير من الدعاء أعجبه إليه ، فيدعو [3].
فقول المصلي :(التحيات لله والصلوات والطيبات) أي كأنه يقول : إن المحامد والثناءات كلها لك وحدك يا رب على وجه يليق بجلالك ، وكذلك صلوات المصلين العملية ، وأقوالهم الطيبة ، كل ذلك أقدّمه بين يديك تحية لك يا رب .
ثم نظر المصلي وهو في حضرة الله تعالى ، فرأى أن سيد أهل الحضرة ، وأن الذي عرّفه بالله ، وهو أفضل خلق الله ، وأقربهم إلى الله ، هو سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلزم عليه أن يحيّي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال :(السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته)

---

[1] في كتاب الصلاة .
[2]أي اهتماماً به ، لأن فيه تحية الله تعالى وتحية رسوله صلى الله عليه وسلم وتحية المؤمنين عامة .
[3] صحيح البخاري كتاب الأذان وصحيح مسلم كتاب الصلاة

أي سلاماً من الله تعالى خاصاً بك ، لائقاً بمقام نبوتك الجامعة لكل نبوة يا رسول الله صلى الله عليه وسلم .
وقد شرع الله تعالى السلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم في التحيات بأسلوب المخاطب الحاضر القريب ، لا بأسلوب الغائب البعيد كقولك (السلام على النبي) وذلك لحكمة سامية ومعان عالية ، وهي أنه صلى الله عليه وسلم يجب أن يكون المحبوب الأعظم عند كل مؤمن صادق حتى يكْمل له إيمانه ، كما قال صلى الله عليه وسلم :
(لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين) [١]
ومن شأن المحبوب الأعظم صلى الله عليه وسلم أن يكون حاضراً في القلب لا يغيب ، مشهوداً على الدوام عند أهل البصيرة من ذوي الإيمان ، وإن قرب الأرواح والقلوب أقوى من قرب الأجسام ، كما أن شهود القلب والجَنان أقوى من شهود العيان .
ولا يجوز للمؤمن أن يشرك في محبته لرسول الله صلى الله عليه وسلم أحداً من خلق الله ، حتى ولا نفسه ، وذلك حتى يكمل له إيمانه ، وبذلك يكون سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أقرب مشهود في قلبه وروحه ، لا يغيب عنه .
فوجب عندئذ أن يخاطب رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتحية ، خطاب الحاضر القريب المشهود .
ويرحم الله القائل :

مثالك في عيني وذكرك في فمي ... ومثواك في قلبي فأين تغيب

ولله درّ القائل :

ساكن في القلب يعمره ... لست أنساه فأذكره
غاب عن عيني وعن بصري ... وسويدا القلب تشهده

ولما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، أي أحق بهم من أنفسهم ، وأرحم بأنفسهم من أنفسهم ، وجب على كل مؤمن أن يكون سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أحب إليه من كل شيء حتى من نفسه ، وأن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظم في نفسه من كل مخلوق ، حتى من نفسه ، وأن يطيعه ويذعن له صلى الله عليه وسلم ، ويجعل هوى نفسه وميلها تابعاً لما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم .

---

[١] رواه الإمام أحمد في مسنده ١٢٣٤٩ والبخاري في صحيحه في كتاب الإيمان عن أنس بن مالك رضي الله عنه .

ولما نزل قول الله تعالى : { النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ } الآية ، أي أحق بأنفسهم من أنفسهم ، رأفة ورحمة وحناناً وبراً وإحساناً ، لما نزلت هذه الآية ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

[ما من مؤمن إلا وأنا أولى الناس به في الدنيا والآخرة اقرؤوا إن شئتم { النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم } فأيما مؤمن ترك مالاً فليرثْه عصبته من كانوا ، ومن ترك ديناً أو ضياعاً[١] فليأتني فأنا مولاه[٢])

وأعظِم بهذا الحديث بشارة للمؤمن وفرحة له ، إذ إنه صلى الله عليه وسلم أولى به في الدنيا وفي الآخرة .

واعلم أنه لا حجاب يحجب المحبوب عن المحب ، بل هو حاضر في قلبه لا يغيب عن فكره .

وإذا كان المؤمن يقول لولده المحبوب عنده : (يا روحي ، يا قلبي ، يا عيني) ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظم عنده محبة ، فهو روح الأرواح ، وسر القلوب ، ونور العيون صلى الله عليه وسلم ، لأن محبته فوق محبة كل محبوب من خلق الله .

وليس قولك لابنك المحبوب عندك : (يا قلبي) من باب المجاز ، ولكنه حقيقة ، إذ لو أصابه مكروه لانشغل قلبك وفكرك به ، وانصرف اهتمامك كله إليه ، فأمسك قلبك عن ذلك إذا كان الأمر مجازاً !!!

وإن القلوب العامرة بمحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم قريبة لا يحجبها حاجب ولا يمنعها مانع عن شهود الحبيب .

ألا ترى إلى أويس القرني رضي الله عنه[٣]، وإلى أصحمة النجاشي ملك الحبشة رضي الله عنه[١] ، اللذَين آمنا برسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يتمكنا من الهجرة إليه لعذر شرعي .

---

[١]أي عيالاً فقراء .

[٢]رواه الإمام أحمد في مسنده ٨٠٦٦ ورواه البخاري في صحيحه في كتاب تفسير القرآن واللفظ له عن أبي هريرة رضي الله عنه.

[٣] سيدي أويس بن عامر بن جزء بن مالك القرني - بفتح القاف والراء - من بني قرن بن ردمان بن ناجية ابن مراد ، أحد النّسّاك العبّاد المقدمين، من سادات التابعين والأولياء الصالحين ، أدرك زمن النبي صلى الله عليه وسلم وأسلم ولكنه لم يهاجر إلى النبي صلى الله عليه وسلم بسبب انشغاله برعاية أمه ، وهو سيد العبّاد، وعلَم الأصفياء من الزهاد ، بشَّر النبي صلى الله عليه وسلم به، وأوصى به أصحابه جاء في مستدرك الحاكم وأصله في صحيح مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : [خير التابعين أويس القرني] .

فقد عمر قلبيهما محبةُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهما أقرب إليه صلى الله عليه وسلم قلباً وروحاً من قرب المنافقين ، الذين كانوا يصلّون خلف النبي صلى الله عليه وسلم ، - قربِهم بأجسادهم - .

فالشأن والاعتبار لقرب القلوب والأرواح ، لا لقرب الأجساد والأشباح ، أما إذا اجتمعا فقد نال المؤمن الكمال في ذلك ، كما هو شأن أصحاب سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذين تذوقوا حلاوة ونعيم قربه صلى الله عليه وسلم بالروح والقلب والجسم ، وراحوا يسألون الله تعالى أن يديم عليهم مرافقته صلى الله عليه وسلم في الآخرة .

ومما تقدم يتبين لك أنه لما تقول :

(السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته) فهو صلى الله عليه وسلم أمامك ، تشهده بقلبك وتلاحظه ، ولا حجاب ولا مانع لهذا ، وقد انطوت الأبعاد والمسافات ، وقد قال سيدي علي وفا رضي الله عنه :

سكن الفؤاد [٢] فعش هنيئاً يا جسد	ذاك النعيم هو المقيم إلى الأبد
أصبحتَ [٣] في كنف الحبيب ومن يكن	جارَ الكريم فعيشه العيش الرغد
روح الوجود حياة من هو واجد	لولاه ما تمّ الوجود لمن وجد
عيسى وآدم والصدور جميعهم	هم أعين هو نورها لمّا ورد
لو أبصر الشيطان طلعة نوره	في وجه آدم كان أول من سجد
أو لو رأى النمرود نور جماله [١]	عَبَدَ الجليلَ مع الخليلِ وما عَنَد

أصله من اليمن، سكن القفار والرمال، ووفد على عمر بن الخطاب ثم سكن الكوفة ، وشهد وقعة صفين مع سيدنا علي رضي الله عنه ، ويرجح الكثيرون أنه قتل فيها سنة ٣٧هـ

[١] اسمه أصحمة رضي الله عنه و(النجاشي) لقب له ولملوك الحبشة ، مثل كسرى للفرس ، وقيصر للروم ، وهو ملك الحبشة ، واسمه بالعربية : عطية ، أسلم على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ولم يهاجر إليه لانشغاله بأمور رعيته وكان ردءاً للمسلمين نافعاً ، وقصته مشهورة في المغازي في إحسانه إلى المسلمين الذين هاجروا إليه في صدر الإسلام ، ومات في بلده قبل فتح مكة ، وصلى عليه النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه كما أخرج البخاري عن جابر رضي الله عنه :

قال النبي صلى الله عليه وسلم حين مات النجاشي :

[مات اليوم رجل صالح فقوموا فصلوا على أخيكم أصحمة]

وكان ذلك في شهررجب، والنجاشي بفتح النون على المشهور وقيل : تُكسر ، وبتخفيف الجيم وأخطأ من شددها ، وبتشديد آخره .

[٢]- بفتح الدال - أي سكن الحبيب الفؤاد ، وهو الحبيب الأعظم صلى الله عليه وسلم .

[٣] أي : يا قلب .

لكن جمالُ الله جلّ فلا يُرى   إلا بتخصيص من الله الصمد

وذلك لأنه لابد لمن أراد مشاهدة النور ، أن يرفع الموانع والحجب عن قلبه ، كما لو أراد الإنسان أن يشاهد نور الشمس ، فعليه أن يرفع حاجبيه ويزيل الموانع من أمامه .

وإن قولك :(السلام عليك أيها النبي) صلى الله عليه وسلم أي سلاماً من الله لائقاً بنبوتك الفاتحة ، ونبوتك الجامعة ، ونبوتك الخاتمة ، فإن نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم هي فاتحة النبوات ، فقد روى الترمذي [٢] عن أبي هريرة رضي الله عنه قال :

قالوا : يارسول الله متى وجبت لك النبوة ؟

قال صلى الله عليه وسلم: [وآدم بين الروح والجسد] .

ونبوته صلى الله عليه وسلم هي الجامعة لجميع نبوّات مَن قبْله من الأنبياء ، لقوله صلى الله عليه وسلم :

[و ما من نبي يومئذ [٣] آدم فمن سواه [٤] إلا تحت لوائي][٥]

وهي النبوة الخاتمة لكل النبوات ، لقوله عليه الصلاة والسلام :

(وأنا خاتم النبيين لا نبي بعدي) [٦]

ثم يقول المصلّي :(السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين)

أي : السلام علينا من ربنا ، وعلى عباد الله الصالحين .

وإن هذه الأمة المحمدية هي أمة الدَّلال ، لأن الله شرع لها أن تذكر السلام عليها من الله تعالى ، ولكي يتبين لك سر هذا ، فانظر إلى قوله تعالى مخبراً عن سيدنا عيسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام

{ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا }

فذكر السلام عليه من الله تعالى ، لأن حال البسط والجمال والدلال غالب عليه ، فكان عليه الصلاة والسلام بساماً ضحاكاً .

---

[١] أي لو رأى النمرود نور جمال سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم في طلعة سيدنا إبراهيم على نبينا وعليه الصلاة والسلام لآمن ، لكنه لم يشاهد ذلك النور .

[٢] في سننه في كتاب المناقب .

[٣] أي : يوم القيامة .

[٤] أي : من النبيين .

[٥] طرف حديث رواه الترمذي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه في كتاب المناقب .

[٦] رواه الإمام أحمد في مسنده ٢١٣٦١ عن ثوبان رضي الله عنه ورواه الإمام أبو داود في سننه في كتاب الفتن

وأما سيدنا يحيى على نبينا وعليه الصلاة والسلام الذي كان حال القبض والجلال والهيبة غالباً عليه ، فلم يتمكن من ذكر سلام الله عليه ، بل سلّم الله تعالى عليه فقال جل وعلا :

{ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا }

ولما شرع الله تعالى لهذه الأمة المحمدية أن تقول :

(السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين) فهي تذكر سلام الله تعالى عليها ، مما يدل على أنها أمة فضّلها الله تعالى وكرّمها وشرّفها لأجل نبيها ورسولها سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، الذي هو أكرم الأولين والآخرين على رب العالمين .

وقد التقى مرة سيدنا عيسى بسيدنا يحيى عليهما السلام فضحك عيسى في وجه يحيى وصافحه، فقال له يحيى عليه السلام :

(يا ابن خالتي مالي أراك ضاحكاً كأنك قد أمِنت) - أي من مكر الله - ؟

فقال له عيسى عليه السلام :

(يا ابن خالتي ما لي أراك عابساً كأنك قد يئست) - أي من رحمة الله - ؟[1]

وقد قال صلى الله عليه وسلم :

[فإنكم إذا قلتم [2] : أصاب كل عبد في السماء أو بيْن السماء والأرض][3]

واعلم أن كل عباد الله المصلين يقولون :

(السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين)

ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولها أيضاً في صلاته ، فما أشرفك أيها المؤمن المصلي حين شملك سلام سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذي بفضله نالت أمَّته شرف سلام الصالحين على بعضهم البعض من أولهم إلى آخرهم ، ومن الملائكة والإنس والجن ، إذ كل منهم يقول :(السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين)

واعلم أن صلاة الله وسلامه على رسوله صلى الله عليه وسلم لا تنقطع أبداً في جميع العوالم ، وكذا ملائكة الله تعالى .

ولقد خصص الله تعالى طائفة كبيرة من الملائكة الكرام ينزلون إلى قبر النبي الأعظم صلى الله عليه وسلم متبركين متشرفين مصلّين عليه صلى الله عليه وسلم .

---

[1] انظر حلية الأولياء لأبي نعيم والبداية والنهاية لابن كثير

[2] أي قلتم : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين .

[3] الحديث تقدم تخريجه

روى الإمام الدارمي في سننه عن أبي الجوزاء أوس بن عبد الله قال :
قحط أهل المدينة [1] قحطاً شديداً ، فشكوا إلى عائشة رضي الله عنها ، فقالت : انظروا قبر النبي صلى الله عليه وسلم فاجعلوا منه كوىً إلى السماء ، حتى لا يكون بينه وبين السماء سقف [2] .
قال : ففعلوا ، فمُطرنا مطراً حتى نبت العشب ، وسمنت الإبل ، حتى تفتقت من الشحم ، فسمي (عام الفتق) .
ثم أورد الدارمي حديثاً آخر عن سعيد بن عبد العزيز قال :
لما كان أيام الحرّة ـ أي: أيام فتنة يزيد ـ ، لم يُؤَذَّن في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثاً ولم يُقَم ـ أي: لم يقم فيه الصلاة ـ ، ولم يبرح سعيد بن المسيب رضي الله عنه [3] من المسجد ، وكان لا يعرف وقت الصلاة إلا بهمهمة يسمعها من قبر النبي صلى الله عليه وسلم .
ثم ذكر الدارمي حديثاً آخر وفيه : أن كعب الأحبار رضي الله عنه [4] دخل على عائشة رضي الله عنها فذكروا رسول الله صلى الله عليه و سلم فقال كعب : ما من يوم يطلع إلا نزل سبعون ألفاً من الملائكة حتى يحفّوا بقبر النبي صلى الله عليه و سلم ، يضربون بأجنحتهم [5] ويصلّون على رسول الله صلى الله عليه و سلم ، حتى إذا أمسوا عرجوا وهبط مثلهم فصنعوا مثل ذلك ، حتى إذا انشقت عنه الأرض خرج في سبعين ألفاً من الملائكة يزفّونه [6])
فهذه ملائكة الله تعالى تشدّ رحلها لزيارة قبر سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم طلباً للبركة والفضل .

---

[1] بعد وفاته صلى الله عليه وسلم

[2] وذلك حتى لا يكون هناك حاجب بين السماء وبين القبر الشريف .

[3] هو سيدي سعيد بن المسيب بن حزن بن أبي وهب بن عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم بن يقظة، الإمام العلم، أبو محمد القرشي المخزومي، عالم أهل المدينة وسيد التابعين في زمانه توفي سنة ٩٤ هـ رضي الله عنه

[4] هو كعب بن ماتع الحميري اليماني العلامة الحبر، الذي كان يهودياً فأسلم بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، وقدم المدينة من اليمن في أيام عمر رضي الله عنه، فجالس أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم و توفي بحمص ذاهباً للغزو في أواخر خلافة عثمان رضي الله عنه سنة ٣٢ هـ

[5] متواضعين متبركين

[6] وهذه الأحاديث ذكرها الإمام الدارمي في المقدمة ، باب ما أكرم الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بعد موته .

وصلى الله على سيدنا محمد ، وجزاه الله عنا خير الجزاء ، وأفاض علينا من بركاته وأسراره وأنواره ، وزادنا محبة وتعظيماً لجنابه الشريف ، والحمد لله رب العالمين . اهـ .

وهذه كلمات من دروس شيخنا الإمام رضي الله عنه في الجامع الأموي الكبير :
بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين
العبادة تهيئ العابد وتشرّفه وتقرّبه من حضرة رب العالمين :

إن الله تعالى خلق الخلق وشرع لهم أن يعبدوه حتى يكرمهم ويشرّفهم ويقرّبهم ويحبّهم ، فإن أحبهم أَحَلّهم في دار كرامته وفي جواره في مقعد صدق عند مليك مقتدر .
وليس في العبادة إحراج وتضييق على الإنسان ، قال تعالى :
{ ما جعل عليكم في الدين من حرج }.
وهو سبحانه غني عن الخلق وعن عباداتهم ، فكما كان غنياً عنهم قبل أن يخلقهم ، فهو سبحانه غني عنهم بعدما خلقهم ، وهو كما هو جل وعلا .
وفي الحديث القدسي يبين ذلك سبحانه :
[يا عبادي إني حرَّمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تَظالموا]
أي لا يظلم أحدكم نفسه ولا غيره .
[يا عبادي كلكم ضال إلا من هديتُه فاستهدوني أهدِكم ، يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمتُه فاستطعموني أطعمْكم، يا عبادي كلكم عارٍ إلا من كسوتُه فاستكسوني أَكْسُكُمْ] .
أي : نزل الإنسان من بطن أمه عارياً فكساه الله بواسطة والديه ، وفي ذلك كله يبين سبحانه لعباده أن يطلبوا حاجاتهم منه سبحانه ، وأن يسألوه جميع رغباتهم .
[يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفروني أغفر لكم]
- أي إنكم معرضون للخطأ والذنب دائماً .
وليس لأحد أن يزعم أنه لا ذنب له ، فهو لا يزني ولا يسرق ولا يشرب الخمر وهكذا ، فيقال له : إذا جلست خالياً ورحت تظن بفلان كذا وكذا من المساوئ فقد وقعت في كبير الذنوب ، ولو جال فكرُك في تدابير الله في خلقه واعترضتَ على قضاء الله في خلقه لوقعتَ في الكبائر .
وكل ذلك ونحوه من الذنوب فاستغفر الله منها وتب إلى الله تعالى .

[ياعبادي إنكم لن تبلغوا ضري] - بفتح الضاد [1] -[فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنّكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً]

- وإن أتقى العالمين لرب العالمين هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الذي قال : [أمَا والله إني لأتْقاكم لله وأخْشاكم له [2]]

مما يدل على أن الله تعالى غني عن عبادة الخلق كلهم -

[يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنّكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد] أي على فجور إبليس اللعين .

[ما نقص ذلك من ملكي شيئاً ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنّكم قاموا في صعيد واحد فسألوني]

أي سألني كل واحد منهم حاجاته كلها .

[فأعطيت كل واحد مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط] أي الإبرة [إذا أدخل البحر] وهذا من باب ضرب المثل ليقرب إلى العقل لأن نسبة المتناهي مهما كانت كبيرة فهي بالنسبة إلى ما لا يتناهى لا تعدل شيئاً أبداً .

[يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفّيكم إياها] أي جزاءها

[فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومَنَّ إلا نفسه] [3]

أي : فلا حجة ولا عذر لك عند الله طالما أنه سبحانه أعطاك عقلاً واختياراً وأنزل الكتب وأرسل الرسل وبيّن للناس الخير من الشر والهدى من الضلال وهكذا .

---

[1] قال في المصباح المنير : قال الأزهري : كل ما كان سوء حال وفقر وشدة في بدن فهو ضر بالضم ، وما كان ضد النفع فهو بفتحها .

[2] طرف حديث في صحيح مسلم كتاب الصيام

[3] طرف حديث في صحيح مسلم كتاب البر والصلة والآداب

سر العبادة :

العبادة صفة ملازمة للعبد لا تنفك عنه طالما أنه عبد لله تعالى ، خَلَقَه الله سبحانه ، وهو يمدّه ويرزقه ويربيه ، ولا غنى للعبد عن ربه أبداً .
ومتى استغنى عن ربه فلا يعبده !!
وأنى له ذلك !
إذ كل عبد هو مخلوق محتاج إلى ربه في جميع حاجاته
فما على العبد إلا أن يعترف لله بالربوبية والألوهية ويعبده ، وهذا مقتضى شهادته : لا إله إلا الله .
فأول العبادة أن يعترف العبد لله بالربوبية المطلقة ثم يخضع له بالأمر والنهي لأنه سبحانه أعلم بمصالح العباد ومنافعهم وسعادتهم .
ومتى صار العبد رب نفسه أمكنه الاستغناء عن عبادة ربه وأنى له ذلك !!
فهو لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً ..
وإذا أصابه الضر لا يمكنه أن يدفعه عن نفسه ، وإذا جاءه الموت أنى له أن يؤخره عنه !!
كل ذلك يحتم على العبد عبادة ربه جل وعلا ، لأنه عبد ، والله ربه ، ولا يمكن للعبد أن يتجرد عن عبوديته لله ، ولا يمكنه أن يخرج من ربوبية الله عليه ، حتى إن أهل الجنة يعبدون الله وهم في الجنة لأنهم ما خرجوا عن كونهم عباداً لله تعالى ، إلا أن عبادتهم في الجنة ليست على وجه التكليف والمشقة ، بل هي على سبيل الولع والتلذذ والنعيم .
وهذا ما دل عليه الحديث الذي يقول فيه الملائكة لله تعالى :
[لو رأوك كانوا أشد لك عبادة وأشد لك تمجيداً وأكثر لك تسبيحاً [1]] ..
وهذا شأن المؤمن في الجنة ، لأن أهل الجنة كلهم يرون الله تعالى لمّا يتجلى عليهم .
وفي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم في صفة أهل الجنة :
[يُلهَمون التسبيح والتحميد كما تُلهَمون النفس[2]] ..
ومن تفكّر في قوله تعالى :{ الحمد لله رب العالمين }.
يرى أن الآية لم تأت : الحمد لله رب المخلوقين ..

---

[1] طرف حديث في صحيح البخاري كتاب الدعوات
[2] طرف حديث في صحيح مسلم كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها

مع أن العوالم كلها مخلوقة أيضاً ، وذلك لأن في هذا حكماً وأسراراً كبيرة منها :
أن العالمين جمع : عالم ، والعالم يُعْلِمك بالشيء ويعرّفك به .
وفي اللغة يقال : (علامات ومعالم الطريق) ..
وهي إشارات تهدي السالك إلى مراده .
فالعالم هو كل ما سوى الله من مخلوق سواء كان مغيّباً أو مشهوداً ..
وسمي بذلك لأنه علامة تدلك إلى رب العالمين وتعرّفك به سبحانه ..
إذ لا يمكن للعبد في الدنيا أن يرى ويبصر بعينيه ذات الله تعالى لضعف نشأته الدنيوية وحجاب نفسه وذنوبه ، لكنه سبحانه أشهده في الدنيا الآيات والعلامات والمعالم الدالة عليه سبحانه ، والتي تعرّف الإنسان بربه وبقدرته وعظمته وعلمه وحكمته جل وعلا .
وفي هذا يقول سبحانه :
{ سَنُرِيهِمْ آَيَاتِنَا فِي الْآَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ } ..
وقال جل وعلا :
{ وفي الأرض آيات للموقنين وفي أنفسكم أفلا تبصرون }.
وقال تعالى :{ قل انظروا ماذا في السموات والأرض }.
ومن حكمة وسر العبادات أنها تُعدّ العبد وتهيّئه وتطوّره إلى حالة هو أهل فيها أن يرى رب العالمين ، وهذا ما سيحصل في الجنة إذ سينشئهم الله تعالى نشأة أخرى تمكّنهم من رؤية الله تعالى لما يتجلى عليهم ..
ومن نظر في العالم عرف رب العالم ، لأن العالم علامة تدل على كمالات الله تعالى وآثار أسمائه جل وعلا .
ومن رأى آثار أسمائه جل وعلا في العوالم فكأنه رأى الله تعالى ، وهذا هو الشهود القلبي لأنواره وأسراره جل وعلا .
والعوالم كثيرة كبيرة منها : ما يشهده الإنسان بعينه ، ومنها ما أخبر عنه القرآن الكريم كالعرش وعالم الكرسي وعالم السدرة وعالم الملائكة وعالم الروح وغيرها .. ، ومِن عجز الإنسان وضعفه أنه لا يرى روحه التي بها حياته وقوام بدنه ومداركه وحواسه ، ولا يمكنه إنكارها ، إذ ما الذي فقده الميت من أعضائه حتى مات ؟!!
ومن الناس من يموت بسكتة قلبية مع أنه لم ينقص ذرة من أعضاء جسمه فما الذي حصل له حتى مات ؟!!
ولذلك شرع الله تعالى قراءة سورة الفاتحة في كل صلاة ، والتي فاتحتها :
{ الحمد لله رب العالمين }

وذلك حتى يستحضر الإنسان في نفسه عظمة الله تعالى وكبرياءه ، ويلاحظ بقلبه أنه يقف بين يدي رب العالمين .
والعوالم كثيرة لا يعلم عددها إلا هو سبحانه .
ويلاحظ العبد أنه العبد الذليل المنكسر لعظمة رب العالمين حتى يفيض عليه سبحانه من البر والخير على قدر خشوعه وحضوره في صلاته .
- قلت : وانظر تفاصيل البحث في العوالم في كتاب :
(هدي القرآن الكريم إلى معرفة العوالم والتفكر في الأكوان)
لمولانا الشيخ الإمام رضي الله عنه - .

الخشية من الله تعالى صفة العقلاء :

قال سبحانه :{ طه * ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى }.
أي : ما أنزلنا عليك القرآن لتُجهد نفسك وتتعب وتحزن على هؤلاء الكفار المعرضين عن القرآن لمّا يسمعونه منك ، فما عليك إلا إبلاغهم وإنذارهم ..
{ إلا تذكرة لمن يخشى } : أي إن ما تقرؤه هو تذكرة لأهل الخشية وهم العقلاء ، وأما من لا خشية عنده فلا عقل عنده ..
وإليك بيان ذلك :
لو أن إنساناً صادقاً عدلاً ثقة أخبرك أن في الطريق الفلاني حيوانات مفترسة ، ونصحك أن لا تسلكه ..
فإذا كنت صاحب عقل فإن عقلك يمنعك من سلوك هذا الطريق خشية وحذراً مما فيه ، ونظراً في عواقب الأمر الذي تريده .
ومن لم يُبالِ ولم يتعقل راح يسلك الطريق ليواجه المخاطر ويوقع نفسه في المهالك .
فالذي يخشى العواقب إذا جاءه الإنذار ممن هو صادق ، أحجم وأمسك ، فهو العاقل .
والذي أعرض ولم يتفكر فهو في نقص كبير في عقله وفكره ..
ولقد نظر العقلاء في الكتاب الذي جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم وآمنوا أنه كلام الله لأنه معجز للبشر عن الإتيان ولو بسورة مثله .
وقد اشتهر رسول الله صلى الله عليه وسلم في قومه وعُرِف فيهم بالصدق والأمانة والنزاهة وجاءهم بهذا القرآن وأخبرهم عن عواقب الأمور ، وعن عذاب الله لمن عصاه ، فكان موقف العقلاء أن يعملوا بأمره ويجتنبوا نهيه ..
وأما من لم يبال ولم يخش العواقب فليس بعاقل ، وهذا قوله تعالى :
{ إلا تذكرة لمن يخشى } .

قوله تعالى :{ الرحمن على العرش استوى }:

فلم يسْتوِ سبحانه على العرش لحاجته للعرش ، إذ إنه سبحانه هو خلق العرش فكيف يحتاج إليه ؟!!
لقد استوى على العرش لحكم عالية تدل عليها سياق الآيات .
قال تعالى :{ ثم استوى على العرش يدبّر الأمر }..
فالعرش موضع ظهور ملك الله ، ومظهر سلطان عزة الله تعالى ، ومصدر تدابير الله وأوامره في خلقه ، ومن جملة التدابير الإلهية :
ما جاء في قوله تعالى :{ يغشي الليل النهار }
وتسيير الشمس والقمر والنجم
روى الإمام مسلم عن سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أنه قال : أخبرني رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم من الأنصار أنهم بينما هم جلوس ليلة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم رُمي بنجم فاستنار [١]
فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم :
[ماذا كنتم تقولون في الجاهلية إذا رمي بمثل هذا] ؟
قالوا : الله ورسوله أعلم ، كنا نقول : وُلد الليلة رجل عظيم ومات رجل عظيم
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
[فإنها لا يُرمى بها لموت أحد ولا لحياته ، ولكن ربنا تبارك وتعالى اسمه إذا قضى أمراً سبّح حملة العرش ، ثم سبّح أهل السماء الذين يلونهم ، حتى يبلغ التسبيح أهل هذه السماء الدنيا ، ثم قال الذين يلون حملة العرش لحملة العرش : ماذا قال ربكم ؟ فيخبرونهم ماذا قال ، - قال - فيستخبر بعض أهل السموات بعضاً حتى يبلغ الخبر هذه السماء الدنيا فتخطف الجن السمع فيقذفون إلى أوليائهم ويرمون به ، فما جاؤوا به على وجهه فهو حق ولكنهم يقرفون [٢] فيه ويزيدون » [٣].
أي : لما يصدر الأمر عن رب العالمين تضيء أنوار لحملة العرش وتأخذهم الخشية من الله تعالى ويسبحون الله تعالى ..
ثم يسأل ملائكة السموات السبع حملة العرش : ماذا قال ربكم ؟

---

[١] معنى : (رمي بنجم) أي قُذف به والمعنى : انقض كوكب
(فاستنار) أي الجوّ به
[٢] أي : يخلطون فيه الكذب
[٣] صحيح مسلم كتاب السلام

فيخبرونهم عن الأمر ، وهكذا حتى يصل الأمر إلى السماء الدنيا ، وإذا كان الأمر يتعلق بعالم الأرض فقد يتقرب جني من السماء الأولى ليسترق السمع مما تتحدث به الملائكة عن أمور غيبية ستقع في عالم الأرض فيخطف كلمة وترميه الملائكة بالشهب التي تأخذها من أقرب نجم إلى الجني .
كما أن الأوامر الإلهية التي فيها تسيير الشمس والقمر والكواكب تصدر بتوجه إلى عالم العرش وعنه تصدر ، كما في الحديث الذي رواه الإمام مسلم عن سيدنا أبي ذر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال يوماً :
[أتدرون أين تذهب هذه الشمس] ؟
قالوا : الله ورسوله أعلم .
قال صلى الله عليه وسلم : [إن هذه تجري حتى تنتهي إلى مستقرها تحت العرش ، فتخرّ ساجدة فلا تزال كذلك حتى يُقال لها : ارتفعي ارجعي من حيث جئت] [1]
وهذا من أشراط الساعة الكبرى إذ تطلع الشمس من مغربها ، وعندها يُغلق باب التوبة والإيمان كما دلت عليه الآية :
{ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آَيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آَمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا }.
ولا يلزم من سجود الشمس تحت العرش أن تقف عن سيرها وشروقها وغروبها عن عالم الأرض ، فهي دوماً في سجود واستئذان ، ويؤذن لها فتشرق على قوم وتغرب عن آخرين وهكذا .
لأن سجودها لائق بها يناسب نشأتها ، وهو سجود حقيقي لكنه ليس كسجود الإنسان إذ إن سجود كل مخلوق على حسب ما خلقه الله تعالى .

[1] صحيح مسلم كتاب الإيمان

عالم العرش هو موضع صدور إعلانات وبلاغات وبيانات رب العالمين :

إن لله تعالى إعلانات وبلاغات ومناشير [1] كما قال تعالى :
{ هذا بلاغ للناس } .
وقال جل وعلا : { إن في هذا لبلاغاً لقوم عابدين }
وروى الإمام أحمد في مسنده عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :
[ان العبد] - أي المؤمن -
[ليلتمس مرضاة الله] أي بعبادته لله تعالى -
[ولا يزال كذلك فيقول الله عز وجل لجبريل : إن فلاناً عبدي يلتمس أن يرضيني ، ألا وإن رحمتي عليه]
- أي رضائي ورحمتي في الدنيا والآخرة على فلان -
[فيقول جبريل : رحمة الله على فلان ، ويقولها حملة العرش ويقولها من حولهم حتى يقولها أهل السماوات السبع ثم تهبط له إلى الأرض] [2] ..
وهكذا أخذ الإعلان حكمه ، وانتشر بين أهل السماء والأرض .
وفي رواية للإمام مالك كما في الموطأ : [وإذا أبغض الله العبد ....]
قال مالك : لا أحسبه إلا أنه قال في البغض مثل ذلك . [3]
ونسأل الله التوفيق وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم والحمد لله رب العالمين .

---

[1] جاء في الحديث عَنْ سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم : [لا يَدْخُلُ أَحَدٌ الْجَنَّةَ إِلا بِجَوَازٍ : بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، هَذَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ لِفُلانِ بْنِ فُلانٍ، أَدْخِلُوهُ جَنَّةً عَالِيَةً قُطُوفُهَا دَانِيَةً]
والحديث رواه الطبراني في الكبير والأوسط والبيهقي في البعث والنشور وأبو نعيم في معرفة الصحابة والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد
[2] ٢١٣٦٧
[3] الموطأ كتاب الجامع

أما دروس شيخنا الإمام رضي الله عنه في جامع الحموي الكائن حول قلعة حلب قرب محلة البياضة فكان رضي الله عنه يدرّس فيه صباح كل يوم بعد شروق الشمس بنصف ساعة تقريباً عدا يوم الجمعة ، ثم إنه لكثرة مشاغله اقتصر على التدريس فيه أيام الأحد والأربعاء والخميس ، وذلك بعد أن افتتح معهد التعليم الشرعي المعروف بـ (المدرسة الشعبانية) ، وقام بإدارته والتدريس فيه .
فكان يقرأ صباح كل يوم أحد في الجامع الحموي درساً في التفسير ، وصباح الأربعاء يقرأ طائفة من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم التي ذكرها الإمام البخاري في جامعه الصحيح ويشرع في بيانها ، وابتدأ ذلك من أول صحيح البخاري حسب ترتيب كتبه وأبوابه .
وأما صباح الخميس فكان يقرأ من كتاب (رياض الصالحين) للإمام النووي رضي الله عنه ، وكذا يشرع في شرح وبيان الأحاديث النبوية التي ذكرها الإمام النووي في كتابه وهكذا .

وإليك أيها القارئ الكريم واحداً من كلّ من هذه الدروس :

أولاً : درس في التفسير

درس حول تفسير قوله تعالى في سورة مريم :

{ يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا * وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا * وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا * وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا }
بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين
بسم الله الرحمن الرحيم
{ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ } . آمين
يذكر سبحانه في هذه السورة قصة سيدنا زكريا وابنه سيدنا يحيى عليهما الصلاة والسلام .

وتقدم الكلام كيف أن سيدنا زكريا عليه السلام دعا ربه سبحانه وسأله الولد ، وأجابه سبحانه وبشّره ليشكر الله على هذه النعمة .
وبعد أن وُلد يحيى عليه السلام وبلغ الصبا ذكر سبحانه فضله عليه فقال تعالى : {يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ } أي : التوراة .
وذلك لأن الله تعالى أمر جميع أنبياء بني إسرائيل بعد موسى عليه السلام أن يعملوا بأحكام التوراة التي أنزلها على موسى عليه السلام .
وقوله تعالى :{خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ } أي : اعمل بالتوراة بجد واجتهاد .
قوله تعالى :{وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا} الحكم هو السداد والإصابة في القول والعمل ، فقد جعل سبحانه أقواله سديدة وأعماله صائبة منذ صغره ، وقيل : إن ذلك كان لما بلغ من العمر ثلاث سنوات .
وأما ما قيل : إن الحكم هو النبوة ، فليس هذا القول صحيحاً .
ولقد سدد سبحانه أقوال أنبيائه عليهم الصلاة والسلام وصوّب أعمالهم ، فحفظهم وعصمهم قبل النبوة وبعد النبوة .
ومن ذلك امتنّ سبحانه على يحيى عليه السلام بهذا المقام .
وقال سبحانه في سيدنا إبراهيم عليه السلام :
{ ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين }
أي : آتيناه رشده منذ صغره وقبل أن ننبّئه .
فكانت أقواله وأفعاله على السداد والصواب منذ صغره .
وكذلك ذكر سبحانه فضله على سيدنا موسى عليه السلام فقال :
{ ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكماً وعلماً وكذلك نجزي المحسنين }
أي : آتيناه سداداً في القول والعمل .
وهذا ما ذكره سبحانه عن سيدنا يوسف عليه السلام فقال :
{ ولما بلغ أشده آتيناه حكماً وعلماً وكذلك نجزي المحسنين } .
وإن أعظم نبي آتاه الله تعالى السداد في القول والعمل والرشاد هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الذي قال الله تعالى فيه :{ ما ضل صاحبكم وما غوى }أي : بل هو على الهداية والرشاد منذ صغره صلى الله عليه وسلم وهذا باعتراف قومه الذين نشأ بينهم صلى الله عليه وسلم .
وهذا من حكمة قوله تعالى :{ صاحبكم } أي : يا معشر قريش ، فهو صلى الله عليه وسلم الصادق الأمين ، المعروف والمشهور بينكم بذلك ، وهم أعرف الناس بحاله ونشأته الطيبة الكريمة صلى الله عليه وسلم .
والضلال يقابله الهدى ، والغواية يقابلها الرشاد ،فيقال :فلان غاوٍ ، وفلان راشد ورشيد .

فهو سبحانه يذكّر معشر العرب أن سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم ما ضل وما غوى ، وذلك باعترافهم وإقرارهم ، فلم يعثروا له على زلّة حتى ينسبوه إلى الضلال ، بل كان دائماً على الهدى والرشاد في أقواله وأفعاله وأخلاقه العظيمة صلى الله عليه وسلم .

ولو أن كفار قريش كانوا قد رأوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم زلة منذ صغره لجعلوها حجة عليه عند كِبَره بعد النبوة ، لكنهم لم يروا منه إلا الصدق والأمانة والعفة والنزاهة .

وقد ذكّرهم سبحانه بذلك ليعترفوا ويقرّوا ولا ينكروا عليه صلى الله عليه وسلم نبوّته ورسالته لمّا نبأه الله تعالى وأرسله فيهم وللناس كافة ،بل من الواجب عليهم أن يؤمنوا به ويسلّموا له فيما جاء به لأنهم يشهدون بصدقه وأمانته صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : { وحناناً من لدنا وزكاة وكان تقياً }

أي : وآتيناه حناناً من لدنّا ، فالله تعالى يحنّ عليه حناناً خاصاً ، وهو يحنّ على خلق الله تعالى أي : يعطف عليهم ويشفق عليهم .

والحنان في اللغة يطلق على : العطف .

ومن ذلك اسمه تعالى :

(الحنّان) أي : العطوف ، يعطف على خلقه أي : يرأف بهم .

وقال بعض السلف في قوله تعالى :{ وحناناً من لدنا }أي : أعطيناه محبة من لدنا ، فحبّبه الله إلى عباده ، بحيث يحبه كل من سمع به أو رآه .

فهو سبحانه أحبّه وحبّب فيه عباده ، وهذا مقام خاص يقتضي تحبيب الله تعالى العباد في فلان محبة خالصة ، لا لغرض أو غاية دنيوية أو شخصية أو نفسية .

وفي هذا يقول صلى الله عليه وسلم :

(المِقَة من الله والصيت في السماء)[1]

والمقة هي : المحبة ، والصيت هو : الشهرة والسمعة الحسنة .

وإن أعظم حبيب ومحبوب تعلّقت به النفوس وتعشقت به القلوب هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الذي قال : [ألا وأنا حبيب الله ولا فخر] [2]

وإن كل صاحب قلب إذا سمع بخصاله وبشمائله وأخلاقه الكريمة صلى الله عليه وسلم لابد أن يحبه ويتعلق به صلى الله عليه وسلم

[1] المعجم الكبير للطبراني ومسند الروياني وأصله في المسند ٢١٢٤٠

[2] سنن الترمذي كتاب المناقب وسنن الدارمي في المقدمة

لأنه صلى الله عليه وسلم مجمع المحاسن والكمال والجمال والتي إليها ترجع أسباب المحبة كلها .
قوله تعالى : { وزكاة } أي : وآتيناه من لدنا زكاة نفس أي : طهارة نفس ، والزكاة تدل على أمرين : الطهارة والنماء ، ومن ذلك (زكاة المال) أي : طُهرة للمال ونماء فيه وبركة ، فمن زكّى ماله طهّره ونمّاه .
كما قال صلى الله عليه وسلم : (ما نقص مال عبد من صدقة) [1]
فهو سبحانه يبارك في المال المُزَكّى .
وإن محاذير ترك زكاة المال كثيرة خطيرة في الدنيا قبل عذاب الآخرة .
منها أن المقت والكآبة والغمّ يعتري مانع الزكاة ، ويسري ذلك على أهل بيته فيضيق عليهم ويشعرون بالوحشة والظلمة .
وتشتد سكرات الموت على مانع الزكاة ، ويتمنى الرجعة إلى الدنيا ليزكّي ماله الذي شقي في جمعه وهو يفارقه عند الموت ، وما أشد وأقسى على النفس ألم مفارقة المحبوب .
قال تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ * وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ }
ثم يتمثّل له ماله بصورة ثعبان كبير يلتف حول عنقه ويلدغه طيلة الموقف [2] ويتمثل أيضاً له على هيئة السبائك وتُحمى في جهنم ويُكوى بها ظهره وجنبه وجبهته [3] .
ومن جملة محاذير ترك الزكاة :
أن فقراء الزمان يجتمعون كلهم على من منعهم الزكاة
فقد روى الطبراني عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : [ويل للأغنياء من الفقراء يوم القيامة ، يقولون : ربنا ، ظلمونا حقوقنا التي فرضت لنا عليهم ، فيقول الله عز وجل : وعزتي وجلالي ، لَأُدْنِيَنّكُم ولَأُباعِدَنّهُم] ، ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم : { والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم } [4]

---

[1] طرف حديث في سنن الترمذي كتاب الزهد
[2] انظر صحيح البخاري كتاب الزكاة
[3] كما في سنن أبي داود كتاب الزكاة والمسند ٧٢٤٧
[4] انظر المعجم الأوسط للطبراني وقال عنه الإمام المنذري في الترغيب :
رواه الطبراني في الصغير والأوسط وأبو الشيخ ابن حبان في كتاب الثواب كلاهما من رواية الحارث بن النعمان .

وهذا قوله تعالى :{ وفي أموالهم حق للسائل والمحروم }.
وهذا قوله تعالى : { وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل }.
ولقد أعطى الله تعالى سيدنا يحيى عليه السلام طهارة نفس وطيب نفس ، مع نموها في الخير والبركة .
وصاحب النفس الزكية هو :
الذي طهّر نفسه من الدنس والرجس وطيّبها بالخيرات والفضائل ، حتى صارت نفسه قدسية علوية لا يصدر منها إلا الخير .
واعلم أنه لا يدخل الجنة إلا صاحب النفس الزكية الذي زكّى نفسه بما جاء به سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي قال الله تعالى فيه :
{ ويزكيكم }.
ومن لم تَزْكُ نفسه في الدنيا فلابد أن يلاقي من أهوال البرزخ حتى يطهر و يطيب ، فإذا كانت ذنوبه كثيرة مستحكمة فيه فلابد له من دخول جهنم لمدة يطهر فيها ، فإذا طهر وطاب أُذن له بدخول الجنة ، لأن الجنة لا يدخلها إلا مؤمن طاهر طيب كما قال تعالى :{ طبتم فادخلوها خالدين }.
وقال سبحانه :
{ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ }
وأعظم سبب يتعاطاه الإنسان المؤمن لتزكية نفسه هو أن يكون دوماً على مراقبة لله تعالى كما في الحديث حين سأل الصحابي رسول الله صلى الله عليه وسلم :
[وما تزكية المرء نفسه يا رسول الله ؟
قال : أن يعلم أن الله معه حيثما كان] [1]
أي :أن تعلم علماً حقيقياً واقعياً - وهو علم يقين لا يقبل الاضطراب والشك - أن تعلم أن الله تعالى مطّلع عليك ويراك في جميع أحوالك ولا يخفى عليه منك شيء .
وبهذه المراقبة يتمكن الإنسان من تقوى المعاصي والذنوب حياء من الله تعالى أن يُعصى على مرأى ومشهد ومسمع منه سبحانه .
وتحمله المراقبة أيضاً على النهوض إلى الطاعات والقربات طلباً لمرضاة الله تعالى .
قال تعالى : { وهو معكم أينما كنتم }

---
[1] طرف حديث رواه الإمام البخاري في التاريخ الكبير والطبراني في مسند الشاميين والبيهقي في الشعب وأبو نعيم في معرفة الصحابة

فمن راقب هذه المعيّة استحيا من الله وخاف من الله .
ومن مراقبة الله تعالى : أن يفكر الإنسان في كل كلمة ينطق بها لسانه هل هي خير وفيها نفع وفائدة ؟ أم أنها شر وفيها الضرر والفساد ؟
ومن مراقبة الله تعالى أيضاً : أن يعلم أن الله تعالى مطّلع عليه ظاهراً وباطناً ، وهو سبحانه يعلم ضمائر الصامتين ، فإذا جلس الإنسان يفكّر فهو سبحانه يعلم ما يجول في فكره من أمور ، فقد يعيب في فكره على فلان ويزدري فلاناً وينتقص فلاناً ويسيء الظن بفلان وهكذا .
قال تعالى :{ واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه }.
أي : فاحذروا غضب الله وعذابه .
وذلك بتجنب الظن السيء وتجنبِ أن يضمر أحدكم في نفسه الشر والفساد ، فإن الله تعالى يعلم ذلك كله وهو سبحانه شهيد عليه .
قوله تعالى :{ وحناناً من لدنا وزكاة }
فيه ثناء من الله تعالى على سيدنا يحيى عليه السلام وفيه بيان أن مقام تزكية النفس من أعالي المقامات .
وقد علّم سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أمّته دعاء حتى يستعينوا بالله تعالى على تزكية نفوسهم ففي الحديث :
[اللهم آت نفسي تقواها ، وزكّها أنت خير من زكّاها ، أنت وليّها ومولاها] [1]

قوله تعالى :
{ وكان تقياً } أي : متمسكاً بأوامر الله تعالى ، منتهياً عما نهى الله تعالى .
وقد وصفه الله تعالى بالتقوى ليبين أنه كان على مقام كبير في التقوى .
قوله تعالى :{ وبراً بوالديه } أي : كثير البر والإحسان لوالديه في الفعل والقول والحال .
{ ولم يكن } أي : مع الناس ولا مع والديه .
{جباراً عصياً } بل كان متواضعاً ليناً ، وفي هذا مدح لأهل التواضع ، وأن التواضع مع المؤمنين قُربة إلى الله تعالى .
قوله تعالى : { وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً }.
وفي هذه الآية يسلّم الله تعالى على سيدنا يحيى عليه السلام ، ورتّب السلام عليه على ثلاثة مراحل : يوم ولادته ويوم موته ويوم بعثه .

---
[1] صحيح مسلم كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار

وقد خصص سبحانه السلام عليه في هذه الأيام الثلاثة لأن في كل منها دخولاً إلى عالم جديد ، ويعتري الداخلَ وحشة ومهابة إذا لم يتداركه الله برحمته ومؤانسته .
وقال بعض السلف :
(ما أوحش الإنسان في هذه الأيام الثلاثة إذا لم تتداركه رحمة الله تعالى) .
فالإنسان لما يولد ينفصل عن رحم أمه ويدخل عالم الدنيا وتعتريه الوحشة لأنه كان في عالم محدود مقيد بإحساسه ومداركه ، فإذا انتقل إلى عالم الدنيا انطلق إلى عالم كبير يشعر فيه بالوحشة والدهشة فتراه يلتفت ويبكي تعبيراً عن ذلك .
وكذلك لما يموت الإنسان ويدخل عالم البرزخ ويفارق أهله وأصحابه ويتعرف إلى أناس لم يكن يعرفهم من قبل .
وعالم البرزخ عالم كبير أوسع من عالم الدنيا ، وما نسبة عالم الدنيا إلى عالم البرزخ إلا كنسبة عالم الرحم إلى عالم الدنيا فتفكّر في ذلك .
نعم يعتري من ينتقل إلى البرزخ بالموت الدهشةُ والوحشة إلا من آنسه الله تعالى بأمانه وسلامه .
واعلم أن المؤمن الذي ينتقل إلى البرزخ ولا ذنب عليه فإنه يصير في عالم كبير يطّلع فيه على أحكام الآخرة وعوالمها ، وعلى عالم الدنيا وما سيجري عليها .
أما المجرم أو المذنب الذي مات ولم يتب فيبقى مقيداً مشغولاً بنفسه وكُرُباته وآلامه كالمريض الذي شغله المرض والألم عن الالتفات إلى غيره .
أما يوم الحشر يوم يبعث الله الخلائق من عالم القبور إلى عالم المحشر فيصيب الإنسان في ذلك اليوم وحشة وكربة شديدة ، لأن أهوال المحشر وكرباته شديدة عظيمة إلا من أظلّه الله بظلّه وعناه بأمنه وسلامه .
ومن هذا كله تفهم سر تسليم الله تعالى على سيدنا يحيى عليه السلام في تلك الأيام :{ وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً } .
ولما قال الله تعالى :{ وسلام عليه يوم ولد}
يعني : سلام مستمر عليه إلى أن يموت .
فيشمل ذلك السلام أيام الدنيا كلها التي يعيشها يحيى عليه السلام .
وكذلك السلام الثاني بقوله تعالى :
{ويوم يموت }من موته إلى يوم بعثه في المحشر .
وكذلك { ويوم يبعث حياً } إلى أبد الآبدين فهو في سلام الله وأمانه .
وقوله تعالى :{ وسلام عليه } أي : سلام من الله خاص لسيدنا يحيى عليه السلام يليق بمقام سيدنا يحيى عليه السلام .

ولابد من الإشارة هنا إلى أن تسليم الله تعالى على عباده على مراتب :
فهناك السلام العام على جميع المؤمنين والمؤمنات كما في قوله تعالى :
{ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ }
فقوله تعالى : { بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ }
أي : من المؤمنين من ذرية مَن معك مِن أولادك الذين ركبوا السفينة معك .
قوله تعالى : { وأمم } أي : وأمم أخرى كافرة لا حَظَّ لهم من سلام الله ، بل سيمتّعهم الله في الدنيا ثم يُردّون إلى عذاب الآخرة ،فما من مؤمن ولا مؤمنة إلى يوم القيامة إلا ونالهم السلام من الله تعالى .
فقد سلّم الله تعالى على كل مؤمن ومؤمنة وبارك عليهم بقوله :
{ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ }
فهناك البركات في الإيمان ، والبركات في الأعمال فينمّيها جل وعلا ويضاعف أجرها ، وهناك البركات في الأرزاق ، وفي كل شيء فيه نفع للمؤمنين ، فلا يخلو أيّ مؤمن من بركات الله تعالى .
فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يشرب من مشرب الناس يرجو بركة المسلمين [1]
يعني : وإن بركة المسلمين من بركة الله تعالى كما تقدم .
فما أعظم بصره وبصيرته صلى الله عليه وسلم !
فكان يلاحظ بركة الله تعالى التي شملت كل مؤمن ومؤمنة ، مع أنه صلى الله عليه وسلم مهبط الخير والبركة ومنبع العلم والحكمة صلى الله عليه وسلم ، وفي هذا تواضع منه صلى الله عليه وسلم وتعليم للأمة .
وهناك سلام الله تعالى الخاص بالأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام فلقد سلّم الله تعالى على سيدنا نوح عليه السلام فقال جل وعلا :
{ سلام على نوح في العالمين }.
وسلّم سبحانه على إبراهيم عليه السلام ، قال تعالى :
{ سلام على إبراهيم }

---

[1] روى الطبراني في المعجم الكبير والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : كان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يبعث إلى المطاهر فيؤتى بالماء فيشربه يرجو بركة أيدي المسلمين . اهـ .
وقال عنه في مجمع الزوائد : ورجاله موثّقون
والمطاهر : جمع مطهرة بكسر الميم : كل إناء يُتطهر منه ، والمراد منه هنا : البرك المعدة للوضوء ونحوها (انظر فيض القدير ٢٥٣/٥)

وسلّم سبحانه على موسى وهارون عليهما السلام ، قال تعالى :
{ سلام على موسى وهارون }.
ومن ذلك : السلام على يحيى عليه السلام ، قال جل وعلا :
{ وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً } .
وأخبر الله تعالى عن سيدنا عيسى عليه السلام قوله :
{ والسلام علي يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً }.
والمعنى :
والسلام من الله تعالى علي ، وإلا فلا أحد يسلِّم على نفسه من نفسه .
ومَن تدبّر قوله تعالى :{ وسلام عليه } في حق يحيى عليه السلام
وقوله تعالى عن عيسى عليه السلام :{ والسلام علي }.
فقد سلم الله تعالى على يحيى عليه السلام لأنه كان في مقام الهيبة والجلال والانقباض فلم يسلّم على نفسه كما فعل عيسى عليه السلام لأن عيسى عليه السلام كان في مقام البسط والدلال .
ولقد كان يحيى عليه السلام كثير الحزن والخوف والبكاء .
أما عيسى عليه السلام فكان كثير التبسم والسرور بمقتضى الجمال والبسط
روى أبو نعيم وابن عساكر وغيرهما عن مكحول رحمه الله قال:
التقى يحيى بن زكريا وعيسى بن مريم عليهما السلام، فضحك عيسى في وجه يحيى وصافحه ، فقال له يحيى :
يا ابن خالتي مالي أراك ضاحكاً كأنك قد أمِنت؟
- أي : كأنك قد أمنت مكر الله تعالى .
فقال له عيسى: يا ابن خالتي ما لي أراك عابساً كأنك قد يئست؟[1]
- أي : كأنك قد يئست من رحمة الله تعالى - ، فكان كل منهما يتكلم بمقتضى المقام الذي أقامه الله تعالى فيه .
ولا يجوز لأحد أن يفاضل بينهما من تلقاء نفسه ، ولا يجوز له أن يفاضل بين الأنبياء إلا فيما ورد بنص شرعي .
وأفضل الأنبياء على الإطلاق وأكرمهم على الله هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الذي قال :
[أنا أكرم ولد آدم على ربي ولا فخر][2]
وقال صلى الله عليه وسلم : [أنا سيد ولد آدم][3]

---

[1] انظر حلية الأولياء لأبي نعيم والبداية والنهاية لابن كثير وتاريخ دمشق لابن عساكر
[2] سنن الترمذي كتاب المناقب
[3] صحيح مسلم كتاب الفضائل وسنن الترمذي كتاب تفسير القرآن

وغير ذلك من الأحاديث الشريفة .
وقال سيدنا عيسى مرة لسيدنا يحيى عليهما السلام :
ادع الله لي فإن الله تعالى سلّم عليك فأنت خير مني .
فقال له يحيى : بل أنت ادع الله لي فقد سلّمت على نفسك من جانب الله [1] .
وقد ذكر الله سبحانه أفضل الأنبياء وهم أولو العزم من الرسل بقوله :
{ وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى } الآية .
وأفضلهم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ويليه في الفضل إبراهيم عليه السلام .
ومما يُذكر عن يحيى عليه السلام أنه لما كان صغيراً مر يوماً على نار موقدة فبكى .
فقالت له أمه : ما يبكيك وأنت صغير ؟- أي : لا ذنب عليك -
فقال لها : يا أماه أرى أنهم يوقدون الكبار بالصغار !!![2]
يعني أنه فكر واعتبر فيما رأى فخاف من ذلك لأنه رأى أن الإنسان عندما يوقد ناراً يأتي بالحطبة الصغيرة أولاً فيوقدها ليشتعل فيها الحطب الكبير الحجم وهكذا .
وفي هذا عبرة لأولي الألباب فكم من كبار حُرقوا بسبب الصغار ، وكم من آباء حُرقوا بسبب أبنائهم .
فترى الولد ينشأ كافراً أو فاجراً أو فاسقاً بسبب إهمال والده له فيحاسبه الله تعالى على ذلك ويعذبه بذلك .
وقد ترى الوالد يرسل ولده إلى بلاد الكفرة للدراسة فيتأثر بأفكارهم وإلحادهم فيعود إلى والديه مسفِّهاً لهم محتقراً عباداتهم ، حتى يجادلهم في ذلك وأنهم على ضلال وتخلف ، فربما تأثر به والده زعماً منه أن ابنه صار دارساً مثقفاً ، فيترك عبادته وقد يخرج عن دينه بسبب ولده .
فيحترق الكبير بسبب الصغير نسأل الله تعالى العافية والسلامة .
فعلى الوالد أن يعلّم أولاده أمور دينهم ، ويحملهم على التزام أوامر الله تعالى وترك المعاصي .

---

[1] انظر تفسير القرطبي لقوله تعالى : { وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا }
[2] قال في الدر المنثور : أخرج أحمد في الزهد وابن المنذر وابن أبي حاتم والخرائطي وابن عساكرعن معمر بن راشد في قوله تعالى : { وآتيناه الحكم صبياً } قال : بلغني أن الصبيان قالوا ليحيى بن زكريا : اذهب بنا نلعب ، قال : ما للّعب خُلقتُ ، فهو قوله جل وعلا : { وآتيناه الحكم صبياً } .

حتى إذا بلغ أحدهم سن البلوغ وراح يتنكر لذلك ويتفلت عن أمور دينه فلا مسؤولية عندها على الوالد طالما أنه لم يهمل تربية أولاده قبل البلوغ .
وقوله تعالى : { وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً }.
إن جميع الأموات يبعثهم الله تعالى أحياء يوم القيامة فلِمَ ذكر سبحانه عن يحيى عليه السلام :{ ويوم يبعث حياً }؟
نعم ليشير بذلك إلى الحياة الخاصة اللائقة بسيدنا يحيى عليه السلام صاحب المقام اليحياوي الذي يذبح كبش الموت على السور بين الجنة والنار[١] كما في بعض الآثار .
وروى الشيخان عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : [يؤتى بالموت كهيئة كبش أَمْلَح فينادي مناد : يا أهل الجنة ، فيشرئبون وينظرون فيقول : هل تعرفون هذا ؟ فيقولون : نعم هذا الموت ، وكلهم قد رآه ، ثم ينادي مناد : يا أهل النار ، فيشرئبون وينظرون فيقول : هل تعرفون هذا ؟ فيقولون : نعم هذا الموت ، وكلهم قد رآه فيُذبح ، ثم يقول : يا أهل الجنة خلود فلا موت ، ويا أهل النار خلود فلا موت] [٢]
فإن يحيى عليه السلام يذبح (يموت) فلا يبقى موت ، بل صار أهل الجنة في خلود ونعيم دائم ، وكذلك أهل النار في خلود وشقاء دائم .
فلقد تمثل الموت بصورة كبش أملح [٣]وذُبح هذا الكبش فمات الموت، والموت أمر وجودي كما أن الحياة أمر وجودي .
قال تعالى في ذلك :{ الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً }.
وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .
والحمد لله رب العالمين .

---

[١]قال الإمام ابن حجر في الفتح : نقل القرطبي عن بعض الصوفية أن الذي يذبحه - أي الموت - هو يحيى بن زكريا بحضرة النبي صلى الله عليه وسلم إشارة إلى دوام الحياة . اهـ ٣٩٧/١٨

[٢]صحيح البخاري كتاب تفسير القرآن وصحيح مسلم كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها

[٣]قال ابن الأثير في النهاية : هو الذي بياضه أكثر من سواده . وقيل هو النقي البياض . وقال في القاموس : الملحة بياض يخالطه سواد ، يقال : كبش أملح ونعجة ملحاء . وقال الحافظ في الفتح : هو الذي فيه سواد وبياض والبياض أكثر

ثانياً : درس من صحيح البخاري

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، أما بعد :
بالسند المتصل إلى الإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه الجعفي البخاري ، قال بسنده إلى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم :
[بني الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والحج وصوم رمضان] [1]
و وبالسند المتصل إلى الإمام البخاري رضي الله عنه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم :
(إن الله قال : مَن عادى لي ولياً فقد آذنتُه بالحرب ، وما تقرّب إليّ عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه ، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، ولئن سألني لأعطينّه ، ولئن استعاذني لأعيذنّه).
وقد روى الإمام البخاري رضي الله عنه هذا الحديث في كتاب الرقاق الذي ذكر فيه أحاديث ترقّق القلوب القاسية وتنبهها من غفلتها .
ويسمى هذا الحديث (حديث الأولياء) و(حديث التقرب إلى الله تعالى) ، لأن فيه بيان طرق التقرب إلى الله تعالى ، وبيان مراتب التقرب من الله تعالى ..
وفي هذا الحديث القدسي يعلن الله تعالى فضل أوليائه وغيرته عليهم ونصرته لهم ، فمن هو ولي الله تعالى ؟
اعلم أن أولياء الله تعالى على مرتبتين :
فهناك الولاية العامة ، وهناك الولاية الخاصة .
فكل مؤمن تحقّق بالإيمان الكامل فهو ولي من أولياء الله جل وعلا ، وهذه هي الولاية العامة ، وهذا قوله تعالى :{ الله ولي الذين آمنوا }
أي : أن هناك بين كل مؤمن وبين ربه محبة ومناصرة ، فالمؤمن ينصر دين الله ، والله ينصره وهكذا .

---
[1] صحيح البخاري كتاب الإيمان

وهناك الولي الذي تقرّب إلى الله تعالى بالقُرُبات والنوافل ، وهو المراد من كلمة (الولي) عند إطلاقها ، وهذه هي الولاية الخاصة .
وكلمة (الولي) مأخوذة من الولاء وهي المحبة والنصرة ،
فيقال : بين فلان وفلان ولاء : أي محبة
ويقال : بين فلان وفلان ولاء : أي نصرة
وهي أيضاً تعني معنى القرب ، مأخوذة من : الولى ، فيقال : بين فلان وفلان ولاء أي : قرب
فالولي من تحقق بثلاثة أمور : محبة لله تعالى ونصرة لدين الله تعالى وتقرّب إلى الله تعالى .
وكلمة (ولي) على وزن (فعيل) ، ويصلح فيه أن يكون فاعلاً ومفعولاً كما هو في قواعد اللغة العربية .
فولي الله : أي : محب لله ومحبوب من الله تعالى .
وولي الله : أي : ناصر لدين الله تعالى ومنصور من الله تعالى .
وأول ذلك أن ينصر الله تعالى على نفسه فيتمسك بدينه كما قال تعالى :
{ إن تنصروا الله ينصركم }.
و(ولي الله تعالى) بمعنى أنه متقرب إلى الله تعالى ، والكلمة مأخوذة من (الولى) كما تقول في اللغة : فلان يلي فلاناً ، أي : يقرب منه
فالولي إذاً محب ومحبوب وناصر ومنصور ومتقرب إلى الله تعالى ومقرَّب من الله تعالى .
والحديث المتقدم جاء في بيان معاني الولاية الخاصة .
وقد ذكر سبحانه في القرآن الكريم الولاية العامة لجميع المؤمنين الصادقين والولاية الخاصة للمقربين إليه .
قال سبحانه في بيان الولاية العامة :
{ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ }..
وقال جل وعلا في بيان الولاية الخاصة :
{ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ * لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ }
وقد افتتح سبحانه الآية بقوله :{ ألا } وهي للتنبيه حتى يلفت أفكار العقلاء إلى أمر عظيم ، وأن هؤلاء الأولياء لهم شأنهم الكبير عند الله تعالى .
وأما صفة أولياء الله تعالى فقال سبحانه :{ الذين آمنوا } أي : آمنوا إيماناً صادقاً كاملاً .

وعندما يصف القرآن الكريم أناساً بالإيمان فيعني :
الإيمان الكامل الصادق الجامع .
قوله تعالى :{ وكانوا يتقون } أي فهم على تقوى الله تعالى حيث كانوا ومتى كانوا .
فقد جيء بكلمة { كانوا} حتى يبين أن أكوانهم كلها في التقوى ، لا أنهم اتقوا الله في الجامع مثلاً ولما خرجوا إلى الشارع تفلّتوا من التقوى ، فصفة التقوى ملازمة للولي في جميع أحواله .
قوله تعالى :{ لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة }
أما البشرى في الحياة الدنيا فقد بيّنها رسول الله صلى الله عليه وسلم لما سُئل عنها فقال :
[هي الرؤيا الصالحة يراها الرجل المسلم أو تُرى له].[1]
فتأتيهم البشائر من الله تعالى عن طريق عالم المنام بالرؤيا الصادقة ، وقد قال صلى الله عليه وسلم :
[ورؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة][2]
وما كان من النبوة فإنه لا يكذب ..
فرؤيا المؤمن في منامه هي رؤيا صادقة لها اعتبارها ، ويترتب عليها أحكام .
وقد ذكر سبحانه في القرآن الكريم ما يدل على شأن الرؤيا الصادقة واعتبارها في شرع الله تعالى وذلك لما أخبر عن قصة يوسف عليه السلام ، وأما الرؤيا المختلطة فهي أضغاث أحلام أو تلاعب شيطان ولها أحكام وآداب يتحتم فعلها على من رآها [3].
ومهما رأى الإنسان في منامه من أمور فليتفاءل خيراً ، وليترك الوسواس جانباً وليكن تعبيره لها خيراً .
وقد تأتي البشائر من الله تعالى لأهل صفاء القلوب عن طريق الإلهامات القلبية الملكية من عالم الغيب .
وفي هذا يقول الله تعالى :
{ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ }.

---

[1] المسند ٢٦٢٧٦ وسنن الترمذي كتاب الرؤيا
[2] طرف حديث في صحيح البخاري كتاب التعبير
[3] انظر بحث آداب الرؤيا في آخر كتاب (الدعاء) لشيخنا الإمام رضي الله عنه

وأما البشائر في الآخرة فتبدأ من الموت ، فتأتيهم الملائكة وتبشّرهم بالأمان والجِنان ، وما أحوج الإنسان إلى البشائر في وقت الضيق والهمّ والغمّ !!
قوله تعالى :
{ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآَخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ }
أي : وهذه من كلمات الله تعالى التي لا تتبدل ، فالأمر محكَم نافذ لا يتبدل .
وقوله تعالى في الحديث القدسي :
[من عادى لي ولياً فقد آذنتُه بالحرب]
يعني المؤمن الكامل أهل الولاية الخاصة .
ويكون المعنى : من عادى مؤمناً كاملاً محباً لله تعالى ناصراً لدين الله متقرباً إلى الله بالتقوى ، من عادى هذا الولي فقد عادى اللهَ تعالى ، ومن عادى الله تعالى أعلن الله عليه الحرب .
وقوله سبحانه :(آذنْتُه[1]) أي أعلمته ..
يعني : فليعلم كل إنسان أن مَن كره أولياء الله تعالى أو أبغَضهم أو عاداهم فقد أبغض الله تعالى وعادى الله تعالى ..
وليعلم أن الله تعالى قد أَعلمه بالحرب ..
ومن أحب أولياء الله تعالى لأنهم مؤمنون ولأنهم على تقوى لله تعالى ومحبة له فقد أحب الله تعالى ، لأن الله تعالى يحب أولياءه وينصرهم .
ولو أن الإنسان تفكر في قوله صلى الله عليه وسلم :
[آية الإيمان حب الأنصار، وآية النفاق بغض الأنصار][2]
لاهتدى إلى أن حب أولياء الله تعالى دليل على محبة الله ، وبغضَ أولياء الله دليل على النفاق ومرض القلب وعدم محبة الله تعالى .
فقد جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم حب الأنصار علامة على الإيمان الكامل الصحيح ، وذلك لأن الأنصار أحباب الله وأنصار الله ، نصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم .
وإن مَن أبغض أولياء الله تعالى أو عادى أحداً منهم فقد أعلَمه الله بالحرب ، ومن حاربه الله خسر الدنيا والآخرة ، نسأل الله العافية .

---

[1] ومنه الأذان : وهو الإعلام بدخول وقت الصلاة .. والآذن هو الذي يبلّغ غيره ما أريد منه ، ومنه قوله تعالى : (فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ) أي ناداهم وأعلمهم

[2] صحيح البخاري كتاب الإيمان

وبعد أن ذكر سبحانه منزلة أوليائه عنده وكرامتهم عليه وغيرته عليهم ، ذكر بعد ذلك سبحانه طريق الولاية وهو الطريق الذي يجعل المؤمن - إن هو سار عليه - يجعله ولياً لله تعالى فيكون من الذين يحبهم الله تعالى وينصرهم ويدافع عنهم ، ويعادي ويحارب من عاداهم .
فقال سبحانه في الحديث القدسي :
[وما تقرّب إليّ عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه].
فلما كانت الولاية محبة لله وتقرباً منه ونصرة لدينه جل وعلا كان طريق التحقق بذلك أولاً هو التقرب إلى الله تعالى بالفرائض ، فأول طريق القرب من الله تعالى هو القيام بما افترضه الله على عباده ، والفرائض التي فرضها الله تعالى على عباده المؤمنين كثيرة متعددة :
منها ما هو بين العبد وربه وأوّلها الصلاة والصيام والزكاة والحج ،
ومنها ما هو مع خلق الله تعالى كصلة الرحم والتزام ما أحلَّ اللهُ تعالى في البيع والشراء وسائر المعاملات ، وأداء الحقوق والواجبات ، إذ إنها فرائض وليست مستحبات .
ومن زعم أنه يحج بيت الله الحرام كل سنة ويغسل ما ارتكبه من ذنوب خلال سنته كلها ..
فيقال له : إن صحّ حجك وكان خالصاً لله تعالى - لأن الرسول صلى الله عليه وسلم يقول :
[من حج لله فلم يرفث ، ولم يفسق ، رجع كيوم ولدته أمه[1]]
إذا تحققت بذلك فغن الله تعالى يغفر ذنوبك التي بينك وبينه سبحانه .
أما حقوق العباد والمظالم فلابد أن تؤدّى إلى أهلها ، أو أن يعفو صاحب الحق عن حقه .
فلا تبرِّر أيها العاقل لنفسك ارتكاب المخالفات والوقوع في أعراض الناس ومظالم العباد بأن ذلك كله سيغفره الله لك في حجك !!
وتفكّر في قول سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم :
[أتدرون مَن المفلس ؟
قالوا : المفلس فينا يا رسول الله مَن لا درهم له ولا متاع
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : المفلس مِن أمتي مَن يأتي يوم القيامة بصلاته وصيامه وزكاته ، ويأتي قد شتم هذا وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا ، فيقعد ، فيقتصّ هذا من حسناته ،

[1] صحيح البخاري كتاب الحج

وهذا من حسناته ، فإن فنيت حسناته قبل أن يقتص ما عليه من الخطايا أُخذ من خطاياهم فطرح عليه ثم طرح في النار] [1]
ومما تقدم يتبين لك أن أحب القربات إلى الله تعالى هو التقرب إليه سبحانه بأداء الفرائض كلها كالبنيان المرصوص المتكامل ، لا أنك تؤدي فريضة وتهمل أخرى وهكذا ..
وقوله تعالى في الحديث القدسي :
[وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أُحبه].
وفي هذا يذكر سبحانه مرتبة قرب النوافل ، وهي بعد القيام بالفرائض على الوجه الأكمل .
والنوافل جمع (نافلة) وهي في لغة العرب تعني : الزيادة .
فالفرض هو الأصل والأساس ، ثم تأتي النوافل كزيادة [2] على الفرائض ، ولا يرتقي إلى مقام قرب النوافل إلا مَن تحقق بمقام قرب الفرائض بأن قام بها وأتمّها ، ثم راح يزيد في النوافل وأعطاها حقها حتى يقال : إنه عَبَدَ الله تعالى بالنوافل .
وإن مقام قرب النوافل مقام كبير قلّ من يحصل عليه ، لأن كل مقام يتحقق به الإنسان فإنه يعطيه خصائص ..
فمقام قرب الفرائض يجعل في صاحبه حباً لله تعالى ، بحيث إنه لو فاته شيء من الفرائض أو مُنع من أداء فرض فيجد من الحسرة والألم كأنه سُلِخ جلده ومزّقت عظامه ، بسبب حبه الصادق لله تعالى وحبه لعبادة الله تعالى وولعه وتعشقه بها ، وكأن العبادة صارت جزءاً منه ، فإن فاته شيء منها فكأنما نقص شيء من جسمه .
ثم ينتقل المؤمن العابد إلى مقام قرب النوافل فيصير محبوباً بعد أن كان مُحباً ، وهذا قوله سبحانه في الحديث القدسي :
[ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أُحبَّه] .
أي : فصار محباً لله تعالى محبوباً من قِبَل الله تعالى .
واعلم أن المحبة ليست بالدعوى وإنما المحبة تحقّق ، ولها شواهد صدق تدل على ثبوتها عند من ادعى المحبة .
ألا ترى أنك لما تحب ابنك تكرمه وتسأل عنه وتعتني به وتجيب طلباته ؟!.

[1] صحيح مسلم كتاب البر والصلة والآداب و سنن الترمذي كتاب صفة القيامة والرقائق والورع واللفظ له
[2] وكل شيء زدتَه للآخَر يقال : أعطيتَه نافلة

ومن ادعى محبة غيره اشتاق لرؤيته ، وسعى لزيارته والجلوس معه ، وبَذَل جهده في إكرامه وفرح لفرحه وحزن لِما يحزنه وهكذا .
إذا كان هذا كله فيما بين الخلق ، فما بالك بمحبة الله رب العالمين ؟!
- ولله المثل الأعلى -
ونسأل الله التوفيق وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم
والحمد لله رب العالمين

ثالثاً : درس من كتاب (رياض الصالحين) للإمام النووي

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله رب العالمين ، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين
سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم ، أما بعد :
روى الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال :
كنت خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً فقال :
[يا غلام إني أعلِّمك كلمات :
احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، وإن اجتمعوا على أن يضرّوك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك ، رُفعت الأقلام وجفّت الصحف] [١]
وفي رواية غير الترمذي :
[احفظ الله تجده أمامك ، تعرّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة ، واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك ، وما أصابك لم يكن ليخطئك ، واعلم أن النصر مع الصبر ، وأن الفَرَجَ مع الكرب ، وأن مع العسر يسراً) [٢]
ذكر الإمام النووي رضي الله عنه هذا الحديث في باب المراقبة وهو الباب الذي عقده روضة من رياض الصالحين .
وقد تقدم الكلام على بعض معاني المراقبة وهي :
ملاحظة القلب لاطلاع الرب سبحانه عليه ، وهي توجب اليقين الصادق أن الله تعالى مطّلع على العبد ، ويراه في جميع حركاته وسكناته وسائر أفعاله.
وقد أخبر سبحانه أنه الرقيب على عباده فقال جل وعلا :
{ إن الله كان عليكم رقيباً }
وأنه سبحانه الشاهد على خلقه ، وهو معهم أينما كانوا ، ولا يخفى عليه شيء منهم كما قال تعالى :
{ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ }.
وقال تعالى :{ فلنقصّنّ عليهم بعلم وما كنا غائبين }.

---

[١] رواه الترمذي في سننه كتاب صفة القيامة والرقائق والورع وقال : حديث حسن صحيح
[٢] انظر مستدرك الحاكم والمعجم الكبير للطبراني وشعب الإيمان للبيهقي

وقال تعالى :{ وهو معكم أينما كنتم }.
فهو سبحانه يخبر عبده يوم القيامة بما عمل في الدنيا ، عن علم منه سبحانه وشهود منه سبحانه .
واليقين هو العلم الجازم الذي لا يُشكّ فيه أبداً ، وقد سمي الموت بـ (اليقين) لأنه ما من أحد يشكّ فيه ، وفي هذا يقول سبحانه :
{ واعبد ربك حتى يأتيك اليقين } .
وقال سبحانه في الإخبار عن المجرمين :
{ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ * وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ * وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ * حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ }أي : الموت
ولما توفي عثمان بن مظعون رضي الله عنه قال فيه سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم :
[أمّا عثمان بن مظعون فقد جاءه اليقين من ربه][1] الحديث
أي : جاءه الموت .
فكما لا يشك أحد أو يوسوس في وجود الموت ، بل إن كل إنسان على يقين من وجود الموت ، فكذلك يجب أن يكون على يقين - بل على وجه أعلى وأكمل - أن الله تعالى مطّلع عليه ويراه ، لأنه هو سبحانه أخبر بذلك كما تقدّم في الآيات .
وإن مَن تحقّق بمراقبة الله تعالى حُفظ من ارتكاب المناهي والمحرمات ، ومن غفل عن مراقبة الله تعالى وقع في المناهي والمحرمات .
وفي الحديث المتقدم بين سيدنا رسول الله لابن عباس رضي الله عنهما - بل بيّن لكل واحد من أمته صلى الله عليه وسلم - : أن الله تعالى هو الرقيب على عباده ، وهو معهم أينما كانوا ، فعليهم أن يكونوا على مراقبة لله تعالى في جميع حركاتهم وسكناتهم وأقوالهم وأفعالهم .
ولما أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن عباس رضي الله عنهما بالكلمات الجامعة في الحديث المتقدم كان رضي الله عنه ابن عشر سنوات ، وقد أردفه النبي صلى الله عليه وسلم خلفه على الدابة ، ويدل ذلك على جواز أن يركب الدابة اثنان إذا كانت الدابة قوية لا بأس بها .
قوله صلى الله عليه وسلم : [يا غلام] مع أن ابن عباس رضي الله عنهما كان قريباً منه صلى الله عليه وسلم ولا تأتي (يا) إلا لنداء البعيد ، أما مناداة القريب فبالهمزة كقولك :
(أغلام)

[1] المسند ٢٦١٨٦ وأصله في صحيح البخاري كتاب الجنائز

نعم لقد ناداه صلى الله عليه وسلم [يا غلام] حتى يحمله على الانتباه ، ويلفت فكره وقلبه لِما سيوصيه به صلى الله عليه وسلم .
ثم قال له صلى الله عليه وسلم :[إني أعلّمك كلمات]
أي كلمات جامعة نافعة في الدين والدنيا والآخرة ، وبذلك صار ابن عباس رضي الله عنهما متوجهاً بكليته إلى سيدنا رسول الله مستعداً لتلقي ما سيُمليه عليه سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .
قوله صلى الله عليه وسلم :[احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك]
وقد أراد صلى الله عليه وسلم بالكلمات جملاً كما هو معروف في لغة العرب .
ولبيان معنى قوله صلى الله عليه وسلم : [احفظ الله يحفظك]
لابد من الرجوع إلى ما جاء في الكتاب والسنة لتوضيح ذلك :
لقد جاء في الآيات القرآنية أن هناك حفظاً وهناك نسياناً ، فمن نسي الله نسيه الله ، ومن ذلك قوله تعالى :
{ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ }
وقال تعالى :{ نسوا الله فنسيهم } أي : من ترك ذكر الله تعالى ودين الله تعالى تركه الله تعالى من رحمته ، فالنسيان المنسوب إلى الله تعالى هو الترك ، وليس نسيان العلم ، فلا يغيب شيء عنه سبحانه ، كما قال تعالى مخبراً عن سيدنا موسى عليه السلام قوله { لا يضل ربي ولا ينسى }.
فقوله صلى الله عليه وسلم : [احفظ الله يحفظك]
أي : كن على تذكّر ومراقبة لله دائماً وعلى ذكر له سبحانه ، واحفظ الله أيضاً بأن تؤدي ما أمرك الله به من واجبات كما قال تعالى :
{ حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى }.
وقال تعالى :{ والحافظون لحدود الله } أي : لا يتعدّون ما حرّم الله تعالى .
وهناك حفظ السمع والبصر والجوارح عن معصية الله تعالى ، وحفظ الفرج واللسان وهكذا .
كما قال تعالى :{ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ}.
وقال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل رضي الله عنه :
[ألا أخبرك بمِلاك ذلك كله ؟
- وذلك بعد أن بيّن له أبواب الخيرات المقربة إلى الله تعالى -

قال : قلت : بلى يا نبي الله ، فأخذ صلى الله عليه وسلم بلسانه وقال :
[كُفّ عليك هذا] [1] .
فقوله صلى الله عليه وسلم : [احفظ الله] كلمة جامعة لمعان كبيرة منها :
احفظ الله قلباً فلا تنسه ولا تغفل عنه ، فيشتغل قلبك بغيره من أموال الدنيا وحطامها .
واحفظ الله قولاً فلا تنس ذكره سبحانه ، بل اجعل لسانك رطباً من ذكر الله ، واحفظ الله عملاً بأداء ما أوجبه عليك سبحانه ، والانتهاء عما حرّمه سبحانه وهكذا .
وعلى قدر حفظ العبد لله تعالى يحفظه هو سبحانه مما يضره في الدنيا والآخرة ، فيحفظ عليه إيمانه ويثّبته عليه ، وأما من نسي الله تعالى وأعرض عنه فيتركه سبحانه كما قال :{ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم } والعياذ بالله تعالى .
واعلم أنه لابد لتثبيت الإيمان في القلب وزيادته ، لابد من تعاطي أسباب ذلك وهي سماع الموعظة والتذكير بآيات الله تعالى وأيامه ، وحضور مجالس العلم النافع ، وهذا ما كان عليه السلف الصالح رضي الله عنهم ، حتى قال أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم :
(نكون عند رسول الله يُذكّرنا بالنار والجنة حتى كأنّا رأي عين) [2]
أي : يزداد إيمانهم وتسمو قلوبهم حتى تنكشف عنهم الحجب ، ويصيروا في مقام المشاهدة لقضايا الإيمان الغيبية .
فمن زعم أن مجالس الوعظ والتذكير وسماع آيات الله تعالى وأحاديث رسوله صلى الله عليه وسلم لا تنفع فقد خالف ما كان عليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأهمل المواعظ والتذاكير التي جاءت عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .
قوله صلى الله عليه وسلم : [احفظ الله يحفظك]
أي : يحفظك في الدنيا ويحفظك في الآخرة التي يُعدّ عالم القبر أول برازخها .
وكم يحتاج الإنسان إلى من يحفظه ويؤانسه ويبشره في وقت خرج فيه من عالم الدنيا ، وترك أهله وأولاده وأصحابه حيث شيّعوه إلى قبره ثم ودّعوه وانصرفوا !!

---

[1] المسند ٢١٠٠٨ وسنن الترمذي كتاب الإيمان
[2] طرف حديث في صحيح مسلم كتاب التوبة عن حنظلة الأسيدي رضي الله عنه

فلا يحفظ الإنسان من وحشة القبر إلا رب العالمين جل وعلا ، ولا يحفظ الإنسان من أهوال الحشر وكربات الموقف وشدائده إلا رب العالمين ، فمن حفظ الله في الدنيا حفظه الله تعالى في جميع العوالم التي سينتقل إليها ، ويحفظه من خطر المرور على الصراط حتى ينتهي به الأمر إلى الجنة التي هي دار السلام وقد قال سبحانه :

{ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ * هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ * مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ * ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ * لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ }

قوله تعالى :{ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ } أي : قُرِّبت منهم .

ومتى يكون هذا التقريب ؟

نعم في كل العوالم ، ففي عالم الدنيا تكون الجنة مشهودة في قلوب المتقين ، وأرواحهم تحوم حولها - وإن لم ترها أعينهم - ، ويجدون رَوحها وريحانها ،وهذا على حسب مراتب أهل التقوى ، فهناك التقوى من الكبائر ، وهناك التقوى من الصغائر ، وهناك تقوى المباحات ، وهناك التقوى عما سوى الله تعالى ، ويكون ذلك بمراقبته سبحانه وترك ما سواه ، وإذا صار أهل التقوى في البرزخ قرّب الله إليهم الجنة أيضاً ، فيجدون من ريحها ونعيمها ما يجعلهم في أحسن حال وأطيب مقام .

وكذلك عندما يصير الناس في عالم الحشر فإن الله تعالى يقرّب الجنة من المتقين ينظرون إليها بأعينهم ، وقلوبهم تواقة لدخولها فيقولون :

(قريباً ندخلها) ، وإن من قارب الشيء أخذ حكمه .

ألا ترى إلى المسافر- لما يرجع من سفره ويقرب من بلد إقامته - تراه ينسى تعبه ويزول عناؤه ، لأنه أشرف على الوصول إلى بلده ولقاء أهله وأحبابه ؟ !

قوله تعالى :{ هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ } - أي : يقال لأهل التقوى

{ هذا ما توعدون } أي من نعيم الجنة وما فيها .

{ لكل أواب حفيظ } أي لكل رجّاع إلى الله تعالى حفيظ .

ومن هذا الحفيظ ؟

قال تعالى :{ من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب }

أي : خشي الله بقلبه لا بظاهر بدنه فقط ، ويكون معنى الغيب في الآية : القلب .

ومَن خشي قلبُه من الله تعالى خشيت جوارحه وظهر أثر ذلك عليه .

أو أن معنى :{ من خشي الرحمن بالغيب }

أي : خشي الله تعالى وإن لم يَرَهُ بعيني بصره .

وإن الإنسان لا يرى ربه في الدنيا ببصره ، ولكن يشهده بقلبه ويُثْبته بعقله ، ولا يرتاب في وجوده ووحدانيته سبحانه ، فآياته ظاهرة وبيّنة في كل نفْس إنسان وفي الأطراف الآفاقية .

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

قال تعالى : { وفي الأرض آيات للموقنين وفي أنفسكم } ـ آيات أيضاً ـ { أفلا تبصرون } وفي هذا تحريض على التبصر والتعقل في تلك الآيات النفسية والكونية .

واعلم أنه لما تجلى رب العالمين جل وعلا لجبل الطور ليبيّن لسيدنا موسى أنه لا يمكن لأحد أن يراه بعيني بصره في عالم الدنيا اندكّ الجبل وذاب وتلاشى { وخرّ موسى صعِقاً } أي أُغمي عليه .

ولولا الروح الإنسانية الموسوية التي قام بها جسم موسى عليه السلام لذاب جسمه أيضاً وتلاشى ، وهذا يدلّك على أن هناك رجالاً أقوى من الجبال .

ولقد كان التجلي الإلهي على الجبل جزئياً يسيراً [1] ولم يثبت له موسى عليه السلام ، أما سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فتجلى الله عليه تجلياً مُطْلَقاً على سدرة المنتهى التي هي عالم كبير محيط بالسماء السابعة وهذا قوله تعالى :

{ إذ يغشى السدرة ما يغشى }.

جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه قوله : (يغشاها نور الخلّاق سبحانه) .

وقال الحسن رضي الله عنه : (غشيها نور رب العالمين فاستنارت) .

وجاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال :

(غشيها رب العزة عز وجل) [2]

مع ذلك فقد ثبت رسول الله صلى الله عليه وسلم لذلك التجلي ، قال تعالى :

{ ما زاغ البصر وما طغى }.

فالإنسان في عالم الدنيا لا يمكنه أن يرى ربه بعيني بصره لضعف نشأة الإنسان الدنيوية ، لا لأنه سبحانه محجوب ، إذ كيف يحجبه مخلوقاته ؟

---

[1] روى الترمذي في سننه عن سليمان بن حرب قال : حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية : { فلما تجلى ربه للجبل جعله دكّاً }قال حماد : هكذا وأمسك سليمان بطرف إبهامه على أنملة إصبعه اليمنى ، قال : فساخ الجبل{ وخر موسى صعقاً } .

[2] انظر تفسير الألوسي والقرطبي والبغوي للآية الكريمة

فلا سماء تحجبه ولا أرض ولا جبل ولا جسم ، بل بسبب ضعف النشأة الدنيوية لهذه المخلوقات وعدم لياقتها واستعدادها لرؤية رب العالمين في عالم الدنيا المتغير الفاني .

ولما يصير الإنسان في عالم الجنة ينشئه الله فيها نشأة أبدية قوية ، ولا موانع نفسية تحجبه كالذنوب والظلمات والشهوات الدنيّة ، هناك عندئذ يصير أهلاً لرؤية رب العالمين جل وعلا .

واعلم أن أول لقاء للمؤمن بربه جل وعلا يكون بعد الموت مباشرة ، فمن كان على درجة عالية من الإيمان ، ولم تكن هناك ذنوب تحجبه وتمنعه من رؤية الله تعالى فإنه يرى ربه ، كما هو عليه الصديقون والشهداء .

وقد أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم عن سيدنا عبد الله بن حرام رضي الله عنه لمّا استشهد في غزوة أحد أخبر عنه الرسول صلى الله عليه وسلم أنه نظر إلى ربه كفاحاً [1] - أي : من دون حجاب .

وأما من مات ولم يتب من ذنوب كان قد اقترفها في حياته الدنيا ، فإن تلك الذنوب تحجبه عن رؤية الله تعالى ، فتكون الذنوب بمنزلة السحب التي تحجب عين الإنسان عن رؤية الشمس ، لكن الشمس طالعة مشرقة لا يشك في ذلك الناظر إليها .

قوله صلى الله عليه وسلم : [احفظ الله تجده تجاهك - وفي رواية : أمامك].

وقوله صلى الله عليه وسلم : [تجده] أي : وجداناً قلبياً ، لا وجداناً بالرؤيا العيانية ، وهذا ما يعرف بالمواجيد القلبية التي أشير إليها في كثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، فمن ذلك قوله تعالى :

{ ومن يعمل سوءاً } أي : بارتكاب كبيرة .

{ أو يظلم نفسه } أي : بارتكاب صغيرة

{ ثم يستغفر الله } أي : تائباً

{ يجد الله } أي : وجداناً قلبياً

{ غفوراً رحيماً } أي : يشعر بارتياح في قلبه وانشراح بسبب رجوعه إلى الله مستغفراً تائباً ، ويُقبل الله عليه بالمغفرة والرحمة .

ولو كان هذا الوجدان بالرؤيا البصرية للزم أن يرى كل تائب ربه بعيني بصره !!

وهذا لا يكون ..

---

[1] انظر صحيح ابن حبان كتاب إخباره صلى الله عليه وسلم عن مناقب الصحابة ، وسنن الترمذي كتاب تفسير القرآن .

فافهم أن هناك مواجيد قلبية لا ينكرها المؤمن الصادق في توبته وإقباله على ربه ، ومن ذلك قوله تعالى :{ ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤوك }
أي : جاؤوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم..
{ فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله }
أي : وجداناً قلبياً في حضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ..
{ تواباً رحيماً }
ومن ذلك قول الله تعالى في الحديث القدسي :
[يا ابن آدم مرضتُ فلم تَعُدني قال : يا رب كيف أعودك وأنت رب العالمين ؟
قال : أَمَا علمت أن عبدي فلاناً مرض فلم تَعده ، أما علمت أنك لو عُدته لوجدتني عنده][1]
أي : وجداناً قلبياً ، لأن شأن المؤمن المريض أن يكون متوجهاً إلى الله داعياً ربه بالشفاء والرحمة .
وفي الأثر : أن داود عليه السلام سأل ربه في مناجاته : إِلَهِي أَيْنَ أَجِدُكَ ؟ - أي وجداناً قلبياً - قال تعالى : عِنْدَ الْمُنْكَسِرَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ مَخَافَتِي [2]
فمن وقع في الذنب فقد أظلم قلبه من أثر ذنبه ، لأن للذنوب ظلمات على القلوب كما قال تعالى :
{ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ }.
وفي الحديث يقول صلى الله عليه وسلم :
[إن العبد إذا أخطأ خطيئة نُكِتَت في قلبه نكتة سوداء ، فإذا هو نزع واستغفر وتاب سُقل قلبه ، وإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه وهو الران][3]
قال في تحفة الأحوذي :
قوله صلى الله عليه وسلم : (نكتت في قلبه)
بصيغة المجهول من النَّكْت ، وهو في الأصل أن تضرب في الأرض بقضيب فيؤثر فيها .
[نكتة سوداء]

---

[1] صحيح مسلم كتاب البر والصلة والآداب
[2] انظره في الحلية لأبي نعيم والزهد الكبير للبيهقي والهمّ والحزن لابن أبي الدنيا والزهد للإمام أحمد بن حنبل بألفاظ متقاربة
[3] سنن الترمذي كتاب تفسير القرآن واللفظ له وسنن ابن ماجه كتاب الزهد ورواه الحاكم في المستدرك في كتاب الإيمان وابن حبان في صحيحه والبيهقي في الشعب

أي جُعلت في قلبه نكتة سوداء ، أي : أثر قليل كالنقطة ، شبه الوسخ في المرآة والسيف ونحوهما ، وقال القاري : أي كقطرة مداد تقطر في القرطاس ، ويختلف على حسب المعصية وقدرها ، والحمل على الحقيقة أولى من جعله من باب التمثيل والتشبيه حيث قيل : شبّه القلب بثوب في غاية النقاء والبياض ، والمعصية بشيء في غاية السواد أصاب ذلك الأبيض ، فبالضرورة أنه يذهب ذلك الجمال منه ، وكذلك الإنسان إذا أصاب المعصية صار كأنه حصل ذلك السواد في ذلك البياض . اهـ .

ومن استغفر من ذنبه وتاب منه زالت عن قلبه ظلمة الذنب وشهد بقلبه نور ربه وهذا معنى قوله تعالى :{ يجد الله غفوراً رحيماً }

أي يجد الله غافراً له رحيماً به ، ويستأنس ويفرح بذلك حتى يصير قلبه قريباً من ربه ، ويشهد أنواره كأنه يراه بعينه .

فقوله صلى الله عليه وسلم : [احفظ الله تجده تجاهك]

أي : أمامك بالعناية والتوفيق وإلهامك للخير ، وبأخذه بناصيتك لِما فيه رضاه ومحبته سبحانه .

فمن أراد أن يمشي في أموره كلها على بصيرة ونور من الله تعالى فليحفظ الله تعالى ، وعلى قدر حفظ العبد لله يجد نور الله أمامه بالهداية والتوفيق .

كما قال تعالى :{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآَمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ }.

وقال تعالى :{ إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً } - أي يجعل لكم نوراً خاصاً مِن هُداه تفرّقون به بين الحق والباطل ، وإن شأن النور أن يكشف لك الأمور، وكلما قوي النور أظهر لك دقائق الأمور وخباياها .

ألا ترى إلى نور الشمس المحسوس إذا توجَّه شعاعه من نافذة الغرفة أظهر لك الغبار والهباء الدقيق المنتشر في الغرفة وخارجها ، والذي لم يكن للنور الخافت أن يُظهره ، فما بالك بنور الإيمان إذا دخل القلب وتمكن فيه وازداد ؟!

فإنه يكشف لصاحبه عن الأمور الملكوتية العالية وهكذا .

قوله صلى الله عليه وسلم :(إذا سألت فاسأل الله) أي : سل الله تعالى جميع حاجاتك ، فإن الأمور كلها بيده سبحانه ، وهو المدبّر لشؤون خلقه سبحانه وفي الأثر أنَّ سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام قال :

يا ربِّ إنَّه لتَعْرِضُ لي الحاجةُ من الدنيا ، فأستحيي أنْ أسألك ،

فقال سبحانه : سلني حتى ملح عجينك وعَلف حمارك [1]

[1] كما في (جامع العلوم والحكم) لابن رجب الحنبلي

يعني أن كل الأمور كبيرها وصغيرها وجليلها ودقيقها بيد الله تعالى ، ولولا أن ييسرها سبحانه للإنسان لما تيسرت له .
ومَن فهم مِن قوله صلى الله عليه وسلم : (إذا سألت فاسأل الله) :
من فهم أنه لا يجوز سؤال غير الله ، وفهم النهي عن التوسط والتوسل ، فقد ضل وأخطأ في فهم نصوص الكتاب والسنة .
نعم إن المراد من قوله صلى الله عليه وسلم : (إذا سألت فاسأل الله)
هو سؤال العبد المعترف بعبوديته لربه ، المفتقر إليه تعالى في حاجاته كلها والموقن بأن حاجات الخلق كلها هي بيد الله وحده ، وهو القادر عليها جل وعلا .
وأما سؤال غير الله تعالى لأمر فهو سؤال واسطة وسبب كما قال تعالى :{وأما السائل فلا تنهر } أي : من سألك حاجة فلا تنهره وقد تكون الحاجة مالاً أو علماً أو غير ذلك .
ونسأل الله التوفيق وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم
والحمد لله رب العالمين

منهج الشيخ الإمام في التفسير

لقد كان من مواقف سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم مع العالم أن بعثه الله تعالى إليهم ليعلمهم الكتاب والحكمة ، وهذا ما ذكره سبحانه في أربع آيات من كتابه مبيناً حكمة إرساله لرسوله صلى الله عليه وسلم فقال سبحانه في سورة البقرة مخبراً عن دعاء إبراهيم عليه السلام :

{ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ }

وقال سبحانه في السورة ذاتها { كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ }
وقال سبحانه في سورة آل عمران :

{لقد مَنَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رَسُولًا من أنفسهم يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ }

وقال تبارك وتعالى في سورة الجمعة :

{ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ }

ومعنى قوله جل وعلا :{ يعلمهم الكتاب } أي معاني الكتاب ، أما تعليم كيفية قراءة الكتاب فهي متحققة في قوله تعالى : { يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ } وبتلاوته صلى الله عليه وسلم يتعلمون تلاوة القرآن وأحكام التجويد ، والقراءات التي قرأها صلى الله عليه وسلم منها ما بلغت حد التواتر - أي : من حيث الإسناد - ومنها ما دون ذلك ، ولها حكم الحديث من حيث الصحة والحسن والضعف تبعاً للسند .

فكيف كان منهجه صلى الله عليه وسلم في تعليم الناس الكتاب وتفسيره له ؟

قال مولانا الشيخ الإمام رضي الله عنه :
لابد أولاً أن تعلم أن صاحب البيان عن القرآن هو سيد ولد عدنان سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، الذي أنزل الله عليه القرآن بدليل قوله تعالى :
{ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ } .
وقد نزلت هذه الآيات بسبب أنه صلى الله عليه وسلم لما كان ينزل عليه جبريل عليه السلام بالوحي القرآني كان يعجل بتلاوة القرآن ، ويجهد نفسه بذلك خشية أن يتفلت منه شيء ، فنزلت الآيات ليبين له سبحانه أنه قد تكفّل له أن يجمع له القرآن في صدره ويحفظه عليه فقال تعالى :
{ لَا تُحَرِّكْ بِهِ } أي بقراءة ما ينزل عليك من القرآن
{ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ } أي لتعجل بتلاوة ما نزل عليك
{ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ } أي : إنا تكفلنا أن نجمعه في صدرك وأن نقرئك إياه
{ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ } أي عليك بواسطة جبريل عليه السلام
{فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ } أي اتبع قراءة جبريل عليه السلام
{ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ } أي تكفلنا أيضاً أن نبين لك معانيه بالوحي النبوي ، إما بواسطة جبريل عليه السلام ، أو غيره من الملائكة حيث إن القرآن نزل على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بواسطة جبريل عليه السلام فقط ، أما غيره من الوحي فكان بواسطة جبريل وغيره ، ومراتب وأنواع الوحي النبوي متعددة .
وقد قال صلى الله عليه وسلم :

[ألا وإني أوتيت القرآن ومثله معه] [1] أي وحياً أيضاً

وقوله صلى الله عليه وسلم : [ومثله معه]

أي بيان القرآن الذي أوحاه الله إلي أيضاً .

وقد أشار إلى ذلك أيضاً قوله تعالى :

{ الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ }

---
[1] طرف حديث في المسند ١٦٥٤٦ ومسند الشاميين للطبراني عن المقدام بن معدي كرب رضي الله عنه

فمن هو الإنسان الذي علّمه سبحانه القرآن ؟

نعم إنه الإنسان الأول الكامل المكمّل لكل إنسان وهو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو المراد بقوله جل وعلا :

{ الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ [1] * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ }أي علّمه البيان عن القرآن الذي علّمه إياه ، وهو قوله تعالى :{ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ }أي لك .

ثم أمره سبحانه أن يبين للناس ما نُزّل إليهم فقال تعالى :

{ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ }

وذلك بأفعاله وأقواله صلى الله عليه وسلم وتقريراته ، فكلّها بيانات للقرآن ومراميه ، ومن ذلك مثلاً أن الله تعالى لم يذكر أحكام الصلاة المفروضة وكيفيتها وشروطها وأركانها ، لم يذكر ذلك مفصلاً في كتابه الكريم ، بل جاء الأمر بإقامة الصلاة فقط وجاء الثناء على من أقامها ، قال سبحانه :

{ وأقيموا الصلاة } وقال جل وعلا : { والمقيمين الصلاة }

وقد بيّن صلى الله عليه وسلم كيفيتها بفعله وقوله صلى الله عليه وسلم :

[صلّوا كما رأيتموني أصلّي] [2]

---

[1] وفي الآيات قدّم سبحانه فضل نعمته بالعلم بالقرآن على نعمة الخلق والإيجاد ، فلا اعتبار للإنسان ولا قيمة له إذا لم يتعلم القرآن وما جاء به من شرع وأحكام وقصص و.... ولو شيئاً منه ، وكلما زاد في علمه وتقواه زاده الله قرباً منه وكرامة ، ويرحم الله الإمام الشافعي حيث قال :

حياة الفتى والله بالعلم والتقى إذا لم يكونا لا اعتبار لذاته

أي لوجوده فإن الله لم يخلقه للأكل والشرب وتعاطي الشهوات المباحة فقط ، بل بالعلم يسمو ويرتفع قدره ومنزلته .

[2] طرف حديث في صحيح البخاري كتاب الأذان وسنن الدارمي كتاب الصلاة عن مالك بن الحويرث رضي الله عنه

وكذلك الشأن في الزكاة الواجبة على الأغنياء في أموالهم فلم يذكر القرآن إلا الأمر بها في آيات كثيرة مقرونة بالصلاة ، قال سبحانه :

{ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة } وجاءت آية بيّنت مصارفها وهي قوله تعالى :

{ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ } أي الزكاة الواجبة

{ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ }

ثم جاءت بياناته صلى الله عليه وسلم مبينة لمقادير الزكاة وبيان أحكامها ونصابها في الذهب والفضة والمواشي والزروع وغيرها .

وكذلك الأمر في الصيام والحج فلم يذكر في القرآن إلا الأمر بالحج وأحكامه مجملة في مناسكه ، قال تعالى :

{ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا }

وقال صلى الله عليه وسلم : [خذوا عني مناسككم] [1]

أي افعلوا كما رأيتموني أفعل ، ثم جعل الصحابة يسألونه ويجيبهم صلى الله عليه وسلم [افعل ولا حرج] [2]

إن كان فعله موافقاً لشريعة الله في أداء الحج ، وإلا وجب عليه دم مثلاً أو غير ذلك مما فصله الفقهاء في كتبهم .

---

[1] طرف حديث في السنن الكبرى للبيهقي بهذا اللفظ واصله في صحيح مسلم كتاب الحج بلفظ : لتأخذوا مناسككم

[2] روى الشيخان عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقف في حجة الوداع بمنى للناس يسألونه ، فجاءه رجل فقال : لم أشعر فحلقتُ قبل أن أذبح ، فقال صلى الله عليه وسلم : اذبح ولا حرج ، فجاء آخر فقال : لم أشعر فنحرت قبل أن أرمي ، قال : ارم ولا حرج ، فما سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن شيء قدّم ولا أخّر إلا قال : افعل ولا حرج .

وهكذا جاءت بياناته صلى الله عليه وآله وسلم للقرآن موضوعية ، أو بحسب المناسبات والوقائع ، ولم تكن سرداً فكم من حديث مرفوع يقول بعده صلى الله عليه وسلم : اقرؤوا إن شئتم قول الله تعالى ويجيء بالآية التي تقدم بيانها في حديثه صلى الله عليه وسلم [1]

وإن مهمة العالم العارف الذي يريد فهم آية أن يطّلع على أحاديثه صلى الله عليه وسلم اطلاعاً واسعاً ، ليصل إلى أن هذه الطائفة مثلاً من الأحاديث هي بيان لتلك الآية من القرآن وهكذا ، وأن يكون ضليعاً في علوم اللغة العربية كالنحو والصرف والبلاغة لأن الله تعالى أنزل القرآن بلسان عربي مبين قال تعالى :{ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ } وقال سبحانه : { إِنَّا جَعَلْنَاهُ } أي صيّرناه [2]{قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ }أي تعقلون وتفهمون معانيه على حسب ما تقتضيه أحكام اللغة العربية وقواعدها ،

---

[1] ومثال هذا ما رواه الإمام البخاري رحمه الله في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ما من مؤمن إلا وأنا أولى به في الدنيا والآخرة ، اقرؤوا إن شئتم{ النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم }.

[2] واعلم أن القرآن الكريم هو كلام الله على الحقيقة غير مخلوق ، فليس الجعل في قوله تعالى : { إِنَّا جَعَلْنَاهُ } ليس جعلاً تخليقياً لأن كلامه جل وعلا هو من صفاته ، وصفاته سبحانه قديمة قِدَم ذاته جل وعلا ، ولا أول لها ، ولا حدوث في ذاته سبحانه التي أخبرنا تبارك وتعالى عنها في كتابه وأحاديث رسوله صلى الله عليه وسلم .
وقد كثرت أقوال العلماء حول ذلك ، وجمهور العلماء على أن كلامه جل وعلا غير مخلوق ولهم أدلتهم القاطعة على إثبات ذلك
وكان من النفائس التي سمعناها من مولانا الوالد رضي الله عنه حول أدلة ذلك ، والتي تتفق فيها أقوال العارفين مع المتكلمين هو أن يعلم الإنسان المؤمن أن كل شيء سيخلقه الله تعالى إنما يخلقه بقوله له : { كن } وأمره له بـ { كن } وهذا معنى قوله تعالى : { إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ } أي شيء ثابت في علمنا القديم { إِذَا أَرَدْنَاهُ } أي أردنا أن نوجده وجوداً خارجياً بالتخليق الخارجي { أَنْ نَقُولَ لَهُ } أي لهذا الشيء { كُنْ فَيَكُونُ } أي فيوجد فوراً لأن الفاء للتعقيب
وقال سبحانه : { إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ } فلو ضاقت بنا أدلة الكتاب والسنة على إثبات أن القرآن كلام الله غير مخلوق ، وفرضنا جدلاً أنه مخلوق لاقتضى إذاً أنه خلق بقول الله له { كن } و{ كن } من كلمات الله تعالى فهي تحتاج أيضاً إلى { كن } تسبقها لتوجد { كن } الثانية لأنها من كلام الله تعالى وهكذا تحتاج كن الأولى إلى الثانية والثانية إلى الثالثة وهذا يعني دخولنا في مسألة التسلسل وقد ثبت عقلاً ونقلاً بإجماع أهل العلم والكلام بطلان التسلسل .

مع مراعاة ما قيّد الشارع معناه من مفردات اللغة بمعان مخصوصة كقوله سبحانه : { وأقيموا الصلاة } فالصلاة في اللغة هي مطلق الدعاء ، ولكن المراد من الآية : أقيموا الصلاة التي بينها لكم رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات الركوع والسجود .

وكذا الزكاة فهي الطهارة والنماء فقوله تعالى : { وآتوا الزكاة } أي المقدار الذي فرضه الشارع على الأغنياء إذا بلغ مال أحدهم النصاب ..

مع أنه لا تعارض في المعاني بل تتوافق لأداء بيان الحكم والحكمة ، فمن حكمة الزكاة أن يطهّر صاحب المال ماله من شوائب الحرام وأن يبارك الله له فيه وينميه ، ويتحقق بذلك معنى الزكاة اللغوي ، قال تعالى :
{ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ }
أي الذين يسعون في تكثير أموالهم بالخير والبركة ليزداد فعلهم للخيرات والمبرات .

و قال صلى الله عليه وسلم : [ما نقص مال عبد من صدقة] [١]

أي : بل بارك الله فيه وطهّره ونمّاه .

ومما تقدم يتبين لك أن منهج الشيخ الإمام في تفسير القرآن الكريم كان قائماً على أسس رئيسة هي :

١-- تفسير القرآن بالقرآن ، فآية تفسر وتكشف عن معنى آية أخرى ، أو كلمة تكشف معنى كلمة أخرى .

٢-- تفسير القرآن بالأحاديث النبوية .

٣ - تفسير القرآن الكريم بما ثبت نقله عن صحابة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم من مفاهيم لآيات الله تعالى ، لأنهم عاصروا فترة بعثة النبي صلى الله عليه وسلم وتبليغ رسالته ، فكانت مفاهيمهم أقرب إلى الصواب ، ولها شأنها واعتبارها .

---

[١] سنن الترمذي كتاب الزهد ومسند الإمام أحمد ١٧٣٣٩

ثم تفسير القرآن الكريم بأقوال التابعين ومفاهيمهم ، لأنهم عاصروا الصحابة وكانوا قريبي عهد برسالة النبي صلى الله عليه وسلم .

ثم تفسيره بأقوال أتباعهم ، وهكذا .... بشرط ثبوت النقل وعدم تناقضه مع أصل ديني وبيان شرعي ثابت

وهناك اختلاف تنوع في المفاهيم واختلاف تضاد

فمفهوم التنوع يؤخذ به لأن كلاً ذكر جانباً من المعنى ، أما مفهوم التضاد فلا بد من الوقوف على قول يتفق مع أصول التفسير .

٤ -- تفسير القرآن بمقتضى مفاهيم وقواعد اللغة العربية ، إلا ما خصصه الشارع بقول أو فعل من أفعاله صلى الله عليه وسلم ، وإليك بيان ذلك مع الأخذ بعين الاعتبار أنه لا تناقض ولا تنافي ولا تضارب في آيات الله تعالى لأنه من عند الله ، قال سبحانه :

{ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً }

فلما ثبت قطعاً أنه كلام الله فلا اختلاف فيه ، لا في فهم آياته ولا فهم كلماته ولا إشاراته ولا رموزه ، فكلها متفقة منسجمة ، لكن الأفهام تترقى دون تضارب فهم أوّليٍّ مع فهم أرقى .

ومن كلام شيخنا الإمام رضي الله عنه :

(كل إشارة خالفت عبارة فهي خسارة) .

وإليك بيان ما تقدم إجماله :

--- فمثال تفسير القرآن الكريم بالقرآن أنه لما نزل قوله تعالى :
{ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ }
شقّ ذلك على أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم – أي : صعب - وقالوا : أيّنا لم يظلم نفسه ؟ - وذلك لأنهم فهموا من الظلم عمومه وذلك على مقتضى مفهوم اللغة لأن النكرة بعد النفي - وهي قوله تعالى { وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ } تفيد العموم -

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ليس كما تظنون ، إنما هو كما قال لقمان لابنه : { يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم } [١]
فبيّن صلى الله عليه وسلم أن المراد من الظلم في قوله تعالى { بظلم } المراد منه : الشرك بأنواعه ، وأحالهم بذلك إلى آية أخرى بينت هذا المعنى والشرك يشمل الشرك الأكبر والشرك الأصغر ، أما الأصغر فيشمل الرياء والسمعة لقوله صلى الله عليه وسلم : [اليسير من الرياء شرك] [٢]
فالمرائي يعمل الصالحات ليُري الناس أنه يعمل ، وليقال عنه أنه يعمل وأنه وأنه ....

فعمله ليس خالصاً لله ، بل شابَهُ أن يراه الناس ويسمعوا بخبره ، وكأنه فَعَلَ من أجل الله ومن أجلهم ، وكأنه بذلك أشرك الناس مع الله ، فاحذر يا أخي في عملك من الرياء والسمعة ، حتى لا يستحكم فيك ويصير نفاقاً خالصاً وتدخل ضمن الثلاثة الذين هم أول من تُسَعّر بهم النار يوم القيامة

فقد جاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال :

حدثني رسول الله صلى الله عليه وسلم : أن الله تبارك وتعالى إذا كان يوم القيامة ينزل إلى العباد ليقضي بينهم ، وكل أمة جاثية ، فأول من يدعو به رجل جَمَعَ القرآن ـ أي : علّمه الله القرآن حفظاً أو فهماً ـ، ورجل قُتل في سبيل الله ، ورجل كثير المال ، فيقول الله للقارئ : ألم أعلّمك ما أنزلت على رسولي ؟

قال : بلى يا رب ، قال : فماذا عملت فيما علمت ؟

قال : كنت أقوم به آناء الليل وآناء النهار

ـأي كنت أقوم بتطبيق ما جاء في القرآن ـ ،

فيقول الله له : كذبتَ ، وتقول له الملائكة : كذبتَ ،

---

[١] انظر صحيح البخاري كتاب استتابة المرتدين وصحيح مسلم كتاب الإيمان
[٢] طرف حديث في سنن ابن ماجه كتاب الفتن ومستدرك الحاكم واللفظ له وشعب الإيمان للبيهقي والمعجم الأوسط للطبراني

ويقول الله : بل أردتَ أن يقال : إن فلاناً قارئ - أي عالم - فقد قيل ذاك . ويؤتى بصاحب المال فيقول الله له : ألم أوسّع عليك حتى لم أدعْك تحتاج إلى أحد ؟ قال : بلى يا رب ، قال : فماذا عملت فيما آتيتك ؟ قال : كنت أصل الرحم وأتصدّق ، فيقول الله له : كذبتَ ، وتقول له الملائكة : كذبتَ ، ويقول الله تعالى : بل أردتَ أن يقال : فلان جواد ، فقد قيل ذاك .

ويؤتى بالذي قُتل في سبيل الله ، فيقول الله له : في ماذا قتلت ؟ فيقول : أمرت بالجهاد في سبيلك فقاتلت حتى قتلت ، فيقول الله تعالى له : كذبت ، وتقول له الملائكة : كذبت ، ويقول الله : بل أردت أن يقال : فلان جريء ، فقد قيل ذاك .

- قال أبو هريرة رضي الله عنه - :

ثم ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم على ركبتي فقال :

يا أبا هريرة ، أولئك الثلاثة أول خلق الله تُسعَّر بهم النار يوم القيامة [1]

وأما تفسير القرآن الكريم بالحديث الشريف فمثاله :
ما رواه الإمام الترمذي عن سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال :
كنت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزلت عليه هذه الآية :
{ من يعمل سوءاً يجز به ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً }
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا أبا بكر ألا أُقرئك آية أنزلت عَلَيّ ؟
قلت : بلى يا رسول الله ، قال : فأقرأنيها فلا أعلم إلا أني قد كنت وجدت انقصاماً في ظهري ، فتمطّأْت لها - أي خِفت حتى تراخت مفاصلي .-
، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما شأنك يا أبا بكر؟

قلت : يا رسول الله بأبي أنت وأمي ، وأيّنا لم يعمل سوءاً - أي ولو صغيرة أو أصغر من الصغيرة - ، وإنا لمَجْزيّون بما عملنا ؟

---

[1] كما في سنن الترمذي كتاب الزهد والسنن الكبرى للنسائي وصحيح ابن حبان وصحيح ابن خزيمة

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : [أما أنت يا أبا بكر والمؤمنون - أي الكمّل - فتُجزَون بذلك في الدنيا حتى تلقوا الله وليس لكم ذنوب ، وأما الآخرون فيُجمع ذلك لهم حتى يُجزوا به يوم القيامة] [1]

فهذا بيان منه صلى الله عليه وسلم للآية الكريمة .

ومن ذلك مثلاً قوله تعالى : { للذين أحسنوا }أي : للذين أحسنوا في الدنيا بأعمالهم وأقوالهم ، بأن كانت خالصة لوجهه تعالى ، وتحققوا بمقام الإحسان في عبادتهم لله تعالى ومعاملتهم لخلق الله تعالى - والإحسان على مراتب - هؤلاء ماذا أعد الله لهم في الآخرة ؟

قال سبحانه : { الحسنى } أي الجنة ، ويختلف نعيم المحسنين على حسب درجات إحسانهم في الدنيا

{ وزيادة } وهي أن يتفضل عليهم جل وعلا برؤيته يوم الجمعة ، ولذلك يسمى يوم الجمعة عند أهل الجنة : (يوم المزيد) لأن فيه زيادة فضل من الله على أهل الجنة [2]، قال جل وعلا : { ويزيدهم من فضله }

فماذا جاء عنه صلى الله عليه وسلم في تفسير قوله تعالى { وزيادة } ؟

---

[1] سنن الترمذي كتاب تفسير القرآن

[2] انظر الحديث في كتاب الرؤية للدارقطني وهو حديث طويل في صفة أهل الجنة جاء في آخره :

فليسوا إلى شيء أشوق منهم إلى يوم الجمعة لينظروا إلى ربهم عز وجل ، وليزيدهم من مزيد فضله وكرامته . اهـ

وفي المعجم الأوسط للطبراني : ولذلك دُعي يوم المزيد

وانظره في مسند البزار ومسند الحارث وصفة الجنة لابن أبي الدنيا وقال في مجمع الزوائد : ورجال أبي يعلى رجال الصحيح

وقال الحافظ العراقي في تخريج أحاديث الإحياء :

حديث " خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة ، فيه خُلق آدم عليه السلام وفيه أدخل الجنة وفيه أُهبط إلى الأرض وفيه تيب عليه وفيه مات وفيه تقوم الساعة ، وهو عند الله يوم المزيد كذلك تسميه الملائكة في السماء ، وهو يوم النظر إلى الله تعالى في الجنة " أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة .

روى الإمام مسلم في صحيحه عن صهيب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

[إذا دخل أهل الجنة الجنة قال : يقول الله تبارك وتعالى : تريدون شيئاً أزيدكم ؟ فيقولون : ألم تبيّض وجوهنا ألم تدخلنا الجنة وتنجّنا من النار ؟ قال : فيكشف الحجاب ، فما أُعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل] .

وفي رواية :
ثم تلا صلى الله عليه وسلم هذه الآية { للذين أحسنوا الحسنى وزيادة } . اهـ
وفي بيان قوله تعالى : { كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون }

قال صلى الله عليه وسلم :

[إذا أذنب العبد نُكِتَ في قلبه نكتة سوداء [1] ، فإن تاب صقل منها [2] ، فإن عاد زادت حتى تعظم في قلبه ، فذلك الران [3] الذي ذكره الله عز وجل :
{ كلا بل ران على قلوبهم } [4]

والأمثلة والشواهد كثيرة لسنا في مجال بسطها ولكننا نشير إليها

---

[1] قال في تحفة الأحوذي شرح جامع الترمذي :
أي جُعلت في قلبه نكتة سوداء أي أثر قليل كالنقطة شبه الوسخ في المرآة والسيف ونحوهما .
وقال القاري : أي كقطرة مداد تقطر في القرطاس ، ويختلف على حسب المعصية وقدرها .
[2] وفي تحفة الأحوذي :
قال في القاموس : صقله : جلاه اهـ ، والمعنى :
نظف وصفى مرآة قلبه لأن التوبة بمنزلة المصقلة تمحو وسخ القلب
[3] وفي تحفة الأحوذي :
أصل الران والرين : الغشاوة ، وهو كالصدأ على الشيء الصقيل
[4] رواه الحاكم في المستدرك في كتاب الإيمان بهذا اللفظ والترمذي في سننه كتاب تفسير القرآن وابن ماجه في سننه كتاب الزهد وابن حبان في صحيحه والبيهقي في الشعب

وأما تفسير القرآن بما ثبت نقله عن الصحابة والتابعين رضي الله عنهم أجمعين فإليك ما قاله ابن كثير رحمه الله في مقدمة تفسيره :

فإن قال قائل: فما أحسن طرق التفسير؟
فالجواب: إن أصح الطرق في ذلك أن يُفسر القرآن بالقرآن، فما أُجمل في مكان فإنه قد فُسّر في موضع آخر، فإن أعياك ذلك فعليك بالسنة فإنها شارحة للقرآن وموضِّحة له ، فإذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنة، رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة، فإنهم أدرى بذلك، لِما شاهدوا من القرائن والأحوال التي اختُصّوا بها، ولما لهم من الفهم التام، والعلم الصحيح، والعمل الصالح، لا سيما علماؤهم وكبراؤهم، كالأئمة الأربعة والخلفاء الراشدين، والأئمة المهديين، وعبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

قال الإمام أبو جعفر محمد بن جرير :حدثنا أبو كريب، حدثنا جابر بن نوح، حدثنا الأعمش، عن أبي الضحى، عن مسروق، قال: قال عبد الله - يعني ابن مسعود -: والذي لا إله غيره، ما نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيمن نزلت وأين نزلت ، ولو أعلم مكان أحد أعلم بكتاب الله مني تناله المطايا لأتيته .

وقال الأعمش أيضاً عن أبي وائل عن ابن مسعود رضي الله عنه قال:

كان الرجل منا إذا تعلّم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن ، والعمل بهن.

ومنهم الحبر البحر عبد الله بن عباس، ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وترجمان القرآن وببركة دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم له حيث قال:
[اللهم فقهه في الدين ، وعلّمه التأويل] .
وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا وكيع، حدثنا سفيان، عن الأعمش، عن مسلم قال : قال عبد الله - يعني ابن مسعود- :

نِعم ترجمان القرآن ابن عباس

فإذا لم تجد التفسير في القرآن ولا في السنة ولا وجدته عن الصحابة ، فقد رجع كثير من الأئمة في ذلك إلى أقوال التابعين، كمجاهد بن جبر [1] فإنه كان آية في التفسير، كما قال محمد بن إسحاق: حدثنا أبان بن صالح، عن مجاهد، قال: عرضتُ المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات، من فاتحته إلى خاتمته، أوقفه عند كل آية منه، وأسأله عنها .
وقال ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا طلق بن غنام، عن عثمان المكي، عن ابن أبي مليكة قال: رأيت مجاهداً سأل ابن عباس عن تفسير القرآن، ومعه ألواحه، قال: فيقول له ابن عباس: اكتب، حتى سأله عن التفسير كله . اهـ .
وكسعيد بن جبير، وعكرمة مولى ابن عباس، وعطاء بن أبي رباح، والحسن البصري، ومسروق ابن الأجدع، وسعيد بن المسيب، وأبي العالية، والربيع بن أنس، وقتادة، والضحاك بن مزاحم، وغيرهم من التابعين وتابعيهم ومن بعدهم، فتذكر أقوالهم في الآية فيقع في عباراتهم تباين في الألفاظ ، يحسبها من لا علم عنده اختلافاً فيحكيها أقوالاً وليس كذلك، فإن منهم من يعبّر عن الشيء بلازمه أو بنظيره، ومنهم من ينصّ على الشيء بعينه، والكل بمعنى واحد في كثير من الأماكن، فليتفطن اللبيب لذلك . اهـ .

وأما تفسير القرآن الكريم باللغة وقواعدها فمثاله :

ما ورد في الحديث الذي أخرجه عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن أبي الصلت الثقفي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قرأ هذه الآية { ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً } بفتح الراء ، وقرأها بعض من عنده من أصحاب رسول الله { حرجاً } بالخفض ، فقال عمر : أبغوني رجلاً من كنانة وأجعلوه راعياً ، وليكن مدلجياً - أي من بني مدلج - فأتوه به فقال له عمر : يا فتى ما الحرجة فيكم؟

---

[1] سيدي مجاهد بن جبر المكي المخزومي الإمام الثقة ، برع في التفسير والحديث وأخذ عن ابن عباس رضي الله عنهما القرآن والتفسير والفقه ، وقد توفي رضي الله عنه سنة ١٠٤ هـ

قال : الحرجة فينا : الشجرة تكون بين الأشجار التي لا تصل إليها راعية ولا وحشية ولا شيء - وذلك لطول ساقها وارتفاع أوراقها -

فقال عمر رضي الله عنه :

كذلك قلب المنافق لا يصل إليه شيء من الخير .[1]

ومثاله أيضاً ما رواه الإمام أحمد في المسند عن أبي يحيى مولى ابن عقيل الأنصاري قال : قال ابن عباس رضي الله عنهما :

لقد علمت آية من القرآن ما سألني عنها رجل قط فما أدري أَعلِمها الناس فلم يسألوا عنها ، أم لم يفطنوا لها فيسألوا عنها ؟

ثم طفق يحدثنا فلما قام تلاومنا أن لا نكون سألناه عنها فقلت : أنا لها إذا راح غداً ، فلما راح الغد قلت : يا ابن عباس ذكرت أمس أن آية من القرآن لم يسألك عنها رجل قط فلا تدري أَعَلِمها الناس فلم يسألوا عنها أم لم يفطنوا لها ؟ فقلت : أخبرني عنها وعن اللاتي قرأت قبلها

قال : نعم ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لقريش : يا معشر قريش إنه ليس أحد يُعبد من دون الله فيه خير ، وقد علمت قريش أن النصارى تعبد عيسى ابن مريم وما تقول في محمد ، فقالوا : يا محمد ألست تزعم أن عيسى كان نبياً وعبداً من عباد الله صالحاً فلئن كنت صادقاً فإن آلهتهم لَكَمَا تقولون

قال : فأنزل الله عز وجل :

{ ولما ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدّون }

قال : قلت : ما يصدون ؟ قال : يضجّون
{ وإنه لعلم للساعة } قال : هو خروج عيسى ابن مريم عليه السلام قبل يوم القيامة . اهـ .

---

[1] انظر الدر المنثور للسيوطي وقد عزاه في الكنز لمن سبق ذكرهم

وقال الطحاوي في مُشكل الآثار :

قال أبو جعفر : فقال قائل : ففي هذه الآثار أن المشركين عند نزول الآية الأولى من هاتين الآيتين اللتين في هذا الحديث - وهي قوله تعالى { إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون } - ضجّوا من ذلك وقالوا للمسلمين محتجين عليهم : فإن عيسى يُعبد ، وعُزير يعبد ، ومن ذكروا معهما في هذا الحديث وهم مع شركهم أهل فصاحة ليس ممن يجري على ألسنتهم اللحن في كلامهم .

و (ما) فإنما تقال لغير بني آدم ويقال مكانها لبني آدم (من) ، كما قال عز وجل : { ومن يقل منهم إني إله من دونه } { ومن يفعل ذلك يلق أثاماً } ، في أمثال ذلك مما يريد به بني آدم وقال سبحانه في سوى بني آدم : { وما أكل السبع إلا ما ذكيتم وما ذبح على النصب } لغير بني آدم

وفيما رويتموه وأضفتموه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قد ذكرتموه في هذا الحديث من هذا الجنس ، وفي إحدى الآيتين اللتين تلوتموها فيه : { إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون }

أريد به بنو آدم ؟

فكان جوابنا له في ذلك بتوفيق الله عز وجل وعونه :

أن (من) و (ما) في الأكثر من كلام العرب يخرجان على ما ذكر ، وقد تستعمل العرب أيضا في كلامها في بني آدم (ما) كما تستعمل (من) وإن كان ذلك مما لا تستعمله فيهم كثيراً كما تستعمل فيهم (من) ، ومن ذلك قول الله عز وجل : { والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم }

مكان : إلا من ملكت أيمانكم .

وقوله عز وجل : { سبح لله ما في السموات والأرض } و{ يسبح لله ما في السموات وما في الأرض } ، وقوله عز وجل : { ووالد وما ولد } يعني آدم صلى الله عليه وسلم وما ولد ، وفيما ذكرنا من هذا دليل على ما وصفنا . اهـ . [1]

ولا يجوز فهم القرآن إلا كما أنزله الله بلسان عربي مبين

وإذا قيل : إنه تُرجم إلى لغة غير عربية

فيقال : هذا ليس قرآناً ولا ترجمة للقرآن ، بل هو تفسير لمفرداته بلغة أخرى ، ويخرج بذلك عن قرآنيته ، لأن الله تعالى أنزله قرآناً عربياً ، فإذا فُسّر بلغة أخرى خرج عن عربيته ، فخرج عن كونه قرآناً يُتعبّد به ، وأصبح بمنزلة التفسير للقرآن الكريم بلغة كذا مثلاً .

وكان شيخنا الوالد الإمام رضي الله عنه يُقدّم الحديث الشريف في تفسيره لآية مثلاً على مفهوم مطلق اللغة ، ولو كان الحديث ضعيفاً ، ما لم يكن شديد الضعف أو كان يناقض أصلاً دينياً أو نصاً شرعياً .

ومن ذلك مثلاً ما جاء في تفسير كلمة الغاسق في قوله تعالى :

{ ومن شر غاسق إذا وقب }

فقد روى الإمام أحمد والترمذي عن السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم نظر إلى القمر فقال :
[يا عائشة استعيذي بالله من شر هذا ، فإن هذا الغاسق إذا وقب] [2]

---

[1] ٢ / ٤٧٣

[2] المسند ٢٤٦١٩ وسنن الترمذي كتاب تفسير القرآن

وقال في تحفة الأحوذي : قال الخازن في تفسيره بعد ذكر حديث عائشة هذا ما لفظه : فعلى هذا الحديث المراد به القمر إذا خسف واسودّ ، ومعنى { وقب } دخل في الخسوف أو أخذ في الغيبوبة ، وقيل : سمي به لأنه إذا خسف اسودّ وذهب ضوؤه ، وقيل : { إذا وقب } دخل في المحاق وهو آخر الشهر ، وفي ذلك الوقت يتم السحر المورث للتمريض ، وهذا مناسب لسبب نزول هذه السورة .

وفي رواية : قالت السيدة عائشة :
أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدي فَأَراني القمر حين طلع فقال :
[تعوّذي بالله من شر هذا الغاسق إذا وقب] [1]
وهذا التفسير يتفق مع سياق الآيات من التعوذ من الشرور بأنواعها ، ولا مناسبة لتفسير الغاسق بغير ذلك كما ذكره بعضهم ، إذ إن مراعاة السياق والسباق واللحاق في التفسير أمر يجب أخذه بعين الاعتبار ، والنظر فيه بدقة .
ومن ذلك أيضاً تفسير كلمة { الكوثر } فهي من حيث اللغة : مبالغة من (كثير) ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : الكوثر هو الخير الكثير .اهـ
وجاء في صحيح الإمام مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ:
بسم الله الرحمن الرحيم
{ إنا أعطيناك الكوثر * فصل لربك وانحر* إن شانئك هو الأبتر }
ثم قال : أتدرون ما الكوثر ؟
فقلنا : الله ورسوله أعلم
قال : فإنه نهر وعدنيه ربي عز وجل ، عليه خير كثير] [2]
وروى الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
[الكوثر نهر في الجنة ، حافتاه من ذهب ، ومجراه على الدر والياقوت ، تربته أطيب من المسك ، وماؤه أحلى من العسل ، وأبيض من الثلج] [3]
وقال الحافظ الزرقاني [4]:
ومن خصائصه صلى الله عليه وسلم : الكوثر كما قال تعالى :
{ إنا أعطيناك الكوثر }
ونقل المفسرون فيه أقوالاً تزيد على عشرة ، وأولاها - لو لم يفسِّره صلى الله عليه وسلم بخلافه - قول ابن عباس أنه الخير الكثير ، لعمومه الشامل لكل ما قيل ، لكن ثبت تخصيصه بالنهر الذي في الجنة من لفظه صلى الله عليه وسلم فلا معدل عنه

---

[1] المسند ٢٣١٨٧ ومستدرك الحاكم كتاب التفسير وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه
[2] صحيح مسلم كتاب الصلاة
[3] المسند ٥١٠١ وسنن الترمذي كتاب تفسير القرآن وسنن ابن ماجه كتاب الزهد
[4] انظر شرح المواهب باب : (ومن خصائصه صلى الله عليه وسلم الكوثر) ٣٤٥/٥
و باب (تفضيله صلى الله عليه وسلم بالكوثر ٨) / ٤١٠ - ٤١١

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : { إنا أعطيناك الكوثر } قال هو نهر في الجنة ، كأنه بلغه ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم فرجع عن تفسيره بالخير الكثير ، الثابت في البخاري عنه ، لأنه قاله أولاً بناء على مدلول اللغة ، فلما بلغه خبر الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم بتخصيصه بنهر الجنة رجع عنه إذ النص مقدم على الاستنباط . اهـ

ومن ذلك مثلاً ما قيل في سيدنا سليمان عليه السلام أنه ضرب أعناق الخيل وسُوقها لأنها شغلته عن صلاة العصر ، والحق في الخبر أنه عليه السلام كان يتفقدها ويجهزها للجهاد في سبيل الله ، وأخذت منه وقتاً حتى أخّرته عن صلاة العصر حين مالت الشمس للغروب ، وهذا قوله تعالى في الخبر عنه : { إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي } أي : حب تفقّد الخيل ورعايتها ، وفي الحديث :

[الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة : الأجر والمغنم] [1]

{ حَتَّى تَوَارَتْ} أي الشمس

{ بِالْحِجَابِ } فلم يشغله أمر دنيوي أو حظ نفساني فأخّره عن الصلاة ، بل شغله خير عما هو أعظم منه خيراً وهو ذكر الله تعالى أي صلاة العصر

فقال : { رُدُّوهَا عَلَيَّ } أي الخيل

{ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ }أي : جعلوها تمر عليه واحدة تلو الأخرى وهو يمسح بيده أعناقها وسوقها ، ثم وهبها بأن وقفها لله تعالى بعدما كانت ملكاً خاصاً به ، ومعروف لدى أهل الخيل ورائضيها أنها تحتاج وتُسرّ بتدليك ومسح أعناقها وسوقها ، فافهم الفهم الصحيح ولا تقل : جعل سليمان عليه السلام يضرب أعناقها وسوقها بالسيف انتقاماً منها لأنها شغلته عن الصلاة ، لأننا نقول حينئذ :

ما ذنبها حتى تُقتل ؟

أليس قتلها من الإسراف الذي لا يجوز أصلاً ، وخاصة في حق نبي من الأنبياء عليهم الصلاة السلام ؟

---

[1] صحيح البخاري كتاب الجهاد والسير وصحيح مسلم كتاب الإمارة عن عروة البارقي رضي الله عنه

ويشبه هذا ما حدث مع الصحابي الجليل أبي طلحة زيد بن سهل الأنصاري رضي الله عنه عندما كان يصلي في حائطه [1] فطار دبسي [2] فطفق يتردد يلتمس مخرجاً [3] ، فأعجبه ذلك فجعل يتبعه بصره ساعة ثم رجع إلى صلاته فإذا هو لا يدري كَمْ صلّى ، فقال :

(لقد أصابتني في مالي هذا فتنة) [4] فجاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر له الذي أصابه في حائطه من الفتنة ، وقال :

يا رسول الله هو صدقة لله [5] فَضَعْه حيث شئت [6]

فأقرَّه النبي صلى الله عليه وسلم ولم يأمره بإحراق البستان أو إتلافه [7]

---

[1] أي : بستانه

[2] قال الحافظ الزرقاني في شرحه موطأ الإمام مالك :
(دبسي) بضم الدال المهملة وإسكان الموحدة وسين مهملة ، قال ابن عبد البر : طائر يشبه اليمامة ، وقيل هو اليمامة نفسها .

[3] قال الباجي : يعني أن اتساق النخل واتصال جرائدها كانت تمنع الدبسي من الخروج فجعل يتردد ويطلب المخرج .

[4] أي اختبار أي اختُبرت في هذا المال فشُغلت عن الصلاة

[5] قال الباجي : أراد إخراج ما فُتن به من ماله ، وتكفير اشتغاله عن صلاته .
وقال الغزالي : كانوا يفعلون ذلك قطعاً لمادة الفكر ، وكفارة لما جرى من نقصان الصلاة ، وهذا هو الدواء القاطع لمادة العلة ، ولا يغني عنه غيره .
(انظر جميع ما سبق في شرح الزرقاني للموطأ)

[6] انظر موطأ الإمام مالك كتاب النداء للصلاة والسنن الكبرى للبيهقي وتاريخ دمشق لابن عساكر والزهد والرقائق لابن المبارك

[7] أورد الطبري في تفسيره ما جاء عن ابن عباس أنه قال في تفسير قوله تعالى :
{ فطفق مسحاً بالسوق والأعناق } جعل يمسح أعراف الخيل وعراقيبها ، حباً لها.
قال : وهذا القول الذي ذكرناه عن ابن عباس أشبه بتأويل الآية، لأن نبي الله صلى الله عليه وسلم لم يكن إن شاء الله ليعذب حيواناً بالعرقبة، ويهلك مالاً من ماله بغير سبب، سوى أنه اشتغل عن صلاته بالنظر إليها، ولا ذنب لها باشتغاله بالنظر إليها. اهـ .

ومن تفسير الشيخ الإمام رضي الله عنه القرآن بالقرآن الكريم والحديث الشريف :

تفسيره ما جاء في قوله تعالى { إنا أنزلناه في ليلة القدر }

أي : ليلة المقدار والفضل التي هي في العشر الأخير من رمضان لقوله صلى الله عليه وسلم : [التمسوها في العشر الأواخر من رمضان] [1]

وقد قال تعالى : { لَيْلَة الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ } فلمْ يقل جل وعلا :

ليلة القدر كألف شهر بل قال :

{ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ } فما معنى { خير} أهي ضعف أم ضعفان أم أكثر ؟

لفهم ذلك انظر إلى قوله تعالى في سورتي النمل والقصص :

{ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا } فما معنى { فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا } ؟

لقد بيّنها قوله تعالى في سورة الأنعام { مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا } أي يضاعفها الله له عشر أمثالها .

فافهم من هذا معنى قوله تعالى : { لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ }

وقد جاء في الحديث عنه صلى الله عليه وسلم :

[من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها] ... الحديث [2]

واعلم أن الله يضاعف ما يشاء لمن يشاء على حسب إخلاص وصدق المحسن لله تعالى حتى جاء في بيان قوله تعالى : { إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا }

أي : وإن تكن هذه الذرة حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً

[1] طرف حديث في المسند ٢٢٣٤ واللفظ له وصحيح البخاري كتاب صلاة التراويح وصحيح مسلم كتاب الصيام

[2] انظره في سنن الترمذي كتاب فضائل القرآن عن عبد الله بن مسعود

قال الإمام السيوطي في الدر المنثور :

أخرج ابن جرير عن أبي عثمان النهدي قال : لقيت أبا هريرة فقلت له : بلغني أنك تقول أن الحسنة لَتُضاعف ألف ألف حسنة!

قال : وما أعجبك من ذلك؟

فوالله لقد سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول :

[إن الله ليضاعف الحسنة ألفي ألف حسنة] [١]

ومما تقدم تفهم معنى قوله تعالى في الحديث القدسي :

[أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معه إذا ذكرني ، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم] [٢]

فهل الخيرية هنا خيرية كثرة أم خيرية فضل ؟

نعم هي خيرية كثرة وفضل ، وهذا ما يُعرف من الملأ الذين يذكر العبد فيهم ربه جل وعلا ، لأنه لو قيل : كان الواحد من أصحاب سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر الله تعالى بحضرة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأي ملأ أفضل من ملئه صلى الله عليه وسلم حتى يذكره الله فيه ؟!

نعم يذكره سبحانه في ملأ أكثر عدداً منه . اهـ .

واعلم أن كتب الشيخ الإمام رضي الله عنه عامرة بتفسير آيات الله تعالى على النحو الذي تقدم بيانه ، وكذا دروسه العامة والخاصة ، فيربط الآيات ببعضها ربطاً وثيقاً ، ويأتي بالأحاديث التي تكشف المعنى ، مع مراعاة قواعد اللغة وشواهدها ، ويقول :

إن مفاتيح الفهم بيد الله تعالى الذي عنده خزائن كل شيء ، ويؤتي الله منها من يشاء من عباده المتقين العلماء العاملين .

---

[١] انظره في مسند الإمام أحمد ٧٦٠٤ والتوبة لابن أبي الدنيا

[٢] صحيح البخاري كتاب التوحيد وصحيح مسلم كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار

قال تعالى : { وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ }

وجاء في الحديث : [من عَمِل بما عَلِم ورّثه الله عِلْم ما لم يعلم] [1]

وهذا ما يعرف عند القوم بـ مقام (الإفهام والتفهيم الإلهي)
استدلالاً بقوله تعالى : { ففهّمناها سليمان }
وفي الحديث الذي رواه الإمام البخاري عن أبي جحيفة رضي الله عنه قال :قلت لعلي رضي الله عنه :هل عندكم شيء من الوحي إلا ما في كتاب الله ؟ وفي رواية : هل عندكم من النبي صلى الله عليه وسلم شيء سوى القرآن ؟ [2] قال : لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ، ما أعلمه إلا فهماً يعطيه الله رجلاً في القرآن [3]

ويُشترط لقبول فهم العالم أن لا يتعارض مع فهم قطعي الدلالة ، أو أصل من أصول الدين ، ولتحقيق هذا الغرض لا بد من رد الفهم إلى الميزان الشرعي المحمدي ، وهو أحاديثه الشريفة صلى الله عليه وسلم التي وصفها سبحانه بالميزان والحكمة فقال جل وعلا :

{ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ }

والحكمة هي السنة بما تضمنته من أقواله صلى الله عليه وسلم وأفعاله وتقريراته ، لأن أقواله صلى الله عليه وسلم هي الحق والسداد والصواب ، وأفعاله صلى الله عليه وسلم هي الحكمة الصائبة .

وقال سبحانه : { اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ }

---

[1] قال الإمام السيوطي في الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة :
حديث : [من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم].
أبو نعيم في " الحلية " من حديث أنس بهذا اللفظ، وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس مرفوعاً: من تعلم علماً فعمل به كان حقاً على الله أن يعلّمه ما لم يكن يعلم .
وفي كتاب " رواية الكبار عن الصغار " لأبي يعقوب البغدادي عن سفيان:
من عمل بما يعلم وُفِّق لما لا يعلم.
[2] السنن الكبرى للبيهقي
[3] صحيح البخاري كتاب الجهاد والسير

أي : أنزل القرآن والميزان بالحق ، والميزان هو سنة النبي الكريم صلى الله عليه وسلم كما تقدم ، فهي ميزان الأقوال والأفعال والأخلاق والآداب والمفاهيم ، فإن وافقت المفاهيم ما جاء به صلى الله عليه وسلم قبلناها ، وإلا فهي مردودة .

ومثال ذلك ما فهمه بعضهم من قوله تعالى : { وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ }

فهم أن { لمع } هنا : فعل ماض مأخوذ من اللمعان ، وهذا الفهم مردود لأنه ينافي قوله تعالى : { إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ } فقد أشار سبحانه إلى معيّته الخاصة بالمتقين والمحسنين ، ولا مناسبة لذكر اللمعان لأن بداية الآية : { وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ } أي هو سبحانه معهم بالعناية والرعاية في مجاهدتهم لأنفسهم .

ولو كان المراد من { لمع } اللمعان بمعنى التوقد بالبهاء والضياء والتألق لكان الفعل هنا (لمّع } بتشديد الميم المفتوحة [1]

ومن جهة أخرى فإن الله تعالى أشار إلى بهاء ونضار وجوه المؤمنين المحسنين بأنوار الطاعة فقال جل وعلا :

{ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّة }

وقال سبحانه : { وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ }

وقال تعالى : { وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ }

وقال تبارك وتعالى : { سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ }

والسيما هي العلامة ، أي إن أنوار العبادة ظاهرة على وجوههم في الدنيا قبل الآخرة .

---

[1] قال في المعجم الوسيط :
(لمّع) النسيج : لَوّنه ألواناً شَتَّى ، وَلمع الشَّيْء : جعله يلمع
وجاء في معجم اللغة العربية المعاصرة :
لمَّعَ يلمِّع، تلميعًا، فهو مُلمِّع، والمفعول مُلمَّع
لمّع الزهريَّةَ: أضفى عليها بريقاً ، لمَّع الصَّبّاغُ النَّسيجَ: لوَّنه ألوانًا مختلفة

وفي الحديث : [نضّر الله امرءاً سمع منا حديثاً فحفظه حتى يبلّغه] [1]

فقد دعا سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم له بالنضارة أي البهاء والحسن والنور .

ومن المفاهيم الإشارية المردودة ما فهمه بعضهم من قوله تعالى مخبراً عن الخضر عليه السلام :

{ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا }

فَهِم منها : (فأردت أن أعي بها) أي أفهمها ، وهذا الفهم يخالف ما حصل ، لأن سيدنا الخضر عليه السلام أراد أن يُحْدث في السفينة خللاً أو عيباً أو نقصاً لئلا يغصبها الملك الظالم ، فأين هذا المفهوم من مراد سيدنا الخضر عليه السلام ؟!

والله سبحانه وتعالى يقول مخبراً عن الخضر عليه السلام :

{ فأردت أن أعيبها } فالباء مفتوحة والفعل من (عاب - يعيب)

أما صاحب الفهم المردود فقد جعلها مكسورة ، وهذا يناقض معناها اللغوي ونصّها القرآني أيضاً ، وهو بهذا الفهم قد حرّف الكلم عن مواضعه وتلاعب في كلام الله تعالى وافترى على الله كذباً .

ومن المفاهيم الإشارية المناقضة لنصوص الكتاب والسنة وقواعد اللغة العربية ما قيل حول حديث سيدنا جبريل عليه السلام الذي فيه بيان الإحسان : [أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك]

فقد فهم بعضهم منه فهماً خاطئاً وهو :(فإن لم تكن) أي إن غبت عن كينونتك وفنيت عن وجودك (تراه) أي ترى الله تعالى .

---

[1] طرف حديث في المسند ٣٩٤٢ وسنن الترمذي كتاب العلم وسنن أبي داود كتاب العلم

وهذا الفهم باطل من وجوه : منها :

أن أداة الشرط هي (إن) وفعل الشرط هو (لم تكن تراه) وجواب الشرط هو قوله (فإنه يراك) فجاء جواب الشرط جملة اسمية ، فلا بد له من رابط وهو الفاء في (فإنه) .

وأيضاً لو كان قوله (تراه) هو جواب الشرط لقال صلى الله عليه وسلم : (تَرَه) لأنه سيكون حينئذ فعلاً مضارعاً مجزوماً لأنه جواب الشرط وعلامة جزمه حذف حرف العلة من آخره لأنه فعل معتل ، ولكنه صلى الله عليه وسلم أفصح من نطق بالضاد فلما قال الفعل (تراه) بإثبات الألف ، دلّ على أن فعل (تراه) ليس جواباً للشرط .

ومن وجه آخر : هل ضاقت الأدلة على رؤية المؤمنين حضرة الله تعالى في الآخرة حتى لجأ صاحب هذا الفهم المردود إلى هذا التعسف والتكلف في الفهم الذي لا طائل منه ؟

ثم ما الدليل على أن الإنسان إذا فني عن ذاته وصفاته وأفعاله أنه يرى ربه في الدنيا ؟!!

واعلم أن الفناء الذي تكلم عنه القوم ليس مرادهم به الموت بانفصال الروح عن الجسم ، وإنما الفناء مقام من مقامات النهايات لدى السالكين طريق الوصول إلى رضا رب العالمين .

فالفاني هو الذي فني عن كل شيء سوى الله تعالى ، فني عن ذاته وصفاته وأفعاله وتحقّق بقوله : (لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم)

وصار في مشاهدة قوله تعالى : { والله خلقكم ما تعملون } مع عدم تعطيله مشيئته وإرادته واختياره كما قال سيدنا الإمام أحمد الرفاعي رضي الله عنه في مناجاته حضرة الله تبارك وتعالى :

(أنفذتَ مع اختياري قضاءك) [١] .... فافهم يا أخي .

---

[١] انظر حزب الفرج للإمام الرفاعي رضي الله عنه

فأبقاه الله به وخلع عليه خلعة العز والقوة في حواسه ومداركه بمقتضى قوله تعالى في الحديث القدسي :

[فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ......] الحديث [١]

أما رؤية المؤمن ربه جل وعلا فقد قال صلى الله عليه وسلم :

[تعلمون أنه لن يرى أحد منكم ربه حتى يموت] [٢]

أي حتى يتوفى الله روحه ، وتنفصل عن جسده الدنيوي ، وهذا أول لقاءات المؤمن لربه سبحانه وتعالى في برازخ الآخرة .

أما الفهم الصحيح لقوله صلى الله عليه وسلم في الحديث السابق عن الإحسان :

[أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك]

أي : أن تعبد الله مشاهداً له سبحانه بقلبك ، كأنك تراه بعينك ، وهذا هو مقام المشاهدة القلبية ، فإن لم تستطع ذلك فاعلم أن الله تعالى يراك ، أي راقب ولاحظ دائماً رقابته سبحانه عليك ، وهذا هو مقام المراقبة وهو دون مقام المشاهدة .

وهكذا كان سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ينهض بهمة المؤمن نحو الأعلى والأحسن كما قال صلى الله عليه وسلم :

[سددوا] والتسديد هو إصابة عين الهدف

[وقاربوا] [٣]أي فمن لم يستطع السداد فليقارب من الهدف

---

[١] طرف حديث في صحيح البخاري كتاب الرقاق عن أبي هريرة رضي الله عنه

[٢] طرف حديث في المسند ٢٢٥٦٠ وصحيح مسلم كتاب الفتن وأشراط الساعة وسنن الترمذي كتاب الفتن

[٣] طرف حديث في صحيح البخاري كتاب الرقاق عن سيدنا ابي هريرة رضي الله عنه

فهناك الأحسن والحسن والأفضل والفاضل والأكبر والكبير

ومن المفاهيم الإشارية العرفانية التي تتفق مع النصوص الشرعية ولا تناقضها : قوله تعالى في سورة آل عمران : { ويحذركم الله نفسه }

أي يخوّفكم غضبه وعذابه وعتابه وحجابه ، فإياكم أن تعملوا عملاً يعرضكم لذلك .

وإذا قال قائل : كيف يقول سبحانه : { ويحذركم الله نفسه }

ثم يُتبعها بقوله جل وعلا : { والله رؤوف بالعباد } ؟

فيقال : إنه سبحانه من رأفته بعباده أن حذّرهم نفسه ، والرأفة هي رفع العذاب ودفعه عن الذي يُتوقع منه أن يتعرض له ، فالرأفة رفع الأذى والضرر ، والرحمة جلب الخير والنعم .

قال تعالى : { الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ }

أي لا تتوقفوا عن جلد الزاني والزانية رأفة بهما ، فالله أرأف بهما منكم ، وأحكامه وحدوده قائمة على حكم ومصالح للإنسان ، لأن الذي شرع الشريعة هو الله العليم الحكيم وهو الأعلم بمصالح عباده .

قال سبحانه : { ألا يعلم من خلق }

ونظيره قوله تبارك وتعالى { وخافون إن كنتم مؤمنين }

وقوله جل وعلا : { ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ } .

ومن اللطائف الإشارية حول قوله تعالى : { ويحذركم الله نفسه } أي احذروا أن تبحثوا عن ذات الله تعالى ، وإياكم والتفكر في حقيقة ذاته جل وعلا ، فإن ذلك يحملكم على تشبيهه بغيره جل وعلا ، وهو سبحانه واحد أحد ليس كمثله شيء ، ولم يكن له كفواً أحد ، أي لم يكن أحد نظيراً أو مكافئاً أو مشابهاً أو مماثلاً له سبحانه .

وفي الحديث :

[تفكّروا في خلق الله ، ولا تفكروا في الله فإنكم لن تقدروا قدره][1]

وهذا معنى قول الصديق الأكبر رضي الله عنه :

العَجزُ عَن دَركِ الإدراكِ إدراكُ وَالبُحثُ عَن سِرِّ ذاتِ الربّ إشراكُ [2]

وقال سبحانه : { ولا يحيطون به علماً }

وقال جل وعلا : { لا تدركه الأبصار } أي لا تراه رؤية إحاطة

وقال جل وعلا : { وهو بكل شيء محيط }

وإن أهل الجنة وإن كانوا يرون الله تعالى إلا أنهم لا يحيطون به رؤية ولا علماً ، وما على المؤمن إلا أن يتفكر في معاني أسماء الله تعالى وصفاته وآثارها في خلقه جل وعلا ، ومع ذلك فمهما بلغ وارتقى في المفاهيم الصحيحة فإنه عاجز عن الإحاطة علماً ولو بصفة من صفات الله تعالى ، لأن كل صفة من صفاته سبحانه لا تتناهى ، وأنى للمخلوق المتناهي أن يحيط بمن لا يتناهى لا في ذاته ولا في صفاته سبحانه وتعالى ؟ !

ومن المفاهيم الإشارية حول آيات الله القرآنية التي تتفق مع النصوص الشرعية قوله تعالى :

{ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ }

فقد جاء في الحديث حول بيانه صلى الله عليه وسلم للآية قوله صلى الله عليه وسلم :

[فضل الله القرآن ، ورحمته أن جعلهم من أهله] [3]

---

[1] أخرجه أبو نعيم في الحلية ورواه الأصبهاني في الترغيب والترهيب ، والطبراني في الأوسط والبيهقي في الشعب

[2] انظره في كتاب حول تفسير سورة الإخلاص الصفحة ٢٣ للشيخ الإمام رضي الله عنه ، وقد عزاه بعضهم إلى سيدنا علي كرم الله وجهه ورضي عنه

[3] قال الإمام السيوطي في الدر المنثور :

وهذا خير مما يجمعونه من أموال الدنيا وزخارفها فإن مصيرها إلى الزوال

نعم فليفرحوا بفضل الله عليهم بالقرآن الذي جاء به خير الأنام صلى الله عليه وسلم ، فالقرآن الكريم دعوته صلى الله عليه وسلم لا ينفك عنها ، قال تعالى : { وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا }

أي نهدي بالقرآن هداية توفيق ومعونة على الإيمان ومراتبه

{ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * صِرَاطِ اللَّهِ }

أي إنك لتدلّ الناس وتبين لهم صراط الله المستقيم ، وهو صراط الشريعة الإسلامية المحمدية التي جاءت لمصالح العباد وإسعادهم في جميع العوالم ، قال تعالى : { وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين }

وقال جل وعلا : { وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ } أي من الدنيا

وقال تعالى : { أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ }

ويُفهم من وجه آخر من الآية :

أن تَفَضُّل الله على المؤمن بنعمة القرآن ورحمته به بأن جعله من أمة خير الأنام صلى الله عليه وسلم ، وأن يميته على الإيمان ويدخله الجنة ، هذا هو محل الفرح الذي لا فرح فوقه ، لأن الإنسان مهما حسن عمله وكثرت صالحاته ليس له على الله حق واجب أن يدخله به الجنة ، إلا أن يتفضل عليه ويرحمه جل وعلا ، والذي آمن وعَمِلَ يكون قد أهّل وأعدّ نفسه لفضل الله ورحمته ، وأما من كفر وفسق فقد أبعد نفسه عن فضل الله ومغفرته قال تعالى : { وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ }

أخرجه أبو الشيخ وابن مردويه عن أنس رضي الله عنه

وجاء في الحديث عنه صلى الله عليه وسلم :
[لن يُدخِل أحداً منكم عمله الجنة ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟
قال : ولا أنا ، إلا أن يتغمدني الله منه بفضل ورحمة [١]
وقال صلى الله عليه وسلم :
[لن ينجِي أحداً منكم عمله ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟
قال : ولا أنا ، إلا أن يتغمدني الله برحمة] [٢].
وفي رواية : [ولا أنا ، إلا أن يتغمدني الله بمغفرة ورحمة] [٣]
ففضل الله ورحمته بالمؤمن خير مما يجمعه من أعمال .
وفي الحديث :
[اللهم مغفرتك أوسع من ذنوبي ، ورحمتك أرجى عندي من عملي] [٤]
أي لأنك واسع المغفرة .
قال تعالى : { إن ربك واسع المغفرة }
وفي الحديث :
[يا ابن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ، ثم لقيتني [٥]لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها [٦] مغفرة] [٧]
وينبغي على المؤمن أن يرجو رحمة الله تعالى ولا يعتمد على عمله ، فإن عمله مهما كان خالصاً فلا غنى له عن رحمة الله كي يقْبله وهكذا .
وإن صفة المؤمن ألا يفرح بالدنيا وأموالها وحطامها ، فقد ذم الله أقواماً ركنوا إلى الدنيا واطمأنوا بها ، فقال سبحانه :
{ إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ * أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ }
وقال جل وعلا :
{ ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ }

---

[١] صحيح مسلم كتاب صفة القيامة والجنة والنار وصحيح البخاري كتاب المرضى
[٢]صحيح البخاري كتاب الرقاق
[٣]صحيح البخاري كتاب الرقاق
[٤] وهو دعاء علمه النبي صلى الله عليه وسلم لأعرابي قال للنبي صلى الله عليه وسلم : (واذنوباه) انظره في مستدرك الحاكم وشعب الإيمان للبيهقي .
[٥] أي تائباً
[٦] أي : ملئها
[٧] طرف حديث في سنن الترمذي كتاب الدعوات عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه

وقال سبحانه مخبراً عن المؤمنين الذين عاصروا قارون :
{ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ * وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ }
لأن شأن المؤمن العاقل أن يفرح بأمر يبقى معه لا ينفك عنه ، لا بشيء يزول عنه أو يتحول عنه ، فإن فضل الله على الإنسان بنعمة الإيمان والقرآن ورحمته به بأن جعله من أمة خير الأنام صلى الله عليه وسلم لهو مدعاة للفرح العظيم .
ومن ذلك لما قال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبيّ بن كعب رضي الله عنه :
إن الله أمرني أن أقرأ عليك القرآن
قال أبيّ رضي الله عنه : فقلت : أَسمّاني لك؟ قال : نعم .
وفي رواية : فجعل أبيّ يبكي - أي فرحاً - [1]
فقيل لأبيّ رضي الله عنه : أفرحت بذلك؟
قال : وما يمنعني ، والله تعالى يقول :
{ قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون } [2]
فقد قال سبحانه في الآية : { فبذلك فليفرحوا }ولم يقل (فليفرحوا) بل جيء باسم الإشارة إشارة إلى علو رتبة فضل الله ورحمته ، وتحقيقاً على أن هذا هو مدعاة الفرح الحقيقي فقط .
وقد ذم سبحانه أقواماً كافرين فرحوا بعلومهم الدنيوية ومخترعاتهم حيث طلبوا الدنيا وبحثوا ونقّبوا فيها من أجل الدنيا فقط ، ولم يعبروا بعلومهم إلى معرفة الله تعالى وتوحيده والتفكر في عظمته وعلمه وقدرته فقال سبحانه :
{ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ }
فقد أخذوا من الدنيا ظواهرها لتحقيق ملذاتهم وشهواتهم الفانية والزائلة فقط
وقال تعالى : { فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ } أي : البراهين العقلية والمعجزات الكونية التي تثبت قضايا الإيمان الغيبية
{ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ } أي فرحوا بعلومهم الدنيوية التي وصلوا إليها واكتفوا بها واستهزؤوا بعلوم رسل الله إليهم

---

[1] انظر صحيح البخاري كتاب تفسير القرآن
[2] قال الإمام السيوطي في الدر المنثور : أخرجه أبو عبيد وسعيد بن منصور وابن أبي شيبة وأحمد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن الأنباري في المصاحف وأبو الشيخ والحاكم وصححه وابن مردويه وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في شعب الإيمان

{ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ }
وأما شأن المؤمن فأن يريد بعلمه الدنيوي والديني وجه الله تعالى ، ويتحقق ذلك بإخلاصه في تعلمه وتعليمه ونفعه للناس
وتأمل في قوله صلى الله عليه وسلم :

[من يرد الله به خيراً يفقّهه في الدين] - أي الذي جئت به -

[وإنما أنا قاسم والله يعطي] - وفي رواية : والله المعطي وأنا القاسم - [1]

[ولن تزال هذه الأمة قائمة على أمر الله ، لا يضرّهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله][2] .

وفي رواية :
[لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة] [3]
وفي رواية : [لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ، ظاهرين على من ناوأهم [4]حتى يقاتل آخرهم المسيح الدجال] [5]
وفي رواية :
[لا تزال طائفة من أمتي على الحق ، ظاهرين على من ناوأهم حتى يأتي أمر الله تبارك وتعالى ، وينزل عيسى ابن مريم عليه السلام] [6]
فما هو الدين المُراد في قوله صلى الله عليه وسلم (يفقهه في الدين) ؟

المراد يُفهّمْه أحكام الدين وتفاصيله ، وهو المراد بقوله صلى الله عليه وسلم : [أتاكم جبريل يعلمكم دينكم]

أي أتاكم يُجمل لكم أحكام دينكم بعد أن بيّنتُها وفصلتها لكم ، ويشمل الدين : العقائد الإيمانية القلبية والأعمال الجارحية الإسلامية والأحوال القلبية الإحسانية ، وما يتفرع عنها من علوم وبيانات من الكتاب والسنة ،

---

[1] كما في صحيح البخاري كتاب فرض الخمس
[2] صحيح البخاري كتاب العلم عن معاوية رضي الله عنه
[3] صحيح مسلم كتاب الإيمان
[4] قال في عون المعبود : أي على من عاداهم . وفي شرح مسلم :
هو بهمزة بعد الواو وهو مأخوذ من ناء إليهم ونأوا إليه أي نهضوا للقتال .
وفي النهاية : النواء والمناواة : المعاداة .
[5] سنن أبي داود كتاب الجهاد عن عمران بن حصين رضي الله عنه
[6] المسند ١٩٠٠٧

فمن أراد الله به خيراً في الدنيا والآخرة أعطاه مفاتيح الفهم بواسطة القاسم الأعظم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، فيرزقه الله معرفة العارفين الغارفين من بحر سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم .

روى الإمام أحمد وابن حبان والضياء برجال الصحيح عن جابر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:
[أُتيت بمقاليد الدنيا على فرس أبلق- أي في لون سواد وبياض- جاءني به جبريل عليه قطيفة من سندس]
وفي رواية: [جاءني به إسرافيل]
قال الإمام الزرقاني:
ولا تنافي بين ذلك لأنه من باب تعدد المجيء ، وأن كلاً من جبريل وإسرافيل عليهما السلام جاء بذلك ، أو أن الآتي بذلك جبريل وصَحِبَهُ إسرافيل عليهما السلام ، والظاهر هوالأول .
وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأبي مويهبة :

[يا أبا مويهبة إني قد أوتيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة] [١]

ويُفهم من الحديث أيضاً : أن من لم يرد الله به خيراً بل أراد به غير ذلك جعله جاهلاً في الدين عالماً بالدنيا ، كما قال صلى الله عليه وسلم في حديث آخر :

[إن الله يُبغض كل جعظري [٢] جواظ سخّاب بالأسواق جيفة بالليل ، حمار بالنهار ، عالم بأمر الدنيا ، جاهل بأمر الآخرة] [٣]

وفي الحديث بشارة لعلماء الدين بأن الله أراد بهم خير الدنيا والآخرة إن أخلصوا لله في علمهم وتعليمهم .

---

[١] كما في المسند ١٥٤٢٥ واللفظ له وسنن الدارمي في المقدمة وحلية الأولياء لأبي نعيم ودلائل النبوة للبيهقي
[٢] قال الإمام المناوي في فيض القدير : (جعظري) أي فظّ غليظ متكبر أو جسم عظيم أَكول (جوّاظ) أي جَموع مَنوع أو ضخم مختال في مشيته
[٣] انظر صحيح ابن حبان كتاب العلم والسنن الكبرى للبيهقي

ومن بيان شيخنا الإمام رضي الله عنه لقوله تعالى :

{ ووجدك ضالاً فهدى } :

اعلم أولاً أن الهداية على مراتب كما أن الضلال على معان ، ولكل منهما معان لغوية ومدلولات شرعية ، فهناك أولاً الهدي العام لجميع الخلائق إلى ما فيه صلاح معيشتهم في الدنيا واستمرار نوعهم وهو المراد بقوله تعالى مخبراً عن سيدنا موسى عليه السلام :{ ربنا الذي أعطى كل شيء } أي أعطى كل موجود أوجده { خلقه } أي الصورة الخلقية اللائقة به {ثم هدى } أي هداه لما فيه بقاء واستمرار نوعه ، ويشمل الإنسان والحيوان والنبات فهدى الإنسان إلى تحصيل طعامه وشرابه واستمرار نوعه وما يتعلق بذلك كله ، فعلّم مثلاً الطفل المولود كيف يلتقم ثدي أمه من غير أن تعلّمه أمه فيأخذه ويرضع لتبقى عليه حياته وينمو ، وهكذا علّم النحلة كيف تبني خليّتها وتمتص ماء الزهور والورود الطيبة ، لتعود إلى الخلية وتصنع العسل المختلفة أنواعه ومنافعه ، وهذا بحث طويل واسع .....

وهكذا النباتات والجمادات وسائر المخلوقات ، وهذا هو المراد بقوله تعالى أيضاً { الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى } أي قدّر الأشياء بمقادير تليق بها ، وتناسب استمرار حياتها ونوعها ، وهداها إلى ما فيه بقاؤها واستمرار نوعها .

قال تعالى { إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ }

وهناك الهدي العام إلى معرفته سبحانه وتوحيده وتسبيحه وتحميده ، قال تعالى :{ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ } أي ما من شيء خلقه الله إلا يعرف الله ويوحّده ويسبح بحمده ، ومن ذلك الإنسان ، قال جل وعلا : { فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا } وهي أنه خلقهم على الفطرة السليمة من الشرك والكفر ، وهي توحيده ومعرفته وتسبيحه .

قال صلى الله عليه وآله وسلم :

[كل مولود يولد على الفطرة] [١]

حتى إذا نشأ وبلغ عصفت به شياطين الإنس والجن ، واستحكمت عليه الأهواء والشهوات ، أرسل الله الرسل ليهدوه ويذكّروه بما كان عليه من التوحيد ، وأنه عبد لله يجب عليه أن يعبده ، فهَدَوه إلى شرع الله ، وهكذا جاءت الرسل تهدي الناس إلى صراط الله المستقيم ، وهي صراط الشريعة الموصلة إلى رضا الله تعالى ، قال تعالى : { رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ }

وقال سبحانه في حق سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم :

{ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ }

وقال سبحانه وتعالى :

{ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ } أي : دَلَلْناهم وبيّنا لهم
{ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى }

وقال جل وعلا :

{ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ } أي بينّا للإنسان سبيل الخير وسبيل الشر

وقال تعالى :{ وهديناه النجدين } أي بينّا له طريق الصلاح من الفساد ، وكلّ ذلك بواسطة الرسل وما أنزل الله عليهم من الكتاب والحكمة ، وأعظمهم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الذي قال فيه سبحانه :

{ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ }

أي إنما أنت منذر وهاد لكل قوم مضوا أو سيأتون .

وقال صلى الله عليه وآله وسلم :

[والذي نفسي بيده ، لو أصبح فيكم موسى ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتم] [١] أي ليس بعد رسالته وشرعه صلى الله عليه وسلم ليس هناك شرع يُتّبع ،

---

[١] طرف حديث في صحيح البخاري ومسلم ، وكلاهما في كتاب القدر

فشرعه صلى الله عليه وسلم هو الشرع الجامع لكل شرع قبْله صلى الله عليه وآله وسلم .

وقد تكفل الله تعالى أن يهدي الناس إلى الشرع المستقيم ، يدلهم عليه ويبينه لهم بواسطة الرسل والكتب قال تعالى : { إن علينا لَلهدى }

وهناك هداية التوفيق إلى الإيمان والمعونة على العمل بمقتضياته ، ويقابلها الضلال عن الإيمان وهو الكفر ، فهذا هو المراد بقوله تعالى { يضل من يشاء ويهدي من يشاء } ، ومشيئته سبحانه ترجع لعلمه وحكمته ، قال سبحانه : { والله لا يهدي القوم الكافرين } وقال تعالى :{ والله لا يهدي القوم الظالمين } ، وقال سبحانه :{ ويضل الله الظالمين } أي يضلهم عن جواب الملكين في القبر وذلك لأنهم ظالمون ، ولم يهد الكافرين لأنهم كافرون [٢] ، والكافر هو الذي ستر الحق بعدما ظهر له ولم يعترف به ، فجزاه الله من جنس عمله ولم يهْده أي لم يوفقه للإيمان ، لأنه ظهر له نور الحق ثم أنكره فلم يؤمن ولم يعترف به أي كفر ، وهذا معنى قوله تعالى : { بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا } أي : على قلوبهم { بِكُفْرِهِمْ } أي : بسبب كفرهم ، وقوله تعالى : { بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ } أي طردهم عن رحمته بسبب كفرهم ، ومعنى قوله تعالى

{ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ }

أنه بعد الطبع والختم على قلوبهم لن يستقر الإيمان في قلوبهم .

---

[١] المسند ١٥٣٠٣ ومصنف الإمام عبد الرزاق .

[٢] والقاعدة تنص على أن مادة الاشتقاق تُؤذِن بعلة الحكم ، أي تبيّن سبب الحكم عليهم بالإضلال ، والكافر في اللغة هو الساتر للشيء ولذلك يقال عن المزارع إنه كافر لغة لأنه يستر الحبة تحت تراب الأرض قال تعالى :
{ كمثل غيث أعجب الكفار نباته } أي الزرّاع عموماً لا المشركين فقط .

جاء في الحديث عن سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :

[الطابع مُعَلَّقة بقائمة عرش الله عز وجل ، فإذا انتُهكت الحرمة وعُمل بالمعاصي ، واجتُرئ على الرب ، بعث الله الطابع فيطبع على قلبه ، فلا يعقل بعد ذلك شيئاً] [1]

أي : يطبع الله على قلب المصرّ على كفره ومعصيته .

وقد أخبر عنهم سبحانه في الآخرة لما يقفون على النار ويتمنون الرجعة إلى الدنيا ليؤمنوا ويعملوا ، قال جل وعلا : { وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بَلْ بَدَا لَهُمْ } أي ظهر لهم { مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ } أي ما كانوا يكتمونه ولا يعترفون به لمّا كانوا في الدنيا ، من قضايا الإيمان الغيبية ، ظهرت لهم عياناً في حين أنهم كانوا يعلمون صدقها وحقيّتها لما كانوا في الدنيا ولكنهم لم يعترفوا ، قال تعالى :{ وَجَحَدُوا بِهَا } والحال { وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا } أي بسبب ظلمهم وتعاليهم عن الاعتراف بالحق ، والجحود : إنكار بعد علم ومعرفة بالشيء .

وقال تعالى :{ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ } أي بسبب إعراضهم عن قبول الحق لما ظهر لهم مرات بعد مرات .

وقال تعالى :{ فَلَمَّا زَاغُوا } أي مالت قلوبهم عن تقبل الحق { أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ } فلم يوفقهم للإيمان ، كمن أغمض عينيه وقت الظهيرة والشمس طالعة برونق نورها ، وأسبل على وجهه ستاراً وجعل يقول : (الشمس غير طالعة) ، وجعل يعاند ويصر فكان جزاء عناده العمى ، قال تعالى: { وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ } أي بيّنا لهم نور الحق من ظلمة الضلال ، فما كان موقفهم ؟

قال تعالى :{ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى }أي آثروا العمى وأن يظلوا في عماهم فأبقاهم الله عمياً وزادهم عمى .

---

[1] شعب الإيمان للبيهقي والتوبة لابن أبي الدنيا

وقال تعالى مخبراً عن نوح عليه السلام في وصفه لقومه عندما يدعوهم إلى عبادة الله وتوحيده : { واستغشوا ثيابهم } أي لئلا يسمعوا ولا يروا الحق الذي دعاهم إليه نبيهم نوح عليه السلام .

وقال تعالى عن الكافرين المنافقين :{ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ } أي مرض النفاق { فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ } أي بسبب كذبهم وخيانتهم زادهم الله مرضاً ، ولهم عذاب أليم .

وقال سبحانه فيهم أيضاً مبيناً موقفهم من نزول الآيات :

{ وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ }

فالكافرون والمنافقون أغلقوا قلوبهم وتعاموا وتصاموا عن قبول الحق ، فختم الله على قلوبهم وأعمى أبصارهم وأصم آذانهم ، قال تعالى مخبراً عنهم :

{ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ }

وأما المؤمنون فهم الذين فتحوا قلوبهم فدخلها نور الإيمان واستقر بها ، وفتحوا أعينهم وآذانهم فأبصروا الحق وسمعوه فأذعنوا له ، فوفقهم الله وزادهم إيماناً قال تعالى :{ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا }

وقال تعالى : { وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا }

وهذا معنى قوله تعالى : { اهدنا الصراط المستقيم }

أي وفِّقنا لاتباعه على أكمل الوجوه ، وزدنا هدى فوق هدى حتى نرتقي في مقامات القرب منك ، لأن هدى التوفيق وزيادة الإيمان الاعتقادي العملي على مراتب ، قال تعالى :{ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا } أي جاهدوا أنفسهم من أجل التقرب منا ونيل رضانا { لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا } أي : لنبينن لهم ونوفقنَّهم لاتباع طريق ذلك

{ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ } وهم على مراتب فهناك المقربون ، والقرب على مراتب ودرجات أيضاً ، وهناك الأبرار أصحاب اليمين وهم على مراتب أيضاً وهكذا ، و كلّ يسأل التوفيق والزيادة ، وكل منهم يقول دائماً : (اهدنا اهدنا) ، وهو سبحانه يهدي كل مؤمن على حسب قابليته واستعداده ، أي يوفقه ويزيده إيماناً وعملاً وإحساناً ، وهذا قوله تعالى في الحديث القدسي :

[يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم ، يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم ، يا عبادي كلكم عار إلا من كَسَوته فاسْتَكْسُوني أَكْسُكُم ، يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفروني أغفر لكم] [١]

والخطاب في الحديث بقوله تعالى : [يا عبادي] يشمل كل العباد مؤمنهم وكافرهم برهم وفاجرهم لأن سياق الحديث :

[يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنّكم قاموا في صعيد واحد]

فالكافر لم يخرج عن دائرة عبديته لله تعالى ، سواء اعترف أم لم يعترف ، ولكنه لم يعترف أو أشرك مع الله تعالى غيره ، أما المؤمن فاعترف وآمن بالله ووحدانيته ، وأنه عبد لله وحده فجعل يعبد الله كما أمر جل وعلا .

وقد بين سبحانه لعباده كلهم أنهم مفتقرون إليه تعالى في جلائل الأمور ودقائقها على حد سواء ، فلو لم ييسر لهم أسباب الطعام والكساء لما كان لهم أن يحصلوا على ذلك من تلقاء أنفسهم ، فعليهم أن يسألوا الله حاجاتهم ولا يدّخروا الدعاء لعظائم الأمور .
كما في الأثر أنَّ موسى عليه السلام قال :
يا ربِّ إنَّه لتَعْرِضُ لي الحاجةُ من الدنيا ، فأستحيي أنْ أسألك ،
قال : [سَلْني حتى ملح عجينك وعلف حمارك] [٢]
فلو لم ييسرها الله لم تتيسر .

---

[١] طرف حديث في صحيح مسلم كتاب البر والصلة والآداب
[٢] انظر جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي

وقوله سبحانه في الحديث القدسي :

[كلكم ضال .... كلكم جائع ..... كلكم عارٍ]

أي من ذاته ، ولا قدرة له من نفسه أن يطعم نفسه أو يكسوها أو يهدي نفسه هداية توفيق ومعونة ، إلا إذا شاء الله له ذلك فعليه أن يسأل الله بصدق فإن الله يجيبه .

واعلم أن الضلال يقابله الهدى ، والعكس صحيح ، فالكافر ضال عن أصل الإيمان ، وهو المراد بقوله تعالى :

{ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ }

فإذا آمن فقد أخذ بمقتضى هدي الله له فيقال عنه : إنه اهتدى للإيمان .

وقوله تعالى في الحديث القدسي :

[كلكم ضال إلا من هديتُه] أي : وفقتُه وأعنته على الإيمان

[فاستهدوني أهدِكم] أي سَلوني التوفيق والمعونة للإيمان والعمل أهْدِكم ، فلو أن الكافر سأل الله بصدق أن يوفقه للإيمان ويشرح صدره لذلك ، لهداه الله وأجابه .

قال الإمام المناوي في فيض القدير :

قوله تعالى في الحديث القدسي :
[يا عبادي] كرّر النداء تنبيهاً على فخامة الأمور ، ونسبة الضلال إلى الكل بحسب مراتبهم
[كلكم ضال] أي غافل عن الشرائع قبل إرسال الرسل ، قال تعالى :
{ ووجدك ضالاً فهدى}
وقال سبحانه : { ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان }
أو ضال عن الحق لو تُرك وما يدعو له الطبع من الراحة وإعمال النظر المؤدي إلى المعرفة وامتثال الأمر وتجنب النهي

[إلا من هديته] وفّقته للإيمان أو للخروج عن مقتضى طبعه ، ولا يناقضه خبر : [كل مولود يولد على الفطرة] لأن ذلك ضلال طارىء على الفطرة الأولى

[فاستهدوني] سلوني الهداية بمعنى الدلالة على طريق الخير والإيصال إليها

[أهْدِكم] أنصب لكم أدلة واضحة على ذلك ، أو أوصل من شئت إيصاله في سابق علمي الأزلي ، قال سبحانه : (من يهد الله فهو المهتدي) ، وحكمة الطلب : إظهار الافتقار والإذعان ، والاعتراف بمقام الربوبية ورتبة العبودية.

قال الراغب : الضلال : العدول عن الطريق المستقيم ، ويضادّه الهداية ، ويقال : الضلال : لكل عدول عن المنهج عمداً أو سهواً قليلاً أو كثيراً ، فإن الطريق المستقيم الذي هو المرتقى صعب جداً ، ونحن وإن كنا مصيبين من وجه لكنا ضالون من وجوه كثيرة ، فإن الاستقامة والصواب يجري مجرى المقرطس من المرمى وما عداه من الجوانب كلها ضلال ، وإليه أشار المصطفى صلى الله عليه وسلم بقوله : [استقيموا ولن تحصوا] فإذا كان كذلك صح أن يستعمل لفظ الضلال فيمن يكون له حظ ما ، ولذلك نسب الضلال إلى الأنبياء وإلى الكفار وإن كان بين الضالين بون بعيد.

قال سبحانه في حق المصطفى صلى الله عليه وسلم :

{ ووجدك ضالاً فهدى} أي غير مهتد لما سبق لك من النبوة ، وقال موسى عليه السلام : {وأنا من الضالين} تنبيهاً على أن ذلك منه سهو . اهـ [١]

ومن جهة أخرى فإن كل مؤمن ضال عن المقام الإيماني الذي لم يتحقق به بعد ، فلو أنه سأل الله أن يوفقه له لَوَفّقه وأعانه ، فليصْدق بدعائه الله تعالى بقوله { اهدنا الصراط المستقيم } ، ومهما هداه الله إلى المقامات العالية فهناك مقامات أعلى وأعلى لا يمكن له إحصاؤها ، لقوله صلى الله عليه وسلم : [استقيموا ولن تحصوا] [٢] أي لن تحصوا مراتب الاستقامة ، لأن الترقي في مراتب الكمال الإيماني لا حد له فيستقصى .

وكم من آية في كتاب الله يصدّرها سبحانه بقوله : { يا أيها الذين آمنوا } ويأتي التذييل بقوله تعالى { لعلكم تهتدون }

---

[١] ٦٢٦/٤

[٢] طرف حديث في المسند ٢١٣٤٤ وسنن ابن ماجه كتاب الطهارة وسننها وسنن الدارمي كتاب الطهارة

فهم على الهدي الإيماني ولكنهم ضالون عن أمور وعبر ومواعظ وقصص وأحكام سيهديهم الله إليها ، ولا يعتبر ذلك ذماً وقدحاً في حقهم ، فقد قال تعالى بعد أن هدى المؤمنين إلى بعض مناسك الحج قال سبحانه :
{ واذكروه كما هداكم } أي بيَّن لكم

{ وإن كنتم من قبله لمن الضالين } أي وإن كنتم - من قبل بيان الله لكم مناسك الحج - كنتم من الضالين عنها أي غير العالمين بها فصرتم بعدها مهتدين إليها عالمين بها .

وقال تعالى :

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ * وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ * وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ }

أي تعملون بهدي الله لكم وبيانه لكم .

وإليك ما يوضح ذلك :

لو أن إنساناً بدأ يتعلم مناهج مرحلة إبتدائية أولى ، حتى إذا أتمّها فيقال : إنه صار على هدي بها ، وهو بوجه من الوجوه ضال عن المرحلة التي هي فوقها كالمرحلة الإعدادية الدراسية مثلاً ، حتى إذا دخل فيها وأتم دراستها والعلم بها فيقال : إنه على هدي بها - أي علم ومعرفة بها - ويرى نفسه أنه ضال بوجه آخر عن التي فوقها من حيث المستوى العلمي ، كما يرى نفسه أنه كان مذنباً لما كان في المرحلة الأولى وانتقل إلى التي فوقها ، وهكذا كلما ارتقى في المراحل العلمية ، وينطبق هذا أيضاً على المجالات الشرعية العملية والقولية ، فكلما زاد فيه عمله وصلاحه وإخلاصه وطيب قوله وحسن خلقه وسمو أدبه كلما ارتقى في مراتب الهدى ،

ورأى نفسه أنه كان على ضلال أو ذنب لما كان في المراحل والمجالات التي دونها ، وهذا أمر نسبي اعتباري يختلف من إنسان لآخر .

وهذا من قبيل :

(حسنات الأبرار سيئات المقربين ، ومباحات العوام سيئات الأبرار) [1]

وأما في لغة العرب فيقال : (ضل) إذا غاب أو ضاع أو تاه ، ومنه قوله تعالى مخبراًعن الكافرين المنكرين للحشر والنشر في الآخرة :
{ وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ }أي إذا غبنا في الأرض وتفرقت أجزاؤنا فيها هل سيخلقنا الله مرة أخرى من جديد ؟

وقال تعالى :{ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ } أي غاب عنكم وضاع عن أفكاركم الشركاء الذين كنتم تدّعون أنهم آلهة مع الله ، وجعلتم تدعونه وحده جل وعلا ، ولمَ فعلوا ذلك ؟

---

[1] هذا القول: (حسنات الأبرار سيئات المقربين) رَفَعَه إلى النبي صلى الله عليه وسلم الشيخ ضياء الدين بن مصطفى بن عبد الرحمن الكمشخانوي الحنفي النقشبندي الخالدي المتوفى سنة ١٣١١ هـ ، رفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم في كتابه : (جامع الأصول في الأولياء) ص ٢١٦، ورفعه أيضاً الشيخ شمس الدين محمد بن أبي بكر الرازي الحنفي في كتاب (حدائق الحقائق) ص ١٧، و ممن عدّه حديثاً، الشيخ أبو الفضل محمد بن محمد الشافعي فإنه قال في كتابه (الظل المورود) : فقد روي أنه صلى الله عليه وسلم قال: .... فذكرَه ، وعزاه العجلوني في كشف الخفا وابن عساكر في تاريخه إلى أبي سعيد الخراز - وهو شيخ الصوفية ، القدوة أبو سعيد ، أحمد بن عيسى البغدادي الخراز المتوفى سنة ٢٧٧ هـ رضي الله عنه -، وعزاه الزركشي في لقطته - واسم الكتاب : (لقطة العجلان وبلة الظمآن) أّلّفه الشيخ الإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي الشافعي رحمه الله المتوفى سنة ٧٩٤ هـ ، ويشتمل الكتاب على البحث في أصول الفقه و المنطق و الفلسفة و التوحيد - عزاه الزركشي في لقطته للجنيد ، وعزاه القرطبي في تفسيره للإمام الجنيد أيضاً وقال الإمام الغزالي في الاحياء: قال القائل الصادق: حسنات الأبرار سيئات المقربين قلت : وقد أضحى هذا الحديث الشريف قاعدة مقررة مشهورة بين جميع طبقات العلماء والعرفاء سلفاً وخلفاً كما صرح بذلك سيدنا الشيخ الإمام رضي الله عنه في كتابه الإيمان بعوالم الآخرة في بحث الشفاعة ص ٢٣٤ . اهـ .

لأنهم يعلمون حقاً أنه (لا إله إلا الله) ، ولكنهم لا يعترفون ولا يقرّون ، والإيمان ليس هو مجرد معرفة بل هو تصديق وإذعان .

قال تعالى : { ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا } أي غابوا عنا ولم نعد نرى لهم ضراً أو نفعاً ، ثم لم يسعهم إلا أن ينكروا ويكذبوا فقالوا { بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُو مِنْ قَبْلُ شَيْئًا }

وقال تعالى : { ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ * إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ } لأنهم ليسوا آلهة ولا يقدرون على شيء .

وأما الهدى والرشاد في إطلاقات النصوص الشرعية فالهدى يكون في العلم والاعتقاد ، والرشاد في القول والعمل ، وإذا اجتمعا لفظاً تفرقا معنى إلى حد ما ، وإذا تفرقا لفظاً اجتمعا معنى ، قال تعالى في أول سورة البقرة : { الم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ }

بعد أن ذكر إيمانهم الاعتقادي وأعمالهم الجارحية .

وقال صلى الله عليه وسلم في الحديث :

[من يطع الله ورسوله فقد رشد]

أي واهتدى أيضاً علماً وإيماناً وعملاً

[ومن يعصهما فقد غوى] [1] أي علماً وعملاً .

وقال سبحانه في سيدنا إبراهيم عليه السلام :

{ ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل }

أي من قبل أن ننبّئه ونرسله جعلناه على هدى ورشاد .

---

[1] طرف حديث في سنن أبي داود كتاب الصلاة عن ابن مسعود رضي الله عنه

وقال سبحانه مخبراً عن إبراهيم عليه السلام :

{ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ } وهذا هو الهدي الخاص بالأنبياء والرسل ، قال سبحانه { وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ * وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ *وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ *وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ } أي الهدي الخاص بأن هدى الذين ذكرهم فجعلهم أنبياء ورسلاً عليهم الصلاة والسلام .

وقال تعالى :{ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا } أي إلى النبوة والرسالة { وَاجْتَبَيْنَا } .

وقال سبحانه في سيدنا آدم عليه السلام بعد أن نبّأه وأرسله :

{ ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى }

وقد يطلق الضلال أحياناً ويراد منه : الهيام ، وهو رتبة من مراتب الحب ، بحيث يهيم المحب في محبة المحبوب إلى درجة الانشغال به عن غيره ، وكأنه ضل غيره أو نسيه ، وهذا هو مراد إخوة يوسف في وصفهم أباهم يعقوب عليه السلام كما أخبر سبحانه { إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ } أي جماعة { إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ }أي لفي هيام واضح في حب يوسف وأخيه وكأنه ليس له غيرهما ، ـ وكان هذا الحب من سيدنا يعقوب عليه السلام لِما يعلمه مما سيناله سيدنا يوسف عليه السلام من الامتحانات ثم نيل الرسالة والمرتب العالية ـ ، ونحن أبناؤه عَشَرة ، وليس مرادهم الضلال الشرعي أبداً لأنهم مؤمنون به نبياً ، ولو كان هذا مرادهم لكفروا .

ولذلك في آخر السورة لما أخبرهم يعقوب عليه السلام أنه يجد ريح يوسف قالوا كما أخبر سبحانه {تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ } أي في هيامك القديم بيوسف وأخيه ، وقد مضت مدة طويلة على فقدانك له ثم فقدانك لأخيه ولكن شدة محبتك لهما لم تتغير وهي كما كانت قديماً لمّا كانا بيننا .

وإلى هذا المعنى ذهب بعض المفسرين في تفسير قوله تعالى في بيان فضله على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم { ووجدك ضالاً فهدى } أي وجدك هائماً في محبة الله تعالى وعبادته ، فهداك إليه هدياً خاصاً بالنبوة والرسالة والقرب الخاص اللائق بك صلى الله عليه وسلم ، خاصة أنه جاء في الحديث أنه صلى الله عليه وسلم كان يهجر قومه وشركهم وضلالهم ويتحنث [1] ويتعبد في غار حراء الليالي ذوات العدد ويخلو بربه متوجهاً إليه جل وعلا .

[1] انظر صحيح البخاري كتاب تفسير القرآن وصحيح مسلم كتاب الإيمان
ويقال : (حنث) إذا وقع في الحنث وهو الإثم ، وإذا دخلت على الفعل التاء سلبت معناه إلى ضده ، فيقال : (تحنث) أي تباعد عن الحنث ، أي هجر شرك قومه وجعل يعبد ربه .
ومن ذلك ما ورد في الحديث الذي رواه الإمام البخاري في صحيحه عن سيدنا معاذ بن جبل رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله صدقاً من قلبه إلا حرّمه الله على النار ، فقال : يا رسول الله أفلا أخبر به الناس فيستبشروا ؟ قال : إذاً يتكلوا ، وأخبر بها معاذ عند موته تأثّماً) أي تباعداً عن الإثم والذنب ، وهو إثم كتمان ما سمعه من سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحاديث ، وتحقيقاً لقوله صلى الله عليه وسلم : [بلغوا عني ولو آية] (كما في صحيح البخاري وغيره)
وقال صاحب الديباج على مسلم :
قال أهل اللغة : (تأثّم الرجل) إذا فعل فعلاً ليخرج به من الاثم ، وتحرّج : أزال عنه الحرج ، وتحنّث : أزال عنه الحنث ، ومعنى (تأثّم معاذ) أنه كان يحفظ علماً يخاف فواته وذهابه بموته ، فخشي أن يكون ممن كتم علماً فيكون آثماً ، فاحتاط وأخبر بهذه السنة مخافة من الإثم ، وعلم أن النبي صلى الله عليه وسلم لم ينهه عن الاخبار بها نهي تحريم ، أو أنه إنما نهاه عن الاذاعة والتبشير العام خوفاً من أن يسمع ذلك مَن لا خبرة له ولا علم فيغتر ويتكل ، بدليل أنه أمر أبا هريرة بالتبشير في الحديث السابق فيكون ذلك مخصوصاً بمن أمن عليه الاغترار والاتكال من أهل المعرفة ، فسلك معاذ هذا المسلك فأخبر به مِن الخاصة مَن رآه أهلاً . اهـ ٤٨/١

وهناك قول أن المراد بالضلال في الآية هو الضلال اللغوي وهو التيه ،

وذلك كما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما من أنه صلى الله عليه وسلم لما كان صغيراً عند جده عبد المطلب ، ضل في شعاب مكة ، فرآه أبو جهل منصرفاً من أغنامه ، فردّه إلى جده عبد المطلب ، وهو متعلق بأستار الكعبة يتضرع إلى الله تعالى أن يردّ إليه محمداً صلى الله عليه وسلم [1] .

ولا يناقض هذا القول سياق الآيات فهي تذكر نعمة الله وفضله على رسوله صلى الله عليه وسلم منذ الصغر .

وقد ضل من قال : إن المراد من قوله تعالى :{ ووجدك ضالاً } أي حائراً في دينك لا تعلم الحق فتتبعه ، حتى هداك الله إلى الإسلام .

فاعلم أنه صلى الله عليه وسلم معصوم بعصمة الله تعالى منذ صغره عن الخطأ والخطيئة ، قال تعالى :{ ما ضل صاحبكم وما غوى } أي بل هو على الهدى والرشاد ، على الهدى في علمه واعتقاده ، وعلى الرشاد في أقواله وأفعاله ، حتى اشتهر في قومه بـ (الصادق الأمين)
صلى الله عليه وسلم .

فليس المراد قطعاً ولا بوجه من الوجوه ليس المراد من الضلال في الآية الضلال الشرعي ، وذلك ثابت بنص القرآن .

وهو قوله تعالى : { مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى }

وكما تعهّد سبحانه الأنبياء والرسل قبله بالهدي والرشاد قبل بعثتهم ، تعهّده صلى الله عليه وسلم أيضاً على وجه يليق بنبوته الجامعة ورسالته العامة الخاتمة ، قال سبحانه في إبراهيم عليه السلام { وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ } أي من قبل أن نبعثه ونرسله ، وقال سبحانه في موسى عليه السلام :{ وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي }وقال في يحيى عليه السلام {وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا } وقال في يوسف عليه السلام { وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا }

ومنه قولهم : (هجد) إذا نام ، أما (تهجد) بجيم مشددة أي تباعد عن النوم إذا قام الليل للصلاة ونحوها ، قال تعالى : { ومن الليل فتهجد به نافلة لك } .

[1] رواه البيهقي وابن عساكر وابن إسحاق كما في شرح الزرقاني وغيره

وقال في سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم { مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى } وجيء بكلمة { صاحبكم } ليثبت أنه صلى الله عليه وسلم باعتراف قومه وإقرارهم وشهادتهم لم يعثروا له على هفوة أو صبوة عن الحق ، كيف وقد نشأ بينهم وهم يعرفونه حق المعرفة ؟ !

ولو كان كلام الله تعالى في قوله { مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى } يخالف الواقع الذي كان عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم قبل بعثته - ولم يقع ذلك وحاشاه صلى الله عليه وسلم من ذلك - لاحتجّ المنكرون والمشركون ولقالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : (أنت فعلت كذا وكذا وفعلت كذا وكذا) ، في حين لم يصدر منهم ذلك ، بل اعترفوا وأقرّوا بصدق الرسول وأمانته ورفعة قدره ومنزلته السامية صلى الله عليه وسلم .

قال القاضي عياض في الشفا والبيهقي في دلائل النبوة :

قال النضر بن الحارث لقريش: قد كان محمد فيكم غلاماً حدثاً – أي : في مقتبل العمر - ، أرضاكم فيكم وأصدقكم حديثاً وأعظمكم أمانة ، حتى إذا رأيتم في صدغيه الشيب ، وجاءكم بما جاءكم به قلتم : (ساحر) ، لا والله ما هو بساحر .

وقال السدي : التقى الأخنس بن شريق [١]أبا جهل بن هشام فقال الأخنس لأبي جهل : يا أبا الحكم أخبرني عن محمد أصادق هو أم كاذب ؟ فإنه ليس هنا أحد يسمع كلامك غيري ، فقال أبو جهل : والله إن محمداً لصادق ، وما كذب محمد قط ، ولكن إذا ذهب بنو قُصيّ باللواء والسقاية والحجابة والندوة والنبوة فماذا يكون لسائر قريش؟

فأنزل الله هذه الآية [٢] - أي قوله تعالى : { قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ } - .

[١] قال في شرح المواهب : وقد أسلم بعد ذلك . اهـ ١٧١/٦

[٢] انظره في تفسير الخازن والطبري والبغوي للآية الكريمة
وانظره في شرح المواهب ٦/ ١٧١

ومما يجب على العالم عمله ليفهم معاني كلام الله تعالى أن يرد الآيات إلى بعضها وأن لا يتعجل في فهم كلمة قد يكون المراد منها غير المعنى الظاهر

فانظر مثلاً في قصة سيدنا موسى عليه السلام مع فرعون ، إذ إنه لما دخل المدينة على حين غفلة من أهلها بحيث لم يشعر به أحد ، واستغاثه الذي هو من شيعته على الذي هو من عدوه ، فوكزه موسى فقضى عليه ، - وكلّ ذلك كان قبل أن ينبئه الله تعالى ويرسله - ثم فرّ إلى مدين خوفاً من فرعون وقومه ، ثم لما أراد الرجوع إلى مصر بعد سنوات وهو في الطريق قرب الطور - وهي سلسلة جبال - رأى ناراً من بعيد وكان معه أهله فقال لهم كما أخبر سبحانه عنه :

{ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ } أي : تدفعون ألم البرد عنكم ، فلما توجه إلى النار ناداه الحق جل وعلا ونبّأه وأمره أن يتوجه إلى فرعون وقومه ، ويناظرهم في قضية توحيد الله تعالى ، ويقيم عليهم الحجة والبرهان على قضايا الإيمان ، فهنا كان التكليم الأول من الله تعالى لموسى حين نبأه وأرسله .

ولما ذهب موسى عليه السلام إلى فرعون وقومه ليدعوهم إلى الله تعالى - حيث كان له مع فرعون مجالس عديدة - وفي كل مرة يناظره ويأتيه بما يلقنه الله تعالى من حجج وبراهين على وحدانيته جل وعلا ، فمنها ما ذكره سبحانه في سورة الشعراء - وهي الآيات المؤيدة لما سندلّل عليه - قال تعالى :{ وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ * وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ * وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ * قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ * فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ * قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا }

أي : لمّا أخذنا التابوت ـ الصندوق ـ الذي كنت فيه حديث ولادة ، وقمنا بالعناية بك وتربية جسمك إلى أن رجعناك إلى أمك لترضعك ونحن لا نشعر بذلك

{ وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ } حتى بلغت أشدّك {وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ } أي لما قتلت الشخص الذي من بني قومي { وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ } أي الكافرين بفرعون ودعواه الربوبية .

واعلم أن موسى عليه السلام لم يكن ينوي أو يقصد قتل القبطي ، وإنما أراد إبعاده عن الذي هو من قومه فدفعه عنه فمات

{قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا } أي لما قتلت القبطي على زعمك { وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ } أي وكنت وقتئذ من الضالين فما معنى { وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ } ؟

لقد كشفت معناها الآية بعدها {فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ } أي توجهت إلى مدين {فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا } أي عملاً صائباً وقولاً سديداً { وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ } أي جعلني نبياً رسولاً لما كنت في طريق رجوعي من مدين إلى مصر .

إذاً المراد من قوله { وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ } أي كنت غير نبي ولا رسول حتى منّ الله علي ووهب لي النبوة والرسالة وأرسلني إليكم وإلى بني إسرائيل ..

ومن هذه الآية تفهم المراد من قوله تعالى { ووجدك ضالاً } أي غير نبي ولا رسول { فهدى } أي هداك إليه هدياً خاصاً بأن أوحى إليك ونبأك وأرسلك وأعطاك ، وتفضل عليك بالمقامات العالية الخاصة بك .
قال تعالى :{ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ } أي من العلوم النافعة حيث كنت ضالاً عنها بوجه من الوجوه { وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا } .

تجلى ذلك فيما أعطاك سبحانه وسيعطيك حيث تقدّم في الآية { ولسوف يعطيك ربك فترضى } فأعطاه تبارك وتعالى أولاً النبوة والرسالة الجامعة الخاتمة ، وأعطاه الفضيلة على كل نبي ورسول قبله ، وأعطاه السيادة على ولد آدم كلهم ، وأعطاه أنه إمام النبيين وخطيبهم وصاحب شفاعتهم صلى الله عليه وسلم ، وأعطاه الشفاعة العظمى ، وأعطاه الأوّليات في كل خير فهو صلى الله عليه وسلم أول من تَنْشَقُّ عنه الأرض [1] وأول من يُحشر كاسياً [2] وأول من يجوز بأمته على الصراط [1] وأول من يُحرِّك حلق الجنة [2] ، وهكذا أعطاه وأنعم عليه وقال له سبحانه :

---

[1] انظر صحيح البخاري كتاب الخصومات

[2] قال سيدنا الشيخ في كتابه الإيمان بعوالم الآخرة ومواقفها :

قال العلماء : وإنما كان الخليل أول من يُكسى يوم القيامة لأنه أول من كَسَا الفقراء وأول من عري في ذات الله تعالى حين ألقي في النار ، لا لأنه أفضل من سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، بل الحق أن سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم يُحشر كاسياً فهو صلى الله عليه وسلم يخرج من قبره الشريف بثيابه التي دفن فيها صلى الله عليه وسلم فتكون أولية الخليل في الكسوة بالنسبة للخلائق لا بالنسبة له صلى الله عليه وسلم

ويشهد لذلك أنه صلى الله عليه وسلم قد أكرمه الله تعالى وحفظه من أن يجرّد من ثيابه حتى إنه لما قام الصحابة رضي الله عنهم لغسله بعد وفاته صلى الله عليه وسلم رأوا أن يغسلوه وعليه ثيابه وذلك تكرمة وحرمة له صلى الله عليه وسلم .

كما جاء في سنن أبي داود ومسند أحمد ومستدرك الحاكم بأسانيد صحيحة عن عباد بن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهم قال : سمعت السيدة عائشة رضي الله عنها تقول : (لما أرادوا غسل رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا : أنجرّد رسول الله صلى الله عليه وسلم من ثيابه كما نجرّد موتانا أم نغسله وعليه ثيابه ؟ فلما اختلفوا ألقى الله تبارك وتعالى عليهم النوم حتى إنه ما منهم رجل إلا وذقنه في صدره ثم كلّمهم مكلّم من ناحية البيت - لا يدرون من هو - : اغسلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بثيابه ، فقاموا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فغسلوه وعليه ثيابه ، يصبون الماء فوق القميص ويدلكونه بالقميص دون أيديهم) - أي ثم جيء بثلاثة أثواب بيض كما في حديث مسلم عن السيدة عائشة رضي الله عنها :
(أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كفن في ثلاثة أثواب بيض)

كما أن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم هو أول من يُكسى من حلل الجنة

{ وأما بنعمة ربك } أي عليك { فحدّث }
أي أعلِمْ وأخبر الناس بنعم الله عليك ، وقد أخبر صلى الله عليه وسلم بذلك في كثير من أحاديثه على وجه التحدث بنعمة الله تعالى ، ومن جملة ما أعطاه سبحانه ما جاء في الحديث عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
[أُعطيت خمساً لم يُعْطَهن أحد من الأنبياء قبلي :
نُصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجُعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً وأيّما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصلّ ، وأُحِلَّتْ لي الغنائم ، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس كافة ، وأعطيت الشفاعة) [٣]
واعلم أن في الآيات في سورة الضحى لفّاً و نشراً غير مرتب [٤]

فقد روى الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال [أنا أول من تنشق عنه الأرض فأُكسى حلة من حلل الجنة ثم أقوم عن يمين العرش ، ليس أحد من الخلائق يقوم ذلك المقام غيري] صلى الله عليه وآله وسلم .
اهـ بحروفه

[١] انظر صحيح البخاري كتاب الأذان وفيه :
فيُضرب الصراط بين ظهراني جهنم فأكون أول من يجوز من الرسل بأمته
[٢] انظر سنن الترمذي كتاب المناقب وفيها : وأنا أول من يحرك حلق الجنة
[٣] صحيح البخاري كتاب الصلاة وصحيح مسلم كتاب المساجد ومواضع الصلاة وسنن الدارمي كتاب الصلاة
[٤] اللف والنشر يرجعان إلى علم البلاغة في لغة العرب
قال الإمام السيوطي في الإتقان في علوم القرآن :

اللف والنشر: هو أن يذكر شيئان أو أشياء، إما تفصيلاً بالنص على كل واحد، أو إجمالاً بأن يؤتى بلفظ يشتمل على متعدد ثم يذكر أشياء على عدد ذلك، كل واحد يرجع إلى واحد من المتقدم، ويفوض إلى عقل السامع رد كل واحد إلى ما يليق به، فالإجمالي كقوله تعالى { وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى } أي وقالت اليهود : لن يدخل الجنة إلا اليهود ، وقالت النصارى : لن يدخل الجنة إلا النصارى، وإنما سوغ الإجمال في اللف ثبوت العناد بين اليهود والنصارى، فلا يمكن أن يقول أحد الفريقين بدخول الفريق الآخر الجنة، فوثق بالعقل في أنه يرد كل قول إلى فريقه لأمن اللبس، وقائل ذلك يهود المدينة ونصارى نجران.
قلت: وقد يكون الإجمال في النشر لا في اللف بأن يؤتى بمتعدد ثم بلفظ يشتمل على متعدد يصلح لهما نحو : { حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر } على قول أبي عبيدة أن الخيط الأسود أريد به الفجر الكاذب لا الليل .

فقوله تعالى { ألم يجدك يتيماً فآوى } يقابله { فأما اليتيم فلا تقهر }
وقوله تعالى :{ ووجدك عائلاً فأغنى } يقابله { وأما السائل فلا تنهر }
وأما الآية الوسطى بينهما { ووجدك ضالاً فهدى } فيقابلها آخر آية في سورة الضحى وهي { وأما بنعمة ربك فحدث }
وقد حدّث صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم بذلك كما تقدم .
وأعظم نعم الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم هي نعمة النبوة والرسالة الجامعة العامة ، قال تعالى :{ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ } أي ما أنت بنعمة الله عليك بالنبوة والرسالة وأن تفضّل عليك وأعطاك المقامات والعلوم ، ما أنت بذلك كله بمجنون كما زعمه المنكرون ، بل لك أرجحية العقل على كل عقل ، ولك كمال الفكر والنظر [1]
ومما يقرب إليك فهم المراد من قوله تعالى { ووجدك ضالاً فهدى } - المتقدمِ بيانه - قولُه تعالى { وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا } أي الوحي القرآني والنبوي { ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان } أي من قبل أن ننزّل القرآن وما فيه من قصص وإخبارات غيبية وأحكام شرعية و... ما كنت تدري ذلك حتى أدريناك وأوحينا إليك وعلّمناك تفاصيل الإيمان العملي وقضاياه العملية الجارحية ، لأن الإيمان يطلق أحياناً ويراد منه الإيمان العملي كما قال تعالى :{ وما كان الله ليضيع إيمانكم } أي صلاتكم ونزلت الآية في الصحابة الذين ماتوا قبل أن تحوّل القبلة إلى الكعبة المشرفة .
وليس المراد من (الإيمان) في قوله تعالى :
{ ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان }

والتفصيلي قسمان:
أحدهما أن يكون على ترتيب اللف كقوله تعالى { جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله } فالسكون راجع إلى الليل والابتغاء راجع إلى النهار.
وقوله تعالى { ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً } فالملوم راجع إلى البخل ، ومحسوراً راجع إلى الإسراف، لأن معناه : منقطعاً لا شيء عندك.
اهـ ١ / ٣٣٨

[1] ولقد ذكر سبحانه بأن هبة النبوة والرسالة لمن خصّ من عباده هي نعمة خاصة فقال في سيدنا عيسى عليه السلام { إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ } أي : بالنبوة والرسالة وقال في الأنبياء عليهم السلام { أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ } .. الآية

ليس المراد الإيمان العلمي التصديقي الاعتقادي ، فإنه صلى الله عليه وآله وسلم نشأ على التوحيد والفطرة السليمة ، وكان يتعبد الله على ملة إبراهيم عليه السلام [1] - أي على دينه الذي شرعه الله له حتى أنزل الله عليه القرآن وجاء بالشريعة الجامعة .

قوله تعالى : { وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري } أي من قبل أن نوحي إليك { ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه } أي القرآن بما تضمّنه من قضايا إيمانية اعتقادية وعملية وقولية وإحسانية { نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا } أي هداية توفيق للإيمان وإعانة عليه { وَإِنَّكَ لَتَهْدِي } أي هداية دلالة وبيان { إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } وهو صراط الشريعة المحمدية صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم { صِرَاطِ اللَّهِ } وهو الصراط الموصل إلى رضا الله جل وعلا { الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ} الآية .

وفي الحديث قال صلى الله عليه وسلم :

[إن الله خلق خلقه في ظلمة] أي ظلمة النفس والهوى والدنيا والوساوس [فألقى عليهم من نوره] أي وذلك بواسطة إرسال الرسل وإنزال الكتب عليهم ودعوتهم إلى الله تعالى .

[فمن أصابه من ذلك النور اهتدى] أي من تعرّض للنور بأن استجاب لدعوة الرسل استنار قلبه واهتدى إلى الله وعبَده ، وهذا معنى قوله تعالى : { أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ } الآية

[ومن أخطأه ضل] [2] أي بأن أعرض عن دعوة الرسل فأظلم قلبه وازداد ضلالاً ..

وقال سبحانه : { قُلْ } أي قل يا رسول الله للمنكرين رسالتك { لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ } أي القرآن { وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ } أي ما كان لكم دراية به لو لم ينزله الله علي ويأمرني أن أبيّن لكم ما أمرني به { فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ } أي من قبل أن ينزله الله علي ويبعثني إليكم { أَفَلَا تَعْقِلُونَ } أي فانظروا وتفكروا أنه مكثت فيكم أربعين سنة لم أقرأ عليكم منه آية واحدة ، ثم على تمام الأربعين تلوت عليكم هذا القرآن ، فلو كان من عندي فلِمَ لمْ أتْله عليكم من قبل ؟ !!

---

[1] قال البغوي عند تفسيره لقول الله تعالى { وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا } قال :
وكان النبي صلى الله عليه وسلم يعبد الله قبل الوحي على دين إبراهيم عليه السلام

[2] سنن الترمذي كتاب الإيمان وصحيح ابن حبان كتاب التاريخ والمسند ٦٣٥٦

وإن كانت أساطير الأولين تُملى علي فلِمَ لم تُملَ علي من قبل ذلك ؟ !
ثم أنتم تعلمون أني لم أقرأ ولم أكتب ، فمن أين لي هذا القرآن المعجز ؟ !
حقاً إنه كلام الله أوحاه إلي .
قال تعالى : { وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ } أي من قبل نزول القرآن عليك { مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ }
ولكنك لم تكن تقرأ ولم تكتب فلِمَ ارتابوا في أنه من عند الله ؟!
إنه ظلم وجحود .
قال تعالى : { فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ }
ويجدر بنا في هذا السياق أن نذكر قوله تعالى في بيان فضله وإكرامه لرسوله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم وأنه هو الذي تولى تعليمه جل وعلا:
{ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا } أي بوحينا { إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ } وما تضمّنه من قصص عن الأمم السابقة ، ومواقفهم من رسل الله إليهم ، وبما اشتملت عليه من الإخبارات الغيبية والأحكام الشرعية والمواعظ والتذكير .
{ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ } أي من قبل أن نوحيه إليك { لَمِنَ الْغَافِلِينَ } أي من غير العالمين بما قصصناه ونقصه عليك ، فهو سبحانه الذي يوحي إليه ويعلّمه ، كما قال تعالى في آية أخرى : { تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا } وهذه الآية تكشف المراد من قوله تعالى { وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ } ولم يقل سبحانه : تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك كنت تجهلها ، بل قال جل وعلا :
{ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا } أي كنت أمياً لم تقرأ ولم تكتب ، فمن أين لك أن تعلم لولا أنا أوحينا إليك وعلّمناك ؟
فالغفلة هنا صفة مدح في حقه صلى الله عليه وآله وسلم ، ويقال : مِن فضل الله عليه أنه صلى الله عليه وسلم كان أمّياً ، فأوحى الله إليه وعلّمه حتى صار أعلم خلق الله تعالى وأتقى خلق الله تعالى على الإطلاق .
واعلم أن صفة الغفلة عن الشيء لا تأتي في سياق الذم والنقص دائماً ، وإنما قد تكون في سياق المدح ، وهذا ما يعرف من سياق الكلام ومَن وُصف بها .
والغفلة في اللغة : (السهو عن الشيء أو تركه) ، فمن انشغل بشيء سها عن غيره ، قال تعالى :
{ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا } أي في وقت غفل عنه أهلها إما بَياتاً بالنوم أو بانهماكهم بأسباب الدنيا .

وأما الغفلة الشرعية المذمومة فهي صفة الكافرين الذين تغافلوا أي تعاطوا أسباب الغفلة عن الله تعالى وآياته ، فأغفلهم الله عنه أي جعلهم غافلين عنه كما في قوله تعالى :
{ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا }
وأخبر سبحانه عن المشركين قولهم بعد موتهم :
{ يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ }
أي كنا في الدنيا في غفلة مما صرنا إليه في الآخرة وأولها عالم البرزخ ، وقال تعالى :
{ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا } أي من هذا الذي صرت إليه وجعلت تسمعه وتبصره
{ فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ } أي حاد نافذ قوي .
فكما أن هناك غفلة عن ذكر الله تعالى أو عن طاعته ، فهناك أيضاً غفلة عن معصية الله ، كمن اشتهر مثلاً بالصلاح والتقى والورع ولا يعرف ولا يسمع بأن هناك أماكن خُصصت لمعصية الله وارتكاب الفواحش ، وجاءه إنسان وقال : يا فلان رأيتك الليلة في الملهى الفلاني وأنت تشرب وتلهو وتلعب و... ، فنظر إليه العبد الصالح وكأنه لا يفهم ما يقوله هذا الرجل له لأنه في غفلة مطلقة عما نسب إليه ، بل لا يدري أصلاً أن هناك من يعصي الله في بلده في أماكن أُسست لذلك .. ، فهذه غفلة حميدة .
ومن الغفلة الحميدة قوله تعالى :{ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ } أي اللاتي أَحصنّ فروجهن فأحصنهن الله وحفظهن ، وتشمل الثيبات والأبكار { الْغَافِلَاتِ } أي عما نُسب إليهن فهذه صفة مدح بحقهن فافهم .
قال الإمام الألوسي عند تفسيره لقوله تعالى
{ الغافلات } أي عما يُرْمَين به ، بمعنى : أنه لم يخطر لهن ببال أصلاً لكونهن مطبوعات على الخير ، مخلوقات من عنصر الطهارة ، ففي هذا الوصف من الدلالة على كمال النزاهة ما ليس في المُحصَنات .
وقال الإمام المناوي في فيض القدير .
(المحصنات) - بفتح الصاد - : المحفوظات من الزنا ، وبكسرها : الحافظات فروجهن منه
(الغافلات) أي عن الفواحش وما قُذفن به ، فهو كناية عن البريئات لأن الغافل بريء عما بُهت به من الزنا .
وقال الإمام النسفي عند تفسيره لقوله تعالى { الغافلات } :
الغافلات : أي السليمات الصدور ، النقيات القلوب ، اللاتي ليس فيهن دهاء ولا مكر ، لأنهن لم يجرّبن الأمور . اهـ .

أما الكلام عن منهج الشيخ الإمام رضي الله عنه في التفسير فقد سلكتُ في بيان ذلك منهجاً علمياً عملياً تطبيقياً ، وذلك من خلال ما سمعته منه رضي الله تعالى عنه من بيان لبعض نصوص الكتاب والسنة ، وكيف يربط المفاهيم ببعضها على وجه مقبول محكم ، يؤيده بالدليل والبرهان ، وجمعت ذلك إلى بعضه ليكون بحثاً متكاملاً يبيّن منهج الشيخ الإمام رضي الله عنه العلمي والعملي في تفسير آيات الله تعالى .

وإن من يقرأ مؤلفاته رضي الله عنه - خاصة ما كان منها حول تفسير سور من القرآن الكريم - يجد ذلك مفصّلاً أي يجد بيان الآية والأحاديث المتعلقة ببيانها ، وذِكر مفاهيم العارفين والمفسرين المناسبة ، والتي توافق بيانات رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وما صحّ عن أصحابه رضي الله عنهم من نُقول حول تفسير الآية .

وليعلم المؤمن القارئ لكتب الشيخ رضي الله عنه أن مؤلفاته كلها هي في الحقيقة تفسير لآيات الله تعالى ، لكن منها التفسير الموضوعي ، ومنها التفسير النصي السردي ، جاء ذلك منه بتوفيق الله تعالى له وإلهامه له الخير .

فمن ذلك أنه سئل رضي الله عنه عن الآية :

{ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ }

هل يقف القارئ عند قوله تعالى { وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ }

أم يتابع تلاوته لقوله تعالى { وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ } ؟

فكان في جوابه بيان لمنهجه في تفسير المتشابه ومعنى التأويل لغة وشرعاً .

حيث قال رضي الله عنه :

يتوقف ذلك على حسب المعنى الذي أراده القارئ من قوله تعالى :

{ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ }

فإن أراد من التأويل : تفسير ظواهر المعاني ، فيكون الوقف عندئذ على قوله تعالى : { وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ } لأنهم - أي : الراسخون في العلم - يعلمون تفسير القرآن على مقتضى ما بلغهم من نُقول ثابتة أو بتفهيم الله تعالى لهم وقد تقدم بيانه .

وأما إذا أراد القارئ من التأويل حقيقة ما يؤول إليه الشيء أو الخبر من الآيات المتشابهات مثلاً وهي آيات الصفات والوقوف على معرفة حقيقتها أو إدراك كنه الذات العَليّة [1]

---

[1] قال في لسان العرب :
قال ابن الأثير : التأويل : هو من : آل الشيء يؤول إلى كذا أي : رجع وصار إليه ، والمراد بالتأويل : نقل ظاهر اللفظ عن وضعه الأصلي إلى ما يحتاج إلى دليل لولاه ما ترك ظاهر اللفظ ، وسئل أبو العباس أحمد بن يحيى عن التأويل فقال : التأويل والمعنى والتفسير واحد ، قال أبو منصور : يقال : أوّلت الشيء أُؤوله : إذا جمعته وأصلحته ، فكان التأويل : جمع معاني ألفاظ أشكلت بلفظ واضح لا إشكال فيه . اهـ ١١ / ٣٢
وقال ابن كثير عند تفسيره لقوله تعالى : { وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ }
من العلماء من فصّل في هذا المقام، فقال: التأويل يُطلق ويراد به في القرآن معنيان، أحدهما: التأويل بمعنى حقيقة الشيء، وما يؤول أمره إليه، ومنه قوله تعالى:
{ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا }
وقوله جل وعلا { هَلْ يَنْظُرُونَ إِلا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ }
أي : حقيقة ما أُخبروا به من أمر المعاد، فإن أريد بالتأويل هذا، فالوقف على الجلالة - أي على اسم الجلالة (الله) - ؛ لأن حقائق الأمور وكنهها لا يعلمه على الحقيقة إلا الله عز وجل، ويكون قوله: { وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ } مبتدأ و { يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ } خبره.
وأما إن أريد بالتأويل المعنى الآخر وهو : التفسير والتعبير والبيان عن الشيء ، كقوله تعالى: { نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ } أي: بتفسيره، فإن أريد به هذا المعنى، فالوقف على: { وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ } لأنهم يعلمون ويفهمون ما خوطبوا به بهذا الاعتبار، وإن

فيكون الوقف عند قوله تعالى :{ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ } لأن معرفة الصفات الإلهية على حقيقتها وإدراك كنهها وكيفيتها هو أمر لا يعلمه إلا الله تعالى وحده ، وإنما يتوجب على المؤمن أن يؤمن بما أخبره الله به من صفاته جل وعلا مع تفويض حقيقتها ومعرفة كيفيتها إليه سبحانه ، لأن من جعل يبحث عن حقيقتها لابد له من التشبيه ، وهو سبحانه يقول في الآيات المحكمات :

{ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ }

فقد جيء بأداتي تشبيه - وهما : الكاف ومثل - تأكيداً للنفي ، وكأنه قيل : ليس مِثْلُه جل وعلا شيء ، ليس مثله شيء .

ويقول جل وعلا :{ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ } أي ولم يكن أحد كفواً له أي مكافئاً أو مناظراً أو مماثلاً أو مشابهاً له في ذاته أو في صفة من صفاته جل وعلا ، أما الإنسان فإذا أخبر عن صفة أحد فإنّ فكره يدور أولاً في أشباهه وأمثاله من بني الإنسان فيفهم المراد ، فلو قلت لأحد : استوى فلان الملك على عرشه ، لفهم السامع أن الملك جلس كما يجلس غيره من البشر على عرش مملكته ، واستلم ملك البلد مثلاً ، أما إذا سمعت قوله تعالى :
{ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى } فهل تفهمها كما تفهم استواء غيره أي استواءً مكانياً انتقالياً معروفاً ؟!

ولو فهمت ذلك فقد شبّهت الخالق جل وعلا بخلقه ، وهذا شرك معه ، لأنك أشركت غيره معه سبحانه في صفة الاستواء ، ويلزم منه التجسيم والجهة و.... ، وهو سبحانه يقول :{ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ }إذاً فاستواؤه تبارك وتعالى على عرشه استواء من ليس كمثله شيء ، فكيف يمكن معرفة حقيقته ؟!!

ولما سئل الإمام مالك رضي الله عنه عن الآية قال :

(الاستواء معلوم) - أي معلوم معناه في اللغة -

لم يحيطوا علمًا بحقائق الأشياء على كنه ما هي عليه، وعلى هذا فيكون قوله تعالى : { يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ } حالاً منهم . اهـ .

(والكيف) - أي كيفية استوائه سبحانه -
(غير معقول) - أي لا يمكن للعقل فهمه أو حدّه وحصره لئلا يقع في التشبيه

(والسؤال عنه بدعة) [١] . اهـ .

وهكذا يجب فهم جميع الصفات في إطار قوله سبحانه { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ } قال الحافظ ابن كثير :

وأما قوله تعالى: { ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ } فللناس في هذا المقام مقالات كثيرة جداً، ليس هذا موضع بسطها، وإنما يُسلك في هذا المقام مذهب السلف الصالح : مالك، والأوزاعي، والثوري، والليث بن سعد، والشافعي، وأحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه ، وغيرهم من أئمة المسلمين قديماً وحديثاً ، وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل. والظاهر المتبادر إلى أذهان المشبهين مَنْفِي عن الله، فإن الله لا يشبهه شيء من خلقه، و{ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ } بل الأمر كما قال الأئمة - منهم نُعَيْم بن حماد الخزاعي شيخ البخاري - :
(مَن شَبّه الله بخلقه فقد كفر، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر).
وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيه، فمن أثبت لله تعالى ما وردت به الآيات الصريحة والأخبار الصحيحة، على الوجه الذي يليق بجلال الله تعالى، ونفى عن الله تعالى النقائص، فقد سلك سبيل الهدى.
اهـ . [٢]
قوله عز وجل :{ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ }

فلما وصف سبحانه الآيات المحكمات [٣]- أي : الظاهرات الدلالة - بأنهن أمّ الكتاب دل على أن المتشابهات بمنزلة البنات ، فالمحكمات أمّ ،

---

[١] انظر معجم ابن المقرىء والأسماء والصفات للبيهقي والرد على الجهمية للدارمي
[٢] عند تفسيره لقول الله تعالى :
{ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ }
[٣] قال الطبري عند تفسيره لهذه الآية الكريمة :
أما"المُحكمات"، فإنهن اللواتي قد أُحكمْن بالبيان والتفصيل، وأُثبتت حججهن وأدلتهن على ما جعلن أدلة عليه من حلال وحرام، ووعد ووعيد، وثواب وعقاب، وأمر وزجر، وخبر ومثل، وعظة وعبر، وما أشبه ذلك.

والمتشابهات فروع ، فَبِرَدِّ الفرع إلى الأصل يُفهم المراد ، أي بردّ المتشابهات إلى المحكمات ، لأن الأمّ هي أصل الشيء ومرجعه ، كما في قوله تعالى في مكة :

{ لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى } أي مرجع القرى - أي المدن كلها - في الصلوات والحج .

وأول ما خلق الله من الأرض بقعة الكعبة ثم دحا الأرض من تحتها [1] .
وكذلك وصف سبحانه سورة الفاتحة ، وصفها بأمّ الكتاب ، لأنها تضمنت معاني الكتاب إجمالاً ، فقد قابلها سبحانه بالقرآن كله بقوله جل وعلا :
{ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ }

وفي الحديث قال صلى الله عليه وآله وسلم :
(الحمد لله رب العالمين هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته) [2]

ولو عرضْتُ عليك مثلاً أغصاناً مورقة من جنس أشجار متشابهة كالحمضيات مثلاً ، واشتبه عليك معرفة كل غصن أهو الليمون أم البرتقال مثلاً أم غيره ، فما هو موقفك كي تعرف الغصن وورقه ؟

ثم وصف جل ثناؤه: هؤلاء"الآيات المحكمات" بأنهن: {هن أم الكتاب} يعني بذلك: أنهن أصل الكتاب الذي فيه عماد الدين والفرائض والحدود، وسائر ما بالخلق إليه الحاجةُ من أمر دينهم، وما كُلفوا من الفرائض في عاجلهم وآجلهم.
وإنما سماهن { أم الكتاب }، لأنهن معظم الكتاب، وموضع مفزع أهله عند الحاجة إليه، وكذلك تفعل العرب، تسمي الجامع معظم الشيء"أمّاً" له ، فتسمى راية القوم التي تجمعهم في العساكر:"أمهم"، والمدبر معظم أمر القرية والبلدة:"أمها".
ووحّد"أم الكتاب"، ولم يجمع فيقول: هن أمهات الكتاب، وقد قال:"هن" لأنه أراد جميع الآيات المحكمات"أم الكتاب"، لا أن كل آية منهن"أم الكتاب".
و قال بعضهم:"المحكمات" من آي القرآن، المعمول بهن، وهن الناسخات أو المثبتات الأحكام "والمتشابهات" من آية، المتروك العمل بهن، المنسوخات.
[1] قال الحافظ السيوطي في الدر المنثور :
أخرج ابن جرير وأبو الشيخ في العظمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال :
وُضع البيت على أركان الماء على أربعة أركان ، قبل أن تُخلق الدنيا بألفي عام ، ثم دُحيت الأرض من تحت البيت .
[2] طرف حديث في صحيح البخاري كتاب تفسير القرآن عن أبي سعيد بن المعلى رضي الله تعالى عنه

لابد لك أن تردّه إلى أمه أي إلى الشجرة التي انفصل عنها ، فتقول : هذا غصن شجرة ليمون مثلاً ، ويزول اشتباهك حينئذ ، ومن هنا - ولله المثل الأعلى - فلو قرأت آية أو حديثاً يتعلق بصفة من صفات الله تعالى واشتبه عليك فهمها فرُدّ النص إلى المحكمات فيزول اشتباهك ، كقوله سبحانه مثلاً { وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا } فلا تفهم من قوله تعالى { جاء } كما يجيء المخلوق !

بل اجعل فهمك في إطار قوله سبحانه { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ }

وفي إطار قوله تعالى : { وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ }

وقوله جل وعلا : { وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } - والمثل الأعلى هو الوصف الأنزه –

وقوله سبحانه : { قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ * }

فهي آيات محكمة ، لذا فمجيئه سبحانه هو مجيء من {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ } فكيف تقف على معرفة حقيقته ؟

وكذلك قوله تعالى :{ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ } فلا تفهم من الآية اليد الجارحة كما هو شأن أيدي المخلوقات ، بل يداه سبحانه يدا من ليس كمثله شيء ، وهما مبسوطتان بسط من ليس كمثله شيء ، وهكذا يندرج ذلك كله في قولك : (سبحان الله والحمد لله) ، فلا تخرج من إطار التسبيح والتحميد - فالتسبيح هو تنزيه الله تعالى عما لا يليق به ، وتنزيهه عن الشبيه والنظير والتجسيم ونفي ذلك كله عنه تعالى ، والتحميد هو إثبات الكمالات المطلقة له جل وعلا ، وهي المحامد التي يُحمد عليها - فأنت ما بين نفي وإثبات ، وتسبيح وتحميد فتقول { ليس كمثله شيء } نفي وتنزيه { وهو السميع البصير } إثبات وحمد ، وتقول : (لا إله إلا الله) نفي وإثبات ، وتقول { قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ * } إثبات ونفي .

وهكذا قوله صلى الله عليه وسلم :

[ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول :

من يدعوني فأستجيب له ، من يسألني فأعطيه ، من يستغفرني فأغفر له ؟] [١]

فالنزول الوارد في الحديث الشريف المتقدم ليس نزولاً انتقالياً مكانياً ، بل هو نزول لائق بجلاله وكماله تبارك وتعالى ، أي تتنزل رحماته وأسراره وأنواره ، ويُفيضها على المتعرّض لها .

وأما الدليل على أن التأويل يطلق أحياناً على المعنى الظاهر الدلالة ، وأحياناً على حقيقة ما أخبر عنه الكلام ، فيقال في اللغة : (آل الشيء إلى كذا) إذا رجع وصار إليه ، فأما الأول ـ وهو أن التأويل يطلق أحياناً على المعنى الظاهر الدلالة ـ فدليله قوله صلى الله عليه وسلم في دعائه لسيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما [اللهم فقّهه في الدين وعلّمه التأويل] [٢] أي معاني القرآن كالأحكام الشرعية والقصص والإخبارات الماضية .
ولما نزل قوله تعالى { فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ } كان النبي صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده :
[سبحانك اللهم ربنا وبحمدك ، اللهم اغفر لي] يتأوّل القرآن
ـ كما جاء في الصحيحين عن السيدة عائشة رضي الله عنها ـ .
وأما التأويل بمعنى : ما يؤول إليه الشيء ويرجع ويصير ، فمثاله قول الخضر لموسى عليهما السلام كما أخبر سبحانه عنه :
{ ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا }
أي ذلك حقيقة الذي فعلته من خرق السفينة وقتل الغلام وبناء الجدار ، وما لم تحط بحقيقته علماً يا موسى إلا ما رأيت من ظاهر أفعالي ، ثم أخبرتك بحقيقة ما آلت إليه أفعالي .

---

[١] انظر صحيح البخاري كتاب التوحيد وصحيح مسلم كتاب صلاة المسافرين وقصرها

[٢] انظر المسند ٣١٠٢ وصحيح ابن حبان كتاب إخباره صلى الله عليه وسلم عن مناقب الصحابة

وقال تعالى :
{ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ } أي وقوع حقيقة ما أخبر عنه من القضايا الغيبية
{ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ } أي تقع الحقائق التي أخبر عنها سبحانه كالحشر والنشر والصراط والبعث والحساب ، ما هو موقف الجاحدين وقتئذ ؟
{ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ } أي تركوه وهجروا النظر في إخباراته والإيمان به ، وذلك لما كانوا في الدنيا
{ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ } أي : لقد صرنا إلى حقيقة ما أخبرتْنا به رسل الله ، ودعتنا إلى الإيمان به
{ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ } إلى الدنيا
{ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ } أي اعترفوا بأنهم كانوا يعملون ما لا يرضي الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، بل كانوا يعصون الله ورسوله صلى الله عليه وسلم
{ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ } فما وجدوا لافترائهم وكذبهم على الله ما وجدوا لهذا حقيقة ، ووجدوا شركاءهم - الذين دعوا مع الله - وجدوهم أمثالهم ضالين عنهم ، لا يملك أحد لأحد شيئاً ، والأمر كله لله تبارك وتعالى .
وقال سبحانه في الخبر عن يوسف عليه السلام بعد أن رفع أبويه على العرش وإخوته من حوله وسجدوا له [1] :

---

[1] واعلم أن سجودهم ليوسف عليه السلام سجود تكريم وتعظيم وتحية ليوسف لا سجود عبادة ، وكان مشروعاً سجود التحية في شرائعهم ، أما في شريعة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم فقد نهى عن السجود مطلقاً لغير الله تعالى ، ولو فرض أن أحداً سجد لغيره فلا يقال له : (أشركتَ) ، بل نسأله :
أكان سجودك له على سبيل عبادته وأنه يملك ويضر وينفع ويمدّ ويرزق أم كان سجودك على سبيل تكريمه وتعظيمه وأنت تعلم أنه عبد لله مثلك ؟
فإن قال : (أعبده فسجدت له) فيقال له : أشركت ، وينبغي أن لا تعبد مع الله أحداً وجدّد إيمانك بالله تعالى وحده ، وأما إن كان سجوده له من قبيل التكريم والتحية والتعظيم له فيقال له : لقد ارتكبت أمراً نهى عن فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتب إلى الله ولا تعد إليه .
فقد روى ابن ماجه في سننه واللفظ له والإمام أحمد في مسنده وابن حبان في صحيحه عن عبد الله بن أبي أوفى قال : لما قدم معاذ من الشام سجد للنبي صلى الله عليه و سلم ، قال : [ما هذا يا معاذ ؟] قال : أتيت الشام فوافقتهم يسجدون لأساقفتهم وبطارقتهم ، فوددت في نفسي أن نفعل ذلك بك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : [فلا تفعلوا ، فإني لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لغير الله لأمرت المرأة أن

{هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّاً }
أي هذا الذي جرى الآن هو حقيقة ما كنت رأيته في منامي لمّا كنت فتى عند والدي ، ورأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر لي ساجدين ، فقد ظهرت حقيقة ما آلت إليه رؤياي بعد سنوات
{ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا } لأن رؤيا الأنبياء من أنواع الوحي النبوي إليهم .
وأما تأويل الرؤيا المنامية فيتطلب علماً نبوياً خص الله تعالى به أنبياءه حتى إن الرؤيا التي يراها نبي أو رسول هي نوع من أنواع وحي الله تعالى إليه ، ألا ترى إلى فعل الخليل مع ولده إسماعيل عليهما السلام كما أخبر سبحانه عنه { قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ } أي افعل ما أمرك الله تعالى به في منامك ، وليس لأحد إذا رأى أنه يذبح ابنه ليس له أن يذبحه ، فإن لها تأويلاً وهو صرف المعنى الظاهر أو الكلام الظاهر إلى معنى آخر لائق يتفق مع أصول الدين ، وقد خصّ الله تعالى سيدنا يوسف عليه السلام برؤيا آلت إليه حقيقتها بعد سنوات عديدة كما تقدم .
قال تعالى : { وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ } أي تأويل ما يَرى وما يُقصُّ عليه ، كما أولّ - عبّر- لمن كان في السجن بحقيقة ما تؤول إليه رؤيا كل منهما ، ثم عبّر رؤيا الملك للبقرات .. وهكذا
ولقد كان سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يسأل أصحابه كل غداة بعد الصلاة الأولى : [من رأى منكم رؤيا] أي ليعبّرها له ، كما في صحيح مسلم عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان مما يقول لأصحابه :
[من رأى منكم رؤيا فليقصها أعبرها له ، قال : فجاء رجل فقال : يا رسول الله رأيت ظُلّة تنطِف السمن والعسل ، فأرى الناس يتكفّفون منها بأيديهم فالمستكثر والمستقلّ ، وأرى سبباً واصلاً من السماء إلى الأرض فأراك أخذت به فعلوت ، ثم أخذ به رجل من بعدك فَعَلا ، ثم أخذ به رجل آخر فعلا ، ثم أخذ به رجل آخر فانقطع به ثم وصل له فعلا ، قال أبو بكر : يا رسول الله بأبي أنت ، والله لتدعنّي فلأعبرنها ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اعبرها ، قال أبو بكر :
أما الظلة فظلة الإسلام ، وأما الذي ينطف من السمن والعسل فالقرآن حلاوته ولينه ،

تسجد لزوجها] أي لِما له عليها من حقوق ، وهو سجود تكريم وتعظيم للزوج ولكنه صلى الله عليه وسلم لم يأمر المرأة بذلك .

وأما ما يتكففه الناس من ذلك فالمستكثر من القرآن والمستقل ، وأما السبب الواصل من السماء إلى الأرض فالحقّ الذي أنت عليه ، تأخذ به فيعليك الله به ، ثم يأخذ به رجل من بعدك فيعلو به ، ثم يأخذ به رجل آخر فيعلو به ، ثم يأخذ به رجل آخر فينقطع به ثم يوصل له فيعلو به ، فأخبرني يا رسول الله بأبي أنت أصبت أم أخطأت ؟

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أصبت بعضاً وأخطأت بعضاً ، قال : فوالله يا رسول الله لتحدثني ما الذي أخطأت ، قال : لا تُقْسم [١]

وفي الحديث أن ابن عمر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : [بينا أنا نائم أتيت بقدح لبن فشربت ، حتى إني لأرى الريّ يخرج في أظفاري ، ثم أعطيت فضلي عمر بن الخطاب ، قالوا : فما أوّلته يا رسول الله ؟

ـ أي ما عبّرته ـ ، قال : العلم] [٢]

وفي رواية : فقال من حوله : ما أوّلته يا رسول الله ؟

قال : [أوّلتُه الدين] [٣]

ومن جملة ذلك قوله تعالى :{ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ } وحقق الله ذلك في القابل

وفي الحديث (أول ما بدئ به صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ...) [٤]

وبقي صلى الله عليه وسلم على ذلك ستة أشهر .

وفي الحديث :[الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة] [٥]

وإذا كان ١/ ٤٦ = ٦ / ٢٣*١٢ أي : ٦/٢٧٦ = ٤٦/١

أي جزءاً من ستة وأربعين جزءاً ، إذ إن فترة بعثته صلى الله عليه وسلم ثلاث وعشرون سنة أي ٢٣ * ١٢ شهر = ٢٧٦ شهراً

---

[١] انظر صحيح مسلم كتاب الرؤيا

[٢] انظر صحيح البخاري كتاب العلم وصحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة

[٣] رواه الإمام أحمد في كتابه : فضائل الصحابة

[٤] كما في صحيح البخاري كتاب الوحي

[٥] رواه البخاري في صحيحه كتاب التعبير عن سيدنا أبي سعيد الخدري، ورواه مسلم في صحيحه كتاب الرؤيا عن سيدنا أبي هريرة

التي هي فترة الوحي بأنواعه كلها ، وجزء منها ستة الأشهر التي هي فترة الرؤيا الصادقة أي الوحي المنامي .

وقد يكرم الله تعالى بعض أوليائه بتعبير الرؤيا كلاً أو جزءاً أو إشارة أو رمزاً ، ومن ذلك الرؤيا التي أراد أبو بكر رضي الله عنه أن يعبّرها فعبّرها فقال صلى الله عليه وسلم له : [أصبتَ بعضاً وأخطأتَ بعضاً] [1]

- والصحابي الذي رأى رؤية حق رأى ثابت بن قيس بن شماس رضي الله عنه بعد استشهاده وكيف أخبره أن درعه وسيفه موجودة في محل كذا - (انظر الخبر في كتاب الإيمان بعوالم الآخرة) لمولانا الوالد رضي الله عنه - . [2]

وتعبير الرؤيا مأخوذ من مادة (عبر)، ومنه العبور ، ويحتاج عبور النهر مثلاً إلى زورق وأدواته ، وكذلك تعبير الرؤيا فيحتاج إلى علم وإخلاص نية وصفاء قلب ، ليعبر بالرؤيا إلى المعاني اللائقة أي يتأولها ، وكذلك شأن المعاني التي ترِد على النفس البشرية ، فإذا أراد صاحبها أن يظهرها فلابد له من تعبير عنها أي ليعبُر بها من نفسه الباطنة إلى الخبر الظاهر ، ويتطلب منه ذلك انتقاء الكلمات المناسبة ، وكلما كان اطلاعه واسعاً كلما جاء بيانه عما في نفسه واضحاً جلياً ، كما أن الكلمة لابد لظهورها من نفَس يمرّ على مقاطع وتضاريس في الحلقوم والفم واللسان والخيشوم ، فكلها تعمل لإخراج كل حرف من مخرجه الصحيح فتتركب الكلمة والجملة على وجه صحيح المبنى جليّ المعنى .

قلت : وكان شيخنا الإمام الوالد رضي الله عنه يبتعد في كلامه عن الإتيان بهذه المصطلحات : عبّر القرآن - التعبير القرآني –

---

[1] تقدم تخريجه قبل قليل

[2] قال رضي الله عنه في صفحة ١٤٣ : قصة ثابت بن قيس بن شماس رواها الإمام البغوي وابن المنذر والطبراني والحاكم وغيرهم

لأن إسناد فعل : (عبّر) إلى الله تعالى لم يرد في آية قرآنية ولا في حديث نبوي ، ولا يجوز لنا أن نسند فعلاً أو وصفاً إلى الله تعالى من كلامنا طالما لم يرد فيه نص شرعي ، لأن كل ما يتعلق بجناب الله تعالى أمر توقيفي أي موقوف أمره إلى الله ورسوله الذي لا { يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى } أي : بوحي قرآني أو نبوي .

وكذلك كان الشيخ الإمام يبتعد عن كلمات ومصطلحات أخرى منها :
اللفظ القرآني - الإعجاز اللفظي –

لأن معنى اللفظ من : (لفظ الشيء) إذا رماه وألقاه ، ويلزم منه أنه انفصل عنه ، فتقول : لفظ البحر الدرّ والياقوت ، و لفظ الرجل النواة : إذا ألقاها من فيه ، ولفظ بالقول أو الكلمة : إذا استعمل نفَسَه لإخراج الكلمة التي تبين عما أراد ، قال تعالى :{ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ } فاللفظ من صفات المخلوق ، وإسناده إلى الخالق يوهم التشبيه ، ولم يرِد في آية أو حديث وصف الحق تعالى بأنه يلفظ الكلام القرآني وغيره ، والأولى الوقوف على ما ورد ، كما في قوله تعالى :{ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا }

وفي الحديث (إذا تكلم الله بالوحي) [1] ..... الحديث

وكلامه سبحانه كلام من ليس كمثله شيء ، منزّه عن الشبيه والنظير والمثيل .

وتقول مثلاً : الإعجاز الكلامي في القرآن الكريم ، أو إعجاز كلام الله ، أو الإعجاز النصي ، لأن كلمة نصَّ على الشيء إذا أظهره ورفعه ، فالنص القرآني يعني المنصوص القرآني أي ما أظهره الله تعالى لخلقه من كلامه ورفعه إليه نسبة وقدراً وفضلاً ، ومنه قولهم :
(لا اجتهاد في مورد النص) وأرادوا بالنص الآية أو الحديث .

---

[1] طرف حديث في سنن أبي داود كتاب السنة عن سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه

قوله تعالى :

{ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ } أي ميل عن الحق بعد أن بان لهم

{ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ } أي دون محاولة فهم الآيات المتشابهات على الوجه الصحيح ، وذلك بردِّها إلى المحكمات كما تقدم

{ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ }أي يتتبعون المتشابهات من أجل الفتنة ، أي ليوقعوا غيرهم في الشك والريب وسوء الفهم الصحيح لآيات الله تعالى

{ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ } من أجل تفسيره حسب ما يهوون ، وتميل إليه أنفسهم المريضة وقلوبهم الزائغة ، فيقعون ويوقعون أتباعهم في البدع الاعتقادية العلمية أو العملية أو كليهما معاً .

وروى ابن ماجه في سننه عن أم المؤمنين السيدة عائشة قالت :
تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية
{ هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأُخَر متشابهات } إلى قوله تعالى { وما يذّكر إلا أولوا الألباب }
فقال : يا عائشة إذا رأيتم الذين يجادلون فيه فهم الذين عناهم الله فاحذروهم [١]

وفي رواية : إذا رأيتم الذين يتّبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمّى الله فاحذروهم [٢] .

ثم بيّن سبحانه موقف المؤمنين الراسخين في العلم ، الثابت إيمانهم في قلوبهم ، والراسخ علمهم بآيات الله تعالى ، بحيث صاروا أثبت من الجبال في قوة إيمانهم وصحة علومهم ، بيّن سبحانه ما هو موقف هؤلاء من المتشابهات ، بل جاء في قوله سبحانه وتعالى بيان ومنهج لمن أراد أن يحدد موقفه من المتشابه فقال تعالى :

---

[١] في المقدمة

[٢] انظر صحيح البخاري كتاب تفسير القرآن وصحيح مسلم كتاب العلم

{ والراسخون في العلم } أي العلم الشرعي بآيات الله وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم

{ يَقُولُونَ } بأفواههم ويعتقدون بقلوبهم

{ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا } أي كلٌّ من المحكمات والمتشابهات من الآيات كلها من عند ربنا جل وعلا ، وطالما أنها من عند الله فنؤمن بها كما علَّمَنا سبحانه و تعالى ، ونفوّض حقيقة وَكُنه ذلك إليه سبحانه ، مع التسبيح والتحميد له جل وعلا ، فليس كمثله شيء وهو السميع البصير .

قال تعالى :{ وما يذّكر إلا أولو الألباب } وهذا مدح وثناء من الله تعالى على المؤمنين الراسخين في العلم أنهم هم أصحاب العقول الكاملة السليمة من الزيغ والهوى ، فهم بعقولهم السليمة وتفكرّهم الصحيح وصلوا إلى لُباب الأشياء بعد أن دخلوا الباب ، فلم يقتصروا على التفكر في ظواهر الأشياء ، بل جعلوا يتفكرون في حكمة وسر خلق الله تعالى لمخلوقاته وآثار أسمائه جل وعلا الظاهرة في أكوانه ، قال تعالى :{ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ } وما هو شأنهم ؟ قال تعالى :{ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ }

وبعد التفكّر توصلوا إلى قولهم { رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا } أي عبثاً ولهواً دونما حكمة ومردّ إليك

{ سبحانك } أي : تنزهتَ عن فعل ذلك

{فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ } أي لابد من يوم ترجع فيه الخلائق إليك ، لتجزي المسيء على إساءته ، وتثيب المحسن على إحسانه ، فَقِنا في ذلك اليوم عذاب النار ،ونظير هذا قوله تعالى :
{ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ }

أي يعلم علماً راسخاً بأن الذي أنزله الله إليك يا رسول الله من القرآن والسنة هو الحق

{كَمَنْ هُوَ أَعْمَى } أي فالذي لم يعلم ذلك ولم يعترف به وأنكر هو أعمى القلب محجوب العقل عن التفكر الصحيح

{ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ }أي إنما يتّعظ ويستفيد من تذكير القرآن وبياناته وبراهينه أصحاب الألباب أي العقول الواسعة السليمة .

ثم شرع سبحانه في ذكر بعض أخلاقهم بل ما يجب أن يكونوا عليه فقال جل وعلا :

{ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ }
ثم أخبر سبحانه عن دعاء الراسخين في العلم أولي الألباب فقال تعالى :
{رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ } وقد جاءت الآيات بأسلوب الخبر ، وفيه معنى الأمر والتذكير ، ليشير إلى أنهم ذُكِّرُوا وأُمروا فامتثلوا ما أُمروا به ، وتحققوا بما ذكِّرُوا به ، فجعلوا يسألون الله أن يثبّتهم على الإيمان والهدى ويزيدهم منه ، فقال تعالى مخبراً عن دعائهم :

{ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا } أي لا تُمِل قلوبنا ، ولا تجعل إيماننا في قلوبنا يضطرب ويهتز ، بل نسألك الثبات والسداد على الهدى

{ بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا } أي وفقتنا للإيمان الاعتقادي العلمي والعملي الجارحي { وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ } .

وقولهم { وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً } أبلغ في التخصيص من قولهم : (مِن عندك) ، فسألوا الله هبة رحمانية مباشرة من لَدُنْهُ ، واعلم أن عطاءات الله اللدنية وهباته اللدنية لا تتوقف على العادات والأسباب التي اعتاد عليها البشر ، بل إنها تخرق السنن الكونية والعادات البشرية ، فسألوا الله تعالى رحمة لدنية ، وَهِبَة يثبت بها إيمانهم ويزيد بها صلاحهم وتقواهم ، لأن الرحمة تشمل الخيرات والمبرات بأنواعها .

وانظر إلى سيدنا زكريا عليه السلام كيف سأل الله تعالى من لدنه ولياً مع كِبَر سنه وعقمه وعُقْر زوجته فأجابه الله تعالى كما أخبر سبحانه :

{ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً }

وقال { فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا }

فحقق الله دعاءه وأكرمه بيحيى عليه السلام ، قال تعالى :

{ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا } .

وانظر إلى إخبار الله تعالى عن الخضر عليه السلام كيف أخبر عن إكرامه له فقال جل وعلا : { فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا } وهي النبوة والرسالة [1]
{وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا } فذكر سبحانه أنه علَّمه علماً من لدنه ، وهذا أبلغ في التخصيص ، ولا يلزم أن تعليمه كان بغير واسطة ملك من ملائكة الله تعالى ، بل إنه سبحانه تولى تعليمه ما شاء كيف شاء .
ومن ذلك ما ذكر سبحانه عن أصحاب الكهف كيف لجؤوا إلى الله تعالى وأوَوا إلى كهف الأمان ، سائلين المولى الرحمة الخاصة اللدنية ، فأكرمهم الله وخرق لهم العادة البشرية والنواميس الكونية ، فألقى عليهم النوم وحفظهم ثلاثمائة وتسع سنين ، قال تعالى :
{ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا }.

[1] وقد آتاه الله تعالى رحمة خاصة ، فكانت أفعاله كلها رحمة بمن أمره الله تعالى أن يرحمه ، كما دلت عليه الآيات في سورة الكهف .
ومن أدلة نبوته ورسالته عليه السلام قوله لموسى عليه السلام
{ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي } أي لم أفعل ما رأيته مني إلا بأمر الله تعالى لي بوحي ونحوه ، ومن جهة أخرى فإن موسى عليه السلام نبي رسول فكيف يأمره الله تعالى أن يتّبع من ليس بنبي ولا رسول ؟ !
أي كيف يُؤمر مَن عصمه الله تعالى بعصمة النبوة والرسالة أن يتَبع ولياً صالحاً محفوظاً غير معصوم ، لأن العصمة هي للأنبياء والرسل عليهم السلام فقط ، وهناك أدلة ليس هنا موضع سردها .

وكان صلى الله عليه وسلم إذا استيقظ من الليل قال :
(لا إله إلا أنت سبحانك ، اللهم أستغفرك لذنبي ، وأسألك رحمتك ، اللهم زدني علماً ، ولا تزغ قلبي بعد إذ هديتني ، وهب لي من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب) [1]
فهو صلى الله عليه وسلم أعظم من جمع الله له العلوم اللدنية الظاهرة والباطنة بجميع أنواع ومراتب الوحي القرآني والنبوي ، قال تعالى :

{ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ } أي ولو كان الذي نزل به جبريل عليه السلام فلم يخرج من دائرة الإلقاء اللدني من الله الحكيم العليم كما تقدم

ثم ذكر سبحانه تتمة دعاء الراسخين في العلم أولي الألباب فقال سبحانه :

{ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ } أي اعترافاً منهم وتصديقاً جازماً باليوم الآخر وما فيه ، وأن الله لا يخلف وعده ، فإذا جمع العباد لذلك اليوم فسيجزي سبحانه المحسن على إحسانه والمسيء على إساءته ، لأنه الله الملك الحق العليم الحكيم ، والملك الحق لا يَخْلُق إلا بالحق وللحق ، أي فإذا صرنا إلى ذلك اليوم فاغفر لنا وارحمنا . آمين .

قوله تعالى : { وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ رَبَّنَا } أي يدعون الله بقولهم { رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا }

---

[1] انظر الحديث في سنن أبي داود كتاب الأدب وسنن النسائي الكبرى وصحيح ابن حبان كتاب الزينة والتطييب وقال عنه الحاكم في مستدركه في كتاب المناسك :
هذا حديث صحيح الإسناد ، ولم يخرجاه .
وقوله صلى الله عليه وسلم : (وهب لي من لدنك رحمة) أي رحمة وَهِبة لدنية لا تتوقف على سبب مِنِّي ، ولا على عملي ، بل هي خالصة من لَدُنْك ، وما كان من لدنك فلا يدخل في حساب الحاسبين ، كما قال تعالى :{ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا }أي يضاعفها إلى ألفي ألف ضعف كما ورد في الحديث الذي رواه الإمام أحمد في مسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (إن الله ليضاعف الحسنة ألفي ألف حسنة)
ولم يقتصر العطاء الإلهي على تلك المضاعفة ، بل قال سبحانه :
{ وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا } وإذا وصف الله تعالى أمراً بأنه عظيم فإن عظمته لا يمكن الوقوف على حدّها ، بخلاف المخلوق فمهما اتسعت علومه ومداركه فوصفه للشيء بالعظمة يكون على حسب فهمه واطلاعه المتناهي .

وهذا فيه تذكير للعاقل وتنبيه للغافل أن الدعاء بثبات الإيمان وسؤال الله تعالى حسن الختام هو أمر كبير ذكَّر فيه سبحانه الراسخين في العلم أولي الألباب فأخذوا بتذكيره سبحانه وأمرِه ، حتى أخبر سبحانه أن هذا الدعاء صار من جملة أدعيتهم التي لا تَفْتُر عنها ألسنتهم ، فليس هذا دعاء العامة فقط ، وليس الأمر كما يظن بعض أدعياء العلم أن أحدهم على شيء راسخ وأن إيمانه وعلمه بازدياد ولا يمكن لفتنة أو شبهة أن تُزيغ قلبه ، وكلٌّ هذا من باب الكبر وغرور الإنسان بما عنده من علم ، لكن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أرشد إلى هذا الدعاء كما في المسند وغيره أن السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت : دعواتٌ كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر أن يدعو بها :

ب يا مُقَلِّبَ القلوب ثَبِّتْ قلبي على دِينك] ، قالت : فقلت : يا رسول الله إنك تُكثر تدعو بهذا الدعاء ، فقال :

[إن قلب الآدمي بين أصبعين من أصابع الله عز وجل ، فإذا شاء أزاغه ، وإذا شاء أقامه] [1]

وفي رواية : اللهم مصرّف القلوب صرّف قلوبنا على طاعتك [2]

ولا تفهم من قوله صلى الله عليه وسلم :

[إن قلب الآدمي بين أصبعين من أصابع الله عز وجل]

لا تفهم من ذلك : (الأصابع الجارحية) ، ولا تشبّه الأصابع بأصابع المخلوقات ، فإن هذا من جملة الصفات المتشابهة التي لا يمكن إدراك حقيقتها أوالوقوف على كنهها ومعرفة ذاتها ، فلابد من ردّ المتشابه إلى المُحكم وهو قوله تعالى { ليس كمثله شيء } فيجب أن نؤمن ونوقن بما وَصَف به سبحانه نفسه مع التسبيح أي التنزيه عن الشبيه والنظير والنقيض ، ونفوّض معرفة حقيقة الصفة إلى الله تعالى ، إذ لا يعلم كيف هو إلا هو ، وجاء في الأثر : (يا من لا يعلم كيف هو إلا هو) [3]

---

[1] المسند ٢٣٤٦٣

[2] انظر صحيح مسلم كتاب القدر

[3] انظره في كتاب (أدعية الصباح والمساء) لمولانا الإمام رضي الله عنه معزواً لابن أبي الدنيا

أما علم المخلوق بربه فهو عِلم من الله تعالى علَّمه ما يطيقه ويليق به ، جاء ذلك في كتاب الله تعالى وعلى لسان رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم ، وليس للإنسان أن يبتدع صفة وينسبها إلى الله تعالى كما لو قال :

(أنت يا رب كريم كالبحر ، قوي كالبطل)

فيقال له : أخطأت وضللت ، لأن هذه من مخلوقاته فكيف تُشبّه الخالق بخلقه ، وقد قال سبحانه { ليس كمثله شيء } جل وعلا ؟!

قوله تعالى مخبراً عن دعاء أولي الألباب :
{ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا } فيه تضمين لمعنى سؤال أولي الألباب أن يوفّقهم سبحانه للعمل بما فيه تثبيتُ الإيمان في قلوبهم وزيادة الهدى ، كما في قوله تعالى مخبراً عن دعائهم :

{ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ }

أي وفّقنا للتحقق والعمل بما جاءت به رسلك من أوامر وإرشادات ونصائح ، حتى نكون ونصير أهلاً قابلين لنفحتك ورحمتك يوم القيامة ، وإلا فإنه سبحانه سيؤتي الصادقين ما وعدهم على ألسنة الرسل .

ومن أسباب ثبات الإيمان في القلب :

العمل بشرع الله تعالى ، قال سبحانه :

{ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا }

أي أشد تثبيتاً منهم لإيمانهم في قلوبهم .

{ وَإِذًا لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا } أي : أجراً لدنياً عظيماً لا يدخل تحت حساب { وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا } أي صراطاً مستقيماً خاصاً إلى التقرب منا ونيل رضانا .

وقال تعالى :{ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ } أي تثبيتاً منهم لإيمانهم في قلوبهم ، وزيادة في أعمالهم الصالحة {كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ } .

فلما أخذوا بأسباب تثبيت الإيمان في قلوبهم والاستزادة منه ثبَّتهم الله وزادهم ، قال تعالى :{ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا } أي : إيماناً كاملاً ، أي : تَحقّقوا بجميع شُعب الإيمان الاعتقادية والعملية والقولية والخُلقية والأدبية { بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ } وهو : (لا إله إلا الله مع شقيقتها الملازمة لها محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم) { فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ } .

ومن اعتمد على نفسه ووكل أمره إلى نفسه ، زعماً منه أن إيمانه لا يتزعزع وأنه وأنه ......، فإن الله يكِله إلى نفسه ، ومن وكله الله إلى نفسه ضل وهلك كما جاء في الحديث في سياق تعليم الأمة :

[وأنك إن تكِلْني إلى نفسي ، تكلني إلى ضعف وعَوَزَة وذنب وخطيئة] [1]

وقوله تعالى :{ بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا } اعتراف وإقرار منهم بأن الله تعالى هو الذي هداهم ، أي وفّقهم وأعانهم على الإيمان وعلى العمل بمقتضاه ، فلما آمنوا وعلموا أن الله الهادي سألوه أن لا يزيغ قلوبهم ، كما قال سبحانه :

{ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ } والهداية هنا هداية توفيق للإيمان ، ومشيئته سبحانه مقترنة بعلمه وحكمته ، فلا يحْرِم سبحانه مستعداً استعداده ، ولا قابلاً قابليته ، وقد تقدّم في بحث (الهدى والضلال) بيان ذلك .
ونظير قوله تعالى مخبراً عن دعاء أولي الألباب
{ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا } ما أخبر سبحانه عن قول المؤمنين لمّا يدخلون الجنة { وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا } أي وفقَنا وأعاننا إلى سبيل الفوز بالجنة { وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ } أي ما كان لنا من تلقاء أنفسنا أن نحمل أنفسنا على الإيمان لولا توفيق الله وعونه لنا { لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ } أي وَفَّقَنا الله { لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا } أي ناداهم الله تعالى

[1] طرف حديث في مستدرك الحاكم والمعجم الكبير للطبراني وشعب الإيمان للبيهقي وقال عنه الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد ، ولم يخرجاه

{أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } فلما نسبوا الفضل والنعمة أولاً وآخراً له جل وعلا أكرَمَهم وأعلَمهم وأثبت لهم عملاً ، بسببه تفضّل عليهم ، ولولا أعمالهم الصالحة لما كانوا أهلاً لنيل فضله جل وعلا ، فهو سبحانه لا يتفضّل على الكافر ولا يدخله الجنة مثلاً ، بل يؤتي كل ذي فضل فضله .
وفي الحديث الذي رواه البخاري في صحيحه عن السيدة عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
[سدِّدوا وقاربوا ، واعلموا أن لن يدخل أحدكم عمله الجنة ..] [١] الحديث
قوله تعالى :

{ ربنا } تعليم من الله تعالى لعباده المؤمنين كيف يسألونه ويدعونه فلم يذكر أداة النداء (يا) التي يُؤتى بها للبُعد حِسّاً أو معنى ، لأن قوله تعالى { ربنا } جاء ليحملهم على استشعار قربه جل وعلا منهم ، وملاحظة رقابته عليهم وقيامه على كل نفس ، قال تعالى :{ فإني قريب } وقال جل وعلا : { إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا } ، وقال سبحانه { أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ } .

وفي الحديث [٢] عَنْ معاوية بن حيدة رضي الله عنه أَنَّ أَعْرَابِيًّا قَالَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : أَقَرِيبٌ رَبُّنَا فَنُنَاجِيهِ ، أَمْ بَعِيدٌ فَنُنَادِيهِ ؟
فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : { وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ }

وجاء في الحديث قوله صلى الله عليه وسلم :

[أيها الناس اربعوا على أنفسكم – (اربعوا) بكسر الهمزة وسكون الراء وفتح الباء وضم العين أي ارفقوا ـ ، فإنكم لا تدْعون أصمّ ، ولا غائباً ، إنما تدْعون سميعاً بصيراً ، إن الذي تدْعون أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته] [٣] وهو قرب يليق بجلاله وكماله سبحانه ، مُنزّه عن المكان والانتقال والشبه

قوله تعالى :{ وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ } سألوا الله تعالى أن يكون عطاؤه لهم من باب الهبات اللدنية ، والهبة : (عطاء بغير مقابل)

---

[١] طرف حديث في كتاب الرقاق
[٢] رواه ابن حبان في كتاب الثقات وأبو الشيخ الأصبهاني في العظمة
[٣] انظره في مسند الإمام أحمد ١٩١٦٠ و سنن النسائي الكبرى

يعني أن تكون رحمته سبحانه لهم غير متوقفة على عملهم وسؤالهم ، بل تليق بكرمه سبحانه ، لأنه الوهاب يهب من شاء ما شاء ، وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم : [اللهم لا مانع لما أعطيت] [1] أي : إذا أردت أن تعطي فإن عطاءك لا يمنعه ذنب أحد أو تقصيره ، ولا أحد من خلقك يستطيع أن يمنع عطاءك لمن أردت أن تعطيه .

وإن الكريم إذا وهب أحداً شيئاً فلا يرجع في هبته ، وقد حذّر رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذلك [2] فإذا ارتضى سبحانه لخلْقه شرعاً فيه النهي أن يعود الواهب في هبته ، فكيف يرجع سبحانه في هبته وهو أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين ؟! .

قوله تعالى : { رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ } فيه بيان إيمانهم باليوم الآخر ، حيث آمنوا وعلموا علماً قاطعاً أن هناك من سيؤمن ويهتدي ، ومن سيضلّ ويكفر ، ولا يصح عقلاً أن يتساوى هذا وذاك في الحياة والممات ، فلابد من يوم آخر يجمع فيه الله الأولين والآخرين ، ويثيب المحسن على إحسانه ، ويعاقب المسيء على إساءته وهكذا .

ومما يحسن ذكره في هذا السياق ما سمعناه من حضرة مولانا الوالد رضي الله عنه أن العلامة الكبير الشيخ محمد سعيد الإدلبي الرفاعي [3] رحمه الله تعالى تَوجّه مرة لعيادة مولانا الشيخ محمد نجيب سراج الدين رضي الله عنه بسبب وعكة صحية اعترتْه ، فخرج مولانا الوالد لاستقباله من أول الحارة [4] ، وكان مولانا الوالد شاباً يافعاً وقتئذ ، فاستند الشيخ محمد سعيد على مولانا الوالد وهو ينزل عن العربة .

---

[1] طرف حديث في صحيح البخاري كتاب الأذان وصحيح مسلم كتاب الصلاة

[2] روى أبو داود في سننه واللفظ له والترمذي والنسائي في سننهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :
[لا يحلّ لرجل أن يعطي عطية أو يهب هبة فيرجع فيها إلا الوالد فيما يعطي ولده]

[3] تقدمت ترجمته رضي الله عنه

[4] قال في المعجم الوسيط : (الحارة) محلّة مُتَّصِلَة الْمنَازِل

حيث لم تتمكن العربة من دخول الحارات الضيقة ، فقبّل والدنا الإمام يد الشيخ ورحّب به بحفاوة وسار إلى جانبه والشيخ محمد سعيد يباسطه ويلاطفه في الكلام ثم قال له :

(يا ابن شيخي ، يا ولدي ، إني بعد هذا العمر أخاف على شيبتي) ، وسالت دموعه على خديه فقال له والدي رحمه الله بفطرة نقية وقلب مؤمن : (يا سيدي إذا وهب الكريم هبة هل يعود في هبته) ؟

فغلب البكاء الشيخ محمد سعيد وجعل يقول لمولانا الوالد رضي الله عنه : بشّرك الله بالخير يا ولدي بشرك الله بالخير .

وقال مولانا الوالد رضي الله عنه : وكان الشيخ محمد سعيد رضي الله عنه يختم درسه بهذه الأبيات من آخر منظومة [١] الشيخ الدردير [٢] في علم التوحيد وهي :

وقل بِذُلٍّ ربِّ لا تقطعني　　　عنك بقاطعٍ ولا تحرمني

مِن سِرِّكَ الأبهى المُزيلِ للعَمَى　　　واخْتِمْ بخيرٍ يا رحيمَ الرُّحَما

والحمد لله على التَّمامِ　　　وأفْضَلُ الصلاة والسلامِ

على النبي الهاشميِّ الخاتَمِ　　　وآلِهِ وصَحْبِهِ الأَكارِمِ

---

[١] واسمها : (الخريدة البهية) ، - والخريدة في اللغة : هي اللؤلؤة التي لم تُثقب - وهي أحد أشهر المتون المنظومة في علم التوحيد على مذهب الإمام أبي الحسن الأشعري ، نظمها الإمام أحمد الدردير وهو فقيه مالكي وأصولي معروف.
ومتن الخريدة البهية منظوم على بحر الرجز ، وكان شرح الدردير من الكتب المقررة في الأزهر الشريف ، أتى متن الخريدة البهية في أربعة وستين بيتاً اقتصر فيها الدردير على ذكر الأصول الكبيرة في علم التوحيد ثم ختمه بخاتمة في التصوف.

[٢] هو سيدي أحمد بن أحمد بن أبي حامد العَدَوي المالكي الأزهري الخَلْوَتِي، الشهير بـ أحمد الدردير، توفي رضي الله عنه في اليوم السادس من شهر ربيع الأول سنة ١٢٠١ هـ

منهج الشيخ الإمام في رواية الحديث الشريف

لقد ادعى البعض ممن ينسب نفسه إلى العلم أن هناك أحاديث موضوعة في كتب الشيخ الإمام عبد الله سراج الدين رضي الله عنه ، وذلك محاولة منهم للإغراب ، ولفت أنظار الناس إليهم ، مع ما في هذا الادعاء من إساءة لمقام سيدنا الشيخ رضي الله عنه الذي شهد له العلماء والمحدثون في أصقاع الأرض شهدوا له بالعلم والفضل ، يشهد لهذا إجازاتهم له وحديثهم عنه ، وسوف تجد بيان هذا مفصلاً في موضعه من الكتاب [1] .

ذلك لأن رواية الحديث الموضوع من غير بيان وضعه هي ذنب عظيم ، فيه الإساءة إلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي جاء بيانه الشريف فيمن يضع الحديث عليه فقال :

[إن كذباً علي ليس ككذب على أحد ، من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار] [2]

و قال عليه الصلاة والسلام :
(من قال عَلَيَّ ما لم أقل ، فليتبوأ مقعده من النار) [3]
وقد زعم بعضهم أن سيدنا الشيخ كان يتساهل في رواية الحديث الموضوع في دروسه فقط .

---

[1] انظر فصل : (إجازات الشيخ الإمام رضي الله عنه) ،
وفصل : (لا يعرف الفضل إلا ذووه) .
[2] صحيح البخاري كتاب الجنائز وصحيح مسلم في المقدمة باب في التحذير من الكذب على رسول الله صلى الله تعالى وهذا الحديث الشريف رواه من الصحابة ثمانية وتسعون نفساً منهم العشرة المبشرون بالجنة وغيرهم رضي الله عنهم أجمعين

[3] انظر المسند ٤٩٣ وصحيح ابن حبان فصل : ذكر إيجاب دخول النار لمن نسب الشيء إلى المصطفى صلى الله عليه وسلم ، والمستدرك على الصحيحين للحاكم كتاب العلم

وخير ردّ على هؤلاء ما رواه الإمام مسلم في صحيحه عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

[من حَدّث عني بحديث يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين] [١]

فهل كان سيدنا الشيخ يروي الحديث الموضوع في دروسه متساهلاً وهو حافظ لهذا الحديث المتقدم ، ومحذّر الناس من خطورة القول على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ما لم يقل ؟ !!!!!!

وكيف يصح هذا في الأذهان وقد بيّن الشيخ الإمام رضي الله عنه في شرحه المنظومة البيقونية حكم رواية الموضوع فقال :

تحرم روايته مع العلم بوضعه في أي معنى كان سواء الأحكام والقصص والترغيب والترهيب وغير ذلك إلا أن يقرنه ببيان وضعه لحديث مسلم :

[من حدّث عني بحديث يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين]

. اهـ . بحروفه .[٢]

فإن قيل : إن سيدنا الشيخ روى حديثاً موضوعاً وهو يجهل وضعه

فنقول : وقد أتبع الشيخ كلامه السابق بقوله :

وأما الذي يجهل وضعه فلا إثم عليه إذا رواه ، وإن كان مقصّراً في البحث عنه . اهـ [٣]

فإنك تجد في عبارة سيدنا الشيخ السابقة عتباً على من يروي الموضوع دون أن يتثبت منه فكيف ينهى الشيخ الإمام عن أمر ثم يفعله ؟

لعمرك هذا بهتان عظيم .

---

[١] انظر مقدمة صحيح الإمام مسلم في وجوب الرواية عن الثقات
[٢] ص ١٨١
[٣] ص ١٨٢

و يظهر لك ـ أيها القارىء الكريم ـ واضحاً جلياً مدى سعة اطلاع الشيخ الإمام عبد الله سراج الدين رضي الله عنه على مطوّلات كتب التفسير ، والحديث الشريف وعلومه ، وأمهات كتب السيرة والأخلاق والرقائق ، دل على ذلك توثيق ما جاء به وبذلنا الجهد الشاق في تحصيل ذلك ولولا عون الله تعالى وتيسيره لما استطعنا ذلك .

ولم يكن تخريج الأحاديث الشريفة وكلام الأئمة رضي الله عنهم ـ والذي بذلنا غاية الجهد فيه ـ لم يكن من قبيل التأكد من كلام الشيخ الإمام ـ فإننا ـ وكذلك أحباب الشيخ والحمد لله ـ نعتقد ونثق بكل ما ذكره الشيخ في كتبه ، وما جرى على لسانه المبارك ، لأن من اشتهر بالعلم والمعرفة وعُرف بالصدق والصلاح فإنه لا يذكر حديثاً إلا بعد أن يقبله ويرتضيه ، وهو هو في معرفة شروط الحديث وأُسس قبوله ، ولكن التخريج جيء به توثيقاً لمن أراد من مرضى القلوب الطعن في علم الشيخ الإمام ، وجيء به بياناً لمدى سعة اطلاع الشيخ الإمام على كتب التفسير والحديث كما تقدم .

علماً أن سيدنا الشيخ لم يكن يقبل كلام من قال :

(من أسند فقد أَحَالَك ، ومن أرسل فقد تكفّل لك) .

وقول القائل : (من أسند فقد برئ من العهدة) .

أي ترك للباحث أن ينظر في رجال السند وما قيل فيهم ثم يحكمَ على الحديث ، لم يكن سيدنا الشيخ يقبل هذا الكلام على إطلاقه وكان يقول ـ على سبيل المثال ـ :

مسند الإمام أحمد رضي الله عنه هو مذهبه عقيدة وعملاً ، ومن أسند فقد نظر في الحديث وتبيّن عنده ثم أورده ، ولا بأس في النظر في السند بأمانة علمية مجرّدة عن تدخّل الأهواء النفسية والآراء المنحرفة [١]

---

[١] ومن هذا الباب ما فعله سيدنا الشيخ رضي الله عنه لما أثبت في كتابه أن أبوي سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الشريفين ناجيان ، وأنهما على الإيمان ، كما عليه الأئمة الأجلة من أهل السنة ، ثم أجاب رضي الله عنه عن الحديث الذي رواه الإمام مسلم وفيه : [إن أبي وأباك في النار]

وقد سمعت من سيدنا الشيخ رضي الله عنه مراراً الحديث الذي رواه الإمام أحمد في مسنده [1] عن أبي حميد وأبي أسيد رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

[إذا سمعتم الحديث عني تعرفه قلوبكم ، وتلين له أشعاركم وأبشاركم ، وترون أنه منكم قريب فأنا أولاكم به ، وإذا سمعتم الحديث عني تنكره قلوبكم ، وتنفر منه أشعاركم وأبشاركم ، وترون أنه منكم بعيد فأنا أبعدكم منه] . اهـ .

وفي شرح هذا الحديث قال الإمام المناوي في فيض القدير :

[إذا سمعتم] أيها المؤمنون الكاملون الإيمان الذي استضاءت قلوبهم من مشكاة النبوة
[الحديث عني تعرفه قلوبكم] أي تقبله وتشهد بحسنه
[وتلين له أشعاركم] جمع شعر
[وأبشاركم] جمع بشرة
[وترون] أي تعلمون
[أنه منكم قريب] أي قريب إلى أفهامكم وأحكام دينكم ، ولا يأبى قواعد علومكم أيها المتشرّعة

أجاب بأن هذه اللفظة لم يتفق عليها الرواة ، وإنما ذكرها حمّاد بن سلمة عن ثابت عن أنس رضي الله عنه وقد خالفه معمر بن ثابت فلم يذكر : [إن أبي وأباك في النار] ولكن ذكر قول النبي الكريم صلى الله عليه وسلم :
إذا مررت بقبر كافر فبشّره بالنار .
قال الحافظ السيوطي : وهذا اللفظ أثبت من حيث الرواية ، فإن حماداً قد تُكلِّم في حفظه ، ووقع في أحاديثه مناكير ، ذكر المحدثون أن ربيبه دسّها في كتبه ، وكان حماد لا يحفظ فحدّث بها ، وأما معمر فلم يُتكلم في حفظه ولا استُنكر شيء من حديثه واتفق على التخريج له والرواية عنه الشيخان ، فكان لفظه أثبت وأصح . اهـ .
- انظر كتاب : (هدي القرآن الكريم إلى معرفة العوالم والتفكر في الأكوان) الصفحة ٢٧٨

[1] المسند ٢٢٥٠١ وابن حبان في صحيحه في كتاب العلم والبزار في مسنده وقال في مجمع الزوائد : ورجاله رجال الصحيح ، وذكره الخطيب البغدادي في : الكفاية في علم الرواية ، وابن حجر في : المطالب العالية ، وابن عساكر في : تاريخ دمشق ، وابن سعد في : الطبقات ، ونور الدين الهيثمي في : كشف الأستار .

[فأنا أولاكم به] أحق به في القبول المؤدي إلى العمل بمقتضاه ، لأن ما أُفيضَ على قلبي من المعارف وأنوار اليقين أكثر من بقية الأنبياء فضلاً عنكم .

[وإذا سمعتم الحديث عني تُنكره قلوبكم وتنفر منه أشعاركم وأبشاركم وترون أنه بعيد منكم فأنا أبعدكم منه] لِما ذكر .

ولذلك جزم أئمتنا الشافعية بأن كل حديث أَوْهمَ باطلاً ولم يقبل التأويل فمكذوب عليه لعصمته صلى الله عليه وسلم ، أو نقص منه - أي من الحديث - من جهة رواية ما يزيل الوهم الحاصل بالنقص منه ، وذلك أن الله بعث رسله إلى خلقه لبيان الأمور ومعرفة التدبير وكيف وكم ، وكنهُ الأمور عنده مكنون ، فأفشى منه إلى الرسل ما لا يحتمله عقول غيرهم ، ثم منهم إلى العلماء على قدر طاقتهم ، ثم إلى العامة على قدر حالهم ، فالعلم بحر يجري منه واد ، ثم من الوادي نهر ، ثم من النهر جدول فَسَاقِية ، فلو جرى إلى ذلك الجدول لغرّقه ، ولو مال البحر على الوادي لأفسده ، فمن تكلم بشئ من الهدى فالرسول سابق له ، وإن لم يتكلم بذلك اللفظ ، فقد أتى بأمثلة مجملة ، فلهذا كان أولى ، فإذا كان الكلام غير منكر عند العلماء العاملين فهو قول الرسول صلى الله عليه وسلم ، وإذا كان منكراً عندهم فليس قوله ، وإن روي عنه فلخطأ ، أو سهو من بعض الجهلة ، أو وضعٍ من بعض الزنادقة أو الجهلة ، وذلك لأنه إذا وقع ذكر الحق على القلبِ التقى نوره ونور اليقين فامتزجا ، واطمأن القلب فيعلم أنه حق ، وإذا وقع عليه باطل لاقت ظلمته القلب المشرق بنور اليقين فينفر النور ولم يمتزج معه ، فاضطرب القلب و جاش .

ففرق ما بين كلام النبوة وكلام غيرهم لائح واضح عند العلماء بالله وبأحكامه العاملين عليها.

وأخرج ابن سعد عن الربيع ابن خيثم قال :

(إن من الحديث حديثاً له ضوء كضوء النهار تعرفه ، وإن منه حديثاً له ظلمة كظلمة الليل تنكره)

أما المخلّط المكبّ على شهوات الدنيا ، المحجوب عن الله بالظلمات والكدورات ، فأجنبي من هذا المقام .

- أي ليس له أن يجعل قلبه مقياساً لقبول حديث أو رده –

قال الحكيم : فمن تكلم بشئ بعد الرسول من الحق فالرسول صلى الله عليه وسلم سابق إلى ذلك القول ، وإن لم يكن تكلّم ، لأنه جاء بالأصل ، والأصل مُقدّم على الفرع ، فجاء بالأصل وتكلم مَن بعده بالفرع .

قال : وهذا في الكامل ، أما المخلّط المكبّ على الشهوات المحجوب عن الله فليس هو المعنيّ بهذا الحديث ، لأن صدره مظلم فكيف يعرف الحق ؟! فالمخاطَب من كان طاهر القلب ، عارفاً بالله حق معرفته ، الذي تزول بدعائه الجبال . اهـ[١] .
وقال ابن القيم رحمه الله [٢]: وسُئلت :

هل يمكن معرفة الحديث الموضوع بضابط من غير أن يُنظر في سنده ؟
قلت : فهذا سؤال عظيم القدر ، وإنما يعلم ذلك من تَضلّع في معرفة السنن الصحيحة ، واختلطت بلحمه ودمه [٣]، وصار له فيها مَلَكَة ، وصار له اختصاص شديد بمعرفة السنن والآثار ، ومعرفة سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهديه فيما يأمر به وينهى عنه ، ويخبر عنه ، ويدعو إليه ، ويحبه ويكرهه ، ويشرّعه للأمة ، بحيث كأنه مخالط للرسول صلى الله عليه وسلم كواحد من أصحابه ، فمثل هذا يعرف مِن أحوال الرسول صلى الله عليه وسلم وهديه وكلامه ، وما يجوز أن يخبر به ، وما لا يجوز ، ما لا يعرفه غيره ، وهذا شأن كل متّبع مع متبوعه ،
فإن للأخصّ به الحريص على تتبع أقواله وأفعاله من العلم بها والتمييز بين ما يصح أن يُنسب إليه وما لا يصح ما ليس لمن لا يكون كذلك ،

---

[١] ١ / ٤٩١
[٢] الشيخ شمس الدين محمد بن أبي بكر بن القيم الجوزية الدمشقي المتوفى في دمشق سنة ٧٥١ هـ رحمه الله

[٣] قلت : وذلك تأسياً واقتداء بقول سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لابن عمر رضي الله عنهما : [يَا ابْنَ عُمَرَ دِينُكَ دِينُكَ، إِنَّمَا هُوَ لَحْمُكَ وَدَمُكَ ، فَانْظُرْ عَمَّنْ تَأْخُذُ، خُذْ عَنِ الَّذِينَ اسْتَقَامُوا، وَلا تَأْخُذْ عَنِ الَّذِينَ مَالُوا] .
ـ كما في الكفاية في علم الرواية للخطيب وعزاه في كنز العمال لابن عدي في الكامل .
وقوله صلى الله عليه وسلم لابن عمر : [خذ] أي خذ أحكام الدين وتعاليمه التي جاءت بها نصوص الكتاب والسنة .
وقوله صلى الله عليه وسلم : [وَلا تَأْخُذْ عَنِ الَّذِينَ مَالُوا] ـ أي عن العقيدة السليمة والأعمال الصالحة المستقيمة .
وهذا الكلام وإن كان موجهاً لسيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، لكن المراد به مَن بعده من الأمة ، لأن سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما لم ولن يأخذ عن غير سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وهذا شأن المقلّدين مع أئمتهم يعرفون أقوالهم ونصوصهم ومذاهبهم ، والله أعلم . اهـ[1].

ولا بد أن أذكر هاهنا بحثاً موجزاً عن الحديث الموضوع ، والأسباب التي حملت بعض الناس على الوضع ، وهذا البحث مختصر من مقدمة الإمام ابن عراق [2] على كتابه :
(تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأخبار الشنيعة الموضوعة)
فقد قال رحمه الله تعالى ورضي عنه :
الموضوع لغة اسم مفعول ، مِن : وضع الشيء يَضعه - بالفتح - وضعاً : حطّه وأسقطه .
وقال الحافظ ابن دحية : الموضوع : المُلصَق ، وضع فلان على فلان كذا : ألصقه به ، واصطلاحاً هو : الحديث المختلَق المصنوع ، مأخوذ من المعنى الأول ، لأن رتبته أن يكون مطروحاً ملقى ، لا يستحق الرفع أصلاً أو من المعنى الثاني لأنه ملصق بالنبي وهو شر أنواع الضعيف ،
وله أمارات منها : إقرار واضعه بوضعه ، كحديث فضائل القرآن ، اعترف بوضعه ميسرة بن عبد ربه فيردّ حديثه ذلك سائر مروياته [3]، ومنها أن يصرح بتكذيب راويه جمع كثير يمتنع في العادة تواطؤهم على الكذب أو تقليد بعضهم بعضاً ، ومنها قرينة في حال الراوي كقصة غياث بن إبراهيم النخعي[4]
ومنها قرينة في المَروِيّ كمخالفته لمقتضى العقل ، بحيث لا يقبل التأويل ، ويلتحق به ما يدفعه الحس والمشاهدة ، أو العادة ، وكمنافاته لدلالة الكتاب القطعية أو السنة المتواترة أو الاجماع القطعي .

---

[1] انظر كتاب : (المنار المنيف في الصحيح والضعيف)

[2] هو الإمام نور الدين، علي بن محمد بن علي بن عبد الرحمن بن عراق الكناني المتوفى سنة ٩٦٣هـ رحمه الله

[3] فهذا الحديث موضوع مردود وليس كل ما ورد في فضائل القرآن موضوعاً بل منها الصحيح والحسن وما دون ذلك .

[4] قال الشيخ الإمام في شرح البيقونية :
دخل غياث بن إبراهيم النخعي على المهدي فوجده يلعب بالحمام فساق في الحال إسناداً إلى النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (لا سبق إلا في نصل أو خف أو حافر) أو جناح ، فزاد في الحديث : أو جناح ، فعرف المهدي أنه كذب لأجله فأمر بذبح الحمام .

قال الحافظ ابن حجر :
وتقييد السنة بالمتواترة احتراز عن غير المتواترة ، فقد أخطأ من حكم بالوضع بمجرد مخالفة السنة مطلقاً ، وهذا إنما يتأتى حيث لا يمكن الجمع بوجه من الوجوه ، أما مع إمكان الجمع فلا .
وقال الشيخ تقي الدين ابن دقيق العيد مشيراً إلى هذه الأمارة :
وكثيراً ما يحكمون بالوضع باعتبار أمور ترجع إلى المروي وألفاظ الحديث وحاصله يرجع إلى أنه حصلت لهم لكثرة مزاولة ألفاظ النبي هيئة نفسانية وملكة قوية يعرفون بها ما يجوز أن يكون من ألفاظ النبوة وما لا يجوز ، كما سئل بعضهم : كيف تعرف أن الشيخ كذاب ؟
فقال : إذا روى : (لا تأكلوا القرعة حتى تذبحوها) ، علمت أنه كذاب .
قلت : وقد استأنس بعضهم لذلك بخبر أبي حميد و أبي أسيد عن رسول الله أنه قال :
[إذا سمعتم الحديث تعرفه قلوبكم وتلين له أشعاركم وأبشاركم وترون أنه منكم قريب فأنا أولاكم به ، وإذا سمعتم الحديث عنى تنكره قلوبكم وتنفر منه أشعاركم وأبشاركم وترون أنه منكم بعيد فأنا أبعدكم منه]
رواه الإمام أحمد والبزار في مسنديهما وسنده صحيح كما قاله القرطبي وغيره ، وبقوله صلى الله عليه وسلم : [ما حُدّثتم عني مما تنكرونه فلا تأخذوا به فإني لا أقول المنكر ولست من أهله] رواه ابن الجوزي ، وعن الربيع بن خثيم التابعي الجليل أنه قال :
(إن للحديث ضوءاً كضوء النهار تعرفه وظلمة كظلمة الليل تنكره)،
ومن أنواع هذه الأمارة أن يكون الحديث خبراً عن أمر جسيم تتوفر الدواعي على نقله بحضرة الجمّ الغفير ، ثم لا ينقله إلا واحد منهم
(ومنها) أن يكون فيما يلزم المكلفين علمه وقطع العذر فيه فينفرد به واحد
(ومنها) رِكّة لفظه ومعناه ، قال الحافظ ابن حجر : والمدار على ركّة المعنى ، فحيث وُجدت دلّت على الوضع ، سواء انضم إليها ركة اللفظ أم لا ، فإن هذا الدين كله محاسن ، والركة ترجع إلى الرداءة ، فبينها وبين مقاصد الدين مباينة ، وركّة اللفظ وحدها لا تدل على ذلك ، لاحتمال أن يكون الراوي رواه بالمعنى ، فعبّر بألفاظ غير فصيحة من غير أن يُخلّ بالمعنى ، نعم إن صرّح الراوي بأن هذا لفظ النبي دلت ركة اللفظ حينئذ على الوضع . انتهى .
قال شيخ شيوخنا البرهان البقاعي :
ومما يرجع إلى ركة المعنى الإفراط بالوعيد الشديد على الأمر الصغير، أو بالوعد العظيم على الفعل اليسير

(ومنها) ما ذكره الإمام فخر الدين الرازي أن يُروى الخبر في زمن قد استقرئت فيه الأخبار ودوّنت فيُفتش عنه فلا يوجد في صدور الرجال ولا في بطون الكتب ، فأما في عصر الصحابة وما يقرب منه حين لم تكن الأخبار استُقرئت فإنه يجوز أن يروي أحدهم ما ليس عند غيره .
قال الحافظ العلائي : وهذا إنما يقوم به أي بالتفتيش عنه الحافظ الكبير الذي قد أحاط حفظه بجميع الحديث أو معظمه كالإمام أحمد وعلي بن المديني ويحيى بن معين ومن بعدهم كالبخاري وأبي حاتم وأبي زرعة ومن دونهم كالنسائي ثم الدارقطني لأن المآخذ التي يُحكم بها غالباً على الحديث بأنه موضوع إنما هي جمع الطرق ، والاطلاع على غالب المروي في البلدان المتنائية ، بحيث يعرف بذلك ما هو من حديث الرواة مما ليس من حديثهم ، وأما من لم يصل إلى هذه المرتبة فكيف يقضي بعدم وجدانه للحديث بأنه موضوع ؟ ! هذا مما يأباه تصرفهم .
انتهى كلام الإمام ابن عراق رحمه الله تعالى .
قلت : وكان شيخنا الإمام رضي الله عنه يردّ على من يجعل قول الإمام الشافعي رضي الله عنه : (إذا صح الحديث فهو مذهبي) [1]

كان يردّ على من يجعل هذا القول حجة له في إسقاط ما يريد من المذاهب المعتمدة ، ويبين رضي الله عنه أن هذا القول خاص فيمن له رتبة الاجتهاد في المذاهب فقط .

ونذكر هنا ما قاله الإمام النووي رحمه الله في المجموع :

وهذا الذي قاله الشافعي ليس معناه أن كل من رأى حديثاً صحيحاً قال : (هذا مذهب الشافعي) وعمل بظاهره، وإنما هذا فيمن له رتبة الاجتهاد في المذاهب أو قَرُب منه، وشرطه : أن يكون له خبرة بالأحاديث بحيث يغلب على ظنه أنه لا يعارضه حديث يترجح عليه،

---

[1] قال الإمام السبكي في رسالته عن معنى (إذا صح الحديث فهو مذهبي) : هو قول مشهور عنه - أي عن الإمام الشافعي - لم يختلف الناس في أنه قاله وروي عنه معناه أيضاً بالفاظ مختلفة
والإمام السبكي هو تقي الدين علي بن عبد الكافي بن علي بن تمام السبكي الانصاري الخزرجي، أبو الحسن، تقي الدين: شيخ الاسلام في عصره، وأحد الحفاظ المفسرين المناظرين ، وهو والد التاج السبكي صاحب الطبقات.
ولد في سبك (من أعمال المنوفيه بمصر) وتوفي سنة ٧٥٦ هـ رضي الله عنه

وأن يغلب على ظنه أن الشافعي لم يقف أو لم يعلم بصحته ، وهذا إنما يكون بعد مطالعته كتب الشافعي كلها ونحوها من كتب الآخذين عنه، وسائر أصحابه، وهذا شرط صعب قلّ من يتصف به ، وانما شرطوا ما ذكرناه، لأن الشافعي رحمه الله ترك العمل بظاهر أحاديث كثيرة رآها وعلمها، لكن قام الدليل عنده على طعن فيها أو نسخها أو تخصيصها أو تأويلها أو نحو ذلك. اهـ .[١]

[١] المجموع ٦٤/١

إحياء سنة نبوية شريفة

يقول سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم :
[من أحيا سنتي فقد أحبني ، ومن أحبني كان معي في الجنة] [1]
وقال عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام :
[من أحيا سنة من سنتي قد أُميتت بعدي فإن له من الأجر مثل مَن عمل بها ، من غير أن يُنقص من أجورهم شيئاً] [2]
وروى البيهقي وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم :
[من تمسّك بسنتي عند فساد أمتي فله أجر مائة شهيد] [3]
وروى البيهقي والشهاب القضاعي عن عمرو بن عوف المزني رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
[إن الدين بدأ غريباً ، وسيعود كما بدأ غريباً ، فطوبى للغرباء ، فقيل : يا رسول الله مَن الغرباء ؟
قال : الذين يُحيون سنتي ويُعلّمونها عباد الله [4]

---

[1] طرف حديث في سنن الترمذي كتاب العلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه ، ورواه الطبراني في الأوسط ، وابن شاهين في الترغيب بفضائل الأعمال ، وعزاه السيوطي في الجامع الكبير لأبي يعلى وأبي الحسن بن القطان في الطوالات - وأبو الحسن هو علي بن محمد بن عبد الملك : من حفاظ الحديث، قرطبي الأصل، توفي سنة ٦٢٨ هـ رحمه الله .

[2] طرف حديث في سنن الترمذي كتاب العلم وسنن ابن ماجه في المقدمة وانظره في مسند البزار ومسند عبد بن حميد والمعجم الكبير للطبراني

[3] انظر الزهد الكبير للبيهقي وأمالي ابن بشران - و ابن بشران هو أبو القاسم عبد الملك بن محمد بن عبد الله بن بشْران بن محمد بن بشْران بن مهران البغدادي المتوفى سنة ٤٣٠ هـ وسمي كتابه بـ (الأمالي) لأنه أملاه في عدة مجالس - والحديث عند الطبراني في الأوسط وأبي نعيم في الحلية بلفظ : [له أجر شهيد] .

[4] انظر الزهد الكبير للبيهقي وجامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر وعزاه السيوطي في الجامع الكبير لأبي نصر السجزي فى الإبانة ، وابن عساكر وانظره أيضاً في مسند الشهاب القضاعي ، - والشهاب القضاعي هو أبو عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر بن علي بن حكمون القضاعي المصري المتوفى سنة ٤٥٤ هـ
صنع الشهاب القضاعي رحمه الله أولًا كتاب (الشهاب) الذي هو أصل هذا المسند، فقال في مقدمته : وقد جمعت في كتابي هذا مما سمعته من حديث (ألفَ كلمة - يعني ألف متن حديث - من الحكمة في الوصايا والآداب والمواعظ والأمثال، وجعلتها مسرودة يتلو بعضها بعضاً محذوفة الأسانيد مبوّبة أبواباً على حسب تقارب الألفاظ،

وروى الإمام مسلم في صحيحه عن جرير بن عبد الله قال :
جاء ناس من الأعراب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم الصوف ، فرأى سوء حالهم ، قد أصابتهم حاجة ، فحثّ الناس على الصدقة ، فأبطؤوا عنه ، حتى رئي ذلك في وجهه ، قال : ثم إن رجلاً من الأنصار جاء بِصُرّة من ورِق - أي : فضة - ثم جاء آخر ، ثم تتابعوا حتى عرف السرور في وجهه
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
[مَن سَنّ في الإسلام سنة حسنة فعُمل بها بعده كتب له مثل أجر من عمل بها ولا ينقص من أجورهم شيء] ..... الحديث [1]
وفي رواية : [من سَنَّ سنة خير فاتُّبع عليها فله أجره ومثل أجور من اتبعه غير منقوص من أجورهم شيئاً] [2]
قال الشيخ المباركفوري في تحفة الأحوذي :
قوله صلى الله عليه وسلم : [مَن سن سنة خير]
أي أتى بطريقة مرضية يشهد لها أصل من أصول الدين .
وقال الإمام النووي في شرحه صحيح الإمام مسلم رحمهما الله تعالى :
قوله صلى الله عليه وسلم :
[من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها] إلى آخره ،
فيه : الحث على الابتداء بالخيرات وسنّ السنن الحسنات ، والتحذير من اختراع الأباطيل والمستقبحات ، وسبب هذا الكلام في هذا الحديث أنه قال في أوله : (فجاء رجل بِصرّة كادت كفه تعجز عنها ، فتتابع الناس) وكان الفضل العظيم للبادي بهذا الخير ، والفاتح لباب هذا الإحسان .
وفي هذا الحديث تخصيص قوله صلى الله عليه وسلم : [كل مُحدَثة بدعة وكل بدعة ضلالة]، وأن المراد به المحدثات الباطلة والبدع المذمومة .

ثم زدت مائتي كلمة فصار الكتاب ألف كلمة ومائتي كلمة، وختمت الكتاب بأدعية مروية عنه عليه الصلاة والسلام، وأفردت لأسانيدِ جميعها كتاباً يُرجع إليه في معرفتها."
فعبارته الأخيرة: " وأفردت... " تشير إلى قصة هذا المسند وكيف كان الكتاب محذوف الأسانيد مقصورًا على المتون ثم أسنده المصنف فخرج كتابه هذا.
أما أبو نصر السجزي فهو عبيد الله بن سعيد بن حاتم بن أحمد الوائلي السجزي - بكسر السين المهملة، وسكون الجيم، وفي آخرها الزاي ، وهذه النسبة إلى سجستان ، وقد توفي رحمه الله سنة ٤٤٤ هـ
[1] ورواه الإمام أحمد والنسائي وابن حبان واللفظ لمسلم
[2] انظر سنن الترمذي كتاب العلم

فقوله صلى الله عليه وسلم : [وكل بدعة ضلالة]
هذا عام مخصوص ، والمراد غالب البدع .
قال أهل اللغة : هي كل شيء عُمل على غير مثال سابق .
قال العلماء : البدعة خمسة أقسام : واجبة ، ومندوبة ومحرمة ، ومكروهة ، ومباحة .
فمن الواجبة : نظم أدلة المتكلمين للرد على الملاحدة والمبتدعين وشبه ذلك . ومن المندوبة : تصنيف كتب العلم ، وبناء المدارس والربط وغير ذلك .
ومن المباح : التبسط في ألوان الأطعمة وغير ذلك .
والحرام والمكروه ظاهران .
فإذا عرف ما ذكرته عُلم أن الحديث هو من العام المخصوص ، وكذا ما أشبهه من الأحاديث الواردة ، ويؤيد ما قلناه قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه في التراويح : (نِعْمَتِ البدعة) ، ولا يمنع من كون الحديث عاماً مخصوصاً قوله صلى الله عليه وسلم : [كل بدعة]مؤكداً بـ (كل) ، بل يدخله التخصيص مع ذلك ، كقوله تعالى : { تدمر كل شيء } . اهـ
قلت : أي أن المخصِّص عقلي ، فقوله صلى الله عليه وسلم : (كل بدعة) يعني : كل أمر لا يندرج تحت أصل ديني فهو بدعة مذمومة ، بدليل قوله صلى الله عليه وسلم كما في الصحيحين :
[من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردّ] .
وفي رواية : [مَن عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد] .
وتأمل - يا رعاك الله - في قول النبي الكريم صلى الله عليه وسلم :
[ما ليس منه] أي ما ليس من الدين .
وانظر البحث مفصلاً في فصل : (فوائد منثورة في هذا الكتاب) . اهـ .
قال الشيخ الإمام رضي الله عنه :
وإني أحمد الله تعالى على أن وفقني بأن كنت أول من زاد في التكبيرات قبل صلاة العيد ، زاد الأذكار الواردة في ذلك - وهي التحميد والتهليل والثناء على الله تعالى والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم والدعاء بالمغفرة للمؤمن ووالديه - وجمعتها إلى بعضها ، فجعل المصلون يرددونها قبل صعود الإمام المنبر، فكنت أول من قام بذلك في جامع سليمان الأيوبي [1] ثم انتشرَت هذه الصيغة في المساجد التي حوله شيئاً فشيئاً ، حتى شاعت في الأمصار والأقطار والحمد لله على ذلك . اهـ .

[1] انظر لمحة موجزة عنه في آخر الكتاب

قلت : وأسأل الله تعالى أن يجعل ثواب هذا في صحيفة حسنات شيخنا الإمام رضي الله عنه وكتاب أعماله الواسع ، تحقيقاً لبشارة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في الأحاديث المتقدمة آنفاً .

وأما الصيغة التي كان يرددها الشيخ الإمام رضي الله عنه فهي :
(اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، اللَّهُ أَكْبَرُ ، اللَّهُ أَكْبَرُ وَلِلَّهِ الْحَمْدُ ، اللَّهُ أَكْبَرُ كَبِيرًا ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ كَثِيرًا ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وأَعَزَّ جنده وهزم الأحزاب وحده ، لا شيء قَبْله ولا شيء بَعده ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَلَا نَعْبُدُ إِلَّا إِيَّاهُ ، مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، اللهم صل على سيدنا محمد ، وعلى آل سيدنا محمد ، وعلى أصحاب سيدنا محمد ، وعلى أزواج سيدنا محمد ، وعلى أنصار سيدنا محمد ، وعلى ذرية سيدنا محمد ، وسلِّمْ تسليماً كثيراً ، رب اغفر لي ولوالديّ ، رب ارحمهما كما ربياني صغيراً) .

وقد استحسنتُ أن أسرد الأدلة على ذلك ، ليتبين للقارئ الكريم أن الشيخ الإمام رضي الله عنه لم يذكر شيئاً ولم يفعل أمراً إلا وله دليل من الكتاب والسنة واجتهاد الأئمة ، وإليك بيان ذلك :

إن من السنن المطلوبة والمرغوبة من المؤمن : التَّكْبِير فِي الْعِيدَيْنِ [1] ، ويَكُونُ فِي أَثْنَاءِ الصَّلاةِ وَفِي الطَّرِيقِ إِلَيْهَا وَبَعْدَ انْقِضَائِهَا .

أَمَّا التَّكْبِيرُ فِي الْغُدُوِّ إِلَيْهَا ، فَقَدْ ذَهَبَ الْفُقَهَاءُ إِلَى مَشْرُوعِيَّتِهِ عِنْدَ الْغُدُوِّ إِلَى الصَّلاةِ فِي الْمَنَازِلِ وَالأَسْوَاقِ وَالطُّرُقِ إِلَى أَنْ تَبْدَأَ الصَّلاةُ .

ثُمَّ إِنْ كَانَ الْعِيدُ فِطْرًا سُنَّ الْخُرُوجُ إِلَى الْمُصَلَّى بِدُونِ جَهْرٍ بِالتَّكْبِيرِ فِي الأَصَحِّ عِنْدَ الْحَنَفِيَّةِ [2] .

وإِنْ كَانَ أَضْحَى فَيُسَنُّ الْجَهْرُ بِالتَّكْبِيرِ فِي الطَّرِيقِ إِلَيْهِ .

قَالَ فِي الدُّرِّ الْمُخْتَارِ : قِيلَ : وَفِي الْمُصَلَّى أَيْضًا وَعَلَيْهِ عَمَلُ النَّاسِ الْيَوْمَ [3] .

وَاتَّفَقَتْ بَقِيَّةُ الأَئِمَّةِ مَعَ الْحَنَفِيَّةِ فِي اسْتِحْبَابِ الْخُرُوجِ إِلَى الْمُصَلَّى مَاشِيًا وَالْعَوْدِ مِنْ طَرِيقٍ آخَرَ ، وَأَنْ يَطْعَمَ شَيْئًا يَوْمَ عِيدِ الْفِطْرِ قَبْلَ خُرُوجِهِ إِلَى الصَّلاةِ ، وَأَنْ يَغْتَسِلَ وَيَتَطَيَّبَ وَيَلْبَسَ أَحْسَنَ ثِيَابِهِ .

---

[1] الْعِيدُ لُغَةً مُشْتَقٌّ مِنَ الْعَوْدِ ، وَهُوَ الرُّجُوعُ وَالْمُعَاوَدَةُ لأَنَّهُ يَتَكَرَّرُ . وَلا يَخْرُجُ الْمَعْنَى الاصْطِلاحِيُّ عَنِ الْمَعْنَى اللُّغَوِيِّ

[2] حاشية ابن عابدين ١ / ٥٨١

[3] الدر المختار ١ / ٥٨٦

أَمَّا التَّكْبِيرُ فِي الطَّرِيقِ إلَى الْمُصَلَّى فَقَدْ خَالَفَ الْحَنَفِيَّةَ فِي ذَلِكَ كُلٌّ مِنَ الْمَالِكِيَّةِ وَالْحَنَابِلَةِ ، وَالشَّافِعِيَّةِ ، فَذَهَبُوا إلَى أَنَّهُ يُنْدَبُ التَّكْبِيرُ عِنْدَ الْخُرُوجِ إلَى الْمُصَلَّى وَالْجَهْرُ بِهِ فِي كُلٍّ مِنْ عِيدَيِ الْفِطْرِ وَالأَضْحَى .
وَأَمَّا التَّكْبِيرُ فِي الْمُصَلَّى : فَقَدْ ذَهَبَتِ الشَّافِعِيَّةُ (فِي الأَصَحِّ مِنْ أَقْوَالٍ ثَلاثَةٍ) إلَى أَنَّهُ يُسَنُّ لِلنَّاسِ الاسْتِمْرَارُ فِي التَّكْبِيرِ إلَى أَنْ يُحْرِمَ الإِمَامُ بِصَلاةِ الْعِيدِ [1].
وَذَهَبَ الْمَالِكِيَّةُ - أَيْضًا - إلَى ذَلِكَ اسْتِحْسَانًا .
قَالَ الْعَلامَةُ الدُّسُوقِيُّ فِي حَاشِيَتِهِ عَلَى الشَّرْحِ الْكَبِيرِ :
وَأَمَّا التَّكْبِيرُ جَمَاعَةً وَهُمْ جَالِسُونَ فِي الْمُصَلَّى فَهَذَا هُوَ الَّذِي اسْتُحْسِنَ ، وَهُوَ رَأْيٌ عِنْدَ الْحَنَابِلَةِ أَيْضًا [2] .
وقَالَ الإمام الشّافعيُّ - رحمه الله:
فإذا رَأَوْا هِلاَلَ شَوَّالٍ أَحْبَبْتُ أَنْ يُكَبِّرَ الناس جَمَاعَةً وَفُرَادَى في الْمَسْجِدِ وَالأَسْوَاقِ وَالطُّرُقِ وَالْمَنَازِلِ وَمُسَافِرِينَ وَمُقِيمِينَ - في كل حَالٍ - وَأَيْنَ كَانُوا ، وَأَنْ يُظْهِرُوا التَّكْبِيرَ ، وَلاَ يَزَالُونَ يُكَبِّرُونَ حتى يَغْدُوَا إلَى الْمُصَلَّى ، وَبَعْدَ الْغُدُوِّ حتى يَخْرُجَ الإِمَامُ لِلصَّلاَةِ ، ثُمَّ يَدَعُوا التَّكْبِيرَ، وَكَذَلِكَ أُحِبُّ في لَيْلَةِ الأَضْحَى لِمَنْ لم يَحُجَّ، فَأَمَّا الْحَاجُّ فَذِكْرُهُ التَّلْبِيَةُ. [3]
وروى ابن خزيمة في صحيحه والبيهقي في السنن الكبرى عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يَخرج في العيدين مع الفضل بن عباس ، وعبد الله بن عباس ، والعباس ، وعلي ، وجعفر ، والحسن ، والحسين ، وأسامة بن زيد ، وزيد بن حارثة ، وأيمن ابن أم أيمن ، رافعاً صوته بالتهليل والتكبير ، فيأخذ طريق الحدادين حتى يأتي المصلّى .
وقال الإمام البخاري في صحيحه :
قال ابن عباس : قوله تعالى : { واذكروا الله في أيام معلومات }
أي : أيام العشر ، والأيام المعدودات : أيام التشريق ، وكان ابن عمر وأبو هريرة يخرجان إلى السوق في أيام العشر يكبّران ويكبّر الناس بتكبيرهما .

---

[1] المجموع للنووي ٥ / ٣٢
[2] حاشية الدسوقي على الشرح الكبير ١ / ٣٢٠ ، والمغني لابن قدامة ١ / ٣١٠ .
[3] كتاب الأم ١ / ٢٦٥

وفي مصنف ابن أبي شيبة عن الزهري قال :
كان الناس يكبّرون في العيد حين يخرجون من منازلهم حتى يأتوا المصلّى وحتى يخرج الامام ، فإذا خرج الامام - أي صعد المنبر للخطبة - سكتوا فإذا كبّر كبّروا.
وذكر الفريابي في كتابه (أحكام العيدين) عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ قَالَ:
رَأَيْتُ نَافِعَ بْنَ جُبَيْرٍ يُكَبِّرُ يَوْمَ الْعِيدِ وَيَقُولُ: (اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ) ،
أَلا تُكَبِّرُونَ أَيُّهَا النَّاسُ ؟!
أما كيفية التكبير فقد قال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى ورضي عنه :
والتكبير كما كبّر رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصلاة " الله أكبر " فيبدأ الامام فيقول: " الله أكبر الله أكبر الله أكبر " حتى يقولها ثلاثاً ، وإن زاد تكبيراً فحسن ، وإن زاد فقال: " الله أكبر كبيراً والحمد لله كثيراً وسبحان الله بكرة وأصيلاً ، لا إله إلا الله ، ولا نعبد إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون ، لا إله إلا الله وحده صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده لا إله إلا الله والله أكبر " فحسن ، وما زاد مع هذا من ذكر الله أحببتُه، غير أنى أحب أن يبدأ بثلاث تكبيرات نسقاً ، وإن اقتصر على واحدة أجزأته ، وإن بدأ بشيء من الذكر قبل التكبير أو لم يأت بالتكبير فلا كفارة عليه.[1]
وقال الصنعاني في سبل السلام :
وَأَمَّا صِفَتُهُ فَأَصَحُّ مَا وَرَدَ فِيهِ مَا رَوَاهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ سَلْمَانَ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ قَالَ : { كَبِّرُوا : اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ كَبِيرًا } ، وَقَدْ رُوِيَ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَمُجَاهِدٍ وَابْنِ أَبِي لَيْلَى ، وَقَوْلِ الشَّافِعِيِّ وَزَادَ فِيهِ " وَلِلَّهِ الْحَمْدُ " ، وَفِي الشَّرْحِ صِفَاتٌ كَثِيرَةٌ وَاسْتِحْسَانَاتٌ عَنْ عِدَّةٍ مِنْ الْأَئِمَّةِ ، وَهُوَ يَدُلُّ عَلَى التَّوْسِعَةِ فِي الْأَمْرِ ، وَإِطْلَاقُ الْآيَةِ يَقْتَضِي ذَلِكَ[2]
- وهي قوله تعالى : { وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ }- .
وقال الحافظ ابن حجر في الفتح:
وأما صيغة التكبير فأصح ما ورد فيه ما أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن سلمان قال " كبّروا الله ، الله أكبر الله أكبر ، الله أكبر كبيراً " ونقل عن سعيد بن جبير ومجاهد وعبد الرحمن بن أبي ليلى أخرجه جعفر الفريابي في " كتاب العيدين " من طريق يزيد بن أبي زياد عنهم وهو قول الشافعي وزاد " ولله الحمد " .

[1] الأم ١ / ٢٧٦
[2] سبل السلام ٢ / ٤٩٤

وقيل يكبر ثلاثاً ويزيد " لا إله إلا الله وحده لا شريك له ...... " ، وقيل يكبر ثنتين بعدهما " لا إله إلا الله والله أكبر ، الله أكبر ، ولله الحمد " جاء ذلك عن عمر ، وعن ابن مسعود نحوه ، وبه قال أحمد وإسحاق [١]
وقال في تحفة المحتاج شرح المنهاج :
(وَصِيغَتُهُ الْمَحْبُوبَةُ) أَيْ ـ صيغة التكبير ـ الْفَاضِلَةُ لِاشْتِمَالِهَا عَلَى نَحْوِ مَا صَحَّ فِي مُسْلِمٍ عَلَى الصَّفَا وَزِيَادَتِهَا بِأَشْيَاءَ أَخَذُوا بَعْضَهَا مِنْ فِعْلِ بَعْضِ الصَّحَابَةِ تَارَةً كَتَتَابُعِ التَّكْبِيرِ ثَلَاثًا أَوَّلَهَا وَمِنْ فِعْلِ بَقِيَّةِ السَّلَفِ أُخْرَى
(اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ وَلِلَّهِ الْحَمْدُ)
(وَيُسْتَحَبُّ) كَمَا فِي الْأُمِّ (أَنْ يَزِيدَ) بَعْدَ التَّكْبِيرَةِ الثَّالِثَةِ أَيْ وَمَا بَعْدَهَا مِمَّا ذُكِرَ إنْ أَتَى بِهِ : (اللَّهُ أَكْبَرُ كَبِيرًا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ كَثِيرًا وَسُبْحَانَ اللَّهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا) ـ أَيْ أَوَّلَ النَّهَارِ وَآخِرَهُ ، وَالْمُرَادُ جَمِيعُ الْأَزْمِنَةِ ــ (لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ وَلَا نَعْبُدُ إلَّا إيَّاهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ صَدَقَ وَعْدَهُ [٢] وَنَصَرَ عَبْدَهُ [٣] وَهَزَمَ الْأَحْزَابَ وَحْدَهُ [٤] لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ وَاَللَّهُ أَكْبَرُ) ؛ لِأَنَّهُ مُنَاسِبٌ وَلِأَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ نَحْوَ ذَلِكَ عَلَى الصَّفَا .
ثم قال :
زَادَ الْغَزِّيِّ عَلَى أَبِي شُجَاعٍ : (وَأَعَزَّ جُنْدَهُ وَهَزَمَ الأحزاب وحده) .
وعِبَارَةُ شَيْخِنَا عَلَى الْغَزِّيِّ قَوْلُهُ :
(وَأَعَزَّ جُنْدَهُ) قِيلَ : لَمْ تَرِدْ هَذِهِ الْكَلِمَةُ فِي شَيْءٍ مِنْ الرِّوَايَاتِ ، لَكِنَّهَا زِيَادَةٌ لَا بَأْسَ بِهَا ، لَكِنْ صَرَّحَ الْعَلْقَمِيُّ [٥] عَلَى الْجَامِعِ الصَّغِيرِ بِأَنَّهَا وَرَدَتْ . اهـ .
(قَوْلُهُ : لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ وَاَللَّهُ أَكْبَرُ) صَرِيحُ كَلَامِهِمْ أَنَّهُ لَا تُنْدَبُ الصَّلَاةُ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْدَ التَّكْبِيرِ لَكِنَّ الْعَادَةَ جَارِيَةٌ بَيْنَ النَّاسِ بِإِتْيَانِهِمْ بِهَا بَعْدَ تَمَامِ التَّكْبِيرِ ، وَلَوْ قِيلَ بِاسْتِحْبَابِهَا عَمَلًا بِظَاهِرِ قوله تعالى : { ورَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ }، وَعَمَلًا بِقَوْلِهِمْ : إنَّ مَعْنَاهُ ما ورد في الحديث القدسي : [لَا أُذْكَرُ إلَّا وذكرتَ مَعِي] [٦]
لَمْ يَكُنْ بَعِيدًا .

---

[١] ٣/ ٣٩١
[٢] أَيْ صدق وَعْدِهِ لِنَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالنَّصْرِ عَلَى الْأَعْدَاءِ
[٣] أَيْ سَيِّدَنَا مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
[٤] أَيْ الَّذِينَ تَحَزَّبُوا عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُمْ قُرَيْشٌ وَغَطَفَانُ وَقُرَيْظَةُ وَالنَّضِيرُ وَكَانُوا قَدْرَ اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفًا فَأَرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ الرِّيحَ وَالْمَلَائِكَةَ فَهَزَمَهُمْ
[٥] واسم الشرح : (الكوكب المنير شرح الجامع الصغير)
للشيخ شمس الدين محمد ابن العلقمي ، المتوفى سنة ٩٢٩ هـ رحمه الله تعالى .
[٦] كما في دلائل النبوة للبيهقي واللفظ له ومسند أبي يعلى وصحيح ابن حبان

وعِبَارَةُ شَيْخِنَا : وَتُسَنُّ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بَعْدَ ذَلِكَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَنْصَارِهِ وَأَزْوَاجِهِ وَذُرِّيَّتِهِ . اهـ .[١]
وقال النووي في المجموع [٢]:
صفة التكبير المستحبة :
(الله أكبر الله أكبر الله أكبر) ، هذا هو المشهور من نصوص الشافعي في الأم والمختصر وغيرهما ، وبه قطع الأصحاب ، وحكى صاحب التتمة وغيره قولاً قديماً للشافعي أنه يكبّر مرتين ويقول : (الله أكبر الله أكبر) ، والصواب الأول ثلاثاً نسقاً .
قال الشافعي في المختصر : وما زاد من ذكر الله فحسن ، وقال في الأم : أحب أن تكون زيادته : (الله أكبر كبيراً والحمد لله كثيراً وسبحان الله بكرة وأصيلاً لا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه مخلصين له الدين ولو كره الكافرون لا إله إلا الله وحده صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده لا إله إلا الله والله أكبر) .
واحتجوا له بأن النبي صلي الله عليه وسلم قاله على الصفا
وهذا الحديث رواه مسلم [٣] في صحيحه .

---

[١] ١٠ / ١٩٣
[٢] ٥ / ٣٩
[٣] والحديث في صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه في وصف حج النبي صلى الله عليه وسلم وفيه :
فلما دنا من الصفا قرأ { إن الصفا والمروة من شعائر الله }
أبدأ بما بدأ الله به ، فبدأ بالصفا فرقى عليه حتى رأى البيت ، فاستقبل القبلة فوحّد الله وكبّره وقال : [لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، لا إله إلا الله وحده أنجز وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده] .

كلمة للشيخ الإمام حول روايته بعض الأحاديث الضعيفة في كتبه

قال سيدنا الشيخ رضي الله عنه في كتابه

(الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم) : [1]

جواب أهل العلم والرشاد لمن دأبه الاعتراض والانتقاد :

قد يقول بعض الناس : مالك تأتي في كتبك ببعض أحاديث فيها ضعف ؟!

فالجواب عن ذلك : أنني أَجري في ذلك على منهاج جمهور علماء الحديث العلمي والعملي ، ولاشك أن الحق هو مع الجمهور ، ويد الله تعالى على الجماعة .

أما منهاج جمهور المحدثين العلمي الذي انتهجوه فهو :
كما بينه الحافظ السخاوي في خاتمة كتابه :

(القول البديع في الصلاة على الحبيب الشفيع صلى الله عليه وسلم)
حيث قال في صفحة ٢٥٨ :

قال شيخ الإسلام أبو زكريا النووي رحمه الله تعالى في (الأذكار) :

قال العلماء من المحدثين والفقهاء وغيرهم :

يجوز ويستحب العمل في الفضائل والترغيب والترهيب بالحديث الضعيف ما لم يكن موضوعاً ، وأما الأحكام كالحلال والحرام والبيع والنكاح والطلاق وغير ذلك فلا يعمل فيها إلا بالحديث الصحيح أو الحسن ، إلا أن يكون في احتياط في شيء من ذلك : كما إذا ورد حديث ضعيف بكراهة بعض البيوع أو الأنكحة ، فإن المستحب أن يتنزه عنه ولكن لا يجب . اهـ

قال الحافظ السخاوي : وخالف ابن العربي المالكي في ذلك فقال - أي أبو بكر ابن العربي - : إن الحديث الضعيف لا يعمل به مطلقاً .اهـ

---

[1] ص ٢٥٢

قال الحافظ السخاوي : وقد سمعت شيخنا ـ يعني الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى ـ مراراً يقول ـ وكتبه لي بخطه ـ :

إن شرائط العمل بالضعيف ثلاثة :

الأول : متفق عليه ـ أي الشرط الأول متفق عليه ـ :

أن يكون الضعف غير شديد ، فخرج به من انفرد به أحد من الكذابين ، والمتهمين بالكذب ، ومن فحش غلطه .

الثاني : أن يكون مندرجاً تحت أصل عام ، فيخرج ما يخترع ، بحيث لا يكون له أصل أصلاً .

الثالث : أن لا يعتقد عند العمل به ثبوته ، لئلا ينسب إلى النبي صلى الله عليه وسلم ما لم يقله .

قال ـ يعني الحافظ ابن حجر ـ : والأخيران ـ أي الشرطان الأخيران ـ عن ابن عبد السلام وعن صاحبه ابن دقيق العيد ، والأول نقل العلائي الاتفاق عليه . اهـ

قال الحافظ السخاوي : قلت : وقد نقل عن الإمام أحمد أنه يعمل بالضعيف إذا لم يوجد غيره ، ولم يكن ثَمّ ما يعارضه ، وفي رواية عنه ـ أي عن الإمام أحمد ـ أن ضعيف الحديث أحب إلينا من رأي الرجال ، وكذا ذكر ابن حزم أن جميع الحنفية مُجمِعون على أن مذهب أبي حنيفة رضي الله تعالى عنه : أن ضعيف الحديث أولى عنده من الرأي والقياس .

وسئل الإمام أحمد عن الرجل يكون ببلد لا يوجد فيها إلا صاحب حديث لا يدري صحيحه من سقيمه ، وصاحب رأي : فمن يسأل ؟.

قال : يسأل صاحب الحديث ولا يسأل صاحب الرأي .

قال الحافظ السخاوي : ونقل عبد الله ابن منده عن أبي داود صاحب السنن ـ وهو من تلامذة الإمام أحمد رضي الله عنهما ـ أنه يخرج الإسناد الضعيف إذا لم يجد في الباب غيره ، وأنه أقوى عنده من رأي الرجال .اهـ

فتحصّل أن في الضعيف ثلاثة مذاهب :

أولها : لا يعمل به مطلقاً .

ثانيها : يعمل به مطلقاً إذا لم يكن في الباب غيره .

ثالثها : وهو الذي عليه الجمهور: يعمل به في الفضائل دون الأحكام كما تقدم بشروطه .

قال - أي الحافظ السخاوي - : وأما الموضوع فلا يجوز العمل به بحال ، وكذا روايته إلا إن قرنت ببيانه ، لقوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه مسلم في (صحيحه) من حديث سمرة رضي الله عنه قال : قال صلى الله عليه وسلم :

[من حدّث بحديث عني يُرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين] [1]

قال : وكفى بهذه الجملة وعيداً شديداً في حق من روى الحديث وهو يظن أنه كذب ، فضلاً عن أن يتحقق ذلك ولا يبينه ، لأنه صلى الله عليه وسلم جعل المحدث بذلك مشاركاً لكاذبه في وضعه .

ثم قال الحافظ السخاوي : قال ابن الصلاح رحمه الله تعالى ما لفظه بعد تعريفه الصحيح في (علومه) :

ومتى قالوا : هذا حديث صحيح ، فمعناه أنه اتصل سنده مع سائر الأوصاف المذكورة ، وليس من شرطه أن يكون مقطوعاً به في نفس الأمر [2] ، - إلى أن قال - يعني ابن الصلاح - : وكذلك إذا قالوا في حديث : إنه غير صحيح ، فليس ذلك قطعاً بأنه كذب في نفس الأمر ، إذ قد يكون صدقاً في نفس الأمر ، وإنما المراد أنه لم يصح إسناده على الشرط المذكور .

والله تعالى أعلم .

---

[1] قال الحافظ :(يرى) مضبوطة بضم الياء بمعنى يظن ، وفي (الكاذبين) روايتان أحدهما بفتح الباء ، على إرادة التثنية ، والأخرى بكسرها على صيغة الجمع اهـ

[2] قلت : وهذا الأمر نسبي فقد يصحّ عند بعض المحدثين حديث ، ولا يصح عند آخرين .

قال الحافظ السخاوي : وينبغي - كما قال النووي رحمه الله تعالى أيضاً - لمن بلغه شيء من فضائل الأعمال : أن يعمل به ولو مرة ليكون من أهله ، ولا ينبغي أن يتركه مطلقاً ، بل يأتي بما تيسر منه ، لقوله صلى الله عليه وسلم في الحديث المتفق على صحته :

[فإذا أمرتكم بشيء فافعلوا منه ما استطعتم] .

ثم روى الحافظ السخاوي في (جزء الحسن بن عرفة) بسنده إلى أبي سلمة وجابر رضي الله عنهما قالا : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

[من بلغه عن الله عز وجل شيء فيه فضيلة فأخذ به إيماناً ورجاء ثوابه أعطاه الله ذلك وإن لم يكن كذلك] .

ثم قال : وكذا أخرجه أبو يعلى بسند ضعيف عن أنس بلفظ :
[من بلغه عن الله فضيلة فلم يصدق بها لم يَنَلْهَا] .

قال السخاوي : ولهذا الحديث شواهد من حديث ابن عباس وابن عمر وأبي هريرة رضي الله عنهم وعن سائر الصحابة أجمعين . اهـ .

والبحث في الأدلة على جواز العمل بالضعيف مفصلاً يأتي في موضعه ، وقد ذكرنا جانباً من الكلام عليه في (شرحنا على المنظومة البيقونية) .

وأما منهاج جمهور المحدثين العملي :

فإن أئمة الحديث قد أوردوا في مصنفاتهم الحديثية جملة من الأحاديث الضعيفة ، تتعلق بفضائل الأعمال ، والترغيب والترهيب والمناقب ، مستدلين بها ومستشهدين على ذلك ، فمنهم :

الإمام البخاري في كتاب (الأدب المفرد) ، والإمام الترمذي في (جامعه) ، والإمام أبو داود في (سننه) ، والإمام النسائي في (سننه) ، والإمام ابن ماجه في سننه ، والإمام أحمد في (مسنده) ، وغير هؤلاء من أئمة الحديث أصحاب السنن والمسانيد والمعاجم والأجزاء ، فكلهم جرَوا على إيراد الحديث الضعيف في الفضائل والترهيب والترغيب والمناقب ، مستشهدين بها تحت عنوان : أبواب أو فصول أو غير ذلك .

قال أبو عبد الله الرّصّاع المالكي في :

(تحفة الأخيار في فضل الصلاة على النبي المختار)

بعد أن ذكر جملة من الأحاديث الواردة في فضل الصلاة والتسليم على النبي صلى الله عليه وسلم :

قال : ربما نظر بعض ضعفاء الإيمان في بعض هذه الأحاديث ، فيقدح فيها ويقول : إنها لم تَرِدْ في الصحاح ، وهو من سوء العقيدة ، والقدح في شريعة سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم ، بل الصواب تلقّي ما تلقاه العلماء بالقبول ، لأن عدالة أمّته صلى الله عليه وسلم تمنعهم من الكذب على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : [من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار]

قال : وحاشا أهل العلم الخائفين من الله تعالى أن يتعمدوا الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأحاديث الترغيب معلوم ما فيها عند العلماء .

ثم إن هذه الأحاديث اشتركت كلها في فضل الصلاة على نبي الله تعالى وعزيز القدر عند الله تعالى ، وهذا أمر مقطوع به ، ولا يشك عاقل فيه ، وإنما تقع الزيادة واختلاف الروايات في قدر الثواب ورفع الدرجات . اهـ . من كتاب (سعادة الدارين) لفضيلة العالم العارف بالله تعالى ، العاشق لحبيب الله تعالى ، السابح في بحور أهل الله تعالى الشيخ يوسف النبهاني رحمه الله تعالى ونفعنا ببركاته .

اهـ . بحروفه من كتاب (الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم) لمولانا الشيخ الإمام رضي الله عنه.

ورعه في الفتوى

كان من عادة الشيخ الإمام رضي الله عنه في بعض الأحيان أن يحيل من استفتاه عن مسألة فقهية أو بيان شرعي لآية كريمة أو حديث شريف أن يحيله إلى دائرة الفتوى ، حيث أُسند الأمر فيها إلى القائمين على الإفتاء وعلى رأسهم المفتي العام ومعاونوه من أمين الفتوى وكاتب الفتوى وغيرهم ، وإذا أصر السائل وألح على الشيخ أن يسمع جوابه ويستبين رأيه في المسألة لم يكن الشيخ يبادره الجواب مباشرة بل يؤجله ساعة أو أكثر ويحدد له موعداً للجواب إما بالهاتف السلكي المتوفر وقتها أو بلقاء شخصي معه في غرفة الإدارة في المدرسة الشعبانية إن كان الأمر يحتاج إلى بيان وتوضيح وتوثيق .

واعلم أن تأجيله جواب سائله ليس من قبيل الجهالة به ، بل من باب الاحتياط والورع والدقة في الجواب ، حيث إنه يرجع إلى أمهات كتب الفقه والأقوال المعتمدة فيها ، وكذا التفاسير المشهورة ، وشروح الأحاديث الشريفة ، فيتثبت مما يعلمه ليجيب السائل عن علم سابق وعيان لاحق فانظر ورعه وحذره في ذلك .

لم لا وقد قال صلى الله عليه وسلم :

[أجرؤكم على الفتيا أجرؤكم على النار] [1]

قلت : وهذا ما نهجه كبار علماء سلفنا الصالح حين تقرأ سيرتهم ، كيف أنهم كانوا يتورعون عن الفتوى والتصدر لها ، لا كتماناً للعلم ، لكن ورعاً وحذراً ، وكانوا يعلمون أن هناك من يقوم مقامهم في ذلك . [2]

---

[1] رواه الإمام الدارمي في سننه عن عبيد الله بن جعفر رضي الله عنه

[2] قال البراء رضي الله عنه:
"لقد رأيت ثلاثمائة من أهل بدر ما منهم من أحد إلا وهو يحب أن يكفيه صاحبُه الفتوى".
وقال عطاء بن السائب:
"أدركت أقواماً إن كان أحدهم ليُسأل عن الشيء فيتكلم وإنه ليرعد".
وقال أبو حنيفة رحمه الله :

وكان مولانا الشيخ الوالد رضي الله عنه يُستفتى من أصحابه وطلابه ومن حضر عليه من عامة الناس الذين لا يثقون إلا بقوله - لِما أسكن الله في قلوبهم من محبته ومودته والثقة به - فهو عندهم مسموع الكلام مطاع الأمر فلا يجرؤ أحد مثلاً من أهل العلم أن يسأله عن تخريج حديث لم يذكر الشيخ راويه فضلاً عن غيرهم من طلاب العلم وعامة المؤمنين ، لأنهم يعتقدون أنه لم يذكر حديثاً ولن يذكره إلا بعد أن ثبت عنده وارتضاه ، ثم ذكره ، خاصة أن إجازاته في الحديث عالية الأسانيد وكثيرة الطرق مشهورة كما تقدم .

وربما قال قائلهم : أفلا أَقْبل حديثاً سمعته من الشيخ وقد قَبِله هو وارتضاه ؟ فلابد أنه ثابت إذاً .

وأما من أراد البحث والتحقق فعليه بكتب الحديث وشروحها ، ولن يجد حكماً بالوضع على حديث ذكره الشيخ رضي الله عنه .

ولابد للحكم بوضع الحديث من ضوابط وشروط وأهلية علمية عند راوي الحديث تمكّنه من ذلك ، لأنه أحياناً تدخل عليه الأهواء النفسية فينبغي الانتباه إلى هذا والحذر منه .

ولذلك قالوا : (كلام الأقران إذا تَبَرهن لنا أنه بهوى وعصبية، لا يُلتفت إليه، بل يطوى ولا يروى) [1]

« من تكلم في شيء من العلم وتقلّده وهو يظن أن الله لا يسأله عنه:
كيف أفتيت في دين الله ؟
فقد سهلت عليه نفسه ودينه
(انظر ما سبق في كتاب : الفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي)
وفي سنن الدارمي في المقدمة :
وقال عبد الرحمن بن أبى ليلى : لقد أدركت فى هذا المسجد عشرين ومائة من الأنصار وما منهم أحد يحدّث بحديث إلا ودّ أن أخاه كفاه الحديث ، ولا يُسأل عن فتيا إلا ود أن أخاه كفاه الفتيا .
- وقال داود: سألت الشعبي كيف كنتم تصنعون إذا سئلتم؟ قال: على الخبير وقعت ، كان إذا سُئل الرجل قال لصاحبه : أَفْتِهم ، فلا يزال حتى يرجع إلى الأول.
[1] انظر سير أعلام النبلاء للإمام الذهبي (٩٢/١٠) عند ترجمة الإمام الشافعي

فقد يكون في رجال السند من قال بعضهم بجرحه ، وآخر قال بتعديله وتوثيقه وهكذا .

وأما الأحاديث الضعيفة فقد أطال العلماء الكلام على أحكامها ، ويُعمل بها في فضائل الأعمال .

- وللشيخ الإمام بحث حول هذا، انظره في كتاب شرح المنظومة البيقونية وقد سبق ذكره في هذا الكتاب -

وفي أحد لقاءات الشيخ رضي الله عنه مع بعض أهل العلم سأله أحدهم :

يا سيدنا إنك في تخريج الأحاديث في الكتب التي جمعتها تعزو الأحاديث إلى كبار الحفاظ كالمنذري وابن حجر والهيثمي وصاحب التيسير- (ابن الديبع)- وصاحب جامع الأصول فتقول : عزاه في الفتح إلى كذا ، عزاه المنذري إلى كذا ، ولا تعزوها إلى مخرّجها الأصلي كالبخاري ومسلم مثلاً ؟

فقال الشيخ : وما الغضاضة والحرج في ذلك ؟

إذا كان في اختلاف النسخ فهو أمر ثابت وقوعه ، وإن كان غير ذلك فإني أرتضي حديثاً ارتضاه الحافظ المنذري وذكره في ترغيبه ، لأنه حافظ محدث عالم ثقة عند أهل عصره ، ولست في كتبي محقّقاً للأحاديث ورواتها والنظر في أسانيدها ، فإن ذلك مقتصر على طائفة معينة من طلاب العلم ، وإنما أذكر الأحاديث ليتعلم الناس أمور دينهم ، وما ينفعهم ويسعدهم في الدنيا والآخرة . اهـ .

وأما مسلك الأخذ بالحديث الضعيف فهو مسلك سلكه كبار المحدثين كالبخاري في كتابه الأدب المفرد والتاريخ الكبير ، فلم يشترط فيه شرط الصحيح وسلك غيره هكذا .

ـ قلت : ومن ذلك مثلاً الإمام الغزالي [1] الذي اشتهر عند أهل عصره بأنه حجة الإسلام ، لمتانة علمه ورسوخه فيه ، ولِما أيده الله به من براهين وحجج من الكتاب والسنة والرد على أهل البدع .

فلما صنف كتاب (الإحياء) وذكر فيه أحاديث كثيرة جداً لم يذكر من خرّجها إلا قليلاً ، ومع ذلك قَبِله أهل عصره ومن بعدهم دونما انتقاد واعتراض لمجرد الاعتراض ، حتى جاء الحافظ العراقي [2] واعتنى بتخريج أحاديث الإحياء ، والحديث الذي لم يعثر على مخرّجه لم يحكم بوضعه بل قال : لم أجد له أصلاً .

وهذا من أدب العلماء والمحدثين أي أنه ترك المجال لغيره للبحث والتدقيق في كتب الحديث لعله يجد له مُخرّجاً ، فغاية ما كان أنه بذل جهده في تخريج أحاديث الإحياء وذكر ما توصل إليه ، وفتح المجال لغيره ممن أراد خدمة كتاب الإحياء وهكذا ، وكذلك القاضي عياض [3] في كتابه (الشفا في تعريف حقوق المصطفى) [4] فقد تلقته جماهير الأمة بالقبول إلى أن جاء الإمام السيوطي [1] واعتنى بتخريج أحاديثه [2] .

---

[1] حجة الإسلام وزين الدين ومجدد القرن الخامس الهجري أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي وقيل الغزّالي بتشديد الزاي نسبة لعمل أبيه غزالاً للصوف على طريقة أهل بلده ، ولد في الطابران من قرى طوس بإقليم خراسان سنة ٤٥٠ للهجرة وتوفي فيها سنة ٥٠٥ للهجرة رحمه الله ورضي عنه .

[2] تقدمت ترجمته

[3] الإمام العلامة الحافظ الأوحد ، شيخ الإسلام القاضي أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض بن عمرو بن موسى بن عياض اليحصبي الأندلسي ، ثم السبتي المالكي يعود نسب القاضي عياض إلى إحدى قبائل اليمن العربية القحطانية، وكان أسلافه قد نزلوا مدينة "بسطة" الأندلسية من نواحي "غرناطة" واستقروا بها، ثم انتقلوا إلى مدينة "فاس" المغربية، ثم غادرها جده "عمرون" إلى مدينة "سبتة" حوالي سنة ٣٧٣ هـ، واشتهرت أسرته بـ"سبتة"؛ لما عُرف عنها من تقوى وصلاح، توفي رحمه الله ورضي عنه يوم الجمعة بمراكش شهر جمادى الأخر سنة ٥٤٤ هجري

[4] تناول فيه سيرة النبي صلى الله عليه وسلم، وقصد من كتابه إحاطة الذات النبوية بكل ما يليق بها من العصمة والتفرد والتميز عن سائر البشر، في الوقت الذي كانت فيه آراء جانحة تخوض في مسألة النبوة، وتسوِّي بين العقل والوحي ، ولما كان النص الشرعي مصدرًا أساسيًا للمعرفة وأصلاً لا يحتمل النزاع فيه متى ثبت بالسند

وكذلك الحافظ القسطلاني[3] في كتابه : (المواهب اللدنية بالمنح المحمدية) ثم جاء الإمام الزرقاني [4]وأسهب في شرحها وتخريج أحاديثها .

وهناك كثير من الكتب لم يذكر مصنفوها مخرّجي ما فيها من الأحاديث مع أنهم عُرفوا بالفضل والعلم والتقوى والورع ، وهم الذين إذا نطقوا نطقوا بالله ، كما جاء في الحديث القدسي :

[ولا يزال عبدي يتحبّب إلي بالنوافل حتى أحبه، فأكون قلبه الذي يعقل به، ولسانه الذي ينطق به] [5]

وقد أيّدهم الله تعالى بمحبة الخلائق لهم وقبول ما ينطقون به ، تحقيقاً لقوله صلى الله عليه وسلم في صفة العبد الذي أحبه الله تعالى :

[ثم يوضع له القبول في الأرض] [1]

الصحيح، وكان النبي صلى الله عليه وسلم مصدر هذه المعرفة، فقد انبرى القاضي عياض ببيان مقام النبوة وصيانته من كل ما لا يليق به

ومما قاله بعضهم في كتاب الشفا :

ما كتاب الشفا إلا شفاء للقلوب المُرّاض والأجساد

قال بعضهم :

كلهم حاول الدواء ولكن ما أتى بالشفاء إلا عياض

[1] الحافظ جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن بن أبى بكر بن محمد بن سابق الدين أبي بكر بن عثمان بن محمد بن خضر بن أيوب ابن محمد بن الشيخ همام الدين الخضيري السيوطي الشافعي المسند المحقق المدقق صاحب المؤلفات الفائقة النافعة ، وقد توفي رضي الله عنه بعد أذان الفجر يوم الجمعة تاسع عشر جمادى الأولى سنة ٩١١ هـ رحمه الله ورضي عنه .

[2] في كتابه : مناهل الصفا في تخريج أحاديث الشفا

[3] العلامة الحافظ أحمد بن محمد ابن أبي بكر ابن عبد الملك بن أحمد بن حسين بن علي القسطلاني المصري الشافعي المتوفى ليلة الجمعة ثامن المحرم سنة ٩٢٣ هـ وصلِّيَ عليه بالأزهر عقب صلاة الجمعة، ودفن بقبة قاضي القضاة بدر الدين العيني بقرب جامع الأزهر رحمه الله ورضي عنه .

[4] الإمام العلاّمة أبو عبد الله محمّد بن عبد الباقي بن يوسف بن أحمد بن علوان الزّرقانيِّ المالكيّ المصريِّ .والزّرقانيّ :نسبةٌ إلي زرقان من قرى منوفٍ بمصر ، توفي رضي الله عنه سنة ١١٢٢ هـ في القاهرة،ودفن هناك ،رحمه الله ورضي عنه .

[5] كما في المعجم الكبير للطبراني وأصله في الصحاح

وتحقيقاً لقوله صلى الله عليه وسلم :

[المِقة - أي المحبة والمودة - من الله ، والصيت في السماء] [٢]

وقد منّ الله تعالى على مولانا الوالد رضي الله عنه بأن ألبسه ثوب الكرامة وتاج القبول فاشتهر بالصلاح والتقوى والورع ، وعرف برسوخه في العلم والمعارف الإلهية ، كما سبق لوالده الشيخ محمد نجيب رضي الله عنه الذي أجازه بكل ما أجيز به من شيوخه في الحديث رواية ودراية ، وكذا كبار المحدثين من الشام والمغرب والحجاز وبلاد الهند وباكستان .

فإذا ذكر الشيخ رضي الله عنه حديثاً فهذا يعني أنه قد اطّلع على سنده وقَبِله وارتضاه حتى أورده ، فيتحتم على من كان يحبه ويثق بصدقه وسعة علمه أن يصدّقه ويَقْبله ولو لم يذكر الشيخ رضي الله عنه من خرّج الحديث من المحدثين ، وأما من كان في قلبه مرض أو شبهة أو دعوى العلم فليرجع إلى كتب الحديث لينظر في رواته ودرجته وهكذا .

وكان شيخنا الإمام رضي الله عنه إذا جاء بحديث مع ذكر راويه وشعر أن أحداً قد حاك في صدره شيء نحو الحديث كان يقول موجهاً كلامه للحاضرين كلهم :

لا تقل : هذا حديث ضعيف ، فإن ضعف إيمانك حَمَلَكَ على هذا ، وليس وفور علمك وسعة اطلاعك ، فخذ بأسباب تقوية الإيمان في قلبك لتنزع من قلبك صفة الانتقاد والاعتراض لمجرد الانتقاد ، لا بغرض صيانة وأمانة العلم وتبليغه ، إذ لو كان أمرك كذلك لما اعترضتَ مباشرة ، بل جعلتَ تبحث وتدرس وتحقق وتدقق ، وإياك أن تعترض على حديث سمعته وتحكم عليه بالوضع دونما اطلاع واسع على كتب الحديث ومصطلحه ، فإن من فعل ذلك فقد كذّب - بتشديد الذال - النبي صلى الله عليه وسلم فيما قال ، وإثمه كمن كَذَبَ على النبي صلى الله عليه وسلم وتقوّل عليه ما لم يقل .

---

[١] طرف حديث في صحيح مسلم كتاب البر والصلة والآداب واللفظ له وصحيح البخاري كتاب بدء الخلق

[٢] المعجم الأوسط للطبراني ومسند الروياني

قلت : ومن الأمر المثير للدهشة ـ بل للاستهجان والاستصغار ـ أن بعض من نسب نفسه إلى العلم قال لأستاذه :

إني نيّفت على الأربعين من عمري أفلا يحق لي أن أتناول كتب الحديث وأسانيد الرجال بالجرح والتعديل حتى أصحّح وأضعّف ؟ !

وبادر لمرض في قلبه وحقد دفين في نفسه إلى أن يتناول أولاً الأحاديث التي رواها الإمامان البخاري ومسلم في صحيحيهما وكذلك الأحاديث التي ذكرها شيخنا الإمام رضي الله عنه في كتبه ليصحح منها ما وافق هواه ويضعّف أو يحكم بالوضع على ما خالف هواه وكل ذلك بدعوى العلم .

ولكنني للأسف أسأل أمثال هذا المنتقد على كتب الشيخ أسأله :

لماذا لم يخطر في باله أن ينتقد تلك الأحاديث ويحكم بوضعها لمّا كانت مدونة في أصولها من أمهات كتب الحديث قبل أن يذكرها الشيخ الإمام في كتبه ؟ !

علماً أنّ فعله هذا إن دل على شيء فإنما يدل على حقد دفين في نفسه ، وحسد ظاهر في تصرفاته ، ووقاحة في تجرئه على الراسخين في العلم . ومن جهة أخرى فإنّ فعله يدل على الفوضى العلمية الشرعية التي آلت إليها حالة أدعياء العلم ، ومن جملتها أن أُسْند الأمر إلى غير أهله ، فهل أمثال هذا أهل لأن يصلحوا لتصحيح حديث أو تضعيفه أو الحكم بوضعه ؟ ! ولكنني أقول :

تَصَدَّرَ لِلتَّدْرِيسِ كُلُّ مُهَوَّسٍ	بَلِيدٍ تَسَمَّى بِالْفَقِيهِ الْمُدَرِّسِ
فَحَقٌّ لِأَهْلِ الْعِلْمِ أَنْ يَتَمَثَّلُوا	بِبَيْتٍ قَدِيمٍ شَاعَ فِي كُلِّ مَجْلِسِ
لَقَدْ هزلَتْ حَتَّى بَدَا مِنْ هُزَالِهَا	كُلَاهَا وَحَتَّى سَامَهَا كُلُّ مُفْلِسِ [١]

وهذا الكلام ليس على إطلاقه بل هو خاص بوصف من ذكرناه ومن هو على شاكلته ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

---

[١] هذه الأبيات لـ علي بن أحمد بن علي بن سلك ، أبي الحسن المؤدب المتوفى سنة ٤٤٨ هـ وقد ذكرها الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية

ولما سئل أحد الأساتذة الجامعيين ممن يحمل شهادة (الدكتوراه) في علوم الشريعة :

هل ذكر الشيخ الإمام في كتبه أحاديث حكم عليها بالوضع ؟

أجاب : قد يكون هناك بعض الأحاديث الموضوعة ، ولكنها بالنسبة إلى الكمّ الهائل من الأحاديث التي ذكرها الشيخ في كتبه ، هذه الأحاديث الموضوعة القليلة لا تعدّ شيئاً .

فأقول : إن كلام هذا كفعل من فرّ من وَكْفِ السقف وجلس تحت الميزاب ، لأنه لم يعط الجواب الشافي بل شاغب في الجواب بحيث يشكّك السامع فيما سأل ، ولو أنه لم يُجِبْه لكان خيراً له .

فلو فرضنا أن كلامه صحيح فيقال :

هل ذكر الشيخ الإمام الحديث الموضوع دون علم منه بأنه موضوع - وهذا نقص في حق الشيخ من حيث اطلاعه الواسع على الأحاديث ودرجتها وأسانيدها - ، أم أن الشيخ الإمام ساق الحديث دون اطلاع ، وهذا لا يُتصور في حق الشيخ الإمام مع كثرة إجازاته واطلاعه الواسع على كتب الحديث النبوي الشريف ؟ !!

وكان من جملة ما قاله هذا الأستاذ الجامعي :

إن ذِكْر الشيخ لبعض أحاديث حُكِم عليها بالوضع هو من باب المستحيل ، ونحن نفرض المستحيل ونبني عليه حقيقة ، واستدل بقول الله تعالى : { قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين }

فقد لقّن سبحانه نبيه صلى الله عليه وسلم الحجة على من زعم أن لله ولداً ، فقال جل وعلا :{ قل إن كان للرحمن ولد } وهذا فرض للمستحيل الذي لا يتصور عقلاً وقوعه ، ثم قال تعالى آمراً النبي صلى الله عليه وسلم أن يقول :{ فأنا أول العابدين } ، فزعم هذا الأستاذ أن الله تعالى فرض المستحيل وبنى عليه حقيقة وهي قوله جل وعلا :

{ فأنا أول العابدين }. اهـ .

قلت : وهذا كله فوضى في الفهم والاستنباط ، وليس استدلال الأستاذ بالآية في محله صحيحاً ، لأنه أراد بكلامه ما تقديره :

(إن كان الشيخ ذكر أحاديث في كتبه حكم عليها بالوضع فأنا أول العارفين بها المطّلعين عليها وأقْبلها وأرتضيها طالما أن الشيخ ذكرها) ،
وعندئذ يتحتم على الأستاذ بيانها للمعترض المنتقد ، وإن لم يكن ثمة أحاديث موضوعة فليكن جوابه للمعترض :

إنني قرأت كتب الشيخ واطلعت عليها ولم أجد فيها حديثاً حُكم بوضعه .

لكن جوابه جعل السائل في حيرة من أمره ، مع أنه ينبغي على العالم إذا سُئل عن حكم أو مسألة شرعية أن يجيب عليها ببيان ودقة إن كان له علم بها وإلا فليقل : (لا أعلم) ، ولا يعتبر ذلك نقصاً أو عيباً في حقه أبداً وقد جاء عن علماء السلف رضي الله عنهم الوقائع الكثيرة التي تدل على ذلك

فيذكر عن الإمام مالك أنه سئل عن ثمان وأربعين مسألة ، فأجاب في اثنتين وثلاثين منها بـ : (لا أدري) .
وعن خالد بن خداش رحمه الله قال :
قدِمت على مالك بأربعين مسألة، فما أجابني منها إلا في خمس مسائل .
وقال الإمام مالك رضي الله عنه: سمعت ابن هرمز يقول:

ينبغي للعالم أن يورث جلساءه من بعده : (لا أدري) ، حتى يكون أصلاً في أيديهم، فإذا سئل أحدهم عما لا يدري قال : لا أدري .

وقَالَ ابْنُ عَبْدِ البَرِّ: صَحَّ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ أَنَّ: (لاَ أَدْرِي) نِصْفُ العِلْمِ [1]

وقال عبد الرحمن بن مهدي: كنا عند مالك بن أنس ، فجاءه رجل فقال : يا أبا عبد الله جئتك من مسيرة ستة أشهر حمّلني أهل بلدي مسألة أسألك عنها ، قال : سَل ، فسأله الرجل عن مسألة فقال : (لا أُحسنها)

قال : فبُهت الرجل كأنه قد جاء إلى من يعلم كل شيء ،

قال : فقال : فأيّ شيء أقول لأهل بلدتي إذا رجعت لهم ؟

---

[1] انظر سير أعلام النبلاء للذهبي

قال : تقول لهم : قال مالك : لا أُحسن [1]

وأما قوله تعالى : { قل إن كان للرحمن ولد ..} أي قل يا محمد صلى الله عليه وسلم لمن زعم أن لله ولداً وَلَدَه أو اتخذه ، قل لهم : { فأنا أول العابدين } أي أول العارفين بذلك بوحي من الله لي أن له ولداً ، ومع ذلك فإنني لا أتبع حكم العقل في استحالة أن له ولداً بل أتبع وحي الله لي أن له ولداً ، أي : أترك حكم العقل وأتبع ما يوحي إلي ربي إن كان له ولد ، وخبر القرآن هو النقل الصحيح الثابت ، وفي هذا رد على من قال أنه إذا تعارض نقل صحيح ثابت - وهو القرآن الكريم أو السنة المتواترة - مع حكم عقلي أو قرار علمي فيجب اتباع القرار العلمي والعمل به .

والآية المتقدمة تدل على أن الواجب اتباعه هو النقل الثابت وهو الوحي القرآني لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

والبحث في ذلك يتطلب مؤلفاً فريداً لكن القول الحق أنه لا يمكن تعارض النقل الصحيح مع العقل الصحيح السليم المجرد عن الهوى ، فهما في السير كفرسي رهان [2]، ولو جرى تعارض أو تناقض حسب الظاهر فهو إما لعدم ثبوت النقل وصحته وهذا لا يُتصور ، لأن القرآن الكريم متواتر النقل جيلاً بعد جيل ، فالتعارض إذاً لقصور العقل عن فهم المراد الصحيح من النص المنقول ، ولو أن الإنسان تعقّل وتفكّروبذل الجهد في ذلك لزال التعارض والتناقض الذي توهّمه .

ومن جهة أخرى فإن التناقض والتعارض لا يمكن حصوله إطلاقاً ، إذ كيف يخاطب الله تعالى العقلاء أن يُعملوا عقولهم في شيء غير معقول ؟!

---

[1] انظر جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر وحلية الأولياء لأبي نعيم

[2] قال في القاموس المحيط : ١٠٢/٢
" هما كفرسي رهان " يضرب لاثنين يستبقان إلى غاية فيستويان ، وهذا التشبيه في الابتداء، لأن النهاية تُجلي عن السابق لا محالة . اهـ
قلت : والمراد أن النقل مقدم على العقل ، والعقل السليم كان يقْبل ما ثبت من النقل

وكيف يخاطبهم أن يتفكروا ويتذكروا ويتفقهوا في أمور لا يقْبلها الفكر . ؟!

ألم يقل سبحانه :

{ إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون }

{ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَأَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ }

{ قَدْ فَصَّلْنَا الْأَيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ }

{ قَدْ فَصَّلْنَا الْأَيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ }

إذاً فالمطلوب منهم أن يبذلوا جهدهم في التعقل والتفكر والتفقه والتدبر ، فلا يجدون تناقضاً ولا تعارضاً البتة .

ولو لم تكن آيات الله مقبولة معقولة لَمَا تحدّى الله بها العقلاء أن يعقلوها ، ولَمَا أمرهم بالتفقه فيها والتدبر فيها ، إذ كيف يخاطبهم بشيء يستحيل على العقل السليم فهمه ؟ !

وهذا لا يكون ، وإن حصل فلقصور وتقاعس وكسل في تعقّل الإنسان وتدبره ، لا لعدم ثبوت النص وصحة مدلوله ، وينطبق حكم ذلك على أحاديث سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم المتواترة والصحيحة ، حيث تلقاها جمهور المسلمين أمة بعد أمة بالقبول .

ومن وجه آخر فلو كان استدلال الأستاذ الجامعي من قوله تعالى :

{ قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين }

لو كان استدلاله صحيحاً في محله لجاء جوابه للسائل المنتقد جواباً سديداً يدل مفهوم الآية عليه ، ولكان تقدير الكلام عندئذ بأن يقول للسائل :

إن كان الشيخ قد ذكر في كتبه أحاديث حكم عليها بعضهم بالوضع ـ قليلة كانت أم كثيرة ـ فنحن نقْبل ما ذكره كله جملة وتفصيلاً ، ونثق به ونرتضيه ، لأنه شيخنا وأستاذنا وقدوتنا وعالمنا والمُجاز من كبار المحدثين بالأسانيد العالية ، فنقْبل نقله ونؤمن به ، وندع علمنا بالمصطلح جانباً ، ولا نُعمل عقولنا ، لأن الأحاديث التي ذكرها قد ثبت عنده عدم وضعها فذكرها ،

وإن كان غيره قد حكم عليها بالوضع بأن جرح أحد رجال سندها مثلاً لهوىً وأنانية و... في نفسه كما يفعله بعض أدعياء الحديث المعاصرين .

وهذا فهم ينسجم مع مفهوم الآية بأن معنى { فأنا أول العابدين } أي الشاهدين بأن له ولداً ، المعظِّمين له ، لأني علمت ذلك وآمنت بوحي الله لي ولم أعمل بعقلي وعلمي .

وأما من قال أن { العابدين } من عبَد يعبَد - بفتح الباء - أي الآنفين بأن يكون له ولد لاستحالة ذلك عقلاً ، فيقال :

نعم يستحيل عقلاً في حق الله أن يكون له ولد أو أن يتخذ ولداً ، ولكن هذه الاستحالة مأخوذة من النصوص الشرعية التي دلت على استحالة ذلك وبرهنت للعقل استحالة ذلك وعدم تصوره في حق الله ، فالأخذ أولاً و آخراً بالنقل ومدلوله الصحيح .

وفي الآية السابقة جاء بعدها قوله سبحانه :

{ سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ }

ومعنى { سبحان } أي تنزيهاً لله أي أنزّه رب السموات والأرض أي خالقهما الغني عنهما وعما فيهما قبل أن يخلقهما وبعد أن خلقهما ، أنزّه هذا الرب العظيم عما وصفه به المشركون من اتخاذه الملائكة بناتاً أواتخاذه ولداً ، وهذا كله من أخبار النقل ، لا باستنتاج العقل ، بل إن العقل السليم سلّم وأذعن وآمن بما جاء به مدلول النقل الصحيح ، فافهم . اهـ

وسأذكر هنا ما ذكره الإمام النسفي والإمام ابن كثير في تفسيرهما للآية الكريمة سأذكره بحروفه

فقد قال الإمام النسفي رضي الله عنه:

{ قُلْ إِن كَانَ للرحمن وَلَدٌ } وصح ذلك ببرهان { فَأَنَاْ أَوَّلُ العابدين } فأنا أول من يعظّم ذلك الولد ، وأسبقكم إلى طاعته والانقياد إليه ، كما يعظّم الرجل ولد الملك لتعظيم أبيه ، وهذا كلام وارد على سبيل الفرض ، والمراد نفي الولد ، وذلك أنه علّق العبادة بكينونة الولد

وهي محال في نفسها فكان المعلَّق بها مُحالاً مثلها ، ونظيره قول سعيد بن جبير للحجاج حين قال له : والله لأبدلنك بالدنيا ناراً تلظى ، فقال له : لو عرفت أن ذلك إليك ما عبدت إلهاً غيرك .

وقيل : إن كان للرحمن ولد في زعمكم فأنا أول العابدين أي الموحّدين لله المكذبين قولكم بإضافة الولد إليه .

وقيل: إن كان للرحمن ولد في زعمكم فأنا أول الآنفين من أن يكون له ولد ، من عبد يعبد إذا اشتد أنَفه فهو عبد وعابد ، وقرىء { العبدين }

وقيل : هي «إن» النافية أي ما كان للرحمن ولد فأنا أول من قال بذلك ، وعَبَدَ ووحّد .

ورُوي أن النضر قال : (الملائكة بنات الله) ، فنزلت الآية ، فقال النضر : ألا ترون أنه صدّقني ، فقال له الوليد : ما صدّقك ولكن قال :

ما كان للرحمن ولد فأنا أول الموحدين من أهل مكة أن لا ولد له .

ثم نزّه سبحانه ذاته عن اتخاذ الولد فقال :

{ سبحان رَبِّ السماوات والأرض رَبِّ العرش عَمَّا يَصِفُونَ }
أي هو رب السماوات والأرض والعرش فلا يكون جسماً ، إذ لو كان جسماً لم يقدر على خلقها ، وإذا لم يكن جسماً لا يكون له ولد لأن التوالد من صفة الأجسام . اهـ .

فانظر كيف برهنت الآيات القرآنية النقلية للعقل السليم استحالة اتخاذ الله ولداً ، فجعلتْها للعقل قاعدة ، وهذا تصريح محض في اتباع النقل ، لا إعمال العقل .

وجاء في تفسير ابن كثير :

يقول تعالى: { قل } يا محمد { إن كان للرحمن ولدٌ فأنا أول العابدين }

أي لو فُرض هذا لعبدته على ذلك، لأني من عبيده مطيع لجميع ما يأمرني به، ليس عندي استكبار ولا إباء عن عبادته، فلو فُرض هذا لكان هذا،

ولكن هذا ممتنع في حقه تعالى، والشرط لا يلزم منه الوقوع ولا الجواز أيضاً، كما قال عزَّ وجلَّ:

{ لو أراد الله أن يتخذ ولداً لاصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه هو الله الواحد القهار}.

وقال بعض المفسرين في قوله تعالى: {فأنا أول العابدين} أي الآنفين، وقال ابن عباس {قل إن كان للرحمن ولد} يقول: لم يكن للرحمن ولد فأنا أول الشاهدين، وقال قتادة: هي كلمة من كلام العرب أي إن ذلك لم يكن فلا ينبغي، وقال أبو صخر : {فأنا أول العابدين} أي فأنا أول من عبده بأن لا ولد له، وأول من وحّده، وقال مجاهد: أي أول من عبده وحْده ، وكذّبكم، وقال البخاري {فأنا أول العابدين} الآنفين ، وهما لغتان: رجل عابد وعبد، والأول أقرب على شرط وجزاء ولكن هو ممتنع

قال البيضاوي: لا يلزم منه صحة وجود الولد وعبادته له، بل المراد نفيهما على أبلغ الوجوه، وإنكاره للولد ليس لعناد ومراء، بل لو كان : كان صلى الله عليه وسلم أولى الناس بالاعتراف به، فإن النبي يكون أعلم بالله وبما يصح له وما لا يصح. انتهى وهو قول جيد .

وقال السدي: معناه : ولو كان له ولد كنت أول من عبده بأن له ولداً، ولكن لا ولد له، وهو اختيار ابن جرير، ولهذا قال تعالى :
{سبحان رب السماوات والأرض رب العرش عما يصفون}
أي تعالى وتقدّس وتنزّه خالق الأشياء، عن أن يكون له ولد، فإنه فرد صمد، لا نظير له، ولا كفء له، فلا ولد له . اهـ .

قلت : ومن جهة أخرى فإنني أقول لك يا أستاذ الجامعة :

لقد قلت في جوابك :

إنه إذا وجدت في كتب الشيخ أحاديث موضوعة فهي قليلة إذا ما قورنت أو نسبت إلى الكمّ الهائل من الأحاديث الذي ذكره الشيخ في كتبه .

وأقول : إن للشيخ الإمام رضي الله عنه ما يقارب الخمسة والثلاثين كتاباً فهل ذَكَرَ الشيخ في كل كتاب حديثاً موضوعاً أو أكثر ؟

وهل خلا كتاب من حديث موضوع إطلاقاً أم لم يَخْلُ ؟

وهذا ما يجعل القارئ في حيرة من أمره ويتساءل :

أين هذه الأحاديث الموضوعة ؟

ليتك حدثتنا عنها وأين موضعها من الكتب حتى نستبين أمرها ؟

إلى غير ذلك من الاسئلة ، فكان جوابك جواب تجهيل أكثر منه تعليم ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

وإن هذه الأحاديث الموضوعة كما تزعم لو فرضنا جدلاً أن في كل كتاب منها حديثاً موضوعاً واحداً وذكرها الشيخ كلها في كتاب واحد فقد قاربت الخمسة والثلاثين حديثاً موضوعاً - على من زعم وضعها - وهذا ما لا يمكن توقع حصوله من علامة حافظ محدث مسند مثل شيخنا الإمام رضي الله عنه ، وإن ذَكَر جلّها في كتب يسيرة أخرى فالحكم واحد ، وإن ذكر في كل كتاب حديثاً موضوعاً - على من زعم وضعها - فكان جديراً به رضي الله عنه أن يذكر ما ذكره المحدثون عنه ويعقب برأيه إن كان له حكم في المسألة كما بين مثلاً في كتابه :

(هدي القرآن الكريم إلى معرفة العوالم والتفكر في الأكوان)
حول الحديث الذي رواه الإمام مسلم عن حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس رضي الله عنه أن رجلاً قال : يارسول الله أين أبي ؟

قال : في النار ، فلما قفّ - أي : ذهب - دعاه فقال : إن أبي وأباك في النار

فقد بين شيخنا الإمام رضي الله عنه أن لفظة : (إن أبي وأباك في النار) لم يتفق على ذكرها الرواة فلم تُذكر في رواية معمر بن ثابت

- و ارجع إلى الكتاب لترى البحث كاملاً - .

والحاصل أن إيراد الشيخ الإمام المحدث لحديث موضوع هو أمر مستهجن على الذي زعمه ، لأنه لم يعرف اطلاع الشيخ على كتب الحديث وعلومه وحفظه الكبير لها .

ويرحم الله القائل :

وَكَمْ مِنْ عَائِبٍ قَوْلاً صَحِيحاً وآفَتُهُ مِنَ الفَهْمِ السَّقِيم

ولله در من قال :

قَدْ تُنْكِرُ العَيْنُ ضَوْءَ الشَّمْسِ مِنْ رَمَدٍ وَيُنْكِرُ الفَمُ طَعْمَ المَاءِ مِنْ سَقَمِ

قلت : وقد سئل السيد الدكتور نور الدين بن محمد آل عتر [1] - نفع الله به - سئل عن مدى علمه بكتب الشيخ الإمام رضي الله عنه :

هل فيها أحاديث حُكم عليها بالوضع ؟

فنفى الأمر جملة وتفصيلاً ، واستبعد وقوعه إطلاقاً ، وقال :
إن الشيخ الإمام رضي الله عنه كثير الحفظ ، واسع الاطلاع على الحديث الشريف وعلومه ، ولو ذَكَر شيئاً من ذلك لذكر ما قال العلماء حوله ، وإنا نقْبل ونسلم ما ذكره الشيخ الإمام رضي الله عنه أو قاله في مجالسه ودروسه العامة والخاصة . اهـ .

قلت : وكيف يكون جوابه غير ذلك وهو الذي نَعَت الشيخ بما يعتقده فيه ، فقال في مقدمة كتابه : (منهج النقد في علوم الحديث):

إهداء

إلى الذي أحيا القلوب بالعلم والذكر والعرفان ، وأمدّ الأجيال من تراث الحديث النبوي وعلومه ، وأنار للأمة بحق سبيل السلف والسنة

العلامة المفسر المحدّث الحافظ الفقيه العارف فضيلة أستاذنا الشيخ عبد الله سراج الدين حفظه المولى وأمتع به . اهـ

[1] وهو ابن أخت مولانا الشيخ وصهره لابنته الكبرى

كما نَعَته بما رأى فيه وسمع منه ، نعته في كتابه بأنه : (شيخ الإسلام) ، وهل يُتصور في حق شيخ الإسلام في عصره أن يذكر أحاديث موضوعة أو يوردها في كتابه ؟!!!!

ولم يكن مولانا الوالد رضي الله عنه يرتضي لقب : (شيخ الإسلام) تواضعاً منه ، علماً بأن علماء الحجاز وغيرهم أجمعوا - بعد وفاته - على ما يرادفه من لقب وهو

(إمام المسلمين وكبيرعلماء وأولياء الأمة المحمدية في هذه الفترة الزمنية) - وهي فترة حياة الشيخ الإمام وعطائه - .

وقد أُطلق لقب : (شيخ الإسلام) على ثلة من علماء السلف ومن بعدهم أيضاً ، ولم يكن شيخنا الأمام رضي الله عنه يرتضيها على إطلاقها في كل من قيلت في حقه . اهـ .

وأما من أنكر على الشيخ حفظه لأكثر من مائة ألف حديث فمثاله كفقير لا يملك إلا دراهم معدودة ، وبَلَغه أن فلاناً الثري يملك آلافاً كثيرة من الدنانير الذهبية ، ويملك كذا وكذا من الدور والعقارات ، فجعل هذا الفقير يزعم أن هذا غير صحيح وغير ممكن ، ويقول بلغة العامة (ما خرج ذلك)

وكان شيخنا الإمام يقول : وهل تخريج الأشياء من عنده حتى زعم ذلك ؟
وهل مفاتيح خزائن رحمة الله بيده حتى استبعد حصول ذلك ؟ !
بل كان يجب عليه أن يصدق خبر من أخبره صادقاً ويسأل الله من فضله ، قال تعالى : { وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ } وليسأل الله الذي أعطى فلاناً وأكرمه أن يعطيه ويكرمه ، دون حسد لفلان ، بل ليكن ذلك من قبيل حسد الغبطة .

وقد قال صلى الله عليه وسلم :

[لا حسد] أي حسد غبطة ، وليس من باب تمني زوال النعمة عن أحد [إلا في اثنتين : رجل آتاه الله القرآن فهو يتلوه آناء الليل وآناء النهار ، ورجل آتاه الله مالاً فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار] [1]

وسأله رضي الله عنه مرة أستاذ جامعي يحمل شهادة الدكتوراه في الشريعة ، مشهور في الوسط الجامعي على المستوى المحلي والإقليمي والدولي سأله فقال : إننا في كلية الشريعة ندرّس - من جملة ما ندرّس - مادة تجويد القرآن وتلاوته وتحفيظه ، وقد يقدُم الطالب من منزله صباحاً وهو جنب ، أو تأتي الطالبة وهي حائض ، فهل نبيح له ولها أن يقرأا من القرآن الكريم وندرج هذه الإباحة تحت قاعدة (عموم البلوى) ؟

فأطرق الشيخ الإمام رحمه الله تعالى ورفع رأسه ونظر في السائل متعجباً منه أن يصدر منه مثل هذا الكلام ، وكأني به يقول بلسان حاله :
لو غيرك قالها - أي من العامة - لعذرناه وبينّا له

ثم قال : لو عُرض مثل هذا السؤال على والدي وسيدي الشيخ محمد نجيب رضي الله عنه لأسمَعَك العجب - لشدة غيرته على دين الله تعالى -
ثم استأنف كلامه فقال :

أولاً يمكن تأجيل سماع قراءة هؤلاء إلى يوم آخر ، وليس الأمر من الضرورة بمكان حتى نُدرجه فيما ذكرت من قاعدةٍ نَصَّ عليها بعض الفقهاء المتقدمين في زمن مخصوص ولعلة طارئة ، بحيث لو زالت عمومية البلوى التي تصيب عامة الناس أي كلهم لزال الحكم بالعمل بها .

ثم إننا لو حكمنا على كل أمر محرم أو مكروه شرعاً انتشر فعله بين الناس وعمّ واعتادوا عليه لو أننا حكمنا بإباحته ورخّصناه لهم لَمَا بقي من أحكام الشريعة أمر محرّم ، فلو انتشر أكل الربا وأَبَحْته لعموم البلوى ، وانتشر شرب الخمر وأبحت شربه لعموم البلوى ،

---

[1] طرف حديث في صحيح البخاري كتاب التوحيد وصحيح مسلم كتاب صلاة المسافرين عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما .

وانتشر الزنا وأبحته لعموم البلوى به ، وأبحت كل ما عم انتشاره ونظمت ذلك بعبارات أنيقة وأساليب ملتوية لكنت كمن يحرّف الكلم عن مواضعه !!

ثم إننا إذا قلنا ذلك فماذا بقي من الحكم بالحرام الذي ثبت تحريمه ؟

هذا وقد قال صلى الله عليه وسلم :(لَتُنْقَضَنَّ عُرى الإسلام عروة عروة) [1]

ثم استأنف الكلام فقال رضي الله عنه : لا تفعلوا ذلك ، ولا تُفتوا به ، ولا تُدخلوه في هذه القاعدة ، فلو علم من قالها أن مَن بعده سيقيس عليها ليُحِلّ ما حرم الله لَمَا حكم بها أصلاً ، ولعدل عنها ، ولا تتساهلوا في أحكام الله ونواهيه إذ كيف تجرؤون على إحلال ما حرم الله وتكفّون مثلاً عن تحريم ما أحلّ الله ؟!!

هل تريدون أن تجعلوا أحكام الله كلها حلالاً ، فلا يبقى أمر محرّم في شرعه سبحانه وتعالى !! .

وقد قال سبحانه :{ لا تحرّموا ما أحل الله }

وقال جل وعلا :{ لا تحلّوا شعائر الله }

وذم سبحانه قوماً { لَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ }

ثم قال الشيخ رضي الله عنه : وإني أذكر لك واقعة واحدة تدل على ثبوت الحق ، وأن أحكام الشريعة لا تتغير ، فلا يصير الحلال حراماً أو الحرام حلالاً :

إنه لما آمن فقراء الصحابة وضعفاؤهم بسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجعلوا يجلسون مجلسه ليسمعوا منه ويتعلموا أمور دينهم ، كَبُر ذلك على صناديد وزعماء المشركين وأنِفوا وأعرضوا عن الجلوس مع رسول الله صلى الله عليه وسلم لسماع ما يوحى إليه من آيات الله والحكمة ،

---

[1] طرف حديث في مستدرك الحاكم عن ابن عمر رضي الله عنهما ، وقال المناوي في فيض القدير : العروة في الأصل : ما يعلّق به من طرف الدلو والكوز ونحوهما فاستعير لما يُتمسّك به من أمر الدين ويُتعلّق به من شعب الإسلام . اهـ .

وسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يطرد هؤلاء الضعفاء حتى يجلسوا معه ، فماذا كان موقف رسول الله صلى الله عليه وسلم مع طلبهم ؟

لقد نزل الوحي بآيات قرآنية تبين حكم ذلك فقال تعالى :{ واصبر نفسك }[1] يا رسول الله { مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي } يدْعونه عبادة وسؤالاً في الصباح والمساء وفي كل الأوقات ، وما قصدهم من ذلك ؟

قال تعالى :{ يريدون وجهه } أي يبتغون التقرب إلى الله والفوز برضوانه ، وأن يتجلى عليهم بمشاهدته في الدنيا بقلوبهم ، وفي الآخرة بقلوبهم وأبصارهم ، دلّ عليه قوله صلى الله عليه وسلم :

[إن أدنى أهل الجنة منزلة لَمَن ينظر إلى جنانه وأزواجه ونعيمه وخدمه وسرره مسيرة ألف سنة ، وأكرمهم على الله من ينظر إلى وجهه غدوة وعشية ، ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم :

{ وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة }][2]

---

[1] قال الإمام الخازن في تفسيره :

قال ابن مسعود : مرّ ملأ من قريش بالنبي صلى الله عليه وسلم وعنده صهيب وعمار وبلال وخباب - رضي الله عنهم - ونحوهم من ضعفاء المسلمين فقالوا : يا محمد رضيت بهؤلاء بدلاً من قومك ، هؤلاء الذين مَنَّ الله عليهم من بيننا أنحن نكون تبعاً لهؤلاء ؟

اطردهم فلعلك إن طردتَهم أن نتّبعك ، فنزلت هذه الآية .

وقال الإمام السيوطي في الدر المنثور :

أخرج أحمد في الزهد ، عن ثابت قال : كان سلمان في عصابة - أي : جماعة - يذكرون الله ، فمرّ النبي فكفّوا فقال : ما كنتم تقولون؟

قالوا : نذكر الله ، قال صلى الله عليه وسلم : فإني رأيت الرحمة تنزل عليكم ، فأحببت أن أشارككم فيها ، ثم قال صلى الله عليه وسلم : الحمد لله الذي جعل في أمتي من أُمرت أن أصبر نفسي معهم »

[2] سنن الترمذي كتاب صفة الجنة عن ابن عمر رضي الله عنهما

وقوله تعالى :{ يريدون وجهه } أي يريدون وجه الله تعالى بحضرتك يا رسول الله ، والجلوس معك والاستماع إليك ، فإن مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلس ترتفع فيه الحجب عن القلوب وتتوالى عليها أسرار الغيوب وتشرق فيها الأنوار .

قوله تعالى :

{ ولا تَعْدُ عيناك عنهم } أي اجعلهم يا رسول الله موضع نظرك واهتمامك تكرمة لهم وجبراً لقلوبهم

{ تريد زينة الحياة الدنيا } أي تريد من هؤلاء الصناديد المشركين أصحاب كثرة المال الوافر والولد الكثير تريد منهم أن يجلسوا معك حتى يؤمنوا ، لأن زينة الحياة الدنيا هي المال والبنون ، لقوله تعالى :
{ المال والبنون زينة الحياة الدنيا }

{ ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا } أي لا تجب صناديد المشركين إلى ما طلبوا منك من طرد ضعفاء الصحابة ، - وهنا موضع الاستدلال - فلم يُجِبهم ، ولم يرخّص الحق تعالى لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أن يطرد هؤلاء الصحابة الكرام من مجلسه من أجل المشركين ، بل قال لرسوله الكريم صلى الله عليه وسلم :

{ وقل } أي قل للمشركين الذين أعرضوا عن مجلسك قل لهم
{ الحق من ربكم } أي أمر الحق ظاهر بيّن من ربكم
{ فمن شاء } أي منكم
{ فليؤمن ومن شاء فليكفر } ولكن ليعلم كلٌّ منكم أن من أعرض وكفر فهو ظالم لأنه لم يعترف بالحق بعدما بان له .

وبيّن سبحانه ماذا أعد للظالمين فقال :

{ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا } .

وبعدها بيّن سبحانه ماذا أعد من الثواب لمن آمن فقال جل وعلا :
{ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً }

وقد بين سبحانه أنه أعطى كل إنسان صفة المشيئة والاختيار لِما يريد من فعله ، وأعطاه سبحانه قوة وتمكيناً على فعل ما شاء وما اختار ، فإن اختار وشاء الكفر والفسوق عاقبه الله ، وإن شاء واختار الإيمان والعمل الصالح أثابه الله على ذلك كما قال تبارك وتعالى في آية أخرى :{ اعملوا ما شئتم} أي من صالحات أو طالحات فلكم المشيئة والاختيار والقوة والتمكن من فعل ما تشاؤون ، لكن أمر اختياركم وأفعالكم ليس هملاً متروكاً فقال سبحانه : { إنه بما تعملون بصير } أي بصير بكم وبأعمالكم ، وسيجازيكم عليها إن خيراً فخير وإن شراً فشر .

ثم كان من كلام الشيخ رضي الله عنه في ختام حديثه : قل لكل طالب علم جادّ في طلب العلم أن يستعد قبل توجهه إلى معهده أو كلّيته ويهيّىء نفسه بأن يستيقظ باكراً مثلاً ، ويغتسل أو يتوضأ إن لزمه الغسل ، إلا لضرورة شرعية ملحة ، ومع ذلك فلا تُباح له قراءة القرآن بل تُؤجل إلى يوم آخر .

ألا ترى إذا قيل له : إن أحداً سيدفع له في الصباح الباكر مبلغاً من المال في مكان بعيد ، لو قيل له هذا لجعل يوصي أهله أن يوقظوه وأعدّ المنبّهات كلها لذلك ليتوجه إلى المكان قبل موعده ، فَمالَهُ يقدّم الفاني على الباقي ويؤثر الدنيا على الآخرة ؟ !

نعم ، إنهم يحتاجون إلى وعظ وتذكير ، لا إلى ترخيص وتسهيل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله . اهـ .

قلت : ولا بأس أن نذكر هنا بحثاً مختصراً يتضمن ما ذكره الفقهاء حول عموم البلوى :

١ - مِنْ مَعَانِي الْعُمُومِ فِي اللُّغَةِ : الشُّمُولُ وَالتَّنَاوُلُ ، يُقَالُ : عَمَّ الْمَطَرُ الْبِلادَ ، شَمَلَهَا ، فَهُوَ عَامٌّ .

وَالْبَلْوَى فِي اللُّغَةِ : اسْمٌ بِمَعْنَى الاخْتِبَارِ وَالامْتِحَانِ ، يُقَالُ : بَلَوْتُ الرَّجُلَ بَلْوًا وَبَلاءً وَابْتَلَيْتُهُ : اخْتَبَرْتُهُ ، وَيُقَالُ : بَلَى فُلانٌ وَابْتَلَى إِذَا امْتَحَنَ .

أَمَّا فِي الاصْطِلاحِ فَيُفْهَمُ مِنْ عِبَارَاتِ الْفُقَهَاءِ أَنَّ الْمُرَادَ بِعُمُومِ الْبَلْوَى : الْحَالَةُ أَوِ الْحَادِثَةُ الَّتِي تَشْمَلُ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ وَيَتَعَذَّرُ الاحْتِرَازُ عَنْهَا ،

وَعَبَّرَ عَنْهُ بَعْضُ الْفُقَهَاءِ بِالضَّرُورَةِ الْعَامَّةِ وَبَعْضُهُمْ بِالضَّرُورَةِ الْمَاسَّةِ ، أَوْ حَاجَةِ النَّاسِ .

وقد بَنَى الْفُقَهَاءُ عَلَى عُمُومِ الْبَلْوَى أَحْكَامًا فِقْهِيَّةً فِي مُخْتَلَفِ الأَبْوَابِ وَالْمَسَائِلِ مِنْهَا مَا يَلِي :

إن مِنَ الْقَوَاعِدِ الْعَامَّةِ فِي الْفِقْهِ الإِسْلامِيِّ أَنَّ الْمَشَقَّةَ تَجْلِبُ التَّيْسِيرَ ، وَإِذَا ضَاقَ الأَمْرُ اتَّسَعَ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : { يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ } وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " بُعِثْتُ بِالْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ " [١]

وَيَتَخَرَّجُ عَلَى هَذِهِ الْقَاعِدَةِ جَمِيعُ رُخَصِ الشَّرْعِ وَتَخْفِيفَاتُهُ .

وَقَدْ ذَكَرَ الْفُقَهَاءُ أَسْبَابَ التَّخْفِيفِ مِنَ الْمَرَضِ وَالسَّفَرِ وَالإِكْرَاهِ وَالنِّسْيَانِ وَالْجَهْلِ وَالْعُسْرِ وَعُمُومِ الْبَلْوَى وَنَحْوِهَا ، وَبَيَّنُوا أَثَرَهَا فِي مُخْتَلَفِ الأَحْكَامِ وَالْمَسَائِلِ الْفِقْهِيَّةِ .

وَمِنَ الرُّخَصِ الَّتِي شُرِعَتْ بِسَبَبِ الْعُسْرِ وَعُمُومِ الْبَلْوَى مَا ذَكَرَهُ السُّيُوطِيُّ وَابْنُ نُجَيْمٍ مِنْ جَوَازِ الصَّلاةِ مَعَ النَّجَاسَةِ الْمَعْفُوِّ عَنْهَا ، كَدَمِ الْقُرُوحِ وَالدَّمَامِلِ وَالْبَرَاغِيثِ ، وَطِينِ الشَّارِعِ وَذَرْقِ الطُّيُورِ إِذَا عَمَّ فِي الْمَسَاجِدِ وَالْمَطَافِ ، وَمَا لا نَفْسَ لَهُ سَائِلَةٌ ، وَأَثَرِ نَجَاسَةٍ عَسُرَ زَوَالُهُ ، وَالْعَفْوُ عَنْ غُبَارِ السِّرْقِينِ وَقَلِيلِ الدُّخَانِ النَّجَسِ وَأَمْثَالِهَا ، وَهِيَ كَثِيرَةٌ مُفَصَّلَةٌ فِي كُتُبِ الْفِقْهِ .

وَمِنْ هَذَا الْقَبِيلِ مَا ذَكَرَهُ الْحَنَفِيَّةُ مِنَ الْعَفْوِ عَنْ بَوْلِ الشَّخْصِ أَوْ بَوْلِ غَيْرِهِ الَّذِي انْتَضَحَ عَلَى ثِيَابِهِ كَرُءُوسِ إِبَرٍ ، قَالَ ابْنُ عَابِدِينَ : وَالْعِلَّةُ الضَّرُورَةُ قِيَاسًا عَلَى مَا عَمَّتْ بِهِ الْبَلْوَى مِمَّا عَلَى أَرْجُلِ الذُّبَابِ ، فَإِنَّهُ يَقَعُ عَلَى النَّجَاسَةِ ثُمَّ يَقَعُ عَلَى الثِّيَابِ ، وَمِثْلُهُ الدَّمُ عَلَى ثِيَابِ الْقَصَّابِ ، فَإِنَّ فِي التَّحَرُّزِ عَنْهُ حَرَجًا ظَاهِرًا .

وَمِنَ الأَحْكَامِ الْمَبْنِيَّةِ عَلَى عُمُومِ الْبَلْوَى طَهَارَةُ الْخُفِّ وَالنَّعْلِ بِالدَّلْكِ عَلَى الأَرْضِ وَنَحْوِهَا مِنَ الأَشْيَاءِ الطَّاهِرَةِ ، كَمَا ذَكَرَهُ بَعْضُ الْفُقَهَاءِ ،

---

[١] انظر المسند ٢١٢٦٠

قَالَ التُّمُرْتَاشِيُّ : وَيَطْهُرُ خُفٌّ وَنَحْوُهُ ، كَنَعْلٍ تَنَجَّسَ بِذِي جُرْمٍ بِدَلْكٍ ، قَالَ ابْنُ عَابِدِينَ : وَإِنْ كَانَ رَطْبًا عَلَى قَوْلِ أَبِي يُوسُفَ . وَهُوَ الأَصَحُّ الْمُخْتَارُ ، وَعَلَيْهِ الْفَتْوَى لِعُمُومِ الْبَلْوَى .

وَلِعُمُومِ حَدِيثِ أَبِي دَاوُدَ : " إِذَا جَاءَ أَحَدُكُمْ إِلَى الْمَسْجِدِ فَلْيَنْظُرْ ، فَإِنْ رَأَى فِي نَعْلَيْهِ قَذَرًا أَوْ أَذًى فَلْيَمْسَحْهُ ، وَلْيُصَلِّ فِيهِمَا " [1] .

وَذَكَرَ السُّيُوطِيُّ مِنَ الأَحْكَامِ الْمَبْنِيَّةِ عَلَى عُمُومِ الْبَلْوَى فِي غَيْرِ الْعِبَادَاتِ : جَوَازُ أَكْلِ الْمَيْتَةِ ، وَمَالِ الْغَيْرِ مَعَ ضَمَانِ الضَّرَرِ إِذَا اُضْطُرَّ ، وَأَكْلِ الْوَلِيِّ مِنْ مَالِ الْيَتِيمِ بِقَدْرِ أُجْرَةِ عَمَلِهِ إِذَا احْتَاجَ ، وَمَشْرُوعِيَّةُ الرَّدِّ بِالْخِيَارَاتِ فِي الْبَيْعِ .

وَكَذَلِكَ مَشْرُوعِيَّةُ الْعُقُودِ الْجَائِزَةِ (غَيْرِ اللازِمَةِ) لأَنَّ لُزُومَهَا يَشُقُّ ، كَمَا ذَكَرَ مِنْهَا إِبَاحَةَ النَّظَرِ لِلْخُطْبَةِ وَالإِشْهَادِ وَالْمُعَامَلَةِ وَالْمُعَالَجَةِ وَنَحْوِهَا

وَمِنْ هَذَا الْقَبِيلِ مَا ذَكَرَهُ الْفُقَهَاءُ مِنْ جَوَازِ عَقْدِ الاسْتِصْنَاعِ - وَهُوَ عَقْدُ مُقَاوَلَةٍ مَعَ أَهْلِ الصَّنْعَةِ عَلَى أَنْ يَعْمَلَ شَيْئًا - مَعَ أَنَّهُ يُخَالِفُ الْقَوَاعِدَ ، لأَنَّهُ عَقْدٌ عَلَى الْمَعْدُومِ ؛ إِلا أَنَّهُ أُجِيزَ لِلْحَاجَةِ الْمَاسَّةِ إِلَيْهِ ، وَفِي مَنْعِهِ مَشَقَّةٌ وَإِحْرَاجٌ .

وَمِنَ الْمَسَائِلِ الَّتِي بَنَاهَا الْحَنَفِيَّةُ عَلَى عُمُومِ الْبَلْوَى جَوَازُ إِجَارَةِ الْقَنَاةِ وَالنَّهْرِ مَعَ الْمَاءِ ، قَالَ الْحَنَفِيَّةُ : جَازَ إِجَارَةُ الْقَنَاةِ وَالنَّهْرِ أَيْ مَجْرَى الْمَاءِ مَعَ الْمَاءِ تَبَعًا ، بِهِ يُفْتَى لِعُمُومِ الْبَلْوَى .

لَكِنَّ الْمَشَقَّةَ وَالْحَرَجَ إِنَّمَا يُعْتَبَرَانِ فِي مَوْضِعٍ لا نَصَّ فِيهِ ، وَكَذَلِكَ الْبَلْوَى كَمَا صَرَّحَ بِهِ الْحَنَفِيَّةُ ، قَالَ ابْنُ نُجَيْمٍ : لا اعْتِبَارَ عِنْدَ أَبِي حَنِيفَةَ بِالْبَلْوَى فِي مَوْضِعِ النَّصِّ ، كَمَا فِي بَوْلِ الآدَمِيِّ ، فَإِنَّ الْبَلْوَى فِيهِ أَعَمُّ . اهـ .

---

[1] انظر سنن أبي داود كتاب الصلاة

ورعه رضي الله عنه في الألفاظ فيما يخص جناب سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم

لقد اختصر بعضهم ما ذكره الشيخ الإمام رضي الله عنه في كتابه : (سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم)
اختصر البحث حول عصمة النبي صلى الله عليه وسلم عن الخطأ والخطيئة وقصة أسرى بدر ، وذكر أن الشيخ الإمام رضي الله عنه قال :

(ودليل الجميع على هذا ما وجدوه من العتاب في الآيات الكريمة) ،

فتقوَّلَ على الشيخ الإمام ما لم يقله .

مع أن من راجع كلام الشيخ الإمام في أصل الكتاب لن يجدها من كلام الشيخ وإنما هي في سياق نقله لأقوال بعض العلماء ، ولم يكن الشيخ يرتضيها ، بل لم يكن يقولها ، أو يقبل بها أن تُقال في حق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأن الله تعالى لم يعاتب رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم أصلاً ، يظهر هذا جلياً لمن تدبّر في الآيات التي ذكرت قصة الأسرى

وها أنا أورد لك ما قاله مولانا الوالد رضي الله عنه في كتابه

(سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم) [1]ضمن بحث أسرى بدر ، وبيان صواب فعله صلى الله عليه وسلم من أحد عشر وجهاً ، حيث قال رضي الله عنه :

الوجه العاشر : كيف يُحكم بأنه صلى الله عليه وسلم أخطأ في قبول الفداء من أسرى بدر مع أنه صلى الله عليه وسلم كان قَبْل غزوة بدر فادى سرية عبد الله بن جحش [2]، التي قتل فيها عمرو بن الحضرمي ، ولم يعتب الله تعالى عليه في ذلك ؟! .

---

[1] ص ٥٢١

[2] الصحابي الجليل عبد الله بن جحش الأسدي أحد السابقين ، هاجر إلى الحبشة وشهد بدراً ، وكان أول أمير في الإسلام ، دعا الله يوم أحد أن يرزقه الشهادة فاستشهد فيها ، وروى عنه سعد بن أبي وقاص وسعيد بن المسيب رضي الله عنهما . اهـ .

فقد جاء في السير وغيرها أنه صلى الله عليه وسلم بعث عبد الله بن جحش في سرية يعترض بها عير قريش ، فنزلوا بطن نخلة - موضعاً قريباً من مكة - فقتلوا عمرو بن الحضرمي ، وأسروا عثمان بن عبد الله ، والحكم بن كيسان ، وهرب من هرب ، فاستاقوا العير .

وبعثت قريش إلى رسول الله صلى الله علي وسلم في فداء الأسيرين ، وهما : عثمان بن عبد الله ، والحكم بن كيسان .

فقال صلى الله عليه وسلم :

[لا نفديكموهما حتى يقدم صاحبانا - يعني سعداً وعتبة [١] - فإنا نخشاكم عليهما ، فإن تقتلوهما نقتل صاحبَيكم] .

فقدم سعد وعتبة بعدهم بأيام ، ففداهما رسول الله صلى الله عليه وسلم كل واحد بأربعين أوقية .

فأما الحكم بن كيسان فأسلم وحسن إسلامه ، وأقام عند رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قتل يوم بئر معونة شهيداً .

وأما عثمان بن عبد الله فلحق بمكة فمات بها كافراً .

وقد كانت هذه السرية في رجب ، وقيل في جمادى الآخرة ، وكانت غزوة بدر في رمضان ، وكلاهما في ثانية الهجرة ، فما عتب الله تعالى على أخذ الفداء في تلك السرية ، فلو كان ممنوعاً لعتب سبحانه [٢] .

الوجه الحادي عشر : أن قوله تعالى :

{ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآَخِرَةَ ..}الآية

ليس فيها معاتبة للنبي صلى الله عليه وسلم أصلاً ، وإنما فيها العتاب لمن أشار على النبي صلى الله عليه وسلم بالفداء ، بُغية عَرَض الدنيا ،

---

[١] أي : لأنهما كانا في السرية ، ولكنهما تأخرا في العودة .
[٢] راجع (المواهب وشرحها) و(شرح الشفا) للقاضي عياض .

وهو المال المفدى به ، حين استشار عامة الناس ، قبل أن يستشير خاصتهم : أبا بكر وعمر وعلياً رضي الله عنهم ، كما تقدم .

فأراد بقوله سبحانه :{ تريدون عرض الدنيا } أولئك النفر الذين أرادوا المال .

أما سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يقصد بقبول الفداء عرض الدنيا ، وحاشاه من ذلك !

فإن الدنيا كلها ما لها قيمة عنده ، وقد قال صلى الله عليه وسلم :

[مالي وللدنيا ! ما أنا والدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ، ثم راح وتركها] ، وقد عُرِضت عليه جبال تهامة أن تكون له ذهباً فأبى ، فأين هو من عرض الدنيا ؟ !.

ولذلك قال القاضي أبو زيد رحمه الله تعالى :

فإن قيل : أليس الله تعالى عاتب رسوله على الفداء ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :(لو نزل العذاب ما نجا إلا عمر) فدلّ على أن أبا بكر كان مخطئاً ؟

قلنا : هذا لا يجوز أن يُعتقد ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم عمل برأي أبي بكر ، ولابد أن يقع عمل رسول الله إذا أُقِرَّ عليه صواباً ، والله تعالى قرّره عليه فقال : { فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا ..} الآية .

وتأويل الآية :{ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ } - وكان لك يا رسول الله صلى الله عليه وسلم كرامة خُصصت بها رخصة - ، لولا كتاب من الله سبق بهذه الخصيصة لمسّكم العذاب ، لِحكم العزيمة على ما قال عمر .

وقال الحافظ ابن حجر في (فتح الباري) :

اختلف السلف في أي الرأيين كان أصوب ؟ :

فقال بعضهم : كان رأي أبي بكر ، لأنه وافق ما قدّر الله تعالى في نفس الأمر ، ولِما استقرّ عليه الأمر ، ولدخول كثير منهم في الإسلام ، إما بنفسه ، وإما بذريته التي ولدت بعد الوقعة ، ولأنه وافق غلبة الرحمة على الغضب ، كما ثبت ذلك عن الله تعالى في حق من كتب له الرحمة .

وأما من رجح الرأي الآخر : فتمسك بما وقع من العتاب على أخذ الفداء .

لكن الجواب عنه : أنه لا يدفع حجة الرجحان عن الأول - أي : بل الرأي الأول له الرجحان على غيره - بل ورد - العتاب - للإشارة إلى ذم من آثر شيئاً من الدنيا على الآخرة ولو قل . اهـ

يعني أن العتاب الذي قد يُفهم من الآية ، موجّه لمن أراد بالفداء عرض الدنيا ، وهم بعض الناس الذين أشاروا عليه بالفداء ، حين استشار النبي صلى الله عليه وسلم عامة الناس ، قبل أن يستشير خاصتهم ، كما تقدم . اهـ

قلت : فـ (العتاب) المذكور هو الذي قد فهمه بعض العلماء ، ولا يرتضيه سيدنا الشيخ ، وكيف يُنسب إليه أنه يقول ذلك وهو الذي نفى العتاب في الوجه الحادي عشر المتقدم ذكره فقال :

الآية ليس فيها معاتبة للنبي صلى الله عليه وسلم أصلاً ؟ !!!

علماً أن الحافظ ابن حجر رحمه الله قد نصّ أن العتاب موجّه لمن أراد بالفداء عرض الدنيا ، وهم بعض الناس الذين أشاروا عليه صلى الله عليه وسلم بالفداء ، فتأمّلْ .

أما ما يروى عن السيدة عائشة رضي الله عنها أنها كانت تقول في ابن أم مكتوم : (هذا الذي عاتب الله فيه نبيه) [١]، فهو عتب له مفهومه ومدلوله الخاص المتميز عن الإطلاق الدال على الملامة أو ما يشابهها ، بل فيه التنبيه والتذكير والرفق ، ألا ترى إلى قوله تعالى :

{ عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى * وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى *أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى * أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى * فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى * وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى * وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى * وَهُوَ يَخْشَى * فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى * كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ } [٢]

---

[١] أخرج الحاكم والبيهقي في شعب الإيمان والطبراني في الأوسط عن مسروق قال : دخلتُ على عائشة وعندها رجل مكفوف تقطع له الأترج وتطعمه إياه بالعسل - أي تناوله بيده فيأكل - ، فقلت : من هذا يا أم المؤمنين؟ فقالت : هذا ابن أم مكتوم الذي عاتب الله فيه نبيه صلى الله عليه وسلم ، قالت : أتى نبي الله وعنده عتبة وشيبة فأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهما فنزلت : { عبس وتولى أن جاءه الأعمى } .

[٢] قال الزرقاني في شرح الموطأ :

أخرج مالك عن هشام بن عروة عن أبيه أنه قال «أُنْزِلَتْ عَبَسَ وَتَوَلَّى فِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ...... - الحديث ، وأخرجه الترمذي من رواية سعيد بن يحيى بن سعيد عن أبيه عن هشام بن عروة عن أبيه عن أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها قالت : أنزلت { عبس وتولى } في عبد الله بن أم مكتوم القرشي العامري من بني عامر بن لؤي ، وقيل : اسمه عمرو بفتح العين وهو الأكثر ، وهو ابن قيس بن زائدة بن الأصم ، ومنهم مَن قال : عمرو بن زائدة نسبة لجده ، ويقال : كان اسمه الحصين فسماه النبي صلى الله عليه وسلم : (عبد الله) ، حكاه ابن حبان ، وقال ابن سعد : أهل المدينة يقولون : اسمه عبد الله ، وأهل العراق يقولون : اسمه عمرو ، واسم أمه : أم مكتوم عاتكة بنت عبد الله المخزومية ، أسلم قديماً بمكة ، وكان من المهاجرين الأولين ، قدم المدينة قبل أن يهاجر النبي على الأصح ، وقيل بعد وقعة بدر بقليل ، وروى جماعة من أهل العلم بالنسب والسير أنه استخلفه ثلاث عشرة مرة ، وله حديث في السنن ، وخرج إلى القادسية فشهد القتال فاستشهد ، وقيل بل شهدها ورجع إلى المدينة فمات بها، ولم يسمع له ذِكر بعد عمر بن الخطاب ، وفيه نزل قوله تعالى { غير أولي الضرر }

(جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم) بمكة (فجعل يقول : يا محمد) قبل النهي عن ندائه باسمه صلى الله عليه وسلم لأنه نزل بالمدينة (استدنيني) بياء بين النونين

فلم يقل جل وعلا : كلا إنها عتاب أو ملامة أو زجر ، بل قال سبحانه : { كلا إنها تذكرة } فهي من باب التذكير لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن يرأف بنفسه ولا يُجهدها في مخاصمة المشركين وجدالهم في الدعوة إلى الله ، بل كل ما عليه أن يدعوهم .

وقال تعالى : { فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ } أي فأعرض عنهم بعد أن أبلغتَهم وأنذرتَهم ولم يستجيبوا لك { وذكّر } الذين آمنوا ، ذكّرهم بآيات الله وأيامه { فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ } وهذا نظير قوله تعالى مذكراً رسوله صلى الله عليه وسلم : { وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى * أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى } باعتبار أن ابن أم مكتوم رضي الله عنه كان مؤمناً .

ونظيره أيضاً قوله تعالى :{ طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى }

، ورواه ابن وضاح استدنني بحذفها أي أشر لي إلى موضع قريب منك أجلس فيه (وعند النبي رجل من عظماء) جمع عظيم (المشركين) وهو أبي بن خلف ، رواه أبو يعلى عن أنس ، ولابن جرير عن ابن عباس أنه كان يناجي عتبة بن ربيعة وأبا جهل والعباس ، وله من مرسل قتادة : وهو يناجي أمية بن خلف ، وحكى ذلك كله ابن عبد البر والباجي خلافاً في تفسير المبهم ، وزاد قولاً أنه شيبة بن ربيعة (فجعل النبي يعرض عنه) ثقة بما في قلبه من الإسلام ، لا سيما والذي طلبه من التفقه في الدين لا يَفُوت ، ففي حديث ابن عباس فقال علّمني مما علّمك الله ، فأعرض عنه (ويُقْبل على الآخر) رجاء إسلامه ، لأنه كان يحب إسلام الخلق ، إذ هو مأمور بالإنذار وبالدعاء إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة (ويقول يا أبا فلان) خاطبه بالكنية استئلافاً (هل ترى بما أقول بأساً ، فيقول : لا والدماء) بالمد ، قال ابن عبد البر رواية طائفةٍ عن مالك: بضم الدال أي الأصنام التي كانوا يعبدون ويعظمون ، واحدتها دمية ، وطائفةٍ : بكسر الدال أي دماء الهدايا التي كانوا يذبحونها بمنى لآلهتهم (ما أرى بما تقول بأساً) شدة ، بل هو روح الأرواح (فأنزلت عبس وتولى) أعرض (أن جاءه الأعمى) زاد أبو يعلى عن أنس : فكان النبي بعد ذلك يكرمه ، وفي حديث ابن عباس : فكان إذا نظر إليه بعد ذلك مقبلاً بسط إليه رداءه حتى يجلسه عليه ، وكان إذا خرج من المدينة استخلفه يصلي بالناس حتى يرجع . اهـ .

أي لتتعب وتجهد نفسك وتنهك جسدك في الاهتمام بدعوتهم إلى الإيمان { إلا تذكرة لمن يخشى } أي لكن أنزلناه لتذكّر به من يخشى الله ويؤمن به ، وأما من دعوتَه وقرأتَ عليه القرآن فأعرَضَ عنه مرة بعد مرة فأعرِضْ عنه ودعْه ولا تهتم بأمره .

وقوله تعالى :{ إلا تذكرة لمن يخشى } نظير قوله تعالى :{وأما من جاءك يسعى وهو يخشى * فأنت عنه تلهّى * كلا إنها تذكرة } أي تذكرة لك يا رسول الله في بيان الله لك منهج الدعوة إليه .

ومثاله ليقرب إلى الفهم بيانه - ولله المثل الأعلى - :

إذا كان لك ولدان طالبا علم ، أحدهما يقصر في جدّه ودراسته ، والآخر يزيد في جده واجتهاده ، حتى يُجهِد نفسه ويُرى أثر ذلك على جسمه ووجهه ، وباعتبار أنك والدهما كان عليك أن تنبّه كلاً منهما فتقول للأول :

(انتبه إلى دراستك وابذل جهداً أكثر ، ولا تضيع وقتك في اللهو واللعب ، فإني أراك مقصّراً ، وبلغني ذلك عنك) ، وتجعل تسوق له من قبيل هذا الكلام ما فيه وعظ وتحذير له فيقال عن كلامك له : إنه عتاب له .

وأما الآخر الجاد في طلبه العلم فتقول له :

(يا بني خفّف على نفسك قليلاً ، وأعط جسمك حظه من الراحة ، فإني والمدرسة لم نكلفك بذلك الجهد كله ، فقد نلت الفوز بالأسبقية وزدت) ، وتسوق له كلاماً فيه تذكير وتسلية له أن يخفف على نفسه بعض عناء الجد والدراسة فهل يقال : إن كلامك عتاب له ؟!!

أعوذ بالله من ذلك، وإنما كلامك له غايته التخفيف عنه والتسلية له . وشتان ما بين الأول والآخر .

ولذلك جاءت الآيات في هذا السياق :

{ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آَثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا }

{ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إن الله عليم بما يصنعون }

{ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ }

وإليك ما قاله العلماء حول تفسير هذه الآيات

حيث قال الإمام ابن كثير :

يقول تعالى مسلّيًا رسوله صلى الله عليه وسلم في حزنه على المشركين، لتركهم الإيمان وبُعدهم عنه :

{ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ } باخع: أي مُهلك نفسك بحزنك عليهم؛ ولهذا قال سبحانه { إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ } يعني: القرآن { أَسَفًا } يقول: لا تهلك نفسك أسفًا.

قال قتادة: أي فلعلك قَاتِل نَفْسَكَ غضبًا وحزنًا عليهم ، وقال مجاهد: جَزَعًا. والمعنى متقارب، أي: لا تأسف عليهم، بل أبلغْهم رسالة الله، فمن اهتدى فلنفسه، ومن ضل فإنما يضل عليها، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات.

وقال الإمام السيوطي في الدر المنثور :

أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال :

اجتمع عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبو جهل بن هشام والنضر بن الحارث وأميّة بن خلف والعاص بن وائل والأسود بن المطلب وأبو البَخْتري في نفر من قريش ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد كبر عليه ما يرى من خلاف قومه إياه وإنكارهم ما جاء به من النصيحة ، فأحزنه حزناً شديداً . . ، فأنزل الله تعالى { فلعلك باخع نفسك } الآية .

وقال الإمام ابن كثير :

{ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ } أي: لا تأسف على ذلك ، فإن الله حكيم في قدَره، إنما يضل من يضل ويهدي من يهدي ، لِما له في ذلك من الحجة البالغة، والعلم التام؛ ولهذا قال جل وعلا : { إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ } .

وقال الإمام الخازن :

{ فلا تذهب نفسك عليهم حسرات } فان الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء ، والحسرة شدة الحزن على ما فات ، والمعنى : لا تغتمّ بكفرهم وهلاكهم إن لم يؤمنوا { إن الله عليم بما يصنعون } فيه وعيد العقاب على سوء صنيعهم .

وقال الإمام ابن كثير :

قوله تعالى : { لَعَلَّكَ بَاخِعٌ } أي: مُهلك { نفسك } أي: مما تحرص عليهم وتحزن عليهم { أَلا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ } وهذه تسلية من الله لرسوله صلوات الله وسلامه عليه في عدم إيمان مَنْ لم يؤمن به من الكفار .

وقال الإمام الخازن :

{ لعلك باخع نفسك } أي قاتلٌ نفسك { ألا يكونوا مؤمنين } أي إن لم يؤمنوا ، وذلك حين كذّبه أهل مكة ، فَشقَّ عليه ذلك ، وكان يحرص على إيمانهم ، فأنزل الله عز وجل هذه الآية . اهـ .

وفي إطار هذه الآيات المحكمة المعنى وهي قوله تعالى :

{ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين }

{ وإنك لعلى خلق عظيم }

{ لتعزّروه وتوقروه }

{ واعلموا أن فيكم رسول الله }

{ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ }

{ ما ضلَّ صاحبكم وما غوى }

في إطار هذه الآيات المحكمات الصريحات المعنى يجب فهم الآيات المتشابهات ، التي يشتبه فهمها على بعضهم ، بردّها إلى المحكمات التي هي أم الكتاب ، لأن الله تعالى وصف المحكمات بأنهن أم الكتاب ، والأمُّ أصل الشيء ومرجعه ، وبهذا يزول الاشتباه ويرسخ العلم الصحيح بمقام رسول الله صلى الله عليه وسلم الواجب على كل مؤمن .

ومن لم يفعل ذلك فقد ضرب آيات القرآن ببعضها وجعلها متناقضة مختلفة لكنها لا اختلاف فيها ولا تعارض لأنها كلام رب العالمين ، قال تعالى :

{ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً } لكنه من عند الله فلا اختلاف فيه ، فافهم قوله تعالى :{ عبس وتولى }[1] ضمن إطار قوله جل وعلا { وإنك لعلى خلق عظيم } فالعبوسة في وجه الأعمى إنما كانت لغرض جاء بداهة دونما تكلف ، لأنه صلى الله عليه وسلم كان مشغولاً في جدال ومناظرة صناديد المشركين لعلهم يؤمنون فيؤمن قومهم ، وأما الأعمى فهو مؤمن جاء يسأل النبي عن أمر دينه ، وعلى كل حال فإن الأعمى لم ير من عبوسة النبي صلى الله عليه وسلم شيئاً لأنه أعمى .

وأما من قال : إن عبوس النبي صلى الله عليه وسلم في وجه الأعمى وتوليه جعلا الأعمى كسير الخاطر جريح القلب خاصة أنه جاء يسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعلّمه مما علمه الله من أمر الدين !

فيقال له : وهل رأى الأعمى عبوسة النبي صلى الله عليه وسلم ؟

إنه أعمى لا يرى البشاشة ولا العبوسة ، ولا يرى شيئاً ، فكيف كسر خاطره أو جرح فؤاده ؟ !

ويقال أيضاً : عندما تولى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الأعمى هل كان مقبلاً عليه ملتفتاً إليه حتى تركه وأعرض عنه وتولى عنه إلى غيره ؟

---

[1] ومعنى عبس في اللغة : قطّب ما بين عينيه (كما في تاج العروس)

لقد كان صلى الله عليه وسلم مقبلاً بكلّيته إلى نفر من صناديد قريش يحاورهم ويجادلهم ويجاهدهم بحجج القرآن وبراهينه ، لعلهم يؤمنون فيؤمن من وراءهم ، فلما جاءه الأعمى وهو في تلك الحالة من الانهماك في دعوة الصناديد عبس صلى الله عليه وسلم دون تكلف ودون نية أو قصد الإساءة للأعمى أو طرده - وحاشاه صلى الله عليه وسلم من ذلك - بل لأنه مُجهد نفسه بما هو أشد وأعظم ، فإن الأعمى مؤمن قد يسأل النبي صلى الله عليه وسلم في وقت آخر .

ومع ذلك كله فإن الله تعالى أراد التخفيف عن رسوله صلى الله عليه وسلم ليبين حكماً شرعياً له صلى الله عليه وسلم وللدعاة من بعده ، وهو أن عليهم البلاغ والتذكير والنصح دون إجهاد النفس وإتعابها إلى درجة يؤذي فيها الداعي نفسه أو يلحق الضرر بها .

وأما العبوسة فقد قال تعالى :{ يوماً عبوساً قمطريراً }
وقال جل وعلا : { عبس وتولى }
فما هي العبوسة ، وما هو مدلولها ، وما هو التولّي ، وهو كل تولّ مذموم ، أم أن هناك المحمود منه ؟
قال الإمام القرطبي رحمه الله :
{ وتولى } أي أعرض بوجهه
قال ابن زيد رحمه الله : إنما عبس النبي صلى الله عليه وسلم لابن أم مكتوم وأعرض عنه، لأنه أشار إلى الذي كان يقوده أن يكفّه، فدفعه ابن أم مكتوم، وأبى إلا أن يكلم النبي صلى الله عليه وسلم حتى يعلّمه، فكان في هذا نوع جفاء منه.
ومع هذا أنزل الله في حقه على نبيه صلى الله عليه وسلم: { عبس وتولى } بلفظ الاخبار عن الغائب، تعظيماً له صلى الله عليه وسلم ، ولم يقل: عبستَ وتوليتَ .
وقال الإمام الخازن في تفسير قوله تعالى :
{ فسقى لهما ثم تولى إلى الظل } يعني عَدَلَ إلى رأس الشجرة فجلس في ظلها من شدة الحر وهو جائع .
{ فقال رب إني لِما أنزلتَ إلي من خير فقير } معناه أنه طلب الطعام لجوعه واحتياجه إليه . اهـ .

قلتُ : وبعد هذا التولي من سيدنا موسى عليه السلام عن ماء مدين الذي ازدحم الناس فيه ، ولجوئه إلى ظلال رحمة الله تعالى جاءه الفرج من الله تعالى فوراً حيث قال سبحانه : { فجاءته إحداهما تمشي على استحياء قالت إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيتَ لنا } والفاء للتعقيب ثم كان ما كان .
وحول قوله تعالى : { إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا }
قال الإمام ابن كثير في تفسيره :
{ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ } أي: رجاءَ ثواب الله ورضاه
{ لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُورًا } أي: لا نطلب منكم مجازاة تكافئونا بها ، ولا أن تشكرونا عند الناس .
قال مجاهد وسعيد بن جبير: أمَا والله ما قالوه بألسنتهم، ولكن علم الله به من قلوبهم، فأثنى عليهم به ليرغب في ذلك راغب .
{ إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا } أي: إنما نفعل هذا لعل الله أن يرحمنا ويتلقانا بلطفه، في اليوم العبوس القمطرير.
قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس :
{ عَبُوسًا } ضيقاً ،{ قَمْطَرِيرًا } طويلاً .
وقال عكرمة وغيره، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى :
{ يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا } أي: يعبس الكافر يومئذ حتى يسيل من بين عينيه عَرَق مثل القَطرَان .
وقال مجاهد:
{ عَبُوسًا } العابس الشفتين، { قَمْطَرِيرًا } قال: تقبيض الوَجه بالبُسُور.
وقال سعيد بن جبير، وقتادة:
{ عَبُوسًا } تعبس فيه الوجوه من الهول ، { قَمْطَرِيرًا } تقليص الجبين وما بين العينين من الهول.
وقال ابن زيد: العبوس: الشر ، والقمطرير: الشديد .
وأوضح العبارات وأجلاها وأحلاها، وأعلاها وأولاها : قولُ ابن عباس، رضي الله عنه.اهـ .
وقال الإمام القرطبي في تفسيره :
قوله تعالى: { إنا نخاف من ربنا يوما عبوساً قمطريراً }
{ عبوساً } صفة اليوم ، أي يوماً تعبس فيه الوجوه من هوله وشدته، فالمعنى نخاف يوماً ذا عبوس .
وقال الإمام السيوطي في الدر المنثور :
أخرج ابن مردويه عن أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى : { يوماً عبوساً قمطريراً } قال : يقبض ما بين الأبصار .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر من طريق ابن عباس قال : القمطرير : الرجل المنقبض ما بين عينيه ووجهه .
وأخرج الطستي عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق قال له : أخبرني عن قوله : { يوماً عبوساً قمطريراً }
قال : الذي ينقبض وجهه من شدة الوجع . اهـ .
وأما التولي المذموم فهو كالتولي يوم الزحف فقد قال الله تعالى فيه :
{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ * وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ }
وقد عدّه النبي صلى الله عليه وسلم من الكبائر فقال :
[اجتنبوا السبع الموبقات [، وعدّ منهن : [التولي يوم الزحف] [1]
وإن مقتضى موقفه صلى الله عليه وسلم المذكور في قوله تعالى :

{ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ }

وموقفه المذكور في قوله سبحانه { وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ }

وأسلوب الدعوة كما نبه سبحانه { ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ }

وكذلك موقفه المذكور في قوله جل وعلا :

{ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ } أي يشقّ ويصعب عليه ما يشقّ ويصعب عليكم { حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ } أي على هدايتكم للإيمان وإيصال الخير إليكم ونفعكم ..

كل ذلك يتطلب منه صلى الله عليه وسلم أن يشتغل في دعوة الكافرين إلى الله ، خاصة الاهتمام بصناديدهم ، لأنهم إذا آمنوا آمن قومهم ، فكان هذا هو همّه الأكبر صلى الله عليه وسلم ، وأما من آمن به وجاء يسأله أن يعلّمه أمور دينه فهو في سعة من الزمن لكي يتعلم ذلك ، خاصة إذا كان صلى الله عليه وسلم مشغولاً في دعوة الكافرين وجهادهم بأدلة القرآن .

فابن أم مكتوم رضي الله عنه مثله مثل الذين نزلت فيهم

---

[1] طرف حديث في صحيح البخاري كتاب الوصايا وصحيح مسلم كتاب الإيمان عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه

{ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ }

{ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ } الآية

لأن هؤلاء كلهم كانوا مؤمنين بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم وإنما جلسوا أو جاؤوا ليتفقهوا في دين الله ، فهم عند رسول الله صلى الله عليه وسلم في سِلم وأمان ، وقد اطمأن على إيمانهم ، وشغل نفسه صلى الله عليه وسلم بدعوة الكبراء والصناديد ليؤمنوا بمقتضى مواقفه المتقدمة ، فنزل الحكم من الله تعالى في بيان ذلك ، مبيناً لرسوله صلى الله عليه وسلم ماذا يتصرف :

أيبقى مشغولاً مع الكافرين و مهتمّاً بهم ، أم ينصرف إلى الآخرين ليعلّمهم أمور دينهم ؟

أيجيب صناديد قريش بطرد ضعفاء المهاجرين من مجلسه ليجلسوا في مجلسه ، أم لا ؟

فجاءت الآيات كلها في بيان تلك المواقف لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهل يسمى هذا عتاباً من الله لرسوله الكريم صلى الله عليه وسلم ؟

وقوله تعالى :{ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى } نظير قوله تعالى :{ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا } وقوله جل وعلا : { إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ }

وتتنافى العبوسة مع قوله تعالى :{ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ } فكيف يُكرمه بالخلق العظيم ثم يعاتبه على خُلُقه مع أعمى ؟!

فهو ليس عتاباً كما يُفهم على ظاهره ، وإنما تسلية وتذكير كما قال تعالى :{ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ }

وهناك ارتباط بين قوله تعالى :{ عَبَسَ وَتَوَلَّى } وقوله جل وعلا : { وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ }

وإن في قوله سبحانه :

{ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ }
توجيهاً له صلى الله عليه وسلم أن لا يجيب الصناديد إلى ما أرادوا ، وفي سورة {عبس } كذلك توجيه له صلى الله عليه وسلم أن لا يهتم بهم ولا يعبأ ، بل عليه بلاغهم ، حيث كان صلى الله عليه وسلم يهتم بإيمانهم وهديهم بمقتضى موقف { وما أرسلناك رحمة للعالمين }

فتنزل الآيات وفيها التسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وكشف الأحزان عنه لِما يلاقيه من إعراض قومه عنه ، وهي كثيرة منها :

{ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآَيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ * وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ * وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآَيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ } . اهـ .

قال الإمام الخازن رضي الله عنه في تفسيره :

قوله تعالى : { قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون } يعني قد نعلم يا محمد إنه ليحزنك الذي يقوله المشركون لك .

قال السدي : التقى الأخنس بن شريق أبا جهل بن هشام فقال الأخنس لأبي جهل : يا أبا الحكم أخبرني عن محمد أصادق هو أم كاذب ؟

فإنه ليس هنا أحد يسمع كلامك غيري

فقال أبو جهل :

(والله إن محمداً لصادق ، وما كذب محمد قط ، ولكن إذا ذهب بنو قصي باللواء والسقاية والحجابة والندوة والنبوة فماذا يكون لسائر قريش) ؟

فأنزل الله هذه الآية .

وقال ناجبة بن كعب : قال أبو جهل للنبي صلى الله عليه وسلم :

(ما نتّهمك ولا نكذّبك ، ولكنا نكذّب الذي جئت به) ، فأنزل الله هذه الآية .

وعن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه أن أبا جهل قال للنبي صلى الله عليه وسلم : (إنا لا نكذّبك ولكنا نكذّب بما جئت به)

فأنزل الله فيهم { فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون } أخرجه الترمذي من طريقين ، وقال في أحدهما : وهذا أصح ، ففي هذا الآية تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم وتعزية عما يواجهه به قومه لأنهم كانوا يعتقدون صدقه وأنه ليس بكذاب ، وإنما حملهم على تكذيبه في الظاهر الحسدُ والظلم ، قال تعالى : { فإنهم لا يكذبونك } يعني أنهم لا يكذبونك في السر ، لأنهم قد عرفوا أنك صادق { ولكن الظالمين } يعني الكافرين { بآيات الله يجحدون } يعني في العلانية وذلك أنهم جحدوا القرآن بعد معرفة الصدق الذي أنزل عليه لعنادهم وكفرهم ، كما قال الله تعالى في حق غيرهم : { وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً } .

وقيل : ظاهر الآية يدل على أنهم لم يكذبوا محمداً صلى الله عليه وسلم ، وإنما جحدوا آيات الله وهي القرآن الدال على صدقه ، فعلى هذا يكون المعنى : فإنهم لا يكذبونك لأنهم قد عرفوا صدقك وإنما جحدوا صحة نبوتك ورسالتك . اهـ .

- لأن الجحود إنكار بعد علم - .

قلت : ومن جهة أخرى فإن خطابات الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم جاءت دائماً بطريقة التكريم والمؤانسة والملاطفة كقوله تعالى :{ يا أيها المزمل } { يا أيها المدثر } { يا أيها النبي } { يا أيها الرسول } وفي الآية قوله تعالى :{ عبس } جاء بصيغة الماضي وكأن غيره الذي عبس وهذا من التكريم والتنبيه والتذكير بمكان ، وكما أنه لا يحق لأحد إذا سمع من والد يوجّه كلاماً لولده أن يتدخل بينهما ، لئلا يفهم الكلام على غير وجهه المراد ، فكذلك - ولله المثل الأعلى - خطابات الحق لرسوله صلى الله عليه وسلم فهي خاصة برسوله صلى الله عليه وسلم .

وليس لأحد أن يبدي فيها فَهماً غير صحيح لئلا يضل عن المراد .

ولما علم الله تعالى أنه قد يشتبه فهم ما جرى على حقيقته خاصة عند مرضى القلوب الذين يتّبعون ما تشابه من القرآن ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ـ أي تفسيره على حسب أهوائهم الفاسدة ـ افتتح سبحانه خبر القصة بصيغة الماضي مؤانسة وملاطفة لمن نزلت عليه صلى الله عليه وسلم فقال جل وعلا :

{ عبس وتولى * أن جاءه الأعمى } وكان غاية ما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه أومأ إلى قائد الأعمى أن يرجع به إلى حين آخر .

ثم لما أراد سبحانه أن يبين لرسوله صلى الله عليه وسلم أن غاية موقفه مع المشركين هو أن يهديهم وينذرهم خاطبه مباشرة بقوله جل وعلا :

{ وما يدريك لعله يزكى * أو يذكر فتنفعه الذكرى * أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى * فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى} أي تواجهه بالجدال الحق الذي تجهد فيه نفسك

{ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى } أي لا مسؤولية ولا مؤاخذة عليك إن هو لم يؤمن ولم يَتَزَكَّ بتزكيتك يا رسول الله ، فإن نهاية ما حتّمه الله عليك إبلاغهم وإنذارهم ، قال تعالى : { إن عليك إلا البلاغ } أي ما أوجبنا عليك إلا إبلاغهم

وقال سبحانه : { فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ }

وبلاغ رسول الله لهم هدايته لهم هداية الدلالة والبيان كما قال تعالى :

{ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ صِرَاطِ اللَّهِ } أي تدلّهم وتبين لهم صراط الله المستقيم وهو شرعه الذي أمرك بتبليغه فقال سبحانه :
{ إنما أنت منذر ولكل قوم هاد } أي إنما أنت منذر وهاد لكل قوم .

وأما هداية التوفيق والمعونة والحمل على الإيمان فهي لله وحده وترجع إلى علمه وحكمته سبحانه ، وهذا قوله تعالى : { إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ } أي هداية توفيق وحمل على الإيمان ومعونة عليه .

{ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ } بمقتضى علمه وحكمته

{ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ } أي بمن هو أهل للإيمان والهداية

وفي الآية يشرع الله حكماً لرسوله صلى الله عليه وسلم ولأمته من بعده أن عليهم إذا دعوا غيرهم إلى الله أن يدعوهم بالحكمة والموعظة الحسنة ، وما عليهم سوى ذلك ، وقد بين سبحانه أساليب الدعوة وطرقها بقوله سبحانه :
{ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ }

وقوله جل وعلا :

{ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي }

تنبيه : إن ما يُروى حديثاً من قوله صلى الله عليه وسلم لابن أم مكتوم :

(أهلاً بمن عاتبني فيه ربي) لم أجد له أصلاً في مصادر الحديث المتوفرة لدي ولا في كتب التفسير أيضاً [1] وعلى احتمال وجوده في خبايا الكتب الأخرى فقد قاله صلى الله عليه وسلم من قبيل عبوديته لله تعالى ، وليس لنا أن نقول ذلك عنه صلى الله عليه وسلم ، ومثاله :
أنه صلى الله عليه وسلم بمقتضى أنه أعبد العابدين لرب العالمين جاء عنه أنه يستغفر الله بصيغ متعددة من الاستغفار في السجود وغيره كقوله صلى الله عليه وسلم :
[اللهم اغفر لي ذنبي كله دِقّه وجِلّه وأوله وآخره وعلانيته وسره] [2]
وقوله صلى الله عليه وسلم :
[اللهم اغفر لي ما قدّمت وما أخّرت وما أسررت وما أعلنت وما أسرفت وما أنت أعلم به مني أنت المقدم وأنت المؤخر لا إله إلا أنت][1]

[1] إلا ما قاله الإمام السيوطي في الدرالمنثور ٢١٠/٣ :

أخرج ابن المنذر عن قتادة قال : نزلت في ابن أم مكتوم أربع آيات { لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر } ونزل فيه { ليس على الأعمى حرج } ونزل فيه { فإنها لا تعمى الأبصار . . . } الآية . ونزل فيه { عبس وتولى } فدعا به النبي صلى الله عليه وسلم ، فأدناه وقربه وقال : « أنت الذي عاتبني فيك ربي »

[2] صحيح مسلم كتاب الصلاة عن أبي هريرة رضي الله عنه

فهل يحق لنا أن نقول : اللهم اغفر لرسول الله ذنبه كله ..... ،
وهل يحق لنا أن نقول : اللهم اغفر لرسول الله ما قدّم وما أخّر ؟
الجواب : لا يجوز لنا ذلك بل نحن مكلّفون أن نصلي ونسلم عليه صلى الله عليه وسلم كما علّمنا ، وأما هو بمقتضى عبوديته ومقام عبوديته الفرداني لله تعالى فهو صلى الله عليه وسلم يسأل الله ويتذلل إليه ويخضع له ولذلك ذكره سبحانه في أشرف المناصب والمقامات بأنه عبده ، قال جل وعلا :
{ الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب }
{ سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً }
{ وأنه لما قام عبد الله }
{ وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان }
فهو صلى الله عليه وسلم العبد الأول والعابد الأعظم لله رب العالمين .
وخلاصة القول :
أن عبوسة الوجه لا تتأتى دائماً عن غضبك من أحد أو غيظك منه أو اشمئزاز أو انزعاج من آخر ، وإنما قد يحصل للإنسان عبوسة في وجهه دون شعور ، بسبب خوف أو توقُّع حصول سوء سيصيبه كما في الآية السابقة : { إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريراً } فاليوم زمن والزمن لا يوصف بالعبوسة ، وإنما هو من باب الكناية أي إن أهل ذلك اليوم كلهم عابسون وجوههم بسبب خوفهم من أهوال اليوم وكرباته ، وما سيجري عليهم من عاقبة أمرهم ، لا أن عبوسة أحدهم من غيظه أو تأثره أو انزعاجه من آخر ، ولكن أهل الإيمان الكامل في أمن الله وأمانه قال تعالى :
{ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ } .
وإليك مثالاً يقرب لك المعنى :
إذا كنت معلماً حاذقاً ماهراً في علم من العلوم ، وكنت وقت تدريسك منهمكاً مجهداً نفسك في التدريس لإفهام الطلاب ، وفقرات البحث تتوارد عليك كسلسلة متصلة ، والطلاب كلهم متوجهون بكلّيتهم إليك ، وفي تلك الحالة يفاجئك طالب آخر مثلاً بالدخول إلى الغرفة ليحدثك بكلام يمكن تأخير الجواب عنه إلى حين انتهاء الدرس ، فإن وجهك في ذلك الحال سيتغير تلقائياً في وجه هذا الطالب دونما تكلف منك ، وليس غضباً منه لأنه في عذر من فعله ، ويجهل ما أنت فيه من الانهماك في الدرس والبحث ، ولو علم لما دخل غرفة الدرس أصلاً ، فيقال هنا :

---

[1] صحيح البخاري كتاب الجمعة وصحيح مسلم كتاب صلاة المسافرين وقصرها واللفظ له

لا ملامة على الأستاذ في فعله ، ولا ملامة على الطالب في دخوله .
فهل يحق لأحد أن يطلق لفظ العتاب على عبوسة وجه الأستاذ التلقائية حينئذ ؟؟

فكيف يُطلَق لفظ العتاب على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في حين أنه سبحانه لم يذكره في حق سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا في آية ؟!!

فعلى المؤمن أن يحفظ لسانه ، ويلتزم جانب الأدب ، خاصة في ألفاظ لم ترِد في حق سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإلا وقع في الإثم وحبوط العمل .

وأما ما ورد عن أحد من الصحابة في ذلك كالسيدة عائشة مثلاً فيُحمل على المعنى السابق الذي تقدم بيانه . اهـ .

ومن جهة أخرى فله صلى الله عليه وسلم أن يقول عن ابنته السيدة فاطمة رضي الله عنها :

[لو أن فاطمة بنت محمد[1] ....] .

أما مَن بعده فلو أن ابنته أو ابنه أو من يعزّ عليه سرق ورُفع الأمر إليه وتُشفع له فيأثم إن قال : لو أن فاطمة بنت محمد ..

بل يذكر ولده هو فيقول : (لو أن ابنتي سرقت لقطعت يدها)

وذلك أدباً مع الجناب الكريم لبيت النبوة صلى الله عليه وسلم فافهم .

---

[1] روى الشيخان واللفظ للبخاري عن السيدة عائشة رضي الله عنها أن قريشاً أهمّتهم المرأة المخزومية التي سرقت فقالوا : من يكلِّم رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد حب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟
فكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال صلى الله عليه وسلم :
[أتشفع في حد من حدود الله]؟
ثم قام فخطب قال : [يا أيها الناس إنما ضل من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه ، وإذا سرق الضعيف فيهم أقاموا عليه الحد وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد صلى الله عليه وسلم سرقت لقطع محمد يدها] .
(صحيح البخاري ومسلم كتاب الحدود)

وقد ضرب العلماء رضي الله عنهم عند روايتهم لهذا الحديث الشريف أروع الأمثلة على وجوب الأدب مع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وآل بيته الطاهرين

قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري :

قوله صلى الله عليه وسلم : [لو أن فاطمة بنت محمد سرقت]

هذا من الأمثلة التي صح فيها أن " لو " حرف امتناع لامتناع ، وقد ذكر ابن ماجد عن محمد بن رمح شيخه في هذا الحديث :

" سمعت الليث يقول عقب هذا الحديث : قد أعاذها الله من أن تسرق "

وكل مسلم ينبغي له أن يقول هذا ، ووقع للشافعي أنه لما ذكر هذا الحديث قال : (فذكر عضواً شريفاً من امرأة شريفة) ، واستحسنوا ذلك منه لما فيه من الأدب البالغ .

وإنما خص صلى الله عليه وسلم فاطمة ابنته بالذكر لأنها أعزّ أهله عنده ، ولأنه لم يبق من بناته حينئذ غيرها ، فأراد المبالغة في إثبات إقامة الحد على كل مكلف وترك المحاباة في ذلك ، ولأن اسم السارقة وافق اسمها عليها السلام فناسب أن يضرب المثل بها .، واسم المرأة - أي التي سرقت - على الصحيح : فاطمة بنت الأسود بن عبد الأسد بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم ، وهي بنت أخي أبي سلمة ابن عبد الأسد الصحابي الجليل الذي كان زوج أم سلمة قبل النبي صلى الله عليه وسلم . اهـ . [١]

وقال في فيض الباري شرح صحيح البخاري :

قوله صلى الله عليه وسلم : (لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ)

قال العلماءُ: والمستحبُّ في هذا الموضع، أن يُقَالَ: أَعَاذَهَا اللَّهُ تعالى منه

---

[١] ٢٠٣/١٩

وقال في عون المعبود شرح سنن أبي داود :

(لو أن فاطمة): رضي الله عنها

(بنت محمد) صلى الله عليه وسلم

(سرقت ....) : وعند ابن ماجه عن محمد بن رمح شيخه في هذا الحديث : سمعت الليث يقول عقب هذا الحديث : قد أعاذها الله من أن تسرق ، وكل مسلم ينبغي له أن يقول مثل هذا ، فينبغي أن لا يُذكر هذا الحديث في الاستدلال ونحوه إلا بهذه الزيادة ، وإنما خص صلى الله عليه وسلم فاطمة بالذكر لأنها أعز أهله عنده ، فأراد المبالغة في تثبيت إقامة الحد على كل مكلف وترك المحاباة في ذلك . اهـ .

تنبيه :

إن الكلمات (عتب) (عتاب) (يستعتب) (المعتبين)

جاءت كلها في كتاب الله تعالى في سياق ذم الكافرين الظالمين حيث إنهم إذا طلبوا من الله أو سألوه إزالة العتب أي اللوم والزجر عنهم ليخفف عنهم عذاب ما فعلوه في الدنيا ، فلن يُجابوا إلى ذلك .

وإليك الآيات وتفسيرها من حيث اللغة وأقوال المفسرين فيها

أما ما ورد حول تفسير قوله تعالى { وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين }

فقد قال الشيخ إسماعيل حقي في روح البيان :

{ وان يستعتبوا }أي : يسألوا العتبى وهو الرجوع الى ما يحبونه جزعاً مما هم فيه { فما هم من المعتبين } أي : المجابين إلى العتبى فيكون صبرهم وجزعهم سوآء ، في أن شيئاً منهما لا يؤدي الى الخلاص ،ونظيره قوله تعالى مخبراً عنهم { سوآء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص } وفى القاموس : العتبى : الرضى ، واستعتبه أعطاه العتبى كأعتبه ، وطلبَ إليه العتبى ضدٌّ ، وفى المفردات : أعتبته أزلت عنه عتبه ، نحو أشكيته ومنه { فما هم من المعتبين }

والاستعتاب : أن يُطلب من الانسان أن يذكر عتبه فيعتب ، والعتب : الشدة والأمر الكريه والغلظة التى يجدها الانسان فى نفسه على غيره .

وقال الإمام القرطبي في تفسيره :

{ وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ } في الدنيا وهم مقيمون على كفرهم

{ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ }.

وقيل: المعنى { فَإِنْ يَصْبِرُوا } في النار أو يجزعوا { فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ } أي لا محيص لهم عنها، ودلّ على الجزع قوله تعالى : { وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ }؛ لأن المستعتب جزع ، والمعتب المقبول عتابه؛ قال النابغة:

فإنْ أكُ مَظْلُوماً فَعَبْدٌ ظَلَمْتَه وإنْ تَكُ ذَا عُتْبَى فَمِثْلكَ يُعْتِبُ

أي مثلك من قَبِل الصلح والمراجعة إذا سُئِل.

قال الخليل: العتاب مخاطبة الإدلال ومذاكرة الموجِدة ، تقول: عاتبته معاتبة، وبينهم أُعْتوبة يتعاتبون بها ، يقال: إذا تعاتبوا أصلح ما بينهم العتاب ، وأعتبني فلان: إذا عاد إلى مَسرَّتي راجعاً عن الإساءة، والاسم منه الْعُتْبى، وهو رجوع المعتوب عليه إلى ما يرضي العاتب.

و(استعتب وأعتب) بمعنى، واستعتب أيضاً طلب أن يُعْتَب؛ تقول: استعتبته فأعتبني ، أي استرضيته فأرضاني ، فمعنى : { وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فما هم من المعتبين } أي : إن يطلبوا الرضا لم ينفعهم ذلك ، بل لا بد لهم من النار.

وفي التفاسير: وإن يستقيلوا ربهم فما هم من المُقالين.

وقرأ عبيد بن عمير وأبو العالية { وَإِنْ يُسْتَعْتَبُوا } بفتح التاء الثانية وضم الياء على الفعل المجهول { فَما هُمْ مِنَ الْمُعْتِبِينَ } بكسر التاء أي : إن أقالهم الله وردّهم إلى الدنيا لم يعملوا بطاعته لِما سبق لهم في علم الله من الشقاء، قال الله تعالى:{ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ } ذكره الهروي.

وقال ثعلب: يقال أعتب إذا غضب ، وأعتب إذا رضي . اهـ

وقال الإمام الألوسي في تفسيره :

{ وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ } أي يسألوا العتبى وهي الرجوع إلى ما يحبونه جزعاً مما هم فيه { فَمَا هُم مّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ } أي المجابين إليها.

وقال الضحاك: المراد : إن يعتذروا فما هم من المعذورين .

وقرأ الحسن وعمرو بن عبيد وموسى الأسواري { وَإِن يُسْتَعْتَبُوا } مبنياً للمفعول { فَمَا هُم مّنَ ٱلْمُعْتبِينَ } اسم فاعل أي إن طلب منهم أن يرضوا ربهم فما هم فاعلون ، ولا يكون ذلك ، لأنهم قد فارقوا الدنيا دار الأعمال كما قال صلى الله عليه وسلم: [ليس بعد الموت مستعتب]
ويحتمل أن تكون هذه القراءة بمعنى قوله عز وجل :

{ وَلَوْ رُدُّواْ لعادوا لِمَا نُهُواْ عَنْهُ } اهـ .

وقال الإمام ابن كثير في تفسيره :

وقوله تعالى:

{ فَإِن يَصْبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ }

أي: سواء عليهم صبروا أم لم يصبروا، هم في النار، لا محيد لهم عنها، ولا خروج لهم منها، وإن طلبوا أن يستعتبوا ويُبدوا أعذارهم، فما لهم أعذار، ولا تُقال لهم عثرات.

قال ابن جرير: ومعنى قوله تعالى: { وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ } أي: يسألوا الرجعة إلى الدنيا، فلا جواب لهم.

قال: وهذا كقوله تعالى إخباراً عنهم:
{ قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْماً ضَآلِّينَ * رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَـٰلِمُونَ * قَالَ ٱخْسَئُواْ فِيهَا وَلاَ تُكَلِّمُونِ }

وقال الإمام الخازن في تفسيره :

{ وإن يستعتبوا } أي يسترضوا ويطلبوا العتبى ، والمعتَب هو الذي قُبل عتابه ، وأجيب إلى ما سأل

{ فما هم من المعتبين } أي المرضيين.

وقال الإمام البغوي في تفسيره :

{ ولا هم يستعتبون } ولا يُطلب منهم أن يرجعوا إلى طاعة الله تعالى لأنه لا يَقبل ذلك اليوم عذراً ولا توبة .

وقال الإمام النسفي في تفسيره :

{ وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ المعتبين } وإن يطلبوا الرضا فما هم من المرضيّين ، أو إن يسألوا العتبى وهي الرجوع لهم إلى ما يحبون جزعاً مما هم فيه ، لم يعتبوا أي : لم يعطوا العتبى ولم يجابوا إليها . اهـ .

وإليك بحثاً موجزاً حول تفسير قوله تعالى : { ولا هم يستعتبون } الواردة ثلاث مرات في القرآن الكريم في سورة النحل الآية ٨٤ وفي سورة الروم الآية ٥٧ وفي سورة الجاثية الآية ٣٥

قال الشيخ إسماعيل حقي في تفسيره (روح البيان) :

{ ولا هم يستعتبون } يسترضون أي : لا يقال لهم أَرْضوا ربكم ، ولا يُطلب منهم ما يوجب العتبى وهى الرضى ، وذلك لأن الرضى إنما يكون بالايمان والعمل الصالح ، والآخرة دار الجزاء لا دار العمل والتكليف ، والدنيا مزرعة الآخرة ، فكل بذر فسد فى الارض وبطل استعداده لقبول التربية ولم يتم أمر نباته اذا حصد وحصل فى البيدر ، لا يفيده أسباب التربية لتغيير أحواله ، فالأرواح بذور فى أرض الأشباح ، ومربّيها ومُنبتها وثمرها أعمال الشريعة ، بشرط الإيمان ، ومُفسدها ومبطلها ومغيرها عن أحوالها الكفر وأعمال الطبيعة ، والموت حصادها ، والقيامة بيدرها .

{ ولا هم يستعتبون } الإعتاب : إزالة العتب أي الغضب والغلظة ، والاستعتاب : طلب ذلك ، من قولهم : استعتبني فلان فأعتبته أي استرضاني فأرضيته ، والمعنى : لا يُدعون الى ما يقتضي إعتابهم أي إزالة عتبهم وغضبهم من التوبة والطاعة ، كما دُعوا إليه فى الدنيا ،

إذ لا يُقبل حينئذ توبة ولا طاعة ، وكذا لا يصح رجوع الى الدنيا لإدراك فائت من الايمان والعمل .

{ ولا هم يستعتبون } أي لا يُطلب منهم أن يعتبوا ربهم أي يُرضوه بالطاعة لفوات أوانه ، وفيه إشارة إلى أن الله تعالى أظهر على مخلصي عباده بعض آياته ، فلما رآها أهل الانكار اتخذوها هزواً على ما هو عادتهم فى كل زمان ، وغرّتهم الحياة الدنيا إذ ما قبلوا وصية الله إذ قال جل وعلا : { فلا تغرنكم الحياة الدنيا }
فاليوم لا يخرجون من نار القهر الإلهي لأنهم دخلوا فيها على قدمي الحرص والشهوات ، ولا هم يُستعتبون فى الرجوع إلى الجنة على قدمي الايمان والعمل الصالح .

وقال الإمام القرطبي في تفسيره :

{ وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ } يعني يسترضون، أي لا يكلفون أن يرضوا ربّهم؛ لأن الآخرة ليست بدار تكليف، ولا يتركون إلى رجوع الدنيا فيتوبون . وأصل الكلمة من العَتْب وهي المَوْجدة؛ يقال: عَتَب عليه يعتُب إذا وجد عليه، فإذا فاوضه ما عَتَب عليه فيه قيل : عاتبه، فإذا رجع إلى مسرّتك فقد أعتَب، والاسم العُتبى وهو رجوع المعتوب عليه إلى ما يُرضي العاتبَ؛ قاله الهَروِيّ.

{ وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ } أي ولا حالهم حال من يستعتب ويرجع؛ يقال: استعتبته فأعتبني، أي استرضيته فأرضاني، وذلك إذا كنت جانياً عليه. وحقيقة أعتبته: أزلت عتبه.

وقال الإمام ابن كثير في تفسيره :

يخبر تعالى عن شأن المشركين يوم معادهم في الدار الآخرة، وأنه يبعث من كل أمة شهيداً، وهو نبيّها، يشهد عليها بما أجابته فيما بلّغها عن الله تعالى: { ثُمَّ لاَ يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ } أي: في الاعتذار؛ لأنهم يعلمون بطلانه وكذبه؛ كقوله سبحانه :{ هَـٰذَا يَوْمُ لاَ يَنطِقُونَ وَلاَ يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ }

فلهذا قال جل وعلا : { وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ } أي: ولا هم يرجعون إلى الدنيا؛ كما قال تعالى: { وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ }.

{ وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ } أي: لا يطلب منهم العتبى، بل يعذبون بغير حساب ولا عتاب، كما تدخل طائفة من المؤمنين الجنة بغير عذاب ولا حساب .

وقال الإمام الألوسي في تفسيره :

{ وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ } أي لا يطلب منهم أن يزيلوا عتب ربهم أي غضبه ، بالتوبة والعمل الصالح ، إذ الآخرة دار الجزاء لا دار العمل ، والرجوع إلى الدنيا مما لا يكون .

وقيل: المعنى : ولا يطلب رضاهم في أنفسهم بالتلطف بهم ، من : استعتبه كأعتبه إذا أعطاه العتبى وهي الرضا ، وأياً ما كان فالمراد استمرار النفي لا نفي الاستمرار .

{ وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ } الاستعتاب : طلب العتبى وهي الاسم من الإعتاب بمعنى إزالة العتب كالعطاء والاستعطاء أي لا يطلب منهم إزالة عتب الله تعالى، - والمراد به غضبه سبحانه عليهم - بالتوبة والطاعة فإنه قد حق عليهم العذاب .

وإن شئت قلت: أي لا يقال لهم أرضوا ربكم بتوبة وطاعة كما كان يقال لهم ذلك في الدنيا، وقيل: أي لا يستقيلون فيستقالون بردهم إلى الدنيا.

وقال ابن عطية: هذا إخبار عن هول يوم القيامة وشدة أحواله على الكفرة بأنهم لا ينفعهم الاعتذار ولا يعطون عتبى وهى الرضا

و{ يُسْتَعْتَبُونَ } بمعنى : (يعتبون) ، كما تقول : يملك ويستملك ، والباب في استفعل أنه طلب الشيء وليس هذا منه ، لأن المعنى يفسد إذا كان المفهوم منه ولا يطلب منهم عتبى انتهى .

فجعل استفعل بمعنى فعل ، وحاصل المعنى عليه على ما في «البحر» : هم من الإهمال وعدم الالتفات إليهم بمنزلة من لا يؤهل للعتب .
وقيل: المعنى : هم لا يعاتبون على سيآتهم بل يعاقبون،

وما ذكرناه أولاً هو الذي ينبغي أن يعول عليه، ويا ليت شعري أين ما ادعاه ابن عطية من الفساد إذا كان المفهوم منه :
لا يطلب منهم عتبى ، على ما سمعت.

{ وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ } أي لا يطلب منهم أن يعتبوا ربهم سبحانه أي يزيلوا عتبه جل وعلا، وهو كناية عن إرضائه تعالى ، أي لا يطلب منهم إرضاؤه عز وجل لفوات أوانه ، وقد تقدم في الروم والسجدة أوجه أخر في ذلك فتذكر. اهـ.

وقال أحد المفسرين ممن يُعنى باللغة العربية :

{ يُسْتَعْتَبُونَ } من قولك: استعتبني فلان فأعتبته ، أي: استرضاني فأرضيته، وذلك إذا كنت جانياً عليه.

وحقيقة أعتبته : أزلت عتبه ، ألا ترى إلى قوله:

غَضِبَتْ تَمِيمٌ أنْ تُقَتَّلَ عامِرٌ   يَومَ النِّسَارِ فَأُعْتَبُوا بِالصِّيْلَمِ

كيف جعلهم غضاباً، ثم قال: فأعتبوا، أي: أزيل غضبهم.

والغضب في معنى العتب ، والمعنى: لا يقال لهم : أرضوا ربكم بتوبة وطاعة، ومثله قوله تعالى: { لاَ يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلاَ هُمْ يُسْتَعَتَبُونَ }
فإن قلت: كيف جعلوا غير مستعتبين في بعض الآيات، وغير معتبين في بعضها، وهو قوله جل وعلا :{ وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ }؟

قلت: أما كونهم غير مستعتبين: فهذا معناه.

وأما كونهم غير معتبين، فمعناه: أنهم غير راضين بما هم فيه، فشبّهت حالهم بحال قوم جني عليهم، فهم عاتبون على الجاني غير راضين عنه، فإن يستعتبوا الله: أي يسألوه إزالة ما هم فيه، فما هم من المجابين إلى إزالته.

{ وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ } وإن يسألوا العتبى وهي الرجوع لهم إلى ما يحبون جزعاً مما هم فيه: لم يعتبوا: لم يعطوا العتبى ولم يجابوا إليها، ونحوه قوله عزّ وعلا: { أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ }
وقرىء: { وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين } أي: إن سئلوا أن يرضوا ربهم فما هم فاعلون، أي: لا سبيل لهم إلى ذلك . اهـ .

و قال في مختار الصحاح :

(ع ت ب) عَتَبَ عليه : وَجَدَ ، وبابه نَصَر وطَرِب ومَعْتَباً أيضاً بفتح التاء. والعَتَب كالعَتْب ، والاسم المَعْتِبَة بفتح التاء وكسرها.

وقال الخليل : العِتَاب مُخَاطَبَة الإدْلاَل ومُذَاكَرَة المَوْجِدة [1] وعاتَبَه مَعَاتبة وعتَاباً وأعْتَبَه : سَرَّه بَعْدَ ما سَاءهُ ، والاسمُ منه العُتْبى ، واستَعْتَبَ بمعنَى طَلَبَ أن يُعْتَب تقول : استَعْتَبَه فَأَعْتَبَه أي اسْتَرْضَاه فَأَرْضَاهُ.

وقال في لسان العرب :

العَتْبُ والعُتْبانُ : لومُك الرجلَ على إساءة كانت له إليك فاسْتَعْتَبْتَه منها ، وكلُّ واحد من اللفظين يَخْلُصُ للعاتِب ، فإذا اشتركا في ذلك وذَكَّرَ كلُّ واحدٍ منهما صاحبَه ما فَرَطَ منه إليه من الإساءة فهو العِتابُ والمُعاتَبة .

فأَمَّا الإعْتابُ والعُتْبَى فهو رُجوعُ المَعْتُوب عليه إلى ما يُرْضِي العاتِبَ والاسْتِعْتابُ : طَلَبُك إلى المُسِيءِ الرُّجُوعَ عن إساءَته ،
والتَّعَتُّبُ والتَّعاتُبُ والمُعاتَبَةُ تواصف الموجِدَة .

قال الأَزهري : التَّعَتُّبُ والمُعاتَبَةُ والعِتابُ كل ذلك مُخاطَبَةُ الإِدْلالِ وكلامُ المُدِلِّينَ أَخِلاَّءَهم طالبين حُسْنَ مُراجعتهم ومذاكرة بعضِهم بعضاً ما كَرِهُوه مما كسبَهم المَوْجِدَةَ .

وفي الحديث : كان يقول لأَحَدِنا عند المَعْتِبَة : ما لَهُ تَرِبَتْ يمينُه ؟ [1]

---

[1] قال في تاج العروس : وجدت على الرجل موجدة أي : غضبت عليه ، وأنا واجد عليه أي غضبان ، وفي الغريب المصنف لأبي عبيد أنه يقال :
وجد يجد من الموجدة والوجدان جميعاً . اهـ .

رويت المعْتَبَة بالفتح والكسر من المَوْجِدَة .

والعِتْبُ : الرجلُ الذي يُعاتِبُ صاحِبَه أَو صديقَه في كل شيءٍ إِشفاقاً عليه ونصيحة له ، والعَتُوبُ الذي لا يَعْمَلُ فيه العِتابُ ، ويقال : فلانٌ يَسْتَعْتِبُ من نَفْسه ويَسْتَقِيلُ من نفسه ويَسْتَدْرِك من نفسه إِذا أَدْرَكَ بنفسه تَغْييراً عليها بحُسْن تقدير وتدبير ، والأُعْتُوبةُ : ما تُعُوتِبَ به ، وبينهم أُعْتُوبة يَتَعاتَبُون بها ، ويقال إِذا تَعاتَبُوا أَصْلَحَ ما بينهم العتابُ ، والعُتْبَى : الرِّضا ، وأَعْتَبَه : أَعْطاه العُتْبَى ورَجَع إِلى مَسَرَّته ، والعُتْبَى اسم على فُعْلى يوضع موضع الإِعْتاب ، وهو : الرجوعُ عن الإِساءة إِلى ما يُرْضِي العاتِبَ .

وفي الحديث : [لا يُعاتَبُونَ في أَنفسهم] [٢]

يعني لعِظَمِ ذُنُوبهم وإِصْرارِهم عليها وإِنما يُعاتَبُ من تُرْجَى عنده العُتْبَى أَي : الرُّجوعُ عن الذنب والإِساءة ، وفي المثل : ما مُسِيءٌ من أَعْتَبَ ، وفي الحديث : [عاتِبُوا الخَيْلَ فإِنها تُعْتِبُ] [٣]

أَي أَدِّبُوها ورَوِّضُوها للحَرْبِ والرُّكُوبِ فإِنها تَتَأَدَّبُ وتَقْبَلُ العِتابَ

واسْتَعْتَبَه : كأَعْتَبه ، واسْتَعْتَبه : طَلَب إِليه العُتْبَى ، تقول : اسْتَعْتَبْتُه فأَعْتَبَنِي أَي اسْتَرْضَيْتُه فأَرْضاني ، واسْتَعْتَبْتُه فما أَعْتَبَني كقولك اسْتَقَلْتُه فما أَقالَني ،

---

[١] انظر مسند أبي يعلى الموصلي وعمل اليوم والليلة لابن السني

[٢] روى ابن المبارك في الزهد والرقائق عن يزيد بن أبي حبيب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : [تكون أمتي على ثلاثة أطباق : أما الطبق الأول ، فلا يحبون كثرة المال ، ولا جمع المال ، قليله ولا كثيره ، إلا ما بلّغهم إلى الآخرة ، وأما الطبق الثاني ، فيحبون جمع المال - أو كثرة المال - يصِلون به أرحامهم ويتاماهم ومساكينهم ، ويحجون به ، ويعطون في سبيل الله ، يعض أحدهم على الحجر أحب إليه من أن يكسب مالاً قبيحاً ، وأما الطبق الثالث ، فيحبون جمع المال ، وكثرة المال ، لا يبالون من أين دخل عليهم كسبهم ، فأولئك لا يعاتبون في أنفسهم] .
وقال في النهاية في غريب الحديث : [لا يُعَاتِبُون في أنْفُسِهم] يعني لِعظَم ذُنُوبهم وإصْرارِهم عليها . وإنما يُعَاتَب مَنْ ترجى عنده العُتْبَى : أي الرُّجُوع عن الذَّنْب والإساءَة .

[٣] عزاه في كنز العمال للطبراني والضياء عن أبي أمامة

والاستِعتابُ : الاستِقالة ، واسْتَعْتَب فلانٌ : إذا طَلب أَن يُعْتَبَ أَي يُرْضَى - بضم الياء - والمُعْتَبُ المُرْضَى ، وفي الحديث :

[لا يَتَمَنَّيَن أَحدُكم الموتَ إما مُحْسِناً فلَعَلَّه يَزْداد وإمّا مُسِيئاً فلعله يَسْتَعْتِبُ] [1]

أَي يرْجِعُ عن الإساءة ويَطْلُبُ الرضا

ومنه الحديث : [ولا بَعْدَ الموْتِ من مُسْتَعْتَبٍ] [2]

أَي ليس بعد الموت من اسْتِرْضاءٍ ، لأَن الأَعمال بَطَلَتْ وانْقَضَى زَمانُها وما بعد الموْت دارُ جزاءٍ لا دارُ عَمَلٍ .

وقول أَبي الأَسْود :

فأَلْفَيْتُه غيرَ مُسْتَعْتِبٍ ولا ذَاكِرَ اللهِ إلا قليلا

يكون من الوجهين جميعاً .

وقال الزجاج : قال الحَسَن في قوله تعالى :

{ وهو الذي جعلَ الليل والنهارَ خِلْفَةً لمن أَراد أَن يَذَّكَّر أَو أَرادَ شُكوراً } قال :

من فاتَهُ عَمَلُه من الذِّكْر والشُّكْر بالنهار كان له في الليل مُسْتَعْتَبٌ ، ومن فاته بالليل كان له في النهار مُسْتَعْتَبٌ.

قال أُراه يَعْنِي وقتَ اسْتِعْتابٍ أَي وقتَ طَلَبِ عُتْبى كأَنه أَراد وقت اسْتِغفار وفي التنزيل العزيز : { وإِن يُسْتَعْتبُوا فما هم من المُعْتِبِين } معناه إِن أَقالَهُم اللّهُ تعالى وردَّهم إِلى الدنيا لم يُعْتِبُوا ، يقول : لم يَعْمَلُوا بطاعةِ اللّهِ لِما سَبَقَ لهم في عِلْمِ اللّهِ من الشَّقاءِ ،

[1] كما في صحيح البخاري كتاب التمني عن أبي هريرة رضي الله عنه ، وقال في النهاية في غريب الحديث : أي يَرْجِعُ عن الإساءة ويَطْلُب الرِّضا
[2] انظره في شعب الإيمان للبيهقي وقصر الأمل لابن أبي الدنيا

وهو قوله تعالى { ولو رُدُّوا لَعادُوا لِما نُهوا عنه وإنَّهم لكاذبون } ومن قرأَ { وإِن يَسْتَعْتِبُوا فما هم من المُعْتَبِين } فمعناه إِن يَسْتَقِيلُوا ربهم لم يُقِلْهم اهـ .

قلت : وهناك بعض الأحاديث وردت فيها كلمة العتاب أوردها لك هنا مع شرحها :

روى الطبراني في مسند الشاميين عَنْ وَاثِلَةَ رضي الله عنه قَالَ :

أَتَى النَّبِيَّ رَجُلٌ أَكْشَفُ أَحْوَلُ أَوْقَصُ أَحْنَفُ أَقْحَمُ أَعْسَرُ أَرْسَحُ أَفْحَجُ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَخْبِرْنِي بِمَا فَرَضَ اللَّهُ عَلَيَّ، فَلَمَّا أَخْبَرَهُ قَالَ : إِنِّي أُعَاهِدُ اللَّهَ أَنْ لا أَزِيدَ عَلَى فَرِيضَةٍ، قَالَ : وَلِمَ ذَاكَ؟ قَالَ : لأَنَّهُ خَلَقَنِي أَكْشَفَ أَحْوَلَ أَوْقَصَ أَحْنَفَ أَقْحَمَ أَعْسَرَ أَرْسَحَ أَفْحَجَ، ثُمَّ أَدْبَرَ، فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلامُ، فَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ، أَيْنَ الْعَاتِبُ عَلَى رَبِّهِ؟ عَاتَبَ رَبًّا كَرِيمًا فَأَعْتَبَهُ، قَالَ : قُلْ لَهُ : أَلا تَرْضَى أَنْ تُبْعَثَ فِي صُورَةِ جِبْرِيلَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَبَعَثَ النَّبِيُّ إِلَى الرَّجُلِ، فَقَالَ لَهُ : " إِنَّكَ عَاتَبْتَ رَبًّا كَرِيمًا فَأَعْتَبَكَ، أَفَلا تَرْضَى أَنْ يَبْعَثَكَ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي صُورَةِ جِبْرِيلَ ؟ " قَالَ : بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَإِنِّي أُعَاهِدُ اللَّهَ لا يَقْوَى جَسَدِي عَلَى شَيْءٍ مِنْ مَرْضَاةِ اللَّهِ إِلا حَمَلْتُهُ [1]

---

[1] قال في النهاية في غريب الحديث :
الأكْشَف : الذي تَنْبُت له شَعَراتٌ في قُصاص ناصِيتَه ثائرةٌ ، لا تَكاد تَستَرْسِل ، والعَرب تَتَشاءم به
وفي تهذيب اللغة :
قال الليث : الوَقَص : قِصَر في العنق كأنه رُدّ في جوف الصدر .
الحَنَفُ : مَيَلٌ في صدر القدَمِ ، وقال الأصمعي : الحَنَف : أن تُقْبِلَ إبهام الرِّجْلِ اليُمنى على أُخْتِها من اليُسرى ، وأنْ تُقبِلَ الأُخْرَى إليها إقبالًا شديدًا . اهـ .
والأقحم : هو الذى قد أَقْحَمَتْه السِّنُّ ، تراه قد هَرِمَ من غير أوان الهَرَم
وفي النهاية في غريب الحديث :
العُسْرانُ : جمعُ الأعْسَر ، وهو الذي يَعْمَل بيَدِه اليُسْرَى
وفي لسان العرب :
" الرَّسَحُ: خِفَّةُ الأَلْيَتَين ولصوقهما ، رجل أَرْسَحُ بَيِّنُ الرَّسَح: قليل لحم العجز والفخذين
" الفحج: تباعد ما بين أَوساط السَّاقَينِ في الإنسان والدابة؛ وقيل: تباعُدُ ما بين الفَخِذَين؛ وقيل: تباعُد ما بين الرجلين، والنعت أَفْحَجُ .

ورواه ابن عساكر في تاريخ دمشق ، وجاء في الجزء السادس من حديث شيبان بن فروخ (مخطوط) . اهـ .

وروى الإمام مالك في الموطأ عن يحيى بن سعيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رُئي وهو يمسح وجه فرسه بردائه ، فسئل عن ذلك فقال :
[إني عوتبت الليلة في الخيل] .

وجاء في مسند أبي داود الطيالسي عن نُعَيْمُ بْنُ أَبِي هِنْدَ الأَشْجَعِيُّ ، قَالَ :
رُئِيَ النَّبِيُّ يَمْسَحُ خَدَّ فَرَسٍ، فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ:
[إِنَّ جِبْرِيلَ عَاتَبَنِي فِي الْفَرَسِ] .

وفي سنن سعيد بن منصور عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ يَسَارٍ أَنّ رَسُولَ اللَّهِ خَرَجَ ذَاتَ لَيْلَةٍ وَهُوَ يَمْسَحُ وَجْهَ فَرَسِهِ بِثَوْبِهِ، فَقَالَ :

[إِنَّ جِبْرِيلَ عَاتَبَنِي فِي الْخَيْلِ الْبَارِحَةَ] .

قال في المنتقى شرح الموطأ :

مسحه صلى الله عليه وسلم وجه فرسه بردائه على سبيل الإكرام له ، والمبالغة في مراعاته والإحسان إليه ،وإنما سئل عن ذلك لما لم يُعهد منه مثل هذا فقال صلى الله عليه وسلم : إني عوتبت الليلة في الخيل ، وهذا يقتضي أنه إنما عوتب - أي ذكّر - في المبالغة في مراعاتها والتعاهد لها والإحسان لِما خصّها الله به من أن جعلها سبباً للخير من الأجر والمغنم عوناً عليه . اهـ .

قلت : روى الشيخان عن سيدنا عروة البارقي رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

[الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة : الأجر والمغنم] [1]

ويجدر بنا في ختام البحث أن نذكر شيئاً مما سمعناه من مولانا الوالد رضي الله عنه فيما يتعلق بهذا الإطار حيث كان من كلامه :

---

[1] صحيح البخاري كتاب الجهاد والسير وصحيح مسلم كتاب الإمارة

لا يجوز لنا أن نُسند إلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فعلاً أو ننسب إليه وصفاً لم يرد في كتاب الله ولا سنة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن أَقْدم على ذلك فقد تجرّأ على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي أمرنا الله تعالى بتكريمه وتوقيره وتعظيمه واحترامه ، قال تعالى { لتعزّروه وتوقروه } أي لتحترموه وتعظموه وتنصروه وتبجّلوه بالفعل والقول . اهـ .

قلت : والكلام حول هذا واسع تجده في أوائل كتاب :
(حول تفسير سورة الحجرات) لمولانا الإمام رضي الله عنه .

وقد ضل الصواب من نسب إلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أوصافاً لم ترد أصلاً في آية ولا حديث وهي مثلاً كلمة :

(اللوم - الردع - العتاب - الزجر ......) وغيرها ، ونعوذ بالله من إساءة الأدب مع جناب سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن جوانبه صلى الله عليه وسلم كلها مصونة ، ومن اقترب منها غير مبال فقد ضلّ وعرّض عمله للحبوط ، وربما عرض إيمانه للزوال .

نسأل الله السلامة . آمين .

قال تعالى : { لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً }

فإذا كان هذا في دعائه صلى الله عليه وسلم أي ندائه وخطابه للحديث معه صلى الله عليه وسلم ، فكيف يجب أن يكون الحال في وصفه صلى الله عليه وسلم ونعته ومضمون الحديث عنه صلى الله عليه وسلم ؟!

وقال صلى الله عليه وسلم : (إني لست مثلكم) [1]

وفي رواية : (لست كهيئتكم) [2]

---

[1] انظر صحيح البخاري كتاب الصوم وصحيح مسلم كتاب الصيام
[2] طرف حديث في موطأ الإمام مالك كتاب الصيام

أي بل إن الله تعالى خصّني بأحكام وأوصاف خاصة بي ليست لكم ، إذاً ينبغي أن لا يُوصف صلى الله عليه وسلم بما يوصف به غيره ، بل علينا أن نقف في ذلك بما ورد في كتاب الله تعالى وحديث رسوله صلى الله عليه وسلم .

وما كان من آيات وأحاديث مشتبهة أي اشتبه فهمها على وجهها الصحيح فيجب ردها إلى الآيات المحكمة الصريحة المعنى ، عملاً بقوله تعالى :

{ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ } . اهـ

حسنات الأبرار سيئات المقربين [1]

إن البحث في معنى هذه القاعدة الأصولية الدينية يتطلب بيان معنى كل كلمة منها ، ولكننا قبل أن نشرع في ذلك ونبيّن المعنى الإجمالي العام لئلا يسأم أو يمل القارئ المريد للمعنى ، ولكي نقدم له المعنى بسيطاً صريحاً ، نضرب لذلك مثلاً واقعياً :

فلو اعتبرتَ نفسك أيها المؤمن من الأبرار - ونسأل الله أن تكون منهم - فإن إمام الصديقين سيدنا أبو بكر رضي الله عنه هو إمام المقربين ، وإنك إذا صليت مثلاً صلاة مكتوبة أو نافلة فهل يَحْضر فيها قلبك وتخشع فيها لله وتخضع كما لو صلى أبو بكر رضي الله عنه مثلاً ؟

إن جوابك حتماً : لا ، فإن صلاة سيدنا أبي بكر رضي الله عنه أعظم وأكبر بكثير من المقاييس والاعتبارات من صلاتك - من حيث حضور القلب وخشوعه ومراعاة الآداب في الصلاة- ، فأقول لك : أنتَ فعلت حسنة

---

[1] هذا القول: (حسنات الأبرار سيئات المقربين) رَفَعَه إلى النبي صلى الله عليه وسلم الشيخ ضياء الدين بن مصطفى بن عبد الرحمن الكمشخانوي الحنفي النقشبندي الخالدي المتوفى سنة ١٣١١ هـ ، رفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم في كتابه : (جامع الأصول في الأولياء) ص ٢١٦، ورفعه أيضاً الشيخ شمس الدين محمد بن أبي بكر الرازي الحنفي في كتاب (حدائق الحقائق) ص ١٧، و ممن عدّه حديثاً، الشيخ أبو الفضل محمد بن محمد الشافعي فإنه قال في كتابه (الظل المورود) : فقد روي أنه صلى الله عليه وسلم قال : فذكرَه ، وعزاه العجلوني في كشف الخفا وابن عساكر في تاريخه إلى أبي سعيد الخراز - وهو شيخ الصوفية ، القدوة أبو سعيد ، أحمد بن عيسى البغدادي الخراز المتوفى سنة ٢٧٧ هـ رضي الله عنه -، وعزاه الزركشي في لقطته - واسم الكتاب : (لقطة العجلان وبلة الظمآن) ألّفه الشيخ بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي الشافعي رحمه الله المتوفى سنة ٧٩٤ هـ ، ويشتمل الكتاب على أبحاث في أصول الفقه و المنطق و الفلسفة و التوحيد - عزاه الزركشي في لقطته للجنيد ، وعزاه القرطبي في تفسيره للإمام الجنيد أيضاً وقال الإمام الغزالي في الإحياء: قال القائل الصادق: حسنات الأبرار سيئات المقربين
قلت : وقد أضحى هذا الحديث الشريف قاعدة مقررة مشهورة بين جميع طبقات العلماء والعرفاء سلفاً وخلفاً كما صرح بذلك سيدنا الشيخ الإمام رضي الله عنه في كتابه الإيمان بعوالم الآخرة في بحث الشفاعة ص ٢٣٤ . اهـ .

وهي الصلاة ، فلو أن سيدنا أبا بكر رضي الله عنه صلى صلاتك لكانت بالنسبة له ولمقامه سيئة ، لأن صلاتك لا تخلو من خلل ونقص وسهو بفكرك وقلبك في تجارة وعمل وأمر دنيوي ، ولكنك بذلت ما في وسعك لتحسين صلاتك ، ومع ذلك كله فإن صلاة أبي بكر رضي الله عنه أفضل وأعظم لأن إيمانه أشد وأقوى ، وعلمه ومعرفته أوسع وأكبر ، فحضور قلبه مع الله تعالى وخشوعه له يليق بمقامه الرفيع ومنزلته السامية ، فلو صلى مثل صلاتك بما فيها من شوائب الرياء وعدم الخشوع المطلوب لكانت بالنسبة له سيئة ، فافهم واعلم أن الأمر نسبي يتفاضل بين مؤمن وآخر وهكذا .

فإن قلت : إن صلاتي بهذا الاعتبار سيئة ، والسيئة يجب التوبة منها ، وإن من شروط التوبة الإقلاع عن السيئة والذنب وعدم الرجوع إليها والندم عليها ، فيقال لك : إن الأمر نسبي كما قلنا فإن عدم إخلاصك لله في صلاتك ذنب يجب أن تتوب منه وتسعى نحو التخلص منه ، وإن عدم خشوع قلبك في الصلاة ذنب يجب أن تبحث عن سببه لتتخلص منه وهكذا ، لا أن تقلع عن الصلاة بأصلها وتتركها !! بل هي فرض عليك يجب أن تقوم به خير قيام فجاهد نفسك على التحقق بذلك واعلم أن الأمر بالتوبة جاء من الله موجهاً لكل المؤمنين على اختلاف مراتبهم فقال سبحانه :

{ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ }
فمن المؤمنين مَن يتوب مِن كبيرة ، ومنهم من صغيرة ، ومنهم مِن أصغر منها ، ومنهم من هفوة وغفلة وهكذا .

وأما الاستغفار وهو سؤال الله المغفرة فهناك استغفار بعد فعل السيئة ، وهناك الاستغفار بعد فعل الطاعة ، أما استغفارك بعد فعل السيئة فهو: أن لا يعاقبك الله عليها بعذاب أو عتاب أو حجاب ، وأما استغفارك بعد فعل الطاعة فهو لكي يجبر الله لك النقص الذي وقع منك أثناء القيام بها كغفلة وسهو أو شائبة رياء وسمعة ونحو هذا ، لأنه سبحانه لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً له جل وعلا ، فهل يعني استغفارك بعد فعل الحسنة

ـ أي الطاعة ـ أن تُقلع عنها ولا تعود إليها أم سؤال الله تعالى أن لا يؤاخذك على ما جرى منك من تقصير فيها وأن يتقبّلها منك على ما فيك ؟

قال تعالى { إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ }

واعلم أن الطاعة لا توصف بأنها حسنة مقبولة عند الله إلا إذا كانت موافقة لشرع الله ، خالصة لله ، وهذا معنى قوله تعالى :{الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم } أي يختبركم { أيّكم أحسن عملاً } ، والعمل الحسن هو : العمل الموافق لما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم الخالص لله تعالى ، وإذا كانت أعمالك على غير ذلك فأنت الذي اعتبرتها حسنة حسب ظنك ، ولكنها لا تعتبر حسنة عند الله تعالى إلا إذا تحقق عاملها بالشرطين السابقين ، فإذا انتقص منهما ولو شيئاً قليلاً وجب عليه الاستغفار حتى يقبلها الله تعالى منه ، وأي مؤمن يضمن قبول عمله عند الله جازماً بذلك ؟

إذ لا يقبل الله من العمل إلا ما كان خالصاً لوجهه الكريم جل وعلا ، قال تعالى { ألا لله الدين الخالص }

وقال سبحانه : { قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي} .

ولكلمة { الدين } معان متعددة ومتلازمة أيضاً ويُعرف كل معنى من سياق الآية أو الحديث كما في الآية السابقة { مخلصاً له ديني } أي مخلصاً له عملي ، بأن تكون إرادة العبد ونيته وعقيدته التي عقد عليها قلبه قبل بدء العمل أن تكون خالصة لله ، بأن يكون القلب خالياً من رؤية أو ملاحظة ما سوى الله تعالى و أننا عباده سبحانه ، وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم

[أخلصْ دينك يكفك القليل من العمل] [1]

واعلم أن الأبرار على مراتب ، والمقربين على مراتب ، وكذلك الحسنات في كمّها وكيفيتها ، والسيئات أيضاً تختلف حسب نسبتها إلى مؤمن وآخر ، ومن هذا تفهم قول النبي صلى الله عليه وسلم لعامة الصحابة وشبابهم رضي الله عنهم مادحاً السابقين من الصحابة الكرام إلى الإيمان :

---

[1] قال الحافظ السيوطي في الجامع الكبير : رواه ابن أبي الدنيا فى الإخلاص ، وابن أبي حاتم ، والحاكم ، وأبو نعيم فى الحلية عن معاذ بن جبل رضي الله عنه .

[لا تسبّوا أصحابي ، فلو أن أحدكم أنفق مثل أُحد ذهباً ما بلغ مدّ أحدهم ولا نصيفه] [1]
فمن أين هذا التفضيل ؟
نعم إنه لقوة الإخلاص والصدق مع الله تعالى في عبادتهم وفي معاملاتهم لخلق الله تعالى ، وقد شهد الله تعالى لهم بذلك فقال جل وعلا :
{يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ}
وقال سبحانه :
{لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ }
أي : في إيمانهم وإخلاصهم ، ويدخل في الخطاب بشكل أولوي سائر أمته صلى الله عليه وسلم الذين سيأتون من بعده يؤمنون به ولم يروه .
فالذي أنفق مثلاً من كمّل المؤمنين غير الصحابة الأولين - ولو كان أحد الصحابة المتأخرين – الذي أنفق مثل أُحُد ذهباً لا يبلغ ما أنفقه كبار الصحابة في الأجر والثواب الرباني ولو أنفق أحدهم - أي أحد كبار الصحابة - صاعاً من بُرّ أو شعير أو تمر ونحوه مع أن الذي سينفق مثل أحد ذهباً إنما يفعل حسنة كبيرة لكنه في إخلاصه لا يبلغ ما بلغه الأولون من الصحابة .

---

[1] انظر صحيح البخاري كتاب المناقب وصحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة وقال عنه الحافظ ابن حجر في الفتح :
قوله صلى الله عليه وسلم : [فلو أن أحدكم]
فيه إشعار بأن المراد بقوله أولاً [أصحابي] أصحاب مخصوصون ، وإلا فالخطاب كان للصحابة ، وقد قال [لو أن أحدكم أنفق] وهذا كقوله تعالى : { لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل } الآية ، ومع ذلك فنهيُ بعض من أدرك النبي صلى الله عليه وسلم ومخاطبته بذلك عن سب من سبقه يقتضي زجر من لم يدرك النبي صلى الله عليه وسلم ولم يخاطبه عن سب من سبقَه من باب الأولى ، وغفل من قال : إن الخطاب بذلك لغير الصحابة ، وإنما المراد من سيوجد من المسلمين المفروضين في العقل تنزيلاً لمن سيوجد منزلة الموجود للقطع بوقوعه ، ووجه التعقب عليه : وقوع التصريح في نفس الخبر بأن المخاطب بذلك خالد بن الوليد وهو من الصحابة الموجودين إذ ذاك بالاتفاق .

وهذا ما قاله سعيد بن زيد رضي الله عنه ـ أحد السابقين والعشرة المبشرين بالجنة ـ قال للمتأخرين من الصحابة ولسائر التابعين :

والله لَمشهد شهده رجل يغبرّ فيه وجهه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل من عمل أحدكم ولو عُمّر عمر نوح عليه السلام [1]

والكل على مراتب كما تقدم .
ألم يقل أنس بن مالك رضي الله عنه للتابعين :
إنكم لتعملون أعمالاً هي أدقّ في أعينكم من الشَّعر كنا لنعدّها على عهد النبي صلى الله عليه وسلم من الموبقات [2]

فهل كانوا يعملون الفواحش والكبائر والمعاصي الكبيرة ، أم أن الأمر نسبي يختلف من مؤمن لآخر على حسب إيمانه وقربه وصدقه وإخلاصه ؟

ألم يقل الحسن البصري رضي الله عنه :
والله لقد أدركت سبعين بدرياً أكثر لباسهم الصوف، ولو رأيتموهم لقلتم : (مجانين) ، ولو رأوا خياركم لقالوا: (ما لهؤلاء عند الله من خَلاق) ، ولو رأوا شراركم لقالوا: (ما يؤمن هؤلاء بيوم الحساب) [3]

فماذا جرى من عامة التابعين حتى يقول عنهم كبار الصحابة هذا القول ؟

نعم كلٌّ على حسب مقامه الذي تحقق به ، ويَنشُد الأعلى منه وهكذا يتبين لك معنى :

(حسنات الأبرار سيئات المقربين)

---

[1] رواه الإمام أحمد في مسنده ١٥٤٣ واللفظ له وأبو داود في سننه في كتاب السنة
[2] انظر مسند الإمام أحمد ١٢١٤٣ وصحيح البخاري كتاب الرقاق
[3] رواه أبو نعيم في الحلية عن علقمة بن مرثد وأورده المزي في تهذيب الكمال وأورده الإِمَامِ والثِّقَةِ الْفَاضِلِ الْمُفِيدِ أَبِي الْقَاسِمِ الْحسَيْنِ بْنِ مُحَمَّدِ الْحِنَّائِيِّ المتوفى سنة ٤٥٩ هـ في كتابه (العاشر من الحنائيات) ـ وهو من الأجزاء الحديثية ويسمى أيضاً بـ (فوائد الحنائي) نسبة إليه ـ وأورده الحسن بن علي الجوهري في حديث أبي الفضل الزهري

أما عن الاستغفار بعد فعل الذنب صغيراً أو كبيراً فقد قال تعالى :
{ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا } أي : بارتكاب صغيرة في حكم الشرع
{ أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ } بارتكاب كبيرة نَصّ عليها الشرع بأنها كبيرة
{ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ } أي : تائباً إليه
{ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا }
وقال صلى الله عليه وسلم :
[إذا أذنب العبد نكت في قلبه نكتة سوداء ، فإن تاب صقل منها ، فإن عاد زادت حتى تعظم في قلبه، فذلك الران الذي ذكره الله عز وجل:
{كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون }] [١]
وأما الاستغفار بعد الطاعات- وهو لجبر النقص والخلل الذي وقع من العبد أثناء طاعته وعبادته ، كشوائب الرياء والسمعة والكبر وحب الظهور والعجب بنفسه وهكذا ... فلابد لها من توبة واستغفار - ، فشواهده كثيرة فمن ذلك :
الاستغفار بعد الصلاة المكتوبة ، فقد جاء في الحديث عن ثوبان رضي الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثاً وقال :
[اللهم أنت السلام ومنك السلام ، تباركت ذا الجلال والإكرام] [٢]
وهناك الاستغفار بعد الإفاضة من عرفات أيام الحج قال تعالى :
{ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ * ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ }

مع أنهم كانوا في مقام الاعتراف بالذنب والتوبة إلى الله ، وتتغشاهم مغفرة الله و رحمته ، لكن لابد لهم من الاستغفار ، وأن يكون جزءاً من عبادتهم ، لئلا يظن أحدهم أنه بلغ الكمال في عبادته ، إذ لولا توفيق الله له وعونه وفضله عليه لَما اهتدى إلى ذلك كله ، فليستغفر الله إذاً .

---

[١] رواه الحاكم في المستدرك في كتاب الإيمان بهذا اللفظ والترمذي في سننه كتاب تفسير القرآن وابن ماجه في سننه كتاب الزهد وابن حبان في صحيحه والبيهقي في الشعب

[٢] انظر صحيح مسلم كتاب المساجد ومواضع الصلاة وسنن النسائي كتاب السهو وسنن ابن ماجه كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها

وهناك الاستغفار وقت الأسحار للذين تهجّدوا وقاموا الليل وصلّوا

قال تعالى :{ والمستغفرين بالأسحار }

وقال تعالى :{ وبالأسحار هم يستغفرون }

وقال أنس رضي الله عنه :
أمَرَنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نستغفر بالأسحار سبعين مرة [١]

مع أنهم كانوا يصلّون ويقرؤون القرآن متعرضين لنفحات الله وتنزلات أنواره وأسراره وعطاءاته جل وعلا .

واعلم أن الأمر بالاستغفار جاء عاماً صريحاً دبر كل طاعة يؤديها الإنسان قال تعالى :

{وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ } .

وقد يكون الاستغفار من كلمةٍ غفل قلبك عن معناها كتسبيحة وتحميدة ، فهذه الغفلة منك تحتاج إلى استغفار لأنها من الذنوب وهكذا .

قال بعضهم :

أستغفر الله مِن (أستغفر الله) — من لفظة قلتُها خالفتُ معناها
وكيف أرجو إجابات الدعاء وقد — سددتُ بالذنب عند الله مجراها

فادخل مقام التوبة والاستغفار ولا تخرج منه ، فإن كل مقام أو منزلة ترتقي إليها ترى التي كنت عليها ذنباً بالنسبة للتي ارتقيت إليها ، فتستغفر الله ، ومن هنا تفهم جانباً من معنى قوله تعالى :

{ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ }

[١] انظره في المعجم الأوسط للطبراني وشعب الإيمان للبيهقي

فإن الله تعالى يفيض عليه صلى الله عليه وسلم من علوم ومعارف (لا إله إلا الله) التي لا تتناهى ، وهي العلم بأسمائه وكمالاته جل وعلا ، وآثارها في أكوانه جل وعلا ، والآية مستمر الحكم في معناها ، وكأن الحق جل وعلا يقول له دوماً :

{ فاعلم أنه لا إله إلا الله } { فاعلم أنه لا إله إلا الله } وهكذا ، فكلما ارتقى صلى الله عليه وسلم في مقامات العلم بـ { لا إله إلا الله } ازداد قرباً ومعرفة بالله تعالى ، فيرى الحال التي تركها ذنباً بالنسبة للحال التي ارتقى إليها فيستغفر الله منها ، وهذا قوله تعالى :{ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى} .

والمعنى عام يشمل الدار الآخرة ، والحالة الآخرة التي لا يتوقف صلى الله عليه وسلم عن الترقي في مراتبها ، فكل حالة آخرة هي أولى بالنسبة للتي تحقق بها سابقاً ، مع أنه صلى الله عليه وسلم طوى جميع المقامات والمراتب التي أكرم الله تعالى بها مَن قبله من الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام ، وزاد عليهم بما ليس عندهم .

ولا تفهم من الترقي في المقامات والعلوم والمعارف الإلهية التخلّي والتجرد عما قبلها ، وإنما التحقق بها مجتمعة معاً ، والتخلق بها معاً ، كما لو أنك - وهذا من باب المثال - تعلمت في مرحلة ابتدائية من التعلم ، ثم انتقلت إلى ما فوقها ، فهل يعني أنك تخليت أو تجردت عن علوم الابتدائية ؟

لا ، ولكنك تنظر إلى نفسك أنك صرت في حالة أكمل وأعلى مما كنت عليه ، وإن كان الكل عالياً كبيراً .

وقد جاء في الحديث عنه صلى الله عليه وسلم مخبراً عن تعليم الله إياه :
[إن الله جل وعلا أمرني أن أُعلِّمكم مما علَّمني يومي هذا] [1]

وفي الحديث قال صلى الله عليه وسلم :

[فتجلَّى لي كل شيء وعرفتُ] [1]

---

[1] انظر صحيح ابن حبان كتاب الرقائق والسنن الكبرى للنسائي

وعلى المنبر قال صلى الله عليه وسلم :[سلوني عما شئتم] [٢]

وكلما ازداد المؤمن علماً ومعرفة بالله تعالى ازداد قرباً ونوراً ، لأنه يتقرب من النور فيرى من نفسه أموراً ودقائق لم يكن يراها من قبل فيستغفر منها ، لأن قوة النور تظهر دقائق وخفايا الأمور ، كما لو كنت لابساً لباساً أسود داكناً نظيفاً لا غبار عليه ، فإذا تقربت من النور ظهر لك بعض الغبار على الثوب ، فجعلت تنظِّفه ، وإذا تقربت أكثر وأكثر أظهر لك النور دقائق لم تكن تراها من قبل ، فتجعل تزيلها وتنظف ثوبك وهكذا ، وكما ينطبق هذا على الماديات ينطبق على المعنويات والإيمانيات ، فكلما ازداد المؤمن قرباً من النور رأى من نفسه دقائق لم يكن يراها من قبل ، فيتوب منها ، وهذا جانب من سر وحكمة قوله تعالى :{ واستغفر لذنبك }
بعد قوله سبحانه : { فاعلم أنه لا إله إلا الله }

يدل عليه قوله تعالى :{ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ } أي ارتحالكم من مقام إلى أعلى منه ، وحلولكم فيه ، أي ارتقاءكم في المراتب والمقامات ، ولا يعني هذا ترك المقام السابق ، بل استصحابه والحلول في غيره على وجه يتحقق فيه صاحبه بجميع المراتب والمقامات .

ولقد جاء في الحديث الذي رواه الدارمي والترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما : أن النبى صلى الله عليه وسلم سئل : أي العمل أفضل؟

قال : [الحالّ المرتحل] ، قيل : وما الحال المرتحل؟ قال : [صاحب القرآن يضرب من أول القرآن إلى آخره ، ومن آخره إلى أوله كلما حلَّ ارتحل] [٣] .

---

[١] طرف حديث في مسند الإمام أحمد بن حنبل ٢١٠٩٣ وسنن الترمذي كتاب فضائل القرآن

[٢] طرف حديث في صحيح البخاري كتاب العلم عن أبي موسى الاشعري رضي الله عنه

[٣] سنن الدارمي كتاب فضائل القرآن وسنن الترمذي كتاب القراءات

فهو كلما حل في مقام ارتحل إلى غيره فباشر في افتتاح ختمة ، وهكذا يرتقي في زيادة الحسنات بتلاوته للقرآن الكريم ، ويرتقي في المفاهيم والعلوم التي ينالها عند قراءته القرآن الكريم متدبراً .

ولقد كان صلى الله عليه وسلم يستغفر للمؤمنين والمؤمنات [1] لأن استغفاره لهم كما أمره سبحانه ليس كاستغفارهم لأنفسهم قال تعالى :{ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا }

وقال تعالى { فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ } أي : إذا بدا منهم نقص أو تقصير يتعلق بحقك عليهم { وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ } لذنوب صدرت منهم فسل الله أن يغفرها لهم { وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ } الآية

وقال صلى الله عليه وسلم :

[حياتي خير لكم تُحدِثون ويُحدَث لكم ، ووفاتي خير لكم - أي أن خيره لا ينقطع عن أمته صلى الله عليه وسلم - تُعرَض عليّ أعمالكم ، فما رأيت من خير حمدت الله عليه ، وما رأيت من شر استغفرت الله لكم] [2]

فخيره المُفاض على أمته لا يتوقف عنهم بعد وفاته صلى الله عليه وسلم فافهم .

[1] روى الإمام مسلم في صحيحه عن عاصم عن عبد الله بن سرجس قال : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم وأكلت معه خبزاً ولحماً - أو قال : ثريداً - - وفي رواية للطبراني والأصبهاني : فقلت : يا رسول الله استغفر لي قال : « نعم » - قال - أي : عاصم - فقلت له : أستغفر لك النبي صلى الله عليه وسلم ؟ قال : نعم وَلَكَ ، ثم تلا هذه الآية { واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات } .

[2] عزاه في مجمع الزوائد إلى البزار وقال : رجاله رجال الصحيح .
وقال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء : ورواه الحارث ابن أبي أسامة في مسنده من حديث أنس بنحوه ، وعزاه السيوطي في الجامع الكبير لابن سعد عن بكر بن عبد الله مرسلاً .

قوله تعالى :

{ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ } وهذا من جملة دعاء حملة العرش ومن حولهم ، وهم الملأ الأعلى ومن ألحقه الله بهم ، يدعون بهذا للمؤمنين والتائبين منهم إلى الله ، والمعنى : اجعل يا رب بينهم وبين السيئات وقاية وحجاباً وحصانة ، فلا يقربون السيئة ،وهي تشمل كل عمل يصيب فاعله بالشر والسوء ، وأول ما تشمل : المعاصي الشرعية والشدائد والأهوال الدنيوية التي تصيب المؤمن بقدر الله وقضائه ، إما لتكفير سيئة فَعَلَها ، أو لرفع درجاته كما أخبرت بذلك أحاديثه الشريفة صلى الله عليه وسلم .

واعلم أن الذنب الذي يكسبه المؤمن له مساوئ وشرور تعود على صاحبه قال تعالى :

{ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ }

وقال سبحانه :

{ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ }

وقال جل وعلا :

{وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ }

فدعاء حملة العرش ومَن حوله للمؤمنين هو أن يحفظهم من ارتكاب الذنوب والمعاصي وأن يقيهم شرّها في الدنيا وفي الآخرة ، دلّ عليه قوله تعالى : { وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ } أي ومن تحفظه وتقيه وتحجزه عن السيئات في الدنيا [1]

[1] قال الخازن رحمه الله في تفسيره : { وقهم السيئات } أي عقوبات السيئآت ، بأن تصونهم من الأعمال الفاسدة التي توجب العقاب { ومن تق السيئات يومئذ } يعني من تَقِه في الدنيا { فقد رحمته } يعني في القيامة . اهـ
وقال ابن كثير رحمه الله :

{ فَقَدْ رَحِمْتَهُ } أي في الدنيا والآخرة .

وقال سبحانه :{ أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ }

وقال تعالى :

{ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ } أي في الدنيا والآخرة فيقبل توبتهم ويعطيهم في الدنيا والآخرة حسنات مكان كل سيئة تابوا منها [1]

{ وقهم السيئات } أي: فِعلها أو وبالها ممن وقعت منه { ومن تق السيئات يومئذ } أي: يوم القيامة { فقد رحمته } أي: لطفت به ونجيته من العقوبة . اهـ .
وانظر تفسير الألوسي وأبي السعود لهذه الآية الكريمة .

[1] قال ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية الكريمة :
في معنى قوله تعالى : { يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ } قولان:
أحدهما: أنهم بُدّلوا مكان عمل السيئات بعمل الحسنات.
قال الحسن البصري: أبدلهم الله بالعمل السيئ العمل الصالح، وأبدلهم بالشرك إخلاصاً، وأبدلهم بالفجور إحصاناً وبالكفر إسلاماً .
وهذا قول أبي العالية، وقتادة، وجماعة آخرين.
والقول الثاني: أن تلك السيئات الماضية تنقلب بنفس التوبة النصوح حسنات، وما ذاك إلا أنه كلما تذكر ما مضى ندم واسترجع واستغفر، فينقلب الذنب طاعة بهذا الاعتبار. فيوم القيامة وإن وجده مكتوباً عليه لكنه لا يضره وينقلب حسنة في صحيفته، كما ثبتت السنة بذلك، وصحت به الآثار المروية عن السلف، رحمهم الله تعالى
- ثم أسند رحمه الله إلى ابن أبي حاتم عن سلمان قال: يعطى رجل يوم القيامة صحيفته فيقرأ أعلاها، فإذا سيئاته ، فإذا كاد يسوء ظنه نظر في أسفلها فإذا حسناته، ثم ينظر في أعلاها فإذا هي قد بُدّلت حسنات.
وقال الحافظ السيوطي رحمه الله في الدر المنثور :
أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : [ليأتين ناس يوم القيامة ودّوا أنهم استكثروا من السيئات قيل : ومن هم يا رسول الله ؟ قال : الذين بَدّل الله سيئاتهم حسنات] . اهـ .
وانظر تفصيل ذلك في كتاب (التقرب إلى الله تعالى) ص ٢١١ لمولانا الإمام رضي الله عنه

روى الإمام مسلم وغيره عن أبي ذر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
[إني لأعلم آخر أهل الجنة دخولاً الجنة ، وآخر أهل النار خروجاً منها ، رجل يُؤتى به يوم القيامة فيُقال : اعرضوا عليه صغار ذنوبه وارفعوا عنه كبارها ، فتُعرض عليه صغار ذنوبه فيقال : عملتَ يوم كذا وكذا كذا وكذا وعملت يوم كذا وكذا كذا وكذا ؟ فيقول : نعم ، لا يستطيع أن ينكر ، وهو مشفق من كبار ذنوبه أن تُعرض عليه ، فيقال له : فإن لك مكان كل سيئة حسنة ، فيقول : رب قد عملت أشياء لا أراها ها هنا .

قال أبو ذر رضي الله عنه : فلقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ضحك حتى بدت نواجذه [١]

قوله تعالى : { ومن تَقِ السيئات يومئذ فقد رحمته }

اعلم أن هذا يُعرف بـ (مقام الوقاية والحفظ الإلهي لأوليائه وأحبابه من الوقوع في المعاصي وارتكاب المعصية) ، فيحفظهم من فعل الحرام ، ويوفقهم لكل خير ، وهذا يعني أن يحفظ جوارحهم وحواسّهم ومداركهم من فعل الحرام ، مصداقاً لقوله سبحانه في الحديث القدسي :

[وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به] [٢] أي كنت متولي سمعه وبصره

وفي رواية [فبي يسمع وبي يبصر] [٣]

---

[١] انظر صحيح مسلم كتاب الإيمان والمسند ٢٠٤٢٨
وقال النووي في شرحه صحيح مسلم :
(نواجذه) هو بالجيم والذال المعجمة . قال أبو العباس ثعلب وجماهير العلماء من أهل اللغة وغريب الحديث وغيرهم : المراد بالنواجذ هنا الأنياب ، وقيل : المراد هنا الضواحك ، وقيل : المراد بها الأضراس ، وهذا هو الأشهر في إطلاق النواجذ في اللغة ، ولكن الصواب عند الجماهير ما قدمناه .

[٢] طرف حديث في صحيح البخاري كتاب الرقاق

[٣] قال الإمام ابن كثير في تفسيره: جاء في بعض رواية الحديث في غير الصحيح، بعد قوله: "ورجله التي يمشي بها": "فبي يسمع، وبي يبصر، وبي يبطش، وبي يمشي" . اهـ وذكر هذه الرواية الحافظ ابن حجر في الفتح ١٨ / ٣٤٢

ومن جهة أخرى فلا يُسمعه الله إلا ما يرضى ، ولا يُبصره إلا ما يرضى ، ولا يجعله ينطق إلا بالحق الذي يرضى ، ولا يجعل فكره يجول إلا بما يرضى سبحانه ، فإذا نطق نطق بالحق ، وإذا بطش بطش بالحق ، وهكذا الأمر في أوليائه وأحبابه سبحانه ، فما الظن بأنبيائه ورسله جل وعلا ؟!!

نعم إن الأمر أكبر وأعظم ، فقد عصم الله تعالى أنبياءه الكرام عليهم الصلاة والسلام عصمهم من الخطأ والخطيئة ، وهذا مقام العصمة الخاص بالأنبياء والرسل وأعظمهم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

وقد كانت عصمته سبحانه لأنبيائه ورسله قبل أن ينبّئهم ويرسلهم وبعدها ، دل عليه أن موسى عليه السلام قال لأهل الموقف لما سألوه الشفاعة :

[قتلتُ نفساً لم أومر بقتلها] [1]

ولم يكن موسى عليه السلام عندما وكز الرجل فقتله لم يكن وقتها رسولاً . ومن ذلك عصمة الله لرسوله سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم لما أراد حضور عرس فألقى الله عليه النوم حفظاً منه وعصمة ، وكان هذا قبل بعثته المباركة صلى الله عليه وسلم [2]

---

[1] طرف حديث في صحيح البخاري كتاب تفسير القرآن وصحيح مسلم كتاب الإيمان عن أبي هريرة رضي الله عنه

[2] قال الشيخ الإمام رضي الله عنه في كتابه
(سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم) :
وعن علي بن أبي طالب كرم الله تعالى وجهه قال :
سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :
[ما هممت بقبيح مما كان أهل الجاهلية يعملون به غير مرتين ، كلتاهما عَصَمَني الله عز وجل منهما ، قلت لفتى كان معي من قريش بأعلى مكة في غنم يرعاها : أبصِر لي غنمي حتى أسمر هذه الليلة بمكة كما يسمر الفتيان ، قال : نعم ، فخرجت ، فلما جئت أدنى دار من دور مكة سمعت عزفاً بالغرابيل والمزامير قلت : ما هذا ؟ قالوا : فلان يتزوج فلانة ، فجلست أنظر وضرب الله على أذني - أي : فنمت - فما أيقظني إلا مسّ الشمس ، فرجعت إلى صاحبي ، فقال : ما فعلتَ ؟ فقلت : ما فعلتُ شيئاً ، ثم أخبرته بالذي رأيت ، ثم قلت له ليلة أُخرى : أبصر لي غنمي حتى أسمر، ففعل ، فلما جئت مكة سمعت مثل الذي سمعت تلك الليلة فسألت فقيل : فلان يتزوج فلانة ، فجلست أنظر وضرب الله على أذني - أي : فنمت - فما أيقظني إلا مسّ الشمس ،

وإذا ضاق عقلك عن تقبّل ذلك وتفهّمه وكيف أن الله عصم النبي صلى الله عليه وسلم عن الخطأ الدنيوي والخطيئة الشرعية فيقال

- فيما يقال من قبيل الأدلة والبراهين - :

ألم يعصم الله تعالى جبريل عليه السلام ؟!
ألم يعصم ميكائيل عليه السلام ؟!
ألم يعصم إسرافيل عليه السلام ؟!
ألم يعصم جميع ملائكته حيث قال تعالى :
{ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ }

أي لا مخالفة تصدر منهم في أمر الله أبداً ، سواء في تنفيذ أمر كوني أو أخروي ، أو غيره مما يتعلق بالعوالم ، فالذي عَصم - أي منع وحفظ وصان جبريل عليه السلام وسائر الملائكة - لَهُوَ قادر على أن يعصم رسوله صلى الله عليه وسلم عن الخطأ والخطيئة ، وقد عصمه ، فلا تستبعد ذلك ولا تستنكره على من هو أفضل من جبريل وميكائيل وإسرافيل عليهم السلام ، وأفضل خلق الله تعالى على الإطلاق ، وأكرم الأولين والآخرين على رب العالمين [1]

وأما قولك : (الله معصوم) ، فهذا خطأ منك ، لأن الله لا يتصف بالعصمة فهي من صفات الخلق ، ويقال لك : مَن الذي عصمه سبحانه وتعالى ؟
لأن كلمة معصوم اسم مفعول ، بل هو سبحانه يعصم الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام ، وأعظمهم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

فرجعت إلى صاحبي ، فقال : ما فعلت ؟ فقلت : لا شيء ، ثم أخبرته الخبر فوالله ، ما هَمَمْتُ ولا عُدْتُ بعدهما لشيء من ذلك حتى أكرمني الله بنبوته]
وفي رواية : [برسالته]
انظر ص ٥١٥ من موارد الظمآن وانظره في البداية لابن كثير معزواً للبيهقي
وانظره في تاريخ الذهبي وأورده في مجمع الزوائد وقال : رواه البزار ورجاله ثقات
[1] كما روى الدارمي واللفظ له والترمذي في سننهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : [أنا أكرم الأولين والآخرين على الله ، ولا فخر].

قال تعالى مخاطباً نبيه الأكرم صلى الله عليه وسلم :

{ والله يعصمك من الناس } .

وهو جل وعلا منزّه عن النقائص والعيوب والآفات والشبه والمماثلة ، متصف بالكمالات والمحاسن المطلقة ، وهذا معنى قولنا :

(سبحان الله والحمد لله) فافهم .

وهذا الذي فطر الله عليه جميع مخلوقاته ، فطرهم على معرفته وتسبيحه وتحميده جل وعلا قال تعالى { وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ } يُقال عنه شيء ويوصف بأنه شيء { إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ } أي يسبح بحمد من خلقه وأمدّه جل وعلا .

واعلم أن المقام المذكور في قوله تعالى : { وقهم السيئات }

يعني حفظ الله تعالى لأوليائه وكمّل المؤمنين من ترك أمر شرعي أو ارتكاب ذنب شرعي ، فيجعل الله بينهم وبين الذنوب حجاباً ، ويقيهم فعل الذنب ، ويقيهم شر الذنب إن صدر منهم ، لأنهم يبادرون إلى التوبة .

ومن مظاهر ذلك في الدنيا قوله تعالى مخبراً عن المؤمن الذي يكتم إيمانه وكان زمن فرعون وقومه

{ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ }

أي لمّا أرادوا به سوءاً وشراً حفظه الله من مكرهم .

ومن مظاهر ذلك في الآخرة قوله تعالى مخبراً عن المؤمنين الفائزين بالجنة { وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ * قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ * فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ }

أي حفظنا من نار جهنم وعذابها وسمومها وشرها .

وجاء في الحديث أن السيدة عائشة رضي الله عنها كانت إذا قرأت { فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ }

قالت : اللهم مُنّ علي وَقِني عذاب السموم » [1]

وقال تعالى مخبراً عن دعاء المؤمنين في أكثر من آية { وقنا عذاب النار } أي اجعل بيننا وبين النار وقاية ، فما هي الوقاية ؟

نعم هي أن يحفظنا سبحانه من الذنوب والمعاصي التي إن وقعنا فيها وقعنا في النار .

وفي الحديث عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

[تحترقون ، تحترقون ، فإذا صليتم الفجر غسلَتْها ، ثم تحترقون تحترقون ، فإذا صليتم الظهر غسلتها ، ثم تحترقون تحترقون ، فإذا صليتم العصر غسلتها ، ثم تحترقون تحترقون ، فإذا صليتم المغرب غسلتها ، ثم تحترقون تحترقون ، فإذا صليتم العشاء غسلتها ، ثم تنامون فلا يكتب عليكم شيء حتى تستيقظون] [2]

---

[1] انظر مصنف عبد الرزاق وشعب الإيمان للبيهقي ومسند ابن راهويه والزهد للإمام أحمد ، وقال الحافظ السيوطي في الدر المنثور :
أخرج عبد الرزاق وابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في شعب الإيمان عن السيدة عائشة رضي الله عنها أنها قرأت هذه الآية { فمنَّ الله علينا ووقانا عذاب السموم * إنا كنا من قبل ندعوه إنه هو البر الرحيم } فقالت : اللهم منَّ علينا وقِنا عذاب السموم إنك أنت البر الرحيم ، وذلك في الصلاة .
وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد في الزهد وابن المنذر عن أسماء رضي الله عنها أنها قرأت هذه الآية فوقفت عليها فجعلت تستعيذ وتدعو . اهـ .
وفي مصنف ابن أبي شيبة عن هشام بن عروة عن عبد الوهاب عن جده عباد بن حمزة قال : دخلت على أسماء رضي الله عنها وهي تقرأ :
{ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ} قال : فوقفَت عليها فجعلت تستعيذ وتدعو قال عباد : فذهبتُ إلى السوق فقضيت حاجتي ثم رجعت وهي فيها بعد تستعيذ وتدعو.

[2] رواه الطبراني في الصغير والأوسط وإسناده حسن

وروى الضياء في المختارة عن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

[إن لله ملَكاً ينادى عند كل صلاة : يا بني آدم قوموا إلى نيرانكم التى أوقدتموها على أنفسكم فأطفئوها بالصلاة] [1]

وخلاصة القول : أن من تولاه الله بتوليته الخاصة حفظه من فعل الذنوب ، وأمدّه بمدد خفي من عنده ، تحقيقاً لقوله سبحانه في الحديث القدسي [فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به] .... الحديث [2] ،
وقال تعالى :{ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ }
وأما الأنبياء عليهم السلام فقد نالوا مقام العصمة ، وهو أعلى وأعظم من مقام الحفظ ، فعصَمهم الله عن الخطأ الدنيوي والخطيئة الشرعية ، وأعظمهم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الذي تولاه الله بالعناية الخاصة الخاصة ، قال تعالى مخاطباً نبيه الأكرم صلى الله عليه وسلم أن يقول :
{ إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ }

فتوليته سبحانه لرسوله صلى الله عليه وسلم أعظم من توليته للصالحين عامة .

وقال تعالى : { وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى }

أي لم توصِل كف الحصى الذي رميته يوم بدر وحنين [3]لم توصله إلى وجوه الكافرين كلهم بقوتك وقدرتك ، بل بقوة الله وقدرته جل وعلا ، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم (اللهم بك أَصُول ، وبك أَجُول) [4]

وقال صلى الله عليه وسلم (أنا بك وإليك) [1]

---

[1] رواه الطبراني في الأوسط والصغير
[2] تقدم تخريجه
[3] انظر شرح الزرقاني على المواهب ٢ / ٢٩٥ و ٣ / ٥١٠
[4] طرف حديث في مسند الإمام أحمد ١٢٢٩ والمعجم الكبير للطبراني ، وشعب الإيمان للبيهقي

فكيف يُتصور الخطأ في حق من عناه الله بعنايته الخاصة ، وتولاه بتوليته الخاصة ، فقال سبحانه { وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا } ؟!

والأدلة على ذلك كثيرة ، لكننا سنلفت عقل وفكر المؤمن إلى قضية هامة عظيمة أيضاً ، وهي بيان معنى الذنب الذي نسبه سبحانه إليه صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى :{ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا * لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا }

فقوله تعالى : { إِنَّا فَتَحْنَا } أي فتحاً عاماً يشمل جميع أبواب الخيرات والرحمات والأنوار والأسرار والعلوم والمعارف الإلهية ، على وجه يليق بمقام نبوته ورسالته صلى الله عليه وسلم ، والآية نزلت يوم الحديبية قبل فتح مكة [٢] ، وجاءت بجملة على صيغة الماضي إشارة إلى ما فُتح له عليه الصلاة والسلام فيما مضى وفيما هو آت .

وقوله تعالى :{ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا } أي ظاهراً بيّناً واضحاً جليّاً ، تجلّى ذلك في المواهب والمقامات والخصائص التي خصّه الله تعالى بها ، والفضائل التي فضّله بها على غيره من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، والأوّليات في جميع العوالم الماضية والآتية ، وفي الآية ذكر سبحانه مجامع فضائله وعظائم مكرماته على حبيبه محمد صلى الله عليه وسلم فقال جل وعلا : { لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ }.

واللام في قوله تعالى { ليغفر } ليست للتعليل [٣] .

---

[١] طرف حديث في صحيح مسلم كتاب صلاة المسافرين وقصْرها ، ورواه أصحاب السنن

[٢] قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لسورة الفتح :
نزلت هذه السورة الكريمة لما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحديبية في ذي القعدة من سنة ست من الهجرة

[٣] قال الرازي في تفسيره :
قوله تعالى { لِّيَغْفِرَ لَكَ الله } ينبىء عن كون الفتح سبباً للمغفرة ، والفتح لا يصلح سبباً للمغفرة ، فما الجواب عنه؟
نقول : الجواب عنه من وجوه :

أما قوله تعالى : { واستغفر لذنبك }
فقال القرطبي رحمه الله في تفسيره :
قال بعضهم : هذا تعبُّد للنبي عليه السلام بدعاء ، كما قال تعالى:

{ وآتنا ما وعدتنا }

والفائدة زيادة الدرجات وأن يصير الدعاء سنة لمن بعده .

و قوله تعالى: { واستغفر لذنبك } يحتمل وجهين:
أحدهما : يعني استغفر الله أن يقع منك ذنب.
الثاني : استغفر الله ليعصمك من الذنوب. اهـ .
وقال الألوسي رحمه الله تعالى :

وقد يقال : المراد ما هو ذنب في نظره العالي صلى الله عليه وسلم وان لم يكن ذنباً ، وقد ذكروا أن لنبينا صلى الله عليه وسلم في كل لحظة عروجاً إلى مقام أعلى مما كان فيه ، فيكون ما عرج منه في نظره الشريف ذنباً بالنسبة إلى ما عرج إليه فيستغفر منه .

الأول : ما قيل إن الفتح لم يجعله سبباً للمغفرة وحدها ، بل هو سبب لاجتماع الأمور المذكورة وهي : المغفرة ، وإتمام النعمة والهداية والنصرة ، كأنه تعالى قال : ليغفر لك الله ويتم نعمته ويهديك وينصرك ، ولا شك أن الاجتماع لم يثبت إلا بالفتح ، فإن النعمة به تمّت ، والنصرة بعده قد عمّت .
الثاني : هو أن فتح مكة كان سبباً لتطهير بيت الله تعالى من رجس الأوثان ، وتطهير بيته صار سبباً لتطهير عبده - أي : لرفع مقامه الشريف وبيان فضله المبين صلى الله عليه وسلم .
الثالث : هو أن بالفتح يحصل الحج ، ثم بالحج تحصل المغفرة ، ألا ترى إلى دعاء النبي عليه الصلاة والسلام حيث قال في الحج :
[اللّهم اجعله حجاً مبروراً ، وسعياً مشكوراً ، وذنباً مغفوراً].
الرابع : المراد منه التعريف ، تقديره : إنا فتحنا لك ليُعرف أنك مغفور ، معصوم ، فإن الناس كانوا علموا بعد عام الفيل أن مكة لا يأخذها عدو الله المسخوط عليه ، وإنما يدخلها ويأخذها حبيب الله المغفور له . اهـ .
قلت : وهذا كلام نفيس فليتأمل .
وقال في لسان العرب :
قوله تعالى : { ليغفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر } المعنى : ليغفرن لك الله ، فلما حذف النون كسر اللام وأعملها إعمال لام كي ، قال :
وليس المعنى فتحنا لك لكي يغفر الله لك .

وقد نقل الإمام إسماعيل حقي [1] رحمه الله في تفسيره قول أبو علي الروذباري [2] رحمه الله في تفسير هذه الآية :

لو كان لك ذنب قديم أو حديث لغفرناه لك

ثم قال بعده :

والفقير أبو علي - قُدِّس سره - من كبار العارفين فكيف يصدر عنه ما هو أبعد عند العقول ؟!
بل كلامه من قبيل قوله : من عرف الله عرف كل شيء ، يعنى لو تُصوّرت معرفة الله لأحد - وهي لا تتصور حقيقة - ،
وكذا لو تُصوّر منه عليه السلام ذنب لغُفر له ، لكنه لا يُتصور لأنه عليه الصلاة والسلام في جميع أحواله إما مشتغل بواجب أو بمندوب لا غير ، فهو كالملائكة في أنه لا يصدر منه المخالفة .
ولي معنى آخر فى هذا المقام وهو أن المراد بالمغفرة : الحفظ والعصمة أزلاً وأبداً ، فيكون المعنى : ليحفظك الله ويعصمك من الذنب المتقدم والمتأخر ، فهو تعالى إنما جاء بما قدّم إشارة إلى أنه عليه الصلاة والسلام محفوظ معصوم فى اللاحق كما فى السابق فاعرفه .
وفى الفتوحات المكية :
استغفار الانبياء لا يكون عن ذنب حقيقة كذنوبنا ، وإنما هو عن أمر يدقّ عن عقولنا ، لأنه لا ذوق لنا فى مقامهم ، فلا يجوز حمل ذنوبهم على ما نتعقله نحن من الذنب . انتهى
قلت : ويجوز حمل نحو قوله سبحانه وتعالى :
{ ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر } على نسبة الذنب إليه صلى الله عليه وسلم من حيث إن شريعته هي التي حكمت بأنه ذنب ، فلولا ما أوحي به إليه ما كان ذنباً ، فجميع ذنوب أمّته تضاف إليه وإلى شريعته بهذا التقدير ، وكذلك ذنب كل نبي ذكره الله ، وقد قالوا : لم يَعْصِ آدم عليه السلام وانما عصى بنوه الذين كانوا فى ظهره ،

---

[1] هو سيدي إسماعيل حقي بن مصطفى الاسلامبولي الحنفي الخلوتي، المولى أبو الفداء ، ولد في آيدوس وسكن القسطنطينية، وانتقل إلى بروسة، ومات فيها ، له كتب عربية وتركية ، فمن العربية (روح البيان في تفسير القرآن) يعرف بتفسير حقي وقد توفي رحمه الله سنة ١١٢٧ هـ

[2] هو الشيخ أبوعلي محمد بن أحمد ينسب إلى بلدة روذبار في طوس على أرجح الأقوال ، وقد توفي في مصر عام 322هـ رحمه الله

فما كان قوله تعالى : { ليغفر لك } إلا تطميناً له عليه الصلاة والسلام أن الله قد غفر جميع ذنوب أمّته التى جاءت بها شريعته ، ولو بعد عقوبة بإقامة الحدود عليهم فى دار الدنيا ، كما وقع للصحابي الجليل سيدنا ماعز [١]
رضي الله عنه ، ومن الواجب على كل مؤمن انتحال الأجوبة للأكابر جهده وذلك مما يحبه الله ويحب من أجبنا عنه فافهم ، وهذا اعتقادنا الذى نلقى الله عليه إن شاء الله تعالى . انتهى
وفى التأويلات النجمية [٢] :

---

[١] اسمه : ماعز بن مالك الأسلمي ، أسلم وصحب النبي، صلى الله عليه وسلم، وهو الذي أصاب الذنب ثم ندم فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاعترف عنده، وكان محصناً، فأمر به رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فرجم .
- انظر الخبر في صحيح البخاري كتاب الحدود - .
وقال في حقه سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم :
لقد تاب توبة لو قسّمت بين أمة لوسعتهم - كما في صحيح مسلم - .
وقال : والذي نفسي بيده لقد رأيته بين أنهار الجنة يتغمّس - قال : يعني : يتنعم - - كما في سنن النسائي -

[٢] التأويلات النجمية : فَهْم إشاري ، كتبه الشيخ أبو بكر نجم الدين عبد الله بن محمد الأسدي ابن الداية ، حتى سورة الذاريات ، وقد توفي سنة ٦٥٤ هـ رحمه الله

ثم أتمّه الشيخ أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد السمناني، الملقب بعلاء الدولة، وركن الدين، المتوفى سنة ٧٣٦ هـ رحمه الله تعالى . اهـ .

قلت : ومعنى الفهم الإشاري :

أن الآية الكريمة تشير إلى معنى لا يتنافى مع معان ظاهرة متفق عليها في النص

وأما دليل الفهم الإشاري فيُكتفى بواحد وهو مافهمه سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه من سورة النصر أن فيها نعياً لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ووافقه على ذلك حبر الامة سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ، مع أن السورة لم تذكر صراحة دنو أجله الشريف صلى الله عليه وسلم .
روى الإمام البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال :
كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر فقال بعضهم : لمَ تدخل هذا الفتى معنا ولنا أبناء مثله ؟ فقال : إنه ممن قد علمتم - أي : إنه من بيت النبوة وهو ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم والذي خصّه رسول الله صلى الله عليه وسلم بإفاضة منه لمّا ضمّه إلى صدره الشريف ودعا له فقال صلى الله عليه وسلم : اللهم علّمه الحكمة ، وفي رواية : اللهم فقّهه في الدين وعلّمه التأويل - كما في صحيح البخاري ومسند الإمام أحمد وسنن الترمذي وابن ماجه -

قال ابن عباس رضي الله عنهما : فدعاهم ذات يوم ودعاني معهم قال :
وما رأيته دعاني يومئذ إلا ليريهم مِنِّيْ ، فقال : ما تقولون في :
{ إذا جاء نصر الله والفتح * ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً }
حتى ختم السورة ؟
فقال بعضهم : أُمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا ، وقال بعضهم : لا ندري ، أو لم يقل بعضهم شيئاً ، فقال لي : يا ابن عباس أكذاك تقول ؟ قلت : لا ، قال : فما تقول ؟ قلت : هو أجل رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلمه الله له
{ إذا جاء نصر الله والفتح }فتح مكة فذاك علامة أجلك
{ فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً }
قال عمر : ما أعلم منها إلا ما تعلم . اهـ .
وفي المسند : فَقَالَ لَهُمْ : كَيْفَ تَلُومُونِي عَلَى مَا تَرَوْنَ؟

وروى الدارمي في سننه والطبراني في المعجم الكبير والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لما نزلت { إذا جاء نصر الله والفتح } دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم فاطمة رضي الله عنها فقال : « إنه قد نُعيت إلي نفسي » . الحديث

ومن المفاهيم الإشارية في الحديث الشريف ما رواه الإمام البخاري في صحيحه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جلس على المنبر فقال : [إن عبداً خيّره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا ما شاء ، وبين ما عنده ، فاختار ما عنده] ، فبكى أبو بكر وقال : فديناك بآبائنا وأمهاتنا ، فعجبنا له ، وقال الناس : انظروا إلى هذا الشيخ ، يخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن عبد خيّره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا وبين ما عنده ، وهو يقول : فديناك بآبائنا وأمهاتنا ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم هو المخيَّر وكان أبو بكر هو أعلمنا به . اهـ
ومن ذلك ما رواه الإمام البخاري في صحيحه أنه صلى الله عليه وسلم جلس على بئر أريس ودلّى رجليه الشريفتين ثم استأذن أبو بكر رضي الله عنه ثم عمر في الدخول وفَعَلَا مثلما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وجلسا إلى جانبه، ثم استأذن عثمان رضي الله عنه فجلس أمامهم

قَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ رضي الله عنه : فَأَوَّلْتُهَا قُبُورَهُمْ

ومجال البحث في هذا الموضوع واسع له كتب خاصة فلتُراجع ، مع التنويه إلى أن الفهم الإشاري ضابطه :

أن لا يخالف ظواهر مفاهيم نصوص الكتاب والسنة كما أسلفنا . اهـ .

قوله تعالى :
{ إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً } يشير الى فتح باب قلبه عليه السلام إلى حضرة ربوبية ، بتجلي صفات جماله وجلاله ، وفتح ما انفلق على جميع القلوب { ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك } أي ليستر لك بأنوار جلاله سبحانه ما تقدم من ذنب وجودك من بدء خلق روحك وهو أول شئ تعلقت به القدرة كما قال عليه الصلاة والسلام : [أول ما خلق الله روحي] وفى رواية :
[نوري]
{ وما تأخر } أي من ذنب وجودك إلى الأبد، وذنب الوجود هو الشركة فى الوجود ، وغفره : ستره بنور الوحدة لمحو آثار الاثنينية [1] اهـ .
قلت : أما الحديث الشريف الذي أورده الشيخ أبو بكر نجم الدين في التأويلات وهو قوله عليه الصلاة والسلام :
[أول ما خلق الله روحي] وفي رواية : [نوري]
فقد قال الشيخ الإمام في آخر صفحة من كتاب :
(شهادة لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم) :
روى ابن سعد في (الطبقات) بإسناد حسن عن قتادة مرسلاً أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال:
[كنت أوّل الناس في الخلق ، وآخرهم في البعث]
أي: هو صلى الله عليه وسلم في البعث إلى عالم الدنيا آخرهم - والمراد بالناس : الأنبياء.
كما جاء في رواية أبي نعيم عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً :
[كنت أوّل النبيين في الخلق، وآخرهم في البعث].
قال في (المقاصد) : رواه أبو نعيم في (الدلائل) ، وابن أبي حاتم في (تفسيره) ، وابن لال ومن طريقه الديلمي، قال: وله شاهد من حديث ميسرة الفجر- أخرجه أحمد والبخاري في (تاريخه) والبغوي وابن السكن، وأبو نعيم في (الحلية)، وصحّحه الحاكم بلفظ :
[كنت نبياً وآدم بين الروح والجسد] .
ثم قال: ورواه الطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما قال:
قيل يا رسول الله متى كنت نبياً ؟
قال : [وآدم بين الروح والجسد] .

[1] انظر تفسير الإمام حقي ١٣ / ٤٧٢

قال في (المواهب) وشرحها: وفي (أحكام ابن القطان) فيما ذكره ابن مرزوق عن علي بن الحسين عن أبيه عن جده أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنهم مرفوعاً أنه صلى الله عليه وسلم قال:
[كنت نوراً بين يدي ربي عزّ وجلّ قبل خلق آدم بأربعة عشر ألف عام].
اهـ . والله تعالى أعلم.
قال المحققون : وهذا يشير إلى النور المخلوق المذكور في حديث جابر الذي رواه عبد الرزاق في (مصنّفه) بلفظ :
قال: قلت: يا رسول الله بأبي أنت وأمي أخبرني عن أوّل شيء خلقه الله قبل الأشياء
قال: [يا جابر إن الله تعالى خلق قبل الأشياء نور نبيك مِن نوره] ....
الحديث ، كما في (المواهب) وشرحها، و(كشف الخفا) وغير ذلك.
انتهى كلام شيخنا الإمام رضي الله عنه .
قلت : وقوله صلى الله عليه وسلم : [كنت نبياً وآدم بين الروح والجسد]
أي : وآدم عليه السلام لم يكن وقتئذ لا روحاً ولا جسداً ، فهو صلى الله عليه وسلم أول روح خلقه الله في عالم الأرواح ، ونبَّأه في ذلك العالم ، كما تقول : (جلست بين الساريتين) أي لا إلى هذه ولا إلى تلك . اهـ .
وقال الحافظ الزرقاني في شرح المواهب :
روى عبد الرزاق بسنده عن جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله، بأبي أنت وأمي، أخبرني عن أول شيء خلقه الله تعالى قبل الأشياء
فقال صلى الله عليه وسلم :
[يا جابر إن الله تعالى قد خلق قبل الأشياء نور نبيك من نوره ، فجعل ذلك النور يدور بالقدرة حيث شاء الله، ولم يكن في ذلك الوقت لوح ولا قلم ولا جنة ولا نار "ولا ملك" - بفتح اللام - "ولا سماء ولا أرض ولا شمس ولا قمر ولا جني ولا إنسي". .. الحديث
قال الحافظ الزرقاني : وإنما خُلقوا بعد وخُلقت الجنة قبل النار؛ كما رواه أبو الشيخ عن ابن عباس موقوفًا، وحكمه الرفع . اهـ . [١]
قلت : وقد رأيت أن أتوسع في ذكر تخريج هذا الحديث الشريف - وهو قوله صلى الله عليه وسلم لجابر رضي الله عنه :
[يا جابر إن الله تعالى قد خلق قبل الأشياء نور نبيك من نوره]
رأيت أن أتوسع في تخريجه طلباً لعموم النفع فأقول مستعيناً بالله تعالى :

---

[١] ١ / ٩٠

قال الحافظ القسطلاني [1]في كتابه (المواهب اللدنية بالمنح المحمدية) :
روى عبد الرزاق بسنده عن جابر بن عبد الله الأنصاري ....
وذكر الحديث .
وقال الحافظ الزرقاني [2] في شرحه المواهب بعد أن ذكر الحديث :
فليُراجع من مصنف عبد الرزاق مع تمام الحديث، وقد رواه البيهقي ببعض مخالفة.
وقال الإمام أحمد شهاب الدين ابن حجر الهيتمي المكي [3] في كتابه (الفتاوى الحديثية) :
أخرج عبد الرزاق بسنده عن جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنهما ..... وذكر الحديث .
وقد ذكر رحمه الله الحديث أيضاً في كتابه (المِنح المكية بشرح الهمزية) عند شرحه لقول الإمام البوصيري رحمه الله تعالى يخاطب سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم :

أنت مصباح كل فضل فما تصدر إلا عن ضوئك الأضواء

وقال الإمام اللكنوي [4]:
قد ثبت من رواية عبد الرزاق أوّليّة النور المحمدي خلقاً ، وسَبْقته على المخلوقات سبقاً .
وقال الشيخ محمد الكتّاني [5] في كتاب (نظم المتناثر من الحديث المتواتر) : (أولُ ما خلق الله)
ذكر الأمير في مبحث الوجود من حواشيه على جوهرة اللقاني أنها متواترة.

---

[1] هو سيدي أحمد بن محمد بن أبى بكر بن عبد الملك القسطلاني القتيبي المصري، أبو العباس، شهاب الدين المتوفى: ٩٢٣هـ رحمه الله ورضي عنه

[2] سيدي أبو عبد الله محمد بن عبد الباقي بن يوسف بن أحمد بن شهاب الدين بن محمد الزرقاني المالكي المتوفى: ١١٢٢هـ رحمه الله ورضي عنه

[3] إمام الوقت في الحديث الشيخ أحمد بن محمد بن علي بن حجر الهيتمي السعدي الأنصاري، شهاب الدين المكي المتوفى سنة ٩٧٤ هـ رحمه الله ورضي عنه

[4] هو محمد عبد الحي بن محمد عبد الحليم الأنصاري اللكنوي الهندي، أبو الحسنات المتوفى سنة ١٣٠٤هـ رحمه الله ورضي عنه

[5] أبو عبد الله محمد بن أبي الفيض جعفر بن إدريس الحسني الإدريسي الشهير بـ (الكتاني) المتوفى سنة ١٣٤٥هـ وقد جمع المؤلف في هذا الكتاب جملة وافرة من الأحاديث المتواترة ورتبه ترتيبًا موضوعيًا، مُردفًا كل حديث بما يثبت تواتره من تعدد رواته، ومقرونًا بحكم العلماء عليه، وترجع أهمية الكتاب إلى ضمّه لكثير من الأحاديث المتواترة، التي أوجب العلماء العمل بها .

وقد ورد في بعض الأحاديث أن أول ما خلق الله النور المحمدي ، وفي بعضها العرش ، وصح حديث [أول ما خلق الله القلم] ، وفي غيره [أول ما خلق الله اللوح المحفوظ] ، وجاء بأسانيد متعددة : أن الماء لم يُخلق قبله شيء ، وفي بعض الأخبار أن أول مخلوق : الروح ، وأجيب عن التعارض الواقع فيها : بأن أولية النور المحمدي حقيقية ، وغيره إضافية نسبية ، وأن كل واحد خلق قبل ما هو من جنسه ، والله سبحانه وتعالى أعلم.

وذكر العلامة الدردير المالكي [١] إقراره لمعنى الحديث ، فقال :
(ونوره) صلى الله عليه وسلم (أصل الأنوار) والأجسام كما قال صلى الله عليه وسلم لجابر رضي الله عنه : [أول ما خلق الله نور نبيك من نوره] ....الحديث فهو الواسطة في جميع المخلوقات [٢]
وقد ذكر الحديث بتمامه الشيخ حسين بن محمد بن الحسن الدِّيار بَكْري [٣] في كتابه (تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس).
وذكره الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي [٤] في كتابه (تلقيح الأذهان ومفتاح معرفة الإنسان) في الصفحة السابعة والعشرين منه وهو مخطوط
وذكره الشيخ عبد القادر العيدروس [٥] في كتابه : (النور السافر) عند كلامه عن أوصاف سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم في الصفحة الثانية والعشرين معزواً إلى مصنف الإمام عبد الرزاق .

---

[١] تقدمت ترجمته
[٢] (الشرح الصغير) للدردير، ومعه حاشية الصاوي المسماة بـ (بلغة السالك لأقرب المسالك) ج٤ ص ٧٧٨، ٧٧٩
[٣] عالم مؤرخ، نسبته إلى ديار بكر ، ولي قضاء مكة وتوفى فيها ، له (تاريخ الخميس ـ ط) مجلدان، أجملَ به السيرة النبوية وتاريخ الخلفاء والملوك، توفي سنة ٩٦٦ هـ رحمه الله تعالى .
[٤] هو سيدي محمد بن علي بن محمد بن عربي، أبو بكر الحاتمي الطائي الأندلسي، المعروف بـ (محيي الدين بن عربي) ، الملقّب بـ (الشيخ الأكبر)، وهو من أئمة المتكلمين في كل علم ، له نحو أربعمائة كتاب ورسالة ، توفي رضي الله عنه ونفعنا به سنة ٦٣٨ هـ .
[5] هو الشيخ عبد القادر بن شيخ بن عبد الله بن شيخ بن عبد الله العَيْدَرُوس مؤرخ باحث، من أهل اليمن توفي رحمه الله سنة ١٠٣٨ هـ

وذكره أيضاً الإمام السيد عبد الكريم الجيلي [١] في كتابه
(الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل) في الصفحة الثالثة عشرة ، والصفحة الرابعة والثلاثين .
وذكره العلامة الآلوسي [٢] في : (روح المعاني) عند تفسيره لسورة الفاتحة
وذكره العجلوني [٣] في كتابه : (كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس) وعزاه لـ مصنف عبد الرزاق .
وذكره الإمام محمد المهدي [٤] في كتابه
(مطالع المسرات بجلاء دلائل الخيرات [٥])
فقال : قال صلى الله عليه وسلم - والخطاب لجابر رضي الله عنه - :

---

[١] سيدي عبد الكريم بن إبراهيم بن عبد الكريم بن خليفة بن أحمد ، وكني بـ (قطب الدين) ، ولقب بـ (الجيلي) نسبة إلى "جيلان" بلدة أسرته ، وُلـد في جيلان العراق قرب المدائن وهي موطن الإمام الكبير سيدي عبدالقادر الجيلاني رضي الله عنه ، وقد توفي رحمه الله ورضي عنه سنة ٨٢٦ هـ

[٢] الآلوسي الكبير سيدي محمود بن عبد الله الحسيني الآلوسي ، شهاب الدين، أبو الثناء ، من أهل بغداد، مولده ووفاته فيها سنة ١٢٧٠ هـ رحمه الله ورضي عنه

[٣] الإمام المحدّث إسماعيل بن محمد بن عبد الهادي الجراحي العجلوني الدمشقي، أبو الفداء ، محدث الشام في أيامه ، مولده بعجلون ، ومنشأه ووفاته بدمشق سنة ١١٦٢ هـ رحمه الله ورضي عنه

[٤] هو سيدي أبو عبد الله محمد المهدي بن أحمد، بن علي بن أبي المحاسن، المحدّث المؤرخ النسّابة ، من كتبه : (ممتع الأسماع بمناقب الشيخ الجزولي ومن له من الأتباع) ، توفي رضي الله عنه سنة ١١٠٩ هجرية

[٥] مؤلف كتاب (دلائل الخيرات) هو سيدي أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن أبي بكر بن سليمان الحسني الجزولي السملالي الشاذلي الحسيب النسيب الشريف ، والجزولي نسبة إلى (جزولة) أو (كزولة) من بطون البربر، بضم الجيم، وفتحها والسملالي نسبة إلى سملالة (من قبائل جزولة) ، كان رضي الله عنه من العلماء العاملين والأئمة المهتدين وممن جمع بين شرف العلم والعمل والأحوال الربانية الشريفة والمقامات العالية المنيفة ، انتفع به خلق كثيرون وتخرج على يده مشايخ مشهورون وحييت به البلاد والعباد ، يُرجع المؤرخون نسبه إلى سيدنا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، وقد اعتمدوا على قوله: "ليس العزيز من تعزّز بالقبيلة وحسن الجاه، وإنما العزيز من تعزّز بالشرف والنسب؛ أنا شريف النسب؛ جدي رسول الله صلى الله عليه وسلم"، كما في كتاب : (ممتع الأسماع بمناقب الشيخ الجزولي ومن له من الأتباع) الصفحة الخامسة ، توفي رضي الله عنه ورضي عنّا به سنة ٨٧٠ هـ

[إن الله خلق أول الأشياء نور نبيك من نوره] أخرجه عبد الرزاق ، وروي عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال :
[أول ما خلق الله نوري ، ومن نوري خلق كل شيء]
فهذه أحاديث دالّة على أولّيته صلى الله عليه وسلم وتقدمه على غيره من جميع المخلوقات ، وهذا اللفظ هكذا هو في النسخة السهلية وأكثر النسخ . اهـ .[1]
تنبيه : قلت : و كلمة (مِن) في قوله صلى الله عليه وسلم في الحديث المتقدم :
[خلق نور نبيك من نوره]
(من) هنا ليست تبعيضية ، وإنما هي إبتدائية أي : خلق الله تعالى نور نبيه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم من نور ابتدأ هو سبحانه خلْقه ، ونظير (من) الابتدائية هنا ما جاء في قوله تعالى في حق سيدنا آدم عليه السلام :
{ ونفخت فيه من روحي } أي من روح ابتدأ الله تعالى خلقها ، وليست (من) هنا تبعيضية ، وكذلك كلمة (من) في قوله تعالى :
{ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ } فهي ابتدائية . اهـ .
والمراد من قول الشيخ نجم الدين رحمه الله :
((قوله تعالى : { ليغفر لك ما تقدم من ذنبك } أي ليستر لك بأنوار جلاله سبحانه ما تقدم من ذنب وجودك من بدء خلق روحك وهو أول شئ تعلقت به القدرة كما قال عليه الصلاة والسلام : [أول ما خلق الله روحي]
وفى رواية : [نوري]
{ وما تأخر } أي من ذنب وجودك إلى الأبد، وذنب الوجود هو الشركة فى الوجود ، وغفره : ستره بنور الوحدة لمحو آثار الاثنينية)) اهـ .
المراد من قوله : (ذنب وجودك) : أي : ملاحظة العبد ومشاهدته لوجوده وأنه قائم بنفسه أو أن وجوده ذاتي من نفسه وهكذا .
قلت : ولا تتوهم أيها العاقل من هذا الكلام مفهوم الاتحاد أو الحلول ، فالله تعالى لا يتّحد مع أحد ولا يحلّ في شيء ، فهو سبحانه واحد أحد صمد { لم يلد } - أي : لم ينفصل عن أحد { ولم يولد } أي : لم ينفصل عنه أحد { ولم يكن له كفواً أحد } أي : لم يكن أحد كفواً له أي نظيراً أو مثيلاً أو مشابهاً ، وهو سبحانه لا يحدّه مكان ولا يجري عليه زمان ، وإنما المراد من ستر وجود العبد المحب أنه من باب :

---
[1] انظره ص ١٣٥

(وجودك ذنب لا يُقاس به ذنب) أي : ملاحظتك ومشاهدتك لوجودك ، فالذي ينبغي على العبد المحب لله تعالى أن يفنى ، والفناء هو أن يفنى العبد عن رؤيته ومشاهدته لذاته وأفعاله ومداركه وحواسه ، ويبقى بربه جل وعلا ، فلا تنقطع عنه مشاهدة قيامه بربه سبحانه ، ولا يغفل عن التحقق بقوله : لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، أي : لا تحوّل لي من ذاتي من حال إلى حال ولا قوة لي من ذاتي ولا .... ولا ..... ، إلا بإمداد الله تعالى لي

ودليل هذا ما رواه البيهقي في الشُّعب والبزار في مسنده عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : جئت إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقلت :

(لا حول ولا قوة إلا بالله) ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم :

[ألا أخبرك بتفسيرها يا ابن أم عبد] ؟

قلت : بلى يا رسول الله

قال : [لا حول عن معصية الله إلا بعصمة الله ، ولا قوة على طاعة الله إلا بعون الله]

قال : ثم ضرب منكبي وقال : [هكذا أخبرني جبريل عليه السلام يا ابن أم عبد] . اهـ .

ومَن توهَّم أن وجوده كوجود الله تعالى فهذا خدش ونقص كبير في توحيده لله تعالى وفي إيمانه الاعتقادي ، وربما يؤدي به إلى الشرك والعياذ بالله تعالى ، لأن وجود الله تبارك و تعالى هو وجود مَن ليس كمثله شيء ، وأما وجود المخلوقات فهو وجود خارجي معروف يشغل حيزاً ، ويجري عليه زمان ، وهكذا سائر صفات الله جل وعلا ، فهي صفات من ليس كمثله شيء ، فكيف تُشبه صفتُه سبحانه صفات المخلوقات التي منحها سبحانه الوجود والسمع والبصر والقوة وغيرها ؟ !

وأما فناء العبد عن نفسه وبقاؤه بربه فيحصل له بالتقرب إلى الله تعالى بالطاعات والإخلاص فيها ، وأن يكون الله تعالى هو المحبوب الأعظم عنده ، ففي الحديث القدسي قال تبارك وتعالى :

[وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها] ... الحديث

وفي رواية : [فبي يسمع وبي يبصر] [1]

فهل يعني قوله تعالى في الحديث القدسي المتقدم : [كنت سمعه]

هل يعني هذا أن الله تعالى اتّحد معه أو حلّ فيه ؟

حاشا وكلا ، هذا فهم سقيم ، وإنما المعنى أن الله تعالى تولاه بقوته الخاصة وتوليته الخاصة بعباده الصالحين ، أي تولى سبحانه سمعه وبصره وسائر حركاته وسكناته ، فأسمعه ما لا يسمع غيره ، وأراه ما لا يرى غيره ، فهو يسمع بالله ويرى بالله ، وهذا من باب التولية الخاصة .

ومن هذا المفهوم يجب أن تفهم معنى قوله تعالى :

{ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ }

مع أن الذي أخذ الصدقات هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، بدليل قوله سبحانه مخاطباً حبيبه الأكرم ونبيه الأعظم سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم : { خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا }

وتفهم معنى قوله تعالى :

{ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ }

مع أن يد سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت فوق أيديهم

وقال تعالى : { وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى }

فهل هذا حلول أو اتحاد ؟

تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، وإنما هو كما تقدم بيانه ويعبر عنه بـ (مقام القرب الخاص والتولية الخاصة)

---

[1] قال الإمام ابن كثير في تفسيره: جاء في بعض رواية الحديث في غير الصحيح، بعد قوله: [ورجله التي يمشي بها] : [فبي يسمع، وبي يبصر، وبي يبطش، وبي يمشي] . اهـ
وذكر هذه الرواية الحافظ ابن حجر في الفتح ١١ / ٣٤٤.

وكان صلى الله عليه وسلم يقول :

(اللهم بك أصول وبك أجول) - كما في مسند الإمام أحمد ١٢٢٩ والمعجم الكبير للطبراني وشعب الإيمان للبيهقي -
ويقول عليه الصلاة والسلام : (أنا بك وإليك) - كما في صحيح مسلم كتاب صلاة المسافرين وقصرها ورواه أصحاب السنن -

وفي حديث النفر الثلاثة الذين جاؤوا وكان صلى الله عليه وسلم يعلّم الصحابة في المسجد النبوي الشريف فأقبل اثنان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وذهب واحد ، فأما أحدهما فرأى فُرجة في الحلقة فجلس فيها وأما الآخر فجلس خلفهم فلما فرغ صلى الله عليه وسلم من حديثه الكريم

قال :

[أما أحدهم فأوى إلى الله فآواه الله]

- مع أنه أوى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم - .

.. الحديث ، كما في صحيح البخاري كتاب العلم ، وصحيح مسلم كتاب السلام .

ومنه قوله تعالى في كُمّل المؤمنين :

{ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ }

والكلام في هذا له شجون وفنون ويُكتفى بهذا القدر فليُتأمل .

فإذا فني العبد عن نفسه وبقي بربه سبحانه لم يعد يرى إلا أنوار قدسه جل وعلا ، وآثار أسمائه تبارك وتعالى في الكون ، وهذا معنى قول الشيخ نجم الدين رحمه الله :

(وغفره ستره بنور الوحدة لمحو آثار الاثنينية) .

حتى قال أحدهم :

بيني وبينك إنيّ ينازعني فارفع بحقك إنّيي من البين

وقوله : (إنّيّي) - بكسر الهمزة وتشديد النون والياء المكسورتين - :
أي أنانيتي .
فهو يسأل ربه تعالى أن يرفع عنه رؤيته لذاته وأنانيته ، حتى لا يبقى بينه وبين الله حجاب ، وهي الأنانية التي أشار إليها بقوله (إنيي).

وذلك ليبقى في شهود دائم أنه قائم بالله تعالى ، وأن أفعاله وجميع حركاته وسكناته هي بقوة الله تعالى ، ولا شيء من ذاته هو - أي من ذات العبد - اهـ .

وهذا بيان لقول الإمام الجنيد رضي الله عنه حين سئل عن المقربين المحبين أهل الكمال ...

قال الإمام أبو بكر الكتاني [1] رضي الله عنه :
جرَت مسألة المحبة بمكة أعزّها الله تعالى أيام الموسم - موسم الحج - فتذاكروا في المحبة فتكلّم كلّ من الشيوخ وكان الإمام الجنيد أصغرهم سناً ، فلما انتهى الدور إليه قالوا له : هات ما عندك يا عراقي .
فأطرق الجنيد رأسه ودمعت عيناه ثم قال :
(المحب هو عبد ذاهب عن نفسه ، متصل بذكر ربه ، قائم بأداء حقوقه ، ناظر إليه بقلبه ، أحرق قلبَه أنوار هيبته ، وانكشف له الجبار من أستار غيبه ، وصفا شربه من كأس ودّه ، فإن تكلم فبالله ، وإن نطق فعن الله ، وإن تحرك فبأمر الله ، وإن سكن فمع الله ، فهو لله وبالله ومع الله) .
فقالوا له : ما على هذا مزيد جزاك الله خيراً يا تاج العارفين .اهـ .
- والمقصود بقوله رضي الله عنه :
(مع الله) أي مراقباً مراقبة الله تعالى له - .
فهذا هو المحب كامل المحبة ، لقد فني في محبوبه كما فنيت باء الحب الأولى في الثانية ، فدخلت وأدغمت فيها ، فلم يبق لها أثر ولا مظهر ، وإنما الأثر والمظهر ، والنطق والكتابة للباء الثانية المدغمة فيها .
وهكذا المحب فنيت أفعاله وأعماله وأقواله في الله تعالى - ولله المثل الأعلى - ، كل ذلك بالله ، ولله، ما له غرض سواه ، وفنيت صفاته السمعية ، والبصرية، والعقلية، والعلمية، وحواسه ، ومداركه ، فنيت في الله تعالى ،

---

[1] سيدي أبو بكر محمد بن علي بن جعفر القدوة العارف الكتاني البغدادي الأصل ، جاور بمكة إلى أن مات سنة ٣٢٢ هـ رضي الله عنه .

فكل ما يَرِد على سمعه أو بصره أو عقله أو قلبه مما لا يرتضيه الله تعالى ولا يحبه فإنه لا يسمعه ولا يحبه ولا يرضاه ، فإن حبك الشيء يُعميك ويُصمّك عن غيره .[1]
وقوله تعالى :{ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ } أي فتحنا لك لنفتح بك ، يدل عليه ما جاء في وصف النبي صلى الله عليه وسلم :
(ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء) - أي اعوجاج الناس في العقيدة – (بأن يقولوا : لا إله إلا الله ، ويفتح به أعينا عمياً ، وآذاناً صمّاً ، وقلوبا غلفاً ")[2]
فكما فتح به القلوب للهدى والإيمان فتح به الأمصار والأقطار ، ودخل الناس في دين الله بواسطة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .
روى الإمام أحمد في مسنده عن البراء بن عازب قال :
أمرَنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بحفر الخندق .

قال : وعرض لنا صخرة في مكان من الخندق لا تأخذ فيها المعاول ، قال : فشكوها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم هبط إلى الصخرة فأخذ المعول فقال : [بسم الله] ، فضرب ضربة فكسر ثلث الحجر ، وقال : [الله أكبر أعطيت مفاتيح الشام ، والله إني لأبصر قصورها الحمْر من مكاني هذا] ، ثم قال : [بسم الله] ، وضرب أُخرى فكسر ثلث الحجر فقال : [الله أكبر ، أُعطيتُ مفاتيح فارس ، والله إني لأبصر المدائن وأبصر قصرها الأبيض من مكاني هذا]، ثم قال : [بسم الله] ، وضرب ضربة أخرى فقلع بقية الحجر فقال : [الله أكبر ، أعطيت مفاتيح اليمن والله إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني هذا] .[3]

[1] انظر كتاب التقرب إلى الله تعالى للشيخ الإمام رضي الله عنه في الصفحة ١٢٨ قلت : ونقل هذا القول عن الإمام الجنيد - أي قوله : المحب هو عبد ذاهب عن نفسه .... - نقله الشيخ أحمد بن محمد الشهير بـ (ابن عجيبة) في كتابه (إيقاظ الهمم شرح متن الحكم) والإمام عبد الكريم القشيري في (الرسالة القشيرية) والإمام ابن القيم في كتابه (مدارج السالكين) .
[2] طرف حديث في صحيح البخاري كتاب البيوع
[3] المسند ١٧٩٤٦

ثم ظهر أثر ذلك بعد أعوام من وفاته صلى الله عليه وسلم ، وذلك زمن عمر رضي الله عنه ومَن بعده رضي الله عنهم ، فهو صلى الله عليه وسلم الفاتح الأول لكل خير دنيوي وأخروي .

وأما قوله تعالى :{ لِيَغْفِرَ لَكَ } أي ليستر عنك الذنب الذي لو قُدِّر لك فعله لفعلته ، لكن الله عصمك عن الذنب وستره عنك لأن الغفر هو الستر الذي به الوقاية والمناعة كما هو شأن المغفر الذي يقي ويستر لابسه من ضربات السهام وغيرها { مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ } قبل البعثة فلم يقع منك ذنب قط حيث حفظك ووقاك سبحانه لما أردت حضور عرس أحد من أهل مكة قبل البعثة .....) الحديث [١]

وأما عصمته صلى الله عليه وسلم بعد البعثة فأدلتها كثيرة ظاهرة جلية ، ومما يدل على أنه صلى الله عليه وسلم في وقاية الله وعصمته له من الذنب حديث الشفاعة الطويل وفيه : أن الناس لمّا يصيرون في عالم الموقف في الآخرة قبل عالم الحساب ، حيث جاء أن الله يجمعهم في صعيد واحد وتدنو الشمس منهم وتشتد عليهم الكربات والأهوال يأتون أباهم آدم ويسألونه الإغاثة كما في رواية البخاري [٢]

وفي الرواية الأخرى يقولون : ألا ترى إلى ما بلغنا ، اشفع لنا عند ربك [٣] فيُبدي آدم عليه السلام اعتذاره وتقاصره عن التقدم إلى مقام الشفاعة الكبرى [١] ويذكر فعلته لما أكل من الشجرة هو وزوجته ،

---

[١] تقدم تخريجه قبل صفحات وانظره في كتاب الشمائل لشيخنا الإمام رضي الله عنه ص ٤٩٨

[٢] كما في صحيح البخاري كتاب الزكاة عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : [إن الشمس تدنو يوم القيامة حتى يبلغ العرق نصف الأذن فبينا هم كذلك استغاثوا بآدم ثم بموسى ثم بمحمد صلى الله عليه وسلم] .

[٣] وقد جاءت الخلائق كلها آدم عليه السلام باعتبار أنه أبوهم الجسماني المادي الأول فهو أبو البشر ومن المعروف أنه إذا حلّ بالولد أمر لجأ إلى أبيه لعله يجد مخرجاً ، ولم تزل البشر تطوف على أولي العزم من الرسل حتى وجدوا الفرج والمخرج من العذاب عند الأب الروحاني الأول لهم وهو الحبيب الأعظم لله سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، الذي قال : (أنا لها أنا لها)

[1] ونص الحديث في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :
[أنا سيد الناس يوم القيامة ، وهل تدرون بمَ ذاك ؟
يجمع الله يوم القيامة الأولين والآخرين في صعيد واحد ، فيسمعهم الداعي وينفذهم البصر ، وتدنو الشمس فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون وما لا يحتملون ، فيقول بعض الناس لبعض : ألا ترون ما أنتم فيه ، ألا ترون ما قد بلغكم ، ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم ؟
فيقول بعض الناس لبعض : ائتوا آدم ، فيأتون آدم فيقولون : يا آدم أنت أبو البشر خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وأمر الملائكة فسجدوا لك ، اشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى إلى ما نحن فيه ، ألا ترى إلى ما قد بلغنا ؟
فيقول آدم صلى الله عليه وسلم : إن ربي غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله ، وإنه نهاني عن الشجرة فعصيته ، نفسي نفسي ، اذهبوا إلى غيري ، اذهبوا إلى نوح ، فيأتون نوحاً صلى الله عليه وسلم فيقولون : يا نوح أنت أول الرسل إلى الأرض ، وسمّاك الله عبداً شكوراً ، اشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى ما نحن فيه ، ألا ترى ما قد بلغنا ؟
فيقول لهم : إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله ، وإنه قد كانت لي دعوة دعوت بها على قومي ، نفسي نفسي ، اذهبوا إلى إبراهيم صلى الله عليه وسلم ، فيأتون إبراهيم صلى الله عليه وسلم فيقولون : أنت نبي الله وخليله من أهل الأرض ، اشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى إلى ما نحن فيه ، ألا ترى إلى ما قد بلغنا ؟
فيقول لهم إبراهيم صلى الله عليه وسلم: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله ، وذكر كذباته ، نفسي نفسي ، اذهبوا إلى غيري ، اذهبوا إلى موسى ، فيأتون موسى صلى الله عليه وسلم فيقولون : يا موسى أنت رسول الله ، فَضَّلك الله برسالاته وبتكليمه على الناس ، اشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى إلى ما نحن فيه ، ألا ترى ما قد بلغنا ؟
فيقول لهم موسى صلى الله عليه وسلم : إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله ، وإني قتلت نفساً لم أومر بقتلها ، نفسي نفسي ، اذهبوا إلى عيسى صلى الله عليه وسلم
فيأتون عيسى فيقولون : يا عيسى أنت رسول الله ، وكلّمتَ الناس في المهد ، وكلمة منه ألقاها إلى مريم وروح منه ، فاشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى ما نحن فيه ، ألا ترى ما قد بلغنا ؟
فيقول لهم عيسى صلى الله عليه وسلم : إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله ، ـ ولم يذكر له ذنباً ـ ، نفسي نفسي ، اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، فيأتوني فيقولون : يا محمد أنت رسول الله وخاتم الأنبياء ، وغفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، اشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى ما نحن فيه ، ألا ترى ما قد بلغنا ؟

وعدّ ذلك ذنباً ومعصية في حقه ، وأما في حق غيره فليس ذنباً لأن الله تعالى يقول :{ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ } أي : أعلمناه وقضينا إليه أن لا يأكل من الشجرة لما أسكنّاه وزوجته الجنة { فَنَسِيَ } أي نسي عهد ربّه له طمعاً في جواره الدائم وتنعّماً بقربه الخالد { وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا }أي : لم نجد له همّة وتوجّهاً إلى فعل معصية الله ، بل كان ذلك منه نسياناً ، ومع ذلك اعتبر في حقه ذنباً ، أما في حق غيره فلا ، فالذنب لا يعتبر ذنباً إلا بالنظر لمن يصدر منه ، فافهم ، وهو مفهوم نسبي .

وقد اعتذر آدم عليه السلام عن التقدم لمقام الشفاعة العظمى في الخلائق بسبب ذنبه مع أن الله تعالى قد أعلمه في الدنيا أنه غفر له قال تعالى : { فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ } { قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ }، ثم يأتون نوحاً عليه السلام أبا البشر الثاني وأول المنذرين من الرسل لأقوامهم ، ويسألونه الإغاثة والشفاعة ، فيعتذر عن التقدم لمقام الشفاعة ، ويذكر أمراً فَعَلَه يعتبر في حقه ذنباً مع أن الله تعالى غفر له في الدنيا ، قال سبحانه : { قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ * قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ } ، ثم يأتون إبراهيم شيخ الأنبياء [1] عليه السلام ويسألونه الإغاثة والشفاعة ، فيعتذر ويبدي تقاصره عن هذا المقام ،

فأنطلق فآتي تحت العرش ، فأقع ساجداً لربي ، ثم يفتح الله علي ويلهمني من محامده وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتحه لأحد قبلي ، ثم يقال : يا محمد ارفع رأسك ، سل تعطه ، اشفع تشفع ، فأرفع رأسي فأقول : يا رب ، أمتي أمتي ...... الحديث

[1] روى الإمام البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم لما رأى الصور في البيت لم يدخل حتى أمر بها فمحيت ، ورأى إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام - أي رأى ما صنعه المشركون من صورة لهما عليهما السلام - بأيديهما الأزلام فقال : قاتلهم الله ، والله إن استقسما بالأزلام قط
وقال الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية :
وفي بعض ألفاظ البخاري : قاتلهم الله لقد علموا أن شيخنا لم يستقسم بها قط . اهـ
قلت : ومحل الشاهد قوله صلى الله عليه وسلم عن سيدنا إبراهيم : شيخنا ، ولم يُسَمّ النبي صلى الله عليه وسلم أحداً من الأنبياء بأنه شيخه إلا إبراهيم عليه الصلاة والسلام .
وانظر هذه الرواية في سيرة ابن هشام والروض الأنف للسهيلي

ويذكر أموراً اعتبرت في حقه ذنباً مع أنها من المعاريض ، وليست من الكذب كما قال صلى الله عليه وسلم :

[إن في المعاريض لمندوحة عن الكذب] [1] ومع ذلك كله فقد غفر الله له ، قال سبحانه مخبراً عنه :

{ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ } {وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ }

فهي - أي : المعاريض - بالنسبة لمقامه اعتبرت ذنباً ، أما في حق غيره فلا ، لأن الأكابر يُعاملون بدقة النظر وشدة المحاسبة ، بسبب شدة قربهم وقوة محبتهم ، ومحاسبة الحبيب ليست كمحاسبة غيره ، ثم يأتون موسى عليه السلام ، ويسألونه الإغاثة ويطلبون منه الشفاعة ، فيذكر أمراً فعله قبل نبوته ورسالته ، ولم يكن يقصده ، ومع ذلك اعتبر في حقه مانعاً عن التقدم لمقام الشفاعة فقال :(قتلت نفساً لم أومر بقتلها) علماً أن الله تعالى أعلمه أنه قد غفر له في الدنيا بنص القرآن :

{ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ }

ثم يأتون عيسى عليه السلام ويسألونه الإغاثة ، ويطلبون منه الشفاعة ، فيذكر أمراً نسبه إليه قومه وقد أنكره عليهم بشدة في الدنيا قبل الآخرة ، قال تعالى :

{ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ * مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ * إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ }

---

[1] رواه البخاري في الأدب المفرد موقوفاً على عمران بن حصين وأخرجه الطبري في التهذيب، والبيهقي في الشعب، والطبراني في الكبير، ورجاله ثقات وهو عند ابن السني مرفوعاً وكذا هو عند أبي نُعيم، ومن طريقه الديلمي

فقال عليه السلام : إني اتُخذت إلهاً من دون الله [1] ـ أي وذلك يعتبر في حقي ذنباً ، وإن حيائي من الله يمنعني من التقدم إلى مقام الشفاعة العظمى .
وفي رواية قال عليه السلام : ولكن ائتوا محمداً صلى الله عليه وسلم عبد غفر الله له ما تقدم من ذنبه ، وما تأخر [2]

فانظر في هذه الجملة وتأمل بها ، فقوله عليه السلام في صفة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : (عبد) أي العبد الأول لله الذي تحقق بمراتب العبودية كلها لله تعالى فهو أعبد العابدين لرب العالمين ، ولذلك ذكره الله بهذا المقام في أجل المناصب ، ففي مقام إنزال الكتاب قال تعالى :

{الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ }

وفي الإسراء قال سبحانه :{ سبحان الذي أسرى بعبده }

وفي الدعوة قال جل وعلا :

{ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا }

وغيرها كثير .

وقول عيسى عليه السلام في حق سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم :
(عبدٌ غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر) أي قبل النبوة وبعدها ، مع أنه تعالى غفر لهم ـ أي للأنبياء المتقدم ذكرهم ـ غفر لهم ما تقدم من ذنوبهم وما تأخر بنصّ القرآن ، والأدلة على ذلك كثيرة ، فقد أخبر صلى الله عليه وسلم عن خصال كثيرة مكفّرة للذنوب المتقدمة والمتأخرة في حق المؤمنين كلهم [3] ، فما الظن بأنبياء الله تعالى ؟ !!

---

[1] طرف حديث في المسند ٢٤١٥
[2] طرف حديث في صحيح ابن حبان كتاب التاريخ وأصله في صحيح مسلم كما تقدم
[3] ومن ذلك ما رواه الإمام أحمد في مسنده عن الحسن رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر
وللحافظ ابن حجر في هذا الباب مؤلف نفيس سماه : الخصال المكفرة للذنوب المتقدمة والمتأخرة ، فليراجع

إن الأمر أكبر وأعظم ، فافهم .

وإذا كان الأمر كذلك فلمَ لم يمتنع صلى الله عليه وسلم عن التقدم لمقام الشفاعة بل قال : [أنا لها أنا لها] ؟ !!

فلو كان قد صدر منه ذنب لامتنع عن التقدم للشفاعة العظمى كما هو شأن الأنبياء قبله فما معنى : (عبدٌ غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر) ؟ !

علماً أنه صلى الله عليه وسلم لم يقل:

قبلتُ فداء أسرى بدر اذهبوا إلى غيري ، عبستُ في وجه الأعمى - مع أن الأعمى لا يبصر ، ولم يبصر عبوسة النبي صلى الله عليه وسلم - اذهبوا إلى غيري ، أخطأت في قضية تأبير النخل اذهبوا إلى غيري ، فلم يذكر صلى الله عليه وسلم شيئاً من الخطأ والخطيئة التي نسبها إليه بعض من لم يعرف مقامه صلى الله عليه وسلم عند ربه ، فما هو سر قوله صلى الله عليه وسلم [أنا لها ، أنا لها] ؟

نعم ، أي : لا ذنب لي إطلاقاً ، فقد غفر الله لي الذنب المتقدم والمتأخر أي ستره عني ، ويقال في اللغة : غفره وغفر عنه إذا ستره [1]، فقد جعل الله بينه وبين الذنب المقدّر له صلى الله عليه وسلم فعله - لو كان - ، جعل بينه وبينه حاجباً ووقاية وغفراً ، وهذا معنى الغفر أي الستر ، وهو يتوافق مع قوله تعالى { إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا * لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ } فقد ذكر سبحانه له مجامع نعمه وفضائله عليه فافهم .

وإلا لو كان له صلى الله عليه وسلم ذنب وغفره الله له لذكره كما فعل الأنبياء قبله ، ولمنعه عن التقدم إلى مقام الشفاعة العظمى ،
ولكن ذلك لم يقع ، فلا تطلق لفكرك العنان ، أو تأخذك الوساوس والخواطر الشيطانية الظلمانية ، فإن مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم مقام عظيم بتعظيم الله تعالى وعصمته جل وعلا ، ولذلك جاء في الأحاديث أنه صلى الله عليه وسلم قام حتى تورمت قدماه ،

---

[1] قال في لسان العرب : وأصل الغفر التغطية والستر ، يقال : غفر الله ذنوبه أي سترها

لإطلاع الله له على أنه غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، أي أن الله تعالى عصم رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم ووقاه وحفظه من الذنوب كما بيّناه [1] أي فكان اجتهاده في القيام شكراً لله تعالى على أنه غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، لأن الشكر يتعلق بالقلب واللسان والأركان أي الجوارح

وأول الآيات في سورة الفتح نص قرآني صريح بذلك ، كما فيها بشارة صريحة بتفضل الله تعالى على المؤمنين الذين كانوا معه صلى الله عليه وسلم بإدخالهم الجنة .

وكانت بشائر الحق سبحانه لرسوله الكريم بالوحي النبوي بغفران الذنوب قبل هذه الآية ، كيف لا وقد قاد صلى الله عليه وسلم معركة بدر التي قال صلى الله عليه وسلم لسيدنا عمر في حق من حضرها :

[وما يدريك لعل الله عز وجل اطلع على أهل بدر فقال :
اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم] [2]
و في رواية للإمام أحمد:
[إن الله عز وجل اطّلع على أهل بدر فقال :

اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم] [3]

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في الفتح :

وقع الخبر بألفاظ :

منها " فقد غفرت لكم " ومنها " فقد وجبت لكم الجنة " ومنها " لعل الله اطلع "

---

[1] روى البخاري في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها أن نبي الله صلى الله عليه وسلم كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه فقالت السيدة عائشة : لمَ تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟
قال : [أفلا أحب أن أكون عبداً شكوراً] .

[2] طرف حديث في صحيح البخاري كتاب تفسير القرآن وصحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة عن سيدنا علي كرم الله وجهه .

[3] ٧٥٩٩ عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه

لكن قال العلماء : إن الترجي في كلام الله وكلام رسوله للوقوع [1]

[1] قال سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما : (لعل) إذا دخلت على فعل من أفعال الله تعالى فهي محققة الوقوع ، لأن فيها معنى الإطماع ، والكريم إذا أطمع لم يمنع . (انظر تفسير البغوي والألوسي والخازن)
قلت : وإذا جاءت (لعلّ) في كلام سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فهي محققة الوقوع ، لأن فيها معنى التوقّع والرجاء ، والله تعالى يحقق مراد نبيه الكريم صلى الله عليه وسلم ، ولا يخيّب رجاءه صلى الله عليه وسلم ، ولا يرد ظنّه ، يدل على ذلك استقراء الأحاديث الشريفة منها :
ما جاء في الحديث السابق : لعل الله عز وجل اطلع على أهل بدر
وجاءت رواية : إن الله عز وجل اطلع على أهل بدر... الحديث
ومنها لما قيل لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألم تر ثابت بن قيس بن شمّاس لم تزل داره البارحة تزهر مصابيح ؟ قال : « فلعلّه قرأ سورة البقرة » .
قال : فسئل ثابت ، فقال : قرأت سورة البقرة (انظر فضائل القرآن للقاسم بن سلام)
ومنها لما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما أن يغيّب دمه الشريف بعد فراغه من الحجامة - أي يخفيه حيث لا يراه أحد - فشربه رضي الله عنه ثم قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما صنعت ؟ - أي بالدم - قال : غيّبتُه ، قال صلى الله عليه وسلم : لعلك شربتَه ؟ قال : نعم . (عزاه مولانا الإمام في الشمائل إلى الطبراني والبزار والحاكم والبيهقي وأبي نعيم في الحلية) .
ومن ذلك ما رواه مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما الذي أخبر عن نفسه أنه كان يصوم الدهر ويقرأ القرآن كل ليلة فأمره النبي صلى الله عليه وسلم أن يصوم يوماً ويفطريوماً ، وأن يقرأ القرآن في كل شهر، ثم في كل عشرين ، ثم في كل عشر، ثم في كل سبع ، وقال له : إنك لا تدري لعلك يطول بك عُمْر، قال : فصرت إلى الذي قال لي النبي صلى الله عليه وسلم فلما كبرت وددت أني كنت قبلت رخصة نبي الله صلى الله عليه وسلم .
ومن ذلك ما رواه الإمام النسائي في سننه عن أبي هاشم بن عتبة أنه قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد إلي عهداً وددت أني كنت تبعته قال : إنه لعلك تدرك أموالاً تقسم بين أقوام ، وإنما يكفيك من ذلك خادم ومركب في سبيل الله ، فأدركت فجمعت .
ومن ذلك ما رواه الإمام أحمد في مسنده عن معاذ بن جبل لما بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى اليمن خرج معه صلى الله عليه وسلم يوصيه فلما فرغ قال :
[يا معاذ إنك عسى أن لا تلقاني بعد عامي هذا ، أو لعلك أن تمر بمسجدي هذا أو قبري]، فبكى معاذ جشعاً لفراق رسول الله صلى الله عليه وسلم - أي بكى جزعاً وخوفاً من الفراق - ....
ومنه أيضاً الحديث الذي رواه الحاكم في مستدركه والبيهقي في الدلائل عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه لما سار رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تبوك أبطأ

وعند أحمد وأبي داود وابن أبي شيبة من حديث أبي هريرة بالجزم ولفظه :
[إن الله اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم]
وعند أحمد بإسناد على شرط مسلم من حديث جابر مرفوعاً :

[لن يدخل النار أحد شهد بدراً]

وقد استشكل قوله : [اعملوا ما شئتم]

فإن ظاهره أنه للإباحة ، وهو خلاف عقد الشرع ، وأجيب :

بأنه إخبار عن الماضي ، أي كل عمل كان لكم فهو مغفور ، ويؤيده أنه لو كان لِما يستقبلونه من العمل لم يقع بلفظ الماضي ولقال : فسأغفره لكم ، وتُعُقّب بأنه لو كان للماضي لمَا حسن الاستدلال به في قصة حاطب لأنه صلى الله عليه وسلم خاطب به عمر منكراً عليه ما قال في أمر حاطب ، وهذه القصة كانت بعد بدر بست سنين فدل على أن المراد ما سيأتي ، وأورده في لفظ الماضي مبالغة في تحقيقه .

على أبي ذر بعيره ، فلما أبطأ عليه أخذ متاعه فجعله على ظهره ، فخرج يتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم ماشياً ، ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض منازله ، ونظر ناظر من المسلمين ، فقال : يا رسول الله ، هذا رجل يمشي على الطريق ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : [كن أبا ذر]
فلما تأمّله القوم ، قالوا : يا رسول الله ، هو والله أبو ذر
والباب في هذا واسع كبير يحتاج إلى بحث خاص وهو يندرج ضمن قول السيدة عائشة رضي الله عنها كما في صحيح البخاري :
(ما أرى ربك إلا يسارع في هواك) أي في تحقيق رغبتك وحصول مرادك ، وذلك لما تحولت القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة . اهـ .

وقيل : إن صيغة الأمر في قوله : " اعملوا " للتشريف والتكريم ، والمراد عدم المؤاخذة بما يصدر منهم بعد ذلك ، وأنهم خُصّوا بذلك لما حصل لهم من الحال العظيمة التي اقتضت محو ذنوبهم السابقة ، وتأهلوا لأن يغفر الله لهم الذنوب اللاحقة إن وقعت ، أي كل ما عملتموه بعد هذه الواقعة من أي عمل كان فهو مغفور .

وقيل : إن المراد ذنوبهم تقع إذا وقعت مغفورة .

وقيل : هي بشارة بعدم وقوع الذنوب منهم ، وفيه نظر ظاهر لما سيأتي في قصة قدامة بن مظعون رضي الله عنه حين شرب الخمر في أيام عمر رضي الله عنه وَحَدَّهُ عمر - أي أقام عليه حد شرب الخمر وهو ثمانون جلدة - ، فهاجر بسبب ذلك ، فرأى عمر في المنام مَن يأمره بمصالحته ، وكان قدامة بدرياً ، والذي يفهم من سياق القصة الاحتمال الثاني .

واتفقوا على أن البشارة المذكورة فيما يتعلق بأحكام الآخرة لا بأحكام الدنيا من إقامة الحدود وغيرها ، والله أعلم . [١]

وقال الحافظ ابن حجر في الفتح أيضاً :

قوله : (اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم)
كذا في معظم الطرق ، وعند الطبري من طريق معمر عن الزهري عن عروة [فإني غافر لكم] وهذا يدل على أن المراد بقوله [غفرت] أي أغفر ، على طريق التعبير عن الآتي بالواقع مبالغة في تحققه .

وفي " مغازي ابن عائذ من مرسل عروة : [اعملوا ما شئتم فسأغفر لكم] والمراد غفران ذنوبهم في الآخرة ، وإلا فلو وجب على أحدهم حدّ مثلاً لم يسقط في الدنيا . اهـ ٨ / ٦٣٥ .

وأما معنى الذنب في قوله تعالى :

{ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ }

---

[١] ١١ / ٣١٦

فهذا من باب الاستغفار المشروع بعد فعل الطاعات والامتثال للأوامر ، و الصبر من جملتها ، والمعنى : واصبر لحكم ربك ، واصبرعلى أذى قومك حتى يحكم الله ، فإن وعده حق آتٍ لا محالة له .
ونظيره قوله تعالى :{ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ }
وقوله جل وعلا : { فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ }
وقوله سبحانه :{ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ }
وأما قوله تعالى :

{ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا }

أي فكن من المسبِّحين المستغرقين بالتسبيح ، المشاهدين مقام جلال الله عليهم وآثار كبريائه جل وعلا ، ونصره وعزّته سبحانه ، حتى إذا انتهيت إلى مقام ما ، فانتبه منه إلى ما هو أرقى منه ، وهذا يقتضي منك الاستغفار على ما كنت فيه من مقام ، ولذلك قال سبحانه :

{ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ} يعني أن التسبيح والاستغفار متلازمان لا ينفكّان عن السالك في مقامات القرب من رب العالمين ، فهو ما بين مشاهد ومستغرق ومنتبه ، فلا يغفل عن حكم نشأته ولا يلهو عن سر حكمته - أي حكمة إيجاد الله له -

وقد جاء في الحديث عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت :
كان النبي صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده :

[سبحانك اللهم ربنا وبحمدك ، اللهم اغفر لي] يتأوّل القرآن [1]

وفي مصنف عبد الرزاق : يتأول القرآن يعني :{ إذا جاء نصر الله والفتح }

وأما قوله تعالى :

{ وسبح بحمد ربك حين تقوم }

[1] كما في صحيح البخاري كتاب الأذان وصحيح مسلم كتاب الصلاة

فقد جاء أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا قام من الليل واستفتح صلاته وكبّر قال : سبحانك اللهم وبحمدك .... الحديث [1]

وكان صلى الله عليه وسلم إذا قام من المجلس قال :

[سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك] [2]

لكن الأعمّ والأشمل من ذلك أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا قام من مقام إلى مقام ، وارتقى من حال إلى حال ، سبّح الله جل وعلا - أي نزّهه - لأنه مهما علم عن الله وعرف وشاهد وارتقى فهو صلى الله عليه وسلم يدرك أنه عاجز عن التحقق بقوله تعالى :
{ وما قدروا الله حق قدره }

وذلك مصداقاً لقوله صلى الله عليه وسلم : [لا أحصي ثناء عليك] [3]

أي أنت يا رب كما أثنينا وفوق ما أثنينا ، وأنت يا رب كما حمدنا وسبّحنا وكبّرنا وفوق ما حمدنا وسبّحنا وكبّرنا على وجه لا يتناهى .
قال تعالى :{ وكبّره تكبيراً }

وهذا ما يعرف عند أهل الله بمقام (القومة) [4] أو (الصحوة) أو (الانتباه) أو (اليقظة) ولا تفهم من ذلك دوماً أنها تكون ناتجة عن غفلة مذمومة ،

---

[1] طرف حديث في المسند ١١٠٤٧ وسنن أبي داود كتاب الصلاة
[2] انظره في المسند ١٨٩٧٣ وسنن أبي داود كتاب الأدب
[3] طرف حديث في صحيح مسلم كتاب الصلاة
[4] ودليلهم فيه قوله تعالى { قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ } أي قل لهم يا محمد : إنما أعظكم بواحدة ، أي بكلمة واحدة جامعة لكلمات عديدة نافعة ، فقد يراد من الكلمة كلمات ، كما تقول : أريد أن ألقي عليكم كلمة ،أي كلمات جامعة .
وكما قال ابن مالك رحمه الله : وكلمة بها كلام قد يُؤمّ - أي : يُقصد - .
ثم بيّن سبحانه ما هي هذه الكلمة فقال :{ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ }أي أن تنتبهوا من رقدتكم وتستيقظوا من غفلتكم ، لأنك لا يمكن أن تكلم الوسنان أو الغافل إلا بعد أن توقظه أو تنبهه لتستجلب مداركه إليك { مَثْنَى وَفُرَادَى } أي تتذكروا ما في أنفسكم ، ويذكّر بعضكم بعضاً ، وينتبه أحدكم في نفسه ، وينبه الآخر ، ويعظ نفسه ، ويعظ الآخر وهكذا ، ثم بيّن النتيجة بعد اليقظة والانتباه ما هي ، قال تعالى :{ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ }أي أن تتفكروا في شأن وأمر رسول الله الذي أرسله الله فيكم ،

بل قد تكون ناتجة عن استغراق في المشاهدة ، فإذا انتبه الإنسان منها وصحا واستيقظ سبّح وكبّر ، لأنه مهما عرف عن الله فإن الله تعالى أجل وأعظم .

ومن ذلك مثلاً قوله تعالى :

{ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ }

أي دائماً في حال طاعتكم له جل وعلا كونوا قانتين طائعين خاشعين مشاهدين ، وهكذا في حال قيامكم لطاعته سبحانه ، وليس المراد القيام على الأرجل فقط .

وقال تعالى :{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ }
أي دائماً في مقام الصحو واليقظة والانتباه لأوامر الله تعالى ومواعظه وتذكيره [1]

وقد امتدح الله تعالى أصحاب الكهف حيث أخبر عن انتباههم من غفلتهم واستيقاظهم من رقدتهم ، فقاموا منكرين على قومهم الشرك وقول الباطل قال تعالى :

{ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا } أي انتبهوا فقالوا

{ رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا } أي كما ادعى قومنا { لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا } أي أننا لو ادعينا كما ادعى قومنا أن مع الله إلهاً آخر فقد قلنا قولاً باطلاً وافترينا كذباً .

وما جاء به من عند الله ، هل يُعقل في الفكر أن يكون هذا الإنسان العظيم مجنوناً أو ساحراً أوشاعراً أو كاهناً ؟!! ...
وقد قامت الأدلة على نبوته ورسالته صلى الله عليه وسلم في آيات الله التدوينية المتلوة والمعجزات الكونية المذكورة في القرآن ، فلمَ لا تعترفون بالحق وتقولون إنه رسول الله حقاً ؟ كما قال تعالى:{ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ }

[1] ويلزم من الانتباه واليقظة : محاسبة النفس ، ثم التوبة العامة ، ثم يترقى في مراتب تقوى القلوب والقوالب بأنواعها (انظر تفسير الرازي والخازن للآية الكريمة)

لأن تسبيح وتحميد وتكبير العبد لله تعالى يكون على قدر علمه ومعرفته بربه ، وملاحظته أسمائه جل وعلا وآثارها في خلقه ، ولذلك يجب على العبد إذا سبّح وحمد وكبّر أن يلاحظ أنه يسبح الله بما سبّح هو به نفسه ، وبما حمد هو به نفسه تبارك وتعالى ، وبما كبّر هو به نفسه جل وعلا ، وهكذا ، لأن العبد مهما عرف وعرف من أسماء الله تعالى وكمالاته لا يمكنه إدراك شيء منها لأنه عبد مُتناهٍ ، وكيف يحيط المتناهي بمن لا يتناهى ؟ !

ولذلك ما سبّح الله على الحقيقة إلا هو جل وعلا ، وما حمد الله تعالى على الحقيقة إلا هو وهذا معنى قولهم :

(تسبيحه إياه تسبيح ، وتحميده إياه تحميد) .

وهذا هو المطلوب من العبد ، وهو أن يعترف بعجزه عن القيام بحق الله تعالى عليه .

ويرحم الله القائل :

إِذا نَحنُ أَثنَينا عَلَيكَ بِصالِحٍ فَأَنتَ كَما نُثني وَفَوقَ الَّذي نُثني

وهذا بيان لما جاء عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في دعائه :

(ولا يبلغ مدحتَك قولُ قائل) [1]

وإن ملاحظة هذا المقام على الدوام تحتاج إلى أعلى مراتب اليقظة والمشاهدة ، والغفلة عنها تحتاج إلى استغفار ، فيا ليت شعري مِن مقام لا يمكن أن يتحقق به الأبرارعلى أكمل وجوهه ، ولكن اعترافهم بالعجزعن التحقق به مع دأبهم عليه هو من أكبر حسناتهم ، ولو غفل عنه المقربون لكان ذنباً في حقهم .

ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم :

[إنه ليُغان على قلبي وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة] [1]

---

[1] طرف حديث في مسند أبي يعلى

والغين هو الغيم الرقيق ، وكما قالوا : (هو غين أنوار لا غين أكدار) إذ لا شيء يكدّر صفاءه صلى الله عليه وسلم ، وإنما غين الأنوار الرقيق يزيد العبد مشاهدة واستغراقاً ، لأن النور قاهر باهر لابد له من حجاب يلطِّفه ، ألا ترى إلى نور الشمس المخلوقة المحسوسة فإنك تثبت ذاتها ولكنك تحار في رؤيتها ، وحيرتك تسمى : حيرة إثبات ، لا حيرة شك في وجودها ، أي أنك لا تستطيع إمعان النظر فيها إلا لثوان معدودة ، فما الذي حجبها عن رؤيتك لها ؟ نعم إنه نورها ، فإذا كان هذا في المخلوق الذي خلقه الله تعالى وأمدّه بالنور والظهور ، فما ظنك - ولله المثل الأعلى - ما ظنك بالله جل وعلا الذي هو نور الأنوار والذي أظهر الظاهرات ؟!

وقد جاء في الحديث أن الله تعالى : (حجابه النور) [٢]

فإذا انتبه العبد المؤمن المشاهد ، انتبه من استغراقه ، تراه يستغفر الله لأنه استغفار من باب الاستغفار وراء الطاعات ، ولكي يتبرأ من أي خاطر لا يليق بالله تعالى ربما خطر له أثناء استغراقه .

حتى قال سيدي ابن الفارض رضي الله عنه [٣] :

ولم ألهُ باللاهوت عن حكم مظهري ولم أنْسَ بالناسوت مظهر حكمتي

واللاهوت : الروحانية القائمة في الإنسان ، والناسوت : البشرية القائمة في الإنسان ، أي : جسمه البشري ، ويعني أن المقام الذي تغلب فيه عليه الروحانية لا يلهيه عن وظائف العبودية ، كما أنه لم ينس بناسوته أي بشريته مظهر الحكمة في إيجاده المشار إليه بقوله تعالى :
{ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون }

---

[١] انظر المسند ١٧٥٧٥ وصحيح مسلم كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار واللفظ له

[٢] طرف حديث في المسند ١٨٨٠٦ وصحيح مسلم كتاب الإيمان

[٣] هو سيدي عمر بن علي بن مرشد بن علي الحموي الأصل، المصري المولد والدار والوفاة، أبو حفص وأبو القاسم، شرف الدين الملقب بـ (سلطان العاشقين) وقد توفي سنة ٦٣٢ هـ رضي الله عنه ونفعنا به .

فكلمة اللاهوت تشير إلى عالم الملكوت ، قال تعالى :

{ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ }

أي بيده سرّ قوام كل شيء ، ويشمل عالم الأرواح ، وأما الناسوت فهو إشارة إلى عالم الملك ، وهو عالم المادة ، ويشمل الأجسام الإنسانية وغيرها ، قال تعالى : { تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ } فملك كل شيء وملكوته بيد الله تعالى ، فالجسم الإنساني تابع لعالم الملك ، والروح الإنساني القائمة فيه تابعة لعالم الملكوت ، والروح تميل للسمو والعلو والصفاء والارتقاء ، والجسم المادي يميل إلى الخلود إلى الأرض وتعاطي الملذات المادية الحسية .

فسيدي ابن الفارض رضي الله عنه يبين أنه لا يرجح مطلوب شيء على شيء ، فقد قام بحق روحه بتلطيف الجسم البشري المادي الكثيف بعبادة الله تعالى ، فإنه وإن أتعب جسمه ظاهراً فهذا التعب فيه نعيم للروح على الحقيقة ، وقد أعطى جسمه حقه من الراحة و النوم والطعام والشراب على الوجه الذي شرعه الله له ، قال تعالى : { وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ } أي في كل ما آتاك من قوة ومال وجاه {وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا } وكأن نصيب المؤمن من الدنيا أمر يجب أن يكون منسياً عنده ، فجاءت الآية تذكّره به لإعطاء كل ذي حق حقه ومن ذلك الجسم والولد وهكذا .

فالقول : (حسنات الأبرار سيئات المقربين)

أي : ما كان عند الأبرار حسناً وما يراه الأبرار حسناً وما يفعله الأبرار من الحسنات فإنه عند المقربين سيئ لو فعلوه ، وذلك بالنسبة لمقامهم ، إذ إن هناك الحسن والأحسن ، والفاضل والأفضل ، قال تعالى :
{ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ }
ومن ذلك مثلاً مقام المشاهدة القلبية لأنوار الله وأسراره ، فهو أحسن وأرقى من مقام المراقبة ، ففي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم لما سئل عن الإحسان قال :

[أن تعبد الله كأنك تراه]

- وفي رواية : [أن تخشى الله كأنك تراه]-

[فإن لم تكن تراه فإنه يراك] [1]

أي حال العبادة وأثناءها وفي كل حين ، فإن لم تكن تراه فإنه سبحانه يراك ، فراقب رقابته عليك ، والمعنى : أن تخشى الله مشاهداً له بقلبك كأنك تراه بعينك ، فإن لم تكن تقدر على ذلك فكن من أهل المراقبة فإنه سبحانه يراك .

وفي الحديث : [سددوا وقاربوا] [2] ، فالسداد إصابة الهدف وهو الأحسن ، ومن لم يستطع فليقارب من الهدف ولا يبتعد لعله يصيبه وهكذا ، والكلام في هذا واسع له موضعه إن شاء الله تعالى .

والأبرار جمع بَرّ وبارّ وهو الذي تحقق بشعب الإيمان كلها الاعتقادية والعملية والقولية والخلقية والأدبية ، بدليل قوله تعالى :

{ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ }

فذكر سبحانه أصول الإيمان ومجامعه ، والبرّ - بكسر الباء - هو الخير الكثير المتنوع ، ويطلق على الإيمان لأن الإيمان لا يأتي إلا بخير .

واعلم أن المؤمن لا يدخل الجنة حتى يتحقق بشعب الإيمان كلها ، ففي الحديث :

[والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا]

---

[1] طرف حديث في صحيح مسلم كتاب الإيمان

[2] طرف حديث رواه البخاري في صحيحه كتاب الرقاق وصحيح مسلم كتاب صفة القيامة والجنة والنار عن أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله تعالى عنها

ـ أي وكأنهم قالوا : نحن مؤمنون اعتقاداً وأفعالاً ، فقال صلى الله عليه وسلم : [ولا تؤمنوا] أي ولا يكمل إيمانكم [حتى تحابّوا ، أفلا أدلكم على أمر إذا فعلتموه تحاببتم ؟ أَفْشُوا السلام بينكم] [1]

يعني أن المؤمن لا يدخل الجنة حتى يحب كل مؤمن لإيمانه ويُقْبل عليه بالسلام وإلا فأمره موقوف .

والبرّ مأخوذ من البرّ يدل على السعة والانتشار ، فالمؤمن البار ملأ البر أعمالاً صالحة وأقوالاً طيبة ، وأما المقرب فزاد على البر فملأ البر والبحر أعمالاً وأقوالاً صالحة وطيبة ، قال تعالى :

{ والسابقون السابقون * أولئك المقربون }

أي والسابقون في الدنيا بأعمال صالحة هم السابقون في الآخرة إلى الجنة ، وهم المقربون من حضرة رب العالمين ، فلما أقبلوا إليه تلقّاهم ، ولما تقربوا منه قرّبهم أضعاف ما تقرّبوا به ، فهم سبقوا الأبرار وسارعوا إلى الخيرات ، قال تعالى :
{ أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون }
وفي الحديث قال صلى الله عليه وسلم لمعاذ : ألا أدلك على أبواب الخير ؟ [2]

وذكر له صلى الله عليه وسلم من النوافل زيادة على الفرائض .

ـ وانظر تفاصيل ذلك في كتاب التقرب إلى الله تعالى لمولانا الوالد رضي الله تعالى عنه ـ .

وأما الحسنة فقد تطلق على الفعلة إذا كانت موافقة للشريعة فيقال مثلاً : هذه فعلة حسنة وهذه قولة حسنة وهذا عمل حسن

قال تعالى : { ليبلوكم أيكم أحسن عملاً }

وقد تطلق على حالة الإنسان فيقال : فلان حالته حسنة وهكذا

---

[1] رواه الإمام ابو داود في سننه كتاب الأدب واللفظ له وهو في صحيح مسلم كتاب الإيمان عن أبي هريرة رضي الله عنه
[2] طرف حديث في سنن الترمذي كتاب الإيمان وسنن ابن ماجه كتاب الفتن

قال تعالى :{ ربنا آتنا في الدنيا حسنة }أي آتنا حسنة الدنيا ، أي ما يحسن به حالنا في الدنيا ، ومنه المال الطيب الحلال والزوجة الصالحة والدار الواسعة والولد البار والجار الصالح والمركوب الجيد وغيره .
{ وفي الآخرة حسنة } أي ما يحسن به حالنا في الآخرة ويشمل ذلك نعيم القبر مروراً ببرازخ الآخرة حتى دخول الجنة بسلام دون أن يمسنا مكروه أو سوء .
{ وقنا عذاب النار } أي أدخلنا الجنة يا رب بسلام ، ونجّنا من النار بأن لا نقع في ذنب نُعذّب به في النار ، بل اغفر لنا ما كان منا .

ويضادّ الحسنة السيئة ، وتطلق السيئة على كل ما يُساء به الإنسان كشدّة وهول ونحوه .

وقد يراد من الحسنة والسيئة تلك التي توضع في موازين العبد يوم القيامة وهي تترتب عن فعل أعمال صالحة وأقوال طيبة جاءت أحاديث بذكرها كما أن السيئة تترتب عن فعل أعمال نهى الله ورسوله صلى الله عليه وسلم عنها

ومن ذلك مثلاً :(كتب الله له عشر حسنات ومحا عنه عشر سيئات) [١]
وهذه الحسنات والسيئات هي التي يجري التقاضي بها يوم القيامة بين العباد كما في الحديث الذي رواه مسلم وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
[أتدرون من المفلس] ؟
قالوا : المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع ، فقال صلى الله عليه وسلم :
[إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ، ويأتي قد شتم هذا ، وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا ، فيُعطى هذا من حسناته ، وهذا من حسناته ، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه أخذ من خطاياهم ، فطُرحت عليه ثم طُرح في النار] [٢]

---

[١] ومنه الحديث الذي رواه الإمام أحمد في مسنده عن أبي طلحة الأنصاري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
[أتاني آت من ربي عز وجل فقال : من صلى عليك من أمتك صلاة كتب الله له عشر حسنات ومحا عنه عشر سيئات ورفع له عشر درجات وردّ عليه مثلها] .
[٢] انظر صحيح مسلم كتاب البر والصلة والآداب والمسند ٧٦٨٦

وفي الحديث : [إياكم والحسد ، فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب] ، أو قال : [العشب] [1]

وغيرها من أحاديث كثيرة .

واعلم أن الأبرار على مراتب كما أن المقربين على مراتب ودرجات لأن أعمالهم تتفاضل ، فدرجاتهم ومقاماتهم في الجنة تتفاضل .

وروى الشيخان عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

[إن أهل الجنة] - أي المؤمنين الكمّل وهم الأبرار أيضاً أصحاب اليمين – [يتراءون أهل الغُرف] - أي أصحاب المنازل العالية وهم المقربون - [مِن فوقهم كما تتراءون الكوكب الدريّ الغابر في الأفق من المشرق أو المغرب ، لتفاضل ما بينهم] ، قالوا : يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم

قال : [بلى ، والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين]

[1] رواه الإمام أبو داود في سننه في كتاب الأدب عن أبي هريرة رضي الله عنه واللفظ له ، ورواه ابن ماجه في سننه في كتاب الزهد عن أنس بن مالك رضي الله عنه

توقف الشيخ الإمام عن التدريس واعتزاله الناس وانشغاله بعبادة الله تعالى وتأليف الكتب العلمية الشرعية :

كان ذلك في أواخر عام ١٤٠٩ للهجرة النبوية الشريفة ، حيث وهن جسمه المبارك على أثر ألم اعتراه في ظهره ، وكان كلما وجد في نفسه نشاطاً همّ بالذهاب إلى المدرسة الشعبانية لتفقد إدارتها وأساتذتها وطلابها وإملاء توجيهاته وإفاضة توجهاته عليهم .
وقد يتمكن أحياناً من الذهاب ، وقد يعدل عنه أحياناً ..
وكذلك الحال في تدريسه في الجامع الأموي الكبير .
إلى أن توقف عنه تماماً بعد أن تلقى إشارات غيبية ورؤى منامية توحي بذلك :
ومنها أنه رأى نفسه يريد الدخول إلى الجامع الأموي الكبير للتدريس من الباب الشرقي ، بخلاف عادته في اليقظة ، حيث كان يدخل من الباب الجنوبي .
قال رضي الله عنه :
فلما دنوت من باب المسجد رأيت سيدنا أبا بكر الصديق رضي الله عنه يخرج من باب المسجد ، فتقدمت منه وسلّمت عليه وعانقته ، ونحن قرب الباب من الخارج ، ثم مشى بي . اهـ .
قلت : وكان شيخنا الإمام رضي الله عنه كثير الرؤى لسيدنا أبي بكر رضي الله عنه ، خاصة أنه كان واسطة دخوله إلى حضرة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم كما جاء ذكر ذلك في موضعه من هذا الكتاب .
وقد سبق تلك الرؤيا أن رأى في المنام كما قص علينا أنه توجه إلى درس الجامع الأموي الكبير كعادته بعد كل صلاة ظهر من كل يوم اثنين ، ودخل باب المسجد من الجهة الشمالية ، ثم توجه نحو غرب المسجد ليمشي تحت الأروقة - وهذه كانت عادته دائماً - ، حتى إذا انتهى إلى القبلية دخلها ، وصلى تحية المسجد ، ثم التفت إلى طرف سدة التدريس وتوجه إليها ليفتتح درسه .
قال مولانا الوالد رضي الله عنه : فلما مررت بالأروقة وأنا في سيري إلى القبلية رأيت جمعاً يُخلّون بآداب المسجد وينتهكون حرمته ، ومنهم من يعصي الله ، وفي الرواق الثاني كذلك ، ثم رأيت خراباً في الأروقة الأخرى ، فقلت في نفسي :
إن حالة المسجد بمن فيه غير مهيأة لأن أدرّس فيه الآن ، فرجعت . اهـ

فلما أفاق أخبر بذلك ، وعلم أن هناك ترميماً وصيانة وإصلاحاً لبنيان المسجد وأرضه وأعمدته سيجري عليه لضرورته ، وأن هناك من يسيئون إلى المسجد وسيصرفهم الله عنه ، وهذا من كرامات الشيخ رضي الله عنه إذ لم تمض فترة إلا واتخذت الجهات الرسمية المسؤولة عن المساجد وصيانتها اتخذت قراراً بترميم المسجد وصيانته ، وأُغلق باب المسجد عن التدريس فيه إلا أوقات الصلاة المفروضة ، وكانت الصلاة تؤدى في مكان يسمى : الحجازية ، ثم افتتح المسجد ليظهر في أجمل حلة وأحسن بنيان والحمد لله .

وقد كان الشيخ الإمام رضي الله عنه لا يُقدم على أمر ذي بال [1] إلا بإذن من سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم كما صرّح بذلك في أكثر من مناسبة . فلم يكن أمر اعتزاله التدريس أمراً كيفياً ، أو إرضاء لحظ نفساني ، بل هو أمر مُحكم انطوت فيه حكم وأسرار ، انكشف بعضها فيما بعد ، كما صرح بذلك جمهرة من أهل التقى والصفاء وقتئذ .

فلزم رضي الله عنه البيت واعتزل فيه لأمر يريده الله تعالى ، وعكف على جمع وتصنيف الكتب العلمية الدينية ، وفيها ما يحتاجه الناس لفهم أمور دينهم ، وكان كلما فرغ من كتاب تواردت عليه بشائر الرضا والقبول من جناب سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم كما ذكرت ذلك في موضعه .

هذا ونسأل الله تعالى التوفيق لطبع ونشر ما مكنني الله تعالى من الحصول عليه من دروس ورّثها الشيخ الإمام رحمه الله تعالى لمن بعده ، سواء كانت مسجّلة أو مدوّنة أو مسموعة لتعم الفائدة ، وتنتشر تعاليمه بين المؤمنين إلى يوم الدين اللهم آمين .

---

[1] قال في لسان العرب : (أمر ذُو بال) أي : شريف يحتفل له ويهتم به .

مؤلفاته العلمية : ميزاتها - خصائصها

بلغ عدد الكتب التي صنفها الشيخ الإمام رضي الله عنه والآثار العلمية التي خلّفها لمن بعده بلغ ستة وثلاثين كتاباً في شتى العلوم الدينية ، وقد أعاد تنسيق وتقديم أوراد السادة الرفاعية المعروف بـ : (السير والمساعي) ، و رسالة : (حزب الفرج) [1]ويليها (ورد السحر) للعارف البكري [2]

وقد تميزت كتبه رضي الله عنه بسهولة العبارة وعذوبة الكلمة ، ويأتي على ذكر ما أراده من قضايا علمية وشرعية دون مقدمة مملة أو إسهاب مُخِلّ قد يشتت فكر القارئ .

وكان هذا منه رضي الله عنه ليتيح المجال لكافة الناس لقراءة كتبه ، وإن اختلفت درجاتهم في العلم والفهم .

وكان يقول : إن الغاية من ذلك أن يفهم القارئ وينتفع بما يقرأ ، لينال الأجر من الله تعالى ، ولو أني تكلّفت في صياغة العبارة لاقتصر فهم القارئين كتبي على طلاب العلم فقط ، ولم تَعُمّ الفائدة غيرهم من عامة الناس ، وليس هذا مرادي وقصدي من كتبي ، بل الغاية والمقصود هو عموم النفع والفائدة لكل قارئ ، وكلٌّ يفهم على حسب علمه واطلاعه .

كما تميزت كتبه رضي الله عنه بكثرة الأدلة والشواهد من كتاب الله تعالى ، وأحاديث رسوله صلى الله عليه وسلم ، ويقول رضي الله عنه في ذلك :

فعلتُ ذلك حتى يطّلع الناس على آيات الله تعالى وأحاديث رسوله صلى الله عليه وسلم ، فيزدادوا إيماناً وعلماً ، وحتى تقوى حجّة القارئ من طلاب العلم .

ويقول : إن العلم النافع هو العلم بكتاب الله تعالى وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما فهمه الصحابة رضي الله عنهم من ذلك ، ثم جاء العلماء رضي الله عنهم ونقلوا ذلك وبينوه .

ويردد في هذا السياق أبيات الإمام الشافعي رضي الله عنه :

---

[1] حزب الفرج للإمام الهمام السيد النسيب الحسيب القطب الأكبر والغوث الأشهر لاثِمِ يد النبي الأعظم صلى الله عليه وعلى آله وسلم شيخ الطائفتين أبي العلمين الشيخ أحمد محيي الدين الحسيني الرفاعي رضي الله تعالى عنه وعنا به ونفعنا الله تعالى به ... آمين

(وهذا ما كتبه سيدنا الشيخ الإمام في مقدمة رسالة حزب الفرج بحروفه)

[2] سيدي مصطفى بن كمال الدين بن علي بن كمال الدين بن محيي الدين بن عبد القادر الصديقي الحنفي الدمشقي البكري المتوفى سنة ١١٦٢ هـ والمدفون في تربة المجاورين في القاهرة رحمه الله ورضي عنه ورضي عنا به .

العلم قال الله قال رسوله قال الصحابي ، ليس خُلْف فيه
وقال أيضاً :
كُلُّ العُلومِ سِوى القُرآنِ مَشغَلَةٌ إلّا الحَديثَ وَعِلمَ الفِقهِ في الدينِ
العِلمُ ما كانَ فيهِ قالَ حَدَّثَنا وَما سِوى ذاكَ وَسواسُ الشَياطينِ

وكان يقول : إني دائماً أسأل الله تعالى أن يجعل في كتبي نوراً محمدياً ربانياً يجده القارئ في قلبه ، فيزداد هدى ونفعاً وصلاحاً وعلماً .

وكان كلما فرغ من جمع كتاب جاءته البشائر والمكرمات من الله تعالى ، ونال من العطايا والنفحات المحمدية المتواصلة ما يجعله يترقى في مقامات القرب والمحبة .

وسأذكر الكتب حسب تسلسلها في الظهور :

١- كتاب : (سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم شمائله الحميدة ، خصاله المجيدة) :

وهو كتاب نفيس جامع في بيان صفة خلق النبي صلى الله عليه وسلم ، وبيان خصائص تلك الخِلقة المحمدية العظيمة ، على وجه مفصل ومرتّب ومنقّح .

وفيه - تحت بيان فصاحة النبي صلى الله عليه وسلم - أربعون حديثاً شريفاً من جوامع كَلِمِه عليه الصلاة والسلام ، ويتبعه بيان واسع لأرجحية عقله الشريف على سائر العقول البشرية ، ثم فصل مسْهب في سعة علمه وكثرة علومه صلى الله عليه وسلم - كله من الأحاديث النبوية ، وأقوال الصحابة رضي الله عنهم .

ثم عرض لبيان أخلاقه العظيمة الرفيعة على وجه التفصيل لكل خصلة خُلُقية ، في خاصة نفسه عليه الصلاة والسلام ، ومع أهله وذويه الكرام ، وأصحابه الكرام جميعهم على مختلف طبقاتهم ، وفيه سرد حديث هند بن أبي هالة رضي الله عنه بطوله ، مع ضبط ألفاظه وشرحها .

ثم عرض لعباداته صلى الله عليه وسلم ، وبيان المنهج القويم الذي رسمه صلى الله عليه وسلم للعابدين ، ومِن ذلك بيان مفصل لطريقته صلى الله عليه وسلم في قيام الليل ، وصلاة الضحى ، ودعائه ، ونحو ذلك .

ثم فيه الكلام عن نسبه الشريف صلى الله عليه وسلم ، ومولده صلى الله عليه وسلم ، وعجائب المولد ، ومشروعية الاحتفال بالمولد ، وطرف يسير من السيرة ، والحديث عن أهله وأولاده الكرام صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم .

وفيه بحث علمي نفيس ممتع محقّق عن معنى الضلال في قوله تعالى :
{ ووجدك ضالاً فهدى } ، وبيان حفظ الله تعالى للنبي صلى الله عليه وسلم من الخطأ والباطل في جميع أحواله ، والكلام عن عصمة النبي صلى الله عليه وسلم في الاجتهاد ، والجواب عما يوهم خلاف ذلك ، كقضية أسرى بدر وتأبير النخل من وجوه متعددة .

وجاء في ختام الكتاب سرد آثار عن السلف لا توجد في غيره ، فيها تبرّك الصحابة والتابعين بأجزائه الشريفة عليه الصلاة والسلام ، وآثاره وثيابه وموضع جلوسه ، وغير ذلك مما لمسه صلى الله عليه وسلم .

ثم بيان محبة أصحابه له صلى الله عليه وسلم ، وذكر شواهد ذلك من سيرهم العطرة الزكية

وقد اكتسب هذا الكتاب طابعاً متميزاً في قلوب المؤمنين ، وشاع وانتشر لِما في موضوعه من أهمية ومكانة عظيمة في قلب كل مؤمن ، إذ إن إيمان كل مؤمن يحتّم عليه أن يتعرف على شمائل سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلى خصاله وخصائصه التي خصّه الله تعالى بها حتى يزداد محبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ويصح إيمانه ويرتقي في مراتب أهل الإيمان الكامل .

ومن هنا كان الشيخ الإمام رضي الله عنه يقول :
(يجب على كل مؤمن أن يقرأ هذا الكتاب وأن يكون موجوداً في كل بيت)
وكان يحرص كثيراً على نشره في البلاد ليتسنى للناس قراءته ، ويعرفوا سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بخصائصه وسجاياه كما أرسله الله تعالى ، ويؤمنوا به إيماناً صحيحاً تاماً كاملاً .

ومهما عرف الإنسان وبحث في فضائله وخصائصه صلى الله عليه وسلم فإن أمره صلى الله عليه وسلم أعظم وأكبر،على حد ما قال سيدي ابن الفارض رضي الله عنه :

وعلى تفنن واصفيه بمدحه　　　يفنى الزمان وفيه ما لم يوصف

وإلى ذلك أشار أيضاً رضي الله عنه بقوله :

أرى كل مدح بالنبي مقصّراً　　　وإن سطّرت كل البرية أسطرا
فما أحدٌ يحصي فضائل أحمد　　　وإن بالغ المثني عليه وأكثرا
إذا الله أثنى بالذي هو أهله　　　كفاه بذا فضلاً من الله أكبرا
وفي سورة الأحزاب صلّى بنفسه　　　عليه فما مقدار ما تمدح الورى

وكان الشيخ الإمام رضي الله عنه كثيراً ما يسأل الأستاذ الفاضل الشيخ : محمد علي الإدلبي - المشرف على طباعة كتب الشيخ الإمام رضي الله عنه وقتئذ - كثيراً ما يسأله : أيّ كتبي أشد سؤالاً عنه وأكثر طلباً له ؟

فيسر ويفرح غاية الفرح لمّا يعلم أنه كتاب :(سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم) ويحمد الله تعالى ويسأله الزيادة والتوفيق .
ومن هنا فقد كان الشيخ الإمام رضي الله عنه يحب أن تُجمع التصانيف في شمائل سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وخصاله وأخلاقه وسيرته الزكية ، ويثني ويمدح جامعيها .
ومن ذلك لما جمع الشيخ رشيد الراشد التادفي الحلبي [١] كتاباً سماه :
(الدّر المنظّم في وجوب محبة السيد الأعظم صلى الله عليه وسلم)
وكان ذلك عام ١٣٦١ هـ ، عَرَضه على مولانا الإمام رضي الله عنه فقرّظ له الكتاب بالكلمات التالية : - ولم يقرّظ لأحد سواه كتابة -
بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله حمداً ليس له عَدّ ولا إحصاء ، والشكر لله شكراً لا حدّ له ولا استقصاء ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، الحكيم الفعال لما يشاء ، وأشهد أن سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم عبده ورسوله إمام الرسل والأنبياء ، وأصلّي وأسلم على من خُلِقَتْ من نوره جميع الأشياء ، وعلى آله وأصحابه البررة الأصفياء ، صلاة وسلاماً عدد ما أظلّت الخضراء وأقلّت الغبراء ، في كل لمحة ونفس ما دامت الأرض والسماء .
وبعد : فقد اطلعت على كتاب
(الدر المنظم في وجوب محبة السيد الأعظم) صلى الله عليه وسلم فرأيت فيه نوراً محمدياً باهراً ، وضياء نبوياً زاهراً ، تتجلى فيه أوصافه صلى الله عليه وسلم الكاملة وأخلاقه الزكية العالية ، وهو كتاب يُلهب الشوق في قلوب المشتاقين ، ثم ينعشها بروح رياح تلك الرياحين ، يزداد به الذين اهتدوا هدى ، ويقيم الحجة على أهل البدعة والردى ، موضوعه : البحث في الذات المحمدية ، وما اتصفت به من الصفات السَّنِية ، قد اغترف جامعه من بحور العارفين الزاخرة وأبحر العلماء الوافرة ، فالتقى البحران بحر العلم وبحر العرفان ، والله تعالى أسأل وبأفضل أنبيائه أتوسل أن يجزي جامعه خيراً كثيراً وأجراً كبيراً والحمد لله رب العالمين
الفقير لمولاه : عبد الله سراج الدين

[١] الشيخ المعمر المحب الصالح أبو البهاء رشيد الراشد التادفي الحلبي الشافعي النقشبندي ، ولد في تادف وهي بلدة من أعمال حلب ، عاش أكثر من مئة عام ، توفي سنة ١٤٠٩ هـ ودفن في المقبرة الوقفية التابعة لجامع العثمانية بحلب رحمه الله رحمة واسعة .

وكان من عادة الشيخ الإمام رضي الله عنه أنه إذا كان بصدد جمع كتاب وأشرف على الفراغ منه يحدّث أحبابه عن مضمون الكتاب ، خاصة أن لهذا الكتاب - كتاب الشمائل - وقعاً عظيماً في نفسه وأثراً كبيراً نافعاً لكل مؤمن .

وحصل مرة أن زاره بعض المدرسين الجامعيين ، ومنهم من يحمل الشهادة المعروفة بـ (الدكتوراه) في علوم الشريعة ، وجعل مولانا الوالد رضي الله عنه يحدّثهم عن عمله في الكتاب ، وكيف توالت عليه البشائر والنفحات المحمدية أثناء جمعه له ، وأنه سيجعل عنوانه :

(سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم)

فلما توقف الشيخ عن الكلام انتبر أحد الحاضرين - وكان حاملاً لشهادة الدكتوراه في علوم الشريعة - وقال لمولانا الوالد : حبذا لو اقتصرتم في عنوان الكتاب على : (محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم) دون الإتيان بذكر لفظ (سيدنا) ، وذلك ليعم انتشاره في جميع البلاد ولدى مختلف طبقات الناس !!

فرفع الشيخ الإمام رأسه ، وغضب من كلامه ، واحمر وارتفع صوته وقال : ولمَ أفعل ذلك ؟ وكيف أجرؤ على ذلك ، وإيماننا وديننا أنه صلى الله عليه وسلم هو سيدنا وإمامنا ؟ !!!

أفلا نَصِفه بما وصف به لنا نفسه صلى الله عليه وسلم ؟ !

أوَلسنا مكلَّفين أن نعظمه ونوقره صلى الله عليه وسلم ؟

ألم يقل الله تعالى : { لتعزروه وتوقروه } أي تعظّموه وتفخِّموه [1]

هذا مذهبي لا أحيد عنه ، وليَقْبل الكتاب من شاء ، وليُعرض من شاء ، فإن الآخرة موعدنا وموعد هؤلاء مع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم . اهـ .

قلت : فانظر في كلام الشيخ رضي الله عنه وتأمّل :

ألم يقل صلى الله عليه وسلم :

[أنا أكرم الأولين والآخرين على الله] [2]

فقد أعلمَ صلى الله عليه وسلم وأعلن ذلك للصحابة ومَن بعدهم ، تحقيقاً لقوله تعالى : { وأما بنعمة ربك فحدث } ، فما الحظر الشرعي إذا قلنا : الصلاة والسلام عليك يا أكرم الأولين والآخرين ؟

---

[1] انظر تفسير الإمام القرطبي للآية الكريمة

[2] طرف حديث في سنن الدارمي في المقدمة

أو قلنا : أكرم الأولين والآخرين على الله سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟
ولما قال صلى الله عليه وسلم : [أنا حبيب الله] [1]
قلنا : محمد رسول الله حبيب الله ، وقلنا : الصلاة والسلام عليك يا حبيب الله ، فما الحظر الشرعي من ذلك ؟
ولما قال صلى الله عليه وسلم :
[والله إني لأعلمكم بالله عز وجل وأخْشاكم له] [2]
قلنا : أتقى خلق الله وأعلمهم بالله سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقلنا : اللهم صل على أتقى خلقك لك وأعلمهم بك ، فما المانع من ذلك ؟
وكذلك قال صلى الله عليه وسلم : [أنا محمد ، و أحمد ، ونبي الرحمة ، ونبي التوبة ، والحاشر ، والمُقفّي ، ونبي الملاحم] [3]
وكذلك قال صلى الله عليه وسلم : أنا سيد ولد آدم [4]
فقلنا : سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم سيد ولد آدم
فما وجه الحظر الشرعي إذا أطلقتَ على النبي صلى الله عليه وسلم وصفاً وصف به نفسه صلى الله عليه وسلم فقلتَ : (سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم) ، أي : سيد ولد آدم كلهم ، فإن كنت من ولد آدم فقد دخلت في حضرة سيادته عليك شئت أم أبيت ، اعترفت أم أنكرت ، وإن لم تكن من ولد آدم ، من الجن أو من عالم آخر فلم تخرج عن سيادته عليك أيضاً لأن الله تعالى كرّم بني آدم على سائر المخلوقات .
وإن قوله صلى الله عليه وسلم : [أنا أكرم الأولين والآخرين] شمل جميع الأولين والآخرين وسائر الخلائق دونهم ، فإذا ثبت أنه صلى الله عليه وسلم سيد الأفضل والأكرم فهو من باب أولى سيد الفاضل والكريم ، فافهم وتدبّر وتعقّل ، لتعرف الحق وتعترف به .
وأما قوله صلى الله عليه وسلم : السيد هو الله [5]

---

[1] طرف حديث في سنن الترمذي كتاب المناقب
[2] المسند ٢٣٧٦٥
[3] المسند ٢٢٣٤٨ ، والمقفي هو آخر الأنبياء .
[4] تقدم تخريجه
[5] جاء في مسند ابن الجعد عنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ رضي الله عنه أَنَّ رَجُلا لَقِيَ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم فقَالَ : مَرْحَبًا بِسَيِّدِنَا وَابْنِ سَيِّدِنَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم : السَّيِّدُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى .
وفي معرفة الصحابة لأبي نعيم وأصله في سنن أبي داود عَنْ أَبِي الْعَلاءِ رضي الله عنه قَالَ : وَفَدْتُ فِي بَنِي عَامِرٍ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فَقَالوا : يَا رَسُولَ

فلأنه فَهِمَ من القائل السيادة بالربوبية المطلقة ، وهي لله وحده ، فهو سبحانه السيد ، أي له سيادة الربوبية ، وكل الخلائق عبيد له ، وهو سيدهم أي

اللَّهِ، أَنْتَ سَيِّدُنَا، وَذُو الطَّوْلِ مِنَّا، فَقَالَ : [مَهْ مَهْ، قُولُوا بِقَوْلِكُمْ، لا يَسْتَجْرِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ، فَإِنَّمَا السَّيِّدُ هُوَ اللَّهُ] .
وفي تاريخ دمشق لابن عساكر وأصله في سنن أبي داود عَنْ مُطَرِّفِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الشِّخِّيرِ قَالَ : انْطَلَقَ أَبِي إِلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فِي وَفْدِ بَنِي عَامِرٍ، قَالَ : فَقَالُوا : أَنْتَ سَيِّدُنَا، فَقَالَ : [السَّيِّدُ اللَّهُ]
قَالَ : فَقَالُوا : فَأَنْتَ أَفْضَلُنَا فَضْلاً، وَأَعْظَمُنَا طَوْلاً، قَالَ : [قُولُوا بِقَوْلِكُمْ أَوْ بَعْضِ قَوْلِكُمْ وَلا يَسْتَجرِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ] . اهـ .
وقال في عون المعبود : (لا يَسْتَجْرِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ) أي لا يتخذنكم جَرِيّاً - بفتح الجيم وكسر الراء وتشديد التحتية - أي كثير الجري في طريقه ومتابعة خطواته ، وفي النهاية أي لا يغلبنكم فيتخذكم جرياً أي رسولاً ووكيلاً .
والمعنى : تكلموا بما يحضركم من القول ، ولا تتكلفوه كأنكم وكلاء الشيطان ورسله تنطقون على لسانه كذا في المرقاة .
قال السيوطي : قال الخطابي : قوله صلى الله عليه وسلم (السيد الله) أي السؤدد كله حقيقة لله عز وجل ، و الخلق كلهم عبيد الله ، وإنما منعهم أن يدعوه سيداً مع قوله : (أنا سيد ولد آدم) لأنهم قوم حديث عهد بالإسلام ، وكانوا يحسبون أن السيادة بالنبوة كالسيادة بأسباب الدنيا ، وكان لهم رؤساء يعظمونهم وينقادون لأمرهم . اهـ .
وقال الجصاص في كتابه (أحكام القرآن) :
وقوله تعالى في حق سيدنا يحيى عليه السلام : { وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ } يدل على أن غير الله تعالى يجوز أن يسمّى بهذا الاسم ؛ لأن الله تعالى سمّى يحيى عليه السلام سيداً، والسيد هو الذي تجب طاعته، وقد جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قَالَ للأنصار حين أقبل سعد بْن معاذ للحكم بينه وبين بني قريظة : [قوموا إلى سيدكم] - رواه الشيخان - ؛ وقال صلى الله عليه وسلم عن سبطه الحسن رضي الله عنه [إن ابني هذا سيد] - كما في صحيح البخاري - ؛ وقال لبني سلمة : [مَن سيدكم يا بني سلمة] ؟ قالوا : الجد بن قيس ، على بخل فيه، قَالَ : [وأي داء أدوى من البخل؟ ، ولكن سيدكم الجعد الأبيض عمرو بْن الجموح]
فهذا كله يدل على أن من تجب طاعته يجوز أن يسمى سيداً، وليس السيد هو المالك فحسب ؛ لأنه لو كان كذلك لجاز أن يقال : سيد الدابة " وسيد الثوب " كما يقال : " سيد العبد ".
وقد روي أن وفد بني عامر قدموا على النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : أنت سيدنا وذو الطول علينا، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : [السيد هو الله ، تكلموا بكلامكم، ولا يستهوينكم الشيطان].
وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم أفضل السادة من بني آدم، ولكنه رآهم متكلفين لهذا القول، فأنكره عليهم، كما قَالَ : " إن أبغضكم إلي الثرثارون المتشدقون المتفيهقون "، فكَرِه لهم تكلف الكلام على وجه التصنع .

خالقهم ومالكهم وملكهم أي المدبر لشؤونهم والمتصرف فيهم بمقتضى علمه وحكمته جل وعلا .
وكلمة (السيد) في اللغة تطلق على من كان له قول مسموع عند قومه ، يرجعون إليه في الشدائد والملمات ، فيجدون عنده فرَجاً .
وتطلق أيضاً على الرب والمالك والشريف والفاضل والكريم والحليم ومحتمِل أذى قومه والزوج والرئيس والمقدّم [1]
وأما ما يدّعيه البعض حديثاً : (لا تسيدوني) فهو مكذوب على النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو غير صحيح من حيث اللغة العربية ، ولحنه واضح ، لا ينطق به أفصح من نطق بالضاد صلى الله عليه وسلم ، ولو كان القول (لا تسيدوني) صحيحاً لكان : (لا تسوّدوني) لأنه في اللغة يقال :
(ساد - يسود) ، وليس : (ساد - يسيد) فافهم .
وكان من كلامه رضي الله عنه في مناسبات أخرى حول هذا الباب :
أفلا يجب علينا أن نذكر النبي صلى الله عليه وسلم ونمدحه بالمقامات العالية التي أكرمه الله بها كمقام الشفاعة العظمى ومقام الوسيلة ونصفه بما أثنى به عليه الله بقوله تعالى :
{ وإنك لعلى خلق عظيم } { وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين } ؟
وإذا لم نفعل ذلك فقد ظلمنا أنفسنا حيث لم نعترف بالفضل لأهله ، وهذا أقل ما يجب علينا ذكره في مجال تعظيمه وتكريمه وتوقيره صلى الله عليه وسلم ، فمن قصّر في ذلك فقد بَخَس الحق .
قال تعالى :{ ولا تبخسوا الناس أشياءهم }
وفي الحديث المرفوع : [لا يشكر الله من لا يشكر الناس] [2]
وقال صلى الله عليه وسلم :
[من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير، ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله ، والتحدث بنعمة الله شكر، وتركها كفر، والجماعة رحمة، والفرقة عذاب] [3]

---

[1] كما في لسان العرب ٢٢٤/٣

[2] انظر سنن الترمذي كتاب البر والصلة وسنن أبي داود كتاب الأدب عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه ، وقال سيدنا الشيخ الإمام في كتاب (الدعاء) صفحة ١١٨ : الحديث رواه أبو داود والترمذي وصححه ، وقال عنه الحافظ المنذري :
روي هذا الحديث برفع اسم الجلالة : (الله) وبرفع (الناس) وروي أيضاً بنصبهما وبرفع اسم الجلالة (الله) ونصب (الناس) وعكسه - أربع روايات . اهـ

[3] قال الحافظ المنذري : رواه عبد الله بن أحمد في زوائده بإسناد لا بأس به ورواه ابن أبي الدنيا في كتاب (اصطناع المعروف) باختصار . اهـ

وهذا الحديث وأمثاله يرجح رواية النصب في كل من اسم الجلالة (الله) وكلمة (الناس) في الحديث المتقدم .
أي لا يؤدي شكر الله من لم يشكر من وسّطه الله وجعله وسيلة لنفعه وهدايته وجلب الخير إليه ، فشكرُ الواسطة هو من جملة شكر الله ، لأنه سبحانه هو الذي خلق السبب والواسطة ، وجعلها واسطة ، قال تعالى في بيان نعمة خلقه للإنسان : { أن اشكر لي ولوالديك } فالله تعالى هو الذي خَلَقَكَ وأمدّك ، ولكن جعل لذلك سبباً وواسطة وهما والداك ، فلا تنكر واسطتهما في خلق الله لك ، وعليك بالقيام بشكرهما ، لِما لهما من فضل عليك ، ولذلك قرن سبحانه في كثير من الآيات ذكر عبادته وتوحيده بذلك قال تعالى :{ وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً }
وقال سبحانه :{ واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً }
وشكر اللسان هو الحمد ، والحمد : ذكر محامد ومحاسن وفضائل ومكارم المحمود ، والثناء عليه بها ، وإذا كان والداك اللذان جعلهما الله سبباً في وجودك الجسماني لتحيا في الدنيا بجسمك وحواسك ومداركك ، إذا كانا قد أوجب الله عليك الإحسان إليهما وبرّهما ، وجعل عقوقهما من الكبائر ، ونهى عن التأفف منهما ، فضلاً عن غير ذلك من كلام مؤذٍ ، فاعلم أن سيدنا محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم هو سبب لهدايتك وإيمانك ، لتحيا روحك وجسمك بالحياة الأبدية السعيدة في الدنيا قبل الآخرة ، فقد قال تعالى : { استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم } أي إن حياتكم الحقيقية الأبدية السعيدة تحيونها بإجابتكم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، والعمل بشرعه ، فهو صلى الله عليه وسلم بالنسبة لك بمنزلة الوالد الأكبر والأعظم ، فُهم هذا من قوله تعالى :
{ النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم }
أي وهو أب لهم ، فأزواجه الشريفات الكريمات صلى الله عليه وسلم أمهاتنا في الحُكم ، فلا يحل لأحد من بعده صلى الله عليه وسلم أن يتزوج منهن ، وهن أمهاتنا في المنزلة ، في الرتبة والمقام ، فيجب توقيرهن واحترامهن وتعظيمهن .
وفُهم هذا أيضاً من قوله تعالى :{ لا أقسم بهذا البلد * وأنت حِلٌّ بهذا البلد } أي أنت يا رسول الله حالّ مقيم في هذا البلد وهو مكة المكرمة .
{ ووالد وما ولد } وهو آدم عليه السلام وذريته ، فقدّم ذكر الوالد الروحاني الأكبر على الوالد الجسماني الأول .

وفُهم هذا من قوله تعالى : { وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ } فقدّم سبحانه ذكر النبي صلى الله عليه وسلم على نوح عليه السلام بعد أن ذكر جملة الأنبياء مع أن نوحاً عليه السلام قبل النبي صلى الله عليه وسلم في البعثة .
وفُهِم هذا أيضاً من قوله تعالى :{ الرحمن * علم القرآن * خلق الإنسان } وهو الإنسان الكامل المكمّل لكل إنسان ، وهو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الذي أنزل الله عليه القرآن ، وعلّمه بيانه ، ثم ذكر سبحانه الوالد الجسماني الأول بعد آيات فقال تعالى :
{ خلق الإنسان من صلصال كالفخار } وهو آدم عليه السلام وذريته .
وبعدما تبيَّن لك مما سبق ذكره شيء من مقاماته صلى الله عليه وسلم وإكرام الله له أفلا ينبغي عليك أن تذكره صلى الله عليه وسلم بأوصاف السيادة والتكريم والاحترام والتبجيل ؟
فيكون وصفه صلى الله عليه وسلم بالسيادة أبسط ما تقوم به من حقه عليك .
واعلم أن وجوه التعظيم والتكريم لمن يستحق ذلك تختلف من أهل قرن إلى آخر - والقرن مئة سنة -، وكلها مقبولة طالما أنها لا تناقض أصلاً شرعياً .
وقد جاء في صحيح الإمام البخاري من حديث صلح الحديبية قال :
ثم إن عروة - هو عروة بن مسعود الثقفي الذي جاء وقتئذ وسيطاً من المشركين في مكة - جعل يرمق أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم بعينيه قال : فوالله ما تنخّم رسول الله صلى الله عليه وسلم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فدَلَك بها وجهه وجلده ، وإذا أمرهم - أي : رسول الله صلى الله عليه وسلم بأمر - ابتدروا أمره ، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه ، وإذا تكلّم خفضوا أصواتهم عنده ، وما يحدّون إليه النظر تعظيماً له .
فرجع عروة إلى أصحابه فقال :
أي قوم والله لقد وفدت على الملوك ، ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشي ، والله إن رأيت - أي ما رأيت - ملكاً قط يعظّمه أصحابه ما يعظّم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم محمداً [1]

---

[1] طرف من حديث في صحيح البخاري كتاب الشروط ، وقد ذكر الحافظ ابن حجر في الإصابة أن عروة رضي الله عنه أسلم واستأذن النبي صلى الله عليه وسلم أن يرجع إلى قومه فأذن له فدعاهم إلى الإسلام ونصح لهم فعصوه وأسمعوه من الأذى فلما كان من السّحَر قام على غرفة له فأذّن ، فرماه رجل من ثقيف بسهم فقتله فلما بلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم قال: (مثل عروة مثل صاحب ياسين دعا قومه إلى الله فقتلوه) اهـ . - وهذا الحديث رواه الحاكم في المستدرك والطبراني في المعجم الكبير والبيهقي في دلائل النبوة - -

فانظر لقد وصف تزاحمهم وتهافُتهم على ماء وضوئه الشريف وأظفاره الشريفة ونخامته الشريفة وشعره الشريف صلى الله عليه وسلم وَصَفَ ذلك بالتعظيم مع أنه لم يذكر أنهم قبّلوا يديه ورجليه الشريفتين صلى الله عليه وسلم .

ومما لا يحتاج إلى محاكمة عقلية أن تقبيل يديه ورجليه الشريفتين ، وما تمكنوا من جسده الشريف أمر مسلّم به ، لأنهم فعلوا ما هو أشد وأعظم منه وعند أهل قرن آخر فإن وجه التعظيم كان بتقبيل الكتف ، أو الجبين ، أو تقبيل ظاهر اليد ووضعها على الجبين ، وليس هذا سجوداً لغير الله كما يفهمه الجهلة ، بل هو في حقيقته سجود لله على شيء خلقه الله ، فإذا سجدت على الأرض فهل سجدت لها عبادة لها ، أم أنك سجدت لله جل وعلا وكان سجودك على الأرض ؟!!!

وأما أشكال التعظيم المخالفة للأصول الشرعية فالانحناء والسجود المعروف تعظيماً وتكريماً فقد قال صلى الله عليه وسلم :

[لَوْ كُنْتُ آمِرًا أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لِأَحَدٍ، لَأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا] [1]

- وانظر البحث في ذلك موسعاً في كتاب :

(سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم)

الذي جمع فيه الشيخ الإمام رضي الله عنه جُمَلاً واسعة من تبرك الصحابة بجسمه الشريف ، وأجزائه الطاهرة المباركة الفياضة بالخير والبركة والنور صلى الله عليه وسلم .

٢- كتاب : (شرح المنظومة البيقونية في مصطلح الحديث)

وأصل الكتاب إملاءات في علم مصطلح الحديث على طلاب العلم في المدرسة الخسروية ، لمّا كان الشيخ الإمام يدرّس فيها أواخر السبعينات إلى منتصف الثمانينات من القرن الهجري الماضي ، ثم إن الشيخ الإمام رضي الله عنه جمع تلك الإملاءات ورتّبها حتى جاءت في مؤلف خاص هو هذا الكتاب .

وجاء هذا الكتاب سهل التناول على طلاب العلم ، بل على كل من أراد أن يتعرف إلى علم مصطلح الحديث ، وهو بمثابة المفتاح لهذا العلم لمن أراد التوسع في علم المصطلح ، والاطلاع على مطولات الكتب في هذا الفن .

وقوله صلى الله عليه وسلم : (صاحب ياسين) أي المؤمن الذي ذكره الله تعالى في سورة { يس } .

[1] كما في سنن الترمذي كتاب الرضاع عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، ورواه الدارمي في سننه في كتاب الصلاة وهو في السنن الكبرى للبيهقي بزيادة : لِمَا عَظَّمَ اللَّهُ مِنْ حَقِّهِ عَلَيْهَا "

إلا أن الشيخ الإمام رضي الله عنه كان يقول :
(يكفي طالب العلم أن يقرأ كتابي في المصطلح ، لعدم الجدوى والفائدة من التوسع في هذا العلم في هذا الزمن ، خاصة وقد بذل العلماء المتقدمون - جزاهم الله خيراً - بذلوا جهداً كبيراً في تحديد درجة الأحاديث ، وجمعوا في ذلك مصنفات عديدة ، وليس لطالب العلم في هذا الزمن أن يلجأ إلى الجرح والتعديل لأن من سَبَقَنا من المحدّثين والحفاظ المسندين كفانا المؤونة ، ومنهم من رأى أن سد هذا الباب أولى ، ومنهم من رأى غير ذلك)[١] .
هذا وإن كتاب الشيخ الإمام رضي الله عنه في هذا العلم يدرّس في أغلب المعاهد داخل القطر وخارجه ، لِما تميّز به من أسلوب يسهّل على طالب هذا العلم فهم مصطلح الحديث وأقوال العلماء الصحيحة فيه.
٣- كتاب (الإيمان بعوالم الآخرة)
بطبعته الأولى ، ثم طُبع مرة أخرى بطبعة واسعة توسّع فيها الشيخ الإمام رضي الله عنه في بعض القضايا العلمية ، وفصّل أموراً كان قد ذكرها مجملة في الطبعة الأولى .
هذا الكتاب هو نماذج مختصرة ، وفصول مقتصرة ، ترسم في ذهن القارئ الكريم صوراً علمية من صور عوالم الآخرة ومواقفها ، تتجلى فيها حقائق الإيمان باليوم الآخر الذي هو أحد أركان العقائد الإيمانية المذكورة في جميع الكتب الإلهية السماوية .
ففيه بيان أن الآخرة حق لا ريب فيها ، ووجوه حقيتها ، والحديث عن الموت وحقيقته ، وعن عالم البرزخ والسؤال فيه ، ثم نعيم القبر وعذابه ، وبعض الأسباب الموصلة إليه ، والأسباب المنجية منه .
وهي مما يتعين الوقوف عليه ، ثم الحديث عن انتفاع الأموات بالأعمال الصالحة التي يهديها إليهم الأحياء ، والأدلة الكثيرة على ذلك ، مع ذكر الجواب على احتجاج بعضهم على المنع بآية :
{وأن ليس للإنسان إلا ما سعى } بشكل مفصل .
ثم الكلام عن بعض الخلائق ، وعالم الحشر ، وعالم الحوض ، ثم تفصيل الكلام عن الشفاعة وأنواعها ، وكلمة في عصمة الأنبياء عامة من ستة وجوه ، وعن وجه تسمية بعض الأنبياء بعض أعمالهم ذنوباً .
وختم الكتاب بذكر صفة الصراط وذكر ستة أعمال تكون سبباً لتثبيت الله تعالى المؤمن المارّ على الصراط .
وكان رضي الله عنه يقول عن هذا الكتاب :

[١] انظر تفصيل هذا البحث في موضعه من كتب المصطلح

(بذلت فيه جهداً كبيراً ، ظهر ذلك في تحقيق عدة قضايا علمية ، كثرت فيها أقوال العلماء ، ويجب على كل عاقل أن يطّلع على هذا الكتاب ، ليتعرف على العوالم البرزخية التي سينتقل إليها عالماً بعد عالم ، ويتزود لذلك .

ولو أن عاقلاً أراد السفر إلى بلد بعيد عنه لرأيته راح يبحث ويسأل عن طريق السفر ، وعما سيمرّ عليه من بلدان ويعدّ عدّته لذلك من زاد ولباس ونحوه ، فكيف بسفر الإنسان ورحيله عن الدنيا ، وتنقّله في برازخ الآخرة حتى يستقر به المقام في دار السعادة أو دار الشقاء ؟؟!!.

ألا يتحتم عليه أن يتعرف على تلك العوالم ويستعد ويتزود لها ؟ !! .

اللهم إنا نسألك دخول الجنة بسلام برفقة خير الأنام سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام آمين) .

٤- كتاب (الإيمان بالملائكة عليهم السلام .. صفاتهم - أصنافهم - وظائفهم - مواقفهم) ويليه بحث حول عالم الجن :

الإيمان بالملائكة عليهم السلام من أركان الإيمان الستة ، وجاء هذا الكتاب يبحث عن هذا الركن بإسهاب ، مدلّل عليه من الكتاب والسنة .

ففيه أولاً : بيان حكم الإيمان بالملائكة ، ثم الكلام على حقيقتهم ، وتمثلاتهم - مع التعرض لعالم المثال وفيه تمثلات المعاني والأعمال والأقوال والأموال وذكر البراهين عليه من الكتاب والسنة - ، ثم الحديث عن رؤساء الملائكة واحداً واحداً ، ثم عن حملة العرش ، والملأ الأعلى ، والكروبيين ، والموكَّلين بالكتابة على الإنسان ، وحفظه ، وعن مواقف الملائكة ووظائفهم المنوطة بالأكوان المحيطة بالإنسان .

ثم ختم الحديث عنهم عليهم السلام بالكلام على عصمتهم من المعصية ، مع شرح قصة هاروت وماروت عليهما السلام وبيان أنه ليس فيها ما يخل بعصمة الملائكة .

ثم ختم الكتاب ببحث عن عالم الجن :

إثبات وجودهم بالآيات والأحاديث ، ومِمّ خلقوا ، وبيان أن إبليس ليس أباً أولاً للجن ، وذكر صفاتهم ، وأنهم مكلفون بالشريعة ، وأصنافهم ، وكيف يستطيع الإنسان أن يحفظ نفسه من الشيطان ثم عن مصيرهم يوم القيامة .

٥- كتاب (الصلاة في الإسلام ... منزلتها في الدين - فضائلها - آثارها - آدابها) :

يفصّل الكتاب الكلام حول أهمية الصلاة في الإسلام ، ومنزلتها في دين الله تعالى ، مع ذكر فضائلها وآثارها في المصلي ،

ثم يتكلم عن الخشوع في الصلاة ، وما جاء في أسباب جلب الخشوع مفصلاً ، وفي هذا حل لمشكلة يعاني منها كثير من الناس ، وجواب لسؤال كثيراً ما يرددونه .

ثم ذكر الوعيد الشديد لمن ترك الصلاة عمداً وكسلاً ، وما جاء في ذلك من ألوان العقوبات .

ثم ختم الكتاب بذكر الأدعية المأثورة في الصلاة وعقِبها ، التي تجعل المؤمن محفوفاً بالخيرات والبركات .

٦- كتاب (صعود الأقوال ورفع الأعمال إلى الكبير المتعال ذي العزة والجلال) :

هذا الكتاب من التفسير الموضوعي للقرآن الكريم ، ويدور حول معاني قوله تعالى : { إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه }.

افتتح الكتاب ببيان الكلمة الطيبة (لا إله إلا الله) وثمراتها ، مع ذكر وجوه من الكلام حول الآية الكريمة :

{ ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة }الآية .

ثم بيان جملة من الأعمال الصالحة ، والأوقات التي ترفع فيها الأعمال ، وبيان واسطة الرفع ، وبعض موانع رفع الأعمال الصالحة ، وذكر الحكمة من رفع الأعمال ، وشرح حديث اختصام الملأ الأعلى ، ثم بيان باقة عطرة مما أكرم الله تعالى به عباده المؤمنين الذين يعملون الصالحات .

٧ - كتاب : (الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم .. أحكامها وفضائلها وآدابها) :

وهو كتاب نفيس جامع يدور حول معاني قوله تعالى :

{ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا } ففيه الكلام على الآية الكريمة بإسهاب وتفصيل ومن وجوه متعددة ، ثم ذكر أحكام الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم مع الأدلة التفصيلية والتعرض لحكم وصف النبي بالسيادة .

وفيه أيضاً المواطن التي تُسنّ فيها الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وذكر فضائلها وفوائدها التي يمتد خيرها إلى المصلي وأولاده وأحفاده في الدنيا والآخرة ، وقد حوى بحثاً نفيساً - كَكُلّ أبحاثه - حول بلوغ الصلاة للنبي الكريم صلى الله عليه وسلم ، وعرضها عليه فوراً ، مع بيان المراد من ردّ روحه الشريفة ، والكلام على معاني الصلاة الإبراهيمية .

وختم الكتاب بذكر البشائر الغرر للمكثرين من الصلاة على سيد البشر صلى الله عليه وسلم ، وفيه بشائر منامية ، وأتبع ببحث فيه رفع الملام ودفع الأوهام حول رؤيا المنام .

وآخر بحث فيه جواب أهل العلم والرشاد لمن دأبه الانتقاد ، وفيه بيان السبب في سرد بعض أحاديث ضعيفة تتعلق بفضائل الأعمال في كتب الشيخ الإمام رضي الله عنه ، وبيان أن هذا ما نهجه سلفنا من أهل العلم والحديث.

وقد نال هذا الكتاب أيضاً - كسائر كتب الشيخ الإمام رضي الله عنه - مكانة سامية في قلوب القارئين له ، لِما وجدوا فيه من ترغيب وشحذ للهمم للإكثار من الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، ولِما يترتب على ذلك من فضائل ومكارم في الدنيا والآخرة ينالها مَن أكثر الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم .

ولقد كان الشيخ الإمام رضي الله عنه يحث الناس ويرغبهم في الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، حتى إنه لا يكاد يخلو مجلس من مجالسه العامة والخاصة من ذكر شيء من خصاله وفضائله صلى الله عليه وسلم ، ليحمل الناس على الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم .

وكان رضي الله عنه يعقد مجلساً خاصاً للصلاة على الرسول صلى الله عليه وسلم في المدرسة الشعبانية ، يحضره أهل العلم وطلابه من المدرسة وبعض أحباب الشيخ ، يقرؤون فيه كتاب (دلائل الخيرات) ، وصيغة في الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم تسمى (الصلاة النارية)[1]، اعتاد أهل الفضل على قراءتها عدداً معيناً في مجلس واحد ليقضي الله تعالى حاجاتهم ببركتها وأسرارها .

٨- كتاب (تلاوة القرآن المجيد . فضائلها - آدابها - مطالبها - خصائصها) فيه بيان أن القرآن الكريم هو كلام الله تعالى على الحقيقة ، مع ذكر الدليل المفصل على ذلك ، وفيه الحض على تلاوة القرآن الكريم في زمنٍ أعرض الناس عنها ، كما بيّن الآداب الظاهرة والباطنة عند التلاوة ، ونشر صفحة من سيرة السلف الصالح في إكثارهم من تلاوة القرآن الكريم ، وأكد التحذير من ترك القرآن الكريم : ترك قراءته ، وترك تعلّمه وتفهّم آياته ، وترك العمل به ، ثم جمع جملة وافرة من الأحاديث الواردة في فضائل سور وآيات معينة ليحافظ المسلم على تلاوتها ، وينال الأجر المترتب على قراءتها .

---

[1] وهي : (اللهم صل صلاة كاملة و سلم سلاماً تاماً على سيدنا محمد الذي تَنْحَلُّ به العُقَد ، وتَنْفرِج به الكُرَب ،وتُقضى به الحوائج ،وتُنال به الرغائب وحسن الخواتيم ، و يُستسقى الغمام بوجهه الكريم ،وعلى آله وصحبه في كل لمحة ونفس بعدد كل معلوم لك) ، وتنسب لإمام في المغرب الإسلامي .

وقد طبع هذا الكتاب الطبعة الثانية المزيدة في المدينة المنورة أيام مجاورة الشيخ الإمام رضي الله عنه فيها سنة ١٤٠٠هـ .

ثم توالت طباعته مرات عديدة لإقبال الناس على قراءته ، وقد تقرر تدريسه بحمد الله تعالى في كثير من معاهد تعليم القرآن الكريم ، وتحفيظه في عدد من البلاد الإسلامية .

٩- كتاب (الدعاء .. فضائله - آدابه - ما ورد في المناسبات ومختلف الأوقات) :

ذكر فيه الشيخ الإمام رضي الله عنه أهمية الدعاء ومنزلته في الدين ، وأنه مخ العبادة كما جاء في الحديث عنه صلى الله عليه وسلم [١]، والعبادة هي قيام العبد بما أوجب الله تعالى عليه من أوامر على وجه التذلل له سبحانه ، والانكسار والخضوع لعظمته سبحانه ومقام ربوبيته ، ويأتي الدعاء شاهداً على ذلك ، وهو سؤال العبد ربه جميع حاجاته متذللاً له سبحانه ، خاشعاً خاضعاً ، منكسر القلب لعظيم سلطانه سبحانه ، موقناً بإجابة الله تعالى له .

قال تعالى : {واسألوا الله من فضله }

وقال جل وعلا :{ وقال ربكم ادعوني أستجب لكم }

وقال صلى الله عليه وسلم :

[ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة ، واعلموا أن الله لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاهٍ] [٢].

وقد ذكر الشيخ الإمام رضي الله عنه في هذا الكتاب جملة واسعة من الأدعية المأثورة عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، في أوقات ومناسبات متعددة ، فحقيق على كل مؤمن متبع لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يدعو بها ، لأنها صدرت من فم خير خلق الله صلى الله عليه وسلم ، ولاشك أنها أرجى للقبول وأقرب للإجابة كما كان الشيخ الإمام رضي الله عنه يقول .

١٠- كتاب (التقرب إلى الله تعالى .. فضله - طريقه - مراتبه) :

وهذا الكتاب أيضاً من التفسير الموضوعي للقرآن الكريم ، ويبحث حول معاني قوله تعالى : { ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا }الآية ، بيّن فيه الأمة المصطفاة ومراتبها عند الله تعالى ، كما فصّل أثر العبادات على المرء المسلم ، وذكر ما فيها من التخلية من آثار الذنوب ، والتحلية بأنوار الطاعات ، هذا مع بيان الطرق المقربة إلى الله تعالى ،

---

[١] انظره في سنن الترمذي كتاب الدعوات

[٢] رواه الترمذي والحاكم وقال : مستقيم الإسناد ، كما في ترغيب المنذري

وبيان درجات المقربين ، وكيفية الوصول إلى تلك المقامات العالية ، مع ذكر الأدلة على ثبوت الكرامات لأولياء الله تعالى ، من الكتاب والسنة ، ومنها : حديث الأولياء والشرح الكامل له ، وتكلم عن الخوف من الله تعالى ، ورجاء رحمته ومغفرته ، ثم فصّل الحديث عن الشفاعة المحمدية صلى الله عليه وسلم ، ولمن تكون ، وختم الحديث ببيان أصناف هذه الأمة المحمدية ومراتبها عند الله تعالى ، شحذاً للهمم ، وتقوية للعزائم .
وقراءة الكتاب أكبر دليل على أن ما فيه أكثر بكثير مما ذكرت عنه .
١١- كتاب (شهادة لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم .. فضائلها - معانيها - شواهدها ومشاهدها - مطالبها) :
وذكر الشيخ الإمام رضي الله عنه في هذا الكتاب طائفة من الأدلة والبراهين من الآيات القرآنية التي تحمل الإنسان العاقل على التبصر والتفكر ، ثم الإذعان والإيمان بأن الله تعالى حق واجب الوجود ، واحد لا شريك له في ذاته وكمالاته سبحانه .
وقد أتى رضي الله عنه على ذكر جملة من الآيات القرآنية التي أَشْهَدَ الله تعالى فيها الخلق مشاهد وحدانيته وقدرته وعظمته جل وعلا .
وبعد أن أشهدَهم وأعلمَهم ذلك علماً قاطعاً أمَرَهم أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً صلى الله عليه وسلم رسول الله .
ثم ذكر رضي الله عنه جملة من خصائص الرسول صلى الله عليه وسلم التي اختصه الله تعالى بها ، ومقاماته الفردانية التي أكرمه الله بها ، كمقام الإسراء والمعراج ، والمقام المحمود ، ومنزلة الوسيلة ، وغير ذلك من فضائله صلى الله عليه وسلم .
كما ذكر رضي الله عنه فضائل الذكر بالتهليل والتسبيح والتحميد والتكبير وأوقاته .
١٢ - كتاب (الأدعية والأذكار الواردة آناء الليل وأطراف النهار) :
هذا الكتاب عبارة عن رسالة فيها بيان الأدعية المأثورة التي ينبغي على المسلم قراءتها ، وأن يصحبها معه ، لأنها تصحبه في كل شؤونه ، وسائر تقلباته ، وتُرشِده ماذا يقول منذ استيقاظه وحتى منامه ، وما يقوله للحفظ ، ورفع الكرب ، وجلب الرزق ، ودفع الضيق .
وقد ختمت هذه الرسالة بالجواب العلمي المؤيد بالأدلة عن وصول ثواب القراءة وسائر الخيرات إلى الأموات ، وأن ذلك لا ينافي قول الله تعالى : { وأن ليس للإنسان إلا ما سعى }.

وأتبع هذا ببحث نفيس حول جواز التوسل والاستغاثة بالنبي صلى الله عليه وسلم وأن ذلك ثابت في حياته وبعد انتقاله صلى الله عليه وسلم ، مع ذكر الأدلة من القرآن الكريم والسنة المطهرة .
١٣- كتاب : (هدي القرآن الكريم إلى الحجة والبرهان)
هذا الكتاب يعتبر من التفسير الموضوعي للقرآن الكريم
وقد افتتح ببيان أن القرآن الكريم كتاب هدي ودعوة إلى المنهج الحق في الحجج والبينات ، وما ينبغي أن يكون موقف المسلم تجاه القرآن الكريم ، ثم فصّل منهج القرآن الكريم في دعوته وهديه للناس ، ثم نشر صفحة عن بعض وجوه الإعجاز في القرآن الكريم - هذا بعد إقامة الدليل على وحدانية الله تعالى وذكر الأدلة القطعية على أن سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم هو رسول الله حقاً وصدقاً - .
ثم بين حفظ الله تعالى للقرآن الكريم في تبليغه وتلاوته ، وردّ وبشكل لا مزيد عليه - بل ولأول مرة - قصة الغرانيق الباطلة الزائفة ، حيث ذكر القصة وبيّن بطلانها من جميع الوجوه سنداً ومتناً وحالاً ومقالاً ، وردّ شبهة إلقاء الشيطان في أمنية الرسل بشكل مسهب ومفصل ومن وجوه متعددة .
هذا وقد ختم الكتاب بذكر الروح القرآني وأثره في القلوب والنفوس مع أبحاث أخرى حول القرآن الكريم تجدها منتشرة في هذا الكتاب القيم .
١٤- كتاب (هدي القرآن الكريم إلى معرفة العوالم والتفكر في الأكوان)
يعتبر هذا الكتاب من التفسير الموضوعي للقرآن الكريم ، ويبحث حول قول الله تعالى : { قل انظروا ماذا في السموات والأرض }.
افتتح الكتاب بذكر العوالم خاصة وعامة ، ثم جاء الحديث عن عالم الماء وخصائصه ، وعالم العرش وصفته وسعته وعظمته ، وعالم القلم ومراتب كتابة القلم ، مع كلمة موجزة حول الإيمان بالقدر ، وبيان أن الإنسان مخيَّر في الأمور التكليفية بالأدلة المفصلة .
ثم الحديث عن عالم اللوح ، وعالم الجنة ، والبيت المعمور ، وعالم السموات ، والميزان ، والكواكب ، والأرض ، وعالم الملائكة .
ثم تحدث عن مناظرات الرسل أممهم ، وبين أن آزر المذكور في قوله تعالى : { وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر } أن آزر هو عمٌّ سيدنا إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ، وليس والداً له - لأن كلمة الأب تطلق على الوالد والعم .
ثم الحديث عن عالم المثال وتنوعه ، من تمثل الأعمال والأقوال والأموال وما هنالك ، وعند الحديث عن عالم الروح بيّن شرف الروح الإنساني ، والفرق بين الروح والنفس .

وتحدث الكتاب عن عالم الذر وبيّن جملة من أحكامه .
ثم ذكر الأدلة المفصلة على عناية الله تعالى برسله الكرام عليهم الصلاة والسلام منذ بداية نشأتهم ، والأدلة على أن أبوي الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم الكريمين الطاهرين هما من أهل الجنة ، وردّ كل الشبهات حول هذه المسألة .
وفي خاتمة الكتاب جاء البيان الشافي على أن العوالم كلها تعرف خالقها وتسبّحه وتحمده ، وأنها تعلم العلم اليقين أنه (لا إله إلا الله .... سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم) مع الأدلة على ذلك ، ثم إعلام الإنسان بأن كل ما حوله سيشهد عليه يوم القيامة ليكون على يقظة وحذر في تصرفاته . اهـ .
ثم إن الله تعالى شرح صدر الشيخ الإمام رضي الله عنه إلى جمع كتب حول تفاسير بعض السور القرآنية التي ورد في فضل قراءتها أحاديث كثيرة عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد اعتاد الناس قراءتها .
فصدر كتاب حول تفسير سورة الفاتحة ، وكتاب حول تفسير سورة الإخلاص والمعوذتين ، وكتاب حول تفسير سورة الملك (تبارك).
ثم كتاب حول تفسير سورة الحجرات ، وكتاب حول تفسير سورة { ق }
وكتاب حول تفسير سورة الدهر وتسمى سورة (الإنسان) أيضاً ،
وكتاب حول تفسير سورة العلق ، وكتاب حول تفسير سورة الكوثر .
١٥- كتاب (حول تفسير سورة الفاتحة ..... أُمّ القرآن الكريم) :
هذا الكتاب يذكر بشكل مفصل الكلام عن معاني سورة الفاتحة وأسرارها ، ويلفت نظر المؤمن ويحذره من موضوع شاع بين بعض الناس وهو إلقاء شيء فيه اسم الله تعالى أو آية قرآنية أو حديث شريف يحذره من إلقائه على الأرض ، أوعدم تعظيمه ، لأن الله تعالى يقول :
{ ومن يعظِّم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب }.
وقد تناول الكتاب قضية الأسباب والوسائط التي جعلها الله تعالى لخلقه ، وهي مسألة هامة ينبغي على المؤمن معرفتها .
وفيه الجواب عما يقال : إذا كانت الهداية من الله تعالى فما هو موقف الضال الذي لم تنله الهداية ؟
ثم ختم الكتاب بذكر بعض اللطائف والمعاني والعلوم التي اشتملت عليها هذه السورة ، ثم بيان جملة من فضائلها وخصائصها .
١٦- كتاب (حول تفسير سورة الحجرات) :

هذه السورة تبين الآداب الواجب مراعاتها مع النبي صلى الله عليه وسلم ، والأجر المترتب على ذلك ، وتحذر من التهاون في هذا الأمر ، فإن الأدب مع النبي صلى الله عليه وسلم من أرفع المقامات.
ثم تحدثت السورة عما ينبغي أن يكون عليه حال المؤمن من اليقظة والحذر، قال تعالى : { يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا }.
ثم الإعلان بفضل سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وذكر الأدلة على سعة قدرة الله تعالى .
وفيه عند الحديث عن معنى الإيمان وآثاره : بيان أن الإيمان لا يكون معتبراً إلا إذا كان قائماً على أساس المحبة لله تعالى ولسيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم .
وناقش الكتاب مطوّلاً من يقول أن الطبيعة تطوّر الإنسان ، وبيّن بطلان زعمه ، وأجاب عن سؤال : ما دام أمر الإيمان يحبه الله تعالى فلمَ لا يتفضل به على جميع خلقه ؟
ثم تحدث الكتاب حول قوله تعالى :{ يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم } مبيناً معنى : السخرية - اللمز - التنابز بالألقاب - ، موضحاً الحال التي كان عليها السلف الصالح ليقتدى بهم .
ثم جاء التحذير من التجسس والغيبة وبيان آثارها في الدنيا والآخرة مع ذكر بعض الأمثلة لِما يحسبه الناس ليس من الغيبة وهو منها ، وجواب قول من قال : أنا لا أغتاب الناس بل أذكر ذلك أمامهم مواجهة !!
وفي خاتمة الكتاب كان الحديث حول المغيّبات وأنواعها ، مع ذكر جملة من إخبارات النبي صلى الله عليه وسلم عما سيحدث عند قيام الساعة .
مع فوائد كثيرة وتنبيهات هامة ، ولطائف فريدة تجدها منثورة في ثنايا الكتاب .
١٧- كتاب (حول تفسير سورة { ق })
هذا الكتاب يبدأ بذكر الأدلة على أن المراد بقوله تعالى : {ق} قلب النبي صلى الله عليه وسلم ، ويسرد الأسباب التي دعت الكفار إلى إنكار بعث الأموات مع الرد عليها .
وفي معرض تفسير قوله تعالى : { ولقد خلقنا الإنسان } يفصل معاني كلمة الخلق في القرآن الكريم ، ثم يبين معنى الوسوسة وما يستعان به لردّها وهذا بحث هام إذ كيف يحارب الإنسان عدواً يجهل أساليبه وليس معه سلاح ؟!
ويفصل الكلام أيضاً عن القلب الجسماني ، والقلب الروحاني الذي هو موضع التذكر والتفكر ، مع بيان ما يحييه وينزل عليه السكينة ،

ثم يذكر دعوة الله عباده جميعاً إلى التوبة ، وما يجب أن يكون عليه حال المؤمن من الخوف والرجاء .
١٨- كتاب (حول تفسير سورة الكوثر) :
سورة الكوثر فيها بيان بعض الفضائل والمكرمات التي خص الله بها حبيبه الأعظم ورسوله الأكرم سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم ، وقد فصّل الشيخ الإمام رضي الله تعالى عنه الحديث حول هذا الأمر بإسهاب ، ونَثَر بعض الدرر والمعاني والأسرار من هذه السورة .
حيث ذكر صفة حوض النبي صلى الله عليه وسلم ، ولفت إلى مسائل ينبغي الانتباه إليها كعَقد النبي صلى الله عليه وسلم الأخوّة الإيمانية مع كل من آمن به ولم يره ، وأن الشرب من الحوض يوم القيامة يكون بحسب ما تشرّب قلب المؤمن من الإيمان بالله تعالى والشرع المحمدي في الدنيا ، مع بيان جملة مما أكرم الله به سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم ، ومما أكرم الله به المؤمنين إكراماً للنبي صلى الله عليه وسلم .
وفي الكتاب تعداد لعلامات محبة النبي صلى الله عليه وسلم ، والتي ينبغي على كل مؤمن معرفتها ليتحقق بها وينال البشرى العظيمة التي بشّر بها سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أصحابه وأمّته حين قال :
[المرء مع من أحب] .
١٩- كتاب (حول تفسير سورة الإنسان)
هذا الكتاب يبحث في معاني سورة الإنسان ، حيث يذكر في الآية الأولى منها إقامة الحجة على وجود الله تعالى ، وفي الآية الثانية إقامة الحجة القاطعة على قدرة الله تعالى على إعادة الخلائق بعد موتهم ، ثم يبين أن خير الهدي هو هدي سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وأن الإنسان سوف يُسأل في قبره عن موقفه من هذا الهدي .
وفيه الكلام عن وجوب الاعتقاد بأن الجنة والنار مخلوقتان الآن .
ثم يأخذ قلبك وفكرك إلى روضة من رياض الجنة لترى أشجارها وثمارها وشرابها ومنازل أهلها وثيابهم ، ثم يكشف لك عن شدة عذاب جهنم وشدة نارها وسوادها وعذاب أهلها .
وقد تعرّض الكتاب لبيان فضائل ذكر الله تعالى وآثاره في الذاكر، ثم التنبيه والتذكير بدليل التوسل بجاه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم في الدعاء .
وعند الكلام حول قوله تعالى :{وما تشاؤون إلا أن يشاء الله } تجد رداً مطولاً مفصلاً على من ينكر مشيئة العبد واختياره ،
لترى أن اختيار العبد ثابت شرعاً وعقلاً وذوقاً ووجداناً ، وهو بحث ينبغي الاطلاع عليه والاهتمام به .

وكان مسك الختام توصية المؤمن بالمواظبة على قراءة سورة تبارك كل ليلة قبل النوم ، وترغيبه بالإكثار من الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم لِما في ذلك من الأجر العظيم والثواب الكبير .

٢٠- كتاب (حول تفسير سورة الملك)

هذا الكتاب يبحث حول تفسير سورة سمّاها النبي صلى الله عليه وسلم : [المانعة والمنجية] لأنها تنجي المؤمن من عذاب القبر .

لذا أفرد الشيخ الإمام رضي الله عنه مؤلفاً خاصاً لها ، وذكر في طيّاته مسائل تهم المؤمن وتجيب عن بعض أسئلته وتناقش بعض الشبهات بأسلوب علمي دقيق .

ففيه ذكر الأدلة على أن الله تعالى خلق العباد لحكم عالية وليس عبثاً ، وفيه الدليل المفصل على وجود الله تعالى ، وأنه سبحانه الخالق وحده لا شريك له ، ثم الكلام عن نعمة السمع والبصر والأفئدة ، وما يترتب على ذلك في الآخرة ، والكلام عن اسم الله تعالى (الرحمن) ، وبيان بعض الأسباب التي تُستنزل بها رحمة الله تعالى .

وكان البحث الأخير منه هو التحذير الشديد من اتخاذ آيات الله هزواً ، والتحذير من سلوك مسالك الهزل فيما جاء عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفيه قصص واقعة لأناس استخفّوا بحديث النبي صلى الله عليه وسلم وكيف انتقم الله منهم ، وفي هذا تذكير للعاقل وتنبيه للغافل .

٢١- كتاب (حول تفسير سورة {اقرأ باسم ربك الذي خلق} وتسمى سورة العلق) :

افتتح الكتاب بالكلام من وجوه متعددة على الآيات الخمس من أول السورة ، وفصّل تحذير الله تعالى المؤمنين من مخالفة أمر سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وأمره إياهم بالأدب مع سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

ثم بيان الحكمة من كونه صلى الله عليه وسلم أُمّياً ، وذكر الأدلة على عظيم إكرام الله تعالى لرسوله سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم بيان معاني الخَلق في القرآن مفصّلة .

والكتاب يلفت نظر اللبيب إلى أهمية التفكر فيما خلق اللهُ تعالى ، وأن التفكر يفتح للعاقل باباً عظيماً لمعرفة قدرة الله تعالى .

وفي ثنايا الكتاب عرض لفضائل التقوى ومراتبها ، والمكرمات المترتبة عليها ، وذكر بعض الحِكم من بشارة الله تعالى عباده المؤمنين بأنواع من البشائر .

وأخيراً جاء ذكر بعض الأمثلة من محبة الصحابة للرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم ، وتعشقهم له ، وتفانيهم في خدمته وطاعته ، وكأن قائلاً يقول :

فتشبّهوا إن لم تكونوا مثلهم إن التشبّه بالكرام فلاح

٢٢- كتاب (حول تفسير سورة الإخلاص ، والمعوذتين بعدها) :

تناول هذا الكتاب فضائل تلاوة سورة الإخلاص مفرَدة ، أو مع المعوِّذتين ، وأن من قرأها مائة ألف مرة فهو عتيق الله من النار .

ثم تكلم مطوّلاً عن تفسير سورة الإخلاص والفلق والناس ، ومن وجوه متعددة ، وفيه بحث نفيس دالّ على أن الله واحد لا شريك له .

وتطرّق الكتاب لشرح حقيقة السحر ، وحُكمه ، وحُكم إتيان الساحر .

ثم تكلم عن الحسد بقسميه المذموم والمحمود ، مع بيان علاج من أُصيب بالعين .

ثم خُتم الكتاب بذكر صفات الشيطان وشروره وحبائله ، ليكون المؤمن على حذر كبير منه .

ثم بيان جملة من الإرشادات النبوية التي تسعد المسلم في دينه ودنياه .

٢٣ – كتاب (الهدي النبوي والإرشادات المحمدية إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الآداب السَّنِيَّة) :

هذا الكتاب يدور في فلك الحديث النبوي :

[إنما بُعثت لأتمّم مكارم الأخلاق] ويصحبك إلى روض أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم التي ترشد المؤمن إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الآداب .

ففيه الترغيب بالحياء ، وحسن الخلق ، والحلم والصدق والتواضع ، إلى ماهنالك من الصفات الحميدة التي يجب على المؤمن التحلّي بها .

وفيه الترهيب من الغيبة والنميمة ، والكذب والرياء والسمعة ، وغير ذلك من الصفات الذميمة التي يجب على المؤمن التخلي عنها .

ولأهمية بر الوالدين فإن هناك بحثاً مفصلاً فيه الترغيب ببر الوالدين ، وبيان ثوابه ، والترهيب من العقوق وتوضيح عقابه ، لعل العاقّ يثوب إلى رشده ، ولعل البارّ يزيد من بره وإحسانه .

٢٤- كتاب (حول ترجمة المرحوم الإمام العلامة الشهير والعارف الكبير فضيلة سيدي الوالد الشيخ محمد نجيب سراج الدين الحسيني رضي الله تعالى عنه) :

وهذا آخر كتاب كتبه الشيخ الإمام رضي الله عنه ، وقد صدر قبل وفاته رضي الله عنه بسنة تقريباً ، وتكلم فيه عن نشأة والده الكريم ، وعقيدته في باب علم التوحيد ، وشيوخه رضي الله عنهم .

ثم تكلم عن أبحاثه ودروسه ، ومحبته لسماع المدائح النبوية ، وإكرامه المنشدين ، ومواظبته على قراءة قصة المولد النبوي الشريف ، وحضوره مجلس قراءته وترغيبه في ذلك .

ولم يقتصر شيخنا الإمام رضي الله عنه على الترجمة فحسب ، بل تكلم بإسهاب عن محبة الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وبيّن التلازم بين المحبّتين ، ونوّه إلى شرف قلب المؤمن وفضائله وخصائصه ، ووجوب الالتجاء إلى الله تعالى ودعائه بالحفظ من زيغ القلب .

كما لفت إلى أن كلام أئمة القوم ، العارفين بالله تعالى ، الثابت نقله عنهم ، هو مستمَدّ من الكتاب والسنة ، وأنهم من أشد الناس تمسكاً بالكتاب والسنة .

وختم الكتاب بذكر بعض ما أكرم الله به العلامة الكبير سيدنا الشيخ محمد نجيب رضي الله عنه ، والحديث عن أعماله التعبدية الصالحة المرضية رحمه الله تعالى رحمة واسعة ورضي عنه .

٢٥- رسالة في (مناسك الحج)

٢٦- رسالة في (الصيام .. آدابه - مطالبه - فوائده - فضائله)

٢٧- رسالة في (أدعية الصباح والمساء)

وقد توفي الشيخ الإمام رضي الله عنه وهو بصدد جمع كتاب حول (شرح وبيان معاني أسماء الله الحسنى) ، وكان قد انتهى فيه إلى الكلام على معاني اسم الله تعالى (المجيب) .

ونسأل الله تعالى التوفيق لطباعته ونشره .

ولقد حظيت هذه الكتب باهتمام المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها ، لِما فيها من منافع وفوائد علمية وعملية يحتاجها المسلم في حياته اليومية ، في عبادته لله تعالى وطاعته له .

وقد تم بفضل الله تعالى ترجمة عدد من تلك الكتب إلى اللغات الأجنبية ، أذكر منها الإنكليزية على اعتبار عالمية هذه اللغة وانتشارها .

قلت : وقد جمعتُ - بعون الله تعالى وفضله - جمعتُ محاضرات الشيخ الإمام رضي الله تعالى عنه المتعلقة بمواقف سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم مع العالم جمعتها في ثلاثة أجزاء ، وهي المحاضرات التي كان قد ألقاها في جامع بانقوسا نظراً لفائدتها ونفعها للمؤمنين ، وقد عرضت طائفة واسعة منها عليه في حال حياته ، فأعجبه ذلك وأقرّني عليه .

وإنني بحمد الله تعالى أواصل هذا الجهد لإصدار هذه المجموعة الطيبة من آثار الشيخ الإمام رضي الله تعالى عنه تباعاً .

كما جمعت بعض محاضراته حول الإسراء والمعراج ، وحول هجرة النبي صلى الله عليه وسلم من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة ، وكتاباً حول عالم الجنة ، وكتاباً يبحث حول الفضائل المحمدية ، وكتاباً حول تفسير آيات من القرآن الكريم ، وكتاباً حول الإيمان بالقضاء والقدر وقد طُبعت جميعها بحمد الله .

ومن العجائب واللطائف التي تستحق الذكر أني كنت قد أهديت كتاب (حول تفسير سورة الحجرات) أهديته لأحد أصحابي ، - وهو طبيب أطفال - ، فقرأه مرات عديدة ، ونال إعجابه لِما وجد فيه من مجامع الآداب التي ذكرها سبحانه في تلك السورة ، وقام الشيخ الإمام رضي الله عنه بتفصيل ذلك وبيانه ، مستنداً إلى أحاديث سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذكر فيه وقائع عديدة جرت في حياة الصحابة رضي الله عنهم ومَن بعدهم من سلف هذه الأمة .

وقد فصّل الشيخ الإمام رضي الله عنه الكلام في هذا الكتاب على آداب المؤمنين مع بعضهم بعضاً ، وعلى الحقوق والواجبات فيما بينهم خاصة ، وفيما بينهم وبين غيرهم من أهل الكتاب .

ثم إن هذا الطبيب أهدى نسخة من الكتاب إلى صهر له مقيم في انكلترا ، - وهو طبيب أيضاً - ، فقرأه وأعجبه واستعان ببعض أصحابه ، وجعلوا من هذا الكتاب أبحاثاً علمية لتكون خُطَباً في صلاة الجمعة في المساجد هناك .

وكان أحد أساتذة هذا الطبيب كافراً ملحداً يتقن العربية ، فقرأ الكتاب ودرَسه ، فأخذ من نفسه وقعاً عظيماً ، وقال لتلميذه الطبيب :

إن مؤلف هذا الكتاب يستمد كلامه من نبراس نبوي ، فقد وجدت في كلامه روحاً سرت إلى قلبي .

فقال له صاحبنا : ولمَ لا تؤمن يا أستاذ ؟

فأجابه الأستاذ: ألم تقرأ في القرآن الكريم قول الله تعالى :

{ ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة }.

فسكت التلميذ لأن حجته لم تكن ترقى إلى المستوى الذي يمكّنه من مناظرة ذلك الأستاذ وإقامة الحجة عليه .

قلت : لقد نطق هذا الملحد بالحق ولكنه لم يعترف به ، وأراد المشاغبة في الجواب .

ولقد أخبر سبحانه عن أهل الكتاب وغيرهم أنهم يعرفون الحق أكثر من معرفتهم بأبنائهم لكنهم لم يعترفوا به .

قال تعالى : { الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبنائهم }.

حتى قال عبد الله بن سلام - وكان من أحبار اليهود ثم آمن برسول الله صلى الله عليه وسلم - ، قال :
(إن معرفتي برسول الله صلى الله عليه وسلم أقوى من معرفتي بابني)[1] .
إلا أن الإيمان هو معرفة الحق والاعتراف به والإذعان له ، وليس مجرد معرفته فقط .
وإذا ظهرت للمنكر أنوار الحق وعرفه وأعرض عن الإيمان به والاعتراف به مرة بعد مرة ، ينزل على قلبه طابع الكفر ويختم الله على قلبه بالكفر حتى يموت كافراً ، وذلك عقوبة له بسبب إعراضه وجحوده الحق بعد ما بان له ، وفي هذا يقول سبحانه :
{ بل طبع الله عليها بكفرهم }
أي بسبب إنكارهم وإعراضهم عن قبول الحق طبع الله على قلوبهم [2] .
والكفر هو ستر الحق وعدم الاعتراف به بعدما ظهرت أنواره ،
قال تعالى :{ فإنهم لا يكذّبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون }
والجحود هو الإنكار بعد علم ، فقد أنكروا الحق ظلماً منهم وعلواً ، وكذّبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن رأوا آيات صدقه و بيّنات نبوته ورسالته ، فعرفوها ، ولم يعترفوا بها .
وكيف درى هذا الملحد أن الله تعالى قد ختم على قلبه فلم يتمكن من الإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ !
إذ لا يصح لأحد أن يحتج بالقضاء قبل وقوعه .
كما لو قلتَ مثلاً لمدمن الخمر : (دع شُربه)
فقال : (الله كتب عليَّ شُربه)
نعم لقد قضى عليه ذلك فيما مضى باختياره وإرادته هو - أي باختيارالعبد - ، ولم يجبره سبحانه على شرب الخمر ، وما عليه الآن إلا أن ينتهي عن شربه باختياره وإرادته .
وإلا فهو ينسب إلى الله تعالى الظلم ، فهو الذي أجبره على المعصية ثم سيعذبه على ذلك ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، قال تعالى :
{ وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين }
وقال سبحانه :{ وما ربك بظلّام للعبيد }
وقال جل وعلا : { وما الله يريد ظلماً للعباد}

---

[1] انظر تفسير البغوي والخازن لقوله تعالى :
{الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم } .
[2] انظر هذا البحث مفصلاً في موضعه في الكتاب

حول زهده وورعه

لقد اقتصر طعام الشيخ الإمام رضي الله عنه في العقدين الأخيرين من عمره المبارك ، اقتصر طعامه على الكوسا[١] المَحشو [٢] بالرز ولحم الضأن الناعم ، وإلى جانبه شيء من اللبن الرائب ، فيه مسحوق النعناع ، وقطعة خبز .

ومما يحسن الإشارة إلى ذكره في هذا السياق أن أكْل مولانا الوالد كان يسيراً بسيطاً على وجه العموم ، وإني وغيري كنا نرى فيه المتحقق بقول الله تعالى : { وكلوا واشربوا ولا تسرفوا } .

وقوله صلى الله عليه وسلم :

[ما مَلَأَ آدمي وعاء شراً من بطنه ، بحسب ابن آدم لقيمات يُقِمْنَ صلبه ، فإن غلبته نفسه فَثُلُثٌ للطعام وثلث للشراب وثلث للنفَس] [٣]

وكان له رضي الله عنه رأسمال يسير عند بعض أصحابه ، ويقوم هذا بدفع ثمن لحم الضأن الذي تستهلكه أسرة الشيخ رضي الله عنه من أرباح رأسمال الشيخ ، ثم إنه في السنين الأخيرة من عمره المبارك بلغه أن هذا الصناعي التاجر يتعامل مع بعض البنوك الأجنبية الربوية ، وربما أدخل على ماله شيئاً من الربا ، ولما أردنا أن نتحقق من صحة ذلك لم نتمكن من الوقوف على درجة العلم القاطع في أنه يتعامل بذلك أم لا ، فامتنع الشيخ والدنا رضي الله عنه عن أكل اللحم الذي يدفع ثمنه فلان ، حرصاً منه أن لا يأكل شيئاً من الربا ولو شائبة منه ، أو غباره و دخانه [٤] .

---

[١] نظراً لأنه رأى فيه سهولة في الهضم ، وناسَبَ صحة بدنه .

[٢] وهذه الكلمة يجوز فيها اسم الفاعل والمفعول ، أما الفاعل فباعتبار أنه يأكل منه الإنسان ويحشو جزءاً من معدته ، وأما اسم المفعول فباعتبار أنه يُحشى بالأرز واللحم وما شاكل ، وكلاهما صحيح واقع .

[٣] رواه الترمذي في سننه كتاب الزهد والنسائي في السنن الكبرى عن المقدام بن معدي كرب رضي الله عنه

[٤] لأنه جاء في الحديث الذي رواه الحاكم في المستدرك عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : [ليأتين على الناس زمان ، لا يبقى فيه أحد إلا أكل الربا ، فإن لم يأكله أصابه من غباره].

مع أننا لم نتمكن من التحقق له من صحة ما بلغه ، ومع ذلك امتنع وأمرني أن أشتري له اللحم - الذي يحشى منه في الكوسا - أمرني أن أشتريه من مال يدفعه إلي ، وهو واثق متأكد من طيبه وحِلّ كسبه .

كل ذلك منه تحنُّثاً - أي تجنباً وتباعداً عن أكل الحرام - ، بل زهداً وورعاً ، فهو يدَع ما لا بأس به خشية مما فيه بأس ، تحققاً بقول سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم :

[لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يَدَعَ ما لا بأس به حذراً لما به البأس] [1]

ثم إن الشيخ الإمام رضي الله عنه استردَّ رأس ماله من ذلك الرجل دفعاً للشبهة وتورعاً عن الحرام المظنون .

وكان رضي الله عنه يقول :

(أهم أسباب إجابة الدعاء : أكل الحلال ، وهو : ما اكتسبه الإنسان بطرق مشروعة لا شبهة فيها ، ويذكر الحديث الذي رواه الطبراني في المعجم الأوسط عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ :
تُلِيَتْ هَذِهِ الآيَةُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم :

{ يَأَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلالاً طَيِّبًا }

فَقَامَ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ، ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مُسْتَجَابَ الدَّعْوَةِ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ: [يَا سَعْدُ أَطِبْ مَطْعَمَكَ تَكُنْ مُسْتَجَابَ الدَّعْوَةِ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، إِنَّ الْعَبْدَ لَيَقْذِفُ اللُّقْمَةَ الْحَرَامَ فِي جَوْفِهِ مَا يُتَقَبَّلُ مِنْهُ عَمَل أَرْبَعِينَ يَوْمًا، وَأَيُّمَا عَبْدٍ نَبَتَ لَحْمُهُ مِنَ السُّحْتِ وَالرِّبَا فَالنَّارُ أَوْلَى بِهِ] . اهـ .

وفي سنن أبي داود : [فإن لم يأكله أصابه من بخاره] .
قلت : أما أكل الربا صراحة فهو من الكبائر ، وأما من دخلت عليه شائبة من الربا دون إصرار منه فتزول هذه الشائبة بكثرة الصدقة واستغفار الله تعالى .

[1] سنن الترمذي كتاب صفة القيامة والرقائق والورع و سنن ابن ماجه كتاب الزهد عن عطيّة السعدي رضي الله عنه

ويذكر قوله صلى الله عليه وسلم :

[أَطِبْ مطعمك] أي ليكن طعامك من مال أَحلّه الله ، فيدخل جسمك وتتغذى به فيقوى على طاعة الله سبحانه .

ويذكر رضي الله عنه قول النبي صلى الله عليه وسلم لكعب بن عجرة رضي الله عنه في الترهيب من أكل الحرام :

[يا كعب بن عجرة إنه لا يدخل الجنة لحم نَبَتَ من سُحْت ، النار أولى به] [١]

وفي رواية :

[لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ لَحْمٌ نَبَتَ مِنْ سُحْتٍ، وَكُلُّ لَحْمٍ نَبَتَ مِنْ سُحْتٍ فَالنَّارُ أَوْلَى بِهِ] [٢]

أعاذنا الله من ذلك كله .

ولم يكن امتناعه رضي الله عنه عن تناول كثير من الأطعمة بسبب اعتلال صحته ، أو إشارة طبيب له بذلك ، بل كان الطبيب يحثّه على تناولها ، ولكنه عزف عنها زهداً وورعاً عن فضول الحلال .

ومما يجدر ذكره أنه لم يتذوق بعض الأطعمة منذ طفولته وشبابه كالبيض المطهي بأي طريقة من الطهي ، والأطعمة التي يدخل في تركيبها البيض كالعجة مثلاً - وهي أكلة تُصنع من البيض والخضار والبصل ، وتُقلى بالزيت - وقد امتنع عنها لأنه لما أكلها - وكان وقتها في العقد الأول من عمره المبارك - أخذ جسمه الشَّرى [٣] ، فأعرض عنها طيلة حياته ، ولم يجرب أكلها مرة أخرى ، وهذا كله مما سمعناه منه رضي الله عنه .

---

[١] مسند الإمام أحمد ١٠٩١٩ واللفظ له وسنن الترمذي كتاب الجمعة

[٢] المعجم الأوسط للطبراني وصحيح ابن حبان عن كعب بن عجرة رضي الله عنه

[٣] نوع من احمرار الجلد ترافقه حكة

وأما الولائم التي كان يدعى إليها قبل عكوفه في بيته فكان لا يجيب منها إلا القليل ، ويعتذر من الداعي إليها ويدعو له بالخير والبركة ، وإذا أجاب أحداً كان مجلسه مجلس علم تخيّم عليه المؤانسة والمباسطة في الحديث ، مع احتفاظ الحاضرين بالآداب الشرعية .

فإذا قاموا إلى تناول الطعام كان لا يأكل إلا لقيمات ، ويوهم الحاضرين أنه يأكل ، فيمد يده إلى الإناء أمامه ويعطي منه فلاناً وفلاناً ، ولا ينهض إلا إذا فرغ الحاضرون كلهم من الطعام ، ويدعو لصاحب الطعام بما جاء عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك ، وكان من دعائه ما ورد في الحديث من الدعاء بعد الطعام :

[الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا ، وجعلنا من المسلمين] [١]

[اللهم أطعم من أطعمنا واسق من سقانا] [٢]

[أَفْطَرَ عندكم الصائمون وأكل طعامكم الأبرار، وتنزّلت عليكم الملائكة] [٣]

وكان إذا فرغ من الطعام لم ينهض حتى يفرغ الحاضرون جميعاً ،
ولم يكن يعرف ذلك بالنظر إليهم يمنة ويسرة ، لئلا يقع بصره على أحد منهم ، فربما حمله الأدب والحياء على التوقف عن الطعام ، أو تكلَف فيه
بل كان الشيخ يسأل من يليه سراً : هل فرغ الحاضرون من الطعام ؟
ويتصرف على مقتضى جوابه ، فيا لها من حسن رعاية فائقة من الشيخ بأحبابه ، ورفعة ذوقه وسمو لطافته رضي الله عنه .

قلت : وفعله هذا مراعاة منه لأمزجة وطبائع الحاضرين الذين يأكلون ، فربما كان أحدهم بطيئاً في أكله ونحو هذا ، فلو نهض الشيخ قبل أن يفرغ هذا لاستحيا من لم يكْتفِ بعدُ من الأكل ، ونهض حياء وأدباً .

---

[١] جاء في المسند ١٠٨٤٦ وسنن أبي داود كتاب الأطعمة وسنن النسائي واللفظ له عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا فرغ من طعامه قال : [الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وجعلنا من المسلمين]
[٢] انظره في مسند أبي يعلى الموصلي
[٣] انظره في سنن الدارمي كتاب الصلاة

ثم يقوم رضي الله عنه إلى غسل يديه ، ويتبعه الحاضرون فيلتفون حوله وربما مازحه بعض الفضلاء بقوله : ادع الله أن يهيّيء لنا غيره لنحظى بلقائك ثانية ، ثم يقول - أي الرجل - : اللهم هيّئ لنا غيره - أي غير هذا الطعام مرة أخرى - بالعَجَل العَجَل ، فيبتسم الشيخ رضي الله عنه وعلى وجهه علامة الرضا ويقول :

(اللهم اجمعنا على ما يرضيك ، واجعلنا إخوة متحابين فيك) . آمين

ثم يعود إلى مجلسه .

ومن الذين كان الشيخ الإمام رضي الله عنه يلبي دعوتهم ويُسرّ بهم لصلاحهم وطيب وحل مأكلهم :
آل ططري وعلى رأسهم جدي الكريم الحاج محمد ططري رحمه الله تعالى[١] ، ثم تبعه في ذلك أخوه الفاضل الحاج أحمد ططري رحمه الله تعالى[٢] .

وكان يدعو مولانا الوالد ومن أَحَبَّه يدعوه إلى ضيافته في مزرعة له قرب مدينة إزمير التركية ، وهي مشرفة على البحر ، وتتمتع بالصفاء والهدوء ويمكث مولانا الوالد مع أسرته الكريمة آخر الصيف قرابة شهر أو أكثر ، ولم تكن رحلته للنزهة والاستجمام فحسب ، بل كان يجتمع خلالها مع ضيوف الحاج أحمد من أهل العلم والصلاح في تركيا ، وربما أجابهم عن أسئلة شرعية ، وكثيراً ما كان يرشدهم إلى ما فيه نفع العباد والبلاد ، و يتفرغ أيضاً هناك لجمع كتاب ونحوه ، وبقي على ذلك من سنة ١٣٩٢ هـ إلى سنة ١٣٩٩ هـ .

ومن الذين كان يجيب دعوتهم أيضاً : الشيخ عبد اللطيف آل باذنجكي رحمه الله تعالى[٣] في كرم له شرقي حلب ، فكان يضيف مولانا كل يوم جمعة بعد فراغه رضي الله عنه من درسه بعد العصر في جامع بانقوسا ،

[١] المتوفى سنة ١٣٧٧ رحمه الله رحمة واسعة
[٢] المتوفى سنة ١٤٠٠ هـ رحمه الله رحمة واسعة
[٣] المتوفى سنة ١٣٩٠ هـ رحمه الله رحمة واسعة

ويمكث هناك إلى ما بعد صلاة العشاء ، ويتناول طعام العشاء عنده مع من حضر وقد يزيد عددهم على ثلاثين شخصاً من أقارب وغيرهم من أحباب الشيخ الذين يودّون لقاءه ، ولما توفي الشيخ عبد اللطيف رحمه الله تعالى خَلَفَه في ذلك ولده الأكبر السيد الحاج محمد آل باذنجكي[١] ، وجرى على سنة والده سنوات إلى أن جاور الشيخ الإمام في المدينة المنورة على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى السلام .

وممن كان يجيب دعوتهم ويسر عندهم أيضاً :
آل بللو ، وعلى رأسهم السيد الحاج محمود بن يوسف رحمه الله تعالى [٢] وابنه الحاج محمد وهو صهر الشيخ أيضاً لابنته ، فكان يطمئن إليهم لصلاحهم وورعهم في الكسب الحلال ، خاصة وقد عُرف الحاج محمود وقتها أنه المُصلح بين المتخاصمين من التجار ، وقد أيده الله تعالى بمنطق عذب ، ومتّعه بالحلم والأناة ، مع ابتسامة لا تفارق محياه ، مهما وجد من المتخاصمين ، حتى يصل بهم إلى الصلح والتراضي . [٣]

وقد أجاب الشيخ دعوة عدد من أحبابه والمقربين منه في مناسبات مختلفة منهم : آل عتر وآل كلش [٤]، والحمد لله .

---

[١] المتوفى سنة ١٤١٦ هـ رحمه الله رحمة واسعة

[٢] المتوفى سنة ١٤١٢ هـ رحمه الله رحمة واسعة

[٣] قلت : وآل بللو هم أهل نسب إلى سيدنا رسول الله عن طريق الإمام سعد الدين الجباوي الحسني إمام الطريقة السعدية المتوفى سنة ٥٧٥ هـ وهو من كبار مشاهير الصوفية ، يرجع نسب أبيه إلى الإمام الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه بينما يرجع نسب أمه إلى الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب.رضي الله عنه ولد في مكة المكرمة وتوفي بقرية جبا بمحافظة القنيطرة في سورية .
وإن الجد الأكبر لآل بللو هو الشيخ نجيب بللو بن محمود بللو ، ولا يزال يقام ذكر في زاويتهم الكائنة في محلة باب الحديد في حلب يديره الشيخ ويس بللو بن نور جزاه الله خيراً .

[٤] وكبير آل كلش هو الحاج الفاضل سعيد بن الحاج أحمد تغمدهما الله برحمته ورضوانه ، وكان الحاج سعيد ملازماً لسيدنا الشيخ محمد نجيب رضي الله عنه طيلة حياته ، وعندما كان مولانا الإمام محمد نجيب رضي الله عنه يخرج من درسه في جامع الحموي ويريد العودة إلى بيته في محلة دكاكين الحجاج (البلاط - ضوضو)

تأسيسه ورعايته لـ (معهد العلوم الشرعية)
المعروف بـ (المدرسة الشعبانية)
وتأسيسه لـ (جمعية التعليم الشرعي)

قال الشيخ الإمام رضي الله عنه :
لما بُدّل منهاج التعليم في المدرسة الخسروية ، وأُدخل فيها دراسة المواد الكونية على حساب العلوم الشرعية ، تأسّف والدي رضي الله عنه وحزن كثيراً لهذا الأمر ، لأن كل علم في رأيه يحتاج إلى تخصّص وتفرّغ وتوجّه إليه ، فكما لا يُسأل الطبيب والمهندس والفلكي عن فتوى شرعية ، كذلك لا يُسأل عالم الشريعة عن أمور تتعلق بالطب أو الهندسة وغيرها من العلوم الكونية ، وإنما يكفي طالب العلم الشرعي الاطلاع الإجمالي على تلك العلوم الكونية لتقوى حجّته على الملحدين والمنكرين ، ومن ناحية أخرى فإن علوم الشريعة بحد ذاتها واسعة كبيرة ، وإن كلاً منها يحتاج إلى دراسة وتخصص ، فأنى لطالب العلم الشرعي أن يجمع بينها وبين العلوم الكونية ؟!
وقد رأى مولانا الشيخ محمد نجيب رضي الله عنه رأى حضرة النبي صلى الله عليه وسلم في المنام ، وأَمَرَه صلى الله عليه وسلم أن يفتتح مدرسة تختص بتعليم العلوم الشرعية ، وقد تحدّث بهذا الأمر ، وشاور أصحابه وهمّ به ، إلا أن كبر سنه ووهن جسمه وملازمته البيت للراحة ، كل ذلك حال بينه وبين متابعة ما أراد .

يمر في طريقه على منزل الحاج سعيد في جب قره مان فيستريح عنده قليلاً ثم يتابع سيره إلى بيته ويرافقه الحاج سعيد وكان مولانا يقول له :
(إني لأحبك في الله محبة الوالد لولده) .
وبعد وفاة مولانا الشيخ محمد نجيب رضي الله عنه لازم الحاج سعيد مولانا الإمام عبد الله سراج الدين رضي الله عنه ملازمة تامة في جميع دروسه العامة والخاصة .
وللحاج سعيد رحمه الله من النساء زوجتان ، وهبه الله من الأولى ثلاثة ذكور وسبع إناث ومن الثانية سبعة ذكور وثلاث إناث .
وأكبرأولاده من الذكور السيد الحاج فاتح حفظه الله تعالى ورعاه ، والذي كان مولانا الشيخ عبد الله يقول له ولإخوته الكرام : (إن ابن السعيد سعيد) ، وكان لهذه الكلمة وقع طيب في نفوسهم من البشارة والاطمئنان .
ولد الحاج سعيد سنة ١٣٣٢ وتوفي سنة ١٤٠١ هـ رحمه الله تعالى رحمة واسعة .

ولم تمض بضع سنين حتى شرح الله صدري لتحقيق رغبة سيدي ووالدي رضي الله عنه ، وافتتحتُ مدرسة شرعية بدأت بصف واحد في غرفة في جامع الحموي ثم بِصفّين ، إلى أن وفقني الله تعالى للحصول على المدرسة الشعبانية التي كان قد أغلق معهدها وأُدمج في الثانوية الشرعية ، وبدأت الصفوف تكتمل بفضل الله تعالى ، حتى شاورت بعض المحسنين من أصحابي في إنشاء جمعية خيرية تُعنى بالإنفاق على طلاب العلم والأساتذة والعاملين في المدرسة .

وتمت الموافقة بحمد الله تعالى على تأسيس تلك الجمعية ، ونالت ترخيص الجهات الرسمية ، ولما عُرضت على المسؤول العام وقتئذ عن التراخيص ، نظر في طلب الترخيص وقال : (هذا ما أرجو أن ينفعني الله به إذا صرت في قبري) ، ووافق على طلب الترخيص والحمد لله رب العالمين ، حتى أُشهرت الجمعية وعُرفت بـ : (جمعية التعليم الشرعي).

ولما اكتملت صفوف المدرسة ست صفوف من الأول التحضيري حتى الثالث الثانوي [1] رأى بعض أصحابي من العلماء ممن حضر على سيدي الوالد رضي الله عنه - وكان ممن يدرّس في المدرسة أيضاً الفقه الشافعي وأصوله - رأى سيدي الوالد الشيخ محمد نجيب رضي الله عنه في المنام ، وقد بدا عليه أثر الجهد ، والعرق على جبينه ، وقال له :

(الآن أتممت لكم رَصْف الطريق الموصلة إلى المدرسة) .

ولما قص عليّ تلك الرؤيا استبشرت وفرحت ، وقلت : رحمة الله ورضوانه عليك يا والدي ، فقد رحلتَ من عالم الدنيا إلى عالم البرزخ ، ولا زلت تسأل الله تعالى أن يحقق رغبتك في إنشاء مدرسة شرعية ، وقد تمّت والحمد لله رب العالمين .

وقد توالت البشائر بفضل الله تعالى ، وأخذت المدرسة مكانتها ، واشتهرت بأساتذتها وطلابها ومناهجها ، حتى تشعّب عنها كل خير ، وجعل كل من أراد افتتاح مدرسة شرعية يستعين بنا لتحديد المناهج ، وتوزيعها على الصفوف ، ولا يزال الخير مستمراً والحمد لله . اهـ

وقال الشيخ الإمام رضي الله عنه :

وكان قد عمر المدرسة الشعبانية وجاور فيها كبار العلماء والأولياء من عرب وأعاجم وغيرهم ، ممن جاؤوا لطلب العلوم الشرعية والتخصص فيها ، وقد زارها أيضاً كبار الصالحين والعلماء والمحدّثين ، مما زادها بركة ومهابة وأنواراً يشهدها أهل الصفاء والتقى .

---

[1] وذلك سنة ١٣٨٢ هـ

وقد رأيت النبي الكريم صلى الله عليه وسلم مرة في المنام يصلي إماماً بالناس في ساحة المدرسة وهو يقف في موضع أذكره الآن .
كما رأيت في المنام والدي وسيدي الشيخ محمد نجيب ، وشيخي وسيدي الشيخ بدر الدين الحسني رضي الله عنهما قد زارا المدرسة ، ودخلا الغرفة التي كنت أقرأ فيها درس التفسير والحديث ، وجرى بيننا كلام فيه نور ونفع لطلاب العلم ، وأشارا عليَّ بإجازة أهل العلم بما أجازاني به في رواية الحديث الشريف ، ثم دخل بعض أهل العلم فأجزْته ، وجيء بالحلوى تكريماً وحفاوة . اهـ .
وقد كان رضي الله عنه يقول : لقد تشعّب عن المدرسة الشعبانية كل خير والحمد لله ، فقد تفرّع عنها دار لتحفيظ القرآن الكريم ، وتعليم القراءات ، وحلقات لقراءة الحديث الشريف .
وكم من مدرسة شرعية أُنشئت بعد المدرسة الشعبانية ، وقد استعانت بمناهجها والحمد لله .
وإن المدرسة الشعبانية وإن كانت حسب الظاهر متواضعة بجدرانها وبنيانها ، إلا أنها شامخة بمن عمرها ودرّس أو درَس فيها ، ولها مكانتها وعلو مرتبتها عند الله تعالى . اهـ
قلت : وقد بقي شيخنا الإمام رضي الله عنه يدير المدرسة ، ويرعاها بعنايته وتوجيهاته ودعواته حتى توفاه الله تعالى ، ولا زالت بفضل الله تعالى تخرّج طلاب العلم الأكفاء ، لمتابعة الدراسات العليا في شتى المعاهد والجامعات ، ومنهم الأئمة والخطباء والمدرسون .
وإن الشهادة التي تُمنح للطلاب بعد تخرجهم من المدرسة الشعبانية تخوّلهم الانتساب إلى كليات شرعية في عدة جامعات لمتابعة الدراسات العليا .
وكان شيخنا الإمام رضي الله عنه لا يترك في دعائه الدعاء للمدرسة الشعبانية وما يتبعها ، وللعاملين عليها ، والمدرسين فيها ، ولطلابها وإدارتها ، وكان يوصي المدرسين فيها كلما زاروه ، يوصيهم بالاهتمام وببذل الجهد في التعليم ، وأن يحافظوا على حلقات السلسلة العلمية الشرعية ، ولا يدَعوا النقص والضعف والتفكك يسري إليها ، فكما أخذوا العلم عن مشايخهم بقوة ، فعليهم أن يوصلوه إلى مَن بعدهم بقوة وهكذا .
وكان يشحذ همة المدرسين والطلاب أيضاً ، ويبشرهم بأن المدرسة الشعبانية محفوفة بالأنظار المحمدية صلى الله عليه وسلم ، فمن عمل فيها أو أسدى إليها معروفاً فقد ناله من النفحات والأنظار المحمدية على حسب صدقه وإخلاصه لله تعالى .

وكان من عادته رضي الله عنه في شهر رمضان المبارك أن يصلي العشاء والتراويح إماماً في جامع الحموي ، وبقي على ذلك سنين ، ثم نقل ذلك إلى جامع المدرسة الشعبانية ، حباً فيها ، وإحياء لها ، وخاصة أيام العشر الأخير من رمضان ، وكان يطيل الدعاء بعد الصلاة ، لِما لتلك الليالي المباركة من عظيم الفضل ومضاعفة الأجر .

ولله در القائل يمتدح معهد التعليم الشرعي ومؤسّسه الشيخ الإمام :

أستاذُ لا ننسى وداد أخوّة ... أبهى من الروض الجميل وأنضر
ما طيبُ نفسك عادة تسمو بها ... كَرَمُ النفوس غريزة لا تنكر
حلّت محبتك القلوب فكلّها ... شوق لوجهك حانيات تنظر
إني لأكبره وأكبر جهده ... وجهاده ، والجهد لا يُتصور
في معهد قدّمتَ أعظم خدمة ... في رفعه ، والحق دوماً يُذكر
وحملتَ هذا العبء وحدك راضياً ... إن الأمانة صعبة لا تقدر
ما زلت تسقيه الرعاية حلوة ... حتى غدت أزهاره تتنوّر
يتوافدون إليه كيما ينهلوا ... فمعينه الرقراق لا يتكدر
يبدو التفوق والنبوغ عليهم ... هِمم الرواسي لا تَنِي أو تفتر
في خدمة الشرع الحنيف حياتهم ... مَن كان هذا همّه لا يُقهر
أسّست بنياناً يُشاد على التقى ... هذا لعمري الذّخر بل هو أكبر
فجزاك رب الناس خير جزائه ... فالشكر ليس يَفِيك بل لا يقدر
بوركت يا أستاذُ من متواضع ... للحق لا يزهو ولا يتكبر
يكفى سراجَ الدين فخراً أنه ... أضحى سراجاً للشريعة يزهر
وبيانه السحر الحلال مسلسل ... وحديثه هدي الرسول معطر
وشمائل شهد الجميع بفضلها ... ومآثر كالشهد عنك لتؤثر
هذا التقى والعلم والورع الذي ... قد زانه يبدو عليك ويظهر
الله أكبر هذه أفعاله ... مهما وصفتُ فإنني لمقصّر
خلدتَ ذكرك في القلوب وإن مَن ... ينسى صنيعك أَذْكَرته الأعصر
الله أكبر ، أمّة في واحد ... قد طاب معدنه وطاب العنصر
من شاء أن يرقى إلى أوج العلا ... فليقْف إثر خطاك ، لا يتأخر
يا محسنون وهل لكم بتجارة ... فيها السعادة والنعيم الأكبر
مدّوا يد الإحسان نحو شبابه ... فالله يعطي من يشاء ويغفر
فلتجهدوا في رفعه ولتبذلوا ... طُراً ، كما جاد السحاب الممطر
ولئن تضافرت الجهود ووحّدت ... سيكون شأن لم ينله الأزهر
وتحج طلاب الشريعة شطره ... تغدو إليه بهمة وتبكر
ولئن تنافست البلاد وفاخرت ... فمدينة الشهباء فيكم تفخر

وقيل في ذكرى افتتاح المدرسة الشعبانية بمساعي الإمام الشيخ عبد الله سراج الدين رضي الله عنه :

أسفر الصبح بنور الأمل	وانجلى الليل وطاب الوقت لي
هذه دار التقى قد فتحت	وَزَهَتْ بالخير والفضل الجلي
يا سراج الدين بوركتَ كما	بوركت داركم من منزل
أنت عبد الله يا من جدّكم	أحمد الهادي أمير الرسل
هذه روح أبيكم رفرفت	حول هذا الروض عذب المنهل
برضاء الله أضحى معهداً	لعلوم من لدنه تنجلي
قام بالإيمان حتى خِلْته	لشفاء القلب أعلى مثل
وهدى القرآن فيه يلتقي	بأحاديث النبي الأكمل
أيها الدهر فخوراً تِه بما	حقّق الدهر لنا من أمل
لا يشوق القلبَ نزل أبداً	إنما الحب لمن في النُّزُل

مناصبه الدينية ووظائفه العلمية

أنهى مولانا الوالد رضي الله عنه دراسة العلوم الشرعية في المدرسة الخسروية ، ثم ترك المدرسة في الصف السادس عندما أدخلوا في المنهاج مواد كونية ، وألزموا الطلاب بالتأخر إلى الصف الرابع لدراسة تلك المواد وقد ترك المدرسة ولم يحصل على الشهادة ، إلا أنه اجتهد في طلب العلوم الشرعية اجتهاداً قوياً ، وذلك لما عكف في غرفة سيدنا الشيخ محمد نجيب رضي الله عنه في الشعبانية ومكث فيها قرابة السنتين ، وهو يطالع في الكتب المطولة التي يأخذها من مكتبة سيدنا الشيخ محمد نجيب رضي الله عنه

قال الشيخ الإمام رضي الله عنه :

(وكان والدي رضي الله عنه يشقّ عليه أن يوكّل أحداً من أهل العلم في التدريس عنه ، إن هو سافر أو منعه المرض من التدريس ، فلما رأى فيّ الأهلية واللياقة لِما أحفظه من كتاب الله تعالى وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم واطلاعي الواسع على تفاسير القرآن الكريم ، جعل يوكلني في التدريس نيابة عنه ، بسبب كبر سنه ووهن جسمه ، وكان يرغب أن يكون ذلك نظامياً ورسمياً لدى دائرة الأوقاف والمحافظة .

فحصل مرة أن أُعلن في دائرة أوقاف حلب عن شاغر في الدروس في مسجد (أبي درجين) الواقع في محلة الجلوم .

وكان هذا الدرس موقوفاً على المحدّث الأصولي الشيخ أحمد [1] بن مصطفى المكتبي الحلبي الأزهري الشافعي ، فتقدمتُ بطلب وظيفة الدرس ، وإن كل من تقدم بذلك وقتها سيخضع لامتحان في العلوم الثمانية - وهي استظهار القرآن الكريم وتجويده وتفسيره ، علم الحديث الشريف ومصطلحه ، علم النحو والصرف والبلاغة والمنطق - .

ولما آن وقت الامتحان لاختيار الفائز فيه للتدريس في جامع (أبي درجين) لم يحضر الامتحان أحد غيري ، بعد أن كان قد تسارع إليه ثُلّة من المتسابقين من أهل العلم .

---

[1] وإن المحدث العلامة الشيخ أحمد المكتبي كان قد أشار على أخيه الشيخ وحيد بتزويج ابنته من المحدّث العلامة العارف بالله تعالى الشيخ محمد نجيب سراج الدين ، وتم الزواج بعد أن تولى العقد عمها الشيخ أحمد ، وذهب والدها إلى الحرب المعروفة (سَفَرْبَرْلِكْ) وهي أيام الحرب العالمية الأولى ، فكان عمها الشيخ أحمد يزورها وكان لها بمنزلة الوالد ، ويدعو لها ولأولادها .

وكان منافسي في الفحص رجل من علماء حلب وكان يكبرني في السن أربعين عاماً تقريباً ، علماً أنه لم يحضر الامتحان أيضاً .
وإن الذي سيقوم بإعطاء نتيجة الفحص الشيخ عبد الحميد الكيّالي الطيار [١] - المفتي العام وقتئذ - والشيخ إبراهيم الترمانيني [٢] - وهو القاضي الممتاز وقتئذ - وهناك الشيخ راغب الطباخ ، والشيخ نجيب خياطة [٣] مشرفان معهما وكان السؤال في الامتحان أن أتوا بعبارة من كتاب (التوضيح) في علم الأصول [٤]، وطلبوا أن أتكلم على تلك العبارة من ناحية الأصول والمنطق والبلاغة والنحو والصرف بعد شرح العبارة ، وكانت إجابتي بحمد الله تعالى مُسدّدة محكمة ، وأسهبت في الإجابة حتى طلب مني الشيخ الفقيه عمر مكناس - وكان مراقباً وقتئذ - طلب مني أن أتوقف عن الكتابة بعد أن كنت سطّرت عدة أوراق وقال لي : كفاك يا بن شيخنا فقد أجدْت وأحسنت . وأخذ الأوراق مني لأن وقت الدوام في دائرة الأوقاف قد انتهى ، وقد نجحت في الامتحان بدرجة عالية .
ثم أُسند إلي تدريس طلاب العلم في مسجد (أبي درجين)،
فباشرت تدريسهم الفقه والنحو وغيرها كل يوم عدا يوم الجمعة . اهـ.
قلت : وأصل الدرس للشيخ أحمد المكتبي الكبير [٥] وذريته ، ثم تولاه عنه ابنه الشيخ محمد مكتبي ، ثم الأستاذ محمد سراج الدين ، باعتبار أن زوجته بنت الشيخ محمد المكتبي ، وقد استقال الأستاذ محمد سراج الدين من الدرس ، والتحق بوظيفة حكومية ، ثم قام بالدرس سيدي الوالد رضي الله عنه ، ومرتّبه وقتئذ تسع ليرات سورية واستمر الأمر كذلك إلى أن عُين مديراً للأوقاف رجلٌ من عائلة الأهدلي ، وصنّف المدرسين تصنيفاً جديداً ، فجعل درس سيدي الوالد رضي الله عنه موازياً لدرس سيدنا الشيخ محمد نجيب رضي الله عنه أي في الدرجة الممتازة فارتفع راتبه إلى ثلاث وستين ليرة سورية ، فجزاه الله خيراً .

---

[١] هو الشيخ عبد الحميد بن الشيخ أحمد الذي ينتهي نسبه إلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم المتوفى سنة ١٣٧٥ هـ رحمه الله

[٢] هو الشيخ إبراهيم بن الشيخ عبد السلام الترمانيني الفقيه الحقوقي المتوفى سنة ١٣٧٤ هـ رحمه الله

[٣] شيخ القراء في مدينة حلب الشهباء وقتها الشيخ محمد نجيب بن الحاج محمد خياطة العلامة الفقيه المتوفى سنة ١٣٨٧ هـ رحمه الله

[٤] (التوضيح لمتن التنقيح) في أصول الفقه للإمام القاضي صدر الشريعة عبدالله بن مسعود المحبوبي البخاري الحنفي المتوفى سنة ٧٤٧ هـ رحمه الله

[٥] المتوفى سنة ١٣٤٢ هـ رحمه الله رحمة واسعة

قال سيدنا الشيخ : ثم دُعيت للتدريس في معهد العلوم الشرعية في المدرسة الشعبانية ، الذي أنشأته دائرة الأوقاف عوضاً عن المدرسة الخسروية في عهدها الأول على منهاجها قبل التبديل ، فكنت أدرّس فيها التفسير والحديث الشريف والفقه ومصطلح الحديث في الصف الرابع ، وكان مقرر الفقه هو الجزء الثاني من كتاب الاختيار [1] ، وفيه أحكام البيوع وجملة من أبواب المعاملات .

ثم أسندت إلي إدارة المدرسة تدريس علم الأصول ، فكنت أرجع إلى المصنفات المطولة في هذه العلوم وألخّص منها ، ومما أعانني على ذلك أن جميع الكتب العلمية من مبادئها إلى مُطوَّلاتها كانت متوفرة في مكتبة شيخي ووالدي رضي الله عنه ، وعليها تعليقاته ، وقد أفاض علي من بركاته وعلومه ، ونفعني الله تعالى بدعواته ، فجزاه الله عني وعن المسلمين خير الجزاء .

ثم أُسندت إلي إدارة المدرسة الشعبانية ، فجمعت طلاب العلم على صفاء القلب والمودة فيما بينهم ، ثم اعتذرتُ عن إدارة المدرسة لكثرة مشاغلي في التدريس والتصنيف ، ثم دعيتُ إلى التدريس في الثانوية الشرعية بعدما أُدمج معهد العلوم الشرعية وألحق طلابه في الثانوية الشرعية ، فكنت أدرّس فيها علم الحديث وفنّ مصطلحه في المرحلة الثانوية ، والفقه المشتمل على أنواع البيوع وبقية المعاملات من شرح (الاختيار) ، في الصف الثالث صف الشهادة المتوسطة .

وطلبت مني إدارة المدرسة جمع إملاءات في علم المصطلح لتُقرَّر على الصفوف الثلاثة ، وقد قدمتُها لإدارة المدرسة ، فقامت بطبعها وتوزيعها على الطلاب ، ثم طُلب مني أن أدرّس في المدرسة أيضاً مواد علمية أخرى فاعتذرت عن ذلك لكثرة مشاغلي ، لأني كنت أقرأ كل يوم درساً في جامع الحموي صباحاً ، خلفاً عن سيدي والدي رضي الله عنه .

كما أُسند إلي درس في الجامع الأموي الكبير بعد صلاة الظهر من كل يوم اثنين ، بدلاً عن درس مسجد (أبي درجين).

كما أسند إلي درس المحافظة في جامع بانقوسا بعد صلاة العصر من كل يوم جمعة ، والحمد لله رب العالمين .

---

[1] كتاب (الاختيار لتعليل المختار) في الفقه الحنفي لمؤلفه الإمام : عبد الله بن محمود بن مودود بن محمود ، أبو الفضل مجد الدين الموصلي - والموصلي : نسبة إلى الموصل من بلاد جزيرة ابن عمرو - المتوفى سنة ٦٨٣ هـ رضي الله عنه

عمله في اليوم والليلة

إن سيرة أئمة القوم وساداتهم تكون مناراً مضيئاً لمن بعدهم ، كي يتّأسّوا بها ما استطاعوا ، خاصة أنهم رضي الله عنهم كانوا حريصين كل الحرص على التمسك بما ورد عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واتباعه في كل ما أمر به وندب إليه .

وإن شيخنا الإمام رضي الله عنه ـ كما أخبر عن ذلك في مناسبات عديدة ـ كان قد حفظ القرآن الكريم عن ظهر قلب وله من العمر اثنتا عشرة سنة ، وكان في وقتها يقرأ كل يوم خمسة أجزاء على الأقل .

ثم إنه لما تمكّن من حفظ طائفة كبيرة من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل يذاكر كل يوم طائفة منها لئلا يتفلت منه شيء منها .

وإن تلاوة القرآن الكريم من أعظم القربات إلى الله تعالى ، كما قال صلى الله عليه وسلم :

[ما من كلام أعظم عند الله من كلامه ، وما ردّ ـ أي ما تقرّب ـ العباد إلى الله كلاماً أحب إليه من كلامه] [1]

وكذلك فإن لتلاوة أحاديث رسول الله أجراً كبيراً ونوراً وسكينة ، يجد ذلك أهله .

وقد قال سبحانه في سياق خطابه لزوجات سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أمهات المؤمنين رضي الله عنهن :

{ واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة } الآية .

يعني : القرآن الذي هو كلام الله ، والأحاديث التي هي كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بوحي من الله تعالى إليه .

كما كان شيخنا الإمام رضي الله عنه مواظباً على قراءة (دلائل الخيرات) في الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم منذ نعومة أظفاره .

وقد أخبرتنا والدتي الكريمة ـ رحمها الله رحمة واسعة ـ أن شيخنا الإمام رضي الله عنه لم يترك قيام الليل منذ دخلتْ بيته المبارك .

فكان يقوم وقت السحر ـ أي : ثلث الليل الآخر ـ ويصلّي ما قُدر له ، ويطيل القراءة في صلاته ، ويجهر بها أحياناً ، ويدعو بالأدعية الواردة عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا الوقت ، ثم يختم ذلك بالاستغفار حتى يطلع الفجر وهو جالس في مصلاه ،

---

[1] سنن الدارمي كتاب فضائل القرآن

ثم ينهض فيوقظ أهله وبعض أولاده ويصلي الفجر بهم إماماً ويقنت في صلاته ، وقد يطيل دعاء القنوت أحياناً، ويلحّ في الدعاء لرفع بلاء وقضاء حاجة .

ويُشْرِك في دعائه أهله وأحبابه خاصة ، والمؤمنين في مشارق الأرض ومغاربها عامة ، وكل ذلك عملاً بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويعرف ذلك من كان له دراية بأحاديث سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وبعد فراغه من صلاة الفجر يبقى جالساً يذكر الله تعالى بالأدعية والتسبيحات والتحميدات والثناءات الواردة عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

- وقد جمع الشيخ الإمام رضي الله عنه جملة كثيرة منها في رسالة خاصة سماها : (أدعية الصباح والمساء)، وفي كتابه (الأدعية والأذكار الواردة آناء الليل وأطراف النهار).

ويبقى كذلك حتى تطلع الشمس ، وكان في ليالي الشتاء الباردة يشير إليّ وهو جالس في مصلاه أن أضع عباءته أو رداءه الصوفي على ظهره ، ويلقيه على كتفيه .

ثم يقوم للصلاة في ضحوة النهار الصغرى ، ثم يلبس جبته ويضع عمته ويمضي إلى جامع الحموي ماشياً ، وبصحبته رجل من أحبابه المقربين منه فيحمل عنه - من باب التبرك والأدب - يحمل عنه الكتاب المناسب لموضوع الدرس ، إن كان تفسيراً لآيات الله تعالى ، أو بياناً لأحاديث سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم من صحيح البخاري أو رياض الصالحين للإمام النووي رضي الله عنهم أجمعين .

فإذا رجع من الدرس جلس قليلاً للراحة ، ثم يتناول طعام الفطور ويقتصر طعامه على قطعة خبز أو كعك مع الجبن وقدح من الشاي الخفيف ، وربما يأكل في بعض الأحيان الحلوى المعروف بـ (المربّى) ، وهو من المشمش أو السفرجل .

ثم بعد ذلك يتوجه إلى المدرسة الشعبانية للإشراف على إدارتها ، وقد يكون له فيها بعض الدروس .

أما الأيام التي لا يدرّس فيها في جامع الحموي فيقوم بعد طعام الفطور ويأخذ جزءاً من الراحة ، ويضطجع على أريكة مخصصة له ، ثم ينهض إلى المدرسة الشعبانية .

وأما الفترة التي سبقت افتتاحه للمدرسة الشعبانية ، فكان له دروس في المدرسة الخسروية المعروفة الآن بـ (الثانوية الشرعية).

فيبقى فيها حتى منتصف النهار حيث كان يدرّس مادة التفسير والحديث ومصطلح الحديث .
وقد أملى على الطلاب إملاءات في علم مصطلح الحديث كان قد جمعها من كتب المصطلح ، وبسّط عرضها ووضح معانيها ، تسهيلاً على طلاب العلم ثم إنه رضي الله عنه زاد عليها ورتّبها ، ثم صنفها كتاباً ، انتشر تدريسه في كثير من المدارس الشرعية في مختلف البلاد، وهو :
(شرح المنظومة البيقونية في مصطلح الحديث [1])
حتى إذا اقترب وقت زوال الشمس رجع إلى بيته ماشياً من المدرسة الشعبانية وبصحبته اثنان أو ثلاثة من أحبابه المقربين منه ، ويسلك في طريق عودته منطقة الفرافرة إلى ما حول القلعة ، حيث إن البيت كان قريباً من مدخل منطقة البيّاضة جهة جامع الحموي ، وربما يستقل سيارة في العودة أيام الحرّ والبرد الشديد ، فيدخل البيت ثم يتوضأ ويقوم إلى صلاة الظهر إماماً بمن حضر من أهله ، ثم يجلس معهم يبادلهم الحديث حول أمور عائلية وقضايا منزلية ، وربما أجاب سائلاً عن أمر شرعي كفتوى أو بيان حكم ، وهكذا إلى وقت الغداء فيتناول ما قُدّر له ثم يقوم إلى أريكة مخصصة له ليأخذ قسطاً من النوم إلى قبيل العصر ، وذلك أيام الصيف حيث يطول النهار ويقصر الليل .
أما يوم الاثنين فكان له فيه درس عقب صلاة الظهر في الجامع الأموي الكبير ، حتى إذا فرغ منه رجع إلى البيت كعادته كما تقدم .
وكان له في ذلك اليوم أيضاً مجلس ذكر لله تعالى ، وذلك في جامع سليمان الأيوبي بعد صلاة العشاء ، ثم نَقَله إلى جامع العثمانية ، وانظر تفصيل ذلك في موضعه في هذا الكتاب .
أما أوقات مطالعته وتحضيره للدروس العامة والخاصة فلم تكتسب طابعاً رسمياً ، لكنها كانت في معظم الأحيان صباحاً قبيل ذهابه إلى المدرسة الشعبانية ، وبعد صلاة العصر ، وبعد صلاة العشاء ، وفي ضحوة النهار الكبرى يوم الاثنين ، قبل ذهابه لدرس الجامع الأموي الكبير ، حيث كان يرجع في ذلك اليوم من المدرسة الشعبانية باكراً.

---

[1] وكان للشيخ الإمام رضي الله عنه درس كل يوم بعد شروق الشمس في جامع الحموي ، عدا يوم الجمعة ، فيقرأ يوماً درس تفسير ، وفي اليوم الثاني درس حديث شريف ، ثم درس سيرة شمائل المصطفى صلى الله عليه وسلم ، ودرس فقه ، ولما كثرت دروسه ومشاغله في التدريس وإدارة المدرسة الشعبانية اقتصر على ثلاثة دروس في جامع الحموي موزعة على أيام الأحد والأربعاء والخميس .

ثم يعطي جسمه حقه في الراحة ، فيقيل فترة تطول وتقصر ،على حسب طول الأيام في الصيف وقصرها في الشتاء .

وله بعد صلاة العصر وقت يقرأ فيه من القرآن ما تيسر له ، ويجهر أحياناً بالقراءة مرتّلاً بصوت شجي يأخذ بالقلوب .

وكان من عادته رضي الله عنه في أيام الصيف الطويلة أن يخرج مع بعض أصحابه في نزهة إلى طرف البلدة جهة (قرية المسلمية) أحياناً ، وإلى غير جهة أحياناً ، ويرجع قبيل المغرب ، وغالباً ما تكون وجهته ناحية مقبرة الشيخ سعود ، حيث مثوى والده العلامة العارف الشيخ محمد نجيب رضي الله عنه فيتوقف قليلاً داخل السيارة ، ويسلّم على والده الكريم ، ثم يقرأ ويدعو ، ثم يتوجه ناحية محلة العرقوب حيث مثوى الولي الشهير العارف الكبير الشيخ أبي بكر الوفائي رضي الله عنه فيتوقف أيضاً ويسلم عليه ويقرأ ويدعو ..

وهكذا ربما يخرج ناحية غرب البلد في الطريق الرئيسي إلى دمشق ، وما حول ذلك الطريق .

وأذكر أنه في صغري كنت خرجت معه في طريق قرية (المسلمية) مرات عديدة ..

فإذا رجع إلى البيت صلى المغرب إماماً بمن حضر من أهله ، ثم جلس في مصلاه يقرأ الأدعية والأوراد المأثورة عن سيدنا رسول الله في هذا الوقت ، وله حصة من تلاوة القرآن الكريم جهراً ، حتى إذا حضر وقت العشاء قام للصلاة ، فإذا فرغ منها تناول طعام العشاء ، وجلس مع أهله وأولاده يتناول معهم أحاديث علمية دينية ، ثم يقوم إلى النوم ، ولم يكن يتمدد في فراشه على وجه الاستلقاء الكلي بجسمه ، ولكن يسند رأسه إلى عدة وسائد والسبحة بيده حتى يغلبه النوم ، ثم يقوم إلى التهجد قبل أذان الفجر بساعتين أو أكثر على حسب اختلاف طول الليل في الشتاء وقصره في الصيف وهكذا.

وكان رضي الله عنه كثيراً ما يسمع تسجيلات للرعيل الأول من قرّاء القرآن الكريم رحمهم الله تعالى ، ويُسَرّ خاصة بسماع آيات الله بتلاوة الشيخ محمود أحمد عبد الحَكَم [1] والشيخ مصطفى إسماعيل [1] رحمهما الله ، وغالباً ما يكون استماعه لذلك بعد صلاة العشاء .

---

[1] القارىء العابد الزاهد الذي حباه الله صوتاً متميزاً ، والشيخ محمود أحمد عبدالحكم من مواليد صعيد مصر توفي سنة ١٤٠٢ هـ رحمه الله

قلت : وإن الشيخ محمود أحمد عبدالحكم قَدِمَ حلب ـ حرسها الله ـ بصحبة الشيخ الكبير أبي العباس الدندراوي رحمه الله في أواسط الأربعينات من القرن الثالث عشر الهجري ـ شيخ الطريقة الرشيدية الإدريسية في مصر أثناء عصره ـ واستقبله الشيخ محمد نجيب رضي الله عنه ، وتبادلا الإجازات والمبايعات .

أما الشيخ مصطفى إسماعيل فقد قدم حلب أيضاً سنة ١٣٧٧ هـ واستقبله وجهاء حلب ومنهم المرحوم الشيخ عبد اللطيف بن الشيخ محمد آل باذنجكي [٢] في كرم له ناحية الشرق من حلب ، وكان سيدي الوالد ممن رحب بالشيخ مصطفى ، وحضر معه مأدبة العشاء في الكرم ، وقرأ الشيخ مصطفى حتى أخذ بقلوب الحاضرين .

قلت : وقد كان الشيخ مصطفى إسماعيل رحمه الله يُتقن علم الألحان ، ويتغنى في تلاوته للقرآن دونما خروج عن أحكام التجويد ، ويأتي بالحروف من مخارجها ، ويلفظها بصفاتها التي نص عليها علماء القراءات وحصل له خير كثير بزيارته للشيخ السيد عبد القادر الهلالي الحسني رضي الله عنه ، وأطلعه الشيخ عبد القادر على ألحان يؤتى بها في حلقة الذكر عنده ، حتى دُهش الشيخ مصطفى وعجب من علوم الشيخ عبد القادر في شتى المجالات .

وقد قرأ الشيخ مصطفى إسماعيل في الجامع الأموي الكبير سورة { ق } بصوت شجي ندي وألحان متنوعة ، حضر لسماعها كثير من أهالي حلب وقتها ، كما قرأ في جامع بانقوسا شيئاً من سورة الإسراء وأذّن لصلاة المغرب عند ختم قراءته ، وهي موجودة في الموقع الرسمي للعلامة الشيخ عبد الله سراج الدين رضي الله عنه [٣] في شبكة المعلومات (الإنترنت) لأنها من القراءات النادرة .

ولما غادر الشيخ مصطفى إسماعيل مدينة حلب ـ مودَّعاً من أهلها بالحفاوة التي استقبل بها ـ قال للحاضرين كلمته المشهورة :

(لقد قرأت كثيراً في مناسبات دينية عديدة ، وفي بلدان كثيرة ، لكنني لم أجد آذاناً تتذوق الصوت الندي واللحن الشجي كآذان أهل حلب)

ـ قالها بلهجته المصرية رحمه الله ـ .

---

[١] ابن قرية ميت غزال في مصر ، واسمه الكامل: مصطفى محمد المرسي إسماعيل توفي سنة ١٣٩٨هـ رحمه الله

[٢] المتوفى سنة ١٣٩٠ هـ رحمه الله

[٣] www.srajalden.com

قلت : وكان شيخنا والدنا الكريم رحمه الله ورضي عنه يحب التغني بالقرآن عملاً بقوله صلى الله عليه وسلم : (ليس منا من لم يَتَغَنَّ بالقرآن)[١]

لأن قراءة القرآن بصوت شجي ولحن مناسب أبلغ في إيصال المعاني إلى القلوب وأشد وقعاً في النفوس .

وقد جاء في الحديث عن أنس رضي الله عنه قال :

(ما بعث الله نبياً إلا حسن الوجه حسن الصوت ، وكان نبيكم صلى الله عليه وسلم أحسنهم وجهاً وأحسنهم صوتاً)[٢]

وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن زيد أن يلقي ألفاظ الأذان على بلال رضي الله عنهما وعلل ذلك بقوله :

[فإنه أندى وأمَدُّ صوتاً منك][٣]

ولما قَدِم جبير بن مطعم المدينة - وكان مشركاً - سمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم - وكان صلى الله عليه وسلم يصلي المغرب - سمعه يقرأ سورة الطور[٤]:

قَالَ : سَمِعْتُ النَّبِيَّ يَقْرَأُ فِي الْمَغْرِبِ بِالطُّورِ ، فَلَمَّا بَلَغَ هَذِهِ الْآيَةَ :

{أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ * أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بَلْ لا يُوقِنُونَ * أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ }

قَالَ : كَادَ قَلْبِي أَنْ يَطِيرَ[٥]

وفي رواية : فَكَأَنَّمَا صُدِعَ قَلْبِي حَيْن سَمِعْتُ الْقُرْآنَ[٦]

وفي رواية : فَكَأَنَّمَا صُدِعَ قَلْبِي لِقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ[٧]

وفي رواية : وَذَلِكَ أَوَّلَ مَا وَقَرَ الْإِيمَانُ فِي قَلْبِي[٨]

ثم أسلم وحسن إسلامه رضي الله عنه[١]

---

[١] رواه الإمام أحمد في مسنده عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ، ورواه الإمام البخاري في صحيحه كتاب التوحيد .

[٢] عزاه الإمام ابن حجر في الفتح للترمذي ورواه ابن سعد في الطبقات

[٣] مسند الإمام أحمد ١٥٨٨٢ وسنن الترمذي كتاب الصلاة واللفظ له عن عبد الله بن زيد رضي الله عنه ورواه بقية أصحاب السنن

[٤] قال في الفتح : وهذا كانَ قبل أن يسلم جبير بن مطعم ، وكان قدِم المدينة لفداء أسارى بدر ، وفي هذا : دليل على قبول رواية المسلم لِما تحمّله من العلم قبل إسلامه اهـ . ٢٣٢/٥

[٥] صحيح البخاري كتاب تفسير القرآن

[٦] مسند الإمام أحمد ١٦٤٣٤

[٧] مسند أبي داود الطيالسي والمعجم الكبير للطبراني

[٨] صحيح البخاري كتاب المغازي

تبركه بالأثر النبوي الشريف

لقد كان أصحاب سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يتبركون بكل شيء مسّه جسد رسول الله صلى الله عليه وسلم أو مسّته يده الشريفة ، وكانوا يتزاحمون على الفوز بشيء من نخامته أو بصاقه أو ماء وضوئه أو أظافره أو عرقه أو شعره الشريف صلى الله عليه وسلم ، وذلك ليحتفظوا به ويتبركوا به ، لأنهم علموا وأيقنوا أن أجزاءه صلى الله عليه وسلم وذراته الشريفة كلها فياضة بالخيرات والبركات والأسرار والأنوار ، إذ إنها شهدت عباداته لله تعالى وتجليات الحق سبحانه عليه .

وقد ذكر شيخنا الإمام رضي الله عنه وقائع متعددة تبيّن تبرّك الصحابة رضي الله عنهم بأجزاء سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وآثاره الطيبة المباركة في كتابه :

(سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم - شمائله الحميدة - خصاله المجيدة).

ولا تعجب من ذلك أيها المؤمن العاقل فلو كنت في زمن الصحابة رضي الله عنهم لفعلتَ مثلهم بدافع إيمانك ومحبتك الإيمانية لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولو لم تفعل مثلهم لاتُّهمت بالنفاق والعياذ بالله تعالى .

وقد جاء في صحيح الإمام البخاري من حديث صلح الحديبية قال :

ثم إن عروة - الذي جاء وقتئذ وسيطاً من المشركين في مكة - جعل يرمق أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم بعينيه قال : فوالله ما تنخّم رسول الله صلى الله عليه وسلم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فدَلَك بها وجهه وجلده ، وإذا أمرهم - أي : رسول الله صلى الله عليه وسلم بأمر - ابتدروا أمره ، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه ، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده ، وما يحدّون إليه النظر تعظيماً له .

فرجع عروة إلى أصحابه فقال : أيْ قوم والله لقد وفدت على الملوك ، ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشي ، والله إن رأيت - أي ما رأيت- ملكاً قط يعظّمه أصحابه ما يعظّم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم محمداً .... الحديث [٢]

---

[١] قال الحافظ الزرقاني في شرحه للموطأ : أسلم يوم فتح مكة ، وقيل : قبله ، وكان أحد الأشراف ، ومن حلماء قريش وساداتهم ، عارفاً بالأنساب ، مات سنة ثمان أو تسع وخمسين .

[٢] صحيح البخاري كتاب الشروط

قلت : وكان من عادته رضي الله عنه كل ليلة قبل أن يقوم إلى النوم أن يتناول الأثر الشريف بكلتا يديه ، ويتوجه إلى القبلة ويقبّله ويمسح به عينيه ووجهه ورأسه وصدره ، ثم يبدأ الحاضرون من أولاده وأحفاده بالتقدم لتقبيله والتمسح به ، والأثر الشريف في يديه رضي الله عنه ، والألسنة تلهج بالصلاة والسلام على النبي صلى الله عليه وسلم ، حتى إذا فرغ الحاضرون من تقبيل الأثر الشريف والتبرك به ، بدأ شيخنا الإمام بالدعاء والتضرع إلى الله تعالى متوسلاً بسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وكان من دعائه :

(اللهم صل وسلم و بارك على سيدنا محمد وأزواجه وذريته وآل بيته وعلينا معهم أجمعين ، كما صليت وسلمت وباركت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد ، صلاة تشفينا بها من كل داء وتعافينا بها من كل بلاء ، وأفض علينا يا مولانا من بركاته صلى الله عليه وسلم وأنواره وأسراره ونفحاته نفحات محمدية تسعدنا بها في الدنيا والآخرة) .

وكان شيخنا الإمام رضي الله عنه إذا اجتهد في الدعاء يردد هذه الأبيات :

إلى بابك العالي مددت يد الرجا ومن جاء ذاك الباب لا يختشي الردى
سألتك يا الله مستشفعاً بمن ضِيا وجهه الوضاء يبرق في الدجى
صلى الله عليه وسلم أبداً أبداً

ويقول أيضاً:

بالذل قد وافيت بابك عالماً أن التذلل عند بابك ينفع
وجعلت معتمدي عليك توكلاً وبسطت كفي سائلاً أتضرع
فبحق من أحببتَه وبعثته وأجبت دعوة من به يتشّفع
اجعل لنا من كل هم مخرجاً والطف بنا يا من إليه المرجع
ثم الصلاة على النبي وآله خير الورى ومن بهم يتشفع

وصل اللهم وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه عدد خلقك ورضاء نفسك وزِنة عرشك ومداد كلماتك ، كلما ذكرك وذكره الذاكرون ، وغفل عن ذكرك وذكره الغافلون ، وعلينا معهم أجمعين ، وعلى والدينا ومشايخنا ومن له حق علينا ، وعلى جميع المؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات .آمين والحمد لله رب العالمين . اهـ

وكان رضي الله عنه إذا مرض أو شكا ألماً لجأ إلى الأثر الشريف وقبّله وتمسّح به ، ودعا الله تعالى مستشفياً بأثر رسول الله صلى الله عليه وسلم الفياض بالخيرات والبركات .

والأثر النبوي الشريف هو شعرة من شعر لحيته الشريفة صلى الله عليه وسلم ، لأنها في لونها إلى الشيب أقرب ، وهي من شعرعنفقته الشريفة المباركة صلى الله عليه وسلم حسبما جاء في سندها [1] ، وقد استوهبها جدي الفاضل السيد الحاج محمد بن صالح ططري رحمه الله تعالى استوهبها من الشيخ عوني إخلاصي [2] رحمه الله تعالى ، وأهداها إلى شيخنا الإمام رضي الله عنه ، علماً أن الحاج محمد رحمه الله تعالى كان يقدّمها لسيدنا الشيخ محمد نجيب رحمه الله أحياناً ، وتبيت عنده تبركاً بها .
ويؤيد صحة تسلسلها سند مرفق معها وهي موضوعة في زجاجة محكمة الإغلاق ، وفي نهايتها قليل من الشمع متصل بها ، ثم إن هذه الزجاجة موضوعة في أسطوانة مصنوعة من الذهب ، ونقش عليها :
(لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم).
وهذه الأسطوانة ملفوفة بقطعة قماش أخضر ، وتفوح منها رائحة العطر الذكية دون أن يمسّها أحد بطيب .
وإن شيخنا الإمام رضي الله عنه كان يعظّم هذا الأثر النبوي الشريف ويضعه في أعلى مكتبته الخاصة به .

---

[1] جاء في صحيح البخاري عن سيدنا عبد الله بن بسر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان في عنفقته شعرات بيض .
وفي مسلم عن أنس رضي الله عنه قال : " لم يخضب رسول الله وإنما كان البياض في عنفقته ، وفي الصدغين ، وفي الرأس نبذ " أي متفرق ، والعنفقة هي شعر في الشفة السفلى وقيل شعر بينها وبين الذقن كما في حاشية السندي على ابن ماجه

[2] الشيخ أحمد عون الله بن الشيخ عبد الله الإخلاصي وينتهي نسبه إلى الشيخ إخلاص الخلوتي شيخ الزاوية الإخلاصية الرفاعية وقد توفي سنة ١٣٩٢ هـ رحمه الله

أدعيته رضي الله عنه

لقد كان الشيخ الإمام رضي الله عنه يكثر من الدعاء في خَلَواته وجَلَواته ، وفي مجالسه الخاصة والعامة ، وفي حلقات الدرس وفي الذكر ،
ويقول في ذلك : لقد قال صلى الله عليه وسلم : [الدعاء سلاح المؤمن] [1]
[الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل ، فعليكم عباد الله بالدعاء] [2]
ولما كان رضي الله عنه يتكلم في موضوع الرجاء وسعة مغفرة الله تعالى لمن ارتجاه ورجع إليه سبحانه ، كان يذكر في هذا السياق :
أن من أعجب ما نُقل عن أبي النواس [3] في هذا الباب ما وُجد تحت رأسه من صحيفة فيها أبيات تحمل معنى الرجاء واللجوء إلى الله تعالى ، حَسَدَه عليها عبّاد زمنه حسد غبطة وهي :

إذا كنت بالنيران أوعدت من عصى ... فوعدك بالغفران ليس له خُلْفُ

لئن كنت ذا بطش شديد وقوة ... فمن وصفك الإحسان والمن واللطف

ركبنا خطايانا وسترك مُسْبَل ... وليس لشيء أنت ساتره كشف

إذا نحن لم نهفو وتعفو تكرّماً ... فمَن غيرنا يهفو وغيرك مَن يعفو

ثم يعقّب شيخنا الإمام رضي الله عنه الكلام فيقول :
لقد أشار أبو النواس في هذه الأبيات إلى وعده سبحانه بالمغفرة والجنة للمؤمنين التائبين بقوله تعالى :
{ أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة وعد الصدق الذي كانوا يوعدون }
وقال سبحانه :
{ إن الله لا يخلف الميعاد }

---

[1] رواه الحاكم في مستدركه وصحّح إسناده ، وأبو يعلى في مسنده

[2] سنن الترمذي كتاب الدعوات واللفظ له والمسند ٢١٠٣٣

[3] هو الحسن بن هانئ بن عبد الأول شاعر العراق في عصره ، ولد في الأهواز من بلاد خوزستان ونشأ بالبصرة، وهو أول من نهج للشعر طريقته الحضرية ، وأخرجه من اللهجة البدوية، وقد نظم في جميع أنواع الشعر، وتوفي سنة ١٩٨ رحمه الله

وأشار أبو النواس أيضاً إلى الآية التي فتح فيها سبحانه باب الرجاء والتوبة لجميع عباده فقال تعالى :
{ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ }
وأشار إلى الحديث الذي بيّن فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ستر الله لذنوب عبده المؤمن ، طالما أنه مستتر يريد التوبة ، وكيف أنه سبحانه يغفر ذنوب هذا العبد يوم القيامة ، ففي الحديث عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :
[إن الله يُدني المؤمن ، فيضع عليه كَنَفَه -أي ستره - ويستره فيقول : أتعرف ذنب كذا أتعرف ذنب كذا ؟
فيقول : نعم أيْ رب ، حتى إذا قرّره بذنوبه ورأى في نفسه أنه هلك قال : سترتُها عليك في الدنيا ، وأنا أغفرها لك اليوم [1]] .
أي فلم يفضحه في الدنيا ولم يفضحه في الآخرة .
كما أشار أبو النواس رحمه الله تعالى إلى الحديث الذي بيّن فيه سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الذنوب ولو كانت من أصغر الصغائر لا يمكن أن تنفكّ عن العبد ، مهما حاول تجنبها ، لكن الله تعالى فتح له باب الاستغفار والتوبة بمقتضى اسمه سبحانه : (الغفار) (الغفور) ، ولا بد أن تظهر أحكام هذه الأسماء الإلهية وآثارها في العالم ، فقال صلى الله عليه وسلم :
[والذي نفسي بيده لو لم تُذنبوا لذهب الله بكم ، ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم][2]
وقد رئي أبو النواس بعد وفاته وأخبر أن الله تعالى قد غفر له بسبب تلك الأبيات التي دعا فيها ربه سبحانه وتعالى .
ولم يكن مولانا الشيخ رضي الله عنه يقبل بالتسليم المطلق لكل ما جاء عن أبي نواس من شعر أو نثر فيه غزل فاضح أو مجون قبيح ، بل كان يقول رضي الله عنه :

هناك من دسّ عليه لِما عُرف عنه من طرائف وقصص ، فجعل بعض المغرضين الحاقدين ينسبون إليه ما لم يذكره أصلاً ، وذلك هروباً من أن يصرّحوا بما خطر في بالهم ، ومثل هذا كما فعلوا مع من يسمى (أَشْعَب)

---
[1] صحيح البخاري كتاب المظالم والغصب وصحيح مسلم كتاب التوبة
[2] صحيح مسلم كتاب التوبة

الذي عُرف بالدعابة والمزاح [1] وكذلك (جحا) [2] الذي عُرف بمزاحه وطرائفه فليس كل ما ينسب إليه صحيحاً ويعرف هذا من استقصى كتب التراجم والآداب القديمة التي عُنيت بذلك . اهـ

ومما كان شيخنا الإمام رضي الله عنه يردده في باب رجاء العبد المذنب لعفو ربه تعالى ورحمته إن هو اعترف بذنبه ورجع تائباً إلى ربه :

يا من غدى ثم اعتدى ثم اقترف ثم ارعوى ثم اهتدى ثم اعترف
أبشِر بقول الله في آياته إن ينتهوا يُغفر لهم ما قد سلف

---

[1] قال الذهبي في سير أعلام النبلاء :
أشعب بن جبير المدني، يعرف بابن أم حميدة ، ومَن يضرب بطمعه المثل.
روى قليلا عن: عكرمة، وسالم، وأبان بن عثمان.
وكان صاحب مزاح وتطفيل، ومع ذلك كُذِب عليه.
يقال: مات سنة أربع وخمسين ومئة. اهـ
وللتوسع انظر لسان الميزان لابن حجر وتاريخ دمشق لابن عساكر وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي

[2] ثمة في التاريخ رجلان يحملان اسم ((جحا))
أولهما عربي من قبيلة فزارة اسمه : دجين بن ثابت اليربوعي البصري
ولد جُحا في النصف الثاني من القرن الأوّل الهجري (٦٠هـ) وقضى الشطر الأكبر من حياته في الكوفة ، وتوفي فيها في خلافة أبي جعفر المنصور عام (١٦٠هـ).
ولم يكن من الحمقى، بل كان من الفقهاء وأحد التابعين ،ومن رواة الحديث ، فقد رأى أنس بن مالك ، وكانت أمهُ خادمة له.
ويذكرون أن ما يقال فيه مكذوب عليه ، ولكن كان له جيران مخنثون، يمازحونه ويتزيّدون عليه ، وهم الذين أذاعوا النوادر بين الناس، وأذاعوا لقبه : جُحا ...جُحا ،
ثاني الجحوين تركي سلجوقي اسمه :" نصر الدين خوجة."
ولد في قرية صغيرة تدعى خورتو عام ٦٠٥هـ ، وتلقّى علومه فيها ، ووليَ القضاء في بعض النواحي المتاخمة لها ، كما ولي الخطابة في (سيوري مصار)، عُيّن مدرِّساً وإماماً في بعض المدن.
كان أبوه إمام جامع القرية فسار على مسلك أبيه، وانتقل إلى مدينة (آق شهر) وعمره ثلاثون سنة ، وأمضى فيها خمسين سنة تولى القضاء والتدريس.
عُرفَ بالصلاح والتقوى والزهد وقد أنقذت وساطته بلده من التخريب والنهب حين حاصرها(تيمورلنك) ، وإن جحا التركي كان إلى جانب نوادره ولياً من أولياء الله الصالحين توفي عام ٦٨٣هـ وضريح الشيخ موجود في مقْبرة (آق شهر) الكبرى

وفي هذه الأبيات شاهد على ما يعرف بـ (الاقتباس) في الشعر ، كما هو مقرر في علم البلاغة .
ومن الأدعية والابتهالات والتوسلات التي كانت تتردد على لسانه رضي الله عنه بين الفينة والأخرى : {عسى ربكم أن يرحمكم } ، { الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور } ..اللهم أخرجنا من الظلمات إلى النور .
يا حيّ أَحْيِ قلبي بذكرك ، يا قيّوم أقِمْني بك في كل شأن .
إلهي إلهي إلهي أنت عِزّي وجاهي ، وإليك المرجع والتناهي ، تجبر الكسير وتكسر الجبارين ، وتجير الخائفين وتخيف الظالمين ، لك المجد الأرفع والحجاب الأمنع والتجلي الأجمع .
الأرباب عبيدك ، والملوك خدَمتك ، وأنت الله الرب على الإطلاق .
ثم يدعو رضي الله عنه بالعافية والمغفرة والرحمة .
ومنها :
اللهم يا قريب يا مجيب ، يا سميع الدعاء ، يا لطيفاً لما يشاء ، يا مجيب النداء ، اشفنا من كل داء ، وعافنا من كل بلاء ، واغفر لنا وارحمنا ووفّقنا لخدمة دينك وسنة نبيك صلى الله عليه وسلم ، ونفع العباد والبلاد ، وفرّج عنا بجاه إمام الرسل والأنبياء سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .
وكان رضي الله عنه يقول :
إن هذه الأسماء الإلهية ذكرها سبحانه في القرآن الكريم في معرض إجابته لرسله الكرام عليهم الصلاة والسلام الذين دعوه فأجابهم .
فقال سبحانه مخبراً عن سيدنا إبراهيم عليه السلام بعد أن سأل ربه الولد وأجابه سبحانه بأن وهب له إسماعيل وإسحاق عليهما السلام قال :
{الحمد لله الذي وهب لي على الكِبَر إسماعيل وإسحاق إن ربي لسميع الدعاء }.
وقال تعالى مخبراً عن سيدنا يوسف عليه السلام بعد أن أنجاه من الجب والسجن ، ووهب له النبوة والملك ، وجمع شمله بوالديه وإخوته قال :
{ إن ربي لطيف لما يشاء} أي : لطيف بي لما يشاؤه ويريده لي من أمور .
وأخبر سبحانه عن سيدنا نوح لما سأل اللهَ تعالى الفرج والنصرعلى الكافرين من قومه ، فقال جل وعلا :{ ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون }.
فهو سبحانه مجيب النداء سميع الدعاء سماع قبول وعطاء ، لطيف لما يشاء أي : لطيف بمن لجأ إليه وسأله لما يشاؤه له من الموهبة والعطاء . اهـ .

ومن نُظُم الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم المأثورة عنه رضي الله عنه :
(اللهم صل على سيدنا محمد عبدك ورسولك النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً .
اللهم صل على سيدنا محمد صلاة ترضيك وترضيه وترضى بها عنا يارب العالمين ، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً .
اللهم صل على سيدنا محمد بقدر حبك فيه ، وفرِّج بجاهه صلى الله عليه وسلم عني وعن المسلمين ما نحن فيه ، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً).
والفرَج يتضمن معنى رفع الكرب والشدائد والمصاعب والهموم والغموم .
ومن أدعيته أيضاً :
(اللهم صل على سيدنا محمد صلاة تغفر بها ذنوبنا ، وتشرح بها صدورنا ، وتفرّج بها كروبنا ، وتنوّر بها قلوبنا ، وتلهمنا بها رشدنا ، وتحفظنا بها من كل سوء ومكروه في الدنيا والآخرة يا رب العالمين ، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً).
ومنها :(اللهم يا دائم الفضل على البرية ، يا باسط اليدين بالعطية ، يا صاحب المواهب السَّنِيَّة ، يا غافر الذنب والخطية ، صل وسلم وبارك على سيدنا محمد خير الورى سجيّة ، وعلى آله وأصحابه البرَرَة النقيّة ، في كل لمحة ونفس وغدوة وعشيّة ، وفرج عنا كل شدة ورزيّة ، بجاه إشراقات الطلعة المحمدية صلى الله عليه وآله وسلم ، وأسرارها البهية يا رب البرية).
ومنها : (اللهم صل على سيدنا محمد مفتاح خزائنك ، اللهم افتح لنا بسيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ما أُغلق علينا من خزائن أسرارك وأنوارك ومشاهداتك ومعارفك وتجلياتك يا رب العالمين .
اللهم صل على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً).
ومنها : (اللهم صل على سيدنا محمد الذي أرسلته رحمة للعالمين ، وبالمؤمنين رؤوف رحيم ، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً).
ومنها :(اللهم صل على سيدنا محمد حق قدره ومقداره العظيم ، صلاة دائمة مقبولة تؤدّي بها عنا حقه العظيم ، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً).
ومنها :(اللهم صل على سيدنا محمد الذي ما استغاثك به جائع إلا شبع ، ولا ظمآن إلا روي ، ولا خائف إلا أمن ، ولا لهفانُ إلا أغيث ، ولا مريض إلا شُفي ، ولا مبتلى إلا عوفي ، ولا ضالّ إلا هُدي ، ولا كسير إلا جُبر ، ولا قطيع إلا وُصل ، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً ،

عدد خلقك ورضاء نفسك وزنة عرشك ومداد كلماتك ، كلما ذكرك وذكره الذاكرون وغفل عن ذكرك وذكره الغافلون).
ومنها :(اللهم صل على سيدنا محمد الحبيب الشفيع الرؤوف الرحيم ، الذي أخبر عن ربه الكريم أن لله في كل نفس مئة ألف فرج قريب ، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً).
وكان قد سمع هذه الصيغة من الإمام المحدّث السيد الشيخ مكي الكتاني المغربي الحسني رحمه الله تعالى ورضي عنه ، وقد أجازه بها في جملة ما أجازه .
وكان شيخنا الإمام رضي الله عنه يقول :
لقد جاء عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيان قوله تعالى :
{ يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ}
جاء قوله صلى الله عليه وسلم :
(من شأنه أن يغفر ذنباً ، ويفرّج كرباً ، ويجيب داعياً ، ويرفع قوماً ، ويضع آخرين) .[1]
وهذه الشؤونات الإلهية في الخلق تجري معاً في أقل من لمح البصر ، ولا يعلم حدّها وعددها إلا الله تعالى .
وإن قوله : (أن لله في كل نفس مئة ألف فرج قريب) يشير إلى المعنى المتقدم .
ولقد كان شيخنا الإمام رضي الله عنه كثيراً ما يأمر بهذه الصلاة لتيسير الأمور وشرح الصدور وهي :
(اللهم صل على سيدنا محمد صلاة تنشرح بها الصدور، وتهون بها جميع الأمور ، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً).
قلت : وهذه الصيغة من جملة أوراد السادة الرفاعية ، والتي ذكرها السيد أحمد عز الدين الصياد رضي الله عنه في كتاب :
(السير والمساعي في أوراد سيدي الرفاعي رضي الله عنه) .
ومن أوراد شيخنا الإمام بعد الصلوات ، وكانت تُسمع منه ما بين حين وآخر :
بسم الله الذي لا إله إلا هو الرحمن الرحيم ، اللهم ثبّتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، اللهم يا مقلّب القلوب ثبّت قلبي على دينك ، اللهم يا مصرف القلوب صرّف قلبي على طاعتك ،

---

[1] صحيح ابن حبان كتاب الرقائق والمعجم الأوسط للطبراني وشعب الإيمان للبيهقي واللفظ له

اللهم ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب ، ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيّئ لنا من أمرنا رشداً ، واجعل معونتك العظمى لنا سنداً

، ولا تكلنا إلى تدبير أنفسنا ، فالمرء يعجز عن إصلاح ما فسدا . اهـ .

ومن مناجاته لله تعالى إذا اشتكى ألماً :

سبحانك ما أكرمك ، وبحالي ما أعلمك ، وعلى شفائي ما أقدرك ،

أنت ثقتي ورجائي ، فاجعل حسن ظني بك شفائي ودوائي .. اهـ .

وربما يأمر به مَن أصابه مرض أو كرب .

ومن صيغ الصلاة على النبي التي كان يردّدها بعد الأذان قبل دعاء الوسيلة ، وكذلك أثناء دعائه بعد تبركه وتقبيله للأثر المحمدي الشريف :

اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد وأزواجه وذريته وأهل بيته وعلينا معهم أجمعين ، كما صليت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد ، وبارك على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد وأزواجه وذريته وأهل بيته وعلينا معهم أجمعين ، كما باركت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد .

اللهم وتحنّن على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد وأزواجه وذريته وأهل بيته وعلينا معهم أجمعين ، كما تحننت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد.

اللهم وترحّم على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد وأزواجه وذريته وأهل بيته وعلينا معهم أجمعين ، كما ترحمت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد

اللهم وسلّم على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد وأزواجه وذريته وأهل بيته وعلينا معهم أجمعين ، كما سلمت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد [1]

---

[1] جاء في الحديث عن سيدنا عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ كرم الله وجهه ورضي عنه قَالَ : عَدَّهُنَّ فِي يَدِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَقَالَ " : عَدَّهُنَّ فِي يَدَي جِبْرِيلُ ، وَقَالَ : هَكَذَا نزلت مِنْ عِنْدَ رَبِّ الْعِزَّةِ : اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ ، وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ، اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ ، وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ، اللَّهُمَّ وَتَرَحَّمْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا تَرَحَّمْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ، اللَّهُمَّ وَتَحَنَّنْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا تَحَنَّنْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ، اللَّهُمَّ وَسَلِّمْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا سَلَّمْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ. "

عدد خلقك ورضاء نفسك وزنة عرشك ومداد كلماتك كلما ذكرك وذكره الذاكرون وغفل عن ذكرك وذكره الغافلون . اهـ .

وهذا الحديث رواه البيهقي في الشعب والشجري في الأمالي الخميسية والحاكم في معرفة علوم الحديث والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد وعزاه في كنز العمال لابن عساكر وأَخْرَجَهُ ابْن بشكوال فِي القربة مسلسلًا بالعدّ، وابن مسدي فِي مسلسلاته
وقال الحافظ السخاوي في القول البديع :
وعند البخاري في الأدب المفرد وأبي جعفر الطبري في تهذيبه والعقيلي بلفظ :
(من قال : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم ، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم ، وترحّم على محمد وعلى آل محمد كما ترحمت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم ، شهدت له يوم القيامة بالشهادة ، وشفعت له شفاعة) وهو حديث حسن ، ورجاله رجال الصحيح . اهـ .
وأخرج أبو داود وابن مردويه والبيهقي في سننه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « من سرّه أن يكتال بالمكيال الأوفى إذا صلى علينا أهل البيت فليقل : اللهم صل على محمد النبي وأزواجه وذريته وأهل بيته ، كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد » .

وروى الإمام أحمد في مسنده والترمذي والنسائي واللفظ لأحمد عن يزيد بن أبي زياد عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن كعب قال : لما نزلت { إن الله وملائكته يصلون على النبي }قالوا : كيف نصلي عليك يا نبي الله ؟ قال : قولوا : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد ، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد .

قال : ونحن نقول : وعلينا معهم .
قال يزيد : فلا أدري أشيء زاده ابن أبي ليلى من قِبَل نفسه ، أو شيء رواه كعب ؟ .
ونقل الحافظ السخاوي في القول البديع عن الحسن البصري أنه كان إذا صلى على النبي صلى الله عليه وسلم يقول : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وأصحابه وأولاده وأهل بيته وذريته ومحبيه وأتباعه وأشياعه وعلينا معهم أجمعين .
وعزاه للنميري .
وكذلك ذكرها القاضي عياض في الشفا فقال : كان الحسن البصري يقول: من أراد أن يشرب بالكاس الأوفى من حوض المصطفى فليقل : اللهم صل على محمد وعلى آله وأصحابه وأولاده وأزواجه وذريته وأهل بيته وأصهاره وأنصاره وأشياعه ومحبيه وأمّته وعلينا معهم أجمعين . اهـ
وللاستزادة انظر كلام الحافظ ابن حجر في الفتح ١٨ / ١٣٧

ومن دعائه عند ختمه للقرآن الكريم ـ إذ كان رضي الله عنه يختم القرآن الكريم كل ثلاثة أو أربعة أيام ، ويدعو من حضر من أهله [1] ، ثم يشرع بقراءة سورة الإخلاص والمعوذتين والفاتحة وأول البقرة ، ثم يدعو جهراً ويؤمّن الحاضرون :

اللهم صل على سيدنا محمد الأكرم و نبيك المعظّم ، صلاة ترضيك وترضيه وترضى بها عنا يا رب العالمين ، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً {اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أَمَتك وفي قبضتك ، ناصيتي بيدك ، ماض فيّ حكمك ، عدل فيّ قضاؤك ، أسألك بكل اسم هو لك ، سمّيتَ به نفسك ، أو أنزلته في كتابك ، أو علّمته أحداً من خلقك ، أو استأثرت به في علم الغيب عندك ، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلوبنا ، ونور أبصارنا ، ونور صدورنا ، وجلاء حزننا ، وذهاب همنا وغمنا } [2].

ثم يستأنف الدعاء بقوله : واجعل اللهم القرآن العظيم شفاء لنا من كل داء وعافية لنا من كل بلاء .

اللهم ذا الجلال والإكرام والعزة التي لا تُرام نسألك يا الله يا رحمن بجلالك وجمالك أن تنوّر بكتابك أبصارنا وبصائرنا ، وتفرّج به عن قلوبنا ، وتشرح به صدورنا ، وتيسر به أمورنا ، وتطلق به ألسنتنا ، وتستعمل به أبداننا ، بحولك وقوتك ، فإنه لا يعيننا على الحق غيرك ، ولا يؤتيناه إلا أنت ، ولا حول ولا قوة إلا بك ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

اللهم ونسألك أن تجعل القرآن العظيم حجة لنا ، شهيداً لنا ، شفيعاً بنا ، أنيساً لنا ، ولا تجعله حجة علينا ، وارزقنا يا رب تلاوته والعمل به آناء الليل وأطراف النهار ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم أجمعين وعلينا وعلى والدينا ومشايخنا ومن له حق علينا وعلى جميع عبادك المؤمنين والمؤمنات .آمين .

سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين . اهـ .

ولما زار شيخنا الإمام رضي الله عنه الشيخ أبا عبد العزيز الشنقيطي الفلالي رحمه الله تعالى في المدينة المنورة عام ١٣٩٦للهجرة ، سمع من دعائه وثنائه على الله تعالى :

(اللهم إنا واقفون ببابك ، وحاطّون في رحابك ، ومنطرحون على أعتابك)

---

[1] عملاً بما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما فصّلته سابقاً في : سلوكه طريق العبادة والتقرب إلى الله تعالى

[2] انظره في صحيح ابن حبان كتاب الرقائق وعمل اليوم والليلة لابن السني واللفظ له

ولشيخنا الإمام رضي الله عنه زيادة تُسمع أحياناً منه في دعائه :
متوجهون إلى جنابك ، ومتوسلون إليك بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أحبِّ أحبابك وإمام رسلك وأنبيائك ، أن تستجيب دعاءنا ، وتحقق رجاءنا ، وتعطينا مُنانا ، وفوق منانا يا مولانا .
ومن التوسلات التي كان يذكرها في دعائه :

رجوتك يا ابن آمنة لأني	محب والمحب له رجاء
عسى بك تنجلي عني كروبي	وكم كرب له منك انجلاء
وكم لك يا رسول الله فضل	تضيق الأرض عنه والسماء
أَقِلْني من ذنوب أثقلتني	فأنت لعلّتي نعم الدواء
وخذ بيدي فإني عبد سوء	على كسب الذنوب لي اجتراء

وكان من دعاء شيخنا الإمام حين يختم المجلس وينفض الزائرون :
اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً ، صلاة ترضيك وترضيه وترضى بها عنا يا رب العالمين ، ويرضى بها عنا سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، لأنك قلت وقولك الحق :
{ والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين } .
فنسألك رضاك ورضا رسولك صلى الله عليه وسلم .
اللهم صلاة تفيض بها علينا من أسراره صلى الله عليه وسلم ، وتفيض بها علينا من أنواره صلى الله عليه وسلم ، وتفيض بها علينا من بركاته صلى الله عليه وسلم ، صلاة تنفحنا بها بالنفحات المحمدية ، وتُعَطِّف بها علينا قلبه الشريف صلى الله عليه وسلم ، صلاة تجمعنا برسول الله يقظة ومناماً ، واجعله يا ربنا يا ربنا يا ربنا روحاً لذاتنا من جميع الوجوه في الدنيا قبل الآخرة يا عظيم .
يا عظيماً يرجى لكل عظيم ، نسألك بذي الخلق العظيم صلى الله عليه وسلم أن تفرج عنا الكرب العظيم ، وتغفر لنا الذنب العظيم ، اغفر اللهم لنا وارحمنا ولوالدينا ولمشايخنا ولكل من له حق علينا ولجميع المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات ، الأحياء منهم والأموات ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً ، وعلينا معهم أجمعين في كل لمحة ونفس عدد ما وسعه علم الله العظيم . آمين . والحمد لله رب العالمين .الفاتحة
ثم يقول رضي الله عنه :
يا خير من مُدّت إليه الأيادي سألناك وتوسلنا إليك بخير من مد يديه إليك ، فلا تردنا خائبين ، وأعطنا مُنانا وفوق منانا ، وتولّنا في جميع قضايانا يا مولانا . اهـ .

وإذا ألح في الدعاء قال :
(اللهم بَلَّغنا عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال :
[إن ربكم حيّي كريم ، يستحيي من عبده إذا رفع يديه أن يردّهما صفراً خائبتَين [1]]
يا من لا يردّ سائله ، ولا يخيب آمله) ... اهـ
وكان شيخنا الإمام رضي الله عنه يختم القرآن الكريم كل ثلاثة أو أربعة أيام وعندما يريد الختم كان يجمع من كان حاضراً في البيت من أهله وقتئذ عملاً بالسنة النبوية ، وغالباً ما يكون ذلك بعد صلاة المغرب أو العشاء حسب أيام الصيف والشتاء ، ويبدأ الختم بقراءة سورة الإخلاص ثلاثاً ثم الفلق ثلاثاً ثم الناس ثلاثاً ثم الفاتحة وأوائل سورة البقرة ، ثم يدعو ويؤمّن الحاضرون .
وكان أكثر دعائه رضي الله عنه الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، وأن يفيض الله تعالى علينا من أسرار الحبيب الأعظم وأنواره وبركاته ونفحاته صلى الله عليه وسلم ، وأن يعطّف علينا قلبه الشريف صلى الله عليه وسلم ، وأن يعفو عنا سبحانه ويعافينا ببركة الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم ، ويختم الدعاء بقوله :
(اللهم أنت قلت وقولك الحق ، ووعدت ووعدك الصدق {وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان } وأنت أمرتنا بدعائك { وقال ربكم ادعوني أستجب لكم } فها نحن دعوناك كما أمرتنا ، فاستجب لنا كما وعدتنا ، إنك لا تخلف الميعاد ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ، وعلينا معهم أجمعين وعلى والدينا ومشايخنا ومن له حق علينا وأهلينا وأحبابنا والمسلمين أجمعين برحمتك يا أرحم الراحمين ، في كل لمحة ونفس عدد خلقك ورضا نفسك وزنة عرشك ومداد كلماتك ، كلما ذكرك وذكره الذاكرون ، وغفل عن ذكرك وذكره الغافلون .
سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين . آمين ، ثم يقرأ الفاتحة ، ويقرؤها الحضور .
وكان يكثر من قوله : (يا حنان يا منان) .
وقال رضي الله عنه في الاستغاثة :

يا رب يا غوث الصريخ ومن إذا ناداه ملهوف أجاب وقد كفى
أدعوك مضطراً بجاه محمد حبيبك وهو الهاشمي المصطفى

[1] انظره في سنن أبي داود كتاب الصلاة وسنن الترمذي كتاب الدعوات عن سيدنا سلمان الفارسي رضي الله عنه

أوصل حبال قطيعتي باللطف واجبر كسر قلبي فالعدو قد اشتفى
واصبب على دائي الدواء تفضلاً يا من إلى أيوب أحسن بالشفا
واجمع إلهي شمل كل مشتت يا من على يعقوب منّ بيوسفا
واشرح صدوراً ضاق رحب فسيحها وأجب دعائي أنت أوفى من وفى
هذا عبيدك يرتجيك بذله وبفقره يرجو نداك تعطّفا
هذا عبيدك قد دعاك بطيبة بجوار حِبِّك والجوار له كفى
هذا عبيدك قد أقرّ بذنبه فاغفر فإنك قد رحمت المسرفا
أنت الكريم وبحر جودك زاخر فاغفر ذنوبي أنت أكرم من عفا
ثم الصلاة على النبي وآله وصِحابه أهل المحبة و الوفا
ما لاح في العلياء نجم مشرق وبدا ضياء الشمس يعلو مشرفا

وقال رضي الله عنه في الاستغاثة أيضاً :

بسم الله الرحمن الرحيم

يا إلهي يا مجيب السائلين بالنبي الصادق الهادي الأمين

اشرح الصدر ويسِّر أمرنا وأعنّا يا قوي يا متين

يا إلهي يا رجاء المرتجين بالكلام المُحكم الحق المبين

بضياء وجهك النور الذي نوّر العرش وعمّ العالمين

بصفات لك جلّت يا قديم وبأنوار قلوب المؤمنين

بابتهالات الحبيب الأكرم سيد الكونين فَخْر الفاخرين

ببهاء نور وجه المصطفى وضياء وسنا ذاك الجبين

بسجود تحت عرش الله إذ قيل اشفع في العباد أجمعين

بخشوع وخضوع الأتقيا ونحيب وأنين العاشقين

بانكسار وافتقار الأوليا وزفير وبكاء العابدين

بدعاء وثنا أهل الوفا بعباد لك خرّوا ساجدين

بمصابيح قلوب الأصفيا وبإشراق وجوه المفلحين

بدعا العبّاد أصحاب الوداد وبتقوى المخلِصين المخلَصين

بتجلّي القرب في وقت السحر بعبيد لك قاموا قانتين

بتجلي الأنس أوقات الوصال وفيوض الفتح بالعلم اليقين

بعطاياك التي خصّصتها فمنحت الأنبيـــــا والمرسلين

هب لنا قرباً وحباً صادقاً ووصالاً ويقين الموقنين

وشهوداً للتجلي دائماً بالجمال يا مغيث الوالهين

قد دعوناك بذل وافتقار فاستجب للمنكسر والمستكين

إن نكن أعصى العصاة المذنبين أنت بَرٌّ أنت خير الغافرين

أو تكن زلّاتنا قد عظمت بحر غفرانك طمّ المذنبين

أنت أطمعتَ العباد المسرفين قد نهيتَ أن نكون قانطين

أنت قلت : رحمتي قد سبقت غضبي، ذلك في اللوح المبين

أنت قلت : رحمتي قد وسعت كل شيء ، لا تكونوا يائسين

أنت قلت : واسألوا من فضله ، يا كريم أنت معطي السائلين

قد سألناك بفقر واضطرار فاستجب للفقـــرا والمذنبين

وطرقنا باب عفو يا رحيم لا تدعْنا خائبين خاسرين

وظننا فيك مِصداق الظنون والتجأنا لك طُراً أجمعين

وبسطنا أيدياً نرجو بها فضلك المرجو لكل المرتجين

رب فارحم ذلنا واغفر لنا وأجِرنا يا مجير الضارعين

واسبل الستر علينا يا كريم دون هتّْكٍ أنت خير الساترين

واختمن بالخير يا نعم المجيب واحشرنّا في العباد الصالحين

وصلاة الله تترى دائماً مع سلام آبدٍ في الآبدين

لك تُهدى يا إمام الأنبيا　　ولأهل البيت فخرِ الطاهرين

ولأصحابك أقمار الهدى　　ولأحبابك ثم التابعين

وعلينـــــا وعلى آبائنا　　وعلى أبنائنا والأقربين

ولمن يدعو بهذا النظم من　　قارئ أو سامع والمسلمين

وهذه الأبيات موجودة في كتاب شيخنا الإمام : (أدعية الصباح والمساء)

وقال رضي الله عنه :

أسأتُ ولم أحسن وجئتك راجياً　　أنت الذي يُرجى نداك ويصفح

إذا أنت لم تغفر ولم تك راحماً　　فمن نرتجي رباً يجود ويسمح

ومن دعائه وابتهاله :

بالذل قد وافيت بابك عالماً　　أن التذلل عند بابك ينفع

وجعلت معتمدي عليك توكلاً　　ونصبت كفي سائلاً أتضرع

فبحق من أحببته وبعثته　　وأجبت دعوة من به يتضرع

اجعل لنا من كل هم فرجاً　　والطف بنا يا من إليه المرجع

ثم الصلاة على النبي وآله　　خير الأنام ومن به يُتشفع

ومن ابتهالاته رضي الله عنه :

إلى بابك العالي مددت يد الرجا　　ومن جاء ذاك الباب لا يختشي الرّدى

ومنها أيضاً:

إلهي توسلنا بفخر الكائنات محمد　　لعلياك في أمر تعسَّر حله

إذا ضاق صدري والهموم تزايدت　　فليس لها إلا الذي عمّ فضله

ومما سمعه وأعجبه وأقره وعّلق عليه رضي الله عنه ما قيل في الرجاء والوقوف على باب الله الأعظم والعكوف على جنابه صلى الله عليه وسلم :

وقائلةٍ مات الكرام فمَن لنا　　إذا عضّنا الدهر الشديد بنابه

فقلت إلهُ العرش يكشف غمّنا　　جميعاً إذا صح الوقوف ببابه

ويقول : باب الله تعالى هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فالزمه ولا تحد عنه .

فإن من لزم الباب بصدق فتح له ودخل ووصل .

وقوله : (وقائلة) أي : رب نفس قائلة .

والمقصود من أنه صلى الله عليه وسلم هو باب الله الأعظم ـ أنه باب التقرب إليه جل وعلا ـ ولا يحصل التقرب إلى الله تعالى إلا باتباع سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، قال تبارك وتعالى :

{ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ }
وقال جل وعلا : { وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ }
وقال سبحانه : { الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ }
وقد روى الإمام أحمد في مسنده وعبد الرزاق في مصنفه أنه صلى الله عليه وسلم قال :
[وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْ أَصْبَحَ فِيكُمْ مُوسَى ثُمَّ اتَّبَعْتُمُوهُ وَتَرَكْتُمُونِي لَضَلَلْتُمْ ، إِنَّكُمْ حَظِّي مِنْ الْأُمَمِ وَأَنَا حَظُّكُمْ مِنْ النَّبِيِّينَ] .
وفي رواية: [والذي نفسي بيده لو كان موسى حياً ما وَسِعه إلا أن يتّبعني] [١]

وقد جاء عن الإمام الجنيد رضي الله عنه ما يبيّن هذا فقال :
(الطرق كلها مسدودة على الخلق، إلا من اقتفى أثر الرسول صلى الله عليه وسلم واتّبع سنته، ولزم طريقته، فإن طريق الخيرات كلها مفتوحة عليه). [٢]
وقال الإمام ابن القيّم في كتابه (طريق الهجرتين وباب السعادتين) :
قال شيخ الطريقة وإمام الطائفة الجنيد بن محمد قدّس الله روحه :
(الطرق كلها مسدودة إلا طريق من اقتفى آثار النبى صلى الله عليه وسلم، فإن الله عَزَّ وجَلَّ يقول: [وَعِزَّتِي وَجَلالِي لَوْ أَتونِي مِنْ كُلِّ طَرِيقٍ، وَاسْتَفْتَحُوا مِنْ كُلِّ بَابٍ، لَمَا فَتَحتُ لَهُمْ حَتَّى يَدخُلُوا خَلْفَكَ] . اهـ .
والبحث في هذا واسع كبير أشار إليه صلى الله عليه وسلم بقوله :
[ما من مؤمن إلا وأنا أولى الناس به في الدنيا والآخرة ، اقرؤوا إن شئتم {النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم} فأيما مؤمن ترك مالاً فليرثه عصبته من كانوا ، ومن ترك دَيناً أو ضياعاً] - بفتح الضاد : العيال -
[فليأتني فأنا مولاه] [١]

---

[١] كما في مصنف ابن أبي شيبة واللفظ له وفي مسند الإمام أحمد ١٤١٠٤ ومسند أبي يعلى الموصلي
[٢] ذكره أبو نعيم في حلية الأولياء والخطيب البغدادي في (الفقيه والمتفقه) والمناوي في فيض القدير والآلوسي عند تفسيره لقول الله تعالى { وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة } .

فتأمل رحمك الله في قوله صلى الله عليه وسلم : [فأنا مولاه] [1]
ورضي الله عن سيدي محمد البكري [2] الذي قال :

ما أرسل الرحمن أو يرسل   من رحمة تصعد أو تنزل
في ملكوت الله أو ملكه   من كل ما يختصّ أو يشمل
إلا وطه المصطفى عبده   نبيّه مختاره المرسل
واسطة فيها وأصل لها   يعلم هذا كلُّ من يعقل
فلُذ به في كل ما ترتجي   فهو شفيع دائماً يُقبل
وعُذْ به من كل ما تختشي   فإنه المأمن والمعقل
وحُطّ أحمال الرجا عنده   فإنه المرجع والموئل
ونادِهِ إن أزمة أنشبت   أظفارها واستحكم المعضل
يا أكرم الخلق على ربه   يا خير من فيهم به يُسأل
قد مسّني الكرب وكم مرة   فرَّجتَ كرباً بعضه يُذهل
ولن يُرى أعجز منّي فما   لشدّة أقوى ولا أحمل
فبالذي خصّك بين الورى   برتبة عنها العلا ينزل
عجّل باذهاب الذي أشتكي   فإن توقّفتَ فمن أسأل
فحيلتي ضاقت وصبري انقضى   ولست أدري ما الذي أفعل
فأنت باب الله أي امرىء   أتاه من غيرك لا يدخل
صلى عليك الله ما صافحت   زهر الروابي نسمة شمأل [3]
مسلّماً ما فاح عطر الحمى   وطاب منه النِدّ والمندل [4]

---

[1] رواه الإمام أحمد في مسنده ٨٠٦٦ ورواه البخاري في صحيحه في كتاب تفسير القرآن واللفظ له عن أبي هريرة رضي الله عنه.

[2] الأستاذ الأعظم قطب العارفين الشيخ محمد بن الشيخ أبي الحسن محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن عوض بن عبد الخالق بن عبد المنعم بن يحيى بن يعقوب بن نجم الدين بن عيسى بن داود بن نوح بن طلحة بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه
البكري الصديقي الشافعي الأشعري المصري المتوفى سنة ٩٩٣ هـ رحمه الله ورضي عنه وأرضاه ونفعنا به ... آمين

[3] الشمال: ريح تهب من يسار القبلة ، والشمأل مهموز : لغة فيه . اهـ .
(المحيط في اللغة للصاحب ابن عباد)

[4] الند : هو مسك يُعجن بعنبر وعود ، وإنما سمي نداً لأنه نَدَّ عن سائر الطيب ـ أي خرج عنه وتقدّمه بطيبه ، مأخوذ من قولهم : نَدَّ البعير ـ إذا خرج عن الإبل اهـ
(المخصص لابن سيده)
وأما المندل فهو نوع من البخور والعود .

والآل والأصحاب ما غرّدت ساجعة أملودها مخضل [1]

وكان رضي الله عنه ينشرح لقصائد المحبين لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والتي تحوي في معانيها جُمَلاً من شمائله وفضائله الشريفة صلى الله عليه وسلم .

ويذكر عن والده الإمام العارف الكبير الشيخ محمد نجيب رضي الله عنه أنه كان يحب هذه الأبيات لسيدي علي وفا[2] رضي الله عنه :

سكن الفؤاد [3] فعِش هنيئاً يا جسد ذاك النعيم هو المقيم إلى الأبد
أصبحتَ [4] في كنف الحبيب ومن يكن جار الكريم فعيشه العيش الرغد
روح الوجود حياة من هو واجد لولاه ما تمّ الوجود لمن وجد
عيسى وآدم والصدور جميعهم هم أعين هو نورها لما ورد
لو أبصر الشيطان طلعة نوره في وجه آدم كان أول من سجد
أو لو رأى النمرود نور جماله [5] عَبَدَ الجليل مع الخليل وما عَنَد
لكن جمال الله جلّ فلا يُرى إلا بتخصيص من الله الصمد

ويذكر أنه كان من المادحين من يأتي بالبيت الأول بضم الدال في قوله (سكن الفؤاد) فيقول له الشيخ محمد نجيب : قل :(سكن الفؤاد) بفتح الدال ، أي : سكن الحبيب الفؤاد ، أي : سكنت أسرارُ الحبيب وشمائله ومحاسنه قلبَ المحب ، فلا يغفل عن محبوبه لحظة ، بل هو دوماً في ذِكره وتذكّره .

---

[1] يقال في اللغة : سجعت الحمامة إذا ردّدت صوتها على وجه واحد اهـ (أساس البلاغة للزمخشري) ، والأملود هو الغصن الناعم . اهـ . (المزهر للسيوطي) وقال الجوهري في (الصحاح في اللغة) :
أخضلت الشيء فهو مخضل، إذا بلّلته ، وشيء خضل : أي رطب ، والخضل: النبات الناعم، واخضل الشيء اخضلالاً : أي ابتل ، واخضألت الشجرة اخضيلالاً : إذا كثرت أغصانها وأوراقها .
وقد ذكرت هذه الأبيات معزوة إلى السيد محمد البكري رضي الله عنه في كتاب (النور السافر عن أخبار القرن العاشر) لمؤلفه عبد القادر بن شيخ بن عبد الله العيدروس وهو مؤرخ باحث من أهل اليمن توفي سنة ١٠٣٨ هـ رحمه الله

[2] هو العالم العارف سيدي علي وفا بن سيدي محمد وفا وقد كان رضى الله تعالى عنه فى غاية البهاء والجمال، له نظم وموشحات رقيقة فى أسرار أهل الطريقة، هو أول من تولى السجادة الوفائية ، وتوفى سنة ٨٠٧ هجرية وجنازته ضمت خلقاً كثيراً لم تر القاهرة مثلها، ودفن مع والده السيد محمد وفا رضي الله عنهما .

[3] - بفتح الدال - أي سكن الحبيب الفؤاد ، وهو الحبيب الأعظم صلى الله عليه وسلم .

[4] أصبحت أي يا قلب .

[5] أي لو رأى النمرود نور جمال سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم في طلعة سيدنا إبراهيم على نبينا وعليه الصلاة والسلام لآمن ، لكنه لم يشاهد ذلك النور .

قلت : وقد نقش عدد من هذه الأبيات على قبر مولانا الشيخ محمد نجيب رضي الله عنه من الجهة اليمنى العليا ، وكذلك على قبر مولانا الشيخ عبد الله رضي الله عنه .

ومن دعائه رضي الله عنه في الصلاة بعد التشهد :

(وأسألك اللهم أن تلزمني هذه الشهادة وذرّيتي ، وأن تصبغنا بأنوارها) .

ولما سألته عن ذلك كان مما قاله رضي الله عنه في بيان ذلك :

إن في هذا الدعاء طلباً من الله تعالى أن يلزمنا شهادة (لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم) في جميع العوالم ، وأن يجعلها ملازمة لنا لا تنفكّ عنا ولا ننفكّ عنها ، كما أخبر سبحانه لمّا ذكر فضله على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : { وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها }.

وكلمة التقوى هي : (لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم) .

وفي هذا الدعاء أيضاً طلب من الله تعالى أن يصبغ قلوبنا وعقولنا وأرواحنا ومداركنا وأجسامنا بأنوار الإيمان التي أشار إليها سبحانه بقوله :

{ صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون }.

أي : الزموا واطلبوا صبغة الله الإيمانية النورانية .

ومن صَبَغه الله تعالى بصبغة أنواره ضَمِن ثبات الإيمان في قلبه وأقواله وأعماله ، لأن صبغة الله تعالى ثابتة لا تتغير ولا تزول ، وهي تتخلل ذرات المصبوغ كلها ظاهرها وباطنها ، وليست هي كالدهان الذي يأتي على ظاهر الشيء فقط دون باطنه .

قلت : فانظر أخي هداك الله إلى كل خير ، في أدعية وكلام أولي العلم الذين هم أولوا الألباب ، الذين عقلوا وعلموا ونالوا من كلام الله تعالى وأحاديث رسوله ما لم ينله غيرهم .

فمن ذلك أنهم يتحينون أوقات الإجابة والقبول ، ويسألون الله تعالى فيها بدعاء جامع لكل خير ، دافع لكل شر ، وهم بذلك يقطعون مراحل كبيرة في السير والتقرب إلى الله تعالى .

ألا ترى إلى المسافرين إلى بلد معين كيف يتفاضلون في الوصول إليه ؟!

وذلك بسبب قوة وسرعة مراكبهم ، فهناك السيارة مثلاً والطائرة والقطار وغيرها - وهذا من باب ضرب المثل ولله المثل الأعلى - .

ويرحم الله القائل :

من لي بمثل سيرك المدلّل   يمشي رويداً و يجي في الأول

عطايا إلهية ومِنَح محمدية صلى الله عليه وسلم

كان شيخنا الوالد الإمام رضي الله عنه كثيراً ما يتردد على لسانه الدعاء المأثور عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم :
[وتولّني فيمن توليت] [1]
والدعاء : [ولا تَكِلْني إلى نفسي ولا إلى أحد من خلقك طرفة عين] [2]
ومن دعائه المشهور في ختم المجالس :
(وتولّنا فيمن توليت به عبادك الصالحين بقولك :
{ وهو يتولى الصالحين }) .
فلقد كان رضي الله عنه يتوجه إلى الله تعالى في أموره كلها ، ويعتمد عليه ويتوكل عليه ، ويولي أمره كله إليه ، فتولاه الله تعالى بعنايته ورعايته الخاصة ، فترى أن حركاته وأقواله وأفعاله كلها صائبة سديدة ، إذ كان لا يُقدم على أمر له شأنه إلا بإذن صريح من سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتيه ذلك إما بإشارة غيبية أو برؤيا منامية صالحة صادقة .
ولقد رهن نفسه وحياته لخدمة كتاب الله تعالى وسنة رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم ، فكان يكثر من هذا الدعاء :
(اللهم واجعلنا أنصاراً لدينك وشريعتك وسنة نبيك سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم) .
ولقد كانت منن الله تعالى عليه عظيمة وهباته جليلة ، ظهر ذلك في فيض الله تعالى عليه من معارف إلهية ، ورسوخه في العلوم الدينية ، وأن أيده سبحانه ببراهين وأدلة الكتاب والسنة ، وألقى محبته وإجلاله في قلوب العباد ، فلا يُذكر عند أحد إلا ترافق ذلك بالمدح والثناء ، ونال ثقة الناس كلهم ، فإذا تكلم أنصتوا ، وإذا أمرهم امتثلوا ،
وقد ذاع صيته في شتى البلدان وجرى ذكره على لسان أهل العلم والعرفان

---

[1] هذا طرف من الحديث الذي علمه سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لسيدنا الحسن بن علي رضي الله عنهما ، علّمه أن يقوله في الوتر .
وهو عند الترمذي في كتاب الصلاة وعند أبي داود والنسائي وابن ماجه وغيرهم .
[2] انظر سنن أبي داود كتاب الأدب وفيه :[دعوات المكروب : اللهم رحمتك أرجو ، فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين ، وأصلح لي شأني كله ، لا إله إلا أنت].
وفي المعجم الأوسط للطبراني : يا حي ، يا قيوم ، برحمتك أستغيث ، أصلح لي شأني كله ، ولا تكلني إلى أحد من الناس ولا إلى نفسي طرفة عين

تصديقاً لقول النبي الأعظم صلى الله عليه وسلم : (المِقَة من الله ، والصيت في السماء) [1]

وفي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم الذي بيّن فيه قوله تعالى :

{ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وداً }

قال صلى الله عليه وسلم : " إن الله إذا أحب عبداً دعا جبريل فقال : إني أحب فلاناً فأحِبَّه ، قال : فيحبه جبريل ، ثم ينادي في السماء فيقول : إن الله يحب فلاناً فأحِبُّوه ، فيحبه أهل السماء ، قال : ثم يُوضع له القبول في الأرض [2]

---

[1] المقة : المحبة وهي بكسر الميم وفتح القاف ، والحديث رواه الطبراني في المعجم الأوسط والروياني في مسنده وأصله في مسند الإمام أحمد ٢١٢٤٠ عن سيدنا أبي أمامة رضي الله عنه .

[2] صحيح مسلم كتاب البر والصلة والآداب واللفظ له ، وصحيح البخاري كتاب بدء الخلق عن أبي هريرة رضي الله عنه .

فصل في البشائر والفضائل وما يتعلق بها

قال الله تعالى :
{ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ * لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ }.
وقال صلى الله عليه وسلم :
[البُشرى هي الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو تُرى له] [1].

فمن البشائر البشرى بولادة شيخنا الإمام رضي الله عنه :

ذكر الشيخ الزاهد والعلامة الورع السيد أحمد بن سعيد الإدلبي الرفاعي أن أحد أحباب الشيخ العارف بالله تعالى سليم خلف [2] - شيخ عصره في الطريقة النقشبندية في البلاد الشامية - رأى في المنام حضرة النبي الأعظم صلى الله عليه وسلم يسقي مولوداً رضيعاً حليباً حتى جعل الحليب يسيل من فمه ، فنظر إليه فوقع في نفسه أنه ولد الشيخ محمد نجيب علّامة عصره ، ولما استيقظ قال في نفسه : هنيئاً لهذا المولود ، ما أسعده وما أطيبه ! .
ولما قص ذلك على بعض أحبابه أخبره أنه في تلك الليلة التي رأى فيها المنام وهب الله تعالى للشيخ محمد نجيب رضي الله عنه ولداً سمّاه عبد الله
قلت : وقد جاء عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه أوّل - أي : فسّر - شُرب اللبن في المنام بالعلم والإيمان ، ففي الحديث الذي رواه البخاري في صحيحه عن سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :
[بينا أنا نائم أُتيت بقدح لبن فشربت حتى إني لأرى الريّ يخرج في أظفاري ، ثم أعطيت فضلي – أي ما زاد من اللبن - عمر بن الخطاب ، قالوا : فما أوّلتَه يا رسول الله ؟ قال : العلم] [3]
وفي رواية : فقال من حوله : ما أوّلته يا رسول الله ؟ قال : [أوّلتُه الدين] [1]

---

[1] سنن الترمذي كتاب الرؤيا وسنن ابن ماجه كتاب تعبير الرؤيا
[2] سيدي الشيخ سليم خلف ولد في مدينة حمص سنة ١٢٣٢هـ ، ونشأ متحلياً بالأخلاق والآداب الإسلامية ، أخذ العلم عن الشيخ الجليل علامة حمص الشيخ جمال الدين الجمالي ، ولا يزال المسنّون من أهل حمص يذكرون كرامات الشيخ سليم توفي رضي الله عنه سنة ١٣٢٨هـ ودفن في حمص .
[3] صحيح البخاري كتاب العلم

و حكى بعض المنشدين[2] الصادقين في محبة الشيخ محمد نجيب رضي الله عنه - وكان يحضر مجالس الشيخ في بيته أو بيوت بعض أصحابه لإلقاء القصائد والأناشيد في مدح النبي صلى الله عليه وسلم وذكر شمائله الشريفة - ويتخللها كلمات للشيخ العلامة محمد نجيب رضي الله عنه التي ترقّق القلوب وتهذب النفوس .
قال : سمعت العلامة الشيخ محمد نجيب رضي الله عنه في أحد مجالسه يقول : (إن ابني عبد الله شديد الطمع) - وكان الشيخ الإمام لم يبلغ العشرين من عمره وقتئذ - فقيل للشيخ محمد نجيب رضي الله عنه : وكيف ذلك يا سيدي ؟
فقال : (لقد رأيت حضرة النبي صلى الله عليه وسلم في المنام يعطيني كوباً من لبن لأشرب منه ، وقد شرب منه صلى الله عليه وسلم ، فشربت منه ، وأعطيت الباقي منه لولدي عبد الله ، وكان بجانبي فتناوله وشرب حتى أتى على الكوب كله) ، ثم تبسم الشيخ محمد نجيب رضي الله عنه وبان البشر والرضا على وجهه المبارك .
ولما استلم شيخنا الإمام رضي الله عنه دروس سيدنا مولانا الشيخ محمد نجيب في جامع بانقوسا يوم الجمعة بعد العصر ، وكذلك في الجامع الأموي الكبير يوم الاثنين بعد الظهر ، وكذلك في جامع الحموي كل يوم صباحاً بعد شروق الشمس عدا يوم الجمعة ، وانتشر اسمه وذاع صيته وأقبل عليه الناس ، راح بينهم مَن يقول : إن هذا الأمر مؤقت ، وسينفض الناس من حوله قريباً ، وهكذا كثر القيل والقال حوله ما بين حاسد وحاقد ، وغالبهم ممن ينتسب إلى العلم ، حتى إن أحدهم قال عنه وقتئذ : (إنه لا يُحسن الكلام والتعبير ، إذ إن جُلّ درسه من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم) ، فانظر إلى هذا الذم الذي هو مدح في حقيقته ، فيا سعادة العالم الذي يكثر من أحاديث سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ويُسمِع الناس كلامه صلى الله عليه وسلم .

---

[1] انظر فضائل الصحابة للإمام أحمد بن حنبل
[2] وهو السيد الحاج محمد بن علي فتّال النقشبندي المتوفى سنة ١٤١٩ هـ رحمه الله تعالى

وكان شيخنا رضي الله عنه قد حفظ كتاب تيسير الوصول [1] في الحديث الشريف - مختصر جامع الأصول - وهو أربع مجلدات لمّا كان في الخسروية ، فكان يشغل العطلة الصيفية بحفظ الحديث النبوي الشريف .
لما سارع الناس وتزاحموا على سماع دروس الشيخ الإمام رضي الله عنه قال :
(سألت الله تعالى أن يريني ما يبشّرني بأن دروسي وخُطَبي مقبولة مرضيّة عند الله تعالى وعند رسوله صلى الله عليه وسلم ، فإن الناس يتزاحمون على دروسي ، ولا أبغي من وراء دروسي إلا نفع الناس ورضا الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، فبِتّ ذات ليلة فرأيت أني أمشي في طريق مُعبّد ، أحجاره بيضاء نظيفة ، وكأنها قد غُسِلت لِتَوّها ، فجاء رجل حسن الهيئة جميل الصورة وسلّم علي ، ورددت السلام عليه ، وعلمت أنه سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه فقال لي :
ألا تحضر معي مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟
فقلت : بلى ، فانطلقنا إلى دار واسعة يحيط بها شجر أخضر من كل الجوانب ، فلما دخلنا علمنا أن النبي صلى الله عليه وسلم جالس مع أصحابه يدرسّهم في الغرفة العليا فصعدنا إليها ، وقبل أن نستأذن بالدخول سمعته صلى الله عليه وسلم يقول : (ادخلا ، ادخلا) فدخل سيدنا أبو بكر رضي الله عنه قبلي ، فنهض رسول الله صلى الله عليه وسلم واقفاً وسلّم عليه ، وكان أمام الرسول صلى الله عليه وسلم طاولة صغيرة كتلك التي توضع أمامي في الدرس ، ثم أقبلت إلى النبي صلى الله عليه وسلم ولم أتمكن من تحديق النظر إلى وجهه الشريف لقوة أنواره صلى الله عليه وسلم ، فوقعت على قدميه الشريفتين وجعلت أقبّل هذه وهذه وأنا أقول في نفسي :
هاتان القدمان شرّفتا السموات ليلة المعراج ، وأخذني البكاء واستيقظت .
قال الشيخ الإمام رضي الله عنه :
وبهذه الرؤيا نلت البشارة من الحبيب الأعظم صلى الله عليه وسلم ، وسكنت نفسي ، واطمأن قلبي ، وعلمت أن الطريق الذي أتبعه إنما هو طريق موصل إلى الحبيب الأعظم صلى الله عليه وسلم ، وأن واسطتي في الدخول إليه صلى الله عليه وسلم إنما هو سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه ،

---

[1] كتاب (تيسير الوصول الى جامع الأصول لحديث الرسول) لمؤلفه الحافظ الإمام وجيه الدين عبد الرحمن بن علي الزبيدي المشهور بـ (ابن الديبع) المتوفى سنة ٩٤٤ هـ

وأن وقوعي على قدمي الرسول الشريفتين وتقبيلي لهما هو دليل الاتباع لحضرته الشريفة صلى الله عليه وسلم .
ولما أصبحت في تلك الليلة التي رأيت فيها سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم علمت بمرض أحد الصالحين من أهل العلم والكشف[1] فذهبت لعيادته مع بعض أصحابي ، فلما دخلنا عليه وجلست قربه جعل يشمّني ويقول : (صدّيقي صدّيقي) - بتشديد الدال نسبة إلى سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه - فقلت في نفسي :
سبحان الله ! وما عِلم الشيخ بأني رأيت في الليلة الماضية سيدنا أبا بكر رضي الله عنه وكان واسطتي لدخولي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟! اهـ .
نعم .. إن لله رجالاً أخلصوا له فأتحفهم بقربه وكرامته ، ولاشك أن الشيخ منهم .
وكان زاد شيخنا الإمام رضي الله عنه في العلوم الشرعية وافراً ، إذ حفظ القرآن الكريم وهو في الثانية عشرة من عمره قبل أن ينتسب إلى الخسروية ، وحفظ الحديث الشريف - كما تقدم - وهو في الخسروية ، ثم اجتهد في مطوّلات العلوم لمّا جاور في المدرسة الشعبانية ، وحضر على الشيخ أحمد الكردي الكبير في مدرسة الاسماعيلية وأخذ عنه فقه العبادات - ابن عابدين - .
كما أن مدده كان قوياً ، فهو مدد محمدي حصل عليه بواسطة سيدنا الشيخ محمد نجيب رضي الله عنه ، إذ إنه رضي الله عنه وبعد أن قام بدروس والده الشيخ محمد نجيب رضي الله عنه خير قيام - وكان الشيخ محمد نجيب قد ألزمه المرض الفراش - رأى في منامه بشرى عظيمة ...
قال الشيخ الإمام رضي الله عنه : رأيت في المنام أن والدي آخذٌ بيدي إلى مكان واسع يباع فيه الذهب ، وقد اجتمع فيه كبار مشايخ السلف والخلف ، وهم ينتظرون قدوم النبي صلى الله عليه وسلم ، ولم تمض فترة حتى أقبل صلى الله عليه وسلم بطلعته البهية وإشراقاته النورانية ، ومعه الزوجات الطاهرات ، وأهل بيته الكرام رضي الله عنهم أجمعين ، وعن يمينه السيدة عائشة رضي الله عنها ،

[1] وهو الشيخ الحسيب النسيب عبد الرؤوف آل باذنجكي المتوفى سنة ١٣٧٩ هـ بن الشيخ عبد الرحمن المعروف في عصره بـ : (قمر الزمان) المتوفى سنة ١٣٥٨ هـ والمشهور بكراماته الكثيرة رحمهما الله ورضي عنهما .

وجعل الحضور يتشرفون بالسلام عليه صلى الله عليه وسلم ، فتقدمتُ لكي أتشرف بالسلام عليه صلى الله عليه وسلم وكان رجل من السلف - وهو من أهل بيته صلى الله عليه وسلم - كان بجانبي - فتفل النبي صلى الله عليه وسلم بصاقاً وقع على كتف السيدة عائشة رضي الله عنها - وكانت بجانبه صلى الله عليه وسلم وهي بأبهى صورة في الحشمة والكمال والوقار- .
فتقدم ذلك الرجل ليأخذ التفلة المحمدية ويبتلعها فلم يتمكن لقصر قامته ، فقلت في نفسي : لقد سقط حقه فيها ، فتقدمت وأخذتها وابتلعتها ، ثم التفتُّ فلم أر والدي فقلت في نفسي : (لقد أوصلني رضي الله عنه إلى حضرة النبي صلى الله عليه وسلم) ، ثم استيقظتُ من نومي ولم تمض أشهر حتى توفى الله تعالى والدي رضي الله عنه .
وكان من تأويله رضي الله عنه لهذه الرؤيا أن والده وشيخه رضي الله عنه - وإن فارقه في الحياة الدنيا - فقد أوصله إلى من هو خير منه ، بل إلى إمام الأنبياء وسيد المرسلين صلى الله عليه وسلم ، وأخذ من النبي صلى الله عليه وسلم ذلك الريق المحمدي الفياض بالخيرات والبركات والأسرار والأنوار .
وفي هذا يقول الشيخ الإمام رضي الله عنه مبتهجاً بأخذه ريق النبي صلى الله عليه وسلم وابتلاعه له ، وأثر ذلك من نفسه وقلبه :

صلاة الله تترى كل حين   على من حبه روح لروحي
ويصحبها السلام بلا انتهاء   على من ريقه منه فتوحي

ومنذ تلك الرؤيا جعل رضي الله عنه نفسه رهينة لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان لا يقدم على أمر له شأنه، أو يباشر عملاً حتى يرى رسول الله ويأمره بما هو الخير والأصلح .
قال الشيخ الإمام رضي الله عنه :
ولما مررت في إحدى سني دراستي في المدرسة الخسروية على بحث في الأصول موضوعه الاجتهاد - وهو المصدر الثالث من مصادر الشريعة الإسلامية - ، وذكر علماء الأصول في هذا البحث اجتهاد النبي صلى الله عليه وسلم ، ومنهم من قال بجواز الخطأ في اجتهاد الرسول إلا أن الله تعالى لا يقرّه على خطئه بل يصوّبه ، وساق شاهداً على ذلك قصة أسرى بدر وتأبير النخل .
لما مررت على هذا البحث تألّمتُ في نفسي وضاق صدري وقلت :
كيف تجرأ هؤلاء على الخوض في هذا البحث ؟!

إذ إن عليهم أن يبحثوا في اجتهاد أمثالهم من العلماء ، وما حكمُ الخطأ بعد الاجتهاد ، وما كان لهم أن يؤذوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذا الكلام ، ويتجرؤوا على القول بأنه صلى الله عليه وسلم هل يخطئ في اجتهاده أم لا !!!

مع أن كل المؤمنين مكلّفون أن يتحاكموا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا أن يحكموا عليه ، كما قال تعالى :

{ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكّموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً }.

وبقي هذا الأمر يحيك في نفسي[1] ويضيق منه صدري إلى أن خرجتُ من المدرسة الخسروية ، وأنا أفكر كيف سأزيل هذه الشبهة التي ذكرها بعض علماء الأصول ، وأبيّن الحق في أن الرسول صلى الله عليه وسلم معصوم من الخطأ والخطيئة [2] ، ولما وفقني الله تعالى وقمت بالتدريس جعلت أبين ذلك وأن الخطأ ضد الصواب وكذا الخطيئة ، وإذا اقترنا بالذكر فإن الخطأ يتعلق بالأمور الدنيوية ، أبيّن ذلك في دروسي ، ولما شرح الله تعالى صدري لجمع كتاب أذكر فيه شيئاً من خصال رسول الله وشمائله وأخلاقه الكريمة صلى الله عليه وسلم ، قلت : هذه مناسبة عظيمة ، وجدير بي أن أبيّن الحق في عصمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فذكرت ذلك في الكتاب ، ورددت على من قال بالخطأ ، وأتيت بالأدلة التي تثبت عصمة الله تعالى لرسوله الكريم عن الخطأ والخطيئة .

قال شيخنا الإمام رضي الله عنه : ولما فرغت من جمع هذا الكتاب الذي سميته :

(سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم - شمائله الحميدة - خصاله المجيدة)

رأيت حضرة النبي صلى الله عليه وسلم في المنام وهو قادم من سفر ، ومعه الصحابة رضي الله عنهم ، وقد بدا عليه غبار السفر ، فأراد الرسول صلى الله عليه وسلم أن يغتسل فأمرني أن أحضر له ماء للغسل فانطلقت وسيدنا ربيعة بن كعب الأسلمي رضي الله عنه - وكان خادماً لماء وضوئه وغسله صلى الله عليه وسلم - انطلقنا إلى طست كبير ،

---

[1] أي يؤثّر

[2] الخطأ يتعلق بالأمور الدنيوية ، أما الخطيئة فتتعلق بالأمور الأخروية ، وإذا أُفرد أحدهما بالذكر شمل معنى الآخر .

ووضعناه على مرجل نار ، حتى أقبل صلى الله عليه وسلم ورأى الماء فأعجبه فالتفت إلي وقال : (أنت خادم لي ملازم) فقلت في نفسي : يا له من فوز وفضل !

الناس يتمنون أن يخدموا رسول الله صلى الله عليه وسلم ولو ساعة من الزمن ، وقد وظّفني صلى الله عليه وسلم خادماً له ملازماً ، فيا فرحتي ويا سعادتي . اهـ

- نعم إنه إكرام وعطاء ونوال من رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن تمسّك بسنّته وأحبه ونصر دينه صلى الله عليه وسلم - .

قال رضي الله عنه : وكان من تأويلي لهذه الرؤيا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أكرمني بخدمته ، وتحضير ماء الغسل له ، ليزيل عنه غبار السفر ، وذلك لأني نصرت دينه صلى الله عليه وسلم ، وبيّنت الحق في عصمته صلى الله عليه وسلم ، ودحضت في كتابي بالأدلة القاطعة ما نُسب إليه صلى الله عليه وسلم من شبهات .

قال الشيخ الإمام رضي الله عنه : وكان من فضل الله علي أن أكرمني ببشائر كثيرة نلت فيها شرف خدمته صلى الله عليه وسلم في مناسبات متعددة ، وقد فزت بهذا الشرف والإكرام المحمدي بعد أن فرغت من جمع كتاب سميته :

(هدي القرآن الكريم إلى الحجة والبرهان)

وكان من جملة ما بيّنت فيه : عصمة الأنبياء كلهم ، وحفظ الله تعالى لهم من إلقاء الشيطان ووسوسته عند تلاوتهم لما أوحى الله إليهم ، وأنكرت على من نَسب إلى الأنبياء ما لا يليق بهم ، وأتيت بالأدلة على ذلك ، وكان البحث يدور حول الآيات { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آَيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ * وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آَمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ }

قال الشيخ الإمام رضي الله عنه :

ورأيت في المنام أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد وظفني خادماً لبيت يجتمع فيه الأنبياء كلهم عليهم الصلاة والسلام ، وقد استلمت الوظيفة وقمت بالخدمة خير قيام ، وهيأت المكان ، واجتمع الأنبياء عليهم السلام ينتظرون تشريفه صلى الله عليه وسلم ، فأقبل صلى الله عليه وسلم بطلعته البهية وأنواره السنية ، فسلّمت عليه وقبّلت يديه ،

ومشيت بين يديه مشية الخادم بين يدي سيده ، فنظرت إلى الغرفة التي كنت قد نظفتها لاجتماع الأنبياء فيها ، فإذا في وسطها سلة لوضع النفايات والمهملات ، فحدثتني نفسي : كيف حصلت هذه وقد قمت بترتيب الغرفة وتنظيفها ، وقد وظفني رسول الله صلى الله عليه وسلم خادماً لها ؟!
فأسرعت إليها ورميتها بعيداً من نافذة الغرفة ، وراحت بعيداً في الفلاة وكأن شيئاً لم يكن ، ودخل صلى الله عليه وسلم وجلس وقال لي :
أين خليل الله ؟ قلت له : لمّا يأت
- أي : سيأتي بعد قليل - ثم طُرق الباب ، وأقبل خليل الله وقال صلى الله عليه وسلم : أقوم لاستقباله ، فقام صلى الله عليه وسلم وسلم عليه وعانقه وطال الحديث بينهما ، ثم التفت إلي رسول الله وقال لي : سلّم على خليل الله ثم اتبعني .
فسلمت على سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، وكان عظيم الهيئة ، مهيب الصورة ، يعلوه الوقار والكمال ، فجعلت أمرّغ وجهي ورأسي في صدره وأنا أقول له : ادع الله لي ، ادع الله لي، حتى غلبني البكاء واستيقظت مستبشراً فرحاً بفضل الله علي .
وكان أول ما تبادر إلى ذهني ، أن تلك السلة التي أزحتها ورميتها خارج الغرفة التي يجتمع فيها الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ما هي إلا تلك الشبهة التي نسبها بعضهم إلى الأنبياء عليهم السلام ، وقد رددتُها بالأدلة القاطعة في كتابي المتقدم ذكره ، والذي كنت قد فرغت من جمعه . اهـ .
قلت : ولما قدم مولانا الوالد رضي الله عنه إلى حلب عام ١٤٠٤ للهجرة الشريفة بعد أن جاور في المدينة المنورة بأنوار رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يزيد على ثلاث سنين وبضعة أشهر ، ومكث فيها واشتغل في تأليف الكتب وتصنيفها
قال مولانا الوالد رضي الله عنه :
وقد رأيت سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام وقد وظّفني مؤذناً عنده ، فاستلمت تلك الوظيفة وأذّنت الظهر ، فأقبل صلى الله عليه وسلم والأنوار تحفّه ، ومعه سيدنا أبو بكر وسيدنا عمر وجمهرة من الصحابة رضي الله عنهم ، وقال لي سيدنا عمر رضي الله عنه : استعجلتَ في الأذان ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لم يستعجل به) ، وأعجبه أذاني وأقرّني ، ثم قال لي صلى الله عليه وسلم :
(ادعُ مَن في هذه الغرفة مِن أهل بيتي ليصلّوا معنا) ، فدعوتهم ثم أقمت الصلاة ، فتقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم إماماً ، فوقفت خلفه مباشرة ، حتى إذا انتهى بالصلاة إلى القعود الأخير يريد السلام قلت في نفسي :

إن ما أفعله مخالف لأقوال الفقهاء ـ الذين قالوا باستحباب أن ينظر المصلي إلى مكان سجوده ـ لكن النظر إلى وجه سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يعادله نظر إلى ما سواه في النعيم والخشوع ، وسأمتّع نظري بأنوار وبياض خدّيه صلى الله عليه وسلم ، وهو يسلّم عن اليمين وعن الشمال ، واستيقظت وأنا أنظر إلى أنواره الشريفة صلى الله عليه وسلم .[١]

قال الشيخ الإمام رضي الله عنه :

وكان من تأويلي لهذه الرؤيا أن الأذان دعوة إلى عبادة الله تعالى بالصلاة ، وقد أكرمني الله تعالى بنشر العلوم الشرعية ، ودعوة الناس إلى الله تعالى ، وتعليمهم أمور دينهم ، سواء كان ذلك في الدروس العامة ، أوالحلقات الخاصة بطلاب العلم ، أو بجمعي للكتب التي بيّنت فيها للناس ما يحتاجونه لفهم أمور دينهم ، وإن وقوفي خلفه صلى الله عليه وسلم دليل الاتباع الصادق إن شاء الله تعالى . اهـ .

ولما قصَّ رضي الله عنه هذه الرؤيا على جمع من أحبابه سأله أحد الفضلاء : سيدي لما فرغت من الأذان الذي وظّفك به رسول الله صلى الله عليه وسلم هل صليت على النبي صلى الله عليه وسلم ؟

ـ أي كما هو شأن المؤذنين في زمننا ـ

فقال الشيخ : نعم صليتُ على النبي صلى الله عليه وسلم . اهـ .

فكما هو مطلوب من كل من سمِع الأذان أن يقول مثله ثم يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم ، ويدعو الله بدعاء الوسيلة الذي جاء عنه صلى الله عليه وسلم ، فهذا مطلوب من المؤذن نفسه أيضاً ، وفيه تذكير لسامعي الأذان أن يصلّوا على النبي صلى الله عليه وسلم ثم يدعوا بدعاء الوسيلة .

ولقد كان شيخنا الإمام رضي الله عنه يقص تلك الرؤيا على أولاده وأحبابه ذاكراً نعمة الله تعالى ، شاكراً فضل الله تعالى وفضل رسوله صلى الله عليه وسلم عليه ، ويقول :

---

[١] جاء في مسند الإمام أحمد عن سعد بن مالك رضي الله عنه قال :
كان النبي صلى الله عليه وسلم يسلّم عن يمينه وعن شماله حتى يُرى بياض خدّيه .
وفي مصنف ابن أبي شيبة والمعجم الكبير للطبراني عَنْ وَائِلِ بْنِ حُجْرٍ أَنَّهُ صَلَّى خَلْفَ النَّبِيِّ فَلَمَّا قَرَأَ فَاتِحَةَ الْكِتَابِ جَهَرَ بِـ آمِينَ قَالَ : وَسَلَّمَ عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ يَسَارِهِ حَتَّى رَأَيْتُ بَيَاضَ خَدَّيْهِ . اهـ .
وفيه دليل على أن الصحابة كانوا ينظرون إلى وجهه الشريف صلى الله عليه وسلم وهم في الصلاة .

إنما أذكر لكم ذلك لأنهض بهممكم ، وأشد عزائمكم نحو طاعة الله تعالى ، والتمسك بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم والإكثار من الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم ، ولا أبتغي من وراء ذلك ظهوراً أو تعالياً على أحد ولا حتى مشيخة ، وليس لي فضل على أحد بل الفضل كله لله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وأسأل الله تعالى أن يجعلنا خدّاماً لدينه وأنصاراً لشريعته وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم . اهـ .

قلت : وقد جاور رضي الله عنه في المدينة المنورة بأنواره صلى الله عليه وسلم منذ شهر ربيع الأول عام ١٤٠٠ هـ حتى شهر ذي القعدة عام ١٤٠٣ هـ ، ومكث في حلب ستة أشهر ثم عاد إلى المدينة المنورة وبقي فيها ثلاثة أشهر ، ثم رجع إلى حلب ومكث فيها بقية عمره المبارك .

وقد قام بالتدريس بعد عودته مباشرة في جامع بان قوسها والجامع الأموي الكبير، ثم اعتزل عن دروس جامع بان قوسها في عام ١٤٠٦هـ وبقي في دروس الجامع الأموي الكبير حتى منتصف عام ١٤٠٩ هـ .

ولما جاور في المدينة المنورة لم يحصل في بداية الأمر على تصريح حكومي بالإقامة فيها ، وإنما دخل المملكة بتأشيرة (عمرة) .

وزاره مرة الشيخ صدقة خاشقجي [١] ورحب به وأكرمه ، ولم يكن بوسعه إلا أن يمدّد له الإقامة ثلاثة أشهر فقط .

وحصل مرة أن اجتمع الشيخ عمر ملاحفجي [٢] بأحد كبار المسؤولين وقتئذ وذلك في جلسة يُقرأ فيها شيء من شمائله صلى الله عليه وسلم بمناسبة مولده الكريم صلى الله عليه وسلم ، فقال الشيخ عمر لهذا الرجل : (رأيتك في المنام تطلب مني نفحة من سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم) ، فلما انفض المجلس صحبه إلى منزل مولاي الوالد وقصّ عليه الأمر فقام سيدي الوالد وأهداه كتاب (سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم) وقال له : هذه هي النفحة المحمدية المرتقبة ، ولما خرج الرجل سأل عن سيدي الوالد : هل له إقامة ؟

فقيل : لا ، فسعى له بالإقامة ولأهله ولمن يريد ، فجزاه الله خير الجزاء .

---

[١] رئيس بلدية المدينة المنورة وقتئذ جزاه الله خيراً

[٢] هو الشيخ عمر ابن الشيخ محمد ملاحفجي المشهور بـ (شيخ القصير أبو قبقابة) النعيمي الحسيني ينحدر نسبه من السادة الأشراف في مدينة حلب

قال الشيخ الإمام رضي الله عنه :
وقد أكرمني الله تعالى وشرّفني بأن جاورت حبيبه الأعظم صلى الله عليه وسلم في المدينة المنورة بأنواره صلى الله عليه وسلم ، ومكثتُ فيها ما يزيد على ثلاث سنين ، لم تنقطع خلالها ضيافة الحبيب صلى الله عليه وسلم لنا ، بل وجدنا من عطفه وحنانه صلى الله عليه وسلم ما لا يجده الولد عند أمه وأبيه ، والحمد لله رب العالمين على ذلك .
وقال الشيخ الإمام رضي الله عنه :
وكان أول ما جاورتُ في المدينة المنورة أن رأيت في المنام أني أدخل المسجد النبوي الشريف من باب السلام ، ومعي الشيخ عبد اللطيف آل باذنجكي ، فرأينا غرفة كبيرة في الجهة القبلية من المسجد ممتدة إلى خوخة سيدنا أبي بكر فقال لي الشيخ عبد اللطيف: ألا تدخل هذه الغرفة وتسلّم على القُطب ؟ وأشار إلى باب ناحية القبلة ، فقلت : بلى أدخل ، فدخلت فإذا هي غرفة واسعة جميلة المنظر ، عظيمة الأثاث فسيحة مزخرفة ، كأنها قاعة اجتماع للملوك ، يجلس في صدرها رجل مهيب عليه سمة الكمال والوقار ، هو غوث الزمان ، فسلمت عليه فنهض من مجلسه وقال لي : اجلس مكاني فإني ذاهب وسأعود ، ولا تغادر حتى أرجع ، فجلستُ مكانه فسمعت من خارج الغرفة لغطاً وضجيجاً من جماعة وقفوا جانب باب الغرفة - وهم من الأولياء - وكان منهم من يقول : مَن أجلسه هنا ؟ وآخر يقول : ألا يعلم أن هذا مكان القطب فكيف جلس فيه ؟ وهكذا اشتد اللغط حتى دخل علي رجل فقال لي : كيف تجلس في هذا المكان وهو مكان القطب ؟ فقلت له بحدّة وبصوت مرتفع : هو أجلسني هنا ، ثم إن المكان يسعني ويسعه ، هيا اخرج ، فخرج وهدأ الضجيج وانصرف الناس ، ثم استيقظت من نومي وعلمت أن إقامتي في المدينة ستطول ، وأن الإذن بالمجاورة قد صدر . اهـ .
ولم تكن عودته رضي الله عنه إلى حلب إلا بإشارة من سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ رأى في المنام حضرة النبي صلى الله عليه وسلم والسيدة فاطمة رضي الله عنها ، وقد بسطتْ رداء كبيراً لها ، - (لحاف) - وقيل من يدخل تحت هذا اللحاف ينال الأمان والمرتبة العالية ، فدخل مولاي الوالد ، وهناك جمهرة كبيرة من الأولياء ، وراح منهم من يقول : نالَها نالها ، هكذا ورسول الله صلى الله عليه وسلم ينظر .

قال شيخنا الإمام رضي الله عنه :
وفي الفترة الأخيرة من أشهر مجاورتي في المدينة المنورة كنت كثيراً ما أرى في المنام أني رجعت إلى حلب ، وذهبت إلى المدرسة الشعبانية لأتعهد إدارتها وسيرها ، وافتتحت دروساً في الجامع الأموي الكبير وجامع بانقوسا .
ورأيت مرة أني افتتحت دروس بانقوسا بتفسير فاتحة الكتاب ، وبدأت الكلام حول قوله تعالى :{ الحمد لله رب العالمين }.
وجعل بعض الأولاد والأحباب يرغّبني في العودة إلى حلب لدفع المسيرة العلمية في المدرسة الشعبانية ، ونشر العلوم الشرعية في الدروس العامة في الجامع الأموي الكبير وجامع بانقوسا ، على أن إقامتي في المدينة المنورة ستبقى ، ونعود ونرجع حسبما ييسر الله تعالى .
وكنت أقول لهم : إني لا أفعل شيئاً ولا أباشر عملاً إلا بأمر أو إشارة من سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .
قال الشيخ الإمام رضي الله عنه : وفي إحدى الليالي رأيت السيدة فاطمة رضي الله عنها وعليها سلام الله تعالى ، رأيتها في المنام وقد بسطت لحافها على الأرض – واللحاف يشبه الغطاء الذي يضعه الإنسان عليه عند نومه إلا أنه كبير واسع - وقد اجتمع الناس حوله ثم نادى مناد : مَن مَدَّ يديه تحت هذا الغطاء نال الأمان في الدنيا والآخرة ، فجعل بعض الحاضرين يحاولون ذلك فلا يستطيعون .
قال شيخنا الإمام رضي الله عنه :
فتقدمت والسيدة فاطمة عليها السلام تنظر إلي ، ومددت يدي تحت الغطاء ثم دخلتُ بجسمي كله تحت الغطاء ، فجعلت أصوات الحاضرين ترتفع ويقولون : فاز ، فاز ..
قال شيخنا الإمام رضي الله عنه :
فاستيقظت فرحاً مطمئناً وعلمت أن في ذلك إذناً لي بالعودة إلى حلب ، ولم تمض فترة حتى يسَّر الله تعالى ذلك وعدت إليها في شهر ذي القعدة من عام ١٤٠٣ هـ ، واستقبلتُ الناس في المدرسة الشعبانية وقد قدموا للسلام علي ، واستمر ذلك ثلاثة أيام أو أكثر ، ثم التفتّ إلى المدرسة الشعبانية لأتابع مسيرتها برعايتي واهتمامي ، خاصة وأنها قد تم افتتاحها وتأسيسها بأمر من سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تلقّاه سيدي ووالدي الشيخ محمد نجيب رضي الله عنه .

وقد حصل ذلك في السنين الأخيرة من حياة الشيخ محمد نجيب رضي الله عنه إذ رأى في المنام حضرة النبي صلى الله عليه وسلم وأمره أن يفتح مدرسة شرعية ، وتكلم الشيخ رضي الله عنه مع بعض أصحابه إلا أن المرض حال بينه وبين تحقيق ذلك إلى أن وفقني الله تعالى لإحياء المدرسة الشعبانية بعد وفاة الشيخ محمد نجيب رضي الله عنه بسنوات قليلة .
ولما اكتملت صفوف المدرسة ست صفوف جاءني الشيخ محمد الغشيم [1] رحمه الله تعالى - وكان من أساتذة المدرسة ، وممن حضر وأخذ عن الشيخ محمد نجيب رضي الله عنه - جاءني مبكراً وأخبرني أنه رأى الشيخ محمد نجيب رضي الله عنه في المنام في الليلة الفائتة وهو واقف على باب المدرسة ويمسح العرق عن جبينه وقال لي :
انظر يا شيخ محمد ، الآن قد أنهيت رصف الطريق الموصل إلى المدرسة الشعبانية .
فقلت له : بشَّرك الله تعالى بالخير ، فإن والدي رضي الله عنه وإن كان قد مات إلا أن أنظاره ودعواته لا تنقطع عنا وعن المدرسة ، وكيف وقد أمرَه رسول الله صلى الله عليه وسلم بافتتاح مدرسة شرعية ؟! ..
وقال شيخنا الإمام رضي الله عنه :
وقد رأيت مرة في المنام أني جالس في حلقة اجتمع فيها كبار الأولياء والعارفين ، وكان المكان مكتظاً بهم حتى إن بعضهم جالس على الأرض جلسة الصلاة ، وبينهم الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي [2] رضي الله عنه ثم طُرحت مسألة علمية للبحث ، فجعل كل منهم يُدلي بفهمه وقوله فيها ، حتى جاء دوري في ذلك فقيل لي : ما تقول أنت ؟ فقلت لهم : أقول كما يقول الشيخ الأكبر في ذلك ، وأشرت إليه وكان حاضراً في المجلس ،

[1] هو الشيخ محمد بن السيد محمد آل الغشيم الشافعي الحلبي الفقيه الشافعي المتمكن الذي ينتهي نسبه إلى آل الصيادي الرفاعي الحسيني توفي رحمه الله سنة ١٣٩٨ هـ ودفن في مقبرة القطانة .

[2] هو سيدي محمدُ بن عليّ بن محمد بن أحمد بن عبد الله الحاتمي الطائي ، من وَلَد عبد الله بن حاتم أخي الصحابي الجليل عديّ بن حاتم، ويلقب بـ (محيي الدين) ، ويُكنّى أبا عبد الله ، وأبا بكر ، ويُعرف بـ الحاتمي أو الطائي وبابن عربي ، وفي المغرب بـ ابن العربي ، وفي الأندلس بـ ابن سراقة، وكذلك يُدعى بـ سلطان العارفين وإمام المتقين ، وغيرها من ألقاب التبجيل والتشريف التي تليق به ، وكان شيخنا الإمام يذكره بوصف : (الشيخ الأكبر) ، ولد في مدينة مُرسِية شرقي الأندلس، وتوفي ليلة الثاني والعشرين من شهر ربيع الثاني سنة ٦٣٨ للهجرة ، ودفن رضي الله عنه بسفح جبل قاسيون ، وقبره مشهور يزار .

ثم انفض المجلس فخرجت أريد الذهاب لزيارة الإمام الكبير سيدي أحمد الرفاعي رضي الله عنه فسلّمت على الشيخ الأكبر وقلت له :
أريد زيارة سيدي الرفاعي فبم توصيني ؟
فقال : سلْهُ أن يدعو الله لك أن يجعل حُجّتك :
قال الله ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم .
فقلت له : وأنت بماذا تدعو الله لي ؟ فقال لي : وأنا أدعو الله لك بذلك ، وجميع أهل الله تعالى يدعون لك أن تكون حُجّتك :
قال الله تعالى ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم .
فاستيقظت وحمدت الله على فضله وتأييده . اهـ .
قلت : وكان مولانا الوالد رضي الله عنه حريصاً كل الحرص على تتبع ما جاء عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ليتحقق بكمال الاتباع له صلى الله عليه وسلم في الأقوال والأعمال وفهْم آيات الله تعالى .
وقال شيخنا الإمام رضي الله عنه :
وكنت قد رأيت الشيخ الأكبر في المنام عدة مرات كان أولها في بداية طلبي للعلم وذلك لما أردت أن أتناول كتب القوم رضي الله عنهم بالقراءة والدراسة - وهي كتب التصوف العلمي وتُعرف بـ علم الحقائق والمعارف الإلهية ، وأشهرها: كتاب (الفتوحات المكية) للشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي رضي الله عنه ، وكتاب (فصوص الحكم) وغيرها من كتب أئمة القوم رضي الله عنهم - فرأيت في المنام قبل أن أتناول هذه الكتب ، رأيت نفسي في مسجد وأنا أتوضأ فلما فرغت التفتُّ فرأيت الشيخ الأكبر رضي الله عنه فسلم علي وقال : أتريد الفتوح ؟ قلت نعم ، فجعل يقرأ سورة الفاتحة جهراً وأنا أرددها بعده ، فلما فرغ جعل يتكلم لي على معاني وأسرار قوله تعالى :{ إياك نعبد وإياك نستعين } فاستيقظت ولا يزال كلامه موصولاً ، ثم علمت أنه قد أَذِن لي بقراءة كتبه ليكون فهمي لها موافقاً لمفاهيم الكتاب والسنة .
وقد قرأت كتب القوم رضي الله عنهم واطلعت عليها بحثاً ودراسة ، وبفضل الله علي وفتوحه لي استطعت أن أؤيد ما قالوه بأدلة الكتاب والسنة . اهـ .
قلت : وكان الشيخ الإمام رضي الله عنه يذكر عن والده العلامة الشيخ محمد نجيب رضي الله عنه قوله :
لا تقبلوا مني شيئاً من كلام القوم إلا وهو مؤيد بشاهدَي عدل وهما :
قال الله تعالى ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . اهـ .

وقد ظهر هذا النور والفتح المحمدي في شيخنا الإمام رضي الله عنه ، وما ذلك إلا بسبب الريق المحمدي الذي أخذه الشيخ محمد نجيب رضي الله عنه من سيدنا رسول الله وابتلعه ، وهذا ما حصل لشيخنا الإمام رضي الله عنه في رؤيا للحبيب الأعظم صلى الله عليه وسلم تقدم ذكرها .
وفي هذا يقول الشيخ الإمام رضي الله عنه مبتهجاً بأخذه ريق النبي صلى الله عليه وسلم وابتلاعه له وأثر ذلك من نفسه وقلبه :

صلاة الله تترى كل حين   على من حبه روح لروحي
ويصحبها السلام بلا انتهاء   على من ريقه منه فتوحي

قال الشيخ الإمام رضي الله عنه :
وكنت قد رأيت والدي وسيدي الشيخ محمد نجيب رضي الله عنه في المنام بعد وفاته بأيام قليلة وهو جالس في غرفته في الدار التي كنا نسكنها ، فنظرت إليه وأنا أريد أن أعرف المقام الذي أكرمه الله تعالى به فقال لي : انظر إلي ، فجعل يكبر ويكبر حتى علا إلى سقف الغرفة بصورة مهيبة ثم قال لي : لقد أُعطيتُ الكلّ بالكل .
فاستيقظت وعلمت أن الله تعالى قد جمع له المقامات العالية ، وأكرمه بالمراتب الرفيعة ، رضي الله تعالى عنه ونفعنا ببركاته وأسراره .
وكذلك رأيت الشيخ محمد سعيد الإدلبي رضي الله عنه [1] رأيته في المنام وهو يدرّس في المسجد واستمعت لدرسه ، ثم نظرت إلى الجبّة التي كانت عليه فرأيتها من أكمامها ثخينة ، يزيد سمكها على عرض الإصبع ، مما يشير إلى قوة وعظمة لباس التقوى الذي كان الشيخ رضي الله عنه يرتديه .
قال شيخنا الإمام رضي الله عنه :
وكنت قد رأيت الشيخ عبد العزيز عيون السود [2] رضي الله عنه في المنام بعد وفاته ، رأيته رضي الله عنه في أحسن صورة وأبهى حلة فقلت له :

---

[1] وكان بينه وبين شيخنا الإمام رضي الله عنهما قرابة من جهة الأم ومودة ومحبة عالية .

[2] الشيخ العالم الفاضل القارئ للقرآن على القراءات العشر وغيرها من طرقها المعتمدة، طلب العلم في صغره وشبابه وأجيز بأعلى الأسانيد ، علمه بحر لا ساحل له ، فقيه على مذهب الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان ، وحكى بعض تلامذته أنه كان شبه حافظ لحاشية ابن عابدين ، إذ كان يحيل السائل إلى الجزء ورقم الصفحة . وبعد حياة حافلة مليئة بخدمة كتاب الله تعالى ، وتقديم العلم للمسلمين ، توضأ الشيخ عبد العزيز وبدأ في صلاة التهجد كعادته ، وتوفي أثناء الصلاة وهو ساجد في الساعة الرابعة قبل الفجر من يوم السبت الثالث عشر من شهر صفر عام ١٣٩٩ هـ عن عمر قارب ثلاثاً وستين سنة رحمه الله رحمة واسعة ورضي عنه

لقد استعجلتَ ، فقال لي : دعاني ربي فلبيت دعوته ، قلت له : كنت تنفع الناس وتعلّمهم في الدنيا ، فقال : قلت لربي جل وعلا ذلك فقال لي : تنفع الناس وتعلّمهم في عالم البرزخ كما كنت تفعل في الدنيا
فقلت له : إن مِن أولادك مازال صغيراً ويحتاج إلى رعايتك ،
قال : قلت لربي جل وعلا ذلك فقال لي : أنا أتكفَّل بأولادك . اهـ .
قلت : وكان الشيخ الإمام رضي الله عنه يثني على الشيخ عبد العزيز رضي الله عنه كثيراً ، ويذكره بالمدح في سعة علمه وزهده وورعه وتواضعه ، خاصة أن الشيخ عبد العزيز كان من أكابر علماء القراءات في بلاد الشام ، وقد تسلم الفتوى في مدينة حمص وقتها .
وقد نزل مرة سيدنا الشيخ محمد نجيب إلى الحمام [١] - وكان هذا في السنين الأخيرة من عمره - ، فجعل يستند إلى مولاي الوالد فقال له :
يا عبد الله أنا الآن مستند إليك فأنت إلى من تستند ؟
فقال مولاي الوالد : أستند إلى الله تعالى [٢]
فأقرّه سيدنا الشيخ محمد نجيب وفرح بذلك وقال : نعم هكذا فلتكن .
وكان سيدنا الشيخ محمد نجيب رضي الله عنه يمانع أن يقبّل أحد قدميه ، فكان مرة جالساً على فراشه ووالدي الكريم إلى جانبه فقبّل قدميه ، فقال سيدنا الشيخ محمد نجيب :(اللهم ارض على عبد الله) ، فقال له والدي (رضاً لا سخط بعده) ، فقال له سيدنا الشيخ محمد نجيب باللهجة العامية : (نعم نعم ، لَكَا شلُون).
وكان مولانا الوالد رضي الله عنه يثني كثيراً على والده رضي الله عنه ويذكر فضله عليه ومن ذلك أنه كان يقول : الشيخ نجيب أمره كله عجيب .
ومما سمعناه منه في هذا المجال أن مولانا الشيخ محمد نجيب رضي الله عنه كان يكثر من هذين البيتين في آخر أيام حياته المباركة :

---

[١] وكان ارتياد الحمام أمراً معروفاً مشهوراً وقتئذ ، إذ لم تكن الحمامات متوفرة في البيوت وقتها .
[٢] قال سيدنا الشيخ في كتابه (التقرب إلى الله تعالى) :
وفي (مسند الفردوس) عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً:
اللهم إني أسألك يا الله يا رحمن يا رحيم، ويا جار المستجيرين، يا مأمن الخائفين، ويا عماد من لا عماد له، ويا سند من لا سند له ... الحديث
وقد أراد الشيخ الإمام من قوله : (أستند إلى الله تعالى) أنه مستند إلى قوة الله تعالى ومدده وحفظه وكرمه
وجاء في دعاء حزب الفرج للإمام الرفاعي رضي الله عنه :
وعليك اعتمادي وإلى كرم قدك استنادي

البيت الأول منهما هو :
وكل أذى في الحب منك إذا بدا جعلت له شكري مكان شكيّتي [١]
قلت : اعلم أن أهل الله تعالى لا يقولون إلا ما يفعلون ، وإذا قالوا شيئاً دل على تحققهم به ، فيشير الشيخ رضي الله عنه إلى تذوقه طعم حلاوة الإيمان بالله حق الإيمان لأنه رضي بالله رباً - أي رضي به سبحانه رباً فيما أمر به من أحكامه الشرعية الأمرية ، وفي أحكامه القضائية القدرية ، فجعل يحمده على حالة السراء والضراء ، ولا يُسند إليه إلا الخير، فيحمده على حالة الضراء والسراء على حد سواء لأنه راض بحكم الله تمام الرضا
وقد قال تعالى : { رضي الله عنهم ورضوا عنه }
وفي الحديث الذي رواه الإمام مسلم عن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :
(ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً) [٢]
والرضا لا يكون باللسان فحسب وإنما يشمل الاعتقاد القلبي والعمل الجارحي والحمد القولي ، وجميع ما هو من الحبيب محمود .
وفي الحديث عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :
[أَوَّلُ مَنْ يُدْعَى إِلَى الْجَنَّةِ الْحَمَّادُونَ الَّذِينَ يَحْمَدُونَ اللَّهَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ] [٣]
وأما البيت الثاني الذي كان يردده الشيخ محمد نجيب رضي الله عنه فهو :
فقلت لها والرَّكب حول للسّرى رؤوس المطايا هات روحي أو قفي [٤]
وفيه من معاني الهيام بالمحبوب الأعظم ما يتقاصر نسجه بعبارة .
وكان الشيخ محمد نجيب رضي الله عنه قد رأى في المنام قبل أن يتزوج - وقد عانى من مرض ألمّ به لفترة - رأى حضرة النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقول له : لا بأس عليك يا شيخ نجيب ، افتح فمك ، فبصق النبي صلى الله عليه وسلم في فم سيدنا الشيخ محمد نجيب فابتلعها رضي الله عنه ثم قال له صلى الله عليه وسلم : افتح فمك ، فأخرج صلى الله عليه وسلم نخامة من صدره الشريف ، وتفل في فم سيدنا الشيخ محمد نجيب رضي الله عنه فابتلعها مرة ثانية رضي الله عنه .

[١] البيت من قصيدة لسيدي ابن الفارض رضي الله عنه المتوفى سنة ٦٣٢ هـ
[٢] صحيح مسلم كتاب الإيمان وصحيح ابن حبان كتاب الصلاة
[٣] المعجم الصغير للطبراني واللفظ له ومسند البزار ومستدرك الحاكم
[٤] البيت من قصيدة للسيد عبد الحميد الرافعي المتوفى سنة ١٣٥٠ هـ

وكان سيدنا الشيخ محمد نجيب رضي الله عنه يتأول بصاق سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي رآه في منامه بأنه فيض من سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه بالعلوم الشرعية الظاهرة ، وأما النخامة فهي فيض من سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه بالعلوم والمعارف والحقائق الإلهية التي اشتهر بها سيدنا الشيخ محمد نجيب رضي الله عنه ، وذلك لأن النبي صلى الله عليه وسلم أخرج النخامة من جوفه الشريف .

وكان الشيخ علي الكحال [١] - وهو من أقران الشيخ محمد الحكيم [٢] - كان يكتب في جريدة شهرية مواضيع أدبية ، وبعض قضايا شرعية ، وكان فيها أمور اجتماعية - على حد تعبيره - فكلما صدر عدد جديد أتى به إلى سيدنا الشيخ محمد نجيب رضي الله عنه ليطلعه عليه ، فيقول له سيدنا الشيخ محمد نجيب : ما معنى : (اجتماعية) ، و(فلان اجتماعي) ؟

هذا يعني النفاق [٣].

ولا يسلّم سيدنا الشيخ محمد نجيب هذه الكلمة ويقول له : أنت كحّال ، وما تقوم به أمر جيد ، لكنك تكحلها وهي عمياء .. يقصد ما يكتبه في الجريدة .

وكان سيدنا الشيخ محمد سراج الدين رحمه الله والد سيدنا الشيخ محمد نجيب رضي الله عنه من خاصة المقربين من الشيخ أحمد الترمانيني رضي الله عنه [٤] حتى إن ولده يوسف سراج الدين تزوج ابنة الشيخ أحمد الترمانيني ، وأنجبت له ولداً سموه الشيخ أحمد سراج الدين ترمانيني ولم يكن للشيخ الترمانيني إلا بنتان .

---

[١] هو الشيخ محمد علي بن مصطفى بن حمادة الحسيني عمل مشرفاً على المكتبة الوقفية بحلب حتى وفاته سنة ١٣٨٧ هـ رحمه الله

[٢] هو الشيخ محمد أبو السعود بن الشيخ عبد القادر ابن الشيخ محمد الحكيم الحلبي الحنفي مفتي حلب وقاضيها الشرعي توفي رحمه الله سنة ١٤٠٠ هـ

[٣] وإن ذم الشيخ رحمه الله لكلمة : (رجل اجتماعي) لأنها تدل على أنه يواجه كل قوم بما يحبون ليرضوا عنه وينال من خيراتهم ، ولا يبالي أكانوا على هدى أم ضلال ، وأما من خالط الناس واجتمع بهم بغية النصح وبدافع المحبة والمودة فهذا أمر محبوب مطلوب .

[٤] سيدي المحدث المفسر الفقيه الشافعي الكبير العلامة الشيخ أحمد بن الشيخ عبد الكريم بن الحاج نعمة الله الترمانيني الأزهري الزاهد العابد المحدّث المفسر المجمع على علمه وفضله وجلالة قدره وولايته .
ولد في قرية ترمانين سنة ١٢٠٨ هـ وتوفي يوم الأحد الثالث عشر من شهر ربيع الثاني سنة ١٢٩٣ هـ ودفن في تربة الجبيلة رضي الله عنه ونفعنا به

ورأى الشيخ محمد سراج الدين رحمه الله في المنام أن الشيخ الترمانيني يلبسه عمة كبيرة (دِنباكية) فلما ذكر ذلك للشيخ الترمانيني قال له :
(هي لولدك محمد نجيب) .
وكان الشيخ محمد سراج الدين رحمه الله كثيراً ما يصحب ولده سيدنا الشيخ محمد نجيب رضي الله عنه يصحبه معه إلى دروس الشيخ الترمانيني رضي الله عنه التي من جملتها درس الجامع الأموي الكبير يوم الاثنين بعد صلاة الظهر ، وقد اشترى الشيخ محمد سراج الدين رحمه الله قبراً إلى جانب قبر الشيخ الترمانيني رحمه الله تعالى من جهة رجليه وكتب عليه اسمه ، و كان يصحب معه ولده سيدنا الشيخ محمد نجيب لزيارة قبر الشيخ الترمانيني رحمه الله تعالى ، فمرة قرأ سيدنا الشيخ محمد نجيب اسم والده على القبر الذي بجانب قبر الشيخ الترمانيني فقال له : يا أبت قبر من هذا ؟
فقال له : هذا لي يا ولدي .
وكان الشيخ الترمانيني شريكاً مع الشيخ محمد سراج الدين رحمه الله تعالى في بعض تجاراته من عنتاب إلى حلب .
وكان الشيخ محمد إسحاق بن حسن الكيالي [1] رحمه الله تعالى ممن أجاز شيخنا الإمام بالطريقة الرفاعية ، وقد افتتح شيخنا رضي الله عنه حلقة لذكر الله تعالى راعى فيها أوراد جميع الطرق ، ، ومنها الطريقة القادرية والنقشبندية والرشيدية والبدوية وكان والده الشيخ محمد نجيب رضي الله عنه قد أجازه بجميع ما أجازه به شيوخه من أهل العلم والطريقة .
قال شيخنا الإمام رضي الله عنه :
وفي إحدى الليالي المباركة رأيت في المنام أني جالس قرب قبر أحد الأولياء ، وإلى جانبي يجلس الشيخ عبد العزيز عيون السود رحمه الله تعالى ، وكان بيني وبين الشيخ رحمه الله تعالى أخوّة خاصة ومودة كبيرة وكان الشيخ رضي الله عنه من جملة الصالحين الأكابر الذين تعاهدتُ معهم على أن الناجي منا في الآخرة يأخذ بيد أخيه .
قال شيخنا الإمام رضي الله عنه : فجعلنا نذكر الله تعالى بلفظ الجلالة حتى إذا اشتد بنا الحال وأسرعنا في الذكر جعل القبر يذكر معنا ، ثم انشق القبر وخرج منه رجل مهيب ذو وجه وضّاء ولحية شقراء ، فعلمت أنه الإمام الكبير السيد أحمد الرفاعي رضي الله عنه ، فسلمت عليه وقبّلت يديه وهو يمشي يريد الخروج من المسجد ، وقلت له : هل أنت راض عني ؟

---

[1] وهو رضي الله عنه من ذرية الشيخ إسماعيل الكيالي الكبير

وهل أهل الله راضون عني ؟ فقال : نعم أنا راض عنك ، وجميع أهل الله تعالى راضون عنك ، وهم يدعون لك ، فقلت : الحمد لله رب العالمين .
ثم استيقظت من نومي مستبشراً مسروراً فرحاً بفضل الله تعالى .
وقال الشيخ الإمام رضي الله عنه :
وحصل لي ذات مرة أن رأيت في المنام سيدنا عيسى عليه السلام وأمه السيدة مريم ، وهي ترتدي لباس الحشمة ، أبيض اللون ، يشبه لباس من أرادت الصلاة في زمننا هذا ، وقبّلت يدها من فوق الرداء ودعت لي .
وممن رأيت في منامي الإمام مالك بن أنس رضي الله عنه إمام دار الهجرة ، رأيته وقد قدم حلب على أنه طبيب يقصده الناس للتداوي ، فذهبت إليه ، فلم أجد عنده أحداً ، فسلمت عليه وتأملت في وجهه النور والبهاء ، وعليه لباس أبيض ناصع ، فجعل يجسّ نبضي ويصف لي كذا وكذا ..
قال الشيخ رضي الله عنه :
ومما من الله تعالى به علي أن البشائر والكرامات المحمدية تتوارد علي كلما فرغت من جمع كتاب وفقني الله تعالى لجمعه .
وكنت مرة قد وضعت عنواناً لأحد كتبي فرأيت في المنام والدي وسيدي محمد نجيب رضي الله عنه يقرأ ذلك الكتاب ، فنظرت فيه فإذا عنوانه غير الذي كنت قد اخترته ، فعلمت أنه يريد عنواناَ آخر لذلك الكتاب ، ولما استيقظت فهّمني الله تعالى الحكمة من ذلك وسمّيتُ الكتاب :
(التقرب إلى الله تعالى).
وقد نلت مرتبة أخرى في شرف خدمة النبي صلى الله عليه وسلم ، إذ رأيت في المنام أن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قد وظّفني خادماً عنده ، أتعهّد بيت المؤنة ، واستلمت تلك الوظيفة ، وأقبل صلى الله عليه وسلم إلى المكان الذي قمت بخدمته وإعداده ، فأعجبه ونظر إلي مبتسماً راضياً صلى الله عليه وسلم . اهـ .
قلت : وكان شيخنا الإمام يتأولها بأن زاده محمدي وافر ، والحمد لله . اهـ .
وكان من تواضعه رضي الله عنه يسرد في عدة مناسبات في مجالسه مع أحبابه قصة سيدنا أحمد الرفاعي رضي الله عنه لما حضر مجلسَ وعظه يوماً عشرةُ آلاف مريد ، فلما فرغ الإمام الرفاعي من المجلس التفت إليهم وقال : أَيْ سادة - أي : يا سادة - أنا لست بشيخ ، لست بمقدّم علي هذا الجمع ، لست بواعظ ، لست بمعلم ،

حُشِرت مع فرعون وهامان إن خطر لي أني شيخ على أحد من خلق الله ، إلا أن يتغمدني الله برحمته ، فأكون كآحاد المسلمين [1]

وقال الشيخ الإمام رضي الله عنه :
رأيت في المنام مرة أني واقف على باب بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم أريد الإذن بالدخول عليه صلى الله عليه وسلم ، فجعلت أطرق الباب طرقاً خفيفاً برؤوس أصابعي ، ووقفت أنتظر ، فأقبل سيدنا موسى وسيدنا عيسى عليهما السلام فسلّمت عليهما ، وإذا بموسى عليه السلام يطرق الباب بسرعة فنظرت إليه ، فقال لي : أنا موسى ، فتراجعت بطرفي متأدباً وقلت له : على رأسي .
قال الشيخ الإمام رضي الله عنه :
وقبل سفري إلى المدينة المنورة بأنواره صلى الله عليه وسلم ومجاورتي فيها - قبل ذلك بفترة قليلة - رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في المنام مرتين كان أولاهما :
أني رأيته صلى الله عليه وسلم ينادي سيدنا علياً رضي الله عنه أن يحضر العباءة ليلبسني إياها ، وذلك أني كنت وقتئذ أشكو من مرض وألم في جسمي ، فلما استيقظت شعرت أن المرض قد زال عني ببركته صلى الله عليه وسلم .
وثانيتهما : رأيت في المنام أني جالس مع أفراد عائلتي ، وإلى جانبي سيدي ووالدي الشيخ محمد نجيب رحمه الله تعالى ، فلم تمض فترة إلا وشعرت بأن الذي إلى جانبي هو سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتهيبت منه صلى الله عليه وسلم فقال لي : إني أريد أن أضطجع ، فأحضرت فراشاً وهيأته له صلى الله عليه وسلم ، فاضطجع ، وجلست جانب قدميه صلى الله عليه وسلم فقال لي : تقدَّمْ تقدم ، فقلت : أنا هنا يا سيدي يا رسول الله ، واستيقظت مستبشراً فرحاً بأن زارنا صلى الله عليه وسلم في بيتنا وحلّت علينا بركاته وأنواره الشريفة صلى الله عليه وسلم .
وقال الشيخ الإمام رضي الله عنه :
وكنت أيام مجاورتي للحبيب الأعظم صلى الله عليه وسلم أفكر دائماً أن أقدم خدمة لهذا البلد الطيب المبارك ، فشرح الله صدري لقراءة الحديث الشريف على بعض الأحباب ، فخصصت لذلك جلسة أو جلستين في الأسبوع ،

[1] انظر كتاب : (البرهان المؤيد) للإمام الرفاعي رضي الله عنه

نقرأ فيها حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم من صحيح البخاري وأتكلم على الحاضرين بما يفتح الله لي في بيان معاني كلامه صلى الله عليه وسلم ثم تبادر إلى ذهني أن أحصل على إذن من الجهات الرسمية بإدخال كتاب : (سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ شمائله الحميدة ـ خصاله المجيدة) إلى المملكة بشكل نظامي لينتشر في المكتبات وغيرها وينتفع به الناس .

ـ قلت : وكان الشيخ الإمام رضي الله عنه يولي هذا الكتاب اهتماماً خاصاً وعناية فائقة ، ويرغّب الناس في قراءته مرات ومرات ، ويقول :

واجب على كل مؤمن أن يقرأ هذا الكتاب ليكمل إيمانه بسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويتعرف على بعض شمائله وخصاله الشريفة صلى الله عليه وسلم) .

وكان كثيراً ما يسأل : أيّ كتاب من كتبي أشد طلباً لدى الناس وأكثر سؤالاً عنه ؟

فيقال له : هو كتاب (سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم) فيفرح ويحمد الله تعالى على ذلك ، ويقول : هذا ما أريده ، وكيف لا يكون الأمر كذلك وقد توالت عليّ البشائر من سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لما فرغت من جمعه ونلت المَكْرمات المحمدية وشرف خدمته صلى الله عليه وسلم ؟! ـ .

قال الشيخ الإمام رضي الله عنه :

وشاء الله تعالى أن جمعني برجل من أهل الشام ، وهو صاحب دار للطباعة والنشر ، وأخذ على عاتقه أن يطبع هذا الكتاب طباعة أنيقة بغلاف لائق مقابل مبلغ من المال ، على أن أستلم منه خمسمائة نسخة من الكتاب حال صدوره ، وهو الذي يقوم بإجراءات الحصول على موافقة رسمية بدخول الكتاب إلى المملكة .

ومضى على ذلك عدة أشهر وأنا أنتظر بتشوق دخول الكتاب وانتشاره في المملكة ، فاتصل بنا الرجل وقال : إن العدد الذي طلبتموه موجود في مكتب الشحن في المطار ويحتاج إلى إذن لإدخاله ونشره ، فقلت له : ألم تتعهد أنت ذلك ؟

فراوغ في كلامه واعترف بعجزه عن ذلك .

فطلبت طلباً رسمياً إلى الجهات المسؤولة للحصول على موافقة نظامية بإدخال الكتاب ونشره ، وكان ظاهر هذا الأمر عسيراً لأنه يتطلب قراءة وتدقيقاً منهم ، فاشتد الأمر ، واضطرب فكري لذلك ، فتوجهت مهموماً إلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وشكوت له الأمر قائلاً :

يا سيدي يا رسول الله إن كان هذا الكتاب مقبولاً عندك فالبشرى ستأتي بالموافقة عليه ، وإن لم يكن كذلك فأقول : حسبي الله ونعم الوكيل ..
وبتّ تلك الليلة فرأيت في المنام أني واقف أمام باب الكعبة المشرفة ، وحولي جمع من الناس وقد تقدم كل منهم بشهادته أن لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم .
فنادى في الناس مناد : أن من قُبلت شهادته فسيظهر ذلك ويُكتب على باب الكعبة المشرفة ، فلم تمض فترة إلا وكتب على باب الكعبة :
أن شهادة عبد الله سراج الدين أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم مقبولة .
فلما استيقظت فرحت وقلت : جاءت البشرى بقبول الكتاب عند السيد الأعظم صلى الله عليه وسلم ، فلابد إذاً من الموافقة على إدخاله ونشره في المملكة .
وكان أن حصل ذلك بالواقع ، ونال الكتاب موافقة الجهات المسؤولة ودخل المملكة وانتشر فيها ، ولا يزال إلى الآن كذلك ، والحمد لله رب العالمين على انتشار هذا الكتاب وغيره من كتبي لينتفع به الناس ويتفهموا أمور دينهم ، وأنال الثواب والقبول عند الله تعالى وعند رسوله صلى الله عليه وسلم ، وهذا مقصودي أولاً و آخراً .
ومما أكرمني الله تعالى به لما جاورت في المدينة المنورة ، وخدمت هذا البلد الطيب أن أشرت على بعض الأثرياء المحسنين من أهل المدينة ببناء مدرسة شرعية ، تُخصص لتعليم القرآن الكريم وتجويده وتحفيظه ، وقراءة وتحفيظ الحديث الشريف أيضاً ، وذلك لما استشارني ذلك الرجل الصالح رحمه الله تعالى في عمل خير يعود عليه بالثواب والأجر في حياته وبعد مماته ، ويكون بمنزلة صدقة جارية يجري نفعها وخيرها ما شاء الله تعالى ، فأشرت عليه ببناء المدرسة ، وقد تم تشييدها شرقي المدينة جهة أحد في مكان شرح الله تعالى صدري له .
وما إن تم البناء حتى توفي الرجل وحقق الله مراده ، نسأل الله تعالى أن يرحمه ويحسن إليه ، ويكرم نُزُله في الجنة .
وقد عمرت المدرسة بفضل الله تعالى بالطلاب والمدرسين بإشراف من أولاد المرحوم على إدارتها وإمدادها وزاد الإقبال عليها حتى بلغني أنهم شيدوا مبنى آخر كفرع عن المدرسة وذلك ناحية قباء فجزاهم الله خيراً وأحسن إليهم وإلى كل من ساهم في خدمة هذا الصرح .

وقال شيخنا الإمام رضي الله عنه :
وقد افتتحت دروسي في جامع بانقوسا بالكلام حول تفسير سورة الفاتحة كما قد رأيت في المنام لما كنت في المدينة المنورة بأنواره صلى الله عليه وسلم وأما دروسي في الجامع الأموي الكبير فأفتتحها بالكلام حول شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم .
وقد رأيت سيدنا زكريا عليه السلام مرة في المنام وقال لي :
(إن نظري لا ينقطع عنك طيلة وقت درسك) - أي في الجامع الأموي الكبير - فحمدت الله تعالى على ذلك .
وقال الشيخ الإمام رضي الله عنه : ومما أكرمني الله تعالى به أيام مجاورتي في المدينة المنورة أن وفقني لجمع عدة كتب منها :
كتاب (تلاوة القرآن المجيد) وكتاب (الدعاء) وكتاب (شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم) وكتاب (الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم) وكتاب (صعود الأقوال ورفع الأعمال إلى الكبير المتعال ذي العزة والجلال) .
وكنت دوماً أسأل الله تعالى أن يوفقني لأن تكون حجتي في كلامي سواء في كتبي أو في دروسي أن تكون حجتي وأدلتي هي :
قال الله تعالى ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم . اهـ .
قلت : وقد استمر الشيخ الإمام رضي الله عنه في التدريس في الجامع الأموي الكبير بحلب حتى الربع الأول من عام ١٤٠٩ للهجرة ، وكان قد توقف عن التدريس في جامع بانقوسا قبل ذلك التاريخ بسنتين تقريباً ، والتفت عندئذ إلى جمع وتصنيف الكتب الشرعية التي يحتاجها كل مؤمن لفهم دينه ، وما يتضمن ذلك من عقائد إيمانية وأعمال وأقوال وأخلاق وآداب .
وكان أول تلك الكتب في تلك الفترة كتاب (هدي القرآن الكريم إلى الحجة والبرهان) ثم كتاب (هدي القرآن الكريم إلى معرفة العوالم والتفكر في الأكوان) .
ثم توالت كتاباته حول تفسير بعض السور القرآنية كتفسير سورة الفاتحة ، ثم الحجرات ثم سورة { ق} ثم الإخلاص والمعوذتين ثم الملك ثم العلق ثم الدهر ثم كتاب فيه الإرشادات النبوية ثم كتاب حول ترجمة والده مولانا الشيخ محمد نجيب سراج الدين رضي الله عنه .
ثم شرع في جمع كتاب حول معاني أسماء الله الحسنى ، ووصل فيه إلى اسمه سبحانه (المجيب) .

ولم يكمل جمع هذا الكتاب لأنه لبى دعوة ربه سبحانه وتعالى ، وانتقل إلى سعة مغفرته ورحمته ورضوانه سبحانه .
وأما توقفه عن الدروس في الجامع الأموي الكبير وجامع بانقوسا والمدرسة الشعبانية فكان بسبب آلام انتابته في ظهره رضي الله عنه ، وفتق أسفل بطنه كان يعاني منه.
وهذا ما بدا لنا في ظاهر الأمر إلا أنه رضي الله عنه رأى في المنام ما فهم منه التوقف عن الدروس والتوجه إلى الجمع والتصنيف .
وكان رضي الله عنه يقول :
إني دائماً أسأل الله تعالى أن يجعل في كتبي نوراً محمدياً يسري إلى قلب القارئ ، فينتفع ويزداد هدى وعلماً ومحبة لله ورسوله الكريم صلى الله عليه وسلم .
وكان رضي الله عنه إذا سئل عن أمر عودته إلى المدينة المنورة ، ومجاورته فيها مرة ثانية يقول :
لقد فوضت أمري هذا إلى الله تعالى وإني كثيراً ما أدعو الله تعالى :
اللهم إن كان ذهابي إلى المدينة المنورة للمجاورة فيها أحب إليك وإلى رسولك صلى الله عليه وسلم فيسّر لي أسباب ذلك ، وإن كان بقائي في حلب أحب إليك وإلى رسولك صلى الله عليه وسلم وأنفع لخلقك فيسّر لي أموري وألهمني الرشاد حتى أنفع عبادك ، وأسعد برضاك ورضا رسولك صلى الله عليه وسلم .
قال الشيخ الإمام رضي الله عنه :
وقد رأيت النبي صلى الله عليه وسلم مرة في المنام وهو يريد السفر إلى المدينة المنورة فالتفت إلي وقال :
اتبعني إلى المدينة إذا فرغت من حاجتك . اهـ .
قلت : وهذه بشارة من حضرته الشريفة صلى الله عليه وسلم لشيخنا الإمام رضي الله عنه باتباعه ومجاورته الكريمة صلى الله عليه وسلم على وجه الدوام ، وإن لم يحصل ذلك في الحياة الدنيوية الجسمانية فسيحصل في الحياة البرزخية العالية ، كيف لا وقد قال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل رضي الله عنه لما سار معه خارج المدينة يودّعه ويوصيه ، وبكى معاذ رضي الله عنه جشعاً - أي جزعاً - لفراق سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فالتفت صلى الله عليه وسلم بوجهه إلى المدينة وقال :

[إن أولى الناس بي المتقون ، مَن كانوا وحيث كانوا] [1] .
فلا اعتبار إذاً لبعد أجسام المحبين عن حبيبهم طالما أن قلوبهم تشهده ، وأرواحهم تحن إليه ، وتجتمع لديه صلى الله عليه وسلم .
وكان الشيخ الإمام رضي الله عنه يوصي من أراد السفر إلى الحج أو العمرة والزيارة يوصيه بالدعاء ويقول : اقرأ السلام على خير الأنام صلى الله عليه وسلم وقل : يا سيدي يا رسول الله خويدمك عبد الله يُقرِئك السلام .
ثم يقول رضي الله عنه :

يا سائرين إلى المختار من مضر   سرتم جُسوماً وسرنا نحن أرواحا
لقد أقمنا على عذر ألمّ بنا   ومن أقام على عذر كمن راحا

وإن قلوبنا دائماً متوجهة إليه صلى الله عليه وسلم ، وأرواحنا مجتمعة لديه صلى الله عليه وسلم ، وفي حضرته الشريفة ، ولولا العذر لمشينا إليه صلى الله عليه وسلم بأجسامنا كما سارت أرواحنا .
ثم يذكر الحديث عنه صلى الله عليه وسلم لما رجع من غزوة تبوك وأشرف على المدينة المنورة بأنواره الشريفة صلى الله عليه وسلم قال لمن معه من الصحابة :
[إن بالمدينة أقواماً ، ما سرتم مسيراً ، ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم ،
قالوا : يا رسول الله وهم بالمدينة ؟
قال : وهم بالمدينة ، حبسهم العذر] [2]
فأثبتَ صلى الله عليه وسلم لهم الأجر جملة وتفصيلاً ، إذ لولا العذر الذي ألمّ بهم كمرض أو غير ذلك لخرجوا معه صلى الله عليه وسلم .
قلت : وقد أوصاني رضي الله عنه لما ذهبتُ للعمرة ولزيارة الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم في آخر شهر شعبان من عام ١٤١٠ للهجرة النبوية المباركة قال لي : قل في زيارتك للحبيب الأعظم :
يا سيدي يا رسول الله خويدمك عبد الله سراج الدين يقول :
الصلاة والسلام عليك يا سيد المرسلين ، أنت لكُربتنا ولكل كرب عظيم ، اللهم فرِّج عنا بجاه هذا النبي الكريم صلى الله عليه وسلم - ثلاثاً . اهـ .
ثم قال : واعلم أنك ذاهب إلى من هو أرحمُ بك من أمك وأبيك ، وأرحم بك من نفسك ، وإذا كانت كُرُبات الآخرة لمّا تشتد على أهل الموقف ليس لها كاشف إلا هو صلى الله عليه وسلم ، فما بالك بكربات الدنيا التي لا تُعدّ بالنسبة لكربات الآخرة شيئاً ؟!

[1] المسند ٢١٠٤٠ وصحيح ابن حبان
[2] صحيح البخاري كتاب المغازي

فهو الحبيب الذي يقول الله تعالى له :
يا محمد ارفع رأسك ، وقل يُسمعْ لك ، وسل تُعطَ ، واشفع تشفع [١]
قلت : وكان شيخنا الإمام رضي الله عنه يوصي أيضاً من جاءه يريد الحج أو العمرة ، يوصيه أن يقرأ السلام على بيت الله الحرام وهي الكعبة المشرفة ، ويقول : إن للكعبة روحانية ، وهي محفوفة بالأرواح العلوية .
وقال رضي الله عنه :
ولقد وصّيت مرة رجلاً من أهل المحبة والصفاء كان يريد العمرة ، وصّيته أن يقرأ السلام على بيت الله الحرام ، وأن يُحضر قلبه ويُلقي سمعه ففعل ذلك ، فلما رجع أخبرني أنه جلس بمنأى عن الناس وقال :
السلام عليك يا بيت الله الحرام من الشيخ عبد الله سراج الدين ،
فسمع قائلاً يقول : (لا يكفي أن يرسل سلامه إلينا ،بل نريد أن نراه)
فالتفت فلم يجد أحداً ، فحمد اللهَ على فضله ، وزاده ذلك خشوعاً ومهابة .
وفي أيام موسم الحج من عام ١٤٢٢ للهجرة النبوية الشريفة ـ وقد وافقتْ تلك الأيام أيام مرض الشيخ الإمام رضي الله عنه حسب الظاهر للناس ـ إلا أنها أيام استغراقه في الحضرة المحمدية صلى الله عليه وسلم ، كما دلّت على ذلك الإشارات الغيبية التي لاحت لأهل القلوب النقية ، ومنها ما ظهر على وجه الشيخ الإمام رضي الله عنه لأهل البصائر القلبية .
في هذه الأيام المباركة حكى رجل ممن أحب الشيخ الإمام رضي الله عنه ولم يجتمع به ، ـ وكان وقتها في المدينة المنورة يزور الحبيب الأعظم صلى الله عليه وسلم ـ فلما رجع إلى بلده قال : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في المنام ، فقلت : يا رسول الله إن الوفود لما تَقْدُم وتقرأ السلام عليك ، تَرُدّ السلام وأنت جالس ، إلا وفد أهل حلب فتنهض وترد عليهم السلام فقال صلى الله عليه وسلم :
(لأنهم جاؤوني من طرف الشيخ عبد الله سراج الدين) .
وجاء رجل ممن كان يحضر دروس الشيخ الإمام رضي الله عنه ، ثم أقام في مدينة طرابلس للعمل فيها ، جاء بعد غياب طويل وقصد زيارة شيخنا الإمام رضي الله عنه في منزله ، فيسّر الله تعالى له ذلك بواسطة بعض أصحابي ، فلما دخل على الشيخ الإمام رضي الله عنه ارتمى على قدميه المباركتين وجعل يبكي ، فآنسه شيخنا الإمام رضي الله عنه ، وهدّأ حاله وسلّم عليه ورحب به ،

[١] طرف حديث في صحيح البخاري كتاب التوحيد

ثم ذكر الرجل أنه يُحصي لشيخنا الإمام عدة كرامات عاينها بنفسه ، وشيخنا الإمام رضي الله عنه يقول : اللهم استرنا ، اللهم استرنا .
ثم استأذن الرجل شيخنا الإمام أن يقصّ عليه رؤيا صالحة ، فأذن له ، فقال : رأيت نفسي في بيت الله الحرام ، وقد فُتح باب الكعبة وأُعدّ لاستقبال رجل ، فتقدمت وقلت لهم : ألا تأذنون لي أن أصلي ركعتين داخل الكعبة المشرفة ؟
قالوا :لا ، وإنما فتحنا الباب لرجل أهل لهذا المقام .
فقلت : من هو ؟ قالوا : وكيف لا تعرفه ، وهو معروف عند أهل السماء والأرض : إنه الشيخ عبد الله سراج الدين ، ونحن من أجله سنأذن لك أن تدخل الكعبة .
فقال شيخنا الإمام رضي الله عنه: بشّرك الله بالخير وأعطاك مرادك .
ثم قال الرجل لشيخنا الإمام :
أتأذن لي أن أنشد بين يديك أبياتاً تحبها أنت ؟
فأذن له شيخنا الإمام رضي الله عنه ، فجعل يتغنى بهذه الأبيات :

أُهَيل الحمى عطفاً ورحمى لعبدكم ... فقلب المُعنّى لم يزل تحت أسركم
رعى الله أياماً تقضّت بقربكم ... إذا جَنّ ليلي هام قلبي بذكركم
أراعي نجوم الليل والدمع مطلق
فلا تحرموا المسكين فضل عُلاكم ... فليس له في الكون إرْباً سواكم
حرام على قلب يملّ هواكم ... وإن هبَّ ريح من جهات حِماكم
أنوح كما ناح الحمام المُطوّق .

فقال له شيخنا الإمام رضي الله عنه : جزاك الله خيراً ، اللهم ارض عن سيدي أحمد الرفاعي الذي أنشد هذه الأبيات بعد أن زار الحبيب الأعظم صلى الله عليه وسلم وعاد إلى بلده في العراق . اهـ .
وفي رمضان سنة ١٤١٨ للهجرة النبوية الشريفة زار شيخنا الإمام رضي الله عنه الشيخ السيد جمال الدين الهلالي ، وذكر الشيخ جمال للشيخ الإمام رؤيا كان قد رآها منذ أيام قليلة فقال :
(رأيت نفسي جالساً في الزاوية مع والدي الشيخ عبد القادر رضي الله عنه في غرفته العلوية ، ثم رأيتكم جئتم إلى الزاوية طائرين ، ومعكم رجلان من الحرس ، فوقفا على باب الزاوية ، ودخلتم وسلّمتم على والدي ، ثم التفت إليّ والدي وقال لي :
هات الديوان وسجّل اسم الشيخ عبد الله فيه
فأحضرته وسجلت فيه اسم جنابكم) .

فَسُرّ شيخنا الإمام رضي الله عنه ، وأثنى على الشيخ جمال الدين ، وأنه فرع من تلك الأصول الطيبة الطاهرة وحمد الله تعالى على أن سجّل اسمه في ديوان أهل الله تعالى من أهل الطريقة القادرية العلية .

قلت : ووجدت في مخطوطاتي القديمة :

أن رجلاً من أهل الصلاح كان قد زار الشيخ الإمام رضي الله عنه ، وهو من مدينة داريا ، وقال له شيخنا الإمام : كأني قد رأيتك من قبل !!

قال الرجل : نعم يا سيدي ، لقد اجتمعت بكم في مسجد سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في المدينة المنورة عام ١٣٩٧ للهجرة ، وقصصت لكم أني رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في المنام ، وإلى جانبه شيخنا محمد نجيب رضي الله عنه وهو يقول :

(يا سيدي يا رسول الله أوصيك بولدي عبد الله) ..

فقلت لي : جعلك الله مبشراً لأهل الله تعالى . اهـ

قال الشيخ الإمام رضي الله تعالى عنه :

وفي الفترة التي كنت فيها أقرأ درس التفسير والحديث في المدرسة الشعبانية على طلاب الصف الخاص ، وكنا نجلس في الغرفة الواقعة غرب الساحة ، بعد ذلك بمدة يسيرة رأيت في المنام أني جالس في تلك الغرفة فدخل عليّ الشيخ المحدث الكبير الإمام بدر الدين الحسني ومعه والدي وسيدي الشيخ محمد نجيب رضي الله عنهما ، فسلمت عليهما وجلسا ثم قالا لي : افتح باب الإجازة في الحديث وأجِزْ من تراه أهلاً ، ثم قدم وفد من أهل العلم وأجزت واحداً منهم ، ثم جيء بآنية الحلوى فرحاً وابتهاجاً بهذه المناسبة الكريمة .اهـ

وقد أخبر رضي الله عنه قبل وفاته بأشهر قليلة أنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم يقظة [1] ، وقد دخل عليه صلى الله عليه وسلم من الباب الغربي لغرفته التي كان يجلس فيها ، وهي تطل على الجهة الجنوبية القبلية ، والتي جمع معظم كتبه ومؤلفاته ، وهو جالس فيها على أريكته .

ولم يكمل حديثه عن رؤيته للنبي صلى الله عليه وسلم يقظة ، إذ غلبه البكاء حنيناً وشوقاً إليه صلى الله عليه وسلم ، وفرحاً وابتهاجاً بفضل الله تعالى ورحمته له .

وقد منعنا الحياء والأدب من سؤاله مرة أخرى عن تفصيل ذلك ، إلا أنه رضي الله عنه أكَّد على أن الأمر كان يقظة .

---

[1] وللتوسع في هذا الباب انظر رسالة الإمام السيوطي رضي الله عنه : (تنوير الحلك في إمكان رؤية النبي والملك) .

وكان رضي الله عنه قد رأى حضرة الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم يقظة قبل سفره إلى المدينة المنورة بنحو سنتين .
ولقد كان شيخنا الإمام رضي الله عنه يكثر من دعائه :
(اللهم عطّف علينا قلب النبي صلى الله عليه وسلم)
وأخبر مرة أنه رأى نفسه يمشي في طريق بيضاء نظيفة فأقبل عليه رجل من كبار أهل الله تعالى وسلّم عليه وقال :
يا أخي أكثرْ من قولك :
(اللهم عطّف علينا قلب حبيبك سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم) .
قال رضي الله عنه : وقد زادني ذلك همة ونشاطاً ورغبة في الإكثار من هذا الدعاء .
ومما ذكره الشيخ الإمام رضي الله عنه :
(كنت في بادئ أمري أضع العِمّة على رأسي دون أن أضع فوقها شيئاً ، سواء كان ذلك في أيام الصيف أو الشتاء ، فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم في المنام والعِمّة الشريفة فوق رأسه الشريف صلى الله عليه وسلم ، وفوقها طيلسان[1] وقال لي : (هكذا)
ومن وقت ذلك لم أترك وضع الطيلسان فوق العمة صيفاً وشتاء ، إلا أنه في الشتاء يكون من خيط الصوف ، وفي الصيف يكون أبيض رقيقاً . اهـ .
ثم إني رأيت مرة - وكان ولداي محمد وأحمد في مصر أيام حرب /١٩٦٧/ م التي توافق عام ١٣٨٧ للهجرة الشريفة - فانقطع الطيران وانشغل بالي عندهما ، فرأيت السيدة فاطمة رضي الله عنها ومعها الحسن والحسين رضي الله عنهما قد حضرا إلى بيتنا ، وانتبهت من نومي في ضحوة النهار ، حتى إذا صار بعد الظهر إذا بولداي يطرقان الباب ، وقد حضرا بالطائرة عن طريق الأردن ، وحمدت الله .اهـ .
قلت : ورأيت في المخطوطات القديمة التي كنت كتبت فيها ما سمعته من شيخنا الإمام قبل عام ١٣٩٩ هـ :
قال الشيخ الإمام رضي الله عنه :
رأيت والدي سيدي الشيخ محمد نجيب رحمه الله تعالى في المنام بلحية سوداء جالساً إلى جانبي في بيتنا ، ثم حدثتني نفسي بأنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأخذتني الهيبة ، ثم إنه الشيخ نجيب ثم سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

---

[1] قطعة قماشية كبيرة تُطوى على شكل مثلث وتوضع فوق العمة ، تنتهي أطرافها عند منتصف الظهر من الخلف ونهاية الصدر من الأمام ، وتعرف بالعامية بـ (اللفحة).

وبعد ذلك خرجت إلى الباب وناديت في الناس حيث اجتمع جمع غفير منهم عند الباب فقلت لهم :
إن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو صفوة الصفوات ، وخلاصة الخلاصات ، ومن لم يؤمن بذلك فقد خالف القرآن .
وقال رضي الله عنه :
(رأيت في المنام أني أدرّس جمعاً من الناس ، وأبين لهم مشروعية التبرك بآثار رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأسرد الأدلة على أنه صلى الله عليه وسلم منبع الخيرات والبركات ، ثم التفتُّ إلى إناء جانبي وفيه شيء من الخبز والكعك ، وقد أكل رسول الله صلى الله عليه وسلم من كعكة بيضاء مستطيلة ، فأخذتها وأكلت منها من الموضع الذي أكل منه رسول الله تبركاً وتصديقاً لما أقول .
وقال رضي الله عنه :
(رأيت في المنام أني أدرّس على جمع من الناس وأبين لهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد آتاه الله جوامع الكلم ، ثم شعرت أنهم لا يفهمون معنى ذلك فقلت لهم : ما لكم لا تفقهون ؟!!
مثال ذلك أننا لو وضعنا مصباحاً كبيراً في وسط غرفة مظلمة لأضاءت كما تضيء لو أننا وضعنا مصابيح صغيرة متعددة في أطراف الغرفة ، وكذلك صلى الله عليه وسلم يتكلم بكلمات يسيرة جامعة لمعاني كثيرة ، ثم أخذتني النشوة وجعلتُ أقول : الله الله يا رسول الله .
وقال الشيخ الإمام - وكان في بيت المرحوم السيد كامل فنصة [1] - :
في سنة ١٣٨٥ هـ حدثتني نفسي الذهاب إلى الحج برفقة زوجتي ، ولم أجزم بذلك حتى رأيت في المنام حضرة النبي صلى الله عليه وسلم وقد أذن لي بالدخول عليه والتشرف بالسلام عليه صلى الله عليه وسلم ، فعلمت أنه قد أذن لي بالحج وزيارته الكريمة صلى الله عليه وسلم .
وقال الشيخ الإمام رضي الله عنه :
رأيت نفسي في بيت الله الحرام ، ثم خرجت منه إلى حائط كبير ، وفي وسطه عمود نوراني يمتد إلى السماء ، على أن هذا مقام سيدنا داود عليه السلام ، فقلت في نفسي : بمَ نال سيدنا داود هذا المقام ؟
فنوديت من جانب الحق تعالى :
لقد نال ذلك بالدعوات الفلانية التي تعرفها أنت .
فقلت : نعم أعرفها .

---

[1] المتوفى سنة ١٤٠١ هـ رحمه الله

ثم تجلّى الحق سبحانه لي بصورة نورانية في الحائط - دونما تجسّد أو تمثّل - فأخذتني المهابة والخشوع ، وسجدتُ له تعالى ، وحدثتْني نفسي أنه تعالى يتجلى في الصور ، ولا تحدّه ولا تقيده جل وعلا شأنه ، ومن غير حلول أو اتحاد .

قال الشيخ الإمام رضي الله عنه :

ومما أكرمني الله تعالى أني نلت ثلاث مراتب في خدمة النبي صلى الله عليه وسلم ، جاء ذلك في عدة بشائر في المنام ، منها في المدينة المنورة ومنها في حلب:

فنلت خدمة ماء وضوئه وغسله صلى الله عليه وسلم .

وخدمة بيته الخاص صلى الله عليه وسلم ، والقيام بشؤون البيت في المؤونة

وخدمة بيت ضيافته صلى الله عليه وسلم ، ومكان مجتمع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . اهـ .

وقد قال الشيخ الإمام في فوزه بشرف خدمة النبي صلى الله عليه وسلم ومجاورته :

عبد ذليل تحت راية مجدكم	مِن شأنه الإطراق والإصغاء
لا تحرموني فضل جودكم الذي	شهدت به الخضراء والغبراء
أرجوكم يا سيدي من فضلكم	نفحات وصل ليس فيه جفاء
لكم الأيادي البيض حيث	قبلتموني شكري لكم وثناء
فلَكَم وكَم أكرمتموني عطفكم	فلنعم ذاك العطف والإيواء
بجواركم شرفي وغاية منيتي	وبقربكم حقاً يزول الداء
أشهدتموني نور وجهكم الذي	إشراقه للشمس منه ضياء
أنا خادم لبيوتكم وضيوفكم	وامنيتي ومسرّتي وهناء
عن بابكم لا أنثني طول المدى	أرجو القبول فأنتم الكرماء

قال شيخنا الإمام رضي الله عنه :

ومما قلت لما حللت في المدينة المنورة بأنواره الساطعة صلى الله عليه وسلم :

بشراك يا قلب أيام الرضا رجعت	وهذه الدار للأحباب قد جمعت
أمَا ترى نفحات الحي قد عبقت	في طيبة و بروق القرب قد سطعت
فعش هنيئاً بوصل غير منفصل	مع من تحب فحجب الهجر قد رفعت
واشهد جمال الذي من أجل طلعته	قلوب عشاقه من نوره انصدعت
وابشر بنيل الذي قد كنت تأمله	من طلعة المصطفى شمس السما طلعت

صلى الله عليه وآله وسلم أبداً أبداً أبداً

وقال رضي الله عنه :

يا ليت عيني تنظرا	جمال ذاك المظهرا
حتى أكون نيّرا	مهلّلاً مستبشرا
فجر الضيا تفجّرا	من ثغر سيد الورى
والشمس فيه أشرقت	أنواره بلا امترا
سار الجمال تائهاً	لما بدا تحيّرا
خرّ ذليلاً ساجداً	مهلّلاً مكبّرا
يا ربنا بجاهه	أسعد فقير الفقرا
وامنحه دوماً عطفه	والطف إلهي واسترا
بفضل من أرسلته	خير رسول للورى
ثم الصلاة دائماً	عليه ما تالٍ قرا
وآله وصحبه	ساداتنا غرّ الذرى

وقال رضي الله عنه في أهل البيت الكرام :

نور النبوة ساطع في وجههم	ويفوح منهم ريح مسك أذفرا
هم أزهر بين الأنام جميعهم	هم أنجم وهداة خير للورى

وقال رضي الله عنه :

يا بدر تمّ قد شُغفت بحبه	أنا بالوصال من القطيعة عائذ
فانظر إلي بعين عطفك نظرة	يا خير مولى فيه لاذ اللائذ

وقال رضي الله عنه في مناجاة الحبيب الأعظم صلى الله عليه وسلم :

سيدي أنت أحسن وجهاً	كن شفيعي من هول يوم كريه
قد روى صحبك الكرام حديثاً	اطلبوا الخير من حسان الوجوه[1]

وقال رضي الله عنه في مدح طيبة الطيبة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام :

هنيئاً لمن زار خير الورى	وحطّ عن النفس أوزارها
فإن السعادة مضمونة	لمن حلّ طيبة أو زارها

وقال رضي الله عنه :

فيا أيها الحيران في ظلمة الدجى	ومن خاف أن يلقاه بغْي من العدا
تعال إليه تلق من نور وجهه	دليلاً ، ومِن كفّه بحراً من الندى

صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم

---

[1] حديث " اطْلُبُوا الْخَيْرَ عِنْدَ حِسَانِ الْوُجُوهِ " رواه البخاري في التاريخ الكبير والإمام أحمد بن حنبل في فضائل الصحابة وابن راهويه في مسنده وأبو نعيم في معرفة الصحابة وأبو يعلى الموصلي في مسنده والطبراني في الأوسط والبيهقي في الشعب

حول كراماته رضي الله عنه

لقد كان التواضع والذل والانكسار لله تعالى خُلُقاً ظاهراَ في شيخنا الإمام رضي الله عنه ، ولا يخفى على كل ذي بصيرة ، ومن ذلك أنه كان يُؤثر الخفاء والتستّر على الظهور بما يجريه الله تعالى على يده من كرامات وخوارق للعادات البشرية المألوفة ، وذلك بمقتضى صدقه وإخلاصه لله تعالى ، وأنه لا يبتغي من وراء أعماله ودروسه ومؤلفاته إلا وجه الله تعالى ، وكثيراً ما كان رضي الله عنه يقول :

أنا عبد الله اسماً وصفة وتحققاً ، وإن شرفي وعزّتي بعبوديتي وعبادتي لله تعالى وخدمتي لكتاب الله تعالى وأحاديث رسوله صلى الله عليه وسلم .

وكان من تواضعه رضي الله عنه وشدة ملاحظته العبودية لله تعالى أن أحداً إذا مدَحه أو أثنى عليه أو ذكر له ما جرى معه من خوارق عادات بأثر دعوة الشيخ الإمام كان رضي الله تعالى عنه يقول :

اللهم استرنا ..اللهم استرنا ..

ويردّد ما جاء عن سيدنا أبي بكر رضي الله تعالى عنه إذا امتدحه إنسان :

(اللهم اجعلني خيراً مما يظنون ، ولا تؤاخذني بما يقولون ، واغفر لي ما لا يعلمون) [1]

ثم يستأنف كلامه فيقول : (أنا عبد الله) ، ويشير إلى صورة المواجهة الشريفة المعلقة على الحائط فوق الأريكة التي كان يجلس عليها ، ويقول :

عبد بالباب يرتجي لثم الأعتاب   جُدْ بالجواب مرحباً قد قبلناك

ثم يقول :

كلنا وقوف على باب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وهذا هو عزنا وفخرنا وشرفنا وسعادتنا .

وكان الشيخ الإمام رضي الله عنه يؤثر الخفاء على الظهور بالكرامات ، ويذكر قول الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم في ذلك :

[اليسير من الرياء شِرك ، ومن عادى أولياء الله فقد بارز الله بالمحاربة ، إن الله يحب الأبرار الأتقياء الأخفياء ، الذين إن غابوا لم يُفتقدوا ، وإن حضروا لم يُعرفوا ، قلوبهم مصابيح الهدى ، يخرجون من كل غبراء مظلمة] .[2]

---

[1] عزاه في كنز العمال للعسكري في المواعظ وابن عساكر

[2] سنن ابن ماجه كتاب الفتن ومستدرك الحاكم واللفظ له وشعب الإيمان للبيهقي والمعجم الأوسط للطبراني

أي : لا تضرهم الفتن ويخرجون منها بسلام الله وأمنه .
ويقول : لم أعثر من خلال اطّلاعي على سيرة الصحابة رضي الله عنهم على أن أحداً منهم كان يحب الظهور بالكرامات ، أو أن تُشاع عنه إن هي ظهرت منه ، وكذلك التابعون رضي الله عنهم ومن سار على نهجهم من الأولياء وأئمة القوم رضي الله عنهم .
ويذكر قصة الصحابي الجليل العلاء بن الحضرمي [١] رضي الله عنه التي رواها البيهقي عن أنس رضي الله عنه قال :
جهّز عمر بن الخطاب رضي الله عنه جيشاً ، واستعمل عليهم العلاء بن الحضرمي ، قال أنس : وكنت في غزاته ، فأتينا مغازينا ، فوجدنا القوم قد نذروا بنا فعفوا آثار الماء - أي عطلّوا منابع الماء ودمروها - .
قال أنس : وكان الحر شديداً فجهدنا العطش - أي : اشتد علينا - وذلك يوم الجمعة ، فلما مالت الشمس لغروبها صلى بنا ركعتين ، ثم مد يده إلى السماء وما نرى في السماء شيئاً .
قال أنس : فوالله ما حطَّ العلاء يده حتى بعث الله ريحاً وأنشأ سحاباً ، وأفرغت حتى ملأت الغدر [٢] والشّعاب ، فشربنا وسقينا ركابنا وملأنا أوعيتنا ، ثم أتينا عدونا ، وقد جاوزوا خليجاً في البحر إلى جزيرةٍ ، فوقف العلاء على الخليج ودعا فقال : (ياعلي ياعظيم يا حليم يا كريم)
ثم قال :أجيزوا- أي سيروا- باسم الله ، قال أنس :فسرنا على وجه الماء وما يبلّ الماء حوافر إبلِنا ، وأصبنا العدو فقتلنا وأسرنا وسبينا ثم أتينا الخليج .
فقال العلاء ودعا بمثل مقالته الأولى فأجزنا ، وما يبلُّ الماء حوافر دوابنا .
فلم نلبث إلا يسيراً حتى رُمي في جنازته - أي توفي رضي الله عنه -
قال أنس : فحفرنا له وغسلناه ودفناه .
فأتى رجل بعدما دفناه فقال : إن هذه الأرض تلفظ الموتى ، فلو نقلتموه إلى ميل أو ميلين إلى أرض تقْبل الموتى .
فقلنا : ما جزاء صاحبنا أن نعرضه للسباع تأكله ، فاتفقنا على نقله ، فحفرنا قبره فلما وصلنا إلى اللحد إذ صاحبنا العلاء ليس في القبر ، وإذا اللحد مد البصر يتلألأ نوراً .

---

[١] سيدي العلاء بن عبد الله بن عماد بن أكبر بن ربيعة بن مقنع ولّاه رسول الله صلى الله عليه وسلم البحرين ، ولما توفي صلى الله عليه وسلم أقرّه أبو بكر رضي الله عنه في خلافته كلها عليها ، ثم أقرّه عمر رضي الله عنه ، وتوفي في خلافة عمر سنة أربع عشرة ، رضي الله عنه وأرضاه .
[٢] جمع غدير وهو مستنقع ماء المطر صغيراً كان أو كبيراً

قال أنس : فأعدنا التراب إلى اللحد ثم ارتحلنا).
نعم لقد نقلته الملائكة عليهم السلام [1]
وقد أسند ابن أبي الدنيا هذه القصة وقال في دعاء العلاء :
(يا عليم يا حليم يا علي يا عظيم ، إنا عبيدك وفي سبيلك نقاتل عدوك ، اسقنا غيثاً نشرب منه ونتوضأ ، فإذا تركناه فلا تجعل لأحد فيه نصيباً غيرنا) .
وقال العلاء لما وقف على شاطئ البحر :
(اللهم اجعل لنا سبيلاً إلى عدوك).
وقال في الموت :(اللهم أَخْفِ جثتي ولا تُطْلع على عورتي أحداً). اهـ .
وذلك التابعي الجليل عبد الله بن ثُوَب الملقب بـ (أبي مسلم الخولاني)
وقصته مع الأسود العنسي الكذاب كما أوردها الإمام النووي رحمه الله تعالى بإسناد الإمام أحمد في كتاب الزهد عن شرحبيل بن مسلم
أن الأسود بن قيس العنسي الكذاب لما ادّعى النبوة باليمن بعث إلى أبي مسلم الخولاني فلما جاءه قال : أتشهد أني رسول الله ؟ قال : ما أسمع .
قال أتشهد أن محمداً رسول الله ؟ فقال : نعم
فردّد ذلك عليه ، فأمر بنار عظيمة فأُجّجت ، فألقى فيها أبا مسلم فلم تضرَّه ، فقيل للأسود : اِنْفِهِ ـ أي : أخرجه من أرضك ـ وإلا أفسد عليك مَن تبِعك ، فأمره بالرحيل إلى اليمن .
فأتى أبو مسلم المدينة ، وقد توفي رسول الله واستخلف أبو بكر رضي الله عنه ، فأناخ أبو مسلم راحلته بباب المسجد فقام يصلي إلى سارية ـ أي عمود من أعمدة المسجد ـ فبصر به عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقام إليه فقال له : مَن الرجل ؟ فقال : من أهل اليمن ، قال عمر : فلعلك الذي أحرقه الكذاب بالنار .
قال : ذلك عبد الله بن ثوب ، فقال عمر : نشدتك بالله أنت هو ؟ قال : اللهم نعم .

---

[1] قال البيهقي رحمه الله تعالى : وقد روي عن أبي هريرة أيضاً في قصة العلاء بنحو من هذا . اهـ
وفي تاريخ ابن كثير قال : ذكر البخاري في التاريخ لهذه القصة إسناداً آخر . اهـ .
وذكر نحو هذه القصة عن العلاء في مجمع الزوائد عن الطبراني في الثلاثة وذكرها أبو الفرج الأصبهاني وغيرهم

فاعتنقه ثم بكى ، ثم ذهب به حتى أجلسه فيما بينه وبين أبي بكر فقال :
الحمد لله الذي لم يُمِتني حتى أراني من أمة محمد صلى الله عليه وسلم من فعل به كما فعل بإبراهيم عليه الصلاة والسلام خليل الرحمن . اهـ .
وقد روى هذه القصة الإمام أحمد رضي الله تعالى عنه بإسناده المتصل عن الثقات كما ذكرها غيره من المحدثين ومنهم ابن حبان في صحيحه .
ومما قاله الشيخ الإمام رضي الله عنه :
لقد ذكر العارفون رضي الله عنهم أن كل كرامة لولي هي معجزة لنبيه عليه الصلاة والسلام ، لأنه ما نالها إلا باتّباعه ، فهي من جملة معجزات النبي صلى الله عليه وسلم الدالة على صدق نبوته ورسالته ، بحيث يكرم الله تعالى أتباع النبي صلى الله عليه وسلم الصادقين المخلصين ... يكرمهم بأن يُظهر على أيديهم خوارق عادات عند المهمّات و المُلمّات ، فهناك من تُطوى له الأرض بحيث يصل المكان الفلاني بلحظات ، وهناك من يخبر عن بعض الأمور الغيبية التي ستقع ، وهناك من يمسح المريض فيبرأ بإذن الله وهكذا . اهـ .
قلت :وقد فصّل الشيخ الإمام رضي الله عنه الكلام على ذلك في كتابه :
(التقرب إلى الله تعالى) فارجع إليه تجد ما ينفعك إن شاء الله تعالى .
وقد ظهرت على يد ولسان الشيخ الإمام رضي الله عنه كرامات كثيرة متنوعة ، يصعب ذكرها على وجه الحصر ، إلا أني أسرد بعض الوقائع مما شاهدته أو سمعته عنه رضي الله تعالى عنه .
فمن كرامات الشيخ الإمام رضي الله عنه :
أولاً : إخباره عما أضمر الإنسان في نفسه من حاجات ، وإجابته السائل عن أمر علمي وشرعي قبل أن يَشْرع في سؤاله .
فقد اشتهر عنه أنه يجيب السائل عما دار في صدره قبل أن يسأله ، وربما أجابه عن عدة مسائل في مجلس واحد ، وكثيراً ما حصل ذلك معي حتى إنه مرة أجابني عن تسعة أسئلة كنت أعدّ نفسي لسؤاله عنها رضي الله عنه .
وسمعت نحو هذا من إخوتي الأفاضل ، ومن أحباب الشيخ الإمام رضي الله عنه .
ومن الوقائع العجيبة التي شهدتها في هذا الباب ما حصل في عام ١٣٩٥ هـ وكان شيخنا الإمام رضي الله عنه في ذلك الوقت يبحث في دروسه في جامع بانقوسا حول قوله سبحانه :{ ن والقلم وما يسطرون }
وقد تناول الكلام حول مراتب الكتابة وثبوت المشيئة والاختيار للإنسان ، والكلام على معاني القضاء والقدر ..

وكان يحضُر الدرسَ رجل من أحباب الشيخ الإمام رضي الله عنه ، وهو ذو فطانة ونباهة عالية ، ويتابع دروس الشيخ الإمام رضي الله عنه كلها ، وكان يعمل بتركيب وبيع الأدوية الحسّية ، وعنده ما يعرف بـ (الصيدلية).
فزرته مرة لشراء بعض الأدوية لجدتي الفاضلة رحمها الله تعالى ، فقال لي : لقد سمعت من شيخنا الوالد رضي الله عنه كذا وكذا حول بحث القدر ومشيئة الإنسان ، إلا أن هناك إشكالاً لم أجد له جواباً .
وذكر لي تلك المسألة فمضيت إلى البيت واستحييت أن أذكرها لشيخنا الوالد رضي الله عنه .. ولما كان الدرس القادم إذا بالشيخ الإمام رضي الله عنه يقول في درسه :
وقد يقول إنسان .. وذكر المعضلة التي التبس فهمها على ذلك الرجل الصالح .. وبيّن جوابها بياناً شافياً وافياً .
ثم إني التقيت معه في محله فقال لي : جزاك الله خيراً حيث سألت شيخنا رضي الله عنه أن يبين تلك المسألة ..
فقلت : والله إني لم أكلمه بذلك حياء وأدباً ، ولكنه تناول البحث فيها في سياق بيانه لموضوع القدر ، فنظر إلي بدهشة وإعجاب ، ودعا لشيخنا الإمام رضي الله عنه بالعافية وخير الجزاء ، وزاد ذلك في ثقته واعتقاده بعلوم الشيخ الإمام وولايته وكشفه .
ثانياً : ومن كراماته رضي الله عنه شفاء عليل الجسم من الأمراض الحسية ، وشفاء مريض القلب من العلل القلبية والظلمات النفسية بإذن الله تعالى .. مع أنه رضي الله لم يفتح بابه لهذا المجال إلا لمن قصَده وألح في السؤال فكان يقرأ على شربة ماء وينفث فيها ، ويأمر المريض أن يشرب منها على عدة أيام .
وكم قصَده إنسان ألمّت به النوازل ، واشتدت به الكربات ، فدعا له الشيخ الإمام رضي الله عنه فوجد فَرَجاً .
وربما أمره شيخنا الإمام رضي الله عنه بتلاوة آيات من القرآن الكريم ، والإكثار من صيغة معينة من الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، أو تعويذات معينة من القرآن الكريم والسنة ، حسب ما يتطلبه حال السائل .
وأذكر في هذا المجال أنه في صيف عام ١٤٢٠هـ شكا السيد الحاج وليد بن محمود بللو من أزمة قلبية أيام سفره إلى تركيا ، ونُقل إلى المشفى وهو في حالة حرجة حتى أصيب بالفشل الكلوي الشديد .

وكان السيد الحاج وليد من أحباب شيخنا الإمام رضي الله عنه ، فاتصل بأخيه السيد الحاج غسان ، وطلب منه أن يسأل شيخنا الإمام رضي الله عنه الدعاء له وأن يقرأ له على شربة ماء ، وتُرسل له .

وقد حصل ذلك ودعا له الشيخ الإمام رضي الله عنه ، وأرسلوا له الماء على وجه السرعة ، فما إن شربها السيد وليد حتى انتظم قلبه وعادت كليته لعملها ، وتماثل للشفاء ، ولما رجع إلى حلب ويسّر الله له زيارة شيخنا الإمام رضي الله عنه نظر إليه شيخنا الإمام رضي الله عنه وتبسّم وجعل يقول : أمدَّك الله بالعافية .. ويكررها ..

ثالثاً : ومن كراماته التي تواترت ونقلت عنه :

أن الله تعالى يجيب دعاءه لمن شكا إليه العقم أو عقر زوجته ، فكم من أشخاص تعبوا وقاسَوا ، وعجز الطب عن دوائهم حتى يئسوا من الولد ، أمرَهم شيخنا الإمام رضي الله عنه بتلاوة بعض الأسماء الإلهية بأعداد معينة ، وأمرَهم بدعوات مأثورة فأجابهم الله تعالى ووهبهم أولاداً .

رابعاً :وإن من أعظم ما منّ الله تعالى به على شيخنا الإمام رضي الله عنه :

أن أيّده بالرأي الصائب والقول السديد ، إذ كانت أدلة الكتاب والسنة لا تغيب عن أقواله وكتاباته ، ويأتي بها برهاناً وصدقاً لِما اعتمده من مفاهيم ومعارف وقضايا علمية وشرعية .

ولقد ألقى الله تعالى في قلب من عرفه محبته ، والثقة المطلقة به ، والأخذ برأيه والعمل بنصائحه ، فإذا تكلم أصغى الناس إليه ، وإذا سار اتبعوه ، وإذا أمرهم امتثلوا أمره .

وإن تلك المكارم تنطوي في الحديث القدسي - حديث الأولياء - الذي قال فيه سبحانه :

[وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أُحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها] [1]

وفي رواية : (ولسانه الذي ينطق به ، وقلبه الذي يعقل به [2]) . الحديث .

يعني أن الله تعالى يكرم أولياءه المقربين بأن يمدّهم بالقوة الخاصة في أسماعهم وأبصارهم وأجسامهم ومداركهم ، ويؤيدهم بالكلام الفصل والرأي الصحيح ، ويلقي في قلوب الناس محبتهم كما في الحديث :

---

[1] صحيح البخاري كتاب الرقاق

[2] المعجم الكبير للطبراني

(المقة من الله ، والصيت في السماء)[1]
والمقة بكسر الميم ـ هي المحبة والوداد ، فكم من أناس حضروا دروس شيخنا الإمام رضي الله عنه فازدادوا هدى وصلاحاً، وكم من أناس ران على قلوبهم شبهات وأباطيل فزالت عنهم لما سمعوا أدلة الكتاب والسنة في مجالس شيخنا الإمام رضي الله عنه وحلقاته العلمية .
قلت : وإن العلماء العاملين هم أولياء الله تعالى على الحقيقة كما نقل عن الإمام الشافعي رضي الله عنه قوله :
(إذا لم يكن الفقهاء العاملون أولياء الله فليس لله ولي).[2]

ونقل عن الإمام الكبير السيد الشيخ أحمد الرفاعي رضي الله عنه قوله لأتباعه :

"أيْ سادة عظّموا شأن الفقهاء والعلماء كتعظيمكم شأن الأولياء والعرفاء، فإنّ الطريق واحد، وهؤلاء ورّاث ظاهر الشريعة ومحلة أحكامها الذين يعلّمونها الناس ، وبها يصل الواصلون الى الله ، إذ لا فائدة بالسعي والعمل على الطريق المغاير للشرع ، ولو عَبَدَ اللهَ العابدُ خمسمائةعام بطريقة غير شرعية فعبادته راجعة اليه ، ووزره عليه، ولا يقيم الله له يوم القيامة وزناً، فإياكم وإهمال حقوق العلماء ، وعليكم بحسن الظن فيهم جميعاً ، وأما أهل التقوى منهم، العاملون بما علّمهم الله فهم الأولياء على الحقيقة فلتكن حرمتهم عندكم محفوظة ."[3]

وانظر البحث في فضل العلم والعلماء وكرامتهم على الله تعالى في موضع آخر من هذا الكتاب .
وسأذكر فيما يلي وقائع مختلفة جرت مع الشيخ الإمام رضي الله عنه ، وكلها تدل على إكرام الله تعالى له وفضله وإحسانه إليه .

[1] المعجم الكبير للطبراني ومسند الروياني وأصله في مسند الإمام أحمد ٢١٢٤٠
[2] انظر كتاب المجموع ٢٠/١
[3] كما في كتاب : البرهان المؤيد ص ٦٩ .

فمن ذلك ما ذكره لي أحد أنجال السيد الحاج وجيه صلاحية [1] أنه لما حج والده عام ١٣٩٠ هـ ورجع من الحج ، شكا مرضاً شديداً فور قدومه ألزمه الفراش ، حتى أعيا الأطباء شفاؤه ، وحار فيه أهله وأصحابه ، فجعل يغطّ أحياناً ويفيق أخرى ، ولا حراك فيه ، وبينما هو كذلك إذ بشيخنا الإمام الوالد رضي الله عنه يقدم للسلام عليه ، ولم يكن يعلم بخبر مرضه ، فتنادى الأخوة والأصحاب لتهيئة المكان وبادر أحدهم إلى إيقاظ والدهم للترحيب بالشيخ فاستيقظ الحاج وجيه ورأى الشيخ الإمام أمامه فقال :
والله لقد رأيت الآن في منامي أن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يزورني ، وهو في صورتك تلك التي أمامي .

فاستحيا الشيخ وبانت على وجهه المبارك علامات الخشوع ، وقال :
لعلك رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في صورة والدي رحمه الله ، ولكن السيد وجيه أصر وقال : بل أنت بل أنت ، ثم نهض من فراشه وكأنما نشط من عقال ، وزال ما به من بأس ، حتى أدهش الحضور ، نعم كل ذلك ببركة ونفحات رؤيته سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الفياض بالخيرات والبركات .

قلت : وكان السيد وجيه رحمه الله تعالى ممن حضر دروس الشيخ راجي مكناس [2] ، وكذلك مولانا الشيخ محمد نجيب سراج الدين ، والشيخ الكبيرعبد القادر الهلالي ، ثم والدنا الإمام ، فترة طويلة رحمه الله تعالى رحمة واسعة ، وإن أولاده كرام بررة نهجوا نهجه في الفضل والأدب .

ولما حج شيخنا الإمام رضي الله عنه سنة ١٣٨٥ للهجرة وصحِبته السيدة الفاضلة والدتي رحمها الله تعالى ، ومعه جمع من أصحابه ، وجدوا أيضاً من الكرامات المتعددة ما أدهشهم وزادهم إيماناً ، كان منها أنهم لما كانوا في الطائرة - وكانت من النوع القديم وتبلغ مدة الطيران من دمشق إلى جدة خمس أو ست ساعات زمنية –

[1] المتوفى سنة ١٣٩٨ هـ رحمه الله ، وقد حقق الشيخ الإمام وصيته فصلى عليه في جامع زكي باشا ، ودفن في مقبرة الصالحين بحلب .
[2] هو الشيخ محمد راجي بن عبد الله بن محمد بن أحمد مكناس توفي رحمه الله سنة ١٣٥٤ هـ .

تضررت بعض أسلاك الكهرباء في الطائرة ، وكان قائد الطائرة وأعوانه من الأوربيين ، حتى جعل بعضهم يمسّ سقف الطائرة فيجد فيه التوتر الكهربائي ، وظهر عليه الفزع والقلق ، وأعلم ركابه بذلك ، وأنهم على خطر ، فما كان من شيخنا الإمام إلا أن أخذ بالدعاء والتضرع إلى الله تعالى والتوسل إلى الله تعالى برسول الله صلى الله عليه وسلم وقال لأصحابه :
لا تفزعوا فإن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم قال :
[الحجاج والعمّار وفد الله] - أي ضيوف الله –
[إن دعوه أجابهم وإن استغفروا غفر لهم] [1]
وقال شيخنا الإمام : وحقاً على المَزُور أن يكرم الزائر ، فكيف بمن قصد حج البيت الحرام وزيارة خير الأنام صلى الله عليه وآله وسلم ؟ !. اهـ .
ثم إن الطائرة هبطت بسلام في مطار جدة وخرج قائدها من غرفته وقال للركاب : إن فيكم رجلاً عظيماً ذا شأن أنجانا الله تعالى كرامة له .
ولما توجه إلى بلاد الحجاز سنة ١٣٧٥ للهجرة قاصداً حج بيت الله تعالى وزيارة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تواتر عمن كان معه من أصحاب وأحباب كرامات كثيرة أكرم الله تعالى بها شيخنا الإمام رضي الله عنه ، أكتفي بذكر واحدة منها :
وهي أن واحداً من أصحابه المتقدمين ألمّ به مرض شديد ، فخشي عليه أهله أن يموت معهم في الطريق ، وشكَوا أمرهم إلى شيخنا الإمام ، فدعا الله تعالى له متوسلاً بسيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم أن يرفع عنه هذا البلاء ، ويردّه إلى أهله سالماً غانماً ، فبات تلك الليلة ، فرأى حضرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم في المنام وقدّم إليه صحيفة فيها أسماء .
قال شيخنا الإمام : فنظرت فيها فقرأت فيها أسماء أصحابي الذين قدِموا معي وسيعودون معي ، وبينهم ذلك الذي كان يعاني من المرض .
ثم إن شيخنا الإمام بشّر أصحابه بذلك ، وما لبث ذلك الرجل أن عافاه الله تعالى ببركة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان ممن عاد مع شيخنا الإمام إلى بلده وأهله .
و خرج مرة كعادته في نزهة حول البلدة مع بعض أصحابه في السيارة ، وفي طريق العودة أسرعت طفلة لا تتجاوز السادسة من عمرها لتقطع الطريق ، ومرّت أمام السيارة ، ولم يتمكن السائق من إيقاف السيارة ، فدهس الطفلة بالعجلات الأمامية والخلفية حتى ذكر من كان مع شيخنا الإمام أنهم سمعوا اختلاف أضلاعها والعجلات تمر فوقها ،

---

[1] سنن ابن ماجه كتاب المناسك

وصاح الشيخ رضي الله عنه : (الله أكبر) ، ولما توقفت السيارة نزلوا منها ونظروا فإذا بالطفلة تنهض وتركض ولا بأس بها ، فتزاحم الناس على سيارة الشيخ لما سمعوا صوت المكابح ورأوا ما حصل ، وقد أخذتهم الدهشة ، ولما رأوا شيخنا الإمام داخل السيارة جعلوا يسلّمون عليه ويقبّلون يده ، فما كان منه إلا أن حمد الله تعالى على خفي لطفه سبحانه ، ودعا لهم ، وأمر بإكرام الطفلة وأهلِها .

وقدم أحد المهندسين من السودان للعمل في الدراسات والأبحاث الزراعية في شركة أجنبية تابعة للأمم المتحدة ، وقد استأجر داراً من رجل صالح محب لشيخنا الإمام مواظب على سماع دروسه ومجالسه .

وكان هذا المهندس قد شكا من حصى في إحدى كليتيه ، وأجمع الأطباء وقتها على صعوبة وخطورة العمل الجراحي لاستئصالها ..

فرأى مرة في نومه شيخاً مهيباً منير الوجه حسن السمت يناوله كوب ماء ويأمره بشربه ، فشربه فاستيقظ من نومه حاقناً ، وأسرع لقضاء حاجته فاندفعت الحصى ولم يبق في كليته شيء منها ، فأخبر جاره الرجل الصالح - مالك الدار - عن هذه الحادثة ووصف له ذلك الشيخ المهيب الذي رآه في المنام ، فقال له : سأصحبك معي لتتعرف عليه ، ومضى معه لسماع درس شيخنا الإمام في جامع بانقوسا ، فلما نظر المهندس إلى وجه شيخنا الإمام صاح : الله أكبر ، والتفت إلى جاره وقال له : هذا هو الذي أتاني في المنام وناولني كوب الماء وشفاني الله تعالى به .

ولما ذَكَر ذلك لشيخنا الإمام رضي الله عنه قال له : إنك ممن تحب الله ورسوله صلى الله عليه وسلم وتحب الصالحين وقد أكرمك الله بذلك ، اللهم استرنا . اهـ .

وقبل وفاته رضي الله عنه بثلاث سنوات قدم إليه وفد من دولة (مقدونيا) وشكوا إليه أن ابناً لأحد وجهاء البلد قد أصيب بمرض نفسي أعيا الأطباء علاجه ، وقد طاف به أهلُه البلاد حتى بلغوا بلاد الحجاز ومصر وغيرها ، فلم يسمعوا من علماء وفضلاء هذه البلاد إلا قولهم : (ما عليكم إلا أن تقصدوا رجلاً في حلب لو أنه تفل عليه أو نظر إليه لشفاه الله تعالى ، وهو العلامة العارف بالله الشيخ عبد الله سراج الدين رضي الله عنه) ، وقد جئناك لهذا الغرض ..

فقال شيخنا الإمام رضي الله عنه :

(اللهم استرنا وأكرمنا وأكرم ضيوفنا ومَن حسّن ظنه بنا ولا تخيّبنا).

ثم قرأ على ماء وأمرهم أن يشرب منها ، وأوصاهم بأن يرقوه ببعض الآيات القرآنية ، والأدعية المأثورة عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في أوقات معينة مع المواظبة .
ومضت عدة أشهر ما لبث فيها أن تماثل المريض للشفاء ..
والحمد لله رب العالمين .
ولما ذهب شيخنا الإمام رضي الله عنه إلى المدينة المنورة بأنوار سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجاءه الأمر بالمجاورة فيها إلى أن يأذن الله تعالى له بالعودة إلى بلده حلب ، كان لابد لذلك من تصريح رسمي بالإقامة ، وكان الحصول على ذلك فيه شيء من الصعوبة خاصة أن التصريح بالإقامة الذي يريده شيخنا الإمام رضي الله عنه هو للمجاورة فقط ، وليس للعمل أو التدريس كما فعل غيره .
وجعل شيخنا الإمام رضي الله عنه يسأل الله تعالى تيسير ذلك من حيث لا يحتسب ، وهو مطمئن القلب بحصول ذلك ، سيما أن الإذن صدر من سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالإقامة بجواره صلى الله عليه وسلم .
ولم يكن من عادة شيخنا الإمام رضي الله عنه التردد على أولي الأمر والمناصب إلا لضرورة شرعية ملحّة ، لاستغراق وقته كله في التعليم والتدريس والتأليف وعبادة الله تعالى .
وحصل مرة أن اجتمع الشيخ عمر ملاحفجي بأحد كبار المسؤولين وقتئذ وذلك في جلسة يقرأ فيها شيء من شمائله صلى الله عليه وسلم بمناسبة مولده صلى الله عليه وسلم .
فقال الشيخ عمر لهذا الرجل : رأيتك في المنام تطلب مني نفحة من سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .
فلما انفض المجلس صحبه إلى منزل مولاي الوالد ولما قص عليه رؤياه قام شيخنا الإمام رضي الله عنه وتناول كتاب (سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم) وأهداه إليه ، وقال : هذه هي النفحة المحمدية التي تبتغيها ، فاقرأ هذا الكتاب وسينفعك الله به .
ثم إن هذا الرجل المحب أراد أن يقدم خدمة لشيخنا الإمام رضي الله عنه فسعى له بتصريح رسمي بالإقامة وجعلها على كفالته فجزاه الله خيراً وأحسن إليه .
وزاره مرة - أيام مجاورته في المدينة المنورة بأنواره صلى الله عليه وسلم - زاره أحد الصالحين من أهل التقى والصفاء ، وحصل له من هذا اللقاء المبارك فتوح كبير وأمور عجيبة ، كان منها أن قال لمولانا الإمام : إني سائلك حاجة في نفسي لعل الله بدعوتك أن يحققها

قلت : وكنت أعلم تلك الحاجة ، وهي أن يهب الله تعالى لابنه ولداً ، وكان قد مضى على زواجه سنوات ولم يولد له .
فأطلع الله تعالى شيخنا الإمام رضي الله عنه على حاجته ، فدعا له وبشّره بالخير والبركة ، فلم تمض مدة إلا ورأى ذلك الرجل الصالح الزاهد رأى في منامه العارف بالله الشيخ محمد نجيب رضي الله عنه وهو يضع في حِجره ولداً ، فلما أفاق علم من ابنه أن زوجته حامل ، وهكذا وهب الله تعالى له عدة أولاد ، منهم الذكور والإناث ببركة دعاء الشيخ الإمام رضي الله عنه
قلت : وقد وفقني الله تعالى للقاء هذا العبد الصالح الزاهد المعروف باسم :عبد الفتاح [١] ، لقائه في صيف عام ١٣٩٩ للهجرة ، وقرأت فيه الصدق والإخلاص والصفاء والمحبة الكبيرة لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم والصالحين من عباده جل وعلا ، ثم توالت زياراتي له ، وكان يؤثر الخفاء على الظهور ، والكتمان على البواح، ومع ذلك فقد رأيت منه أموراً عجيبة وكرامات عديدة .
وقد علمت أنه حضر دروس مولانا الشيخ محمد نجيب رضي الله عنه واستمع أيضا من كبار العلماء ومشايخ الطرق وأخذ منهم ، إلى أن انتهى به المطاف وحطّ رحله في رحاب شيخنا الإمام سيدي عبد الله رضي الله عنه ، ووقف على ساحله يغرف من بحره .
وقد أسرّ لي مرة أن شيخنا الإمام رضي الله عنه قد نال رتبة القطبية ، وذلك أثناء مجاورته في المدينة المنورة كما فاز بالشفاعة في أهل عصره ، وهذا مما يوافق الإشارات الغيبية والرؤى المنامية التي رآها شيخنا الإمام رضي الله عنه وقصّها على أحبابه . اهـ .

---

[١] هو السيد عبد الفتاح بن عبد الغني بن محمد آل قاطرجي ، حضر على كبار العلماء ومشايخ الطريق ، أذكر منهم الشيخ عبد الرحمن بن الشيخ محمود آل عز الدين الأحمدي البدوي النعيمي الحسيني المتوفى سنة ١٣٧٩ هـ رحمه الله ، علماً أن آل عز الدين وآل دنّو ينتهي نسبهما إلى جد واحد ، وهو أحد الفروع القريبة من سيدي عز الدين أبي حمرة رضي الله عنه ، وقد حضر السيد عبد الفتاح على السيد الحسيب النسيب الشيخ العارف عبد القادر الهلالي القادري الخلوتي الحسني رضي الله عنه ، ثم نال شرف تسميع الفواتح في الزاوية الهلالية القادرية العلية في عهد نجل الشيخ عبد القادر الأكبر الشيخ جمال الدين أمتع الله به و، قد توفي السيد عبد الفتاح سنة ١٤١٠ هـ رحمه الله رحمة واسعة ورضي عنه .

وكان الرجل الصالح المبارك صاحب المكاشفة والبصيرة النافذة الشيخ حسين عبد السلام المعروف (بالمجدمي) [1]، كان يقطن في قرية شرقي حلب تسمى (عيشة) ، ثم انتقل بعدها إلى قرية (دير حافر) ، وقد زاره شيخنا الإمام رضي الله عنه لما كان في قرية (عيشة) ومعه بعض الأصحاب ، وكنت معهم ، حصل ذلك في صيف عام ١٣٩٧ هـ ،
وقد استقبله الشيخ حسين وأضافه على طعام العشاء وأكرمه ومن معه ، وكان يسميه :(سراج حلب) ويثني عليه كثيراً ويدعو له بالعافية وطول العمر ، وكثيراً ما كان يتردد على لسانه :(لم يبق لنا غير الشيخ عبد الله).
ومن العجائب والكرامات التي شهدتها في تلك الزيارة أن شيخنا الإمام رضي الله عنه لما أراد الرجوع إلى بيته في حلب رافقه الشيخ حسين في السيارة نفسها وجلس إلى جانبه ، وكنت أجلس إلى جانب السائق ، وكان السائق من أصحاب شيخنا الإمام ، وممن يقود السيارة بصحبته إلى درس الجامع الأموي الكبير وإلى جامع المدرسة العثمانية لإقامة حلقة الذكر عشية الإثنين من كل أسبوع .
ولما وصلنا إلى مشارف حلب التفت السائق إلى الشيخ الإمام والشيخ حسين رضي الله عنهما وقال : لقد نفد وقود السيارة ، وقد نضطر إلى التوقف ، فقيل له : سر على بركة الله ، فلا تقف حتى تقف بنا السيارة ،
فما زالت السيارة تسير حتى دخلنا حلب ووصلنا إلى أقرب محطة وقود قرب طريق المطار ، وهناك توقفَتْ فجرى تزويدها بالوقود ، وتابعنا المسير ، ونزل الشيخ حسين رحمه الله تعالى عند بعض أحبابه في مكان يعرف بـ (قهوة الشعار) .
وقدم مرة الشيخ حسين رحمه الله تعالى لزيارة شيخنا الإمام في منزله الكائن حول القلعة ، فخرج شيخنا الإمام رضي الله عنه لاستقباله فجعل الشيخ حسين يتغنى ويدندن بقوله :

أتيناكم أتيناكم ... وللأعتاب جئناكم

ويكرر ذلك .
قلت : ولقد كان شيخنا الإمام رضي الله عنه يدلّ من قصده للرقية والاستشفاء يدله على الشيخ حسين رضي الله عنه ، فيجد صاحب الحاجة عند الشيخ ما أراد . اهـ .

---

[1] الشيخ حسين آل مجدمي بن الشيخ عبد السلام بن الشيخ حسين توفي في الأول من محرم سنة ١٤٠٣ هـ رحمه الله رحمة واسعة ورضي عنه

وقد جاور شيخنا الإمام رضي الله عنه الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم في المدينة المنورة عام ١٤٠٠ هـ ، وأقام في فندق الزهراء قرب الحرم النبوي جهة باب المجيدي مدة ثلاثة أشهر ، ثم انتقل إلى دار قرب مسجد قباء ، وأقام فيها حتى عودته إلى حلب .

ولما كان مقيماً في الفندق قرب الحرم كان يصلي الصلوات الخمس في الحرم ، ويجلس فيه بعد صلاة الصبح إلى بعد شروق الشمس ، فيصلي ما تيسر له عند ضحوة النهار الصغرى ، ثم يتشرف بزيارة الحبيب الأعظم صلى الله عليه وسلم بالوقوف على بابه الشريف وقراءة السلام على حضرته وعلى صاحبيه الكريمين رضي الله عنهما ، ثم يدعو ثم يتراجع إلى الروضة الشريفة فيصلي ثم يعود إلى الفندق .

وكذلك عند صلاة المغرب فيجلس في الحرم بعد الصلاة ، حتى صلاة العشاء ، فيصلي العشاء ثم يتقدم لزيارة الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم كثيراً كثيراً .

أما أيام إقامته في الدار التي هي قرب مسجد قباء فكان يذهب إلى الحرم النبوي الشريف كل يوم أو يومين عند ضحوة النهار الصغرى فيصلي ، ثم يتشرف بزيارة الحبيب الأعظم ، ويطيل الوقوف أمام المواجهة الشريفة .

قلت : وقد أكرمني الله تعالى بصحبته أثناء الزيارة مرات عديدة .

وحصل مرة أن تَبِعَه أحد المسؤولين عن حراسة الحجرة الشريفة إلى باب السيارة وسلّم عليه وقبّله وعانقه بشوق ومحبة وقال :

إني أراقبك كلما قدمت لزيارة المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وقد رأيت نوراً يخرج من باب الحجرة النبوية الشريفة ويمتد إليك ويتبعك حيث تمضي.

فشكره شيخنا الإمام رضي الله عنه وأثنى عليه وطلب دعاءه .

وأيام مجاورته في المدينة المنورة بأنوار المصطفى صلى الله عليه وسلم اتصل بي بعض أحباب الشيخ الإمام رضي الله عنه ، وسألني أن يكلم الشيخ بالهاتف لهمّ شديد نزل به ، وحاولت مراراً الحصول على الخط الهاتفي ولم يكن ثمة جودة وتقنية في وسائل الاتصال وقتها ، فلما حصلت على الخط وطلبت مولانا الوالد وقلت : فلان يريد أن يكلمك ، وأخذ مني الجهاز سلّم عليه الشيخ الإمام رضي الله عنه وبادره بالكلام قبل أن يشكو إليه همه وقال له:

ألا يا أيها المرء الذي الهمّ به برح
إذا اشتد بك العسر ففكّر في ألم نشرح
فعسر بين يسرين إذا كررته فافرح

ولفته إلى الإكثار من قراءة سورة { الشرح } ، والإكثار من الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، ولم يكن من الشخص إلا أن سكت وأخذته الدهشة والتعجب من مكاشفة الشيخ لحاله وإرشاده إلى ما فيه شفاؤه من القرآن الكريم .
وفي هذه الأبيات إشارة إلى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نزلت عليه سورة { الشرح } قال صلى الله عليه وسلم :
[لن يغلب عسر يسرين] .[1]
وذلك لأن العسر المذكور في الآيتين
{ فإن مع العسر يسراً * إن مع العسر يسراً }
العسر المذكور فيهما هو واحد لأنه معرّف ، وأما اليسر فهو اثنان لأنه نكرة ، كما تقول : جاء رجل وذهب رجل فالذي جاء غير الذي ذهب .
وأما إذا قلت : جاء الرجل وذهب الرجل فالمراد نفس الرجل .
وجاء في الحديث عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال :
كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وبحياله جحر فقال :
[لو جاء العسر فدخل هذا الجحر لجاء اليسر فدخل عليه فأخرجه] [2]
وقال صلى الله عليه وسلم لابن عباس :
[واعلم أن في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً ، وأن النصر مع الصبر ، وأن الفرَج مع الكرب ، وأن مع العسر يسراً] [3] . اهـ .
وكان رجل ممن ينكر على أهل العلم والطريق مجالسهم وكلامهم ويستخفّ بهم ، وكلما جرى ذكرهم في مجلس لم يخْل أحدهم من هَمْزه ولَمْزه أو قدحه كائناً من كان .
هذا الرجل رأى مرة في المنام أنه راكب مع جماعة في سفينة صغيرة ، وفجأة عصفت الرياح وتلاطمت الأمواج حتى أشرف مَن في السفينة على الموت غرقاً ، وبينما الرجل في هذا الكرب العظيم إذا به يرى يد شيخ تمتد إليه لتنقذه من الغرق ، ورأى صاحب هذه اليد البيضاء ولم يعرفه .
وكان لهذا الرجل صديق من آل الرفاعي فلما اجتمع به وقص عليه الرؤيا وأظهر ندمه وأسفه على ما بدر منه من الاعتراض على أهل العلم وانتقادهم بغير حق ولا علم ، بشّره صديقه بأن رؤياه هذه عسى أن يكون فيها الخير له في العاجل القريب .

---

[1] مستدرك الحاكم وشعب الإيمان للبيهقي
[2] مستدرك الحاكم و المعجم الكبير للطبراني وشعب الإيمان للبيهقي
[3] المسند ٢٦٦٦

وشاء الله أن تتاح الفرصة للصديق بالتشرف بزيارة الشيخ الإمام رضي الله عنه في بيته مع جماعة ، فاصطحب معه ذلك الرجل صاحب الرؤيا ، وجلسوا بحضرة الشيخ الإمام مصغين لنصحه وإرشاده ، وعندما أذن لهم الشيخ بالخروج وبدؤوا بالسلام عليه مودعين لجنابه كان صاحب الرؤيا آخر المسلّمين فلما رآى يد الشيخ وقبّلها تذكر ذلك المنام والشيخ الذي أنقذه ، فضرب الشيخ على كتفه ضربات خفيفة قائلاً له :

نحن لا ننسى أحداً إن شاء الله ، وجعل يكررها ، مشيراً إلى ذلك المنام الذي رآه الرجل وكان هذا سبباً في توبته وإقلاعه عما كان فيه ، وحسبنا ذلك .اهـ .

وكان الحاج محمود كلش [1] ممن عاصر مولانا الشيخ محمد نجيب رضي الله عنه ، وكان كلما جاءه ولد ذكر يعيش أياماً ثم يموت ، وتواتر عليه الأمر حتى توفي له أكثر من أربعة أولاد ، ولما رُزق بمولود أخذته أمه فور ولادته إلى سيدنا الشيخ محمد نجيب راجية بركته ودعاءه - وكانت دارهم قريبة من دار الشيخ في منطقة جب قَرَمان الموصلة إلى منطقة دكاكين حجاج والبلّاط - فرقاه سيدنا الشيخ بآيات من كتاب الله تعالى وعوّذه بتعاويذ قرآنية ونبوية وأوصاها أن تسميه : أويساً ، فامتثل الحاج محمود وزوجته الأمر ، وقدّر الله أن يعيش هذا المولود ليكون الولد الذكر الوحيد لأبويه ، وعمّر ما يقارب ثمانين سنة ، ولما كبرت سنه حضر دروس الإمام العلامة الشيخ محمد نجيب ولازمه ثم لازم سيدنا الشيخ عبد الله رضي الله عنه طيلة حياته ، وكان ملازماً لخدمة الشيخ في المجالس العامة والخاصة يحمل نعله أحياناً ، ويضع الجبة عنه أحياناً ، ويناوله ما يريد أحياناً وهكذا جزاه الله خير الجزاء .اهـ .

وذكر لي بعض الأطباء - ممن كان له حظ وافر في خدمة شيخنا الإمام والإشراف الطبي عليه - ذكر لي أنه رأى في المنام شيخنا الإمام رضي الله عنه بعد وفاته بسنتين تقريباً ، وهو يمسح على رقبته ويرقيه بآيات من كتاب الله تعالى ، ثم ختم الرقيا بقوله :

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً ..

قال الطبيب : فنهضت من نومي مستبشراً وقد شفاني الله تعالى من مرض أصابني في فقرة من فقرات رقبتي ، والحمد لله على ذلك .

---

[1] وقد توفي رحمه الله سنة ١٤١٨ هـ

ومن كراماته رضي الله عنه ما أخبرني به بعض أهل العلم والصلاح أن عمه - وكان مدرساً حاذقاً في المدرسة الشعبانية في عهد شيخنا رضي الله عنه - أراد مرة أن يَخِيط جبة له ، فمضى إلى خياط مشهور بذلك ، فبينما هو يأخذ له قياسها وطولها وعرضها لفت نظره جبة معلقة جميلة اللون درّية المنظر ، فسأل الخياط : لمن هذه الجبة ؟ فأجابه الخياط : خُطْتها لمولانا الشيخ عبد الله سراج الدين رضي الله عنه ،
فقال الأستاذ :علمت من حسن سمتها ورونقها أنها لرجل همام .

قال الأستاذ : ولم تمض أيام إلا وكنت في صحبة الشيخ الإمام إلى داره حول القلعة ، راجعاً من المدرسة الشعبانية ومعه نفر من صحبه ، فلما انصرفوا استوقفني ، ودخل الدار وخرج وبيده كيس واسع وقال لي : هذه الجبة تليق بك فاقبلها مني هدية .

فامتثلت أمره متعجباً وجعلت أقبّل يديه ودموعي تسيل من عيني وقلت في نفسي : من أَطْلع الشيخ على ما في سرّي وما جرى بيني وبين الخياط ؟

لا شك أن الله تعالى أطلعه على ذلك .

وعندما سألت الخياط بعدها قال : لم أبلّغ الشيخ بذلك أبداً ،
ولكنه شيخنا الشيخ عبد الله ، ألا تعرفه ؟!

بلى إن للعلماء المتقين كرامتهم على الله والحمد لله

لقد غرس الشيخ الإمام رضي الله عنه محبة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في قلوبنا وقلوب كل من لزمه ، أو لزم دروسه ومجالسه ، وحثّنا وحثّهم على بذل الجهد لاتباعه صلى الله عليه وسلم وإكثار الصلاة والسلام عليه صلى الله عليه وسلم ، وقد صرّح بهذا كل من حضر درس الشيخ العام أو مجلساً خاصاً له .

وإذا كانت ألسنة الخلق أقلام الحق فلقد كان الشيخ الإمام رضي الله عنه حقاً من المحبين الصادقين الذين كانت محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم في قلوبهم فوق محبة كل مخلوق ، وقد ظهر ذلك في أقواله وأفعاله وسائر شؤوناته رضي الله عنه ، فلم يك يخلو مجلس من مجالسه من ذكر بعض شمائل سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وخصائصه وفضائله العظيمة ، كما أنه لم يدَعْ موضوعاً أو بحثاً من الأبحاث التي تكلم عنها في كتبه إلا وضمّنه ذكر بعض صفاته وخصاله صلى الله عليه وسلم حسب ما تقتضيه المناسبة وهكذا .

وكان رضي الله عنه يعتبر ذلك من مقتضيات الإيمان الصحيح إذ قال صلى الله عليه وسلم :

[لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه ووالده وولده والناس أجمعين] [1]

وقد أسهب رضي الله عنه في الكلام على محبة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في عدد من كتبه منها : كتاب (سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم) وكتاب (حول تفسير سورة الكوثر) وكتاب (الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم) وكتاب (حول تفسير سورة الحجرات) وغيرها ، وذكر فيها وجوب محبة الرسول صلى الله عليه وسلم على كل مؤمن وفضائلها وآثارها ، وسرد في ذلك أدلة كثيرة من الكتاب والسنة وما كان عليه سلف هذه الأمة من المحبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم والأدب معه صلى الله عليه وسلم .

وكان رضي الله عنه يقول : (من زعم أننا بالغنا في محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم وتعظيمه والأدب معه صلى الله عليه وسلم فقد أخطأ خطأ كبيراً ، وكشف عن جهله بمقام سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ،

---

[1] رواه الشيخان والنسائي وأحمد ـ واللفظ له ـ عن سيدنا أنس رضي الله عنه .

فإننا لم نبلغ الحد الأدنى المطلوب منا في محبته وتوقيره والأدب معه صلى الله عليه وسلم حتى يُقال : لقد بالغنا) . اهـ .
واعلم أن قضايا الإيمان كلها إنما هي معقولة مقبولة عند أصحاب العقول المجرّدة من الأهواء والشبهات إن هم تفكّروا وتبصّروا .
ولما كانت محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم فوق محبة كل مخلوق لما كانت أمراً هاماً من قضايا الإيمان : سلّم به وأذعن له العقلاء والفطناء ، لأنهم علموا وأدركوا أن سبب المحبة يعود إلى أمرين هما : الكمال والنوال ، فلو بحث العاقل عن صفات الكمال كلها لوجدها مجتمعة في سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على وجه فريد لا يساويه فيها غيره ، بل إن الرسول صلى الله عليه وسلم جاء يفيض على الناس صفات الكمال والمحاسن ، وهذا مقتضى قوله تعالى في وصف سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم :{ ويزكيكم } والتزكية هي التخلي عن النقائص والرذائل ،والتحلي بالكمالات والفضائل .
وأما صفة النوال - أي : الكرم والجود والسخاء وهي صفات محبوبة لدى كل إنسان - فإن خير من جاء بها وأمر بها هو سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي قال : [إنما بُعثت لأتمّم مكارم الأخلاق].
كما في السنن الكبرى للبيهقي وغيره ، وهو في المسند بلفظ :
[إنما بُعثت لأتمم صالح الأخلاق] .
وفي رواية الطبراني في الكبير والبيهقي في الشعب :
[إنما بُعثت على تمام محاسن الأخلاق] .
وإذا وجد هناك إنسان عظيم يريد لك الخير أكثر مما تريده لنفسك ، ويحرص على سعادتك ، ويشقّ ويصعب عليه ما فيه إحراج ومشقة عليك ، ألا يجب أن تحبه أكثر من محبتك لنفسك ؟ !
نعم إن هذا معقول مقبول عند من أنصف وتفكّر، وفي هذا يقول تعالى : { لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتّم } أي : يصعب عليه ما فيه عَنَت لكم { حريص عليكم } أي : على هدايتكم وصلاحكم ونفعكم وسعادتكم في الدنيا والآخرة { بالمؤمنين رؤوف رحيم } أي : يسعى في دفع الأذى والضر عنهم ويجلب الخير بأنواعه لهم .
ويقول سبحانه :{ النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم } أي :- أحق بهم من أنفسهم وأرحم بهم من أنفسهم - .

ولذلك قال صلى الله عليه وسلم لما نزلت هذه الآية :
[ما من مؤمن وإلا وأنا أولى الناس به في الدنيا والآخرة ، اقرؤوا إن شئتم :{ النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم } فأيما مؤمن ترك مالاً فليرثه عصبته من كانوا ، وإن ترك ديناً أو ضياعاً [1] فليأتني فأنا مولاه] .[2]
ولقد نال شيخنا الإمام رضي الله عنه مقامات كبيرة في محبة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم واتباعه في الأقوال والأفعال والأخلاق والآداب ، لأن المحبة الصادقة وإن كانت من أعمال القلوب لابد أن يظهر أثرها على الجوارح ، وذلك باتباع المحبوب في جميع ما ورد عنه صلى الله عليه وسلم .
ولقد جعل رضي الله عنه نفسه رهن إشارة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان لا يُقْدم على أمر ذي بال حتى يأتيه إذن صريح به من سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .
وكان رضي الله عنه كثيراً ما يحثّ ويدعو إلى قراءة كتابه (سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم شمائله الحميدة - خصاله المجيدة)
ويقول :(لا لأنه كتاب من جمعي وتأليفي ، بل لأني ذكرت فيه جوانب متعددة من شمائله الكريمة صلى الله عليه وسلم وخصاله وفضائله وخصائصه الشريفة ، والتي يجب على كل مؤمن أن يتعرف عليها لتزداد محبته لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويصحّ ويكمل إيمانه برسول الله صلى الله عليه وسلم) .
كما كان رضي الله عنه كثيراً ما يرغّب الناس في الإكثار من الصلاة والسلام على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لِما لها من فوائد وآثار وفضائل ، وأن يجعلوا ذلك من جملة أورادهم اليومية ، بالإضافة إلى قراءة جزء من القرآن الكريم ، وبقية الأذكار التي ندب إليها سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .
وكان رضي الله عنه يقرأ قصة المولد النبوي الشريف للإمام البرزنجي رضي الله عنه بمناسبة ولادته صلى الله عليه وسلم في شهر ربيع الأنور ، وذلك وقت الدرس في جامع بانقوسا والجامع الأموي الكبير وجامع الحموي ، وفي جلسة خاصة لطلاب العلم في المدرسة الشعبانية ،

---

[1] قال في فتح الباري : ضياعاً : بِفَتْحِ الْمُعْجَمَة أَيْ عِيَالًا أَيْضًا ، قَالَ الْخَطَّابِيّ : جُعِلَ اِسْمًا لِكُلِّ مَا هُوَ بِصَدَدِ أَنْ يَضِيعَ مِنْ وَلَدٍ أَوْ خَدَم ، وَأَنْكَرَ الْخَطَّابِيّ كَسْر الضَّادِ ، وَجَوَّزَهُ غَيْره عَلَى أَنَّهُ جَمْعُ ضَائِع كَجِيَاع وَجَائِع .
[2] رواه الإمام البخاري في صحيحه كتاب التفسير

ويرغّب الناس في إقامة تلك الحفلات التي تعبّر عن الابتهاج والفرح بمولد الرسول صلى الله عليه وسلم ، مع مراعاة الآداب الشرعية في تلك المجالس ، لأنها مجالس عبادة تتضمن تلاوة آيات من القرآن الكريم ، وذِكْراً لله تعالى ، وصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، وسماعاً لدرر من شمائله وأخلاقه الشريفة صلى الله عليه وسلم ، فينبغي على كل مؤمن أن يتحرى زيادة الأدب في تلك المجالس .

لا يعرف الفضل إلا ذووه

-- تكريم العارفين وأهل العلم لشيخنا الإمام رضي الله عنه ، وشهادتهم له بالعلم والمعرفة والفضل :
-- قصة الشيخ أبو أحمد [1] خادم الشيخ بديع الجيلاني [2] الظبياني الدمشقي المدفون قرب الشيخ رسلان [3] في دمشق
كان أبو أحمد هذا ممن أفنى جل عمره في خدمة الشيخ بديع حتى توفي الشيخ بديع في داره ، وقد نال أبو أحمد خيراً عظيماً في خدمته للشيخ ، وظهرت عليه أنوار المحبة والصفاء ، وبدت على لسانه كلمات المعرفة وكانت فراسته الصادقة لكل من اجتمع به ظاهرة .
وحصل مرة أن قدم حلب لزيارة شيخنا الإمام رضي الله عنه شتاء عام ١٤٠٦ هـ فاستقبله الشيخ رضي الله عنه في غرفة الإدارة في المدرسة الشعبانية ، وأكرمه ورحب به ، ثم إن أبا أحمد طلب من شيخنا دعاء خاصاً به ، وأن يزوّده بسؤر - أي بَقِيَّةٍ - من ماء شرب منه ، وقال : إني راجع إلى دمشق وسأتوفى بعد ثلاثة أيام ، وإني سأشرب من سؤرك قبل وفاتي حتى يبقى أثره الطيب المبارك في جسدي بعد وفاتي ، وأرجو أن يغفر الله لي ويرحمني ببركة ما في جسدي من سؤرك الطاهر .
فاعتذر منه الشيخ رضي الله عنه ، وجرى على لسانه كلمات التواضع والانكسار لله تعالى ، ولكن السيد أبا أحمد ألحّ وأصرّ، فأجابه الشيخ وحقق طلبه ، فشرب من ماء وقرأ ونفث فيه ، وقدّمه إليه ، وودع أبو أحمد شيخنا الإمام وانصرف ، وكأن ظلة من السكينة خيمت على الحاضرين ، فما بين باكٍ وداعٍ وخاشع ، ثم ختم الشيخ كلامه بدعاء وتضرع إلى الله سبحانه ، وقام عائداً إلى بيته .

---

[1] واسمه عمار ياسين يلقب بأبي ياسين وأبي أحمد وأبي رسلان ، وقد خدم الشيخ بديع واستضافه في بيته في السنين الأخيرة من عمره ، وقد توفي رحمه الله سنة ١٤٠٦ هـ .

[2] هو الشيخ أحمد بديع بن الشيخ محمد علي بن الشيخ شريف ظبيان الكيلاني توفي سنة ١٤٠٤ هـ رضي الله عنه

[3] الشيخ أرسلان بن يعقوب بن عبد الرحمن بن عبد الله المشهور بالدمشقي وأصله من قلعة جعبر بالجزيرة المتوفى سنة ٥٤٠ هـ رضي الله عنه ونفعنا به .

وحصل أن السيد أبا أحمد المذكور توفي بعد ثلاثة أيام كما أخبر ، ودفن في المقبرة شرقي مسجد الشيخ رسلان في دمشق رحمه الله تعالى رحمة واسعة . اهـ .

وكان الحاج محمد نجيب شاكر بريخان [1] من أحباب مولانا الإمام الشيخ عبد الله سراج الدين رضي الله عنه ، فحصل أن دعاه مرة لتناول طعام العشاء ودعا الشيخ عمر بوشي [2] بن الشيخ عبد اللطيف رضي الله تعالى عنهما وبعد الفراغ من طعام المأدبة وصلاة العشاء قام مولانا الإمام يريد الوضوء ، فأسرع الحاج ويس كلش- وكان من الملازمين لمولانا الإمام والمتفانين في خدمته - فتناول المنشفة ووقف ينتظر ، فرآه الشيخ عمر فقال له : هاتها جزاك الله خيراً ، فحمل المنشفة ووقف ، فلما فرغ مولانا الإمام من الوضوء أعطاه الشيخ عمر المنشفة ، فسأله مولانا :

لِمَ كلّفت نفسك بهذا الأمر ؟

فأجاب الشيخ عمر : فعلت ذلك رجاء بركتك ، فقد قرأت أن خادم العارف الكبير الشيخ أبي يزيد البسطامي [3] رضي الله عنه لما سأله الملكان في القبر الأسئلة المعهودة أجابهما : إني كنت أخدم الشيخ أبا يزيد في حياتي ، فأوحى الله إليهما : (ذَرُوه إكراماً لشيخه أبي يزيد) ، وإني لأرجو بحملي لهذه المنشفة أن أُعتبر من خدّامك ، ويكرمني الله في قبري بسببك يا سيدي ، فردّد الشيخ الاستغفار ، ودعا للشيخ عمر بالخير .

ولما كان الشيخ عمر في مرض الوفاة عاده مولانا الإمام رضي الله عنه ففرح لذلك فرحاً شديداً وسرّ سروراً عظيماً ، وقال لمولانا الإمام :

أرجو أن تكون أنت يا شيخي آخر من يقع عليه نظري في هذه الدنيا ، حتى إذا لقيتُ ربي قلت : (اللهم إن آخر من رأته عيني هو الشيخ عبد الله سراج الدين ، وإني أرجو بذلك أن تغفر لي) ..

---

[1] المتوفى سنة ١٤٠٠ هـ بسبب حادث سيارة وكان في طريقه إلى العمرة رحمه الله

[2] الشيخ العارف عَلَم الطريقة النقشبندية سيدي عمر بوشي بن الشيخ عبد اللطيف المتوفى سنة ١٣٩٦ هـ رحمه الله رحمة واسعة ورضي عنه

[3] هو سيدي سلطان العارفين وشيخ الصوفية طيفور بن عيسى البسطامي - نسبة إلى بسطام (بلدة بين خراسان والعراق) - أصله منها، ووفاته فيها سنة ٢٦١ هـ رضي الله عنه ونفعنا به ، وقد نقلوا عن سيدي أبي يزيد أشياء يُشكّ في صحتها عنه ، وما أعظم قوله : (لو نظرتم إلى رجل أعطي من الكرامات حتى يرتفع في الهواء فلا تغترّوا به حتى تنظروا كيف هو عند الأمر والنهي وحفظ حدود الشريعة) .
انظر لسان الميزان لابن حجر وسير أعلام النبلاء للذهبي . اهـ .

ولما صدر كتاب (سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم شمائله الحميدة ـ خصاله المجيدة) ـ وقد ذكر الشيخ الإمام رضي الله عنه فيه بحثاً نفيساً حول عصمة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم من الخطأ والخطيئة ، وساق أدلة كثيرة تؤيد ذلك ، ودفع شبهات كانت قد أثيرت في هذا المجال ـ لقي هذا الكتاب بما فيه من أبحاث نادرة قبولاً كبيراً خاصة عند أهل العلم .

حتى لما قرأه أحد مدرّسي كلية الشريعة في جامعة دمشق ـ وكان أستاذاً فاضلاً له مكانته العلمية ومنزلته الاجتماعية ـ جعل يقرّر بحث عصمة النبي صلى الله عليه وسلم خلال تدريسه للسيرة النبوية ، ويأتي بوجوه الأدلة التي ذكرها الشيخ الإمام رضي الله عنه في كتابه دون أن يذكر للطلاب من أين يأتي بها وذلك حتى يشوّقهم إلى معرفة ذلك العالم الجليل الذي أجاد وأفاد الكلام في هذا البحث .

وقد استمر هذا المدرس جزاه الله تعالى خيراً في بحثه هذا عدة محاضرات حتى إذا فرغ من بحثه ووجد في الطلاب إلحاحاً شديداً لمعرفة هذا العلامة الكبير الذي بيّن تلك الوجوه في عصمة النبي صلى الله عليه وسلم قال لهم : لم آتكم بهذا الكلام من رجل يحمل شهادات عالية ، بل هو من رجل عالم لا يحمل حتى الشهادة الثانوية ، إن هذا الكلام من شيخٍ جامع وهو الشيخ الجامع العلامة الإمام الشيخ عبد الله سراج الدين .[1]

---

[1] جاء في شرح منهاج العابدين للإمام الغزالي : الشيخ أي الشائخ ، فهو مصدر أريد به اسم الفاعل ، وهو في اللغة : من جاوز الأربعين وقيل : المنتهي في السن ، وفي العرف : من بلغ رتبة أهل الفضل ولو كان صبياً ، وقال بعضهم : هو صاحب الفائدة والمائدة والحكمة الزائدة . اهـ

قلت : واعلم أن مراتب العلم والفضل والأدب كلها قد اجتمعت في لفظة (الشيخ) ولذلك أطلقت على صاحبَي سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الصديق الأكبر والفاروق الأشهر فكان يقال عنهما : شيخا هذه الأمة ، اللذان قال فيهما سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رآهما : [هذان السمع والبصر]

(كما في سنن الترمذي ومستدرك الحاكم ومعرفة الصحابة لأبي نعيم الأصبهاني)

وفي رواية الطبراني في مسند الشاميين قال صلى الله عليه وسلم :

[لا غنى بي عنهما ، إنما منزلتهما من الدين كمنزلة السمع والبصر من الجسد]

كما أطلقت لفظة (الشيخ) على كبار العلماء والمحدثين كالإمام البخاري والإمام مسلم ، فيقال : (رواه الشيخان) ، ولذلك كان شيخنا ينبه إلى عدم الاستخفاف بهذه الكلمة وعدم الاستهانة بها فإن لها شأناً كبيراً .

قلت : ولقد كان من كلام شيخنا الإمام رضي الله عنه :
(إن الشهادات العلمية التي يحصل عليها طلاب العلم في دراستهم ما هي إلا مفاتيح بأيديهم لخزائن العلم والمعرفة ، وهي حوافز تنشّط هممهم إلى الاستمرار في بذل الجهود في سبيل التعلم والبحث العلمي .
فعلى طلاب العلم أن لا يكتفوا بما حصلوا عليه من شهادات ، ويظن أحدهم أنه نال العلوم كلها فإن علوم الشريعة كبيرة واسعة تحتاج إلى تفرغ وتخصص .
ولم تكن الشهادات على الوجه المعروف في زمننا معروفة عند علمائنا ومشايخنا من السلف والخلف رضي الله عنهم ، إذ كانت هناك الإجازات في قراءة القرآن بالقراءات المتواترة أو إحداها ، وكذلك الإجازة في قراءة الحديث النبوي الشريف وروايته ، وهناك الإجازات المعروفة عند أهل الطريق رضي الله عنهم .
أما في مجال العلوم الشرعية فكان يقال : فلان قرأ على فلان ، أو حضر مجلس فلان ، أواستمع لفلان وهكذا ، ويعتبر هذا توثيقاً له واشتهاراً بقوة علمه .
والشهادة تشهد لحاملها أنه بذل جهداً في تحصيل كذا من العلوم ، أو اختص في العلم الفلاني ، وتُمنح له من قِبَل أساتذة ومدرسين امتحنوه في قوة حمله للعلم وتحصيله له .
وقد تفقد الشهادة معناها إذا قصّر حاملها أو تقاعس في أداء مهمته العلمية في التعليم والتعلم) . اهـ .
ولقد بذل مولانا الشيخ الإمام رضي الله عنه جهداً كبيراً في تحصيل العلوم الشرعية كلها ، وحصل على إجازات من كبار علماء ومشايخ عصره ، وقد فتح الله عليه في الفهم والمعرفة فتوح العارفين الغارفين من بحر سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم ، خاصة أنه حظي بابتلاع شيء من ريق سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الشريف المبارك ، وكان لهذا فضله وأثره الكبير في خوضه أبحر العلم والمعرفة ، حتى صار شيخنا رضي الله عنه إماماً عالماً مفسراً محدّثاً ، أصغى إليه العلماء ونفع الله به العباد والبلاد
وكان يذكر عن الشيخ السيد علوي المالكي المكي الحسني أنه سئل :
بماذا يشتغل إذا أُعلم بدنوّ أجله ، أو قيل له : إنك ستتوفى بعد ساعة ؟
فقال : أشتغل بتعليم الناس حكماً شرعياً أو تفسير آية أو حديثاً نبوياً . اهـ

وقد نقل ذلك عن أكثر من واحد من أهل العلم نفعنا الله بهم أذكر منهم الشيخ أحمد الشماع رحمه الله تعالى[1]

قلت : روى الدارمي في مقدمة سننه عن الحسن رضي الله عنه قال :
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
[من جاءه الموت وهو يطلب العلم ليحيي به الإسلام فبينه وبين النبيين درجة واحدة فى الجنة] .
وفي رواية :
[من جاء أجله وهو يطلب العلم لقي الله تعالى ولم يكن بينه وبين النبيين إلا درجة النبوة] [2]

وذلك لأنه عاش في الدنيا ينهل من ميراث الأنبياء عليهم السلام علماً وعملاً كما قال صلى الله عليه وسلم :
[إن العلماء هم ورثة الأنبياء ، إن الأنبياء لم يورّثوا ديناراً ولا درهماً ، إنما ورّثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر] [3]

فأكرمه الله في الآخرة بأن قرّبه من منازل الأنبياء عليهم السلام لينال من نعيمهم ويستقي من معينهم ، كلٌّ على حسب تعلمه وتعليمه وعمله ، لأن الأنبياء جاؤوا يعلمون الناس ما فيه منافعهم ومصالحهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة ، قال تعالى في جملة مواقف سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم مع العالم :
{ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ }

ومعنى قوله صلى الله عليه وسلم : [من جاء أجله وهو يطلب العلم] أي أنه عاش كذلك يطلب العلم ، ولم ينقطع عن طلبه العلم تعلماً وتعليماً ، حتى إذا جاءه الموت على تلك الحالة أكرمه الله بما ذكر في الحديث المتقدم ذكره وهذا كقوله تعالى : { ولا تموتُن إلا وأنتم مسلمون } أي أسلموا لله في حياتكم حتى إذا جاءكم الموت متّم مسلمين .
وكقوله تعالى مخبراً عن دعاء أولي الألباب : { وتوفنا مع الأبرار } أي أحينا مع الأبرار دائماً حتى إذا جاءنا الموت توفّنا معهم يا رب .

---

[1] هو الشيخ أحمد بن الشيخ محمد الشماع الرفاعي الحنفي المتوفى سنة ١٣٧٣ هـ رحمه الله

[2] رواه الطبراني في الأوسط واللفظ له ورواه ابن عساكر في تاريخ دمشق وابن شاهين في الترغيب في فضائل الأعمال وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله والشجري في الأمالي الخميسية

[3] كما في مقدمة سنن ابن ماجه وصحيح ابن حبان كتاب العلم والمسند ٢٠٧٢٣

وقد قال صلى الله عليه وسلم :
[يُبعث كل عبد على ما مات عليه] [١]
ويدل عليه أيضاً ما جاء في الحديث الذي رواه الشيخان عن ابن عباس رضي الله عنها قال : بينما رجل واقف بعرفة إذ وقع عن راحلته فوقصته [٢]أو قال فأوقصته ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : [اغسلوه بماء وسدر ، وكفِّنوه في ثوبين ، ولا تحنطوه ، ولا تخمّروا رأسه ، فإنه يبعث يوم القيامة ملبياً] [٣]
وقد قال سبحانه :{ إنا نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدموا و آثارهم } الآية ، أي : نكتب ما قدّموا من أعمال وأقوال ، وآثارِ تلك الأعمال والأقوال في الأكوان ، فالعمل الذي يعمله الإنسان ويترك أثراً طيباً يعمل به غيره يظل يُكتب في صحيفة أعماله إلى يوم الدين طالما أن هنالك من يعمل به .

ومن ذلك : العلم النافع الذي ينفع به الإنسان غيره ، وأعظم من يقوم بذلك العلماء الأتقياء الذين يعلّمون الناس ما ينفعهم في زيادة إيمانهم عقيدة وعلماً و فعلاً وقولاً ، فيُكتب ذلك في صحيفة العالم الذي علّمهم ويبقى كذلك إلى يوم القيامة ، وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم :

[إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له] [٤]
- أي انقطع عمله الكسبي المباشر الدنيوي التكليفي ، ولا ينقطع عمله في برازخ الآخرة بشكل مطلق ، فإن لكل عالم يمر عليه تكاليفه الخاصة به فمثلاً في عالم القبر هنالك سؤال الملكين له ، وهذا تكليف برزخي ، ويتحتم على المسؤول الجواب ، وهناك مثلاً في عالم الموقف تكليف الله تعالى أهل الموقف بالسجود له سبحانه .

---

[١] المسند ١٤٠١٦ وصحيح الإمام مسلم كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها
[٢] أي : قتلته ، والوقص : كسر العنق .
[٣] صحيح البخاري كتاب الجنائز وصحيح مسلم كتاب الحج
وقوله صلى الله عليه وسلم : (ولا تحنّطوه) هو من الحنوط وهو الطيب الذي يُصنع للميت ، وقوله صلى الله عليه وسلم : (ولا تخمروا): - بتشديد الميم - أي : لا تغطّوا ولا تستروا رأسه .
[٤] صحيح مسلم كتاب الوصية و سنن أبي داود كتاب الوصايا وصحيح ابن حبان كتاب الجنائز عن أبي هريرة واللفظ له

قال تعالى :{ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ }
وفي الحديث عن أبي سعيد رضي الله عنه قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول :
[يَكشف ربنا عن ساقه فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة ، فيبقى كل من كان يسجد في الدنيا رياء وسمعة فيذهب ليسجد فيعود ظهره طبقاً واحداً] [١]
وهذا تكليف لهم بالسجود يحتّم عليهم أن يسجدوا
ثم هنالك التكليف بامتحان الإيمان العلمي في قلوب أهل الموقف - وانظر بيانه في كتاب (الإيمان بعوالم الآخرة) لمولانا الوالد رضي الله عنه - .

فلما علم أولو الألباب الراسخون في العلم أن تعليمهم للناس ونفعهم بعلومهم سيُكتب في صحيفتهم وسيظل ذلك إلى يوم الدين راحوا يسألون الله أن لا يقطعهم عن العلم والتعليم ، والمراد به : العلم بالشريعة وما تضمنته من عقائد إيمانية قلبية وأعمال جارحية وأقوال وأخلاق وآداب ، وهو العلم الذي جاء به الأنبياء يعلّمونه الناس وورّثوه لمن بعدهم ، ولو كان المراد غير هذا العلم من أمور كونية دنيوية فيقال : هل ورّث الأنبياء علماً غير العلم بالله تعالى وشرائعه ؟!

وأما العلوم الكونية الدنيوية فإن كانت ذات نفع وفوائد للإنسان فأنعِم بها وأكرم ، لأنها تيسّر على الإنسان أمر حياته ونظام معيشته ، وإن كانت عديمة الفائدة والمنفعة فلا ثواب فيها ، وقد علّمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نستعيذ منها لأن الاشتغال بها مضيعة للوقت فقال صلى الله عليه وسلم :[وأعوذ بك من علم لا ينفع] [٢]الحديث

وكان شيخنا الإمام رضي الله عنه إذا سأله بعض أهل العلم ممن يحضر مجالسه العلمية الخاصة أو العامة :
من أين تأتينا يا مولانا بتلك المفاهيم والبيانات وتدلّل عليها بأدلة الكتاب والسنة ؟
فيقول رضي الله عنه : (من هنا وهناك) .

---

[١] صحيح البخاري كتاب تفسير القرآن
[٢] طرف حديث في صحيح مسلم كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار عن زيد بن أرقم رضي الله عنه

ويشير في كلامه إلى مقام الإفهام والتفهيم الإلهي لمن اختصه الله تعالى برحمته ، وهذا يندرج في قوله تعالى :{ ففهّمناها سليمان }
وقول سيدنا علي كرم الله وجهه ورضي عنه لما سُئل :
هل عندكم شيء من الوحي إلا ما في كتاب الله ؟
فقال : (لا والذي فلق الحبة ، وبرأ النسمة ، ما أعلمه إلا فهماً يعطيه الله رجلاً في القرآن) [1]
قلت : ومما أكرمني الله تعالى به لما أدّى شيخنا الإمام مناسك العمرة في الأسابيع الأولى من مجاورته في المدينة المنورة ، وحصل مرة أن صليت الظهر برفقته رضي الله عنه في أحد أروقة المسجد الحرام أنه لما فرغ من صلاة السنة البعدية التفت إلى يمينه فإذا بشخص قد جلس إلى جانبه فأقبل إليه وسلّم عليه وعانقه ، وطال حديث المودة بينهما ، وكان هذا الشخص هو السيد الحسيب النسيب الشيخ محمد أمين الكتبي رضي الله عنه [2] ، وكان قد سبق له أن اعتزل في بيته وآثر الخفاء على الظهور ، ولذلك كان نزوله إلى الحرم خفية ، ثم قال له شيخنا الإمام رضي الله عنه : (أوصني يا سيدي) .
فقال له السيد أمين رضي الله عنه : (أوصيك بما أنت عليه) ، ثم دعا لنا وانصرفنا .
وانظر يا أخي - رعاك الله تعالى - في رفعة هذه الوصية ودقة معناها ، وهي تحمل في طياتها علامات الرضا والقبول عند الله تعالى وعند رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم .
وفي صيف عام ١٣٨٤ هـ أقام شيخنا الإمام رضي الله عنه اجتماعاً عاماً للأعضاء المؤسسين لجمعية التعليم الشرعي وللمشتركين فيها - بناء على طلب مديرية الشؤون الاجتماعية والعمل –

---

[1] صحيح البخاري كتاب السير
[2] هو سيدي الفاضل العالم الشيخ محمد أمين بن محمد أمين بن محمد صالح بن محمد حسين الكتبي الحسني الحنفي ، سليل الدوحة النبوية الشريفة المباركة ، وبيت الكتبي معروف بأنه بيت علم وفضل ، توفي سنة ١٤٠٤هـ ، ودفن في المعلاة في مكة المكرمة ، رحمه الله تعالى رحمة واسعة ورضي عنه وأرضاه ونفعنا به .
ومن مديحه رضي الله عنه لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله :
وقفٌ على المصطفي مدحي وإنشادي قد صحّ في حبه متني وإسنادي
هو الحبيب الذي تغني شمائله عن الشراب وتكفينا عن الزاد
لا أنفق العمر إلا في محبته فإنها أصل إكرامي وإسعادي

وكان الحفل في ساحة المدرسة الشعبانية ، وجلس في صدر المجلس شيخنا الإمام رضي الله عنه وشيوخ المدرسة وأساتذتها ، وعن يمينه الأعضاء المشاركون ، وكانت الجهة اليسرى قد أُعدّت للسادة المشايخ ، وهناك مقاعد للطلبة ، وكانت كلمات ، منها كلمة لفضيلة الأصولي الفقيه الدكتور الشيخ محمد فوزي فيض الله جزاه الله خيراً - وبينه وبين شيخنا الإمام من الصداقة والأخوة في الله تعالى ما الله به عليم - وكانت خاتمة كلمته هذه الكلمات بحروفها ، حيث قال بعد أن التفت إلى الطلاب - وكان يدرّسهم أصول الفقه الحنفي - : (يا أبناءنا الطلاب : لقد نلنا من الشهادات أعلاها ، ومن الألقاب العلمية أرقاها ، وكانت خاتمة المطاف بنا أن نسعى في ركاب من لا يحمل شهادة ثانوية ، ولكنه يحمل ثقة الأمة به) ..
وأشار إلى فضيلة الشيخ الكبير الذي علّم الناس أصول دينهم ، شيخنا الإمام عبد الله سراج الدين رضي الله عنه . اهـ .
وقال الشيخ الإمام رضي الله عنه :
كنت في أول زيارة للشيخ أحمد الحارون الدمشقي رضي الله عنه - والذي اشتهر بالعلم والكشف - كنت قد دخلت على الشيخ رضي الله عنه ، ومعي بعض أصحابي ، وأضمرت في نفسي بشارة يبشّرني بها الشيخ رضي الله عنه ، فسلّمنا على الشيخ وجلسنا مع الحاضرين ، والشيخ يتكلم ، فلم تنقضِ مدة إلا والتفت الشيخ رضي الله عنه وقال مخاطباً لي : (أبشرك بأنك محفوف بأنظار رسول الله صلى الله عليه وسلم)، ثم تابع الشيخ حديثه . اهـ
وفي زيارة أخرى للشيخ رضي الله عنه - كما حكى ذلك أكثر من واحد ممن كان في صحبة الشيخ وقتئذ - اجتمع على باب غرفة الشيخ أحمد الحارون رضي الله عنه عدد من أهل العلم ، فجعل كل منهم يقدّم الآخر ليكون الأول في الدخول على الشيخ - وهذا من أدب العلماء مع بعضهم - وما هي إلا لحظات إذ لمح الشيخ الحارون رضي الله عنه من داخل الغرفة لمح شيخنا الإمام فناداه :
(سراجَ الدين كن أول الداخلين ، فإن شمسك إذا ظهرت غطّت على الكل)
فدخل شيخنا الإمام رضي الله عنه وامتثل طلب الشيخ وأجلسه إلى جانبه ، وناوله صحفاً كبيرة من مكتوباته ، وطلب منه أن يقرأ فيها .
قال شيخنا الإمام رضي الله عنه : فنشرت المجلد فإذا فيه بحث في المحبة ، وبيان الآيات التي تتعلق بالمحبة الإلهية كقوله تعالى :
{ والله يحب المحسنين } .
وهكذا وجعلت أقرأ على الحاضرين .اهـ

قال الشيخ الإمام رضي الله عنه :
وقد أرسل إلي الشيخ احمد الحارون رضي الله عنه أرسل إلي مع بعض أحبابه قبل وفاته بعدة أيام يوصيني أن أقرأ سورة الفاتحة دُبُر كل صلاة وأهدي ثوابها له رضي الله عنه . اهـ .
قلت : وذكر لي أخي الأكبر الفاضل الدكتور الشيخ محمد نجيب - وكان برفقة شيخنا الإمام لزيارة الشيخ يحيى الصباغ الدمشقي [1] رحمه الله تعالى الذي كان له درس في جامع الشيخ الأكبر محي الدين بن عربي رضي الله عنه -
قال : لما دخلنا المسجد كان الشيخ يحيى جالساً في ركن من ساحة الجامع فنهض وسلم على شيخنا الإمام رضي الله عنه وعلى الشيخ عبد العزيز عيون السود الذي صحب الوالد من حمص إلى دمشق .
ثم قال الشيخ يحيى لبعض من كان معنا :
اذهب واسأل الشيخ الأكبر : هل أقرأ درسي ، أم أحضر حلقة الذكر في حضرة الشيخ الأكبر ، أم أصحب الأحباب إلى الدار لأضيفهم ؟
فتردد الرجل . كيف يذهب وكيف يسأل الشيخ الأكبر عن ذلك ،
فقال له الشيخ يحيى : مالك ؟ ! هيا اذهب ، فمضى الرجل ، ولم تمض دقائق حتى أقبل رجل كبير السن متواضع الهيئة ، وقال للشيخ يحيى :
يقول لك الشيخ الأكبر : اقرأ درساً يسيراً ، واصحب الأحباب إلى الدار .
فجلس الشيخ يحيى يقرأ شيئاً من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الشريفة ، ثم يلتفت إلى شيخنا الإمام رضي الله عنه - وكان قد أجلسه إلى جانبه وإلى الجانب الآخر الشيخ عبد العزيز - ويقول له : بيّن للناس معنى الحديث ، فيقول له شيخنا الإمام : جئت مستمعاً ، فيقول له الشيخ يحيى على سبيل الملاطفة والمؤانسة : إلى متى ستبقى متستّراً ؟!!
ولما فرغ من الدرس صحب زواره إلى داره وأضافهم .
وفي إحدى الزيارات قال الشيخ يحيى رضي الله عنه لشيخنا الإمام :
لا أخاف عليك الرياء ، وأنت من أهل الصدق والإخلاص .
وبشّره بأن مدرسة الشعبانية - التي أحيا شيخنا الإمام ذِكرها وطلب العلمِ فيها - بشره بأنها ستخرج عدداً كبيراً من العلماء والأولياء . اهـ .
وكان من عادة الشيخ الإمام رضي الله عنه - بعد أن يفرغ من درس يوم الجمعة بعد العصر في جامع بانقوسا –

[1] العالم الصالح الزاهد الورع يحيى بن محيي الدين بن صالح بن أحمد بن رجب الصباغ المتوفى سنة ١٣٨١ هـ

أن يرجع إلى البيت ويبدّل قميصه الداخلي بسبب شدة تعرّقه خاصة أيام الصيف ، وينتظره بعض أصحابه عند باب البناء ليصحبوه بعد ذلك في نزهة إلى كرم بعض أصحابه ، فيجلس مع الحاضرين أمام بركة ماء ، ويتكلم على الحاضرين بما فيه النفع والفائدة ، ثم يصلي بهم العشاء الآخرة ويعود إلى بيته ، وكثيراً ما كان يأكل معهم طعام العشاء .

وحصل في بعض المرات أن حضر درسه في جامع بانقوسا الشيخ عبد العزيز عيون السود رحمه الله تعالى ، ولما فرغ شيخنا الإمام من درسه أمر شيخُنا بعضَ أصحابه أن يصحب الشيخ عبد العزيز إلى الكرم ، ثم يلحق بهم بعد أن يبدّل قميصه ويستريح قليلاً في البيت ، ومضى كلٌ في سبيله .

ثم إن الشيخ عبد العزيز رحمه الله تعالى ورضي عنه - وكان لطيفاً متواضعاً - أراد أن يكون بصحبة شيخنا الإمام إلى الكرم وقال :

سنذهب إلى دار شيخنا وننتظره ، ثم نذهب بصحبته إلى الكرم ،

ولم يُعلم شيخنا بذلك ، فقال بعض أصحاب شيخنا الإمام رضي الله عنه للشيخ عبد العزيز : يا سيدي إن شيخنا لا يعلم بأنكم تنتظرونه ، فهل نخبره بذلك - يعني : حتى يعجل قليلاً - ؟

فقال له الشيخ عبد العزيز رحمه الله تعالى :

لا يا ولدي { ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم }.

- وهذا من قبيل الأدب مع العلماء الذين هم ورثة الأنبياء ، فانظر رعاك الله في أدب العلماء مع بعضهم واحترامهم وتقديرهم لبعضهم . اهـ .

وفي جامع سيدنا خالد بن الوليد رضي الله عنه في مدينة حمص كان يقطن في آخر غرفة فيه من الناحية الشرقية رجل من أهل التقى والصلاح ويغلب عليه جذب القلب والاستغراق معروف بـ (الشيخ بدوي) ، وهو ممن حضر و أخذ عن الشيخ المربي الكبير السيد سليم خلف رضي الله عنه .

وكان شيخنا الإمام رضي الله عنه يزور الشيخ بدوي برفقة الشيخ عبد العزيز عيون السود رحمه الله تعالى ، ويرحب الشيخ بهما ، وكثيراً ما يتردد على لسانه : (أهلاً بأسيادنا العلماء).

وفي إحدى المرات كان شيخنا الإمام يلبس جبة فاتحة اللون كعادته أيام الصيف ، وأما الشيخ عبد العزيز فكان يلبس جبة داكنة اللون ، فنظر الشيخ بدوي إليه وقال له : (يا شيخ عبد العزيز البس كما يلبس الشيخ عبد الله) ، ولما انقضت الزيارة قال الشيخ عبد العزيز لشيخنا الإمام : (لقد أخذتُ كلام الشيخ بدوي على ظاهره وباطنه) ، وجعل بعد ذلك يستشير شيخنا الإمام ويرجع إليه في المهمات والمسائل العلمية والعرفانية . اهـ .

ولما ذهب شيخنا الإمام رضي الله عنه إلى الحج سنة ١٣٨٥ هـ أسرع لاستقباله على أبواب مكة المكرمة الشيخ المحدث الحسيب النسيب السيد علوي المالكي [١] رحمه الله تعالى ، وقال لأصحابه :
(هذا رجل يُمشى إليه ولو على رموش الأعين) .
قلت : وإن السيد علوي رضي الله عنه قد أجاز شيخنا بإجازة واسعة في الحديث الشريف ، وقد تقدم بيان ذلك في فصل :
إجازات الشيخ الإمام رضي الله عنه .
ولما قصد الحج أكبر إخوتي الأفاضل الدكتور الشيخ محمد نجيب سنة ١٣٨٩هـ ، وقصد مرة زيارة الشيخ السيد علوي رضي الله عنه ، فقبْل أن يصل إلى داره جعل السيد علوي يقول للحاضرين : { إني لأجد ريح يوسف } ، ويكرر هذه الآية الكريمة ، ولما اقترب أخي من باب دار الشيخ رحمه الله تعالى أسرع الشيخ وفتح الباب قبل أن يُطرق ، وضمّ أخي إلى صدره وراح يسأله عن شيخنا الإمام رضي الله عنه ويدعو له ، لما بينهما من مودة ومحبة عالية .
ولما صدر كتاب (سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم) - وهو من تأليف شيخنا الإمام رضي الله عنه - أرسل نسخة منه هدية للشيخ السيد أبي عبد العزيز الشنقيطي [٢] المعروف بورعه وزهده ، وكان يقيم في بيت متواضع في أطراف المدينة المنورة بأنواره الشريفة صلى الله عليه وسلم ، ولما ذهب شيخنا الإمام رضي الله عنه للعمرة عام ١٣٩٨هـ وزار الشيخ الشنقيطي رحب به وأكرم ضيافته وقال له فيما قال : (لقد عرفتُك من كتابك) - أي عرفتك بعلو المرتبة والمقام وصدق المحبة لخير الأنام صلى الله عليه وسلم - ثم دعا له بالتأييد والتوفيق والسداد .
قال الشيخ الإمام رضي الله عنه :
وكان والدي رضي الله عنه يصحبني معه منذ كنت صغيراً كلما أراد أن يزور أحداً من الصالحين الأتقياء أو العلماء الأخفياء ، ويطلب منهم أن يدعوا لي ، فنلت بفضل الله تعالى دعوات والدي ودعواتهم ، ونفعني الله ببركاتهم أجمعين . اهـ .

---

[١] هو السيد علوي بن عباس بن عبد العزيز بن عباس بن محمد المالكي الحسني الإدريسي ، وبيت السيد علوي المالكي في مكة المكرمة بيت سيادة وشرف وعلم وفضل منذ مئات السنين ، ولد رضي الله عنه في بيت المالكي المعروف في مكة المكرمة بـ باب السلام ، توفي سنة ١٣٩١هـ ودفن في مقبرة المعلاة

[٢] المتوفى في المدينة المنورة سنة ١٣٩٧ هـ والمدفون في البقيع رحمه الله

وممن عرف شيخنا الإمام وأحبّه وجرى بينهما تواصل وتزاور :
الشيخ المعروف بحسبه ونسبه السيد عبد القادر السقاف الحضرمي ،
المقيم في بلاد الحجاز ، فكان يثني على شيخنا الإمام ويمدحه كثيراً ،
ويزوره كلما قدم المدينة المنورة أيام مجاورة شيخنا الإمام فيها ،
ونُقل عنه في مدح شيخنا الإمام رضي الله عنه قوله :
(يجب على كل من سمع به أن يراه).
ولما قدم الشيخ عبد القادر السقاف الحضرمي إلى حلب عام ١٣٩٥ هـ
لزيارة مولانا الإمام رضي الله عنه كان من جملة لقاءات مولانا له أن
استقبله مرة في مدرسة التعليم الشرعي في حي الفرافرة ، المعروفة الآن بـ
(دار تحفيظ القرآن الكريم) التابعة لمدرسة التعليم الشرعي (الشعبانية)
وجلس الشيخ مع مولانا في غرفة الإدارة - وتقع في جهة الشرق بالنسبة
لساحة المدرسة - وكان في المجلس طائفة من أساتذة المدرسة الشعبانية
الكبار ، وكان الحديث لمولانا الإمام رضي الله عنه ، وفي سكتاته يعلّق
الشيخ عبد القادر بكلمات المدح والثناء والإكبار لِما يسمعه من مولانا الإمام
رضي الله عنه ، ثم إن الشيخ عبد القادر أراد الخروج إلى ساحة المدرسة
والتجول في غرفاتها مطّلعاً مباركاً مهنئاً ، وقال في نفسه : (ليت الشيخ
عبد العزيزعيون السود يحضر جمعنا هذا) ، فلم يمض على رجائه دقائق
إلا وقد حققه الله له ، وإذا بالشيخ عبد العزيز يهل بطلعته البهية من باب
المدرسة ، ومعه نفر من أصحابه فاستقبله الشيخ عبد القادر في ساحة
المدرسة وقبّله وعانقه وأطال ترحيبه به ، وقال له :
(الحمد لله الذي جمعنا في حضرة شيخ إذا نظر إلى شقي أسعده الله)
وأراد بذلك مولانا الشيخ عبد الله سراج الدين رضي الله تعالى عنه..
ثم دخلا غرفة مولانا الشيخ ، وتناول الجمع المبارك طعام الغداء على مائدة
الشيخ الإمام وفي ضيافته .
وحضر الشيخ عبد القادر السقاف مرة درس شيخنا الإمام بعد عصر يوم
الجمعة في جامع بانقوسا ، وبعد انتهاء الدرس نُقل عنه قوله :
(لقد سمعت من الشيخ أمدّه الله تعالى كلاماً لم أسمعه من قبل ، ولم أقرأه
قط في كتاب ، إنه كلام أهل التحقيق ، كلام من أيّده الله تعالى بأدلة الكتاب
والسنة) . اهـ .
قلت : وكان من كلام شيخنا الإمام رضي الله عنه في درسه حول قوله
تعالى :{ الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان }
أن الإنسان المذكور في الآية هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الذي
أنزل الله عليه القرآن وعلّمه البيان عن القرآن ، كما جاء في قوله تعالى :

{ لا تحرك به لسانك لتعجل به * إن علينا جمعه وقرآنه[1] * فإذا قرأناه فاتبع قرآنه * ثم إن علينا بيانه } أي أن نبيّن معانيه لك ثم تبين ذلك للناس ، كما قال تعالى :
{ وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نُزل إليهم }
قوله تعالى : { خلق الإنسان } (ال) في كلمة { الإنسان } ليست للجنس ، وليس المراد جنس الإنسان من آدم وذريته ، بل هي للعهد فقوله تعالى :
{ خلق الإنسان } أي ذلك الإنسان المعهود المعروف لدى كل مخلوق ، والذي رفع الله ذكره فوق كل مذكور ، وقرنه بذكره سبحانه ،
كما قال تعالى :
{ ورفعنا لك ذكرك }.
وبيّن ذلك الحديث القدسي : (لا أُذكر إلا ذُكرتَ معي)[2]
فَقَرَن سبحانه ذكر حبيبه بذكره في : الشهادتين وفي الأذان وفي الإقامة والسمع والطاعة والإرادة والقنوت والرضا .
كما قال تعالى : { وأطيعوا الله والرسول }
وقال سبحانه : { إنما كان قول المؤمنين إذا دُعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا }.
وقال تعالى :{ وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيماً }.
وقال تعالى :{ ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحاً }
وقال جل وعلا : { والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين }
فقوله تعالى : { خلق الإنسان } أي الإنسان الأول الكامل المكمّل لغيره ، وهو صلى الله عليه وسلم أول الأرواح خلقاً في عالم الارواح كما قال صلى الله عليه وسلم :
[كنت نبياً وآدم بين الروح والجسد] [3]
وأشار إلى هذا قوله تعالى : { خلق الإنسان } أولاً ، ثم بعد ذلك بآيات ذكر سبحانه خلقه لسيدنا آدم وهو الإنسان الأول من حيث عالم الأجسام فقال تعالى :{ خلق الإنسان من صلصال كالفخار } وهو سيدنا آدم وذريته ، {وخلق الجان } - وهو أبو الجن - { من مارج من نار }

[1] أي : علينا أن نجمعه في صدرك فلا تنسى منه شيئاً ، وعلينا أن نقرئك إياه .
[2] دلائل النبوة للبيهقي واللفظ له ومسند أبي يعلى وصحيح ابن حبان
[3] مصنف ابن أبي شيبة بهذا اللفظ وأصله في سنن الترمذي كتاب المناقب

وقد أشار سبحانه إلى أوليّة رسول الله صلى الله عليه وسلم في عدة آيات منها
{ لا أقسم بهذا البلد وأنت حل بهذا البلد } فذكره الله تعالى أولاً ثم ذكر آدم عليه السلام وذريته فقال جل وعلا : { ووالد وما ولد } فذكر سبحانه الأب الروحاني قبل الأب الجسماني ، وقد جاء في الحديث :
أن الأرواح مخلوقة قبل الأجسام [1]
وقال تعالى :{ وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك } - فذكره سبحانه أولاً ثم قال : { ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم } مع أن هؤلاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كلهم قبله صلى الله عليه وسلم في الزمن والبعثة إلى الدنيا ، فهو صلى الله عليه وسلم أول الأرواح خلقاً في عالم الأرواح ، وآخر الأنبياء بعثاً في عالم الأجساد ، وهو صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء ولا نبي بعده .
أما قوله تعالى : { علّمه البيان } يعني البيان عن القرآن ، وليس المراد بالبيان : اللغات التي يبين بها الإنسان عن المعاني التي في نفسه ، فإن اللغات قد جاء ذكرها في القرآن الكريم ودُل عليها بكلمة اللسان ،
كما في قوله تعالى :
{ ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم }.
وقال تعالى : { وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه}- أي بلغة قومه - { ليبين لهم } .
وقال تعالى :{ لسان الذين يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين }.
اهـ . مختصراً من كلام شيخنا الإمام رحمه الله تعالى .
وكان الشيخ نعسان فرواتي [2]من مشايخ الطريقة الرفاعية ، وله مجالس ذكر لله تعالى وصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان يزور مولانا الإمام كلما أتيح له ذلك ، وقد حضر مرة مع ثلة من أصحاب الشيخ الإمام إلى دار مولانا الشيخ رضي الله عنه ، وتكلم الشيخ كعادته في النصح والإرشاد وذكر فضائل المصطفى صلى الله عليه وسلم والترغيب في زيادة محبته والإكثار من الصلاة والسلام عليه صلى الله عليه وسلم ،

---

[1] روى ابن منده مرفوعاً قال : (خلق الله الأرواح قبل الأجساد بألفي عام)
وللتوسع انظر ما ذكره الشيخ الإمام حول ذلك في كتابه : (الإيمان بعوالم الآخرة ومواقفها) الصفحة ٤٢
[2] هو السيد الشيخ نعسان حموي الفرواتي بن إبراهيم المتوفى سنة ١٤٢٤ هـ رحمه الله رحمة واسعة

ثم لما أراد الشيخ الإمام رضي الله عنه أن يختم المجلس أشار إلى الشيخ نعسان أن يدعو الله تعالى ليؤمّن الحاضرون على دعائه فاعتذر الشيخ مظهراً تقاصره عن ذلك بحضرة مولانا ، ولكن الشيخ الإمام ألح عليه فامتثل الشيخ نعسان الأمر ، ودعا الله بما فتح الله له ، ثم سأل الشيخ نعسان مولانا الإمام أن يدعو الله تعالى فأجابه الشيخ ودعا الله تعالى بصيغ من الدعاء والتضرعات ، وعندما فرغ قال له الشيخ نعسان :

يا سيدي إني لما دعوت الله لم تتجاوز دعواتي سقف الحجرة ، ولكنك يا مولانا حين دعوت شعرت أن الدعوات وصلت إلى عرش الرحمن تبارك وتعالى .

فقال شيخنا الإمام كعادته : اللهم استرنا ، اللهم استرنا

ثم أطرق قليلاً وقال له على سبيل المؤانسة والملاطفة :

مثلي ومثلك يا شيخ نعسان في العطاء والنفع كمثل ماء يتدفق من أنبوبين ، أحدهما كالصنبور المعروف ، والآخر عريض الفوهة كالذي يوضع في البساتين ليملأ البرك ويسقي الأراضي ، فلو أنك أردت أن تستقي من ماء الصنبور لزمك أن تستعمل وعاء صغيراً لذلك ، أما لو جئت بنفس الإناء ووضعته أمام ذلك الأنبوب الكبير الذي يضخ الماء بقوة لدفع الماء الإناء ورماه بعيداً ، وما استقيت من الماء شيئاً ، فيتوجب عليك حينئذ أن تستعمل إناء كبيراً يتناسب مع ذلك الأنبوب .

فأنت كالصنبور في عطائك ، وأنا كالذي يضخ الماء المتدفق بقوة ، فمن أراد أن يأتيني فليأت بإناء كبير - أي بقلب واسع كبير - .

وهنا تبسم الشيخ نعسان وبانت على وجهه علامات الرضا ، وأخذ الحاضرين من المهابة والجلال ما أخذهم ، وربما دمعت أعين بعضهم .

قلت : ومما يجدر ذكره في هذا المقام أن أذكر ما جرى بيني وبين الشيخ نعسان فرواتي عام ١٤٠٩ هـ ، عندما أُصبت بمرض أعيا الأطباء علاجه ، وأشار علي مولانا الوالد بالذهاب إلى الشيخ نعسان، وطلبِ القراءة والدعاء منه ، فذهبت بصحبة أخي الشيخ محمد نجيب وبعض أصحاب الوالد رضي الله عنه إلى منزل الشيخ في حي الفرافرة قرب جامع الهندي ، ولما دخلنا على الشيخ أطال الترحيب وأظهر الحفاوة والبشر والسرور بقدومنا ، وبعد أن سألنا عن صحة مولانا الوالد وأخباره ذكرت له ما أمرني به الشيخ الإمام فبكى الشيخ وقال : أنّى لي ذلك وأنت شيخي وابن شيخي وسيدي وابن سيدي ، وهل يصح للخادم أن يرقي ابن سيّده ؟!

ثم تابع كلامه فقال :
لقد فعل والدك رضي الله عنه كما فعل أحد كبار الصالحين لما أتاه مريض يطلب الرقيا ، فأشار عليه أن يذهب إلى بيت قريب ، فيه رجل من المسرفين على أنفسهم ويطلب منه الرقيا له ، فبعد أن طرق الرجل الباب وسأله صاحب الدار عن مراده أصابته الدهشة والذهول ولكنه استجاب وقرأ للرجل وكان الرجل الصالح حينها يدعو الله تعالى أن يشفي الرجل الذي طلب الرقيا ويهدي المسرف فأجاب الله تعالى دعاءه وحقق رجاءه ، إذ شفي الرجل المريض واهتدى المسرف ، ولم يدْرِ أحد أن السر في ذلك هو دعوة الولي الصالح الذي ما برح يدعو الله تعالى للرجلين طيلة تلك المدة .
واستأنف الشيخ نعسان كلامه قائلاً :
(أمتثل أمر والدك الكريم وأرقيك بإذن الله) ، ثم قرأ لي وأوصاني بالدعاء له والسلام على سيدي الوالد ، راجياً نظراته وبركاته .....
رحمه الله رحمة واسعة إذ لا يعرف الفضل إلا ذووه . اهـ
وكتب إلى شيخنا الإمام الشريف حمزة الإدريسي الحسني كتاباً فيه :
بسم الله الرحمن الرحيم
وصلى الله على سيدنا محمد وآله
حضرة صاحب العلم والفضيلة وينبوع الشيم العاطرة والأخلاق الجليلة العلامة الألمعي الداعية النبيل اللوذعي [1] الشريف الأصيل أخينا في الله سيدي عبد الله سراج الدين حفظك الله ورعاك بجاه الرسول الأمين صلى الله عليه وسلم .
سيدي الكريم : السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته وإكرامه وتحياته ، وبعد : فأحيط جنابك المحبوب علماً بأن كتابك المبارك العظيم - وهو كتاب سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم - قد وصلني مع الشريف الذي أرسلتموه إلي بالدار البيضاء ابن عم السيد ظاهر البغّال .
جزاك الله يا أخي الجزاء الأوفى ، وأبقاك الله للإسلام ذخراً وفخراً ، وتقبّل الله عملك ، وبلّغك سؤلك وأملك ، ولعمري إنه لكتاب عجيب ، حامل سيرة وشمائل سيدنا الرسول الحبيب ،

---

[1] الألمعي : هو الذي إذا لمع له أول الأمر عرف آخره ،مأخوذ من اللمع وهو الإشارة الخفية والنظر الخفي - انظر لسان العرب - .
واللوذعي هو المتوقد الذكاء ، مأخوذ من التلذع وهو التوقد - انظر المخصص لابن سيده - .

إنه لكتاب يبرهن على ما آتاكم الله من مواهب علمية ، وما خُصّصتم به من معرفة وعبقرية ، يبرهن على ما لديكم من طول الباع في علوم حديث سيدنا الرسول المطاع صلى الله عليه وسلم .

دمتم ودام عزكم بالله ، والسلام .

أخوكم في الله تعالى : الشريف حمزة الإدريسي الحسني

الدار البيضاء - المغرب

حول كمال أدبه ولطافته رضي الله عنه

لقد شهد كل من كان يجالس شيخنا الإمام رضي الله عنه شهد بأدبه في جميع أقواله وأفعاله وتصرفاته في كل مجال ، ومن ذلك : أدبه مع شيوخه ، وأخص بالذكر منهم سماحة مفتي السادة الشافعية بحلب العلامة الأصولي الفقيه الشيخ أسعد العبجي [1] رحمه الله تعالى .

قال بعض أهل العلم والفضل من أساتذة المدرسة الشعبانية :

شهدت شيخنا الإمام عدة مرات يقبّل يد الشيخ أسعد العبجي أيام كان يدرّس مادة الأصول في المدرسة الشعبانية ، وأيام زيارته لها بعد أن توقف عن التدريس لتقدم السن به .

وشهدت منه هذا المشهد العجيب في يوم من أيام الربيع ، والوقت في أول ضحوة النهار ، والشمس لطيفة الحرارة ، جاء فضيلة المفتي أسعد العبجي إلى المدرسة زائراً ، وكان شيخنا الإمام وقتئذ حاضراً فأعددنا كراسي للجلوس في صدر ساحة المدرسة قبل المدفن ، وكنا أربعة :

شيخنا الإمام جلس كعادته مستقبل القبلة ، وعن يساره فضيلة الشيخ أسعد ، وأمامه أحد طلاب المدرسة وخريجيها وكنت عن يمين سيدي الشيخ وكان الشيخان يتحادثان فلم يرعني ويدهشني إلا حركة لطيفة من شيخنا الإمام رضي الله عنه - كشأنه في حركاته كلها -

يشير بإصبعه المسبّحة للأخ الطالب أن يحوّل قدميه عن ظل فضيلة الشيخ أسعد رحمه الله تعالى ورضي عنه فعجبت جداً من هذه اليقظة وهذا الانتباه وهذا الأدب منه رضي الله عنه . اهـ .

وزاره مرة مساء أحد المحبين الصالحين ، فلما أقبل عليه سلم عليه وقال له : صبّحك الله بالخير .

فعجب شيخنا الإمام رضي الله عنه من كلامه ، إذ إن الوقت يقتضي منه أن يقول : مسّاك الله بالخير.

لكنه علم أن محبة ذلك الرجل حملته على ذلك وأنشد الرجل هذه الأبيات [2]:

صبّحته عند المساء فقال لي   أتهزا بقدري أم تريد مزاحا
فأجبته إشراق وجهك غرّني   حتى توهّمت المساء صباحا

---

[1] هو الشيخ محمد أسعد بن الحاج أحمد بن الحاج سعيد العبجي الأصولي اللغوي والنحوي المتمكن المتوفى سنة ١٣٩٣ هـ والمدفون في مقبرة الشيخ سعود رحمه الله

[2] وقال الشيخ الإمام رضي الله عنه : وكانت هذه الأبيات في ذاكرتي من أيام الطلب : أي : طلب العلم - وهي موجودة في كتب اللغة العربية .

وكان من عادة الشيخ الإمام رضي الله عنه أنه إذا جلس في المدرسة الشعبانية أن يجلس في غرفة الإدارة ، ليستقبل من يفِد إليه يبتغي جواباً عن سؤال شرعي لديه ، إذ إن الشيخ لا يقبل إلا الأسئلة الشرعية حصراً ، أو التماس بركاته ودعواته .
وكان من ديدنه رضي الله عنه أنه لا يخلو بامرأة أبداً ، وإن جاءت امرأة بسؤال شرعي استدعى أبا عبد الله أحْمَدو - الذي كان يعمل في جباية أموال الجمعية - ليجلس في غرفة الإدارة معه .
وذات يوم جاءت امرأة وطلبت الإذن بالدخول على الشيخ ليبين لها أمراً شرعياً ، فدخلت ومعها أبو عبد الله أحمدو الجابي حرصاً من الشيخ على عدم الخلوة بامرأة أجنبية ، وعندما قرأ الشيخ ورقة السؤال التي كان فيها :
(سيدي الشيخ أرغب منك أن تتزوجني)
هنا بانت لمحة من كمال أدب الشيخ ولطفه ولباقته إذ طلب من أبي عبد الله أن يحضر كتاب (الصلاة في الإسلام) والذي هو من تأليفه رضي الله عنه ، ثم طوى الورقة ووضعها في الكتاب وقال لها :
سوف تجدين جواب سؤالك في هذا الكتاب
ودعا لها الشيخ الإمام رضي الله عنه بالتيسير والبركة والخير ، فانصرفت راشدة ولم يعلم أحد من الحاضرين وقتئذ ما كان سؤالها ولم يُدر حتى الآن من هي .

حسن ظنه بالمسلمين عامة

قلت : حصل عام ١٤٠٧ هـ أن اعتدى على بيتي سارق ، وكنت خارج المنزل تصحبني زوجتي وابني عبد الله وكان صغير السن ، وكان حظّ السارق من بيتي حليّ زوجتي بأكمله .
وقد كان وقع الحدث عظيماً في نفسي ونفسها ، لأن حليها كان ذا قيمة واعتبار معنوي ومادي ، وبعد يومين صحبتُها إلى منزل مولانا الوالد رضي الله عنه ، ولما دخلنا عليه وسلّمنا وقبلت يده جلسنا أمامه فنظر إلينا مبتسماً وقال لزوجتي : سامحيه واعفي عنه – يقصد السارق - فكم من حاجة قضاها بهذا المال الذي أخذه منك .
ولم نسمع منه كلام الذم والقدح فيه أو اللعن والشتم على ذلك السارق ، بل إنه حوّل الأمر إلى مفهوم الصفاء والنقاء ، إذ إن السارق ربما فعل ذلك بسبب ضيق شديد في معيشته أو دفعاً لكارثة حلّت به [1]
ولم يكن كلام الشيخ الإمام رضي الله عنه من قبيل المجاملة أو التسلية ، وإنما كان هذا اعتقاده في المسلمين بمقتضى صفاء قلبه وسمو نفسه وروحه وترفّعه عن كل ما يشين .
قلت : ونظير هذا ما كنا نسمعه منه عن الشيخ إسماعيل اللبابيدي الكبير الذي كان الشيخ محمد نجيب رضي الله عنه يصفه بالعلم والزهد وعلو الهمة ويثني عليه ، مع أنه لم يدركه ولكنه سمع عنه الكثير بحكم كونه من سكان حيه ، والشيخ إسماعيل دفين مقبرة الشيخ سعود[2] رضي الله عنه ورحمه رحمة واسعة .
والذي قد بلغ من حسن ظنه بالمسلمين أنه لما فرغ مرة من درسه في جامع العثمانية وأراد الخروج من الجامع بادر بعض أصحابه للبحث عن نعل الشيخ فلم يجده ، وسمع الشيخ منهم مَن يقول : مَن سرق حذاء الشيخ ؟ فغضب الشيخ ونهاهم عن هذا الكلام قائلاً :
لعلي جئت حافياً إلى المسجد ، ونسيت أن أبلغكم ذلك

---

[1] ولا يُفهم من كلام الشيخ إباحة السرقة لمن ألمّت به ملمة أو نزلت به نائبة ، فإن الشارع أباح للمضطر الفاقد أن يسرق ما يدفع عنه الموت جوعاً أو عطشاً ، وأما كلام الشيخ فينصرف إلى حال الكمال والتسامح لعلّ من حدثته نفسه بالسرقة أن يتراجع عنها .
[2] الشيخ سعود بن صالح آل جزماتي ولد سنة ١٢٢٥ هـ وتوفي سنة ١٢٩٥ هـ وسميت المقبرة باسمه رحمه الله

متأسفاً من أن يوصف مؤمن بأنه سارق [1] ، خاصة وأن الرجل دخل الجامع وحضر درس الشيخ ، وبيّن رضي الله عنه أنه لا ينبغي أن يقال :
(سرق فلان) ، والحال أنه منسوب إلى الإيمان .
وهذا الصفاء والنقاء وصف الأكابر والأتقياء والأنقياء الذين لا يؤذون الذر ولا يضمرون الشر .

[1] قلت : وإن كان هذا حاصلاً فإن حسن ظن الشيخ بالذي فعل ذلك أنه إنما فعله لحاجة وضرورة ملحة وبذلك يخرج عن دائرة الإثم وهذا ما عناه الشيخ رضي الله عنه .

حول كمال أدبه ودقة ملاحظته وحسن ذوقه

إن الأدلة على ذلك كثيرة تتجلى في الوقائع التي شهدها من اجتمع به رضي الله عنه ، فكان في مجلسه يُنزل الناس منازلهم ، وإذا ضاق المكان بالحاضرين أشار إليهم أن تفسّحوا بأن يتقرب أحدهم من الآخر ، وربما أجلس أحدهم على أريكته الخاصة به ، ويلتفت هذا الجالس بكليته إلى مولانا الشيخ ، حيث كان مولانا الإمام في السنين الأخيرة من حياته المباركة يسند ظهره إلى أريكته فيقول للجالس : (اجلس هنا فهي) - أي : جلستك في طرف الأريكة - (وإن كانت غير مريحة لكنها ربّيحة) ، ملاطفاً مؤانساً مرحّباً بالحاضرين كلهم ، يقول : (مرحباً يا شباب) ، ولا يدَع أحداً إلا نظر إليه أول جلوسه ثم في أثناء حديثه إليهم ، ويقول : (وإن كان فيكم شباب وشيب في السن ولكنكم جميعاً شباب في طاعة الله إن شاء الله) .
ويشير إلى شبوبية القلب وحيويته وقوته في عبادة الله وطاعته .
وكان من جملة مؤانسته لجلاسه أنه إذا رأى أحد الزائرين يصطحب معه ولداً له ليعرّفه عليه ويدعو له طالباً بركته ، يدعو له مولانا ويقول لأبيه إذا كان الولد صغيراً : (تراه جَدّاً إن شاء الله) أي جاداً قوياً شاباً متمتعاً بنشاط وحيوية الإيمان .
وإذا كان الولد بالغاً راشداً يقول مولانا له :

بِأَبِهِ اقتدى عديّ في الكرم ... ومن يشابه أبه فما ظلم

قلت : وهذا من شواهد اللغة التي يؤتى بها للاستدلال على أن الأسماء الخمسة قد تجري عليها حركات الإعراب - وهي إحدى اللغتين في الأسماء الخمسة ، واللغة الثانية إعرابها بالحروف -[1]. اهـ .
ومن مظاهر لطفه وحسن أدبه ودقة ملاحظته :
أنه كان من عادته رضي الله عنه - حين يدخل المدرسة الشعبانية ويجلس في غرفة الإدارة ويستقبل المدرّسين ويسمع منهم ويجيبهم ، ثم ينهض لتفقّد أحوال الطلاب في صفوفهم أثناء الدرس - كان لا يدخل الصف فجأة - أي لا يفاجىء الطلاب بدخوله عليهم - بل يمر على جميع الصفوف ولا ينظر إليهم ، إلا أنهم يرونه من نوافذ الصفوف أو أبوابها ، ثم يعود ثانية ويدخل الصفوف صفاً صفاً ، ويتعهد الطلاب بتوجيهاته وتوجهاته ونصائحه ومواعظه ويحضهم على الجد والمطالعة والاجتهاد .

---

[1] للتوسع انظر شرح ابن عقيل ١/٥٠

ولو تفكّر أحد في تصرفه هذا لرأى فيه حكمة سامية ، حيث لم يكن الشيخ الإمام يدخل الصف مباشرة دون علم الطلاب لئلا يراهم على حالة هم يكرهون أن يراهم عليها ، لكنه بمروره على الصفوف يُشعرهم أنه سيَقدم عليهم بعد حين ، خاصة أنهم كانوا في غاية الحرص على التزام كامل الأدب معه ، فربما أصلح أحدهم عمامته ، وربما اعتدل آخر في جلسته ، وربما خفض أحدهم صوته بقراءة الدرس المقرر عليه وهكذا .. اهـ .

وكان في تذكيره في النهي عن الغيبة المحرمة يعرّض بذلك تعريضاً لا صراحة ، حسب ما يقتضيه حال الحاضرين .

وأذكر مرة أننا كنا أمام مائدة الطعام ، وجاء ذكر فلان بكلام غير لائق فانتبه الشيخ رضي الله عنه وتبسّم ونظر في الطعام وقال :

(يظهر أن اللحم في الطعام قليل حتى بدأتم بأكل لحم فلان)

ففهم الحاضرون وكفّوا عن كلامهم .

قلت : وفي هذا إشارة لطيفة منه رضي الله عنه إلى قوله تعالى :

{ وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ }

وحضر مرة عام ١٤٠٦ هـ عقد زواج ـ بعد أن ألح عليه ولي الزوج وهو من أحباب الشيخ الإمام رضي الله عنه ـ وكان مما يتضمنه مجلس العقد قصائد وأناشيد دينية في مدح السيد الأعظم صلى الله عليه وسلم تؤديها فرقة إنشاد ، فلما فرغ مندوب المحكمة الشرعية من إجراءات كتابة العقد وتسجيله أخذ شيخنا الإمام بالدعاء ، وخصّ الزوجين بدعاء لهما بالسعادة والكرامة ، فلما فرغ بادر أحد المنشدين إلى الإنشاد بقوله :

شتتوني في البوادي   أخذوا مني فؤادي

وجعل يرددها

ـ ومطلع هذه القصيدة :

يا حادي سر رويدا   وانشد أمام الركب ـ

فنظر إليه الشيخ متعجباً ومنكراً ، وأشار إليه أن توقّفْ عن هذه ، واشرع في غيرها ، فشرع المنشد رديف على الفور بأنشودة مطلعها :

ما مدّ لخير الخلق يدا   أحدٌ إلا وبه سعدا

فلذاك مددت إليه يدي   وبذلك كنت من السُّعَدا

فنظر إليه الشيخ متبسماً وبانت على وجهه علامات الرضا .

ولما فرغ من الإنشاد قال الشيخ الإمام للمنشد الأول :

(نحن في مجلس جمع وهو عقد قِران ـ أي زواج ـ نجمع فيه بين اثنين بشرع الله ، ولا ينبغي في مثل هذه المجالس أن يؤتى بألفاظ مشتبهة غامضة المعنى ، وينبغي إعطاء كل مقام مقاله) . اهـ .

ولم يقل شيخنا الإمام هذا اعتراضاً على هذه القصيدة فقد نظمها محب يعبّر عن هيامه في محبوبه ، ولكن الإتيان بها في مثل هذه المجالس غير مستحب ، باعتبار أنها تتضمن معاني التشتت وهي من أحوال المحبين ولا يناسب ذكرها في هذا المجلس لكيلا تفهم على غير وجهها الصحيح ، وأما في الحفلات العامة فلا حرج ، فانظر إلى دقة ملاحظته رضي الله عنه وكان الشيخ الإمام رضي الله عنه ينبه المنشدين إلى أن يأتوا بقصائد في مدح النبي صلى الله عليه وسلم ألفاظها بيّنة ومعانيها واضحة ، خاصة في الحفلات العامة ، وأما في مجلس خاص حاضروه من أهل الفهم والتذوق فلا حرج أن يؤتى بأبيات فيها معاني المحبة وإشارات ورموز المحبين لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم ، وقد تكون في أبياتهم كنايات عن معان أرادوها ، فقد كنوا بـ (سعدى وليلى ومَيّ) غيرة منهم على محبوبهم حتى قال قائلهم [١] :

سترت اسمكم غيرة ها أنا — أموّه بالشعب والمنحنى

وهو كقول بعضهم :

فيا جيرة الشعب اليماني بحقكم — صِلوا أو مروا طيف الخيال يزور

وقول الآخر :

يا عُربَ وادي النَّقا طالَ المَطالُ بِنا — غِبْتم أطلْتُمْ حَناناً رَحمةً عودوا

وكقولهم :

ولع الحب بقلبي والحشيّ — وسباني ما سبا هنداً ومَيّ
يا خليلي آهُ من حرِّ الجوى — قد توالى تلفي فاحنن علي
آلَ وادي المنحنى طال المدى — ليت لا غُيّبتمُ عن ناظري

فهذه كلها من إشارات ورموز المحبين الهائمين وكناياتهم عن محبوبهم بأسماء مشهورة معروفة ، أرادوا منها غير ما أراد غيرهم من الناس ، يعرف هذا من تتبع أناشيدهم متذوقاً حلاوة المحبة لحضرة الله تعالى ورسوله الكريم صلى الله عليه وسلم .

---

[١] هو سيدي أبو الحسن علي بن عبد الله النميري الششتري ـ نسبة لششتر إحدى قرى وادي آش جنوبي الأندلس ـ صحب سيدي أبا مدين شعيب الصوفي رضي الله عنه وسكن القاهرة مدة ولقي أصحاب الشاذلي رضي الله عنه وزار الشام ، وقد توفي رضي الله عنه في مصر في بعض نواحي دمياط سنة ٦٦٨ هـ وله ديوان

فها هو سلطان العاشقين ابن الفارض [1] رضي الله عنه يخاطب مرة في مناجاته حضرة رب العالمين جل وعلا ، ومرة يتوجه إلى النور الأعظم الذي عرّفه بالله وهو السيد الأعظم صلى الله عليه وسلم ، فيخاطبه هائماً في حبه ، ولا يلتبس ذلك على أهل الصفاء والمحبة والنقاء فهم دائماً في ارتقاء ، ومن ذاق عرف .

وفي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم :

[ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد رسولاً] [2]

وطعم الإيمان بيّنه صلى الله عليه وسلم في حديث آخر بقوله :

[ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان : من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه ، كما يكره أن يقذف في النار] [3]

وكان مما قاله الشيخ الإمام رضي الله عنه في هذا المجال :

أن امرأة دخلت على الإمام الجنيد [4] رضي الله عنه لتشكو إليه أمر زوجها الذي رأى غيرها ويريد أن يطلقها ، فوقفت إلى جانبه وعليها حجابها وجعلت تذكر من حالها فقالت : زوجي يريد أن يتزوج عليّ !!.

فقال: إن لم يكن له أربع جاز أن يتزوج ، فقالت: لو جاز النظر إلى الأجانب - أي غير المحارم - ، لكشفت لك عن وجهي حتى تنظر إلي ؛ فتعرف أن من له مثلي لا ينبغي له أن يتزوج غيري!!

فوقع الإمام الجنيد رحمه الله مغشيّاً عليه!! [1]

---

[1] سيدي عمر بن الفارض سلطان العاشقين ، الحموي الأصل، المصري المولد والدار والوفاة ، العارف المحب، المنعوت بالشرف ، صاحب الديوان المعروف الفائق، والشعر الرائق،، ولد رضي الله عنه فى القاهرة، واشتغل بفقه الشافعية، وأخذ الحديث عن ابن عساكر، وأخذ عنه الحافظ المنذري وغيره،

وتوفي سنة ٦٣٢ هـ وعمره ٥٦ عاماً، ودفن بجوار جبل المقطم فى مسجده المشهوررضي الله عنه ونفعنا به .

[2] صحيح مسلم كتاب الإيمان عن سيدنا العباس رضي الله عنه

[3] صحيح مسلم كتاب الإيمان عن أنس واللفظ له وصحيح البخاري كتاب الإيمان

[4] الإمام الأكبر و العارف الأشهر ، شيخ مذهب الطريقة وعَلَم أعلام هذا الشأن ، أصله من نهاوند ، ومنشؤه بالعراق ، وأبوه كان يبيع الزجاج ؛ فلذلك يقال له: القواريري ، توفي سنة: ٢٩٧ هـ رضي الله عنه ونفعنا به .

فلما أفاق سئل عن ذلك، فقال: كأنّ الحقّ سبحانه يقول:
(لو جاز لأحد النظر إليّ، لكشفت له الحجاب عن وجهي، حتى ينظر إليّ، فيعرف أن مَن له مثلي، لا ينبغي أن يكون في قلبه سواي) . اهـ .
قلت : نعم لقد فَهم من كلامها ما لم تُرده هي مِن وصفها لذاتها ، بل حمل كل كلامها إلى حضرة الجمال المطلق ، فالذي خلق الجمال بأنواعه وأشكاله ، له الجمال المطلق المنزّه سبحانه وتعالى ، فهو سبحانه أحق بالمحبة والهيام به لجماله وكماله المطلق .
وفي الحديث : [إن الله جميل يحب الجمال] [٢]
وفي رواية أنه جل وعلا : [نظيف يحب النظافة] [٣]
أي منزّه عن النقائص والعيوب والآفات .
وهكذا شأن العارفين رضي الله عنهم أن يفهموا المعاني على إطلاقها
ومما سمعناه من الشيخ الإمام رضي الله عنه عن الإمام الجنيد أنه قال : ما انتفعت بشيء - أي : من أبيات المحبة - انتفاعي بأبيات سمعتُها ،
قيل : وما هي ؟
قال : مررت بدرب القراطيس فسمعت جارية تغني من دار فأنصتّ لها فسمعتها تقول :

إذا قلتُ أهدى الهجر لي حلل البلى تقولين لولا الهجر لم يطِبِ الحب
وإن قلت هذا القلب أحرقه الهوى تقولي بنيران الهوى شرُف القلب
وإن قلت ما أذنبت قالت مجيبة وجودك ذنب لا يقاس به ذنب

فصعقتُ وصحتُ ، فبينما أنا كذلك إذا بصاحب الدار قد خرج ، وقال : ما هذا يا سيدي ؟ فقلت له : مما سمعت ، فقال : هي هبة مني إليك ، قلت : قد قبِلْتها ، وهي حرة لوجه الله تعالى ، ثم دفعتها لبعض أصحابنا بالرباط فولدت له ولداً نبيلاً [٤]
قلت : وفي الحديث الذي رواه الطبراني عن أبي جحيفة :
[جالِسوا الكبراء]- أي الشيوخ الذين لهم التجارب وقد سكنت حدتهم وذهبت خفتهم ، لتتأدبوا بآدابهم وتتخلقوا بأخلاقهم ، أو أراد مَن له رتبة في الدين وإن صَغُر سنه – [وسائلوا العلماء وخالطوا الحكماء] .

---

[١] انظر القصة في كتاب : (نزهة المجالس ومنتخب النفائس) لعبد الرحمن بن عبد السلام بن عبد الرحمن بن عثمان الصفوري الشافعي المؤرخ الأديب من أهل مكة ، و نسبته إلى صفورية في الاردن وقد توفي سنة ٨٩٤ هـ رحمه الله
[٢] صحيح مسلم كتاب الإيمان عن ابن مسعود
[٣] سنن الترمذي كتاب الأدب
[٤] انظر شذرات الذهب لابن العماد ٢ / ٢٢٨

ومن هذا الحديث فهم ياقوت العرشي رضي الله عنه [1] لما سأله رجل فقال له : ما بال سوس الفول يخرج صحيحاً إذا دُشّ ، وسوس القمح يخرج ميتاً مطحوناً ؟

فقال : لأن الأول جالس الأكابر فحفظوه ، والثاني صحب الأصاغر فطُحن معهم ولم يقدروا على حمايته [2]

- وذلك لان حبة القمح أصغر حجماً من حبة الفول حسب الظاهر - . اهـ .

وكان من كلام الشيخ الإمام رضي الله عنه في هذا الباب أن العارفين بالله تعالى ينظرون في المخلوقات نظر تبصّر واعتبار ، ولا يقفون عندها ولا يشتغلون بها ، بل يأخذون العِبر ويفهمون الإشارات والرموز .

وفي ذلك يقول بعضهم :

قال لي حسن كل شيء تحلّى   بي تملّى قلت قصدي وراكا

فلا يشغلهم جمال المخلوق وحسنه بل ينظرون إليه ويعبرون منه إلى حسن وجمال خالقه المطلق جل وعلا ، فينظرون إلى المخلوقات والعوالم على أنها كلها علامات دالة على خالقها يُعلم بها خالقها .

ولذا قيل :

فواعجباً كيف يُعصى الإله أم كيف يجحده الجاحد

وفي كل تحريكة وتسكيـــــــنة أبداً له شاهد

وفي كل شيء له آية   تدل على أنه واحد

أي : أنه إله واحد أحد في ذاته وأسمائه وأفعاله جل وعلا .

ومما يحكى في اعتبارهم في الأشياء ما ذكر عن الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي سلطان العارفين رضي الله عنه أنه قال :

نظرت إلى القط كيف يتربص بطعامه، فتراه ساكناً لا تتحرك فيه شعرة ، لكنه يقظ كل اليقظة ثم ينقض بسرعة فائقة إلى ما سخّر الله له من مأكول . اهـ

فاستفاد الشيخ من ذلك في تربّصه وترقبه لأوقات الإجابة والتجليات الإلهية والعطاء والرحمات الإلهية والفيوضات والنفحات الربانية على المتعرضين لها ، أي أن يكون يقظاً تمام اليقظة لاغتنام أوقات القبول والإجابة .

---

[1] سيدي ياقوت بن عبد الله لقبه الحبشي ، اليهرمان ، العرشي ، أصله من الحبشة وسكن الاسكندرية توفي بالاسكندرية سنة ٧٠٧ هـ وفي قول سنة ٧٣٢ هـ رضي الله عنه

[2] انظر فيض القدير للمناوي ٤٥١/٣

وقد قال صلى الله عليه وسلم :
إن لربكم في أيام دهركم نفحات ، فتعرّضوا لها ، لعله أن يصيبكم نفحة منها فلا تَشْقَون بعدها أبداً [1]
وجاءت أحاديث كثيرة في أوقات الإجابة كوقت السحَر ، وما بين المغرب والعشاء ، ودُبُر الصلوات ، وما بين الأذان والإقامة وبعد الأذان ،وغيرها .
فهم يسألون الله خير الدنيا والآخرة وكرامة الدنيا والآخرة .
قال صلى الله عليه وسلم في دعاء طويل :
[اللهم أعطني إيماناً ويقيناً ليس بعده كفر ، ورحمة أنال بها شرف كرامتك في الدينا والآخرة] [2]
وهم يتعرضون لتلك النفحات في تلك الأوقات سائلين الله بجوامع الأدعية التي جاءت عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والابتهالات التي دعا بها السيد الأعظم صلى الله عليه وسلم ، وجاء في فضلها أحاديث كثيرة
قلت : وللتوسع انظر(كتاب الدعاء) لمولانا الوالد رضي الله عنه .
وقال شيخنا الإمام رضي الله عنه :
ومما ذكره الشيخ الأكبر رضي الله عنه أنه استفاد العبر والذكرى من كل شيء في الكون ، وذلك بنظر العاقل المتدبر المتفكر ، فقال :
إنه نظر في شكل وهيئة الميزاب الذي يوضع عند حافة كل سطح ، حيث ينزل غيث السماء على السطح فينساب ويتجمع عند حافة الميزاب ، ثم يفيضه الميزاب على من دونه ، - والميزاب الحجري القديم معروف بشكله المائل وله فوهة بقناة شديدة الميل - فلا يمسك شيئاً لنفسه من كل ما يرِد عليه ، وفي ذلك عبرة وتذكرة للمؤمن أن يكون جواداً معطاء سخياً بكل ما عنده من أنواع الخيرات والأرزاق الحسية والمعنوية .
قال سبحانه :{ ومما رزقناهم ينفقون } فلا يكتمون شيئاً ولا يبخلون بخير .
ومن جهة أخرى فلولا صرف الميزاب للماء لتجمّع على السطح وأضرّ به ، وربما سقط السقف إذا اشتد المطر ، فالميزاب يفرّج ذلك كله بتصريفه للماء ، فهناك من ينتفع بماء الميزاب ، والباقي تبتلعه الأرض في جوفها ، وهناك رجال صلحاء أيضاً يُفزع إليهم عند الحوائج .

---

[1] رواه الطبراني في المعجم الكبير عن محمد بن مسلمة رضي الله عنه ، وقال العراقي في تخريجه أحاديث الإحياء : أخرجه الحكيم في النوادر والطبراني في الأوسط من حديث محمد بن مسلمة ولابن عبد البر في التمهيد نحوه من حديث أنس ورواه ابن أبي الدنيا في كتاب الفرج من حديث أبي هريرة

[2] طرف حديث في سنن الترمذي كتاب الدعوات وصحيح ابن خزيمة كتاب الصلاة عن ابن عباس رضي الله عنهما

روى الطبراني في المعجم الكبير والبيهقي في الشعب وأبو نعيم في الحلية والخطيب في تاريخه عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ: [إِنَّ لِلَّهِ خَلْقًا] - وفي رواية للشهاب القضاعي [1] في مسنده : [عباداً] - [خَلَقَهُمْ لِحَوَائِجِ النَّاسِ ، يَفْزَعُ النَّاسُ إِلَيْهِمْ فِي حَوَائِجِهِمْ ، أُولَئِكَ الآمِنُونَ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ] .

وقال صلى الله عليه وسلم : [هَلْ تُنْصَرُونَ وَتُرْزَقُونَ إِلَّا بِضُعَفَائِكُمْ] [2]

قلت : وفي ذلك مظهر ومجلى لأثر اسم الله (الرؤوف) و (الرحيم) ، فالرؤوف يقتضي دفع الأذى والضرر عن المرؤوف به ، والرحيم يقتضي جلب الخير والمسرة له ، فافهم .

قلت : ومن مفاهيم العارفين الإشارية ما حكي عن الإمام الشبلي [3] رضي الله عنه أنه استظل يوماً تحت شجرة ، وجعل فكره يدور في شأنها كيف تمر بحالات مختلفة ، ففي الخريف تتعرى عن أوراقها ولا يبقى منها إلا الغصون والفروع ، ثم تورق بالخضار آخر الشتاء وتزهر ويحسن حالها ويُسرّ الناظر إليها ، ثم تثمر وتعطي الثمار الطيبة النافعة ، وبينا هو كذلك نادته بلسان حالها :

(كن مثلي فالناس يرمونني بالأحجار وأنا أرميهم بالثمار)

- أي وذلك لمّا يريدون قطف ثمارها –

فقال لها الشبلي بلسان حاله :

(كيف هذا العطاء ومصيرك إلى النار) ؟ - أي لابد يوماً أن تجفّ وييبس أغصانها فتُقطع وتصير حطباً يُحرق ويُصطلى به

فقالت له : (إنما ذلك بميلي للهوى) .

---

[1] هو الإمام أبو عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر بن علي بن حكمون القضاعي المصري المتوفى سنة 454 هـ رحمه الله

[2] طرف حديث في صحيح البخاري كتاب الجهاد والسير عن مصعب بن سعد رضي الله عنه

[3] الإمام أبو بكر الشبلي ، وقد ذكر كثير من مؤرخي الصوفية أن اسمه دلف بن جحدر الشبلي ، بينما ذهب آخرون الى ان اسمه جعفر بن يونس ، وقد روى السلمي هذه التسمية الأخيرة في طبقاته عن أحد معاصريه ، ورأى ذلك مكتوباً على قبر الإمام الشبلي ببغداد ، وقد ولد رضي الله عنه في بغداد وتوفي فيها سنة ٣٢٤ هـ عن سبع وثمانين سنة ، وهو خراساني الأصل

فهي تميل كما يميلها الهواء ، فإذا كانت الريح غربية مالت إلى الغرب ، وهكذا لا تثبت أمام الهواء ، وفي ذلك عبرة للإنسان المؤمن أن يجعل هواه أي محبته ومُشتهى نفسه وميله تابعاً لشريعة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإلا أرداه هواه وأحرقه في النار .
قال تعالى :{ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى }
أي : فتهلك ، وإن الخطاب موجّه إلى سيدنا موسى عليه السلام لأنه موضع خطابات الحق سبحانه ، ونزولِ الوحي عليه ، والمراد قومه عليه السلام .
وقال تعالى :{ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى }
وقال صلى الله عليه وسلم :
[لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به]
وفي رواية : [ثم لا يزيغ عنه] [1] والزيغ هو الميل .
قلت : وأما أنها ترمي الناس بالثمار وهم يرمونها بالأحجار فهذا ما يجب أن يكون عليه المؤمن المتحقق بشعب الإيمان كلها ، وقد حث الله المؤمنين على تحمل الأذى وعدم مقابلة السيئة بمثلها ، ووعد على ذلك أجراً عظيماً ، قال جل وعلا :
{ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ }
وقال سبحانه : { وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ }
وقال تبارك وتعالى : { وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ }
وقال سبحانه : { وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ }
وروى الإمام البخاري في وصف النبي صلى الله عليه وسلم في التوراة - بعد ترجمتها إلى العربية - :
(ولا يدفع السيئة بالسيئة ولكن يعفو ويصفح) [2]
وكان صلى الله عليه وسلم لا يواجه أحداً بما يكره [3]

[1] قال ابن رجب الحنبلي في جامع العلوم والحكم : خرّج هذا الحديث الحافظ أبو نعيم في كتاب الأربعين ، وشرط في أولها أن تكون من صحاح الأخبار وجياد الآثار مما أجمع الناقلون على عدالة ناقليه ، وخرّجته الأئمة في مسانيدهم ، وخرّجه عن الطبراني بزيادة (لا يزيغ عنه) ، ورواه الحافظ أبو بكر بن عاصم الأصبهاني وليس عنده : لا يزيغ عنه .
[2] طرف حديث في صحيح البخاري كتاب تفسير القرآن عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما
[3] رواه ابن أبي الدنيا في مكارم الأخلاق وابن السني في عمل اليوم والليلة

فجدير بالمؤمن أن يحسن لمن أساء إليه ، وأن يعطي مَن حَرَمَه ، ويعفو عمن ظلمه ، ويصل من قطعه ، وكل ذلك من قبيل تحمل أذى الناس ، وينبغي عليه أن يعفو عند المقدرة ، وأن يكظم غيظه ، وهو يستطيع أن ينفذه ، مصداق هذا قوله صلى الله عليه وسلم :

لا ينال عبد صريح الإيمان حتى يصل من قطعه ، ويعطى من حرمه ، ويعفو عمن ظلمه ، ويغفر لمن شتمه ، ويحسن إلى من أساء إليه [1]

وفي الحديث : [يا عقبة ألا أخبرك بأفضل أخلاق أهل الدنيا والآخرة : تصل مَن قطعك ، وتعطي من حرمك ، وتعفو عمن ظلمك] [2]

وروى الإمام أحمد وغيره أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

[من كظم غيظاً وهو قادر على أن يُنْفِذه دعاه الله تبارك وتعالى على رؤوس الخلائق حتى يخيّره من أي الحور شاء] [3]

ومما سمعناه منه رضي الله عنه في هذا السياق - وهو اعتبار العارفين بالأكوان وفهمهم لرموزها وإشاراتها - : أن أحدهم رضي الله عنه مرّ في طريقه على حقول متعددة ، وفيها أشجار متنوعة ، وكان الزمن يوافق تساقط أوراقها على الأرض ، بحيث تبقى كل شجرة عارية من أوراقها إلا الأصفر منها الذابل الذي ينتظر الريح لتحرّكه وتسقطه على الأرض ، أو تسير به حيث انتهت حِدّتها ، ثم إنه رأى شجرة الزيتون في تلك المنطقة ولم يسقط من أوراقها إلا القليل ، وبقي أكثره على خضاره ورونقه فتساءل في نفسه : ما بال تلك الأشجار قد تخلّت عن ثيابها وتعرّت عن وصفها وكأنها تشكو أمرها إلى ربها ، وأما شجرة الزيتون فلم تفعل ذلك ؟

فنادته بلسان حالها :

(لا يغرّنك تساقط الورق فإن قلبي من داخلي قد احترق)

قلت : ومن المعلوم في فن الزراعة أنه في بعض مناطق زراعة الزيتون لا يتساقط إلا القليل من ورقها ولكنك إذا أخذت فرعاً من غصونها وكسرته لرأيت بداخله سواداً .

ففهم العارف من ذلك أنه يجب على الإنسان أن لا يغتر بمظاهر الأشياء ويقف عندها بل العبرة للبواطن ونظافتها وطهارتها .

---

[1] عزاه السيوطي في الجامع الكبير إلى أبي الشيخ ، والديلمى عن أبى هريرة وأخرجه ابن أبى الدنيا فى مكارم الأخلاق

[2] قال السيوطي في الجامع الكبير : أخرجه أحمد وابن أبي الدنيا فى مكارم الأخلاق والطبراني والحاكم والبيهقي فى شعب الإيمان

[3] المسند ١٥٦٧٥ و سنن الترمذي كتاب صفة القيامة والرقائق والورع وسنن ابن ماجه كتاب الزهد عن معاذ بن أنس الجهني رضي الله عنه

روى الترمذي وغيره عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : [كم من أشعث أغبر ذي طمرين لا يُؤبه له لو أقسم على الله لأبرّه منهم البراء بن مالك] [1]
وفي الحديث الذي رواه الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال :
[إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة] [2]

وروى الإمام أحمد وغيره عن علي كرم الله وجهه ورضي عنه أنه قال : أمر النبي صلى الله عليه وسلم ابن مسعود فصعد على شجرة أمره أن يأتيه منها بشيء ، فنظر أصحابه إلى ساق عبد الله بن مسعود حين صعد الشجرة ، فضحكوا من حموشة ـ أي دقة ـ ساقيه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
[ما تضحكون ؟ لَرِجْل عبد الله أثقل في الميزان يوم القيامة من أُحُد] [3]
وفي مسند البزار عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه صعد شجرة يجتني سواكاً من أراك ، فنظر إليه أصحاب رسول الله فعجبوا من دقة ساقيه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
[لَهُما في الميزان أثقل من أُحد]
وروايات الحديث يفسر بعضها بعضاً ورواية تكشف معنى رواية أخرى
ومما قيل في هذا الشأن :

تَرى الرَجُلَ النَحيفَ فَتَزدَريهِ ... وَفي أَثوابِهِ أَسَدٌ مُزيرُ [4]
وَيُعجِبُكَ الطَريرُ فَتَبتَليهِ ... فَيُخلِفُ ظَنَّكَ الرَجُلُ الطَريرُ [1]

---

[1] سنن الترمذي كتاب المناقب ومستدرك الحاكم كتاب معرفة الصحابة والضياء المقدسي في الأحاديث المختارة
والبراء بن مالك بن النضر الأنصاري هو أخو أنس بن مالك رضي الله عنه لأبيه وأمه ، شهد أحُداً وما بعدها من المشاهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان أحد الفضلاء ومن الأبطال الأشداء قتل من المشركين مائة رجل مبارزة .
وذكر ابن عبد البر في (الاستيعاب) أن البراء رضي الله عنه في آخر معركة له أقسم على الله أن ينصر سبحانه المسلمين وأن يلحقه بالنبي صلى الله عليه وسلم ، فنصر الله المسلمين ، واستشهد البراء رضي الله عنه وأرضاه .

[2] صحيح البخاري كتاب التفسير وصحيح مسلم كتاب صفة القيامة والجنة والنار

[3] المسند ٩٢٠ ورواه البخاري في (الأدب المفرد) والضياء المقدسي في (الأحاديث المختارة) .

[4] أي : قوي

فَما عِظَمُ الرِجالِ لَهُم بِفَخرٍ وَلَكِن فَخرُهُم كَرَمٌ وَخَيرُ

ولما سئل الإمام الجنيد رضي الله عنه :
لماذا لا نراك تتحرك حالة الوجد في الذكر كغيرك ؟
فقال : { وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ }. اهـ
يريد أن الاعتبار لإخلاص القلب واحتراقه شوقاً لمحبوبه ،
وإن لم يتحرك الجسم معبراً عن ذلك .
قلت : وهذا وصف أهل الكمال فترى أحدهم يخشع وينكسر قلبه لله تعالى ، ويُرى ذلك على وجهه من اصفرار وفيض دمع ، ولكنه لا يتحرك بجسمه ، ومنهم من تأخذه نشوة المحبة فيطرب لذكر الله تعالى ، ويتحرك بجسمه حركة لا تخل بآداب الشريعة .
وذكر ابن رجب الحنبلي في جامع العلوم والحكم عن سيدنا علي رضي الله عنه أنه وصف الصحابة رضي الله عنهم فقال :
(كانوا إذا ذكروا الله مادُوا كما يميد الشجرُ في اليوم الشديد الريح ، وجرت دموعهم على ثيابهم) .[٢]
وانظر تفاصيل هذا البحث في فصل (فوائد منثورة)
عند كلام الشيخ الإمام رضي الله عنه على بيان معنى
(كلمة الصوفية والفرق بين التصوف العلمي والعملي)
وكان مما سمعناه منه رضي الله عنه في التنبيه إلى عدم الاغترار بالمظاهر والأشكال الحسنة والانشغال بها :
ما حكي عن الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه أنه بينما كان يجلس في المسجد بين تلامذته في بغداد، يحدثهم عن أوقات الصّلاة، دخل المسجد شيخ كبير السن، له لحية كثيفة طويلة، ويرتدي على رأسه عمامة كبيرة، فجلس بين التلاميذ - وكان الإمام ماداً قدميه، لتخفيف آلام كان يشعر بها، ولم يكن هناك من حرج بين تلامذته حين يمد قدميه، فقد كان قد استأذن تلامذته من قبل بمدّ قدميه أمامهم لتخفيف الألم عنهما -.
فحين جلس الشيخ الكبير، شعرَ الإمام بأنه يتوجّب عليه احتراماً لهذا الشيخ، أن يطوي قدميه ولا يمدّهما، وكان قد وَصَلَ في درسه إلى وقت صلاة الصبح، فقال : وينتهي يا أبنائي وقت صلاة الصبح حين طلوع الشمس، فإذا صلّى أحدكم الصبح بعد طلوع الشمس، فإن هذه الصلاة هي قضاء،

---

[١] أي : حسن الهيئة
[٢] رواه ابن أبي الدنيا في كتاب التهجد وقيام الليل ، وأبو نعيم في الحلية والحافظ ابن عساكر في : " تاريخه" ، والدينوري في " المجالسة

وليست لوقتها .
وكان التلامذة يكتبون ما يقوله الإمام ، - والشيخ الكبير الضيف ينظر إليهم - ثم سأل الشيخُ الإمامَ أبا حنيفة هذا السؤال : يا إمام، وإذا لم تطلع الشمس، فما حكم الصلاة ؟
فضحك الحضور جميعهم من هذا السؤال، إلا الضيف ، والإمام الذي قال :
(آن لأبي حنيفة أن يمدّ قدميه) [1]
ولم يقل الإمام أبو حنيفة ذلك للرجل من باب الازدراء والاحتقار ، ولكن لينبهه إلى أن من لبس ثياب العلماء يجب عليه أن ينهل من علومهم ويتأدب بآدابهم ويتخلق بأخلاقهم .
ويضادّ ما سبق ذكره أن رجلاً رثّ الهيئة هزيل الجسم انضم إلى مجلس يقرّر فيه أحد علماء اللغة العربية أنه إذا جاء في كلام العرب ثلاث إضافات فليس هذا من البلاغة والفصاحة في شيء، وجعل يذكر من شعر ونثر العرب ما يؤيد كلامه ، فنظر إليه الرجل وقال :
أيها العالِم ما تقول في بلاغة القرآن الكريم ؟
فقال : لا أبلغَ ولا أفصحَ منه ، وببلاغته تحدى الله العرب في زمن بلغوا فيه غاية البلاغة والفصاحة ، تجلّى ذلك في شعرهم ونثرهم وخطبهم ،
ومع ذلك أعجزهم الله في قرآنه على أن يأتوا ولو بسورة مثله
حتى قال قائلهم - وهو عتبة بن ربيعة - قال لقومه :
يا معشر قريش قد كلّمته - أي كلمت رسول الله صلى الله عليه وسلم - بالذي أمرتموني به حتى إذا فرغت كلّمني بكلام لا والله ما سمعت أذناي بمثله قط ، فما دريت ما أقول له ! [2]
وهنا قال الرجل للعالم : مادام الأمر كذلك ثابتاً فما تقول في قول الله تعالى في سورة يوسف : { وفوق كل ذي علم عليم } ؟
أليست ثلاث إضافات في قرآن فصيح بليغ معجز ؟
فلقد ردّ الرجل على العالم بجواب علمي وعملي فخدش تقرير العالم ، فمهما بلغ العالم من العلم باللغة فهناك من هو أعلم منه ، فما وَسِع العالم بعد ذلك إلا أن ينزل عن كرسي تدريسه ويقدّم الرجل لينفع الناس بعلومه ، فجلس الرجل وسرد آيات من القرآن الكريم تتعلق بالمسألة ،
منها قوله تعالى : { كهيعص * ذكر رحمة ربك عبده زكريا }

---
[1] وقال الشيخ الإمام :
إن هذه القصة إن صح ثبوتها عن الإمام أبي حنيفة رحمه الله فيؤخذ منها العبرة
[2] عزاه السيوطي في الدر المنثور لابن عساكر

فهذه ثلاثة إضافات أيضاً . اهـ .
ومما ذكره بعض أهل اللغة أيضاً أن الأسماء الخمسة إذا جاءت منونة فإنها تُخِلّ ببلاغة الكلام ، وقال مولانا الوالد رضي الله عنه :
كيف هذا وقد قال تعالى :
{ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ }
وإن عليهم أن لا يُنزلوا آيات الله وكلامه على قواعدهم ، وأن لا يقيسوا كلامه سبحانه على قواعدهم ، فهم قد وضعوا قواعد اللغة العربية لأمثالهم ، وقعّدوها لكلامهم ، لا لكلام رب العالمين الذي أنزله بلسان عربي مبين ، أعجز فيه الخلائق بوجوه من الإعجاز لا تحصى ، ومنها :
الإعجاز النصي وما تضمّنه من بلاغة وفصاحة .... اهـ .
ومما يحسن ذكره في هذا السياق أن الشيخ أحمد بن مصطفى المكتبي الكبير [١] - وهو من كبار علماء الفقه الشافعي في حلب - كان ذاهباً إلى بيته فلقيه رجل عليه سيما العلم ، فسلّم على الشيخ متأدباً معه ، ثم أراد الدعاء منه فأثنى على الشيخ وقال له : يا سيدي يا شيخي ادع لي فإني أحب الصالحين ولست منهم [٢] - فذكر التاء بالفتح وهي للمخاطب مع أنها بالضم ، وهي للمتكلم - فقال الشيخ له : نعم يا ولدي أنا لست منهم ، لست منهم ، ادع الله أن يجعلني منهم .
ووقع له مرة أن استفتاه رجل من العامة عن حكم مسألة فقهية فبيّن له الشيخ أحمد رحمه الله حكم الشرع فيها ، واجتهد في إفهامه ، فلما فرغ الشيخ من بيانه أراد الرجل أن يشكره وينصرف ، فتوجّه إلى الشيخ وقال له :
{ سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ }
فنظر إليه الشيخ متبسماً متأسفاً غاضباً وناداه وقال له : هذا الذي قلتَه يُقال عندما نحمد الله بتسخيره لنا المركوبات لنركبها ، فهو سبحانه إذا لم يذلّلها لنا فلا طاقة لنا على إخضاعها وتذليلها للركوب وقضاء الحاجات وبلوغ المنافع عليها ، ويشمل هذا : جميع المركوبات من الدواب والعربات وغيرها مما خلقه ويخلقه الله إلى يوم الدين ،

---

[١] تقدمت ترجمته
[٢] والأبيات هي للإمام الشافعي رضي الله عنه قالها على سبيل التواضع وملاحظة عبوديته لله رب العالمين وتقاصره عن القيام بحق الله عليه :
أحب الصالحين ولستُ منهم ولكني بهم أرجو الشفاعة
وأبغضُ مَن بضاعته المعاصي وإن كنا سواء في البضاعة

فينبغي لك أيها الرجل أن تتعلم الآداب الشرعية فتأتي بالمناسب منها حيثما تتطلبه الحاجة ، ثم أحسن الشيخ وداعه وانصرف . اهـ

فانظر إلى أدب الشيخ وتواضعه ولطافته ، وانظر إلى الجهل الشديد الذي يؤذي الآخرين من حيث لا يشعر الجاهل ، ولذلك قالوا في فضل طلب العلم وشرفه :

تعلّم فلَيسَ المرءُ يولدُ عالماً   وليسَ أخو علمٍ كمن هو جاهِلُ
وإنّ كبيرَ القومِ لا علمَ عندَهُ   صغيرٌ إذا التفّت عليه المحافِلُ [1]

وأما من دخل حضرة العلماء الأولياء والأبرار الأخفياء وهو يرى لنفسه شأناً عليهم وإعجاباً بما عنده فإنهم قد يختبرونه بشيء يعلمه فيُرْتَج عليه ويصغر أمامهم ، نعم يفعلون ذلك علاجاً له ليتخلص من داء الترفع وحب الظهور والتعالي ، وليس ازدراء وانتقاصاً لحقه .

ومن ذلك أن الشيخ محيي الدين اللقاني [2]جاء ليأخذ الطريق من سيدي أبي السعود الجارحي [3]فسمعه يقول :

يظن الناس بي خيراً وإني   لشر الناس إن لم تعف عني

- قالها الشيخ بنصب لفظة : (الناس) في الشطر الأول من البيت مع أن موقعها الرفع للفاعلية -

ففارقه الشيخ اللقاني ساكتاً وقال في نفسه : هذا لا يعرف الفاعل من المفعول ، ثم إنه رأى رؤيا تدل على رفعة مقام الشيخ فجاءه ، فلما رآه الشيخ أبو مسعود قال : الصواب : رفع لفظة الناس ، فقال اللقاني : الله أكبر ، فقال له الشيخ : كيف تطلب الطريق وأنت تفرّ من نصبة وتأتي برفعة ؟ فتاب واستغفر [4]، رحمهما الله ورضي عنهما

---

[1] والأبيات للإمام الزاهد عبد الله بن المبارك رضي الله عنه المتوفى سنة ١٨١ هـ

[2] "اللقاني" نسبة إلى لقانة، قرية من قرى مصر وكان من ذريته ناظم الجوهرة في علم التوحيد وشارحها أيضاً

[3]الشيخ العارف بالله تعالى أبو السعود الجارحي، من مشاهير الصوفية بمصر خلال القرن العاشر الهجري، وهو من أجلّ تلامذة الشيخ شهاب الدين المرحومي، توفي رحمه الله سنة ٩٣٠هـ ، ودفن بزاويته بالكوم الخارج بالقرب من جامع عمرو، في السرداب الذي كان يعتكف فيه، وهو من جملة المشايخ الذين أخذ عنهم سيدي عبد الوهاب الشعراني رضي الله عنهما .

[4] انظر شرح التائية للسيد عبد المجيد الشرنوبي الأزهري المتوفى سنة ١٣٤٨ هـ رحمه الله

وقالوا في هذا الباب :

مَحاضِرُ القَومِ لا تَتْرُكْ بها الأدبا   فإنَّهُمْ لِشُؤوناتِ الخَفا رُقَبا
واحْفظْ فُؤادكَ يا هذا بحضْرَتهِمْ   فَكَمْ رأينا لهُمْ من طَوْرِهِم عَجبا
كم جاءهُمْ جاهِلٌ والذُّلُّ يَصْحَبُه   فعادَ بالعِلمِ والخَيراتِ مُنْقَلبا
وكم أتى بِغُرورِ العلمِ مَجلِسهُمْ   شَخْصٌ فَرُدَّ سَقيمَ الرَأيِ مُكْتَئبا

قلت : وكثيراً ما كنا نسمع من الشيخ الإمام رضي الله عنه أبيات الإمام الشافعي في التواضع أثناء طلب العلم وعدم الترفّع حين التعلم لتحصيل الفائدة :

اِصبِر عَلى مُرِّ الجَفا مِن مُعَلِّمٍ   فَإِنَّ رُسوبَ العِلمِ في نَبراتِهِ
وَمَن لَم يَذُق مُرَّ التَعَلُّمِ ساعَةً   تَجرَّعَ كأسِ الجَهلِ طولَ حَياتِهِ
وَمَن فاتَهُ التَعليمُ وَقتَ شَبابِهِ   فَكَبِّر عَلَيهِ أَربَعاً لِوَفاتِهِ
حياة الفَتى وَاللَهِ بِالعِلمِ وَالتُقى   إِذا لَم يَكونا لا اِعتِبارَ لِذاتِهِ

ويردف كلامه بقوله : قوله (يكونا) فعل تام بمعنى : يوجدا . اهـ

قلت : وقال شيخنا الإمام رضي الله عنه الهائم بحب الله ورسوله ، الذي شغلته محبة الله ورسوله عن نفسه ، قال في آخر أيام حياته المباركة مؤانساً ابني عبد الله وسائلاً إياه :

ما معنى :

طرقت الباب حتى كلَ متني [١]   فلما كلّ متني كلّمتني
فقالت لي أيا اسماعيلُ صبراً   فقلت لها أيا اسما عِيلَ صبري

وكنتُ حاضراً أسمع ، فأيّ باب أراد ؟ وكيف كان طرقه للباب ؟

نعم لقد وقع في قلبي بعد ذلك أن المراد من الباب : الباب الأوحد ، باب الله الأعظم ، وهو سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي قال فيه العارف سيدي محمد البكري رضي الله عنه [٢] :

وأنت باب الله أي امرئ   أتاه من غيرك لا يدخل

لقد لازم مولانا الشيخ رضي الله عنه طرق باب سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ليدخل حضرته صلى الله عليه وسلم ، ويتقرب من رب العالمين قرباً خاصاً فيه النعيم المقيم إلى الأبد .

---

[١] وأهل البلاغة يوردون هذه الأبيات في كتبهم في باب الجناس

[٢] الأستاذ الأكبر الشيخ محمد ابن الشيخ محمد بن أبي الحسن علي بن عبد الرحمن البكري الصديقي الشافعي الأشعري المصري المتوفى سنة ٩٩٣ هـ رضي الله عنه

وفيه إشارة إلى قول سيدي علي وفا في أول قصيدته المشهورة :

سكن الفؤادَ فعش هنيئاً يا جسد   هذا النعيم هو المقيم إلى الأبد

- وهذه الأبيات كانت تعجب مولانا الوالد كما كانت تعجب جدي الشيخ محمد نجيب رضي الله عنهما وكانا يطلبان من المنشد أن يتغنى بها -

لقد كان طرقه للباب طرق الأدباء الظرفاء ، لم يماثله في ذلك أحد ، حيث كانت صورة المواجهة المحمدية الشريفة معلّقة فوق أريكته التي يديم الجلوس عليها ويقول :

عبد بالباب يرتجي لثم الأعتاب   جد بالجواب مرحباً قد قبلناك

لقد طرق رضي الله عنه الباب معنىً ، وذلك بتمسكه بسنة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وحثّه الناس على ذلك في مجالسه الخاصة والعامة ، حتى قال ناعتاً موضوع دروسه :

(انتهى بي المطاف عند باب الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم فحططتُ رحلي عند بابه ولم أجِدْ عنه - يشير إلى بحثه في مواقف سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم مع العالم الذي استمر أكثر من عشرين سنة في جامع بانقوسا يوم الجمعة بعد العصر -

وطَرَقَ الباب بعبادته عبادة العارفين الغارفين من بحر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان يتربص أوقات الإجابة والقبول والعطاء والتجليات الإلهية ، مغتنماً ذلك كله ، ولا يضيع شيئاً منها ، حتى كنا كثيراً ما نسمع منه :

من لي بمثل سيرك المدلّل   يمشي رويداً ويجي في الأول

وجاء في الحديث : [أخلص دينك يكفك القليل من العمل] [1]

وطَرَق الباب بأدب وخشوع طَرْقَ أصحاب الهمم العالية ، فجمع الكتب العلمية الشرعية وكان يفتخر - وحق له ذلك - يفتخر بكتابه :

(سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم) ويأتي بالبيت :

وعلى تفنّن واصفيه بمدحه   يفنى الزمان وفيه ما لم يُوصف

وطرق الباب ظاهراً بأدب وسكينة ووقار ، حيث رأى في المنام أنه واقف على باب سيدنا رسول الله يريد الاستئذان للدخول ، فجعل يطرق الباب برؤوس أصابعه بشكل خفيف وهادىء

- ذكر هذا في البشائر التي رآها وقصها علينا وقد تقدم ذكرها -

---

[1] عزاه في الدر المنثور إلى ابن أبي الدنيا في كتاب الإخلاص وابن أبي حاتم والحاكم وصححه والبيهقي في الشعب عن معاذ بن جبل

وقوله : حتى كلّ متني
أي كبرت سني في طاعة الله تعالى ، ووهن عظمي في عبادته جل وعلا وخدمة شريعته ونصرة رسوله صلى الله عليه وسلم ، حتى قال رضي الله عنه يوماً :
إذا سألني ربي جل وعلا في الموقف : أين أفنيت عمرك ؟
أقول : يا رب في طاعتك - أي في طاعتك علماً وتعليماً وأدباً وعملاً - واغرورقت عيناه بالدموع رضي الله عنه .
وقد جاء في الحديث عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :
[لا تزول قدم ابن آدم يوم القيامة من عند ربه حتى يسأل عن خمس : عن عمره فيم أفناه ، وعن شبابه فيم أبلاه ، وماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه ، وماذا عمل فيما علم] [١]
وكثيراً ما كنا نسمع منه قول سيدنا رسول الله في وصف خير الناس :
[مَن طال عمره وحسن عمله] [٢]
ويردف ذلك بقوله :
(اللهم أطِل أعمارنا في طاعتك وخدمة شريعتك وسنة رسولك صلى الله عليه وسلم) .
ولما شعر بل أُعلم بقرب أجله - وذلك برؤيا منامية أو إشارة غيبية ، والله أعلم - قال : (فلما كلّ متني) أي ضعف جسمي (كلمتني) : الضمير يعود إلى حضرة المحبوب التي لزم طرق بابها
(فقالت لي : أيا اسماعيلُ صبراً) - أي أيا اسماعيل اصبر صبراً بعد صبر ، حتى يُفتح لك الباب فتدخل حضرة الأحباب ، وكلمة (إسماعيل) كناية عن المحب الهائم العاشق الذي لزم طرق الباب لرفع الحجاب وكشف اللثام للقاء الأحباب .
وقوله : (فقلت لها أيا اسما عيلَ صبري)
ناداها بأدب وخشوع : لقد نفد صبري وطال شوقي فهلا أزيلَ عني الحجاب لأحظى بلقاء الأحباب ؟
قلت : وأول لقاء للمؤمن بربه يكون بعد الموت مباشرة كما دل عليه الحديث أن الملائكة تقول لروح المؤمن :
[أبشري بروح وريحان وربّ غير غضبان] [١] أي : بل هو راض

---

[١] سنن الترمذي كتاب صفة القيامة والرقائق والورع
[٢] سنن الترمذي كتاب الزهد

وكم كان رضي الله عنه يفتتح دعاءه في السنين الأخيرة من عمره المبارك بقوله : اللهم صل على سيدنا محمد صلاة ترضيك وترضيه وترضى بها عنا يا رب العالمين ، فإنك قلت :

{ والله ورسوله أحق أن يُرضوه إن كانوا مؤمنين }

وقد بلغ من حسن خلقه وسمو لطفه أنه لم يصرّح بدنو أجله بكلام صريح ، بل ورّى عن ذلك بإشارات خفية تضمنت أقوالاً تحمل معاني سامية ، وأفعالاً قام بها لم ندرك تأويلها إلا بعد وفاته ، فنستذكر أنه قال كذا وفعل كذا ،وأشار إلى كذا ليدل على قرب لقائه بالله تعالى .

وقد وقع في نفسي لما قال رضي الله عنه :

(فقلت لها أيا اسما عيل صبري) - فنادى المحبوب مستجدياً فضله ، مستعطفاً خيره ، مستمطراً رحمته ، مسترفعاً حجاب البين - أي حجاب النفس والنشأة الجسمانية الدنيوية -

وقع في نفسي أبيات كانت تُنشد أحياناً في حلقة الذكر التي كان يديرها من قبل ، وفيها :

وارحْمَتاهُ لِفُؤادٍ مُغرمٍ	مُوَلَّهٍ مُقرَّحٍ مُجرَّحِ
يَسْتَفتحُ الأبوابَ من ذاكَ الحِما	ويلاهُ إن ربُّ الحِما لم يَفْتحِ
يَرومُ قُرْبا من عُلا جَنابِهِ	ويَلْتوي خَجالةً ويَنْتحي
كَفْكَفَهُ الشَّوقُ فغضّ طَرفهُ	لِذَنْبِهِ وقالَ حِبَّاهُ اصْفَحِ
فَشَملتْهُ نَفْحةٌ من جودهِ	قائلةً يا نفْسَ عَبْدنا افْرَحي
وأقفلي الحُزنَ وتيهي طَرباً	وبِفَسيحِ رُحْبنا تَبَحْبَحي
الحمدُ لله ضُحى الوصلِ بَدا	وليلُ أهوالِ الصُّدودِ قَدْ مُحي
ومَنَّ حِبِّي بالمُرَجَّى كرماً	بِحضرةِ الإطلاقِ يا روحُ امرحي[٢]

ومن كمال أدبه مع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عند قراءة قصة مولد ه الشريف صلى الله عليه وسلم أنه كان يحثّ الناس على الإكثار من الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم ، ثم يختم بالدعاء وحث الناس على التزام جوانب الآداب كلها في مجالس تُقرأ فيها أحاديثه الشريفة صلى الله عليه وسلم ، أو قصة مولده الشريف صلى الله عليه وسلم ، أو مدائحه والأناشيد التي تعبّر عن شمائله الحميدة وخصاله المجيدة صلى الله عليه وسلم

---

[١] سنن ابن ماجه كتاب الزهد عن أبي هريرة

[٢] والأبيات لسيدي محمد مهدي بن علي الرفاعي الحسيني بهاء الدين المعروف بـ (الروّاس) المتوفى سنة ١٢٨٧ هـ رحمه الله ورضي عنه ونفعنا به

ـ والتي يؤدّيها المنشدون المادحون جنابه صلى الله عليه وسلم ـ وقد ذكر ذلك رضي الله عنه في كتاب تفسير سورة الحجرات عند كلامه على الآية { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ * إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ } . اهـ .

وحصل مرة عام ١٤٠٥ هـ حفلة مولد النبي الكريم صلى الله عليه وسلم أقامها بعض أحباب الشيخ الإمام بمناسبة حلول شهر ربيع الأنور ، وابتدأ الحفل بقراءة آيات من القرآن الكريم ، ثم أخذ المنشدون بالإنشاد حيث بدأ أحدهم بقراءة ما يعرف بـ (التعطيرة) والتي تتضمن ألفاظها جانباً من قصة مولده صلى الله عليه وسلم ، وذكرِ ما حصل من إرهاصات بعثته صلى الله عليه وسلم وغيرها ، وسميت التعطيرة بذلك لأن الحاضرين يرطّبون ألسنتهم بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم جهراً بين الفينة والأخرى ، وبذلك يزداد المجلس طيباً فوق طيب ، وكأن أحداً يعطّر الحاضرين بألوان الطيب .

ثم لما شرع أحد المنشدين بالتغني بقصيدة يمدح فيها النبي صلى الله عليه وسلم ، وتردَّد معه فرقته ، جعل يضرب بيده على فخذه وبرجله على الأرض ، بشكل يتوافق مع لحن المديح الذي يؤديه وإيقاعه، فأشار إليه الشيخ الإمام أن يكفّ عن ضرب الأرض برجله ، فلم يفعل ، فنهاه مرة أخرى فقال : إنه لا يستطيع الإنشاد إن لم يفعل ذلك ، فتغير وجه الشيخ الإمام واستأذن صاحب الدار للذهاب ، واعتذر منه أن يتمّم المجلس ، ونهض وقام هو وصحبه ، كل ذلك لئلا يجلس في مجلس ذكر وصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم لا تُراعى فيه الآداب الشرعية الواجبة على كل مؤمن . اهـ .

قلت : ولو اطلعتَ على أدب المحدثين عند تحديثهم الناس حديث سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لرأيت منهم ما يدهشك ، فتستصغر نفسك عندئذ معترفاً بالتقصير الشديد .

ففي الحديث عن سيدنا علي كرم الله وجهه ورضي عنه في بيان صفة سيرة النبي صلى الله عليه وسلم مع جلسائه قال :

(وإذا تكلّم أطرق جلساؤه كأنما على رءوسهم الطير)[1]

---

[1] انظر الشمائل المحمدية للإمام الترمذي

أي فلا أحد منهم يتحرك أو يلتفت ، بل كل واحد منهم مُصْغٍ بسمعه كله إلى حديثه الشريف صلى الله عليه وسلم ، وقلبه منجذب إلى معانيه وأسراره . اهـ .

قلت : وكان شيخنا الإمام رضي الله عنه حَسَن المعاملة لأهله وأولاده ، يؤانسهم بذكر آيات الرحمة والرجاء إذا رأى على وجه أحدهم حزناً أو غماً أو شَعَرَ بانشغال فكره ، وربما ذكر بعض الطرائف الأدبية وفيها معان دينية شرعية .

ومن مظاهر ذلك ما أذكره عندما كنت في بدء شبوبية العمر ، وكنا في دار حول القلعة ، فلما كانت أمي - رحمها الله تعالى - تعدّ طعام الغداء أو العشاء مثلاً كانت تنادي الوالد الكريم أولاً ثم تنادينا ، فإذا اجتمعنا على المائدة بدأ والدي بالطعام ثم نبدأ ، ومرة وُضع الطعام ولم يجلس والدي بعد ، وكان أحدنا جائعاً أو أراد سرعة الأكل لحاجة عنده ، فنظر إليه والدي متبسماً وقال له ممازحاً :

وَإِن مُدَّتِ الأَيدي إِلى الزادِ لَم أَكُنُ بِأَعجَلِهِم إِذ أَجشَعُ القَومِ أَعجَلُ

قال ذلك على سبيل المؤانسة والملاطفة ، ولفتِ النظر إلى التزام الأدب مع الوالدين ، فلا ينبغي أن يمدّ الولد يده إلى الطعام قبل والديه وهكذا .

وكم سمعنا منه هذه الأبيات ، ويأتي بها على سبيل الإلغاز ، ويتوجه بذلك إلى الشباب ، ومنها :

وحُرمَةِ الشّيخِ الذي سنّ القِرَى [1] وأسّسَ المحْجوجَ في أُمّ القُرَى [2]
ما عِندَنا لِطارِقٍ إذا عَرا سوى الحديثِ والمُناخِ [3] في الذَّرَى
وكيفَ يقْري مَنْ نَفى عنه الكَرى [4] طوًى برَى أعظُمَهُ [5] لمّا انْبَرى [6]
فما تَرى فيما ذكرتُ ما تَرى

فكان يقول : من هو الشيخ ومن هي أم القرى ؟

- والمقصود بالشيخ هو سيدنا إبراهيم عليه السلام - .

ومن ذلك قوله :

سامِحْ أخاكَ إذا خلَطْ منهُ الإصابَةَ بالغلَطْ
وتجافَ عنْ تعْنيفِه إنْ زاغ يوماً أو قسَطْ

---

[1] أي الضيافة
[2] وهي مكة المكرمة
[3] موضع البروك
[4] النوم
[5] أزال اللحم عنها
[6] اعترض

واحفَظْ صَنيعَكَ عندَه　　　شكرَ الصّنيعَةَ أم غمَطْ
وأطِعْهُ إنْ عاصَى وهُنْ　　　إنْ عَزّ وادْنُ إذا شحَطْ
واقْنَ الوَفاءَ ولَوْ أخلّ　　　بما اشترَطْتَ وما شرَطْ
واعْلَمْ بأنّكَ إن طلبْتَ　　　مهذَّباً رُمتَ الشّطَطْ
منْ ذا الذي ما ساء قطُّ　　　ومنْ لهُ الحُسْنى فقطْ

- وكان رضي الله عنه يضم للبيت السابق ما قيل :
محمد طه الذي　　　عليه جبريل هبط –

أوَمَا تَرى المَحْبوبَ وال　　　مَكروهَ لُزّا في نمَطْ
كالشّوْكِ يبْدو في الغُصونِ　　　معَ الجَنيّ المُلتَقَطْ
ولَذاذَةُ العُمرِ الطّويلِ　　　يَشوبُها نغَصُ الشّمَطْ
ولوِ انتقَدْتَ بَني الزّمانِ　　　وجَدتَ أكثرَهُم سقَطْ
رُضْتُ البَلاغَةَ والبَراعَةَ　　　والشّجاعَةَ والخِطَطْ
فوجَدتُ أحسنَ ما يُرى　　　سبْرَ العُلومِ معاً فقطْ

وكان رضي الله عنه إذا رأى أحدنا مكروباً مهموماً قال له :
إذا تضايق أمرٌ فانتظر فرجاً　　　فأضيق الأمر أدناه من الفرَج
يشير إلى قوله صلى الله عليه وسلم :
[واعلم أن في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً ، وأن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب ، وأن مع العسر يسراً] [١]

[١] طرف حديث في مسند الإمام أحمد ٢٦٦٦ ومستدرك الحاكم كتاب معرفة الصحابة عن ابن عباس رضي الله عنهما

جواره الحبيب الأعظم صلى الله عليه وسلم في المدينة المنورة بأنواره صلى الله عليه وسلم

كان ذلك في شهر ربيع الأنور من عام / ١٤٠٠/ هـ ، وحتى شهر ذي القعدة من عام / ١٤٠٣/ هـ ، فجاور رضي الله عنه في المدينة المنورة ثلاث سنوات وبضعة أشهر .
كان سفره للحجاز لأداء العمرة المباركة والزيارة الشريفة لخير خلق الله سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .
ثم مكث في المدينة المنورة تلك المدة امتثالاً لأمر سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، جاءه ذلك في رؤيا منامية وإشارات غيبية ، إذ لم يكن يُقْدم على أمر ذي بال حتى يأتيه الإذن به من سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .
ولقد كان فرحه وسروره بجوار سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يوازيه شيء ، إذ كان ذلك غايته ومنيته ، وكان إذا سأله أحد من أحبابه عن حاله يجيبه قائلاً :
(الحمد لله الذي أحلّنا دار المُقامة من فضله ، فلا دار بعد دار سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا إقامة تُرجى بعد الإقامة بجوار سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم).
وكان رضي الله عنه يقول :
(إذا كان جار الكرام لا يُضام ، بل يكون في رغد وسلام ،
فكيف حال من جاور سيد الكرام سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم ،
أكرمِ الأولين والآخرين على رب العالمين ؟!).
وقد حرّم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة المنورة ، ودعا لها ولأهلها بالخير والبركة ، ودفع الشدة والبلوى عنها ، ووعد صلى الله عليه وسلم بالشهادة والشفاعة الخاصة لمن جاور فيها أو مات فيها ، كل ذلك جاء في أحاديث وردت عنه صلى الله عليه وسلم .[1]

---

[1] روى الإمام البخاري في صحيحه أن النبي صلى الله عليه وسلم أَشَارَبِيَدِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ، قَالَ : [اللَّهُمَّ إِنِّي أُحَرِّمُ مَابَيْنَ لَابَتَيْهَا كَتَحْرِيمِ إِبْرَاهِيمَ مَكَّةَ،اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي صَاعِنَا وَمُدِّنَا]
وقوله صلى الله عليه وسلم (لابتيها) : هما الحَرّتان ، والمدينة بين حرّتين ،
و (الحَرّة) : الأرض الملبّسة حجارة سوداء ، ويقال : لابة ، ولوبة
وروى البخاري في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال النبي صلى الله عليه وسلم : [اللهم حبِّب إلينا المدينة كما حبّبت إلينا مكة أو أشد،وانقل حُمّاها إلى

وكان رضي الله عنه أيام مجاورته في المدينة المنورة يزوره بعض أحبابه وأصحابه الوافدين من مدينة حلب لأداء مناسك الحج أو العمرة وزيارة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان جلّ حديثه معهم :
النصح والتذكير بالآداب المطلوبة من زوار سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما يجب عليهم فعله في المدينة المنورة ، وفي مسجد سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأثناء زيارته صلى الله عليه وسلم .
ومن ذلك : عدم مزاحمة الناس في المسجد النبوي الشريف ، أو حين التقدّم للتشرف بزيارته والسلام عليه صلى الله عليه وسلم .
وقد أخبرني بعض أهل الصلاح والصفاء أنه سمع من شيخنا الإمام هذين البيتين :

فَزُرِ النبي إن استطعتَ مواجِهاً ... فهواطل الرحمات ثَمّ غِزارُ
ودَعِ التّزاحم إن خشيتَ أذيّة ... فبقاع طيبة كلّهنّ مزار

وقال رضي الله عنه :
ومن لم يتمكن من زيارة النبي صلى الله عليه وسلم مواجهاً فليتوجه إلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث كان ، في أي بقعة من بقاع المدينة المنورة ، وليسلّم على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن ذلك سيبْلغه صلى الله عليه وسلم ويردّ عليه [1] .
ولقد توالت على شيخنا الإمام الكرامات والنفحات الإلهية المحمدية ، مما جعله يترقى في مقامات القرب من الله تعالى ، وتواردت عليه البشائر بالرؤى المنامية ، وعلى لسان المحبين الصالحين من أهل المدينة المنورة وغيرها .

الجُحفة] - وهي الحمّى التي كانت منتشرة فيها قبل هجرة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم إليها -
وروى الإمام أحمد في مسنده عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : [من استطاع أن يموت بالمدينة فليفعل فإني أشفع لمن مات بها] .
وروى الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
[لايصبرعلى لأْواء المدينة وشدّتها أحد من أمتي إلا كنت له شفيعاً يوم القيامة ، أو شهيداً] .
[1] روى الطبراني في المعجم الكبير واللفظ له وابن أبي شيبة في مصنفه وعبد الرزاق في مصنفه عن سيدنا الحسن بن علي رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : [حيثما كنتم فصلّوا علي، فإن صلاتكم تبلغني] .

ولم يرجع شيخنا الإمام رضي الله عنه إلى حلب إلا بعد أن جاءه الإذن من الحضرة المحمدية صلى الله عليه وسلم بالعودة .
وكان يقول :(ذهبت بإذن ، وأقمت بإذن ، ورجعت بإذن ، ونسأل الله تعالى أن يتولانا في جميع قضايانا).
وقد استأنف رضي الله عنه دروسه المباركة بعد عودته ، وجعلت المدرسة الشعبانية تزهو برعايته وعنايته - وإن لم تنقطع توجهاته ودعواته لها وللعاملين فيها طيلة فترة جواره وإقامته في المدينة المنورة - .
وقد اكتَسَتْ مدينة حلب بعودته حلة البهاء والجمال ، وشعر أهلها بالأنس وراحة البال ، بعد أن بسط شيخنا الإمام مائدته فيها وأقبل الناس عليها .[١]
وقال الشيخ الفاضل المحب الأديب الأستاذ بكري رجب [٢]رحمه الله تعالى ، قال يمدح شيخنا الإمام رضي الله عنه بعد أن قدم من العمرة الشريفة والزيارة المباركة :

قدِمت قدوم الغيث في المَهْمَه[٣]الصعب أبا ابن سراج الدين جئت على الرحب
وهلّلت الأصحاب فيك وكبّرت وزالت عن الأحشاء فادحة الكرب
أضاء على الشهباء نورُ سراجه ولاح عليها من سناهُ ضيا الشهب
وعاد عليها خيرها وسرورها بتشريفه يا منيةِ الروح والقلب
فأهلاً وسهلاً فيك ثمّ ومرحباً فلا زلت مرعيّاً على البعد والقرب
وصلّ إلهي دائماً أبداً على رسول الهدى المبعوث للعجم والعرب
وآلٍ وصحب كلما قال قائل قدمت قدوم الغيث في المهمه الصعب

[١] وذلك لأن أحد إخوتي الأفاضل رأى في المنام الشيخ الكبير عبد الرحمن بن الشيخ محيي الدين آل باذنجكي - المتوفى سنة ١٣٥٨ هـ - رحمه الله ، وكان من جملة ما قاله له : لقد عاد الأمان وانتشر الاطمئنان لما قدِم والدك الكريم من المدينة المنورة إلى حلب وبسط مائدته فيها .
[٢] هو الشيخ بكري بن عبد الله رجب البابي الحلبي الفقيه الصوفي توفي رحمه الله سنة ١٣٩٩ هـ
[٣] بالهاء المهملة : الأرض الصحراوية القاحلة .

نسيم الوصل يؤذن بكشف الحجاب ولقاء الأحباب

كان كلامه رضي الله عنه مع أهله وأصحابه في الأسابيع الأخيرة من عمره المبارك يحمل معاني الوصايا والتوجيهات والتنبيهات إلى بعض الأمور والقضايا العائلية الخاصة والعامة ، ولم يكن أسلوبه في الكلام يُشعر أحداً بقرب أجله أو غير ذلك ، بسبب رِقّته رضي الله عنه ولطفه العجيب .
ولم يغفل يوماً عن كلمات الرضا والتسليم وتفويض أمره كله إلى الله تعالى ، وكانت وفاته رضي الله عنه عشية الاثنين في العشرين من شهر ذي الحجة سنة /١٤٢٢/ من الهجرة الشريفة .
وقد حصلت أيام مرضه ووفاته من العجائب والكرامات ما يصعب علينا ذكرها ويضيق بنا المجال لاستقصائها
ومن ذلك : أن أحد الأطباء - الذين كانوا يشرفون على العناية بشيخنا الإمام رضي الله عنه والرعاية الصحية به ، وقد قدم من بلد آخر لهذا الغرض ، جزاه الله خير الجزاء - هذا الطبيب الماهر لفت نظره بيتان من الشعر كُتِبا على فراش شيخنا الإمام رضي الله عنه من الجهة اليمنى قريباً من رأسه المبارك وهما :

ولو كانت الدنيا تدوم لأهلها　　　رأيت رسول الله فيها باقيا
ولكنها تفنى ويفنى نعيمها　　　ويلقى المحبّون المهيمن راضيا [1]

وقد استحوذ ذلك على إعجاب ودهشة الأطباء والحاضرين ، إذ لم يتيسر لأحد أن يمدّ يده لملامسة شيخنا الإمام رضي الله عنه فكيف حصل ذلك ؟!
وفي هذا نعي لشيخنا الإمام بأمر القدرة الإلهية على يد أحد من الصالحين من عباد الله تعالى .
وقد أخبر أحد الصالحين من أهل المدينة المنورة أنه رأى حضرة النبي صلى الله عليه وسلم في المنام وهو ينعى شيخنا الإمام لأهل البرزخ .
وقد أخبرنا أيضاً بعض الصالحين أنه كلما توجّه إلى الله تعالى داعياً بشفاء شيخنا الإمام رضي الله عنه رأى شيخنا الإمام بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ،قال : فكيف أطلب من هو في الأحضان المحمدية يحيا وينعم ؟!
ولا غرو في ذلك فإن لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عطفاً وحناناً وعناية خاصة بأحبابه المتقين في جميع العوالم .

---

[1] هكذا وجد مكتوباً على فراش شيخنا الإمام رضي الله عنه علماً أن البيت الثاني يُذكر أحياناً بهذا اللفظ :

ولكنها تفنى ويفنى نعيمها　　　وتبقى المعاصي والذنوب كما هي

وقد قال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل رضي الله عنه لمّا أرسله والياً إلى اليمن قال له وهو يودعه :

[إن أولى الناس بي المتقون مَن كانوا وحيث كانوا [1]] .

ولا يخفى على كل مؤمن قول الصحابي الجليل سيدنا بلال رضي الله عنه وهو على فراش الموت - وقد رأى مِن أهله الحزن والبكاء - فأنكر عليهم وقال :

(واطَرَباه ، غداً ألقى الأحبّة محمداً وصحْبه).[2]

وقد رأى سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم في المنام قبل أن يستشهد - وكان رضي الله عنه صائماً - فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم :

(تفطر عندنا الليلة).[3]

ولله در القائل :

عليكم وإلا فالبكاء مضيع   وفيكم وإلا فالرجاء قطيع
وعنكم وإلا فالأحاديث ضلّة   ومنكم وإلا فالنوال وضيع

قلت : وقد صُلّي على الشيخ الإمام رضي الله عنه في جامع سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما الواقع جهة الشمال من حلب ، وحضر الصلاة مئات الآلاف من أهالي حلب وغيرهم، ممن جاء للصلاة عليه ووداعه رضي الله عنه ، وكان يوم دفنه الثلاثاء بعد صلاة العصر يوماً حزيناً شديداً على كل من أحبّه ، بل على كل من سمع به ، ولم يكن عزاؤهم إلا أن يذكروا قضاء الله في خلقه ، وتعليمه لنا في المصائب قوله جل وعلا :

{ الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون }

وأن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عزّى أمته في مصائبهم بقوله :

[لِيُعَزِّ الناسَ في مصائبهم المصيبةُ بي[4]] .

---

[1] الحديث في مسند الإمام أحمد ٢١٠٤٠ وصحيح ابن حبان كتاب الرقائق

[2] انظر الشفا للقاضي عياض والرسالة القشيرية والسيرة الحلبية

[3] روى الإمام أحمد في مسنده عن نائلة بنت الفرافصة امرأة عثمان بن عفان رضي الله عنه قالت : نعس أمير المؤمنين عثمان فأغفى ، فاستيقظ فقال : ليقتلنني القوم قلت : كلا إن شاء الله ، لم يبلغ ذاك ، إن رعيتك استعتبوك ، قال : إني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في منامي وأبا بكر وعمر رضي الله عنهما فقالوا :
تفطر عندنا الليلة
ورواه ابن أبي شيبة في مصنفه والبزار والطبراني وابن شاهين في السنة بألفاظ متقاربة .

[4] رواه الإمام مالك في الموطأ .

كما صُلّي عليه في جامع المدرسة الشعبانية ، صلّى عليه كل من تمكن من الوصول إليها ، لأنه تعذر على الناس تشييع الجنازة إلى الشعبانية بسبب ازدحامهم وتدافعهم ، ولم يدْرِ أحد كيف وصلت الجنازة إلى جامع الشعبانية كما صُلّي عليه رضي الله عنه في الحرمين الشريفين صلاة الغائب .
وأجمع أهل الحجاز وعلماء الهند والباكستان على تسميته :
(إمام المسلمين وكبير أولياء الأمة المحمدية في هذه الفترة الزمنية) . اهـ .
وقد ظهر أثر حديث سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لمّا أخبر عن الجنازة أنها تقول : [قدِّموني قدِّموني] [1]
ظهر أثره جلياً في وصول الجنازة إلى الشعبانية بطريقة خفية سريعة ، ولم يتمكن المشيعون من اللحاق بها رغم بذلهم الجهد الكبير في ذلك .
وقد حصل بعد دفنه عجائب كثيرة أدهشت الحاضرين وألقت عليهم لوناً من السكينة ، منها :
أن ثلاثة من الطير جاءت ووقفت أعلى النخلة الطويلة المشرفة على المزار ، وجعلت تنوح بلحن غريب ذي شجون ، وكانت تقْدم إلى المكان عند غروب الشمس ، وتفارقه عند طلوع الفجر ، وبقيت على ذلك أربعين يوماً من وفاة الشيخ الإمام رضي الله عنه ثم رحلت .
وقد دُفن شيخنا الإمام رضي الله عنه في المدفن الوقفي لجامع المدرسة الشعبانية بناء على وصيته ولِما لها من منزلة عنده ، وقد ازداد المكان بهاء وجلالاً وأنواراً بمرقد شيخنا الإمام فيه ، ويشعر الزائر له بالأنس والسكينة ، وكأنه في روضة جِنانية ، وهذا هو شأن عباد الله المتقين المخلصين المحبين لله تعالى ولرسوله الكريم صلى الله عليه وسلم .
وإني أسأل الله العظيم رب العرش العظيم بجاه رسوله ذي القدر العظيم صلى الله عليه وسلم أن يرفع مقام شيخنا الإمام في أعلى المقامات ، وأن يُعلِي منزلته في أعلى الدرجات ، وأن يجمعنا معه في الحضرة المحمدية في جملة الأحباب
{ مع الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا * ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا}
وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون .
{سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } .

[1] طرف حديث في صحيح البخاري كتاب الجنائز

رثاء وثناء

ويحسن بنا في هذا المقام أن نذكر أبياتاً نظمها الأستاذ الفاضل الشيخ محمد خير الدين اسبير رحمه الله تعالى يرثي بها حضرة العلامة الكبير العارف الشهير الشيخ محمد نجيب سراج الدين رحمه الله ورضي عنه :

مولاي من سحب العلى أغدق على
شهم به تسترشد العلماء

فهو النجيب سراج هذا الدين من
بِسَنا هداه تَنْجب النجباء

عَلَمٌ بتوحيد الإله تفقّهَت
مِن بحر عرفان به الفقهاء

هو كوكب الإرشاد مُفْرد عصره
فَلَهُ على فلك الرشاد لواء

إلقاؤه حكم بأبلغ حكمة
وحديثه انبهرت به البلغاء

وبدائع الألفاظ في أجيادنا [١]
عقد[٢] على طول المدى لألاء

ريق الرسول رياض فضل تزدهي
بفؤاده والدعوة الحسناء

فمن الشريعة صدْرُه كنزاً حوى
ومن الحقيقة قلبه الدأماء [٣]

وبِهالة العلماء بدر ساطع
وبأفق نهج العالمين ذُكاء [٤]

وحصافةً يحوي ورأياً صائباً
وفصاحة قد زانهنّ ذَكاء

سيما محاسن خلقه في خلقه
شِيَم النجيب بوجهه سيماء

---

[١] جمع جيد وهو العنق
[٢] قلادة
[٣] البحر
[٤] الشمس

وكلامه صرف[1] المزاج وقربه
لطف به تستأنس الجلساء
شهم لقد بلغ العلا فعلى الملا
طول المدى تتفاخر الشهباء
وبصرف خمر الحب أضحى فانياً
والحب فهو الغاية القعساء[2]
مذ غاب عنا شخصه فخياله
في الذكريات نوافح وصفاء
وبروحه ريحانة لنفوسنا
ورياض أنس في الولاء بهاء
فعليه رضوان الإله وبره
ما لاح من هدي الرسول سناء[3]
ولذيذ مدح العاملين بمهجتي
من عنفوان[4] شبابي الصهباء[5]
لهفي على قوم قضَوا لكنما
هم في صفاء سريرتي أحياء
لابد في دار الفنا من فرقة
والبِشر في دار البقاء لقاء
وثناء أهل الفضل بعد مماتهم
حيّ ولو هم في الثرى[6] أشلاء[7]
مولاي فاحشرنا مع الأحباب في
يومٍ تلوذ بأحمدَ الشفعاء
واجعل فراديس الجنان مقرّنا
فضلاً فمنك الجود والآلاء [8]

[1] الحقيقة التي لا يخالطها شيء
[2] المنيعة
[3] الرفعة
[4] زهرة الشباب وأوله
[5] الخمرة
[6] التراب
[7] الأعضاء بعد البلى
[8] النعم

وقال الشاعر صالح أبو عمشة المشهداني في ذكرى العلامة الكبير المرحوم الشيخ محمد نجيب سراج الدين رحمه الله تعالى :

أظلم علينا الدجى من بعد كان سراج
جمع الكواكب خَفَتْ والشمس ما لا سراج
السعد ولّى وبخسي اعتلالو سراج
صرنا بحيرة وأنوار العلينا طفت
طحنا على البير ودموع البخار قرطفت
أبصارنا بعد فقدك كان منا طفت
بقصور فردوس تسكن نجيب سراج
نجم الشهيبا أفل عنا وغاب سراج
والبين جزّ الحشا بالنايبات سراج
ما الحزن لهجر خيل الصافعات سراج
فرقاك سيف القدر مني الضوالع مات
حتى وعيش الهنا يمّي لبعدك مات
لما أتاني الخبر قطب العوالم مات
يا رب في جنتك تسكن نجيب سراج

ومما قيل في مدح مولانا الإمام الشيخ محمد نجيب سراج الدين رضي الله عنه وذكر فضائله :

من رام ذا علم من الأخيار
وأولي الندى في الصوم والإفطار
فليستمع لنجيبنا الحبر الذي
قد فاح مسك ثناه في الأقطار
فهو الذي ضنّ الزمان بمثله
ونظيره قد عزّ في الأمصار
وهو الغني عن الثنا إذ فضله
قد فاض في الأقطار كالأمطار
سبحان من بالعلم مجداً زاده
وحباه قلباً خاشعاً للباري
وبراه قِدْماً سيداً متواضعاً
شهماً شريفاً عالي المقدار
قد كان شهر الصوم عيداً عنده
رغَباً لأجل عبادة الغفار

كم قام في شهر الصيام لربه
متهجداً في ساعة الأسحار
ولَكَمْ به أحيا الليالي عاكفاً
متنفّلاً أو ذاكراً أو قاري
مولاي سار الصوم مبروراً وقد
ظلّت ليالي العيد بالأنوار
فَلَكَ الهنا بقبول فرض صيامه
قد نلت فيه منازل الأبرار
وببهجة العيد السعيد فلم تزل
حياً إلى أنجالك الأقمار
وأقول للأستاذ أرخ نوراً
هُنّئتم في الصوم والإفطار

وقد كانت ألسنة أهل عصرالشيخ محمد نجيب تلهج بمدحه والثناء عليه ورأيت أن أذكر بعض ما قيل في ذلك :

مولاي مهدي القرن أهـــــديكم قوانين الحبور
فتفضلوا بقبولها بل سامحوني في القصور
فالصدر منكم يحوي ما لم تحْوه تلك السطور
يا أنجب النجباء يا مجلى السعادة والسرور
أنتم سراج الدين قد فُقْتم على كل البدور
أوتيتمُ من حكمة الـــــــإرشاد ما يسقي الصدور
وسلافة التوحيد [1] أنـــــــت مديرها في كأس نور
درر المعاني من جمان الــــلفظ تزهو في النحور
كالمزن تهطل مستفيـــضاً من ذرا البحر البحور
سر الخفاء محمد صلى الله عليه وسلم
مَن مِنه قد طهر الطهور
بالحق قمتَ مجابهاً أهل الجحود ذوي الغرور
لَكُمُ الرجال تهافتت وقلوب ربّات الخدور
لك غيرة في الدين قد فاقت على كل غيور
إيمان من ينمى لكم تحكيه أوتاد الصخور
كم بالشريعة قد خذلـــــــتم كل مختال فخور

[1] سلافة الشيء : أفضله وأجوده

آثرت شأن الانزوا ءعلى المناصب والقصور
وقنعت بالرزق الكفا ف ولذت بالمولى الشكور
كنهَ الشريعة والحقيـــــــــقة نلت من خلف الستور
فرحيق ريق المصطفى هو في الجنان جنان نور
آثار مظهر سركم أنس النفوس مدى العصور
والعرف من عرفانكم روح لروحي في النشور
تالله إن صفاءكم يجلو عن القلب الكدور
نلتم مقام القرب في أسمى مقامات الحضور
وبلغت غايات المنى بالحزم والجأش الصبور
فلك الهناء يلوح من فلك المعاني والحبور
لا زال نور الهدي يبـــــــــدو من علاك مدى الدهور

ويرحم الله القائل :

من مؤذن جامع الرقة الكبير رمضان العاجز الجاني الفقير
لنجيب الاسم والأصل معاً وسراج الأمة العالي المنير
أشكو ما بي للذي صوّرني ثم أرجو الإذن يا نعم المجير
منك فيما إن تمسكت به تجلى عني البؤس والضيق الخطير
أنت ممن لا بهم يشقى الجليس يا حبيب المالك الرب القدير
فلذا بادرت فيما رمته منك يا بحر الفيوضات الكبير
فادع ربي أن ينلني نفحة منه تدنيني إليه وتنير
قلبي المشغول في حب الدنا وعن الأخرى بتقصير كثير
ليتني يا سيدي جالستكم قبل موتي مرة كي أستنير
من دروس تعظ الخلق بها قد ورثتوها عن الهادي البشير
صلى ذو العرش عليه وعلى آله ما جد صب في المسير
وعلى أصحابه الغر الكرام ما توارت وانجلى الفجر المنير
وسلام الوارث الباقي على ذاتكم يا أيها الحبر الشهير

وقد نظم كثير من المحبين قصائد رثاء في الشيخ الإمام سيدنا الشيخ عبد الله رضي الله عنه ، يضيق المجال لذكرها أذكر منها :

حلب لنعشك يا إمام تُودّع
ونشيجها رغم التجلّد يُسمع
تبكي ويا ليت البكاء يُعيد مَن
حكم القضاء بأنه لا يرجع
يا شيخنا هذه الجموع توافدت
بأنينها بدموعها تتوجّع
بشبابها برجالها بشيوخها
جاءت تودّع من به تتولّع
شوقاً إليك وفي القلوب صبابة
حباً بأعماق الجوى يتوضّع
يا منبراً عرف الحقيقة منهجاً
فغدا مناراً بالحقيقة يسطع
يا رمز كل المخلصين ودرّة
للدين في تاج الزمان تُرصّع
يا همسة حَرّى بليل مظلم
تهفو إلى رب السماء وتضرع
يا عاشقاً لله تطلب ودّه
وبذكره عبر الليالي تخشع
يا آملاً لقياه في جناته
ها أنت شوقاً للقاء تسارع
يوم الوداع وأي يوم هزّنا
يوم به كل القلوب تَصَدّع
يوم به بكت الحجارة مثلنا
حتى المآذن والمنابر أجمع
يوم الوداع مصيبة قد أوهنت
أوصالنا من عزمها نتزعزع
زاغت عيون الناس في أحداقها
لما رأت نعي الإمام يُوزّع

فتجمدت فوق الحروف وأشخصت
نظراتها وكأنها لا تقنع
هل مات من ملأ القلوب هداية
هل مات من بمقامه الأرفع
هل مات من وهب العلوم هدية
تهدي لمن يبغي العلوم ويجمع
هل مات من سكن القلوب ولم يزل
بالنور في أعماقها يتربّع
كادت قلوب الناس تنكر موته
مع أنها خلف الجنازة تدمع
لولا يقيني بالإله وحكمه
ما ظنّ بعد فراقه تسترجع
ثم الصلاة على النبي محمد
ما دام ذكر الله فينا يُسمع

وقيل أيضاً :
أيا ابن الأكرمين فتى سراج
بنورك بددت ظلم الدياجي
ونلت من السعادة منتهاها
وفقت النّيّرين بلا علاج
محوت الجهل في سرج المعالي
وكنت لمحوه خير السراج
فأنت سليل سادات كرام
عظيم خلقه صافي المزاج
أعبد الله دمت لنا كريماً
وأعطيت الذي ما أنت راجي

وقيل أيضاً :

يا رب حكمك في البرية سار   بين القضاء ومحكم الأقدار
قد غاب عنا تحت أطباق الثرى   صرح العلوم ومجمع الأنوار
فهو السراج لنا ونور طريقنا   وملاذ أُلفتنا مدى الأعصار
لكنّ دمع العين إن غرقت به   عيناي حزناً في دجى ونهار
سيظل يبكيه الزمان مذكّراً   بحبيب قلب خيرة الأخيار
ورث الهدى والعلم من عليائه   بصفاء صدق واشتعال أوار [١]
لا غرو إن فاضت مناهج علمه   بين الأنام بمحكم الآثار
فهو الذي يسقى بنهج المصطفى   خير البرية منبع الأنوار
إنا لنشهد حبه ووداده   لمحمد ولربه الغفار
عَبَدَ الإله موحداً وممجداً   بمحامد ومآثر الأبرار
ومصلياً خير الصلاة على رسول الله صاحب فخر كل فخار
إنا إذا كنا أُصبنا بفقده   بفراق حب صادق الأسرار
لكنْ ملائكة السماء بجمعها   فرحت به طوبى لخير جوار
يا سيدي لا تنسنا إذ أنت في   رَوض يحبر في حمى الغفار
من دعوة تدعو لنا في ضمنها   تفريج كرب في دُنا الأوزار
ها قد وصلت إلى الحبيب محمد   ولصحبه ولآله الأطهار
فانعم بهم ولينعموا بعبيدهم   ونسيبهم في جنة الأخيار
يا رب أتحفنا بصدق ودادهم   في ظل عرشك في حِمى الستار
إني شغفت بحبه مذ أنني   لم يلْف في خديّ نبت عذار
فنهلت من علم ومن نفع ومن   إرشاد صدق سامي المقدار
إني لأشهد عند ربي فضله   لولاه كنت بضيعة وبَوار
بالله يا من قد عرفتم نعته   هيا صِفوه على مدى الأطوار
فمحدّث ومفسر ومصنف   وفقيه أحكام كضوء نهار
جمع الفضائل في تصانيف غدت   للعلم ذخراً راسخ الأغوار
هيا انهلوا من فيضها وعلومها   وبديع ما شملت من الأخبار
هي روضة من أمّها يجني بها   درراً مُحبّرة من الأذكار
وأَحَبُّها عندي كتاب شمائل الـــــــمختار طه مَن حباه الباري
أنا لست أنسى إذا أتاه سائل   لم لا نزيل قبور وقف جوار
فأجاب كيف نزيل مدفن واقف   والوقف شرط ثابت بقرار
في معهد وبه رَسَت جمعية   هي منهل للذكر والتذكار

---

[١] الأوار : شدّة حرّ الشَّمس وكنى به هنا عن توقد الذهن

يتلو كتابَ الله فيه فتية　　بصفاء قلب في دجى الأسحار
فجزيت أن أصبحت فيه ثاوياً　　مرآك للطلاب والزوار
يا إخوتي عَظُمَ المصاب بفقده　　فلقد فقدنا عالم الأقطار
فالعلم حصن سوره علماؤه　　إن لم يُصَن نسقط بجرف هار
واستمسكوا بكتاب خير شريعة　　وبسنة المبعوث والمختار
طه الرسول إمام كل موحّد　　وشفيعه من حر أهل النار
صونوا وصية ربكم ونبيكم　　متكافلين تكافل الأنصار
يا رب صل على النبي وآله　　عدد الحصى والرمل والأمطار
يا رب وارض عن الصحابة كلهم　　هم أنجم وهداية للساري
والتابعين ومن تَتَبّع نهجهم　　والصالحين وسائر الأبرار
وسراج نور العلم عبد الله واجـــــــعلهُ أيا ربي بخير قرار
وأصوله وفروعه واحفظهمُ　　يا رب في الدنيا من الأكدار
يا رب واشملني بوابل رحمة　　بجوارهم وبصحبة الأخيار

نبذة عن تاريخ المساجد التي كان يرتاد إليها الشيخ الإمام رضي الله عنه مدرساً وخطيباً وواعظاً

أولاً : جامع الحموي
يقع حول القلعة في محلة البيّاضة الواقعة بين باب الأحمر والجبيلة ، وقد أنشأه الحاج محمد بن داود النوري المغربي سنة ٩٦٨هـ ، وهو المدفون في شرقيه ، ثم في سنة ١١٨٣ جدّده ووسّعه الحاج حسن بن عبد الرحمن الحموي .
وعمر له منارة ، وأحدث فيه خطبة ، وشرط له عدة خيرات .
وهو جامع معمور بالشعائر ، فسيح الصحن ، في شماليه دكّة واسعة ، وفي شرقي هذه الدكة حجرتان جميلتان غير مسكونتين في أكثر الأوقات ، وكانت ميضأته في غربي هذه الدكة المذكورة .
ثم في حدود سنة 1285للهجرة أخرجت إلى ظاهره على بابه في رأس درجه عن يمين الداخل إليه . اهـ
انظر نهر الذهب في تاريخ حلب [1](٣٠١/٢) .

ثانياً : جامع سليمان الأيوبي
يقع بالقرب من قاضي عسكر وفي غربيها برّيّة المسلخ .
في شمالي محلة الضوضو ، وهو منسوب إلى الحاج سليمان الأيوبي بانيه سنة ٧٨٣ للهجرة ، وهو جامع عامر فسيح مفروش صحنه بالرخام ، طوله خمسون ذراعاً في مثلها تقريباً ، في غربيه تجاه بابه الغربي حوض يجري إليه الماء من قناة حلب ، وفي شمالي الصحن مدفون في غربيه الجنوبي قبر أبي الواقف وفيه عدة قبور .
وفي جانب المدفن من شرقيه حجرة يتعلم فيها الأطفال ، وفي جنوبي الصحن قبلية جميلة عامرة ، على طول الجامع في عرض عشرين ذراعاً تقريباً ، وفي شرقيه دكّة للصلاة صيفاً ، وله بابان : غربي فوقه منارة شرقية جميلة ، وله شباكان جميلان ، وفي جنوبيه رواق صغير ، وشمالي ينفذ إلى محلة صاجليخان (جامع آغا جوق وهارون داده)
انظر نهر الذهب (٢٧١/٢)

---
[1] لمؤلفه الباحث المؤرخ كامل بن حسين بن محمد بن مصطفى البالي الشهير بـ (الغزي) المتوفى سنة ١٣٥٢ هـ رحمه الله

ثالثاً : جامع بانقوسا

يقع في محلة باب الحديد بناه قانصوه الغوري سنة ١٠٥٩ للهجرة
وجاء في كنوز الذهب ما نصه :
هذا الجامع يقال إن خاص بك الخواجا عمّره ولم يكمله ، وإنما أكمله بعد وفاته أهل الخير ، فعمروا له منارة ، ورخموا صحنه بالرخام الأصفر ، وفيه بركة ، ماؤها كثير لأن القناة جارية بقربه .
وهو جامع عليه وضاءة ، ووقفه يسير لكن الله يقيّض له من يقوم بكفايته ، وطول صحنه مائة قدم ، وعَرضه اثنان وسبعون ، وفي وسطه حوض ينزل إليه بدرج ، وماؤه جار لمرور قناة حلب منه ، وفيه رواقان من جهتي الشرق والغرب ، وبعض رواق من جهة الشمال ، وباقي هذه الجهة اتخذت حجازية .
هذا الجامع شهير كبير معمور ، تُقام فيه الشعائر في الأوقات الخمس ، لا سيما في وقت السحر ، فإنه لا يضاهيه بحلب جامع في ذلك الوقت من جهة قراءة الأوراد وكثرة المصلين ، ولما كان الحاج صالح بن مرعي بن حسن الملّاح قيّماً عليه أثّر فيه آثاراً حسنة ، رخّمه وفرشه بالبلاط وزاد في أوقافه .
في صدر قبليته في شرقيها أثر باب عال مكتوب على محفته (أنشأه الفقير إلى رحمة ربه أحمد بن موسى السعدي على مذهب الآفاقية سنة (٨٢٨)، وهو شباك المدرسة أو زاوية كانت ملاصقة لهذا المكان ، وطول قبلية الجامع ٤٥ذراعاً ، وعرضها نحو ٤٠ ذراعاً .
ومحرابه من الحجر الأصفر خالٍ من الزخرفة ، ويوجد في شرقي المحراب - أي عن يساره - خزانة مغلقة على حجر مرصوف مدوّر ، لونها أزرق ، يبلغ قطره نصف ذراع ، فيها أثر كَفٍّ يقولون :
(إنها كف النبي صلى الله عليه وسلم)
ومكتوب على الحجرة كتابة محيطة بالكف هذان البيتان :
لأصابع المختار في هذا الحجر آثار خيرات تُعايَن بالبصر
فالثمْ مواضع كفّه إن كنت من أهل المحبة مرتجٍ درءَ الضرر

انظر نهر الذهب ٣٦٥/٢

رابعاً : جامع العثمانية في محلة الفرافرة
المدرسة الرضائية المشهورة بالعثمانية أنشأها عثمان باشا بن عبد الرحمن باشا بن عثمان آغا الدوركي الأصل الحلبي المولد والنشء ، بناها أثناء توليته حلب سنة ١١٥٠ للهجرة .
شرع في عمارة جامعه المعمور لصيق داره أوائل سنة ١١٤١ هـ ، فاشترى الدُّور التي كانت في محل الجامع من أهلها بالأثمان المضاعفة ، وكان يقترض من التجار أهل الخير والصلاح المعروفين بِحِلّ المال ويصرفه في عمارة الجامع ، ويوفيهم من ثمن حنطة كانت عنده ، إلى أن فرغ من بناء الجامع ، وتمّ على أكمل الوجوه .
ولما انتهى حفر أساس الجامع وحُرِّرت القبلة بتحرير العلامة الشيخ جابر الحوراني الأصل والعلامة علي الميقاتي ، نزل عثمان باشا إلى الأساس واستدعى بطين فوضعه ، ووضع عليه حجراً ، ووضع بينهما جرة صغيرة لا يُدرى ما هي ، وصعد وشرعوا في البناء بالأحجار الهرقلية الهائلة .
وأبطل العمل شتاء إلى أن كمل سنة ١١٤٣ للهجرة .
ووضع فيه منبراً من الرخام الأصفر الفائق .
وفي وسطه حوض من الرخام الأصفر طوله أربعة عشر ذراعاً في مثلها .
وفي شماله مصطبة مرخّمة بالرخام الأصفر بقدر الحوض .
وبنى إحدى وأربعين حجرة منها ثلاثون للمجاورين والباقي لأرباب الشعائر الدينية .
وعين له خطيباً شكري محمد أفندي البكفوني ، وهو أول خطيب خطب به لأنه مرغوب به عند الأتراك .
وعين له مدرساً تاتار أفندي العنتابي ، فاستقام أربعة أشهر ثم استعفي فنصب مكانه العلامة محمود أفندي الأنطاكي ، وعيّن السيد محمد الكبيسي محدّثاً ، وعيّن الشيخ عبد الغني الصباغ إمام الجهرية ، وعيّن عبد الكريم أفندي الشراباتي واعظاً عقب صلاة الجمعة ، والعلامة الشيخ جابر إمام السِّرِّية ، وعين له أربعة مؤذنين ، وعين قارئاً يقرأ النعت وغير ذلك .
وعيّن لكل من أبوابه الثلاثة بواباً ، وأسكن الثلاثين حجرة ثلاثين رجلاً من أهل البلدة أو من غيرها ، وشرط عليهم البيوتة في الجامع ، وملازمة الصلوات الخمس ، وقراءة جزء من القرآن الكريم بعد صلاة الصبح .

انظر نهر الذهب (١٢٣/٢)
و(إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء) للشيخ راغب الطباخ (٣/ ٢٥٨-٢٥٩).

خامساً : مدرسة جامع العثمانية :
هذه المدرسة أعظم مدارس الشهباء شأناً وأوسعها بناء ، وقبليتها قبة واحدة شاهقة ، مبنية على جدران عريضة جداً ، أمامها صفّتان كبيرتان عليهما أربعة عواميد ضخمة ، وعلى طرفيها إيوانان كبيران بجانب الأيمن منهما منارة مدوّرة الشكل عظيمة الارتفاع على نسق منارات الأستانة ، وصحن المدرسة واسع جداً ، في وسطه حوض كبير يجري الماء فيه في غالب الأوقات ، ووراء هذا الحوض مصطبة على طول الحوض .
يحيط بهذا الصحن الواسع ثلاثة أروقة ، فيها أربعة وعشرون عموداً من الحجر الأصفر ، ووراء الأروقة أربعون حجرة ، وفي الجهة الشرقية حوش صغيرة تشتمل على عدة حجرات ، وخارج المدرسة في الجهة القبلية منها مكتب وسبيل ، وجميع القبب و الأسطحة مغطاة بصفائح الرصاص وقد صبّ الرصاص بين الجدران كل ذلك ليزداد البناء متانة وصلابة على مرّ الأيام .
وعن يمين الإيوان الغربي دهليز ، في صدره قاعة التدريس ، لها شبابيك مطلة على البستان ، وفي شرقيه حجرة واسعة اتُّخذت مكتبة ، ووضع فيها كتب قيمة من المخطوطات.
ومما لا ريب فيه أن هذه المدرسة لا نظير لها في البلاد السورية وكثير من البلاد الإسلامية في ضخامة بنائها وسعة أرجائها وغزارة وقفها . اهـ
انظر
نهر الذهب (١١٦/٢-١١٧)
إعلام النبلاء (٤٣٨/٧-٤٣٩) .

سادساً : جامع ومدرسة الشعبانية :
هذه المدرسة بناها شعبان آغا بن أحمد آغا المأمور بتحصيل الأموال في حلب سنة ١٠٨٥ للهجرة ، والكائنة في محلة الفرافرة لتُقرأ فيها مباحث العلوم والفنون ، وفي شرقيها حجرة واسعة ، وفي جنوبي الصحن قبلية ، في شرقيها رواق واسع ، وفي غربيها مدفن وقفي ، ومسجدها تقام فيه الصلوات والجمعة .
قلت : وفي فترة متأخرة تم شق شارع يصل ما بين الطريق الذي يربط بين قلعة حلب ومنطقة السبع بحرات المعروفة الآن ، وعلى إثر ذلك تهدم جزء من المدرسة وبقيت إطلالته على الشارع كجدار قديم .
وفي عام ١٣٩٦ هـ قام المرحوم المحامي سليمان النسر [1]- مدير أوقاف حلب وقتئذ - وبإشارة ونصيحة من الشيخ الإمام لعمل خير يبقى في صحيفته إلى يوم الدين - قام بإنشاء مبنى مؤلف من طابق أرضي ، وفوقه غرف مبنية كصفوف متممة لما تبقى من صفوف المدرسة في الطابق الأول ، وعند انتهائه من البناء عام ١٣٩٩ هـ قام بتسليمه لإدارة المدرسة الشعبانية فجزاه الله خير الجزاء .

[1] المتوفى سنة ١٤٢٨ رحمه الله رحمة واسعة

فوائد منثورة من بيانات الشيخ الإمام رضي الله عنه بعض نصوص الكتاب والسنة :

-* قاعدة أصولية :
إن تعليق الحكم على الاشتقاق يُؤذِن - أي يُعلم - بعلّة الحكم ،
ومثاله قوله تعالى :
{يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ}
فالظالم : اسم فاعل مشتق من (الظلم) ، فلما قال الله تعالى { وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ} أي أنه أضلّهم بسبب ظلمهم ، فعلّق الحكم - وهو الإضلال - على المشتقّ - وهو { الظَّالِمِينَ} - مما يدل على أن علّة الحكم أي سبب الإضلال هو ظلمهم لأنفسهم ولغيرهم . اهـ .

-* حكم فقهي :
من أوصى أن يُحجّ عنه ، فيجب على الحاج عنه أن يكون من البلد التي يقيم فيها الموصي ، لأن الموصي إذا أراد أن يحجّ فإنه يحجّ من بلده ، أما إذا نصّ في وصيته أن يحجّ مَن هو في أي بلد فيجوز أن يحجّ عنه أي شخص من أي بلد قد أدى فريضة الحج .
وأما من أراد أن يحج عن قريب له قد مات ولم يَرِد هذا في وصيته ، بل أراد عمل الخير للمتوفى فلا مانع أن يحجّ عنه أي شخص من أي بلد ، ولو كان من غير أهل بلده ، لكن الأفضل من نفس البلد التي يقيم فيها من سيحج عنه ، ويجوز للحاج عن غيره أن يتقاضى أجراً لقاء حجته عن غيره . اهـ .

-* بيان حديث شريف
عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم :
[تحاجّت الجنة والنار ، فقالت النار : أُوثرتُ بالمتكبرين والمتجبرين ، وقالت الجنة : ما لي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم ؟
- بفتح السين والقاف أي : ضعفاؤهم والمحتقرون منهم -
قال الله تبارك وتعالى للجنة : أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي ، وقال للنار : إنما أنت عذابي أعذب بك من أشاء من عبادي ، ولكل واحدة منهما ملؤها ، فأما النار : فلا تمتلئ حتى يضع رِجله فتقول : قَط قَط ،

فهنالك تمتلئ ويزوى بعضها إلى بعض ، ولا يظلم الله عز وجل من خلقه أحداً ، وأما الجنة : فإن الله عز وجل يُنشئ لها خلقاً] [١]
وفي رواية :
[لا تزال جهنم يُلقى فيها وتقول : هل من مزيد ، حتى يضع الجبار فيها قدمه] [٢]
أي خلقاً مقدّمين للنار يخلقهم الله تعالى من نيات الكفار لأن نية الكافر أن يبقى كافراً أبد الآبدين .
وقوله تعالى { لهم قدم صدق عند ربهم } أي مقدّم صدق
- بضم الميم وفتح الدال المشددة - وهي الجنة .
يدل على هذا الرواية المتقدمة
[لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول : هل من مزيد ، حتى يضع الجبار فيها قدمه] [٣]
وفي رواية : فأما النار فلا تمتلئ حتى يضع الله تبارك وتعالى رجله [٤]- والرجل تعني الجماعة ، كما في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (بينما أيوب يغتسل عرياناً) - أي في مكان منعزل لا يراه فيه أحد من الناس - (خرّعليه) - أي : سقط - (رِجل جراد من ذهب) - أي جراد كثير - (فجعل يحثي في ثوبه ، فناداه ربه : يا أيوب ألم أكن أغنيتك عما ترى ؟
قال : بلى يا رب ولكن لا غنى لي عن بركتك) [٥]
وهؤلاء الذين يخلقهم الله من نيات الكفار يأخذون أماكن المؤمنين فيما لو كان المؤمنون كفاراً، لأن كل مكلف من الجن والإنس خلق الله له مقعداً في الجنة ومقعداً في النار ، ولذا يُقال للمؤمن في قبره:
[انظر إلى مقعدك من النار أبدلك الله به مقعداً من الجنة] [٦]
ويقال للكافر :
[هذا مقعدك الذي كان لك من الجنة ، قد أُبدلت مكانه مقعدك من النار] [٧]

---

[١] صحيح البخاري كتاب تفسير القرآن
[٢] عزاه في كنز العمال للدارقطني في الصفات
[٣] عزاه في كنز العمال للدارقطني في الصفات
[٤] صحيح مسلم كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها
[٥] صحيح البخاري كتاب أحاديث الأنبياء
[٦] صحيح مسلم كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها
[٧] المسند ١٤١٩٥ والمعجم الأوسط للطبراني

وفي الحديث :
[ولا يزال في الجنة فضل حتى ينشئ الله لها خلقاً ، فيسكنهم فضل الجنة] [١] وهم مخلوقون من نيّات المؤمنين ليزدادوا نعيماً ، ويأخذوا أماكن الكافرين فيما لو كان الكفار مؤمنين .
وصدر الحديث :
[تحاجّت الجنة والنار فقالت النار : أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين ، وقالت الجنة : ما لي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسَقَطهم] [٢]الحديث
فالجنة لا يدخلها إلا المساكين المتواضعين ، ولذلك لما تجلى رب العزة لرسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام وقال له جل وعلا : سَلْ
قال صلى الله عليه وسلم : [اللهم إني أسألك فعل الخيرات ، وترك المنكرات ، وحب المساكين ، وأن تغفر لي وترحمني ، وإذا أردت فتنة في قوم فتوفّني غير مفتون ، وأسألك حبك وحب من يحبك ، وحب عمل يقرب إلى حبك] . [٣]
فقد سأل صلى الله عليه وسلم في أعظم مواطن الإجابة سأل الله حُبّ المساكين .
ولقد كان هو صلى الله عليه وسلم سيد المتواضعين ، فكان يمشي مع الأرملة والمسكين ويقضي حاجتهما ، ولما ارتعدت المرأة من هيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : [يا مسكينة عليك السكينة] فسكن رَوْعها . [٤]
وما أجمل قول القائل :

تواضع تكن كالنجم لاح لناظر	على صفحات الماء وهو رفيع
ولا تك كالدخان يرفع نفسه	إلى طبقات الجوّ وهو وضيع

ولقد قسّم بعض العارفين الجنة إلى ثلاث جنات من حيث المراتب :
فهناك جنة الأعمال وهي مقابلة لأعمال المؤمنين ،
وهناك جنة الميراث وهي المشار إليها بقوله تعالى :
{ تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقياً }
وهناك جنة الاختصاص ولا يعلم نعيمها ورتبها إلا الله تعالى المشار إليها بقوله تعالى : { يختص برحمته من يشاء }

---

[١] صحيح البخاري كتاب التوحيد وصحيح مسلم كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها
[٢] صحيح البخاري كتاب تفسير القرآن وصحيح مسلم كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها
[٣] سنن الترمذي كتاب تفسير القرآن والمسند ٢١٠٩٣
[٤] المعجم الكبير للطبراني

وقال سبحانه لها : [أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي] [١] .
وجنة الميراث هي التي ورثها أهل الجنة من الكفار الذين لهم منازل في الجنة فيما لو كانوا مؤمنين والله أعلم . اهـ .

-* إيضاح

جاء في صلاة سيدي ابن مشيش رضي الله عنه قوله :
(وانشلني من أوحال التوحيد)
- أي خلّصني من أنواع الشرك الخفي كالرياء والسمعة وغير ذلك –
(وأغرقني في عين بحر الوحدة) أي اجعلني متحققاً بالتوحيد الخالص لك -
(حتى لا أرى ولا أسمع ولا أجد ولا أحسّ إلا بها) - أي اجعلني متحققاً بقولي : لا حول ولا قوة إلا بالله ، فأكون بك ولك وإليك ، ولا أرى لنفسي وجوداً ذاتياً استقلالياً بل بإيجادك لي وإمدادك لي ، ولا أغفل عن هذا ، وذلك لأن الغفلة عن إمداد الله لعبده بالوجود هي شرك خفي عند القوم ، وكذا الغفلة عن سائر إمداداته جل وعلا .
وهذا ما فهمه الإمام الجنيد رضي الله عنه من قول الجارية :
وإن قلتَ ما ذنبي إليكِ أجبتُك وجودكَ ذنب لا يُقاس به ذنب
أي لا تَرَ لذاتك وجوداً استقلالياً ، بل كن مشاهداً دوام إمداد الله لك بالوجود ، لتفنى عن رؤية وجودك وتبقى بإيجاد الله لك.
وهذا المعنى هو المشار إليه بقوله صلى الله عليه وسلم : [أنا بك وإليك] [٢]
فهو صلى الله عليه وسلم أعظم من تحقق بمقام القرب والعبودية لله تعالى .
واعلم أنه قد ورد في الحديث :
[الكلمة الحكمة ضالة المؤمن حيثما وجدها فهو أحق بها] [٣]
، فهذا الإمام الجنيد رضي الله عنه سمع جارية تغني لسيدها فأخذ من شعرها مأخذاً كبيراً ، وفهم منه معاني عالية سامية ، وهكذا إذا لم يكن الأمر يخالف الشريعة .اهـ .

-*بيان حديث شريف

جاء في الحديث لما سئل صلى الله عليه وسلم :
هل رأيت ربك ؟ قال : [رأيت نوراً] [٤]

---

[١] صحيح البخاري كتاب تفسير القرآن وصحيح مسلم كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها
[٢] طرف حديث في صحيح مسلم كتاب صلاة المسافرين وقصرها عن علي كرم الله وجهه
[٣] سنن ابن ماجه كتاب الزهد وسنن الترمذي كتاب العلم
[٤] صحيح مسلم كتاب الإيمان

وفي رواية : [نور أنّى أراه] [1]
- أي : كيف أراه رؤية إدراك وإحاطة ،وليس المراد نفي مطلق الرؤية -
وفي رواية : [نور إني أراه] [2] .
أي أن التجلي بالرؤيا كان بالنور الباهر ، وأما ما يذكره أهل السير من رواية : (نوراني أراه) ، فغير صحيح لأنه يدل على التجسيم وهو سبحانه ليس كمثله شيء . اهـ .

-*تذكرة

إن التأثير والاستجابة في الأدعية والأوراد والرُّقى أمر قائم على سببين : هما الكيف والكَمّ ، فإذا كان الدعاء صادراً عن قلب حاضر خاشع موقن بالإجابة فلابد من حصولها - وهي الكيفية التي تَكيّف بها الداعي أو السائل أو الراقي - أما إذا كان ذلك متعسراً على الداعي فعليه بالكَمّ أي بكثرة الدعاء والأوراد ، فلابد أن يكرمه الله تعالى بالإجابة ، ومن هنا تفهم سراً من أسرار الأعداد في الأوراد والأدعية والتسابيح وغير ذلك . اهـ .

-* بيان شرعي

إن الموتى الذين أحياهم سيدنا عيسى - على نبينا وعليه الصلاة والسلام - بإذن الله ، قد عاشوا فترة بعد إحيائهم ثم ماتوا ، والحق أنهم لما ماتوا أول مرة لم يكونوا قد استكملوا أجلهم المحدد لهم ، لأن الله تعالى يعلم أن هؤلاء سيحييهم سيدنا عيسى عليه السلام معجزة دالة على نبوته ، فماتوا قبل استكمال أجلهم ، ولم يدخلوا عالم البرزخ دخولاً كلياً ، وإنما دخولاً مؤقتاً ولم يطّلعوا على تفاصيل عالم البرزخ ، لأن حلولهم فيه مؤقت .
ولابد من هذا التأويل لأن الله تعالى قال في الحديث القدسي لعبد الله بن عمرو بن حرام الذي استشهد يوم أحد:
[إنه سبق القول مني أنهم إليها [3]لا يرجعون] [4].
وهناك رسالة للإمام السيوطي رحمه الله في أسماء الذين أحياهم سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم . اهـ .

-* بيان آية كريمة

قوله تعالى :{ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآَيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآَتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآَيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا}.

---
[1] صحيح مسلم كتاب الإيمان
[2] المسند ٢١٥٦٨
[3] أي : إلى الدنيا
[4] سنن ابن ماجه كتاب الجهاد وسنن الترمذي كتاب تفسير القرآن

اعلم أن الكفار كانوا يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتيهم بآيات كونية على حسب أهوائهم ، وقد أجابهم الله تعالى لبعضها كانشقاق القمر ، ولم يجبهم إلى كل ما سألوه ، لأنه لو أجابهم إلى كل ما طلبوا فسيكون ذلك بمثابة عهد بينهم وبين الله تعالى ، فإن هم نكثوا العهد ولم يؤمنوا بعد ظهور الآيات لوجب عليهم العذاب باستئصالهم ، ولكن رحمة بهم وإكراماً لرسول الله صلى الله عليه وسلم لم يجبهم سبحانه إلى كل ما طلبوه ، ولذلك قال جل وعلا :

{ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآَيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ}

أي :وما جعلَنا نترك إرسال الآيات التي طلبوها إلا تكذيب الأولين لها ، ولو أرسلناها وكذب بها هؤلاء لحق عليهم العذاب الدنيوي العام الشامل ، ولكن رحمة بهم وإكراماً لرسول الله صلى الله عليه وسلم جعلْنا ذلك ممنوعاً علينا ، وهو قوله تعالى:

{ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ }

- أي إن آمنوا واستغفروا .

{وما لهم أن لا يعذبهم الله وهم يصدّون عن المسجد الحرام }- أي عذاباً جزئياً ، لا عاماً يستأصلهم ، فقد يقع على الكافرين من هذه الأمة عذاب جزئي كقحط أو جدب أو زلزال أو خسف ، لكنه لا يكون عاماً يستأصل الجميع .

وقد طلب الكفار أيضاً من رسول الله صلى الله عليه وسلم إنزال بعض الآيات القرآنية التدوينية كما أخبر سبحانه عنهم :

{ وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آَيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآَيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ * أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ } أي أنهم لِمَ يطلبون إنزال الآيات القرآنية ، وقد أنزلنا عليك كتاباً يتلى عليهم وفيه الكفاية والغاية وفيه جميع ما يحتاجون وفيه الأدلة القاطعة والبراهين الساطعة التي تحملهم على الإيمان ؟ !

ولكنهم أعرضوا وكابروا . اهـ .

-*تذكرة

ومما يدل على أن حب المال لذاته - لا لبذله في فعل الخيرات - أمر من الكبائر : أن الله تعالى ذكره في جملة من الكبائر فقال جل وعلا :

{كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ }- وهذه كبيرة - {وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ }- أي يمنع الزكاة والصدقات من نفسه ويأمر غيره بمنعها - { وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا } - أي تأكلون الميراث بحق وبغير حق -

{ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا } - وقد ذكر سبحانه حب المال بعد ذكر جملة من الكبائر .
فليحذر المؤمن من ذلك وليعلم أن حب الدنيا رأس كل خطيئة كما في الحديث [١] .
ثم قال الله تعالى { كلا} أي :ازدجروا وارتدعوا { إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا * وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا * وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى } أي لا تنفعه الذكرى ويندم ويتحسر {يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي } .
وفي الحديث عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
[إذا كان أمراؤكم خياركم ، وأغنياؤكم سمحاءكم ، وأموركم شورى بينكم ، فظهرُ الأرض خير لكم من بطنها ، وإذا كان أمراؤكم شراركم ، وأغنياؤكم بخلاءكم ، وأموركم إلى نسائكم ، فبطن الأرض خير لكم من ظهرها] [٢] اهـ
-*تذكرة
جاء في الحديث الموقوف عن سيدنا علي رضي الله عنه قال :
[حدّثوا الناس بما يعرفون ، أتحبون أن يُكَذّب الله ورسوله] ؟ [٣]
وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه :
[ما أنت بمحدّث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم ، إلا كان لبعضهم فتنة] [٤] . اهـ
-* بيان شرعي
لما تجادل عالم من أهل السنة مع آخر من المعتزلة في مسألة خلق القرآن قال العالم له : لما خلق الله القرآن أليس قد خلقه بكلمة { كن } ؟
وكلمة { كن } من كلامه سبحانه ، وهذه الكلمة أليست تحتاج إلى كلمة { كن } قبلها لتوجدها وكذا التي قبلها ؟
وهذا ما يؤدي إلى التسلسل وهو باطل ، فسكت المعتزلي .
والحق أن كلام الله تعالى غير مخلوق ، لأنه من صفاته ، وصفاته سبحانه غير مخلوقة ، وإن كلامه تعالى بالقرآن وإسماعه إياه لجبريل ليس حادثاً ، وإنما كشف سبحانه الحجاب لجبريل وأسمعه كلامه جل وعلا ، وبلّغه جبريل عليه السلام لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .
والقاعدة المتفق عليها عند علماء الكلام وغيرهم :

---

[١] انظره في شعب الإيمان للبيهقي
[٢] سنن الترمذي كتاب الفتن
[٣] صحيح البخاري كتاب العلم
[٤] صحيح مسلم في المقدمة

أنه لابد لكل حادث من مُحْدِث
وشذ في ذلك بعضهم فقال : إن هذا هو الحدوث الذاتي الذي لا يحتاج إلى محدث ، وهو ككلامه سبحانه وتجليه لموسى عليه السلام وتكليمه إياه ،
وليس هذا الكلام مقبولاً مسلّماً ، بل نقول :
إن تكليم الله لموسى هو أنه سبحانه كشف له الحجب وأسمعه كلامه ،
وليس كلامه جل وعلا حادثاً لأنه سبحانه لا يعتريه زمان ولا يحتويه مكان ، قال تعالى : { فلما تجلى ربه للجبل } فليس التجلي حادثاً ولكنه سبحانه رفع الحجاب فظهر التجلي ، وهكذا في كلامه سبحانه ، وينطبق هذا على كلماته التكوينية تبارك وتعالى ، وهي { كن } التي يوجِد بها الأشياء ويفيض عليها الإمداد بالوجود ، فليست هذه الكلمات حادثة أو مخلوقة ، وإنما القضية هي كشف حجب وظهور آثار أسمائه سبحانه .
وقال بعضهم (أمور يبديها)- أي يظهرها إلى عالم الوجود الكياني الخارجي -
(ولا يبتديها)- أي لا يبدأ تقديرها - فهي مُقدّرة في الأزل ، والقدر تابع للعلم القديم المقترن بحكمته سبحانه . اهـ .

-* حكم فقهي

تعريف سجود التلاوة عند السادة الحنفية :
سجدة واجبة بين تكبيرتين مسنونتين وقيامين مستحبين ، وهي واجبة على التراخي ، وتُقضى إن نسيها الإنسان أو فاتته أو لم يتمكن من السجدة لعدم طهارته أو ضيق المكان ، وتجب على القارئ والسامع . اهـ .

-*حكم فقهي

قال الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه : يجوز بيع مالا تقوم المعصية بعينه ،
وقد خالفه بذلك الصاحبان ووافقوا الأئمة الثلاثة وقالوا :
الإعانة على المعصية لا تجوز .
وقد ذكر المتأخرون من فقهاء الحنفية قياساً على قاعدة أبي حنيفة أموراً لا ينبغي ذكرها : كجواز بيع العنب لمن يصنعه خمراً ، وجواز بيع الغلام لعمل الفاحشة به ، وجواز العمل في أماكن المعاصي .
وجميع هذا لا يقول به الإمام أبو حنيفة ولا يرضاه ، إذ بلغ من ورعه أنه كره أن يستظلّ الدائن بظلّ غريمه ، لأن كل قرض جرّ نفعاً فهو ربا ، كما أن خشيته وتقواه لله عز وجل أعظم من أن تُحصر في كلمات ،
وراجعها في مواضعها ، ولم يخْفَ عن الإمام قوله تعالى :
{ وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان }

وإن صح عنه قوله بجواز بيع مالا تقوم المعصية بعينه فهذا أمر خاص قد أفتى به في بعض المسائل المحدودة ولم يذكر هو لها مثالاً .
ونقول : إن مثال ذلك كجهاز الراديو ، فبيعه جائز لأن المعصية لا تقوم بعينه ، فقد يستعمله الإنسان لسماع القرآن والمباحات ، وقد يستعمله لسماع المعازف والمحرمات وهكذا . اهـ .
ولما ذكر بعض أهل العلم لآخر ممن اختص بعلم الفقه الحنفي ذكر له قول الصاحبين بأنه لا يجوز الإعانة على المعصية أنكر ذلك وادعى أنه قد حرث حاشية ابن عابدين في الفقه الحنفي حرثاً ولم يجد هذا القول عنهم ، وكان الأول قد نقل ذلك عن سيدنا الشيخ محمد نجيب رضي الله عنه ، فمضى إلى سيدنا الشيخ محمد نجيب رضي الله عنه و وذكر له أن الفقيه قد اعترض على ذلك ، وقال : إنه قد حرث حاشية ابن عابدين حرثاً ولم يجد ذلك ، فقام رضي الله عنه إلى كتاب ابن عابدين ، وأشار إلى قول الصاحبين فيه ، وقال له : اذهب به إلى من زعم أنه فقيه وأرِهِ ذلك ، وقل له :
(إن الحرث من عمل الثيران) .
ولقد كان هذا الفقيه كثيراً ما ينتقد على شيوخ عصره وغيرهم ، وله أفكار خاصة في الانتقاد عليهم ، إلا أن خاتمته كانت أنه تاب إلى الله تعالى ، وقام إلى يدي مولانا الوالد حفظه الله وقبّلهما ، وهو يقول :
(اعذرني - سامحني) وذلك لما اجتمع معه في عقد قِران ، على مرأى ومسمع من مائتي شخص والحمد لله على ذلك . اهـ .

-*ابتهال

كان مولانا الإمام رضي الله عنه كثيراً ما يردّد هذه الأبيات :

إليكَ وإلا لا تُشدّ الركائب وعنك وإلا فالمحدّث كاذب
ومن مذهبي حب النبي وآله وللناس فيما يعشقون مذاهب

ويردد أيضاً :

إلى بابك العالي مددت يد الرجا ومن جاء ذاك الباب لا يختشي الرَّدى
سألتك يا رحمن مستشفعاً بمن ضِيا وجهه الوضاء يبرق في الدّجى

صلى الله عليه وآله وسلم

-*بيان آية كريمة

لما قال سبحانه لرسوله الكريم صلى الله عليه وسلم :
{ واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات }
هذا الحكم للمؤمنين في زمنه صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين الذين سيأتون من بعده صلى الله عليه وسلم ، فكيف يكون استغفاره لمن بعده صلى الله عليه وسلم ؟

نعم لقد بين صلى الله عليه وسلم ذلك بقوله :
[حياتي خير لكم تُحدِثون ويُحدَث لكم] - أي تحدثون أعمالاً فينزل فيها شرع يبين لكم حكمها -
[ووفاتي خير لكم] - أي أن خيره لا ينقطع عن أمته صلى الله عليه وسلم [تُعرض علي أعمالكم فما رأيت من خير حمدت الله عليه ، وما رأيت من شر استغفرت الله لكم] [1] وهذا معنى استغفاره للمؤمنين صلى الله عليه وسلم .
وفي هذا بيان أن حكم المجيء إليه صلى الله عليه وسلم وطلب الاستغفار منه في حال حياته كما هو الحال في حال وفاته ، قال تعالى :
{ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ } - وتقدّم أن استغفاره صلى الله عليه وسلم لأمته مستمر في حال حياته الدنيوية والأخروية -
{لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا } .
وهذا ما فعله الأعرابي في القصة التي ذكرها العلماء ومنهم ابن كثير في تفسيره ، حيث قال :
وقد ذكر جماعة منهم : الشيخ أبو نصر بن الصباغ في كتابه "الشامل" الحكاية المشهورة عن العُتْبي قال: كنت جالساً عند قبر النبي صلى الله عليه وسلم، فجاء أعرابي فقال: السلام عليك يا رسول الله، سمعت الله تعالى يقول: { وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا }
وقد جئتك مستغفراً لذنبي مستشفعاً بك إلى ربي ،
ثم أنشأ يقول :

يا خيرَ من دُفنَت بالقاع أعظُمُه   فطاب منْ طيبهنّ القاعُ والأكَمُ
نَفْسي الفداءُ لقبرٍ أنت ساكنُه   فيه العفافُ وفيه الجودُ والكرمُ

ثم انصرف الأعرابي فغلبتني عيني، فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم في النوم فقال : يا عُتْبي اِلحقِ الأعرابيّ فبشّره أن الله قد غفر له[2] اهـ .

---

[1] عزاه في مجمع الزوائد إلى البزار وقال : رجاله رجال الصحيح ، ورواه ابن سعد في الطبقات
[2] انظرها في تفسير ابن كثير لقوله تعالى :{وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله }

-*<u>بيان آية كريمة</u>
قال الله تعالى معلماً المؤمنين أن يدْعوه بقولهم :
{ ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطانا }
لما نزلت هذه الآية ورد في الحديث [قال الله تعالى : نعم] [1]
و عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
[إن الله تجاوز عن أمتي الخطأ والنسيان وما استُكرهوا عليه] [2]
واعلم أن الإنسان إذا تعاطى أسباب النسيان والخطأ وهي الغفلة والتساهل والانهماك في الشهوات ومشاغل الدنيا ، - مما يؤدي به إلى نسيانه ذكر الله ونسيانه القيام بالأوامر الشرعية المكلف بها- فإن هذا النسيان أو الخطأ الصادر عنه في هذه الحالة هو مؤاخذ عليه ومسؤول عنه ، ولذلك كان معنى قوله تعالى { لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطانا } أي لا تجعلنا ممن تعتريه الغفلة فيخطئ أو ينسى ، وإن حصلت الغفلة منا فلا تؤاخذنا .
وجاء في الحديث عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:
[من نام عن صلاة أو نسيها فليصلها إذا ذكرها][3]
وذكر العلماء أن المكلف إذا تأخر في النوم ، أو نام قبل وقت الصلاة بقليل ، أو تعاطى أسباب النسيان والغفلة ونحوها ، فإنه عندئذ مؤاخذ على ترك الصلاة التي فاتته ويجب عليه التوبة .
أما قوله تعالى : { ربنا ولا تحمل علينا إصراً }- فهو الحمل الثقيل - { كما حملته على الذين من قبلنا} وهي التكاليف الشرعية الشاقة .
واعلم أنه سبحانه لم يوجبها على الأمم السابقة إلا بسبب ذنوبهم ومخالفاتهم قال تعالى : { فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم }
وقال سبحانه {ذلك جزيناهم ببغيهم } .
والمعنى : ربنا احفظنا من ارتكاب الذنوب والمعاصي حتى لا يَثْقُل علينا القيام بما أمرتنا به من الأوامر والمناهي الشرعية .

[1] صحيح مسلم كتاب الإيمان
[2] سنن ابن ماجه كتاب الطلاق وصحيح ابن حبان ومستدرك الحاكم
[3] المعجم الأوسط للطبراني ومسند أبي يعلى وهو في صحيح البخاري بلفظ : من نسي صلاة فليصل إذا ذكرها لا كفارة لها إلا ذلك

وليست هذه المشقة في التكليف مقتصرة على وقت نزول الرسالة والشريعة ، بل هي عامة الحكم ، إذ قد تقع المشقة والثقل في التكليف على كل من ارتكب الذنوب ، فترى المذنب إذا أراد الصلاة شقّ عليه ذلك بسبب ذنب ارتكبه ، وهكذا فقد يكون الإصر شخصياً .

ومن ذلك ما ورد في الحديث :

[وإن العبد ليُحرَم الرزق بالذنب يصيبه] [1]

وفي الحديث أن المؤمن إذا نسي آية قد حفظها فإن ذلك بسبب ذنب ارتكبه كما روى الإمام مسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

[لا يقل أحدكم : نسيت آية كيت وكيت ، بل هو نُسّي] [2]

وأخرج أبو عبيد من طريق الضحاك بن مزاحم موقوفاً قال :

(ما من أحد تعلم القرآن ثم نسيه إلا بذنب أحدثه ، لأن الله تعالى يقول :

{ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم }

ونسيان القرآن من أعظم المصائب) [3]

وأما قوله تعالى :{ ربنا ولا تحمّلنا ما لا طاقة لنا به } أي كل مالا تطيقه أنفسنا ولا تقدرعلى تحمّله من البلاء والتكاليف وغير ذلك ، أما مالَنا طاقة به إذا تحمّلناه فقد يُدفع بِطاقتنا وصبرنا ودعائنا .

ولا تفيد الآية مفهوم المخالفة ، ولكن إذا وقع ذلك فيكون من باب المصائب والابتلاء ، ونسأل الله العافية . اهـ

<u>-*تذكرة</u>

ومما قيل في المحبة :

قامت تظلّلني من الشمس نفس أعزّ علي من نفسي
قامت تظللني ومن عجب شمس تظلّلني من الشمس

والعشق المذموم هو أن يلقي الشيطان صورة المعشوقة في قلب العاشق فيراها على غير حقيقتها ، بل يراها على أحسن الوجوه في الرقة والجمال ، وربما تكون حقيقتها غير ذلك ، ولكنه عشق تلك الصورة التي ألقاها الشيطان في مخيّلته ، وإذا ذُكر له عيوب عشيقته لا يلتفت إلى ذلك ،

---

[1] طرف حديث في المسند ٢١٣٧٩ عن ثوبان رضي الله تعالى عنه

[2] كتاب صلاة المسافرين وقصرها

[3] انظره في فتح الباري ٢٥٨/١٤

لأن عشقه لمحبوبته قد أعمى قلبه وأصمّه عن رؤية وسماع عيوبها ، بل يراها في غاية الحسن والكمال .
وفي الحديث عن أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :
[حبَك الشيء يُعمي ويُصمّ] [١]
وقد أشار القرآن إلى العشق الإلهي المحمود ، ولم يصرّح باسمه فقال تعالى :
{ والذين آمنوا أشد حباً لله } الآية . اهـ .
-*لطيفة
إن السلامة من سلمى وجارتها أن لا تَمُرّ على حال بواديها
وكان رضي الله عنه إذا رأى الوجوه يعلوها الهم والغم قال مؤانساً :
وقلقلتُ بالهم الذي قد قلقل الحشا قلاقل همّ كلهن قلاقل [٢]
وقال :
ما أحسن الدين والدنيا إذا اجتمعا وأقبح الكفر والإفلاس في الرجل
ولما تضايق أبو نواس في آخر زمنه من الخلفاء قال :
غير مأسوف على زمن ينقضي بالهم والحزن
إنما يرجو الحياة فتى عاش في أمْن من المحن
-* بيان حديث شريف
جاء في الحديث الذي رواه الإمام البخاري رحمه الله ورضي عنه أن النبي الكريم صلى الله عليه وسلم قال :
[ليكوننّ من أمتي أقوام يستحِلّون الحر والحرير والخمر والمعازف] [٣]

---

[١] سنن أبي داود كتاب الأدب والمسند ٢٠٧٠٥
[٢] قال في لسان العرب : قلقل الشيء قلقلة : حرّكه فتحرك واضطرب ، والاسم القلقال والقلاقل : الخفيف في السفر المعوان السريع التقلقل ، ورجل قلقال : صاحب أسفار ، وتقلقل في البلاد : إذا تقلّب فيها ، وفرس قلقل وقلاقل : جواد سريع ، وقلقل : أي صوت وهو حكاية
قال أبو الهيثم : رجل قلقل إذا كان خفيفاً ظريفاً ، والجمع قلاقل .
[٣] انظر صحيح البخاري كتاب الأشربة ، وقال الحافظ في الفتح :
قَوْله صلى الله عليه وسلم : (يَسْتَحِلُّونَ الْحِرَ)
ضَبَطَهُ اِبْن نَاصِر بِالْحَاءِ الْمُهْمَلَة الْمَكْسُورَة وَالرَّاء الْخَفِيفَة وَهُوَ الْفَرْج ، وَكَذَا هُوَ فِي مُعْظَم الرِّوَايَات مِنْ صَحِيح الْبُخَارِيّ ، وَلَمْ يَذْكُر عِيَاض وَمَنْ تَبِعَهُ غَيْره . وَأَغْرَبَ اِبْن التِّين فَقَالَ : إِنَّهُ عِنْد الْبُخَارِيّ بِالْمُعْجَمَتَيْنِ . وَقَالَ اِبْن الْعَرَبِيّ : هُوَ بِالْمُعْجَمَتَيْنِ

الحِرَ - بكسر الحاء - : الزنا .
وفي هذا دليل على أن السماع إلى المزامير والمعازف أمر منهي عنه شرعاً ، وهو من الكبائر لأنه قد ذكره مقروناً مع الخمر والزنا . اهـ .

-*فصل :

التوحيد - ثبوت الواسطة

لقد ثبتت الواسطة في نصوص الكتاب والسنة وإليك بيان ذلك مفصلاً :

ثبوت الواسطة في (الإحياء والإماتة):

قال تعالى : { لا إله إلا هو يحي ويميت ربكم ورب آبائكم الأولين } وغيرها من الآيات الدالة على تفرده سبحانه بالإحياء والإماتة .
ومع ذلك فقد قال تعالى :
{ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا }
وقال تعالى في قوم فرعون { يذبّحون أبنائهم ويستحيون نسائهم } - أي يبقونهن على قيد الحياة - .
وفي ذلك تجد أنه سبحانه أسند الفعل - وهو الإحياء - إلى المخلوق ، وذلك لأنه هو السبب في ذلك والواسطة فيه ، ولا ينافي هذا أن المحيي والمميت على الحقيقة وعلى وجه استقلالي ذاتي هو الله تعالى ، ولكنه سبحانه أقام أسباباً ووسائط لأفعاله ، فإن شاء أعملها وإن شاء أهملها ، فالأسباب أسباب وليست أرباباً ، ألا ترى إلى قوله تعالى { قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم } فأنتم أيها المؤمنون ما عليكم إلا أن تقاتلوا الكافرين ، ولكن لتعلموا أن الله من ورائكم - أي من حيث توارى عنكم - هو الذي يعذبهم ويقتلهم ، فأنتم أسباب ووسائط يعذب الله بكم الكفار ويقتلهم ، وهذا معنى قوله تعالى :
{ فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم } الآية .

ثبوت الواسطة في (التوفية):

قال تعالى { الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها } الآية .
وقال تعالى :{ وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار } الآية .
وقال سبحانه :
{ قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم ثم إلى ربكم ترجعون }الآية .
وقال تعالى :{ إن الذين توفّاهم الملائكة ظالمين أنفسهم } الآية .

تَصْحِيف ، وَإِنَّمَا رُوِّينَاهُ بِالْمُهْمَلَتَيْنِ وَهُوَ الْفَرْج وَالْمَعْنَى : يَسْتَحِلُّونَ الزِّنَا .
قَالَ اِبْن التِّين : يُرِيد اِرْتِكَاب الْفَرْج بِغَيْرِ حِلّه . اهـ

والتوفية هي القبض والاستيفاء ، ففي بعض الآيات أسند سبحانه التوفية - وهي قبض الروح من العبد سواء بموته أو بنومه - أسند ذلك سبحانه إلى نفسه على أنه المتوفي على الحقيقة .
وفي بعض الآيات أسند سبحانه فعل التوفية إلى ملك الموت وإلى الملائكة ، وذلك على سبيل الوساطة والسببية ، أي أنه سبحانه هو الذي يتوفى الأنفس لكن بواسطة ملك الموت والملائكة ، ولو شاء سبحانه لتوفاها بدون واسطة أو سبب .

ثبوت الواسطة في (الرزق):

قال تعالى : { إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين }.
وقال سبحانه : { قل من يرزقكم من السموات والأرض قل الله } الآية .
وغير ذلك من الآيات الدالة على أنه سبحانه هو الرزاق على الحقيقة ، ولكن ترى في بعض الآيات أنه سبحانه أسند الرزق إلى العبد على سبيل الواسطة والسبب فقال تعالى :
{ ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياماً وارزقوهم فيها } الآية .
وقال جل وعلا :
{وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا } .
فالعبد يرزق غيره أي يعطيه ويكون سبباً في رزق الله له ، وواسطة في إيصال الرزق له .

ثبوت الواسطة في (الهداية والإضلال) :

قال تعالى :
{ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ } الآية .
وقال جل وعلا :
{ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ }.
وقال سبحانه :
{ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ * وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ } الآية .
وغير ذلك من الآيات التي يبين فيها سبحانه أنه هو المتفرد بالهداية والإضلال حسب مشيئته سبحانه المقترنة بعلمه وحكمته سبحانه .
ومع ذلك فقد قال سبحانه :{ إنما أنت منذر ولكل قوم هاد }
وقال سبحانه { وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم صراط الله } الآية .

على أن الواسطة في هداية الخلق إلى الله تعالى هم الرسل عليهم السلام وأعظمهم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، فالله هو الهادي ولكن بواسطة رسله وما أنزل عليهم .
وتأمل في قوله تعالى : { إنما أنت منذر ولكل قوم هاد } أي : إنما أنت منذر وهاد لكل قوم - وهذا يعني أنه صلى الله عليه وسلم جاء للناس كافة كما في الحديث :
[كان كل نبي يُبعث إلى قومه خاصة ، وبعثت إلى كل أحمر وأسود] [1]
وقال تعالى : { قل يا أيها الناس إنما أنا رسول الله إليكم جميعاً }
وقال سبحانه :{ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً }
وقال جل وعلا : { قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا * وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا * وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا وقد أضلوا كثيراً }
وقال تعالى:{ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا * إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا }
وقال سبحانه مخبراً عن الشيطان : { إنه عدو مُضِلّ مبين }
وقال تعالى :{ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا } الآية .
وفي هذا أسند الإضلال إلى المخلوقات .
وقال جل وعلا :
{ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ} الآية
وقال سبحانه :
{ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ }
وقال تبارك وتعالى :
{ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ } .
وجاء في الحديث لما خطب صلى الله عليه وسلم في الأنصار :
[يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضلّالاً فهداكم الله بي ، وكنتم متفرقين فألّفكم الله بي ، وعالة فأغناكم الله بي]- وذلك بالغنائم التي غنموها عند حروبهم مع المشركين .
[كلما قال شيئاً قالوا : الله ورسوله أَمَنُّ] [2]
أي : المِنّة والفضل لله ورسوله علينا .

---
[1] صحيح مسلم كتاب المساجد ومواضع الصلاة عن جابر رضي الله عنه
[2] صحيح البخاري كتاب المغازي وصحيح مسلم كتاب الزكاة

فتأمل في قوله صلى الله عليه وسلم : [بي] ففيه إثبات وساطته صلى الله عليه وسلم في الهداية والنصر والتآلف .
وقد قال تعالى :{ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ } الآية .
فقد أسند سبحانه الفعل إلى نفسه ، وهو الذي ألّف بينهم وجمعهم على الهدى ، ولكن هذا بواسطة رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي قال :
[فألّفكم الله بي] فافهم .
وقال سبحانه : { وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا } الآية .
فأسند سبحانه زيادة الإيمان إلى الآيات ، وهذا من باب إسناد الفعل إلى السبب والواسطة ، ويسمى عند أهل اللغة مجازاً عقلياً .
ولكنه سبحانه أسند في آية أخرى فعل زيادة الهدى والإيمان إليه جل وعلا على أنه المسبب للأسباب على الحقيقة فقال تعالى :
{ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ * وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ }
وقال سبحانه : { ويزيد الله الذين اهتدوا هدى }

<u>ثبوت الواسطة في (تزكية النفوس من الشرك والدنس):</u>

قال تعالى :{ ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبداً ولكن الله يزكي من يشاء } الآية
وقال تعالى في مواقف سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم مع العالم :
{ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ } الآية
وقال تعالى :{ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ } الآية .

<u>ثبوت الواسطة في (هبة الأولاد) :</u>

قال الله تعالى :
{ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ } الآية .
فهو سبحانه الوهاب على الحقيقة ، والمعطي على الحقيقة ، ولكنه سبحانه قد يُسنِد فعل الهبة إلى خلقه ، فقد قال سبحانه في قصة مريم عليها السلام لما جاءها جبريل عليه السلام :
{ قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً }
وفي قراءة متواترة : { ليهب لك غلاماً زكياً }

ثبوت الواسطة في (الإجارة)

قال سبحانه :{ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ } الآية

وقال تعالى :

{ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ } الآية ، فالمجير والمؤمّن على الحقيقة هو الله تعالى ، ولكن قد يكون ذلك بواسطة عباده ، فأسند فعل الإجارة إلى العبد على أنه الواسطة في ذلك .

وجاء في مصنف ابن أبي شيبة رحمه الله :

عن عبد الرحمن بن سلمة أن رجلاً أمّن قوماً وهو مع عمرو بن العاص وخالد بن الوليد وأبي عبيدة بن الجراح ، فقال عمرو وخالد : لا نجير من أجار ، فقال أبو عبيدة : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :
[يجير على المسلمين بعضهم].

وعن أبي عبيدة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :
[يجير على الناس بعضهم].

وعن أبي أمامة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :
[يجير على المسلمين الرجلُ منهم].

وعن أم هانئ ابنة أبي طالب قالت :
لما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة فرَّ إليَّ رجلان من أحمائي - جمع حمو وهو قريب الزوج - فأجَرْتهما ، - أو قالت كلمة تشبهها - قالت : فدخل عليّ أخي علي بن أبي طالب فقال : لَأقتلنّهما ، قالت : فأغلقتُ الباب عليهما ، ثم جئت رسول الله صلى الله عليه وسلم بأعلى مكة فقال : [مرحباً وأهلاً بأم هانئ ، ما جاء بك] ؟
قالت : قلت : يا نبي الله ، فرّ إلي رجلان من أحمائي فدخل عليّ أخي علي بن أبي طالب فزعم أنه قاتلهما ، فقال : [لا ، قد أجَرْنا من أجَرْتِ وأمّنا من أمّنْتِ].

وعن سعيد بن أبي هند عن أبي مرة عن أم هانئ قال : حدثتني قالت :

فرّ إليّ رجلان من أحمائي يوم الفتح ، فأجرتهما فدخل علي أخي فقال : لأقتلنهما ، فأغلقت عليهما ، ثم أتيت النبي صلى الله عليه وسلم ، قال :
[مرحباً وأهلاً بأم هانئ ، ما جاء بك] ؟ فأخبرته فقال صلى الله عليه وسلم
[قد أجرنا من أجرت وأمنا من أمنت] قالت : فجئت فمنعتُهما.

وفي سنن أبي داود رحمه الله :

عن السيدة عائشة رضي الله عنها قالت :
[إن كانت المرأة لتجيرُ على المؤمنين فيجوز].

وقال الإمام المناوي في فيض القدير :

(ذمة المسلمين واحدة) أي هي كشيء واحد ، لا تختلف باختلاف المراتب ، ولا يجوز نقضها بتفرّد العاقد بها.
قال القاضي : والذمة : العهد سمي به لأنه يُذمّ متعاطيه على إضاعته ، وقال غيره : الذمة ما يُذم على إضاعته من عهد أو أمان ، ومنه سمي المعاهَد ذمياً (فإذا جارت عليهم جائرة) أي إذا أجار واحد من المسلمين - شريف أو وضيع إذا أجار كافراً أي أعطاه ذمته (فلا تخفروها) بخاء وراء وهو بضم التاء وكسر الفاء أصوب من فتح التاء وضم الفاء ، أي : لا تنقضوا عهده وأمانه ، بل امضوا وإن كان عبداً أو ضعيفاً أو أنثى (فإن لكل غادر لواء) زاد في رواية : عند استه (يعرف به يوم القيامة) والمراد النهي عن نقضها ، وأن من نقض ذمة غيره فكأنه نقض ذمة نفسه . اهـ .

وقال الإمام النووي في شرحه صحيح مسلم :

قوله صلى الله عليه وسلم : (فمن أخفر مسلماً فعليه لعنة الله)
معناه : من نقض أمان مسلم فتعرض لكافر أمّنه مسلم ،
قال أهل اللغة : يقال : أخفرت الرجل إذا نقضت عهده ، وخفرته إذا أمنته .

اهـ .

وقال الإمام محمد بن يوسف الصالحي الشامي في كتابه سبل الهدى والرشاد عند ذكره أسماء النبي الكريم صلى الله عليه وسلم :

" المجير ": اسم فاعل من أجار، أي أنقذ من استجار به ، وأغاث من استغاث به. اهـ

وقال الإمام البوصيري رحمه الله ورضي عنه :

جِوَارُكَ منْ جَوْرِ الزَّمانِ يُجِيرُ   وَبِشْرُكَ لِلرَّاجي نَدَاكَ بَشِيرُ

فضلتَ بني الدنيا ففضلك أوَّل   وَأوّلُ فضلِ الأوَّلِينَ أخِيرُ

ثبوت الواسطة في (المغفرة والعفو) :

قال سبحانه : { ومن يغفر الذنوب إلا الله } الآية وغير ذلك من الآيات ، ولكنه سبحانه أسند المغفرة إلى العبد على معنى الصفح والمجاوزة والعفو

قال تعالى :{ ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور }

وقال سبحانه :{ وإذا ما غضبوا هم يغفرون } الآية

وقال جل وعلا : { قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله } الآية

وقال تعالى :{ وأن تعفوا أقرب للتقوى } الآية

وقال تعالى : { فاعف عنهم واصفح } الآية

وقال تعالى :{ والعافين عن الناس } الآية

ثبوت الواسطة في (الشفاعة) :

الشفاعة ملكاً وحقيقة هي لله وحده سبحانه ، قال تعالى :

{ أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ * قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ }.

ومع ذلك فقد ثبت أن للملائكة شفاعة كما قال تعالى فيهم :

{ ولا يشفعون إلا لمن ارتضى } الآية

وثبت أن لرسول الله صلى الله عليه وسلم الشفاعة العظمى ، ثم شفاعة في طبقات المؤمنين ، وأن للرسل شفاعة ، وللأولياء والعلماء والصالحين شفاعة ، كما دلت عليه الأحاديث الصحيحة .[1]

وقال تعالى : { مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا } الآية .

ثبوت الواسطة في (تدبير الأمر):

قال تعالى :{ ثم استوى على العرش يدبّر الأمر } الآية

---

[1] انظر بحث الشفاعة في كتاب (الإيمان بعوالم الآخرة) لمولانا الشيخ رضي الله عنه .

وقال تعالى : { قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمْ مَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ } الآية

فتدبير أمر السموات والأرض بيد الله وحده ، ولكنه سبحانه سخّر ملائكة وأمرهم بتدبير ما أراد وتنفيذه على ما قضى ، وأسند إليهم التدبير على سبيل الواسطة ، فقال تعالى :

{ فالمدبّرات أمراً } أي : الملائكة الذين يدبّرون أوامر الله في مخلوقاته .

ومن جملة الآيات التي أسند فيها سبحانه الفعل إلى السبب : (دخول الجنة) فاعلم أن الله تعالى هو الذي يدخل عباده المؤمنين الجنة ، فقال تعالى في أكثر من آية :

{ إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار } الآية

وقد ورد في الحديث قول بعض الصحابة لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(دُلّني على عمل يدخلني الجنة ويباعدني عن النار) [١] الحديث .

وورد في الحديث :

[بَعُدَ من أدرك أبويه عند الكِبَر أو أحدهما فلم يدخلاه الجنة] [٢]

فالعمل الصالح يدخل صاحبه الجنة ، والوالدان يُدخلان ولدهما البارّ بهما الجنة ، وهذا الإسناد على سبيل الواسطة والسببية ، لأن الله تعالى هو الذي يُدخل عباده الجنة .

أما ما ورد في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

[لن يُدخل أحداً منكم عمله الجنة ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟

قال : ولا أنا ، إلا أن يتغمدني الله منه بفضل ورحمة] [٣]

فهذا يعني أن عمل الإنسان الصالح لا يوجب على الله تعالى أن يدخله الجنة ، وإنما تَفَضَّل سبحانه على عباده المؤمنين الصالحين ووعدهم أنهم إذا عملوا الصالحات فسوف يدخلهم الجنة فضلاً منه ، لا حقّاً واجباً عليه ،

---

[١] المسند ١٥٣٢١

[٢] المعجم الكبير للطبراني ومستدرك الحاكم

[٣] صحيح البخاري كتاب المرضى وصحيح مسلم كتاب صفة القيامة والجنة والنار

إذ لا أحد يوجب على الله أو يُحِقّ عليه شيئاً إلا إذا حَقّ سبحانه وأوجب على نفسه ذلك ، كما دلت عليه النصوص ، قال سبحانه :
{ كتب ربكم على نفسه الرحمة } الآية
وفي الحديث عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال :
كنت ردف النبي صلى الله عليه وسلم على جمل أحمر ، فقال : [معاذ ، فقلت : لبيك يا رسول الله ، فقال : تدري ما حق الله على العباد ؟
قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : فإن حقّه عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً " ، ثم قال : هل تدري ما حق العباد على الله إذا هم فعلوا ذلك ؟ "
قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : حقُّهم عليه أن يدخلهم الجنة] [1]
أي بفضله جل وعلا ، لأنهم بعملهم وإيمانهم صاروا أهلاً لأن يتفضل الله عليهم ، قال سبحانه :{ ويؤت كل ذي فضل فضله } الآية ، أما الكافرون فليسوا أهلاً لأن يتفضل الله عليهم .
وإن إسناد الفعل إلى الواسطة أو السبب ليس مجازاً عقلياً ، ولكنه من باب الإسناد إلى السبب ، ودليله قوله تعالى :{ ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون } والباء في الآية : باء السببية ، أي بسبب أعمالكم الصالحة .
ولما أرسل سبحانه طائفة من الملائكة إلى قوم لوط عليه السلام لإنزال العذاب عليهم قال تعالى في ذلك :
{ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ * مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ ببعيد}
وقال تعالى :
{ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ * فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ } .
فأسند سبحانه الفعل إلى نفسه على أنه الفعّال على الحقيقة .
ولكنه جل وعلا أسند الفعل في آيات أخرى إلى ملائكته على أنهم السبب في ذلك والواسطة في العذاب ، وهم الذين يدبّرون أوامره سبحانه في خلقه ، فقال جل وعلا في سورة العنكبوت مخبراً عن ملائكته المرسلين إلى قوم لوط :
{ إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون }
و في سورة الذاريات :
{ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ * لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ * مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ } .

---

[1] المعجم الكبير للطبراني واللفظ له والمسند ٢١٠٥٨

ثبوت الواسطة في (السؤال والاستعانة) :
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لابن عباس :
(إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله) [1] الحديث .
إن المسؤول على الحقيقة هو الله تعالى ، لأنه سبحانه هو وحده الذي يملك حوائج السائلين ، سواء كانوا سائلي القال أو الحال ، أما سؤال الحال والذات فهو المراد من قوله تعالى :
{ وآتاكم من كل ما سألتموه } أي سؤال ذات وحال ولسان ، أحوالكم وذواتكم سألت الله أن يسخّر لها الشمس والقمر والهواء والبحر والأنهار ، وهي التي لابد منها في استمرار حياة الإنسان على وجه الأرض ،
وهو المراد من قوله تعالى :
{ وقدّر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين }
أي ما يكفي ويسد حاجة السائلين بسؤال الحال والذات ، وهي أسباب معايشهم التي لابد منها لحياتهم .
وهذا معنى اسمه سبحانه : (الصمد) أي المقصود في الحاجات كلها والعالم كله صامد أي : قاصد ربه في حاجاته الذاتية والحالية والقولية وهكذا ...
ولا يعني قوله صلى الله عليه وسلم : [إذا سألت فاسأل الله]
لا يعني أن لا تسأل غير الله في حاجة لك ، فقد يسأل المرء غيره أن يدلّه على الطريق ، أو أن يعينه على دابته ، أو قد يسأل عن أمر دينه ، وهكذا ، على أن العبد المسؤول في ذلك هو واسطة وسبب ، وأن مسبّب الأسباب هو الله تعالى ولذلك قال تعالى :
{ وأما السائل فلا تنهر } فأثبت سبحانه للعبد سؤال غيره ، وأوصى العبد المسؤول أن لا ينهر سائله بل يجيبه على قدر استطاعته .
وقال تعالى :{ فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون }
واعلم أن أعظم عبد مسؤول هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الذي قال الله تعالى فيه :
{ وإذا سألك عبادي عني } الآية
ولم يقل جل وعلا : (وإذا سأل عبادي) بل قال عز وجل :{ سألك }
ليدل على أنه صلى الله عليه وسلم الواسطة العظمى بين الله وخلقه .
ولهذا نظائر كثيرة وردت في الآيات :
{ ويسألونك عن المحيض }

---

[1] طرف حديث في سنن الترمذي كتاب صفة القيامة والرقائق والورع

{ يسألونك عن الخمر والميسر }
{ يسألونك عن الأهلة }
وغير ذلك من الآيات التي تثبت وساطة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بين الله وخلقه .
ومما يدل على مشروعية سؤال الواسطة قوله تعالى :
{ وأما السائل فلا تنهر }
وفي الحديث لما قال صلى الله عليه وسلم لربيعة بن كعب الأسلمي :
[سل]
قال : (أسألك مرافقتك في الجنة)[1] فافهم .
فأقرّه صلى الله عليه وسلم ، ولم يقل له : أشركتَ ، بل اسأل الله .
بل جاء في رواية أنه صلى الله عليه وسلم قال :
(فإني فاعل ، فأعِنّي على نفسك بكثرة السجود) [2] أي أعدّ نفسك لهذا المقام
وأما قوله صلى الله عليه وسلم :(وإذا استعنت فاستعن بالله)
أي اعلم أن المعين لك على الحقيقة هو الله تعالى ، ولا أحد يملك الإعانة إلا الله ، ولكنه سبحانه قد يسخّر في عونك مَن يحمل متاعك على دابتك ، أو يأخذ بيدك إذا زلّت قدمك ، أو يعينك في أمر دنيوي أو ديني .
كما ورد أن الزوجة الصالحة تعين الرجل على دينه ففي الحديث عن ثوبان رضي الله عنه قال :
لما أُنزلت {الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله }
قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض أسفاره ، فقال بعض أصحابه : قد نزل في الذهب والفضة ما نزل ، فلو أنا علمنا أيّ المال خير اتخذناه .
فقال صلى الله عليه وسلم : [أفضله لسانٌ ذاكر ، وقلب شاكر ، وزوجة مؤمنة تعينه على إيمانه] [3]
وفي رواية : [تعينه على أمر الآخرة] [4]
وفي الحديث : [والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه][5]

---

[1] صحيح مسلم كتاب الصلاة
[2] مسند الشاميين للطبراني وحلية الأولياء لأبي نعيم
[3] المسند ٢١٣٥٨
[4] المسند ٢١٤٠١
[5] صحيح مسلم كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار

وفي الحديث : [وتعين الرجل في دابته فتحمله عليها ، أو ترفع له عليها متاعه صدقة] [1]
فأثبت للعبد عوناً على أنه ـ أي العبد ـ الواسطة ، وأما المعين على الحقيقة فهو الله تعالى .
وفي الآية : { استعينوا بالصبر والصلاة } .
ويجوز طلب الإعانة من الواسطة فقد أخبر سبحانه عن ذي القرنين عليه السلام أنه قال :{ فأعينوني بقوة }.
ولا ينافي هذا قوله تعالى :(إياك نعبد وإياك نستعين } كما تقدم .
وقد أسند وأثبت الشارع للعبد تفريج الكرب عن غيره على أنه الواسطة والسبب في ذلك .
إلا أن مفرِّج الكروب على الحقيقة هو الله تعالى ، فقد ورد في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
[من فرّج عن مسلم كربة من كرب الدنيا فرّج الله عنه كربة من كرب الآخرة ، ومن ستر أخاه المؤمن في الدنيا ستره الله في الآخرة ، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه] [2]

ثبوت الواسطة في (الاستغاثة):

اعلم أن المغيث على الحقيقة هو الله تعالى وحده ، ولكنه جل وعلا قد يُسند فعل الإغاثة إلى العبد على سبيل السبب والواسطة .
قال تعالى :{ إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم }
وقال تعالى :{ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ}
وفي الحديث عن البراء رضي الله عنه قال :
مرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوم جلوس في الطريق ، قال :
[إن كنتم لا بد فاعلين فاهدوا السبيل ، وردّوا السلام ، وأغيثوا المظلوم] [3]
أما ما ورد في الحديث الذي رواه الطبراني بالسند الجيد أن ناساً شَكَوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم إيذاء بعض المنافقين لهم فقال صلى الله عليه وسلم : [إنه لا يُستغاث بي] فهذا مقيّد ،

---

[1] صحيح مسلم كتاب الزكاة
[2] السنن الكبرى للنسائي وأصله في صحيح مسلم كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار
[3] المسند ١٧٨٣٤

لأن هؤلاء كانوا حديثي عهد بإيمان ، وليلفتهم صلى الله عليه وسلم إلى التوحيد الخالص ، حتى يتمكن في قلوبهم أنه لا يضر ولا ينفع إلا الله .
وهذا كما هو الشأن في كثير من الأحكام التي جاء تحريمها في الأصل ، وجاء تحريم ما يجرّ إليها أو يوهِم الوقوع فيها كزيارة القبور
فقد قال صلى الله عليه وسلم :
[كنت نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزوروها] [١]
وكذا قوله صلى الله عليه وسلم بعدما نزل تحريم الخمر :
[كنت نهيتكم عن الأوعية فانتبذوا فيها واجتنبوا كل مُسْكر][٢]
لأنهم كانوا يصنعون الخمر بنقعها في القرب وغيرها ، فحرّم في البدء الخمر، ونقْع العصير في القرب ، ثم أجاز لهم نقع العصير في القرب ما لم يتخمر أو يسكر [٣].
وقد أجمع أهل الموقف في الآخرة على جواز الاستغاثة بسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وطلب الشفاعة منه ، كما ورد في رواية البخاري في حديث الشفاعة أن أهل الموقف [استغاثوا بآدم ثم بموسى ثم بمحمد صلى الله عليه وسلم] الحديث [٤].

---

[١] سنن النسائي كتاب الأشربة واللفظ له وصحيح مسلم كتاب الجنائز
[٢]سنن ابن ماجه كتاب الأشربة و سنن النسائي كتاب الأشربة
[٣] جاء في شرح النووي لصحيح مسلم :
وأما معنى النهي فهو أنه صلى الله عليه وسلم نهى عن الانتباذ فيها وهو أن يجعل في الماء حبات من تمر أو زبيب أو نحوهما ليحلو ويشرب ، وإنما خُصّت هذه بالنهي لأنه يسرع إليه الإسكار فيها فيصير حراماً نجساً ، ويبطل ماليته ، فنهى عنه لما فيه من إتلاف المال ولأنه ربما شربه بعد إسكاره من لم يطّلع عليه ، ولم ينه عن الانتباذ في أسقية الأدم بل أذن فيها لأنها لرقّتها لا يخفى فيها المسكر ، بل إذا صار مسكراً شقها غالباً .
ثم إن هذا النهي كان في أول الأمر ثم نسخ بحديث بريدة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : [كنت نهيتكم عن الانتباذ إلا في الأسقية ، فانتبذوا في كل وعاء ولا تشربوا مسكراً] . رواه مسلم في الصحيح .
هذا الذي ذكرناه من كونه منسوخاً هو مذهبنا ومذهب جماهير العلماء .
قال الخطابي : القول بالنسخ هو أصح الأقاويل .
[٤]صحيح البخاري كتاب الزكاة

كما طلب أهل الموقف ـ بمن فيهم المؤمنون والكافرون والمنافقون ـ طلبوا الشفاعة من سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ففي الحديث أنهم يقولون : (يا محمد اشفع لنا إلى ربك فليقض بيننا ، فيقول صلى الله عليه وسلم : [أنا لها] [1]

ولم يقل لهم : أشركتم ، ولم ينههم عن مسألتهم ، بل أقرّهم وأجابهم صلى الله عليه وسلم .

وكما أن لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في الآخرة شفاعات متعددة فإن له في الدنيا شفاعات ، كما دل عليه حديث الضرير الذي علّمه صلى الله عليه وسلم الدعاء وفيه :

(اللهم فشفعه فيّ)[2]- أي : اللهم شفعه فيّ في الدنيا ورُدَّ علي بصري - ، وقد أجابه الله تعالى إلى ذلك .

ولا تقتصر شفاعته صلى الله عليه وسلم في الدنيا حال حياته الدنيوية فقط ، وإنما يشفع صلى الله عليه وسلم في أهل الدنيا لمن طلب منه ذلك ، وهو صلى الله عليه وسلم في الحياة البرزخية العالية .

ومما يدل على هذا توسل الصحابة بهذا الدعاء الذي علّمه صلى الله عليه وسلم للضرير ودعا به .

وقد دعا به الصحابة مِن بعده كما في الحديث أن عثمان بن حنيف علّم الدعاء لرجل من التابعين كانت له حاجة عند عثمان بن عفان رضي الله عنه زمن خلافته رضي الله عنه وقضيت حاجة الرجل[3] .

وقد أفرد الفقهاء والمحدثون باباً في دعاء الحاجة ، وذكروا فيه الدعاء الذي علمه صلى الله عليه وسلم للضرير فأجابه الله تعالى .

ويجوز سؤال الواسطة أو طلب الإعانة أو الإغاثة منها كما تقدّم ، ولا يعني هذا شِركاً ، لأن السائل يعلم أن المعين والمغيث والمفرّج على الحقيقة هو الله تعالى ، وقد سخّر سبحانه وسائط ونصب أسباباً لذلك ، وهو سبحانه مسبِّب الأسباب ، فإن شاء أعملها لما خصّها ، وإن شاء أهملها ، فالأسباب أسباب وليست أرباباً .

ومما يدل على ذلك قوله تعالى في قصة ذي القرنين عليه السلام :

{ فأعينوني بقوة } الآية

وقوله تعالى :{ وأما السائل فلا تنهر }

---

[1] المسند ٢٤١٥ وأصله في صحيح البخاري كتاب التوحيد

[2] سنن الترمذي كتاب الدعوات

[3] المعجم الصغير للطبراني ودلائل النبوة للبيهقي

وفي الحديث كما تقدم قول ربيعة بن كعب الأسلمي رضي الله عنه لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم :
(أسألك مرافقتك في الجنة)
وفي الحديث الذي رواه البخاري لما كان صلى الله عليه وسلم في المسير إلى غزوة ، وجعل عامر بن الأكوع يَحْدو ، فقال صلى الله عليه وسلم : من السائق ؟ قال : عامر بن الأكوع ، فقال صلى الله عليه وسلم : يرحمه الله ،- وكان الصحابة يعلمون أنه صلى الله عليه وسلم إذا قال ذلك لأحد وهم في غزوة دلّ ذلك على أنه سيُقتل في سبيل الله - فلما سمع عمر ذلك من رسول الله صلى الله عليه وسلم أسرع على ناقة ، وقال لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم :
يا رسول الله لولا متّعتنا به [1]- أي هلّا أطلت عمره ، وتركته يعيش بيننا ونتمتّع به بيننا - ولم يَنْه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم عمر رضي الله عنه عن سؤال ذلك .
إلا أن عامراً رضي الله عنه سينال مقام الشهادة بدعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم له : [يرحمه الله] .
وفي رواية البخاري من حديث الشفاعة أن أهل الموقف :
[استغاثوا بآدم ثم بموسى ثم بمحمد صلى الله عليه وسلم]
أي طلبوا الغوث من سيدنا آدم ثم من سيدنا نوح ثم من سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فشفع بهم .
ولم يقل لهم سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(لا حاجة لوساطتي ووسيلتي بينكم وبين الله تعالى ، فتوجّهوا أنتم إلى ربكم ، وسَلُوه كشف الكرب عنكم).
بل إنه صلى الله عليه وسلم أقرّهم وقبل منهم ودعا لهم .

وكما أن هذا حاصل في الآخرة فقد وقع في حياته صلى الله عليه وسلم الدنيوية مِثْله كثيراً ، فكم من صحابي سأل النبي صلى الله عليه وسلم أن يدعو له لحاجة فلم يردّه صلى الله عليه وسلم ، ولم يقل له :
(لا حاجة لوساطتي فادع أنت ، ولا واسطة بين العبد وربه) .
بل دعا له صلى الله عليه وسلم ونال مراده .

[1] صحيح البخاري كتاب الدعوات

فمن ذلك مثلاً عندما حدّث صلى الله عليه وسلم عن سبعين ألفاً من أمته يدخلون الجنة بغير حساب فقام سيدنا عكاشة بن محصن رضي الله عنه فقال : يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم قال : [اللهم اجعله منهم] [1]

وفي رواية لمسلم : فقال صلى الله عليه وسلم : [أنت منهم]

ولم ينكر صلى الله عليه وسلم عليه ، ولم يقل له : بل ادع الله أنت

وهذا سيدنا ربيعة بن كعب الأسلمي رضي الله عنه خادم ماء وضوء النبي صلى الله عليه وسلم لما قال له صلى الله عليه وسلم : [سَلْ]
قال : أسألك مرافقتك في الجنة

فقال صلى الله عليه وسلم : فأعنّي على نفسك بكثرة السجود [2]

وفي رواية الطبراني فقال صلى الله عليه وسلم :

[إني فاعل ، فأعنّي بكثرة السجود][3]

ولم يقل صلى الله عليه وسلم له: سل الله ولا تسلني .

وهذه أم سليم تأتي بولدها أنس بن مالك رضي الله عنه خادماً لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتقول له : يا رسول الله خويدمك فادع الله له ، فقال صلى الله عليه وسلم : [اللهم أكثر ماله وولده ، وأطِل عمره ، واغفر له] ، قال سيدنا أنس : فكثر مالي حتى صار يطعم في السنة مرتين ، وكثر ولدي حتى قد دفنت من صلبي أكثر من مائة ، وطال عمري حتى قد استحييت من أهلي ، واشتقت لقاء ربي ، وأما الرابعة ، يعني المغفرة [4]

---

[1] انظره في صحيح البخاري كتاب الرقاق عن أبي هريرة رضي الله عنه وصحيح مسلم كتاب الإيمان
[2] انظر صحيح مسلم كتاب الصلاة
[3] انظر المعجم الكبير للطبراني
[4] رواه أبو يعلى في مسنده بهذا اللفظ وأصله في صحيح مسلم كتاب المساجد ومواضع الصلاة

وعند البخاري في الأدب المفرد قال أنس رضي الله عنه :

فدعا لي بثلاث ، فدفنت مائة وثلاثة ، وإن ثمرتي لتطعم في السنة مرتين ، وطالت حياتي حتى استحييت من الناس ، وأرجو المغفرة .

وهذا الصحابي الجليل الذي فقد بصره جاء إلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له : يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي رَجُلٌ أَعْمَى، فَادْعُ اللَّهَ أَنْ يَشْفِيَنِي [١]

وهذا لبيد بن ربيعة رضي الله عنه يسأل النبي صلى الله عليه وسلم أن يدعو بنزول الغيث ، وذلك لما اشتد الجَدْب على مضر ، فوفد على النبي صلى الله عليه وسلم وفد قيس وفيهم لبيد [٢] فوقف بين يدي سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنشده :

أَتَيناكَ يا خَيرَ البَرِيَّةِ كُلِّها ... لِتَرحَمَنا مِمّا لَقينا مِنَ الأَزلِ [٣]
أَتَيناكَ وَالعَذراءُ يَدمى لَبانُها [٤] ... وَقَد ذَهِلَت أُمُّ الصَبِيِّ عَنِ الطِفلِ
وَأَلقى تَكَنّيهِ الشُجاعُ اِستِكانَةً ... مِنَ الجوعِ صُمتاً لا يُمِرُّ وَلا يُحلي
وَلا شَيءَ مِمّا يَأكُلُ الناسُ عِندَنا ... سِوى العِلهِزِ [٥] العامِيِّ وَالعَبهَرِ [٦] الفَسلِ [٧]
وَلَيسَ لَنا إِلّا إِلَيكَ فِرارُنا ... وَأَينَ يَفِرُّ الناسُ إِلّا إِلى الرُسلِ
فَإِن تَدعُ بِالسُقيا وَبِالعَفوِ تُرسِلِ ... السَماءُ لَنا وَالأَمرُ يَبقى عَلى الأَصلِ [١]

---

[١] انظره في سنن النسائي الكبرى

[٢] هو لبيد بن ربيعة بن مالك أبو عقيل العامري أحد الشعراء الفرسان في الجاهلية ، أدرك الإسلام ، ووفد على النبي ، وتوفي سنة ٤١ هـ ، وقال عنه النووي في شرحه صحيح مسلم بعد أن ذكر قوله صلى الله عليه وسلم :
(أشعر كلمة تكلمت بها العرب كلمة لبيد : ألا كل شيء ما خلا الله باطل)
في هذا الحديث منقبة للبيد ، وهو صحابي ، وهو لبيد بن ربيعة رضي الله عنه .

[٣] قال في لسان العرب : الأزل : الضيق والشدة ، والأزل : الحبس وشدة الزمان

[٤] قال في لسان العرب : أي يدمى صدرها لامتهانها نفسها في الخدمة ، حيث لا تجد ما تعطيه من يخدمها من الجدب وشدة الزمان .

[٥] قال في لسان العرب : العلهز : وبر يخلط بدماء الحلم كانت العرب في الجاهلية تأكله في الجدب ، وقال أبو الهيثم العلهز : دم يابس يدق به أوبار الإبل في المجاعات ويؤكل

[٦] قال في لسان العرب : العبهر الممتلئ شدة وغلظاً

[٧] قال في لسان العرب : الفسل هو الرديء الرذل من كل شيء

فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم يجرّ رداءه حتى صعد المنبر ، ثم رفع يديه إلى السماء فقال : [اللهم اسقنا غيثاً مغيثاً ، مريئاً [٢]، مريعاً [٣]، غدقاً [٤]، طبقاً [٥] ، عاجلاً غير رائث [٦]، نافعاً غير ضار ، تملأ به الضرع ، وتنبت به الزرع ، وتحيي الأرض بعد موتها] .

قال : فوالله ما ردّ صلى الله عليه وسلم يديه إلى نحره حتى ألقت السماء بأورامها ، وجاء أهل البطاح يصيحون : يا رسول الله ، الغرق الغرق ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

[اللهم حوالينا ولا علينا] ، فانجاب [٧] السحاب حتى أحدق بالمدينة كالإكليل ، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه ، ثم قال :

[لو كان أبو طالب حياً لقرّت عيناه ، من ينشدنا قوله ؟]

فقام علي بن أبي طالب ، فقال : يا رسول الله كأنك أردت قوله :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه   ثمال [٨]اليتامى عصمة للأرامل
يلوذ به الهُلّاك من آل هاشم   فهم عنده في نعمة وفواضل

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أجل » ، وقام رجل من كنانة فقال :

لك الحمد والحمد ممن شكر   سُقينا بوجه النبي المطر
دعا الله خالقَه دعوة   إليه وأشخص منه البصر
ولم يك إلا كلفّ الرداء   وأسرع حتى رأينا المطر
وفاق العوالي وعمّ البقاع   أغاث به الله عليا مضر
وكان كما قاله عمه   أبو طالب أبيض ذو غرر
به الله يسقيك صوب الغمام   وهذا العيان لذاك الخبر
فمن يشكر الله يلق المزيد   ومن يكفر الله يلق الغِير

---

[١] عزاه في كنز العمال للديلمي ورواه البيهقي في دلائل النبوة ٣١٣/٦ والطبراني في الأحاديث الطوال ٤٩/١ وابن حجر العسقلاني في الإصابة في معرفة الصحابة ٢٥/٣ وابن عدي في الكامل ٤٠٨/٣ وابن عساكر في تاريخ دمشق ١٨٩/١ وذكره ابن كثير في البداية والنهاية ٩٨/٦

[٢] محمود العاقبة لا ضرر فيه

[٣] المُخْصِبُ الناجع

[٤] الغَدَق بفتح الدال : المطَر الكِبار القَطْر

[٥] مالئاً للأرض مغطياً لها

[٦] الرائث : البطيء المتأخر

[٧] انْجَمَع وتَقَبَّض بَعْضُه إلى بعض وانْكَشَف

[٨] الثمال : المَلْجأ والغِيَاث. وقيل : هو المُطْعِم في الشِّدَّة

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن يك شاعر يحسن فقد أحسنت »[1]

وهذا سيدنا سواد بن قارب [2] رضي الله عنه يسأل النبي صلى الله عليه وسلم كذلك منشداً بين يديه صلى الله عليه وسلم :

فَأَشْهَدُ أنّ اللهَ لا شَيء غَيْرهُ وَأَنّكَ مَأْمُونٌ عَلَى كُل غَائبِ
وأَنَّك أَدْنَى المُرْسَلِينَ شَفَاعَة إلى اللهِ يا ابنَ الأكرَمينَ الأطايبِ
فَمُرنَا بمَا يَأتِيكَ يا خَيرَ مُرْسل وإنْ كَانَ فِيمَا جَاءَ شَيبُ الذوَائبِ [3]
وَكُنْ لي شَفِيعاً يَومَ لا ذُو شَفَاعةٍ سِوَاك بِمغْنٍ عن سَوَاد بن قَاربِ [4]

قال سواد رضي الله عنه : فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه ، وقال لي : [أفلحتَ يا سواد] .
وفي المستدرك :
قال سواد رضي الله عنه : ففرح رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه بإسلامي فرحاً شديداً حتى رئي في وجوههم .
قال : فوثب عمر : فالتزمه وقال : قد كنت أحب أن أسمع هذا منك . اهـ .

---

[1] انظر دلائل النبوة للبيهقي والأحاديث الطوال للطبراني وعزاه في كنز العمال للديلمي
[2] هو الصحابي الجليل سواد بن قارب الأزدي الدوسي ، عاش إلى خلافة عمر رضي الله عنه ، ومات بالبصرة سنة ١٥ هـ رضي الله عنه
[3] قال في لسان العرب : الذؤابة : الناصية ، وقيل : الذؤابة : منبت الناصية من الرأس ، والجمع الذوائب .
[4] إنشاد سواد بن قارب رضي الله عنه هذه الأبيات بين يدي سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم رواه الحاكم في مستدركه والبيهقي في دلائل النبوة والطبراني في المعجم الكبير والأحاديث الطوال وأبو نعيم الأصبهاني في معرفة الصحابة ودلائل النبوة وذكر ذلك الإمام ابن حجر في فتح الباري ١١/١٨٩ وفي الإصابة في معرفة الصحابة ١/٤٧٧ والإمام ابن كثير في تفسيره وغيرهم
وقال الحافظ ابن حجر في الإصابة بعد أن ذكر الخبر :
وله طريق أخرى أخرجها ابن شاهين وله طريق ثالثة أخرجها الحسن بن سفيان وله طريق رابعة أخرجها البخاري في تاريخه والبغوي والطبراني وله طريق خامسة أخرجها الحسن بن سفيان وأبو يعلى والحاكم والبيهقي والطبراني وأصل هذه القصة في صحيح البخاري من طريق سالم عن أبيه قال: ما سمعت عمر يقول لشيء إني لأظنه إلا كان كما قال قال: بينما عمر جالس إذ مر به رجل جميل فقال: لقد أخطأ ظني ، لو أن هذا على دينه ، أو لقد كان كاهنهم ، عَلَيّ الرجل ، فدعا له فذكر القصة مختصرة.اهـ

وهذا سيدنا حسان بن ثابت[1] رضي الله عنه يخاطب النبي الكريم صلى الله عليه وسلم فيقول :

يا ركن معتمِد وعصمة لائِذ　　وملاذ منتجِع [2]وجار مجاور
يا من تخيّره الإله لخلقه　　فحباه بالخلق الزكي الطاهر
أنت النبي وخير عصبة آدم　　يا من يجود كفيض بحر زاخر
ميكال معك وجبرئيل كلاهما　　مدد لنصرك من عزيز قاهر [3]

وهكذا غيره وغيره ، فلا تنكر وساطة النبي صلى الله عليه وسلم بين الحق والخلق ، وكل ذلك بعلم الصحابة وإيمانهم بمقام رسول الله صلى الله عليه وسلم وكرامته على الله تعالى ، وأن الله لا يخيّبه ولا يخزيه أبداً ، كما قال تعالى :

{ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }

فهل يخزي الله نبيه صلى الله عليه وسلم في قضايا الدنيا ؟ حاشا وكلا

فلما قال لبيد رضي الله عنه للنبي صلى الله عليه وسلم :

وَلَيسَ لَنا إِلّا إِلَيكَ فِرارُنا　　وَأَينَ يَفِرُّ الناسُ إِلّا إِلى الرُسلِ

لم يقل له النبي صلى الله عليه وسلم : (أخطأتَ أو أشركتَ) ، بل أكرمه وقام ودعا له بما جاء من أجله ، لأن لبيداً رضي الله عنه يعلم أنه طلب من الواسطة العظمى بين الحق والخلق وهو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وسأله الدعاء ، وهو صلى الله عليه وسلم يعلم منه ذلك ، وأن الأمر كله بيد الله تعالى ، لكن السبب والواسطة لا تُنكر ، لأن الذي شرعها وسبّبها ووسّطها هو الله تعالى ، فلم يقل له صلى الله عليه وسلم قل :
(وَأَينَ يَفِرُّ الناسُ إِلّا إِلى الله) مثلاً ، على أن المسؤول على الحقيقة ومن إليه الفرار على الحقيقة هو الذي لا ملجأ منه إلا إليه وهو الله تعالى ،

---

[1] هو سيدنا حسان بن ثابت بن المنذر الأنصاري الخزرجي ثم النجاري ، شاعر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأحد المخضرمين الذين أدركوا الجاهلية والإسلام ، عاش ستين سنة في الجاهلية ومثلها في الإسلام ، توفي رضي الله عنه سنة ٥٤ هـ ، وهو ابن عشرين ومائة سنة .

[2] قال في لسان العرب : والانتجاع والنجعة : طلب الكلإ ومساقط الغيث

[3] ذكره ابن عبد البر في الاستيعاب في معرفة الأصحاب ٨٢/١ وابن الأثير في أسد الغابة ١٨٧/١

قال جل وعلا : { ففرّوا إلى الله } أي آمنوا به والجؤوا إليه في جميع أموركم ، ولكن مع عدم تعطيل الوسائط والأسباب .
وفي قوله رضي الله عنه : (وَأَينَ يَفِرُّ الناسُ إلّا إلى الرُسلِ)
إشارة إلى حديث الشفاعة الطويل [1] الذي فيه :
(فيأتون آدم فيقولون : اشفع لنا عند ربك) فلم يقل لهم آدم عليه السلام : يا بنِيّ أشركتم بالله ، ولا حاجة للوساطة بينكم وبين ربكم ، بل أنتم توجهوا إلى ربكم وسلوه كشف أهوال الموقف عنكم ، بل اعتذر عن التقدم لهذا المقام ، فذهبوا إلى نوح عليه السلام ولم ينكر عليهم ذلك ، ثم إلى إبراهيم ثم موسى ثم عيسى عليهم السلام ثم يأتون إلى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، ولم يقل لهم : لا واسطة في شريعتي بين الحق والخلق ، فأنتم أيها الخلائق توجهوا إلى ربكم وسلوه كشف الكرب عنكم ، بل قبِل سؤالهم ووعدهم وقال : [أنا لها ، أنا لها] [2]
ثم ذهب وسجد لله تعالى وسأله حتى شفّعه الله تعالى بالخلائق ، وانفض أمرُهم إلى الحساب .
فالشفاعة لله وحده مِلكاً ومُلكاً ، لكنه سبحانه يأذن لمن يشاء أن يشفع ، وأعظم الشفعاء والشفيع الذي لا شفيع له : هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، الذي يفتح الله على يديه باب الشفاعات كلها .
وكما أن لرسول الله صلى الله عليه وسلم في الآخرة شفاعات متنوعة أعظمها : الشفاعة العظمى في أهل الموقف ، ثم في المؤمنين الذين جاءت أحاديثه صلى الله عليه وسلم تبين شفاعته لهم بسبب أعمال صالحة عملوها في الدنيا ، فَلَهُ صلى الله عليه وسلم شفاعات في الدنيا منها : شفاعته صلى الله عليه وسلم في الضرير الذي ردّ الله عليه بصره كما رواه الترمذي وأحمد وابن ماجه والحاكم وغيرهم [3]

[1] انظره في صحيح البخاري كتاب التوحيد وصحيح مسلم كتاب الإيمان
[2] طرف حديث في المسند ٢٤١٥ وأصله في صحيح البخاري كتاب التوحيد
[3] روى الحاكم عَنْ عُثْمَانَ بْنِ حُنَيْفٍ ، قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ وَجَاءَهُ رَجُلٌ ضَرِيرٌ، فَشَكَا إِلَيْهِ ذَهَابَ بَصَرِهِ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَيْسَ لِي قَائِدٌ، وَقَدْ شَقَّ عَلَيَّ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ: " ائْتِ الْمِيضَأَةَ فَتَوَضَّأْ، ثُمَّ صَلِّ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ قُلِ : اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ، وَأَتَوَجَّهُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّكَ مُحَمَّدٍ نَبِيِّ الرَّحْمَةِ، يَا مُحَمَّدُ إِنِّي أَتَوَجَّهُ بِكَ إِلَى رَبِّكَ فَيُجَلِّي لِي عَنْ بَصَرِي، اللَّهُمَّ شَفِّعْهُ فِيَّ، " ، قَالَ عُثْمَانُ : فَوَاللَّهِ مَا تَفَرَّقْنَا، وَلا طَالَ بِنَا الْحَدِيثُ حَتَّى دَخَلَ الرَّجُلُ وَكَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ بِهِ ضُرٌّ قَطُّ . اهـ
ثم قال الحاكم : هذا حديث صحيح على شرط البخاري ، ولم يخرجاه . اهـ .

وانظر وتأمل أنه إذا كانت أهوال الموقف الشديدة وشدائده المخيفة لم يكشفها الله تعالى عن الخلق إلا بواسطة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لمّا دعاه وتوجه إليه ثم قال له سبحانه :

[يا محمد ارفع رأسك وقل يسمع لك وسل تعط واشفع تشفع] [١]

فما بالك وما ظنك بأهوال وشدائد الدنيا التي تصيب المؤمن أحياناً ، أو النوازل التي تصيب طائفة من المؤمنين مثلاً ، والتي لا تُقارن بأهوال الآخرة ؟!

فهلا لجؤوا إلى الله تعالى بواسطة رسول الله صلى الله عليه وسلم ليشفع بهم .

فمن ذلك مثلاً ما ذكره الإمام الدارمي في سننه :

باب ما أكرم الله تعالى نبيه - صلى الله عليه وسلم - بعد موته

ثم أسند إلى أبي الجوزاء أوس بن عبد الله قال :

(قحط أهل المدينة قحطاً شديداً ، فشكوا إلى عائشة رضي الله عنها فقالت : انظروا قبر النبي صلى الله عليه وسلم ، فاجعلوا منه كوى إلى السماء ، حتى لا يكون بينه وبين السماء سقف .

قال : ففعلوا ، فمطرنا مطراً حتى نبت العشب ، وسمنت الإبل حتى تفتّقت من الشحم - فسمي : عام الفتق) [٢]

وتدبر في قوله تعالى :

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ } الآية ، فجيء بكلمة { دعاكم } ولم يقل : دعواكم ، وذلك ليبين أن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم هو الداعي إلى الله ، والناطق عن الله ، والمبلّغ عن الله ما أراد ، فهو رسوله وواسطته إلى خلقه .

وجاء في الآية :

{ يا قومنا أجيبوا داعي الله }.

وهو في سنن الترمذي كتاب الدعوات ومسند الإمام أحمد ١٦٦٠٤ وسنن النسائي الكبرى وصحيح ابن خزيمة بألفاظ متقاربة

[١] طرف حديث في صحيح البخاري كتاب التوحيد وصحيح مسلم كتاب الإيمان

[٢] وقد حكم عليه الحافظ ابن حجر العسقلاني بأنه حديث حسن وذلك في كتابه :

(هداية الرواة إلى تخريج أحاديث المصابيح والمشكاة) ٣٦٢/٥

وهو في النسخة المخطوطة المحفوظة في تركيا في الصفحة ٢٠٣

و ذكره الإمام محمد بن يوسف الشامي في سيرته ، والسمهودي في خلاصة الوفا بأخبار دار المصطفى .

قوله تعالى { لما يحييكم } مع أنهم أحياء بالحياة الجسمانية ، فالمراد لِما يحييكم بالحياة الأبدية التي تكون بحياة القلب والروح .
ولما كانت كل حياة تقتضي روحاً تبعث في صاحبها الحياة ، وقد جاء صلى الله عليه وسلم بما فيه حياة القلب والروح حياة الأبد ، فإن روح هذه الحياة هي الروح القرآني النازل عليه صلى الله عليه وسلم .
وهي المراد من قوله تعالى :{ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا }الآية ، فبهذه الروح القرآني - التي جاء بها رسول الله والتي لا تنال إلا بواسطته صلى الله عليه وسلم - بهذه الروح تحيا القلوب والأرواح إن هي استجابت لدعوته صلى الله عليه وسلم .
ولما كان الجسم الإنساني يحيا بالروح الإنساني التي ينفخها الملك فيه عندما يكون جنيناً في بطن أمه على تمام أربعة أشهر - كما جاء الحديث في بيانه [1] - فإن هذه الروح الإنساني التي ينفخها الملك يحيا بها الجسم الإنساني حياته الدنيوية ، ويستوي في هذا المؤمن والبر والفاجر والكافر .
واعلم أنه لابد لهذه الروح الإنساني من روح أخرى تحيا بها هذه الروح الإنسانية ، وهذه الروح إنما هي الروح القرآني المحمدي التي جاء بها سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .
فإن استجاب الإنسان لدعوته صلى الله عليه وسلم حَيِيَتْ روحه وقلبه بالروح القرآني المحمدي حياة الأبد ، وإن هو أعرض فقد ماتت روحه وقلبه ميتة الأبد ، وهذا المُعرض وإن كان جسمه حياً بالروح الإنسانية فحياته وحياة البهائم سواء ، ولذلك قال تعالى :
{ والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام } الآية ، فَهُمْ وإن كانوا أحياء الجسم فهم أموات القلب والروح ولذلك قال تعالى فيهم :
{ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ * أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ }
وتدبر في قوله تعالى في أكثر من آية لما وصف ماء السماء بقوله :
{ وأحيينا به بلدة ميتاً } الآية ، فهل الحياة التي أسندها سبحانه للأرض الميتة حياة حقيقية أم مجازية وهمية ؟

---

[1] كما في صحيح البخاري كتاب بدء الخلق وصحيح مسلم كتاب القدر ونص الحديث : إن أحدكم يُجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً ، ثم يكون في ذلك علقة مثل ذلك ، ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك ، ثم يُرسل الملك فينفخ فيه الروح .. الحديث

إنها حياة حقيقية قد أعشبت الأرض ، فاخضرّت وأنبتت وأزهرت وأثمرت بعد أن كانت خاشعة متصدعة ، قال جل وعلا :
{ وآية لهم الأرض الميتة أحييناها } الآية .
فإذا سلّمت هذا وأثبتّه فيجب عليك أن تسلم وتؤمن وتذعن لقوله تعالى :
{ استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم } الآية
أي يحييكم حياة حقيقية كاملة أبدية ، وليس هذا من باب المجاز أو التشبيه ولو قلت هذا لوجب عليك القول أن حياة الأرض بالماء التي وصفها الله تعالى في كتابه ما هي إلا حياة مجازية ، مع أن الواقع يثبت غير ذلك ، فكما أن الأرض الميتة تحيا وتثمر بنزول الماء عليها فإن القلب يحيا ويثمر بدخول الروح القرآني فيه ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم :
[ما قال عبد قط إذا أصابه همّ وحزن :
اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أَمَتِك ، ناصيتي بيدك ، ماضٍ فيّ حكمك ، عدلٌ فيّ قضاؤك ، أسألك بكل اسم هو لك سمّيتَ به نفسك ، أوً أنزلته في كتابك ، أوعلّمته أحداً من خلقك ، أو استأثرت به في علم الغيب عندك ، أن تجعل القرآن ربيع قلبي - أي أن يحيا بالقرآن ويزهر ويثمر بالطاعات والأعمال الصالحات - ونور صدري وجلاء حزني وذهاب همي ،
إلا أذهب الله عز وجل همه وأبدله مكان حزنه فرحاً
قالوا : يا رسول الله ينبغي لنا أن نتعلم هؤلاء الكلمات ؟
قال : أجل ينبغي لمن سمعهن أن يتعلمهن[١]] .
وإذا كان سبحانه قد سمّى ماء السماء الذي تحيا به الأرض - سماه غيثاً - فقال :{ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ }
فحريّ بسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكون غيثاً ، لأنه جاء بروح قرآني تحيا به القلوب و الأرواح حياة الأبد ، وإن الله تعالى يغيث عباده بماء السماء فيحيي الأرض بعد جدبها وقحطها ، كما أنه سبحانه يحيي القلوب بالروح القرآني التي جاء بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإن حياة القلوب والأرواح أهم من حياة الأرض والأشباح ، لأن هذه الأخيرة تتوقف عليها حياة الإنسان في الدنيا ، وأما حياة الأرواح والقلوب فتتوقف عليها حياة الآخرة الأبدية ، وهي الحياة الطيبة السعيدة ، ولذلك قال تعالى :

---

[١] المسند ٤٠٩١ ومستدرك الحاكم

{ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } أي حياة طيبة في الدنيا والآخرة
وقال تعالى :{ ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً } الآية أي ضيقة حرجة .
أما من استجاب لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم فسيحيا حياة طيبة واسعة في الدنيا والآخرة ، وعلى هذا فإن الغيث على الحقيقة هو سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأن به حياة القلوب والأرواح ، والتي إن حييت حيي الجسم حياة الأبد حياة سعيدة طيبة .
وتدبَّر في قوله تعالى :
{ سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى * وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى * الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى * ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى }
مع أنه حي يقاسي العذاب ، فالمعنى : لا يموت فيرتاح من العذاب ، ولا يُخفّف عنه فيحيا حياة طيبة سعيدة ، فأطلق الحياة وأراد بها الحياة الطيبة ، مع أنه حي بالحياة الجسمية يعاني الألم والعذاب .
وأما أهل الجنة فقال صلى الله عليه وسلم فيهم :
[ينادي مُناد : إن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبداً - أي أن تحيوا حياة طيبة تتنعمون فيها أبد الآبدين - ، وإن لكم أن تصحّوا فلا تسقموا أبداً ، وإن لكم أن تَشبّوا فلا تهرموا أبداً ، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبداً ، فذلك قوله تعالى{ وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون }][1]
فلا تنكر أن من أسمائه صلى الله عليه وسلم (الغيث والغوث) لِما تقدم بيانه ، وقد أشار سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى هذا المعنى بقوله [إن مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً ، فكانت منها طائفة طيبة قبِلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكان منها أجادب أمسكت الماء ، فنفع الله بها الناس فشربوا منها وسقوا ورعوا ، وأصاب طائفة منها أخرى إنما هي قيعان لا تُمسك ماء ولا تنبت كلأ ، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه بما بعثني الله به فعلِم وعلّم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به] [2]
وفي الحديث عن مالك بن عياض الدار - وكان خازن سيدنا عمر رضي الله عنه على الطعام - قال :

---

[1] سنن الترمذي كتاب تفسير القرآن والمسند ٧٩١٠
[2] صحيح مسلم كتاب الفضائل

أصاب الناسَ قحط في زمان عمر بن الخطاب ؛ فجاء رجل إلى قبر النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، استسقِ الله لأمتك فإنهم قد هلكوا ؛ فأتاه رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام ؛ فقال : ائت عمر فأقرئه السلام ، وأخبره أنكم مُسقَون ، وقل له : عليك الكَيس الكَيس [1].
فأتى الرجل عمر فأخبره ، فبكى عمر ثم قال :
يا رب ما آلو إلا ما عجزت عنه [2] اهـ .
-* (حكم شرعي)
نصاب وجوب صدقة الفطر ووجوب الأَضحية ومنع أخذ الزكاة عند السادة الحنفية هو نصاب واحد وهو ما زاد على الحاجات الأساسية للإنسان من نقد أو أثاث أو متاع بمقدار عشرين مثقالاً ذهباً ، أما الزكاة فلا تجب عليه إلا إذا كانت هذه الزيادة ذهباً أو مالاً - أي نقداً - ، إذ لا تجب الزكاة على الأثاث والمتاع مهما بلغت زيادته على حاجة الإنسان الأساسية ، طالما لم تعدّ للتجارة . اهـ .
-* بيان حديث شريف
قوله صلى الله عليه وسلم : [أسألك بكل اسم هو لك سمّيتَ به نفسك] - أي مدحتَ وأثنيت به على نفسك ، لأن هناك أسماء اختص الله تعالى بها ، وهو سبحانه يثني بها على نفسه ويمدح بها نفسه .
[أو أنزلتَه في كتابك] - وهو القرآن الكريم -
[أو علّمتَه أحداً من خلقك] - وهم الرسل والأنبياء الذين علّمهم الله تعالى أسماء خاصة بهم ، وهناك من الأولياء من يعلّمه الله تعالى أسماء خاصة كما قال تعالى : { قال الذي عنده علم من الكتاب } - أي من التوراة ، فقد أعطاه الله علماً في التوراة بحيث يستنبط منها أسماء إلهية يتصرف بها ، و بها أحضر عرش بلقيس إلى سليمان عليه السلام .
وإذا كان هذا في التوراة فما بالُك في آيات القرآن الكريم ؟!
ولكن الأمر يحتاج إلى تفهم وفتوح من الله تعالى حتى يستنبط المؤمن معرفة خصائص الآيات وأسرارها واستنباط الأسماء الإلهية .
وهناك الاسم الجامع لجميع حضرات الأسماء الإلهية داخلة تحت دائرته وهو اسم (الله) وقد ورد أنه الاسم الأعظم . [1]

---

[1] قال في لسان العرب : الكيس الخفة والتوقد ، كاس كيساً وهو كيس والجمع أكياس
[2] انظره في دلائل النبوة للبيهقي ومصنف ابن أبي شيبة وتاريخ دمشق لابن عساكر وروى الإمام البخاري في التاريخ الكبير عن مالك بْن عياض الدار أن عُمَر، قَالَ فِي قحط : يا رب لا آلو إلا ما عجزتُ عنه .

وهناك الاسم الأعظم باعتبار أنه أعظم بالنسبة لحامله ، وقد أُذن له به ، فقد يعلِّم الله ولياً له اسماً ، ويخصّه به لتسهيل الشدائد والحاجات ، وقد يأذن العارف لتلميذه باسم خاص يتصرف به في الشدائد وهكذا ، فيُعتبر هذا الاسم أعظم بالنسبة لحامله فقط .
وأما قوله صلى الله عليه وسلم : [أو استأثرتَ به في علم الغيب عندك] فهي الأسماء الإلهية التي استأثر الله بعلمها في الغيب عنده ، ومهما ظهر منها أسماء على مدّ العوالم فهناك أسماء إلهية تبقى في حضرة البطون في الغيب استأثر الله بها .
وهناك أسماء سمّى الله بها نفسه - أي مدح بها نفسه سبحانه وأثنى بها على نفسه - كما قال صلى الله عليه وسلم :(أنت كما أثنيت على نفسك)[2]. اهـ .
-* بيان آية كريمة
لما قال الله تعالى لموسى عليه السلام عندما أراد أن يتجلى عليه بالتكليم والنبوة والرسالة قال له :{ اخلع نعليك } الآية ، - وهما النعلان الظاهران لأنهما كانا من جلد حيوان -
فَهِم العارفون من قوله تعالى :
{ اخلع نعليك } أي اخلع الدنيا والآخرة من قلبك ، وتوجه بكلّيتك إلى الله تعالى
{ فاستمع لما يوحى } أي أوعِ سمعك لما سيوحيه الله إليك .
ولابد للسالك إلى الله تعالى من أن يخلع ما عليه من دعاوى الأنانية والعجب والكبر ، وليقبل على الله تعالى بلا (أنا) أي بلا رؤيته لذاته وعمله وافتخاره بأنانيته ، وفي هذا قال بعضهم رضي الله عنهم :
بَيني وَبَينَكَ إِنِيٌّ يُنازِعُني فَارفَع بِلُطفِكَ[3] إِنِيِّي مِنَ البَينِ
قوله : (إنّيِّي) - بكسر الهمزة وتشديد النون والياء المكسورتين - : أي الأنانية .

---

[1] روى ابن ماجه في سننه عن السيدة عائشة رضي الله عنها أنها سألت سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن اسم الله الأعظم ثم دعت فقالت : اللهم إني أدعوك الله ، وأدعوك الرحمن ، وأدعوك البَرّ الرحيم ، وأدعوك بأسمائك الحسنى كلها ما علمت منها وما لم أعلم ، أن تغفر لي وترحمني ، قالت : فاستضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : [إنه لفي الأسماء التي دعوتِ بها] .
[2] طرف حديث في صحيح مسلم كتاب الصلاة عن أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله تعالى عنها
[3] ويُذكر أحياناً : بحقك

فهو يسأل ربه تعالى أن يرفع عنه رؤيته لذاته وأنانيته حتى لا يبقى بينه وبين الله حجاب ، وهي الأنانية التي أشار إليها بقوله (إنيّي). اهـ .

*- تذكرة

اعلم أن للتوبة الصادقة - وهي التوبة النصوح أي : الخالصة لوجه الله تعالى والكاملة العامة بأن تتوب من جميع ذنوبك ما علمت منها وما لم تعلم - اعلم أن هذه التوبة لها قلب وجناحان ، أما القلب فهو الندم على ما فعل الإنسان ، وفي الحديث عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم ، يقول : (التوبة ندم)[1]

أي لا تكون التوبة صحيحة إلا بالندم كما قال صلى الله عليه وسلم :

[الحج عرفة] [2] فلا حج صحيحاً إلا بالوقوف في عرفة ، وهكذا .

أما تعريف الندم وحَدُّه فقد بينه سبحانه بقوله في أولئك الذين اتخذوا مسجداً ضراراً :{ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ } الآية ، أي إلا أن تتقطع قلوبهم ندماً وحسرة وألماً على ما فعلوا ، فالندم هو احتراق القلب وتقطّعه من شدة الحسرة والألم على ما اقترف ، وليس الندم باللسان بل هو من أعمال القلب .

أما جناحا التوبة فهما الاستغفار على ما فعل والعزم على أن لا يعود . اهـ .

*- بيان آية كريمة

يقول الله تبارك وتعالى :

{ النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم } الآية ،

فما دام أن أزواجه الطاهرات صلى الله عليه وسلم هن أمهات المؤمنين ، فهو صلى الله عليه وسلم أب للمؤمنين ، ولكن مقامه صلى الله عليه وسلم فوق مقام الآباء ، لقوله تعالى :

{النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم } الآية ، أي أرحمُ وألطف وأحنّ وأرأف بهم من رحمة ورأفة أنفسهم بأنفسهم ، فيجب عليهم أن يقدّموه على أنفسهم وآبائهم ، ويحبوه أكثر من محبتهم لآبائهم وأنفسهم ، كما قال تعالى :

{ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ } الآية .

---

[1] مصنف ابن أبي شيبة وقد ورد بلفظ : [الندم توبة] ، ورواه الإمام أحمد في مسنده ٣٣٨٧ وابن ماجه في سننه كتاب الزهد وابن حبان في صحيحه كتاب الرقائق والحاكم في المستدرك كتاب التوبة والإنابة والطبراني في المعجم الكبير والبيهقي في شعب الإيمان

[2] سنن النسائي كتاب مناسك الحج والمسند ١٨٠٢٣

ولذلك قال صلى الله عليه وسلم في الحديث :
[لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين] [1]
وفي رواية الإمام أحمد :
[والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه][2] اهـ .
-* (حكم شرعي)
روى الإمام الترمذي عن فاطمة بنت قيس رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : [إن في المال حقاً سوى الزكاة] [3]
وهذا عندما تدعو الحاجة أو الضرورة إلى ذلك ، فلو فرض أن أغنياء البلد قد أدّوا زكاة مالهم على الوجه الأكمل إلا أنه بقي هناك من ألمّ به الفقر أو الحاجة ، فيجب عندئذ على الأغنياء أن يسدّوا حاجة المحتاجين من الفقراء وغيرهم ، وأن يدفعوا لهم مالاً غير زكاة أموالهم .
وقد بيّن سبحانه هذا الوجه من مصرف المال فقال تعالى :
{ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آَمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآَتَى الزَّكَاةَ} الآية .
فقد فرّق سبحانه بين الزكاة وبين ما يدفع سواها بقوله تعالى :
{ وَآَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآَتَى الزَّكَاةَ } الآية ،
وهذا يكون على حسب ما تقتضي الحاجة منه .
وقال سبحانه مبيناً فريضة الزكاة في المال:
{ والذين في أموالهم حق معلوم * للسائل والمحروم }أي معلوم قدره ونصابه ، وذلك ما بيّنه صلى الله عليه وسلم في أحاديثه .
وقال سبحانه مبيناً الحق الآخر في المال - والذي هو سوى الزكاة - :
{ وفي أموالهم حق للسائل والمحروم }
فهو حقٌّ عليهم في أموالهم ، أما قدْره فهو ما تدعو الضرورة إليه ، ويسدّ الحاجة ، وليس له قدر معلوم في الشرع .
ومن هذا قوله تعالى في كثير من الآيات :
{ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ } الآية ،

---
[1]صحيح البخاري كتاب الإيمان
[2]المسند ١٨١٩٣
[3]سنن الترمذي كتاب الزكاة

وقوله تعالى :
{ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ } .
أما الجهاد فالغاية منه حفظ الدين ونشره وحمايته ، وهناك الجهاد بالسّنان وهو في المعارك والحروب لرد كيد الأعداء وصون الدين عن الدُّخَلاء ، وهناك الجهاد باللسان وهو نشر الدين وبيان أحكامه ، والإتيان بالأدلة والبراهين التي ترد الشبهات والضلالات التي يكيدها أعداء الدين ،
وهذا هو المعنيّ بقوله تعالى :{ وجاهدهم به جهاداً كبيراً } الآية
- أي بالقرآن الكريم وأدلّته وحججه -
وقوله سبحانه :{ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ } الآية
- أي جاهدهم بالقرآن وحججه وبيّنه لهم واغلظ عليهم في إقامة الحجة والبرهان وذلك لأنه صلى الله عليه وسلم لم يُؤمر بقتال المنافقين -.
أما الجهاد بالمال فهو بذل المال لتجهيز الجيوش وعتادها للقتال في سبيل الله ، وهو ملازم للجهاد بالسنان .
وهناك بذل المال على خدمة الدين ونشره كالإنفاق على طلاب العلم الشرعي حتى يتمكنوا ، ويقوى علمهم وتزداد حجتهم ويحفظوا هذا الدين .
وهناك بذل المال لإقامة الشعائر الدينية ونشرها ، وكذا على المدارس الشرعية والمساجد التي تقام فيها شعائر الله تعالى وهكذا ، فجميع هذه المصارف لابد منها حتى يتحقق المؤمن بقوله تعالى :
{ وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله } الآية .
-* تذكرة
ذكر بعض العلماء عند كلامه على مقام التوبة أن هناك من العباد السالكين إلى الله تعالى مَن يتحرى أوقات الإجابة والقبول ، ويعمل بالأذكار التي ورد في فضلها المضاعفة على غيرها ، وبذلك يطوي مراحل كبيرة في السير والسلوك إلى الله تعالى ، ويسبق غيره من الذين لم يعملوا بمثله ،
وذكر في ذلك البيت الآتي :
من لي بمثل سيرك المدلّل   يمشي رويداً ويجي في الأول
(يجي) : أصلها (يجيء)، وحذفت الهمزة لضرورة الشعر . اهـ .
-* تذكرة
إن الشرف الأكبر للمؤمن أن يذكره الله فيمن عنده بحضرة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم والملأ الأعلى .
قال تعالى :{ فاذكروني أذكركم } الآية

وفي الحديث عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:
[يقول الله عز وجل :
أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معه حين يذكرني] [١]
وعن أبيّ بن كعب رضي الله عنه قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم :
[أُمِرت أن أقرأ عليك القرآن] - وهي سورة { لم يكن } أي سورة البينة - قال : قلت : يا رسول الله : وذُكِرت ثَمّ ؟
قال : [نعم]
قال أبيّ :{ قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا} [٢]
وفي رواية : فبكى أُبيّ رضي الله عنه [٣]
ومن صلى على رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله :
[اللهم صل على فلان بن فلان]
فأعظم بها من سعادة ، وأكرم به من شرف أن يذكرك سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .
ولقد قال ابن الفارض رضي الله عنه لشيخ جليل قد التفّ حوله الناس فرأى أنه ليس أهلاً لذلك ، وأخذته الخشية والمهابة من الله فبكى ، فقال له ابن الفارض :

لك البِشارة فاخلع ما عليك فقد ذُكِرتَ ثَمّ على ما فيك من عِوَج

أي اخلع ما عليك من الدعاوى ، فقد ذكرت هناك بحضرة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم .
فاخلع ما عليك من صفات الأنانية و الزم مقام العبودية حتى يخلع الحقُّ عليك من صفاته ويعِزّك بعزّته فتكون لله وبالله جل وعلا .
كما في الحديث عن أم المؤمنين السيدة ميمونة زوج النبي صلى الله عليه وسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
[قال الله عز وجل : من آذى لي ولياً فقد استحق محاربتي ، وما تقرَّب إلي عبد بمثل أداء فرائضي ، وإنه ليتقرّب إلي بالنوافل حتى أحبه ،

---

[١] صحيح مسلم كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار
[٢] مصنف ابن أبي شيبة وأصله في سنن الترمذي كتاب المناقب
[٣] انظر سنن النسائي الكبرى والمعجم الأوسط للطبراني وحلية الأولياء لأبي نعيم

فإذا أحببته كنت رجله التي يمشي بها ، ويده التي يبطش بها ، ولسانه الذي ينطق به ، وقلبه الذي يعقل به] [1] . اهـ .

-* بيان آية كريمة

قال الله تبارك وتعالى في سورة النساء :

{ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا * مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا } .

وذلك من عادة المشركين من قوم كل رسول أرسله الله إليهم إذ كانوا يتطيّرون - يتشاءمون - من هذا الرسول المرسَل فيهم ، فإذا أصابهم قحط أو جدب أو شدة أو مكروه نسبوا ذلك إلى ذلك الرسول فيهم تطيراً وتشاؤماً ، كما قال تعالى في قوم فرعون لما بعث فيهم موسى عليه السلام :

{ فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ }.

وقال تعالى في قوم صالح عليه السلام :

{ قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ } .

وكذلك في المرسلين الذين أرسلهم الله تعالى في القرية التي أخبر عنها في أول سورة { يس } ، وهذا ما يؤكد أنهم رسل الله لا رسل عيسى عليه السلام .

ولما بعث الله تعالى رسوله سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم راح المشركون يطيّروا منه ، فإذا أصابتهم السيئة قالوا : هذه من عندك - تشاؤماً - ، وإذا أصابتهم الحسنة قالوا : هذه من عند الله .

فردّ الله تعالى عليهم بقوله :{ قُل كلّ } أي : كل من الحسنة والسيئة { من عند الله } خلقاً وصدوراً وإيجاداً ، لا وصفاً وإسناداً بدليل قوله تعالى في الآية التي تليها :{ ما أصابك من حسنة فمن الله } خلقاً وصدوراً وإيجاداً { وما أصابك من سيئة فمن نفسك } ظهوراً وكسباً ووصفاً ، فما صارت الحسنة حسنة ولا السيئة سيئة إلا لمّا ظهر أثر المقضيّات في العبد ، فكان هناك ما يسرّه ويسوءه .

---

[1] مسند أبي يعلى وأصله في صحيح البخاري كتاب الرقاق

وأما من حيث صدور المقضيات ، فمن الله تعالى بدؤها وخلقها ، وهو محض خير بدليل قوله تعالى :{ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ } الآية ، وجاء في الحديث : [الخير في يديك ، وليس الشر إليك][1]
أي لا يُنسب الشرّ إليك ولا تُوصَف به .
وعلى هذا المعنى يُحمل جميع ما ورد في الآيات والأحاديث التي يشتبه فهمها على أن الله تعالى يخلق الشر والضرر خلقاً ووصفاً .
فهو سبحانه من حيث صدور الأمر منه ، هذا الأمر محض خير ، ولكن لمّا ظهر أثره في العبد ظهر الخير والشر ، وهذا أمر نسبي فقد يسوء امرءاً ما يسر غيره ، وهكذا يُحمل معنى اسمه تعالى (الضار) ، فالضرر صفة العبد الذي أصابه ، ولكنه سبحانه ما خلق إلا الخير ، وما صدر عنه إلا الخير . ويجب التأدب مع حضرة الله تعالى ، فلا تقل : يا خالق المرض ، يا خالق الكلاب والخنازير ، بل قل : (يا خالق كل شيء) فما من شيء مخلوق إلا ومن وراء خلقه حكمة خفيت عليك ، ولو أطلعك الله عليها لرأيت أن جميع مخلوقاته محض خير . اهـ .

-* بيان حديث شريف

جاء في الحديث عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
[إن أدنى أهل الجنة منزلة لَمَن ينظر إلى جِنانه وأزواجه ونعيمه وخدمه وسرره مسيرة ألف سنة ، وأكرمهم على الله من ينظر إلى وجهه غدوة وعشية ، ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم
{ وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة }][2]
وإن أول رتبة في هؤلاء الذين أكرمهم الله بالنظر إلى وجهه سبحانه غدوة وعشياً هم ضعفاء المهاجرين من الصحابة الكرام الذين نزل فيهم قوله تعالى :
{ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ }الآية .
وقوله تعالى :
{ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ } الآية

[1] حديث موقوف عن حذيفة رواه البيهقي في القضاء والقدر
[2] سنن الترمذي كتاب صفة الجنة والمسند ٥٠٦٥

فقد وصفهم سبحانه بأنهم { يريدون وجهه } أي أنهم تحقّقوا بالإخلاص والصدق مع الله في عبادتهم وطاعتهم له سبحانه، وهم على مراقبة لله تعالى وخشية منه في جميع حركاتهم وسكناتهم ، وهم لا يبتغون الدنيا الفانية ولا الجاه الزائل ولا المال المتروك ، بل يريدون وجه الله أي رضوانه سبحانه عليهم ، وأن يكرمهم بالنظر إلى وجهه الكريم سبحانه ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم في الحديث المتقدم ذكره :

[وأكرمهم على الله من ينظر إلى وجهه غدوة وعشية]

أي لأنهم أرادوا وجه الله في الدنيا فأثابهم سبحانه وأكرمهم بذلك . اهـ .

-* تذكرة

روى أبو نصر المرزوي أن سيدنا أبا بكر رضي الله عنه كان يقرأ في الركعة الثالثة من صلاة المغرب بعد سورة الفاتحة :

{رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ }[1].

وينبغي على المؤمن أن يكثر من هذا الدعاء لأن الله تعالى أخبر أن الراسخين في العلم وهم أولو الألباب يدعون بهذا الدعاء .

وكان صلى الله عليه وسلم يكثر من قوله معلّماً الصحابة وسائر الأمة من بعدهم :

[اللهم يا مُقَلِّب القلوب ثبِّتْ قلبي على دينك] [2]

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقول :

[إن قلوب بني آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن ، كقلب واحد ، يصرفه حيث يشاء]

ثم قال صلى الله عليه وسلم :

[اللهم مُصرِّف القلوب صرّف قلوبنا على طاعتك][3]

---

[1] وفي الموطأ كتاب الصلاة : عن أبي عبد الله الصنابحي قال : قدمت المدينة في خلافة أبي بكر الصديق فصليت وراءه المغرب " فقرأ في الركعتين الأوليين بأم القرآن ، وسورة من قصار المفصل ، ثم قام في الثالثة ، فدنوت منه حتى إن ثيابي لتكاد أن تمس ثيابه ، فسمعته قرأ بأمّ القرآن وبهذه الآية : { ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا ، وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب } .

[2] رواه البخاري في الأدب المفرد

[3] صحيح مسلم كتاب القدر

ومن دعائه صلى الله عليه وسلم في السجود في صلاة الليل:
[اللهم لك أسلمت ، وبك آمنت ، وعليك توكلت ، وإليك أنبْت ، وبك خاصمت ، اللهم إني أعوذ بعزّتك ، لا إله إلا أنت ، أن تُضلّني ، أنت الحي الذي لا يموت ، والجن والإنس يموتون] [1] . اهـ

-* بيان حديث شريف

جاء في الحديث : [إن من البيان لسحراً وإن من الشعر لحِكَماً] [2]

فيجب على الواعظ أو المعلم أن يحسن بيانه ليؤدي المراد على وجه مفهوم مقبول ، لا غبار عليه ، ولا اشتباه فيه ، كما قالوا في وصف عسل النحل :

تقول مجاج النحل تمدحه وإن ذممت تقل قيء الزنابير

وقد تمثّل صلى الله عليه وسلم بأبيات أمية بن الصلت الذي قال عنه [آمن شعره وكفر قلبه] [3]:

إن تغفر اللهم تغفر جمّا وأي عبد لك لا ألَمّا
إني إذا ما حَدَثٌ ألمّا أقول يا اللهمّ يا اللهمّ

اهـ

-* تذكرة

لما سأل أبو بكر رضي الله عنه سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعلّمه دعاء يدعو به قال له :

[قل : اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً ، ولا يغفر الذنوب إلا أنت ، فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم] [4]

وفي هذا غاية الافتقار إلى مغفرة الله تعالى ، وفيه التحقق بأعلى مقامات العبودية لله تعالى .

ولما سأل عمر رضي الله عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعلمه دعاء يدعو به قال له : [قل :

اللهم اجعل سريرتي خيراً من علانيتي ، واجعل علانيتي صالحة ، اللهم إني أسألك من صالح ما تؤتي الناس من المال والأهل والولد غير الضال ولا المضل] [5]- بكسر الضاد -

---

[1] صحيح مسلم كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار

[2] مستدرك الحاكم وصحيح ابن حبان

[3] انظر تفسير ابن كثير لقوله تعالى : { اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا } وتفسير القرطبي لقوله تعالى : { إن إلهكم لواحد } وانظرالتمهيد لابن عبد البر وتاريخ دمشق لابن عساكر وأخبار مكة للفاكهي

[4] صحيح البخاري كتاب الدعوات

[5] سنن الترمذي كتاب الدعوات

وقال صلى الله عليه وسلم لعلي رضي الله عنه : [قل :
(اللهم اهدني وسدّدْني) واذكر بالهدى هدايتك الطريق
- أي الصراط المستقيم الموصل إلى حضرة الله تعالى -
والسداد سداد السهم[1]] - أي في الجهاد في سبيل الله ، وأن تكون أعماله وأقواله سديدة بمعنى أنها موافقة للحق .
ونظير هذا قوله صلى الله عليه وسلم : [سدّدوا وقاربوا] [2] الحديث .
فالسداد في الأعمال والأقوال هو المطلوب والمقصود ، ومن عجز فليقارب من ذلك - أي إن لم تستطع إصابة الهدف فقارِب منه ، وإلا فالأصل إصابة الهدف أي إصابة الحق الذي جاء عن الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وهو صلى الله عليه وسلم ينهض بالهمم إلى الأعلى ، فمن عجز فليكن مقارباً منه ، كما قال صلى الله عليه وسلم :
[اعبد الله كأنك تراه ، فإن كنت لا تراه فإنه يراك] [3]
أي إن لم تكن مشاهداً له سبحانه بقلبك فراقب مراقبة الله تعالى عليك .
والمشاهدة أعلى من المراقبة . اهـ .
-* (حكم شرعي)
من كان مشغولاً بعبادة فلا ينبغي السلام عليه ، لأنه لا يجب على من كان مشغولاً بالعبادة رد السلام ، كذلك من كان يتوضأ أو يقرأ القرآن ، وهكذا إذا صعد الإمام المنبر لخطبة الجمعة فلا ينبغي أن يسلّم على الجالسين لأنهم في عبادة وهي انتظار الجمعة ، كما في رفع اليدين في الدعاء فليس على الخطيب وهو على المنبر أن يرفع يديه في الدعاء لأن رفع اليدين لمن كان يدعو متوجهاً نحو القبلة وأما المؤمّنون على دعائه فيرفعون أيديهم ، وقد ذكر هذا السادة الحنفية . اهـ .
-* بيان شرعي
كلمة القرآن إذا أطلقت فالمراد منها :
عَلَم على كتاب الله النازل على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد يراد منها الوصف أي الشيء المقروء ، كما في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

---

[1] صحيح مسلم كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار
[2] طرف حديث رواه البخاري في صحيحه كتاب الرقاق وصحيح مسلم كتاب صفة القيامة والجنة والنار عن أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله تعالى عنها
[3] شعب الإيمان للبيهقي عن أبي الدرداء وأصله في صحيح مسلم كتاب الإيمان

[خُفّف على داود القراءة ، فكان يأمر بدابته أن تُسرَج ، فيفرغ من قراءة الزبور قبل أن تُسرج دابته] [1]
والحديث عن أبي أمامة الباهلي قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :
[اقرءوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه] [2]
وقد يطلق القرآن ويراد منه بعض القرآن ، كما في الحديث :
[إن الله أمرني أن أقرأ عليك القرآن] [3] - وهي سورة { لم يكن } لمّا قرأها صلى الله عليه وسلم على أبيّ بن كعب رضي الله عنه .
وكما في قوله صلى الله عليه وسلم :
[احشدوا فإني سأقرأ عليكم ثلث القرآن [4]]
وقرأ صلى الله عليه وسلم سورة الإخلاص .
وباعتبار الوصفية قد يطلق القرآن على جميع الكتب السماوية النازلة من عند الله تعالى على أنها مقروءة ، كما في الحديث [خُفِّفَ على داود القرآن] [5]وكذلك من حيث الوصف فقد يطلق الإنجيل ويراد به جميع الكتب السماوية النازلة على الرسل ، وذلك مأخوذ من النّجل وهو السعة ، والإنجيل هو : الواسع ، وجاء في الحديث :
[وجعلت صدور أمّتك أناجيل يقرؤون القرآن ظاهراً][6]
أي مصاحف وأوعية واسعة تستوعب حفظ القرآن .
وجاء وصف هذه الأمة في التوراة : (أناجيلهم في صدورهم)[7]
ويقال في اللغة : (طعنة نجلاء) أي واسعة كبيرة ،
و(عين نجلاء) أي : واسعة .
وأما إذا أطلق الإنجيل فيراد منه العلَمية ، وهو الكتاب النازل على سيدنا عيسى عليه السلام .

---

[1] رواه ابن حبان في صحيحه في كتاب التاريخ بهذا اللفظ والإمام البخاري في صحيحه في كتاب تفسير القرآن
[2] صحيح مسلم كتاب صلاة المسافرين وقصرها
[3] سنن الترمذي كتاب المناقب
[4] صحيح مسلم كتاب صلاة المسافرين وقصرها
[5] انظر صحيح البخاري كتاب أحاديث الأنبياء
[6] عزاه ابن كثير في تفسيره لدلائل النبوة لأبي نعيم
[7] المعجم الكبير للطبراني ودلائل النبوة للبيهقي

وكذلك الزبور إذا أطلق فيراد منه الكتاب النازل على داود عليه السلام ، وأما من جهة الوصفية فقد يراد به جميع الكتب السماوية ، وذلك مأخوذ من الزَّبر أي الجمع ، ومنه قوله تعالى مخبراً عن ذي القرنين عليه السلام :
{ آتوني زُبَرَ الحديد } أي جموع الحديد الكبيرة .
وقال تعالى :{ ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر } أي كتبنا في كل كتاب أنزلناه على كل رسول أُنزل عليه كتاب ، كتبنا فيه من بعد ما كتبنا في الذكر وهو اللوح المحفوظ أو أم الكتاب :
{ أن الأرض يرثها عبادي الصالحون } أي أرض الجنة .
وفي الحديث :
[الحمد لله رب العالمين هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيتُه] [١]
فيطلق على سورة الفاتحة :(السبع المثاني) على أنها سبع آيات ، ويطلق عليها القرآن العظيم لأنها بعض منه كما تقدم ، وقد أجملت فيها معاني القرآن إجمالاً بدليل أنه سبحانه قابلها بـه في قوله تعالى :
{ ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم } الآية .
*- بيان آية كريمة
قال الله سبحانه :{ الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم }
اللمة : هي الشيء الصغير القليل .
وقد اختلف العلماء في معنى اللمم في الآية السابقة :
هل هي الصغائر التي دون الكبائر ، أم أنهم يجتنبون الكبائر وقد يقعون في بعضها ، ويكون معنى اللمم : القليل من الفواحش ؟
وكلا القولين معتبر وله دليل ، فهؤلاء يجتنبون الكبائر والفواحش والصغائر ، وقد يقع منهم ارتكاب كبيرة لكنهم لا يُصرّون
قال تعالى :
{ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ } .
وأما دليل من قال أنها الصغائر وقد تقع منهم فقوله تعالى :
{ إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا } الآية ، فصغائر الذنوب يُكفّرها الله تعالى باجتناب الكبائر .
وجاء في ذلك أحاديث كثيرة منها :
ما جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول :

---

[١] صحيح البخاري كتاب تفسير القرآن عن أبي سعيد بن المعلى رضي الله تعالى عنه

[الصلوات الخمس ، والجمعة إلى الجمعة ، ورمضان إلى رمضان ، مكفّرات ما بينهن إذا اجتنب الكبائر] [1]
ولا تحتاج الصغائر إلى توبة ، لأن الأعمال الصالحة والأقوال الطيبة تُكفّرها .
فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال :
جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله إني عالجتُ امرأة في أقصى المدينة ، وإني أَصبت منها ـ أي أنه قبّلها ـ ما دون أن أمسّها ، فأنا هذا فاقض فيّ ما شئت ، فقال له عمر رضي الله عنه : لقد سترك الله لو سترت نفسك ، قال : فلم يردّ النبي صلى الله عليه وسلم شيئاً ، فقام الرجل فانطلق فأتبعه النبي صلى الله عليه وسلم رجلاً دعاه وتلا عليه هذه الآية{ أقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات }ـ أي الصغائر {ذلك ذكرى للذاكرين}
فقال رجل من القوم : يا نبي الله هذا له خاصة ؟ قال : [بل للناس كافة] [2]
وقد اختلفوا في حد الكبائر ، والحق أن الكبيرة هي :
ما ورد في ارتكابها وعيد شديد أو غضب أو لعن من الله على فاعلها .
وقالوا في الكبائر : هي تعرف بالعدّ أو بالحدّ ، ومعنى (بالعدّ) أي ما جاء بيانه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الأحاديث الثابتة حيث عدّها النبي صلى الله عليه وسلم واعتبرها من الكبائر ، وأما (بالحدّ) أي التعريف بالحد : وهو ذكر حقيقة الشيء كقولك : الإنسان حيوان ناطق .
وأما التعريف بالرسم فذكرُ بعض خصوصيات هذا الشيء ، كقولك : (الإنسان مخلوق ضاحك) ـ فالمخلوقات الأخرى لا تضحك ، على مذهب المناطقة .
فقد تُعرف الكبائر بالعد ، تُعرف من أحاديثه صلى الله عليه وسلم ، وتُعرف بالحدّ مما ورد فيه وعيد شديد أو غضب من الله أو لعن ـ نسأل الله العافية .
وقالوا في اللمم : ألمّ فلان بالموضوع أي ذكره باختصار
وشاهده قول بعضهم :
ألمّت فحيّت ثم قامت فودعت   فلما تولّت كادت الروح تزهق
أي زارته محبوبته بعد طول انتظاره لها فجلست قليلاً وهذا معنى :(ألمّت)
ومن الصغائر : النظر إلى الأجنبية ولمسها وسماع غنائها ، وأما إذا كان السماع بشهوة فيصير كبيرة ،

---

[1] صحيح مسلم كتاب الطهارة
[2] صحيح مسلم كتاب التوبة

وإن الإصرار على الصغيرة كبيرة لما ورد عن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
[إياكم ومحقَّرات الذنوب ، فإنما مثل محقِّرات الذنوب كمثل قوم نزلوا ببطن واد ، فجاء ذا بعود ، وجاء ذا بعود ، حتى جمعوا ما أنضج خبزهم ، وإن محقرات الذنوب متى يأخذها صاحبها تهلكه] [1]
وقوله صلى الله عليه وسلم : [محقّرات الذنوب] أي الذنوب الصغيرة الحقيرة بنظر صاحبها ، فهي تجتمع عليه فتكون كالحصى ، إذا اجتمعت شكّلت جبلاً ينهار على صاحبه فيهلكه ، وفي هذا النهي عن الإصرار على الصغائر .

-* (حكم شرعي)

نصاب الفضة (٢٠٠درهم) مائتا درهم ، ونصاب الذهب عشرون مثقالاً ، فإذا زاد عند الإنسان مقدار أحد هذين النصابين على حاجاته الأساسية وكان عنده ما يكفيه نفقة سنة ، وزاد عنده بمقدار أحد النصابين ، وحال عليه الحول وجبت عليه الزكاة .
هذا إذا كانت الزيادة ذهباً أو فضة أو نقداً ، أما إذا كانت الزيادة أثاثاً أو متاعاً غير معدّ للتجارة فلا يجب عليه الزكاة بل تجب عليه الأضحية وزكاة الفطر ، ويمتنع هو عن أخذ الزكاة .
ويحرم استعمال أواني الذهب والفضة ، والتحلي بالذهب والفضة على الرجال ، إلا إذا كان الخاتم لا تزيد الفضة فيه عن مثقال ، أما إذا زادت فيحرم .
ويحرم استعمال ما مُزج فيه الذهب مع غيره من المعادن كالقلم والساعة وغيرهما مما أعد للاستعمال ، ومهما كانت نسبة الذهب الذي فيه قليلة فهو حرام .
وما يضعه الإنسان في بيته من أَوانٍ وأكواب فضية أو ذهبية للزينة تجب فيها الزكاة إذا بلغت أحد النِّصابَين .
أما زكاة حلية المرأة من ذهب أو فضة فقط فتجب فيها الزكاة إذا بلغت أحد النِّصابَين عند الإمام أبي حنيفة ، أما عند الشافعية فلا يجب على المرأة فيها الزكاة إلا إذا زاد ما عندها من الحلي على مثيلاتها وأقرانها من أخواتها وبنات عمها وخالها وهكذا ، فتجب عندئذ الزكاة على هذه الزيادة فقط .

---
[1] شعب الإيمان للبيهقي واللفظ له والمسند ٣٦٢٧

-* (حكم شرعي)
إذا أوصى الإنسان وصية ولم يعيّن فيها مصارفها فتُصرف في مصارف الزكاة ، ويجوز صرف جزء منها في إعطاء من يقرأ له قرآناً ويهدي ثواب قراءته له .
وإذا أوصى بأضحية وجب توزيعها على الفقراء ، أما إذا لم يوص بها وأراد أحد الأولاد أن يضحّي عنه فلا بأس أن يأكل منها ، ولكن الحسنات تكثر في صحيفة الميت كلما زيد في توزيعها على الفقراء .
والصدقة الجارية هي : كل خير يدوم ويستمر الانتفاع به ، كالمساهمة في بناء مسجد أو في أثاثه أو في النفقة على طالب العلم الشرعي وما يحتاجه من كتب في دراسته أو المساهمة في تزويج رجل مؤمن أو مؤمنة تأتي منهما الذرية المؤمنة وهكذا .
-* لطيفة
كان مولانا الوالد رضي الله عنه لما يحدّث عن وقائع طيبة ومواقف مشرّفة جرَت فيما مضى يذكر نُبذة منها ثم يقول :
وكان ما كان مما لست أذكره فظُنّ خيراً ولا تسأل عن الخبر
اهـ .
-* بيان حديث شريف
ورد في حديث ربيعة بن كعب الأسلمي رضي الله عنه قول النبي صلى الله عليه وسلم له : [أو غير ذلك][1]- بفتح الهمزة وسكون الواو - وهي حرف عطف تفيد معنى التخيير والتنويع كقولك : خذ هذا أو هذا - وهكذا ضبطه الإمام مسلم رحمه الله في صحيحه ، وقال ملّا علي القاري رحمه الله :
قوله صلى الله عليه وسلم : [أو غير ذلك]
يحتمل :
فتح الواو ، أي أتسأل ذلك وغيره أم تسأله وحده ؟
وسكونها ، أي تسأل ذلك أم غيره ؟
وقال بعضهم : يروى بسكون الواو وبفتحها [2] . اهـ .
إذ إن لفظة (أو) - بفتح الواو - الهمزة فيها للاستفهام ، والواو حرف عطف والجملة بعدها معطوفة على فعل مقدّر بعد الهمزة أي بعد الاستفهام ولهذا نظائر كثيرة في آيات الله تعالى ،

[1] طرف حديث في صحيح مسلم كتاب الصلاة
[2] في المرقاة ٤٣٨/٣

كقوله تعالى : { أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً } الآية ، والمعنى أينكرون وجود الله ولم يروا أن الله هو الذي خلق السموات والأرض وغيرها ؟! . اهـ .

-* بيان معنى التشهد

كان من دعاء مولانا الوالد رضي الله عنه بعد التشهد مباشرة في الصلاة : (اللهم وأسألك بنور وجهك الكريم أن تلزمني هذه الشهادة [1]وذرّيتي وأن تصبغنا[2] بأنوارها).

وذلك أن التشهد دخول في حضرة قرب خاصة بحيث يحيّي العبد فيه ربه سبحانه ملاحظاً بقوله : (التحيات لله والصلوات والطيبات) أي أن تحيات المحيّين لك يا رب - وأعظمهم سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم - وكذلك الأقوال الطيبة والأعمال الصالحة التي تقرب بها إليك العابدون وأعظمهم سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم - كل ذلك أقدمه بين يديك تحية لك .

ثم يلاحظ العبد المصلي سيد أهل الحضرة وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنه قريب منه فيسلم عليه بصيغة القريب الحاضر فيقول:

(السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته) .

ثم راح المصلي يسلّم على أهل الحضرة من كل عبد صالح من أهل السماء والأرض (السلام علينا) - أي من ربنا - (وعلى عباد الله الصالحين) وبذلك أصابت كل عبد صالح في السماء والأرض كما دل عليه الحديث [3]- وقد شرع الله السلام على من يردّ السلام -

---

[1] فيه إشارة إلى معنى قوله تعالى { وألزمهم كلمة التقوى } وهي كلمة : (لا إله إلا الله محمد رسول الله) فهي ملازمة لهم وهم ملازمون لها ، لا تنفك عنهم ولا ينفكون عنها .

[2] إشارة إلى قوله تعالى { صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة }
وهي الصبغة النورانية التي يصبغ الله بها أهل الإيمان .

[3] كما في صحيح البخاري كتاب الأذان عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : كنا إذا صلينا خلف النبي صلى الله عليه وسلم قلنا : السلام على جبريل وميكائيل ، السلام على فلان وفلان ، فالتفت إلينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : [إن الله هو السلام ، فإذا صلى أحدكم فليقل : التحيات لله والصلوات والطيبات السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، - فإنكم إذا قلتموها أصابت كل عبد لله صالح في السماء والأرض - ، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله] .

ويكون هذا على قدر حضورك وخشوعك في الصلاة ثم جاء التشهد ـ وهي الشهادة بأن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم . والشهادة تُطلب من المرء على من يسمع ويلاحظ شهادته .

فالمصلي يلاحظ أنه يُشهد [1]رب العالمين ويُشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ويُشهد جميع عباد الله الصالحين من الأولين والآخرين أنه يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فكأنه يقول : يا رب العالمين أُشهدك [2]بأنني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويا رسول الله صلى الله عليه وسلم أُشهدك بأنني أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويا عباد الله الصالحين أشهدكم بأنني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتكون شهادته مقبولة محفوظة في الديوان الأعلى

ويأتي الصالحون من عباد الله فيشهدون له بأنه شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وإن السلام على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى عباد الله الصالحين هو سلام دخول على حضرتهم ـ سلام مداخلة ـ فلما يريد العبد أن يخرج من صلاته كان عليه أن يسلم عليهم سلام متاركة فيسلم على يمينه وعلى شماله ، ملاحظاً أنه يسلّم على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى جميع عباد الله الصالحين من الملائكة والإنس والجن والمقتدين به إن كان إماماً .

وإذا بلغك أن الله تعالى قد أقرأك السلام فينبغي أن تقول:

[اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام][3]-

وأما رواية : [وإليك يعود السلام] فلم ترد بعد الصلاة بهذه الصيغة [4].

---

[1] يشهد : بضم الياء

[2] أشهدك : بضم الهمزة

[3]انظر صحيح مسلم كتاب المساجد ومواضع الصلاة

[4] روى البزار عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه كان من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم إذا طلعت الشمس قوله :

[اللهم أنت السلام ومنك السلام وإليك يعود السلام] انظر مجمع الزوائد

ووردت هذه الصيغة في جواب أهل الجنة عندما يسلم الله عليهم كما في الحديث :

[فإذا قضى بين أهل الدارين ودخل أهل الجنة الجنة ودخل أهل النار النار بعث الله عز وجل ملائكة إلى أمتي خاصة وذلك فى مقدار يوم الجمعة معهم التّحف والهدايا

فلما نال العبد المصلي السلام من الله عليه لما قال :(السلام علينا) أي من ربنا فكان عليه أن يردّ السلام بقوله بعد الصلاة :
(اللهم أنت السلام[١] ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام).
ولذلك لما جاء جبريل عليه السلام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له ": يا رسول الله هذه خديجة قد أتت ، معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب ، فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها وَمِنِّي [٢]وبشّرها ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه[٣] ولا نصب [٤]
فلما بلّغها رسول الله ذلك قالت :
إن الله هو السلام وعلى جبريل السلام وعليك السلام ورحمة الله [٥]
فانظر في وفور عقلها وعظيم فقهها رضي الله عنها كيف لا وهي زوجة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟! . اهـ .

-* بيان آية كريمة

إن في القرآن الكريم آيات يبين الله تعالى فيها فضائل سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وخصائصه ومقاماته الشريفة ، وقد يخفى فهمها على كثير من الناس إلا أولئك الذين يتدبرون القرآن الكريم وآتاهم الله مفاهيم قرآنية من عنده سبحانه .
ومن هذه المقامات المحمدية العالية التي وهبها الله تعالى لرسول الله صلى الله عليه وسلم أنه صلى الله عليه وسلم خليفة الله الأعظم في أرضه ، فإن جميع الأنبياء عليهم السلام هم خلفاء الله في أرضه يبلّغون شرائعه سبحانه ، ومن ذلك قوله تعالى :{ إني جاعل في الأرض خليفة } وقوله تعالى : { يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض} وهناك مناسبة قوية بين آدم وداود

من عند ربهم فيقولون : السلام عليكم إن ربكم رب العزة يقرأ عليكم السلام ويقول لكم أرضيتم الجنة منزلاً وقراراً ؟
فيقولون : هو السلام ومنه السلام وإليه يرجع السلام] . اهـ .
عزاه في تنزيه الشريعة (لأبي الحسين بن المنادى) فى كتاب الملاحم
[١]وقد سلم الله تعالى على عباده المؤمنين بقوله لنوح عليه السلام
{ اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم من معك }
وقوله تعالى :{ قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى } الآية .
[٢] بتشديد النون وبعدها ياء أي يسلّم عليها سيدنا جبريل عليه السلام
[٣] قال في الفتح : المراد بالقصب : لؤلؤة مجوفة واسعة كالقصر المنيف ، والصخب هو الصياح والمنازعة برفع الصوت ، والنَّصَب هو التعب
[٤]صحيح البخاري كتاب المناقب
[٥]السنن الكبرى للنسائي ومستدرك الحاكم وأصله في صحيح البخاري

عليهما السلام في جعله سبحانه لهما خلفاء عنه جل وعلا ، ولذلك رأى آدم في قبضة الله تعالى لما بسطها له سبحانه رأى نسَمه من بعده ورأى داود وعلى فمه نور[1] الحديث.

أما سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد نال أعلى مقام في خلافته عن الله تعالى ، وأعلى مقام في القرب الخاص الذي تعجز العبارة عن بيان حقيقته .

وقد تجلّى ذلك في قوله سبحانه :

{ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ } الآية ،

ولم يقل سبحانه : يد رسول الله فوق أيديهم ، والحال أن يد رسول الله صلى الله عليه وسلم فوق أيدي أولئك الذين بايعوه ، وهذا مقام في القرب أعلى من القرب الملكوتي الذي أشار إليه سبحانه بقوله :{ فإذا قرأناه فاتبع قرآنه } - والحال أن القارئ هو جبريل عليه السلام - ولا يُعبَّر عنه إلا بأنه قرب محمدي خاص دونما زيادة ألفاظ توهم الحلول أو الاتحاد .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى :

{ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ } الآية .

والحال أن الذي أخذها هو سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم فهذا قرب خاص لا يُعبّر عنه إلا كما ذكره سبحانه . اهـ .

-* <u>لطيفة</u>

مر رجل يجيد الخط على رجل يحاول ذلك ولا يستطيع فقال له :

فَدَع عنك الكتابة لستَ منها ولو سوّدتَ وجهك بالمداد

يشير القائل إلى معنى لطيف وهو أن يشتغل الإنسان بما يعنيه وله دراية فيه ، وأما إذا وُسّد إليه أمر ليس أهلاً له فليعتذر عنه

-* <u>بيان آية كريمة</u>

لقد ذكر سبحانه عن سليمان عليه السلام :

{ قال رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهاب }.

والمعنى : هب لي ملكاً لا ينبغي أن يظهر به أحد من بعدي ، وإلا فإن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قد آتاه الله جميع ما آتى رسله عليهم السلام ، وأعطاه مقاماً زاد عليهم بدليل أنه صلى الله عليه وسلم قال :

[1] انظره في مسند أبي يعلى وصحيح ابن حبان ومستدرك الحاكم عن أبي هريرة

[إن عفريتاً من الجن تفلّت البارحة ليقطع عليّ صلاتي ، فأمكنني الله منه فأخذته ، فأردت أن أربطه على سارية من سواري المسجد حتى تنظروا إليه كلكم ، فذكرت دعوة أخي سليمان
{رب هب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي } فرددته خاسئاً] [١]
فراعى صلى الله عليه وسلم المقام السليماني تواضعاً وأدباً منه صلى الله عليه وسلم ، ولم يُظهر مقام المُلكية ، وعلى هذا فإن مراد سيدنا سليمان عليه السلام من دعائه : { رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي } أي لا ينبغي لأحد من بعدي أن يظهر به ، وليس مراده أن يحجز على الله عطاءه لخاصة خلقه من أنبيائه عليهم الصلاة والسلام .

-* بيان آية كريمة

لقد ذكر سبحانه حقّين من حقوقه صلى الله عليه وسلم بين حقين من حقوقه سبحانه وتعالى فقال جل وعلا :{ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا} .
إن معنى : { وتعزروه } كما قال ابن عباس رضي الله عنه : لتعظّموه [٢]، أما معنى { وتوقروه } : أي تُجلّوه فوق مستواكم .
والمراد من التسبيح هنا : التسبيح العملي وهو الصلاة المشتملة على التسبيح القولي يدل عليه قوله تعالى :{ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآَصَالِ رجال } الآية
ومعنى يسبّح :أي يصلي .
أما كلمة الرجال في القرآن فتأتي على ثلاثة معان : المعنى الأول :
هو ما قابل النساء ومنه قوله تعالى :
{ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ }
وقوله تعالى :{ الرجال قوامون على النساء }الآية .
المعنى الثاني : وهم الراجلون بمعنى الماشين على أقدامهم أو على أرجلهم ومنه قوله تعالى :{ وأذّن في الناس بالحج يأتوك رجالاً } الآية أي ماشين .
وقوله تعالى : { فإن خفتم فرجالاً أو ركباناً } أي راجلين أوراكبين
وأما المعنى الثالث : فهو يدل على أولي الهمة والعزيمة في طاعة الله تعالى ويشمل هذا المعنى الرجال والنساء

[١] صحيح البخاري كتاب أحاديث الأنبياء وصحيح مسلم كتاب المساجد ومواضع الصلاة
[٢] انظر تفسير ابن كثير وغيره للآية الكريمة

ومنه قوله تعالى :{ رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه } وقوله تعالى :{ فيه رجال يحبون أن يتطهروا } الآية ، وقوله تعالى :{ رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله } الآية .
ولما ذكر سبحانه السيدة مريم بنت عمران ألحقها بمقام الرجال قال تعالى :{ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ } ولم يقل الراكعات ، وهكذا قوله تعالى :{ وكانت من القانتين }.

-* بيان آية كريمة

قوله تعالى :{ لا إكراه في الدين قد تبيّن الرشد من الغي }
يحسن الوقف بعد النطق بكلمة الغي ليصحّ بيان معنى الآية ، والمعنى :
لا إكراه في الدخول في الدين لأن هذا الدين قد بيّن الرشد من الغي والصلاح من الفساد وهكذا ، فلا حاجة لإكراه النفس في الدخول في الدين ، إذ إن من تعقّل وتدبّر في أحكام هذا الدين فإنه يعتنقه ، وهذا ما يقتضيه العقل الصحيح ، وأما من عاند وتكبر فيقال : إن هذا قد عرف الحق ولم يعترف به عناداً وجحوداً ، فحتى لا يستشري أمره بين الناس ويجرؤ غيره على العناد شرع قتاله كما قال بعضهم : إنما شُرع الجِلاد - أي القتال - لرفع العناد ، وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم :
[أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله] [1]الحديث .
أي إن هم عارضوا وعاندوا ولم يذعنوا للحق وظاهروا على المسلمين عداوتهم .

-* تذكرة

قال الشاعر بشار بن برد في نُدرة الأصحاب الصادقين وتحمل مساوئهم :

إذا كنت في كل الأمور معاتباً	خليلك لم تَلْقَ الّذي لا تعاتبه
فعش واحداً أوْ صل أخاك فإنّه	مقارف ذنب مرَّةً ومجانبُه
إذا أنت لم تشرب مراراً على القذى	ظمِئت وأيّ الناس تصفو مشاربه
ومن ذا الذي تُرضى سجاياه كلها	كفى المرء نُبلاً أن تُعدّ معايبه [2]

-* حكم شرعي

الأذان عند الإمام الشافعي رضي الله عنه أفضل من الإقامة ، أما عند الأحناف فالإقامة أفضل .

[1] طرف حديث في صحيح البخاري كتاب الإيمان وصحيح مسلم كتاب الإيمان
[2] هو الشاعر البليغ بشار بن برد البصريّ، أبو معاذ قيل: إنّه قتل في سنة سبع وستين ومائة، وهو ابن نيف وتسعين سنة (انظر تاريخ الإسلام للذهبي)

وقد قال سيدنا عمر رضي الله عنه : (لولا الخليفى لأذنت) [١] ،
أي لولا الخلافة لأذنت- لما في الأذان من الأجر والثواب -
(الخليفى) : بكسر الخاء وتشديد اللام مع كسرها : الخلافة .

-* إيضاح

إن الصوفية رضي الله عنهم على قسمين في تعاطي المباحات مما أحلّ الله تعالى لعباده من المأكل والملبس وزينة الحياة الدنيا :

فمنهم من سلك طريق الزهد فيها والأخذ بحد الكفاية منها ، وذلك خوفاً على أنفسهم من أن تطغى أو أن يدخل على قلوبهم شوائب العجب والكبر وحب الظهور ، فأخذوا بالزهد والخشونة ، وأما القسم الآخر فتعاطوا المباحات من المأكل والملبس والتزين ، ولزموا في هذا رؤية المنعِم عليهم وقاموا بالشكر لله ما استطاعوا .

ولم يخرج كلا الفريقين عن تعاليم رسول الله صلى الله عليه وسلم وإرشاداته في ذلك إلا أن النفوس مختلفة في استعداداتها وقابلياتها وأمزجتها .

ألا ترى أنه صلى الله عليه وسلم قال لابن عمر رضي الله عنهما [يا عبد الله كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل واعدد نفسك في الموتى] [٢] ، ولم يقل هذا لأبي بكر رضي الله عنه .

ولا تنافيَ في هذا ، فقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم أحاديث كثيرة تحثّ على الزهد في الدنيا ومتاعها والأخذ منها حد الكفاية وذلك لمن يخاف على نفسه الركون إلى الدنيا والاطمئنان بها .

ويروى في الحديث: [اخشوشنوا] [٣]

---

[١] قال الإمام السخاوي في المقاصد الحسنة :
(لولا الخليفي لأذنت)
أبو الشيخ في الأذان له ثم البيهقي من حديث عمر ولسعيد بن منصور من حديث قيس قال : قال عمر: لو أطيق مع الخليفي لأذنت، ، والخليفى بالكسر والتشديد والقصر: الخلافة ، وهو وأمثاله من الأبنية مصدر يدل على معنى الكثرة ، يريد كثرة اجتهاده في ضبط مواد الخلافة وتصريف أعنّتها.

[٢] المسند ٤٥٣٤ واللفظ له وأصله في صحيح البخاري كتاب الرقاق

[٣] قال الإمام السخاوي في المقاصد الحسنة :
حديث: [تمعددوا واخشوشنوا]

أبو الشيخ ابن حيان في السبق، وابن شاهين في الصحابة، والطبراني في معجمه الكبير، وعنه أبو نُعيم في المعرفة، كلهم من حديث يحيى بن زكريا بن أبي زائدة عن عبد اللَّه بن سعيد المقبري، عن أبيه عن القعقاع ابن أبي حدرد رَفَعَه:

وأما إذا أنعم الله على عبد فإن الله تعالى يحب أن يرى أثر نعمته على عبده كما في الحديث[1] وذلك دون حد الإسراف المنهي عنه وهو معنى :
[اخشوشنوا] أي لا تسرفوا .
ولما قيل لمعروف الكرخي رضي الله عنه عن أخ له ـ وكان ممن تعاطى المباحات وقام بشكر الله تعالى ـ قيل له :
إن أخاك قد توسّع في المأكل والملبس وأنت قد أعرضت عن هذا
فقال : أما أخي فقد بسطته المعرفة وأما أنا فقد قبضني الورع .
-* بيان آية كريمة
التعزير في اللغة : النصر والمنع .
وفي الاصطلاح الشرعي هو :
عقوبة يراها الحاكم بحق من ارتكب جناية لم يرِد في الشرع إقامة حد عليها ، وإنما سميت هذه العقوبة بالتعزير لأن فيها نصراً لدين الله تعالى ، ومنعاً للجاني عن تماديه في ارتكاب غيرها ـ أي لإيقافه عند حده ـ .
وأما قوله تعالى :{ لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه }
فقد قال ابن عباس في معنى { وتعزروه } أي تعظّموه .
ويؤيد قول ابن عباس أنه سبحانه أفرد ذكر التعزير عن النصر في قوله تعالى :{ فَالَّذِينَ آَمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } دل ذلك هنا على أن { تعزروه } أي تعظموه ،

[تمعددوا، واخشوشنوا، واخلولقوا، وانتضلوا، وامشوا حفاة]

وكذا أخرجه أبو نُعيم في المعرفة من جهة صفوان، لكن جعله عن القعقاع كالأول، وكذا أخرجه البغوي في معجم الصحابة في ترجمة القعقاع، لكنه لم يسمه، إذ ساقه، بل قال: عن ابن أبي حدرد، ورواه الرامهرمزي في الأمثال

وقال في فيض القدير : [تمعددوا] أي تشبّهوا بمعد بن عدنان في تقشفهم وخشونة عيشهم وكانوا أهل تقشف [واخشوشنوا] أمر من الخشونة أي البسوا الخشن لا الحسن واطرحوا زي العجمة وتنعمهم وإيثارهم لين العيش [وانتضلوا وامشوا حفاة] قال الرامهرمزي : يعني اقتدوا بمعد بن عدنان في لبس الخشن والمشي حفاة فهو حث على التواضع ونهي عن إفراط الترفه . اهـ

أما (انتضلوا) فيقال : انتضل القوم: تناضلوا؛ أي تراموا و يقال : (اخلولق) الثوب و الجلد و غيرهما : بلي ، و الشيء : املاسّ و لان و استوى و قارب ،
يقال اخلولقت السحابة أن تمطر و يقال اخلولق بعد تفرق : تهيأ و تجمع .
[1] سنن الترمذي كتاب الأدب والمسند ٧٧٥٩

ولا تنافي في هذا مع اللغة ، لأن التعظيم يستلزم النصر والمنع ، أي لتعظّموه ، ويلزم من تعظيمكم له صلى الله عليه وسلم أن تنصروه على أعدائه وتمنعوهم عنه صلى الله عليه وسلم .
وكذا في قوله تعالى :{ لئن آمنتم برسلي وعزّرتموهم } الآية .
وقوله سبحانه :{وتوقّروه }: أي تحترموه وترفعوا مستواه على مستوى غيره في الاحترام .
-*الفرق بين الذنوب والسيئات الوارد ذكرها في القرآن الكريم .
إنهما إذا اجتمعتا لفظاً تفرقتا معنى ، وإذا تفرقتا لفظاً اجتمعتا معنى ، فهما كلفظتي : المسكين والفقير ، والإسلام والإيمان .
فُهم هذا من قوله تعالى :
{ إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ }
- أي الصغائر - كما هو مدلول الآية ، فالسيئات هنا الصغائر .
فلما جاء في الآية :{ ربنا اغفر لنا ذنوبنا }- أي الكبائر - { وكفِّر عنا سيئاتنا } - أي الصغائر ، وكذا قوله تعالى :{ إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ } الآية .
وأما إذا جاء ذكر أحدهما دون الآخر فيشمل الكبائر والصغائر كقوله تعالى :{ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ}.
فتشمل الذنوب هنا الكبائر والصغائر لأنه لم تذكر السيئات معها .
-* إيضاح
ما جاء في وصف القرآن الكريم : [منه بدأ وإليه يعود]
أي : بدأ صدوره من الله تعالى بدليل قوله تعالى :
{ وإنك لتُلقّى القرآن من لدن حكيم عليم }
وإليه يعود : أي وصفاً ونسبة ، فنقول : القرآن كلام الله تعالى .
فنضيفه إلى الله تعالى على أنه كلامه سبحانه .
وإليه يعود أيضاً في معانيه وأحكامه وتشريعه وما هنالك من علوم .
ولا ينافي هذا قول من قال : (إليه يعود)
أي حين يرفع القرآن إلى الله تعالى قبيل الساعة .
ولا يصح أن تقول : (إن الله تعالى رب القرآن) ، إذ إنه كلامه تبارك وتعالى ، منه بدأ ، ولا يصح في معنى الربوبية أن تقول : يا رب القرآن ، كما في الحديث عن عكرمة قال : حمل ابن عباس رضي الله عنهما جنازة ، فلما وضع الميت في قبره ، قال له رجل : اللهم رب القرآن اغفر له ،

فقال له ابن عباس رضي الله عنهما :
(مَهْ ، لا تقل له مثل هذا ، منه بدأ ، وإليه يعود) [1]
أي : إن كلامه هو وصفه سبحانه .
-* حكم شرعي
اعلم أن الفقهاء لم يجوّزوا الصلاة والسلام على غير الأنبياء بالإفراد ، وإنما يكون ذلك على وجه التبعية كقولك : اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه وعلينا معهم أجمعين ، وقد جوّز المحدثون إفراد السلام على أهل البيت والسلف المتقدمين رضي الله عنهم ، فلما يروي البخاري حديثاً عن السيدة فاطمة يقول : عليها السلام
وقد أجابوا عن قوله صلى الله عليه وسلم :
[اللهم صل على آل ابن أبي أوفى] [2]
أجابوا بأن الصلاة والسلام هما حق له صلى الله عليه وسلم ، وله صلى الله عليه وسلم أن يصلي على من يشاء ولا يجوز لغيره أن يستعمل هذا الحق .
-*تذكرة
ما من عموم إلا وله مخصّص ، والمخصِّصات قد تكون نقلية - شرعية - أو عقلية أوعرفية ، فقوله تعالى : { الله خالق كل شيء } - فالمراد من الشيء هنا : الممكن - وهذا مخصص عقلي ، إذ إن التخليق والقدرة لا يتعلقان إلا بالممكنات ، ولا تعلّق لهما بالواجبات كصفاته الواجبة له سبحانه ولا بالمستحيلات التي لا يُتصور في العقل وجودها .
وهذا كقوله تعالى :{ والله على كل شيء قدير }
وأما قوله تعالى :{ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا} الآية ، فالعلم يتعلق بالمستحيل والممكن والواجب .
*- بيان آية كريمة
قال الله تعالى :{ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إن الله عزيز حكيم }
اعلم أن تذييل الآيات القرآنية ببعض الأسماء الإلهية دون غيرها هو علم من علوم القرآن ، ويحتاج المؤمن العاقل إلى تدبّر وتفكّر في الآيات ليعرف حكمة ذلك .

[1] انظر الأسماء والصفات للبيهقي
[2] صحيح البخاري كتاب الدعوات

ففي الآية السابقة وصف سبحانه نفسه بصفة العزة والحكمة .
والعزة قد تأتي بمعنى النصر والغلبة والقوة كما في قوله تعالى مخبراً عن الخصم الذين تحاكموا إلى داود عليه السلام :{ وعزّني في الخطاب } الآية - أي غلبني ، ففي الآية السابقة : { عزيز حكيم } أي غالب قوي على نصر المؤمنين على أعدائهم من الكفار والمنافقين .
ثم ذكر سبحانه صفات المؤمنين وبيّن أنه جل وعلا قوي قادر على نصرهم على المنافقين .

-* لطيفة

ومما سمعت منه رضي الله عنه :

جراحات السنان لها التئام ... ولا يلتام ما جرَح اللسانُ

السنان : السيوف ، يلتام : يلتئم .

-* لطيفة

كان الإمام الغزالي رضي الله عنه ممن اعتزل آخر عمره ، ورأى أن العزلة واجبة في زمنه لِما رأى من تغيّر الناس بما فيهم علماء عصره ، وقد رآه بعض الشيوخ وهو سائح فقال له : يا إمام لقد كنت تدرّس الناس وتعلّمهم في المدرسة النظامية فما بالك هجرت الناس واعتزلتهم ؟!
فأنشد يقول :

تركت هوى ليلى وسعدى بمعزل ... وعدت إلى مصحوب أول منزل
فنادت بي الأشواق مهلاً فهذه ... منازل من تهوى رويدك فانزل
غزلت لهم غزلاً رقيقاً فلم أجد ... لغزلي نسّاجاً فكسرت مغزلي

فمراده من قوله : مصحوب أول منزل :
هو الجنة التي كانت المنزل الأول لآدم وبنيه لمّا كانوا في صلبه ، وسقف الجنة عرش الرحمن [1] ، وأهل الجنة هم جوار الحق كما في الحديث المرفوع عن ابن عباس رضي الله عنهما :

---

[1] روى الإمام أحمد في مسنده واللفظ له والترمذي في سننه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إن في الجنة مائة درجة أعدّها الله عز وجل للمجاهدين في سبيله ، بين كل درجتين كما بين السماء والأرض ، فإذا سألتم الله عز وجل فَسَلُوه الفردوس فإنه وسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن عز وجل .
وقال الحافظ ابن حجر في الفتح : ولابن أبي حاتم من طريق الربيع بن أنس { السقف المرفوع } : العرش
وقال الإمام القرطبي عند تفسيره لقوله تعالى : { والسقف المرفوع } قال : قال ابن عباس رضي الله عنهما : هو العرش وهو سقف الجنة

[خلق الله جنة عدن بيده ، وخلق فيها ثمارها ، وشقّ فيها أنهارها ، ثم نظر إليها فقال : تكلّمي ، فقالت : قد أفلح المؤمنون ، فقال : وعزتي وجلالي لا يجاورني فيك بخيل] [١] .
وأما البيت الثاني : فقوله : (هذه منازل من تهوى)
ففيه إشارة إلى المقامات التي أكرمه الله تعالى بها ، ويرحم الله القائل :
نقّل فؤادك حيث شئت من الهوى ما الحب إلا للحبيب الأول
كم منزل في الأرض يألفه الفتى وحنينه أبداً لأول منزل
ومن كلام الغزالي مخاطباً علماء زمنه :
يا علماء العصر يا ملح البلد ما يصلح الملحَ إذا الملحُ فسد
أي إنك تصلح الطعام وتحافظ عليه بالملح ، فإذا فسد الملح فكيف تصلح الطعام ؟ ! وإذا فسد العلماء فسد الناس .
-* موعظة
ومما قالوا رضي الله عنهم في الاستغفار من الغفلة في الاستغفار :
أستغفر الله من أستغفر الله من لفظة قلتُها خالفتُ معناها
وكيف أرجو إجابات الدعاء وقد سددْتُ بالذنب عند الله مجراها
الذنب المراد منه هنا : الغفلة في الدعاء وعدم اليقين بالإجابة .
-* فائدة لغوية
أحرف الزيادة مجموعة في قولك : (سألتمونيها) وقد جمعها بعضهم في البيت الآتي :
هناء وتسليم تلا يوم أنسه نهاية تسليم هناء وتسليم

-* سؤال القبر :
لقد ورد في بعض الروايات أن الميت يُسأل فيقال له :
ما كنت تقول في هذا الرجل [٢] ؟ - أي سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم -
وورد في روايات أخرى أنه يُسأل فيقال له :
من ربك وما دينك وما هذا الرجل الذي بعث فيكم [٣] ...الحديث .
فالجواب أن الميت يُسأل عن الشهادة أولاً أي عن إيمانه بالله تعالى ثم يسأل عن موقفه مع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .
فيسأل عن هذا وهذا ولا تنافي في الروايات .

---
[١] المعجم الأوسط للطبراني وصفة الجنة لابن أبي الدنيا
[٢] صحيح البخاري كتاب الجنائز وصحيح مسلم كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها
[٣] سنن أبي داود كتاب السنة والمسند ١٧٨٠٣

-* بيان آية كريمة

إن عيسى عليه السلام قد أقامه الله مقام البسط والجمال ، أما يحيى عليه السلام فكان الخوف والجلال يغلب عليه .

وقد ورد أن عيسى عليه السلام لقي مرة يحيى عليه السلام فضحك عيسى في وجه يحيى وصافحه، فقال له يحيى: يا ابن خالتي مالي أراك ضاحكاً كأنك قد أمنت ـ أي أمِنت مكر الله ـ ؟

فقال له عيسى: يا ابن خالتي ما لي أراك عابساً كأنك قد يئست ـ أي يئست من رحمة الله ـ ؟ [1]

ولما ذكر سبحانه قصة يحيى وعيسى عليهما السلام في سورة مريم ذكر جل وعلا عن يحيى عليه السلام :{ وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً } أما عيسى عليه السلام فقال كما أخبر سبحانه عنه :{ والسلام علي يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً } وذلك لأن يحيى عليه السلام كان الجلال والهيبة يحولان بينه وبين أن يذكر سلام الحق عليه فلم يقل : وسلام علي ، بل ذكر سبحانه سلامه عليه .

وأما عيسى عليه السلام فإن مقام الرجاء والجمال الذي أقامه الله تعالى فيه جعله يذكر السلام على نفسه من الله تعالى فقال :{ والسلام علي } الآية .

-* بيان آية كريمة

قوله تعالى في سورة مريم :{ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا } - أي امتناعاً عن الكلام - { فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا }

{ فقولي } : أي بالقول الفعلي : أي أنها أشارت إليهم بيدها أنها نذرت للرحمن أن لا تتكلم ، ولم تتكلم بلسانها لأنها كانت قد نذرت ذلك .

ومثال القول الفعلي ما جاء في الحديث أنه صلى الله عليه وسلم لما صعد المنبر وبيده كتابان : ثم قال بيده ـ أي حرّك يده الشريفة صلى الله عليه وسلم ـ فنبذهما [2]ـ الحديث .

وكان الصيام عن الكلام في الأمم السابقة مشروعاً النذر به ،

أما في شريعتنا فيجب أن يكون النذر من جنس العبادة .

وفي الحديث أنه صلى الله عليه وسلم كان جالساً يوماً في ظل الكعبة وإلى جانبه أبو ذر رضي الله عنه فقال صلى الله عليه وسلم :

[هم الأخسرون ورب الكعبة ، هم الأخسرون ورب الكعبة ، هم الأخسرون ورب الكعبة ، فعجب أبو ذر وقال : من هم يا رسول الله ؟

---

[1] انظر حلية الأولياء لأبي نعيم والبداية والنهاية لابن كثير

[2] سنن الترمذي كتاب القدر

فقال صلى الله عليه وسلم : هم الأكثرون أموالاً ـ أي من المسلمين ـ ، إلا من قال هكذا وهكذا وهكذا من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله ، ـ أي إلا من أعطى وأنفق بغير حساب ـ وقليل ما هم] [١] .
والقاعدة المعروفة عند العلماء هي :
شرعُ من قبلنا هو شرع لنا ما لم يرِد نسخه أو يُقصّ علينا بإنكار .
ـ* تمام النعمة
قال الله تبارك وتعالى :{ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ } الآية .
أي يتمّ نعمته عليك بأن جمع لك مراتب النبوة والرسالة ، وفضّلك على سائر الأنبياء ، وخصّك بالمقامات العالية ومنها :
المقام المحمود ، ومقام الوسيلة ، ومعجزة الإسراء والمعراج ، والأوّليّات التي خصّك سبحانه بها .
وقد بينها سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في كثير من أحاديثه الشريفة [٢] ....
مخبراً بفضل الله تعالى عليه ، وتحقيقاً لقوله تعالى :
{ وأما بنعمة ربك فحدث }
وقال تعالى :
{ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا }
وقال تعالى مخبراً عن يعقوب عليه السلام عندما خاطب يوسف عليه السلام :{ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آَلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ } .
وكان من دعائه صلى الله عليه وسلم : [وأتمم علينا نعمتك من فضلك] [٣] .
و عن معاذ بن جبل ، قال : سمع النبي صلى الله عليه وسلم رجلاً يدعو يقول : اللهم إني أسألك تمام النعمة ، فقال : [أي شيء تمام النعمة] ؟
قال : دعوة دعوت بها أرجو بها الخير ، فقال صلى الله عليه وسلم :
[فإن من تمام النعمة دخول الجنة ، والفوز من النار] [٤] .

---

[١] صحيح مسلم كتاب الزكاة وصحيح البخاري كتاب الأيمان والنذور
[٢] انظر البحث بالتفصيل عند الكلام على منهج الشيخ الإمام رضي الله عنه في التفسير
[٣] ابن السني في عمل اليوم والليلة عن أنس رضي الله عنه
[٤] سنن الترمذي كتاب الدعوات

ومن دعائه صلى الله عليه وسلم بعد القيام من الركوع :
[ربنا لك الحمد ملء السماوات ، وملء الأرض]
وفي رواية : [وملء ما بينهما] [1]
[وملء ما شئت من شيء بعد ، أهل الثناء والمجد أحق ما قال العبد ، وكلُّنا لك عبد ، اللهم لا مانع لما أعطيت]
- أي أن ذنبي وتقصيري لا يحول بيني وبين عطائك لي -
[ولا معطي لما منعت]
- وفي رواية : [ولا راد لما قضيت] -
[ولا ينفع ذا الجدّ منك الجدّ] [2]
وليس المراد من قوله صلى الله عليه وسلم :[ولا رادّ لما قضيت] : القضاء العام ، بل ما قضى الله لك سبحانه من فضله بدليل قوله تعالى : { وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ } أي يتفضل على السائلين والداعين وإن كانوا مذنبين لأنه سبحانه غفور رحيم
-* الرحمة اللدنية :
هي رحمة خاصة يرحم الله بها من يشاء من عباده على وجه خارق للعادة غير موقوف على الأسباب .
وكذا العلم اللدني الذي يعلّمه الله من يشاء .
قال تعالى عن الخضر عليه السلام :{ وآتيناه من لدنّا علماً } ، وهو علم غير موقوف على الوسائط والأسباب ، وقد يكون بواسطة أوسبب ، فقد نال صلى الله عليه وسلم العلم اللدني على أكمل الوجوه بواسطة جبريل عليه السلام وغيره من الملائكة عليهم السلام ، وقد يكون بلا واسطة كما في قوله صلى الله عليه وسلم :
[فتجلّى لي كل شيء وعرفت] [3] الحديث .
وكان من دعائه صلى الله عليه وسلم في قيام الليل :
[لا إله إلا أنت ، سبحانك ، اللهم أستغفرك لذنبي ، وأسألك رحمتك]
- وهي الرحمة العامة والخاصة -
[اللهم زدني علماً ، ولا تزغ قلبي بعد إذ هديتني ، وهب لي من لدنك رحمة ، إنك أنت الوهاب] [1]

---

[1] كما في سنن الدارمي كتاب الصلاة
[2] انظر صحيح مسلم كتاب الصلاة
[3] طرف حديث في سنن الترمذي كتاب القرآن

- أي هب لي رحمة لدنية خاصة تخرق العادات ولا تتوقف على الأسباب -
وانظر إلى سيدنا زكريا عليه السلام كيف خرق الله له العادة ، ووهبه يحيى عليه السلام على كبر سنه وعقر زوجته ، وذلك لما دعا ربه وسأله الرحمة اللدنية فقال كما أخبر سبحانه :
{ هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة } الآية .
وانظر إلى أصحاب الكهف كيف خرق الله لهم العادة وأكرمهم وألقى عليهم النوم وحفظ أجسامهم ، وكانوا آية دالة على قدرة الله سبحانه وحفظه لأوليائه ، وذلك لما خرجوا من المدينة وسألوا الله رحمة لدنية فقالوا كما أخبر سبحانه عنهم :{ ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشداً }.
كما بيّن سبحانه أن الراسخين في العلم - وهم أولوا الألباب ، وهم العابدون لله حق عبادته - بيّن سبحانه أن من شأنهم أن يسألوا الله رحمته اللدنية بأن يكرمهم بثبات الإيمان وزيادته قال تعالى :
{ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ * رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً }
- أي رحمة ننال بها شرف كرامتك في الدنيا والآخرة -
{ إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ }
وأولوا الألباب هم العابدون لله حق عبادته ، لأنهم توصلوا بعقولهم إلى اللباب بعد أن دخلوا الباب وأدركوا حكمة الخلق وأنه لابد من الآخرة فقالوا كما أخبر سبحانه عنهم :
{ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ } .
وقال تعالى : { وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ}
وهم أولو الألباب حيث وصفهم سبحانه في آية أخرى :
{ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ *ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ *وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ}.

-* بيان حديث شريف

إذا تحققت بقولك :
(لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، لا ملجأ ولا منجا من الله إلا إليه) خرق الله لك العادات ، ونلت من الكرامات ، وجاءك الفرج بعد الشدة .

---

[1] سنن أبي داود كتاب الأدب والسنن الكبرى للنسائي وصحيح ابن حبان

عن محمد بن إسحاق رضي الله عنه قال : جاء مالك الأشجعي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له : أُسِر ابني عوف ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم:
[أرسلْ إليه أن رسول الله يأمرك أن تكثر من قول : لا حول ولا قوة إلا بالله] .
فأتاه الرسول فأخبره فأكبّ عوف يقول : لا حول ولا قوة إلا بالله ، وكانوا قد شدوه بالقِدّ[1] فسقط القِد عنه، فخرج، فإذا هو بناقة لهم فركبها، وأقبل فإذا بسَرْح القوم الذين كانوا قد شدّوه فصاح بهم، فاتبع أولها آخرها، فلم يفجأ أبويه إلا وهو ينادي بالباب، فقال أبوه: عوف ورب الكعبة ، فقالت أمه: واسوأتاه ، وعوف كيف يقدِم لِما هو فيه من القد ؟ !
فاستبقا الباب والخادم، فإذا عوف قد ملأ الفناء إبلاً فقصّ على أبيه أمره وأمر الإبل، فقال أبوه: قِفا حتى آتي رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسأله عنها ، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره بخبر عوف وخبر الإبل، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم :
[اصنع بها ما أحببت، وما كنت صانعًا بمالك] .
ونزل: { وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ } [2].
وكذا الثلاثة الذين تخلفوا عن تبوك وهجرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعين يوماً ثم تابوا إلى الله وتوجهوا إليه بصدق وإخلاص ، وقال فيهم سبحانه :

---

[1] قال ابن سيده في كتابه المحكم والمحيط الاعظم :
القد: سيور تقدّ من جلد فطير غير مدبوغ، فتشد بها الأقتاب والمحامل.
[2] عزاه المنذري في الترغيب وابن رجب الحنبلي في جامع العلوم والحكم لآدم ابن أبي إياس في تفسيره وذكره ابن كثير وابن أبي حاتم في تفسيرهما وقال الإمام السيوطي في الدر المنثور :
أخرج عبد بن حميد والحاكم وابن مردويه عن أبي عيينة والبيهقي في الدلائل عنه عن ابن مسعود قال : « أتى رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم أراه عوف بن مالك فقال : يا رسول الله إن بني فلان أغاروا عليّ فذهبوا بابني ، وبكى فقال : اسأل الله ، فرجع إلى امرأته ، فقالت له : ما ردّ عليك رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فأخبرها ، فلم يلبث الرجل أن رد الله إبله وابنه أوفر ما كان ، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم ، فأخبره فقام على المنبر فحمد الله وأثنى عليه ، وأمرهم بمسألة الله والرغبة له ، وقرأ عليهم { ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب } » .

{ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ } أي : لما أيقنوا حق اليقين أن لا ملجأ من الله إلا إليه جاءهم الفرج ، ونزلت الآيات تبشرهم بأن الله تعالى قد تاب عليهم

{ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ }

-* الرجاء والخوف

الرجاء والخوف متلازمان وبينهما ارتباط ، فمن رجا أمراً خاف فوته ، ومن خاف أمراً رجا فواته ، وقد بين سبحانه أن من كان يرجو لقاءه سبحانه فإن ذلك حاصل له قال تعالى :

{ من كان يرجو لقاء الله } - أي محبة لله تعالى ولقاءه -

{ فإن أجل الله لآت } وكل آت قريب ، وفي هذا بشارة وتطمين للمؤمنين الراجين لقاء ربهم وهو عنهم راض .

وأما الكفار فلا يرجون لقاء الله ، وكيف يرجون لقاءه وقد كفروا به وأشركوا معه ؟!

فهم لا يرجون لقاءه سبحانه لأنهم يعلمون أن في ذلك حلول الغضب عليهم و لحوق العذاب بهم ، وفي هذا النص القرآني أطلق سبحانه

{ لا يرجون لقاءنا } وأراد بهم الكفار ، وفي هذا تعريض بالمؤمنين بأن لا يكونوا مثلهم ، وأن يحسنوا الظن بربهم ، وأن يقبلوا على طاعته حتى يلقوه وهو راض عنهم ويرحمهم ويثيبهم .

وهناك من فسر قوله سبحانه: { لا يرجون لقاءنا } أي لا يخافون لقاءنا بدليل قوله تعالى :{ مالكم لا ترجون لله وقاراً } أي لا تخافون ولا تهابون ، ولا تعارض في هذا لأن الرجاء والخوف متلازمان .

وقال تعالى :{ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ } - وهو عنه راض -

{فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا } الآية .

-* تعريف الظلم

قالوا : الظلم هو التصرف في ملك الغير بغير إذنه ،

وهذا تعريف للظلم صحيح في حق المخلوق .

أما الظلم في حق الله تعالى فقالوا : ما دام أنه التصرف في ملك الغير ، والملك كله لله فلا يُتصور إذاً الظلم في حق الله تعالى ، فإذا عاقب المؤمنَ الكامل بدون سيئة منه فلا يكون قد ظلمه ، طالما أن الكل لله تعالى ملكاً وملكاً ، وهذا هو قول علماء الكلام وهو أنه لا يتصور الظلم في حق الله تعالى في أفعاله مهما كانت .

وهذا الكلام فيه نظر لأنه سبحانه وتعالى لما تنزّه عن الظلم في كثير من الآيات قال جل وعلا { ولا يظلم ربك أحداً } { وما ظلمناهم } { وما ربك بظلام للعبيد } فهو سبحانه قد تنزّه وتعالى عن أمر يقدر على فعله لكنه سبحانه لا يفعله ، رحمة منه بعباده ، وإلا كيف يتنزه سبحانه عن أمر لا يُتصور في حقه سبحانه ؟!

وعلى قول علماء الكلام : لا ظلم في حقه سبحانه ، فما هو معنى الظلم الذي تنزه سبحانه عنه ونفاه ، وطالما أن الظلم لا يتصور في حقه فلمَ ذكر الظلم وتنزّه عنه ؟

إن الظلم الذي تنزه عنه سبحانه قد فسرته الآية :

{ ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضماً }

فالظلم الذي تنزّه عنه سبحانه هو انتقاص المحسن ثواب إحسانه ولو ذرة ، والزيادة في عقوبة المسيء زيادة على ما يستحق من عقوبته ولو بمقدار ذرة ، وهذا معنى قوله تعالى :

{ فلا يخاف ظلماً} - أي عذاباً أو عقوبة فوق ما يستحق ، في حال مات ولم يتب من ذنوبه -

{ ولا هضماً }: أي ولا انتقاصاً من ثواب إحسانه وعمله الصالح .

-* حكم شرعي :

أول وقت المغرب إذا غربت الشمس وتكامل غروبها ، وهذا لا خلاف فيه ، نقل ابن المنذر وخلائق لا يحصون الإجماع فيه .

قال أصحابنا : والاعتبار سقوط قرصها بكماله ، وذلك ظاهر في الصحراء

قال الشيخ أبو حامد والأصحاب : ولا نظر بعد تكامل الغروب إلى بقاء شعاعها بل يدخل وقتها مع بقائه .

وأما في العمران وقلل الجبال فالاعتبار بأن لا يرى شيء من شعاعها على الجدران وقلل الجبال ويقبل الظلام من المشرق اهـ .

من كتاب المجموع للإمام النووي رحمه الله تعالى الجزء الثالث الصفحة ٣٢ .

-* بيان آية كريمة

قال المفسرون في قوله تعالى :{ سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً }

إن كلمة { ليلاً } نكرة ، والتنكير هنا جيء به للتقليل ، إذ إن معنى (سرى) : مشى في الليل ، و(سار) : مشى في الليل أو في النهار حسب قيد الجملة .

فلم جيء بقوله { ليلاً } في قوله تعالى : { أسرى بعبده ليلاً } ؟

قالوا : لبيان أن الإسراء قد جرى في جزء يسير من الليل .

فجيء بقوله { ليلاً } نكرة للتقليل .
والتحقيق في المسألة أنه للتكثير والتكبير فإن أمر الإسراء والمعراج أمر عظيم استغرق جزءاً كبيراً من الليل لما فيه من دخول في عوالم السموات وعوالم أخرى ،
قال تعالى { لنريه من آياتنا } ويؤيد هذا المعنى قوله تعالى لموسى :
{ فأسر بعبادي ليلاً إنكم متبعون } أي أَسْرِ بهم في أولِ الليل وقد استغرق سيرهم باتجاه البحر طيلة الليل بدليل قوله تعالى مخبراً عن فرعون وملئه :
{ فأتبعوهم مشرقين } - أي عند شروق الشمس -
فقوله تعالى في الآية السابقة { ليلاً } للتكثير والتكبير ، لأن سير بني إسرائيل استغرق جزءاً كبيراً من الليل حتى شروق الشمس .
-* لطيفة
الدليل على الوقوف على التنوين ، - ويسمى وقوف الترنّم - قولهم :
قالت سليمى ليت لي بعلاً يمن   يغسل جلدي وينسيني الحزن
قالت بنات العم يا سلمى وإن   كان فقيراً معدماً قالت وإنِن
وإنن : الوقوف على التنوين وتلفظ (وإنن).
وكان سيدنا الشيخ محمد نجيب سراج الدين رضي الله عنه يأتي بهذه الأبيات دليلاً من لغة العرب على الوقوف على التنوين في أوراد السادة النقشبندية والرشيدية عند قولهم :
(في كل لمحة ونفسٍ عدد ما وسعه علم الله العظيم)
وفيه الوقوف على (نفسٍ) بالتنوين .
-* تذكرة
كان مولانا الوالد رضي الله عنه إذا سمع مقالة عن أحد مشايخ العصر ، أو دكاتير الزمان تمسّ بجانب من جوانب الدين ولا يرتضيها الله ورسوله صلى الله عليه وسلم راح يبين الصواب ويأخذه الغضب لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم ، ويسعى في بيان الحق ما استطاع ويتمثل بقول أحدهم [1] :
غَيري جَنى وَأَنا المُعاقَبُ فيكُم   فَكَأَنَّني سَبّابَةُ المُتَنَدِّمِ
فيكم : أي أنا المعذّب فيما فعله غيري
سبابة المتندم : ماذا فعلت سبّابته حتى جعل يعضّها كلما ندم ؟!
فكلما صدر عنهم شيء مخالف لشرع الله تحتّم عليه ردّه وبيان الحق فيه .
أي تقع الملامة عليهم لأنهم أثاروا الشبهات ونشروا الضلالات .
اللهم اجعلنا ممن ينصرون دينك فإنك قلت : { إن تنصروا الله ينصركم } .

---
[1] ابن شرف القيرواني

-* بيان حديث شريف

لما كان مولانا الوالد رضي الله عنه في الصف الثاني في المدرسة الخسروية ، وكان الشيخ راغب الطباخ يدرّسهم مادة الحديث ويقرأ لهم شرح الأربعين النووية ، جاء في بعض كلامه حول المرء إذا سُئل شيئاً ولم يكن عنده ما يقدمه للسائل ، فليقابله بوجه طَلْق وكلام لطيف .

لا خيل عندك تهديها ولا مال   فليُسعد النطقُ إن لم يسعد الحال

وقد جاء بيان هذا في أحاديث سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

[من استعاذ بالله فأعيذوه ، ومن سأل بالله فأعطوه ، ومن دعاكم فأجيبوه ، ومن صنع إليكم معروفاً فكافئوه ، فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه] [1]

و عن أسامة بن زيد رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

[من صُنع إليه معروف فقال لفاعله : جزاك الله خيراً ، فقد أبلغ في الثناء] [2]

و عن أبي ذر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

[تبسّمك في وجه أخيك صدقة] [3]

وعنه رضي الله عنه قال : قال لي النبي صلى الله عليه وسلم :

[لا تَحْقِرَنّ من المعروف شيئاً ، ولو أن تلقى أخاك بوجه طَلَق] [4]

وجاء في الحديث :

[أحب الأعمال إلى الله سرور تدخله على مسلم ، أو تكشف عنه كربة ، أو تقضي عنه ديناً ، أو تطرد عنه جوعاً] [5] .

وهكذا .

-* لطيفة

جاء في وصايا حكيم لابنه في قصيدة مطلعها :

أبنيّ إن من الرجال بهيمة   في صورة الرجل السميع المبصر

أبني : يعني يا بني .

-* بيان حديث شريف

---

[1] سنن أبي داود كتاب الزكاة والمسند ٥١١٠

[2] سنن الترمذي كتاب البر والصلة وسنن النسائي الكبرى وصحيح ابن حبان كتاب الزكاة

[3] صحيح ابن حبان ومسند البزار والمعجم الأوسط للطبراني

[4] صحيح مسلم كتاب البر والصلة والآداب

[5] المعجم الأوسط للطبراني وقضاء الحوائج لابن أبي الدنيا

لقد استعاذ صلى الله عليه وسلم من الهم والحزَن كما في الحديث عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول :
[اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن ، والعجز والكسل ، والجبن والبخل ، وضلع الدين[1] وغلبة الرجال] [2].
وقد علّم النبي صلى الله عليه وسلم أبا أمامة رضي الله عنه أن يقول :
[اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن ، وأعوذ بك من العجز والكسل ، وأعوذ بك من الجبن والبخل ، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال] [3]
والهمّ هو : الخوف من حصول مكروه في المستقبل ، والحزن يكون على ما مضى .
وقد قالوا في أثر الهمّ على المرء :
والهم ينْخرِم الجسيم نحافة ويُشيب ناصية الصغير ويُهرم
ينخرم : ينحت ويضعف ، كما يقال : خرم الإبرة هو موضع ثقبها للشيء .
-* <u>بيان حديث شريف</u>
روى الإمام البخاري عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : [أيُّكم مال وارثه أحب إليه من ماله] ؟
" قالوا : يا رسول الله ، ما منا أحد إلا ماله أحب إليه ،
قال : [فإن ماله ما قدّم ، ومال وارثه ما أخّر] [4].
وشكا رجل إلى بعض العارفين حبه للمال وكراهيته للموت فقال له :
لعلك أخّرت مالك فلو قدّمته لَسَرّك أن تلحق به .
أي لو تصدّقت به وقدمته لآخرتك لَمَا خفت من الموت ، ولسرّك أن تقدم على الآخرة لأنك قدّمت في الدنيا عملاً صالحاً باقياً معك ..
وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
[يقول العبد : مالي ، وإنما له من ماله ثلاثة]
- أي والحال ليس له من ماله الذي يزعم أنه له إلا -

---

[1] قال في الفتح ١٤٧/١٨ :
أصل الضلع - وهو بفتح المعجمة واللام - : الاعوجاج ، يقال : ضلع بفتح اللام يضلع أي مال ، والمراد به هنا ثقل الدين وشدته ، وذلك حين لا يجد مَنْ عليه الدين وفاء ولا سيما مع المطالبة .
[2] صحيح البخاري كتاب الدعوات ومعنى : (وغلبة الرجال) أي قهرهم وشدة تسلطهم والمراد بالرجال الظلمة أو الدائنون .
[3] انظره في سنن أبي داود كتاب الصلاة عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه
[4] صحيح البخاري كتاب الرقاق

[ما أكل فأفنى ، أو ما أعطى فأبقى ، أو لبس فأبلى ، وما سوى ذلك فهو ذاهب وتاركه للناس] [1]
فالذي يخرجه من ماله ويتصدق به أي يخرجه من عنديته فهو الباقي ، وإن تمسك بشيء وزعم أنه ملك له وأنه في عنديته فهذا لا يكون إلا لورثته كمن يحرس مال غيره .
وورد في الحديث أنه أهدي إلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم شاة ، - وكانت السيدة عائشة رضي الله تعالى عنها تعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب لحم الكتف - فقالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم :
يا رسول الله ، ما بقي إلا كتفها
فقال صلى الله عليه وسلم : [كلها قد بقي إلا كتفها] [2]
وجاء في الآية : { يا ليتني قدمت لحياتي }
هذا ما يقوله الكافر يوم القيامة ، أي يقول : يا ليتني وأنا في الدنيا آمنت وقدمت أعمالاً صالحة ألقاها الآن وأنا في حياة الآخرة التي صرت إليها .
ودخل رجل على بعض الصالحين فقال له :
أريد أن أعرف هل أنا من أهل الدنيا أم من أهل الآخرة ؟
فقال له : إن الله أرحم بعباده أن يجعل موازينهم في أيدي أمثالهم ، ولكن ميزان كل امرئ بيد نفسه - أي لأنك تستطيع أن تكذب وتغش الآخرين ولكنك لا تستطيع أن تكذب وتغش نفسك -
فقال : وكيف ؟ فقال له : إذا دخل عليك من يعطيك صِلة ، ودخل عليك من يطلب منك عطاء ، بأيهما تفرح ؟
فسكت الرجل ، فقال الرجل الصالح : إن كنت تفرح بمن يعطيك كنت من أهل الدنيا ، وإن كنت تفرح بمن يأخذ منك فأنت من أهل الآخرة . اهـ .
وذلك لأن الإنسان يحب من يعمر له ما يحب ، فالذي يعطيه يعمر له دنياه ، فإن فرح بذلك فهو من أهل الدنيا ، والذي يأخذ منه يعمر له آخرته فإن فرح بذلك فهو يحب الآخرة فهو من أهلها .
ولذلك كان بعض الصالحين إذا دخل عليه من يريد صلته يقف له ويقول :
مرحباً بمن يحمل لي زادي إلى الآخرة ، يعني أجره . اهـ
-* تذكرة
كان من كلام سيدنا الشيخ محمد نجيب رضي الله عنه :
(ليست القضية بالعمل ولكن لابد من العمل)

---
[1] صحيح ابن حبان وأصله في صحيح مسلم كتاب الزهد والرقائق
[2] المسند ٢٣١٠٧

أي أن العمل الصالح لا يوجب على الله تعالى أن يُدخل صاحبه الجنة ، ولكن لا بد من العمل الصالح وعبادة الله تعالى حتى يُؤهّل العبد نفسه لأن يتفضل الله عليه ويدخله الجنة بعمله ، فالعمال هم أهل أن يتفضل الله عليهم ويدخلهم الجنة .

قال تعالى : { فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم } الآية فهم عمّال عند الله تعالى وهو يتفضل عليهم ويدخلهم الجنة ، ولا يتفضل سبحانه على الكفار لأنهم لم يؤمنوا ولم يعملوا فلم يكونوا أهلاً لفضل الله تعالى عليهم ، قال تعالى : { ويؤت كل ذي فضل فضله } الآية

وقد جاء هذا في بيانه صلى الله عليه وسلم : [سدّدوا وقاربوا]

أي : لتكن أعمالكم سديدة أي موافقة تماماً لما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بالاتباع الكامل له صلى الله عليه وسلم ، وابذلوا جهدكم في ذلك ، فإن عجزتم في بعض الأمور عن ذلك فقاربوا من السداد

ثم قال صلى الله عليه وسلم :

[واغدوا وروحوا] إشارة إلى بذل الجهد في طاعة الله تعالى

[وشيء من الدلجة] أي عليكم بقيام الليل ولو بعض الليل

[والقصد القصد] أي التوسط في الأعمال مع المواظبة عليها

[تبلغوا] [1] أي تبلغوا جنة الله تعالى .

وقد بيّن صلى الله عليه وسلم ونبّه إلى أن أعمالكم هذه لا توجب على الله أن يدخلكم الجنة ما لم يتفضل سبحانه عليكم فقال :

[لن يُدخل أحداً منكم عمله الجنة ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟

قال : ولا أنا ، إلا أن يتغمدني الله منه بفضل ورحمة] [2]

وقال صلى الله عليه وسلم :

[لن يُنجِي أحداً منكم عملُه ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟

قال : " ولا أنا ، إلا أن يتغمدني الله برحمة] [3].

وفي رواية : [ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بمغفرة ورحمة] [4]

ومن مفاهيم العارفين حول ذلك ما قالوا في الآية :

{ قل بفضل الله } - أي عليهم بالإيمان -

---

[1] صحيح البخاري كتاب الرقاق

[2] صحيح مسلم كتاب صفة القيامة والجنة والنار وصحيح البخاري كتاب المرضى

[3] صحيح البخاري كتاب الرقاق

[4] صحيح البخاري كتاب الرقاق

{ وبرحمته } - أي برحمته لهم برسول الله صلى الله عليه وسلم كما قال تعالى : {وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين} -
{ فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون } - أي : هو خير لهم مما يجمعون من أعمال صالحة ، أي فليفرحوا بفضل الله عليهم ورحمته لهم ولا يفرحوا بأعمالهم ، وفرحهم بأعمالهم يعني أن يعتمدوا عليها ويجعلوها سبباً لدخولهم الجنة كما تقدم بيانه في الحديث : [إلا أن يتغمدني الله منه بفضل ورحمة] بل إن فضله عليهم ورحمته سبحانه بهم أعظم وأفضل مما يجمعون من أعمال .
وإليه الإشارة بقوله تعالى :
{ وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ }
وقوله سبحانه : { ورحمة ربك خير مما يجمعون } الآية .
وتأمل في قول النبي صلى الله عليه وسلم للأعرابي الذي غمرته الذنوب وجاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يشكو ذلك فقال له :
[قل :
اللهم مغفرتك أوسع من ذنوبي ورحمتك أرجى عندي من عملي]
فقالها ثم قال : [عُد] ، فعاد ثم ، قال : [عد] ، فعاد ، فقال صلى الله عليه وسلم له : [قم فقد غفر الله لك][1]
فقوله : (اللهم مغفرتك أوسع من ذنوبي ورحمتك أرجى عندي من عملي) أي أنني أرجو رحمتك أن ترحمني بها ، ولا أعتمد على عملي ولا أجعل عملي شيئاً ، بل أرجو أن أنال رحمتك ، فلا ذنوبي تحجب رحمتك عني ، ولا عملي يوجب عليك أن ترحمني إذ [لا مانع لما أعطيت ، ولا معطي لما منعت ، ولا رادّ لما قضيت] أي لا راد لفضلك علي .
-* لطيفة
وقد هجر بعضهم قرية وذمّ أصحابها بقوله :
وبلدة ليس بها أنيس إلا اليعافير وإلا العيس
اليعافير : جمع يعفور وهو الحمار .
والعيس : الإبل .
وبلدة : اسم مجرور بحرف جر محذوف تقديره : رُبَّ ، في محل رفع للابتداء .

[1] مستدرك الحاكم وشعب الإيمان للبيهقي

-* بيان حديث شريف

قوله صلى الله عليه وسلم :
[آت محمداً الوسيلة] وهي أعلى منزلة في الجنة ، وهي منزلة خاصة به صلى الله عليه وسلم ، إذ إن كل خير يناله أهل الجنة إنما يتنزّل من صاحب تلك المنزلة العالية صلى الله عليه وسلم .
وقوله صلى الله عليه وسلم :[والفضيلة] أي الفضل الأعلى على جميع الفضائل التي نالها الأنبياء من قبله عليهم الصلاة السلام .
[وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته][1] : وهو مقام الشفاعة العظمى الذي دلّت عليه الأحاديث .

-* بيان آية كريمة

ما جاء في الآية : {ربنا آتنا في الدنيا حسنة }

أي ما يحْسن به حالنا في الدنيا من جميع الوجوه والاعتبارات .

{ وفي الآخرة حسنة } كذلك بالعافية من مكاره الآخرة .

وقال الإمام سفيان الثوري رضي الله عنه للشيخ حماد بن سلمة رضي الله عنه : أترى أن الله تعالى يغفر لي ؟
فقال حماد : أما أنا فلو خُيِّرْتُ بين أن يحاسبني الله تعالى أو يحاسبني والداي لاخترت أن يحاسبني الله تعالى لأنه أرحم بي منهما .[2]

-* لطيفة

دخل رجل كبير السن على أحد الخلفاء العباسيين فسأله الخليفة عن عمره - والمتقدم في السن يكره السؤال عن سنه - فقال له :
إن الثمانين وبُلّغتَها قد أحوجت سمعي إلى ترجمان
وبلغتها : - بفتح التاء - جملة خبرية لفظاً إنشائية معنى ، أي فيها معنى الدعاء ، أي : بلّغك الله إياها ، وهي جملة معترضة - اعتراضية - تدخل على المتلازمَين ، أي تقع بين المبتدأ والخبر .
وجملة (قد أحوجت): في محل رفع خبر إن .

-* فائدة أصولية

(إلى) غائية ، وقد تكون غائية مد أو غائية إسقاط ، وهذا ما فهمه علماء الأصول من الكتاب والسنة .

---

[1] صحيح البخاري كتاب الأذان
[2] انظر تهذيب الكمال للمزي ٢٦٦/٧ وسير أعلام النبلاء ٤٤٩/٧

فمثال وقوعها غائية مدّ قوله تعالى :
(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ) أي دخل المرفق في الغسل ، أي دخل ما بعد إلى في الحكم .
أما وقوعها غائية إسقاط فقوله تعالى :{ ثم أتموا الصيام إلى الليل }
أي إلى ابتداء الليل ، وليس الليل داخلاً في الصيام .
وقد تبين هذا المعنى وغيره في أفعاله صلى الله عليه وسلم ، وليس من مجرد مفاهيم اللغة العربية ، إذ إن الكتاب والسنة لهما موقف تجاه اللغة أحياناً بتخصيص العام أو تقييد المطلق ، كالصلاة مثلاً فهي في اللغة تعني الدعاء ، وفي الاصطلاح الشرعي هي ذات الركوع والسجود ودخل فيها معنى الدعاء .
فلا تكفي اللغة وحدها في فهم الكتاب ، ولابد من الرجوع إلى صاحب البيان عن القرآن صلى الله عليه وسلم ، وهذا في الأحكام الشرعية ، أما في الأمور الكونية فقد تساعد اللغة في فهم وتوضيح المعاني وإن تعددت المعاني طالما أن اللغة تساعد في ذلك .
ففي قوله تعالى { إلى المرافق } : (إلى) غائية مَدّ ، ويكون المغيّا - وهو المرافق - داخلاً في الحكم وهو الغسل عند الوضوء .
أما في (إلى) - غائية الإسقاط - فلا يدخل المغيا في الحكم كقوله تعالى :
{ ثم أتموا الصيام إلى الليل } فلا يدخل الليل في الصيام .
* <u>بيان حديث شريف</u>

جاء في الحديث : [يا أيها الناس ، خذوا من الأعمال ما تطيقون ، فإن الله لا يملّ حتى تملوا ، وإن أحب الأعمال إلى الله ما دام وإن قلّ] [1].

فإذا كانت (حتى) بمعنى الغائية فيكون المعنى : إن مللتم وتركتم طاعة الله تعالى فإن الله يمل منكم ويعرض عنكم .
وإذا كانت (حتى) بمعنى الابتداء فيكون المقدر بعدها (أنتم) أي : حتى أنتم تملّوا ، والمعنى فإن الله تعالى لا يمل حتى أنتم تملوا
والقول الأول أظهر - والله أعلم - لأن صدر الحديث يبين ذلك
[خذوا من الأعمال ما تطيقون] أي ما تطيقون المواظبة عليه .
كما جاء في حديث آخر عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :

---

[1] صحيح البخاري كتاب اللباس وصحيح مسلم كتاب صلاة المسافرين وقصرها

[إن هذا الدين متِين ، فأوغِل فيه برفق ، ولا تبغّض إلى نفسك عبادة الله ، فإن المُنْبَتّ لا أرضاً قطع ، ولا ظهراً أبقى] [1]

وهو الذي أسرع في السير على ظهر جواده حتى أجهده وأتعبه وقطع ظهره ، فلم يسْلم على جواده ، ولم يقطع مسافة في طريقه ، وصلى الله على معلم الناس الخير سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

-* بيان آية كريمة

قوله سبحانه وتعالى : { خلق السموات بغير عمد ترونها }
فهل هناك أعمدة ولا نراها - أي هي غير مرئية -
أم ليس هناك للسماء أعمدة أصلاً حتى نراها ؟
في المسألة قولان :
فعلى قول من قال أن لها أعمدة غير مرئية تكون جملة { ترونها } صفة لـ { عمد } - أي خلق السموات بغير عمد مرئية - .
وعلى قول من قال بغير عمد أصلاً فتكون جملة ترونها استئنافية - ويسمى هذا استئناف بياني يعود لعلم المعاني في البلاغة - ويكون جواباً لسؤال مقدر تقتضيه الجملة السابقة والمعنى : خلق السموات بغير عمد ،
وكأنه قيل : ما دليل ذلك ؟
فكان الجواب : { ترونها } - أي لأنكم ترونها بغير عمد فلا عمد لها .
ونظائر الاستئناف البياني في القرآن كثيرة كقوله سبحانه مخبراً عن امرأة عزيز مصر :{ وما أبرئ نفسي }- وكأنه قيل لِمَ ؟
فقالت : {إن النفس لأمارة بالسوء } - أي لأن النفس أمارة بالسوء -.
والاستئناف البياني لا يكون معطوفاً كقوله تعالى :{ استغفروا ربكم }
- وكأنه قيل : وهل يغفر لنا إذا استغفرناه ؟
فقال جل وعلا : {إنه كان غفاراً }
فجملة { إنه كان غفاراً } استئناف بياني ، أي لأنه كان غفاراً .

-* تذكرة

كان من كلام شيخنا ومولانا الشيخ محمد نجيب رضي الله عنه :
(إن العقل السليم والنقل الصحيح كفرسي رهان [2] لا يتعارضان) .

---

[1] السنن الكبرى للبيهقي
[2] قال في القاموس المحيط : ١٠٢/٢
" هما كفرسي رهان " يضرب لاثنين يستبقان إلى غاية فيستويان ، وهذا التشبيه في الابتداء، لأن النهاية تُجلي عن السابق لا محالة . اهـ
قلت : والمراد أن النقل مقدم على العقل ، والعقل السليم كان يقْبل ما ثبت من النقل

ومعنى كفرسي رِهان أي أن كلاً منهما له السبق فلا أحد يسبق الآخر ، بل إنهما متوافقان ، وإذا تعارض أحدهما مع الآخر فإما لتقاصر العقل عن الفهم كما قالوا :

وكم من عائب قولاً صحيحاً وآفته من الفهم السقيم

وإما أن العقل أسير للآراء والشهوات النفسية ، فإن هذا قد وضع بينه وبين الفهم الصحيح حجاباً ، وإما لعدم ثبوت النقل ، وهذا نادراً ما يحصل في بعض الأحاديث الضعيفة التي يُنظر في سندها ، أما النقول المتواترة أو الصحيحة أو المشهورة فلا شك في ثبوتها .

-* تذكرة

وكان من كلام سيدي الشيخ محمد نجيب رضي الله عنه أيضاً :

جاء في عناد اليهود وإعراضهم عن الحق : أن رجلاً من اليهود يقال له (مالك بن الصيف) جاء فخاصم النبي صلى الله عليه وسلم فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : [أنشدك بالذي أنزل التوراة على موسى ، هل تجد في التوراة أن الله يبغض الحبر السمين] ؟ قال : - وكان حبراً سميناً - ، فغضب وقال : ما أنزل الله على بشر من شيء ، فقال له أصحابه الذين معه : ويحك ولا على موسى ؟

قال : ما أنزل الله على بشر من شيء ، فأنزل الله عز وجل :

{ وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس } [١] .

أي فإن أجابوك وقالوا : الله ، وجب أن يؤمنوا بك ، وإلا

{ قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون } .

فكان صلى الله عليه وسلم يعلم ما ذكر الله تعالى في التوراة ، فجعل يجادلهم بما فيها ولكنهم أعرضوا وعاندوا .

وإن الله يكره الحبر السمين - العالم السمين - لأنه منشغل في شهوات الدنيا وملذاتها وقليل العبادة والطاعة لله .

روى الحاكم وغيره عن جعدة الجشمي رضي الله عنه قال : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يشير بيده إلى بطن رجل سمين ويقول :

[لو كان هذا في غير هذا كان خيراً لك] [٢]

---

[١] انظر تفسير ابن أبي حاتم وتفسير الطبري والحديث بنصه عزاه السخاوي في المقاصد إلى شعب الإيمان للبيهقي

[٢] المستدرك كتاب الرقاق ومسند الإمام أحمد ١٥٣٠٧ ، وقال ابن عبد البر في الاستيعاب : يعني لو كان هذا السمن في إيمانك كان خيراً لك . اهـ ٧١/١

- وفيه تحريض من النبي صلى الله عليه وسلم له على الإكثار من العمل الصالح وتحذير له من الكسل والخمول -

وأما السمنة التي تنشأ عن غير كسل أو بلادة أو قلة نشاط في عبادة الله تعالى فلا عتب ولا مؤاخذة للعبد عليها ، طالما أنه متمسك بالآداب الشرعية من عدم الإسراف في الأكل أو الشرب وغيره .

قال سعيد بن منصور: قدم وكيع مكة، - وكان سميناً - ، فقال له الفضيل بن عياض: ما هذا السِّمن وأنت راهب العراق؟!

قال: هذا من فرحي بالإسلام، فأفحمه.[1]

ويرحم الله القائل :

يقولون أجسام المحبين نِضوة ... وأنت سمين لست غير مرائي
فقلت لأن الحب خالف طبعهم ... ووافقه طبعي فصار غذائي[2]

وقيل في ذلك :

ترى الرجل النحيف فتزدريه ... وفي أثوابـه أسد هصور
ويعجبك الطـرير إذا تراه ... فيخلف ظنك الرجل الطرير
فما عظم الرجال لهم بفخر ... ولكن فخرهم كرم وخير

والرجل الطرير : الذي له هيئة حسنة

-* لطيفة

قال بعضهم : قبول النميمة شر من النميمة ، لأن النميمة دلالة ، وقبولها إجازة ، وليس من دل على شيء كمن قبِله وأجازه .

-* فائدة لغوية

(كل عام وأنتم بخير): بضم لفظة (كل) تكون مبتدأ والواو في (وأنتم) واو الحال .

وتقدير الكلام : كل عام يأتي وأنتم - أي : والحال - أنتم بخير .

أما إذا كانت لفظة (كل) بالنصب فتكون ظرفاً ، ولا حاجة للواو قبل (أنتم) فيقال عندئذ : كل عام أنتم بخير .

-* فائدة :

وكان من عادة الشيخ الإمام رضي الله عنه في صيف ما بين عام ١٣٩٠ و ١٣٩٨ للهجرة النبوية الشريفة أن يقضي حوالي عشرين يوماً في تركيا عند عم زوجته الحاج أحمد بن صالح ططري رحمه الله ، وكان الحاج أحمد يمتلك مزرعة قريبة من إزمير ، فيتفرغ فيها الشيخ الإمام للتأليف والعبادة ،

---

[1] سير إعلام النبلاء ١٥٦/٩

[2] هذان البيتان ينسبان للشيخ سيف الدين الباخرزي البخاري

وأحياناً يلتقي جماعة من علماء تركيا الذين كان يستضيفهم الحاج أحمد في مزرعته .
وصلّى مولانا الإمام صلاة الجمعة ، وكان الخطيب والإمام وقتئذ مفتي إزمير ، وقد أطال الخطبة وقصّر الصلاة على خلاف السنة حتى أذكر أنه قرأ في الركعة الأولى سورة الكوثر وفي الثانية سورة الإخلاص .
فلما اجتمع به الشيخ في ضيافة الحاج أحمد رحمه الله راجعه في هذا الأمر فقال له المفتي : يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم :
[إذا أمّ أحدكم الناس فليخفف] [1] .
قال : وفي هذا دليل على مشروعية التخفيف .
فتبسم الشيخ الإمام رضي الله عنه وقال : لا شك أن التخفيف في الصلاة مشروع ، ولكن حدّ التخفيف ومقداره يُعرف من الإمام الأعظم صلى الله عليه وسلم ، وليس لنا أن نحدد من أنفسنا ، فما الذي ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم في قراءته في صلاة الجمعة ؟
كان صلى الله عليه وسلم يقرأ سورة الجمعة وسورة الغاشية [2]
وفي رواية سورة الجمعة والمنافقون [3]
وأقل ما روي في ذلك سورة الأعلى والغاشية [4] .
لكن المفتي جعل يجادل في الأمر حتى أقنعه الشيخ الإمام بأدلته الواضحة فكفّ عن الجدال وأذعن لرأي الشيخ الإمام رضي الله عنه .
قلت : وأما ما انتشر فيما بعد في عصرنا من إطالة خطبة الجمعة وتقصير الصلاة فهو أمر ليس من السنة في شيء ، بل هو خلاف السنة لقوله صلى الله عليه وسلم :
[إن طول صلاة الرجل وقصر خطبته مئنة من فقهه]
- بفتح الميم ثم همزة مكسورة ثم نون مشددة ، أي :علامة ومظنة ودليل على فهمه لدين الله تعالى [فأطيلوا الصلاة واقصروا الخطبة] [1]

---

[1] صحيح مسلم كتاب الصلاة
[2] روى الإمام أحمد في مسنده أن الضحاك بن قيس سأل النعمان بن بشير رضي الله عنه : بم كان النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ في الجمعة مع سورة الجمعة ؟
قال : هل أتاك حديث الغاشية
[3] روى الإمام مسلم في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقرأ في صلاة الجمعة سورة الجمعة والمنافقون
[4] روى أبوداود في سننه في كتاب الصلاة عن سمرة بن جندب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقرأ في صلاة الجمعة بـ سبح اسم ربك الأعلى وهل أتاك حديث الغاشية

قال الإمام النووي : الهمزة في [واقصروا] همزة وصل
وجاء في صفة خطبته صلى الله عليه وسلم يوم الجمعة أنه كان يقصر الخطبة ويطيل الصلاة [٢]
ومن ادعى أنه يطيل الخطبة مستغلاً اجتماع الناس لإسماعهم موعظة طويلة أو بياناً لأمور شرعية فإنه لم يأت الصواب في فعله ، لأنه ينبغي على المصلي سماع الخطبة ، وأما أن ينتهز الإمام فرصة تجمّع الناس لأداء فريضة الجمعة وسماعهم الخطبة فيلقي عليهم درساً مسهباً فيكون قد أوقعهم في الضيق والعنت ، لأنه أكرههم على الجلوس لسماع الخطبة الطويلة منتظرين الصلاة ، وإن فيهم المريض والكبير وذا الحاجة ومن لا يقدر على الجلوس لفترة طويلة و ..
ولو أن الإمام اتبع سنة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي علّم الناس كل خير بفعله ومقاله حيث أمر بإطالة الصلاة ليَسمع الناس كلام الله يُتلى عليهم ، وقصر الخطبة بكلمات جامعات لموعظة حسنة أو توضيح لأمر يهم مجتمع المسلمين لكان ذلك خيراً له ، ثم إذا بدا له أن يبين لهم بإسهاب وإطالة فليبلّغهم أنه بعد الفراغ من أداء الصلاة سيلقي عليهم درساً في موضوع مهمّ لهم ، فمن أراد الجلوس للسماع فعل ، ومن كان مريضاً أو مشغولاً بحاجة جلس في الجمعة المقبلة ، وهكذا فإن الاتباع خير من الابتداع .
وأما ما جاء عنه صلى الله عليه وسلم في أنه أطال الخطبة فإن ذلك كان في غير صلاة الجمعة المفروضة ، وهذا من معجزاته صلى الله عليه وسلم أن الله تعالى أعطاه قوة خاصة في المنطق والبيان ، وأمدّ الصحابة رضي الله عنهم حتى ظلوا جالسين ينصتون له صلى الله عليه وسلم من الغداة حتى الغروب .

---

[١]صحيح مسلم كتاب الجمعة
[٢] روى النسائي في سننه في كتاب الجمعة عن عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه قال :كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر الذكر ويقل اللغو ويطيل الصلاة ويقصر الخطبة

ففي الحديث عن عمرو بن أخطب رضي الله تعالى عنه قال :
" صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الفجر ، وصعد المنبر فخطبنا حتى حضرت الظهر ، فنزل فصلى ، ثم صعد المنبر ، فخطبنا حتى حضرت العصر ، ثم نزل فصلى ، ثم صعد المنبر ، فخطبنا حتى غربت الشمس ، فأخبرنا بما كان وبما هو كائن " فأعلمُنا أحفظنا [1]
وعن أبي سعيد رضي الله عنه قال : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطبة بعد العصر إلى مغيربان الشمس ، حفظها منا من حفظها ، ونسيها من نسي ، - قال عفان ، وقال حماد : وأكثر حفظي أنه قال : بما هو كائن إلى يوم القيامة - فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :
[أما بعد فإن الدنيا خَضِرة حلوة [2] ، وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون ، ألا فاتقوا الدنيا ، واتقوا النساء ، ألا إن بني آدم خُلقوا على طبقات شتى ، منهم من يولد مؤمناً ويحيا مؤمناً ويموت مؤمناً ، ومنهم من يولد كافراً ويحيا كافراً ويموت كافراً ، ومنهم من يولد مؤمناً ويحيا مؤمناً ويموت كافراً ، ومنهم من يولد كافراً ويحيا كافراً ويموت مؤمناً ، ألا إن الغضب جمرة تُوقد في جوف ابن آدم ، ألا ترون إلى حمرة عينيه وانتفاخ أوداجه ؟ فإذا وجد أحدكم شيئاً من ذلك فالأرض الأرض ، ألا إن خير الرجال من كان بطيء الغضب سريع الرضا ، وشر الرجال من كان سريع الغضب بطيء الرضا ، فإذا كان الرجل بطيء الغضب بطيء الفيء وسريع الغضب سريع الفيء فإنها بها ، ألا إن خير التجار من كان حسن القضاء حسن الطلب ، وشر التجار من كان سيئ القضاء سيئ الطلب ، فإذا كان الرجل حسن القضاء سيئ الطلب ، أو كان سيئ القضاء حسن الطلب فإنها بها ، ألا إن لكل غادر لواء يوم القيامة بقدر غدرته ، ألا وأكبر الغدر غدر أمير عامة ، ألا لا يمنعن رجلاً مهابة الناس أن يتكلم بالحق إذا علمه ،

---

[1] صحيح مسلم كتاب الفتن وأشراط الساعة
[2] روى الطبراني في الكبير والبيهقي في السنن عن شداد بن أوس رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:
أيها الناس، إن الدنيا عَرَض حاضر يأكل منها البر والفاجر
وقال النووي في شرحه صحيح مسلم :
قوله صلى الله عليه وسلم : (إن هذا المال خضرة حلوة)
شبهه في الرغبة فيه والميل إليه وحرص النفوس عليه بالفاكهة الخضراء الحلوة المستلذة ، فإن الأخضر مرغوب فيه على انفراده ، والحلو كذلك على انفراده فاجتماعهما أشد .
وفيه إشارة إلى عدم بقائه ؛ لأن الخضراوات لا تبقى ولا تراد للبقاء . والله أعلم .

ألا إن أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر]
فلما كان عند مغيربان الشمس قال : [ألا إن مثل ما بقي من الدنيا فيما مضى منها مثل ما بقي من يومكم هذا ، فيما مضى منه] [1]
وكان شيخنا الإمام رضي الله عنه يسرد الأحاديث النبوية بلفظها وذكرِ من رواها وخرّجها ، ويستهجن فعل من خالف ذلك ، لأن على الواعظ والإمام الخطيب أن يجيد حفظ الحديث ويتقن لفظه وبيانه ، وكثيراً ما كان يقول : سلاح طالب العلم الذي يجب ألا يفارقه هو : قال الله تعالى وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والناس إلى سماع حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم أشد حاجة إلى سماع غيره من كلام مهما كان بليغاً هادفاً ، فإن كلام سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم كلام من آتاه الله جوامع الكلم وفواتحه وخواتمه ، وفيه نور محمدي نبوي يسري إلى قلب السامع ، ولا بأس بعد ذكر طائفة من الأحاديث أن يبين الإمام أو الواعظ ما قاله أهل العلم في بيان معانيها بياناً مجملاً ينفع السامع .

*- رد شبهة وضلالة

لما حضر إلى حلب في أوائل الثمانينات من القرن الهجري الماضي رجل نسب نفسه إلى أهل الحديث قدم من بلد في جهة المشرق ، وراح ينشر دعوته المنحرفة ، ولم يكن أحد من المشايخ وقتئذ أو من أهل العلم يرد عليه إلا ما كان من سيدي الوالد ، فراح يستهدفه في دروسه ويرد أباطيله بالحجج الدامغة ، حتى فشل في نشر دعوته وخذله الله تعالى ، فذهب إلى إدلب ثم الشام ثم شتّته الله في البلاد .
وحصل مرة أن اتصل الشيخ محمد بلنكو [2] - وكان يشغل وظيفة المفتي في حلب - اتصل بمولاي الوالد رضي الله عنه ، وأبلغه أنه قد حدد موعداً مع هذا الرجل ، ومع جملة من العلماء للاجتماع به ومناظرته في دائرة الفتوى ، وغضب مولاي الوالد من هذا الاجتماع ولام الشيخ بلانكو على فعله هذا لأنه يعلم أن مناظرة هؤلاء لا جدوى منها إلا ما رحم ربي انطلاقاً من قولهم :

وَلَيسَ يَصِحُّ في الأَفهامِ شَيءٌ   إِذا اِحتاجَ النَهارُ إِلى دَليلِ

لكن الوعد قد حصل مما اضطر بمولاي الوالد أن يحضر .

[1] مسند الإمام أحمد ١٧٨٢٧ ومسند الطيالسي والحميدي وأبي يعلى الموصلي
[2] هو الشيخ محمد بن الحاج عمر بلنكو الحنفي الحلبي مفتي حلب المتوفى سنة ١٤١٣ هـ رحمه الله

وكان من جملة الحاضرين الشيخ محمد أبو الخير زين العابدين [١] والشيخ عبد الله خير الله [٢] والشيخ عمر مكناس أمين الفتوى [٣]، والشيخ محمد الكردي [٤] كاتب الفتوى وغيرهم ، فلما جلسوا حضر الرجل الذي كان يدّعي أنه محدّث ، فنظر مولاي الوالد رحمه الله في وجهه فلم ير أثر نور الحديث النبوي الشريف على وجهه ، لأن المحدثين الصادقين لا بد أن تظهر على وجوههم أثر نورانية الحديث الشريف بدعوة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم :

[نضّر الله امرأ سمع مقالتي فحفظها فأدّاها كما سمعها] [٥]

والنضار هو النور والبهاء .

ولما جلس الرجل المدعو سأله الشيخ بلانكو ، وقال : هات ما عندك .

فقال أنا أقول كما قال أبو حنيفة رحمه الله : يُكره أن يُسأل اللهُ بغير الله .

فقال سيدي الوالد للشيخ محمد الكردي : ناولني الجزء الخامس من كتاب حاشية ابن عابدين - وفيه باب (الحظر والإباحة)- فأحضره الشيخ ، وقرأ سيدي الوالد عبارة الحنفية التي أوردها الرجل مكذوبة وهي :

يكره أن يقال : بحق رسلك وأنبيائك وأوليائك [٦]

---

[١] هو الشيخ محمد أبو الخير بن الشيخ محمد زين العابدين الأنطاكي ثم الحلبي المتوفى سنة ١٣٩٣ هـ رحمه الله

[٢] هو الشيخ عبد الله بن السيد طاهر خير الله الحلبي الحنفي مفتي منطقتي جبل سمعان وجرابلس المتوفى سنة ١٣٩٩ هـ رحمه الله

[٣] الشيخ عمر بن الحاج عبد القادر مكناس الحنفي الحلبي الفقيه الحنفي المتوفى سنة ١٤٠٧ هـ رحمه الله

[٤] هو الشيخ محمد مهدي بن الشيخ أحمد بن محمد عساف الكردي الفقيه الحنفي المدقق المتوفى سنة ١٣٨٥ هـ رحمه الله

[٥] مسند البزار وأصله في سنن الترمذي كتاب العلم

[٦] قال ابن عابدين في حاشيته :

(قَوْلُهُ : وَكُرِهَ قَوْلُهُ : بِحَقِّ رُسُلِك) هَذَا لَمْ يُخَالِفْ فِيهِ أَبُو يُوسُفَ بِخِلَافِ مَسْأَلَةِ الْمَتْنِ السَّابِقَةِ كَمَا أَفَادَهُ الْأَتْقَانِيُّ .

وَفِي التَّتَارْخَانِيَّة : وَجَاءَ فِي الْآثَارِ مَا دَلَّ عَلَى الْجَوَازِ

(قَوْلُهُ لِأَنَّهُ لَا حَقَّ لِلْخَلْقِ عَلَى الْخَالِقِ) قَدْ يُقَالُ إنَّهُ لَا حَقَّ لَهُمْ وُجُوبًا عَلَى اللَّهِ تَعَالَى ، لَكِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جَعَلَ لَهُمْ حَقًّا مِنْ فَضْلِهِ أَوْ يُرَادُ بِالْحَقِّ الْحُرْمَةُ وَالْعَظَمَةُ ، فَيَكُونُ مِنْ بَابِ الْوَسِيلَةِ وَقَدْ قَالَ تَعَالَى :{ وَابْتَغُوا إلَيْهِ الْوَسِيلَةَ }

وَقَدْ عَدَّ مِنْ آدَابِ الدُّعَاءِ التَّوَسُّلَ عَلَى مَا فِي الْحِصْنِ ، وَجَاءَ فِي رِوَايَةٍ :

{ اللَّهُمَّ إنِّي أَسْأَلُك بِحَقِّ السَّائِلِينَ عَلَيْك ، وَبِحَقِّ مَمْشَايَ إلَيْك ، فَإِنِّي لَمْ أَخْرُجْ أَشَرًا وَلَا بَطَرًا } الْحَدِيثَ ا هـ عَنْ شَرْحِ النُّقَايَةِ لِمُنْلَا عَلِيٍّ الْقَارِي

وقال شيخنا الإمام رضي الله عنه :
وإذا ثبت أنهم قالوا بكراهته - أي كراهة التوسل بحق رسول الله صلى الله عليه وسلم أو الرسل عليهم السلام أو غيرهم على الله - فهذه الكراهة لعلّة وهي أن لا يتوهم أحد أن للمخلوق حقاً واجباً على الله ، وقد زالت العلة وهي التوهم ومضت منذ زمن المعتزلة ، فزالت الكراهة ، ولا بأس من التوسل ، وهذا هو مقصد الحنفية من قولهم بالكراهة .
ويجب أن يُعلم أنه ليس لأحد حق على الله يطالبه به ، ولكن الله جل وعلا تفضلاً منه وكرماً حقَّ على نفسه وأوجب على نفسه وكتب على نفسه وحتّم على نفسه ، ومن ذلك قوله تعالى : { كتب ربكم على نفسه الرحمة }
{ كان على ربك حتماً مقضياً } { وكان حقاً علينا نصر المؤمنين }
وقال جل وعلا : { كتب الله لأغلبن أنا ورسلي }
وفي الحديث القدسي : [لما قضى الله الخلق كتب في كتابه على نفسه - أي أوجب - فهو موضوع عنده : إن رحمتي تغلب غضبي] [1]
وفي حديث معاذ رضي الله عنه :
[وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئاً] [2]
فقوله صلى الله عليه وسلم : [وحق العباد] أي الحق الذي تفضل سبحانه وأوجبه على نفسه ، وليس لأحد أن يحق على الله أو يوجب على الله أو يكتب على الله أو يحتّم على الله تعالى .

وفي الحديث [أسألك بحق السائلين عليك] [3] فلما تسأل الله بحق النبي أو بحق الأنبياء فإنما تسأله وتتوسل إليه بحقٍ هو حَقَّه على نفسه سبحانه فضلاً منه وكرماً فما وجه الكراهة ؟.

وَيُحْتَمَلُ أَنْ يُرَادَ بِحَقِّهِمْ عَلَيْنَا مِنْ وُجُوبِ الْإِيمَانِ بِهِمْ وَتَعْظِيمِهِمْ ، وَفِي الْيَعْقُوبِيَّةِ يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْحَقُّ مَصْدَرًا لَا صِفَةً مُشَبَّهَةً فَالْمَعْنَى بِحَقِّيَّةِ رُسُلِك فَلَا مَنْعَ فَلْيُتَأَمَّلْ . اهـ

[1] صحيح البخاري كتاب بدء الخلق وصحيح مسلم كتاب التوبة عن أبي هريرة رضي الله عنه واللفظ له

[2] طرف حديث في صحيح البخاري كتاب الجهاد والسير وصحيح مسلم كتاب الإيمان

[3] سنن ابن ماجه كتاب المساجد والجماعات والمسند ١٠٧٢٩
والحديث عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من خرج من بيته إلى الصلاة فقال : (اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك وأسألك بحق ممشاي هذا فإني لم أخرج أشَراً ولا بطراً ولا رياء ولا سمعة ، وخرجت اتقاء

وهنا خرس هذا الرجل وخسر وخاب وخذله الله ، وقال تلميذ الرجل لشيخنا الإمام : ما جئنا للتخاصم ولكن للمصالحة ، ونرجو منك يا شيخ عبد الله أن تكفّ عن مهاجمتنا في دروسك .
فقال له سيدي الوالد حفظه الله :
(كفّوا عن نشر أفكاركم وضلالاتكم فأكفّ عنكم) .
وانفض المجلس وراحوا في اليوم التالي يشيعون بأنهم اجتمعوا بالمشايخ وأقاموا عليهم الحجة وهذا شأنهم في الكذب والافتراء .

*- بيان آية كريمة

قال الله تعالى :
{ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير }
الآية الكريمة فيها : نفي وإثبات ، نفي ما لا يليق بالله تعالى من تشبيه ونقص ، وإثبات ما يليق به من كمالات .
وهذا هو تسبيح أهل السموات والأرض ومن فيها ، كما قال تعالى :
{ وإن من شيء إلا يسبح بحمده }
أي ينزّه الله سبحانه وتعالى عما لا يليق به ، ويثبت له المحامد والكمالات اللائقة به جل وعلا .
فالآية { ليس كمثله شيء وهو السميع البصير }
فيها تسبيحه تعالى نفسه ونفي ما لا يليق ، وجاء النفي مؤكداً من ناحيتين :
الأولى : أن الآية الكريمة جاء فيها الخبر مؤخراً وهو { شيء } ، إذ لم يقل جل وعلا : ليس شيء مثله ، وهذا فيه تأكيد النفي .
الثانية : جيء في الآية الكريمة بأصول أدوات التشبيه وهي :
(مثل والكاف) ، ولم يقتصر سبحانه في الآية على { مثل } بل أردفها بالأداة الثانية وهي الكاف ، وهذا تأكيد ثان لمعنى النفي المراد في الآية ، وهو نفي ما لا يليق به جل وعلا .
ومعنى الآية : ليس مثله شيء، ليس مثله شيء .
{ وهو السميع البصير } إثبات ما يليق به تعالى ، وجاء الإثبات مؤكداً من ناحيتين :

سخطك وابتغاء مرضاتك فأسألك أن تعيذني من النار وأن تغفر لي ذنوبي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت)أقبل الله عليه بوجهه واستغفر له سبعون ألف ملك . اهـ .
- وقوله : (أشراً) بفتحتين أي افتخاراً.

الأولى : أن الجملة الاسمية معرّفة الطرفين إذ كلمة { هو } معرفة ، وكلمة { السميع } معرفة ، وهذا يفيد معنى تأكيد الإثبات .
الثاني : جاء الخبر في الآية معرفاً أيضاً بأل التعريف وهذا من ناحية البلاغة يفيد معنى الاختصاص ، إذ إن قولك (زيد القائم) يدل على أن زيداً هو القائم لا غيره ، وإذا قلت (زيد قائم) يدل على أن زيداً قائم وغير زيد قائم أيضاً .
فقوله تعالى : { وهو السميع } أي هو السميع لا غيره ، وهو البصير لا غيره ، وهكذا سائر صفاته تعالى التي جاءت في القرآن فهي محمولة على هذا المعنى .
وأما سماع وبصر غيره سبحانه فهو قائم بخلق الله تعالى له ، وهذا معنى قوله تعالى :
{ فجعلناه سميعاً بصيراً } أي فجعلنا إياه سميعاً بصيراً .
وأما صفاته تعالى فهي قديمة ذاتية لا مكتسبة .
ثم قوله تعالى :{ وإن من شيء إلا يسبح بحمده }
الباء هنا للمصاحبة وليست للتعدية ، أي يسبحه تسبيحاً مصحوباً بحمده تعالى ، والمعنى : أن كل شيء ينزه الله تعالى عما لا يليق به تنزيهاً مصحوباً بإثبات الكمالات اللائقة به تعالى ، وهذا معنى قولك :
(سبحان الله وبحمده)
ونظير هذه الآية التي فيها معنى الاختصاص - اختصاصه تعالى بالكمالات اللائقة به - الآيات التالية :
{ إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين }
{ وهو العزيز الغفور }
{ إنه هو السميع البصير }
إلى غير ذلك من الآيات الكريمة
وأما ما جاء من آيات فيها صفات لله تعالى غير معرفة بأل فيحمل معناها على اختصاصه تعالى بهذه الصفات اللائقة .
<u>*- بيان حديث شريف</u>
قوله صلى الله عليه وسلم :
[اللهم وما زويتَ عني مما أحب فاجعله فراغاً لي فيما تحب] [1]
[زويت] : أي منعت

---
[1] طرف حديث في سنن الترمذي كتاب الدعوات عن عبد الله بن يزيد الخطمي الأنصاري رضي الله عنه

أي إذا منع الله عن العبد شيئاً يحبه ، وصرَفه عن الاشتغال به فيلزم على العبد أن يطلب من الله أن يجعل هذا الفراغ الحاصل من ذلك فيما يحبه سبحانه ويرضاه .
[واسلل سخيمة صدري] [١]
أي كما تُسلُّ الشعرة من العجين ، وفيه تعليم وإرشاد منه صلى الله عليه وسلم لأمّته أن يدعوا بهذا الدعاء لكي يَسلموا من أمراض القلوب .
وأما معنى [سخيمة] فهي ما يُستقبح من الإنسان ، والمراد بها هنا : الحقد والغل والحسد .
*- تذكرة
ورد في بعض السير النبوية وخاصة في منظومة الحافظ العراقي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان :
يمشي بلا خف ولا نعل إلى عيادة المريض حولَه الملا
يعني أنه صلى الله عليه وسلم عندما كان يسير إلى عيادة المريض كان يسير حافي القدمين إلى عيادته ، والحكمة في ذلك :
أن المريض في حضرة إلهية خاصة .
كما ورد في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : [إن الله عز وجل يقول يوم القيامة : يا ابن آدم مرضتُ فلم تعُدْني ، قال : يا رب كيف أعودك وأنت رب العالمين ؟
قال : أما علمت أن عبدي فلاناً مرض فلم تعُدْه ، أما علمت أنك لو عُدته لوجدتني عنده ؟] [٢] ...... الحديث
فالدخول إلى عيادة المريض دخول إلى حضرة إلهية خاصة ، لأن المريض دوماً على ذكر لله ودعاء له ، والله تعالى جليس مَن ذَكَرَهُ كما ورد في الحديث القدسي : [أنا جليس من ذَكَرَني] [٣]
وروى الإمام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال :
[قال الله عز وجل : أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معه حيث يذكرني] [٤]
فالله تعالى دوماً مع المريض برحماته وإحسانه ومعيّته الخاصة .

---

[١] طرف حديث في سنن الترمذي كتاب الدعوات عن ابن عباس رضي الله عنهما
[٢] كتاب البر والصلة والآداب
[٣] انظره في مصنف ابن أبي شيبة و شعب الإيمان للبيهقي ومصنف عبد الرزاق وعزاه السخاوي في المقاصد الحسنة للديلمي وأبي الشيخ في الثواب
[٤] صحيح مسلم كتاب التوبة

وانظر إلى الآية عندما أراد الله تعالى أن يتجلى لسيدنا موسى عليه الصلاة والسلام قال جل وعلا له :{ فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى }
فعندما أراد عليه السلام أن يدخل في حضرة إلهية وهي مناجاة رب العالمين أمره الله تعالى بخلع نعليه ، ومن هنا تفهم جانباً من الحكمة في خلع نعليه صلى الله عليه وسلم إذا عاد مريضاً .
وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم
*- <u>بيان آية كريمة</u>
قوله تعالى : { ولقد همّت به وهمّ بها لولا أن رأى برهان ربه }
الوقف عند كلمة { ربه }
ذهب أكثر المفسرين إلى أن الوقف على قوله تعالى :
{ وهم بها لولا أن رأى برهان ربه }
والمعنى : أنه رأى البرهان فلم يقع منه الهمّ أصلاً ،
وهذا نظير قوله تعالى في أم موسى :
{ إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها } أي ولكن امتنع إبداؤها به - أي إخبارها عن حزنها ووجدها وأن موسى هو ابنها - لوجود الربط على قلبها وهو تثبيت الله لها ، وهنا امتنع منه الهمّ لوجود رؤية البرهان .
ومن ناحية اللغة العربية فإن معنى { لولا } : حرف امتناع لوجود ، أي وجود الأول سبب امتناع الثاني ، فهمُّه عليه الصلاة والسلام امتنع لوجود البرهان عنده وهو حرصه على الطاعة واستمساكه بآداب آبائه عليهم السلام وبأخلاقهم الزكية الطاهرة .
ومعنى { رأى برهان ربه } الرؤية إما أن تكون رؤية علمية والمراد منها أنه همّ بها لولا أنه علم برهان الله الشرعي في قبح عاقبة الزنا وسوء مصيبته ، فإن سيدنا يوسف عليه السلام تربّى في بيت نبوة ، وشريعةُ إبراهيم توارثها إسحاق ومِن بعده يعقوب ثم يوسف عليهم السلام .
روى الإمام البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : [الكريم ، ابن الكريم ، ابن الكريم ، ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام] [1]
فهو عليه السلام يعلم حرمة الزنا وقبحه في شريعة يعقوب عليه السلام ، وإما أن تكون الرؤية بصرية وذلك أنه رأى جبريل متمثلاً له ، وقيل : إنه رأى أباه يعقوب عاضّاً على أنملته ،

[1] كتاب أحاديث الأنبياء

وقيل : رأى اسمه مكتوباً في جملة الأنبياء، ولا يليق بمن سيكون نبياً أن يعمل ما يَقْبُحُ ، ولا يليق به أن يفعل المعصية ، بل يكون طاهراً صالحاً بدليل قوله سبحانه وتعالى :
{ الله أعلم حيث يجعل رسالته } .
وذهب بعض المفسرين إلى أن الوقف على قوله تعالى :
{ ولقد همّت به وهمّ بها } فيكون الهم واقعاً منه ، وهو همّ الطباع ومجرد الميل النفساني ولكن إرادته وعزيمته منعته من ذلك .
وقيل : همّت به ضرباً تضربه حتى يذعن لأمرها ، وهمّ بضربها ضرباً حتى يدفعها عن نفسه ، وعليه جرى الشيخ الأكبر رضي الله عنه ، وهذا معنى قريب ، فتقول : خاصمته وخاصمني حتى هممت به - أي بضربه - .
ودل على وجود المشاجرة بينهما قوله تعالى :
{واستبقا الباب وقدّت قميصه من دُبُر }
فقد حاولت ضربه ليذعن لأمرها ، وتوجَّهَ هو إلى الباب وجعل يبعدها عنه ، أي أن العزم السيء لم يقع منه بدليل قوله تعالى :
{ كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء }
فهو سبحانه أخبر أنه صرف عنه الفحشاء وهي الوقوع في الزنا ، وصرف عنه السوء وهو الهم والعزم على الفعل ، فلو أنه كان همّ أي عزم على الفعل إذاً لا يكون قد تحقق قوله تعالى : { لنصرف عنه السوء } وهذا لا يكون .
وللإمام فخر الدين الرازي رضي الله عنه كلمة حول هذه الآية خلاصتها : أن يوسف عليه السلام قد شهد الله ببراءته بقوله تعالى :
{ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ } - بفتح اللام -
وشهد إبليس ببراءته بقوله كما أخبر سبحانه :
{ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ } - بفتح اللام -
وشهد ببراءته الشاهد من أهل العزيز إذ قال كما أخبر سبحانه عنه :
{ إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ * وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ }
وشهد ببراءته عزيز مصر كما أخبر جل وعلا عنه :
{ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ * يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ }
وشهد ببراءته النسوة اللاتي قطّعن أيديهن بقولهن كما أخبر سبحانه :
{ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ }

وشهد ببراءته زوجة العزيز بقولها كما أخبر سبحانه :
{ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ }
فالذي يريد أن يتّهم يوسف بالهمّ عليه أن يختار أن يكون من حزب الله [1] أو من حزب الشيطان [2] ، وكلاهما شهداء ببراءة يوسف ، فلا مفر له من الإقرار بالحق على أي حال وهو براءة يوسف عليه الصلاة والسلام من الهمّ بها [3]

*- بيان حديث شريف :

كان من دعائه صلى الله عليه وسلم :
[وامكُر لي ، ولا تمكر عليّ] [4]
وهذا نظير قوله تعالى : { كذلك كِدنا ليوسف }
والمكر هو : العمل الخفي ، وإذا نُسب المكر إلى العبد فقد يُراد منه شر بالممكور به ، أو يراد منه خير للممكور له .
أما إذا نُسب المكر إلى الله تعالى فلا يُتصور منه مكر بشرٍّ .
قال الله تعالى :
{ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ }
فإذا مكر بالعبد أحد ، وردّ الثاني مكره بمكر ، كان المكر الثاني مكر خير ، لأنه دَفَعَ مكر الشر بمكر منه ، وعندئذ لا يقال عن المكر الثاني :
إنه مكرُ شرّ .
فهناك مكر الخير الذي يُدفع به مكر الشر ، وهو المراد من قوله تعالى :
{ ويمكر الله } أي في مقابلة مكرهم ، فردّ مكرهم بمكر منه جل وعلا ، وهذا مكر خير .
{ والله خير الماكرين } أي أنه تعالى خير الماكرين بمكر الخير - أي بدفع مكر الشر بمكر خير - .

---

[1] قال الله تعالى في سورة المجادلة :
{ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } .
[2] قال الله تعالى في سورة المجادلة :
{ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ }
[3] انظر تفسير الإمام الرازي ٢٣/٩
[4] طرف حديث في سنن الترمذي كتاب الدعوات وسنن أبي داود كتاب الصلاة

وقال تعالى : { أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ }
المراد هنا في الآية من مكر الله تعالى هو دفع مكرهم ، وهو اعتمادهم على أنفسهم وأعمالهم وعدم مبالاتهم بأوامر الله تعالى .
وكان سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام بسّام الوجه دائماً مستبشراً برحمة الله وفضله ، وكان سيدنا يحيى عليه الصلاة والسلام عابس الوجه من خشية الله تعالى وخوفه منه فالتقيا مرة فضحك عيسى في وجه يحيى وصافحه، فقال له يحيى: يا ابن خالتي مالي أراك ضاحكاً كأنك قد أمِنت ـ أي من مكر الله ـ ؟

فقال له عيسى: يا ابن خالتي ما لي أراك عابساً كأنك قد يئست ـ أي من رحمة الله ـ ؟ [1]

وهذا فيه تنبيه على أن العبد يجب عليه أن لا يعتمد على أعماله وطاعاته ويفرح بها ، ولكن يجب عليه أن ينظر إلى زلّاته وذنوبه فيخاف منها ويرجو رحمة ربه ومغفرته .
نظير ذلك من الآيات قوله تعالى : { يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ }
فمقابلته تعالى لخداعهم بخداع ، هذا هو محض الخير منه جل وعلا .
وقوله تعالى :{ إنهم يكيدون كيداً * وأَكِيدُ كيداً }
فإنه سبحانه قابل كيدهم بكيد منه، فكيدهم كيد شر ، أما كيده تعالى فهو دفع كيدهم بكيد ، وهذا هو محض خير .

*- بيان آية كريمة

قوله تعالى : { واقصد في مشيك }
أجمع المفسرون على أن المعنى : اعتدلْ وتوسّط في مشيك ، فلا تمش متماوتاً كسولاً ، ولا مسرعاً عجولاً كالراكض ، فإن التماوت في المشية دليل الكسل والخمول ، وإن الركض فيه يورث الخفة وقلة الهيبة ، وذلك لأن القصد في الأمر معناه : التوسط فيه ، لأنه يقال في اللغة : قصَدَ الشيء وقصد له ، ويقال : قصد اللهَ بمعنى أراده وتوجه إليه ، ويقال : قصد في الأمر بمعنى توسط واعتدل فيه .
كما ورد في الحديث النبوي :
[سدّدوا وقارِبوا ، واغدوا وروحوا ، وشيء من الدّلجة ـ أي : السير في الليل ـ ، والقصد القصد تبلغوا] [2]

---

[1] انظر حلية الأولياء لأبي نعيم والبداية والنهاية لابن كثير
[2] طرف حديث في صحيح البخاري كتاب الرقاق عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه

أي الزموا القصد وهو التوسط في سير العبادات والقربات إلى الله تبلغوا الجنة .
ومن هذا قوله تعالى :{ وعلى الله قصد السبيل }
أي وعلى الله بيان السبيل القصد ، وهو الطريق الوسط والمقرب إلى الله تعالى ، فإنه سبحانه بيّن ذلك على لسان النبي صلى الله عليه وسلم .
وفي الحديث الذي رواه مالك في الموطأ :
[القصد والتُّؤدة وحسن السّمت جزء من خمسة وعشرين جزءاً من النبوة] [١]
والمراد بالقصد هنا : الاقتصاد أي التوسط ، بدليل رواية الترمذي :
[السمت الحسن والتؤدة والاقتصاد ......] [٢]
أي التوسط في الأمور ، ومنه الاقتصاد في النفقة والمعيشة .
وفي الحديث :
[ما عال من اقتصد] [٣] أي ما افتقر من توسّط في المعيشة .
هذا من الناحية اللغوية ، ومن الناحية الفكرية والعقلية لا يصح أن يراد بالقصد الوارد في الآية الكريمة { واقصد في مشيك } لا يصح أن يراد به هنا : الإرادة ، لأن العاقل لا يتحرك في شيء ولا لأمر ما إلا عن مقصود قَصَدَه وإرادة صادرة منه .
أما المجنون الذي لا عقل له فتراه يذهب ويأتي ويغدو ويروح بلا إرادة له في ذلك ولا مقصود ، والوصية إنما تتوجه إلى العقلاء لا إلى المجانين ، ثم إنه إذا قلنا : إن المراد بالقصد في الآية الإرادة للشيء وقصده ، فيكون المفعول به محذوفاً ويكون تقدير الكلام :
(وليكن لك في مشيك وسيرك مقصود وهدف)
فحينئذ يقول المخاطب : أنا ما تحركت للسير إلا لهدف ، ولا مشيت إلا لقصد أريده وهدف أريده - أي من خير أوشر - ، فأي هدف ومقصود تريده إذاً ؟
فيجب أن يُذكر المفعول به حينئذ في حين أنه لم يذكر في الآية ، إذاً ليس المراد من القصد في الآية : الإرادة والهدف .

---

[١] سنن الترمذي في كتاب الشعر موقوفاً على ابن عباس ورواه البخاري في صحيحه عن ابن عباس ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : [الهدي الصالح والسمت الصالح والاقتصاد جزء من خمسة وعشرين جزءاً من النبوة]
[٢] سنن الترمذي كتاب البر والصلة
[٣] مسند الإمام أحمد ٤٠٤٨ ومصنف ابن أبي شيبة

*- بيان آية كريمة

{ والشفع والوَتر }

ذهب بعض المفسرين إلى أن الشفع والوتر قسَمان أقسم الله تعالى بهما ، ويشتملان على جميع أصناف العبادات والمناسك والأماكن المقدسة .

أما العبادات فهناك الصلوات الخمس منها الشفع كالعصر، ومنها الوتر كالمغرب .

وأما مناسك الحج فالطواف وتر لأنه سبعة أشواط ، وبعده ركعتان واجبتان وهما الشفع .

وأما الأزمنة فهناك يوم عرفة وتر لأنه التاسع من ذي الحجة ، ويوم النحر شفع لأنه العاشر .

وقد أقسم الله تعالى بقوله { وليال عشر } وهي عشر ذي الحجة ، وأما الأمكنة فهناك الصفا والمروة شفع ، والكعبة وتر .

وقال بعض المفسرين : إن المراد بالوتر هو الله تعالى ، وبالشفع المخلوقات ، وتقديم الشفع على الوتر من باب تقديم الدليل على المدلول ، وذلك أن الله تعالى خلق جميع المخلوقات على صنفين متقابلين كما قال تعالى :

{ ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون * فَفِرُّوا إلى الله }

فهناك شفعية بني آدم لفرعيتهم ذكر وأنثى ، وهناك المقابلات بين عالم الإنس وعالم الجن ، فالإنس مبصَرون والجن أخفياء .

وهناك السماء العالية السامية في مقابلة الأرض السفلية .

وهناك الليل ويقابله النهار .

وهناك العلم ويقابله الجهل .

وهناك الحياة ويقابلها الموت .

وهناك البياض ويقابله السواد .

والأعداد أشفاع وأوتار وهكذا دواليك ، ويجري ذلك في جميع أصناف المخلوقات ،وهذا من أول الدلائل على قدرة الله تعالى ، حيث خلق الشيء ومقابله ، وليس هناك الوتر إلا الله وحده الذي لا مقابل له ولا كفواً فإنه سبحانه الوتر ، كما ورد في الحديث الذي رواه الشيخان واللفظ لمسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

[إن الله وتر يحب الوتر] .

وقال الحافظ ابن حجر في الفتح :

يجوز فتح الواو وكسرها ، والوتر : الفرد ، ومعناه في حق الله أنه الواحد الذي لا نظير له في ذاته ولا انقسام - أي لا تجزّؤ في ذاته جل وعلا - .

*- بيان آية كريمة

قوله تعالى :

{ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ }

ذكر الشيخ الأكبر ابن عربي رضي الله عنه في الفتوحات المكية أن سهل بن عبد الله التستري رضي الله عنه رأى إبليس يرقص فرحاً فسأله عن سبب فرحه وقد أوعده الله تعالى بالعذاب المقيم فقال له :

أمَا سمعت قول الله تعالى :{ ورحمتي وسعت كل شيء } وأنا شيء

فتأمل سهل ثم قال له : لكن الله تعالى قال :

{ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ }

فقال له إبليس : القيدُ من عندك لا من عنده . اهـ

ويقال : إن الرحمانية العامة وسعت كل شيء كما وسع علمه تعالى كل شيء ، كما في الآية :{ ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً }

فكيف حصل القيد للرحمة للذين يتقون - علماً أنه لا تناقض في آيات الله تعالى - ؟

الجواب : إن ضمير الهاء في قوله تعالى {فسأكتبها } عائد إلى الرحمة الخاصة ، وهذا في البلاغة يسمى (الاستخدام) وهو إعادة الضمير على ما تقدم بغير معناه الأول كما قالوا :

إذا نزل السماء بأرض قوم رعيناه وإن كانوا غضاباً

السماء : المطر ، رعيناه : أي النبات

فالضمير عائد إلى النبات وليس إلى المطر .

وقال سيدنا الشيخ محمد نجيب سراج الدين رضي الله عنه :

{ فسأكتبها } أي فسأجمع جميع أنواع الرحمات { للذين يتقون } ، لأن مادة الكَتْب تدل على الجمع ، أي أنه تعالى سيجمع جميع أنواع الرحمات للذين يتقون

*- إيضاح لما ورد في حزب الفرج من عبارة

(ولا يعلم العرش مستقرّك)

إن النفي في قوله :(ولا يعلم العرش مستقرك) مسلّط على الاستقرار وعلمِ العرش به ، وكأنه قيل : (لا استقرار لك حتى يعلم به العرش)

أي لا استقرار لله تعالى على عرشه حتى يعلم به العرش .

ولهذا نظائر كثيرة في القرآن كقوله تعالى :

{ ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع }

فالنفي مسلط على الشفيع وما وراءه ، فلا يوجد شفيع حتى يطاع ، كما لا يوجد استقرار لله حتى يعلم به العرش .
وكذلك قوله تعالى :{ أين شركائي الذين زعمتم }
فهذا استفهام إنكاري يفيد النفي ، فظاهر الآية : أين الشركاء الذين زعمتم ؟ فالمفهوم كأنهم موجودون فأين هم ، ولكن النفي نفي الشركاء ونفي وجودهم وحاشا لله أن يكون له شريك .
وبهذا ما يُقنع العاقل ويفهم الجاهل عن معنى (ولا يعلم العرش مستقرك) بل وغيرها وغيرها ، فهناك النفي المسلط على الصفة والموصوف ، والنفي المسلط على المضاف والمضاف إليه .
*- اليقين ومراتبه :
اليقين هو : العلم وإزاحة الشك وتحقيق الأمر ، واليقين نقيض الشك [1]
والإيمان هو : التصديق الجازم الذي لا يقبل الشك والارتياب .
قال تعالى :{ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون }
فالإيمان على مراتب :
أولها : علم اليقين : وهو التصديق بخبر صادق عن أمر مغيّب عن العيان .
وثانيها : عين اليقين : وهو أعلى رتبة من علم اليقين ، وهو التصديق بخبر صادق ومعاينته بالعيان ، وهذه المنزلة من الإيمان قد بلغها الصحابة رضي الله عنهم ، إذ قال أحدهم :
(نكون عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يذكّرنا بالنار والجنة ، حتى كأنّا رأي عين) [2]
وثالثها : حق اليقين : وهو التصديق والمعاينة والتذوق للإيمان
قال صلى الله عليه وسلم :
[ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد رسولاً] [3]
وقد نال ذلك بعض الصحابة رضي الله عنهم بدعوات سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم وإشراقاته عليهم ، ومن ذلك قول سيدنا علي رضي الله عنه : (لو كُشف الغطاء ما ازددت يقيناً) [4]

---

[1] انظر لسان العرب مادة (يقن)
[2] طرف حديث في صحيح مسلم كتاب التوبة عن حنظلة الأسيدي رضي الله عنه
[3] صحيح مسلم كتاب الإيمان وصحيح ابن حبان كتاب الصلاة
[4] انظر شرح سنن النسائي للسندي ٦ / ٤٠٢ وتفسير الألوسي لقوله تعالى : { وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى } وقد روي نحو هذا عن بعض أئمة القوم كما نقله الفيروز أبادي صاحب بصائر ذوي التمييز عن عامر بن عبد الله العنبري

وإليك مثالاً يوضح ما سبق :
أخبرك رجل صادق أنه في قرية كذا يوجد عسل ، فعلمت أنت ذلك وصدّقته وهذا منك يقين علمي أو علم اليقين .
ثم إنك ذهبت إلى القرية ورأيت العسل عياناً ، فازداد تصديقك بذلك وإيمانك به ، وهذا يسمى يقيناً عينياً أو عين اليقين .
ثم إنك أكلت العسل وتذوقت طعمه فهذا يسمى حق اليقين .
ولما وصف الله المؤمنين قال سبحانه عنهم :{ وبالآخرة هم يوقنون }
أي أن المؤمن المتحقق بإيمانه يجب أن يترقى في درجات اليقين .
أما لما أخبر تعالى عن الكافرين قال :
{ والذين لا يؤمنون بالآخرة } ولم يقل : الذين لا يوقنون بالآخرة ، لأنه ليس عندهم شيء من اليقين بها ، بل ولا من الإيمان بها .
وقد أخبر الله عن الكفار أنهم عندما يصيرون في الآخرة سيؤمنون ، لأنهم رأوا وسمعوا ما أُخبروا عنه في الدنيا وكانوا له منكرين .
قال سبحانه مخبراً عنهم :
{ وقالوا ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً إنا موقنون }
وإيمانهم هذا بل ويقينهم لا ينفعهم شيئاً ، لقوله تعالى :
{ قل يوم الفتح لا ينفع الذين كفروا إيمانهم }
فيوم الفتح هو يوم الفصل بين الخلائق بدليل الآية في سورة الأعراف
{ ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق } أي افصل واحكم بيننا وبين قومنا .
قوله سبحانه وتعالى :{ كلا سوف تعلمون * ثم كلا سوف تعلمون }
الخطاب هنا للناس كافة ، وهذه التثنية في الآية تدل على كثرة العوالم ، أي ستعلمون العوالم التي ستنتقلون إليها عالماً بعد آخر .
{ كلا لو تعلمون علم اليقين } جواب (لو) هنا محذوف وتقديره : لآمنتم وخشيتم الله .
{ لترون الجحيم } اللام لام القسم أي : والله لترون الجحيم ، وهذا يكون للعبد في القبر ، فإن كان مؤمناً يقال له : انظر إلى مقعدك من النار أبدلك الله به مقعداً من الجنة ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : " فيراهما جميعاً [1]

التميمي البصري ، وقد نقل الذهبي في سير أعلام النبلاء أنه توفي في زمن سيدنا معاوية رحمهما الله تعالى .
[1] طرف حديث في صحيح البخاري كتاب الجنائز عن أنس رضي الله عنه

وإذا كان العبد كافِراً ـ والعياذ بالله ـ يفتح له باب من أبواب الجنة ، فيقال له : ذلك مقعدك من الجنة ، وما أعدّ الله لك فيه لو أطعْته ، فيزداد حسرة وثبوراً [1]

{ ثم لترونها عين اليقين } وهذا كما قال تعالى :

{ وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتماً مقضياً * ثم ننجّي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً }

فالعبد المؤمن يمر على الصراط ويرى جهنم ليعرف نعمة الله عليه ، وأما الكافر فتنزلق قدمه إلى جهنم .

*- بيان حديث شريف

قوله صلى الله عليه وسلم :

[اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ خَشْيَتَكَ فِي الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، وَكَلِمَةَ الْعَدْلِ وَالْحَقِّ فِي الْغَضَبِ وَالرِّضَا] [2]

فقد سأل صلى الله عليه وسلم ربه تبارك وتعالى العدل في الغضب ، ولم يسأله زواله لأنه كما قال حجة الإسلام :

(إنه ـ أي : الغضب ـ لا يزول أصله ولا ينبغي أن يزول ، بل إن زال وجب تحصيله لأنه آلة القتال مع الكفار والمنع من المنكرات ، ولا يحصل كثير من الخيرات إلا به) . اهـ

وانظر إلى قوله تعالى :{ والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس }

فلم يقل سبحانه : (والذين لا يغضبون) وإنما وصفهم بكظم الغيظ .

ومعنى سؤالك كلمة العدل في الغضب والرضا أي أن لا تخرج عن حدّ الاعتدال والشرع حال غضبك .

وقد خرج زين العابدين علي بن الحسين رضي الله عنهما إلى المسجد فسبّه رجل فقصده غلمانه ليضربوه ويؤذوه فنهاهم زين العابدين وقال: كفّوا أيديكم عنه، ثم التفت إلى ذلك الرجل وقال: يا هذا أنا أكثر مما تقول ، وما لا تعرفه مني أكثر مما قد عرفته ، فإن كان لك حاجة في ذِكْره ذكرته لك، فخجل واستحيا فخلع عليه زين العابدين قميصه وأمر له بألف درهم فمضى الرجل وهو يقول: أشهد أن هذا الشاب وَلَدُ رسول الله صلى الله عليه وسلم.[3]

---

[1] طرف حديث في صحيح ابن حبان ومستدرك الحاكم كلاهما في كتاب الجنائز

[2] جاء في صحيح ابن حبان أن النبي صلى الله عليه وسلم كان من دعائه : اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ خَشْيَتَكَ فِي الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، وَكَلِمَةَ الْعَدْلِ وَالْحَقِّ فِي الْغَضَبِ وَالرِّضَا

[3] انظر كتاب (التِّبْر المسبوك في نصيحة الملوك) للإمام الغزالي

*- بيان آية كريمة

قال تعالى :

{ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ } الآية

وقال صلى الله عليه وسلم : [لا نبي بعدي] [1]

أي لا أحد نبي بعدي - أي لا أحد تأتيه النبوة بعدي عن طريق الوحي .

أما عيسى عليه الصلاة والسلام فهو نبي قبل سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وسينزل على أنه من أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، ويعمل على نشر وتجديد شريعة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

والدليل على أن سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام سوف يُدفن في الحجرة الشريفة ما رواه الترمذي في سننه عن عبد الله بن سلام رضي الله عنه قال : (مكتوب في التوراة صفة محمد صلى الله عليه وسلم وعيسى ابن مريم يدفن معه)

قال أبو مودود المدني : قد بقي في البيت موضع قبر [2]

*- لطيفة :

صحابة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم كلهم في الجنة ، لأن المذنب منهم تاب والمرتكب أقيم عليه الحد وهكذا ،

والصحابة رضوان الله عليهم كلهم عدول ثقات كما قال المحدثون ،

ولا يحتاج الصحابي إلى تعديل أو توثيق .

*- تذكرة :

لقد بدأت هجرة المسلمين إلى المدينة المنورة قبل هجرة النبي صلى الله عليه وسلم ، فقد بدؤوا في شهر محرم ، وقد هاجر سيدنا عمر رضي الله عنه قبل النبي صلى الله عليه وسلم ، أما رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد هاجر في شهر ربيع الأول [3]

وكان واجباً على أهل مكة أن يهاجروا إلى المدينة ويقيموا فيها إلا المستضعفين الذين نزل فيهم قوله تعالى :

{ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا * فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا } .

---

[1] طرف حديث في صحيح البخاري كتاب أحاديث الأنبياء وصحيح مسلم كتاب الإمارة عن أبي هريرة رضي الله عنه

[2] في كتاب المناقب وانظر تاريخ ابن عساكر

[3] انظر شرح الزرقاني على المواهب ٢ /٨٩

أما سكان غير مكة فعليهم أن يهاجروا ليبايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإذا شاؤوا عادوا إلى بلدانهم أومكثوا في المدينة حتى فتح مكة حيث قال صلى الله عليه وسلم :

[لا هجرة بعد الفتح ، ولكن جهاد ونية ، وإذا استُنفرتم فانفروا] [١]

أي لا هجرة مفروضة بعد الفتح

*- بيان آية كريمة

قوله تعالى : { وجعلنا من الماء كل شيء حي }

ما هو المراد من الماء ، وما معنى الحي؟

المراد من الماء في الآية : ماء الحياة الذي فيه العناصر التكوينية كلها وهو أصل الأشياء ففي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قلت : يا رسول الله ، إني إذا رأيتك طابت نفسي ، وقرّت عيني ، أنبئني عن كل شيء ، قال : [كل شيء خُلق من الماء] [٢]

وهو المذكور في الآية :{ وكان عرشه على الماء }

فالمقصود من الحياة في قوله تعالى : { وجعلنا من الماء كل شيء حي } المقصود منها الوجود ، فهناك حياة نمو كحياة النبات ، وحياة وجود كحياة الجمادات ، وحياة روح كحياة الإنسان والحيوان ، وإذا فقدت الصخرة المتماسكة حياتها الوجودية تفتتت .

فمن بخار الماء خلق الله السموات ، ومن زبَده خلق الأرض ، وهذه الماء أصابت منها رشة للحوت المُملّح الذي كان يحمله موسى عليه السلام وَفَتَاه ، فمرّا على عين ماء للحياة فأصابت الحوت الميت فدبّت فيه الحياة وراح في البحر ، فالتمساه فلم يجداه فعادا إلى تلك العين حيث الخضر عليه الصلاة والسلام .[٣]

*- هل اللوح المحفوظ هو أم الكتاب :

هناك من قال : هو نفسه ، فإذاً لا يتغير فيه شيء أبداً ، والمكتوب فيه هو القضاء المبرم .

وهناك من قال : إن أم الكتاب غير اللوح المحفوظ ، إذ إن أم الكتاب لا يتغير فيها شيء ، قال تعالى : { وعنده أم الكتاب }

---

[١] صحيح البخاري كتاب الجهاد والسير وصحيح مسلم كتاب الإمارة عن ابن عباس رضي الله عنهما

[٢] صحيح ابن حبان باب الإمامة والجماعة ومستدرك الحاكم كتاب البر والصلة

[٣] قال السيوطي في الدر المنثور :

أخرج ابن أبي حاتم عن قتادة قال : أتى الحوت على عين في البحر يقال لها عين الحياة ، فلما أصاب تلك العين ردّ الله إليه روحه .

أما اللوح المحفوظ فيجري عليه محو وإثبات ، وأما حِفظه فهو محفوظ من اطلاع الشياطين والمكتوب فيه هو القضاء المعلق .
- قلت : انظر تفصيل ذلك في كتاب :
(هدي القرآن الكريم إلى التفكر في العوالم والأكوان)
للشيخ الإمام رضي الله عنه -

*- بيان آية كريمة

قوله تعالى : {رب المشرقين ورب المغربين }
أي : مشرق الشتاء ومشرق الصيف ومغربهما .
{ رب المشارق والمغارب } أي : مشرق كل يوم ومغربه .
{ رب المشرق والمغرب} أي : جنس المشرق وجنس المغرب .

*- وجوب زيارة النبي صلى الله عليه وسلم :

حديث : (من حج ولم يزرني فقد جفاني)[1]
حديث ضعيف ولم يبلغ حد الوضع .
ولكن هناك دليل آخر يشير إلى صحة معناه وهو زيارة النبي صلى الله عليه وسلم بعد الحج والعمرة ، كما سيفعل سيدنا عيسى عليه الصلاة و السلام آخر الزمان
والحديث رواه الحاكم وصححه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
[ليهبطنّ عيسى ابن مريم حَكَماً عدلاً ، وإماماً مقسطاً وليسلكن فجّاً حاجاً أو معتمراً أو بنيّتهما ، وليأتين قبري حتى يسلّم علي ولأردّن عليه] [2]
وفي رواية :
[وَالَّذِي نَفْسُ أَبِي الْقَاسِمِ بِيَدِهِ لَيَنْزِلَنَّ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ إِمَامًا مُقْسِطًا، وَحَكَمًا عَدْلاً، فَلَيَكْسِرَنَّ الصَّلِيبَ، وَلَيَقْتُلَنَّ الْخِنْزِيرَ، وَلَيُصْلِحَنَّ ذَاتَ الْبَيْنِ، وَلَتَذْهَبَنَّ الشَّحْنَاءُ، وَلَيُعْرَضُ عَلَيْهِ الْمَالُ فَلا يَقْبَلُهُ أَحَدٌ، ثُمَّ لَئِنْ قَامَ عَلَى قَبْرِي، فَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ، لأُجِيبَنَّهُ] [3]
واعلم أنه لما ينزل سيدنا عيسى في آخر الزمان ينزل إماماً للمسلمين ويعمل بشرع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلى الأمة حينئذ اتباعه .

---

[1] عزاه السيوطي في الدرر المنتثرة لابن عدي، والدارقطني في " العلل " وابن حبان في " الضعفاء " والخطيب في " رواة مالك " بسند ضعيف عن ابن عمر
[2] في كتاب تواريخ المتقدمين من الأنبياء والمرسلين وانظر تاريخ دمشق لابن عساكر
[3] تاريخ دمشق لابن عساكر ومسند أبي يعلى الموصلي

*- بيان :
*- (علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل)
لم يصح عند علماء الحديث وذكره بعضهم في الموضوعات ،
ويذكره العارفون رضي الله عنهم في كتبهم .
ومعناه أن علماء الأمة المحمدية يشبهون أنبياء بني إسرائيل في تبليغ الرسالة وإرشاد الناس ، إذ كان في بني إسرائيل في كل زمنٍ نبيٌّ أو أكثر يبلغون شرائع الرسل ، ولا يوجد في هذه الأمة المحمدية أنبياء يبلّغون بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال صلى الله عليه وسلم :
[لا نبي بعدي] [1]
وإنما هناك علماء ورثوا العلم عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقاموا بتبليغه ونشر شريعته ، فالعالم المحمدي يدعو إلى الرشد - وهو خلاف الغي - فيرشدهم إلى ما فيه صلاحهم بالدلالة على سلوك سبيل الفلاح ، وقد جاءنا معشر أهل السنة تشبيه العلماء في حال إرشادهم بالنبوة من حيث أن الجامع بينهما الدلالة على سبيل الرشاد
قال تعالى :
{ قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني }
فالتشبيه في قوله : [كأنبياء] هو من حيث التبليغ لا من حيث الفضل والمقام والرتبة .
*- (لي وقت لا يسعني فيه غير ربي)
يذكره أهل الله في كتبهم ، والمراد بهذا الوقت هو حال الوحي عندما ينزل عليه ، وكان الصحابة رضوان الله عليهم يعرفون ذلك من وجهه الشريف صلى الله عليه وسلم إذ يحمرّ وجهه ويتفصد جبينه الشريف عرقاً ، ويُسمع عند وجهه دوي كدوي النحل فلا يكلمونه حتى يسرّى عنه [2]
*- (كنت كنزاً مخفياً فأردت أن أُعرَف فخلقت خلقاً فبي عرفوني)
أورده الشيخ الأكبر رضي الله عنه - ولم يذكره المحدّثون -
ويذكره أئمة القوم بما يسمى : (الحضرة العمائية) .
وقد ورد في الحديث عن أبي رزين رضي الله عنه قال : قلت يا رسول الله أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه ؟

---

[1] تقدم تخريجه
[2] انظر صحيح البخاري كتاب بدء الوحي ومسند الإمام أحمد ٢١٨

قال صلى الله عليه وسلم :
[كان في عماء ، ما تحته هواء وما فوقه هواء ، وخلق عرشه على الماء] [1]

قال في تحفة الأحوذي شرح سنن الترمذي :
قوله : (كان في عماء ما فوقه هواء) وكذلك قوله (ما تحته هواء)
قيل : إن ذلك العمى مقصور ، والعمى إذا كان مقصوراً فمعناه لا شيء ثابت ، لأنه مما عمي عن الخلق لكونه غير شيء .
فكأنه قال في جوابه : كان قبل أن يخلق خلقه ولم يكن شيء غيره ،
ثم قال : (ما فوقه هواء وما تحته هواء) : أي ليس فوق العمى - الذي هو لا شيء موجود - هواء ولا تحته هواء ؛ لأن ذلك إذا كان غير شيء فليس يثبت له هواء بوجه .
وروي بلفظ القصر في العمى ، والمعنى : عدم ما سواه ، كأنه قال : كان ولم يكن معه شيء ، بل كل شيء كان عدماً عمى لا موجوداً ولا مدركاً ، كأنه قال : كان ولا شيء معه ولا فوق ولا تحت . انتهى
قلت : إن صحت الرواية عمى بالقصر فلا إشكال في هذا الحديث ، وهو حينئذ في معنى حديث [كان الله ولم يكن شيء غيره ، وكان عرشه على الماء] رواه البخاري وغيره عن عمران بن حصين ، ويؤيده رواية البخاري أيضاً قوله صلى الله عليه وسلم : [كان الله ولم يكن شيء معه] .
أي بالكينونة القديمة التي لا أول لها ، وإن صحت الرواية عماء بالمد ، فلا حاجة إلى تأويل بل يقال : نحن نؤمن به ولا نكيّفه بصفة ، أي نجري اللفظ على ما جاء عليه من غير تأويل ، كما قال الأزهري . اهـ . [2]
وقال سيدي الشيخ رضي الله عنه :
إذا تجلى حبيبي بأي نور أراه   بنوره لا بنوري فما يريه سواه
يقول الله تعالى في الحديث القدسي :
(إن السماوات والأرض لم تُطِق أن تحملني ، وضِقن من أن تسعني ، وسعني قلب المؤمن الوادع اللين)
- رواه الإمام أحمد في كتاب الزهد عن وهب بن منبه وهو مأخوذ من الكتب السابقة - . [3]

[1] انظره في سنن الترمذي وابن ماجه ومسند أحمد وصحيح ابن حبان
[2] ٤٣٤/٧
[3] عن عمر بن عبيد ، أنه سمع وهب بن منبه يقول : (إن الله عز وجل فتح السماوات لحزقيل حتى نظر إلى العرش - أو كما قال - فقال حزقيل : سبحانك ، ما أعظمك ، يا

فالمراد من الاتساع في الحديث اتساع العلم والمعرفة بالله تعالى ، وقد اتسع قلب العبد المؤمن بمعرفة الله تعالى من أسماء وصفات وكمالات تليق به جل وعلا أكثر مما اتسعت له السموات والأرض ، ويدلك على هذا أنه ظهر في العبد المؤمن آثار أسماء وصفات إلهية لم تظهر في السماوات والأرض كصفة العلم والسمع والبصر وغيرها .

وقال سيدنا علي رضي الله عنه وكرم وجهه :

وتزعم أنك جرم صغير　　　وفيك انطوى العالم الأكبر

قلت : أما انطواء العالم الأكبر فيك فما في الأرض من جبال فهو بمنزلة العظام ، وما فيها من بحار عذبة وغير عذبة فهو بمنزلة ما أودع في فمك وعينيك ، وما فيها من نبات فهو بمنزلة الشعر ، وما فيها من سبخ فهو بمنزلة ما لا ينبت من الشعر من بدنك ، وما فيها من سهل ووعر فهو بمنزلة ما فيك من الخلق الحسن والسيء ، والشمس بمنزلة الروح لأن الجسد يستضيء بها فإذا غابت أظلم ، والقمر بمنزلة العقل فالهلال عقل الطفل ثم يزيد إلى أن يكمل ، والجنة بمنزلة الرضا ، والنار بمنزلة الغضب ، والليل والنهار بمنزلة الحزن والسرور ، والفصول الأربعة بمنزلة الطبائع الأربعة ، والنوم بمنزلة الموت ، واليقظة بمنزلة البعث ، والرؤيا الحسنة والسيئة بمنزلة النعيم أو العذاب ، والكواكب بمنزلة الحواس ، والقيامة الصغرى هي حالة الموت الحقيقي الذي هو إزهاق الروح وهي نموذج القيامة الكبرى ، لأن الإنسان أرضي مخلوق من التراب فإن انهدمت بالموت أركان بدنه فقد زلزلت الأرض زلزالها ، لأن عظامه جبال أرضه ، ورأسه سماء أرضه ، وقلبه شمس أرضه ، وسمعه وبصره وسائر حواسه نجوم سمائه ، ومفيض العرق من بدنه بحر أرضه ، وقِس على ذلك .

فإذا انفجر من هول الموت عرق جبينه فقد فجّرت البحار تفجيراً ، وإذا فارقت الروح قلبه عند الموت فقد كُوّرت الشمس تكويراً ، وإذا بطل سمعه وبصره وحواسه فقد انكدرت النجوم ، وإذا التفت الساق بالساق وهما مطيّتان فقد عُطِّلت العشار تعطيلاً ، وإذا فارقت الروح الجسد فقد ألقت الروح ما فيها وتخلّت ، وإذا صار العظم رميماً فقد نُسفت الجبال نسفاً ، وإذا انشق دماغه فقد انشقت السماء شقاً ، فافهم هنا جانباً من معنى ما تقدم .

رب ، فقال الله : إن السماوات والأرض لم تطق أن تحملني ، وضقن من أن تسعني ، وسعني قلب المؤمن الوادع اللين)

*- حكم شرعي

قال صلى الله عليه وسلم : [تداووا عباد الله ، فإن الله سبحانه لم يضع داء ، إلا وضع معه شفاء ، إلا الهرم] [1]

نحن نعمل بما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد تداوى صلى الله عليه وسلم بالأدوية الحسية المادية التي كانت معروفة وقتئذ ، كما كان يتداوى بالقرآن الكريم وخاصة المعوّذات [2]

فلا مانع من استعمال الدواء المناسب من طبيب حاذق ، مع الاعتقاد بأن الذي يضع الشفاء في الدواء هو الله تعالى ، والدواء لا يشفي من ذاته ، وإنما هو سبب الشفاء بإذن الله تعالى ، والتداوي بالقرآن الكريم مطلوب ، والشفاء به قطعي لمن أيقن ، والتداوي بالدواء الحسي مطلوب والشفاء به مظنون .

ومن نصِّ الحديث السابق فهم الشافعي الأمر بالوجوب حتى صار التداوي عنده واجباً ، ومنه تجب على الزوج النفقة على زوجته عند مرضها من أجل تداويها .

أما عند الحنفية فالأمر محمول على الندب والاستحباب ، ولا تجب على الزوج النفقة على زوجته عند مرضها ، بل على أهلها ، لكن هذا لا يعني أن يدَعَها في مرضها إذا كان أهلها لا يستطيعون أو لا يقومون بذلك .

بل عليه ذلك من باب قوله تعالى : { وعاشروهن بالمعروف }

وقوله صلى الله عليه وسلم : [استوصوا بالنساء خيراً] [3]

*- تذكرة

قال شيخنا الإمام رضي الله عنه عن ساعة الإجابة في يوم الجمعة :

عند السيدة فاطمة رضي الله عنها هي آخر ساعة من يوم الجمعة عندما تبدأ الشمس بالغروب .

والدليل على ذلك ما رواه الترمذي في سننه عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :

[الْتَمِسُوا السَّاعَةَ الَّتِي تُرْجَى فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ بَعْدَ الْعَصْرِ إِلَى غَيْبُوبَةِ الشَّمْسِ]

---

[1] سنن ابن ماجه والترمذي كتاب الطب عن أسامة بن شريك رضي الله عنه

[2] روى الإمام البخاري في صحيحه في كتاب المغازي عن أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا اشتكى نفث على نفسه بالمعوّذات ومسح عنه بيده .

[3] انظر صحيح مسلم كتاب الرضاع

وروى ابن راهويه في مسنده عن السيدة فاطمة رضي الله عنها أنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :
[إن في الجمعة لساعة لا يوافقها مسلم يدعو بخير إلا استجيب له ، فقالت: يا رسول الله وأية ساعة هي ؟
فقال : [إذا تدلت الشمس للغروب حتى تغرب]
فكانت فاطمة رضي الله عنها تقول لغلام يقال له زيد : اصعد على الظراب فإذا رأيت الشمس قد تدلت للغروب فأخبرني فيخبرها فكانت تقوم إلى مسجدها فلا تزال تدعو حتى تغرب الشمس ثم تصلي . اهـ
والظّراب بكسر الظاء ، واحدها ظرب بفتح الظاء وكسر الراء ،هي الجبال الصغار .
وقال الحافظ ابن حجر في الفتح :
روى الطبراني في الأوسط والدارقطني في العلل والبيهقي في الشعب وفضائل الأوقات من طريق زيد بن علي بن الحسين بن علي حدثتني مرجانة مولاة فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت :
حدثتني فاطمة عليها السلام عن أبيها فذكر الحديث ،
وفيه : قلت للنبي صلى الله عليه وسلم : أي ساعة هي ؟
قال صلى الله عليه وسلم : [إذا تدلى نصف الشمس للغروب] .
فكانت فاطمة رضي الله عنها إذا كان يوم الجمعة أرسلت غلاماً لها يقال له: زيد ، ينظر لها الشمس فإذا أخبرها أنها تدلّت للغروب أقبلت على الدعاء إلى أن تغيب .اهـ .
وذهب كثير من السلف والخلف إلى أنها تبدأ من حين صعود الخطيب المنبر إلى انتهاء الصلاة .
واستدلوا بما رواه مسلم وأبو داود عَنْ أَبِي بُرْدَةَ بْنِ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه قَالَ :
(قَالَ لِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ : أَسَمِعْتَ أَبَاكَ يُحَدِّثُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي شَأْنِ سَاعَةِ الْجُمُعَةِ ؟
قَالَ : قُلْتُ : نَعَمْ ، سَمِعْتُهُ يَقُولُ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ :
[هِيَ مَا بَيْنَ أَنْ يَجْلِسَ الْإِمَامُ - يعني :على المنبر - إِلَى أَنْ تُقْضَى الصَّلَاةُ]

*- بيان آية كريمة :

قال الله تعالى :

{ وَعَلَّمَ آَدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ }

المراد من الأسماء هنا : الأسماء الإلهية التي ظهرت آثارها في العوالم .

{ ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ }

أي عرض الله تعالى المسميات من العوالم على الملائكة إما شهوداً أو مثالاً

{ قَالَ يَا آَدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ }

أي الأسماء الإلهية التي ظهرت آثارها في هذه العوالم التي عُرِضت عليهم ، وهنا بيّن الله تعالى فضل آدم على الملائكة بالعلم - أي فضله عليهم بالعلم وأما قوله تعالى :{ الأسماء كلها } فالكلية هنا مُخصّصة بتخصيص عقلي ، لأن المخلوق لا يحيط بأسماء وصفات الخالق سبحانه .

ففي تعليمه سبحانه لآدم عليه السلام الأسماء الإلهية إظهار لفضله وكرامته على الملائكة ، ولو كان المراد من الأسماء في الآية أسماء الأشياء مثل العصا والجبل والشجرة فليس في ذلك مفخرة وتفاضل على الملائكة .

*- بيان آية كريمة :

قال الله تعالى :{ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآَنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ }

وقال جل وعلا :

{ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآَنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآَنَهُ}

فقد كان صلى الله عليه وسلم يعجل به خشية أن يتفلت منه شيء .

وذكر الشيخ الأكبر رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم كان يعرف القرآن قبل نزول الوحي به عليه ، لذا كان يعجل بقراءته .

والتوفيق بين القولين : أن ذلك كان يحصل له صلى الله عليه وسلم بقوة النورانية المحمدية الكاشفة ، فيعرف بتعريف الله له ما سينزل به عليه جبريل عليه السلام ولو إجمالاً .

وليقرب لك فهم ذلك : من كان ذا بصيرة نافذة ونفس طيبة وقلب نقي وأرسل إليه من يعزّ عليه كتاباً مع رسول له ، فإنه يعرف مضمون الكتاب ولو بشكل مجمل من خلال بشاشة وجه الرسول وحسن إقباله عليه ودقة ذوقه وسمو لطفه ، وهكذا فإن الأمر أجل وأكبر وأعظم من أن يعبَّر عنه بكلمات فإنها تضيق عن بيان حال الوحي على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وكيفية تنزّلاته وأنواره وأسراره .

قوله تعالى : { إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وقرآنه } أي : على لسان جبريل عليه السلام من باب القرب الملكوتي الخاص ، ومثاله قوله تعالى في الحديث القدسي [كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ......][1]
ونظير ذلك قوله تعالى :{ وإذ نتقنا الجبل }
والذي نتق الجبل هو جبريل عليه السلام .

*- بيان آية كريمة :

قال الله تعالى :
{ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون }
الزبور لغة : الكتاب ، والزّبُر : الكتُب ، قال تعالى :
{ وإنه لفي زبُر الأولين }
وفي القرآن الكريم أطلق الزبورعلى الكتاب المنزل على داود عليه السلام من حيث الاسم العلمي ، والزبُر هي الكتب المنزلة من السماء ، قال تعالى
{ وإنه لفي زبر الأولين }
فالمراد بالزبور في الآية السابقة جنس الزبور وهو الكتاب المنزل من السماء ، القرآن الكريم وغيره
أما الذكر فهو أم الكتاب الذي فيه ذكر كل شيء ، قال صلى الله عليه وسلم :
[وكتبَ في الذكر كل شيء][2]
أما المراد من الأرض في الآية السابقة فالجمهورعلى أنها أرض الجنة ولكن قد يراد منها أيضاً وراثة هذه الأرض والتمكين فيها والسيطرة عليها كما في الآية :
{ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ }
أي في الدنيا ليست خالصة لهم بل هناك من يزاحمهم ويغتصبها منهم ، أما في الآخرة فهي خالصة لهم ، وكذلك وراثة الأرض والتمكين فيها فهي حق لهم ، أما إذا كانت لغيرهم فقد اغتصبها منهم ، وهذا ما حصل بعدما انتشرت الدولة الإسلامية إلى أقاصي الدنيا ثم تسلّط الأعداء واغتصبوها منهم شيئاً فشيئاً ، أما في الأصل فهي حق لهم من الله تعالى .

---

[1] طرف حديث في صحيح البخاري كتاب الرقاق عن أبي هريرة رضي الله عنه
[2] طرف حديث في صحيح البخاري كتاب بدء الخلق عن عمران بن حصين رضي الله عنه

*- إيضاح :

إن التحقيق في المراد من الاسم الأعظم هو على ثلاثة أصناف :

أولاً : إذا أطلقت عبارة (اسم الله الأعظم) في سياق التوحيد والمعرفة والحضرة الإلهية الإطلاقية فالمراد منه هو (الله) لأنه الاسم الجامع لجميع الأسماء الإلهية ، فالمريض يقول : يا الله ، والفقير يقول : يا الله ، فالأول يقصد : يا شافي ، والثاني يقصد : يا غني ، فحال الداعي يقيّد الحضرة الاسمية فيجيبه من اسم الجلالة اسم وتبقى باقي الأسماء في جلالتها .

ثانياً : ما يجري من تعليم الله لبعض أصفيائه وأوليائه وأنبيائه كالخضر عليه السلام وغيره ، يعلّمهم سبحانه الاسم الأعظم فهو اسم يخص الله به هذا الولي أو العارف دون غيره ، وله خاصيته في الإجابة ، ويختلف هذا الاسم من ولي إلى آخر حسب ما يخصه الله تعالى به من اسم .

ثالثاً : ما ورد في الأحاديث النبوية من أدعية وأسماء على أنها اسم الله الأعظم فهي كلها صحيحة ولها خصوصية : إذا سئل الله بها أعطى وإذا دعي بها أجاب ، بشرط الحضور ، وهو اسم متعدد يحوي أسماء بحسب ما ورد من أحاديث ، ككلمة حوت كلمات ، كما قال ابن مالك رحمه الله في ألفيته :

كلامنا لفظ مفيد كاستقم	واسم وفعل ثم حرف الكلم
واحده كلمة والقول عم	وكلمة بها كلام قد يُؤمّ

*- بيان آية كريمة

قال الله تعالى : { وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ }

المراد من الذي نجا المذكور في الآية : هو ساقي الخمر الذي كان مسجوناً مع يوسف عليه السلام فطلب منه يوسف عليه السلام أن يذكره عند ربه فأنسى الشيطان الساقي تذكير ربه - أي سيده وهو الملك - بيوسف عليه السلام وما جرى له معه فلبث في السجن بضع سنين .

الأمر ليس أن يوسف نسي ذكر الله واعتمد على الملك فمن أجل ذلك لبث في السجن .

بل إنه طلب من الساقي أن يذكره عند الملك - أي يذكر وصفه وعلمه وما رأى من حكمته ومن تفسير المنامات - بغية أن يصلح أمور الملك ووزارته ، وهذا مراد يوسف من ذكره عند الملك ، وهذا ما فعله عندما خرج من السجن فقال للملك كما أخبر سبحانه عنه : { اجعلني على خزائن الأرض } ليتمكن من المُلك ويسيطر عليه لإصلاح المملكة .

وقد قال الله تعالى في مدحه عليه السلام : { إنه من عبادنا المخلصين }
وقد اعترف إبليس لعنه الله بأنه لا سبيل له لإغواء المخلصين فقال كما أخبر سبحانه عنه :{ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ }
ففي هذا دليل على أن المراد من الآية :{ فأنساه الشيطان ذكر ربه }
أن الشيطان أنسى الفتى الذي كان مع يوسف في السجن أن يذكّر الملك بيوسف عليه السلام ، وأن يخبره بما رأى منه من حكمة وأخلاق عالية تصلح أن يقرّبه الملك إليه لإصلاح المملكة وشؤون الرعية .
والمخلص - بفتح اللام - : هو الذي استخلصه الله تعالى لطاعته وعبادته فأخلص لله تعالى في البداية فخلّصه الله من الأغيار واستخلصه لنفسه .
*- إيضاحات

ما جاء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل جبريل عن عمره - أي عمر جبريل - فقال : لا أعلم ، غير أن كوكباً يطلع في الحجاب الرابع في كل اثنين وسبعين ألف سنة مرة ، وقد رأيته اثنين وسبعين ألف مرة ، فقال صلى الله عليه وسلم :
وعزة ربي أنا ذلك الكوكب .
لم يذكره المحدّثون ولا أئمة القوم ، ولا يُجزم بأنه حديث .

--- وسئل رضي الله عنه عن الحديث الذي يذكره بعض العوام من أن السيدة عائشة رضي الله عنها وضعت نطاقاً على رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجدته من نور .
فقال: هذا الحديث لا أصل له ، إنما هو صلى الله عليه وسلم بشر بدليل الآية :{ قل إنما أنا بشر } وبدليل الحديث :(فوقعتْ يدي على باطن قدميه) [1]

--- الحديث في حلية الأولياء لأبي نعيم في ترجمة حبيب بن أبي ثابت عن زيد بن أرقم قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم :
[ما بعث الله نبياً إلا عاش نصف ما عاش النبي الذي كان قبله]
حديث ضعيف الإسناد ، كما في فيض القدير شرح الجامع الصغير [2]

---

[1] طرف حديث في صحيح ابن خزيمة كتاب الصلاة ومصنف ابن أبي شيبة كتاب ما جاء في ليلة النصف من شعبان
[2] ٥٥١/٥

---- ما يروى من حديث :
(الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا)
هذا من كلام سيدنا علي رضي الله عنه وسنده ضعيف ، ويروى مرفوعاً كما في فيض القدير للمناوي والإحياء للغزالي .
وزاد سهل بن عبد الله التستري رحمه الله :
فإذا انتبهوا ندموا ، وإذا ندموا لا تنفعهم الندامة [1]

--- ما يُروى : موتوا قبل أن تموتوا
هو من كلام الصوفية رضي الله عنهم ، وليس بحديث ، إلا أن معناه المراد منه مؤيّد بحديثِ وصيته صلى الله عليه وسلم لابن عمر
[وعُدّ نفسك مع الموتى][2]
وفي رواية : [وعدّ نفسك من أهل القبور] [3]
وفي رواية : [وعدّ نفسك في أهل القبور] [4]
لأن الموتى لا انشغال لهم في أمور الدنيا وشهواتها ، بل إن انشغالهم بالله تعالى وحده .
*- تذكرة
إن مما يدل على أن إشارات الصوفية في عباراتهم لها أصل شرعي حديث حذيفة وعمر رضي الله عنهما حول الفتن ، وأن عمر باب الفتن أي تتوالى الفتن بموته رضي الله عنه .
أخرج الشيخان والترمذي والرواية للبخاري عن أبي وائل عن حذيفة رضي الله عنه قال : قال عمر رضي الله عنه :
أيّكم يحفظ حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الفتنة ؟
قال : قلت : أنا أحفظه كما قال ، قال : إنك عليه لجريء ، فَكَيف ؟
قال : قلت : " فتنة الرجل في أهله ، وولده ، وجاره ، تكفّرها الصلاة ، والصدقة والمعروف - قال سليمان : قد كان يقول : الصلاة والصدقة ، والأمر بالمعروف - والنهي عن المنكر " ، قال : ليس هذه أريد ، ولكني

---

[1] انظر كشف الخفا للعجلوني ٣١٢/٢
[2] شعب الإيمان للبيهقي وهو في مسند الإمام أحمد بلفظ :
[يا ابن آدم اعمل كأنك ترى ، وعُدّ نفسك مع الموتى ، وإياك ودعوة المظلوم].
[3] مسند الإمام أحمد ٤٧٦٠ و سنن ابن ماجه كتاب الزهد
[4] سنن الترمذي كتاب الزهد

أريد التي تموج كموج البحر ، قال : قلت : ليس عليك بها يا أمير المؤمنين بأس ، بينك وبينها باب مغلق ، قال : فيُكسر الباب أو يفتح ؟
قال : قلت : لا بل يُكسر ، قال : فإنه إذا كسر لم يُغلق أبداً ، قال : قلت : أجل ، فهِبْنا أن نسأله مَن الباب فقلنا لمسروق : سَلْه ، قال : فسأله ، فقال : عمر رضي الله عنه ، قال : قلنا ، فعَلِم عمر مَن تعني ؟
قال : نعم ، كما أن دون غد ليلة ، وذلك أني حدثته حديثاً ليس بالأغاليط [١]
فهنا أطلق لفظ الباب على عمر رضي الله عنه والأصل في هذا أن كل اسم يدل على جانب من جوانب المعنى لأن الأسماء كثيرة والمعنى كبير والمراد بكسر الباب أنه لا يغلق بينما لو كان يفتح لأمكن إغلاقه .

*- إيضاح

قال علماء الكلام في تعريف الإنسان وتمييزه عن غيره من الحيوانات : الإنسان حيوان ناطق ، والحمار مثلاً حيوان ناهق ، والحصان حيوان صاهل ، وهكذا أطلق على الإنسان أنه حيوان ناطق على اعتبار أنه يستطيع البيان عما في نفسه بالنطق أما غيره من الحيوانات فلا
ولتعريفهم هذا متابعات :
أولاً : الببغاء حيوان ناطق ، لكن قيل : إن الببغاء وإن كان ينطق فإنه لا يستطيع البيان عما في نفسه ، بل ينطق ويردد ما سمعه فقط .
والحق أن كل المخلوقات ناطقة بتسبيح الله تعالى ، ولكل مخلوق منطقه اللائق به ، فمن ذلك منطق الطير :
قال تعالى مخبراً عن سيدنا سليمان عليه السلام :
{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ}
فلقد ثبت في الآية أن للطير منطقاً خاصاً به علّمه الله تعالى لسليمان عليه السلام .
ومن ذلك قصة الهدهد مع سليمان عليه السلام حيث استطاع الهدهد بمنطقه أن يبين عما في نفسه ويخبر سليمان بما رأى .
وقال سبحانه : { حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ } فلقد أبانت النملة عما في نفسها .

---

[١] صحيح البخاري كتاب الزكاة وصحيح مسلم كتاب الفتن وأشراط الساعة وسنن الترمذي كتاب الفتن وقال الإمام النووي في شرحه صحيح الإمام مسلم :
الأغاليط جمع أغلوطة وهي التي يغالط بها ، فمعناه حدثته حديثاً صدقاً محققاً ليس هو من صحف الكتابيّين ولا من اجتهاد ذي رأي ، بل من حديث النبي صلى الله عليه وسلم ، والحاصل أن الحائل بين الفتن والإسلام عمر رضي الله عنه وهو الباب فما دام حياً لا تدخل الفتن ، فإذا مات دخلت الفتن ، وكذا كان والله أعلم .

فقد أثبت القرآن الكريم أن للطير منطقاً وللنمل منطقاً وهكذا سائر المخلوقات كل منها له منطق أي كلام خاص به لا يفهمه غيره .
قال تعالى : { وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم }
أي لا تفهمون تسبيحهم ولو كان المراد من التسبيح تسبيحاً بدلالة الحال لما قال تعالى : { ولكن لا تفقهون تسبيحهم } لأن تسبيح الحال مفهوم للكل وهكذا فإن لكل شيء منطقه اللائق به ، ولا يفهمه غيره إلا من كشف الله له عن ذلك فسمع تسبيح الأشياء وفَهِمَها كالأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، إذ علَّم سبحانه سليمان عليه السلام منطق الطير ومنطق الحيوانات .
وكذلك أسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه وهم في حضرته أسمعهم تسبيح الحصى والطعام [1] ، فلكل شيء منطقه اللائق به ، والقول (إن الإنسان حيوان ناطق) تعريف ناقص مخدوج .
قوله تعالى : { ولكن لا تفقهون تسبيحهم } أي فقد تسمعون ولا تفقهون ، وقد لا تسمعون تسبيحهم .
{ إنه كان حليماً غفوراً } حليماً بعباده فلا يعجل العقوبة لهم على غفلاتهم عن تسبيح الله ، لأن الأشياء كلها لا تنقطع عن التسبيح .
أما المؤمن فهو قد يهفو ويغفل أحياناً عن تسبيح الله وذكره ، فأخبر تعالى أنه بحلمه لا يعجل العقوبة على ذلك .
{ غفوراً } أي يغفر لهم زلاتهم وهفواتهم .
وذهب بعضهم إلى أن الجملة { إنه كان حليماً غفوراً } جملة تعليلية وتقدير الكلام { لأنه كان حليماً غفوراً }
فاللام للتعليل أي لبيان علة ما سبق .
والمعنى : أنه تعالى لحلمه بكم ستر عنكم سماع تسبيح الأشياء من حولكم رحمة بكم ونعمة منه عليكم ، ولو أنه تعالى كشف ذلك عنكم لما تحملتم ذلك ولطاشت عقولكم .

---

[1] روى الإمام البخاري في صحيحه في كتاب المناقب عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : (ولقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يُؤكل) .
وجاء في مسند البزار والمعجم الأوسط للطبراني عن أبي ذر رضي الله عنه :
(فتناول النبي صلى الله عليه وسلم سبع حصيات أو تسع حصيات فسبّحن في يده حتى سمعتُ لهن حنيناً كحنين النحل ، ثم وضعهن فخرِسْنَ ، ثم وضعهن في يد أبي بكر فسبّحن في يده حتى سمعت لهن حنيناً كحنين النحل فوضعهن فخرسن ، ثم تناولهن فوضعن في يد عمر فسبّحن في يده حتى سمعت لهن حنيناً كحنين النحل ، ثم وضعهن فخرسن ، ثم تناولهن فوضعهن في يد عثمان فسبّحن في يده حتى سمعت لهن حنيناً كحنين النحل ، ثم وضعهن فخرسن) .

{ غفوراً } المراد الغفر اللغوي أي ستوراً ، لأن مادة غفر في اللغة تدل على الستر ، ومنه المغفر الذي يُلبس في الحروب ليقي ضربات النبال .
وأما الغفر الشرعي فهو أن يستر الله تعالى عن عبده العقوبات ، فيجعل بين العقوبة وبين العبد حجاباً مستوراً .
وقال تعالى في سورة النور :
{ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ }
{ كلٌّ } : أي كلٌّ من في السموات ومن في الأرض والطير
{علم صلاته وتسبيحه }وقد أفرد تعالى ذكر الطير رغم أنها ممن في الأرض ليبين أنها تسبّح ربها في حال قرارها على الأرض وعند طيرانها في الجو .
والخطاب في هذه الآية بقوله تعالى :{ ألم تر } موجه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أي ألم تعلم يا رسول الله وترَ ذلك عياناً .
وهذا يدلك على أن الله تعالى كشف لحبيبه صلى الله عليه وسلم بأنوار النبوة وأسمعه تسبيح الأشياء عن طريق العلم والعيان كما قال تعالى في سورة الفيل : { ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل }
وقد أعلمه بذلك علماً كشف له عن ذلك بالعيان ، وعلى هذا تُحمل الآية التي جاء فيها الخطاب لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بـ { ألم تر }
أما قوله تعالى :{ ألم تروا }
أو { أولم يروا } أي ألم يعلموا علماً جازماً كأنهم يرون بالعيان .
*- حكم شرعي
قال الله تعالى :{ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ }
هذه مصارف الزكاة
وكلمتا (الفقراء والمساكين) إذا تفرقتا لفظاً اجتمعتا معنىً ، وإذا اجتمعتا لفظاً تفرقتا معنىً .
والمسكين أشد فقراً من الفقير لأنه لا يملك شيئاً أبداً ، بدليل قوله تعالى :
{ أو مسكيناً ذا متربة }
وعند الشافعية الفقير أشد فقراً من المسكين بدليل قوله تعالى :
{ أما السفينة فكانت لمساكين } فهم إذاً يملكون .
أما الحنفية فقالوا إن المسكين أشد فقراً وفي الآية السابقة أطلق عليهم (مساكين) ترحُّماً لا فقراً .

{والعاملين عليها } : أي العاملين على جبايتها وتنظيمها وإيصالها لمستحقيها يجوز إعطاؤهم أجرهم من الزكاة ولو كانوا أغنياء ، إذ لو كانوا فقراء لدخلوا في الصنف الأول .
{الغارمين } : المَدِينين
{ المؤلفة قلوبهم } ليدخلوا في الإسلام ، وفي عهد سيدنا عمر أعزّ الله الإسلام فأوقفها ، ولو رأى الخليفة أن إعطاءهم فيه مصلحة ومنفعة للأمة لأعاد تطبيق الحكم .
{ وفي الرقاب } : في فك رقاب العبيد والإماء لإعتاقهم
{ وفي سبيل الله } في تجهيز من يريد القتال في سبيل الله ولا يملك متطلباته .
وقد ذكر بعضهم في كتب الفقه أن قوله تعالى : { وفي سبيل الله } أي في كل عمل خير من مسجد ومشفى و ... ، وهذا غير صحيح لأنه لما جاء تفصيل مصارف الزكاة في الآية وتعداد أصنافهم مع العلم أن ذلك كله في سبيل الله إلا أن لكل صنف مراده
{ وابن السبيل } أي منقطع الحج والسفر
ثم إن الزكاة في دفعها تحتاج إلى تمليك لأن اللام في { للفقراء } تسمى لام التمليك ، وتحتاج أيضاً إلى نية أثناء دفعها ، أو أنه يرفع جزءاً من ماله على أنه من زكاته .
ومن هنا تفهم أن لا يجوز دفع الزكاة في بناء المساجد والمشافي لأنه من الذي يملكها عندئذ ؟
الجواب : لا أحد بل هي لله تعالى وتعتبر وقفاً .
وإذا قيل : إن قوله تعالى : { وفي سبيل الله } يشمل كل فعل خير كبناء المساجد والمشافي والمدارس والأربطة والتكايا والزوايا و...... الخ ...
فيقال : كان يكفي في بلاغة القرآن الكريم أن يقال : (إنما الصدقات في سبيل الله) لأن الإنفاق على الفقراء هو فعل خير وفي سبيل الله ، والإنفاق على المساكين هو من فعل الخيرات وفي سبيل الله ، وكذلك الإنفاق على الغارمين وغيرهم ، فلماذا عدّد سبحانه أصنافهم ؟
نعم ليدل على أن لكل صنف معنى مخصصاً ، والعطف يقتضي المغايرة ، وهذا يدل على أن قوله تعالى :{ وفي سبيل الله } له معنى مخصص وهو تجهيز الغازي الذي يجاهد الأعداء في سبيل الله تعالى .
ونصاب الزكاة هو ما زاد عن حاجة الإنسان الأساسية من مسكن ومأكل ومطعم بمقدار مائتي درهم فضة أو عشرين مثقالاً ذهباً وحال عليه الحول فحينها تجب فيه الزكاة .

ويجوز للمرأة أن تدفع زكاة مالها لزوجها إن كان مستحقاً - عند الإمام الشافعي - وعند الحنفية لا يجوز .
و يجوز للمرء أن يدفع زكاة ماله لأخيه إذا كان محتاجاً ، أما إذا كان عاجزاً لا يستطيع العمل فتجب عليه نفقته ولا يجوز ذلك من مال الزكاة .
*- بيان آية كريمة
قال الله تعالى :{ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ}
إن الاستدلال من هذه الآية على أن آدم خليفة لآدميين قبله كانوا قد وقعوا في المخالفات هذا الاستدلال غير صحيح لأنه لو كان كذلك لما كان في استفسار الملائكة بقولهم :
{ أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء } معنى وحكمة .
لأنهم يعلمون ذلك من الآدميين الذين سبقوا آدم فما وجه الاستفسار إذاً ؟
أما علمهم بما سيجري من بني آدم من مخالفات بقولهم { أتجعل فيها } هذا مردّه إلى :
هناك من قال : إن الله تعالى أطلعهم على ذلك من خلال نظرهم الجزئي إلى اللوح المحفوظ .
وهناك من قال : إنهم علموا ذلك من خلال بنية آدم وخلقه ، إذ إن الله تعالى خلقه من قبضة تراب أمر جبريل أن يقبضها من جميع أنحاء الأرض ، فاجتمعت فيه القوى والصفات البهيمية والحيوانية والغضبية والشهوانية كما اجتمعت فيه الروح العلوية الملكوتية ، فلابد لهذه القوى أن تتصارع ، ومن هنا تحصل المخالفات .
وهناك من قال : إنهم علموا ذلك من قوله تعالى لهم :
{ إني جاعل في الأرض خليفة }
فالخليفة هو آدم عليه السلام والمستخلف عليهم هم بنوه وهم مكلفون بأوامر ومناهٍ ، فلابد من المستخلَف عليه أن يقع في مخالفات ، قال تعالى :
{ فإما يأتينكم مني هدى }
أي فإنه سيأتيكم مني هدى ، والهدى يشتمل على أوامر ومناهٍ لسعادتهم في الدنيا والآخرة ، ومن هنا تفهم أن الله تعالى تعهد آدم وبنيه بالهدى منذ أهبطهم إلى الأرض لكي يحيوا حياة طيبة ، وهناك من يظن ويعتقد أن الإنسان القديم من عهد آدم وما بعده إنسان وحشي يطيل شعره وأظافره وغير ذلك مستدلاً بما يجدونه من آثار لهذا الإنسان .

والحقيقة أن هذا الإنسان على هذا الشكل هو الإنسان الكافر من الأمم السابقة ، لأن الله تعالى منذ أهبط آدم تعهده وبنيه بالهدى والفطرة ، والإنسان الوحشي هو المخالف لتعاليم الهدي الإلهي .
واعلم أن المراد من الخليفة في قوله تعالى :
{ إني جاعل في الأرض خليفة }
هو خليفة عن الله تعالى في الأرض ، فيحكم بحكم الله ويأمر بأمر الله ويقيم حدود الله على المستخلف عليه .
ولا يقال (خليفة عن الله) إلا للأنبياء والرسل عليهم السلام لأنهم يتلقون الأوامر من الله ، ويأمرون بها ويبلغون ما أمرهم الله به .
أما أتباعهم المؤمنون فيقال عنهم : (وكلاء عن الله تعالى)
قال الله تعالى :
{ فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين }
والخليفة الأعظم عن الله تعالى هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم لأنه جاء بأجمع شريعة وأعظم هدي عن الله تعالى .
والخلفاء الراشدون من بعده عليه الصلاة والسلام هم خلفاء عنه .
وليس المراد من قوله تعالى { خليفة } في الآية السابقة أن آدم خليفة لآدميين قبله ، بل إن آدم عليه السلام هو أبو البشر أي أول المخلوقات من البشر فقد قال تعالى قبل أن يخلقه قال للملائكة مُعْلِماً لهم بشرف وكرامة ما سيخلق ، وأنه سيخلق خلقاً جديداً لا يعلمون مثيله من قبل ، قال جل وعلا :
{ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ }
فبيّن لهم سبحانه أنه سيخلق بشراً - أي بادي البشرة - لم يوجد له مثيل في صورته وهيئته .
ولا يقال عن الحيوان : إنه بشر لأن جسمه مغطى بشعر أو بريش ، ولا يقال عن الجن : إنهم بشر لأنهم أخفياء ، فالبشر الذي أخبر الله عن خلقه إنما هو شيء جديد لا تعرفه الملائكة من قبل .
وقد ورد في الحديث :
[وخلق آدم عليه السلام بعد العصر من يوم الجمعة ، في آخر الخلق في آخر ساعة من ساعات الجمعة ، فيما بين العصر إلى الليل] [1]

[1] طرف حديث في صحيح مسلم كتاب صفة القيامة والجنة والنار عن أبي هريرة

*- إيضاح
ما يروى من حديث :
(تسابقت أنا وأبو بكر في النبوة فسبقتُه فاتبعني ، ولو سبقني لاتبعته)
ليس بحديث وهو كذب باطل ، لأن الله تعالى منذ قديم الأزل وفي العلم الأزلي يعلم أنه لا يصلح لختم النبوة إلا سيدنا محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، قال تعالى :{ الله أعلم حيث يجعل رسالته }
وقال سبحانه : { مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا }
*- إيضاح
حديث (رحم الله والداً أعان ولده على بره)
رواه ابن حبان وقال الحافظ العراقي : سنده ضعيف ، والحديث الضعيف يؤخذ به في مجال الآداب والأخلاق الشرعية ، أما في أمر العقيدة والأحكام فلا .
*- حكم شرعي :
صدقة الفطر صاع تمر أو نصف صاع حنطة أو ..
ذهبت طائفة من علماء العصر إلى تقسيم صدقة الفطر بمقدارها ، فتختلف من الغني إلى المتوسط إلى الفقير ، فالغني يدفع صدقة الفطر صاعاً من تمر لأن ثمنه مرتفع في بلدنا ، والمتوسط يدفع الصدقة حنطة لأنها معتدلة القيمة ، والفقير يدفعها شعيراً .
وهذه التقسيمات باطلة ، لأن المقادير الشرعية التي سنّها رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تتغير بتغير الزمن بل هي ثابتة على جميع أصناف المجتمع .
ولو كان لهذه التقسيمات أصل شرعي لبيّنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذ في عهده عليه الصلاة والسلام كان ثمن الحنطة مضاعفاً عن ثمن التمر بكثير .
وكانت الحنطة نادرة تستورد ، أما التمر فكثير ، فلمَ لمْ يأمر صلى الله عليه وسلم عبد الرحمن بن عوف أو عثمان بن عفان وباقي أغنياء الصحابة بإخراج صدقة الفطر من الحنطة ويأمر الفقراء بإخراجها من التمر ؟ ! .
ثم ليس المقصود من صدقة الفطر الكثرة ، إنما لإغناء الفقير عن المسألة في يوم العيد فقط ، لما ورد في الحديث [أغنوهم عن طواف هذا اليوم] [1]

[1] شعب الإيمان للبيهقي وسنن الدارقطني

أي عن المسألة فيه ، فإذاً صدقة الفطر حسب المتوفر لديك والممكن ، ولا بأس أكانت تمراً أم حنطة ، ولا حاجة لإلزام الفقير بنوع والغني بآخر .اهـ

*- إيضاح :

ورد في كتاب (سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم) في البحث في قضية أسرى بدر ومن قال بتخطئة النبي صلى الله عليه وسلم والرد عليهم وبيان الصواب وردت عبارة: (العزيمة على ما قال عمر)

وهو مصطلح فقهي يورده علماء الأصول ، لأن الأحكام الشرعية منها رُخَص ومنها عزائم ، فالعزيمة أمر محتّم والرخصة أمر مباح .

فمثلاً في الوضوء غسل الرجلين عزيمة ، والمسح رخصة .

فإباحة الغنيمة وقبول الفداء رخصة ، لكنها قبل ذلك كانت محرّمة في الشرائع السابقة فهي عزيمة .

فقول عمر رضي الله عنه بعدم قبولها يوافق ذلك ، لذلك كان رأي عمر عزيمة .

أما رواية (لو نزل العذاب ما نجا إلا عمر)

فاحتمال نزول العذاب إنما هو بالنسبة للقائلين بقبول الفداء رغبة في عرض الدنيا ، وأما من أشار بقبول الفداء من باب الرحمة فلا يدخل في العذاب مثل أبي بكر رضي الله عنه ، وعمر رضي الله عنه لم يقل بقبول الفداء أصلاً ، لذلك ينجو مع من قال بقبول الفداء من باب الرحمة .

*- تذكرة

ما يروى أن أحد الصحابة رأى سيدنا عمر بعد وفاته وقال له سيدنا عمر : (كاد عرش عمر أن يهتز) .

هذه الرواية غير صحيحة لأن سيدنا عمر رضي الله عنه من المبشرين بالجنة ، ومن الذين يدخلونها بغير حساب ، والسؤال في القبر يكون إجمالياً أما التدقيق والتفصيل فهو في يوم الحساب .

فإذا كان عمر رضي الله عنه قد اهتز عرشه من السؤال الاجمالي في القبر فما بالك بباقي المؤمنين ؟ ! .

*- لطيفة :
ما يروى عن الإمام الجنيد رضي الله عنه قوله :
(طاحت تلك الإشارات وضاعت تلك العبارات ولم ينفعنا إلا ركيعات كنا نركعها في السحر) [١]
إن صح عنه ذلك فمحمول على أن العلم والمعرفة لا تكفيان ، ولا يصل العبد إلى مراتب الكمال ما لم يصحبه العمل والعبادة ، وهذا مستدل من قول النبي صلى الله عليه وسلم : [أنا أتقاكم لله ، وأعلمُكم بحدود الله] [٢]
وفي رواية : [والله ، إني لأرجو أن أكون أخشاكم لله ، وأعلمكم بما أتّقي] [٣]

فقد قرن النبي صلى الله عليه وسلم التقوى مع العلم بحدود الله ، والتقوى هي العمل الصالح .
وفي أحد وجوه تفسير الآية :
{ إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه } أن الكلم الطيب لا يُرفع إلا بالعمل الصالح ، فهو الذي يرفع الكلم الطيب ، فلابد إذاً من عمل .
*- إيضاح :
الموجودات على أربعة أنواع :
موجود كلامي : مثلاً قلت : زيد
موجود كتابي : مثلاً كتبت : زيد
موجود خارجي : معاين بالوجود
موجود علمي في علم الخالق ، وذهني في علم المخلوق
*- بيان آية كريمة
قال الله تعالى :
{ وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها }
اعلم أن تكفُّل الله تعالى بالرزق المراد به الرزق النافع الذي ينتفع به صاحبه ، ويكون به قوام معاشه وحياته من طعام ولباس وهواء وماء .
ومن مات جوعاً دل ذلك على أن رزقه قد انتهى ، لأن الأجل والرزق لا ينفكان عن بعضهما ، وروى الطبراني في الأوسط والصغير بإسناد حسن عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

---

[١] كما في الحلية لأبي نعيم وكذا في الرسالة القشيرية وفي طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى وفي تاريخ الإسلام للذهبي
[٢] مسند الإمام أحمد ٢٢٥٧٠
[٣] صحيح مسلم كتاب الصيام عن السيدة عائشة رضي الله عنها

[لو فرّ أحدكم من رزقه لأدركه كما يدركه الموت] .
وأما من يبسط الله له الرزق أو يقبضه فلعله قد تكون فتنة له .
وأما الدليل على أن الرزق ما ينتفع به الإنسان وليس ما يملكه فما رواه مسلم والترمذي والنسائي عن عبد الله بن الشخير رضي الله عنه قال :
أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ : { ألهاكم التكاثر }، قال :
[يقول ابن آدم : مالي ، مالي ، قال : وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأمضيت] ؟ [١]
وقال صاحب الجوهرة [٢] :
والرزق عند القوم ما به انتُفع وقيل لا بل ما مُلك وما اتُّبع
روى الإمام أحمد وغيره عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :
[لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير]
- فقد أثبت هنا أن للطير رزقاً تنتفع به مع أنه ليس لها ملك تملكه -
[تغدو خماصاً وتروح بطاناً] [٣]
وعلى هذا يكون تعريف الرزق :
هو ما ينتفع به العبد لا ما يملكه ، بل ولا ما يأكله فإنه قد يأكل شيئاً ثم يقذفه من جوفه ويكون رزق غيره ، فلا قدرة له على معرفة رزقه فإنه لا يعرف ما الذي ينتفع به .
والتوكل : الثقة بالله فيما ضمن من الكفاية
وحقيقة الرزق : ما يكون مهيّأ للانتفاع به ، وينقسم ذلك إلى الحلال والحرام ، ولا يجوز أن يكون الرزق بمعنى الملك لأن الطيور والبهائم مرزوقة وليس لها ملك .

---

[١] صحيح مسلم كتاب الزهد والرقائق وسنن الترمذي كتاب الزهد وسنن النسائي الكبرى كتاب الوصايا .
وقال في الصحاح : أَمْضَيْتُ الأمر ، أنفذْته
وفي شرح سنن النسائي : قوله (أو تصدقت فأمضيت)
أي أردت التصدق فأمضيت أو تصدقت فقدّمت لآخرتك .
[٢] هو الشيخ برهان الدين إبراهيم بن إبراهيم بن حسن بن علي بن علي بن علي بن عبد القدوس بن الولي الشهير محمد بن هارون، أبو الإمداد اللَّقَّاني المالكي ، توفي رحمه الله سنة (١٠٤١ هـ) - اللقاني : بفتح اللام ثم قاف وألف ونون نسبة إلى لقانة قرية من قرى دمنهور بمحافظة البحيرة بمصر .
[٣] المسند ٢٠٠ وسنن الترمذي كتاب الزهد وسنن ابن ماجه كتاب الزهد

*- تذكرة :

سلام الخروج من الصلاة :

اعلم أن السلام نوعان : سلام المتارَكة وسلام المقابلة ، فسلام الخروج من الصلاة على اليمين هو سلام متاركة لأن المصلي كان قد دخل في حضرة قرب خاصة في قعوده وأثناء قراءته التشهد فعندما حيّى رب العالمين بالتحيات والصلوات اللائقة به وسلّم على سيد أهل الحضرة وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسلّم على جميع من في الحضرة من عباد الله الصالحين وأشهَدَهم أنه يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فعند خروجه من الصلاة يجب عليه أن يخرج من هذه الحضرة بالسلام على أهلها كما بدأ بالسلام على أهلها عند دخول الحضرة .

فيلاحظ في سلامه على اليمين أنه يسلم على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى جميع عباد الله الصالحين .

وأما السلام على اليسار فهو سلام مقابلة فيلاحظ المصلي فيه أنه يسلم على من وراءه من مقتدين إن كان إماماً ،وإن كان منفرداً فإنه يلاحظ أنه يسلّم على من اقتدى به من ملائكة وأرواح مؤمنين وجنّ .

*- لطيفة :

معاني كلمة (الرب) :

الخالق

المالك

المربّي

الثابت الوجود

ولك أن تقول : (يا رب) أصلها (يا ربي) ، فهو مضاف حذفت الياء منه للإضافة .

أو (يا رب) مفرد علم حسب المعنى المراد من الرب مثل : (يا رب) مفرد علم إذا كان المراد : الثابت الوجود .

*- بيان آية كريمة :

المراد من كلمات الله في الآية :{ ما نفدت كلمات الله } هي معاني وأسرار كلمات الله التي هي القرآن بمعانيه وأسراره وهي الكلمات التشريعية القرآنية .

أو المراد منها : الكلمات التكوينية وهي قوله تعالى { كن } التي خلق بها العوالم ، وبها بقاء دوامها وتدبير أمورها .

*- لطيفة :

يا من ألوذ به فيما أؤمّله ومَن أعوذ به مما أحاذره

ألوذ : ألتجئ إليه في مهماتي ورغباتي

أعوذ : أتحصّن به من مخاوفي

*- تذكرة :

ذكر الشيخ عبد الغفار بن نوح القوصي في كتابه :
(الوحيد فى سلوك أهل التوحيد)
وكذلك ذكر الشيخ صفي الدين بن أبي المنصور في رسالته عن الشيخ أبي الحسن الوناني قال : أخبرني الشيخ أبو العباس الطنجي قال :
وردت على سيدي أحمد الرفاعي رضي الله عنه فقال لي :
ما أنا بشيخك ، شيخك عبد الرحيم بقنا – و قنا : اسم بلد -
قال فسافرت إلى قنا فدخلت على الشيخ عبد الرحيم فقال لي :
عرفتَ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ؟
فقلت : لا - أي لم أعرفه معرفة خاصة - فقال : رح إلى بيت المقدس
قال : فحين وضعت رجلي في الركاب ، وإذا بالسماء والأرض والعرش والكرسي كلها مملوءة من نور رسول الله صلى الله عليه وسلم - أي من أنواره صلى الله عليه وسلم وأسراره المفاضة عليه من ربه تعالى -
فرجعت إلى الشيخ فقال لي :
عرفتَ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ؟ فقلت : نعم
فقال : الآن كملت طريقتك ، لم تكن الأقطاب أقطاباً ولا الأوتاد أوتاداً ولا الأولياء أولياء إلا بمعرفته صلى الله عليه وآله وسلم [1]

*- إيضاح :

الصلاة الخامسة من الصلوات الإدريسية :
(اللهم إني أسألك بنور الأنوار الذي هو عينك لا غيرك أن تريني وجه نبينا محمد صلى الله عليه وسلم)
يتوسل بذات الله تعالى الذي هو نور الأنوار

*- بيان آية كريمة :

قال الله تعالى : { يوم يقوم الروح والملائكة صفاً }
الروح هنا عالم الروح الملكي ، وهم ملائكة خلقهم الله تعالى لعبادته فقط دونما أوامر أخرى كتبليغ الرسالة .
وقال جل وعلا :{ تنزل الملائكة والروح }

---

[1] انظر كتاب الإيمان بعوالم الآخرة للشيخ الإمام رضي الله عنه ص ١٤٠

الروح هنا جبريل عليه السلام .
ولا يوجد نص قطعي بموت الملائكة .
وقوله تعالى :
{ ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله } الصعقة هنا الفزعة التي تصيب الأرواح عند قيام الساعة ، وهي فزعة انتباه ، كما في الآية الأخرى :
{ ففزع من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله }
*- لطيفة :
إن جبريل عليه السلام هو أفضل الملائكة على مذهب جماهير المحدثين والعارفين إلا أن قسماً كبيراً من العارفين قال :
إن إسرافيل عليه السلام هو أفضل الملائكة لأنه يتلقى الأوامر من حضرة الله تعالى قبل غيره ، واللوح المحفوظ بين عينيه .
*- إيضاح :
الحديث القدسي نصه ومعناه من الله تعالى لكن لم يبلغ حد الإعجاز
أما الحديث النبوي فإن لفظه من النبي صلى الله عليه وسلم ومعناه من الله تعالى
والكتب السماوية غير القرآن لم تبلغ حد الإعجاز .
فائدة :
مما ينفع لخفقان القلب الإكثار من قولك :
حبيب الله رسول الله صلوات الله على الحبيب
فائدة
لدفع المضار والحفظ من المكاره والأهوال كتابة البسملة / ١١٣/ مرة في أول شهر محرم ثم تعليقها أو حملها ، وهذا ليس له أصل في الحديث إنما هو من مجرّبات السلف الصالح ، ولكن العدد له خصوصيات لا تنكر ، فهو بمثابة أسنان المفتاح إذا زادت لا يفتح وإذا نقصت لا يفتح .
*- حكم شرعي :
نفقة الآباء على الأبناء ليست واجبة على الأب إلا عند عجز الابن عن العمل من حين بلوغه .
و نفقة الأبناء على الآباء واجبة في جميع الأحوال ، فلو طلب الأب من أبنائه أن ينفقوا عليه لوجب عليهم ذلك ولو كان ميسوراً ، وذلك احتراماً لمقام الأبوة .

*- تذكرة :

نقل الشيخ الأكبر رضي الله عنه عن المعري قوله :

زعم المنجم والطبيب كلاهما   لن يُبعث الأموات قلت لهم بلى
إن صحّ قولكما فلست بخاسر   أو صح قولي فالوبال عليكما

هذا أسلوب أولي في المجادلة مع المنكرين وهو الأخذ بالاحتياط لدفع الإنكار ، وهو من طرق الاستدلال العقلي على وجود الآخرة في مجادلة المنكرين ، والتي جاء بها الكتاب والسنة ويؤتى بها في أول الجدال لإرغام المنكر على العمل بأحكام العقل وهي الأخذ بالأحوط ، وبعد سرد الأدلة والبراهين على إثبات قضايا الغيب وظل هذا المنكر يعاند ويعارض فيقال له : خذ بالأحوط لأن العقل يحتم ذلك ، ولا يعني الأخذ بالأحوط أن إيمانه كامل مقبول إذ لا بد بعد مضي فترة عليه أن يتمكن الإيمان في قلبه ويرسخ ولا يرتاب في قضايا الإيمان .

وقد جاء في الآية :

{ قل أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به من أضل ممن هو في شقاق بعيد }

وقال جل وعلا :

{ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ }

أما المعري فقد زعم جماعة أنه عارف زاهد وآخرون قالوا : هو زنديق ملحد ، والفصل بينهما أنه مسلم كان مبتلى رحمه الله ، وقد قال سبحانه :

{ ليس على الأعمى حرج }

وليس كل ما ينسب إليه صحيحاً من جهة النقل أو الثبوت

هل يرى الملائكة ربهم ؟

الملائكة على أصناف وهم يرون ربهم حسب التجليات ، وليس رؤية دائمة ، وكلٌّ يرى على حسب مقامه ورتبته وقربه .

*- بيان آية كريمة :

الآية في سورة الزمر :{ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ }

المراد بـ { الصدق } الإيمان و { صدّق به } أي برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فازداد إيماناً فوق إيمان ، مثل الآية :{ نور على نور }

وهي عامة لكل المؤمنين إلا أنها خاصة بسيدنا أبي بكر رضي الله عنه ، لأنه أول المؤمنين من الرجال ، والسيدة خديجة أول المؤمنات من النساء ، وسيدنا علي أول المؤمنين من الشباب ، وهكذا المؤمنون عامة اهـ

*- حكم فقهي :
ما حكم قبول الموظف الهدية :
لا يجوز أن يقبل الموظف الهدية من شخص له عند الموظف حاجة ، ولو كانت خالصة من كل شائبة أو تنازل عن حق أو غير ذلك فتبقى رشوة لأنه لو لم يكن موظفاً لما أهدي له شيء ، وهي من باب سد الذرائع لئلا تمتد الأمور إلى أشياء محرمة وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك [١] .

*- إيضاح :
قال الله تعالى :{ وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً }
تطلق كلمة (شيطان) على كل متمرد من الجن والإنس ، أما الشيطان الجني فيوسوس لصاحبه ، وأما الشيطان الإنسي فيزيّن له فعل المعاصي بعذب الكلام والفعل .
روى الإمام أحمد والنسائي عن أبي ذر رضي الله عنه قال :
دخلت المسجد ورسول الله صلى الله عليه وسلم فيه فجئت فجلست إليه فقال : [يا أبا ذر تعوّذ بالله من شر شياطين الجن والإنس]
قلت : أوَ للإنس شياطين ؟ قال : [نعم] [٢]
فهؤلاء يقفون في وجه الأنبياء لمنعهم من تبليغ الدعوة والرسالة وغيرها

*- إيضاح
هل تلاوة القرآن الكريم بسرعة أفضل ، أم تلاوته بالتأني مع التدبر والتفكر ؟
الجواب : كل حالة لها خصائصها ، والأجر مرتب على كثرة الحروف
روى الترمذي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
[من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها ، لا أقول الم حرف ، ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف] [٣]

---

[١] جاء في سنن الدارمي كتاب السير أن النبي صلى الله عليه وسلم خطب فقال :
[أما بعد ، فما بال العامل نستعمله ، فيأتينا فيقول : هذا من عملكم وهذا أُهدي لي ، فهلّا قعد في بيت أبيه وأمه فينظر أيُهدى له أم لا ؟ والذي نفس محمد بيده ، لا يغلّ أحد منكم منها شيئاً ، إلا جاء به يوم القيامة يحمله على عنقه ...] الحديث
[٢] سنن النسائي كتاب الاستعاذة والمسند ٢٠٥٦٦
[٣] سنن الترمذي كتاب فضائل القرآن

بشرط أن تأتي بالحرف دون نقصان أو تغيير في مخرجه وصفته ، مع مراعاة أحكام التجويد الأساسية التي لابد منها .
أما القراءة مع التدبر والتفهم فلا يتمكن منها كل الناس ، بل كلٌّ على حسبه ، والأجر مترتب على ذلك ، فمن لم يستطع فعليه بكثرة التلاوة كما ذكرنا

*- لطيفة :

فعل { يستحيون } : مشتق من الحياة أي يبقونهن أحياء ، قال تعالى :
{ ويستحيون نساءهم }
أما فعل { يستحيي } الوارد في قوله تعالى :
{ إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها }
فهو مشتق من الحياء ، ومضارع الفعلين واحد

*- إيضاح :

يقال : رقي يرقى فهو راق : من العلو ، جاء في الآية:
{ أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك }
أما رقى يرقي فهو راق - مشتق من الرقيا - قال تعالى :
{ وقيل من راق }
وفي الحديث [هل فيكم من راق] [1]

*- إيضاح

حديث تلقين النبي صلى الله عليه وسلم الصحابة الكرام (لا إله إلا الله) حديث صحيح [2]

---

[1] روى الشيخان واللفظ للبخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما أن نفراً من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم مروا بماء ، فيهم لديغ أو سليم ، فعرض لهم رجل من أهل الماء ، فقال : هل فيكم من راق ؟ ، إن في الماء رجلا لديغاً أو سليماً ، فانطلق رجل منهم ، فقرأ بفاتحة الكتاب على شاء ، فبرأ ، فجاء بالشاء إلى أصحابه ، فكرهوا ذلك وقالوا : أخذت على كتاب الله أجراً ، حتى قدموا المدينة ، فقالوا : يا رسول الله ، أخذ على كتاب الله أجراً ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
[إن أحقَّ ما أخذتم عليه أجراً كتاب الله] .

[2] روى الإمام أحمد في مسنده والحاكم في مستدركه عن شداد بن أوس رضي الله عنه قال : كنا عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال : " هل فيكم غريب ؟ " يعني أهل الكتاب . فقلنا : لا يا رسول الله ، فأمر بغلق الباب ، وقال : " ارفعوا أيديكم ، وقولوا : لا إله إلا الله " فرفعنا أيدينا ساعة ، ثم وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده ، ثم قال : " الحمد لله ، اللهم بعثتني بهذه الكلمة ، وأمرتني بها ، ووعدتني عليها الجنة ، وإنك لا تخلف الميعاد " ثم قال : " أبشروا ، فإن الله عز وجل قد غفر لكم .

وكذلك تلقينه لسيدنا علي رضي الله عنه [1]

*- إيضاح :

النبي صلى الله عليه وسلم أوحى الله تعالى إليه علوماً كثيرة لا يعلمها إلا هو ، فهناك علوم أمره بكتمانها ، وهناك علوم أذن له بالإخبار عنها من باب علم النبوة

كما في الحديث عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

[أُذِن لي أن أحدّث عن ملك من ملائكة الله من حملة العرش ، إن ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبع مائة عام] [2]

أما علم الوحي بالشريعة فقد بلّغه النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو مأمور بذلك ، قال تعالى :

{ يا أيها الرسول بلّغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلّغت رسالته }

واعلم أن نبوة الرسول أعظم من رسالته ، لأن النبوة وعلومها متعلقة بالله تعالى ، أما الرسالة فهي متعلقة بالخلق- أي بتبليغ الشريعة - .

ولم يخصّ النبي صلى الله عليه وسلم أحداً من الصحابة الكرام وأهل بيته الطاهرين بعلوم دون غيرهم إلا فهماً يؤتيه الله عبداً في كتابه .

روى الإمام البخاري في صحيحه عن أبي جحيفة رضي الله عنه قال :

قلت لعلي رضي الله عنه :هل عندكم شيء من الوحي إلا ما في كتاب الله ؟

وفي رواية : هل عندكم من النبي صلى الله عليه وسلم شيء سوى القرآن ؟ [3]

قال : لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ، ما أعلمه إلا فهماً يعطيه الله رجلاً في القرآن [4]

فالفهم في كتاب الله في آياته لأن القرآن للكل . اهـ

---

[1] روى الإمام الترمذي والحاكم في مستدركه عن علي رضي الله عنه قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : " " ألا أعلمك كلمات إذا قلتَهن غفر الله لك وإن كنت مغفوراً لك ؟

قال : " " قل : لا إله إلا الله العلي العظيم ، لا إله إلا الله الحليم الكريم ، لا إله إلا الله ، سبحان الله رب العرش العظيم .

[2] سنن أبي داود كتاب السنة

[3] السنن الكبرى للبيهقي

[4] كتاب الجهاد والسير

*- إيضاح :

ابليس ـ أخزاه الله ـ من الجن ، عَبَد الله فترة طويلة بين صفوف الملائكة ، وما يقال : إنه أعلمُ الملائكة ، أو طاووس الملائكة ، فكلام باطل نعم كان عابداً لكن في نفسه شيء من العجب والكبر على غيره لذلك عند امتحانه بالسجود لآدم عليه السلام امتنع وظهر تكبّره فخُتم له بسوء العاقبة والطرد من الرحمة .

*- بيان آية كريمة

قال تعالى : { ملة أبيكم إبراهيم }

الملة هي العقيدة لأن جميع الأنبياء دعوتهم إلى توحيد الله بذاته وصفاته فالعقيدة واحدة ، قال تعالى : { إن الدين عند الله الإسلام }

لكن الشرائع تختلف أحكامها باختلاف الأمم ، قال جل وعلا :

{ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا } الآية

لكن قد يطلق معنى الشرع على العقيدة ويُعرف من سياق الآية :

{ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ }

فالشرع هنا هو العقيدة وتوحيد الله وعدم الشرك

*- بيان حديث شريف

قال صلى الله عليه وسلم : [إنما الأعمال بالنيات] [1]

قالت الحنفية : (الأعمال) هي المقاصد وليست الوسائل التي يُتوصل بها إلى المقاصد ، كالصلاة لا تصح إلا بالنية ، أما الوضوء فيندب له النية ، فإذا اعتبرنا (الأعمال) المقاصد فنقول : إنما صحة الأعمال (المقاصد) بالنية ، وإذا اعتبرنا (الأعمال) الوسائل فنقول : إنما ثواب الأعمال بالنية ، كما لو أردت من وضوئك القربة إلى الله تعالى ونويت ذلك .

*- إيضاح :

(وحدة الوجود) تعني : أن للموجودات موجِداً واحداً ، هي قائمة به ، ليس لها قوام من ذاتها ، وهذا معنى اسم الله تعالى (القيوم)

وفي الحديث : [أنت قيّم السموات والأرض][2]

فبه جل وعلا قامت ، وهو سبحانه أقامَهَا ، وبه قوامها .

---

[1] طرف حديث في صحيح البخاري كتاب بدء الوحي وصحيح مسلم كتاب الإمارة

[2] طرف حديث في صحيح البخاري كتاب الجمعة عن ابن عباس رضي الله عنهما

*- بيان :
جاء في صلاة سيدي عبد السلام بن مشيش[1] :
(وزُجَّ بي في بحار الأحديّة وانشُلني من أوحال التوحيد [2] وأغرقني في عين بحر الوحدة [3] حتى لا أرى ولا أسمع ولا أجد ولا أحسّ إلا بها [4] واجعل الحجاب الأعظم [5] حياة روحي ....)
*- إيضاح :
من يتعامل مع الجن عن طريق السحر لمعرفة ما يضمره الإنسان قد يحصل ذلك ، لأنها أرواح نارية و فعندما يخبئ الإنسان خبيئة قد يعرفها الجن ، وهذا ليس بدخولهم في قلب الآدمي ، ولكن للروح ظل وأثر لهذه الخبيئة يطّلع عليها الجني ويعرف ما تخبئه بشكل إجمالي ، كما لو نظرت إلى رجل وجهه محمرّ فتعرف من هذا الأثر أنه منفعل أو غضبان ولكن لا تعرف التفاصيل .
وهذا كما في الحديث الذي رواه البخاري عندما ادعى اليهودي ابن صائد أنه يوحى إليه قال النبي صلى الله عليه وسلم : " إني قد خبأت لك خبيئاً " - وكان صلى الله عليه وسلم قد أخبأ سورة الدخان - ، قال ابن صياد : هو الدخ ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : " اخسأ ، فلن تعدو قدرك "[6]
ولو كان وحياً لعرف لأن الوحي يكشف الأمور بتفاصيلها .
*- لطيفة :
قالوا الطبيب له فضل فقلت لهم
لولا المعلم ما كانت أطباء
بالطب صحت جسوم الناس من مرض
وبالتعلم أرواح وآراء

[1] سيدي عبد السلام بن مشيش الإدريسي الحسني المتوفى سنة ٦٢٦ هـ رضي الله عنه
[2] يعني : الشرك الأصغر بأنواعه
[3] أي : التوحيد الخالص
[4] أي : اجعلني متحققاً بقولي : لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وهذا آخر مراتب التوحيد كما نص عليه الإمام الغزالي رحمه الله تعالى ، لأن الغفلة عن معانيها هي شرك أصغر عند العارفين
[5] رمز إلى باب الله الأعظم الذي هو الواسطة الكبرى والوسيلة العظمى سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم
(انظر تعليقات مولانا الوالد رضي الله عنه حول هذه الصلاة في أدعية الصباح والمساء)
[6] صحيح البخاري كتاب الجهاد والسير

*- بيان آية كريمة

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ }

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا } ولا يُتصور أن يتقدم الإنسان بين يدي الله لذلك فالمراد : لا تتقدموا بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لكن الله تعالى قرن اسمه سبحانه باسم رسوله تكريماً لرسوله صلى الله عليه وسلم ، لأنه لا يُذكرسبحانه وإلا ويُذكر معه تحقيقاً لقوله تعالى :

{ ورفعنا لك ذكرك }

وقوله سبحانه في الحديث القدسي : [لا أُذكر إلا ذُكرت معي] [١]

أو المراد : لا تقدّموا أمراً بين يدي الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، فالأمر جاء للمؤمنين أن يمشوا وراء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم أوعدهم : واتقوا الله فإنه سميع لما تقولون عليم بما تفعلون

*- إيضاح :

الجنة التي أسكن الله فيها آدم عليه السلام هي ليست من جنان الأرض كما قالت المعتزلة وطائفة من أهل السنة ، وذلك بدليل قوله تعالى مخاطباً آدم عليه السلام :

{ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى }

ثم في حديث الشفاعة عندما يأتون إلى سيدنا آدم عليه السلام في أحد روايات الحديث فيقولون : يا أبانا استفتح لنا الجنة ، فيقول لهم آدم عليه السلام : وهل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم آدم[٢]

فأي جنة هم يسعون إليها وأي جنة هو يريد بذلك ؟

نعم إنها جنة المأوى .

وفي الحديث الذي رواه الشيخان لما احتج آدم وموسى عليهما السلام فقال له موسى : أنت آدم الذي أخرجت ذريتك من الجنة [٣]

فأي جنة يقصد ؟

نعم إنها جنة المأوى .

---

[١] دلائل النبوة للبيهقي واللفظ له ومسند أبي يعلى وصحيح ابن حبان

[٢] طرف حديث في صحيح مسلم كتاب الإيمان عن حذيفة رضي الله عنه

[٣] طرف حديث في صحيح البخاري كتاب التوحيد وصحيح مسلم كتاب القدر

وفي رواية لأبي داود رحمه الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن موسى قال : يا رب أرِنا آدم الذي أخرجنا ونفْسه من الجنة ، فأراه الله آدم فقال : أنت أبونا آدم ؟ فقال له آدم : نعم ، قال : أنت الذي نفخ الله فيك من روحه وعلّمك الأسماء كلها وأمر الملائكة فسجدوا لك ؟ قال : نعم قال : فما حمَلَكَ على أن أخرجْتنا ونفسك من الجنة ؟ [١] .... الحديث

فأي جنة يقصد ؟ نعم إنها جنة المأوى

*- إيضاح :

دليل حشر جميع المخلوقات من حيوانات وحشرات وطيور ، الآية :

{ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ }

والآية : { وإذا الوحوش حشرت }

*- بيان حديث شريف :

قوله صلى الله عليه وسلم :

[وأنا أكرم الأولين والآخرين على الله ، ولا فخر] [٢]

هذا يدلك على أنه صلى الله عليه وسلم أفضل الخلق من آدميين وملائكة وجن ومخلوقات أخرى لا يعلمها إلا الله من المكلفين وغيرهم ، لعموم معنى الأولين والآخرين .

*- بيان حديث شريف :

قوله صلى الله عليه وآله وسلم في صفة الله تعالى :

[حجابه النور ، لو كَشَفَه لأحرقت سُبُحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه] [٣]

السبحات : هي الأنوار المنزّهة التي لا تدرك بالأبصار .

وقوله صلى الله عليه وآله وسلم : [ما انتهى إليه بصره من خلقه]

الضمير في قوله صلى الله عليه وسلم : [بصره] عائد إلى الناظر المخلوق ، لأن بصر الله تعالى لا ينتهي ، وهو محيط بكل شيء ، فكل من أراد النظر إليه تعالى من المخلوقات يحترق أي يفنى ، وجيء بلفظ : [لأحرقت] لمناسبة التجلي النوراني .

---

[١] سنن أبي داود كتاب السنة عن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه

[٢] سنن الترمذي كتاب المناقب عن ابن عباس رضي الله عنهما

[٣] طرف حديث في صحيح مسلم كتاب الإيمان عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه

وقال السيوطي في الدر المنثور :
أخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول وأبو نعيم في الحلية عن ابن عباس قال : تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية { رب أرني أنظر إليك } قال : [قال الله عز وجل : يا موسى إنه لا يراني حي إلا مات ، ولا يابس إلا تدهده ، ولا رطب إلا تفرق ، وإنما يراني أهل الجنة الذين لا تموت أعينهم ولا تبلى أجسادهم] .

*- لطيفة :

اللوح المحفوظ :
وُصف بالمحفوظ لأنه حُفظ من أن يطّلع عليه أحد إلا من أذِن الله له وهو في جبهة إسرافيل عليه السلام ، وإسرافيل نفسه لا يطّلع عليه إلا بما أذن الله له .

*- إيضاح :

النبي قد يعمل بشريعة خاصة أوحاها الله تعالى إليه ، أو أنه يعمل بشريعة رسول الله - أي في زمانه - ، لكنه على وحي من الله من حيث الإخبارات والعلوم الخاصة غير الأحكام .

*- تذكرة :

لم تكن الأمم السابقة مأمورة بالصلاة على أنبيائها من باب الوجوب أو الندب ، بل الصلاة خاصة بهذه الأمة على رسولها صلى الله عليه وسلم بشكل خاص ، وعلى الأنبياء السابقين بشكل عام ، فنحن مأمورون بالصلاة عليهم إذا ذُكروا أو ذُكر أحد منهم ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا ذكر أحدهم قال : صلى الله عليه وسلم [1] ، وقد أمر بذلك فقد روى الإمام عبد الرزاق في مصنفه والبيهقي في الشعب واللفظ له عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم :
[صَلُّوا عَلَى أَنْبِيَاءِ اللَّهِ وَرُسُلِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ بَعَثَهُمْ كَمَا بَعَثَنِي]

---

[1] انظر صحيح البخاري كتاب أحاديث الأنبياء وفيه :
وإنه إبراهيم صلى الله عليه وسلم
وصحيح مسلم كتاب الإيمان وفيه : فيأتون آدم صلى الله عليه وسلم
وانظر مستدرك الحاكم كتاب الطب ومصنف ابن أبي شيبة كتاب الأوائل
وقال الإمام النووي في كتابه الأذكار : أجمعوا على الصلاة على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، وكذلك أجمع من يُعتدّ به على جوازها واستحبابها على سائر الأنبياء والملائكة استقلالاً .

*- لطيفة :
قال بعضهم :
يغطّي بالسماحة كل عيب
وكم عيب يغطيه السخاء
*- لطيفة :
وقال سيدي الفُضيل بن عياض [1] :
ومما زادني شرفاً وتيهاً
وكدت بأخمصي أطأ الثريا
دخولي تحت قولك يا عبادي
وأن صيّرت أحمد لي نبياً
صلى الله عليه وسلم أبداً أبداً
*- لطيفة :
قال الإمام الشافعي رضي الله عنه :
أحب الصالحين ولستُ منهم
لَعلّي أن أنال بهم شفاعة
وأكره مَن بضاعته المعاصي
ولو كنا سواء في البضاعة
*- لطيفة :
اسم الجلالة (الله) غير مشتق ولو كان مشتقاً لتقيّد بمادة الاشتقاق . اهـ
*- لطيفة :
المجير : هو الذي يؤمّن من المخاوف وينجي من المتالف ، قال تعالى :
{ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ }
قال البيضاوي : يغيث من يشاء ويحرسه ، ولا يجار عليه ، ولا يغاث أحد منه ، ولا يُمنع ، وتعديته بـ على لتضمنه معنى النصرة .
*- لطيفة :
سمي (رمضان) بذلك لأنه يرمض الذنوب - أي يحرقها - ، وهو مأخوذ من الرمضاء وهي شدة الحر .

[1] سيدي الفضيل بن عياض بن مسعود التميمي ، شيخ الحرم المكي، من أكابر العباد الصلحاء ، كان ثقة في الحديث، أخذ عنه خلق منهم الامام الشافعي ،
توفي في مكة سنة ١٨٧ ه رضي الله عنه

*- إيضاح :
في صحيح البخاري : (ح) تفيد تحويل السند ، فمثلاً يقول البخاري : حدثنا فلان قال حدثنا فلان ... إلى الزهري - وهو تابعي - فعندما يرد حرف (ح) أي أن هناك سنداً (طريقاً) آخر للحديث ينتهي إلى الزهري أيضاً فحرف (ح) إعادة سند الحديث من طريق آخر ، وهذا تقوية للحديث .

*- تذكرة :
اللهم إني أسألك العفو والعافية في الدين والدنيا والآخرة
العفو : الصفح والتجاوز والمغفرة
العافية : دفاع الله عن العبد ووقايته إياه المكروه والسوء
في الدين : هو أن لا يهينه حتى لا يقع في المخالفات ، وأن يحفظه ويكلأه ولا يكله إلى نفسه .
في الدنيا : هو أن يعافيه من محنها وشدائدها .
والآخرة : هو أن لا يؤاخذه بذنوبه ولا يوبقه بأعماله .

حكم شرعي
منع الحمل :
لا يجوز في حالة خوف الفقر ، أما بنية تربية الأولاد تربية حسنة والحفاظ على دينهم وأخلاقهم والخشية من ذلك ، فلا مانع من منع الحمل حسب الطريقة التي لا تؤدي إلى إيذاء المرأة
وقديماً كان يسميه الفقهاء (العزل)
كما روى البخاري في صحيحه عن جابر رضي الله عنه قال :

كنا نعزل على عهد النبي صلى الله عليه وسلم والقرآن ينزل [١]

وفي رواية لمسلم عن جابر قال : كنا نعزل والقرآن ينزل
زاد إسحق قال سفيان : لو كان شيئاً يُنهى عنه لنهانا عنه القرآن [٢]

وقال الحافظ ابن حجر في الفتح :

وشرَحه ابن دقيق العيد على ما وقع في " العمدة " فقال : استدلال جابر بالتقرير من الله غريب ، ويمكن أن يكون استدل بتقرير الرسول لكنه مشروط بعلمه بذلك . انتهى

---
[١] في كتاب النكاح
[٢] في كتاب النكاح

ويكفي في علمه به قول الصحابي إنه فعله في عهده ، والمسألة مشهورة في الأصول وفي علم الحديث وهي أن الصحابي إذا أضافه إلى زمن النبي صلى الله عليه وسلم كان له حكم الرفع عند الأكثر ، لأن الظاهر أن النبي صلى الله عليه وسلم اطلع على ذلك وأقرّه لتوفر دواعيهم على سؤالهم إياه عن الأحكام ، وإذا لم يضِفه فله حكم الرفع عند قوم ، وهذا من الأول فإن جابراً صرّح بوقوعه في عهده صلى الله عليه وسلم ، وقد وردت عدة طرق تصرح باطلاعه على ذلك .

والذي يظهر لي أن الذي استنبط ذلك سواء كان هو جابراً أو سفيان أراد بنزول القرآن ما يقرأ ، أعم من المتعبد بتلاوته أو غيره مما يوحى إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فكأنه يقول : فعلناه في زمن التشريع ولو كان حراماً لم نُقرّ عليه ، وقد أخرجه مسلم أيضا من طريق أبي الزبير عن جابر قال :

" كنا نعزل على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فبلغ ذلك نبي الله صلى الله عليه وسلم فلم يَنْهَنا "

ومن وجه آخر عن أبي الزبير عن جابر " أن رجلاً أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إن لي جارية وأنا أطوف عليها وأنا أكره أن تحمل ، فقال : [اعزل عنها إن شئت ، فإنه سيأتيها ما قدّر لها] ، فلبث الرجل ثم أتاه فقال : إن الجارية قد حبلت ، قال : [قد أخبرتك]

ووقعت هذه القصة عنده من طريق سفيان بن عيينة بإسناد له آخر إلى جابر وفي آخره " فقال صلى الله عليه وسلم : [أنا عبد الله ورسوله]

وأخرجه أحمد وابن ماجه وابن أبي شيبة بسند آخر على شرط الشيخين بمعناه ، ففي هذه الطرق ما أغنى عن الاستنباط ، فإن في إحداها التصريح باطلاعه صلى الله عليه وسلم ، وفي الأخرى إذنه في ذلك ، وإن كان السياق يشعر بأنه خلاف الأولى . اهـ .

*- بيان آية كريمة :

قال الله تعالى :{ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ } - أي في الحرم - {بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ }
{بإلحاد } : الباء للملابسة ، بظلم : الباء للسببية
الإلحاد : هو الميل عن الاستقامة بسبب الظلم ، والمعنى :
ومن يرد فيه سوءاً ، متلبساً بإلحاد ، بسبب الظلم لنفسه ولغيره .
وقيل المعنى : ومن يرد فيه سوءاً حال كونه ملحداً ظالماً .
واعلم أن الإرادة التي يعزم صاحبها على تنفيذها إذا عجزعنها فهو مؤاخذ عليها داخل الحرم وخارجه ، ولكن الذنب داخل الحرم مضاعف ، لذلك كره بعض العلماء الإقامة في الحرم لمن لا يستطيع تجنب المعاصي والعزم عليها ، لأن الذنب فيه مضاعف ، وإن الحسنة فيه مضاعفة أيضاً . اهـ [1]

---

[1] روى ابن ماجه في سننه عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (صلاة في مسجدي أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام ، وصلاة في المسجد الحرام أفضل من مائة ألف صلاة فيما سواه)
وقال ابن رجب الحنبلي في جامع العلوم والحكم عندما تكلم عن أقوال العلماء فيما لو أصرَّ العبدُ على إرادة ذنب من أعمال الجوارح ، وعزم عليه ، ولم يَظهرْ له أثرٌ في الخارج أصلاً قال :
وفيه قول ثالث : أنَّه لا يُؤاخَذُ بالهمِّ بالمعصية إلاّ بأنْ يهِمَّ بارتكابها في الحَرَم ، كما روى السُّديُّ عن مرَّةَ عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : ما من عبدٍ يهمُّ بخطيئةٍ ، فلم يَعمَلها ، فتكتب عليه ، ولو همَّ بقتل إنسان عندَ البيت ، وهو بِعَدَنِ أَبْيَنَ ، أذاقَهُ الله من عذابٍ أليم ، وقرأ عبدُ الله : { وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ }. خرَّجه الإمام أحمد وغيره . وقد رواه عن السدي شعبةُ وسفيان ، فرفعه شعبة ووقفه سفيان ، والقول قول سفيان في وقفه .
وقال الضَّحَّاك: إنَّ الرجل ليهمُّ بالخطيئة بمكّة ، وهو بأرض أخرى ، فتُكتب عليه ، ولم يعملها ، وقد تقدَّم عن أحمد وإسحاق ما يدلُّ على مثل هذا القول ، وكذا حكاه القاضي أبو يعلي عن أحمد . وروى أحمد في رواية المروذي حديثَ ابنِ مسعودٍ هذا ، ثم قال أحمد يقول : مَنْ يرد فيه بإلحادٍ بظلمٍ ، قال أحمد : لو أنَّ رجلاً بعدنِ أَبْيَنَ همَّ بقتل رجل في الحرم ، هذا قول الله سبحانه : { نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ } ، هكذا قول ابن مسعود رحمه الله . اهـ .
وقال ابن القيم رحمه الله تعالى: ومن خواصه - أي : الحرم - أنه يعاقَب فيه على الهم بالسيئات، وإن لم يفعلها.
قال الله تعالى: (وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ)
فكان ذكر الباء في قوله - بإلحاد - إشارة إلى استحقاق العذاب عند الإرادة، وإن لم تكن جازمة.

*- لطيفة :

عدوى البليد إلى الجليد سريعة
والنار توضع في الرماد فتخمد

*- لطيفة :
الروح كالريح إن مرت على عطِرٍ
طابت وتخبث إن مرت على الجيف

*- لطيفة :
إذا اشتملت على اليأس القلوب
وضاق لما به الصدر الرحيب
وأوطأت المكاره واطمأنت
وأرست في مكامنها الخطوب
ولم تر لانكشاف الضر وجهاً
ولا أغنى بحيلته الأريب
أتاك على قنوط منك غوث

ومن هذا تضاعف مقادير السيئات فيه - الحرم - لا كميّتها، فإن السيئة جزاؤها سيئة، لكن سيئة كبيرة وجزاؤها مثلها، وصغيره جزاؤها مثلها، فالسيئة في حرم الله وبلده وعلى بساطه آكد وأعظم منها في طرف من أطراف الأرض، ولهذا ليس من عصى الملك على بساط ملكه كمن عصاه في الموضع البعيد من داره وبساطه.
هذا فصل النزاع في تضعيف السيئات ، والله أعلم. اهـ. انظر زاد المعاد ٤٧/١
وقد ذهب جماعة من العلماء إلى أنّ السّيّئات تضاعف بمكّة كما تضاعف الحسنات ، وممّن قال ذلك ابن عبّاسٍ وابن مسعودٍ وأحمد بن حنبلٍ ومجاهد رضي الله عنهم ، وغيرهم ، لتعظيم البلد .
وسئل ابن عبّاسٍ رضي الله عنهما عن مقامه بغير مكّة فقال : ما لي ولبلد تضاعف فيه السّيّئات كما تضاعف الحسنات .
فحمل ذلك منه على مضاعفة السّيّئات بالحرم ، ثمّ قيل : تضعيفها كمضاعفة الحسنات بالحرم ، وقيل : بل كخارجه .
ومن أخذ بالعمومات لم يحكم بالمضاعفة قال تعالى : { وَمَن جَاء بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا } .
وقال النّبي صلى الله عليه وسلم : « من همّ بسيّئة فلم يعملها كتبها اللّه عنده حسنةً كاملةً ، فإن هو همّ بها فعملها كتبها اللّه سيّئةً واحدةً » .- كما في صحيح مسلم -
وقال ابن مسعودٍ : ما من بلدٍ يؤاخذ العبد فيه بالهمّ قبل الفعل إلا مكّة وتلا هذه الآية .

يمنّ به اللطيف المستجيب

وكل الحادثات وإن تناهت

فمقرون بها الفرج القريب

*- فائدة :

من كلام شيخنا رضي الله عنه لإذهاب الألم والشفاء من المرض :
اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً
أعوذ بالله من الشيطان الرجيم
بسم الله الرحمن الرحيم
(بسم الله الشافي ، بسم الله الكافي ، بسم الله المعافي ، بسم الله خير الأسماء، بسم الله رب الأرض والسماء ، بسم الله الذي بيده الشفاء ، بسم الله الذي اسمه بركة وشفاء ، بسم الله الذي لا يضر مع اسمه سم ولا داء ،
بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم)

*- بيان آية كريمة :

قوله تعالى مخبراً عن المشركين :
{ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ }
والمعنى : فإنهم لا يعتقدون أنك كاذب ، بل يعرفون أنك صادق فيما جئت به ، وأنك رسول الله حقاً ، ولكنهم جحدوا ذلك ولم يعترفوا به ، والجحود هو الإنكار بعد علم .
وأما الآيات كقوله تعالى :{ فإن كذبوك فقد كُذِّبَتْ رسل من قبلك }
فالمعنى : فإن نسبوا إليك الكذب لتبرير كفرهم وجحودهم فهم في الحقيقة لا يكذّبونك ، ولكنهم ينسبون إليك الكذب تبريراً لكفرهم وإعراضهم كما نسبوا إليك السحر والشعر والجنون والكهانة .
ونظير هذا قوله تعالى :
{ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ }
أي يعرفون أنه - أي القرآن - هو كلام الله حقاً وأنك رسول الله حقاً
{وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ } أي يعلمون أنه حق
ونظير هذا قوله تعالى مخبراً عن آل فرعون :
{ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً } أي أعرضوا وأنكروا الآيات التي جاء بها موسى عليه السلام بعد أن أيقنوا أنها حق من عند الله وما ذلك إلا بسبب ظلمهم وكبرهم وعلوّهم - أي تكبرهم و طغيانهم - وذلك لأنه لا يكفي في الإيمان مجرد العلم والمعرفة ، بل لا بد من الإذعان والاعتراف والتصديق بهذا العلم .

*- حكم شرعي :

وأما استحلال المعاصي فيكفر المؤمن إذا اعتقد أن هذه المعصية حلال ، وذلك لأنه اعتقد بخلاف ما أمر الله تعالى به ، ولذلك فإن عمل الطاعات واجتناب المخالفات أمر يدل على صحة الإيمان وكماله وليس جزءاً منه .

ولو ارتكب المؤمن المعصية وهو يعتقد أنها حرام فيقال عنه : إنه فاسق ، ولا يقال عنه : إنه كافر .

وهو ناقص الإيمان بدليل قوله صلى الله عليه وسلم :

[لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشرب وهو مؤمن ، ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا ينتهب نهبة يرفع الناس إليه فيها أبصارهم حين ينتهبها وهو مؤمن] [1]

وكذلك السارق وشارب الخمر ويقاس عليه سائر المعاصي .

*- حكم شرعي :

روى أبو يعلى في مسنده عن الشعبي عن مسروق قال :

ركب - أي : صعد - عمر منبر النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال :

أيها الناس ما إكثاركم في صداق النساء ، وقد كان رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم وأصحابه إنما الصدقات فيما بينهم أربع مائة درهم فما دون ذلك ؟ ولو كان الإكثار في ذلك تقوى عند اللَّه أو مكرمة لم تسبقوهم إليها ، فلا أعرفن ما زاد رجل في صداق امرأة على أربع مائة

قال : ثم نزل، فاعترضته امرأة من قريش فقالت له : يا أمير المؤمنين، نهيتَ الناس أن يزيدوا النساء في صدقاتهن على أربع مائة درهم؟

قال : نعم، فقالت : أما سمعت ما أنزل اللَّه في القرآن؟

قال : وأي ذلك ؟

فقالت : أما سمعت الله تعالى يقول :

{ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا فَلا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا }

قال : فقال : اللَّهم غفراً ، كل الناس أفقه من عمر

قال : ثم رجع فركب - أي : صعد - المنبر فقال :

أيها الناس إني كنت نهيت أن تزيدوا النساء في صدقهن على أربع مائة درهم، فمن شاء أن يعطي من ماله ما أحب

قال أبو يعلى : وأظنه قال : فمن طابت نفسه فليفعل . اهـ وسنده جيد قوي.

وروي أن عمر رضي الله عنه نهى عن التغالي في المهور أكثر من أربعمائة درهم فلما نزل اعترضته امرأة بقولها :

---

[1] صحيح البخاري كتاب المظالم والغصب عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه

ألم تسمع قول الله تعالى :{وآتيتم إحداهن قنطاراً }
فقال اللهم عفواً ، كل الناس أفقه منك يا عمر ، ثم صعد المنبر وقال :
كنت نهيتكم عن زيادة المهر أكثر من أربعمائة درهم فمن شاء أن يعطي من ماله ما أحب فليفعل .[1]
ولا تفهم من هذا وجوب التغالي في المهور ، فهو جائز ، ولكن هناك فرق كبير بين الإباحة والوجوب ، والأمر والنهي ، إذ إن الاعتبار للدين والخلق كما في الحديث عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
[إذا أتاكم من ترضون خلقه ودينه فزوِّجوه ، إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض] [2]
وجاء في الحديث : [إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه] [3]
وقال ابن عمر رضي الله عنهما :
[ما سمعت عمر لشيء قط يقول : إني لأظنه كذا ، إلا كان كما يظن] [4]
وروى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
[لقد كان فيما قبلكم من الأمم محدّثون]- بفتح الحاء وتشديد الدال المفتوحة
[فإن يك في أمتي أحد فإنه عمر] [5]
أي ومنهم من أمتي ، وعمر رضي الله عنه منهم ، والمحدّث أعلى درجة من المُلهم إذ تحدّثه الملائكة حديثاً قلبياً أو شفهياً عن أمور غيبية .
<u>*- لطيفة :</u>
إن الشباب والفراغ والجِدَة   مفسدة للمرء أي مفسدة
والجدة : كثرة المال

---

[1] انظر مسند أبي يعلى وعزاه السخاوي في المقاصد الحسنة لسنن البيهقي وسنن سعيد بن منصور ومصنف عبد الرزاق
[2] سنن ابن ماجه كتاب النكاح
[3] سنن الترمذي كتاب المناقب
[4] صحيح البخاري كتاب المناقب عن ابن عمر رضي الله عنهما
[5] قال الحافظ ابن حجر في الفتح :
(محدثون) بفتح الدال جمع محدّث ، واختلف في تأويله فقيل : مُلهم ، قاله الأكثر قالوا : المحدث بالفتح هو الرجل الصادق الظن ، وهو من ألقي في روعه شيء من قِبل الملأ الأعلى فيكون كالذي حدّثه غيره به ، وبهذا جزم أبو أحمد العسكري .
وقيل : من يجري الصواب على لسانه من غير قصد
وقيل : مُكلّم أي تكلمه الملائكة بغير نبوة

*- بيان آية كريمة :

قوله تعالى في المطلقات :{ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ } الآية
المعنى : دخلتم بصحبتهن مكاناً مستوراً لقضاء حاجتكم منهن وهي الجماع ، فالباء في قوله تعالى : { بهن } للمصاحبة وليست للتبعيض ،
ولم يقل سبحانه : دخلتم فيهن ، لأن القرآن يترفع عن ذكر الأمور الدنيوية الدنيّة ذكراً مباشراً ، وإنما يأتي على ذكرها إشارة وتعريضاً .
وأما قوله تعالى :{ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً } الآية
ولم يقل :{ في الليل } فالباء في قوله تعالى { بالليل } للإلصاق ، وكأنهم ينفقون أموالهم طيلة الليل والنهار ، ليشير إلى كثرة نفقاتهم وشمولها ، فهم دائماً في إنفاق لأموالهم
{ فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون }

*- بيان حديث شريف :

جاء في الحديث المرفوع :
[لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين ، حتى يدع ما لا بأس به ، حذراً لما به البأس] [1]
وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما :
لا يبلغ العبد حقيقة التقوى حتى يدع ما حاك في الصدر [2]
أي يتجنب المباحات خشية الوقوع في المكروهات والمحرمات ، ولذلك فإن أهل الله رضي الله عنهم ليس عندهم شيء مباح ، وإنما يفعلون المباحات على أنها عبادات وذلك بالنية ، وبالنية الصالحة تنقلب العادات والمباحات إلى عبادات وطاعات ، ومن هنا تفهم قول معاذ رضي الله عنه :
(إني لأحتسب الأجر عند الله تعالى في نومتي كما أحتسب في قومتي) [3]
لأنه يستعين بنومه على القيام والعبادة فصار نومه عبادة بهذه النية .
وكذا أفعالهم في الأكل والشرب واللباس والذهاب والمجيء .
كما قال صلى الله عليه وسلم : [وفي بضع أحدكم صدقة] [4]
أي إذا أتى أهله ونوى بذلك الإحصان وغض البصر وكبح الشهوة فإن فعله هذا عبادة مأجور عليها .

---

[1] سنن ابن ماجه كتاب الزهد وسنن الترمذي كتاب صفة القيامة والرقائق والورع عن الصحابي الجليل عطية السعدي رضي الله عنه
[2] صحيح البخاري كتاب الإيمان
[3] صحيح البخاري كتاب المغازي
[4] طرف حديث رواه الإمام مسلم في صحيحه عن أبي ذر رضي الله تعالى عنه

*- بيان آيات كريمات :

قوله تعالى :{ إنما يستجيب الذين يسمعون }

أي سماع قبول ، لا سماع إدراك بالأذن الجارحة فقط ، لأنهم كلهم كانوا يسمعون القرآن والدعوة من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد قابلهم سبحانه بالموتى فقال :{ والموتى يبعثهم الله ثم إليه يرجعون } .

فالموتى هنا هم الكفار الذين لا يسمعون سماع قبول ، ولو سمعوا سماع قبول لاستجابوا وآمنوا .

ولهذا نظائر كثيرة في القرآن الكريم منها قوله سبحانه :

{ ومنهم من يستمعون إليك } أي سماع أذن فقط

{أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون }

أي ما أنت بمُسمع إياهم سماع قبول وهداية توفيق ، لأنهم أموات القلوب كما قال تعالى :{ إن الله يُسمع من يشاء } سماع فهم

{وما أنت بسمع من في القبور} أي الأموات وهم الكفار ، لأنهم وإن كانوا أحياء الأجسام فهم أموات القلوب والمدارك والحواس ، كما قال سبحانه :

{ صم بكم عمي فهم لا يعقلون } .

ومنها قوله تعالى :

{ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ * وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآَيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ }

وذلك لأن في الاستجابة لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم حياة للقلب والعقل والمدارك والجسم أيضاً ، يقول سبحانه :

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ }

مع أنهم أحياء الأجسام ، لكن في استجابتهم لله ولرسوله حياة لقلوبهم ومداركهم وأرواحهم حياة الأبد .

وأما الأموات عامة فهم يسمعون كلام الأحياء إذا وُجّه إليهم ، وأما الكفار منهم فقد لا يسمعون لأن عذاب القبر شغلهم عن ذلك ، وإذا سمعوا بتسميع الله لهم فيكون ذلك من باب العذاب والحسرة ، نسأل الله العافية .

وذلك كما كانت سنة الرسل إذا أهلك الله أقوامهم ، فقال سبحانه في ثمود قوم صالح عليه السلام :

{ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ } - أي سيدنا صالح عليه السلام بعد أن أهلكهم الله -

{وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ }

فسمعوا كلام سيدنا صالح وهم أموات ليزدادوا حسرة وعذاباً .

وكذلك فعل سيدنا شعيب عليه السلام بقومه وهم أهل مدين كما أخبر سبحانه :
{ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آَسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ }
وقد فعل هذا سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في كفار قريش لما قُتلوا يوم بدر فناداهم بأسمائهم وقال :
أليس قد وجدتم ما وعد ربكم حقاً ؟ - أي من العذاب –
فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقاً - أي من النصر -
فسمع عمر قول النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله كيف يسمعون وأنى يجيبوا وقد جيّفوا - أي صاروا جيفاً - ؟
فقال صلى الله عليه وسلم :
[والذي نفسي بيده ما أنتم بأسْمع لِما أقول منهم ، ولكنهم لا يقدرون أن يجيبوا] [1]
فقد سمعوا كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ليزدادوا ألماً وحسرة .
ولا ينافي هذا قوله تعالى { وما أنت بمسمع من في القبور)
كما قلنا لأن المراد هنا الكفار أحياء الأجسام ، فهم موتى القلوب والمدارك لا يسمعون سماع فهم .
وقد قابلهم سبحانه بالموتى في قوله :{ لتنذر من كان حياً } أي بالقلب والمدارك
{ ويحق القول على الكافرين } فقابلهم بالأحياء فهم كالأموات بل هم الأموات على الحقيقة .
وقال جل وعلا :
{ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ }
مع أنه تعالى سمّى فاقد البصر أعمى لكن الأعمى على الحقيقة وإن كان بصيراً هو أعمى القلب ، والأصم على الحقيقة هو الذي أعرض ولم يستجب لدعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم وإن كان سميعاً بأذنيه ، والحي على الحقيقة هو حي القلب والروح .
أما الكفار فهم صم وبكم وعمي وأموات على الحقيقة بشهادة القرآن ، ولذلك قال تعالى :{ ثم عموا وصموا } أي تعاموا عن رؤية الحق وصموا آذانهم عن سماعه فختم الله على قلوبهم وأسماعهم وأبصارهم ، نسأل الله العافية .
وفي هذا يقول جل وعلا :

---
[1] صحيح مسلم كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها

{ وأما ثمود فهديناهم } أي دللناهم وبينا لهم طريق الشقاء وطريق السعادة { فاستحبوا العمى على الهدى } أي تعاموا وتصاموا عن قبول الهدى فصاروا عمياناً .
وقال تعالى :{ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ } فقابل سبحانه من عرف الحق وآمن به وأذعن له قابله بالأعمى أي أعمى القلب وإن كان بصير العين .
وإنّ مَن عرف الحق وآمن به هو العاقل على الحقيقة ولذلك قال سبحانه :
{ إنما يتذكر أولوا الألباب }
وهم أصحاب العقول الصحيحة السليمة من داء الكبر والعناد .
وقال تعالى :{ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم } أي لمّا مالوا وأعرضوا عن قبول الحق أمال الله قلوبهم فلم تعدْ تهتدي إلى الحق .
وقال سبحانه :{ وقالوا قلوبنا غلف } أي مغلّفة لا يمكن للهدى أن يصل إليها ، فردّ عليهم سبحانه { بل طبع الله عليها بكفرهم} أي ختم عليها وجعل عليها الطابع بسبب كفرهم وإعراضهم ، وهذا كما في قوله جل وعلا :
{ ونُقلّب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة }.
أي كما لم يؤمنوا به أول مرة فلم يستطيعوا الإيمان بعد .
ولهذا قال تعالى :{ يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه }
أي إن أنتم لم تستجيبوا لله ولرسوله فإن الله سيجعل بين أحدكم وبين قلبه حائلاً فإن أراد الإيمان بعد فلا يتمكن من ذلك .
وفي الحديث عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :
(الطابع معلقة بقائمة عرش الله عز وجل ، فإذا انتُهكت الحرمة وعُمل بالمعاصي ، واجترئ على الرب ، بعث الله الطابع فيطبع على قلبه ، فلا يعقل بعد ذلك شيئاً) [1]
فينزل الطابع على المصر على العناد والكفر فيطبع على قلبه ، فلا يستطيع الإيمان بعد ، ويشمل هذا من أصر على المعاصي مستحلاً لها .

---

[1] شعب الإيمان للبيهقي والتوبة لابن أبي الدنيا ومسند البزار وعزاه في كنز العمال للديلمي

روى الإمام أحمد وغيره عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال وهو على المنبر :
ارحموا تُرحموا ، واغفروا يغفر الله لكم ، ويل لأقماع القول ، ويل للمصرّين الذين يصرون على ما فعلوا وهم يعلمون [1]
والطابع - بفتح الباء - : ما يُطبع به الشيء ، وأما الطابع - بكسر الباء - فهو اسم فاعل من طبع ، كالخاتِم : فهو اسم فاعل من ختم ، وأما الخاتم - بفتح الباء - فهو ما يُختم به الشيء ، قال تعالى :
{ ختم الله على قلوبهم } الآية
وكذا قوله تعالى :{ ولكن خاتم النبيين } هناك قراءتان بالفتح والكسر ، أي ختم الله به الرسالات فهو صلى الله عليه وسلم خاتمها وبه اختتمت ، على قراءة خاتم بالفتح ، وأما على قراءة خاتم - بالكسر - أي جعله الله خاتماً لها فهو آخر الأنبياء .
وكذا عالِم وعالَم ، أما العالِم فهو العارف بالشيء المدرك له ، وأما العالم بالفتح فهو ما يُعلم به الشيء ، والعالَم يعرف به خالقه وهو الله تعالى .
وخلاصة القول : أن الكفار المعرضين هم كما وصفهم سبحانه :
{ صم بكم عمي فهم لا يعقلون }
وهم كالأنعام بل هم أضل ، وإن كانت لهم عقول فهي عقول كالتي عند البهائم والأنعام ، مقتصرة على تحصيل المأكل والمشرب والشهوات والملذات ، ولو رأيت أسباب الترف والبطر مهيأة لهم فهذا من باب استدراجهم وإهلاكهم ، قال تعالى :
{ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً }
وقال سبحانه :
{ والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام }
وإن مخترعاتهم ومصنوعاتهم التي تعود بالضرر والفساد على الإنسان والكون حوله ستكون سبب هلاكهم ودمارهم وقيام الساعة عليهم .
قال سبحانه :
{وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ}
وقال تعالى : { فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ } . اهـ

[1] المسند ٦٣٤٩ والبخاري في الأدب المفرد

*- تذكرة :

اعلم أن الشرائع الإلهية جاءت لإصلاح الدنيا والآخرة وعمارة الدنيا والآخرة ، فلقد تعهّد الله تعالى الإنسان منذ أن أهبطه إلى الأرض بالهدي قال جل وعلا :

{ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى * وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى }

وأجمعُ الشرائع التي جاءت لعمارة الدنيا والآخرة هي الشريعة المحمدية صلى الله عليه وسلم ، واعلم أن أمر الله التكويني هو فعله ، وأمره التشريعي التكليفي هو أمره ونهيه .

فلقد خلق الله تعالى الإنسان وسائر الأكوان بأمر تكويني ، ثم أمَرَ هذا الإنسان بإصلاح مجتمعه بأمر تكليفي تشريعي ، فلا تتم سعادة الإنسان إلا بإقامة شريعة الله تعالى ، فبها يصلح الفرد والمجتمع وتقوم العلاقة الطيبة بين بني البشر .

أما عمارة الدنيا والانصراف إليها والإعراض عن الآخرة فهو أمر مذموم شرعاً ، وهو صفة الكافرين لا المؤمنين .

قال تعالى :

{ إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ * أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ }

إذ إن الواجب على المؤمن أن يعمل في دنياه مبتغياً بذلك الدار الآخرة قال تعالى :{ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ }

وأن تكون نيته في عمله نفع العباد والبلاد ، فيصبح بذلك عمله عبادة وقربة إلى الله تعالى ، أما إذا عمل للدنيا من أجل الدنيا وجعلها غاية مقصودة لِذاتها ، وابتغى الكثرة فيها ، فقد اتصف بصفة الكافرين الجاحدين للآخرة الذين ذكرهم الله تعالى مخبراً عن قول سيدنا هود عليه السلام لقومه :

{ وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون }

فإقامة السدود والمصانع بشكل يشغل الإنسان عن الآخرة أمر ذميم .

وقد نهى الله سبحانه في تلك الآية قوم سيدنا هود عليه السلام - وهم عاد - نهاهم عن محبة الدنيا والركون إليها ونسيان الآخرة ، إذ كانت أعمارهم طويلة فراحوا يتخذون السدود لتخزين الماء وكأنهم سيعيشون الأبد ونسوا الآخرة ولم يحسبوا لها حساباً .

فمن أقام مصنعاً أو معملاً وراح يتوسع فيه على وجه كأنه سيخلد في الدنيا فهذا دليل نقص كبير في إيمانه ، وقد يخرج عن الإيمان إذا تمادى في ذلك ونوى الكثرة في ماله وعرضه وقصوره ومركوباته حباً في المال لذات المال لا لإنفاقه في وجوه الخير .
فالعمل في الدنيا وتعاطي أسبابها ومخترعاتها على وجه يشغل الإنسان عن الآخرة هو أمر محرّم، وأما إذا تعاطاها وعمل فيها قاصداً بذلك نفع نفسه ونفع المسلمين فتصير بذلك دنياه لآخرته ويصيرعمله في الدنيا عبادة .
ولما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن عمرو يصلح جداراً في بيته بالطين قال له : [ما هذا يا عبد الله] ؟
فقال : يا رسول الله شيء أُصلحه
فقال صلى الله عليه وسلم : [الأمر أسرع من ذلك] [1]
وفي رواية : [ما أرى الأمر إلا أعجل من ذلك] [2]
أي أن أمر الدنيا مؤقت سينقضي فلا تشغل نفسك وتضيع وقتك فيما سيفنى
وروى ابن ماجه والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول :
[الدنيا ملعونة ، ملعون ما فيها ، إلا ذكر الله ، وما والاه ، أو عالماً ، أو متعلماً] [3]
أي إلا عابداً يذكر الله تعالى ، أو عالماً يعلّم الناس ، ومتعلّماً منه ، وبقية الناس همج لا خير فيهم ، لأنهم متكالبون على الدنيا متمسكون بها معرضون عن الآخرة .
وقد بيّن الشارع صلى الله عليه وسلم أن الغنى ليس عن كثرة العرَض - أي المال والمتاع - فقال :
[ليس الغنى عن كثرة العرَض ، ولكن الغنى غنى النفس] [4]
أما الغني في اصطلاح الشرع فهو : الذي ملك نصاب الزكاة أو أكثر ، وقد تجد غنياً كثير المال لكنه فقير النفس ، تراه يجري وراء الدرهم ، ويحرص عليه حرص الفقير العديم ، فهو كثير المال فقير النفس شحيح بخيل .

---

[1] سنن أبي داود كتاب الأدب واللفظ له وصحيح ابن حبان كتاب الجنائز
[2] سنن أبي داود كتاب الأدب وسنن الترمذي وابن ماجه كلاهما في كتاب الزهد
[3] في سننهما في كتاب الزهد
[4] صحيح البخاري كتاب الرقاق وصحيح مسلم كتاب الزكاة

وقد تجد رجلاً قليل المال ولكنه سخي النفس سليم الصدر جواد كريم ، يجود بما أعطاه الله وأنعم عليه ، ولا يبخل بذلك ، فهو الغني على الحقيقة وإن كان قليل المال .

أما ذلك الذي أعطاه الله مالاً فبخل به وأمسك ، بل ربما بخل على نفسه وعلى عياله وعلى غيره ، وجعل غايته التكاثر في المال والحرص عليه فقط فهذا جاحد لنعمة الله عليه ، وهو بعيد من الله ، بعيد من الجنة ، بعيد من الناس ، قريب من النار كما ورد في الحديث [١]

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : [إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده] [٢]

وقد ذم الله تعالى هؤلاء الأغنياء البخلاء فقال جل وعلا :

{ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا }

وفي الحديث : [ولَجاهل سخي أحب إلى الله من عابدٍ بخيل] [٣]

والجاهل هنا هو الذي ارتكب المعاصي بجهالة عملية ، بدليل مقابلته بالعابد الذي عكف على عبادة الله تعالى .

لكن صفة السخاء في هذا الجاهل تشفع له وتمحو تلك الخطايا ، لأنها صفة يحبها الله تعالى ويرتضيها لعباده .

روى أبو نعيم وغيره عن عمار بن ياسر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : [السخاء خُلُق الله الأعظم] [٤]

أي الخُلُق الأعظم الذي يرتضيه الله لعباده

وفي الحديث : [ما جُبل ولي لله عز وجل إلا على السخاء وحسن الخُلق] [٥]

كما أن صفة البخل في هذا العابد قد أبطلت كثيراً من عباداته وطاعاته لأنها صفة ذميمة يبغضها الله تعالى .

قال صلى الله عليه وسلم :

[والبخيل بعيد من الله بعيد من الجنة بعيد من الناس قريب من النار] [٦]

---

[١] انظره في سنن الترمذي كتاب البر والصلة عن أبي هريرة رضي الله عنه

[٢] سنن الترمذي كتاب الأدب

[٣] سنن الترمذي كتاب البر والصلة وشعب الإيمان للبيهقي

[٤] انظره في أخبار أصبهان لأبي نعيم وعزاه المنذري في الترغيب لأبي الشيخ ابن حبان في كتاب الثواب وعزاه في كنز العمال لابن النجار

[٥] عزاه في كنز العمال للديلمي عن السيدة عائشة رضي الله تعالى عنها

[٦] تقدم تخريجه

وروى الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
[ليس الشديد بالصرعة] - بضم الصاد وفتح الراء -
[إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب] [1]
أي من اتصف بكظم الغيظ والحلم والعفو عند المقدرة فهو الشديد في عُرف الشارع ، وهو الشديد على الحقيقة ، وليس الشديد الذي يغلب غيره بالصرعة .
فتلك الموازين والمعايير للصفات والأخلاق الإنسانية جاء الشارع صلى الله عليه وسلم يعدّلها ، ويبيّن حقائقها وصالحها من طالحها ، وهذا المعنى من أوله إلى آخره يرجع إلى موقفه صلى الله عليه وسلم في تزكية النفوس .
قال سبحانه : { ويزكيكم } أي يزكي نفوسكم من الشرك والكفر أولاً ، ثم من الأمراض النفسية ليحلّيها بالأخلاق الفاضلة المليحة وهكذا ، مما يرقى بكم في الدرجات والمقامات العالية صلى الله عليه وسلم . اهـ .
*- بيان آية كريمة :
قوله سبحانه :{ فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء }
أي فيغفر سبحانه لمن يشاء على مقتضى حكمته سبحانه وعدله ، لأن المشيئة تابعة للحكمة ، وليس من الحكمة أن يغفر سبحانه للمشرك ، وقد بيّن ذلك سبحانه بقوله :
{ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ }
فهو سبحانه يغفر للمستغفرين التائبين ، أي وقد يغفر للعاصي وإن لم يتب ، وذلك بسبب عمل عَمِلَه هذا العاصي ، وله عند الله وزنه ومكانته ، فيغفر الله له بسببه ، وهكذا في العذاب ، ومن ذلك ما أخبر صلى الله عليه وسلم عن مغفرته سبحانه للرجل الذي سقى كلباً يلهث من شدة العطش قال :
[فشكر الله له فغفر له] [2]
ومن ذلك ما رواه الشيخان عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
[عُذِّبت امرأة في هرّة سجنتها حتى ماتت ، فدخلت فيها النار ، لا هي أطعمتها ولا سقتها إذ حبستها ولا هي تركتها تأكل من خَشاش الأرض] [3]
وخشاش الأرض هوامّها وحشراتها من فأرة ونحوها .

[1] صحيح البخاري كتاب الأدب وصحيح مسلم كتاب البر والصلة والآداب
[2] طرف حديث في صحيح البخاري كتاب المساقاة وصحيح مسلم كتاب السلام
[3] صحيح البخاري كتاب أحاديث الأنبياء وصحيح مسلم كتاب السلام

أما قوله تعالى :{ لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون } أي لا يسأل عما يفعل سبحانه سؤال اعتراض ، ولكن يسأل سؤال استفسار عن الحكمة ،
وهو مذهب العارفين ، بخلاف مذهب المتكلمين، ولهذا شواهد كثيرة منها سؤال الملائكة كما أخبر سبحانه عنهم :
{ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ }
و بين لهم سبحانه حكمة ذلك بقوله :
{ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ } الآيات
وكذلك سؤال بعض الأمم أنبيائها كما أخبر سبحانه عنهم :
{ وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ }
فجاء الجواب من الحق سبحانه يبين حكمة ذلك
{قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآَخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى } الآيات .
وسؤالهم يكون بواسطة نبيهم ، ويأتي الجواب بواسطة نبيهم عن طريق الوحي كما أخبر سبحانه عنهم في آية أخرى :
{ قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ }
فأفعاله سبحانه كلها مبنية على حكمته سبحانه
{ لا يُسأل عما يفعل } لأن أفعاله تكون بعلمه وحكمته جل وعلا ،
وقد يُسأل سبحانه سؤال استفسار عن الحكمة .
{ وهم يُسألون } عن أفعالهم وأقوالهم ويُحاسبون عليها .
وأما قوله تعالى :
{ قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ * مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ * مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ * ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ * ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ }
وهذه أمور يعاينها الإنسان ويشهدها
{ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ } وهذا أمر لم يحصل بعد وهو الحشر ليوم الفصل
ولذلك قال سبحانه :{إذا شاء} أي لمّا يشاء ، وهذا لا يعلم حينه وكيفيته إلا الله لأن (إذا) لِما يستقبل من الزمان [1]
والمعنى : ثم لما يشاء الله ينشره ويحشره ويبعثه .
فالمشيئة هنا تنفيذية ، وهي تنفيذ ما شاء في الأزل ، ونظير هذا قوله تعالى :{ وهو على جمعهم إذا يشاء قدير }

---

[1] كقولك إذا جئتني أكرمتك أي لما تأتيني أكرمك ، أما إذ فهي ظرفية للماضي كقوله تعالى :{ وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني ..} الآيات .

والحال أنه لابد من جمعهم وحشرهم كما أخبر سبحانه .
فالمشيئة هنا للتنفيذ كما في قوله تعالى :{ وما تشاءون إلا أن يشاء الله }
أي يشاء تنفيذ ما شاء في الأزل .
قوله تعالى :{ كلا لمّا يقض ما أمره } تقول : (زيد لم يأت) تنفي حضوره ، وتقول : (زيد لما يأت) أي لم يأت بعد ولكنه سيأتي .
{ لمّا } في الآية بمعنى لمْ ، أي : كلا لم يقض ما أمره ، لأنه لا يمكن للإنسان أن يقضي ما فاته من أوامر الله تعالى في الآخرة لأنها دار جزاء لا دار تكليف فبعد أن ينشره الله ويحشره - وهو الكافر - لا يمكنه أن يقضي ما أمره الله به من أوامر ، لا يمكنه أن يقضي ذلك في الآخرة
فجاءت { لما } في الآية بمعنى (لم) وهذا نادراً ما يأتي في اللغة العربية
*- إيضاح :
الحق عند علماء الفقه لا يتعدد ، وهو عند الله تعالى واحد ، والمجتهد يعتقد أنه هو المصيب وغيره مخطئ ، ولذلك يذكر علماء الفقه في كتبهم :
(مذهبنا هو الصواب ويحتمل الخطأ ، ومذهب غيرنا هو الخطأ ويحتمل الصواب)
وعندهم هذا ما يجب على المقلد أن يعتقده - وهذا كلام غير مسلّم -
وعرّفوا الحق أنه نهاية اجتهاد المجتهد .
أما المعتزلة فقالوا : الحق متعدد من كل جهة ، فهو على صواب ، وغاية اجتهاده هو الحق .
والتحقيق في المسألة ما ذكره العارفون :
أن الحق واحد ولكن له وجوه متعددة ، كنبع ماء يجري في جداول متعددة ، وذلك لأن النص الذي يُجتهد فيه يدل على ذلك كقوله تعالى :
{ فامسحوا برؤوسكم }
فقد تكون الباء للإلصاق وقد تكون للتبعيض ، وكلّ منهما صحيح وحق ، وتؤيد اللغة هذه المعاني وهناك الأدلة على ذلك .
ولما قال صلى الله عليه وسلم للصحابة :
[لا يصلينّ أحد العصر إلا في بني قريظة] [1]
هناك من الصحابة من اجتهد في ظاهر النص ولم يصلّ إلا في بني قريظة ، حتى ولو بعد غروب الشمس ، وهناك من الصحابة من اجتهد في علّة النص - وهي الاستعجال - فصلّوا في الطريق ،

[1] انظر صحيح البخاري كتاب الجمعة وصحيح مسلم كتاب الجهاد والسير

وفهموا من النص التعجل في السير ، ولما ذكروا ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم أقرّ هؤلاء وهؤلاء ولم يقل لأحد منهم : أنت المصيب وذلك المخطأ .
هذا فيما يتعلق بالأحكام الشرعية ، أما في أصول العقيدة فالحق واحد لا يتعدد ، وأما الخلاف بين علماء التوحيد فليس خلافاً جوهرياً في أصل الاعتقاد ، ولكنه خلاف فرعي في أسلوب الاعتقاد وفي بعض المسائل فقط . اهـ

*- بيان آية كريمة :

قوله تعالى : { العزيز الحكيم }
العزة تقتضي الترفع عن الغير والغلبة عليه ، كما في قوله تعالى مخبراً عن أحد الخصمين الذين تخاصما إلى سيدنا داود عليه السلام :
(وعزّني في الخطاب) أي غلبني في الخطاب .
فاقتران اسم الحكيم بالعزيز لأن الحكمة لابد لتنفيذها من قوة وقدرة وغلبة ، أي فهو القادر على تنفيذ حكمته سبحانه ، قال جل وعلا :
{ والله غالب على أمره} أي على تنفيذ ما أراد سبحانه .
وقد قام صلى الله عليه وسلم مرة طيلة الليل يقرأ بهذه الآية :
{ إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم } [1]
وهذا ما ذكره الله سبحانه مخبراً عن عيسى عليه السلام قوله .
وقال تعالى مخبراًعن سيدنا إبراهيم عليه السلام قوله :
{ فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم }
أما عيسى عليه السلام فقد دعا متأسياً ومتأدباً بآداب الملائكة من حملة العرش والملأ الأعلى [2] كما أخبر سبحانه عنهم :
{ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ * رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}
وأما الخليل عليه السلام فقد طرق باب الرجاء والرحمة فقال :
{فمن تبعني فإنه مني } - أي من ملتي .

---

[1] الحديث في سنن النسائي كتاب الافتتاح وسنن ابن ماجه كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها

[2] واعلم أن عيسى عليه السلام قد رفعه الله إلى السماء الثانية بجسمه وروحه - انظر صحيح البخاري كتاب بدء الخلق - وهو حي ، ومن المناسب أن يدعو بما دعَتْ وتدعو به الملائكة عليهم السلام .

{ومن عصاني فإنك غفور رحيم } أي بأن يؤمن ويتوب وتغفر له بقدرتك ورحمتك .
ولقد جمع الحبيب الأعظم صلى الله عليه وسلم كمال الأدب ، أدب عيسى وأدب إبراهيم عليهما السلام ، ودعا بالآيتين لأمته صلى الله عليه وسلم .
كما روى الإمام مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم تلا قول الله عز وجل في إبراهيم :
{ رب إنهن أضللن كثيرا من الناس فمن تبعني فإنه مني } الآية
وقول عيسى عليه السلام :
{ إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم }
فرفع يديه وقال : [اللهم أمتي أمتي] ، وبكى ، فقال الله عز وجل :
[يا جبريل اذهب إلى محمد - وربك أعلم - فسله ما يبكيك] ؟
فأتاه جبريل عليه السلام فسأله ، فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قال - وهو أعلم - فقال الله :
[يا جبريل اذهب إلى محمد فقل : إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك] [1] . اهـ

*- تذكرة :
قال سيدنا علي كرم الله وجهه :
(قصم ظهري رجلان : عالم متهتّك وجاهل متنسّك) [2]- أي عابد - .
ونظيره ما قاله الإمام الشافعي رضي الله عنه :
ما جادلت عالماً إلا غلبتُه ، ولا جاهلاً إلا غلبني .
والعالم المتهتّك هو الذي طلب العلم وتعلَّمه ولكنه فقد التقوى والخشية من الله تعالى ، فتراه يظن نفسه أنه على شيء ، والحال أنه لم ينتفع بعلمه إذ إن العالم الذي لا خشية من الله عنده ليس بعالم .
وكذلك العابد الجاهل فقد تصدر منه أفعال وأقوال لا يرتضيها الشارع ويظن في نفسه أنها من الصالحات . اهـ .
*- حكم فقهي :
نص الفقهاء على أنه يجب على المرأة ستر جسدها كله واختلفوا في الوجه والكفين والقدمين .
والحق أنه يجب عليها ستر الوجه مع أنه ليس بعورة إذا خشيت الفتنة .

---
[1] صحيح مسلم كتاب الإيمان
[2] انظر فيض القدير للمناوي

أما ظاهر الكف والقدم فيجب ستره عند بعض الفقهاء ،
وبعضهم جوّز كشفه .
والأخذ بالأحوط عند الفتنة أولى .
ولو لم يكن ستر الوجه واجباً على المرأة فما وجه الإباحة للخاطب أن ينظر إلى وجهها مرة أو أكثر كما نص عليه الفقهاء ؟ !
إذ لو أبيح لها كشف الوجه على إطلاقه لنظر إليها الخاطب متى شاء وكيف شاء .
وهناك دليل قاطع للشيخ الإمام حول ذلك يدور بين الآيتين
{ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ }
{ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا }
وإليك بيانه :
ففي الآية الأولى يقول الله تبارك وتعالى في حق نساء النبي صلى الله عليه وسلم :

{ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ }

اعلم أن الحجاب ما يحصل به الستر ، وهو في الآية كل ما يحجب المرأة بالكلية بحيث لا يبدو بعض منها ، فإذا كانت إحداهن في بيتها وسألها سائل أمراً ما فعليها أن تكلمه من وراء حجاب ، ويتحقق هذا بأن تكلمه من وراء الباب أو وراء القِرام - وهو الستر الرقيق وراء الستر الغليظ - أو الجدار ونحوه مما لا يرى السائل منها شيئاً ، بل يسمع صوتها فقط ، وعليها أيضاً أن لا ترقّق صوتها أو تعمد إلى النعومة فيه لئلا يطمع الذي في قلبه مرض الشهوة المفرطة أن يرى وجه صاحبة ذلك الصوت ، ومن ثم يرى جسمها ويمتد أمره إلى ما وراء ذلك من الحرام

وأما إذا كانت إحداهن خارج بيتها لأمر أباح لها الشارع أن تخرج من أجله فعليها أن تتحقق بأمره تعالى { مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ } ويتحقق ذلك بأن ترتدي الحجاب الذي يحجبها كلية سوى عينها اليسرى مثلاً لترى طريقها ، والحجاب هنا هو الجلباب[1] المشار إليه بقوله تعالى :

{ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ }

وقوله جل وعلا : { وليضربن بخمرهن على جيوبهن }

والخمار هو الغطاء الساتر ، أي أن تتجلجب بالجلباب فتحجب جسدها كله ، وأن يكون فضفاضاً واسعاً لئلا يلتصق بجسمها فيشكّل أبعاضها ويجسّم أطرافها .

ومعنى { يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ } أي يقرّبنه من نحورهن ووجوههن ، ولا يرمينه خلف ظهورهن كما كانت عليه نساء الجاهلية ، وإذا قرّبت المرأة على صدرها الجلباب الواسع ، وأسدلته على جسمها ، ولم يظهر من جسمها شيء فقد تحققت بقوله تعالى :

{ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ }

ومن زعم أن هذا الحكم خاص بنساء النبي باعتبار أن الآيات جاءت في سياق الآداب الواجبة على المؤمنين تجاه زوجات سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث يقول تعالى :

---

[1] قال في تاج العروس :
الجلباب كسرداب وهو يذكر ويؤنث : القميص مطلقاً ، وخصّه بعضهم بالمشتمل على البدن كله وفسره الجوهري بالملحفة اهـ ٣٦١/١
وهذا يوافق ما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أبو داود في سننه عن أم سلمة قالت لما نزلت{ يدنين عليهن من جلابيبهن }خرج نساء الأنصار كأن على رءوسهن الغربان من الأكسية .

{ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا } أي لنساء النبي { فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ } فيقال له : إن زعمك باطل لا دليل عليه ، بل الدليل قائم على أن الحكم عام لنساء النبي وبناته ونساء المؤمنين كلهن بدليل قوله تعالى :

{ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ } وإذا أردت أن تفهم معنى { يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ } أي يتحققن بقوله تعالى {وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ } أي حجاب حاجب لجسد المرأة كلها فهل أنه سبحانه يأمر زوجات النبي صلى الله عليه وسلم في سورة الأحزاب بالحجاب الكامل ثم في آخر السورة يخرجهن من الحكم ؟ !!

كلا ، لأن في هذا ضرباً لآيات الله ببعضها .

فلقد أمر الله بنات النبي صلى الله عليه وسلم ونساء المؤمنين كلهن بما أمر به نساء النبي صلى الله عليه وسلم بدليل قوله تعالى :

{ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ } - اللواتي قال سبحانه في حقهن في الآية المتقدمة : { وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ } -

{وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ } أي حال خروجهن من بيوتهن ، بأن يحتجبن بالحجاب المجلجب لجسد المرأة كلها ليتحقق معنى الحجاب في قوله تعالى :

{ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ } وقد تقدم تفصيله . . اهـ .

*- الإيثار من شعب الإيمان

فَهم بعض العلماء من قوله صلى الله عليه وسلم :
[لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه] [1]
فهم وجوب إيثار غيره من المؤمنين على نفسه ، وذلك لأن كل مؤمن يحب لنفسه أن يكون أحسن الناس ، والحديث ينص :
[حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه]

[1] صحيح البخاري ومسلم كلاهما في كتاب الإيمان عن أنس بن مالك رضي الله عنه

فيجب أن يحب لأخيه المؤمن أن يكون أحسن الناس وهكذا .
ولذلك امتدح الله الأنصار بقوله :
{ ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة } الآية . اهـ .

*- العقل والنقل :

اعلم أن نصوص الآيات والأحاديث الصحيحة جاءت للتدبر والتفكر والتعقل ، قال تعالى :{ إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون } وغيرها من الآيات ، فالعقل الصحيح - الذي تَحرّر من أسر الشهوات والآراء والإعجاب - إذا تعقّل وتفكّر في نصوص الكتاب والسنة يجدها أنها جاءت بأمور معقولة مقبولة .
ألا ترى إلى الصحابي الجليل العلاء بن الحضرمي رضي الله عنه لما أرسله سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المنذر بن ساوى فقال له - أي : للمنذر - :
(لستَ بعديم عقل ولا رأي ، فانظر هل ينبغي لمن لا يكذب أن لا تصدّقه ، ولمن لا يخون أن لا تَأْمنه ، ولمن لا يُخلِف أن لا تثق به ؟ !
فإن كان هذا هكذا ، فهو هذا النبي الأمي الذي والله لا يستطيع ذو عقل أن يقول : ليت ما أمر به نهى عنه ، أو ما نهى عنه أمر به ، أو ليت زاد في عفوه أو نقص من عقابه) [1]
أما إذا تعارض العقل والنقل فيدل على نقص في العقل أو قصور في التعقل أو أن العقل أسير للآراء والشهوات ، لأن النقل صحيح لا محالة لأن الله تعالى يقول في القرآن :{ أنزله بعلمه }
وأحاديثه صلى الله عليه وسلم هي بوحي من الله تعالى ، فما على العقل إلا أن يتخلص من أسر الشهوات والآراء ، ويتعقل في نصوص الكتاب والسنة بتجرّد عن الأهواء ، فيراها أنها معقولة مقبولة صدرت عن عليم حكيم خبير سبحانه وتعالى .
ولذلك قالوا :
(إن العقل الصحيح والنقل الثابت كفرسي رهان) [2]

---

[1] انظر الروض الأنف للسهيلي ٣٩٠/٤ ومفتاح دار السعادة ٧٤/٢

[2] قال في القاموس المحيط : ١٠٢/٢
" هما كفرسي رهان " يضرب لاثنين يستبقان إلى غاية فيستويان ، وهذا التشبيه في الابتداء، لأن النهاية تُجلي عن السابق لا محالة . اهـ
قلت : والمراد أن النقل مقدم على العقل ، والعقل السليم كان يقْبل ما ثبت من النقل

وقد يخفى على العقل بعض حِكم الله في تشريعه وأحكامه ، وقد يظهر له بعضها ، وذلك لأن حكمة الله في شرعه حكمة عالية صدرت عمن لا يتناهى ، فكيف بالعقل المحدود المقيّد المتناهي أن يحيط بحكمة من لا يتناهى في علمه وحكمته وسائر صفاته سبحانه ؟ !
وقد يفهم العقل وجوهاً في الحكمة وقد تخفى عنه وجوه وهكذا . . اهـ .

*- بيان حديث شريف :
جاء في الحديث قوله صلى الله عليه وسلم لسيدنا معاذ بن جبل رضي الله عنه :
[من لقي الله لا يشرك به شيئاً دخل الجنة ، قال : ألا أبشّر الناس ؟
قال : لا ، إني أخاف أن يتَّكلوا] [1]
وكلمة (يتكلوا ويتوكلوا) [2] بنفس المعنى من قولك : (توكَّل واتَّكل)
- والمعنى : إذاً يتّكلوا - أي يعتمدوا على قول لا إله إلا الله ويتركوا العمل بمقتضاها - .
إذ إن معنى (لا إله إلا الله) : (لا معبود بحق إلا الله) ، وهذا يتطلب من قائلها عبادة الله تعالى ، فربما يسمع المرء هذا الحديث ويقتصر على قول : (لا إله إلا الله) ولا يعمل بمقتضاها ، ويكون بذلك مخالفاً لأمر الله ورسوله ويكون قد توكل على قوله : (لا إله إلا الله) فقط دون العمل .
وقد أمر الشارع بالعمل والتوكل في هذا العمل على الله تعالى ،
ألا ترى إلى قول النبي صلى الله عليه وسلم : [اعقلها وتوكل] [3]
وقوله تعالى :{ فإذا عزمت } أي على فعل أمر { فتوكل على الله } أي امض في تنفيذ ذلك العمل متوكلاً على الله حتى يسهّله الله عليك .
والتوكل على الله تعالى لا ينافي تعاطي الأسباب لقوله صلى الله عليه وسلم [لو أنكم تتوكلون على الله حق توكّله لرزَقكم كما يرزق الطير ، تغدو خماصاً وتروح بطاناً] [4] أي تسعى في طلب قوتها .

---

[1] صحيح البخاري كتاب العلم واللفظ له وصحيح مسلم كتاب الإيمان
[2] (اتَّكل) قد تكون بمعنى (توكَّلَ) ، وقد تأتي بمعنى (وَكَلَ) ، وهذا يفهم من السياق
[3] صحيح ابن حبان كتاب الرقائق ونص الحديث :
قال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم : أُرسل ناقتي وأتوكل ؟ فقال : اعقلها وتوكل
[4] مسند الإمام أحمد وسنن ابن ماجه كتاب الزهد

أما الذين ورد في حقهم أنهم يدخلون الجنة بغير حساب - وهم الذين لا يستَرْقون ولا يتطيرون ولا يكتوون وعلى ربهم يتوكلون [١] - فهم لا يقومون بهذه الأعمال فقط ، بل بغيرها أيضاً ، وإنما خُصّت هذه الأعمال بالذكر لزيادة الاعتناء بها ، وهذه رتبة خاصة في التوكل على الله لأن قوة توكلهم على الله تعالى هي عين الأخذ بالسبب ، ولا يعني هذا أنهم لا يعملون ولا يأكلون ولا يشربون ولا يقومون إلا بهذه الأعمال التي جاء ذكرها في الحديث فقط .
وروى الطبراني في الأوسط والصغير بإسناد حسن عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
[لو فرّ أحدكم من رزقه لأدركه كما يدركه الموت].
وروى الإمام أحمد وغيره عن أبي ذر رضي الله عنه قال :
جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يتلو علي هذه الآية
{ ومن يتق الله يجعل له مخرجاً }
حتى فرغ من الآية ، ثم قال : يا أبا ذر لو أن الناس كلهم أخذوا بها لَكَفتهم ، قال : فجعل صلى الله عليه وسلم يتلو بها ويرددها علي حتى نعستُ] [٢]
واعلم أن رواية : (لا يرقون) - في وصف من يدخلون الجنة بغير حساب - هي عند الإمام مسلم فقط [٣] ، أما رواية : (لا يسترقون) أي لا يطلبون الرقيا من غيرهم فهي رواية البخاري وهي الأسلم لأن رواية لا يرقون تخالف ما هو أصح منه .
وقد ثبت أنه صلى الله عليه وسلم كان يرقي نفسه بالمعوذات وغيرها [٤].. اهـ .

<u>*- بيان آية كريمة :</u>

الفطرة

الفَطر هو : الشقّ واستخراج الشيء من الشيء ، فقوله تعالى :
{ الله فاطر السموات والأرض }
أي الذي شقّ ظلمة العدم واستخرجهما - أي أوجدهما - .

---

[١] انظره في صحيح البخاري كتاب الطب وصحيح مسلم كتاب الإيمان
[٢] مستدرك الحاكم كتاب التفسير وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرّجاه
[٣] صحيح مسلم كتاب الإيمان
[٤]روى الإمام البخاري في صحيحه في كتاب المغازي عن أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا اشتكى نفث على نفسه بالمعوذات ومسح عنه بيده . اهـ .
وللتوسع انظر كتاب الدعاء لمولانا الإمام رضي الله عنه

وقد فطر الله جميع المخلوقات على معرفته وتوحيده سبحانه ،
قال تعالى :{ وإن من شيء إلا يسبّح بحمده }
وقال تعالى :{ فطرة الله التي فطر الناس عليها }
فما هي هذه الفطرة ؟
هي أن الله تعالى خلق الناس على معرفته وتوحيده جل وعلا .
{ ذلك الدين القيم لا تبديل لخلق الله } أي لا تبدّلوا خلق الله والفطرة التي فطر الناس عليها - { ولكن أكثر الناس لا يعلمون } الآية
وقد جاء البيان المحمدي صلى الله عليه وسلم يبين معنى ذلك بقوله صلى الله عليه وسلم في الحديث المتفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال :
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
[ما من مولود إلا يولد على الفطرة]
- أي على معرفة الله وتوحيده كما تقدم -
[فأبواه يهوّدانه ، وينصّرانه ، كما تنتجون البهيمة ، هل تجدون فيها من جدعاء ، حتى تكونوا أنتم تجدعونها] ؟
- أي تجدعونها بشرط أذنها حتى تتميز عن غيرها ولكنها ولدت من بطن أمها جمعاء الخلقة ليس فيها عيب -
قالوا : يا رسول الله : أفرأيت من يموت وهو صغير ؟
قال : [الله أعلم بما كانوا عاملين] [1]
فبيّن صلى الله عليه وسلم أن كل مولود يولد على توحيد الله أي على شهادة (لا إله إلا الله) ، فتأتي شياطين الإنس والجن فتزيّن له فيغير دينه وإيمانه
ولما سئل صلى الله عليه وسلم عن المولود الذي يموت صغيراً قبل سن التكليف أين مصيره ؟
لأنهم فهموا أنه ما دام على الفطرة والتوحيد فهو إن مات فإلى الجنة ، فقال صلى الله عليه وسلم : [الله أعلم بما كانوا عاملين]
أي إن عاشوا وكبروا فالله أعلم بأعمالهم ، والحال أنهم ماتوا صغاراً ولم يعملوا ولم يظهر كفرهم وإيمانهم ، مما يدل على أنه تعالى سيجمعهم في برزخ من برازخ الآخرة ويبعث فيهم رسولاً ويكلّفهم ، ثم يكون الجزاء على موجب عمل كل منهم .
ويؤيد هذا المعنى قوله صلى الله عليه وسلم :
[إن الغلام الذي قتله الخضر طبع كافراً ، ولو عاش لأرهق أبويه طغياناً وكفراً] [1]

---

[1] صحيح البخاري ومسلم كلاهما في كتاب القدر

والحال أنه ما عاش ولم يظهر كفره بعد ، إذاً لابد أن يظهر كفره عندما يكلفه الله في الآخرة ، وهذا الكلام في أولاد الكفار فقط ، أما أولاد المؤمنين فسيلحق الله تعالى الأبناء بالآباء تفضلاً منه على عباده المؤمنين ، قال تعالى { وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ } الآية وإن لعلماء الكلام أقوالاً متعددة في ذلك فقد قال الأشاعرة :

إن أهل الفترة والأولاد الصغار وإن ماتوا فهم من أهل الجنة . اهـ .

وغاب عنهم الحديث السابق

واعلم أن الله تعالى يعطي كل مستعد استعداده ، وكل قابل قابليته ، فلما خلق الله الناس خلقهم جميعاً على الفطرة الإيمانية ، ثم بلغوا سن التكليف وكفر من كفر ، وآمن من آمن ، فقد أعطى كل مستعد استعداده فيما بقي من عمره وهناك من قال : إن كل الصغار إن ماتوا صغاراً فلا بد أن تظهر أعمالهم ويحاسَبوا عليها ، وذلك بتكليف في برزخ من برازخ الآخرة .

ومما يؤيد هذا المعنى الحديث الذي رواه مسلم عن السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت : دُعي رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جنازة صبي من الأنصار ، فقلت : يا رسول الله طوبى لهذا ، عصفور من عصافير الجنة لم يعمل السوء ولم يُدركه ، قال : [أو غير ذلك يا عائشة ، إن الله خلق للجنة أهلاً ، خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم ، وخلق للنار أهلاً ، خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم][2]

ويُفهم من هذا الحديث أن لابد للصغار من تكليف في برزخ من برازخ الآخرة ويكون الثواب والعقاب على حسب أعمالهم .

كما قال صلى الله عليه وسلم :

[الله أعلم بما كانوا عاملين]

فلا يؤاخذهم الله بعلمه بهم لو عاشوا ، بل لابد أن يظهر عملهم ، والحال أنه لم يظهر لأنهم ماتوا صغاراً ، فلابد من عالَم آخر يبعث الله فيهم رسولاً ويكلفهم ، وتكون النتيجة على حسب أعمالهم ، قال تعالى :

{ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً }

وهذا ما عليه كثير من المحدثين كالإمام أحمد وغيره . . اهـ .

<u>*- وصفه صلى الله عليه وسلم بالسيادة :</u>

استحب الفقهاء - علاوة عن المحدثين - أن يُذكر صلى الله عليه وسلم بلفظ السيادة (سيدنا محمد) في الصلاة الإبراهيمية وغيرها.

---

[1] صحيح مسلم كتاب القدر

[2] في كتاب القدر وصحيح ابن حبان كتاب التاريخ

ولمَ لا وقد قال صلى الله عليه وسلم :
[أنا سيد ولد آدم] [1] فقلنا له : يا سيدنا
ألا ترى لما قال صلى الله عليه وسلم : [أنا رسول الله] [2]
قلنا له وخاطبناه بقولنا : يا رسول الله .
ولما أخبر صلى الله عليه وسلم أنه نبي الله وقال : [أنا نبي الله] [3]
قال له الصحابة وخاطبوه بقولهم : يا نبي الله
وكذلك أنه حبيب الله وأكرم الأولين والآخرين على الله وغيرها مما أخبر عنه صلى الله عليه وسلم من خصائصه ، وكذلك قال صلى الله عليه وسلم : (أنا سيد ولد آدم) فوجب علينا أن نقول : يا سيدنا ، لأننا كلنا ولد آدم عليه السلام فافهم وتعقّل ، ولا تقل : بدعة ، وانظر تفصيل ذلك في موضعه .
وأما ما رواه الأصبهاني [4] أن رجلاً قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله ، أنت سيدنا
وفي رواية قال : يا سيدنا
فنهاه صلى الله عليه وسلم وقال : السيد هو الله .
فرواية هذا الحديث ضعيفة لأنها خالفت ما هو أصح منها فيما يتعلق بهذا المعنى ، وتُحمل على أنه صلى الله عليه وسلم آنس من هذا الرجل السيادة المطلقة ، وهذه لا تكون إلا لله تعالى فنهاه صلى الله عليه وسلم عن ذلك حتى يصح إيمانه بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، لأنه صلى الله عليه وسلم نهى عن أمور كثيرة في بدء الدعوة حتى يتمكن الإيمان الصحيح والتوحيد الخالص في قلوب الصحابة ، فلما آنس منهم ذلك أباح ما قد نهاه .
ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم :
[كنت قد نهيتكم عن زيارة القبور ، أَلَا فزوروها] [5]
وقوله عليه الصلاة والسلام : [ونهيتكم عن الانتباذ]
- وهو نقع عصير الفواكه بحيث لا يصير خمراً – [فانتبذوا] [6]
ومنها قوله صلى الله عليه وسلم : [إنه لا يُستغاث بي] [7]

---

[1] طرف حديث في صحيح مسلم كتاب الفضائل
[2] طرف حديث في صحيح البخاري كتاب الصلح وصحيح ابن حبان كتاب السير
[3] طرف حديث في مسند الإمام أحمد ١٦٦٨٩
[4] في معرفة الصحابة
[5] مستدرك الحاكم كتاب الجنائز وأصله في صحيح مسلم كتاب الجنائز
[6] موطأ مالك كتاب الضحايا
[7] عزاه في كنز العمال للطبراني عن عبادة بن الصامت

مع أنه صلى الله عليه وسلم أمر بإغاثة الملهوف ، وفي حديث الشفاعة الذي رواه الإمام البخاري :
[استغاثوا بآدم ثم بموسى ثم بمحمد صلى الله عليه وسلم] [١]
أما السيد بالسيادة المطلقة - وهي سيادة الألوهية - فهو الله وحده ، والخلق كلهم عبيد له سبحانه ، ولم يَرِد في دعائه صلى الله عليه وسلم قوله عن الله تعالى : (يا سيدنا) ، بل ورد هذا بطريق الخبر (السيد هو الله) أي بالسيادة المطلقة كما تقدم ، فافهم ، ولا تحتج بهذا الحديث على فهمك الخاطئ إذ إن الفهم الصحيح لابد له من رد الآيات والأحاديث إلى بعضها البعض وفهمها جملة واحدة ، قال تعالى مخبراً عن نبيه يحيى عليه السلام :
{وسيداً وحصوراً ونبياً من الصالحين }
وصح عنه صلى الله عليه وسلم قوله :
[إن ابني هذا سيد][٢] يريد الحسن رضي الله عنه
وقال صلى الله عليه وسلم للأنصار :
[قوموا إلى سيدكم] - يريد سعد بن معاذ رضي الله عنه [٣]
وإن أقواله وأعماله صلى الله عليه وسلم دائماً هي من شرع الله الذي يجب أن نتبعه . اهـ .
*- <u>فائدة لغوية :</u>
قولنا : (ضعف و ضعفين) - بكسر الضاد - هو تكرار الشيء مرة ، ولكن هناك فرق بينهما إليك بيانه :
إذا قلت : أعطه أجره ضعفين ، فهو كقولك : أعطه أجره ضعفاً - أي أجره وفوق أجره مرة .
ولكن إذا جاءت كلمة ضعفين مضافة فيكون معناها مرتين فوق الأصل كقولك أعطه ضعفي أُجرته ، أي أُجرته ومرتين فوقها .
ومنه الحديث : اللهم اجعل بالمدينة ضعفي ما جعلت بمكة من البركة [٤]
وأما الآية :
{ يا نساء النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين }
ليست مضافة أي يضاعف لها العذاب مرة فوق العذاب ، وهي بنفس معنى (ضعف) لأنها ليست مضافة وهكذا . . اهـ .

---

[١] في صحيحه في كتاب الزكاة
[٢] صحيح البخاري كتاب الصلح
[٣] صحيح البخاري كتاب المغازي
[٤] صحيح البخاري كتاب الحج عن سيدنا أنس رضي الله عنه

*- تذكرة :
التكبر والعلو هما صفتان من صفات الله تعالى ، ويحق له سبحانه أن يتصف بهما ويمدح نفسه بهما كما في الحديث القدسي
[أنا المتكبر أنا المتعالي] [1]
لأن كمالاته ذاتية له سبحانه ليست مُكتسبة من غيره .
أما العبد إذا تكبر وتعالى فقد افتخر بما عنده ولكن الذي عنده ليس ذاتياً له ، بل هو بنعمته وفضله سبحانه عليه ، فيجب عليه أن يثني ويمدح من أنعم عليه وأعطاه ، ولا يشتغل بمدح نفسه والتعالي على غيره .
وما هلك إبليس إلا لمّا تكبر وأُعجب بنفسه وعبادته ، قال تعالى :
{ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ } الآية .
وقد ذم الله تعالى أولئك الذين يريدون علواً في الأرض واستكباراً فقال تعالى في فرعون :
{ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ}
وامتدح سبحانه أهل التواضع والانكسار فقال تعالى في آخر سورة القصص
{ تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين }
فهم لا يريدون علواً في الأرض ، بل يريدون علواً في السماء وأن يكونوا في علّيّين .
فلما تواضعوا لله تعالى وتواضعوا لخلق الله المؤمنين رفع الله شأنهم وأعلى ذكرهم ، فكما لا تنبت الحبة وتظهر أغصانها وثمارها إلا إذا دفنْتها بالأرض فكذلك لا يكون لك شأن ووزن في الآخرة إلا إذا دفنت نفسك في أرض الخمول ، وتعهّدتها بالتواضع والانكسار ، فعندئذ يظهرها الله تعالى ويلقي محبة هذا العبد في قلوب الخلائق كلها كما جاء في الحديث الذي رواه الشيخان عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
[إن الله إذا أحب عبداً دعا جبريل فقال : إني أحب فلاناً فأحِبَّه ، قال : فيحبه جبريل ، ثم ينادي في السماء فيقول : إن الله يحب فلاناً فأحبّوه ، فيحبه أهل السماء ، قال : ثم يُوضع له القبول في الأرض] [1]

[1] جاء في مسند الإمام أحمد (٥٣٥١) قوله صلى الله عليه وسلم : يقول الله :
[أنا الجبار أنا المتكبر أنا الملك أنا المتعالي ، يمجّد نفسه] . .... الحديث

وقد ذكر الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي رضي الله عنه أنه زار مرة جبل قاف - وهو جبل في عالم الأرواح تجمتع فيه أرواح الأولياء ، وليس بين اسمه وبين الآية { ق والقرآن المجيد } أية مناسبة أو ارتباط -
فسألتْه الحية المحيطة بهذا الجبل - وهي ملك عظيم من ملائكة الله تعالى - كيف حال أبي مدين ؟ - وهو من شيوخ الشيخ الأكبر -
فقال لها : ومن أين لك معرفة بأبي مدين [٢]؟
فقالت :إذا أحب الله عبداً جعل محبته في الماء ، فكل من شرب الماء سَرَت محبة ذلك العبد في قلبه - وكل الخلائق لا غنى لها عن الماء - . . اهـ .

*- إيضاح :

قال أحد المريدين :
أدخلني شيخي في سبعمائة عالم ضمن هذا العالم
- ومن جملة ذلك عالم الأرواح وعالم المنام وهكذا -
ولا تنكر ذلك لأن قوله تعالى :{ الحمد لله رب العالمين } دل على كثرة العوالم ، وأنه لا يعلم عددها وحصرها إلا الله تعالى الذي هو ربها أي : خالقها ومُمِدّها .
وقد قال بعض العارفين : هناك مائتا ألف قنديل معلّقة بالعرش ، وإن السماوات والأرض والجنة والنار في قنديل من هذه القناديل . اهـ
نعم لقد أشار بهذا إلى قوله صلى الله عليه وسلم عن شهداء أحد :
[لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم في جوف طير خضر ، تَرِد أنهار الجنة ، تأكل من ثمارها ، وتأوي إلى قناديل من ذهب معلقة في ظل العرش] [٣]
وما سمي الشهيد شهيداً إلا لأنه يشهد ويشاهد مالا يشاهده غيره ، فيُطلعه الله على عوالم وعوالم ، وبهذا تزداد معرفته بالله تعالى ، ويزداد تلذذاً ونعيماً ، إذ إن الذي قتل في سبيل الله قد بذل نفسه وخرج بها من هذا العالم فأكرمه الله بالجنة وبالاطلاع على عوالم لا يعلمها إلا الله جل وعلا . . اهـ

[١] صحيح مسلم كتاب البر والصلة والآداب واللفظ له وصحيح البخاري كتاب بدء الخلق .
[٢] هو سيدي أبو مدين الأندلسي الزاهد العارف شيخ أهل المغرب شعيب بن الحسين ، سكن تلمسان ، وكان من أهل العمل والاجتهاد ، منقطع النظير في العبادة والنسك ، بعيد الصيت ويسميه الشيخ محي الدين بن عربي بـ (شيخ الشيوخ)
توفي رضي الله عنه سنة ٥٩٤ هـ
[٣] طرف حديث في سنن أبي داود كتاب الجهاد ومستدرك الحاكم كتاب الجهاد

*- بيان حديث شريف :
ومما يدل على أن هناك من الصالحين الأكابر مَن يرى الله تعالى في عالم البرزخ ما رواه الترمذي وابن حبان واللفظ له عن جابر بن عبد الله بن حرام رضي الله عنهما قال :
لقيني النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال لي :
[يا جابر ، ما لي أراك منكسراً] ؟
فقلت : يا رسول الله ، استشهد أبي ، وترك عيالاً ودَيناً ، فقال :
[ألا أبشّرك بما لقي الله به أباك] ؟
قلت : بلى ، يا رسول الله
قال : [ما كلّم الله أحداً قط إلا من وراء حجاب ، وإن الله أحيا أباك فكلمه كفاحاً] - أي دون حجاب - [فقال : يا عبدي ، تَمَنَّ أُعطِك ، قال : تحييني فأقتل قتلة ثانية ، قال الله : إني قضيت أنهم لا يرجعون] ، ونزلت هذه الآية { ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون }[1]

ورؤي سيدي سفيان الثوري [2] بعد وفاته في النوم فسئل: ما فعل بك ربك؟
فقال:
نظرت إلى ربي كفاحاً فقال لي هنيئاً رضائي عنك يا بن سعيد
فقد كنت قوّاماً إذا أقبل الدُّجى بعبرة مشتاق وقلب عميد
فدونك فاختر أي قصر أردته وزرني فإني منك غير بعيد
وروى الطبراني وغيره عن سلمان الفارسي رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :
[من توضأ في بيته فأحسن الوضوء ، ثم أتى المسجد ، فهو زائر الله ، وحق على المَزُور أن يكرم الزائر] [3] . اهـ .
*- إيضاح :
ورد في الحديث الذي رواه الإمام أحمد وغيره عن معاذ بن جبل رضي الله عنه أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول :
[يدخل أهل الجنةِ الجنةَ جُرداً مُرداً مكحّلين بني ثلاثين أو ثلاث وثلاثين][1]

[1] صحيح ابن حبان كتاب إخباره صلى الله عليه وسلم عن مناقب الصحابة وسنن الترمذي كتاب تفسير القرآن
[2] سيدي سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري، من بني ثور بن عبد مناة من مضر، أبو عبد الله ، أمير المؤمنين في الحديث ، كان سيد أهل زمانه في علوم الدين والتقوى وتوفي رضي الله عنه سنة ١٦١ هـ
[3] المعجم الكبير للطبراني ومصنف ابن أبي شيبة

والأجرد الذي لا شعر له في جسده ، وضده : الأشعر .
والأمرد هو الذي لا شعر في لحيته ، مكحّل العينين بصبغة نورانية جنانية .
وعوراتهم مستورة بالستر النوراني ، ويلبسون اللباس للزينة كما دلت عليه الآيات وهكذا ، لسانهم لسان العربية [٢].
وقد صح عن بعضهم أن لسان آدم عليه السلام كان عربياً [٣].
والعرب منهم العرب العرباء ، ومنهم العرب المستعربة .
فالعرب العرباء هم المنحدرون من ذرية آدم عليه السلام مروراً بنوح عليه السلام وأبوهم سام كما جاء في الحديث عن سمرة بن جندب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : [سام أبو العرب] [٤] ، ومنهم قوم عاد وثمود وغيرهم .
ولما نزلت إحدى القبائل العربية مكة ورأوا إسماعيل عليه السلام عند ماء زمزم قدّموا لأمه الطعام على أن تعطيهم الماء ، فنشأ إسماعيل عليه السلام بينهم ، وتعلّم العربية منهم ، فكان من العرب المستعربة لأن أباه إبراهيم عليه السلام كانت لغته الفارسية القديمة الأصلية ، وكذا إسحاق ويعقوب ، ثم نشأت العبرانية في الأنبياء بعدهم كالأسباط إلى موسى عليه السلام .
وقد كانت اللغة العربية لغة وحشية غليظة ، فيها الألفاظ الشاقة والصعبة النطق بها فما زالت تتهذب إلى أن نزل القرآن الكريم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ونهض بها إلى أوج التهذيب والبلاغة والفصاحة . . اهـ

---

[١] المسند ٢١٥٢٨ وسنن الترمذي كتاب صفة الجنة
[٢] روى الطبراني في الأوسط واللفظ له والحاكم في المستدرك والبيهقي في الشعب عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم : أَحِبُّوا الْعَرَبَ لِثَلاثٍ : لأَنِّي عَرَبِيٌّ، وَالْقُرْآنُ عَرَبِيٌّ، وَلِسَانُ أَهْلِ الْجَنَّةِ عَرَبِيٌّ "
[٣] قال العلامة الزرقاني في شرحه على المواهب : ٢٩٦/٥
قال العلامة المحدث أحمد المتبولي: دلّت الأحاديث على أن لسان آدم الذي علمه الله له، وتكلّم به عربي، وعلّمه اثنين وسبعين، أو ثمانين لسانًا، لكنه لم يتكلّم إلا بالعربية، فلمَّا أكل من الشجرة تكلم بالسريانية، ثم رد الله إليه العربية لما تاب الله عليه واجتباه، واستمرَّ الناس عليها إلى أن تبلبلت ألسنتهم بعد الطوفان . اهـ .
[٤] سنن الترمذي كتاب تفسير القرآن ومسند الإمام أحمد ١٩٢٤٠

*- إيضاح :
قوله تعالى : { وإنك لتُلقّى القرآن من لدن حكيم عليم }
ولم يقل جل وعلا : (وإنك لتسمع القرآن) ، لأن نزول القرآن كان بواسطة جبريل عليه السلام ، إذ يتلقاه جبريل من الله تعالى مباشرة وينزل به إلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يأخذه جبريل عن اللوح المحفوظ كما هو عليه المتكلمون بدليل الآية السابقة . اهـ .
*- بيان حديث شريف :
قال صلى الله عليه وسلم : [إن القرآن أُنزل على سبعة أحرف] [1]
اختلف العلماء في قوله صلى الله عليه وسلم :
[على سبعة أحرف] على أربعين قولاً .
والجمع بين هذه الأقوال والتحقيق فيها أن المراد على سبعة وجوه في قراءة الكلمة مثل القلب والتسهيل والتخفيف والإمالة وغيرها [2]
وذلك أن رد اختلاف القراءات يرجع إلى سبعة أصول في قراءة الكلمة ، والحرف هو الطرف ، قال تعالى { ومن الناس من يعبد الله على حرف } أي طرف ، فقد يُطلق الحرف على طرف الكلمة ، ويكون المراد منه الحرف الذي تتألف منه الكلمة وهي حروف الهجاء .
وقد يطلق الحرف ويراد منه الكلمة على اعتبار أنها طرف الآية
والحديث الذي يؤيد هذا المعنى قوله صلى الله عليه وسلم :
[من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها ، لا أقول الم حرف - أي بل كلمة - ، ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف] [3]
وهنا أطلق اسم الحرف وأراد الحرف لأن اللام مثلاً هي اسم للحرف ، وأما حقيقة الحرف فهي (ل) .
وفي الحديث : [أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك : فاتحة الكتاب ، وخواتيم سورة البقرة ، لن تقرأ بحرف منهما] - أي بكلمة –
[إلا أعطيته] - أي في الأجر والثواب [4] . اهـ

---

[1] طرف حديث في صحيح البخاري كتاب فضائل القرآن وصحيح مسلم كتاب صلاة المسافرين وقصرها عن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه
[2] وللتوسع انظر ما كتبه الإمام ابن الجزري في كتابه : (التمهيد في علم التجويد)
[3] سنن الترمذي كتاب فضائل القرآن عن عبد الله بن مسعود
[4] طرف حديث في صحيح مسلم كتاب صلاة المسافرين وقصرها عن ابن عباس رضي الله عنهما

*- <u>لطيفة :</u>
يقال :
آمن به : صدق به
آمن له : صدق به وأذعن له، وفيه تضمين لفعل الانقياد والإذعان
ومنه قوله تعالى :{ فآمن له لوط }
وما جاء في الآيتين : { آمنتم له قبل أن آذن لكم }
{ وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين }. اهـ .
*- <u>بيان حديث شريف :</u>
قوله صلى الله عليه وسلم :
[من رأى منكم منكراً فليغيّره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان] [1]
فقوله صلى الله عليه وسلم : [فليغيره بيده] : أي إذا لم يؤد هذا التغير إلى ما هو أنكر من المنكر الذي رآه ، كأن يعرّض نفسه للتهلكة أو يُشيع فتنة ونحو هذا .
واعلم أن المستطيع على تغيير منكر بيده أو بلسانه أفضل من غير المستطيع الذي اكتفى بقلبه فقط ، إلا إذا نوى هذا الأخير أنه لو كان باستطاعته لفعل ، فعندئذ يُؤجر بنيّته .
وأما إذا اكتفى برد المنكر بقلبه فقط دون نية منه على تغييره إن استطاع ، فهذا أضعف الإيمان - أي العملي - لأنه لم يستطع تغيير المنكر بيده أو بلسانه .
وأما إذا نوى بقلبه أنه لو استطاع لغيّره فهو والمستطيع في الأجر سواء ويخرج من قوله صلى الله عليه وسلم : [وذلك أضعف الإيمان]
وفي الحديث عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
[المؤمن القوي ، خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفي كلٍّ خير] [2] الحديث
إلا إذا نوى الضعيف أنه لو كان قوياً لَفَعل الخيرات وسعى في نفع الناس فهو وذاك في الأجر سواء وفي الخيرية سواء ، يدل على هذا ما جاء في الحديث :

---
[1] صحيح مسلم كتاب الإيمان
[2] صحيح مسلم كتاب القدر

[إنما الدنيا لأربعة نفر ، عبد رزقه الله مالاً وعلماً فهو يتقي فيه ربه ، ويصِلِ فيه رحِمَه ، ويعلم لله فيه حقاً ، فهذا بأفضل المنازل ، وعبد رزقه الله علماً ولم يرزقه مالاً فهو صادق النية يقول : لو أن لي مالاً لعملت بعمل فلان فهو بنيّته فأجرهما سواء] [1] الحديث

ولا ينافي هذا ما ورد في الحديث الذي شكا فيه فقراء المهاجرين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم لا يجدون ما يتصدقون به وقالوا :

ذهب أهل الدُّثور [2] بالدرجات العلى ، والنعيم المقيم ،

فقال صلى الله عليه وسلم : [وما ذاك] ؟

قالوا : يصلّون كما نصلي ، ويصومون كما نصوم ، ويتصدقون ولا نتصدق ، ويُعتقون ولا نعتق .

فقال صلى الله عليه وسلم : [أفلا أعلّمكم شيئاً تدركون به من سبقكم وتسبقون به من بعدكم ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من صنع مثل ما صنعتم ؟

قالوا : بلى ، يا رسول الله

قال : [تسبّحون وتكبّرون وتحمدون دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين مرة]

قال أبو صالح [3] : فرجع فقراء المهاجرين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا ، ففعلوا مثله ،

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : [ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء] [4]

فظاهر الحديث أن الأغنياء سبقوا الفقراء بالأجور ولا يمكن للفقراء اللحوق بهم ، إلا أن الحديث السابق [فهو بنيته فأجرهما سواء] يدل على أن الفقراء إذا نووا فعل الخيرات والتصدق بأموالهم إن كانوا أغنياء فلهم أجر الأغنياء الذين تصدقوا ، وهذا يُفهم من رد الأحاديث إلى بعضها .

ألا ترى أنه صلى الله عليه وسلم لما عاد من غزوة تبوك قال لمن معه من أصحابه :

[إن بالمدينة أقواماً ، ما سرتم مسيراً ، ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم] ،

قالوا : يا رسول الله ، وهم بالمدينة ؟

قال : [وهم بالمدينة ، حبسهم العذر] [5]

---

[1] سنن الترمذي كتاب الزهد ومسند الإمام أحمد ١٧٦٩٠ عن أبي كبشة الأنماري رضي الله عنه

[2] الدثور بضم الدال جمع دثر بفتحها ، وهو المال الكثير

[3] أحد رواة الحديث

[4] صحيح مسلم كتاب المساجد ومواضع الصلاة

[5] صحيح البخاري كتاب المغازي

والمعنى : كانوا معنا بِنيّتهم ، وأنتم وهم في الأجر سواء جملة وتفصيلاً
أما قوله تعالى في غزوة أحد :
{ لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضّل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين }- أي لعذر - {درجة وكلاً وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين }- أي بدون عذر - {أجراً عظيماً * درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفوراً رحيماً }
فهذه حالة خاصة في هذه الوقعة ، إذ إن القاعدين من أولي الضرر هم والمجاهدون في الأجر سواء ، أما القاعدون لعذر قد يزول لاحقاً فقد فضّل الله المجاهدين عليهم درجة وإن نوَوا .
وأما القاعدون بغير عذر فقد فضل الله المجاهدين عليهم درجات كبيرة وأجراً عظيماً ، يدل على ذلك أن الآية لما نزلت لم يكن فيها قوله تعالى { غير أولي الضرر } وكان ابن أم مكتوم رضي الله عنه جالساً - وهو ضرير - فلما سمعها من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
يا رسول الله ، لو أستطيع الجهاد لجاهدت
فنزل جبريل عليه السلام [1] فوراً بالآية { غير أولي الضرر } فَتَلاها عليهم صلى الله عليه وسلم ، وأمر الصحابة بكتابتها في موضعها [2]
مما يدل على أنه صلى الله عليه وسلم كان يأمر كُتّاب الوحي بكتابة الآيات فور نزولها تحقيقاً لقوله تعالى :
{ رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة }. اهـ .
*- إيضاح
يقول الإمام مالك :
(العلم و المعرفة يُثمران الخبرة) .
العلم والمعرفة كلمتان بنفس المعنى وهي إدراك الشيء .
وقد فرّق بعض علماء اللغة بينهما بأن العلم يكون بعد جهل وأنه يكون بالكليات وأما المعرفة فبالجزئيات .

---

[1] روى الإمام البخاري في صحيحه عن البراء قال :
لما نزلت{ لا يستوي القاعدون من المؤمنين }
قال النبي صلى الله عليه وسلم ادعوا فلاناً ، فجاءه ومعه الدواة واللوح أو الكتف فقال : اكتب{ لا يستوي القاعدون من المؤمنين } { والمجاهدون في سبيل الله }وخلْف النبي صلى الله عليه وسلم ابن أم مكتوم فقال : يا رسول الله أنا ضرير فنزلت مكانها { لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله }.
[2] انظره في صحيح البخاري كتاب تفسير القرآن

وليس لهذا التفريق صحة إذ إن القرآن الكريم لم يفرّق بينهما قال تعالى :
{ الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم }
وقال تعالى مخبراً عن سيدنا موسى عليه السلام لما خاطب فرعون فقال :
{ لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر }
وإن كلاً من كفار أهل الكتاب المذكورين في الآية وفرعون يعلمون أنه لا إله إلا الله ، وأن الرسل جاءت بالحق من عند الله تعالى ، فمرة قال سبحانه { يعرفونه } ومرة قال :{ لقد علمت }
وكل منهما أنكر وجحد الحق بعد علم ومعرفة منه بأنه حق
ولقد اصطلح أهل الله تعالى على إطلاق لفظة (المعرفة) على العلوم المتعلقة بالله تعالى وبصفاته وكمالاته ، وهو علم الإيمان والتوحيد ، ولهم دليل في ذلك وهو ما ورد في الحديث أنه صلى الله عليه وسلم لما بعث معاذ بن جبل رضي الله عنه إلى اليمن والياً عليها قال له :
[إنك تقدم على قوم أهل كتاب ، فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله ، فإذا عرفوا الله ،- وفي رواية : فإن هم أطاعوا لذلك - فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم] [1] ... الحديث
ومن أدلتهم على ذلك ما جاء في الحديث الذي رواه الطبراني في معجمه الكبير [2] عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :
[لكل شيء معدن ، ومعدن التقوى قلوب العارفين]
وأطلقوا لفظة العلم على العلوم المتعلقة بالأحكام الشرعية .
فيقال : (العارف بالله تعالى) أي الذي حوى علوماً متعلقة بالله تعالى وصفاته وكمالاته ، ولا بأس أن تقول : (العالم بالله) لأن القرآن لم يفرّق بينهما ، لقوله تعالى :
{ فاعلم أنه لا إله إلا الله }
وقوله تعالى :{ وقل رب زدني علماً } - أي بك
وما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في قوله تعالى :
{ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون } أي ليعرفون [3]
فهذا يعني : فإذا عرفوني عبدوني .

---

[1] طرف حديث في صحيح البخاري كتاب الزكاة وصحيح مسلم كتاب الإيمان
[2] ورواه الشهاب القضاعي في مسنده وأبو نعيم في الأربعين على مذهب المتحققين بهذا اللفظ والبيهقي في الشعب وابن شاهين في الترغيب في فضائل الأعمال بلفظ : ومعدن التقوى قلوب العاملين
[3] انظر تفسير الآلوسي للآية الكريمة وجامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر

ويؤيد هذا قوله تعالى :
{ الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً }
فبيّن سبحانه وتعالى أنه ما خلق الأكوان إلا ليُعرف وليُعلم حتى يُعبد سبحانه وتعالى .
وأما الخبرة فهي سعة العلم بالمعلوم ، قال تعالى :
{ الرحمن فاسأل به خبيراً }
أي فاسأل خبيراً به عنه ، وهو السيد الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم .
ويدخل في هذا العلماء العاملون فهم على علم به تعالى وخبرة به سبحانه وتعالى ، فيصح أن تقول (الخبير بالله تعالى) - أي العالم بدقائق علم التوحيد على قدر ما عنده . اهـ .

*- إيضاح :

القضاء والقدر

اختلف العلماء في معنييهما على أن أحدهما حُكم والآخر تنفيذ ، وليس هذا موضعاً للخلاف ، إذ إن المهم أن تفهم معنى القضاء و القدر فخلاصة البحث أنك لما تقول (قدّر الله كذا أو قضى كذا) فهذا يعني أنه سبحانه :
(علمَ فأراد فكتب [1] فخلق)
وكل أفعاله سبحانه مقترنة بحكمته ، ولا يصح أن تفسر القضاء بالعلم فقط .
واعلم أن علم الله تعالى بالأشياء سابق على وجودها ، وأنه سبحانه أوجدها على حسب ما علم ، قال تعالى { ألا يعلم من خلق }
وهذا يدل على أن المعلومات تابعة للعلم الإلهي .
وأما الإنسان فعلمه تابع للمعلومات ، إذ إنه لو لم يرَ أو يسمع الأشياء لَمَا علِمها لأن نوافذ العلم إلى العقل عند الإنسان هي السمع والبصر . اهـ .

*- بيان آية كريمة :

قوله تعالى :{ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى }
وقوله سبحانه :{ لتجزى كل نفس بما تسعى }
إن انتفاع الأموات بدعاء واستغفار الأحياء لهم هو أمر ثابت بالكتاب والسنة فقد ورد في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

---

[1] أي فاختار وميّزَ هذا الشيء الذي أراده عن غيره ثم كتبه في اللوح وصحف الملائكة ، وللكتابة مراتب تجدها في غير هذا الموضع .

[إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث :
صدقة جارية ، أو علم ينتفَع به ، أو ولد صالح يدعو له] [1]
وروى أبو داود وغيره عن معاذ بن أنس الجهني رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
[من قرأ القرآن وعمل بما فيه أُلبس والداه يوم القيامة تاجاً ضوؤه أحسن من ضوء الشمس في بيوت الدنيا لو كانت فيه فما ظنكم بالذي عمل به ؟] [2]
وقال تعالى :{ وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردّون إلى عالم الغيب والشهادة }
فتُعرض الأعمال على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى المؤمنين ، فما وجدوا من خير حمدوا الله ، وما وجدوا غير ذلك دعوا لهم بالمغفرة كما دلت عليه الأحاديث .
وإن انتفاع الأموات هو من جملة الكسب الذي يُجزون به ، لأن المؤمن تسبّب بإيمانه في دخوله بالانتفاع بدعاء الصالحين والمستغفرين ، وبذلك دخل في زمرة المؤمنين المذكورين في قوله تعالى مخبراً عن سيدنا إبراهيم عليه السلام :{ ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب }
وتسبّب بصلاته بنيل إجابة دعاء كل مصل بقوله :
(السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين)
وهكذا فنال هذا بسببه وكسبه وهو إيمانه .
وهكذا انتفع الولد بأبيه وانتفع الوالد بولده لأنه كان سبباً في وجوده فدعا له .
وهذا من جملة ما سيصِلهما .
وقال تعالى :{ والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان }- أي ببعض إيمان وليس كإيمان آبائهم { ألحقنا بهم ذريتهم } إكراماً لهم { وما ألتناهم من عملهم من شيء } أي : ما أنقصنا أجور أعمالهم -{ كل امرئ بما كسب رهين } أي من الذنوب والخطايا فهو محبوس بها فلا تتعدى ذنوبه إلى غيره ، وإنما يحمل هو وحده أوزار ذنوبه كلها ، وهو محبوس بما كسب من خطايا وذنوب - لأن الرهن معناه الحبس وهو لا يكون إلا بالذنوب ، وهذا ورد في دعائه صلى الله عليه وسلم قبل النوم - وفيه تعليم للأمة - :
[بسم الله وضعت جنبي ، اللهم اغفر لي ذنبي ، وأخسِئ شيطاني ، وفكّ رِهاني] - أي خلّصني من أسر وقيد الذنوب والخطايا –
[واجعلني في النّديّ الأعلى] [1]

---

[1] صحيح مسلم كتاب الوصية وصحيح ابن حبان كتاب الجنائز واللفظ له
[2] سنن أبي داود كتاب الصلاة ومستدرك الحاكم وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه

وفي الآية :{ ولا تزر وازرة وزر أخرى وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى } الآية

وأما دعاة الضلال فيحملون أوزار من تسبّبوا في إضلالهم .

قال تعالى : { ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم}

وقال جل وعلا :

{وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم }

وأما قوله سبحانه :

{ قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار قال لكلٍ ضِعف ولكن لا تعلمون }

فإن الأتباع ينالون ضعفاً واحداً من العذاب ، لأنهم خضعوا واتبعوا دعاتهم ، فيعاقبون مرتين ، مرة بسبب ضلالهم ، ومرة لأنهم خضعوا واتبعوا سادتهم ، وأما المتبوعون فيعاقبون على ضلالهم وإضلالهم لغيرهم مهما كان عدد هذا الغير وهم الأتباع .

وقال تعالى في دعاة الخير :{ وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا }

أي : يهدون إلى الحق وإلى طريق الجنة .

وقال تعالى في دعاة الضلال :

{ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ * وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ }

فيَدعون إلى الضلال أي يدعون من اتبعهم ويضلّلونهم حتى يكون طريقهم موصلاً إلى النار .

وفي الحديث : [دعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها] [2]

وهم في الآية آل فرعون ، ويدخل فيهم كل من كان إماماً في الضلال والكبر والفجور كـ قارون وهامان وأبي جهل وأبيّ بن خلف فهم أئمة في الضلال - بنص القرآن ، وقد جاء في ذمهم آيات وأحاديث كثيرة -

{ أئمة يدعون إلى النار } يُحشر معهم كل من اتبعهم أو تخلّق بأخلاقهم واتصف بصفاتهم القبيحة ، فالتجار الفجّار يحشرون مع أبي بن خلف والذين أطغاهم المال يحشرون مع قارون وهكذا .

---

[1] سنن أبي داود كتاب الأدب

[2] طرف حديث في صحيح البخاري كتاب الفتن وصحيح مسلم كتاب الإمارة

وجاء في الحديث : [من سنّ سنة حسنة ؛ فإن له أجرها وأجر من عمل بها من غير أن ينقص من أجورهم شيء ، ومن سنّ سنة سيئة كان عليه وزرها ، ومثل وزر من عمل بها من غير أن ينقص من أوزارهم شيء] [١]

والمعنى : من أحيا سنة من سنن النبي صلى الله عليه وسلم أو سنن أصحابه الكرام وأمر الناس بها وتأسّوا بها فله أجره وأجر من عمل بها .

أو أن المعنى : من عمل عملاً حسناً يؤجر عليه شرعاً وقلّده غيره فيه واتبعه المسلمون فيه فله أجورهم ، كأن بنى مستوصفاً للفقراء أو دار عجزة فبنى غيره مثله وهكذا فله أجور من بنى مثله .

ومن سن سنة سيئة أي عمل عملاً مذموماً في الشرع فقلّده الناس فيه فيحمل إثمه وإثم من عمل به ، كمن أنشأ أماكن اللهو والمعاصي فيحمل وزر كل من عصى الله فيها ، وهذا معنى قوله تعالى :

{ إنا نحن نُحْي الموتى ونكتب ما قدّموا وآثارهم }

والمرأة السافرة تحمل وزر سفورها وتبرّجها و وتحمل وزر من افتتن بها في النظر إليها وإثارتها لشهوته وهكذا . اهـ .

*- إيضاح :

الأسماء الإلهية عند علماء الكلام توقيفية ، أي أنها موقوفة على ما ورد في الكتاب والسنة ، فلا يجوز أن تدعو الله باسم لم يرد الدعاء به في الكتاب والسنة أو أن تصف الله به .

ولم يخالف العارفون هذا وإنما جوّزوا إطلاق الأسماء على الله تعالى إذا وردت عن طريق الخبر ، ولا يصح الدعاء بها كما ذكر ذلك الإمام الغزالي كقولك : الله تعالى محسن مكرم منعم مسخّر للشمس والقمر والنجوم منبت للشجر وغير ذلك مما ورد عن طريق الخبر ، أما الدعاء بهذه الأسماء فلا يصح إلا بما ورد الدعاء به .

أما عند المتكلمين فلا يصح أن تسمي الله به أصلاً .

فلا يجوز أن تقول : الله محسن مكرم منعم مطعِم مسْتوٍ على العرش .

وقول الإمام الغزالي أولى وأصح ، وهو جواز ذلك على طريق الخبر دون الدعاء . اهـ .

*- لطيفة :

العتك : في اللغة هو الشدة ، فتقول : لبن عاتك أي شديد الحموضة ، ورجل عاتك أي قوي شديد ، وامرأة عاتكة أي جلدة قوية ،

---

[١] صحيح ابن خزيمة كتاب الزكاة واللفظ له وصحيح مسلم كتاب العلم عن جابر رضي الله عنه

وقد يطلق على المرأة الشديدة الاحمرار ، ولا تكون حمراء إلا إذا كانت بيضاء فالمرأة العاتكة هي المرأة الشديدة الحمراء البيضاء . اهـ .

*- بيان حديث شريف :

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزاة ، فجعلنا لا نصعد شرفاً ولا نهبط وادياً ، إلا رفعنا أصواتنا بالتكبير ، قال : فدنا منّا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :
[أيها الناس اربعوا على أنفسكم] - اربعوا بكسر الهمزة وسكون الراء وفتح الباء وضم العين أي ارفقوا - ، [فإنكم لا تدعون أصمّ ، ولا غائباً ، إنما تدعون سميعاً بصيراً ، إن الذي تدعون أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته] [1]

فقد خاطبهم صلى الله عليه وسلم بلغة يفهمونها ، وقرّب لهم ما أراده بمثال واقعي محسوس يبين لهم أصول الاعتقاد المنزه عن التشبيه والكيفية والمكانية ، فهو سبحانه قريب من المخلوق قرباً يليق به ، ولا يتصف هذا القرب بالمكانية ولا بالزمانية ولا بالروحانية ، بل هو قرب منزّه عن الحوادث . اهـ .

*- لطيفة :

(آلى - ائتلى - تألّى) ثلاثة أفعال معناها : (حلف)
ومنه قوله تعالى :
{ ولا يأتل أولو الفضل } أي لا يحلف وهذا من فعل : ائتلى
و آلى يؤلي إيلاء ، ومنه قوله تعالى :{ للذين يؤلون من نساءهم }

*- إيضاح :

السبيل هو الطريق ، كما في الحديث عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنكبي ، فقال :
[كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل] [2] - أي عابر طريق .
وكذا قوله تعالى :{ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ }
وهو عابر الطريق الذي نفد ماله وانقطعت به الحيل .
وقال تعالى :{ قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين }

---

[1] سنن النسائي الكبرى كتاب النعوت ومسند الإمام أحمد ١٩١٦٠

[2] صحيح البخاري كتاب الرقاق

{ قل } أي قل لهم يا محمد : { هذه سبيلي أدعو إلى الله } أي هذه طريقتي في الدعوة إلى الله تعالى ، {على بصيرة } - أي على نور وبيان ، { أنا ومن اتبعني } أي وهذه طريقة أتباعي في الدعوة إلى الله تعالى .
أما قوله تعالى :{ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ }
أي ليس علينا في المسلمين سبيل أي طريق إلى المؤاخذة والمسؤولية إن نحن أكلنا أموالهم .
وكذا قوله تعالى :{ وليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون من حرج إذا نصحوا لله ورسوله ما على المحسنين من سبيل } - أي : من طريق إلى الحرج - {والله غفور رحيم * إنما السبيل }- أي سبيل المؤاخذة والحساب - {على الذين يستأذنونك وهم أغنياء } الآية

*- لطائف :

وقال الشافعي رضي الله عنه في بيان فضل طلب العلم وتحمّل الشدائد في طلبه :

اصبر على مر الجفا من معلّم   فإن رسوب العلم في نبراته
ومن لم يذق ذلّ التعلم ساعة   تجرّع كأس الجهل طول حياته
ومن فاته التعليم وقت شبابه   فكبّر عليه أربعاً لوفاته
وذاتُ الفتى والله بالعلم والتقى   إذا لم يكونا لا اعتبار لذاته

وقال رضي الله عنه في بيان الترفع عن حطام الدنيا وعزة النفس وكرامتها:

أنا إن عشت لست أعدم قوتاً   وإن مت لست أعدم قبراً
همتي همة الملوك ونفسي   نفس حر ترى المذلة كفراً

ولما سئل رضي الله عنه عن زيارة الإمام أحمد بن حنبل له وزيارته للإمام أحمد قال :

قالوا يزورك أحمد وتزوره   قلت المكارم لا تغادر منزله
إن زرته فلفضله أو زارني   فبفضله فالفضل في الحالين له

فأجابه الإمام أحمد رضي الله عنه :

إن زرتنا فبفضل منك تمنحنا   أو نحن زرنا فللفضل الذي فيكا
فلا عدمنا كلا الحالين منك ولا   نال الذي يتمنى فيك شانيكا [1]

[1] أي : مُبغضك

وذُكر عن الإمام سهل بن عبد الله وقد سأله بعض تلاميذه :
كيف تعرف أولياء الله تعالى ؟
فقال : إن الله تعالى لا يعرّفهم إلا لأشكالهم ، أو من أراد أن ينفعه بهم ، ولو أظهرهم حتى يعرفهم الناس لكانوا حجة عليهم ، ومن خالفهم - أي انتقد واعترض عليهم أموراً شرعية - بعد علمه بهم كفر [١]، ومن قعد عنهم خرج - أي تأخّر عنهم - ولكن الله تعالى جعل اختياره تغطية أمورهم رحمة منه لخلقه ورأفة ، ولكن الله تعالى قد أخبر بكرامتهم فقال عز وجل :
{ الله ولي الذين آمنوا }
{ والله ولي المؤمنين }
فأفردهم به ، ولو أظهرهم حتى يبرزهم لكان في النظر إليهم حجة ، وكان الاستماع لحديثهم فرضاً . اهـ .
من كتاب شرح الحكم للنفري [٢]

*- تذكرة :

قال سيدي أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه :
(لا يكن همك بدعائك الظفر بقضاء حوائجك فتكون محجوباً ، وليكن همك مناجاة مولاك)
وقال الإمام أبو القاسم القشيري صاحب الرسالة القشيرية رضي الله عنه :
شر الناس من يبتهل إلى الله تعالى عند هجوم البلاء بخلوص الدعاء وشدة التضرع والبكاء ، فإذا زالت شكايته ورفعت عنه آفته ضيّع الوفاء ونسي البلاء ، وقابل الرفد [٣] بنقض العهد ، وأبدل العقد [٤] برفض الود ، أولئك الذين أبعدهم الله في سابق الحكم وأدرجهم في سلك أهل الرد [٥]

---

[١] - أي : ستر فضلهم وجحد حقهم فعرّض نفسه لغضب الله وسخطه ومعاداته بدليل قوله سبحانه في الحديث القدسي :
[من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب] - رواه البخاري في صحيحه -
وفي رواية : [من آذى لي ولياً فقد استحق محاربتي] - كما في مسند أبي يعلى -
وفي رواية : [من أهان لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة] - كما في المعجم الأوسط للطبراني والزهد للإمام أحمد بن حنبل وكتاب الأولياء لابن أبي الدنيا وغيرهم - .

[٢] هو الشيخ محمد بن إبراهيم النفري الرندي الشاذلي، أبو عبد الله، المعروف بابن عباد من أهل (رندة) بالأندلس له كتب منها (غيث المواهب العلية بشرح الحكم العطائية) ويعرف بـ شرح النفري على متن السكندري توفي رحمه الله سنة ٧٩٢ هـ

[٣] العطاء

[٤] العفو

[٥] انظر تفسير القشيري لقول الله تعالى :

وقد قيل : بلاء يُلجئك إلى الانتصاب بين يدي معبودك خير من عطاء ينسيك إياه ويُقصيك عنه . اهـ
من كتاب (شرح الحكم) للنفري

*- لطيفة :

ثلاثة سمعوا منادياً ينادي :(يا سعتر بري)
ففهم كل واحد منهم مخاطبة عن الله خوطب بها في سره .
فسمع أوّلهم (اِسع تر بري)
وسمع الآخر (الساعة ترى بري)
وسمع الآخر (ما أوسع بري)
فالمسموع واحد واختلفت أفهام السامعين ، كما قال تعالى :
{ يُسقى بماء واحد ونفضّل بعضها على بعض في الأكل }
وقال سبحانه :{ قد علم كل أناس مشربهم }
فأما الذي سمع : (اسع تر بري) فمريد دُل على الله تعالى بالنهوض إليه سبحانه بالأعمال ، فاستقبل الطريق بالجدّ ، فقيل له : اسع إلينا بصدق المعاملة تَرَ بِرّنا بوجود المواصلة .
وأما الثاني : فكان واصلاً إلى الله تعالى ، طاولته الأوقات فخاف أن تفوته المواصلة ، فقيل له ترويحاً على قلبه لما أحرقته نار الشغف :
(الساعة ترى بري)
وأما الآخر فعارف كُشف له عن وسع الكرم فخوطب من حيث أُشهد فسمع (ما أوسع بري)

*- لطيفة :

قيل : لا تأكل إلا طعام من يرى لك الفضل عليه في أكلك عنده ، ولا تأكل إلا طعام من يرى أنه وديعة عنده ، ولا تأكل إلا طعام زاهد لأنه يُسَرّ بأكلك ، ولا تأكل إلا طعاماً يراك صاحبه أفضل من الطعام .
وهذا بيان لقوله صلى الله عليه وسلم : [ولا يأكل طعامك إلا تقي] [1]

*- لطيفة :

قال سيدي سهل بن عبد الله التستري رضي الله عنه :
(ما من نفس ولا قلب إلا والله مطّلع عليه في ساعات الليل والنهار ، فأيما نفس أو قلب رأى فيه حاجة إلى سواه سلّط عليه إبليس) . اهـ

{ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ } .
[1] طرف حديث في سنن الترمذي كتاب الزهد وصحيح ابن حبان كتاب البر والإحسان عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه

وهذا بيان لقوله تعالى :
{ وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ }
وقال سيدي أبو العباس المرسي رضي الله عنه :
أوقات العبد أربعة لا خامس لها :
النعمة والبلية والطاعة والمعصية ، ولله تعالى عليك في كل وقت منها سهم من العبودية يقتضيه الحق منك بحكم الربوبية ، فمن كان وقته الطاعة فسبيله شهود المِنّة من الله أن هداه لها ووفقه للقيام بها ، ومن كان وقته المعصية فمقتضى الحق منه وجود الاستغفار والندم ، ومن كان وقته النعمة فسبيله الشكر وهو فرح القلب بالله ، ومن كان وقته البلية فسبيله الرضا بالقضاء والصبر .

البدعة

قال صلى الله عليه وسلم :
[شر الأمور مُحدَثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار] [1]
وروى الشيخان عن أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها قالت :
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
[من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد] [2]
البدعة في اللغة هي الإتيان بشيء جديد لا نظير سابقاً له ، ومنه قوله تعالى :{ بديع السموات والأرض } أي موجِدهما على غير مثال سابق
وقوله تعالى :{ قل ما كنت بدعاً من الرسل } أي قل لهم يا رسول الله أنا لست أول الرسل فلمَ تنكرون نبوتي ورسالتي ؟ !
ولا تطلق البدعة في الشرع إلا على الشيء المحدث المذموم بدليل قوله صلى الله عليه وآله وسلم : [وكل بدعة ضلالة]
وقد تسامح بعض المتأخرين ففرّقوا بين البدعة الحسنة والبدعة السيئة ، ـ والحق أن الشارع لم يطلق البدعة إلا على ما كان قبيحاً ليس له أصل في الدين ـ فقالوا : إن صلاة المؤذن على النبي صلى الله عليه وآله وسلم خلف الأذان بدعة حسنة لأن لها أصلاً دينياً ، والحق أنها ليست بدعة أصلاً لما ورد في الحديث الذي رواه مسلم وغيره عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول :

[1] صحيح ابن خزيمة كتاب الجمعة وسنن النسائي الكبرى كتاب العيدين
[2] صحيح البخاري كتاب الصلح وصحيح مسلم كتاب الأقضية

[إذا سمعتم المؤذن ، فقولوا مثل ما يقول ثم صلّوا علي] ... الحديث [١]
لأن البدعة في قوله صلى الله عليه وآله وسلم : [وكل مُحدَثة بدعة]
أي كل محدثة لا أصل لها في الدين فهي بدعة ، جاء بيان ذلك في حديث آخر قال فيه صلى الله عليه وسلم :
[من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه] - أي ليس له أصل ديني - [فهو رَدٌّ] .
أما إذا كان الأمر المحدث له أصل في الدين فلا يسمى بدعة ، كاجتماع الناس على سماع العلم الشرعي وعلى ذكر الله تعالى وتلاوة القرآن والصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم خلف الأذان للمؤذن .
واعلم أن الكلية لها مخصصات قد تكون نقلية يدل عليها السياق أو عقلية [٢]
ولما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية ، واستعمل عليهم رجلاً من الأنصار وأمرهم أن يسمعوا له ويطيعوا ، فأغضبوه في شيء ، فقال : اجمعوا لي حطباً ، فجمعوا له ، ثم قال : أوقدوا ناراً ، فأوقدوا ، ثم قال : ألم يأمركم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تسمعوا لي وتطيعوا ؟
قالوا : بلى ، قال : فادخلوها ، قال : فنظر بعضهم إلى بعض ، فقالوا : إنما فررنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من النار ، فكانوا كذلك ، وسكن غضبه ، وطفئت النار ، فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم ، فقال :
[لو دخلوها ما خرجوا منها ، إنما الطاعة في المعروف][٣]
يؤيد هذا ما ورد في الحديث : [لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق] [٤]

---

[١] صحيح مسلم كتاب الصلاة وصحيح ابن خزيمة كتاب الصلاة
[٢] قال تعالى :{ وعلّم آدم الأسماء كلها } : فالكلية هنا لها مخصص عقلي إذ لا يُتصور لآدم عليه السلام أن يحيط بأسماء الله تعالى كلها لأن أسماء الله تعالى لا نهاية لها ..
وقوله تعالى :{ تدمر كل شيء بأمر ربها } أي دمرت ما أمرها الله تعالى أن تدمر ولم تدمر الجبال .
قوله تعالى :{ وأوتيت من كل شيء } أي مما تؤتاه الملوك .
قوله تعالى :{ وفتحنا عليهم أبواب كل شيء } أي من زخارف الدنيا وأموالها ولم يفتح عليهم أبواب السماء مثلاً .
وفي الحديث : [كل ابن آدم تأكله الأرض إلا عجب الذنب منه خلق وفيه يركب] - موطأ مالك كتاب الجنائز - ، إلا أنه ورد :
[إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء] - سنن أبي داود كتاب الصلاة -
[٣] صحيح البخاري كتاب الأحكام وصحيح مسلم كتاب الإمارة واللفظ له
[٤] مصنف ابن أبي شيبة

وروى الإمام أحمد رضي الله عنه في مسنده بإسناد حسن عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : كان عبد الله بن رواحة إذا لقي الرجل من أصحابه ، يقول : تعال نؤْمن بربنا ساعة ، فقال ذات يوم لرجل ، فغضب الرجل ، فجاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال :
يا رسول الله ، ألا ترى إلى ابن رواحة يرغب عن إيمانك إلى إيمان ساعة ؟
فقال النبي صلى الله عليه وسلم :
[يرحم الله ابن رواحة ، إنه يحب المجالس التي تتباهى بها الملائكة] [١]
وعن الأسود بن هلال المحاربي ، قال : قال لي معاذ :
[اجلس بنا نؤمن ساعة] [٢]
و إن ألفاظ الأذان معدودة معلومة إلا أنه ورد لما اقتضت الحاجة ـ بسبب المطر ـ إلى النداء فيه أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالنداء
[أَلَا صلّوا في رحالكم]
كما روى الشيخان عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يأمر المؤذن ، إذا كانت ليلة باردة ، أو ذات مطر في السفر ، أن يقول : " ألا صلّوا في رحالكم "[٣]
وهذا يدل على أن الحكم يدور مع المصلحة والحاجة ، وأحكام الشريعة تارة تنقل مع العلة ، وتارة مع ظاهر النص ، وقد يعرف الصحابي العلة منها في بساط الكلام مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولهذا قالوا :
إن فهم راوي الحديث يُقدّم على غيره ، كما يقدّم تفسير الصحابي على غيره . اهـ .
وأما المبتدع فهو الذي يحدث أمراً في الدين لا أصل له في الدين ، ويزعم أنه من الدين أو من سنة سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم .
وقد ظهرت كثير من الفرق المبتدعة كالمعتزلة وغيرهم الذين خالفوا أهل السنة ، وأما ما ورد عن عمر رضي الله عنه لما جمع الناس على صلاة التراويح أنه قال : (نعمت البدعة هذه) [٤]
فالمراد بالبدعة هنا البدعة اللغوية وهي إحداث الشيء ، ويندرج فعله رضي الله عنه تحت أصل شرعي ، أو أن صلاة التراويح أمر مشروع ،

[١] المسند ١٣٥٢١ وقد علّقه البخاري
[٢] مصنف ابن أبي شيبة كتاب الإيمان والرؤيا
[٣] صحيح البخاري كتاب الأذان وصحيح مسلم كتاب صلاة المسافرين وقصرها
[٤] موطأ مالك كتاب الصلاة في رمضان

واجتماع المؤمنين في بيت من بيوت الله عزوجل على ذكر أو عبادة أمر مشروع أيضاً ، فلم يكن فعله رضي الله عنه إحداث شيء لا أصل له .

*- لطيفة :

خرج الإمام الشبلي رضي الله عنه من المسجد بعد أن صلى مع الناس صلاة العيد ورأى كلاً منهم قد تزيّن بلباسه فقال :

إذا ما كنتَ لي عيداً فما أصنع بالعيد

جرى حبكَ في قلبي كجرْيِ الماء في العود

وسمي العيد بذلك لمعاودته على الناس ، وسمي بذلك عند العارفين لأن الله تعالى يعود فيه على عباده بالرحمة والإحسان ، ولذلك يسمى عيد الفطر بـ (يوم الجائزة) كما جاء ذلك في الحديث [1]

وعيد الفطر هو يوم واحد وهو أول شهر شوال ، وأما عيد الأضحى فهو أربعة أيام : يوم النحر وثلاثة أيام بعده تسمى أيام التشريق ، كما جاء في الحديث :

[أيام التشريق أيام أكل وشرب وذكر الله عز وجل] [2]

وتسمى أيام التشريق لأنهم كانوا يشرّقون فيها اللحم لئلا يفسد .

وفيه معنى لطيف وهو ظهور إشراقات أنوار الله تعالى على عباده الحجاج وغيرهم ، لأنهم راحوا يبتغون المُنى في مِنى ، وذلك بعد أن غفر الله لهم يوم عرفة ، ثم قرّبهم في مزدلفة ، ثم أكرمهم وأتحفهم وأعطاهم مُناهم في مِنى .

وقال بعضهم

عيد وعيد وعيد صرن مجتمعة

وجه الحبيب ويوم العيد والجمعة

*- المقة :

- بكسر الميم وفتح القاف من : ومق يمق - بكسر الميم - مقة - هي المحبة ، وبابه : وعد يعِد عِدة .

روى الطبراني وغيره عن أبي أمامة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : [المقة من الله ، والصيت في السماء] [1]

---

[1] جاء في المعجم الكبير للطبراني : [إذا كان يوم الفطر وقفت الملائكة على أبواب الطرق ..... إلى أن قال صلى الله عليه وسلم : فهو يوم الجائزة ، ويسمى ذلك اليوم في السماء يوم الجائزة] .

[2] المسند ١٩٧٩٧

كما جاء بيان ذلك في الحديث الذي رواه الشيخان واللفظ لمسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
[إن الله إذا أحب عبداً دعا جبريل فقال : إني أحب فلاناً فأحبه ، قال : فيحبه جبريل ، ثم ينادي في السماء فيقول : إن الله يحب فلاناً فأحِبوه ، فيحبه أهل السماء ، قال : ثم يوضع له القبول في الأرض] [٢]
وهذا معنى قوله تعالى :
{ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وداً }
أي محبة ثابتة في قلوب الخلائق فيحبهم الناس ويثنون عليهم خيراً ، والاعتبار في السواد الأعظم من الناس ، لا في أسافل الناس أو الحسّاد وأصحاب الحقد إذ لا عبرة لكلامهم .
*- إيضاح :
إن إسماعيل عليه السلام هو الذي أمر الله تعالى والده سيدنا إبراهيم عليه السلام أن يذبحه ، وذلك الأمر كان في الرؤيا ، لأن رؤيا الأنبياء وحي من الله ، بخلاف غيرهم ، وليس الذبيح إسحاق عليه السلام كما قال بعضهم ، لأن إسحاق وُلد بعد إسماعيل عليهما السلام ، أي لما كان إسماعيل فتى وهذا ما يدل عليه سياق الآيات ومفهومها .
فقد كانت السيدة سارة زوجة إبراهيم عليه السلام عاقراً ، فلما أهدى الملك لإبراهيم عليه السلام جارية - وهي السيدة هاجر - ولدت له إسماعيل ، فتأثرت السيدة سارة لذلك وشَكَت أمرها إلى الله ، فأجابها الله تعالى ، ورزقها إسحاق عليه السلام .
يقول الله تبارك وتعالى :{ فأرادوا به كيداً فجعلناهم الأسفلين * وقال إني ذاهب إلى ربي سيهدين * رب هب لي من الصالحين * فبشرناه بغلام حليم } وهو إسماعيل عليه السلام { فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ * فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ * وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ }
ثم قال جل وعلا :{ وبشرناه بإسحق نبياً من الصالحين * وباركنا عليه وعلى إسحق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين }
فلما قال جل وعلا { وبشرناه باسحق } دل على أن الذبيح ليس بإسحق .

---

[١] المعجم الأوسط للطبراني ومسند الروياني
[٢] صحيح البخاري كتاب بدء الخلق وصحيح مسلم كتاب البر والصلة والآداب

ومن ناحية أخرى فقد قال تعالى :{ ووهبنا له اسحق ويعقوب نافلة } وقال سبحانه :{ وبشرناه باسحق ومن وراء اسحق يعقوب } أي أن إسحق سيلد يعقوب عليهما السلام ، ولو كان الذبيح إسحاق فكيف يبشره سبحانه بأنه سيلد له يعقوب ؟ !

ولم يكن لسيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام علمٌ أن الله سيفدي ولده إسماعيل بذبح عظيم ، إذ إن الله تعالى لما أمر إبراهيم بذبح إسماعيل لم يكن إبراهيم يعلم أن الله سيفدي إسماعيل عليهما السلام بذبح عظيم ، إذ إنه باشر ذلك {وتلّه للجبين * وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا } ولو كان الذبيح إسحق فكيف يبشره الله تعالى بأن إسحق سيلد يعقوب عليهما السلام ؟!

<u>*- بيان آيات كريمة :</u>

ذكر بعضهم أن القرية المذكورة في سورة يس عليه الصلاة والسلام هي أنطاكية وأن المرسلين في قوله سبحانه { إذ جاءها المرسلون } هم رسل عيسى عليه السلام إلى تلك القرية لينذروا أهلها ، وأن الرجل الذي جاء من أقصى المدينة يسعى هو حبيب النجار، وكان مؤمناً فنصح قومه بالإيمان برسل عيسى عليه السلام فلم يفعلوا وقتلوه .

إلا أن التحقيق في المسألة أن القرية هي أنطاكية ، وأن ذلك كان قبل عيسى عليه السلام ، وذلك لأن بعده لم يكن من رسول إلا سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وأن قوله تعالى :{ إذ جاءها المرسلون } أنهم رسل من الله تعالى لا رسل عيسى بدليل قوله تعالى :{ إذ أرسلنا إليهم اثنين } إذ أسند الإرسال إليه سبحانه ـ وكذا قوله سبحانه :{ فعززنا بثالث } أي فقوينا هذين الرسولين برسول ثالث ـ { فقالوا إنا إليكم مرسلون } أي من الله تعالى ـ لأن هذه هي سنة الله تعالى في قرآنه عند الحديث على رسله سبحانه حيث يصفهم بأنهم مرسلون ـ أي من قِبَله سبحانه ، كما في قوله تعالى مخاطباً موسى وهارون عليهما السلام :

{ قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى * فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ }

وقوله تبارك وتعالى : { كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ }

وقوله تعالى مخبراً عن أصحاب القرية : { قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا } ـ ولو كانوا رسل عيسى عليه السلام لما قالوا لهم : ما أنتم إلا بشر مثلنا ، إذ إنهم يعلمون أنهم بشر مثلهم ، ولكن جرت عادة المنكرين في تكذيب رسل الله تعالى أن يزعموا أنهم بشر مثلهم يأكلون ويشربون ،

وقد جاء ذلك في كثير من الآيات كما في قوم نوح عليه السلام وغيره فقد أخبر سبحانه عنهم :{ فقال الذين كفروا من قومه ما هذا إلا بشر مثلكم } وقال تعالى : { قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ }الآيات وغيرها

قوله تعالى مخبراً عن أصحاب القرية :

{ وما أنزل الرحمن من شيء إن أنتم إلا تكذبون } أي : ما أنزل الله عليكم من شيء ، مما يدل على أنهم ليسوا رسل عيسى عليه السلام .

{ قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون } أي من قِبَله كما هو عادة الرسل في الرد على المنكرين ، كما أخبر سبحانه عن سيدنا شعيب عليه السلام

{ قال ربي أعلم بما تعملون }

{ وما علينا إلا البلاغ المبين } وهذا هو كلام رسل الله ووظيفتهم ومهمتهم مع أقوامهم ، قال تعالى { فهل على الرسل إلا البلاغ الميين }.

{ قالوا إنا تطيرنا بكم }

وهذا شأن المنكرين ، كما قال سبحانه مخبراً عن قوم مدين :

{ قالوا اطيرنا بك وبمن معك قال طائركم عند الله بل أنتم قوم تفتنون }

وكذا آل فرعون إذ قالوا كما أخبر سبحانه عنهم :

{ فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه ألا إنما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون }

وهؤلاء أصحاب القرية قالوا :{ إنا تطيرنا بكم } أي : تشاءمنا منكم

قوله تعالى : {قالوا طائركم معكم أئن ذكرتم } أي تشاؤمكم منكم وفيكم ، وهل تشاءمتم إلا عند تذكيرنا لكم فقط ؟ !

{ بل أنتم قوم مسرفون * وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى } وهو رجل مؤمن كان في تلك المدينة { قال يا قوم اتبعوا المرسلين } نظيره قوله تعالى :{ وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه }..... الآية

أي : اتبعوا المرسلين إليكم من الله تعالى

{ اتبعوا من لا يسألكم أجراً } وهي صفة المرسلين أنهم كانوا لا يسألون أقوامهم أجراً على تبليغهم وتذكيرهم .

ثم كان الأمر أن قتلوه { قيل ادخل الجنة } أي بعدما قتلوه قالت له الملائكة ذلك ، وهي جنة البرزخ ، وهذا دليل نعيم البرزخ

{ قال يا ليت قومي يعلمون * بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين }

إذ لو علموا ذلك لآمنوا برسل الله إليهم .

ثم أهلك الله سبحانه أهل تلك القرية ، قال جل وعلا :
{ وما أنزلنا على قومه من بعده } أي من بعد ما قتلوه { من جند من السماء وما كنا منزلين * إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون } أي ميتون وهذا شأن الأقوام التي تكذّب رسلها التي أرسلها الله إليها .
فلم يكن الأمر يحتاج إلى إنزال جند من السماء لإهلاكهم ، بل الأمر أيسر على الله من ذلك ، فما هي إلا صيحة واحدة فيهم من جبريل عليه السلام أهلكتهم وأخمدتهم .
وأما إرساله تعالى رسولين إلى أمة واحدة بنفس الوقت وذلك بقوله سبحانه { إذ أرسلنا إليهم اثنين }
فإن ذلك حاصل ، ونظيره ما جاء في قوله جل وعلا
{ ولقد أرسلنا موسى وأخاه هارون بآياتنا وسلطان مبين * إلى فرعون وملئه } .... الآيات .

*- بيان آية كريمة :

قوله تعالى : { كنتم خير أمة أخرجت للناس } الآية
أي أنتم خير أمة ، وأنتم خير الأمم الخيّرة التي مضت .
ولو كان المعنى : أنتم خير أمة شريرة ، لَمَا كان ذلك مدحاً ، كما تقول : (العصا أمضى من السيف) ، فيكون ذلك ذماً للسيف لا مدحاً له .
وسياق الآية مدح هذه الأمة المحمدية وبيان فضلها على سائر الأمم السابقة وقد جاء بيان ذلك على لسان صاحب البيان عن القرآن صلى الله عليه وسلم إذ قال :
[إنكم تُتِمّون] أي : تكملون ، - وفي رواية : [تُوفّون] -
[سبعين أمة ، أنتم خيرها وأكرمها على الله عز وجل][1]
- أي لقد مضى قبلكم سبعون أمة خيّرة ، أنتم خيرها وأفضلها .

*- بيان آية كريمة :

قوله تعالى :{ ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين * نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم } الآية

[1] سنن الترمذي كتاب تفسير القرآن و مسند الإمام أحمد ١٩١٦٤ ومستدرك الحاكم وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه

إن ما نقله بعض العلماء والمفسرين حول قوله تعالى { أنى شئتم } بأن إتيان المرأة في دبرها أمر جائز ، هو قول مردود باطل دسّه بعض المبتدعة في كتب العلماء ، ومن ذلك ما نسب إلى الإمام السيوطي في عهد الدولة الفاطمية .

واعلم أن النهي في ذلك بيّن واضح بقوله تعالى : {فأتوا حرثكم } وليس الدبر موضع الحرث والزراعة ، إذ إن القبل هو مكان وضع النطفة حتى يخلقها الله كيف يشاء علقة ثم مضغة ثم يخرجها طفلاً .

فلما قال تعالى :{ فأتوا حرثكم أنى شئتم } - وليس الدبر حرثاً - دَلَّ على أن المراد بقوله تعالى { أنى } أي كيف شئتم ، فإما أن يعلو الرجل زوجته أو تعلوه أو كلاهما مضطجعان أو غير ذلك ، فقوله سبحانه { أنى شئتم } للكيفية وليست للمكانية .

لأنه قد تأتي { أنى } ويراد منها : (كيف) ، ومثاله قوله تعالى مخبراً عن السيدة مريم :{ قالت رب أنى يكون لي ولد ولم يمسسني بشر } أي كيف يكون لي ولد والحال أني لم أتزوج برجل ؟

ومثاله أيضاً قوله تعالى مخبراً عن سيدنا زكريا عليه السلام :

{ قال رب أنى يكون لي غلام وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقر }

أي كيف .... ؟

ومثاله قوله تعالى :

{ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة }

أي كيف يكون له ولد سبحانه ولم يتخذ زوجة له ؟ !

وقد تأتي أنى ويكون معناها (أين) للمكانية

مثاله قوله تعالى مخبراً عن سيدنا زكريا عليه السلام :

{ يا مريم أنى لك هذا } أي من أين لك هذا الرزق ؟

{ قالت هو من عند الله }

فلما قال سبحانه :{ فأتوا حرثكم أنى شئتم } فهمنا أن المراد بقوله جل وعلا { أنى } أي : كيف ، لأنه سبحانه يقول{ فأتوا حرثكم} وليس الدبر موضع الحرث .

وقد جاء البيان المحمدي مبيناً ذلك بقوله صلى الله عليه وسلم :

[ملعون من أتى امرأته في دبرها] [1] فافهم

---

[1] سنن أبي داود كتاب النكاح وسنن النسائي الكبرى

*- بيان آية كريمة :
(ثم) و(الفاء) : حرفا عطف يفيدان الترتيب ، كما تقول :
(جاء عمر ثم زيد) أي جاء عمر أولاً ثم تبعه زيد .
وكذا قولك : (جاء عمر فزَيد) أي جاء عمر وجاء بعده زيد .
أما الواو فلا تفيد الترتيب ، بل هي لمطلق الجمع كما تقول :
(جاء عمر وزيد) فلا يعني هذا أن زيداً جاء بعد عمر ، أو أن عمراً جاء بعد زيد ، بل الواو لمطلق الجمع ، والمعنى : أنهما جاءا .
فلما قال سبحانه :{ والسماء رفعها ووضع الميزان } لا يعني أنه سبحانه رفع السماء ثم بعد ذلك خلق الميزان ، بل المراد مطلق الجمع .
ومعنى { ووضع الميزان } هو الوضع المكاني لا الوضع الرُّتَبي ، لأن الميزان فوق السماء السابعة ، وهو ميزان تقدير الأشياء بمقادير معينة تعود لعلمه وحكمته سبحانه ، قال تعالى :
{ وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم }
وقال جل وعلا : { وأنبتنا فيها من كل شيء موزون }
أي مقدّر بكَمّه وحجمه ووقته ووزنه ومكانه وهكذا .
وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال :
[يد الله ملأى لا يغيضها نفقة ، سحّاء الليل والنهار ، وقال : أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض ، فإنه لم يغِض ما في يده ،
وقال : عرشه على الماء ، وبيده الأخرى الميزان ، يخفض ويرفع] [١]
أي أن التصرف وتدبير العوالم والأكوان هو بيده سبحانه .
أما الوضع الرتبي فهو الإذلال والإعزاز والرفع والخفض ،
فهو المراد من قوله صلى الله عليه وسلم :
[الميزان بيد الرحمن ، يرفع أقواماً ويخفض آخرين إلى يوم القيامة] [٢]
*- إيضاح :
مصطلح كلمة (الصوفية والتصوف)
هل هو بدعة شرعية أم له أصل شرعي يندرج فيه فيخرج عن كونه بدعة ؟

---
[١] انظر صحيح البخاري كتاب التوحيد
[٢] انظر سنن ابن ماجه في المقدمة ومستدرك الحاكم عن النواس بن سمعان الكلابي رضي الله عنه

اعلم أولاً أن كلمة (بدعة) تطلق في الشرع على الشيء الجديد الذي يُحْدثه المرء ، ولا أصل له في دين الله ، وبهذا المعنى الشرعي يكون المُحدَث ضلالة لقوله صلى الله عليه وسلم :

[شر الأمور مُحْدَثاتها] - أي الأمور التي تنسب إلى شرع الله ، ولا أصل لها -

[وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة] - لأنها لم ترِد في الكتاب والسنة -

[وكل ضلالة في النار] [١]

فما هي مُحدَثات الأمور ؟

لقد بينها صلى الله عليه وسلم بقوله :

[من أحدث في أمرنا هذا] أي ديننا

[ما ليس منه فهو رد] [٢] أي : مردود عليه غير مقبول منه

وانظر في قوله صلى الله عليه وسلم :

[ما ليس منه] أي فما كان يندرج تحت أصل شرعي فهو منه وليس رداً .

ومن ذلك ما أحدثه الخلفاء الراشدون رضي الله عنهم بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ، كجمع سيدنا عمر الناس على صلاة التراويح في المسجد [٣]وإحداث سيدنا عثمان الأذان الثاني قبل الشروع في الخطبة [٤] وجمعه المصحف الكريم [٥]

وقد قال صلى الله عليه وسلم :

[عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضُّوا عليها بالنواجذ] [٦]

فليست أفعالهم بدعة .

---

[١] طرف حديث في صحيح ابن خزيمة كتاب الجمعة وسنن النسائي الكبرى عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه

[٢] صحيح البخاري كتاب الصلح وصحيح مسلم كتاب الأقضية عن أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها

[٣] انظر موطأ الإمام مالك كتاب النداء للصلاة وغيره

[٤] انظر صحيح البخاري كتاب الجمعة

[٥] انظر صحيح البخاري كتاب فضائل القرآن

[٦] مسند الإمام أحمد وسنن ابن ماجه في المقدمة وسنن أبي داود كتاب السنة عن العرباض بن سارية رضي الله عنه

واما من زعم أن كل أمر حدث ولم يكن في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو بدعة ضلالة ، فيقال له :
إن زعمك باطل لأنك تخلط معاني البدعة مع بعضها ، فهناك البدعة اللغوية والبدعة الشرعية ، ويلزم من زعمك : أن كل أمر دنيوي أو ديني حصل بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو بدعة ، فجمعُ الكتب وتصنيفها بدعة ، ووضع العلوم كالنحو والصرف وعلمِ مصطلح الحديث بدعة ، وَشقُّ الطرق وإنشاء المستوصفات والمدارس بدعة ، والسيارات والطائرات والقطارات كلها بدع قبيحة على زعمك ، لأنها لم تكن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم .
بل نقول : وأنت بدعة ، وزعمك بدعة ، لأنك لم تكن في عهده صلى الله عليه وسلم موجوداً ، وهذا كلام باطل فيه خلط وفوضى في المراد من معاني البدعة ، ويجب فهم كل أمر على حسب أصوله وضوابطه الشرعية .....
وللتفريق بين البدعة اللغوية والشرعية نورد لك ما جاء في لسان العرب تحت مادة (بدع) [1]:
بَدَعَ الشيء يبدعه بدعاً وابتدعه : أنشأه وبدأه ، والبديع والبِدْع : الشيء الذي يكون أولاً ، وفي التنزيل : { قل ما كنت بِدعاً من الرسل } أي ما كنت أول من أُرسل ، قد أُرسل قبلي رسل كثير ، والبدعة : الحدث ، وما ابتدع من الدين بعد الإكمال .
قال ابن السكيت : البدعة كل مُحدَثة ، وفي حديث عمر رضي الله عنه في قيام رمضان : نعمت البدعة هذه [2].
وقال ابن الأثير :
البدعة بدعتان : بدعة هدى وبدعة ضلال ، فما كان في خلاف ما أمر الله به ورسوله صلى الله عليه وسلم فهو في حيّز الذم والإنكار ، وما كان واقعاً تحت عموم ما ندب الله إليه وحض عليه أو رسوله فهو في حيز المدح ، وما لم يكن له مثال موجود كنوع من الجود والسخاء وفعل المعروف فهو من الأفعال المحمودة ، ولا يجوز أن يكون ذلك في خلاف ما ورد الشرع به لأن النبي صلى الله عليه وسلم قد جعل له في ذلك ثواباً فقال :
[من سنّ سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها]

---

[1] لمؤلفه محمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم بن عمر، أبو طاهر، مجد الدين الشيرازي الفيروزآبادي: من أئمة اللغة والادب وتوفي رحمه الله سنة ٨١٧ هـ
[2] موطأ الإمام مالك كتاب النداء للصلاة

وقال في ضده :[من سَنَّ سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها] [1] وذلك إذا كان في خلاف ما أمر الله به ورسوله ، قال : ومن هذا النوع قول عمر رضي الله عنه : (نعمت البدعة هذه) ، فلما كانت من أفعال الخير وداخلة في حيز المدح سماها بدعة ومدحها ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يسُنّها لهم ، وإنما صلاها ليالي ثم تركها ولم يجمع الناس لها ، ولا كانت في زمن أبي بكر رضي الله عنه ، وإنما عمر رضي الله عنه جمع الناس عليها وندبهم إليها ، فبهذا سماها بدعة وهي على الحقيقة سنة لقوله صلى الله عليه وسلم : [عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي] [2]وقوله صلى الله عليه وسلم : [اقتدوا باللذَين من بعدي أبي بكر وعمر] [3]
وعلى هذا التأويل يُحمل الحديث الآخر : [كل مُحْدَثة بدعة]
إنما يريد ما خالف أصول الشريعة ولم يوافق السنة .
وأكثر ما يستعمل المبتدع عرفاً في الذم .
وقال أبو عدنان : المبتدِع : الذي يأتي أمراً على شبه لم يكن ابتداه إياه ، و (فلان بدع في هذا الأمر) أي : أول لم يسبقه أحد .
والبديع من أسماء الله تعالى لإبداعه الأشياء وإحداثه إياها كما قال سبحانه : { بديع السموات والأرض } أي خالقها ومبدعها ، فهو سبحانه الخالق لا عن مثال سابق . اهـ [4]
أما اشتقاق كلمة (التصوف)
فقال بعض العلماء : إنه نسبة إلى أهل الصفة رضي الله عنهم

---

[1] روى الإمام مسلم في صحيحه عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : [من سن في الإسلام سنة حسنة فعُمل بها بعده كُتب له مثل أجر من عمل بها ولا ينقص من أجورهم شيء ، ومن سن في الإسلام سنة سيئة فعمل بها بعده كتب عليه مثل وزر من عمل بها ولا ينقص من أوزارهم شيء] . اهـ
ورواه الإمام أحمد وابن ماجه وابن خزيمة واللفظ لمسلم .
[2] جاء في سنن الترمذي :
[عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عَضّوا عليها بالنواجذ]
ورواه ابن ماجه والدارمي وابن حبان والبيهقي .
وفي المعجم للطبراني :
[عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ] .
[3] انظره في مسند الإمام أحمد ٢٢١٦١ وفي سنن الترمذي كتاب المناقب وفي مستدرك الحاكم كتاب معرفة الصحابة
[4] لسان العرب ٨/ ٦

قلت : والصفة مكان في المسجد النبوي الشريف، في الركن الشمالي الشرقي منه، غربي ما يعرف اليوم بـ "دكة الأغوات[1] ."
أمر به صلى الله عليه وسلم فظُلل بجريد النخل، وأُطلق عليه اسم "الصفة" أو "الظلة."
وقد أُعدت الصفة لنـزول الغرباء العُزّاب من المهاجرين والوافدين الذين لا مأوى لهم ولا أهل ، فكان يقل عددهم حيناً، ويكثر أحياناً، وكان النبي صلى الله عليه وسلم كثيراً ما يجالسهم، ويأنس بهم، ويناديهم إلى طعامه، ويشْركهم في شرابه ؛ فكانوا معدودين في عياله صلى الله عليه وسلم .
وكان جُلّ عمل أهل الصفة تعلّم القرآن والأحكام الشرعية من رسول الله صلى الله عليه وسلم أو ممن يأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك، فإذا جاءت غزوة خرج القادر منهم للجهاد فيها.
وكانوا من المجاهدين حيث كانوا يتسابقون إلى الخروج للجهاد مع السرايا الّتي تنطلق لنصرة الدّين والدفاع عن العقيدة ، على أنهم كانوا إذا تحسّن حال أحدهم خرج مكتفياً بنفسه تاركاً مكانه لمن هو أحوج منه.
وقد ذكر أبو نعيم في الحلية مائة من أسمائهم .
واتفقت معظم الأقوال على أن ما يقرب من أربعمائة صحابي تواردوا على الصفة، في قرابة تسعة أعوام إلى أن جاء الله بالغنى، وذلك قبيل وفاة النبي صلى الله عليه وسلم .
ومن الجدير بالذكر أن مكان الصفة في المسجد الشريف ظل ماثلاً، يحدثنا عن مدى المعاناة التي لقيها رسول الله وأصحابه الكرام في سبيل الدعوة الغراء، إلى أن جاءت توسعة الخليفة الوليد بن عبد الملك رحمه الله ، فتغير مكانها إلى ما يعرف اليوم بـ (دكة الأغوات) حيث بلغت التوسعة ذلك المكان . اهـ

[1] والدكة جزء مرتفع من الأرض ، وكلمة آغا : أعجمية مستعملة في اللغات التركية والكردية والفارسية ، فعند الأكراد تطلق على شيوخهم وكبارهم ، وتطلق عند الأتراك على الرئيس والسيد ، وتطلق في الفارسية على رئيس الأسرة.
وصارت كلمة آغا أيام الدولة العثمانية تطلق على الشيخ أوالسيد وصاحب الارض ورئيس خدمة البيت ، وكان كثير من خدمة الحكومة في الوظائف العسكرية يلقبون بـ كلمة (آغا) ، وكانت تطلق أيضا على الخِصيان الخادمين في القصر ...
وهي في مكة المكرمة والمدينة المنورة لفظة خاصة بخدمة الحرمين الشريفين...

وقال بعض العلماء : إن كلمة التصوف مشتقة من الصفاء أي صفاء النفس من الأكدار والأمراض كالحسد [١]والحقد والغش [٢] والبغضاء [٣]والعجب والكبر [٤] وحب الظهور والتعالي[٥]
وذلك بمقتضى مقام وموقف قوله تعالى في حق النبي الكريم صلى الله عليه وسلم : { ويزكيكم } ومراتب التزكية هي :
تزكية القلب وتطهيره من الشرك بأنواعه
وتزكية الأعمال من العمل الفاحش
وتزكية الأقوال بالتباعد عن منكرات القول وبالتزام الكلم الطيب
وتزكية الأخلاق والآداب بالتباعد عن الرذائل والتحلية بالفضائل
وقال السهروردي [٦] : « وقيل : سُمّوا صوفية ؛ نسبةً إلى الصفَّة .. وهذا وإن كان لايستقيم من حيث الاشتقاق اللغوي ، ولكنه صحيح من حيث المعنى ؛ لأن الصوفية يشاكلهم حال أولئك ، لكونهم مجتمعين متآلفين ، متصاحبين لله ، وفي الله ، كأصحاب الصفَّة [٧]

[١] روى الإمام أبو داود في سننه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : [إياكم والحسد فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب] أو قال : [العشب]
ورواه ابن ماجه في سننه عن أنس بن مالك رضي الله عنه
[٢] عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :
[من غش فليس منا] وهو طرف حديث رواه أصحاب السنن
[٣] روى الترمذي في سننه عن الزبير بن العوام رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : [دَبَّ إليكم داء الأمم قبلكم الحسد والبغضاء ، هي الحالقة ، لا أقول :تحلق الشعر ولكن تحلق الدين]
[٤] روى الإمام أحمد في مسنده والبخاري في صحيحه واللفظ له عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :
[لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كِبر]
[٥] روى البخاري في صحيحه عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : [من جر ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة]
ورواه مسلم وأصحاب السنن
[٦]أبو الفتوح شهاب الدين يحيى بن حبش بن أميرك ولد بسهرورد (إحدى قرى زنجان في بلاد العجم) توفي رحمه الله سنة ٥٨٧ هـ
[٧] انظر عوارف المعارف ، ٥/ ٨٤

وقال الكلاباذي [1]:

« وقال قوم : إنما سموا صوفية ؛ لأنهم في الصف الأول بين يدي الله عز وجل بارتفاع هممهم إليه ، وإقبالهم عليه ، ووقوفهم بسرائرهم بين يديه [2]

وقال بعض العلماء : إن كلمة التصوف مأخوذة من لبس الصوف لأنه كان منتشراً كثيراً باعتبار اعتمادهم الكبير على الضأن، فلبس الصوف يدل على الزهد في الدنيا بل العزوف عنها . اهـ .

وقال الإمام القرطبي عند تفسيره لقوله تعالى :

{ والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون } :

دلت هذه الآية على لباس الصوف، وقد لبسه رسول الله صلى الله عليه وسلم والأنبياء قبله كموسى وغيره.

وفى حديث المغيرة: فغسل وجهه صلى الله عليه وسلم وعليه جبة من صوف...[3]

قال ابن العربي: وهو شعار المتقين ولباس الصالحين وشارة الصحابة والتابعين، واختيار الزهاد والعارفين، وهو يُلبس ليناً وخشناً وجيداً ومقارباً ، وإليه نسب جماعة من الناس الصوفية، لأنه لباسهم في الغالب، فالياء للنسب والهاء للتأنيث اللفظي . اهـ .

وقال الحسن البصري رضي الله عنه :

(والله لقد أدركت سبعين بدرياً أكثر لباسهم الصوف ، ولو رأيتموهم لقلتم : مجانين ، ولو رأوا خياركم لقالوا : ما لهؤلاء عند الله من خَلاق ، ولو رأوا شراركم لقالوا : ما يؤمن هؤلاء بيوم الحساب ، ولقد رأيت أقواماً كانت الدنيا أهون على أحدهم من التراب تحت قدميه ، ولقد رأيت أقواماً يمشي أحدهم وما يجد عنده إلا قوتاً ، فيقول : لا أجعل هذا كله في بطني ، لأجعلن بعضه لله عز وجل ، فيتصدق ببعضه ، وإن كان هو أحوج ممن تصدّق به عليه) [4]

---

[1] الإمام الصوفي أبو بكر محمد بن إسحاق البخاري الكلاباذي، صاحب كتاب (التعرف على مذهب أهل التصوف) توفي سنة ٣٨٠ هـ رحمه الله

[2] التعرف لمذهب أهل التصوف ، ص ٢٦ ـ ٢٧

[3] صحيح البخاري كتاب اللباس وصحيح مسلم كتاب الطهارة

[4] رواه أبو نعيم في الحلية عن علقمة بن مرثد وأورده المزي في تهذيب الكمال والحسين بن محمد بن إبراهيم الحنائي في كتابه العاشر من الحنائيات والحسن بن علي الجوهري في حديث أبي الفضل الزهري .

وقد قال صلى الله عليه وسلم في الحث على الزهد :
[ازهد في الدنيا يحبك الله ، وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس] [1]
ولا يحصّل العبد الزهد في الدنيا ومتاعها وأموالها وزخارفها إلا بمجاهدته لنفسه وإيمانه الجازم بأن ما عند الله خير وأبقى .
وقال السهروردي : « ذهب قوم إلى أنهم سُمّوا صوفية نسبة لهم إلى ظاهر اللبسة ؛ لأنهم اختاروا لبس الصوف لكونه أرفق ، ولكونه كان لباس الأنبياء عليهم السلام - أي كان جلّ لباسهم - فكان اختيارهم للبس الصوف لتركهم زينة الدنيا ، وقناعتهم بسد الجوعة ، وستر العورة ، واستغراقهم في أمر الآخرة ، فلم يتفرغوا لملاذ النفوس وراحتها ، لشدة شغلهم بخدمة مولاهم - أي عبادته وطاعته فيما أمر - ، وانصراف همّهم إلى أمر الآخرة ، وهذا الاختيار يلائم ويناسب من حيث الاشتقاق ؛ لأنه يقال : تصوَّف ؛ إذا لبس الصوف ، كما يقال : تقمَّص ؛ إذا لبس القميص[2]
قلت : وهذه الأقوال في تعريفهم متلازمة مجتمعة فيهم لأنهم تحققوا بصفاء النفس والزهد في الدنيا والاقتداء بالصحابة أهل الصفاء .
وقد نحا إلى هذا الرأي الكلاباذي ؛ حيث صحح نسبة الصوفية إلى جميع ماذكر باعتبار المعنى ، وإن كان يقر باستحالة ذلك لغة ، قال :
« وأما من نسبهم إلى الصُّفَّة والصوف ؛ فإنه عبر عن ظاهر أحوالهم ؛ وذلك أنهم قوم قد تركوا الدنيا.
ومن نسبهم إلى الصّفّة والصف الأول ؛ فإنه عبر عن أسرارهم وبواطنهم فقد اجتمعت هذه الأوصاف كلها ، ومعاني هذه الأسماء كلها في أسامي القوم وألقابهم ،وصححت هذه العبارات ، وقربت هذه المآخذ.
وإن كانت هذه الألفاظ متغيرة في الظاهر؛ فإن المعاني متفقة وجميعها مأخوذة من التخلي عن الدنيا ، وعزوف النفس عنها [3]
وقال الشيخ الإمام رضي الله عنه في تسمية الصوفي ومن هو :
أجمع ما قيل في وصفه :
تشاجر الناس في الصوفي واختلفوا فيه وظنوه مشتقاً من الصوف
ولست أنحل هذا الاسم غير فتى صافى فصوفي حتى سمي الصوفي [4]

---

[1] مستدرك الحاكم كتاب الرقاق واللفظ له عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه وابن ماجه في سننه كتاب الزهد
[2] انظر كتاب (عوارف المعارف)
[3] التعرف لمذهب أهل التصوف ٢٧ - ٣٢
[4] وقد تحقق بهذا المقام أصحاب سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم كما في الحديث الذي رواه الإمام أحمد والنسائي عن عبد الله بن عمرو بن العاص لما تَبِع سعد بن

وقال شيخنا الإمام رضي الله عنه :
وهذه الأسماء : (التصوف) و (الصوفي) و(الصوفية)
وإن لم تكن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فهي ليست بدعة لأن حقيقتها كانت موجودة ، إذ إن كل صحابي رضي الله عنه كان صوفياً على الحقيقة ، أي زكي النفس طاهر القلب طيباً متحلياً بالفضائل والمكارم والآداب الشرعية على أتمّ وجه ، لأنهم كانوا في سيرتهم وسلوكهم على مرأى ومسمع وعِلم من سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
فبذلوا جهدهم في التحقق بجميع ما جاء به سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي أرسله الله مزكياً للعالمين ، قال تعالى :{ ويزكيكم }
وقد تقدم بيان ذلك .
وقال تعالى :
{ قد أفلح من زكّاها } أي زكّى نفسه بتزكية رسول الله صلى الله عليه وسلم { وقد خاب من دسّاها } .
وقال سبحانه :{ قد أفلح من تزكّى }
وفي الحديث عن عبد الله بن معاوية الغاضري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : [ثلاث من فعلهن فقد طَعِم طعْم الايمان :
من عَبَدَ الله وحده فإنه لا إله إلا الله ، وأعطى زكاة ماله طيبة بها نفسه في كل عام ، ولم يعط الهرمة ولا الدرنة ولا الشرط اللئيمة ولا المريضة [1] ولكن من أوسط اموالكم ، فإن الله عزوجل لم يسألكم خيره ، ولم يأمركم بشره ، وزكّى نفسه ، فقال رجل : ما تزكية المرء نفسه ؟
قال :أن يعلم أن الله معه حيثما كان [2]
فقوله صلى الله عليه وسلم : [أن يعلم أن الله معه حيثما كان] أي أن يراقب العبد معيّة الله له فيخشاه ويستحي أن يعصيه ، ولذلك أوصى بعضهم تلميذاً له بقوله : (إذا أردت أن تعصي الله فاعصه حيث لا يراك) .

أبي وقاص وكان قد سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول فيه : يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة ، وبات عنده ثلاث ليال ليرى عمله ثم سأله ما الذي بلغ به ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فأجابه : ما هو إلا ما رأيت ، غير أني لا أجد في نفسي لأحد من المسلمين غشاً ، ولا أحسد أحداً على خير أعطاه الله إياه .
[1] قال في عون المعبود شرح سنن أبي داود :
الدرنة - بفتح الدال بعدها راء مكسورة - هي الجرباء ، والشرط - بفتح الشين و الراء - هي صغار المال وشراره ، واللئيمة هي البخيلة باللبن .
[2] رواه البخاري في التاريخ الكبير والبيهقي في السنن الكبرى والطبراني في المعجم الصغير وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني وأبو نعيم في معرفة الصحابة

وقد بين صلى الله عليه وسلم معنى الإحسان فقال :
[أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك] [١]
وفي رواية : [أن تخشى الله كأنك تراه] [٢]
والمعنى : أن تعبد الله مشاهداً له ببصيرة قلبك كأنك تراه ببصر عينيك ـ وهذا مقام المشاهدة القلبية ـ ، فإن لم تتمكن من ذلك فكن من أهل مقام المراقبة ـ وهذا دون مقام المشاهدة ـ أي راقب مراقبة الله عليك ، قال تعالى :{ إنه كان عليكم رقيباً } مما يحملك على ترك معصيته والعمل بطاعته جل وعلا ، وهذا يتطلب من الإنسان أن يجاهد نفسه على ذلك بأنواع المجاهدات والرياضات التي ترقّق القلب وتطهّر النفس .
وقد نَصَّ أئمة القوم على بيان تفاصيلها ، ومنها كثرة صلاة النوافل وصيام النوافل وتلاوة القرآن والاستغفار واستذكار الموت وغير ذلك ، وفي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم :
[والمجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله] [٣]
وقد سمّى صلى الله عليه وسلم جهاد النفس بـ الجهاد الأكبر ففي الحديث عن جابر رضي الله عنه قال : قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم قوم غُزاة ، فقال صلى الله عليه وسلم :
[قدمتم خير مَقْدَم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر]
قالوا : وما الجهاد الأكبر ؟
قال :[مجاهدة العبد هواه] [٤]
وقد أوصى صلى الله عليه وسلم أصحابه بالتحقق بمقام الإحسان الذي أشرنا إلى بيانه فقال لابن عمر رضي الله عنهما : [اعبد الله كأنك تراه] [٥]
وأوصى صلى الله عليه وسلم معاذ بن جبل رضي الله عنه بذلك [٦]
وقال صلى الله عليه وسلم لأبي الدرداء رضي الله عنه :
[اعبد الله كأنك تراه ، فإن كنت لا تراه فإنه يراك] [١]

---

[١] طرف حديث في صحيح مسلم كتاب الإيمان وسنن الترمذي كتاب الإيمان عن عمر رضي الله عنه
[٢] طرف حديث في صحيح مسلم كتاب الإيمان عن أبي هريرة رضي الله عنه
[٣] طرف حديث في المسند ٢٤٠٠٤ وصحيح ابن حبان كتاب السير عن فضالة بن عبيد
[٤] رواه البيهقي في الزهد الكبير وعزاه في كنز العمال للديلمي ورواه الخطيب في تاريخه
[٥] المسند ٥٨٨١
[٦] انظر المعجم الكبير للطبراني

فيكون معنى قوله صلى الله عليه وسلم :[وزكّى نفسه]
أي صار صوفياً على الحقيقة ، وإن لم يكن هذا الاسم معروفاً بينهم كما هو شأن أوصاف أخرى ، وإذا أصر المعاند على أنها لم تكن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذا الاسم فهي بدعة فيقال :
إن كثيراً من الأسماء والأوصاف لم تكن موجودة بالوصف والاسم في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكنها كانت موجودة في الحقيقة ،
والاعتبار كله للحقائق لا للأسماء فقط ، فإن كلمة الزاهد لم يكن يوصف بها أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مع أنهم كلهم زهّاد وأئمة في الزهد .
روى الطبراني في المعجم الكبير والبيهقي في الشُّعب عن الحارث بن مالك الأنصاري رضي الله عنه أنه مر برسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له :
[كيف أصبحت يا حارث] ؟
" قال : أصبحت مؤمناً حقاً .
فقال صلى الله عليه وسلم : [انظر ما تقول ، فإن لكل شيء حقيقة ، فما حقيقة إيمانك] ؟
فقال : قد عزفت نفسي عن الدنيا ، وأسهرتُ لذلك ليلي ، وأظمأتُ نهاري ، وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزاً ، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها ، وكأني أنظر إلى أهل النار يتضاغون فيها - يصيحون كالعواء-
فقال صلى الله عليه وسلم : [يا حارث عرفتَ فالزم] ثلاثاً
وروى أبو نعيم وغيره عن أنس بن مالك أن معاذ بن جبل رضي الله تعالى عنه دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال:
[كيف أصبحت يا معاذ] ؟
قال: أصبحت مؤمناً بالله تعالى .
قال: [إن لكل قول مصداقاً، ولكل حق حقيقة ، فما مصداق ما تقول] ؟
قال: يانبي الله ما أصبحتُ صباحاً قط إلا ظننت أني لا أُمسي، وما أمسيت مساء قط إلا ظننت أني لا أصبح، ولا خطوتُ خطوة إلا ظننت أني لا أُتبعها أخرى، وكأني أنظر إلى كل أمة جاثية تدعى إلى كتابها ، معها نبيها ، وأوثانها التي كانت تعبد من دون الله، وكأني أنظر إلى عقوبة أهل النار وثواب أهل الجنة .

[1] كما في شعب الإيمان للبيهقي

فقال صلى الله عليه وسلم : [عرفت فالزم] [1]
وقد تحققوا بالزهد عملاً بقول الرسول صلى الله عليه وسلم:
[ازهد في الدنيا يحبك الله ، وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس] [2]
فكلمة :(مفسّر) لم تكن موجودة على عهد سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مع أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يفهمون القرآن كلٌّ على حسب ما سمعه أو فهمه ، على وجه لا يخالف أصول الدين ، فيكون أبو بكر مفسراً وعمر مفسراً وابن مسعود مفسراً رضي الله عنهم أجمعين ... واشتهر ابن عباس رضي الله عنهما حبر الأمة بالتفسير ، فهو مفسر على الحقيقة وإن لم يُقَل عنه ذلك ، فهل تَعتبر كلمة (المفسر الفلاني) بدعة ؟
وكذلك كلمة (المحدّث) لم تكن موجودة بالاسم على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مع أن كل الصحابة حدّثوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي أمرهم بذلك فقال : [بلِّغوا عني ولو آية] [3]
فهل كلمة (محدّث) بدعة ؟
وكذلك كلمة (حافظ) فيقال : (الحافظ الفلاني) ولم تكن تُطْلق على أحد على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مع أن كل الصحابة كانوا حفاظاً لأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم .
وكذلك باقي الأوصاف الدينية والشرعية ككلمة (الفقيه الفلاني) ، فكان كل الصحابة فقهاء أي علماء بأحكام الدين والحلال والحرام ، وكانوا كلهم عُرَفاء أي عارفين بالله تعالى ، متحققين بالإيمان الكامل بالله تعالى والعلم بكمالاته جل وعلا .
وقال ابن عباس رضي الله عنهما : في تفسير قوله تعالى :
{ وما خلقت الإنس والجن إلا ليعبدون } أي ليعرفون [4] اهـ
وقال شيخنا رضي الله عنه : أي فإن عرفوني عبدوني ، أي عرفوا أني ربهم ، خالقهم وممدهم ومربيهم ورازقهم ، ولزم من ذلك أن يعبدوني .
قال تعالى :
{ يا أيها الناس اعبدوا ربكم } أي لأنه ربكم وخالقكم .

---

[1] انظره في حلية الأولياء لأبي نعيم ومسند الشهاب القضاعي وطبقات المحدثين بأصبهان لأبي الشيخ الأصبهاني
[2] تقدم تخريجه
[3] مسند الإمام أحمد ٦١٩٨ وصحيح البخاري كتاب أحاديث الأنبياء عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما
[4] انظر تفسير الألوسي للآية الكريمة وجامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر

ولما أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم معاذ بن جبل رضي الله عنه إلى اليمن أوصاه فقال : [إنك ستأتي قوماً أهل كتاب ، فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله] [1]

وفي رواية : [إنك تقدم على قوم أهل كتاب ، فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله ، فإذا عرفوا الله] - أي تحققوا بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وما تقتضيه من الإيمان بمعانيها التي تتعلق بأسماء الله وصفاته جل وعلا - [فأخبِرْهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم] ... الحديث [2]

وكذلك كلمة : (الأصولي) و(النحوي) و(اللغوي) ، فإن كل الصحابة كانوا علماء في أصول الفقه ، أي يعلمون كيفية استنباط الأحكام من الكتاب والسنة .

يدلك على هذا ما رواه الإمام أحمد وأصحاب السنن أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لمعاذ بن جبل رضي الله عنه حين بعثه إلى اليمن :

[كيف تقضي إن عرض لك قضاء] ؟

قال : أقضي بكتاب الله ، قال : [فإن لم يكن في كتاب الله] ؟

قال : فبِسُنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ،

قال : [فإن لم يكن في سنة رسول الله] ؟

قال : أجتهد رأيي ولا آلو - بالمد في أوله وضم اللام أي : لا أقصّر - ،

قال سيدنا معاذ رضي الله عنه :

فضرب صلى الله عليه وسلم صدري فقال : [الحمد لله الذي وَفَّق رسولَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم لِما يرضي رسوله] [3]

ومما تقدم وغيره يتبين لك أنك إذا قلت أن كلمة (التصوف) بدعة فإن كل الأوصاف التي ذكرناها بدعة ، مع أنها تطلق على علماء الدين حتى عصرنا هذا ، ويلزمك إذاً أن تقول : إن كلمة (المفسر) بدعة لأنها لم تكن على عهد سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكلمة (محدّث) بدعة لأنها لم تكن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكلمة (حافظ) كذلك ، وكلمة (الفقيه) ، وكلمة (إمام) ، وغيرها ، وهذا لا يسعك ، لأنك إذا قلت ذلك فقد سلكت مسلك الجهل والحمق .

---

[1] صحيح البخاري كتاب الزكاة
[2] صحيح البخاري كتاب الزكاة وصحيح مسلم كتاب الإيمان
[3] المسند ٢١٠٠٠ وسنن الترمذي كتاب الأحكام وسنن أبي داود كتاب الأقضية

فنقول : إذاً وكلمة (صوفي) لم تكن موجودة بهذا الاسم على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لكن حقيقة التصوف موجودة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكل صحابي صوفي كما تقدم ، فهي موجودة بحقيقتها ، لا بالاسم المجرد عن المعنى فلا تقل : هي بدعة .
ويجب التفريق بين التصوف العملي والتصوف العلمي ، أما التصوف العملي : فهو يُعنى بتزكية الإنسان نفسه اعتقاداً وعملاً وقولاً ، وذلك بالتحقق بالأوامر الشرعية ، ويشمل تخلية النفس عن النقائص والعيوب والآفات والرذائل ، وهي تشمل جميع الذنوب والمعاصي كبيرها وصغيرها ، والتحلي بالفضائل والمكارم والآداب الشرعية التي جاء بها سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن تزَكّى بتزكية سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو يسعى لترقية نفسه في مراتب الكمال البشري ، إلى أن يصل إلى مقام النفس المطمئنة التي سكنت واستقرت على شرع الله تعالى بما تضمّنه من أقوال وأفعال وأخلاق وآداب ، وصارت أهلاً لخطاب الله لها :
{ يا أيتها النفس المطمئنة * ارجعي إلى ربك راضية مرضية }
والنفس المطمئنة على مراتب أيضاً في الكمال والأكمل .
وأما التصوف العلمي فهو علم موضوعه :
(المعارف الإلهية [1] والحقائق الإيمانية)[2] أي علم توحيد الله تعالى والمعرفة بكمالاته جل وعلا ، لذلك قال تعالى :{ فاعلم أنه لا إله إلا الله } مع أنه صلى الله عليه وسلم يعلم أنه لا إله إلا الله ، أي لا معبود بحق إلا الله ، ولكن المراد العلم بالله وبكمالاته ومظاهر أسمائه في خلقه ، وهذا علم لا نهاية له ، لأنه يتعلق بمن لا يتناهى في أسمائه وصفاته جل وعلا .

---

[1] تقدم دليله في قوله صلى الله عليه وسلم لمعاذ : [فإذا عرفوا الله]
[2] تقدم دليله في قوله صلى الله عليه وسلم للحارث :
[انظر ما تقول ، فإن لكل شيء حقيقة ، فما حقيقة إيمانك]؟
وروى ابن النجار في تاريخه عن رزين بن حصين رضي الله عنه قال : قرأت القرآن من أوله إلى آخره على علي بن أبي طالب ، فلما بلغت الحواميم قال : قد بلغت عرائس القرآن ، فلما بلغت اثنتين وعشرين آية من {حمعسق}بكى ثم قال : اللهم إني أسألك إخبات المخبتين ، وإخلاص الموقنين ، ومرافقة الأبرار واستحقاق حقائق الايمان - وهنا موضع الشاهد - ، والغنيمة من كل بر والسلامة من كل إثم ورجوت رحمتك ، والفوز بالجنة ، والنجاة من النار ثم قال : يا رزين إذا ختمت فادع بهذه فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرني أن أدعو بهن عند ختم القرآن .

وهذا معنى قوله تعالى :{ وقل رب زدني علماً } أي علماً بك وبأسمائك وكمالاتك ، لا علم الحلال والحرام وأحكام الشريعة فإن الله سيوحيها إليه صلى الله عليه وسلم كاملة تامة ليبلغها الناس ، قال تعالى :
{ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا }
وقال سبحانه :{ ثم إن علينا بيانه } أي بيان معاني القرآن لك يا رسول الله صلى الله عليه وسلم .
وقد شهد الله تعالى لصحابة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالصدق والإخلاص في أقوالهم وأعمالهم وأحوالهم ، فقال تعالى :
{ تراهم رُكّعاً سُجّداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً }
أي قصدهم وغايتهم من طاعتهم له هو رضا الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وهذا هو الإخلاص .
وقال تعالى :
{ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ }
وشهد لهم سبحانه بالإيمان الحق - أي تحققوا بجميع شعب الإيمان وزادوا في نوافلها - فقال جل وعلا :
{ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ }
وقد بين سبحانه صفات المؤمنين حقاً في أول السورة فقال :
{ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ }
فمن تحقق بهذه الخصال وقام بمقتضاها ترقى في مقامات أهل الإيمان الحق - وانظر بيان هذه الآيات في كلام الشيخ الإمام رضي الله عنه في محاضراته حول عالم الجنة - . اهـ
وقال الإمام الجنيد رضي الله عنه : من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث لا يُقتدى به في هذا العلم ، لأن علمنا - أي علم التصوف العلمي المتعلق بالمعارف الإلهية والحقائق الإيمانية - مقيّد بالكتاب والسنة [1] . اهـ

[1] انظر تفسير الألوسي لقوله تعالى :
{ وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة }
والبداية والنهاية لابن كثير ، والرسالة القشيرية

واعلم أن لهذا العلم مصطلحاته وإشاراته الخاصة به ، كما هو الحال في بقية العلوم كعلم الفقه وعلم مصطلح الحديث وعلم النحو والصرف وغيرها ..
ولبيان ذلك نقول :
لو قُدّر لرجل غير متعلم لا يقرأ ولا يكتب لو قدّر له أن يحضر مجلس علم النحو ، وجعل المدرس يسأل أحد طلابه : ما هي أدوات الجر ؟
فإن أول ما ينصرف إليه ذهن هذا الرجل هو الأدوات التي تُجرّ بها العربات والأمتعة وهكذا .
ولو قال لهم : ما هي أدوات النصب ؟
لربما فهم فهماً غريباً عجيباً .
ولو سأل المدرس طالباً : ما هو إعراب كلمة (الله) في قوله تعالى :
{ وإنه بسم الله الرحمن الرحيم} وقال الطالب : هي اسم الجلالة وموقعها من الإعراب : اسم مجرور ، لَذَهَب فكر هذا الرجل إلى غير ذلك واعترض عليهم وربما اتهمهم بالكفر وسوء الأدب مع الله تعالى ، فيقال له :
لا تعترض ولا تنتقد ، فإن الإنسان عدو ما جهل ، وإن للذي سمعته مدلوله الذي يفهمه طلابه ، فإن لكل علم مصطلحاته ورموزه وإشاراته ، فينبغي أن تتعلمها وتتقنها ، حتى إذا حضرت مجلس علم النحو فهمت المراد ، وما اعترضت وانتقدت .
وهذا ينطبق في المسموع والمقروء ، فلو قرأ أحدهم في كتب الحديث ورأى فيها مثلاً : كلمات : صحيح - حسن - ضعيف - منكر - مرفوع - موقوف - معضل ... الخ
لفهم غير المراد ، فنقول له :
ابحث في مدلول هذه المصطلحات لتفهم مراميها حين تقرأ كتب الحديث .
وإن علم التصوف العلمي له مصطلحاته ورموزه وإشاراته ، فمن أراد أن يقرأ في كتبه بقصد التعلم لا الاعتراض والانتقاد والتهمة بالزندقة والكفر لمصنفيها فيقال له :
يجب أن تتعلم مصطلحات القوم في هذا العلم لتفهم شيئاً من معاني أقوالهم ، ولا تتعجل برميهم بالزندقة ، وإذا لم تفهم فاعدل عن كتبهم إلى ما تفهمه لتسلم من سوء فهمك وسوء ظنك بهم ، ولا تتجرأ على تكفيرهم بسبب سوء فهمك فقد قال تعالى :
{ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا }

وقال صلى الله عليه وسلم : [أيّما امرئ قال لأخيه : (يا كافر) فقد باء بها أحدهما إن كان كما قال ، وإلا رجعت عليه] [1]
وروى الإمام أحمد وغيره أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :
[ومن رمى مؤمناً بكفر فهو كقتْله] [2]
وقد يجد القارئ لكتبهم أشياء تناقض أصول الدين ، وظاهرها الكفر الصريح ، ولا تحتمل التأويل ، فهي من دسائس المغرضين والحاقدين وأعداء الدين ، كما هو الشأن في باقي العلوم التي لم تَخْلُ من دسائس وأكاذيب ، ولا تعجب من ذلك فهناك قوم كذبوا على الله ـ ولله المثل الأعلى ـ فنسبوا له البنات والولد وبدّلوا آيات بغير ما أنزل الله ، قال تعالى :
{ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ }
وقال سبحانه : { وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ}
وقال جل وعلا : { وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ }
وهناك قوم كذبوا على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد تصدى لهم المحدّثون ببيان الأحاديث الصحيحة من الموضوعة .
وكذلك فهناك قوم كذبوا على أئمة القوم ودسّوا في كتبهم ، وتقوّلوا عليهم ما لم يقولوا ، وقد نصّ الإمام الشعراني رضي الله عنه على هذا في أحد كتبه ، وبيّن أنهم دسوا عليه في حال حياته ، كما فعلوا ذلك مع الشيخ الأكبر ابن عربي رضي الله عنه .
قال الشيخ البلقيني :
(كذب واللهِ وافترى مَنْ نَسَبَهُ ـ يقصد الشيخ الأكبر ـ إلى القول بالحلول والاتحاد) .
وهناك عدة وثائق تثبت أن كتاب الفتوحات تعرّض للدس والتزوير .
قال الإمام الشعراني في اختصاره للفتوحات :
وقد توقفتُ حال الاختصار في مواضع كثيرة منه لم يظهر لي موافقتها لما عليه أهل السنة والجماعة ، فحذفتها من هذا المختصر ، وربما سهوت فتتبعت ما في الكتاب كما وقع للبيضاوي مع الزمخشري ، ثم لم أزل كذلك أظن المواضع التي حذفت ثابتة عن الشيخ محي الدين حتى قدم علينا الأخ العالم الشريف شمس الدين أبو الطيب المدني ـ المتوفى سنة ٩٥٥ هـ ـ

[1] صحيح مسلم كتاب الإيمان عن ابن عمر رضي الله عنهما
[2] طرف حديث في المسند ١٥٧٩٠ وصحيح البخاري كتاب الأدب عن ثابت بن الضحاك رضي الله عنه

فذاكرته في ذلك ، فأخرج إلي نسخة من الفتوحات التي قابلها على النسخة التي عليها خط الشيخ محي الدين نفسه بقونية ، فلم أر فيها شيئاً مما توقفت فيه وحذفته ، فعلمت أن النسخ التي في مصر الآن كلها كتبت من النسخة التي دسّوا فيها على الشيخ)[1]

وهناك وثيقة أخرى تثبت أن الشيخ الأكبر لاحظ أن كتابه داخله التحريف والتغيير ، فأعاد كتابته وترك نسخة أصلية عليها خط يده كمرجع ، فقد ذكر المقريزي [2]- وهو المعروف بدقته وتثبته - ذكر أن الشيخ الأكبر أرسل يستأذن الشيخ ابن الفارض في شرح تائيته ، فقال ابن الفارض رحمه الله :

(كتابك المسمى بـ الفتوحات المكية شرحٌ لها) [3]

- وفي هذا إقرار من الشيخ ابن الفارض رضي الله عنه بصحة نسخة الفتوحات الموجودة عند الشيخ الأكبر رضي الله عنه دون تلك التي داخلها التحريف والتبديل - اهـ .

وقال شيخنا الإمام رضي الله عنه :

هناك من زعم بنجاة فرعون مستدلاً بقول الله تعالى :

{ فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية }

وبما ورد في بعض كتب الشيخ الأكبر رضي الله عنه أن فرعون ناج . اهـ

فقال رضي الله عنه في الرد عليهم :

قال الله تعالى :

{ وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ * وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ * فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ }

فقد قرن الله تعالى ذكر فرعون مع من أهْلَكَ من قارون وعاد وثمود وهامان وغيرهم ، وأخبر الله تعالى أنه أغرقه وأخذه بذنبه .

---

[1] اليواقيت والجواهر للإمام الشعراني ٩/١

[2] هو أحمد بن علي بن عبد القادر، أبو العباس الحسيني العبيدي، تقي الدين المقريزي: مؤرخ الديار المصرية أصله من بعلبك، ونسبته إلى حارة المقارزة - من حارات بعلبك في أيامه- ولد ونشأ ومات في القاهرة سنة ٨٤٥ هـ رحمه الله تعالى

[3] انظر كتاب : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ٥٧٠/١ لمؤلفه أبي العباس شهاب الدين أحمد بن محمد التلمساني المالكي المتوفى سنة ١٠٤١ هـ رحمه الله

أما نجاة بدنه فالمراد منها : أنه لما أُغرق في البحر رمته الأمواج إلى الشاطئ بأمر الله ، وأما أتباعه فقد غرقوا في البحر .
والحكمة من ذلك كما أخبر الله تعالى :{ لتكون لمن خلفك آية }
أي عبرة ، فينظر إليه الناس على أن فرعون الذي ادعى الربوبية ، هذا مصيره .
ويرد ها هنا سؤال : لم جيء بالباء في قوله تعالى : { ننجيك ببدنك }
ولم يقل سبحانه : ننجّي بدنك أو ننجّيك ؟
والجواب : أن الباء هنا تفيد التضمين ، والمعنى المقدر هو : ننجيك من أن تأكلك حيتان البحر ، ونزيحك ببدنك أو نزيح بدنك ، أي نخرجه من البحر ليراه الناس ، فحرف الباء هنا جاء ليحل محل كلمة : (نزيحك)
وقال تعالى أيضاً { أدخلوا آل فرعون أشد العذاب } أي فرعون وآله ، نظيره قوله تعالى { إلا آل لوط نجيناهم بسحر } أي نجينا لوطاً عليه السلام ونجينا آلهُ .
وقال تعالى :{ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ }
قال الشيخ الإمام في بيان هذه الآية : ليس الذهاب إلى النار ذهاباً لنزهة ، فإن سموم النار يلفح القادم إليها قبل وصوله إليها بخمسمائة عام [1]. اهـ .
ينفي رضي الله عنه بذلك قول من قال :
(إن فرعون يُدخل قومه النار ثم يرجع إلى الجنة) .
ويقول رضي الله عنه :
وكيف يتركه قومه يرجع إلى الجنة وهو الذي كان سبباً في ضلالهم وكفرهم ، وهو الذي أمرهم أن يعبدوه ؟!

---

[1] قال القرطبي في تفسيره : قال ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير قوله تعالى : " لواحة للبشر " أي تلوح للبشر من مسيرة خمسمائة عام . اهـ .
وقال الشيخ إسماعيل حقي في تفسيره :
{ لواحة للبشر } يقال لاحت النار الشيء اذا أحرقته وسوّدته .
قيل : إنها تلوح للبشر من مسيرة خمسمائة عام ، فهو كقوله تعالى : { وبرّزت الجحيم لمن يرى } فيصل الى الكافر سمومها وحرورها ، كما يصل الى المؤمن ريح الجنة ونسيمها من مسيرة خمسمائة عام .
وقال الألوسي في تفسيره :
وفي بعض الآثار أنها تلفح الجلد لفحة فتدعه أشد سواداً من الليل ، وقد جاء أنها تظهر لهم من مسيرة خمسمائة عام .
وروى ابن أبي الدنيا في كتاب : صفة النار وابن أبي شيبة في مصنفه عن أبي رزين : في قوله تعالى : (لواحة للبشر) قال : « تدع جلده أشد سواداً من الليل »

وقال تعالى : { فأخذه الله نكال الآخرة والأولى }
وقال تعالى : { فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم وهومليم }
وقال تعالى : { فأخذناه أخذاً وبيلاً }
وقال تعالى : { وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ * كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ }
وروى الدارمي وغيره عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه ذكر الصلاة يوماً فقال :
[من حافظ عليها كانت له نوراً وبرهاناً ونجاة من النار يوم القيامة ، ومن لم يحافظ عليها لم تكن له نوراً ولا نجاة ولا برهاناً ، وكان يوم القيامة مع قارون وفرعون وهامان وأبيّ بن خلف] [1]
فهذا دليل صريح على أن فرعون في جهنم ، فلو أُخرج فرعون من النار لأُخرج تارك الصلاة الجاحد فرضيتها ، وهذا غير وارد بنص الحديث ، بل هو شيء مستحيل .
فقد جاءت الآيات والأحاديث تخبر بأن فرعون في جهنم مع أتباعه ،
ولم يرِد نص بنجاته لا عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا عن صحابته ولا عن التابعين .
ومن زعم أن فرعون الذي أخبر الله عن إهلاكه وأنه من أهل النار هو غير فرعون موسى ، بدعوى أن الفراعنة قبله كُثُر ، فهذا قول باطل من جميع الوجوه والاعتبارات ، وهو تحريف صريح لكلمات الله عن مواضعها ،
إذ ما شأننا بغير فرعون موسى حتى يخبرنا الله عنه ؟!
وإن جميع المناظرات التي جرت بين موسى وفرعون كانت مع فرعون الذي كان في زمن موسى قطعاً .
والعهد الذهني المعروف عن فرعون أنه فرعون موسى ، إذ لو كان غيره هو الهالك في جهنم على زعمهم لقيّد بقيد احترازي .
وقد سمع الصحابة الكرام من سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أبا جهل هو فرعون هذه الأمة ، فهو في مفهوم الصحابة واعتقادهم أنه ذلك الطاغية الهالك الذي أخبر الله عن خلوده في النار ،
ولو لم يكن كذلك عندهم لما أطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الوصف على أبي جهل حيث قال عنه : [هذا فرعون هذه الأمة] [1]

---

[1] في سننه في كتاب الرقائق ومسند الإمام أحمد ٦٢٨٨ وصحيح ابن حبان وشعب الإيمان للبيهقي ومسند عبد بن حميد وقال في مجمع الزوائد : رواه أحمد والطبراني في الكبير والأوسط ، ورجال أحمد ثقات .

ومن جعل قوله تعالى لموسى وهارون عليهما السلام :
{ اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى }
من جعله دليلاً على إيمان فرعون ونجاته فلا اعتبار لاستدلاله ، وذلك لأن لعل وعسى ـ كما قال حبر الأمة ابن عباس رضي الله عنهما ـ إذا دخلتا على فعل من أفعال الله تعالى فهما مُحققتا الوقوع ، لأن فيها الإطماع والكريم إذا أطمع لم يمنع .
وقد سئل ابن عباس رضي الله عنهما فقيل له :
لمَ كانت { لعل } من الله تعالى دالة على لزوم وقوع الفعل بعدها ؟
فقال : لأن لعل من الله تعالى فيها إطماع وإن الكريم إذا أطمع لا يمنع [2]
لكن (لعل) في هذه الآية المتقدمة لم تدخل على فعل من أفعال الله جل وعلا ، وإنما هي خطاب لموسى وهارون عليهما السلام ، فيكون المعنى : اذهبا إليه وأنتما ترجوان منه أن يتذكر أو يخشى ، ولا يكن كلامكما معه كلام اليائس من الآخر . اهـ
وأما ما نسب للشيخ الأكبر رضي الله عنه على أن فرعون ناج
فقد قال الشعراني رضي الله عنه :
(هو مدسوس ، وليس من كلام الشيخ الأكبر رضي الله عنه) .
وقال الشعراني يصف الشيخ الأكبر رضي الله عنهما :
(كان رضي الله عنه متقيداً بالكتاب والسنة، ويقول: كل مَنْ رمى ميزان الشريعة من يده لحظة هلك) ..
إلى أن قال: (وهذا اعتقاد الجماعة إلى قيام الساعة، وجميع ما لم يفهمه الناس من كلامه إنما هو لِعُلّو مراقيه ، وجميع ما عارض من كلامه ظاهر الشريعة وما عليه الجمهور فهو مدسوس عليه، كما أخبرني بذلك سيدي أبو طاهر المغربي نزيل مكة المشرفة، ثم أخرج لي نسخة الفتوحات التي قابلها على نسخة الشيخ التي بخطه في مدينة قونية ، فلم أر فيها شيئاً مما كنت توقفت فيه وحذفته حين اختصرت الفتوحات)..
ثم قال الشعراني رحمه الله تعالى: (إذا علمتَ ذلك، فيحتمل أن الحسدة دسّوا على الشيخ في كتبه، كما دسّوا في كتبي أنا، فإنه أمر قد شاهدته عن أهل عصري في حقي، فالله يغفر لنا ولهم آمين) [3] اهـ .

---

[1] مسند الإمام أحمد ٤٠٢٦ وسنن النسائي الكبرى وسنن البيهقي الكبرى ومسند أبي داود الطيالسي ومسند البزار

[2] انظر كتاب حول تفسير سورة الحجرات للشيخ الإمام رضي الله عنه

[3] (اليواقيت والجواهر) للإمام الشعراني ج١ ص٩

و القول بأن فرعون في الجنة أوالقول بقبول إيمان فرعون ، ورد ما يناقضه تماماً في كتب الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي رضي الله عنه حيث قال رضي الله عنه في الباب الثاني والستين من الفتوحات المكية:
(إن فرعون من أهل النار الذين لا يخرجون منها أبد الآبدين) . اهـ
والفتوحات آخر مؤلفاته فإنه فرغ منها قبل موته بنحو ثلاث سنين.
وقال رضي الله عنه أيضاً في الكتاب ذاته : [١]
(ولا موضع أقذر من موضع فرعون فإن المشرك نجس) . اهـ .
قلت: كيف يتفق كل هذا الكلام من التشنيع على فرعون ، مع ما يحاول البعض بأن يثبت أن الشيخ ابن عربي يقول بأن فرعون ناجٍ من النار؟!
وقال الشيخ الشعراني في (لطائف المنن) ما نَصّه :
(وليحذر أيضا من مطالعة كتب الشيخ محي الدين بن عربي رضي الله تعالى عنه لعلو مراقيها، ولما فيها من الكلام المدسوس على الشيخ لا سيما الفصوص والفتوحات المكية ، فقد أخبرني الشيخ أبو طاهر عن شيخه عن الشيخ بدر الدين بن جماعة أنه كان يقول :
جميع ما في كتب الشيخ محي الدين من الأمور المخالفة لكلام العلماء فهو مدسوس عليه، وكذلك كان يقول الشيخ مجد الدين صاحب القاموس في اللغة).
قلتُ - أي : الشعراني - : وقد اختصرتُ الفتوحات المكية وحذفتُ منها كل ما يخالف ظاهر الشريعة، فلما أُخبرت بأنهم دسّوا في كتب الشيخ ما يوهم الحلول والاتحاد وَرَد عليّ الشيخ شمس الدين المدني بنسخة الفتوحات التي قابلها على خط الشيخ بقونية فلم أجد فيها شيئا من ذلك الذي حذفته ففرحتُ بذلكَ غاية الفرح، فالحمد لله على ذلك "اهـ [٢].
فإن قيل : ولكنه اعتبر إيمان فرعون في مواضع ، ونسبه إليه بعض العلماء فنقول : وإن صح هذا فهو مُتأول قطعاً ، لأننا نقلنا من نفس الكتب أقوالاً تدل على اعتقاد الشيخ الأكبر ابن عربي بكفر فرعون .
والوارد والمنسوب للشيخ الأكبر إما أنه لا يصح ، أو أنه يُحمل على غير معناه ، ذلك لأن الشيخ الأكبر له رأي صريح في فرعون ذكره في الفتوحات المكية[٣] الباب الثاني والستين، في مراتب أهل النار فقال :

---

[١] ج ١ / ص ١٥٥٣
[٢] في الصفحة ٣٩٤
[٣] ج١ ص٣٦٣

ثم إن الذين خذلهم الله من العباد جعلهم طائفتين: طائفة لا تضرهم الذنوب التي وقعت منهم وهو قوله تعالى : { والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً } ، فلا تمسهم النار بما تاب الله عليهم واستغفار الملأ الأعلى لهم ودعائه لهذه الطائفة.

وطائفة أُخرى أخذهم الله بذنوبهم، والذين أخذهم الله بذنوبهم قسّمهم إلى قسمين:

قسم أخرجهم الله من النار بشفاعة الشافعين ، وهم أهل الكبائر من المؤمنين ، وبالعناية الإلهية وهم من أهل التوحيد بالنظر العقلي .

وقسم آخر أبقاهم الله في النار وهذا القسم هم أهل النار الذين هم أهلها وهم المجرمون خاصة الذين يقول الله فيهم :

{ وامتازوا اليوم أيها المجرمون }أي المستحقون بأن يكونوا أهلاً لسكنى هذه الدار التي هي جهنم ، وهؤلاء المجرمون أربع طوائف كلها في النار لا يخرجون منها وهم المتكبرون على الله كفرعون وأمثاله ممن ادعى الربوبية لنفسه ونفاها عن الله تعالى ، فقال - كما أخبر سبحانه عنه - :

{ يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري) ....اهـ

ولا نجد في مقولته المنسوبة إليه بنجاة فرعون - على فرض صحتها - ما يعبر بالضرورة عن مصير فرعون بل هو قول مؤوّل إن صح .

وعليه يلزم أن يكون هذا القول مدسوساً فيكون أحد القولين منسوباً إليه فالمنسوب الذي يتضمن القول بإيمان فرعون هو كذب باطل ، وبهذا صرح الشعراني في اليواقيت والجواهر حيث قال (والادعاء بأن الشيخ يقول بقبول إيمان فرعون هو كذب وافتراء على الشيخ) [1] اهـ .

و قد بينّا موقف الشيخ الأكبر ابن عربي الصريح كما هو وارد في الفتوحات ، فهو يرى أن فرعون لا يخرج من النار أبداً ، مما يلزم حمل الوارد في الفصوص على غير ظاهر الكلم .

وقد أشار الإمام الشعراني في (اليواقيت والجواهر) بأن ما نسب إلى الشيخ الأكبر من قوله بإيمان فرعون بالمعنى الدارج قوله بين عوام الناس مكذوب ولا يصح نسبته إلى ابن عربي كما تقدم .

---

[1](اليواقيت والجواهر) ص٢٥

*- ذكرى :

إن ما يُنسب إلى القوم من (الشطح في القول أو العمل) لم يكن مولانا الإمام الوالد رضي الله عنه يرتضي هذه الكلمة على إطلاقها العام ، لأن الشطح ربما فُهم منه الخروج أو الميل عن الحق في القول أوالعمل بما يخالف ظواهر نصوص الكتاب والسنة ، على أن كثيراً مما جاء عن القوم يحتمل التأويل بدون تكلّف أو تعسّف ، أو هو بيّن المعنى والمراد لمن أراد الفهم الصحيح لا الانتقاد الصريح .

وقد جاء في الحديث حمل كلام مَن سمعته على حسن الظن به ، فقد روى ابن ماجه في سننه والطبراني في مسند الشاميين عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه و سلم يطوف بالكعبة ويقول :
[ما أطيبك وأطيب ريحك ، ما أعظمك وأعظم حرمتك ، والذي نفس محمد بيده لَحُرْمة المؤمن أعظم عند الله حرمة منك ، ماله ودمه وأن لا يُظنّ به إلا خيراً] .

وروى ابن مردويه وابن النجار عن السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :
[من أساء بأخيه الظن فقد أساء الظن بربه عز وجل ، إن الله تعالى يقول:
{ اجتنبوا كثيراً من الظن }

وروى ابن أبي الدنيا [1] وابن عساكر في تاريخه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال :
(لا تَظُنُّ بِكَلِمَةٍ خَرَجَتْ مِنْ فِي - أي : فم - مُسْلِمٍ شَرًّا وَأَنْتَ تَجِدُ لَهَا فِي الْخَيْرِ مَحْمَلاً) . [2]

فالواجب على المسلم إذا سمع كلمة من أخيه المسلم توهم السوء ، أو أُخبر عنه بما يوهم السوء ، الواجب عليه : أن لا يظن به السوء بل يحملها على محمل حسن ما دام يجد لها في الخير محملاً ما ولو بعيداً .

وجاء في شعب الإيمان للبيهقي عن هشام بن الكلبي قال : قال جعفر بن محمد : (إذا بلغك عن أخيك الشيء تنكره فالتمس له عذراً واحداً إلى سبعين عذراً ، فإن أصبته وإلا قل : لعل له عذراً لا أعرفه)

---

[1] في كتابه (مداراة الناس)

[2] وعزاه السخاوي في المقاصد الحسنة لأبي القاسم الأصفهاني في الترغيب ، والخطيب في المتفق والمفترق .

وفي الشُّعب أيضاً عن حمدون القصار قال :
(إذا زلّ أخ من إخوانكم ، فاطلبوا له سبعين عذراً ، فإن لم تقبله قلوبكم فاعلموا أن المعيب أنفسكم حيث ظهر لمسلم سبعون عذراً ، فلم يقبله)
قلت : وهذا الأمر - أي وجوب حسن الظن بالمؤمن ، وحمل كلامه على الخير - هو في حق عموم المؤمنين واجب ، وهو في حق من اشتهر بالصلاح وعُرف بالتقوى آكد وأشد .
وأما الباعث للقوم على ذلك الكلام فهو غلبة ما يرد عليهم حالة الوجد القلبي لأسرار وأنوار كُشفت لهم ، فهاموا في المعنى وتركوا المبنى ، وأَخَذهم الهيام والفناء ، فمن لم يستطع التمكين جرى على لسانه كلام قد يكون ظاهره يخالف الشريعة ، لكنه لم يُرِد المخالفة ، بحيث لو أفاق من غَيبته لما تذكر ما قال ، وربما أنكره أو صحَّحه ، ومثل هذا العذر منه مقبول ، كما هو شأن النائم إذا صدر منه كلام فلا يترتب عليه حكم ، وليس عليه مؤاخذة .

ومما كان يذكره شيخنا الإمام رضي الله عنه في هذا الباب أن النسوة اللاتي عاتبن امرأة العزيز على شغفها بيوسف عليه السلام الذي آتاه الله شطر الحسن [1] أي جانباً عظيماً من الحسن في الخَلق والخُلُق [2] أرادت - أي : امرأة العزيز - أن تمتحن ثباتهن إذا رأين حسنه وعلمن من كريم خلقه قال تعالى : { وقال نسوة في المدينة }وهم النسوة المقربات من امرأة العزيز ولهن الجاه والمال { امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه } قلن ذلك متعجبات منها منكرات عليها ما سمعنه عنها

[1] روى الإمام أحمد في مسنده والإمام مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك في حديث الإسراء والمعراج لما عُرج به صلى الله عليه وسلم إلى السماء الثالثة قال صلى الله عليه وسلم : [فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِيُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَام وَإِذَا هُوَ قَدْ أُعْطِيَ شَطْرَ الْحُسْنِ فَرَحَّبَ وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ] .

[2] قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري : وفي حديث أبي سعيد عند البيهقي وأبي هريرة عند ابن عائذ والطبراني [فإذا أنا برجل أحسن ما خلق الله ، قد فضل الناس بالحسن كالقمر ليلة البدر على سائر الكواكب] وهذا ظاهره أن يوسف عليه السلام كان أحسن من جميع الناس ، لكن روى الترمذي من حديث أنس : [ما بعث الله نبياً إلا حسن الوجه حسن الصوت وكان نبيكم أحسنهم وجهاً وأحسنهم صوتاً]
وعلى هذا فيُحمل حديث المعراج على أن المراد غير النبي صلى الله عليه وسلم ، ويؤيده قول من قال : إن المتكلم لا يدخل في عموم خطابه ، وأما حديث الباب فقد حمله ابن المنير على أن المراد أن يوسف أعطي شطر الحسن الذي أوتيه نبينا صلى الله عليه وسلم ، والله أعلم .

{ قد شغفها حباً } أي وصل حبها وعشقها ليوسف عليه السلام إلى شغاف قلبها ، والشغاف هو الغشاء المحيط بالقلب الجسماني الصنوبري [1] ، وهذا كناية عن شدة حبها له
{ إنا لنراها في ضلال مبين } أي لما راودت يوسف عن نفسها
{ فلما سمعت بمكرهن } أي كلامهن الخفي عنها { أرسلت إليهن } دعتهن إلى قصرها { وأعتدت لهن متكئاً } أي أحسنت نزولهن وأجلستهن على متكأ يتكئن عليه ليكُنّ في راحة في جلستهن { وآتت كل واحدة منهن سكيناً } أي لاستعمالها في قطع الفاكهة التي قدمتها إليهن ، وانتهزت فرصة إمساك كل واحدة لسكينها { وقالت اخرج عليهن } أي مرّ بهن مروراً
{ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ } أي أعظمْن شأنه ، وكبر في نظرهن ، وهِمن في حسنه وبهائه ، حتى خرجن ظاهراً عن فعل الحق وقول الحق ، لكن هيامهن بيوسف عليه السلام أخذ بهن عن ملاحظة ما في أيديهن فقطّعن أيديهن بدلاً من أن يقطعن الفاكهة - وهو بظاهره شطح لكنه في الحقيقة خطأ جرى منهن لغلبة ما وجدن في أنفسهن -
{ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ } أي ما هذا بشراً في حسنه وبهائه وكريم خُلقه ، لأنه لم يلتفت إليهن مع أنهن كن في أجمل سمت وزيّ فهُنّ في زيارة امرأة العزيز فما ظنك بزينتهن وقتها ؟
ومع ذلك لم يلتفت إليهن لأن الله تعالى عصمه عن السوء والفاحشة ،
وقد اعترفن بذلك كما أخبر سبحانه عنهن بعد آيات بقوله جل وعلا :
{ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ } وقولهن { ما هذا بشراً إِنْ هَذَا } أي ما هذا { إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ } أي في جماله وخلقه ، ومعلوم أن الإنسان إذا أراد أن يبالغ في وصف أحد بالجمال والحسن وبهاء الطلعة وصفه أو شبّهه بالمَلَك ، فهؤلاء النسوة مِلن عن الحق في قولهن ، فهوعليه السلام بشر ليس ملكاً ، لكن الله عصمه وآتاه شطر الحسن ، وفعلن بأيديهن ما لم يكنّ يفعلنه حالة صحوهن ، ولهن العذر في ذلك .
ثم أخبر سبحانه عن امرأة العزيز { قَالَتْ } أي قالت لهن بعد أن زال ما بهن
{ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ } أي أنا أشد منكن تمكناً وثباتاً ، فلم يجر مني ما جرى منكن من فعل ، ولم يصدر مني ما صدر منكن من قول .

---

[1] والشغاف مرتبة من مراتب المحبة كما نص عليها ابن القيم رحمه الله في (الطب النبوي) .

قال الإمام الألوسي في تفسيره [1] :
قال ابن عطاء : دُهِشن في يوسف وتحيّرن حتى قطّعن أيديهن ولم يشعرن بالألم ، وهذه غلبة مشاهدة مخلوق لمخلوق ، فكيف بمن يحظى بمشاهدةٍ من الحق ؟! - ولله المثل الأعلى - .
فينبغي أن لا يُنكَر عليه إن تغيّر وصدر عنه ما صدر ، وأعظم من يوسف عليه السلام في هذا الباب عند ذوي الأبصار السليمة : النورُ المحمدي المنقدح من النور الإلهي ، والمتشعشع في مشكاة خاتم الرسل عليه الصلاة والسلام ، فإنه لعمري أبو الأنوار ، وما نور يوسف بالنسبة إلى نوره عليه الصلاة والسلام إلا النجم وشمس النهار :
لواحي زليخا لو رأين جبينه ... لآثرن بالقطع القلوب على الأيدي
. اهـ .
قلت : ويدلك هذا على أن الفناء والبقاء والتمكين على مراتب كما سيأتي إن شاء الله .
وقال الإمام عبد الكريم القشيري [2] في الرسالة القشيرية :
وكان الشيخ أبو عليٍّ الدَّقاق رحمه الله يستشهد على مقام التمكين بعد الفناء يستشهد بقصَّة يوسف عليه السلام :
وذلك أن النسوة اللاتي رأين يوسف عليه السلام قطَّعن أيديهن لِما ورد عليهن من شهود يوسف عليه السلام على وجه الفجأة ، وامرأة العزيز كانت أتمَّ في بلاء يوسف منهن، ثم لم تتغير عليها شعرة ذلك اليوم، لأنها كانت صاحبة تمكين في حسن يوسف عليه السلام [3]. اهـ
واعلم أن الله تعالى قد آتى سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم الحسن كله لكنه كان مصحوباً بالهيبة والجلال .
يدلك على هذا ما رواه الترمذي من حديث أنس : [ما بعث الله نبياً إلا حسن الوجه حسن الصوت ، وكان نبيكم أحسنهم وجهاً وأحسنهم صوتاً] [4]

---

[1] ١٦٦/٩
[2] سيدي عبد الكريم القشيري بن هوازن بن عبد الملك ابن طلحة النيسابوري القشيري، من بني قشير ابن كعب، أبو القاسم، زين الإسلام ، شيخ خراسان في عصره، المتوفى سنة ٤٦٥ هـ رضي الله عنه وأرضاه .
[3] ٤٠/١
[4] انظر فتح الباري ٢١٦/١١ ، وقال القاضي عياض في الشفا : وَحَكَى التِّرْمِذِيُّ عَنْ قَتَادَةَ، وَرَوَاهُ الدَّارَقُطْنِيُّ، مِنْ حَدِيثِ قَتَادَةَ، عَنْ أَنَسٍ : (مَا بَعَثَ اللَّهُ تَعَالَى نَبِيًّا إِلَّا حَسَنَ الْوَجْهِ حَسَنَ الصَّوْتِ ، وَكَانَ نَبِيُّكُمْ أَحْسَنَهُمْ وَجْهًا، وَأَحسَنَهُمْ صَوْتًا) .

وروى الإمام أحمد والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال :
(ما رأيت شيئاً أحسن من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كأن الشمس تجري في وجهه) [1]
وقد عصمه الله تعالى من أن تفتتن به النساء ، فلم تراوده امرأة عن نفسها ، وعصمه الله من أن يفتتن به الرجال والنساء ، فلم يُعبد إلهاً مع الله .
وفي هذا قالت السيدة عائشة رضي الله عنها :
لواحي زليخا لو رأين جبينه لآثرن بالقطع القلوب على الأيدي
قلت : ويرحم الله القائل [2]:
فَلَو نَظَروا في مَصر أَوصاف خَدّه لَما نَظَروا يَوماً إِلى حُمرة الوَرد
وَلَو شاهدوا وَجهاً مُنيراً وَقامة لَما بَذَلوا في سَوم يوسف مِن نَقد
لَواحي زليخا لَو رأَين جبينه لَغابوا عَن الإِحساس شَوقاً بِلا عَمَد
وَلَو أَنَّهُم شَمّوا عَبيراً بِجسمه لَآثرن في القَطع القُلوب عَلى الأَيدي
فإذا شهد عارف متفكر جمالَ مخلوق مِن خلق الله ، جمّله الله وحسّنه فأحبه وهام في حسنه حتى غلب عليه شيء وجَدَه في قلبه ، فنطق بكلام ظاهره يخالف الشريعة فلا مؤاخذة عليه كما تقدم لأنه صدر منه هذا الكلام في حالة استغراق ، فما بالك إذا كشف الله له عن بارقة من أنواره أو فيضة من أسراره - ولله المثل الأعلى - فلم يتمكن من الثبات لها وجرى منه ما جرى ؟!
فالتمِس له عذراً ، وليكن ظنك به حسناً ، ولا تتجرأ على رميه بالزندقة والكفر ، فقد تقدم قوله صلى الله عليه وسلم : [أيّما امرئ قال لأخيه : (يا كافر) ، فقد باء بها أحدهما إن كان كما قال وإلا رجعت عليه] [3]
وإذا كان سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبر في حديثه عن الذي فقد راحلته في الصحراء ، وعليها طعامه وشرابه ، ثم سلّم أمره واضطجع ليموت ، فلما أفاق ورآها عنده أخبر عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال من شدة فرحه :
(اللهم أنت عبدي وأنا ربك)
وقال عنه صلى الله عليه وسلم : [أخطأ من شدة الفرح] [4]

---

[1] المسند ٨٥٨٦ وسنن الترمذي كتاب المناقب
[2] السيد حسين بن علي العشاري من بلدة العشارة الواقعة على ضفة نهر الخابور المتوفى سنة ١١٩٥ هـ رحمه الله
[3] تقدم تخريجه
[4] روى الإمام مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : [لَله أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه ، من أحدكم كان

فلم يقل صلى الله عليه وسلم : إنه كفر أو أشرك من شدة فرحه ، ولكن قال : [أخطأ] ، ومن أخطأ واستغفر غفر الله له ، وإذا كان هذا الرجل قد أخطأ بسبب شدة فرحه بعودة حياته الجسمانية المادية الدنيوية بلقائه لطعامه وشرابه فما الظن بمن حظي بالحياة الأبدية السعيدة الأخروية وهي حياة القلب والروح بالنعيم الإيماني بالله وشهود آثار أسماء الله تعالى في خلقه - ولله المثل الأعلى - ؟!

فإذا سمعت عنه شيئاً فلا تكفّره بل قل على أكبر احتمال : إنه أخطأ واستغفر ، إن لم تتمكن من فهم كلامه أو تأويله التأويل الصحيح .

ومن مظاهر سوء الفهم أنه لو قدّر لإنسان أن يدخل على رجل يقرأ آيات من كتاب الله تعالى ، ووافق وقت دخوله قراءة القارئ لقول الله تعالى :

{ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا }

فهل يحق للسامع أن يقول : إن هذا القارئ يدعي الألوهية ؟!

ولو وافق وقت دخوله قراءة القارئ لقوله تعالى :

{ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ..} فهل للسامع حق أن يعترض عليه ويقول له : أنت تدّعي الإحياء والإماتة ؟!

وكذلك إذا سمعه يقرأ قوله تعالى { إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } .. وهكذا فيقال : إن القارئ يردد كلام الله تعالى ويتلوه بلسانه ، ولا يريد نفسه إطلاقاً ، بل لا يخطر ذلك على بال قارئ أو سامع للقرآن ، لكن الأمر يتأتّى ممّن شأنه الانتقاد والاعتراض على كلام القوم لمرض في نفسه وعداء دفين فيه عليهم .

ولو أن أحدهم جاء بحديث قدسي فيه :

[مَا مِنْ عَبْدٍ يَقُولُ : سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ إِلا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : صَدَقَ عَبْدِي، سُبْحَانِي وَبِحَمْدِي، التَّسْبِيحُ مِنِّي بَدَأَ وَإِلَيَّ يَعُودُ ، وَهُوَ خَالِصٌ لِي] [1]

فهل يقول السامع : هذا العارف يسبّح نفسه ؟ !

كلا إنه يذكر عن الله تسبيحه لنفسه جل وعلا .

على راحلته بأرض فلاة ، فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه ، فأيس منها ، فأتى شجرة ، فاضطجع في ظلها ، قد أيس من راحلته ، فبينا هو كذلك إذا هو بها ، قائمة عنده ، فأخذ بخطامها ، ثم قال من شدة الفرح : (اللهم أنت عبدي وأنا ربك) ، أخطأ من شدة الفرح] .

[1] طرف حديث في أمالي ابن بشران بهذا اللفظ وروى الطبراني في المعجم الكبير : [سُبْحَانِي مِنْ أَنْ أَتَّخِذَ صَاحِبَةً أَوْ وَلَدًا].

وكذلك إذا قرأ قارىءٌ الحديثَ الذي رواه الإمام أحمد و أبو داود - وأصله في صحيح مسلم - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم : [قَالَ اللَّهُ تعالى : الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي، فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا قَذَفْتُهُ فِي النَّارِ][1] . اهـ .

وذكر المحدث الشيخ زكريا كاندهلوي[2] رحمه الله تعالى ورضي عنه ذكر في بعض كتبه أن رجلاً من أئمة القوم كان مجاب الدعوة ، فقصدته امرأة في طفل لها وُلد أعمى ، لعله يدعو له فيبرأ من عماه ، فاعتذر منها متواضعاً ، فألحّت عليه ، فأراد النهوض من المجلس وقال لها :

إنما هذا عمل موسى وعيسى الذي كان يبرىء الأكمه والأبرص أما أنا فلا ، فهُتف في قلبه - أي وقع في قلبه إلهام صادق - :

(لا أنت تُبرِئه من عماه ولا موسى ولا عيسى ، إنما نحن نفعل)

فقام إلى الطفل ومسحه ودعا له فأبصر بإذن الله ، وجعل الشيخ يترنم طرباً فرحاً ويقول : (إنما نحن نفعل ، إنما نحن نفعل) .

قال الشيخ زكريا : فلو سمعه أحد دون أن يعرف ما جرى له من مقدّمات وما هُتف به لظن أنه ينسب الفعل - أي الشفاء - لنفسه ، ولكنه يرددها فرحاً بالله وإكرامه له بأن أجرى الخير على يده ، فافهم .

*- بيان :

مصطلح (الوجد) عند القوم له دليله الشرعي .

وتعريفه أن يجد المؤمن في قلبه إجابة لدعوة دعاها ، أو نوراً في قلبه ، بعد عبادة أخلص فيها لله تعالى ، أو بعد مغفرة وإقبالٍ من الله عليه إثر توبة نصوح ندم فيها قلبه وخشعت جوارحه ، قال تعالى :

{ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ } أي وجداناً قلبياً ، وكيف يجده ؟

قال سبحانه :{ غَفُورًا رَحِيمًا } أي : يغفر له ويرحمه .

---

[1] المسند ٧٣٣٥ وسنن أبي داود كتاب اللباس وأصله في صحيح مسلم كتاب البر والصلة والآداب

[2] هو الإمام العلامة المحدّث الشيخ محمد زكريا بن الشيخ محمد يحيى بن الشيخ إسماعيل الكاندهلوي المدني ، توفي في المدينة المنورة في أول يوم من شعبان سنة ١٤٠٢ هـ رحمه الله رحمة واسعة ورضي عنه

وقال تعالى :
{ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا } أي بسبب استغفارهم لله تعالى ، وطلبِهم من سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يستغفر لهم .
وقال صلى الله عليه وسلم في الحديث :
[ثلاث من كُنّ فيه وجد بهن حلاوة الإيمان - أي وجدها وجداناً قلبياً - : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يوقد له نار فيُقذف فيها] [1]
وروى الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
[إن الله عز وجل يقول يوم القيامة : يا ابن آدم مرضتُ فلم تَعُدني ،
قال : يا رب كيف أعودك وأنت رب العالمين ؟
قال : أمَا علمت أن عبدي فلاناً مرض فلم تَعده ، أما علمت أنك لو عُدته لوجدتني عنده] [2]
أي وجدتني بقلبك عنده ، لأن حال المريض حال الذي يشكو إلى الله ما أصابه ، ويدعوه ويسأله كشف ضره ، فهو على ذكر لله دائم ، فالله تعالى معه .
مصداق هذا ما رواه الإمام أحمد في مسنده والإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
[يقول الله عز وجل : أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معه حين يذكرني] [3]
وللمعيّة أحكامها .
ولذلك راعى صلى الله عليه وسلم آداب هذه المعية فكان كما ذكر الحافظ العراقي [1] في ألفيته حول سيرته الكريمة صلى الله عليه وسلم :

---

[1] رواه الإمام أحمد في مسنده ١١٥٦٤ واللفظ له والإمام مسلم في صحيحه كتاب الإيمان عن أنس رضي الله عنه
[2] كتاب البر والصلة والآداب
[3] المسند ٨٩٨٣ وصحيح مسلم كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار
و قال الإمام النووي في شرحه صحيح الإمام مسلم : (حيث يذكرني)
بالثاء المثلثة ، ووقع في الأحاديث السابقة (حين) بالنون ، وكلاهما من رواية أبي هريرة ، وبالنون هو المشهور ، وكلاهما صحيح ظاهر المعنى .

يمشي بلا خُفّ ولا نعل إلى عيادة المريض حوله الملا

وذلك إشارة إلى قول الله تعالى لموسى عليه السلام لمّا تجلّى عليه التجلي الأول بالنبوة والرسالة قال له :{ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى }

وفي مناجاة سيدنا موسى عليه السلام لربه تبارك وتعالى قال :

(يَا رَبِّ أَيْنَ أَبْغِيكَ) ؟ - أي أجدك وجداناً قلبياً -

قَالَ : [اِبْغِنِي عِنْدَ الْمُنْكَسِرَةِ قُلُوبُهُمْ] [٢]

أي من خشيتي ذلّت وخضعت قلوبهم ، فصاروا مساكين النفس متواضعين لله تعالى وللمؤمنين بالله تعالى .

وهذا الوجد يحرّك في القلب ما كمن فيه من دفائن المحبة والهيام ، واستصحاب الأحوال التي مرت بهم ، وأنِسوا فيها مع الله تعالى ، واستذكار أوقات التجلي وغير ذلك ، فيصدر من المتواجد أمور قد لا يسلّمها بعضهم ، لكنه إن وزنها بميزان الشريعة قبِلها ، وهذا مطلوب من كل مؤمن أن لا يعجل بالحكم أو يتجرأ بالتهم .

قلت : ونظير ذلك مثلاً ما يتردد على لسان عامة الناس حيث يقول أحدهم مثلاً إذا زار رجلاً من الصالحين المخلصين :

(أكرمنا الله بزيارة فلان ، ولم نجد عنده إلا الله تعالى)

فهل يريد أنه وجد الله بذاته عنده ؟

حتماً لا ، وإنما أراد : لم نجد عنده شيئاً إلا ما يذكّرنا بالله ، أو لم نجد عنده إلا رحمة الله ، ولم نسمع منه إلا ما يذكّرنا بالله تعالى .

وإليك توضيح ذلك من بعض نصوص الكتاب والسنة :

قال تعالى مخبراً عن إبراهيم عليه السلام قوله :{ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي }

وقوله : { إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ }

فهل يفهم عاقل من كلامه عليه الصلاة والسلام أن لله مكاناً يحلّ فيه ليذهب أو يهاجر إليه إبراهيم عليه السلام ؟!

أم أن سياق الكلام يدل بداهة ودون محاكمة عقلية إلى أن مراده عليه السلام أنه يريد اعتزال قومه وما يعبدون من دون الله ، ويتوجه بكليته إلى الله تعالى فاطر السماوات والأرض ؟!

---

[١] هو الإمام عبد الرحيم بن الحسين بن عبد الرحمن بن أبي بكر بن إبراهيم العراقي الأصل ، المهراني المصري المولد ، الشافعي المذهب ، كنيته: أبو الفضل ، ويلقّب بـ (زين الدين) توفي سنة ٨٠٦ هـ رضي الله عنه

[٢] حلية الأولياء لأبي نعيم والزهد للإمام أحمد بن حنبل والهم والحزن لابن أبي الدنيا

قال تعالى :{ فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ } الآية
أي : لما هجرهم وتوجه إلى الله وحده جل وعلا ......
وقال تعالى مخبراً عنه :{ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ }
وقال تعالى :{ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا }
فأعلن سبحانه أن له حقاً على الناس أن يحجّوا أي يقصدوا بيته في مكة المكرمة لأداء فريضة الحج إن استطاعوا ، فهل يُفهم من الآية أن لله بيتاً يبيت فيه كغيره من الخلق ؟ !
تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، فهو سبحانه لا يقيّده زمان ولا يحتويه مكان ، لأن كلاً من الزمان والمكان هو مِن خَلْقه جل وعلا ، وإن كمالاته سبحانه قديمة لا أول لها ، أبدية لا نهاية لها ، ومن كمالاته أنه الغني جل وعلا ، فكما كان في الأزل غنياً عن خلقه كلهم فهو غني بعدما خلقهم ، ولم يخلقهم لحاجته إليهم بل ليعبدوه وليتشرفوا بذلك .
وإنما أضاف سبحانه البيت إليه تشريفاً وتكريماً للبيت ، ولبيان أن له حرمته وقدسيته على سائر البيوتات ، فهو موضع يتجلى الله عليه بالأنوار والأسرار وعطاء السائلين في أوقات الصلاة والطواف حوله وهكذا .
ومن ذلك مثلاً ما جاء في الحديث عن سلمان رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : [من توضأ في بيته فأحسن الوضوء ، ثم أتى المسجد ، فهو زائر الله ، وحق على المَزُور أن يكرم الزائر] [1]
فهل يُفهم من هذا أن الله تعالى حلّ في المسجد ليزوره من مضى إلى المسجد ؟ !
أم أن المصلي يريد المسجد للصلاة فيه أو ذكر الله فيه لينال مغفرة الله ورحمته ، ويشهد بقلبه ما سيكرمه الله به من المكرمات والعطايا إن هو كان مخلصاً صادقاً في زيارته ، لأنه صلى الله عليه وسلم يقول :
[وحقّ على المَزُور أن يكرم الزائر]
وانظر في قوله تعالى في الحديث القدسي :
[وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أُحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به] [2] .. الحديث ، فهل يُفهم من هذا أن الله تعالى اتحد بعبده الذي أحبه أو حلّ فيه ؟

---

[1] المعجم الكبير للطبراني وأخبار أصبهان لأبي نعيم الأصبهاني والزهد لهناد بن السري ومصنف ابن أبي شيبة كتاب الزهد
[2] صحيح البخاري كتاب الرقاق

حاشا وكلا ، وتعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، بل إن المؤمن العاقل يفهم المعنى دون تكلف في التأويل على أن المراد أن الله تعالى تولّى سمعه وبصره ، وتولى سائر مداركه وحواسه بالتولية الخاصة ، فأعطاه قوة في سمعه وقوة في بصره وهكذا ، ومن جهة أخرى فلا يُسمعه سبحانه إلا ما يرضيه ، ولا يبصره إلا ما يرضيه ، ولا يوجهه إلا إلى ما يرضيه ، دل عليه قوله سبحانه في الحديث القدسي : [فبي يسمع وبي يبصر][1]

وفي دائرة هذا الحديث اندرجت كرامات الأولياء والصالحين من عباد الله كما دلت الأخبار الكثيرة على ذلك .

وإذا بلغك عن أحدهم رضي الله عنه قوله لمن طرق عليه باب داره :

(ما في الدار إلا الله)

فهل يريد من قوله أن الله حالّ أو ساكن في داره كما يحل غيره ويسكن في داره ؟ !

حاشا وكلا ، وإنما يريد : (ما في الدار إلا ذاكر الله) ، أو (ما في الدار إلا عارف الله) ، أو (ما في الدار إلا رحمة الله) ، لأنه عمر داره بذكر الله تعالى ، فنزلت عليها السكينة وغشيتها رحمة الله تعالى وأنواره وهكذا ..

وأما ما ذُكر عنهم من مصطلح (وحدة الوجود) فله معنى مؤيد بأدلة الكتاب والسنة ، وليس المراد بأن هذا الوجود بما حواه هو الله ، تعالى الله عن ذلك ، وإنما المراد أن الوجود الحق هو لله وحده ، يعني أنه سبحانه حقٌّ أي واجب الوجود ، والوجود حق ذاتي له جل وعلا ، وأنه سبحانه لم يوجده أحد ، وكذا سائر صفاته جل وعلا ، وأما المخلوقات فهي موجودة مخلوقة بخلقه وإيجاده جل وعلا لها، وليس لها وجود مستقل ذاتي لها ، ولو أنه سبحانه قطع عنها مدد الإيجاد لعادت إلى العدم .

قال تعالى :{ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ }

أي كل شيء سيهلك ويفنى إلا ذاته جل وعلا ، أو كل شيء هالك من نفسه من ذاته ، إلا الله تعالى فله الوجود الذاتي الحق المطلق .

وقال تعالى :{ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ } أي سيفنى أم هو الآن فان ؟

إنه فان الآن إذا نظرت إليه من ذاته ، ولكنه موجود بإيجاد الله له ، وهو سبحانه جعله حقاً بتحقيقه له ، لا من ذات المخلوق .

---

[1] قال الإمام ابن كثير في تفسيره : جاء في بعض رواية الحديث في غير الصحيح، بعد قوله: [ورجله التي يمشي بها] : [فبي يسمع، وبي يبصر، وبي يبطش، وبي يمشي] . اهـ

وذكر هذه الرواية الحافظ ابن حجر في الفتح ١٨ / ٣٤٢

روى الشيخان واللفظ لمسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
[أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد : ألا كل شيء ما خلا الله باطل] [1]
أي باطل من ذاته ، والله هو الحق وحده على الحقيقة ، وأما غيره فموجود بإيجاده سبحانه وتعالى .
وكان من دعائه صلى الله عليه وسلم إذا قام من الليل يتهجد:
[ولك الحمد أنت الحق] - أي واجب الوجود من ذاتك ، وأما خلقك فهي من الممكنات الجائز عليها الوجود أو العدم –
[ووعدك الحق] - أي بتحقيقك أنت الذي جعلته حقاً -
[ولقاؤك حق ، وقولك حق ، والجنة حق ، والنار حق ، والنبيون حق ، ومحمد صلى الله عليه وسلم حق] [2]
فكل ذلك حق لا باطل ، وهو حق ثابت بتحقيق الله له ، فافهم .
واعلم أن الله تعالى خلق الخلق ولم يتخلّ عنهم ، أي لم يُملّكهم شيئاً من أمر خلقهم وتدبيرهم ، بل خلقهم ويُمدّهم في كل لمحة بما يُبقي عليهم خلقهم وحياتهم ، كلٌ على حسبه ، وهذا معنى قوله تعالى :
{ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ } أي غفلة {مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ }
أي : تخليق يخلقهم الله تعالى به في كل لحظة ، ولا يظهر لهم ذلك إلا بعد أن تمضي عليهم مدة من السنين ، فيرى أحدهم تغيّراً في خلقه ، فمن الذي خلق فيه هذا التغير ؟
وإن هذا التغير لم يطرأ عليه فجأة ، وإنما على أطوار وفي مدد متوالية قصيرة جداً .
ومن أسمائه سبحانه (القيوم) أي القائم بنفسه المُقيم لغيره ، فَبِه سبحانه قامت وتقوم السماوات والأرض وما فيهن ، قال تعالى :
{ وَمِنْ آَيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ } أي قامت وتقوم ، فلم يتخلّ سبحانه عن إمدادها .
وفي الحديث : [اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت قيّوم السموات والأرض ومن فيهن] [3]
وفي رواية : [أنت قَيّام السماوات والأرض ومن فيهن] [1]

---

[1] صحيح مسلم كتاب الشعر وصحيح البخاري كتاب الرقاق
[2] طرف حديث في مسند الإمام أحمد ٣١٩٦ وصحيح البخاري كتاب الجمعة عن ابن عباس رضي الله عنهما
[3] انظره في كتاب خلق أفعال العباد للإمام البخاري ومصنف الإمام عبد الرزاق

وفي رواية : [أنت قيّم السموات والأرض ومن فيهن] [٢]
وكلها معان متوافقة .
فقِوام [٣] الأشياء كلها بالله تعالى وليس لها قِوام من ذاتها . والقِوام يشمل القدرة والقوة والحركة والسكون والتحول ، ومَن تحقّق بقوله : (لا حول ولا قوة إلا بالله) شهد هذا المعنى ، أي : لا حول لمتحوِّل من حال إلى حال ولا من حركة إلى سكون ولا من شيء إلى آخر ، ولا قوة لمتقوّ على شيء إلا بالله تعالى أي إلا أن يُمدّه الله ويقويه على ذلك [٤]، والله تعالى يقول :
{ كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا }
كما أنه سبحانه نور السماوات والأرض قال تعالى :
{ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } والنور هو الظاهر بنفسه المُظهر لغيره - وانظر تفصيل ذلك في موضع آخر - فهو سبحانه أظهر السماوات والأرض من ظلمة العدم لمّا تجلّى عليها بنور الإيجاد .
قال صلى الله عليه وسلم : [أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات] [٥]- أي ظهرت به الموجودات الممكنة التي كانت في العدم ، فبه سبحانه ظهر كل شيء ، ولم يظهر شيء من الظاهرات بالحس والمعنى إلا بإظهاره تعالى له ، واعلم أن الذي أظهر الظاهرات هو أشد وأعظم ظهوراً منها .
وفي الحديث : [اللهم ربنا أنت نور السماوات والأرض ومن فيهن] [٦]
وقال تعالى : { هو الأول والآخر والظاهر والباطن }

---

[١] طرف حديث في السنن الكبرى للنسائي وصحيح ابن حبان كتاب الصلاة
[٢] طرف حديث في صحيح البخاري كتاب الجمعة
[٣] جاء في جمهرة اللغة : القِوام - بكسر القاف - من قولهم: هذا قِوام الدين ، وقِوام الحقّ، أي الذي يقوم به ، والقَوام - بفتح القاف - : حُسن الطول.
[٤] روى الحاكم فى تاريخه ، والبيهقى فى شعب الإيمان ، وابن النجار عن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له :
[ألا أخبرك بتفسير لا حول ولا قوة إلا بالله ؟
لا حول عن معصية الله إلا بعصمة الله ، ولا قوة على طاعة الله إلا بعون الله ، هكذا أخبرنى جبريل يا ابن أم عبد] .
[٥] طرف حديث في الدعاء للطبراني وتاريخ دمشق لابن عساكر وأورده الضياء المقدسي في المختارة بلفظ :
[أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الْكَرِيمِ الَّذِي أَضَاءَتْ لَهُ السَّمَوَاتُ، وَأَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ] .
[٦] طرف حديث في صحيح البخاري كتاب الدعوات واللفظ له ، وصحيح مسلم كتاب صلاة المسافرين وقصرها .

وفي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم : [أنت الظاهر فليس فوقك شيىء] أي فليس فوقك شيء في الظهور
[وأنت الباطن فليس دونك شيء] [1] أي فليس دونك في البطون - أي الخفاء - شيء .
فهو سبحانه الظاهر بآياته وآثار أسمائه في الأكوان ، والباطن من حيث معرفة حقيقة ذاته وكنهه جل وعلا .
قال تعالى : { قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ }
أي : انظروا إلى آثار أسماء الله الظاهرة في السموات والأرض ، وانظروا إلى آياته الدالة على وحدانيته في السموات والأرض لأنه تعالى يقول :
{ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ } أي وهو الإله الحق المعبود في السموات والأرض ، والظاهر في السموات والأرض كما تقدم .
وفي هذه البيانات المجملة إن شاء الله تعالى ما يكفي لإقناع العاقل وإفهام اللبيب ، وللبحث تتمة والحمد لله رب العالمين .

*- مشروعية حلقة الذكر

اعلم - وفقنا الله وإياك لِما فيه رضاه - أن ذكر الله تعالى مطلوب من المؤمن في كل أحيانه وجميع حالاته وحركاته وسكناته .

قال تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا }

وأثنى جل وعلا على الذاكرين والذاكرات فقال :

{ وَالَذاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذاكِرَاتِ }

وقال سبحانه في صفة أولي الألباب - وهم أهل الإيمان الكامل - :

{ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } الآية

---

[1] طرف حديث في صحيح مسلم كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار عن أبي هريرة ورواه أصحاب السنن

ومَن حَمَل المراد على الصلاة فيقال له :

لقد قال الله تعالى في آية أخرى :

{ فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ }

وجاء عنه صلى الله عليه وسلم : أنه كان يذكر الله على كل أحيانه [١]

وأما وصف اجتماع القوم للذكر بـ (الحلقة) فقد كانت مجالس سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم تتصف بأنها حلقة ، أي يتحلق الذاكرون في جلستهم كما ورد في حديث النفر الثلاثة :

[فأما أحدهما فرأى فرجة في الحلقة فجلس فيها] [٢]

وجاء في الحديث عن عبد الله بن بسر رضي الله عنه أن أعرابياً قال لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن شرائع الإسلام قد كَثُرَتْ علي ، فأنبئني منها بشيء أتشبّث به - أي أتعلّق به -
قال صلى الله عليه وسلم : [لا يزال لسانك رطباً من ذكر الله عز وجل] [٣]
وفي الحديث الذي رواه الترمذي [٤] عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ :

[إِذَا مَرَرْتُمْ بِرِيَاضِ الْجَنَّةِ فَارْتَعُوا]

قَالُوا : وَمَا رِيَاضُ الْجَنَّةِ؟

قَالَ : [حِلَقُ الذِّكْرِ] [٥]

---

[١] رواه الشيخان عن السيدة عائشة رضي الله عنها
[٢] طرف حديث رواه الشيخان عن أبي واقد الليثي رضي الله عنه
وقال النووي في شرحه صحيح مسلم :
الفرجة بضم الفاء وفتحها لغتان ، وهي الخلل بين الشيئين ، وأما الحلقة فبإسكان اللام على المشهور ، وحكى الجوهري فتحها ، وهي لغة رديئة .
[٣] سنن الترمذي كتاب الدعوات وسنن ابن ماجه كتاب الأدب
[٤] في سننه في كتاب الدعوات
[٥] قال المناوي في فيض القدير :

ورواه الإمام أحمد في مسنده وأبو يعلى والطبراني في الدعاء وابن عساكر في تاريخ دمشق ورواه البزار في مسنده ولفظه :

[إِذَا مَرَرْتُمْ بِرِيَاضِ الْجَنَّةِ فَارْتَعُوا]

قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا رِيَاضُ الْجَنَّةِ فِي الدُّنْيَا ؟ قَالَ : [حَلَقُ الذِّكْرُ]

ورواه أبو نعيم في الحلية ولفظه :

[إِذَا مَرَرْتُمْ بِرِيَاضِ الْجَنَّةِ فَارْتَعُوا]

قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَأَنَّى لَنَا بِرِيَاضِ الْجَنَّةِ فِي الدُّنْيَا ؟!

قَالَ : [حِلَقُ الذِّكْرِ] .

وفي رواية للطبراني :

قِيلَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا رِيَاضُ الْجَنَّةِ ؟ قَالَ : [مَجَالِسُ الْعِلْمِ] [١]

وجاء في رواية للترمذي بيان معنى الرتع المتقدم ذكره ، فقد روى الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
[إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا]
قلت : يا رسول الله وما رياض الجنة ؟
قال : [المساجد] ، قلت : وما الرتع يا رسول الله ؟
قال : [سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر] [٢]

(حلق الذكر) بكسر ففتح : جمع حلقة بفتح فسكون وهي جماعة من الناس يستديرون لحلقة الباب وغيره ، والتحلق تفعّل منها ، وهو أن يتعمد ذلك .
قال الطيبي : أراد بالذكر : التسبيح والتحميد ، وشبّه الخوض فيه بالرتع في الخصب ، وذلك لأن أفضل ما أعطاه الله لعباده في الدنيا الذكر ، وأفضل ما أعطاهم في العقبى النظر إليه سبحانه ، فذكرُ الله في الدنيا كالنظر إليه في الآخرة فالذاكر له بلسانه مع حضور قلبه مشاهِد له بسرّه ، ناظر إليه بقلبه ، ماثل بين يديه ببدنه ، فكأنه في الجنة يرتع في رياضها . اهـ .
[١] كما في المعجم الكبير
[٢] سنن الترمذي كتاب الدعوات

وروى الإمام أحمد في مسنده عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وأبى سعيد الخدري رضي الله عنهما عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ :
[مَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ يَذْكُرُونَ اللَّهَ، إِلَّا حَفَّتْهُمْ الْمَلَائِكَةُ، وَتَغَشَّتْهُمْ الرَّحْمَةُ، وَنَزَلَتْ عَلَيْهِمْ السَّكِينَةُ، وَذَكَرَهُمْ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ] [١]
ورواه الإمام مسلم في صحيحه بلفظ :
[لَا يَقْعُدُ قَوْمٌ يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا حَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ] .... الحديث [٢]
ورواه الترمذي في سننه بلفظ :
[مَا مِنْ قَوْمٍ يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا حَفَّتْ بِهِمُ الْمَلَائِكَةُ] .... الحديث [٣]
والاجتماع لا يكون صدفة بل يسبقه أن يتداعى القوم أي يدعو بعضهم بعضاً للاجتماع لذكر الله تعالى .

وقد جاء في صحيح الإمام مسلم رواية :

[وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله ، يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة ، وحفّتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده] [٤]

فهل يقال : إن التداعي لتدارس القرآن وآيات الله أو لذكر الله أمر بدعي ؟! إذ كيف يحصل الاجتماع ويتحقق قوله صلى الله عليه وسلم :

[وما اجتمع قوم] إلا بالتداعي له والتوجه إليه ؟

أم أنهم يجتمعون دائماً من قبيل الصدفة ، وهذا ما لا يقول به عاقل .

فلابد إذاً للاجتماع من تحديد موعد وتداعٍ إليه ..

وقال تعالى :{ وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآَصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ }

---

[١] انظره أيضاً في مسند عبد الله بن المبارك ومسند عبد بن حميد والجامع لمعمر بن راشد والمعجم الأوسط للطبراني
[٢] كما في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار
[٣] كما في كتاب الدعوات
[٤] كما في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار

وإن قوله تعالى { وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ } يشمل الذكر الخفي والتفكر بالقلب بأسماء الله وآثارها الظاهرة في آياته الكونية ، والتفكر في آياته القرآنية التدوينية المتلوة .

{ تَضَرُّعًا } يقال ضَرَعَ الرجل : إذا خضع وذل واستكان لغيره .

{ وخيفة } يعني وخوفاً ، والمعنى : تضرّع إليّ وخفْ عذابي [١]

أو أن المعنى : اذكر ربك في نفسك رهبة ورغبة [٢]

{ وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ } أي جهراً ودون الجهر من القول ، ويحصل ذلك برفع الصوت قليلاً ليُسمع الإنسان نفسه أو مَن يليه ، كما هو الشأن في قراءته أثناء صلاته ، ثم هناك الذكر برفع الصوت ليُسمع غيره ، وهو الذكر الجهري ، وفيه تنشيط للنفس ، وطرد للشيطان ، وتذكير للغافل بأن يذكر الله تعالى وهكذا .

{ بِالْغُدُوِّ وَالْآَصَالِ } أي: بالبكور والعشي، والأصيل هو ما بين العصر والمغرب[٣]

{ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ } أي لا تكن من الغافلين عن ذكر الله ، فمَن ترك أنواع الذكر المتقدم بيانها في الآية فهو من الغافلين عن الله تعالى .

وفي الحديث القدسي : [أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معه إذا ذكرني]

وفي رواية : [وأنا معه حين يذكرني] [٤]

وفي رواية : [وأنا معه حيث يذكرني] [٥]

[فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم] [١]

---

[١] انظر تفسير الخازن للآية الكريمة
[٢] انظر تفسير ابن كثير للآية الكريمة
[٣] انظر تفسير البغوي للآية الكريمة
[٤] انظرها في صحيح مسلم كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار
[٥] انظرها في صحيح مسلم كتاب التوبة

وكيف يتحقق للعبد أن يذكر الله في ملأ إلا إذا رفع صوته بذكر الله وجهر به حتى يسمعوه ؟

وإن هم سمعوا منه ذكر الله ربما ذكروا معه جهراً ، فما المانع الشرعي من ذلك ؟

وكي لا تضطرب أصواتهم وتتداخل وتحصل فوضى في الذكر جعلوا يذكرون الله بوتيرة منتظمة وبقوة واحدة ، فيحصل الأدب المطلوب منهم أثناء ذكر الله تعالى ، وإن وجد أحدهم في نفسه انتعاشاً وفرحاً بالله وقام وجعل يتمايل فرحاً وطرباً بذكر الله ، فما المانع من ذلك إن هو حافظ على الآداب الشرعية في ذلك ؟

فقد روى البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما
أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وهو في قبة يوم بدر :
[اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك ، اللهم إن تشأ لا تُعبد بعد اليوم] ،
فأخذ أبو بكر بيده فقال : حسبك يا رسول الله أَلْحَحْتَ على ربك ،
وهو يثب في الدرع ، فخرج وهو يقول : { سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ } [٢]
قال الحافظ ابن حجر في الفتح : روى عبد الرزاق عن معمر عن أيوب عن عكرمة أن عمر رضي الله عنه قال :
لما نزلت { سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ } جعلت أقول : أي جمع يُهزم ؟
فلما كان يوم بدر رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يثب في الدرع وهو يقول : { سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ } [٣]
وما الحظر الشرعي إن تبِعه الذاكرون وقاموا والتفّوا حلقة وجعلوا يذكرون الله على هيئة مخصوصة ؟
لقد ذكر ابن رجب الحنبلي في جامع العلوم والحكم ما ورد عن سيدنا علي رضي الله عنه أنه وصف الصحابة رضي الله عنهم فقال :
(كانوا إذا ذكروا الله مادُوا [٤] كما يميد الشجرُ في اليوم الشديد الريح ، وجرت دموعهم على ثيابهم) . [١]

---

[١] كما في صحيح البخاري كتاب التوحيد
[٢] في كتاب تفسير القرآن
[٣] ١٣ / ٤٦٥
[٤] قال في النهاية في غريب الحديث : مادَ يَميد : إذا مالَ وتَحَرَّكَ

وروى الإمام أحمد في مسنده عن علي رضي الله عنه قال :
أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وجعفر وزيد ، قال :
فقال صلى الله عليه وسلم لزيد : [أنت مولاي] ، فحجل ،
قال : وقال لجعفر : [أنت أشبهت خَلْقي وخُلُقي]، قال : فحجل وراء زيد ،
قال : وقال لي : [أنت مِنّي وأنا منك]، قال : فحجلت وراء جعفر [٢]

ولو نظرت في حلقة الذكر التي يقيمها أهل الصلاح لوجدتها تتضمن في بدايتها حصة لتلاوة آيات من القرآن الكريم ، وهذا أمر مشروع مندوب ، ثم ابتهالات وأدعية وصلوات على النبي صلى الله عليه وسلم ، وهذه أمور مشروعة مندوبة أيضاً ، جاء في فضائلها أحاديث كثيرة ، منها :

ما رواه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال :
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

[إن لله ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر ، فإذا وجدوا قوماً يذكرون الله تنادوا : هَلُمّوا إلى حاجتكم ، قال : فيحفّونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا ، قال : فيسألهم ربهم - وهو أعلم منهم - [٣] : ما يقول عبادي ؟ قال : يقولون : يسبّحونك ويكبّرونك ويحمدونك ويمجّدونك

---

[١] رواه ابن أبي الدنيا في كتاب (التهجد وقيام الليل) وأبو نعيم في الحلية والحافظ ابن عساكر في تاريخه والدينوري في المجالسة .
[٢] قال الحافظ ابن حجر في الفتح :
وفي حديث علي عند أحمد وكذا في مرسل الباقر " فقام جعفر فحجل حول النبي صلى الله عليه وسلم – أي : دار - ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ما هذا ؟ قال : شيء رأيت الحبشة يصنعونه بملوكهم " وفي حديث ابن عباس " أن النجاشي كان إذا رضي أحداً من أصحابه قام فحجل حوله " وحجل بفتح المهملة وكسر الجيم أي : وقف على رجل واحدة وهو الرقص بهيئة مخصوصة .. اهـ بحروفه .
وقال في تاج العروس :
وفي الحَدِيث : " أنَّه صلى الله عليه وسلم قالَ لِزَيدِ بنِ حارِثَةَ : أَنتَ مَوْلانا فحَجَلَ " أي : رفَع رِجْلاً وقَفَز على الأخرى مِن الفَرَح وقيل : يكون بهما إلّا أنه قَفْزٌ لا مَشْيٌ .
[٣] قال ابن حجر في الفتح : قوله [قال : فيسألهم ربهم عز وجل وهو أعلم منهم] في رواية الكشميهني " بهم " كذا للإسماعيلي ، وهي جملة معترضة وردت لرفع التوهّم .

قال : فيقول : هل رأوني ؟

قال : فيقولون : لا والله ما رأوك

قال : فيقول : وكيف لو رأوني ؟

قال : يقولون : لو رأوك كانوا أشد لك عبادة ، وأشد لك تمجيداً وتحميداً ، وأكثر لك تسبيحاً .

قال : يقول : فما يسألوني ؟

قال : يقولون : يسألونك الجنة

قال : يقول : وهل رأوها ؟

قال : يقولون : لا والله يا رب ما رأوها

قال : يقول : فكيف لو أنهم رأوها ؟

قال : يقولون : لو أنهم رأوها كانوا أشد عليها حرصاً ، وأشد لها طلباً ، وأعظم فيها رغبة .

قال : فممّ يتعوذون ؟

قال : يقولون : من النار

قال : يقول : وهل رأوها ؟

قال : يقولون : لا والله يا رب ما رأوها

قال : يقول : فكيف لو رأوها ؟

قال : يقولون : لو رأوها كانوا أشد منها فراراً ، وأشد لها مخافة .

قال : فيقول : فأُشهدكم أني قد غفرت لهم

قال : يقول ملك من الملائكة : فيهم فلان ليس منهم إنما جاء لحاجة

قال : هم الجلساء لا يشقى بهم جليسهم] [١]

ويُفهم من الحديث أن التحميد والتمجيد والأدعية والابتهالات كلها من ذكر الله تعالى ، لأنه صلى الله عليه وسلم قال في صدر الحديث

[يلتمسون أهل الذكر]

فوصفهم بأهل الذكر ، ثم ذَكَر ما يقومون به من تحميد وتمجيد وسؤال له سبحانه ..

وتتضمن حلق الذكر - فيما تتضمن - صيغاً من ذكر الله ، فهناك الذكر بالتهليل بقول (لا إله إلا الله) وقد جاء في فضائل المكثرين منها أحاديث كثيرة ، ثم الذكر باسم الجلالة وحده (الله - الله) ، وهو من الذكر أيضاً فقد جاء في الحديث :

[لا تقوم الساعة حتى لا يُقال في الأرض : الله الله] [٢]

وفي رواية: [لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى لَا يُقَالَ فِي الْأَرْضِ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ] [٣]

وإن الاسم العلم على الذات الإلهية هو اسم الجلالة : (الله)

ولذلك سمّوه : (الاسم المفرد) ؛ لأنه الاسم الوحيد الذي يدل على الله ذاتاً وصفات وأسماء وأفعالاً، بينما غيره يدل على ذات وصفة .

ثم هو لا يسمى به غير الله فهو مفرد من بين الأسماء كلها .
ولذلك فإن من قال : (الله) فقد ذكر الله عز وجل ، وحقّق الأمر القرآني:
{ واذكر اسم ربك }
فاسم ربنا هو (الله) ، فمن ذكرهُ فقد ذكر الله بلا شك ولا ريب .

---

[١] في كتاب الدعوات
[٢] مسند الإمام أحمد ١١٦٠١ عن أنس رضي الله عنه وصحيح مسلم كتاب الإيمان وسنن الترمذي كتاب الفتن
[٣] مسند الإمام أحمد ١٣٣٣١ ومستدرك الحاكم كتاب الفتن والملاحم

ومما يدل على أن الاسم المفرد (الله) هو من ذكر الله ما رواه البخاري وغيره عن جابر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :
[إذا استجنح الليل - أو قال جنح الليل - فكفّوا صبيانكم ، فإن الشياطين تنتشر حينئذ ، فإذا ذهب ساعة من العشاء فخلّوهم ، وأغلق بابك واذكر اسم الله ، وأطفئ مصباحك واذكر اسم الله ، وأَوْكِ سقاءك واذكر اسم الله ، وخمّر إناءك - أي : غطِّه - واذكر اسم الله ولو تعرض عليه شيئاً] [1]
ويتحقق الذكر بالبسملة أو التحميد أو التكبير أو التهليل كما قال تعالى :
{ فكلوا مما ذكر اسم الله عليه }

وقال سبحانه : { فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ }

وإن ذكر اسم الجلالة (الله) بالقصر هو لغة من لغات العرب ، وإن كان غير مشهور ، وليس أمراً بدعياً ، ولا يُنكَر على قائله .

كما ذكر الشهاب الخفاجي في حاشيته على البيضاوي في مسألة حذف ألف لفظ الجلالة (الله) التي بعد اللام فقال :

قال الأسنويّ رحمه الله : إنه لغة حكاها ابن الصلاح عن الزجاجي فلا لحن فيه حينئذ .
وفي التيسير : إنه لغة جائزة في الوقف دون الوصل ، والأفصح إثباتها اهـ [2] .

وتتضمن حلق الذكر أيضاً الذكر بالدعاء (اللهم) يعني يا الله ، ويرددونها وكلٌّ يطلب حاجاته في نفسه لمّا يردد : (اللهم - اللهم)
ثم يختتم المجلس بقراءة الفواتح والدعاء .

---

[1] صحيح البخاري كتاب بدء الخلق وسنن أبي داود كتاب الأشربة
وقال في عون المعبود : (وخمّر): بفتح المعجمة وتشديد الميم أي غَطِّ ، من التخمير وهو التغطية .
(ولو بعود تعرضه): بفتح أوله وضم الراء ، قاله الأصمعي وهو رواية الجمهور ، وأجاز أبو عبيد كسر الراء وهو مأخوذ من العرض أي تجعل العود عليه بالعرض .
والمعنى أنه إن لم يغطّه فلا أقل من أن يعرض عليه شيئاً .
قال الحافظ : وأظن السر في الاكتفاء بعرض العود أن تعاطي التغطية أو العرض يقترن بالتسمية ، فيكون العرض علامة على التسمية فتمتنع الشياطين من الدنو منه .
[2] ٦٢/١

وإن سورة الفاتحة هي أعظم سورة في القرآن الكريم [1]
وهي دعاء إن قرأتها على نية في نفسك ، لقوله تعالى في الحديث القدسي :
[من شغله القرآن وذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أُعطي السائلين] [2]
وفي رواية للطبراني والبيهقي :
[من شغله قراءة القرآن عن ذكري ومسألتي أعطيته أفضل ثواب السائلين] [3]
فمن دعا الله وسأله بصيغة الدعاء والسؤال فيقال : إنه سأل الله ودعاه ، ومن قال : إنني سأقرأ شيئاً من القرآن أو أقرأ الفاتحة باعتبار أنها أعظم سورة في القرآن وأشغل نفسي بقراءتها على نية في نفسي عوضاً عن سؤالي الله بصيغة الدعاء فيقال له : أنت دعوت الله أيضاً ، لِما تقدم في الحديث .

وروى الإمام مسلم في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال :
بينما جبريل قاعد عند النبي صلى الله عليه وسلم سمع نقيضاً من فوقه فرفع رأسه فقال : هذا باب من السماء فُتح اليوم ، لم يُفتح قط إلا اليوم ، فنزل منه ملك ، فقال : هذا ملك نزل إلى الأرض لم ينزل قط إلا اليوم ، فسلّم وقال : أبشِر بنورين أُوتيتَهما ، لم يُؤتَهما نبي قبلك ، فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة ، لن تقرأ بحرف منهما إلا أعطيته . اهـ
وانظر في قوله : (لن تقرأ بحرف) ولم يقل : لن تقرأ حرفاً ، ليشير بالباء إلى معنى الملابسة ، أي لن تقرأ حرفاً منهما متلبساً بنية أضمرتها في نفسك تريدها من وراء تلاوتك للفاتحة وخواتيم البقرة إلا أعطاك الله ما تريد

وجاء في الحديث الذي رواه الطبراني والبيهقي وابن الخلال[1] عن عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ رضي الله عنهما قال : سَمِعْتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ :

---

[1] روى البخاري في صحيحه عن أبي سعيد بن المعلى قال : كنت أصلّي فدعاني النبي صلى الله عليه وسلم فلم أُجِبه ، قلت : يا رسول الله إني كنت أصلي ، قال : ألم يقل الله : { استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم } .
ثم قال صلى الله عليه وسلم : ألا أعلّمك أعظم سورة في القرآن قبل أن تخرج من المسجد ؟ فأخذ بيدي ، فلما أردنا أن نخرج قلت : يا رسول الله إنك قلت لأعلّمنك أعظم سورة من القرآن ، قال : الحمد لله رب العالمين هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته .
[2] سنن الترمذي كتاب فضائل القرآن عن أبي سعيد رضي الله عنه
[3] كما في الأسماء والصفات للبيهقي والدعاء للطبراني

[إِذَا مَاتَ أَحَدُكُمْ فَلا تَحْبِسُوهُ، وَأَسْرِعُوا بِهِ إِلَى قَبْرِهِ، وَلْيُقْرَأْ عِنْدَ رَأْسِهِ بفاتحة الْكِتَابِ، وَعِنْدَ رِجْلَيْهِ بِخَاتِمَةِ الْبَقَرَةِ فِي قَبْرِهِ]
وروى ابن الخلال وغيره عن عبد الرحمن بن العلاء بن اللجلاج عن أبيه قال : قال لي أبي : يا بني إني إذا أنا متّ ، فضعني في اللحد ، وقل : بسم الله ، وعلى سنة رسول الله ، وسُنّ علي التراب سناً ، واقرأ عند رأسي بفاتحة الكتاب وأول البقرة وخاتمتها ، فإني سمعت عبد الله بن عمر يقول ذلك [٢]

وهناك أدلة أخرى يضيق المجال لبسطها ، وفي هذا البيان المجمل كفاية لمن أراد التفقه ، وأما من أراد الاعتراض والانتقاد لمجرد الاعتراض فلا تنفعه الأدلة مهما كثرت ، حتى يرفع من نفسه مرض الانتقاد والاعتراض ودعوى الفهم والعلم ، لأن العلم إذا لم ينتفع به صاحبه وينفع به غيره فما فائدته وما ثوابه ؟!

وقد علّمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نسأل الله علماً ينفعنا فقال :
[اللَّهُمَّ انْفَعْنِي بِمَا عَلَّمْتَنِي، وَعَلِّمْنِي مَا يَنْفَعُنِي، وَارْزُقْنِي عِلْمًا تَنْفَعُنِي بِهِ] [٣]

وعلّمنا صلى الله عليه وسلم أن نستعيذ بالله من علم لا ينفع فقال :

[اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع] [٤]

وكان معاذ بن جبل رضي الله عنه يقول لصاحبه :
(اجلس بنا نؤمن ساعة) [٥] ، فيجلسان ويذكران الله تعالى .
والمراد من الإيمان هنا الإيمان العملي ، ويشمل القولي وهو ذكر الله تعالى فهل من حظر شرعي إذا جلس أكثر من اثنين وذكروا الله تعالى جهرة ؟!.

---

[١] انظر المعجم الكبير للطبراني وشعب الإيمان للبيهقي والقراءة عند القبور لأبي بكر بن الخلال
[٢] انظر القراءة عند القبور لأبي بكر بن الخلال ، والمجالسة وجواهر العلم للدينوري
[٣] سنن النسائي الكبرى ومستدرك الحاكم كتاب المناسك
[٤] انظره في صحيح مسلم كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار
[٥] كما في صحيح البخاري كتاب الإيمان

*- إيضاح :

كتاب سيدي أحمد الرفاعي (حالة أهل الحقيقة مع الله تعالى)
يعني حالة أهل الحقيقة الإيمانية مع الله تعالى ، وهم الذين تحققوا بحقيقة الإيمان ، الذين ذكرهم سبحانه بقوله :{ أولئك هم المؤمنون حقاً }
ولما سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم حارثة بن النعمان ، فقال له :
[كيف أصبحت يا حارثة] ؟
قال : أصبحت مؤمناً حقاً ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : [انظر ما تقول ، فإن لكل حق حقيقة فما حقيقة إيمانك] ؟ [1] الحديث
فكلمة الحقيقة التي وردت على لسان الشارع وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأتباعهم وأئمة القوم مرادهم : (الحقيقة الإيمانية) ، وليس مرادهم التفرقة بين الشريعة والحقيقة ، إذ إن هذه التفرقة نشأت في العصور المتأخرة .
وقد اصطلحوا على أن الحقيقة هي قضاء الله وقدره التكويني النافذ - أي إرادته التكوينية - المشار إليها بقوله تعالى :
{ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون }
وأما الشريعة فهي إرادته سبحانه التشريعية ومحبته ورضاه كما قال سبحانه :
{ ولا يرضى لعباده الكفر وإن تشكروا يرضه لكم }
مع أن الكفر هو بقضائه سبحانه وإرادته لكنه سبحانه لا يرضاه ، واعلم أنه لا تعارض بين الشريعة والحقيقة ، ولو عارضت الحقيقة الشريعة فهي باطلة .
كما أن قصة سيدنا موسى مع سيدنا الخضر عليهما السلام لا تتعلق بعلم الحقيقة الذي يذكره القوم ، إذ إن عمل الخضر عليه السلام كان بموجب شريعته وأقرّه موسى عليه السلام لمّا تبينت له حكمة أفعاله .
وليس للعبد أن يحتج بالحقيقة بل عليه أن يعمل بظاهر الشريعة ألا ترى إلى قوله تعالى :
{ إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون}
هذه حقيقة لكنه صلى الله عليه وسلم لم يترك إنذارهم وإبلاغهم الدعوة إلى الله تعالى .

---

[1] انظره في مسند البزار وشعب الإيمان للبيهقي

كما أن الاحتجاج بمشيئة الله وقدره على أمر لم يأت بعد ، أو على أمر مستمر صاحبه عليه - هذا الاحتجاج مردود على صاحبه لأنه مَن الذي أطلعه على مشيئة الله المستقبلية بذلك ؟

وقد رد سبحانه على الكفار احتجاجهم بذلك لمّا أرادوا تبرير استمرارهم على الكفر فقال تعالى :

{ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آَبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ} .

وقال تعالى :{ وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه }

فاحتجوا بالمشيئة لتبرير بخلهم ومنعهم وشحّهم .

وما أدراهم أن الله تعالى قد شاء إلى الأبد استمرارهم في الكفر أو شاء عدم إطعامهم الفقراء ؟ !

ولذلك فلا يصح للمؤمن العاصي إذا نصحه أحد بالإقلاع عن الذنب أن يقول :

(حتى يريد الله) ، بل عليه الإقلاع عن ذنبه ، لأنه ما أدراه أن الله قد شاء له الاستمرار على ذنبه ؟ !

أما الاحتجاج بالمشيئة على أمر قد مضى وحصل ثم تاب منه العبد فلا بأس ، كأن تقول : (شاء الله لي وقضى علي أن أفعل كذا وكذا ، ثم تبت إلى الله تعالى) .

ومن ذلك احتجاج آدم عليه السلام بأن الله قد قضى عليه الأكل من الشجرة قبل أن يخلقه بأربعين سنة ، وذلك لما احتج آدم وموسى عليهما السلام فقال له موسى : أنت آدم الذي أخرجت ذريتك من الجنة ، فقال آدم : أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالاته وكلامه ، ثم تلومني على أمر قد قدّر علي قبل أن أخلق ؟

وفي رواية أن سيدنا آدم قال لسيدنا موسى عليهما السلام :

أتلومني على أمر قدَّره الله علي قبل أن يخلقني بأربعين سنة [1]

قال صلى الله عليه وآله وسلم : فحَجَّ آدمُ موسى [2]

- أي غلبه بالحجة ، وظهر عليه بها - .

---

[1] طرف حديث في صحيح البخاري ومسلم كلاهما في كتاب القدر

[2] صحيح البخاري كتاب التوحيد وصحيح مسلم كتاب القدر

ولكن آدم عليه السلام قبل أن يأكل من الشجرة لم يكن يعلم أن الله قد قضى عليه الأكل منها ، فلما أكل منها لم يحتجّ بقضاء الله عليه بذلك بل اعترف بذنبه وتاب إلى الله ، لكن لما حاجّه موسى أطلعه الله على أنه كتب عليه ذلك قبل أن يخلقه فاحتج بقدر الله وقضائه ، فافهم .

*- بيان آيات كريمة :

إن من الأدلة القرآنية على وجوب التدبر في آيات الله تعالى وتفهّم وتعلّم معانيها قوله سبحانه :

{لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم } أي فيه ذكر صفاتكم وأحوالكم ومبدئكم ومعادكم ، وفيه ذكر منافعكم ومصالحكم في الدنيا والآخرة .

{ أفلا تعقلون } أي تتعقلون في فهم هذا القرآن لتبحثوا عن ذكركم فيه ، وذكر ما فيه خيركم وسعادتكم ، - قلت : وقد ذكر مولانا الشيخ الإمام في كتابه : (تلاوة القرآن المجيد) وكتابه : (دروس حول تفسير بعض آيات القرآن الكريم) ذَكَرَ قصة الأحنف بن قيس فارجع إليها تجد ما ينفعك إن شاء الله تعالى -

فليبحث كل مؤمن عن نفسه وصفاته في القرآن بحيث لو وجد في نفسه صفة ذمّها القرآن جعل يتطهر منها ، وإذا وجد في نفسه صفة مدحها القرآن فليحمد الله على فضله عليه ، وليعمل جاهداً في مراتب القرب إلى الله تعالى ، ولينشّط همته إلى الإكثار من عبادة الله تعالى ، وإلى التحقق والتخلق بما أمر به سبحانه .

ولمّا كان العلم بالله يحمل صاحبه على زيادة الإيمان بالله والمعرفة به والخشية منه سبحانه ، فقد امتدح الله تعالى العلماء وأثنى عليهم في كثير من الآيات القرآنية ، ويكفيهم شرفاً أن الله تعالى قرن شهادتهم بشهادته وشهادة الملائكة فقال جل وعلا :

{ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ }

وأثنى سبحانه على العلماء بأنهم هم أهل الخشية من الله تعالى ، فقال تبارك وتعالى :{ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ }

دل هذا على أن العلم لا يكون نافعاً لصاحبه إلا إذا أورثه الخشية من الله تعالى كما قال صلى الله عليه وسلم :

[والله إني لأَعلمُكم بالله عز وجل وأخشاكم له] [١]

---

[١] طرف حديث في المسند ٢٣٧٦٥

وقال تعالى :
{ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ } أي رفعاً عاماً
{ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ } أي رفعاً خاصاً على غيرهم
{ دَرَجَاتٍ } أي على غيرهم ممن هو مؤمن وليس بعالم .
ورغّب سبحانه في طلب العلم الشرعي ودعا إليه فقال جل وعلا :
{ فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ }
أي ليتعلموا أمور الدين وهي الإسلام والإيمان والإحسان .
{ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ }
وقال تعالى :
{ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ } ولا يكون ذلك إلا بتعلم الخير والتفقه في الدين ، لأن الخير ما استحسنه الشرع ، لا ما استحسنتْه النفس ، والشر ما استقبحه وذمّه الشرع ، لا ما كرهتْه النفس .
وفي هذا يقول سبحانه :
{ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا } أي بحسب الظاهر لكم أنه خير لكم
{وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ } .
وقال صلى الله عليه وسلم :
[من يرد الله به خيراً] أي في الدنيا والآخرة .
[يفقّهه في الدين] [1] أي : يعلّمه ويفهّمه أحكام الدين وأصوله الإيمانية والعملية والإحسانية .
ولهذا ضمّ سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ابن عباس رضي الله عنهما إلى صدره الشريف وقال : [اللهم علّمه الحكمة] [2]
وفي رواية : [اللهم فقّهْهُ في الدين وعلّمْهُ التأويل] [3]
فدعا له صلى الله عليه وسلم بما فيه خيره وصلاحه ونجاحه في الدنيا والآخرة .
وقد وردت أحاديث كثيرة عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم تذمّ علماء الدنيا وتمدح علماء الدين والآخرة .
أما علماء الدنيا فهم الذين يُفنون أعمارهم ويتعبون أجسادهم في طلب الدنيا وأموالها وزخارفها ، مع إهمالهم دين الله وأمر الآخرة .

---

[1] صحيح البخاري كتاب العلم وصحيح مسلم كتاب الزكاة
[2] صحيح البخاري كتاب المناقب
[3] المسند ٢٢٤٧

ومن ذلك ما روى ابن حبان في صحيحه والبيهقي في السنن الكبرى عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
[إن الله يُبغض كل جَعْظَري] - أي غليظ الطبع الفظّ المتكبر -
[جَوّاظ] - أي كثير الأكل مختال في مشيه -
[سخّاب بالأسواق] - السخب ويقال فيه الصخب هو : رفع الصوت بالخصام أي هو ماهر في تجارات الدنيا -
[جيفة بالليل] - أي : نائم طول الليل كأنه جسد ميت لا روح فيه ، لا يتهجد ولا يذكر الله فيه .
[حمار بالنهار ، عالم بأمر الدنيا ، جاهل بأمر الآخرة] .
أما الثناء والمدح لعلماء الدين والآخرة فأحاديث ذلك لا تُستقصى ، ومن جملتها :
ما رواه الترمذي عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال :
ذُكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم رجلان ، أحدهما عابد والآخر عالم ، فقال صلى الله عليه وسلم :
[فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم]
ثم قال صلى الله عليه وسلم :
[إن الله وملائكته وأهل السموات والأرضين ، حتى النملة في جحرها ، وحتى الحوت ليصلّون على معلم الناس الخير][1]
ومنها قوله صلى الله عليه وسلم :
[من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهّل الله له به طريقاً إلى الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضاً لطالب العلم [2]] .
ويكفي العلماء فضلاً وشرفاً وكرامة أنهم هم ورثة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، قال صلى الله عليه وسلم :
[إن العلماء ورثة الأنبياء ، إن الأنبياء لم يورّثوا ديناراً ولا درهماً ، إنما ورّثوا العلم ، فمن أخذه أخذ بحظ وافر][3]
أي كان حظه الحظ الوافر .

[1] سنن الترمذي كتاب العلم
[2] سنن ابن ماجه في المقدمة وسنن الترمذي كتاب العلم
[3] سنن ابن ماجه وصحيح ابن حبان كتاب العلم وسنن الدارمي في المقدمة

واعلم أن الإعراض عن مجالس العلم والزهد فيها والاستهانة بها إنما هو من صفة المنافقين ، كما جاء في حديث النفر الثلاثة الذين أقبلوا ورسول الله صلى الله عليه وسلم يحدّث القوم ، فأعرض أحدهم ومشى فقال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم :
[وأما الآخر فأعرض فأعرض الله عنه] [١] - وكان منافقاً [٢] - .
وجاء في الحديث عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال :
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:
[يبعث الله العباد يوم القيامة، ثم يميز العلماء، فيقول: يا معشر العلماء، إني لم أضع فيكم علمي وأنا أريد أن أعذبكم، اذهبوا فقد غفرت لكم] [٣]
وجاء في الحديث :
[إذا اجتمع العالم والعابد على الصراط ، قيل للعابد : ادخل الجنة وتنعّم بعبادتك ، وقيل للعالم : قف هنا واشفع لمن أحببت ، فإنك لا تشفع لأحد إلا شفعت] . [٤]
- أي كما كنت تنفعهم في الدنيا فليكن نفعك مستمراً لهم في الآخرة -
وفي الحديث عن أبي أمامة رضي الله عنه عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : [ثلاثة لا يستخف بهم إلا منافق :
ذو الشيبة في الإسلام ، وذو العلم ، وإمام مقسط] [١]

---

[١] صحيح البخاري كتاب العلم
[٢] قال الحافظ الزرقاني في شرح موطأ الإمام مالك : ٧ / ١٢١
قوله صلى الله عليه وسلم : [وأما الآخر] بالفتح أي الثالث [فأعرض] عن مجلسه صلى الله عليه وسلم ولم يلتفت إليه بل ولّى مدبراً [فأعرض الله عنه] أي جازاه بأن سخط عليه ، وهذا أيضا مشاكلة لأن الإعراض هو الالتفات إلى جهة أخرى ، وذلك لا يليق بالله تعالى ، فهو مجاز عن السخط والغضب .
قال الحافظ : وهو محمول على من أعرض لا لعذر ، هذا إن كان مسلماً ، ويحتمل أنه منافق ، وأُطلع صلى الله عليه وسلم على أمره ، كما يحتمل أن قوله صلى الله عليه وسلم : (فأعرض الله عنه) إخبار ودعاء ، وفي حديث أنس : [فاستغنى فاستغنى الله عنه]، وهذا يرشّح أنه خبر ، وقال أبو عمر : يحتمل أنه منافق إذ لا يُعرِض غالباً عن مجلسه صلى الله عليه وسلم إلا منافق ، بل بان لنا بقوله : (فأعرض الله عنه) أنه منافق ، لأنه لو أعرض لحاجة ما قال فيه ذلك ، وفيه جواز الإخبار عن أهل المعاصي المجاهرين وأحوالهم للزجر عنها ، وأن ذلك لا يُعد غيبة . اهـ .
[٣] المعجم الأوسط للطبراني ومسند الروياني ومعرفة الصحابة لأبي نعيم وجامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر
[٤] عزاه في كنز العمال لمسند الفردوس للديلمي وأبي الشيخ في الثواب عن ابن عباس

ويجب تعظيم العلماء واحترامهم وإجلالهم عملاً بقوله تعالى :
{ إن أكرمكم عند الله أتقاكم }
وقوله سبحانه :
{ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ }- أي : العلامات الدالة على الله تعالى -
{ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ }
وإذا كانت الصفا والمروة من شعائر الله - كما في الآية - فإن الكعبة بيت الله وموضع تجلّيه ومع هذا فإن المؤمن أعظم حرمة عند الله من الكعبة ،
فما بالك بحرمة العالِم ؟ !
فيجب أن تعظّمه أكثر من تعظيمك للكعبة وتوقّره وتحترمه .
وفي الحديث عن جابر رضي الله عنه قال :
لما افتتح النبي صلى الله عليه وسلم مكة ، استقبلها بوجهه وقال :
[أنت حرام ، ما أعظم حرمتك وأطيب ريحك ، وأعظم حرمة عند الله منك المؤمن] [٢]
وقال صلى الله عليه وسلم :
[ليس من أمتي من لم يُجِلَّ كبيرنا ، ويرحم صغيرنا ، ويعرفْ لعالِمنا حقّه] [٣]

فالعالِم له حق على الأمة هو أن يُعظّم ويُحترم ويُكرّم ويتّبع ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

<u>*- فائدة :</u>

دعاء من خشي نسيان القرآن :
اللهم نوّر بكتابك بصري ، وأطلق به لساني ، واشرح به صدري ، واستعمل به جسدي ، بحولك وقوتك فإنه لا حول ولا قوة إلا بك . [٤]

---

[١] عزاه في مجمع الزوائد للطبراني في المعجم الكبير
[٢] المعجم الأوسط للطبراني بهذا اللفظ وأصله في سنن ابن ماجه كتاب الفتن
[٣] المسند ٢١٦٩٣
[٤] وأصله في سنن الترمذي ومستدرك الحاكم وهو طرف دعاء علّمه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم لعليّ كرم الله وجهه ورضي عنه ، ولفظه :
[اللهم بديع السموات والأرض ، ذا الجلال والإكرام والعزة التي لا تُرام ، أسألك يا الله يا رحمن بجلالك ونور وجهك أن تنوّر بكتابك بصري ، وأن تُطلق به لساني ، وأن تفرّج به عن قلبي ، وأن تشرح به صدري ، وأن تستعمل به بدني ،
فإنه لا يعينني على الحق غيرك ، ولا يؤتينيه إلا أنت ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم] .

*- فوائد :

-- يقال لدفع المرض وخاصة إسهال البطن :

(بسم الله الرحمن الرحيم ، بسم الله خير الأسماء ، بسم الله رب الأرض والسماء ، بسم الله ممسك الأرض والسماء ، بسم الله الذي لا يضر مع اسمه سُمٌّ ولا داء ، بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم .

إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا ، اللهم أمسك عليه قواه ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم) .

-- يقال للشفاء من أمراض وأوجاع العين :

بين سنة الفجر وفرضه تضع يدك على عينيك وتقرأ :

(بسم الله الرحمن الرحيم) مائة مرة أو واحداً وأربعين مرة .

ثم تقول : (اللهم صل على سيدنا محمد طب القلوب ودوائها ، وعافية الأبدان وشفائها ، ونور الأبصار وضيائها ، وروح الأرواح وحياتها وسرّها وغذائها ، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً)

سبع مرات وراء كل صلاة .

-- يقال للآلام وللصداع خاصة :

وراء كل صلاة أوعند الألم تضع يدك على رأسك ثم تقرأ إحدى عشرة مرة :

(بسم الله الرحمن الرحيم ، { سلام قولاً من رب رحيم } ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، لا ملجأ ولا منجا من الله إلا إليه) . اهـ .

قلت : ورأيت في مذكرات الشيخ المحب الأستاذ محمد السبسبي [1] رحمه الله تعالى :

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين .

سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم

لقد منّ الله تعالى عليّ بفكرة بادئ ذي بدء بأن أجمع كل ما أسمع من فضيلة شيخنا العلامة المحدّث المفسر الفقيه الصوفي سيادة الشيخ عبد الله سراج الدين وارث علم النبوة رضي الله تعالى عنه ، أن أجمع كل ما أسمع من إجابات على أسئلة تُوجَّه إليه رضي الله تعالى عنه ،وباشرت بذلك صبيحة يوم الأحد ١٦ شعبان المعظم في المدرسة الشعبانية بعد أن خرجت من درس جامع الحموي في هذا اليوم من عام /١٣٩١/ هـ

وكان السؤال الأول الذي وجه إليه رضي الله تعالى عنه :

ما معنى{ ذُو مِرَّةٍ } في قوله تعالى { وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى * ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى }؟

فقال رضي الله تعالى عنه: ذو فكر صحيح أو ما يقال عنه بـ (الحصافة) ، وهو وصف سيدنا جبريل عليه الصلاة والسلام .

وسئل رضي الله تعالى عنه عن تأخير صلاة الفجر إلى قبيل طلوع الشمس بدقيقتين أو ثلاث ..

فقال : إذا كانت دائماً لا تجوز .

---

[1] هو الشيخ محمد بن محمد السبسبي الرفاعي الحسيني المولود سنة ١٣٥٦ هـ
- دَرَسَ في المدرسة الخسروية المعروفة الآن بـ (الثانوية الشرعية)
- نال الشهادة الجامعية من كلية الشريعة في جامعة دمشق
- درّس مادة التربية الدينية في الثانويات العامة
- درّس في معهد التعليم الشرعي (الشعبانية) في الفترة الواقعة ما بين عامي (١٣٩٢ - ١٤٠٠) هـ
- كان محباً للشيخ الإمام رضي الله عنه محبة مميزة شهد بها كل من رآه
- كان حريصاً كل الحرص على حضور دروس مولانا الشيخ رضي الله عنه وسماعها وكتابة مقاطع منها
- كان مواظباً على حضور مجالس الشيخ الإمام الخاصة في معهد التعليم الشرعي (الشعبانية) ، ومواظباً على صحبة الشيخ الإمام في عودته إلى منزله الكائن جانب جامع الحموي حول القلعة .
- وقد توفي شهيداً في حادث سيارة ، وهو يصلي مع صحب له بين الحرمين الشريفين ، حيث كان متوجهاً من المدينة المنورة معتمراً إلى مكة المكرمة سنة ١٤٠٢ هـ عن عمر ناهز الأربعين ، رحمه الله رحمة واسعة وجزاه خير الجزاء .

فقال السائل : هكذا نُقل عن الشيخ محمد نجيب - والده - رحمه الله تعالى ورضي عنه ورفع مقامه في الرفيق الأعلى .
فأجاب : إن هذا غير صحيح
وقال : إن والدي كان يصلي الفجر في الشتاء بعد الأذان بثلث ساعة ، وفي الصيف بعد الأذان بنصف ساعة .
وقال : لا يزال هناك مَن كان يصلي مع والدي ، فسلوهم إن شئتم
ثم قال :
إن من البليّة أن يعمل الناس بعض الأعمال غير الصحيحة ، ثم يُسندونها إلى الشيخ محمد نجيب ، وهو أمر غير صحيح .
وسئل رضي الله تعالى عنه عن إمام في حي يؤخّر صلاة الفجر إلى قبيل الشمس بعشر دقائق ، هل ينتظره الإنسان ؟ أم يصلي منفرداً ؟
فقال : إن كانت هناك جماعة في جامع آخر تُقام قبل هذا الوقت فليطلب الجماعة ، وإلا ينتظر الإمام لئلا تفوته الجماعة ، وليصلّ مع الجماعة .
وسئل رضي الله تعالى عنه عن رجل يريد أن يدفع زكاة ماله ، وله زوجة ولد فقيرة وولده كذلك ، هل يجوز أن يدفعها إلى زوجة ولده ؟
فقال : تُعطى منها ويقال : هذا لكِ تمليكاً .
وبعد أن كتبت هذه الإجابات عرضتُها عليه رضي الله تعالى عنه في يوم الأربعاء الذي هو بعد الأحد المتقدم ذِكْره أمام باب منزله جعله الله تعالى عامراً وقلت له ما عزمت عليه من هذا الأمر فقال رضي الله تعالى عنه :
(إنما يُفعل هذا مع الأئمة الكبار ، لا تفعل)
قال هذا تواضعاً رضي الله تعالى عنه .
فاستبشرتُ من ذلك خيراً ، وتابعت بعون الله تعالى ما عزمت عليه ، وكانت الإجابات على الأسئلة المطروحة عليه رضي الله تعالى عنه في أماكن متعددة ، فمنها : عقب درس الحموي ، ومنها : في المدرسة الشعبانية في غرفة الإدارة ، ومنها: في المدرسة في غرف الصفوف ، ومنها :عقب درس الجامع الأموي الكبير ، ومنها : أثناء عودته إلى بيته رضي الله تعالى عنه ، ومنها : ما كان في منزله عَمَرَه الله تعالى بكل خير وإكرام ، ومنها : في مناسبات متعددة .
فأسأل الله تعالى الكريم وأتوسل إليه بجاه حبيبه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم سيد العالمين أن لا يقطعني والمسلمين عنه ، إنه خير مسؤول ونعم المجيب آمين .
وفي بعض الأحيان أتصرف ببعض ألفاظ الإجابة تصرفاً بسيطاً ، لكون السائل عامّياً وتكون الإجابة له بالعامية .

*** كلّفني والدي أن أسأله رضي الله تعالى عنه عن صلاة الأنبياء والمرسلين من لدن سيدنا آدم إلى سيدنا عيسى على نبينا وعليهم الصلاة والسلام : هل كانت ذات ركوع وسجود وقراءة كصلاتنا ؟

فأجاب رضي الله تعالى عنه : كانت لهم صلاة ، وهي ذات ركوع وسجود بدليل قوله تعالى مخبراً عن الملائكة الكرام لما قالت للسيدة مريم عليها السلام :

{ يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين }

ولكن كيفية تفصيل ذلك لم يَرِد شيء عن هذا ، وإن كان في صلاتهم تلاوة وقراءة فهي مما نزل عليهم من الكتب والله تعالى أعلم .

أما صلاتنا : فجامعة لكل فضائل الصلوات ومحاسنها في الأمم السابقة .

*** سأله رضي الله تعالى عنه الشيخ حامد السيد عن اسم الله تعالى (الصمد) هل له عدد يُذكر به ؟

فأجاب رضي الله تعالى عنه : يُذكر في السحر (١٢٥) مائة وخمساً وعشرين مرة لقضاء الحاجات .

*** سئل رضي الله تعالى عنه عن طفل مسلم رضع من امرأة كتابية هل يجوز لذلك الطفل بعد بلوغه أن يتزوج بنت تلك المرأة المرضعة ؟

فقال : لا يجوز ، والعبرة لحليب تلك المرأة المرضعة .

*** سئل رضي الله تعالى عنه عن تأخير أذان الفجر والصلاة ؟

فقال : يجوز ذلك

ثم قال حفظه الله تعالى : ينبغي أن ينتبه - أي المؤذن - بالنسبة للصائمين الذين يصومون النفل لئلا يشوش عليهم أنه في ذلك الوقت أذّن الفجر ، لذا عليه أن يؤذن في أول الوقت خوف التشويش على الصائمين .

*** سئل رضي الله تعالى عنه عن رجل رمى الجمار قبل الزوال من اليوم الثالث في مِنى .

فقال : هذا قول ضعيف ، ويجب على الرامي دم لأنه ترك واجباً ، وعليه أن يرسل إلى هناك ويوكّل من يذبح عنه في الحرم ، أو أن يذبح هو في العام القادم إن استطاع .

*** سئل رضي الله تعالى عنه عن وصول ثواب القراءة للأموات .

فقال : اتفق الإمام أبو حنيفة والشافعي وأحمد ومالك - رضي الله تعالى عنهم - على وصول ثواب القراءة إلى الأموات ، فمن صام أو صلى أو حج أو تصدّق ووهب ثواب ذلك إلى الأموات وصل ثواب ذلك إليهم ،

ثم قال للسائل :لا تلتفت إلى من يقول بخلاف ذلك ،

ثم قال : كيف كان آباؤنا وأجدادنا والسلف الصالح نكون نحن .

*** سئل رضي الله تعالى عنه عن الرجل هل يجوز له أن يأكل من أضحية ذبَحها متبرعاً بها عن ميت لم يوصِ بها ؟
فقال : يجوز باعتبار أنه متبرع .
ثم بيّن رضي الله تعالى عنه عن الأضحية التي يذبحها الإنسان في الأضحى مثلاً : بأنه ليس واجباً عليه أن يطعم منها شيئاً ، ولكن السُّنة : أن يأكل الثلث ويطعم الثلث ويدّخر الثلث ، وكلما أطعم منها أكثر فهو أفضل .
*** سئل رضي الله تعالى عنه عن نية الإنسان إذا أراد صلاة الظهر بعد صلاة فرض الجمعة ؟ .
فقال : يقول : نويت أن أصلي فرض آخر ظهر أدركتُه ولم أصلّه
فقال له أحدهم : أيجوز أن يقول : فرض آخر ظهر علي ؟
فقال : لا ، لأنه بهذه الحالة تدخل الفائتة ، ولا يزال وقت الظهر هنا لم ينتَهِ
*** سئل رضي الله تعالى عنه : عن إسقاط الصلاة
فأجاب : بيّن الفقهاء رضي الله تعالى عنهم أنه في مثل هذه الحالة يدخل إسقاط الصلاة ، وما على الميت من صيام ونذر وكفارات وما شابه ذلك ، وهو عمل خير ينال الميت منه ثواباً ، ويُرجى أن يقبل الله تعالى ذلك ، وفيه فائدة للفقراء . [1]

*** سئل رضي الله تعالى عنه : ما هو ثواب الحيوانات على تسبيحها لله عز وجل ؟
فقال : ينعّمها الله سبحانه وتعالى في الدنيا ، ويبسط لها في النعم ، وأما في الآخرة : فيجري القصاص بينها .
*** سئل رضي الله تعالى عنه :
ما معنى قول القائل : (بعماء كنت به أزلاً) ؟
فأجاب : حيث لا وجود للخلق ، أي :
(يا رب أسألك حيث كنت في أزل الأزل)

---

[1] قال في الدر المختار في الفقه الحنفي :
(ولو مات وعليه صلوات فائتة وأوصى بالكفارة يُعطى لكل صلاة نصف صاع من بر) كالفطرة (وكذا حكم الوتر) والصوم، وإنما يعطى (من ثلث ماله) ولو لم يترك مالاً يستقرض وارثه نصف صاع مثلاً ويدفعه لفقير ثم يدفعه الفقير للوارث، ثم وثم حتى يتم (ولو قضاها ورثته بأمره لم يجز) لأنها عبادة بدنية (بخلاف الحج) لأنه يقبل النيابة، ولو أدى للفقير أقل من نصف صاع لم يجز، ولو أعطاه الكل جاز، ولو فدى عن صلاته في مرضه لا يصح، بخلاف الصوم. اهـ ٧٧/٢

ـ إشارة إلى قوله صلى الله عليه وسلم : [كان الله ولم يكن شيء غيره] [1]
وفي صحيح ابن حبان : [كان الله ولم يكن شيء قبْله] .
وقال الحافظ ابن حجر في الفتح :
وفي رواية غير البخاري [ولم يكن شيء معه] .
*** سئل رضي الله تعالى عنه : هل يجوز دفن إنسان فوق الميت ؟
فأجاب : يجوز إذا بلي .
*** سأله رضي الله تعالى عنه سائل موسر ذو جاه :
لمَ جعل الله سبحانه ثواب الطائعين الجنة في الآخرة ،
ولم يجعل ثوابهم في الدنيا ؟
فقال : بأن مثل هذا السؤال لابد له من جواب مقنع
ثم قال له : لو أن الله سبحانه وتعالى قال لك :
اختر مكاناً لنفسك في الدنيا لتتمتع به ، فما يكون حالك أو موقفك ؟
فسكت الرجل قليلاً ثم قال : لا يوجد مكان في الدنيا يُتمتع به .
فقال الشيخ حفظه الله تعالى : الحمد لله رب العالمين .
*** سأله رضي الله عنه طالب علم فقال :
إذا كان الإنسان يذكر الله تعالى وسمع المنشد يمدح النبي صلى الله عليه وسلم ، فهل يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم أم يتابع ذكره ؟
فأجاب رضي الله تعالى عنه :
يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم ثم يتابع ، ثم بيّن أن الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم من ذكر الله تعالى .
ثم زاد وأفاد :
بأن الإنسان إذا كان يقرأ القرآن الكريم وذكر النبي صلى الله عليه وسلم فيصلي عليه صلى الله عليه وسلم بعد انتهائه من قراءة القرآن .
*** سئل رضي الله تعالى عنه عن معنى كلمة : (سبط) الواردة في قوله تعالى : { قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ }
فأجاب : أصلها يطلق على أولاد سيدنا يعقوب عليه الصلاة والسلام ، ومَن تناسل منهم ، وعددهم اثنا عشر سبطاً ، وقد تأتي بمعنى الأحفاد ، فسيدنا الحسن والحسين سبطا رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضي الله تعالى عنهما .

---

[1] طرف حديث في صحيح البخاري كتاب بدء الخلق عن سيدنا عمران بن حصين رضي الله عنه

وقد تأتي بمعنى : جماعات ، كقوله تعالى :
{ وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا }
*** سئل رضي الله تعالى عنه عن طوفان سيدنا نوح عليه الصلاة والسلام هل عمّ الأرض كلها ؟
فأجاب : كان عاماً بدليل قوله تعالى : { قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ }
إذ لو لم يكن عاماً لما كان هناك فائدة من حمل هذه الأزواج ،
لأن في غيرها من الأراضي يوجد الحيوانات وما ذُكِر .
وذكر أيضاً رضي الله تعالى عنه: أنه جاء في بعض الروايات :
لقد زرع سيدنا نوح الشجر وانتظر حتى نبت ، ثم صنع منه السفينة ،
وكان كلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه ، إلى أن أمره الله تعالى بحمل من أمره بحمله .
ولو لم يكن الطوفان عاماً مستأصِلاً مَن على وجه الأرض لَمَا أمر الله سيدنا نوحاً عليه السلام بصناعة السفينة ، وأن يحمل فيها من الحيوانات من كلٍّ زوجين اثنين لكي تتكاثر مرة أخرى ، ولو كان الطوفان جزئياً في المنطقة التي كان بها قوم نوح فقط لأوحى إليه سبحانه أن اخرج من هذه المنطقة وابتعد عنها فإني سأغرق أهلها الكافرين ، كما فعل سبحانه في قوم لوط مثلاً فقال سبحانه مخبراً عن الملائكة :
{ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ } ... الآية
ثم أنزل الله عليهم العذاب بأن جعل عاليها سافلها .... وهكذا

*** مشروعية زيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم [1] :
ذكر شيخنا الإمام حفظه الله تعالى ورعاه عن شد الرحال أن بعض الناس يقولون : لا تشد الرحال إلى قبر النبي صلى الله عليه وسلم ، وعلى زعمهم يستدلّون بالحديث الذي رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :
[لا تُشدّ الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد :
مسجدي هذا والمسجد الحرام ومسجد الأقصى] [2]
ويعنون بذلك أن شد الرحال ينبغي أن يكون إلى المسجد ، وأجاب عن ذلك رضي الله تعالى عنه فقال:
لو أُخِذ الحديث على إطلاقه [لا تشد الرحال] فينبغي أن لا يكون هناك شد لرحل أبداً إلا لما ذُكر ، والحال أنه يُطلب شد الرحال إلى طلب العلم قال تعالى :
{ فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ }
وكذلك تُشد الرحال إلى التجارة ، وقد خرج سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم للتجارة .
وتشد الرحال لزيارة أخ في الله تعالى كما روى الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
[من عاد مريضاً أو زار أخاً له في الله ناداه مناد : أن طِبت وطاب ممشاك وتبوأت من الجنة منزلاً] [3]
أما شد الرحال لهذه المساجد الثلاثة فلِما فيها من خصوصية مضاعفة الثواب للصلاة ، وأما غير هذه المساجد فليس فيها تلك المضاعفة .

---

[1] أَجْمَعَتِ الأُمَّةُ الإِسْلاَمِيَّةُ سَلَفًا وَخَلَفًا عَلَى مَشْرُوعِيَّةِ زِيَارَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .
وَقَدْ ذَهَبَ جُمْهُورُ الْعُلَمَاءِ مِنْ أَهْلِ الْفَتْوَى فِي الْمَذَاهِبِ إِلَى أَنَّهَا سُنَّةٌ مُسْتَحَبَّةٌ ، وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنَ الْمُحَقِّقِينَ : هِيَ سُنَّةٌ مُؤَكَّدَةٌ ، تَقْرُبُ مِنْ دَرَجَةِ الْوَاجِبَاتِ ، وَهُوَ الْمُفْتَى بِهِ عِنْدَ طَائِفَةٍ مِنَ الْحَنَفِيَّةِ (كما في فتح القدير للكمال بن الهمام)
وَذَهَبَ الْفَقِيهُ الْمَالِكِيُّ أَبُو عِمْرَانَ مُوسَى بْنُ عِيسَى إِلَى أَنَّهَا وَاجِبَةٌ
ـ كما في الشفا ٢ / ١٥٠ ، والمواهب اللدنية للقسطلاني .
[2] صحيح البخاري كتاب الجمعة وصحيح مسلم كتاب الحج واللفظ له
[3] سنن الترمذي كتاب البر والصلة وسنن ابن ماجه كتاب الجنائز

وقال الحافظ ابن حجر في فتح الباري :
المراد حكم المساجد فقط ، وأنه لا تُشَدُّ الرحال إلى مسجد من المساجد للصلاة فيه غير هذه الثلاثة ؛ وأما قصد غير المساجد لزيارة صالح أو قريب أو صاحب أو طلب علم أو تجارة أو نزهة فلا يدخل في النهي ، ويؤيده ما روى أحمد من طريق شهر بن حوشب قال : سمعت أبا سعيد وذكرت عنده الصلاة في الطور فقال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : [لا ينبغي للمصلي أن يشدّ رحاله إلى مسجد تبتغى فيه الصلاة غير المسجد الحرام والمسجد الأقصى ومسجدي] .
وقال بعض المحققين : قوله صلى الله عليه وسلم [إلا إلى ثلاثة مساجد] المستثنى منه محذوف ، فإما أن يُقدّر عاماً فيصير : (لا تشد الرحال إلى مكان في أي أمر كان إلا إلى الثلاثة) ، أو أخص من ذلك ، ولا سبيل إلى الأول لإفضائه إلى سد باب السفر للتجارة وصلة الرحم وطلب العلم وغيرها فتعيَّن الثاني ، والأولى أن يُقدَّر ما هو أكثر مناسبة وهو : (لا تشد الرحال إلى مسجد للصلاة فيه إلا إلى الثلاثة) ، فيبطل بذلك قول من منع شد الرحال إلى زيارة القبر الشريف وغيره من قبور الصالحين والله أعلم . اهـ [1]
وجاء في رواية : لا تُشدُّ المطي إلا إلى ثلاثة مساجد :المسجد الحرام ومسجد المدينة وبيت المقدس [2]
وروى الإمام البزار عن أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنه قالت :
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
[أنا خاتم الأنبياء ، ومسجدي خاتم مساجد الأنبياء أحق المساجد أن يُزار وتُشدّ إليه الرواحل] ....الحديث [3]
وقال الشيخ سليمان الجمل في حاشية الجمل على المنهج في الفقه الشافعي :
قال السبكي : وليس في الأرض بقعة فيها فضل لذاتها حتى تُشدّ الرحال إليها لذلك الفضل غير البلاد الثلاثة .
قال : ومرادي بالفضل ما شهد الشرع باعتباره ، ورتّب عليه حكماً شرعياً وأما غيرها من البلاد فلا تشد إليها لذاتها ، بل لزيارة أو علم أو نحو ذلك من المندوبات أو المباحات .

---

[1] انظر الفتح ٤ /١٩٠
[2] انظر مسند الإمام أحمد بن حنبل ومسند أبي يعلى الموصلي ومسند عبد بن حميد والمعجم الأوسط للطبراني
[3] انظر مجمع الزوائد

وقد التبس ذلك على بعضهم فزعم أن شد الرحال إلى الزيارة لمَن في غير الثلاثة كسيدي أحمد البدوي ونحوه داخل في المنع وهو خطأ ؛

لأن الاستثناء إنما يكون من جنس المستثنى منه ، فمعنى الحديث :

(لا تشد الرحال إلى مسجد من المساجد أو إلى مكان من الأمكنة لأجل ذلك المكان إلا إلى الثلاثة المذكورة) .

وشد الرحال لزيارة أو طلب علم ليس إلى المكان بل لمَن في المكان ، فليُفهم . اهـ .[1]

وقد تقدم حديث نزول سيدنا عيسى عليه السلام آخر الزمان الذي رواه الحاكم وصححه و فيه قوله صلى الله عليه وسلم:

[ليهبطَنَّ عيسى ابن مريم حَكَماً عدلاً وإماماً مقسطاً ، وليسلكن فجّاَ]

- والفج : الطريق الواسع -

[حاجّاً أو معتمراً أو بنيّتهما ، وليأتين قبري] - وهذا صريح في أن سيدنا عيسى عليه السلام سيشد رحله لزيارة النبي صلى الله عليه وسلم .

[حتى يسلّم علي ولَأردَّنَّ عليه] .

واعلم أن عيسى عليه السلام لمّا ينزل آخر الزمن يكون إماماً للمسلمين ، ويعمل بأحكام القرآن وسنة خير الأنام صلى الله عليه وسلم ، ويجب على المسلمين حينئذ الاقتداء به .

*** تكلم رضي الله تعالى عنه عما يروى في الأثر :

(كنت كنزاً مخفياً فأردت أن أُعرَف ، فخلقت خلقاً فبي عرفوني)

وأسند عن سيدي والده الشيخ نجيب رضي الله تعالى عنه ورفع مقامه في الندي الأعلى أنه قال :

إن هذا الأثر صحيح المعنى ، وعليه شاهد من القرآن الكريم وهو قوله تعالى :

{ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا }.

فلم يكن خلْق السموات والأرض والمخلوقات إلا ليعلموا ويتعرفوا على الله سبحانه وتعالى .

ثم تكلم عن أهل الله تعالى رضي الله تعالى عنهم :

أنهم إذا مرّوا بذكر الشمس والقمر وقفوا عند ذكرهما وأخذوا منهما عظة وعبرة ، فما الذي يدل على نور الشمس غير نورها ؟

فلو أشعل الإنسان كل أضواء الكهرباء ليفتش عن الشمس فهل يراها ؟

---

[1] ٣٧٧/٨ ونقل الحافظ ابن حجر في الفتح قول السبكي أيضاً .

إنه لا يرى الشمس إلا بنورها .
ثم ذكر رضي الله تعالى عنه شيئاً عن الكنز المخفي ، وهو ما يطلق عليه (الحضرة العمائية) حيث لم يكن إلا : { هو } سبحانه وتعالى المذكور في قوله تعالى :{ قل هو الله أحد }
وقد قال صلى الله عليه وسلم عندما سئل : أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه؟ قال : [كان في عماء] [1] .... الحديث
- وهي الحضرة التي لم يظهر فيها أثر لاسم من أسمائه جل وعلا -
*** سئل رضي الله تعالى عنه من قبل الشيخ حامد السيد
- وقد أثنى عليه وعلى والده خيراً - :
من هو العارف ؟
فأجابه : العارف هو الغارف الذي يغرف من علوم القرآن ومعانيه ، فبمقدار ما يغرف يكون عارفاً .
*** بيّن رضي الله تعالى عنه عند تفسير قوله تعالى :
{ وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً } :
أن الشهور غُررها - أولها ومبدؤها - بالليالي ، وذكر أن كل ليلة تسبق يومها ، فمثلاً :
ليلة الجمعة : إنما تكون وتبدأ من مساء يوم الخميس .
ليلة القدر : ليلة السابع والعشرين من رمضان - بناء على بعض روايات الحديث ، وهناك روايات دلت على أنها تُلتمس في العشر الأخير من رمضان ، كما روى الترمذي في سننه عن أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
[تحرّوا ليلة القدر في العشر الأواخر من رمضان] -
وليلة النصف من شعبان : تبدأ مساء الرابع عشر من شعبان .
أما ليلة عرفة وليالي منى وليلة العيد فإن حكمها واعتبارها يمتد إلى الليالي التي بعدها فبدايتها من اليوم التاسع من ذي الحجة والأيام والليالي بعدها وهي الأوقات التي يجوز فيها رمي الجمار .
*** سئل رضي الله تعالى عنه عن امرأة معتدّة خرجت من بيت زوجها ؟
فقال رضي الله تعالى عنه : لا يجوز للمرأة المعتدة أن تخرج من بيت زوجها إلا بأمرين :
إما أن البيت سيسقط - أي إذا كان البيت خَرِباً على وشك السقوط -
أو أنها مستأجِرة وأصحاب البيت سيخرجونها .

---

[1] انظره في سنن الترمذي وابن ماجه ومسند أحمد وصحيح ابن حبان

فقال السائل : إنها خرجت بسبب وجود أجانب من بيت حميها
فأجاب رضي الله عنه: إن وجود هؤلاء لا اعتبار له ، بمعنى أنهم أجانب عنها - أي : غير محارم - في حال وجود زوجها ووفاته ، ولا يجوز أن تكلمهم إلا من وراء حجاب ، ولا يجوز أن يروها ، لا في العدة ولا بعد انتهائها .
فقال السائل : فماذا تفعل وهي لا تستطيع العودة ؟
فأجاب : تستغفر الله تعالى ، لأن الخروج من بيت الزوج مكروه تحريماً إلا لضرورة شرعية .
*** سئل رضي الله تعالى عنه عن جماعة يقولون :
إن القول في وصف سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام بأنه
(أول خلق الله) هو قول غير صحيح .
فأجاب : لا تلتفت إليهم ، فإن لذلك أصلاً وهو قوله صلى الله عليه وسلم :
[كنت أول النبيين في الخَلْق ، وآخرهم في البعث] [1]
وجاء في سنن الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال :
قالوا : يا رسول الله متى وجبت لك النبوة ؟
قال صلى الله عليه وسلم : [وآدم بين الروح والجسد] .
وأخرج ابن سعد في الطبقات عن جابر عن عامر قال :
« قال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم : متى استُنبئت؟
قال : [وآدم بين الروح والجسد حين أخذ مني الميثاق] [2]

---

[1] مسند الشاميين للطبراني ودلائل النبوة لأبي نعيم ورواه أبو بكر بن الخلال في السنة وابن قانع في معجم الصحابة والبيهقي في دلائل النبوة وابن أبي شيبة في مصنفه وقال الإمام العجلوني في كشف الخفا :
قال التقي السبكي : فإن قلتَ : النبوة وصف لا بد أن يكون الموصوف به موجوداً وإنما يكون بعد أربعين سنة فكيف يوصف به قبل وجوده وقبل إرساله صلى الله عليه وسلم ؟
قلت : جاء أن الله تعالى خلق الأرواح قبل الأجساد فقد تكون الإشارة بقوله :
[كنت نبياً] إلى روحه الشريفة أو حقيقته ، والحقائق تقصر عقولنا عن معرفتها ، وإنما يعرفها خالقها ومن أمدّه بنور إلهي .
ونقل العلقمي عن علي بن الحسين عن أبيه عن جده مرفوعاً أنه صلى الله عليه وسلم قال : [كنت نوراً بين يدي ربي عز وجل قبل أن يخلق آدم بأربعة عشر ألف عام] . اهـ ٢ / ١٣٠
قلت : وهذا الحديث المتقدم ذِكره : [كنت نورًا بين يدي ربي قبل خلق آدم بأربعة عشر ألف عام] ذكره الإمام الزرقاني في شرح المواهب ٩٥/١
[2] وذكره الإمام السيوطي في الدر المنثور ١٢٨/٨ وقال :

وقال الإمام السيوطي في الدر المنثور [١] :
وأخرج البزار والطبراني في الأوسط وأبو نعيم في الدلائل عن ابن عباس رضي الله عنهما قال :
« قيل يا رسول الله متى كنت نبياً ؟ قال : [وآدم بين الروح والجسد] .
وأخرج الإمام أحمد والبخاري في تاريخه والطبراني والحاكم وصححه وأبو نعيم والبيهقي معاً في الدلائل عن ميسرة الفجر رضي الله عنه قال :
« قلت يا رسول الله متى كنت نبياً ؟ قال : [وآدم بين الروح والجسد] . اهـ
ولو قيل : إن المراد من قوله : متى كنت نبياً ؟ وقوله : متى وجبت لك النبوة ؟
لو قيل إن المراد منهما أنه صلى الله عليه وسلم سئل : متى كُتبت نبياً ؟
فكان جوابه : كُتِبْتُ نبياً وآدم بين الروح والجسد ، أي كتبت نبياً ولمّا يخلق الله آدم عليه السلام .
لو قيل هذا فيقال :
فما وجه تخصيصه صلى الله عليه وسلم وتفضيله على سائر الأنبياء إذاً ؟
حيث علمنا أن كل الاشياء قد كتبها الله تعالى قبل خلْقها في كتب متنوعة على مراتب ، فمنها الذِّكر كما في الحديث :
[وكتب في الذكر كل شيء] [٢]
ثم اللوح المحفوظ ثم في صحف الملائكة ثم لما ينفخ الروح في الجنين وهو في بطن أمه - وانظر بيان ذلك في موضع آخر - وعلى هذا فيكون المعنى الصحيح إذاً : إن أول روح خلقها الله تعالى في عالم الأرواح هي روح سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وأول نبي نبّأه الله تعالى في ذلك العالم هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، ولا يُستبعد على الله أن يكرم نبيه سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم بذلك ويخصّه ويتفضل عليه بمقتضى قوله تعالى : { وكان فضل الله عليك عظيماً } .

أخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال :
« قيل يا رسول الله متى أخذ ميثاقك؟ قال : [وآدم بين الروح والجسد] .
[١] ١٢٩/٨
[٢] طرف حديث في صحيح البخاري كتاب بدء الخلق عن عمران بن حصين رضي الله عنه

وقد كان معلوماً عند الصحابة كلهم رضي الله عنهم أن الله تعالى كتب الأشياء وقدّرها قبل خلقها كتابة إجمالية وتفصيلية ، وعلى مراحل ومراتب ، كما سمعوا ذلك من سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حيث جاءت أحاديثه الشريفة تبين ذلك في مناسبات متعددة ، وهذا يدلك على أن رواية : (متى كتبتَ نبياً) أي : متى نبّأك الله وكتبك في جملة ما كتب أنك نبي وخاتم النبيين كما دلت عليه الروايات السابقة : (متى كنت نبياً)
(متى وجبت لك النبوة) (متى استنبئت)
وكان جواب النبي صلى الله عليه وسلم : [وآدم بين الروح والجسد]
أي نبّأني الله في عالم الأرواح ، ولم يكن وقتها آدم عليه السلام لا روحاً ولا جسداً ، وإنما يدور أمر الله في تخليقه ، كما تقول مثلاً :
(جلست بين الساريتين) ، أي : لا إلى هذه ولا إلى تلك .
فهو صلى الله عليه وسلم في عالم الأرواح أول الأرواح خلقاً ، وأول من نبأه الله في ذلك العالم .
*** سئل رضي الله تعالى عنه :
لقد حدث مسخ في بني إسرائيل ، فهل يجري في هذه الأمة ؟
فأجاب : مسخ الصور لا يكون إلا في آخر الزمن ، أما قبل ذلك فلا يقع ، وذلك قبيل الساعة كما دلت عليه أحاديث أشراط الساعة .
*** سئل رضي الله تعالى عنه :
رجل يودّ أن يعطي ماله لأولاده البررة أو لزوجته ويحرم الباقين ؟
قال رضي الله تعالى عنه : حرمان بعض الأولاد حرام ، أما إذا أراد أن يعطي ولده البار أكثر من غيره باعتبار برّه به فلا مانع .
ثم بين رضي الله تعالى عنه أن الله تعالى لما قسّم الميراث لم يبين أن أولادكم العاقين لا تعطوهم ، والبارّين أعطوهم .
*** بعد وفاة والدي رحمه الله تعالى مساء الجمعة كلّفتني أمي سلّمها الله تعالى والمسلمين أن أسأله رضي الله تعالى عنه عن لون ثوب الحداد ؟
فأجاب رضي الله تعالى عنه : تلبس ثوباً غير زاهي الألوان
فقلت : إنها تودّ السواد ، قال : لا ، فإن كان لابد فالفضّي .
*** سئل رضي الله تعالى عنه عن رجل يود أن يحج عن غيره أو يعتمر هل ينوي الحج أو العمرة ؟ وماذا يقول ؟
فأجاب رضي الله تعالى عنه : ينوي الحج وعند إحرامه يقول :
اللهم إني نويت الحج عن فلان فتقبّله مني ويسِّره لي .
فقال السائل : والعمرة ؟ فقال : يأتي بها من بعد .

*** بيّن رضي الله تعالى عنه أن بعض المفسرين في هذا الزمن يفسّر بعض آيات من القرآن الكريم بما لا يشهد لذلك من سنة ولا من لغة .
ثم قال حفظه الله تعالى - وكان في زيارته عالم الهند السيد حبيب الرحمن الأعظمي - :
وقد فسر بعضهم قول الله تعالى : { ولا تقربا هذه الشجرة } فسَّرَها بعضهم بما يستحيا من ذكره : أن الشجرة هي أمّنا السيدة حواء فنهى الله تعالى سيدنا آدم عليه السلام أن يقربها لجماعها -
ثم نقض الشيخ رضي الله عنه هذا الزعم فقال :
الله تعالى يقول لآدم عليه السلام:{ اسكن أنت وزوجك الجنة }
فهو سبحانه زوّج حواء لآدم عليه السلام وأسكنهما الجنة
كما قال سبحانه لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم عن السيدة زينب رضي الله تعالى عنها { زوّجْناكها } .
ثم إذا كان الأمر كما يقول لكانت ذرية آدم كلها أولاد زنا ،
ولا تشهد اللغة لذلك قطعاً .
*** سئل رضي الله تعالى عنه :
رجل دفع لآخر مبلغاً من المال سلفاً لشراء ما عنده من الزيتون بسعر أقل مما هو في زمن قطافه فهل هذا جائز ؟
فأجاب رضي الله تعالى عنه : هذا من قبيل بيع السَّلَم وهو جائز بشرط أن يذكر نوع المبيع - نوع الزيتون أو الحنطة مثلاً - ، ومقدار المبيع ، وموضع تسليمه في بلد البائع أو في مكان المشتري وما شابه ذلك .
فقال السائل : إن عجز البائع عن التسليم فما العمل ؟
أجاب رضي الله تعالى عنه :
البائع ملزم بشراء الكمية المحددة من السوق ولو بسعر أغلى .
*** سئل رضي الله تعالى عنه عن ثلث الليل الآخر متى يبدأ ؟
فأجاب رضي الله تعالى عنه :
قسِّم الساعات التي تقع ما بين صلاة العشاء إلى أذان الفجر قسّمها على ثلاثة أجزاء ، والجزء الأخير هو وقت السحر ، وهذا يختلف بحسب طول الليل وقِصره .

*** بيان آية كريمة :
أـ ما هي الاستقامة ؟
قال تعالى : { قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ } الآيات ..
فالاستقامة شريعة الله تعالى التي نزل بها سيدنا جبريل على نبينا عليه الصلاة والسلام .
قوله تعالى :{ اهدنا الصراط المستقيم }أي الطريق التي دعا إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم .
ب ـ كيفيتها : والتمثيل بوقوف شخص على خط مستقيم بحيث يكون بوقوفه على الخط زاوية قائمة ، وكيف يعدّل من نفسه ومن وقوفه حتى تتم له الاستقامة الحقة ، فاستقامة العقيدة والفكر واللسان في القول وفي البيع والشراء والعقود والعهود وما شابه ذلك .
فقد يصلي إنسان ويصوم ويحج ولكنه غير مستقيم في بيعه وشرائه ، وقد يستقيم في البيع والشراء ولا يستقيم لسانه .. وهكذا
د ـ تعريفها : قال تعالى :
{ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ } ... الآية
وقد عرّفها سيدنا الصديق الأكبر رضي الله تعالى عنه بقوله :
استقاموا فقالوا : (لا إله إلا الله) وقاموا بتحقيق معناها ، أي : أنت ربنا وأنت المعبود بحق ولا معبود سواك [1]

---

[1] قال الأئمة القرطبي وابن كثير والألوسي رحمهم الله عند تفسيرهم للآية الكريمة :
روي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال : { ثم استقاموا }
لم يشركوا بالله شيئاً.
وعن الأسود بن هلال أنه قال : قال أبو بكر رضي الله عنه:
ما تقولون في هاتين الآيتين :
{ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا } و { الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم } ؟
فقالوا: استقاموا فلم يذنبوا ولم يلبسوا إيمانهم بخطيئة، فقال أبو بكر: لقد حملتموها على غير المحمل { قالوا ربنا الله ثم استقاموا } فلم يلتفتوا إلى إله غيره { ولم يلبسوا إيمانهم بظلم } بشرك { أولئك لهم الأمن وهم مهتدون }.

وعرّفها سيدنا عمر رضي الله تعالى عنه :
استقاموا ولم يروغوا روغان الثعالب . اهـ [1]
فلا يتلوّنون ولا يتغيرون ، ولا تتبدل أحوالهم تبدلاً كلياً ، فهم مع ربهم سبحانه وتعالى مشاهدين بقلوبهم ومراقبين في خلوتهم وجلوتهم وفي شارعهم وجامعهم .
هـ - هل يستطيع إنسان أن يحصيها
- أي أن يتحقق بجميع مراتبها أو أن يبلغ غايتها - ؟
الجواب : لا ، فقد قال عليه الصلاة والسلام :
[استقيموا ولن تحصوا]- أي لن تحصوا مراتب الاستقامة -
[واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة ، ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن][2]
وقال تعالى : { فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا }
وكيف تُحصى الاستقامة وهناك المراتب المتعددة فيها ، فاستقامة الصحابة رضي الله تعالى عنهم كلهم هل هي على مرتبة واحدة ؟
لا ، فهناك استقامة الخلفاء الأربعة رضي الله تعالى عنهم ، ثم استقامة العشرة ثم أهل بدر والبقية .. رضي الله عنهم أجمعين
*** بيان آية كريمة :
قوله تعالى : { مالك يوم الدين } الدين هو الجزاء بدليل قوله تعالى : { يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق } أي جزاءهم الحق .
والفرق بين المالك والملك أن المالك هو مالك الذوات و الرقاب ، أما الملك فهو المتصرف ، فالملك من الناس يتصرف في أمور الرعية ولكنه لا يملك رقابهم ، أما الله سبحانه فهو المالك للرقاب والمتصرف في العباد .
الحمد لله على أنه الله ، والحمد لله على أنه رب العالمين ، والحمد لله على أنه الرحمن ، فالرحمن يُحمد على كل صفاته وأفعاله ، فهو سبحانه يُحمد على خلقه النار ، قال تعالى : { هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ }
ثم قال سبحانه : { فبأي آلاء ربكما تكذبان }

---

[1] روى ابن المبارك في الزهد والرقائق عن الزهري أن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه تلا هذه الآية : { إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا }
فقال : « استقاموا - والله - لله بطاعته ، ولم يروغوا روغان الثعالب »
[2] سنن ابن ماجه كتاب الطهارة وسننها والمسند ٢١٣٤٤ وسنن الدارمي كتاب الطهارة

والآلاء هي : النعم ، جمع : (إلى) ، فالنار : نعمة ، والله تعالى يُحمد عليها .
وذكَرَ قصة الرجل الذي قال : يا رب لمَ خلقت النار والخلق كلهم عبادك ؟ أدخلْهم الجنة ، فجاء رجل فضربه ثم سبه وشتمه ثم قال له : هات ما معك ثم تركه وذهب فقال يا رب اجعلها نارين لا ناراً واحدة .
والله تعالى يُحمد على حسابه للمخلوقات ، والحمد لله على أن حساب العباد على ربهم قال تعالى :{ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ }
فلو كان حساب المخلوقات على بعضهم فلعل إنساناً يأكل شيئاً من مالك بغير حق فتنزله إلى أسفل سافلين .
كما يُحمد سبحانه على أنه الرحيم بعباده المؤمنين ، ويُحمد على خلقه الجنة ويحمد سبحانه على فصله بين الخلق يوم القيامة ، لأنه سبحانه قال :
{ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى }
فالمسيء يعاقبه بإساءته ولا يزيد على سيئاته ولا ذرة ،
أما المحسن فيجزيه بالإحسان ، قال تعالى :
{ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ * فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ }
وقال تعالى : { وقضي بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين }
أي قال كل قائل من أهل الموقف - المؤمنون والكافرون -
قال : الحمد لله رب العالمين .
وروى الإمام أحمد في مسنده عن عبد الله بن أنيس رضي الله عنه قال :
سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :
[يُحشر الناس يوم القيامة - أو قال : العباد - عراة غرلاً]
- غرلاً : بضم الغين وإسكان الراء :غير مختونين ، جمع أغرل -
[بُهماً ، قال : قلنا : وما بهماً ؟ قال : ليس معهم شيء ، ثم يناديهم بصوت يسمعه من بَعُدَ كما يسمعه من قَرُبَ : أنا الملك أنا الديان ، ولا ينبغي لأحد من أهل النار أن يدخل النار وله عند أحد من أهل الجنة حق حتى أقصّه منه ، ولا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة ولأحد من أهل النار عنده حق حتى أقصه منه حتى اللطمة .
قال : قلنا : كيف وإنا إنما نأتي الله عز وجل عراة غرلاً بهماً ؟
قال صلى الله عليه وسلم : بالحسنات والسيئات] [1]
فيقتصّ الله سبحانه من الخلق بعضهم لبعض بالحسنات والسيئات .

---

[1] المسند ١٥٤٦٤ ورواه الحاكم في مستدركه

وإن كل عمل عمِله الإنسان محصيّ عليه كما قال صلى الله عليه وسلم :
[البرُّ[1] لا يبلى ، والإثم لا يُنسى ، والديّان لا يموت ، فكن كما شئت ، كما تدين تُدان [2]]
البر : عمل الخير والحسنات ، فلا يذهب سدى ولا يبلى ، والذنب الذي يرتكبه الإنسان لا ينساه الله سبحانه وتعالى ، لأنه مسجّل على صاحبه ، بل هو في نفس المذنب يراه واضحاً يوم القيامة .
قال تعالى :{ سيجزيهم وصفهم }
والديّان : الذي هو مالك يوم الدين لا يموت ، وكيف يُتصور عليه الموت وهو سبحانه لا تأخذه سنة ولا نوم ؟!
أما أنت أيها الإنسان فتأخذك السِّنة ويأخذك النوم ، فأنت ترى إنساناً جالساً وإذ بسِنة النوم جاءته فخفق برأسه خفقة ،
مالَهُ هل ضربه أحد على رأسه ؟ لا
هل أمال أحد له رأسه ؟ لا
إذاً ماذا جرى له ؟
لقد جاءه النوم ، وإذ به تنام عيناه ثم يضطجع فأين قوّته وأين عزمه وأين شدته ؟
إذن يا إنسان أنت تنام ، والذي يدركه النوم يدركه الموت ، أما الله تعالى فهو الحي القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم سبحانه وتعالى .
ولمَ خَصّ نفسه سبحانه بأنه مالك يوم الدين مع أنه سبحانه مالك الدنيا ويوم الدين ؟
قال : لأنه في يوم الدين لا تظهر ملكية فيه لأحد إلا لله سبحانه ، ويعترف ويُقرّ بذلك جميع أهل الموقف .
قال تعالى :{ لمن الملك اليوم لله الواحد القهار }
أما في الدنيا فيقول الإنسان : هذا لي وهذا ملكي ، مع أنه إذا ملك شاة لا يجوز له التصرف فيها إلا كما أمر الشارع الحكيم .
فلا ينبغي لك أيها الإنسان أن تكون مغروراً ، فإنك لا تدري يوم القيامة أَفَرَس تحتك أم حمار ، كجماعة راكبين منهم راكب على فرس ، ومنهم على حمار ، فراكب الحمار يمشي ، والغبار منتشر لكثرة الراكبين ، ولكن راكب الحمار مغرور بنفسه ، ويظن بأنه يركب على فرس ،

---

[1] البر هو الخير الجامع المتنوع ومعنى : [البر لا يبلى] : أي يبقى أبداً ، والبر هو ما صدر عن بَر أي مؤمن .
[2] مصنف عبد الرزاق وجامع معمر ابن راشد

ولما انجلى عنهم الغبار رأى راكب الحمار نفسه وتحته حمار ، وليس تحته فرس ، فنسأل الله تعالى العافية .

وقد قيل :

سوف ترى إذا انجلى الغبار أفرس تحتك أم حمار

أي إنه إذا صار في الآخرة ظهر له أنه لم يكن على شيء مرْضيّ عند الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وإنما كان على أوهام متراكمة أي إنه كان مغروراً بأعماله التي لم تكن مقبولة باعتبار عدم إخلاصه فيها لله تعالى أو عدم موافقتها الشريعة

قال تعالى : { قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا } .

ثم بين رضي الله عنه كيف يدخل الشيطان على الإنسان بمداخل لعلها تكون مباحة في بدايتها ، وتكون فيها الطامّة في نهايتها .

وضرب مثلاً أن الشيطان لا يقول للإنسان : اِزْنِ ، ولا : اشرب الخمر ، ولكن إذا مرت به امرأة يقول له : انظر ماذا تلبس ، وماذا تضع على رأسها ، وماذا تلبس برجليها ، وهل ملاءتها خضراء أم سوداء ؟

وهكذا حتى يحبّبه أن يسمع صوتها ، أو أن ينظر إلى صورتها ،

وهكذا يحببه أن يجلس معها ويتكلم معها ، وهكذا وهكذا إلى أن يوقعه في الزنا ، لأنه كان غافلاً عن قوله تعالى :

{ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ * وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ } ....الآية

ثم ضرب مثالاً آخر رضي الله عنه بإنسان إذا طولب أن يكون إنساناً متمسكاً وهو فقير فيقول : إذا رزقني الله تعالى أصلّي وأصوم وأجلس إلى المشايخ ، فيسعى في الدنيا حتى تصير المئة مئتين والألف ألفين والألفان أربعة ، وهو يُطالَب بحضور مجالس الوعظ والدين والصلاة فيقول : مهلاً حتى أجمع مالاً ، ويسعى في تنميته وزيادته أضعافاً مضاعفة، وإذا به منغمس في غمرة الدنيا ويسوّف التوبة والعمل الصالح ، وإذا بالموت نزل به فهل يستطيع تأخير الموت ويقول له : مهلاً ؟

وهل يستطيع أن يأخذ شيئاً مما جمع لغيره ؟

بل صار كالحمار الذي وُضع عليه المال الكثير وسار به ، ثم أُخذ منه المال وقيل له : اذهب ، فهل استفاد الحمار من المال شيئاً ؟

ولكن الحمار حمار وهو من جملة الأنعام التي سخّرها الله للإنسان لركوبها والحمل عليها ، أما أنت أيها الإنسان فلا تكن حماراً تسعى وتكدّ حتى تصير البناية بنايتين والبنايتان ثلاثة ، وتلهيك كثرة السندات والمزارع والتجارات وهكذا حتى يأتيك الموت ، فيُقال لك : خذ شيئاً مما جمعت ، فلا تأخذ لا درهماً ولا ديناراً ولا مكنسة ، فهل يليق بك أن تكدّ وتجمع ثم تذهب ولا تأخذ شيئاً معك ؟!

وقد قالوا رضي الله تعالى عنهم : إن أعظم داء يصيب الإنسان هو الغفلة ، فنسأل الله تعالى العافية ، ونسأل الله تعالى اليقظة .

ثم بيّن رضي الله عنه المعنى الثاني للدين في قوله تعالى :

{ مالك يوم الدين } وهو قوله تعالى :{ إن الدين عند الله الإسلام }

بعد أن ربط حفظه الله تعالى المعنى الأول وهو أن الدين بمعنى الجزاء بيّن رعاه الله تعالى وأيّده وزاده حباً وقرباً معنى الدين الثاني بأنه دين الإسلام واستدل بحديث سيدنا جبريل على نبينا وعليه الصلاة والسلام كما رواه سيدنا عمر رضي الله تعالى عنه :

بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم ذَاتَ يَوْمٍ ، إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ ، بَيَاضِ الثِّيَابِ ، شَدِيدُ ، سَوَادِ الشَّعَرِ ، لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ ، وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ [1]

- وجاء بهذه الهيئة ليلفت انتباه الصحابة رضي الله تعالى عنهم ، إذ لو كان من المدينة المنورة لعرفه الصحابة ، ولو كان مسافراً لظهر عليه الغبار وشعث الشعر - وذكر سؤاله النبي صلى الله عليه وسلم عن الإسلام والإيمان والإحسان إلى أن قال صلى الله عليه وسلم في آخر الحديث :

[فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم]

فالدين إذاً يشمل العقائد الإيمانية القلبية والأعمال الجارحية والأحوال الإحسانية بما فيها من أخلاق وآداب

*** سئل رضي الله عنه عن تفسير قوله تعالى :

{ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ * فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ }

فقال للسائل : أنت تنطق وتتكلم ؟

فأجاب السائل : نعم ، فقال له : هل تشك في أنك تنطق وتتكلم أم أنك على يقين من ذلك ؟ فقال : على يقين ، فقال : رزقك حق كما أن نطقك حق

---

[1] طرف حديث في صحيح مسلم كتاب الإيمان

*** سئلت عن سبب نزول سورة الفاتحة فسألته رضي الله عنه فقال :
هناك بعض أقوال في سبب نزولها غير أنها ليست معتمدة .
*** سئل رضي الله عنه :
رجل تحدّثه نفسه بأخذ المال من طريق حرام ، وعندما يمكنه الحصول عليه يرجع من خشية الله تعالى ، فهل يؤاخذ على حديث نفسه ؟
فأجاب رضي الله عنه :
هل حديث نفسه مجرد حديث أم هناك عزم ؟
فقال السائل : حديث نفس
فقال : لا يؤاخذ ، واستدل بما رواه الإمام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
[من همّ بحسنة فلم يعملها كُتبت له حسنة ، ومن همّ بحسنة فعملها كُتِبت له عشراً إلى سبع مائة ضعف ، ومن همّ بسيئة فلم يعملها لم تُكتب ، وإن عمِلها كتبت] [1]
وورد أن الله تعالى يقول للملائكة إذا أراد العبد أن يعمل سيئة :
[ارقبوه ، فإن عملها فاكتبوها له بمثلها ، وإن تركها فاكتبوها له حسنة ، إنما تركها من جَرَّايَ] [2]
*** سئل رضي الله عنه عن صلاة الليل في المذهب الحنفي
هل تُصلّى ركعتين ركعتين أم أربعاً ؟
فأجاب رضي الله عنه :
الأفضل في صلاة النفل ركعتين ركعتين في الليل ، وفي النهار أربعاً ، أما في المذهب الشافعي فنافلة الليل والنهار يستحب أن تكونا ركعتين ركعتين .
ثم قال للسائل : من باب الأفضلية

---

[1] في صحيحه في كتاب الإيمان

[2] صحيح مسلم كتاب الإيمان
وقال الإمام السيوطي في الديباج على صحيح مسلم :
قوله صلى الله عليه وسلم : (من جراي) بفتح الجيم وتشديد الراء مقصوراً أو ممدوداً : أي من أجلي ، وردّ به القاضي عياض على من قال : إنه إذا تركها لخوف الناس تكتب أيضا حسنة ، لأنه إنما حمله على تركها الحياء . اهـ
وروى الإمام البخاري في صحيحه عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : يقول الله : إذا أراد عبدي أن يعمل سيئة فلا تكتبوها عليه حتى يعملها ، فإن عملها فاكتبوها بمثلها ، وإن تركها من أجلي فاكتبوها له حسنة ... الحديث

*** تحدث رضي الله عنه عن الإيمان بالقرآن الكريم من الوجوه التالية :
١ ـ الإيمان به من فاتحته إلى آخر سورة الناس أنه كلام الله تعالى
٢ ـ وكونه محفوظاً من النقص والزيادة والتغيير والتبديل والتحريف بدليل قوله تعالى : { إنا نحن نزّلنا الذكر وإنا له لحافظون }
٣ ـ نزل تبياناً لكل شيء
٤ ـ وُصف بأنه نور في كثير من الآيات الكريمة
كما وُصف الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه نور أيضاً
قال تعالى :
{ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}
وقال جل وعلا :
{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا }
وقال سبحانه :
{قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}
وقال تبارك وتعالى :
{ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا } .
٥ ـ من دخل في الإسلام والإيمان فقد حصل على نور يقذفه الله تعالى في قلبه ، قال سبحانه :
{ أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ}
وإذا قوي هذا النور في قلبه بنور القرآن الكريم صار نوراً على نور واهتدى صاحب ذلك القلب إلى الأمور قال تعالى :
{ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ } . اهـ
*** بيان آيات كريمة :
فسّر رضي الله عنه قوله تعالى :
{ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ } الآية
بمعنى أنه سبحانه أوجدها من ظلمة العدم ، فبه سبحانه ظهرت .

روى الترمذي وغيره عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال :
سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :
[إن الله عز وجل خلق خلْقه في ظلمة]- أي : ظلمة الدنيا والهوى والنفس
[فألقى عليهم من نوره ، فمن أصابه من ذلك النور]- أي بأن تعرّض له بقلبه ، وهذا النور هو الذي جاءت به الأنبياء والرسل
[اهتدى ، ومن أخطأه] - أي : بأن أعرض عنه ولم يلتفت إليه -[ضلّ] [1]

*** فسّر رضي الله عنه قوله تعالى :
{ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآَنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا }
{ أم } بمعنى : (بل) ، أي : بل على قلوب أقفالها ، ولذا هم لا يتدبرون القرآن ولا يحاولون فهمه .
ثم أورد رضي الله عنه إشكالاً :
إذا كانت قلوبهم مُقفلة فماذا عليهم أن يصنعوا إذا لم يفهموا القرآن ولم يتدبروه ؟
ثم أجاب على هذا الإشكال بهذا المثال الرائع :
جاءت بضاعة لصاحب مخزن واسع إلا أن مخزنه مقفل ،
فماذا يفعل للحفاظ على البضاعة ؟
هل يدَعها خارج المخزن بحجة أنه مقفل ، أم يفتح القفل لإدخالها ؟
لا شك أنه يفتح القفل ليدخل البضاعة .
فإذا بحث عن المفتاح فلم يجده فماذا يفعل ؟
هل يذهب ويدَع البضاعة ، أم أنه يفتّش عن بائع مفاتيح ليفتح له القفل ؟
إنه يبحث ويفتش عن أصحاب المفاتيح حتى يصل إلى مختصّ يجرّب له عدة مفاتيح حتى يرى له مفتاحاً للقفل فيفتحه به ويُدخل البضاعة أليس كذلك ؟
فقد تسأل : من الذي يفتح القلب ، هذا المخزن الهائل المقفل ؟
وأين مفتاحه ؟ وما هي البضاعة التي يراد إدخالها إلى القلب ؟
الجواب ما ورد في صحيح البخاري عن عطاء بن يسار قال :
لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما ، فقلت :
أخبرني عن صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في التوراة
قال : (أجل والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن
{ يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً }

---

[1] سنن الترمذي كتاب الإيمان وصحيح ابن حبان كتاب التاريخ

وحرزاً للأميين ، أنت عبدي ورسولي ، سمّيتك المتوكل ، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخّاب في الأسواق ، ولا يدفع بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويغفر ، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا لا إله إلا الله ، ويفتح به أعيناً عمياً وآذاناً صمّاً وقلوباً غُلفاً) [1]

والبضاعة المذكورة في المثال السابق كناية عن الإيمان ، فمن كان له قلب حافظ عليه ونشّطه ، قال تعالى :

{ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ }

*** تكلم رضي الله عنه حول خلق الإنسان وتكريمه في خلقه وأن هذا التكريم لم يكن إلا للإنسان ، وإذا أراد الإنسان معرفة نفسه فعليه أن يسأل ربه سبحانه الذي خلقه ، فهو جل وعلا يخبره عن خلقه وماذا أراد بخلقه ، وماذا أعدّ له من ثواب إن هو أطاع أوامر الله تعالى ، وماذا أعدّ له من عقاب إن هو كفر ونافق وعصى .

فكما أن الآلة المخترعة لا يعرف خصائصها إلا الذي اخترعها ، ولا يكون هذا لغيره لأنه أدرى بها وبِسيرها ، فكذلك أنت أيها الإنسان - ولله المثل الأعلى - فالذي خلقك وبرأك هو سبحانه أعلم بك وبصلاحك .

وإن الله تعالى بدأ خلق الإنسان من طين ثم نفخ فيه الروح

قال تعالى : { فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ }

ولم يكن هذا لغير سيدنا آدم عليه الصلاة والسلام من الخلق ،

فسجد الملائكة تكريماً لهذا الإنسان وأنت كنت في صلبه .

ثم عرّج رضي الله عنه على أن الإنسان لا يكمل إلا بالتقوى ،

وبيّن في التقوى ما يلي :

التقوى هي وصية الله تعالى لكل مخلوقاته ، للأولين والآخرين

قال تعالى : {وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ}

ومن ثمراتها :

أ - أن الله مع المتقين بالحفظ والرعاية والعناية ، قال تعالى :

{ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ }

ب - المتقون هم أولى الناس بسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم كما قال صلى الله عليه وسلم لمعاذ رضي الله عنه :

[إن أوليائي منكم المتقون، من كانوا وحيث كانوا] [2]

---

[1] كتاب البيوع

[2] مسند الإمام أحمد ٢١٠٤٠ و المعجم الكبير للطبراني واللفظ له

ج ـ المتقون يُحشرون وفداً معزّزين مكرمين يوم القيامة
قال تعالى : { يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا }
*** تكلم رضي الله عنه عن عالم الحساب
وفسّر قول الله تعالى : { إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ }
فالرجوع إلى الله سبحانه ، والحساب عليه جل وعلا .
وفسَّر قوله تعالى : { وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ }
وبيّن رضي الله عنه الصِّلات وأنواعها:
أ ـ الصلة بينك وبين ربك سبحانه ، وتكون بالعبادة على أنواعها من صلاة وزكاة وحج .
قال صلى الله عليه وسلم : [وصِلوا الذي بينكم وبين ربكم بكثرة ذكركم له ، وكثرة الصدقة في السر والعلانية تُرزقوا وتُنصروا وتُجبروا] [١]
ب ـ الصلة بينك وبين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وذلك عن طريق الحب القلبي له صلى الله عليه وسلم ، وإحكام الصلة معه صلى الله عليه وسلم ، والصلاة عليه صلى الله عليه وسلم .
وذكر شيئاً من فضل سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وشيئاً من فضائل الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم
منها قوله صلى الله عليه وسلم :
[حيثما كنتم فصلّوا علي فإن صلاتكم تبلغني] [٢]
وقوله صلى الله عليه وسلم :
[من صلّي علي بَلَغَتْني صلاته ، وصلّيت عليه ، وكُتبَت له سوى ذلك عشر حسنات] [٣]
وقوله صلى الله عليه وسلم :
[من صلى عليَّ واحدة صلى الله عليه عشراً] [٤]
د ـ صلة الرحم القريب بأنواعه . اهـ .

---

[١] طرف حديث في سنن ابن ماجه كتاب إقامة الصلاة عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه
[٢] مسند الإمام أحمد ٨٤٤٩ وسنن أبي داود كتاب المناسك عن أبي هريرة رضي الله عنه
[٣] المعجم الأوسط للطبراني
[٤] صحيح مسلم كتاب الصلاة عن أبي هريرة رضي الله عنه

*** سألته رضي الله عنه : هل يجوز دفن رجل وزوجته ماتا معاً ؟
فقال رضي الله عنه : لا، ولا يُصار إلى ذلك إلا في حالة الضيق والشدة والعسرة .
فقلت : بعد دفنهما سألوا ..
فقال رضي الله عنه : لا يُكشف عنهما ، فمثال ذلك :
لو سُتر إنسان فهل يجوز كشف الستر عنه ؟ !
*** سئل رضي الله عنه عن رجل يريد أن يحج نفلاً وله أقرباء فقراء ، فما هو الأفضل له هل يصِل أقرباءه أم يحج ؟
فأجاب رضي الله عنه : هل هناك من يصل أقرباءه غيره ؟
قال السائل : لا
فقال : ينبغي أن يصلهم فإن فَضَل معه شيء حج النفل . اهـ .
*** سئل رضي الله عنه عن رجل يودّ صلة أرحامه ، ولكنهم غير ملتزمين بتعاليم الشريعة فماذا يفعل ؟
فأجاب رضي الله عنه : يصِلهم بنية النصح والإرشاد لعل ذلك يخفف شيئاً مما هم عليه .
فقال السائل : إنهم يخطّئونه ويطالبونه أن يسير في طريقهم ، وهو يخاف على نفسه أن ينزلق معهم .
فأجاب رضي الله عنه : لا ، إذا كان الأمر كما يقول فإنه يهجرهم لله تعالى.
*** سئل رضي الله عنه :
هل ورد عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه مسّ إحدى نسائه رضي الله عنهن ولم يتوضأ ثم قام إلى الصلاة ؟
واستدل السائل بقوله تعالى :
{ وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا } الآية
فتريّث قليلاً رضي الله عنه ثم قال :
نعم ، ورد أنه عليه الصلاة والسلام قبّل السيدة عائشة رضي الله عنها وقام إلى الصلاة ولم يتوضأ [1]
فقال السائل ـ وكان طالب علم وكان ذلك في بيته حفظه الله تعالى يوم عيد الأضحى سنة ١٣٩٥ هـ ـ :

[1] الحديث في سنن أبي داود والترمذي كتاب الطهارة عن عروة عن السيدة عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم قبّل امرأة من نسائه ثم خرج إلى الصلاة ولم يتوضأ قال عروة : من هي إلا أنتِ ؟ ، فضحكَتْ .

فما جواب الإمام الشافعي رضي الله عنه عن هذا ؟
فأجاب رضي الله عنه : حمل ذلك على أنه من خصائصه الشريفة صلى الله عليه وسلم ، ثم ذكر شيئاً من جلال الأئمة رضي الله تعالى عنهم ، وأن الذي شهد لهم بالإمامة هم التابعون وتابعو التابعين ومن بعدهم ، وأنهم رضي الله تعالى عنهم أئمة علم وهدى وتقى وصلاح .
وذكر أن أبا حنيفة رضي الله عنه صلّى الفجر بوضوء العشاء أربعين سنة [١]

وأن الشافعي رضي الله عنه حفظ القرآن الكريم وهو ابن سبع سنين وحفظ الموطأ وهو ابن عشر سنين [٢]
*** سئل رضي الله عنه : أن واحداً من العلماء لم يُرِدْ التكبير بعد الأذان أيام العيد بحجة أن ذلك لم يَرِد عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فماذا نقول ؟
فأجاب فوراً رضي الله عنه : وهل ورد مانع يمنع ؟
ثم بيّن رضي الله عنه :
إن الله تعالى يقول : { وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ }
وهي أيام التشريق ، فينبغي للمسلم أن يذكر الله تعالى في هذه الأيام : النحر والتشريق ، ومنها تكبير التشريق بعد الصلوات .
ثم إن المؤذن يذكر الله تعالى بهذه الصيغة فيذكّر المسلمين
وقد كان السلف الصالح رضي الله تعالى عنهم يكبّرون الله تعالى أيام الأعياد في طرقاتهم وعندما يلتقي بعضهم ببعض [٣]

---

[١] ذكر الإمام النووي في كتابه : (تهذيب الأسماء واللغات) :
عن أسد بن عمرو قال : صلى أبو حنيفة صلاة الفجر بوضوء العشاء أربعين سنة وكان عامة الليل يقرأ القرآن في ركعة. اهـ ١٠١/٣
و ذكر ابن خلكان في «وفيات الأعيان» :
عن أسد بن عمرو أنه قال: صلى أبو حنيفة - فيما حُفظ عليه - صلاة الفجر بوضوء صلاة العشاء أربعين سنة . اهـ ٤١٣/٥
[٢] قال الإمام السيوطي في طبقات الحفاظ ٢٨/١ :
قال إسماعيل بن يحيى سمعت الشافعي يقول:
حفظت القرآن وأنا ابن سبع سنين وحفظت الموطأ وأنا ابن عشر
[٣] قال الإمام البخاري في صحيحه :
قال ابن عباس في قوله تعالى : { واذكروا الله في أيام معلومات } أي : أيام العشر ، والأيام المعدودات هي أيام التشريق ، وكان ابن عمر وأبو هريرة يخرجان إلى السوق في أيام العشر يكبّران ويكبّر الناس بتكبيرهما .
وروى ابن خزيمة في صحيحه والبيهقي في السنن الكبرى عن نافع ، عن عبد الله بن عمر « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يخرج في العيدين مع الفضل بن

*** سئل رضي الله تعالى عنه بعد درس الجمعة الذي كان حول مناجاة الله تبارك وتعالى لسيدنا موسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام بقوة عشرة آلاف لسان [1]

سئل : كيف كان جواب سيدنا موسى بقوة كَمْ لسان ؟

فأجاب رضي الله عنه :

أجاب سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام بلسانه وحده.

*** سألته رضي الله تعالى عنه :

لقد سبق أن ذكرتم لنا أن أسماء الله تعالى لا تتناهى ،

ثم ذكرتم أن اسم (الله) جامِعٌ ، فهل هذه الأسماء التي لا تتناهى مجموعة في اسمه تعالى (الله) ؟

فقال رضي الله عنه :

نعم اسمه تعالى (الله) جامِعٌ لحضرات الأسماء والصفات الإلهية كلها .

وعندها سأله أخي السيد الشيخ عبد الرحمن الغش جزاه الله تعالى عني خير الجزاء : فما القول في اسمه تعالى (الرزاق) قبل وجود المرزوقين ؟

فأجاب رضي الله تعالى عنه : هذا الاسم كان في دائرة اسم الله تعالى : (الباطن) فلما ظهر المرزوقون ظهر أثر اسمه تعالى (الرزاق)

وهناك آثار أسماء ظهرت في هذا العالم ، وهناك آثار أسماء ستظهر في العوالم الآتية ، وهناك أسماء استأثر الله تعالى بها .

عباس ، وعبد الله بن عباس ، والعباس ، وعلي ، وجعفر ، والحسن ، والحسين ، وأسامة بن زيد ، وزيد بن حارثة ، وأيمن ابن أم أيمن ، رافعاً صوته بالتهليل والتكبير ، فيأخذ طريق الحدادين حتى يأتي المصلى .

وفي مصنف ابن أبي شيبة عن الزهري قال : كان الناس يكبّرون في العيد حين يخرجون من منازلهم حتى يأتوا المصلى وحتى يخرج الامام فإذا خرج الامام سكتوا فإذا كبّر كبروا.

وذكر الفريابي في كتابه أحكام العيدين عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ ، قَالَ : " رَأَيْتُ نَافِعَ بْنَ جُبَيْرٍ يُكَبِّرُ يَوْمَ الْعِيدِ وَيَقُولُ : اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ، أَلا تُكَبِّرُونَ أَيُّهَا النَّاسُ؟ ! "

[1] قال الإمام السيوطي في الدر المنثور :

أخرج البزار وابن أبي حاتم وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في الأسماء والصفات عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : [لما كلّم الله موسى يوم الطور كلَّمه بغير الكلام الذي كلمه يوم ناداه ، فقال له موسى : يا رب أهذا كلامك الذي كلمتني به؟ قال : يا موسى إنما كلَّمتك بقوة عشرة آلاف لسان ، ولي قوة الألسن كلها وأقوى من ذلك] .

*** أشار رضي الله تعالى عنه إلى تعظيم الله تبارك وتعالى ،
وأن له الكبرياء المطلق ، وأن سورة الإسراء مفتتحة بالتسبيح ،
قال تعالى:{ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بعبده .. }
وفيه - أي في الإسراء - ما فيه من إتحافات الله تبارك وتعالى لرسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم .
ثم خُتمت السورة بقوله سبحانه :
{ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا }
أي : تكبيراً يليق بكبريائه وعظمته سبحانه ، ومن هنا ورد :
[الله أكبر الأكبر][1].

*** بيان حديث شريف :
شرح رضي الله تعالى عنه حديث : [من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب]
وبيّن رضي الله عنه أن بعضهم ذكر أن في هذا الحديث بيان نوعين من أنواع القرب : قرب الفرائض وقرب النوافل .
ثم قال رضي الله عنه : ولكن المحققين من أهل الله تعالى قالوا :
إن كل أنواع القرب مذكورة في هذا الحديث ، ورمز إليها صلى الله عليه وسلم بقوله : [فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به] .. الحديث[2]
*** سألته رضي الله تعالى عنه :
اشترك اثنان في معمل نسيج أحدهما بجدّه وعمله ، والآخر منه رأس المال لمدة خمس سنوات ، واشترطا أن من ترك منهما قبل هذه المدة عليه أن يدفع ألفين للآخر ، وتوقف العامل عن عمله بسبب ارتباطه بعمل آخر ، ووضع ولداً مكانه غير أنه - أي : الشريك - يشرف على الولد ، ولمّا رأى صاحب الآلات نقص الإنتاج باع أدوات النسيج ، فهل يُلزم بدفع الألفين ؟
فأجاب رضي الله تعالى عنه :
الشرط باطل والشركة صحيحة ، ويحق لأحد الشريكين إن تضرر أن يفسخ عقد الشراكة .

[1] وهو طرف من دعائه صلى الله عليه وسلم : [يا ذا الجلال والإكرام اسمع واستجب ، الله أكبر الأكبر] كما في سنن أبي داود وسنن النسائي الكبرى
[2] انظره في صحيح البخاري كتاب الرقاق

*** إيضاح:
الجمع بين رؤية سيدنا عبد الله والد جابر رضي الله تعالى عنهما ،
بين رؤيته ربه سبحانه كفاحاً وقد كان عليه دين ، وبين حديث :
[نفْس المؤمن معلقة بدينه حتى يُقضى عنه][1]
سألته رضي الله تعالى عنه عن الجمع بين هذين الحديثين فأجابني رضي الله عنه :
إن شهداء بدر وأحد لهم إكرام خاص من الله تعالى رضي الله تعالى عنهم وقد قال صلى الله عليه وسلم لسيدنا عمر :
[وما يدريك لعل الله عز وجل اطّلع على أهل بدر فقال :
اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم][2]
و في رواية الإمام أحمد :
[إن الله عز وجل اطلع على أهل بدر فقال :
اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم][3]
وروى الإمام أبو داود في سننه والإمام أحمد في مسنده عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
[لما أُصيب إخوانكم بأُحد جعل الله أرواحهم في جوف طير خضر ، تَرِدُ أنهار الجنة ، تأكل من ثمارها ، وتأوي إلى قناديل من ذهب معلقة في ظل العرش ، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم قالوا : من يبلِّغ إخواننا عنا أنا أحياء في الجنة نُرزَق ، لئلا يزهدوا في الجهاد ولا ينكلوا عند الحرب ؟
فقال الله سبحانه : أنا أبلِّغهم عنكم
قال فأنزل الله :{ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء } إلى آخر الآيات . اهـ
*** بيان حديث شريف :
روى الإمام أحمد وغيره عن عبد الله بن أنيس رضي الله عنه قال :
دعاني رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : [إنه قد بلغني أن خالد بن سفيان بن نبيح يجمع لي الناس ليغزوني ، وهو بعرنة فأْتِه فاقتله].
قال : قلت : يا رسول الله انعَتْه لي حتى أعرفه

---

[1] سنن الترمذي كتاب الجنائز وسنن ابن ماجه كتاب الأحكام
[2] صحيح البخاري كتاب تفسير القرآن وصحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة عن سيدنا علي كرم الله وجهه
[3] المسند ٧٥٩٩ عن أبي هريرة رضي الله عنه

قال : [إذا رأيته وجدت له قشعريرة]
قال : فخرجت متوشّحاً بسيفي حتى وقعت عليه وهو بعرنة مع ظعن - بضم الظاء والعين ويجوز إسكان العين أي : نساء - يرتاد لهن منزلاً ، حتى كان وقت العصر فلما رأيته وجدت ما وصف لي رسول الله صلى الله عليه وسلم من القشعريرة ، فأقبلت نحوه وخشيت أن يكون بيني وبينه محاولة تشغلني عن الصلاة ، فصلّيت وأنا أمشي نحوه أومئ برأسي الركوع والسجود ، فلما انتهيت إليه قال : مَن الرجل ؟
قلت : رجل من العرب سمع بك وبجمعك لهذا الرجل فجاءك لهذا
قال : أجل أنا في ذلك ، قال : فمشيت معه شيئاً حتى إذا أمكنني حملت عليه السيف حتى قتلته ، ثم خرجت وتركت ظعائنه مكبّات عليه ، فلما قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فرآني قال : [أفلح الوجه].
قال : قلت : قتلته يا رسول الله ، قال : [صدقتَ]
قال : ثم قام معي رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل في بيته فأعطاني عصاً
فقال : [أمسك هذه عندك يا عبد الله بن أنيس]
قال : فخرجت بها على الناس فقالوا : ما هذه العصا ؟
قال : قلت : أعطانيها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمرني أن أمسكها
قالوا : أوَلا ترجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فتسأله عن ذلك ؟
قال : فرجعت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت :
يا رسول الله لمَ أعطيتني هذه العصا ؟
قال : [آية بيني وبينك يوم القيامة ، إن أقل الناس المتخصّرون يومئذ يوم القيامة] [1]
ومعنى قوله صلى الله عليه وسلم [آية] أي علامة يعرفه بها يوم القيامة ليخصّه بإكرام ، وقد احتفظ بها الصحابي رضي الله تعالى عنه إلى وفاته وأوصى أن تدفن معه بجوار جسمه لتُحشر معه يوم القيامة .
*** ورد في الحديث عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال :
كنت عند النبي صلى الله عليه وسلم إذ جاءه حرملة بن زيد ، فجلس بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله ، الإيمان ههنا وأشار بيده إلى لسانه ، والنفاق ههنا ، وأشار بيده إلى صدره ، ولا يذكر الله إلا قليلاً ، فسكت عنه النبي صلى الله عليه وسلم ، فردّد ذلك عليه ،

[1] المسند ١٥٤٦٩ وصحيح ابن حبان كتاب إخباره صلى الله عليه وسلم عن مناقب الصحابة

وسكت حرملة ، فأخذ النبي صلى الله عليه وسلم بطرف لسان حرملة ، فقال [اللهم اجعل له لساناً صادقاً ، وقلباً شاكراً ، وارزقه حبي وحب من يحبني ، وصيّر أمره إلى الخير]

فقال حرملة : يا رسول الله ، إن لي إخواناً منافقين كنتُ فيهم رأساً أفلا أدلّك عليهم ؟

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : [لا ، من جاءنا كما جئتنا] - أي من أتى بنفسه دون من طُلب منه الإتيان - [استغفرنا له كما استغفرنا لك ، ومن أصرّ على ذنبه فالله أولى به ، ولا تخرق على أحد ستراً] .[1]

*** فائدة :

أفادنا رضي الله تعالى عنه بعد قدومه الميمون من العمرة ليلة الاثنين /٤/ جمادى الأولى ١٣٩٦هـ أنه رأى في مخطوطات سيدي والده رفع الله تعالى مقامه في الرفيق الأعلى بعض آداب كتبها رضي الله تعالى عنه في زيارة النبي صلى الله عليه وسلم .

ومنها : أن يعلم الواقف تجاه الحضرة الشريفة أنه واقف أمام بقعة هي أفضل من العرش ، ثم قال رضي الله تعالى عنه :

وهذا صحيح وقد اتفقت كلمة الفقهاء على هذا [2]

---

[1] انظر مسند الإمام أحمد وصحيح ابن حبان والمعجم الكبير للطبراني ومعرفة الصحابة لأبي نعيم

[2] قال الإمام ابن عابدين في حاشيته في الفقه الحنفي ج ٩ ص ١٦٩ :

مطلب في تفضيل قبره المكرم صلى الله عليه وسلم

قال في اللباب : والخلاف فيما عدا موضع القبر المقدس ، فما ضمّ أعضاءه الشريفة فهو أفضل بقاع الأرض بالإجماع .

قال شارحه : وكذا أي الخلاف في غير البيت : فإن الكعبة أفضل من المدينة ما عدا الضريح الأقدس ، وكذا الضريح أفضل من المسجد الحرام ، وقد نقل القاضي عياض وغيره الإجماع على تفضيله حتى على الكعبة ، وأن الخلاف فيما عداه.

ونقل عن ابن عقيل الحنبلي أن تلك البقعة أفضل من العرش ،

وقد وافقه السادة البكريون على ذلك.

وقد صرح التاج الفاكهي بتفضيل الأرض على السموات لحلوله صلى الله عليه وسلم بها ، وحكاه بعضهم على الأكثرين لخلق الأنبياء منها ودفنهم فيها

وقال النووي : الجمهور على تفضيل السماء على الأرض ، فينبغي أن يستثنى منها مواضع ضمّ أعضاء الأنبياء للجمع بين أقوال العلماء . اهـ .

أما المالكية : فقد قال الشيخ السمهودي في تاريخ المدينة : نقل عياض وقبله أبو الوليد والباجي وغيرهما الإجماع على تفضيل ما ضم الأعضاء الشريفة على الكعبة ، بل نقل التاج السبكي عن ابن عقيل الحنبلي أنها أفضل من العرش

انظر مواهب الجليل شرح مختصر الشيخ خليل ٩ / ٤٣١
و قال الشيخ محمد بن أحمد عليش المالكي في شرحه على مختصر الخليل:
ومحل الخلاف في غير الموضع الذي ضمّه صلى الله عليه وسلم فإنه أفضل من الكعبة والسماء والعرش والكرسي واللوح والقلم والبيت المعمور .
انظر منح الجليل شرح مختصر الخليل ٥ / ٤٨١.
وأما الشافعية فقد جاء في " حاشية البجيرمي على الخطيب " (٢٢٢/١) :
قال الرملي في شرحه : ومكة أي وكذا بقية الحرم أفضل الأرض للأحاديث الصحيحة التي لا تقبل النزاع كما قاله ابن عبد البر وغيره ، وأفضل بقاعها الكعبة المشرفة ثم بيت خديجة بعد المسجد الحرام ، نعم التربة التي ضمت أعضاء سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل من جميع ما مرّ حتى من العرش . اهـ
وقال والده في حواشي الروض :
وأفضل من السموات السبع ومن العرش والكرسي والجنة .
وأما الحنابلة :
فقد قال الإمام البهوتي في " شرح منتهى الإرادات " (١٤/٤) :
قال في الفنون : الكعبة أفضل من مجرد الحجرة ، فأما والنبي صلى الله عليه وسلم فيها فلا والله ولا العرش وحمَلَته والجنة ؛ لأن بالحجرة جسداً لو وُزن به سائر المخلوقات لرجح . اهـ
قلت : وروى الدارمي وغيره أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأبي ذر رضي الله عنه :
[يا أبا ذر أتاني ملكان وأنا ببعض بطحاء مكة ، فوقع أحدهما إلى الأرض وكان الآخر بين السماء والأرض ، فقال أحدهما لصاحبه : أهو هو؟ قال : نعم.
قال : فَزِنْهُ برجل ، فوُزِنت به فوزنته ، ثم قال : زنه بعشرة ، فوُزنت بهم فرجحتهم ، ثم قال : زنه بمائة ، فوزنت بهم فرجحتهم ، ثم قال : زنه بألف ، فوزنت بهم فرجحتهم ، كأني أنظر إليهم ينتثرون علي من خفة الميزان ، قال فقال أحدهما لصاحبه : لو وزنته بأمته لَرَجَحَها] .
وقوله صلى الله عليه وسلم : [كأني أنظر إليهم ينتثرون علي من خفة الميزان] أي يتساقطون من خفة تلك الكفة
وقال الإمام السخاوي :
مع الإجماع على أفضلية البقعة التي ضمّته صلى الله عليه وسلم، حتى على الكعبة المفضلة بل على العرش، فيما صرح به ابن عقيل من الحنابلة .
ولا شك أن مواضع الأنبياء وأرواحهم أشرف مما سواها من الأرض والسماء، والقبر الشريف أفضلها، لِما تتنزل عليه من الرحمة والرضوان والملائكة التي لا يعلمها إلا مانِحها، ولساكنه عند الله من المحبة والاصطفاء ما تقصر العقول عن إدراكه . اهـ .
من التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة السخاوي الصفحة ١٢

ثم بين رضي الله عنه أن التجليات من الله تبارك وتعالى على رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم أعظم من تجلياته سبحانه على العرش ، ثم تلا الآية الكريمة :
{ لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ}
ثم قال : نزلة قرآنية على جبل لا يتحملها الجبل ، فكيف بنزوله كله بما فيه من علوم وأسرار وأنوار على قلب سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ؟ !
*** سئل رضي الله تعالى عنه :
أصحيح أن العمرة في رمضان أفضل من حج النفل ؟
فقال رضي الله تعالى عنه : هكذا الظاهر ، لِما ورد عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ :
[عُمْرَةٌ فِي رَمَضَانَ تَعْدِلُ حَجَّةً] [1]
وفي رواية : [تعدل حجة معي] [2]
*** حكم فقهي :
سألته رضي الله تعالى عنه : عن الفروغ للمحلات هل هو جائز ؟
فأجابني رضي الله تعالى عنه : بِرضا المؤجر ؟
فقلت : لنفرض أنه كان برضاه
فقال رضي الله تعالى عنه : غالباً ما يكون الأمر كذلك فيجوز ، ويعتبر تنازلاً من المستأجرعن حقه إذ له أن لا يخرج إلا إذا حلّ الأجل المتفق عليه .
فقلت له : فإذا لم يرض صاحب الملك بذلك المستأجر الجديد ؟
فأجابني رضي الله تعالى عنه : لا يجوز قطعاً ، باعتبار أنه سيكون عقد الإيجار مع المستأجر الجديد .
ثم سألته رضي الله تعالى عنه : لقد قررتم أنه لا يجوز الشراكة والأجرة بمعنى أن يكون الإنسان شريكاً ويأخذ أجراً على عمله .

---

[1] كما في سنن الترمذي كتاب الحج وسنن ابن ماجه كتاب المناسك
وقد روى الإمام مسلم في صحيحه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لامرأة من الأنصار : [فإذا جاء رمضان فاعتمري فإن عمرة فيه تعدل حجة] .
[2] جاء في صحيح البخاري ومسلم قوله صلى الله عليه وسلم :
[عمرة في رمضان تقضي حجة أو حجة معي] ومعنى (تقضي) أي : تعدل ، وجاء في سنن أبي داود وصحيح ابن خزيمة ومستدرك الحاكم أن صحابياً قال لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : وإنها - أي زوجته - أمرتني أن أسألك ما يعدل حجة معك ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : [أقرئها السلام ورحمة الله وبركاته ، وأخبرها أنها تعدل حجة معي] - يعني عمرة في رمضان - .

فماذا يفعل الناس بمثل هذه الشركات الحديثة التي يساهم فيها الناس ويعمل فيها أحد المساهمين ؟
فأجابني رضي الله تعالى عنه :
لا تجوز الشركة والأجرة ، فمثلاً يسأل بعض الناس أنهم اشتروا سيارةً شركةً بينهما ، والسائق دفع قليلاً وهو الذي سيعمل فماذا يأخذ ؟
نعم يجوز أن يزاد له في نسبة الربح مثلاً ١٠% أو ٢٥% دونما أجر مقطوع محدد مبلغه .
ثم زادني رضي الله تعالى عنه : لقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قفيز الطحان [1] وهو أن يأخذ الطحان أجرة طحنه من الطحين الذي طحنه وعمل فيه ، ولكن يعطى قفيزاً آخر غير مطحون . اهـ .
*** تذكرة :
ومن كلامه رضي الله تعالى عنه :
جاء بالسند الجيد أنه صلى الله عليه وسلم قال :
[ما من عبد يخطب خطبة إلا الله سائله عنها يوم القيامة : ما أردتَ بها ؟]
قال جعفر - أحد رواة الحديث - : فكان مالك بن دينار إذا حدّث بهذا بكى ، ثم يقول : " أتحسبون أن عيني تقرّ بكلامي عليكم ، وأنا أعلم أن الله سائلي عنه يوم القيامة ما أردت به ؟
وزاد ابن أبي الدنيا قول مالك :
أنت الشهيد على قلبي ، لو لم أعلم أنه أحب إليك لم أقرأ على اثنين أبداً [2]
*** حكم شرعي :
سئل رضي الله تعالى عنه أن أفواجاً من حجاج الأتراك يدخلون المسجد العُمَري في باب جنين ومعهم نساء ، والكل يودّ إقامة الصلاة فماذا نفعل ؟
فأجاب رضي الله تعالى عنه : ضع حاجزاً للنساء يصلّين خلفه
ثم قال : لا يجوز اختلاط النساء بالرجال أثناء الصلاة .
*** إيضاح :
سئل رضي الله عنه : هل تحريف الكلم عن مواضعه الذي قام به اليهود كان قبل سيدنا عيسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام أم بعده ؟

---

[1] انظره في سنن الدارقطني كتاب البيوع والسنن الكبرى للبيهقي وقال في النهاية في غريب الأثر :
وفيه (أنه نهى عن قفيز الطحان) هو أن يستأجر رجلاً ليطحن له حنطة معلومة بقفيز من دقيقها ، والقفيز : مكيال يتواضع الناس عليه
[2] انظر كتاب الزهد للإمام أحمد بن حنبل والصمت لابن أبي الدنيا وشعب الإيمان للبيهقي

فتريث قليلاً رضي الله عنه ثم قال :
الظاهر أنه كان بعده ، والتحريف يكون بالكلم ، وبِلَيّ اللسان
*** سئل رضي الله عنه عن الحديث المروي في صحيح مسلم
أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لرجل :[إن أبي وأباك في النار][١]
فهل والد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم في النار ؟
فقال رضي الله عنه : ذاك وهم من الراوي الذي روى الحديث
فقال بعض التلامذة وكان هذا في المدرسة :
رأيته في النهاية لابن كثير أنه مضطرب
فقال رضي الله عنه : جاء الاضطراب من الوهم الذي وقع فيه الراوي
ثم بين لنا رضي الله عنه : الذي نعتقده والذي عليه الجماهير :
أن والدَي سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ناجيان ، وهما من أهل الجنة ، والله تعالى يكرم رسوله صلى الله عليه وسلم بأبويه الشريفين الكريمين .
- قلت : وقد بسط شيخنا الإمام رضي الله عنه الكلام على هذا في كتاب :
(هدي القرآن الكريم إلى معرفة العوالم والتفكر في الأكوان)
فارجع إليه تجد ما ينفعك إن شاء الله - .
*** إيضاح :
سألته رضي الله تعالى عنه : عن معنى (الطارق) في قوله صلى الله عليه وسلم :
[أعوذ بكلمات الله التامة من شر ما خلق وذرأ وبرأ ، ومن شر ما ينزل من السماء ومن شر ما يعرج فيها ، ومن شر فتن الليل والنهار ، ومن شر كل طارق إلا طارقاً يطرق بخير يا رحمن] [٢] ؟
فأجابني رضي الله تعالى عنه :
الطارق : الذي يأتيك بغتة
وتلا قوله سبحانه : { وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ }
ثم قال رضي الله تعالى عنه : يقال : طَرَقَه ليلاً إذا جاءه في الليل
فقلت : وهل طوارق الرحمن سبحانه تأتي بغتة ؟
فقال : نعم ، وضرب لذلك مثلاً فقال : أنت في بيتك وطرق عليك الباب طارق وأعطاك سلة عنب أو سلة تفاح ..
ثم تبسم رضي الله تعالى عنه .

[١] انظر صحيح مسلم كتاب الإيمان
[٢] طرف حديث في مسند الإمام أحمد ١٤٩١٣ و موطأ الإمام مالك كتاب الجامع

*** إيضاح :
سألته رضي الله تعالى عنه : هل هناك أنبياء من العرب غير سيدنا محمد وإسماعيل على نبينا وعليه الصلاة والسلام ؟
فقال : نعم : سيدنا صالح وسيدنا شعيب على نبينا وعليهم الصلاة والسلام و سيدنا شعيب كان في زمن سيدنا موسى ، وهو رسول لغير بني إسرائيل الذين أرسل إليهم سيدنا موسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام .
*** حكم فقهي :
سئل رضي الله تعالى عنه عن امرأة مات عنها زوجها وهي تبلغ ثمانين سنة فهل عليها من عدّة ؟
فأجاب رضي الله تعالى عنه : تجلس في العدة ، ثم بين للسائل أنها لا تخرج إلا لضرورة كالذهاب إلى الحمام - إذا لم تكن الحمام موجودة في بيتها - أو إلى الطبيب ، وإن لم يكن عندها من يشتري لها حوائجها تشتري حوائجها ثم تعود .
ثم قال رضي الله تعالى عنه : وأن لا تتزين
ثم أردف قائلاً : وهي امرأة كبيرة لا تتزين
ثم قال رضي الله تعالى عنه : ولا تتزوج ، - أي : أثناء العدة -
ثم تبسّم رضي الله تعالى عنه .
*** فائدة :
قال له رضي الله تعالى عنه بعض الناس :
إنه مات له ولدان أحدهما غرق في الفرات والآخر مات في رباط له في سبيل الله ، وهو تنزل عليه المصائب منذ عشرين سنة ، ويقول له الناس : إنه من أهل الشر .
فأجابه رضي الله تعالى عنه : هل أكلت لأحد من الناس حقاً ؟
فقال : لا
فسأله رضي الله تعالى عنه : هل لك من أقربائك من تضيق نفسه منك ؟
فقال : لا أدري
فنصحه رضي الله تعالى عنه :
أن يقرأ على نفسه - وينوي عياله معه - أن يقرأ بعد كل صلاة سورة الإخلاص والمعوذتين ثلاثاً ثلاثاً وبعد صلاة الجمعة سبعاً سبعاً .
فقال الرجل : إن بين قريته وبين القرية التي فيها مسجد تقام فيه الجمعة مسيرة ثلاث ساعات
فقال له : تصلي الظهر وإن تيسرت لك صلاة الجمعة فاقرأها سبعاً .

*** إيضاح :
سئل رضي الله تعالى عنه : ما معنى : (من أراد الكل فاتَهُ الكل) ؟
فأجاب رضي الله تعالى عنه :
من أراد كل الدنيا فاتَتْه ولم يحصّلها ، ولو حصّلها ماذا يأخذ معه إلى الآخرة ؟ !
ثم بعد مضي فترة بعد هذا الجواب أورد رضي الله تعالى عنه قول العارفين :
لكل شيء إذا فارقته عِوَض وليس لله إن فارقت من عوض
*** حكم فقهي :
سئل رضي الله عنه عن حرق أوراق مكتوب فيها شيء من القرآن الكريم ؟
فأجاب رضي الله تعالى عنه :
الأفضل دفنها في مكان محترم لا تَطَؤه الأقدام - كجب مهجور مثلاً -
ثم قال رضي الله تعالى عنه : قال الفقهاء : يجوز حرقها ،
ولكن تتطاير بقايا بعد الاحتراق وهذا فيه ما فيه ، فالأفضل الدفن .
*** حكم شرعي
سئل رضي الله تعالى عنه عن الصَّرِّ في أوراق مكتوبة بلغة غير عربية ؟
فأجاب رضي الله تعالى عنه : يجوز، ولكن الأفضل التحاشي والبعد عنه لأنها قد تحمل معان عالية ، ولكنها - أي اللغة غير العربية - دون اللغة العربية في الفضل .
*** فائدة :
أفادنا رضي الله تعالى عنه أن الجمع بين طعامين حارين - أي مُشبَعين بالحريرات - قد يفسد المزاج ، كالجمع بين السمك واللبن ، والبيض واللحم واللبن .
*** سألته رضي الله تعالى عنه عن الجمع بين استعماله صلى الله عليه وسلم وتناوله الدواء وبين حديثه صلى الله عليه وسلم في وصف من يدخل الجنة بغير حساب: [ولا يَسْتَرْقون][1]؟
فسألني رضي الله تعالى عنه : وما معنى [يسترقون]؟
فقلت : حتى تتفضلوا
فأجاب رضي الله تعالى عنه : يطلبون الرقية من غير الله تعالى ، لأن فيه ضعفاً في التوكل .
ثم قال : فلا شيء فيه على هذه الرواية .

[1] انظره في صحيح البخاري كتاب الطب وصحيح مسلم كتاب الإيمان

وقد روي من طريق مسلم [لا يرقون] [1]
أي غيرهم وأجيب عنه بأنه من وهم الراوي ولذا لم يروه البخاري ، وإن ثبت ، ففعله صلى الله عليه وسلم لإثبات الجواز ولبيان أنه جائز ، وفعله صلى الله عليه وسلم تشريع .
وقد جاء أنه صلى الله عليه وسلم رقى نفسه وغيره [2]
*** حكم فقهي :
سئل رضي الله تعالى عنه :
إن بعض أهل القرى يجمعون بين صلاتَي المغرب والعشاء وقت المطر فهل هذا يجوز ؟
فأجاب رضي الله تعالى عنه : هذا قول للشافعي رضي الله تعالى عنه لم يقل به غيره من الأئمة رضي الله تعالى عنهم .
ولكن ينبغي لهم أن يصلّوا المغرب ويجلسوا لإحياء ما بين المغرب والعشاء بذكر ودعاء وقراءة قرآن ، ثم يصلوا العشاء ويذهبوا كي لا يفوّتوا هذا الخير على أنفسهم .
والإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه لا يرضى أن يفوِّتوا خيراً على أنفسهم

---

[1] صحيح مسلم كتاب الإيمان

[2] انظر صحيح البخاري كتاب فضائل القرآن وفيه :
عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذات وينفث
وقال الشيخ الإمام رضي الله عنه في كتاب الدعاء :
نقل الحافظ ابن كثير في تفسيره عن الحافظ ابن عساكر بإسناده عن علي رضي الله عنه أن جبريل عليه السلام أتى النبي صلى الله عليه وسلم فوافقه مُغْتَمّاً ، فقال:
يا محمد ما هذا الغَمُّ الذي أراه في وجهك ؟
فقال صلى الله عليه وسلم : [الحسن والحسين أصابتهما عين]
فقال جبريل عليه السلام : أفلا عوَّذْتَهما بهؤلاء الكلمات؟
قال: [وما هن يا جبريل] ؟
قال: قل: اللهم ذا السلطان العظيم، والمَنِّ القديم، ذا الوجه الكريم، وَليَّ الكلمات التامات، والدعوات المستجابات، عَافِ الحسن والحسين من أَنْفُسِ الجنّ وأعين الإنس.
فقالها النبي صلى الله عليه وسلم فقاما يلعبان بين يديه صلى الله عليه وسلم فقال النبي صلى الله عليه وسلم:
[عوِّذوا أنفسكم ونساءكم وأولادكم بهذا التعويذ] .

*** إيضاح :
سئل رضي الله تعالى عنه عن امرأة تدّعي أنها تجتمع بسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وتنقل عنه عليه الصلاة والسلام بعض الأمور ، ومن جملة هذا أنها رأته عليه الصلاة والسلام وكانت تقول : إنها مُرضِعة له عليه الصلاة والسلام ، وإنه صلى الله عليه وسلم قال لها : أنت أمي ، ونهاها أن تصلي عليه لأنها أمُّه ....
فقال رضي الله تعالى عنه : الله تعالى يقول :
{ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ً ..}
فادعاؤها باطل لأنه خالف نصاً دينياً .
ثم قال السائل : ومن جملة هذا أنها تقول :
إن هذا الطعام تجلّى الله عليه باسم (الضارّ) فلا تأكلوه ، وذاك الطعام تجلّى عليه سبحانه باسم (النافع) ينفع من أكله .. وعدة أمور
فسأل رضي الله تعالى عنه عن حالها فأجابه أحد الأساتذة المدرسين في المعهد الشرعي :
إنها امرأة صالحة ذات عبادة وتقى ، ولا تخرج من بيتها إلا نادراً .
فأجاب رضي الله تعالى عنه :
ما كان من أقوالها موافقاً للشرع فمقبول ، وما كان سوى ذلك نَدَعُه لنفسها ، فإن كانت من أهل الجذب فحالها لنفسها لا يسري علينا . اهـ
*** بيان آيات كريمة :
أفادنا رضي الله تعالى عنه لمّا فسر لنا قوله تعالى :
{ فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بأهله ...}
قال رضي الله تعالى عنه : : انتبهوا لهذا ، يقول البعض : في القرآن تكرار ، والحق أنه لا تكرار في القرآن .
ثم بيّن رضي الله تعالى عنه أن الله تعالى ذكر قصة سيدنا آدم وسيدنا نوح وسيدنا موسى على نبينا وعليهم الصلاة والسلام في عدة سور من القرآن الكريم فَظَنَّ البعض أنه تكرار ، وقالوا في ذلك : إنه للتأكيد
ثم أورد على ذلك أدلة منها قوله تعالى :
{ كلا سوف تعلمون * ثم كلا سوف تعلمون }
قال بعضهم : إنها كُررت للتأكيد .
والتحقيق أنه ليس في الأمر تكرار ، فقوله تعالى :
{ كلا سوف تعلمون } أي : إذا انتقلوا إلى الآخرة
{ثم كلا سوف تعلمون } أي : إذا انتقلوا إلى عالم الحشر

وهكذا سوف يعلمون وتظهر لهم حقائق ما أخبر عنه القرآن الكريم كلما انتقلوا من عالم إلى عالم ، ويتحقق قوله تعالى :{ ثم كلا سوف تعلمون }
فأين التكرار ؟
ثم إن الله تعالى ذكر قصة سيدنا موسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام مع فرعون ، ذكرها في القرآن الكريم في عدة سور .
فهل هذا يعني أن سيدنا موسى أرسله الله تعالى إلى فرعون فذهب إليه وقال له : آمِنْ ، ولم يؤمن وهكذا انتهى الأمر؟ !
أم أنه عليه الصلاة والسلام ضمّه مع فرعون عدة مجالس ،
وفي كل مجلس جرت المناظرة ؟
والدليل على هذا قول الله تعالى مخبراً عن فرعون :
{قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى * قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى }
وفي مناظرة أخرى قال تعالى :
{ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ * قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ }
فقال بعض الطلبة : قد تأتي آيات يُعاد في بعضها نفس الكلمة التي وردت في الآية التي قبلها فماذا يعني هذا ؟
فأجاب رضي الله تعالى عنه : إنما جاء هذا ليكون ربطاً بين ما ذُكر في هذه الحادثة مع ما ذُكر في الحادثة التي قبلها ، كما إذا أردت أن أحدثك بحديث له صِلة مع حديث سابق كنت حدّثتكَ به فإني أسرد كلمة مما سبق للربط بين هذا وذاك - ولله المثل الأعلى -
*** إيضاح :
أكرمَنا زاد الله تعالى في إكرامه :
متى تكون الصلاة خيراً من النوم ؟
ثم أجاب :عندما يكون وقت النداء لها ، أما من كان في منتصف الليل مثلاً وغلَبه النعاس هل يقال في حقه : (الصلاة خير من النوم) ؟
لا ، لأنه في هذه الحالة النوم خير من الصلاة ، كما ورد في الحديث عن السيدة عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
[إذا نعس أحدكم وهو يصلي فليرقد حتى يذهب عنه النوم ، فإن أحدكم إذا صلّى وهو ناعس لا يدري لعله يستغفر فيسبّ نفسه] [1]
وفي رواية : [إذا نعس أحدكم في الصلاة فلْينم حتى يعلم ما يقرأ] [2]

---
[1] صحيح البخاري كتاب الوضوء
[2] صحيح البخاري كتاب الوضوء عن أنس رضي الله عنه

ثم قال رضي الله عنه :
لأنه في حالة النعاس قد يُجري الشيطان على لسانه ما لا يجوز قوله . اهـ .
*** بيان آية كريمة :
في تفسير قوله تعالى { وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا }
النهي عن أن يقول إنسان لآخر وهما يودّان القيام بعمل ما فيعجل أحدهما مثلاً فيقول له الآخر : لا تستعجل ، (فالله خلق الخلق في ستة أيام) ،
فهذا القول لا يجوز لأن فيه قياس المخلوق بالخالق ،
والله تبارك وتعالى ليس كمثله شيء .
ثم بين رضي الله عنه : هل الله تبارك وتعالى كالإنسان الذي يتأنّى وينظر في عواقب الأمور ثم يفعل ما يفعل ، لا ، ليس كمثله شيء جل وعلا . اهـ .
*** حكم شرعي :
سئل رضي الله تعالى عنه :
هل للمرأة أن تقرأ القرآن وليس على رأسها خمار ؟
فتريث قليلاً رضي الله تعالى عنه ثم قال :
النصوص على أن وجه المرأة ليس عورة ، ولكن يجب ستره خوف الفتنة وعلى المرأة أن تضع على رأسها في الصلاة خماراً ، ويظهر وجهها .
فهل يجوز لنا أن نقول :
يشترط لقراءة القرآن ما يشترط للصلاة من وضوء واستقبال القبلة وما شابه ذلك حتى نقول ينبغي لها أن تستر رأسها ؟
وقد انعقد الإجماع على أن قراءة القرآن تصح من غير وضوء ،
فلا يشترط فيها ما يشترط في الصلاة .
نعم إن من أرادت الكمال فلا مانع من سترها رأسها ،
ولكن لا وجوب عليها . اهـ
*** حكم فقهي :
سئل رضي الله تعالى عنه عن تحنيط بعض الحيوانات ووضعها في البيوت فقال : بعد موتها ؟ قيل : نعم ، قال : وضعها في البيوت لا يجوز ،
وتحنيطها لأمور طبية جائز ، ولمرة واحدة فقط . اهـ .
*** حكم شرعي :
سئل رضي الله تعالى عنه عن الرجل يعبد الله تعالى ليدخله الجنة ،
ولولا الجنة ما عَبَدَ الله تعالى ، فهل يعتبر كافراً ؟
قال : لا ولكن يُعتبر ناقص الإيمان ، وهو من مرتبة العوام في عرف الصوفية .

*** فائدة :
أفادنا رضي الله تعالى عنه : بأن تلاوة هذه الآية :
{ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ }
تلاوتها ثلاث مرات تفيد في حالة السفر بأنها تُبعد عن المسافر الاحتلام الذي يسببه الشيطان .
وأفادنا أيضاً رضي الله تعالى عنه بأنه لا يجوز للإنسان أن يقول :
(الله رب القرآن) كما لا يجوز أن يقول : (وإله القرآن)
لأن ذلك يشعر أن القرآن مربوب أو مألوه ، وأن الله تعالى هو الرب والإله للقرآن وهذا يعني : أن القرآن مخلوق ، إذاً هذا القول لا يجوز لأن القرآن كلام الله تعالى ، وكلامه صفته ، وصفاته سبحانه قديمة غير مخلوقة
وعزا إلى البيهقي أنه روى عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه سمع رجلاً يقول عند دفن رجل ميت :
(اللهم رب القرآن ارحمه) فمنعه من ذلك [١]
*** حكم فقهي :
سئل رضي الله تعالى عنه : رجل حلف بالمصحف ثم حنث ماذا عليه ؟
فأجاب رضي الله تعالى عنه : يُخرج كفارة اليمين إطعام عشرة مساكين
فقال السائل : وصوم ثلاثة أيام ؟
فقال له : إن لم يجد يصوم ، أما من يستطيع الإطعام فلابد له من الإطعام .
*** سألته رضي الله عنه عن زكاة العقارات المؤجّرة هل يكون عن بدل الإيجار وحده فقط ، أم عن ثمن العقار وبدل الإيجار ؟
فأجابني رضي الله عنه : عن بدل الإيجار فقط .
-* سألته رضي الله عنه عن الجمع بين حديث :
[كل مولود يولد على الفطرة]
وحديث [ثم يرسَل الملك فينفخ فيه الروح ، ويؤمر بأربع كلمات : بكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد] [٢]؟
فكيف يُكتب عليه الشقاء وهو في الرحم ؟ ثم يولد على الفطرة ؟

---

[١] جاء في الحديث عن عكرمة قال : حمل ابن عباس رضي الله عنهما جنازة ، فلما وضع الميت في قبره ، قال له رجل : (اللهم رب القرآن اغفر له) ، فقال له ابن عباس رضي الله عنهما : (مه ، لا تقل له مثل هذا ، منه بدأ ، وإليه يعود) . اهـ (انظر : الأسماء والصفات للبيهقي)
[٢] طرف حديث في صحيح مسلم كتاب القدر

فأجاب رضي الله عنه : لا تنافي بين الحديثين ، فالولادة على الفطرة ، ولكن سيختار الشقاء لنفسه فيكفر ، وهذا باعتبار النتائج .
ثم استدل رضي الله عنه بالحديث الذي رواه مسلم عن أبيّ بن كعب قال :
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
[إن الغلام الذي قتله الخضر طُبِع كافراً ، ولو عاش لأرهق أبويه طغياناً وكفراً] [1]
ثم ذكر أنه لم يَعِشْ .
ثم ذكر رضي الله عنه :
ومما يؤيد أن الإنسان يولد على الفطرة أنه عندما يصيبه مكروه أو ينزل به ضرّ يلجأ إلى الله تعالى ، وفي هذا إشارة لقوله تعالى :
{ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ }
ومثل هذا لا يفيده رجوعه شيئاً ، إذ هو رجوع في حالة الاضطرار .
فقلت : لو تصوّرنا أن طفلاً عاش دون أن يكون هناك أحد يغيّر ما فيه فكيف يأتيه الشقاء ؟
فقال : إنه يكون سعيداً لأنه يستمر على الفطرة .
ثم دعا رضي الله عنه أن يبقينا الله تعالى على الإيمان الفطري الذي فطر الله تعالى الناس عليه . اهـ .
*** حثّنا رضي الله تعالى عنه على طلب العلم وكان مما ذكر :
أن الإمام مالكاً رضي الله تعالى عنه لما سئل عن فضل
{ قال الله } أي عن فضل القرآن الكريم ؟
أجاب رضي الله تعالى عنه : لما نزل قول الله تعالى :
{ لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ }
أول مرة على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وسرّي عنه الوحي - ولم يكن في الآية قوله تعالى : { غير أولي الضرر }- وكان زيد بن ثابت رضي الله تعالى عنه - وهو أحد كتاب الوحي – كان إلى جوار سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له عليه الصلاة والسلام : [اكتب] ، وقرأ عليه هذه الآية ، فسمعها عبد الله بن أم مكتوم رضي الله عنه إذ كان حاضراً في المجلس فقال يا رسول الله وماذا أفعل ؟
- لأنه كان أعمى لا يستطيع الجهاد -
فنزل فوراً سيدنا جبريل على نبينا وعليه الصلاة والسلام، و معه جماعة كبيرة من الملائكة - لأنه قائد كبير من قُوّادها ووصفه الله تعالى بقوله :

[1] انظر صحيح مسلم كتاب القدر

{ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ } أي أنه إذا أمر الملائكة بأمرٍ أطاعوه وبادروا إلى تنفيذه - نزل هو ومعه الملائكة بقوله تعالى : { غَيْرُ أُولِي الضَّرَر}
فقرأ عليه الصلاة والسلام الآية على ابن أم مكتوم ففرح وحمد الله تعالى
ثم قال الإمام مالك رضي الله تعالى عنه :
انظر يا هذا إلى حرف من كتاب الله كيف نزل معه جبريل وهذه الأعداد الكثيرة من الملائكة عليهم السلام .[1]
وأشار بقوله : (إلى حرف) أي إلى جملة :{ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ }
وسماها حرفاً لأنها طرف من جملة ، كما يقال في زاي (زيد) إنها حرف من كلمة زيد ، وهي طرف من الكلمة أيضاً .
فانظر يا هذا إلى قدر هذا الحرف من القرآن وكم نزل معه من الملائكة !!

---

[1] قال الإمام السيوطي في الدر المنثور :
أخرج ابن فهر في كتاب فضائل مالك وابن عساكر من طريق عبد الله بن رافع قال : قدِم هارون الرشيد المدينة ، فوجّه البرمكي إلى مالك ليقول له : احمل إليّ الكتاب الذي صنّفتَه حتى أسمعه منك ، فقال للبرمكي : أقرئه السلام وقل له : إن العلم يُزار ولا يزور ، وإن العلم يُؤتى ولا يأتي .
فرجع البرمكي إلى هارون فقال له : يا أمير المؤمنين يبْلُغُ أهلَ العراق أنك وجهتَ إلى مالك فخالفك ، اعزم عليه حتى يأتيك ، فإذا بمالك قد دخل وليس معه كتاب ، وأتاه مسلّماً فقال : يا أمير المؤمنين إن الله جعلك في هذا الموضع لعلمك فلا تكن أنت أوّل من يضع العلم فيضعك الله ، ولقد رأيت مَن ليس في حسبك ولا بيتك يعزّ هذا العلم ويجلّه ، فأنت أحرى أن تعزّ وتجلّ علم ابن عمك ، ولم يزل يعدّد عليه من ذلك حتى بكى هارون ثم قال - أي : الإمام مالك - : أخبرني الزهري عن خارجة بن زيد قال : قال زيد بن ثابت : كنت أكتب بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم في كتفٍ:
{ لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون }
وابن أم مكتوم عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله قد أنزل الله في فضل الجهاد ما أنزل ، وأنا رجل ضرير فهل لي من رخصة ؟
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا أدري ، قال زيد بن ثابت : وقلمي رطب ما جفّ حتى غشي النبي صلى الله عليه وسلم الوحي ، ووقع فخذه على فخذي حتى كادت تدقّ من ثقل الوحي ، ثم جلّي عنه فقال لي : اكتب يا زيد
{ غير أولي الضرر } .
فيا أمير المؤمنين حرف واحد بعث به جبريل والملائكة عليهم السلام من مسيرة خمسين ألف عام حتى أنزل على نبيه صلى الله عليه وسلم ، أفلا ينبغي لي أن أعزّه وأجلّه ؟ . اهـ

*** حكم فقهي :
سئل رضي الله تعالى عنه عن امرأة مات ولدها الذي كان نائماً إلى جنبها خنقاً دون أن تشعر ؟
فأجاب رضي الله تعالى عنه : هذا قتل خطأ ، عليها أن تصوم ستين يوماً متتابعات ، وتفطر أيام الحيض ، وبعد الحيض تتابع ، فإن أفطرت يوماً بعد انتهاء الحيض قبل أن تُتمّ التسين يوماً فعليها أن تعيد ـ تستأنف الستين ـ ويجوز أن تؤخّر الصيام إلى وقت الشتاء لقِصَر أيامه .
*** فائدة نحوية :
سئل رضي الله تعالى عنه عن الإعراب النحوي لقوله تعالى :
{ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ }
وقال السائل وقتها : (قل) فعل أمر
فقال له الشيخ رضي الله تعالى عنه : { هو } : مبتدأ { الله }: اسم الجلالة خبر على مذهب العارفين رضي الله تعالى عنهم ثم قال : { هو الله }
ويقول النحاة : { الله } بدل ، والخبر { أحد } على قولهم
وعلى قول العارفين : { أحد } : خبر بعد خبر .
فقال السائل : لنَبْق على مذهب العارفين
فقال رضي الله تعالى عنه : وهو أفضل ، رضي الله تعالى عنهم
*** فائدة :
أجازنا رضي الله تعالى عنه بأن نقول بعد كل صلاة ، ووضع أصابعه اليمنى الثلاث ما عدا السبابة والإبهام على جبهته :
(بسم الله الذي لا إله إلا هو الرحمن الرحيم) ، والأصابع على الجبهة ثم نضع اليد على القلب ونقول : (اللهم أذهب عني الهم والحزن) [1]
وأعادها مرة ثانية ووضع الأصابع الأربع ما عدا الإبهام على جبهته
وأعادها مرة ثالثة غير أنه قال بعد أن وضع يده على قلبه رضي الله تعالى عنه : (اللهم أذهب عني الهمّ والغمّ)
*** سئل رضي الله تعالى عنه من قِبل طالب جامعي عن الجمع بين قوله تعالى :{ يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ }
وبين قول الرسول صلى الله عليه وسلم : [رُفعت الأقلام وجفّت الصحف]

[1] روى الطبراني في المعجم الأوسط أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا صلى وفرغ من صلاته مسح بيمينه على رأسه ، وقال :
[بسم الله الذي لا إله إلا هو الرحمن الرحيم ، اللهم أذهب عني الهم والحزن]
ورواه أبو نعيم في الحلية وابن السني في عمل اليوم والليلة

فأجاب رضي الله تعالى عنه : يمحو الله ما يشاء ويثبت في صحف الملائكة التي يأخذونها من بعض أقسام اللوح المحفوظ ، ولكن هذه الأمور التي تأخذها الملائكة من بعض أقسام اللوح لها تعلقات في ما مضى وفي ما سيأتي ، والملائكة لم تطّلع على اللوح كله ، ومن هنا يكون المحو والإثبات
ـ قلت : انظر تفاصيل ذلك في كتاب : (هدي القرآن الكريم إلى معرفة العوالم والتفكر في الأكوان) لمولانا الإمام رضي الله عنه ـ
*** حكم فقهي :
سئل رضي الله تعالى عنه :
ما الذي يجوز إظهاره من بدن المرأة في الصلاة ؟
فأجاب رضي الله تعالى عنه :
دائرة الوجه على أن لا يظهر شيء من الشعر
أما ظاهر الكفين ففيه أقوال للعلماء منهم من قال : يُستران ،
ومنهم من قال : يجوز إظهارهما .
وأما ظاهر وباطن القدمين : ففيه أقوال للعلماء :
منهم من قال : ينبغي سترهما بلبس الجراب مثلاً أو ثياب طويلة
ومنهم من قال : يجوز إظهارهما .
ثم زاد رضي الله تعالى عنه :
أما ما يُقال بين الناس عن الحجاب الشرعي فهو للصلاة فقط ،
أما أمام الأجانب ـ أي غير المحارم ـ فلا يجوز أن يظهر شيء من الوجه أبداً .
ثم قال رضي الله تعالى عنه :
لما نزل قوله تعالى :
{ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ }
خرجت نساء الأنصار وعليهن الجلابيب لا يظهر منهن إلا الحدقة اليسرى ، هكذا فَهِم الصحابة ونساؤهم رضي الله تعالى عنهم .[1]

[1] روى الإمام أبو داود في سننه عن السيدة أم سلمة رضي الله عنها قالت:
لما نزلت{ يدنين عليهن من جلابيبهن }
خرجت نساء الأنصار كأن على رءوسهن الغربان من الأكسية
وقال الإمام السيوطي في الدر المنثور :
أخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن محمد بن سيرين رضي الله عنه قال :
سألتُ عبيدة رضي الله عنه عن هذه الآية { يدنين عليهن من جلابيبهن }

ثم قال السائل : وكيف شأنها في الإحرام للحج ؟
فأجاب رضي الله عنه :
في المذهب الحنفي والشافعي تُظهر الوجه وقت الإحرام ، ويجوز لها أن تستره على أن يكون ستره بحيث لا يلامس وجهها . اهـ .[1]
*** سألته رضي الله تعالى عنه بعد درس بانقوسا حيث قرّر رضي الله تعالى عنه أن القرآن الكريم ذَكَرَ بعض الرسل مفصلاً وبعضهم مجملاً عليهم الصلاة والسلام .
قال تعالى :
{ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ }
وقرر رضي الله تعالى عنه في الدرس ذاته أن الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم وقف موقفاً مرّ به الأنبياء فجعل النبي عليه السلام يمرّ ومعه الرجل ، والنبي معه الرجلان [2]

فرفع ملحفة كانت عليه فقنّع بها ، وغطى رأسه كله حتى بلغ الحاجبين ، وغطى وجهه ، وأخرج عينه اليسرى من شق وجهه الأيسر مما يلي العين .
[1] اتَّفَقَ الْعُلَمَاءُ عَلَى أَنَّهُ يَحْرُمُ عَلَى الْمَرْأَةِ فِي الإِحْرَامِ سَتْرُ وَجْهِهَا ، وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ مِنَ النَّقْلِ حَدِيثُ :
" وَلا تَنْتَقِبُ الْمَرْأَةُ الْمُحْرِمَةُ ، وَلا تَلْبَسُ الْقُفَّازَيْنِ " - رواه البخاري -
وَإِذَا أَرَادَتْ أَنْ تَحْتَجِبَ بِسَتْرٍ وَجْهِهَا عَنِ الرِّجَالِ جَازَ لَهَا ذَلِكَ اتِّفَاقًا بَيْنَ الْعُلَمَاءِ ، إلا إِذَا خَشِيَتِ الْفِتْنَةَ أَوْ ظَنَّتْ فَإِنَّهُ يَكُونُ وَاجِبًا .
وَالدَّلِيلُ عَلَى هَذَا الاسْتِثْنَاءِ حَدِيثُ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ :
" كَانَ الرُّكْبَانُ يَمُرُّونَ بِنَا وَنَحْنُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُحْرِمَاتٌ ، فَإِذَا حَاذَوْا بِنَا سَدَلَتْ إِحْدَانَا جِلْبَابَهَا مِنْ رَأْسِهَا عَلَى وَجْهِهَا ، فَإِذَا جَاوَزُونَا كَشَفْنَاهُ " أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ .
وَعَنْ فَاطِمَةَ بِنْتِ الْمُنْذِرِ قَالَتْ : (كُنَّا نُخَمِّرُ وُجُوهَنَا وَنَحْنُ مُحْرِمَاتٌ ، وَنَحْنُ مَعَ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ) . أَخْرَجَهُ مَالِكٌ وَالْحَاكِمُ
وَقَد اشْتَرَطَ الْحَنَفِيَّةُ وَالشَّافِعِيَّةُ - وَهُوَ قَوْلٌ عِنْدَ الْحَنَابِلَةِ - أَلا يُلامِسَ السَّاتِرُ الْوَجْهَ ، كَأَنْ تَضَعَ عَلَى رَأْسِهَا تَحْتَ السَّاتِرِ خَشَبَةً أَوْ شَيْئًا يُبْعِدُ السَّاتِرَ عَنْ مُلامَسَةِ وَجْهِهَا " لأَنَّهُ بِمَنْزِلَةِ الاسْتِظْلالِ بِالْمَحْمَلِ " كَمَا فِي الْهِدَايَةِ .
وَأَجَازَ لَهَا الْمَالِكِيَّةُ أَنْ تَسْتُرَ وَجْهَهَا إِذَا قَصَدَتِ السَّتْرَ عَنْ أَعْيُنِ النَّاسِ ، بِثَوْبٍ تَسْدُلُهُ مِنْ فَوْقِ رَأْسِهَا دُونَ رَبْطٍ ، وَلا غَرْزٍ بِإِبْرَةٍ أَوْ نَحْوِهَا مِمَّا يُغْرَزُ بِهِ . وَمِثْلُ ذَلِكَ عِنْدَ الْحَنَابِلَةِ ، لَكِنْ عَبَّرُوا بِقَوْلِهِمْ : " إِنِ احْتَاجَتْ إِلَى سَتْرِهِ " ؛ لأَنَّ الْعِلَّةَ فِي السَّتْرِ الْمُحَرَّمِ أَنَّهُ مِمَّا يُرْبَطُ ، وَهَذَا لا يُرْبَطُ ، كَمَا تُشِيرُ عِبَارَةُ الْمَالِكِيَّةِ . اهـ
[2] عن ابن عباس ، رضي الله عنهما قال : خرج علينا النبي صلى الله عليه وسلم يوماً فقال : [عُرضت علي الأمم ، فجعل يمر النبي معه الرجل ، والنبي معه الرجلان ،

فقلت له رضي الله تعالى عنه :
هل عُرض عليه صلى الله عليه وسلم في هذا الموقف الرسل الذين أجملهم القرآن الكريم في الذكر ؟
فأجابني رضي الله تعالى عنه : نعم رآهم
ثم سألته رضي الله تعالى عنه :
أصحيح ما يُنسب لسيدنا أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أنه قال :
(حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم جرابين من علم ، أما أحدهما فَبَثَثْتُهُ ، وأما الآخر فلو بثثته لقطعتم هذا البلعوم) ؟
وهل العلم الذي لم يبثّه أبو هريرة رضي الله تعالى عنه من علم الرسالة الذي أمر صلى الله عليه وسلم بتبليغه أم ماذا ؟
فأجابني رضي الله عنه :
جاء الحديث في صحيح البخاري بلفظ : (وعاءين)[١]
ثم قال رضي الله عنه : نستطيع أن نقول : إنه من إشراقات النبوة التي أُذن له صلى الله عليه وسلم بالتحديث عنها من باب [أُذِن لي أن أحدّث][٢]
*** إيضاح :
ذكر رضي الله عنه :
- ما لا يُدرك كله لا يُترك جلُّه
- توحيده إياه توحيد
- العقل الصحيح والنقل الصحيح كفرسي رهان[٣]

والنبي معه الرهط ، والنبي ليس معه أحد] . اهـ كما في صحيح البخاري كتاب الطب

[١] عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : (حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم وعاءين فأما أحدهما فبثثته ، وأما الآخر فلو بثثته قُطع هذا البلعوم)
كما في صحيح البخاري كتاب العلم

[٢] ومثاله ما رواه الإمام أبو داود في سننه عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : [أُذِن لي أن أحدّث عن ملك من ملائكة الله من حملة العرش ، إن ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبع مائة عام] .

[٣] قال في القاموس المحيط : ١٠٢/٢
" هما كفرسي رهان " يضرب لاثنين يستبقان إلى غاية فيستويان ، وهذا التشبيه في الابتداء، لأن النهاية تُجلي عن السابق لا محالة . اهـ
قلت : والمراد أن النقل مقدم على العقل ، والعقل السليم كان يقْبل ما ثبت من النقل

وأفاض رضي الله عنه تحت هذين القولين الكلام حول توحيد العارفين رضي الله تعالى عنهم ، ثم أشار إلى أن سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام لما خاطبه الله تعالى بقوله :{ إنني أنا الله } لم يبق موسى عليه السلام - أي : فني عن ملاحظة نفسه ، وأخذ بكلّيّته وصار كله وجهة إلى ربه جل وعلا - .

وكيف أن العقل يحار في الله تعالى وهي حيرة إثبات لا حيرة نفي ،

وضرب رضي الله عنه على ذلك بمثالين - ولله المثل الأعلى - :

١- الدخول إلى بيت مظلم لا يرى فيه الداخل شيئاً ، فلو سئل عندما دخل : ماذا ترى ؟ لَقال : لا أرى شيئاً .

ولما يدخل إلى بيت فيه أنوار قوية جداً فيُسأل : ماذا ترى ؟

فيقول : أرى أشياء لا أستطيع أن أدركها ، وذلك لقوة الأنوار .

أما المثال الثاني : فالشمس عندما ينظر الإنسان بعينه إلى نورها ،

وإذا حدق النظر حار نظره ، فهو يراها ولكن لا يدركها ،

فهي حيرة إثبات لا حيرة شك .

وعليه يُحمل قول ابن الفارض رحمه الله ورضي عنه :

(زدني بفرط الحب فيك تحيُّرا) - أي حيرة إثبات لا حيرة شك -

*** بيان آية كريمة :

سألته رضي الله عنه :

لقد سبق أن قرّرتم أن الله تبارك وتعالى يتفضل على العبد أولاً فيحبه ، فإذا أحبه أحب العبد ربه .

قال تعالى: { يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ }

ومثلها قوله تعالى : { ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا }

فالمحبة والتوبة كانتا أولاً من الله تعالى وثانياً من العبد .

فكيف ذكر الله تعالى في مجال الذكر فقال :

{ فاذكروني أذكركم}؟

فأجابني رضي الله عنه : الله تعالى هو الأول والآخر ، فلولا أنه سبحانه يذكرك لم تذكره ، فلما ذَكَرَكَ ذكرْتَه فَذَكَرَكَ .

ثم سألني رضي الله عنه : قال الله تعالى :

{ وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون }

وقال في سجود الملائكة : { فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ }

فلماذا لم يقل في التوبة أجمعين بدل { جميعاً } ؟

فقلت : لا أدري .

فأجاب :
السجود كان من الملائكة كلهم وهم مجتمعون في آن واحد
أما التوبة فلو قال تعالى فيها : (وتوبوا إلى الله أجمعين) ،
لكان يلزم علينا أن نجتمع كلنا ونتوب إلى الله تعالى في آن واحد ،
وهذا لايمكن فذكر سبحانه قوله : (جميعاً) ليحثنا على التوبة فرداً فرداً وفي أي زمن .

*** حكم فقهي :

سئل رضي الله عنه : هل يجوز للمصلي أن يقرأ القرآن في قلبه ؟
فأجاب رضي الله عنه : لابد أن يقرأ بلسانه ، وإذا كان المصلي مقتدياً - حنفي المذهب - يجوز أن يجري على قلبه القراءة لئلا ينشغل .

*** بيان آية كريمة :

سئل رضي الله عنه : عن تفسير قوله تعالى :
{ والباقيات الصالحات } ما هي ؟
فتساءل رضي الله عنه : ما هو أول الآية ؟
ثم سكت قليلاً وقرأها من أولها : { الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا }
ثم قال رضي الله عنه : { المال والبنون زينة الحياة الدنيا } وهي فانيات وما هي الباقيات ؟
الباقيات : الصالحات ، فالذي يبقى إنما هو الصالحات ، والصالحات منها عملية كالركعات والسجدات ، ومنها قولية ، كما ورد :
[سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر] [1]
فكل عمل صالح يبقى ، وهو خير عند الله تعالى ثواباً .

*** حكم فقهي :

سألته رضي الله عنه عن رجل يتصدق بمال وينوي ذلك من الزكاة ولا يدري كم هو ، غير أنه لم يحسب زكاة ماله ، وهذه حاله منذ خمس سنين تقريباً ، فماذا يفعل ؟
فتريث قليلاً رضي الله عنه ثم قال : يحسب ربحه
فقلت : إنه ليس لديه حساب دقيق إلا دفتر يومية
فأجابني رضي الله عنه : يُعمِل غلبة الظن

---

[1] جاء في مستدرك الحاكم كتاب المناسك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال للصحابة الكرام رضي الله عنهم : قولوا : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، فإنها يأتين يوم القيامة مُنجيات ومقدّمات ، وهن الباقيات الصالحات .

قلت : فلو سأل : كيف أُعمِل غلبة الظن ؟
فأطرق رضي الله عنه قليلاً ثم سأل : أهو ميسور ؟
قلت : غالباً والله أعلم
فقال : يُخرج من ماله كثيراً ، فإن زاد على زكاته التي هي واجبة عليه اعتُبرت الزيادة من الصدقات .
*** حكم فقهي :
سئل رضي الله عنه : إذا وقف الإمام في القراءة على كلمة { حريص } في قوله تعالى :
{ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتّم حريص عليكم }
فهل تفسد الصلاة ؟
فقال رضي الله عنه : المقصود بأنها صفة للرسول صلى الله عليه وسلم ثم قال له : لا تفسد الصلاة .
وسأله : هل أعادها - يقصد هل قرأ الآية مرة أخرى فقال : { عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم } ؟
فأجاب السائل : نعم أعادها
فقال : لا تفسد . اهـ .
*** تنبيه :
نبّه رضي الله عنه إلى أن تفسير القرآن الكريم ليس بالأمر السهل الهين ، إذ هو بيان عن مراد الله تعالى في قرآنه .
ونصح - ونعْمَ ما نصح - بعدما قال رضي الله عنه :
أنا لا أقدح في بعض كتب التفاسير المختصرة ، ولكن التفسير ينبغي أن لا تُقصر معانيه العالية فتُسبك بعبارة قصيرة .
*** بيان آية كريمة :
أفادنا رضي الله عنه عند تفسير قوله تعالى :
{ وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا * إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا }
أفادنا أن بعض الناس ينظرون إلى القدرة فقط دون النظر إلى الحكمة ، وهذا لا يجوز ، كما ورد هنا في هذه الآية الكريمة .
فالله سبحانه قادر أن يذهب بما أوحاه إلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكنه عز وجل لا يفعل ، إذ حكمته سبحانه من إرساله صلى الله عليه وسلم رحمةً تَحُوْلُ دون تلك القدرة فلا يفعل ذلك سبحانه تفضلاً منه على رسوله صلى الله عليه وسلم . اهـ

*** بيان حديث شريف :
روى الطبراني في الأوسط والكبير عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم ، كان يكثر أن يدعو بهذا الدعاء :
[اللهم اجعلني أخشاك كأني أراك أبداً حتى ألقاك ، وأسعدني بتقواك ، ولا تُشْقِني بمعصيتك ، وَخِرْ لي في قضائك ، وبارك لي في قَدَرِك حتى لا أُحب تعجيل ما أخّرت ، ولا تأخير ما عجّلت ، واجعل غناي في نفسي ، وأمتعني بسمعي وبصري ، واجعلهما الوارث مني ، وانصرني على من ظلمني ، وأرني فيه ثأري ، وأقرّ بذلك عيني) . اهـ .
فقوله صلى الله عليه وسلم : [ولا تُشْقِني بمعصيتك] قاله مع كونه معصوماً اعترافاً بالعجز وخضوعاً لله وتواضعاً لعزته جل وعلا وتعليماً لأمته صلى الله عليه وسلم .
وقوله صلى الله عليه وسلم :
[وخِرْ لي في قضائك] أي : اجعل لي خير الأمرين فيه ، تقول : (استخرت الله في كذا فخار لي) أي : طلبت منه خير الأمرين فاختاره لي .
*** إيضاح :
قضية الإيمان بالله تعالى هي الفطرة التي فطر الله تعالى الناس عليها ، وينبغي أن يكون إيمان المؤمن بربه سبحانه أقوى وأكثر من إيمانه بالمخلوقات ، كما لو دخل جامع بانقوسا مثلاً فإنه يرى الجامع ويعتقد بوجوده ولكنه لا يشك بأن له بانياً بناه ، ولا يسأل عنه أهو موجود أم لا ؟ لأنه لولا وجود الباني لما كان البناء وهو الجامع ، فإيمانه بالباني أقوى من إيمانه بالبناء - ولله المثل الأعلى - .
*** بيان آية كريمة :
قال تعالى مخاطباً رسوله الأعظم صلى الله عليه وسلم :
{ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ }
قوله تعالى : { فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ } وهو ما قاله صلى الله عليه وسلم كما جاء في قوله سبحانه :{ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ }

*** بيان حديث شريف :
قال صلى الله عليه وسلم :[ما من مولود إلا يولد على الفطرة ، فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء ،هل تحسّون فيها من جَدْعاء] [1]
فما معنى الفطرة ؟
قال تعالى { فاطر السموات والأرض } أي : أخرجها من ظلمة العدم
{ فارجع البصر هل ترى من فطور } - أي : شُقوق -
فالفطرة أصل الإيجاد وشقّ ظلمة العدم وإخراج المخلوق منها
وهذا بتوجّه النور على المخلوق ليوجد .
قال صلى الله عليه وسلم : [إن الله عز وجل خلق خلقه في ظلمة ، فألقى عليهم من نوره ، فمن أصابه من ذلك النور اهتدى ، ومن أخطأه ضل] [2]
فمن تعرض للنور استنار ، ومن أعرض عن النور أظلم ،
فظلامه بسبب إعراضه عن النور .
والدليل على أن المخلوقات كلها خُلِقت على الفطرة قوله تعالى :
{ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آَدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى }
أي أنت ربنا ، وهذا أصل في إيمانهم الأول في عالم الذر ،
ولما وُجدوا بعد انقسموا إلى أقسام :
منهم من بقي متذكراً لذلك العهد وهم الأنبياء عليهم السلام
ومنهم من نسي ، فأرسل الله تعالى الرسل ليذكّروا الناس ،
فانقسم الناس إلى فريقين :
أ - فريق تذكّر فآمن ب- وفريق أصر على عناده فكفر
فخلْق الناس كان على الفطرة ، ثم إنهم جاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم .
وفسّر قوله تعالى :
{ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ } الآية .
فالسموات والأرض ظهرتا بنور الله سبحانه

[1] صحيح البخاري كتاب تفسير القرآن
[2] سنن الترمذي كتاب الإيمان وصحيح ابن حبان كتاب التاريخ

وأعظم تجلّ لله سبحانه بنور الإيمان كان على قلب سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وعن قلبه الشريف صلى الله عليه وسلم استفاضت واستمدّت قلوب المؤمنين .
ومما يدل على أن الكافر يرجع إلى الفطرة أحياناً أنه يلجأ إلى ربه جل وعلا وقت نزول الضر فيه ، غير أن هذا الرجوع لا يفيده ، لأنه يُنكِر إذا رفع عنه الضرّ .
قال تعالى :
{ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا }
وتحدث رضي الله عنه عن شرح الصدر ، وهو التوسعة لإنزال النور فيه
قال تعالى :
{ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام }
{ أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ } . اهـ .
*** إيضاح :
سئل رضي الله عنه :
الخطاب في قوله تعالى بـ {يا أيها الناس } لمن ؟
قال رضي الله عنه : بحسب النزول : إن كان في مكة المكرمة فهو للكفار من أهل مكة أو للناس عامة ، وإن كان في المدينة المنورة فهو للمسلمين ، وأحياناً يكون النزول في المدينة ويُقصد به كفار قريش فليست القاعدة مطّردة .
*** بيان :
تحدث رضي الله عنه عن الأبدال [1] رضي الله عنهم ،
وكيف يكون أحدهم في عدة مناطق بآن واحد .
وضرب لذلك مثالاً بإنسان جلس في مكان ووضع حوله مرايا من كل جهاته كيف يرى نفسه في كل هذه المرايا ؟ .
وهو من باب تَرَوْحن الأجساد عند أهل الله تعالى .

---

[1] روى ابن أبي الدنيا في كتاب الأولياء عن الحسن رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : [إن بُدَلاء أمتي لم يدخلوا الجنة بكثرة صلاة ولا صوم ولا صدقة ، ولكن دخلوها برحمة الله وسخاوة الأنفس وسلامة الصدور] .
وأخرجه البيهقي في الشعب وأبو بكر ابن لال في مكارم الأخلاق و الخرائطي في مكارم الأخلاق والدارقطني في المستجاد وعزاه في كنز العمال للطبراني .

وردّ رداً مفحماً على من قال بتناسخ الأرواح ، فهم يقولون :
(إن روح فلان حلّت في جسم طائر أو إنسان شرير)
وهذا لا يؤيده العقل .
واستدل رضي الله عنه بقوله صلى الله عليه وسلم :
[ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح] [1]
بأن كل مخلوق له روح خاصة ، فسيدنا آدم على نبينا وعليه الصلاة والسلام له روح خاصة به ، وهكذا كل مخلوق .
فقال بعض الطلبة :
هل هناك إنسان أعطاه الله قوة الطيران من باب الكرامة وخرق العادة ؟
فأجاب رضي الله عنه : إن بعض أهل الله أكرمه الله تعالى بذلك كسيدنا عقيل المنبجي [2] رضي الله عنه طار من بغداد إلى منبج .
وأما ما ورد من طيران بعض السحرة الكفار فذلك بسبب رياضات يقومون بها واتصالات مع أرواح أرضية .
وقص علينا قصة مولانا بهاء الدين النقشبندي [3] نفعنا الله تعالى به وبأهل الله جميعاً لما كان في الهند وقيل له عن ذلك ، وتحدى الكفار المسلمين ،
فطار ساحر منهم ، فقيل للشيخ : يا سيدي طار هذا - وهو يراه -
فقال : أنا لا أطير معه لأنه نجس ، ولكن يطير معه حذائي ،
وطار الحذاء حتى لحق الساحرَ الكافر وضربه على رأسه فوقع .
*** حكم فقهي :
سئل رضي الله عنه : أن رجلاً يشكو مرضاً في قدميه - حرارة -
وقد نصحه الطبيب بعدم استعمال الماء فهل يجوز المسح عليها ؟
أجاب رضي الله عنه : يجوز له المسح .
وكان السائل يصلي إماماً فسأله رضي الله عنه : هل يخرج من قدميك - ينزف منهما - شيء ؟ فأجاب : نعم ، فقال : لا تُصلّ إماماً
*** إيضاح :
سألته رضي الله عنه : هل مُنع الشياطين من استراق السمع لكل أنواع الوحي التي أوحاها الله تعالى لأنبيائه عليهم الصلاة والسلام ؟

---

[1] مسند الإمام أحمد ٣٤٤١

[2] هو سيدي الشيخ عقيل المنبجي بن الشيخ شهاب الدين البطايحي الهكاوي، المتوفى سنة ٥٥٠ للهجرة، والمدفون في بلدة منبج إلى الشمال الشرقي من مدينة حلب رحمه الله رحمة واسعة ورضي عنه ونفعنا به .

[3] هو سيدي الشيخ بهاء الدين محمد بن محمد بن محمد المشهور بـ (النقشبند) والملقب بـ (محمد البخاري) توفي رضي الله عنه سنة ٧٩١ هـ

أم هذا خاص بنزول القرآن على النبي صلى الله عليه وسلم ؟
فأجابني رضي الله عنه : نزول الوحي كله محفوظ من استراق السمع ،
قال تعالى : { إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ }
إلا أن القرآن الكريم له زيادة عناية ورعاية ، ولذا أراد الشياطين أن يتلقفوه من السماء لِفهم ما فيه فمُنِعوا ، قال تعالى :{ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ }
ثم قال لي رضي الله عنه : - ولتقريب ذلك إلى الذهن - :
أنت الآن أمامك القرآن فهل تفهم كل ما فيه ؟
قلت : لا
فقال رضي الله عنه : هم أرادوا أن يفهموه ويطّلعوا عليه وهو في السماء فمُنِعوا .
*** بيان آية كريمة :
في تفسير قوله تعالى :{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا }
أورد النسفي رحمه الله أن الصحابة كانوا يطلبون الاستعادة من رسول الله صلى الله عليه وسلم لبعض الأحكام .[1]
فاستأذنته رضي الله عنه وقلت :
ألم يرِد أن النبي صلى الله عليه وسلم أنه إذا تكلم أعاد ثلاثاً [2]؟
فأجاب رضي الله عنه : نعم
ثم قال رضي الله عنه : هل يلزم أنه صلى الله عليه وسلم كان يعيد كل ما تكلم به ثلاثاً ؟ قلت : لا
ثم أوضح رضي الله عنه بعض الحِكم من إعادته صلى الله عليه وسلم ثلاثاً
أن الأولى : للتنبيه ، والثانية : للتفكر ، والثالثة : للفهم
أو أن الأولى : للتأسيس ، والثانية : لزيادة البيان ، والثالثة للتعقل والتدبر .

---

[1] قال الإمام النسفي عند تفسيره للآية الكريمة :
كان المسلمون يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم إذا ألقى عليهم شيئاً من العلم : (راعنا يا رسول الله) أي راقبنا وانتظرنا حتى نفهمه ونحفظه ، وكانت لليهود كلمة يتسابّون بها عبرانية أو سريانية وهي «راعينا» ، فلما سمعوا بقول المؤمنين «راعنا» افترصوه وخاطبوا به الرسول وهم يعنون به تلك المسبة ، فنُهي المؤمنون عنها وأُمروا بما هو في معناها وهو «انظرنا» ، مِن : نظره إذا انتظره { واسمعوا } وأحسنوا سماع ما يكلّمكم به رسول الله صلى الله عليه وسلم ويلقي عليكم من المسائل بآذان واعية وأذهان حاضرة حتى لا تحتاجوا إلى الاستعادة وطلب المراعاة ، أو واسمعوا سماع قبول وطاعة ولا يكن سماعكم كسماع اليهود حيث قالوا : سمعنا وعصينا .
[2] انظر صحيح البخاري كتاب العلم

*** حكم فقهي :
سئل رضي الله عنه :
طبيب أُحضِرت امرأة إلى عيادته بحالة خطرة ، وبقي لصلاة العصر ساعتان ، هل يصلي الظهر قبل إسعافها ، أم يُسعفها ويصلي ؟
فأجاب رضي الله عنه : يُسعفها ثم يصلي ، ثم زاد وأفاد رضي الله عنه : إن ضاق وقت الصلاة وكانت بحالة إن لم تُسعف تحقّق موتُها فيسعفها وينقذها ولو خرج وقت الصلاة لأن في ذلك إنقاذ نفْس .
** حكم فقهي :
سألته رضي الله عنه : رجل استدان من أخيه نقوداً ألمانية على دفعات متوالية ، وقد ارتفع ثمن هذه النقود من ١٠٤ إلى ١٤٢ قرشاً سورياً ، ولم يكن بينهما اتفاق على طريقة وفائها بالنقد الألماني أم بالنقد السوري ، ولما دفع ما يقابلها من النقد السوري طالبه أخوه بفرق المبلغ زيادة فهل يعطيه له أم ماذا يفعل ؟
فأجاب رضي الله عنه : ينبغي أن يوفيه النقود على السعر الحالي ، فقلت : أسعارها كانت متدرجة من ١٠٤ وأكثر وهكذا حتى بلغت ١٤٠
فقال رضي الله عنه : ينبغي أن يتراضيا ويتسامحا .
*** حكم فقهي :
سئل رضي الله عنه :
رجل لا تصلي زوجته ، وقد نصحها مراراً فلم تصلّ فهل له أن يطلقها ؟
فأجاب رضي الله عنه :

عليه أن يدعوها للصلاة بالحكمة وذلك بالترغيب : كشراء حُلّة مثلاً ، والترهيب : بأن يظهر الغضب من تركها للصلاة لعلها تستجيب ،
فإذا لم تستجب فالذنب عليها باعتبارها عاقلة راشدة ،
ولا يطلقها وخاصة إذا كان هناك أولاد .
فسأله آخر : إذا كان الأمر بالعكس أي أن الزوجة تصلي والزوج لا يصلي فماذا تفعل المرأة ؟
فتبسم رضي الله عنه ثم قال :
أحياناً تتصل بي بعض النساء ويشكين من أزواجهن السُّكْر والقِمار ، وهن مصليات فيطلبن مني الدعاء ، وأن أدلّهن على بعض الأمور مما فيه صلاح أزواجهن .

*** فائدة :
سئل رضي الله عنه مِن قِبَل إنسان كُلّف أن يطلب من الشيخ رضي الله عنه كتابة رقية للرزق ، فقال له : قل لهم أن يقرؤوا الفاتحة .
*** فائدة :
طلب منه رجل أن يدعو له لأنه في شدة ، فدعا رضي الله عنه له وللمسلمين ثم زاده أن يقول ألف مرة :
(يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث) [1]
*** فائدة :
سئل رضي الله عنه من قِبَل رجل أنه لا يستطيع أن يقوم الثلث الأخير من الليل فماذا يفعل ؟
فنصحه رضي الله عنه بأن يقرأ قبل أن ينام :
{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا * خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا * قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا * قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا }
ثلاث مرات
*** حكم فقهي :
سألته رضي الله عنه :
ما يقوله بعض النساء : (بكسر الهاء) هل يعتبر يميناً ؟
فتبسم رضي الله عنه وقال : لا .
ثم زادني رضي الله عنه : نية العقد ليست عقداً ، ونية اليمين ليست يميناً ، ونية الطلاق ليست طلاقاً ، فلابد من اللفظ في كل ذلك .
*** بيان آية كريمة :
قال تعالى :
{ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ }
الفضل : هو الإيمان
والرحمة : قيل إنها القرآن الكريم ، وقيل إنها سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلاهما صحيح ، فالقرآن الكريم وسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم متلازمان لا ينفكّان

---

[1] روى الإمام الترمذي في سننه عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال :
كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا كَرَبَهُ أمر قال : [يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث]

- بمعنى أن القرآن الكريم لا يؤخذ تفسيره إلا من سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم - كما قال تعالى : { وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ }
وقدّم سبحانه { فبذلك } للحصر أي لا يكون الفرح إلا بالإيمان والقرآن الكريم وسيدنا محمد عليه الصلاة والسلام .
أما لو قال سبحانه : (فليفرحوا بذلك) فقد يكون هناك فرح بغيرما سبق ذِكره .
وقال تعالى :{ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مبين}
النور هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم والكتاب هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .
وقد قال سبحانه في القرآن الكريم
{ رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً * فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ }
فالقرآن الكريم كتاب وفيه كتب ،
وفي اللغة تطلق (الكتيبة) على مجموعة الجيش ،
فسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم جمع الفضائل والكمالات
قال تعالى :{ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً }
فما معنى كونه (أُمّة) وهو عليه الصلاة والسلام واحد ؟
لقد جمع فضائل أمّة وكمالات أمّة فكان أمّة ، وسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم جمع الله تعالى فيه ما أعطاه للأنبياء والمرسلين وزاده سبحانه .
*** بيان حديث شريف :
سئل رضي الله عنه هل في حديث [طلب العلم فريضة على كل مسلم][1]
هل في الحديث كلمة : (ومسلمة) ؟
فأجاب رضي الله عنه : لقد بيّن الإمام السخاوي أن بعض المصنفين ألحق بآخر هذا الحديث كلمة : (ومسلمة)
مع أنه ليس لها ذكر في شيء من طرقه ، وإن كان معناها صحيحاً [2]
قلت : وكان من بيان الشيخ الإمام رضي الله عنه لهذا الحديث :
أن المراد بالعلم المفروض على كل مؤمن هو العلم الذي به تصح عبادته لله تعالى كالصلاة والزكاة والصيام والحج ومعرفة الحلال والحرام ،

---

[1] انظرالحديث في سنن ابن ماجه والمعجم الكبير للطبراني وشعب الإيمان للبيهقي ومسند أبي يعلى الموصلي .
وقال الإمام السخاوي في المقاصد الحسنة : قال العراقي :
قد صحح بعض الأئمة بعض طرقه كما بينته في تخريج الإحياء،
وقال المزي: إن طرقه تبلغ به رتبة الحسن . اهـ ١٤٩/١
[2] انظر المقاصد الحسنة ١٤٩/١

فالغني مثلاً يجب عليه أن يتعلم أحكام الزكاة ليقوم بإيتائها كما شرع الله ، وليس ذلك واجباً على غير الغني الذي لا تجب عليه الزكاة أصلاً ،
وهكذا من أراد الحج فواجب عليه أن يتعلم مناسك الحج ، وليس ذلك واجباً على غير المستطيع الحج ، وهكذا يكون الفرض على حسب ما يقتضيه حال المؤمن ، ويجب على الزوج أن يعلّم زوجته أمر دينها .
وأما التفرغ لطلب العلم وتفاصيله ودقائقه للتصدّر للفتوى أو القضاء أو التدريس والتعليم فهذا فرض كفائي ، إذا قام به بعض رجال الأمة سقط عن الآخرين حيث يلجؤون إليهم ويسألونهم ، بدليل قوله تعالى :
{ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ }

*** فائدة :

أفادني الشيخ عبد الجواد البوادقجي[1] جزاه الله تعالى خيراً ـ نقلاً عن سيدي وسندي والد شيخنا الشيخ محمد نجيب رحمه الله تعالى ورفع مقامه في الرفيق الأعلى ـ أنه ذكر مرة : (أن فرعون لم يُقبل إيمانه)
والدليل على ذلك قوله تعالى مخبراً عن دعوة موسى وهارون عليهما السلام :
{ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ * قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا }
وقوله تعالى :
{ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ * فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ }
فالجمع بين الآيتين يدل على أن إيمان فرعون غير مقبول .

*** إيضاح :

سئل رضي الله عنه :
أصحيح أن فضلات سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال بعضهم بطهارتها ؟
فأجاب رضي الله عنه : نعم ،وقد ذكر ذلك القاضي عياض في (الشفا)
ـ قلت : وقد قال القاضي عياض رحمه الله في (الشفا) :

---

[1] هو الشيخ عبد الجواد بن الشيخ عبد الرحمن بوادقجي رحمهما الله وقد توفي سنة ١٤٠٤ هـ

قال قوم من أهل العلم بطهارة الحَدَثين منه صلى الله عليه وسلم ، وهو قول بعض أصحاب الشافعي ، حكاه الإمام أبو نصر بن الصباغ في (شامله)
وقد حكى القولين عن العلماء في ذلك أبو بكر بن سابق المالكي في كتابه : (البديع في فروع المالكية)
وتخريج ما لم يقع لهم منها على مذهبهم من تفاريع الشافعية .
وشاهد هذا أنه صلى الله عليه وسلم لم يكن منه شئ يُكره ولا غير طيّب ، ومنه حديث علي رضى الله عنه :
غسّلت النبي صلى الله عليه وسلم فذهبت أنظر ما يكون من الميت فلم أجد شيئاَ ، فقلتُ : طبتَ حياً وميتاً [1]
قال : وسطعت منه ريح طيبة لم نجد مثلها قط .
ومثله قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه : (طبتَ حياً وميتاً)
حين قبّل النبي صلى الله عليه وسلم بعد موته [2] .
ومنه شرب مالك بن سنان دمه يوم أحد وتسويغه صلى الله عليه وسلم ذلك له ، وقوله في حقه : [لن تصيبه النار] [3] .
ومثله لما شرب عبد الله بن الزبير دم حجامته صلى الله عليه وسلم فقال له عليه الصلاة والسلام :
[ويل لك من الناس وويل لهم منك] ولم ينكر صلى الله عليه وسلم عليه .

---

[1] انظر سنن ابن ماجه ومستدرك الحاكم ومصنف عبد الرزاق ومصنف ابن أبي شيبة والسنن الكبرى للبيهقي فقد ذكره جميعهم في كتاب الجنائز
وانظر مسند البزار وكتاب فضائل الصحابة للإمام أحمد بن حنبل
وقوله : وسطعت منه ريح طيبة لم نجد مثلها قط
انظره في المعجم الكبير للطبراني

[2] كما في صحيح البخاري كتاب المناقب

[3] روى الطبراني وغيره أنه لما أصيب رسول الله صلى الله عليه وسلم في وجهه يوم أحد ، مصّ مالك بن سنان رضي الله عنه دم رسول الله صلى الله عليه وسلم وازدرده - أي : ابتلعه - ، فقيل له : أتشرب الدم ؟ قال : نعم ، أشرب دم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : [خالط دمي دمه ، لا تمسه النار]
انظر المعجم الأوسط للطبراني ومعرفة الصحابة لأبي نعيم فقد أورداه بهذا اللفظ
وقد ذكره الحافظ ابن حجر في الفتح (١١/ ٤٠١) وانظر أيضاً مستدرك الحاكم كتاب معرفة الصحابة وفيه : فقال النبي صلى الله عليه وسلم :
[من سَرّه أن ينظر إلى من خالط دمي دمه فلينظر إلى مالك بن سنان]
ورواه ابن عساكر في تاريخ دمشق وزاد فيه : فقيل لمالك : تشرب الدم ؟
فقال نعم أشرب دم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : [من مسّ دمه دمي لم تُصِبه النار] .

وقد روي نحو من هذا عنه صلى الله عليه وسلم في امرأة شربت بوله ، فقال لها : [لن تشتكي وجع بطنك أبداً] .
ولم يأمر واحداً منهم بغسل فم ولا نهاه عن عودة.
وحديث هذه المرأة التى شربت بوله صحيح ألزم الدارقطني مسلماً والبخاري إخراجه في الصحيح.

واسم هذه المرأة (بركة) واختلف في نسبها ، وقيل : هي أم أيمن ، وكانت تخدم النبي صلى الله عليه وسلم قالت :
(كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم قدح من عيدان يوضع تحت سريره يبول فيه من الليل ، فبال فيه ليلة ثم افتقده فلم يجد فيه شيئاً فسأل بركة عنه فقالت : قمتُ وأنا عطشانة فشربتُه وأنا لا أعلم)
روى حديثها ابن جريج وغيره [1] - .

انتهى كلام القاضي عياض رحمه الله ورضي عنه .

فقال السائل : يَرِد على هذا سؤال :

وهو لماذا كان عليه الصلاة والسلام يتوضأ إذا كان ما يخرج منه طاهراً ؟

فأجاب رضي الله عنه : يتوضأ لكونه عليه الصلاة والسلام مشرّعاً ، ثم لخروجها منه .
ثم أزاد وأفاد رضي الله عنه :
والذي يدل على كون فضلاته عليه الصلاة والسلام طاهرة ما ورد من أن ابن الزبير شرب دمه عليه الصلاة والسلام فلم يقل له استقئ - مع أن شرب دم غيره صلى الله عليه وسلم من الناس حرام -
ولكن قال له : [ويل لك من الناس وويل للناس منك] [2]

---

[1] ٦٥/١

[2] الحديث رواه الحاكم والبيهقي والبزار والضياء المقدسي في الأحاديث المختارة واللفظ له عن عَامِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ أَنَّ أَبَاهُ حَدَّثَهُ أَنَّهُ أَتَى النَّبِيَّ وَهُوَ يَحْتَجِمُ، فَلَمَّا فَرَغَ، قَالَ : [يَا عَبْدَ اللَّهِ، اذْهَبْ بِهَذَا الدَّمِ، فَأَهْرِقْهُ حَيْثُ لا يَرَاكَ أَحَدٌ]، قال : فَلَمَّا بَرَزْتُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ عَمَدْتُ إِلَى الدَّمِ، فَحَسَوْتُهُ، فَلَمَّا رَجَعْتُ إِلَى النَّبِيِّ قَالَ : [مَا صَنَعْتَ يَا عَبْدَ اللَّهِ] ؟ قَالَ : جَعَلْتُهُ فِي مَكَانٍ ظَنَنْتُ أَنَّهُ خَافٍ عَلَى النَّاسِ،

وما ورد من أن خادمته صلى الله عليه وسلم شربت بوله فلم ينكر عليها [1].

قَالَ : [فَلَعَلَّكَ شَرِبْتَهُ] ؟ قُلْتُ : نَعَمْ، قَالَ : [وَمَنْ أَمَرَكَ أَنْ تَشْرَبَ الدَّمَ ؟ ، وَيْلٌ لَكَ مِنَ النَّاسِ ، وَوَيْلٌ لِلنَّاسِ مِنْكَ] .
وَفِي رِوَايَةِ مُوسَى : فَلَمَّا بَرَزَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ عَمَدَ إِلَى الدَّمِ، فَشَرِبَهُ، فَلَمَّا رَجَعَ قَالَ : [يَا عَبْدَ اللَّهِ، مَا صَنَعْتَ] ؟ قَالَ : جَعَلْتُهُ فِي أَخْفَى مَكَانٍ عَلِمْتُ أَنَّهُ خَافٍ عَنِ النَّاسِ، قَالَ : [لَعَلَّكَ شَرِبْتَهُ] ؟ قَالَ : نَعَمْ، وَقَالَ : [لِمَ شَرِبْتَ الدَّمَ ؟ ، وَيْلٌ لِلنَّاسِ مِنْكَ وَوَيْلٌ لَكَ مِنَ النَّاسِ] ، وَزَادَ ، قَالَ : أَبُو سَلَمَةَ : فَحَدَّثْتُ بِهِ أَبَا عَاصِمٍ، فَقَالَ : (كَانُوا يَرَوْنَ أَنَّ الْقُوَّةَ الَّتِي بِهِ مِنْ ذَلِكَ الدَّمِ) .
وقال الحافظ الزرقاني في شرح المواهب :
قوله صلى الله عليه وسلم له : [ويل] للتحسّر والتألم [لك من الناس] إشارة إلى محاصرته وتعذيبه وقتله ، [وويل للناس منك] لما أصابهم من حربه، ومحاصرة مكة بسببه، وقتل مَن قتل، وما أصاب أمه وأهله من المصائب، وما لحق قاتليه من الإثم العظيم، وتخريب الكعبة.
وفي كتاب الجوهر المكنون في ذكر القبائل والبطون:
إنه - أي: ابن الزبير - لما شرب دم النبي صلى الله عليه وسلم تضوّع - أي: فاح فمه مِسكاً - وبقيت رائحته موجودة في فمه إلى أن قُتل رضي الله عنه . اهـ ٥ / ٥٤٨
قلت : ولا تفهم من قوله صلى الله عليه وسلم لسيدنا عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما : [ويل لك من الناس وويل للناس منك] لا تفهم منه نهياً أو إنكاراً له على شربه دم سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بل إنه صلى الله عليه وسلم بشّره بقوة البأس ورباطة الجأش مع أعدائه الذين سيلاقي منهم أنواع الشدة .
وفي التاريخ الكبير للبخاري والسنن الكبرى للبيهقي والمعجم الكبير للطبراني و مسند الروياني عن الصحابي الجليل سَفِينَةَ رضي الله عنه قَالَ :
احْتَجَمَ رَسُولُ اللَّهِ فَأَعْطَانِي الدَّمَ، فَقَالَ : [ادْفِنْهُ]، فَأَخَذْتُهُ فَتَغَيَّبْتُ بِهِ، ثُمَّ شَرِبْتُهُ، ثُمَّ أَخْبَرْتُ النَّبِيَّ أَوْ سَأَلَنِي فَضَحِكَ .

[1] روى الحاكم في المستدرك والطبراني في معجمه الكبير وأبو نعيم في الحلية والدلائل وابن عساكر في تاريخ دمشق واللفظ للحاكم عَنْ أُمِّ أَيْمَنَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ : قَامَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مِنَ اللَّيْلِ إِلَى فَخَّارَةٍ مِنْ جَانِبِ الْبَيْتِ، فَبَالَ فِيهَا، فَقُمْتُ مِنَ اللَّيْلِ وَأَنَا عَطْشَى، فَشَرِبْتُ مِنْ فِي الْفَخَّارَةِ، وَأَنَا لا أَشْعُرُ، فَلَمَّا أَصْبَحَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، قَالَ : [يَا أُمَّ أَيْمَنَ، قَوْمِي إِلَى تِلْكَ الْفَخَّارَةِ فَأَهْرِيقِي مَا فِيهَا]، قُلْتُ : قَدْ وَاللَّهِ شَرِبْتُ مَا فِيهَا، قَالَ : فَضَحِكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ، ثُمَّ قَالَ : [أَمَا إِنَّكِ لا يَفْجَعُ بَطْنُكِ بَعْدَهُ أَبَدًا]
ولفظ ابن عساكر : فَقَالَ : [إِنَّكِ لَنْ تَشْتَكِيَ بَطْنَكَ بَعْدَ يَوْمِكِ هَذَا]
وروى ابن عساكر والطبراني في المعجم الكبير عن أُمَيْمَةَ بِنْتِ رُقَيْقَةَ قَالَتْ :

فقال السائل : وهل عرفَتْ أنه بوله ؟
فقال : نعم لأنه كان في إناء مخصوص .
ثم تفضّل رضي الله عنه فذكر نبذة عن خصائصه عليه الصلاة والسلام التي خصه الله بها تبارك وتعالى ، ولا ينبغي للناس أن يتّبعوه في ذلك فعدّد منها :

كَانَتْ لِلنَّبِيِّ قَدَحٌ مِنْ عَيْدَانٍ يَبُولُ فِيه ، وَيَضَعُهُ تَحْتَ السَّرِيرِ، فَجَاءَتِ امْرَأَةٌ يُقَالُ لَهَا (بَرَكَةُ) قَدِمَتْ مَعَ أُمِّ حَبِيبَةَ مِنَ الْحَبَشَةِ فَشَرِبَتْهُ، فَطَلَبَهُ النَّبِيُّ فَلَمْ يَجِدْهُ، فَقِيلَ : شَرِبَتْهُ بَرَكَةُ، فَقَالَ لَهَا : [لَقَدِ احْتَظَرْتِ مِنَ النَّارِ بِحِظَارٍ] - أي : لقد احتميتِ بحمى عظيم من النار يقيك حرها ويؤمنك من دخولها ، كما في لسان العرب -
وقال الحافظ الزرقاني في شرح المواهب :
وعن ابن جريج قال: أُخبرت أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم كان يبول في قدحٍ من عيدان، ثم يوضع تحت سريره، فجاء فإذا القدح ليس فيه شيء، فقال لامرأة يقال لها (بركة) كانت تخدم أم حبيبة، جاءت معها من أرض الحبشة:
[أين البول الذي كان في القدح]؟ قالت: شربتُه ، قال: [صحة يا أم يوسف]
فما مرضت قط حتى كان مرضها الذي ماتت فيه.
وهذا الحديث رواه عبد الرزاق في مصنفه عن ابن جريج، و"رواه أبو داود" متصلًا عن ابن جريج عن حكيمة .
وقوله صلى الله عليه وسلم لها : [صحة] بكسر الصاد، وبالنصب - أي: جعله الله صحة .
أو بالرفع، أي: ما شربتيه صحَّة ، أي: سبب لها.
وفيه أن قول ذلك مستحب للشارب، ويقاس عليه الأكل، وحكمته أنه يُخشى منهما السقم ونحوه . اهـ .
قلت : وهذا الحديث ذكره الحافظ ابن حجر رحمه الله في كتابه (التلخيص الحبير) وعزاه لعبد الرزاق عن ابن جريج أيضاً -
ثم قال الحافظ الزرقاني رحمه الله :
وفي هذه الأحاديث دلالة على طهارة بوله ودمه صلى الله عليه وسلم.
وقال النووي في شرح المهذب :
وحديث شرب المرأة البول صحيح رواه الدارقطني، قال: وهو حديث حسن صحيح، كافٍ في الاحتجاج لكلّ الفضلات قياسًا، ثم قال: إن القاضي حسينًا قال بطهارة الجميع ، أي: جميع فضلاته، وبه جزم البغوي وغيره، واختاره كثير من متأخري الشافعية، وصحَّحه السبكي، والبارزي والزركشي وابن الرفعة والبلقيني والقاياتي، قال الرملي: وهو المعتمد ، وبهذا قال أبو حنيفة كما قاله العيني ،
وقطع به ابن العربي من المالكية، وعمَّمه بعض متأخريهم في جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . اهـ ٥٥٢/٥

وِصالُه عليه الصلاة والسلام في الصيام ، فواصل الصحابة رضي الله تعالى عنهم لأنهم يعلمون أنهم مأمورون باتباعه فنهاهم عن الوصال .
وقال عليه الصلاة والسلام :
[إني لست مثلكم] - وفي رواية :[لست كأحدكم]- [1]
[إني أبِيتُ يطعمني ربي ويسقيني] [2]
ومنها تزوجه صلى الله عليه وسلم أكثر من أربع نساء
وجواز قبوله عليه الصلاة والسلام هبة امرأة نفسها له صلى الله عليه وسلم
وبيّن القرآن ذلك : { خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ }
وما خصّه الله تعالى به عليه الصلاة والسلام من خصائص في ريقه الشريف وبصاقه الشريف .
*** إيضاح :
حدثنا رضي الله عنه أن بعض الناس يقول :
قصيدة (طلع البدر علينا) لا أصل لها أو ضعيفة
قال رضي الله عنه :
فراجعنا المواهب اللدنية للحافظ القسطلاني فوجدناه يقول :
إنشاد هذا الشعر عند قدومه عليه السلام المدينة، رواه البيهقي في الدلائل" النبوية "وأبو بكر المقرئ" بضم الميم وسكون القاف الحافظ محمد بن إبراهيم بن علي بن عاصم الأصبهاني، صاحب المعجم الكبير وغيره،"في كتاب الشمائل له "وذكره الطبري في الرياض" النضرة" وقال" المحب الطبري: "خرجه الحلواني على شرط الشيخين " والحلواني بضم المهملة وسكون اللام نسبة إلى حلوان آخر العراق، الحسن بن علي بن محمد الهذلي، أبو علي الخلال نسبة إلى الخل نزيل مكة، ثقة حافظ له تصانيف شيخ الجماعة . اهـ [3].
*** بيان :
سألته رضي الله عنه - وكان قد قرر أن إخوة يوسف عليه السلام أصبحوا بعد توبتهم من كبار الأولياء -
سألته : هل إخوة سيدنا يوسف على نبينا وعليه الصلاة والسلام أنبياء ؟
فأجابني رضي الله عنه :

[1] سنن الترمذي كتاب الصوم عن أنس
[2] صحيح البخاري كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة عن أبي هريرة
[3] انظر المواهب ٢ / ١٦٦

الجمهور على أنهم غير أنبياء ، والدليل على ذلك لمّا سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : مَن أكرم الناس ؟
فقال عليه الصلاة والسلام :
[الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام][1]
ولم يقل : الكرام بن الكريم .
وقوله تعالى مخبراً عن مؤمن آل فرعون :
{ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ }
ولم يقل جاءكم يوسف وإخوته ، ثم ما صدر عنهم من أعمال
وهناك من قال بنبوتهم مستدلاً بقوله تعالى :
{ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ }
مستدلاً بأن الأسباط هم أولاد يعقوب عليه السلام فَهُم أنبياء
ولكن المقصود من الأسباط في الآية السابقة :
(وما أوتي أنبياء الأسباط) لأن الأسباط هم الأمم بنص القرآن
{ أسباطاً أمماً } فأولاد يعقوب تناسل منهم أمم وكان يُبعث فيهم أنبياء
ثم قال لي رضي الله عنه : ولكن لا نخطّئ من قال بنبوتهم ، لأن هناك من قال بذلك ، ولكن نقول - وقال متواضعاً زاده الله تعالى عزاً ورفعة - :
- ونحن ننقل - : ولكن الجمهور على عدم نبوتهم .
ثم زادني رضي الله عنه أن هناك من ألّف رسالة حول هذا الموضوع وهو الإمام السيوطي رضي الله عنه في الحاوي للفتاوى واسمها :
(دفع التعسُّف عن إخوة يوسف)
*** حكم فقهي :
سئل رضي الله عنه من قِبل رجل من أهل القرى فقال :
زوّجت ابنتي لابن أخي وظهر أنه لا يمكن أن يُنجب، وقدِمت ابنتي إليّ مراراً وأنا أعيدها إلى ابن عمها وهي شابة ؟
فقال له رضي الله عنه : إنجابه متعذر - أي هل زوجها لا ينجب مطلقاً - ؟
فقال السائل : نعم لا يُنجب ، فسأله رضي الله عنه : وبنتك تحب أن يكون لها أولاد ؟ فقال السائل : نعم ، وأنا أرسلها إلى ابن عمها وهي لا تريد ، فقال رضي الله عنه : إن أرادت أن تعطيه شيئاً من المهر وتدعه لتتزوج زوجاً آخر

[1] صحيح البخاري كتاب أحاديث الأنبياء

فقال السائل : أنا أعطيه المهر كله فهل علي شيء ؟
فقال رضي الله عنه : لا مانع ، أعطه ليطلّقها ثم زوّجْها لآخر بعد انقضاء عدّتها .
*** إيضاح :
سئل رضي الله عنه عما يقول الناس بعد الصلاة :
(اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت وتعاليت يا ذا الجلال والإكرام) [١]
لم ترد كلمة : (وتعاليت) في هذا الدعاء أصحيح هذا ؟
فأجاب رضي الله عنه : إن هذه الكلمة جاءت في رواية للحديث رواها ابن عساكر في تاريخ دمشق .
وذكر رضي الله عنه أن من أسمائه جل وعلا (المتعالي) .
*** فائدة :
سئل رضي الله عنه عن تقبيل القرآن الكريم :
هل يكون من داخله أم من غلافه ؟
فأجاب رضي الله عنه : الصحابة كانوا يفتحون القرآن وينظرون فيه ويقبّلونه ، ومنهم عكرمة رضي الله عنه ، ولو مرة واحدة في اليوم .
أما تقبيله من غلافه فجائز أيضاً كما إذا ناول أحد غيره القرآن الكريم فقبّله
*** حكم فقهي :
وسئل رضي الله عنه :
يسلّم إنسان على الآخر فيستهزئ الآخر بالسلام ،
فهل يسلّم عليه مرة أخرى ؟
فأجاب رضي الله عنه : إذا كان الآخر يستهزئ بالسلام فلا يسلّم عليه الأول بنية أن لا يزداد إثماً ، لا بنيّة الهجر .
*** إيضاح
سئل رضي الله عنه : لمَ يُقدَّم ذكر الوالدين في الدعاء قبل المشايخ ،
مع أن الشيخ المربّي المرشد أفضل من الأب ؟
فأجاب رضي الله عنه : لأن الأب هو السبب الأول في وجود الإنسان ثم يكون الشيخ سبباً في تكميله ، أو أنه من باب الرقي من باب ذكر الأرقى فالأرقى ، فذكر الأب أولاً ثم ترقى فذكر المشايخ .

---

[١] روى مسلم في صحيحه والترمذي في سننه عن ثوبان رضي الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثاً ، وقال :
[اللهم أنت السلام ، ومنك السلام ، تباركت يا ذا الجلال والإكرام]

- قلت : وقد تقدم البحث في هذا مفصلاً فارجع إليه تجد ما ينفعك إن شاء الله تعالى -
*** إيضاح
سئل رضي الله عنه من قِبل طالب أنه وجد في بعض الكتب أن المادة قديمة لا تفنى وإنما تتحول من حال إلى حال ، فهل هذا القول صحيح ؟
فأجاب رضي الله عنه : ليست المادة قديمة وإنما هي مخلوقة ، والدليل على أنها مخلوقة : كونها تتحول ، وكونها تتحول يدل على أن هناك من يحوّلها .
ثم ردّ رضي الله عنه على الطبيعين فقال : يقولون طبيعة ، والطبيعة في اللغة العربية على وزن : (فعيلة) بمعنى (مفعولة) كما نقول :
(فتيلة) أي (مفتولة) ، و(قتيلة) أي (مقتولة) ، وهكذا .
وكل حركة تدل على محرّك حرّكها ، كما إذا رأيت حجراً يتدحرج فهل تصدق أنه يتدحرج من نفسه ؟ !
لا ، ولكنك تنظر لترى من يُدحرجه ، وهكذا حركة الدولاب ...
وهل يُعقل إذا كان الأمر طبيعة أن تخرج ناقة من صخرة ؟!
فالحجر لا يلد ناقة ، ولكن هناك خالق خَلَقَ وأخرج الناقة من بطن الصخرة وقد خلق سبحانه طيراً من غير توالد ، قال سبحانه مخاطباً نبيه عيسى عليه السلام :
{ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي }
والله سبحانه خلق الأشياء وجعل لها طبائع ، فالماء مثلاً من طبعه البرودة ، والنار من طبعها الحرارة والإحراق ، ولكن الله جل وعلا يسلب عنها طبعها إذا أراد ، وقد فعل ذلك سبحانه حيث قال للنار :
{ كوني برداً وسلاماً على إبراهيم }
ثم إن الذي يقول (طبيعة) : إن اعتقد أنها ذات تؤثّر ولها إرادة ومشيئة وتخلق وترزق من ذاتها فنقول له : لا تقل (طبيعة) وإنما قل : آمنت بالله سبحانه ، لأن هذا ليس من شأن الطبيعة التي تُطلَق على صفة الشيء .
أما إذا اعتقد غير ذلك فلا اعتبار لكلامه ، ويعتبر كافراً إذا اعتقد أن المادة قديمة بمعنى لا أول لها ، فالذي لا أول له بل هو الأول والآخر هو الله جل وعلا ، وكل ما عداه هو مخلوق بخلْقه وموجود بإيجاده جل وعلا .
*** حكم شرعي :
سئل رضي الله عنه عن رجل كلما وَصَلَ إخوته قطعوه
وحديث : [لا يدخل الجنة قاطع رحم] [1]

[1] انظره في صحيح مسلم كتاب البر والصلة والآداب

فهل يقطعهم أم ماذا يفعل ؟
فأجاب رضي الله عنه : أنه ينبغي أن يزورهم في الأعياد ، وعليه أن يصبر ويحتمل عبوس وجههم .
ثم قال للسائل : هل إذا ذهب إليهم يردّونه ؟
قال : لا ، قال : يزورهم في الأعياد لأنه جاء في الحديث : [صِل قرابتك وإن قطعوك] [1] .
أما إذا قالوا له : (لا تزُرنا بعد الآن) ، فعندها يتوقف .
*** إيضاح :
سئل رضي الله عنه عن سيدنا لقمان : هل هو نبي أم لا ؟
فأجاب : العلماء مختلفون فيه ، فمنهم من قال بنبوته ، ومنهم من قال بولايته .
فمن قال بنبوته أخذ بقوله تعالى : { وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ }
وكلمة { آتينا } في القرآن الكريم لا تأتي إلا في مقام النبوة ،
قال تعالى{ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا }
وقال سبحانه :{ وآتيناه حكماً وعلماً}
ثم ذكر عن سيدنا محي الدين ابن عربي رضي الله عنه بأنه عقد له فصّاً خاصاً في كتابه (الفصوص) واعتبره من الأنبياء .
*** بيان
سئل رضي الله عنه عن صلة الأبوين المشركين
فبين رضي الله عنه أن صلتهما في أمور الدنيا واجبة من حيث الإنفاق والتعهد والزيارة وما شابه ذلك من أمور الدنيا .
ثم عرّج على صلة الأقرباء المشركين ، وذكر قصة حلّة الحرير التي أهداها النبي الكريم صلى الله عليه وسلم لسيدنا عمر رضي الله عنه ، ثم أهداها سيدنا عمر لأخ له مشرك في مكة [2].

---

[1] طرف حديث في المعجم الكبير للطبراني وحلية الأولياء لأبي نعيم

[2] انظر الحديث في صحيح البخاري كتاب الجمعة وصحيح مسلم كتاب اللباس والزينة

وقال الإمام النووي في شرحه صحيح مسلم :
قوله : (فكساها عمر أخاً له مشركاً بمكة)
هكذا رواه البخاري ومسلم ، وفي رواية البخاري في كتاب قال : (أرسل بها عمر إلى أخ له من أهل مكة قبل أن يسلم) ، فهذا يدل على أنه أسلم بعد ذلك .
وفي رواية في مسند أبي عوانة الإسفرايني : (فكساها عمر أخاً له من أمه من أهل مكة مشركاً) .

ووضّح رضي الله عنه كيفية صلة الأقرباء الفسقة ، وقال بأنه ينبغي للمسلم أن يصل قريبه الفاسق من نحو إطعام وإنفاق وزيارة وما شابه ذلك ، وهذا لا ينفي كراهته لفسقه ، أما إذا كان في زيارته له يرتكب حراماً فليبتعد .

ثم بين أنه إذا علم أن ما يعطيه من مال سينفقه على الخمر مثلاً فعليه أن يمتنع عن إعطائه ، وهذا لا يمنع من أن يتفقد أحواله .

ثم ذكر حديث :

[لَيْسَ الْوَاصِلُ بِالْمُكَافِئِ ، وَلَكِنِ الْوَاصِلُ الَّذِي إِذَا قُطِعَتْ رَحِمُهُ وَصَلَهَا] [1]

*** حكم فقهي :

سئل رضي الله عنه عن النذر : هل يجوز للناذر أن يأكل منه ؟

فأجاب : لا ، ويُصرف في مصارف الزكاة للفقراء .

*** حكم فقهي :

سئل رضي الله عنه عن الدم ينزل من العين

فقال للسائل : مِن علّة ؟

فقال السائل : نعم ، فقال له :هل يستمر نزول الدم منها ؟

قال : نعم قال : يُعتبر هذا الإنسان صاحب عذر ، ويتوضأ لكل صلاة .

*** حكم فقهي :

سئل رضي الله عنه عن المقتدي بالإمام في صلاة الجمعة في القعود الأخيركيف يكمل صلاته ؟

فأجاب : يكمل صلاته جمعة عند الإمامين أبي حنيفة وأبي يوسف ، وعند الإمام محمد رحمه الله ورضي عنه يكملها ظهراً ، والمعتمد قول الإمام أبي حنيفة وأبي يوسف رحمهما الله ورضي عنهما .

وفي هذا دليل لجواز صلة الأقارب الكفار والإحسان إليهم ، وجواز الهدية إلى الكفار ، وفيه جواز إهداء ثياب الحرير إلى الرجال لأنها لا تتعين للبسهم ، وقد يتوهم متوهم أن فيه دليلاً على أن رجال الكفار يجوز لهم لبس الحرير ، وهذا وهم باطل ، لأن الحديث إنما فيه الهدية إلى كافر ، وليس فيه الإذن له في لبسها ، وقد بعث النبي صلى الله عليه وسلم ذلك إلى عمر وعلي وأسامة رضي الله عنهم ، ولا يلزم منه إباحة لبسها لهم ، بل صرح صلى الله عليه وسلم بأنه إنما أعطاه لينتفع بها بغير اللبس ، والمذهب الصحيح الذي عليه المحققون والأكثرون أن الكفار مخاطبون بفروع الشرع ، فيحرم عليهم الحرير كما يحرم على المسلمين . والله أعلم . اهـ

[1] صحيح البخاري كتاب الأدب عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما

*** حكم فقهي :
سئل رضي الله عنه :
هل يجوز لإنسان أن يمد يده ليأخذ شيئاً من أمام المصلي ؟
فأجاب : إذا كان الانتظار لا يضر بالآخذ فلينتظر قليلاً لئلا يشوش على المصلي ، وإن كان محتاجاً لا يستطيع الانتظار فيجوز له الأخذ .

*** تذكرة :
سئل رضي الله عنه عن الإصابة بالعين
فقال : العين حق .
فقال له السائل : هل لها رقية معينة ؟
فأجاب رضي الله عنه :
(أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامّة ومن كل عين لامة) [1]
وقراءة المعوذات

*** حكم فقهي :
سئل رضي الله عنه :
هل تنوب المضمضة والاستنشاق في الوضوء قبل الغسل ،
هل تنوب عنهما في الغسل ؟
فقال : نعم .

*** حكم فقهي :
سئل رضي الله عنه عن العقيقة هل هي سنة ؟
فأجاب : هي مستحبة ، أي سنة مستحبة .
ثم بين رضي الله عنه بأن النبي صلى الله عليه وسلم عقّ عن سيدنا الحسن وعن سيدنا الحسين رضي الله تعالى عنهما ونفعنا الله تعالى بهما
عقّ كبشين عن كل واحد منهما [2]

---

[1] روى الإمام البخاري في صحيحه وأصحاب السنن عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ : " كَانَ النَّبِيُّ يُعَوِّذُ الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ، وَيَقُولُ :
[إِنَّ أَبَاكُمَا كَانَ يُعَوِّذُ بِهَا إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ :
أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّةِ مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ وَهَامَّةٍ وَمِنْ كُلِّ عَيْنٍ لَامَّةٍ]
قال الحافظ ابن حجر في الفتح :
قوله صلى الله عليه وسلم : [وهامّة]- بالتشديد - واحدة الهوامّ ذوات السموم ، وقيل : كل ما له سم يقتل ، وقيل : المراد كل نسمة تهم بسوء .
وقوله : [ومن كل عين لامّة] المراد به كل داء وآفة تلم بالإنسان من جنون وخبل .

[2] روى الإمام النسائي في سننه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال :

وتجوز شاة واحدة عن الأنثى والذكر ، والأفضل بالنسبة للذكر شاتان لمن يستطيع .
وسئل : هل يجوز الأكل منها ؟ فقال : نعم
وسئل : متى يكون ذبْحها ؟ فقال :
في اليوم السابع من الولادة أوالرابع عشر أو الحادي والعشرين والأفضل في اليوم السابع
فيذبح ويُولم ويسمّيه - أي يسمي المولود - .
ثم أوضح رضي الله عنه أن هذه العقيقة تفيد المولود كثيراً وتدفع عنه أذى الشياطين والجن خاصة.
*** حكم فقهي :
سئل رضي الله عنه عن إنسان يصلي صلاة الصبح فصلّى ركعة واحدة ثم طلعت الشمس فما حكم صلاته ؟
فسكت السائل ، فقال رضي الله عنه :
إن كان شافعياً فصلاته صحيحة ويتمّها
وإن كان حنفياً فسدت صلاته وله - أي الحنفي - أن يقلّد الإمام الشافعي
*** إيضاح :
سئل رضي الله عنه عن الفرق بين الحديث القدسي والحديث النبوي ؟
فأجاب رضي الله عنه : هناك قولان للعلماء :
أحدهما :
أن الحديث النبوي معناه ولفظه من سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم
أما الحديث القدسي فمعناه من الله تعالى ولفظه من سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم
وثانيهما : أن الحديث القدسي معناه ونصّه من الله تعالى ، غير أنه لم يبلغ حد الإعجاز كالقرآن الكريم ، وهو كالكتب السابقة التي لم تبلغ حد الإعجاز
*** حكم شرعي :
سئل رضي الله عنه عن امرأة أوصت بمبلغ من المال ، وأوصت بأن يُحج عنها فهل تُخرَج تكاليف هذه الحجة من المال الذي أوصت به ؟
فأجاب : نعم لأنها أوصت
فقال السائل : إن المبلغ لا يكفي ، وإن هذا الحج نفل باعتبار أنها أدت الفريضة في حياتها

عقّ رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الحسن والحسين رضي الله عنهما بكبشين كبشين .

فقال : يُنظر في المبلغ ويَخْرُجُ الذي سيحج عنها من بلدها وهو الأفضل ، فإن لم يَفِ المبلغ يخرج من بلد أخرى كدمشق مثلاً إذا كان المبلغ ينقص عما يتطلبه المسافر من حلب مثلاً ، وإن لم يف أيضاً يخرج عنها حاج من المدينة المنورة وإلا فمن مكة المكرمة .
إلا إذا أجاز الورثة الدفع لهذا الحاج فيجوز باعتبار أن ذلك تبرّع منهم ، وأما إذا وجد في الورثة قاصر فلا يجوز لأحد أن يتبرع عنه .
*** حكم فقهي :
سئل رضي الله عنه عن الدعاء في سجود الفرض والنفل هل يجوز ؟
فأجاب : يجوز بما ورد من الأدعية مثل :
[اللَّهُمَّ اجْعَلْ فِي قَلْبِي نُوراً ، وَفِي سَمْعِي نوراً ، وَفِي بَصَرِي نوراً ، وَعَنْ يَمِينِي نوراً ، وَعَنْ شِمَالِي نوراً ، وَأَمَامِي نوراً ، وَخَلْفِي نوراً ، وَفَوْقِي نوراً ، وَتَحْتِي نوراً ، وَاجْعَلْ لِي نوراً] [1]
... وما شابه ذلك
*** حكم فقهي :
سئل رضي الله عنه :
رجل يصلي قيام الليل وأذّن عليه الفجر فما حكم هذه الصلاة ؟
فأجاب : يتمّها من قيام الليل ، أما إذا صلى بعد الأذان فتعتبر سنة الفجر .
*** حكم فقهي :
سئل رضي الله عنه عن قص الأظافر هل ينقض الوضوء ؟
فقال : لا ، ولا قصّ الشعر .
ثم زاد وأفاد وأجاد أن من باب الأفضلية أن يقص الإنسان أظافره وهو على وضوء ، وأن قص الأظافر والشعر على جنابة مكروه تحريماً ، لأنها ستُحشر ، ونَصَحَ أن تجمع آثار الإنسان من أظافر وغيرها وتدفن في مكان خاص بها .
*** حكم فقهي :
سئل رضي الله عنه عن الاستنزاه من البول هل له مدة أو حركات معينة ؟
فأجاب رضي الله عنه :
هذا يختلف باختلاف أحوال الناس وقوة أعصابهم ، وينبغي على الإنسان أن يطمئن إلى أنه برىء تماماً ، ولم يعد هناك رشح بول ، وذلك بأن يجلس بعد الاستبراء جلسة بسيطة ثم ينهض .

---

[1] طرف حديث في صحيح البخاري كتاب الدعوات وصحيح مسلم كتاب صلاة المسافرين وقصرها عن ابن عباس رضي الله عنهما

وكذلك ينبغي ألا يوسوس فيطيل ذلك .
ثم أوضح أن من كان مصاباً بالرمل فليُطِل زمن الاستنزاه من البول حتى يطمئن أن الرشح توقف .

*** حكم فقهي :

سئل رضي الله عنه عن الدم تراه النّفساء بعد الأربعين ؟
فأجاب : في المذهب الحنفي أكثر النفاس أربعون يوماً ، وما تراه النفساء بعد هذه المدة حكمه حكم الرعاف ، ففي تمام الأربعين تغتسل وتصلي وتصوم .
وفي المذهب الشافعي مدة النفاس قد تمتد إلى ستين يوماً ، وما تراه بعد هذه المدة حكمه حكم الرعاف أيضاً .

*** حكم شرعي :

سئل رضي الله عنه عن الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم بعد الأذان فأجاب بأنها مطلوبة بعد الاستماع إلى المؤذن والقول مثل ما يقول ثم يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم بالصلاة الإبراهيمية ، ثم يدعو بدعاء الوسيلة .
أما المؤذنون فقد اعتادوا أن يقولوا تلك الصيغة المعروفة :
(الصلاة والسلام عليك يا سيدي يا رسول الله) .
ثم زاد وأفاد بأن تصلى سنة المغرب قبل فرض المغرب إذا كان الإمام شافعياً ، أو ينتظر ، فلما سئل : ما ينوي بهاتين الركعتين ؟
فقال : ينوي التقرب إلى الله تعالى .

*** حكم شرعي :

سئل رضي الله عنه : هل للمرأة أن تكشف وجهها أمام شيخها ؟
فأجاب : هل هو مَحْرَم أو غير محرم ؟
فقالت : - وكانت السائلة امرأة - : بل هو أجنبي عني - أي ليس من المحارم -
فقال : إذن لا يجوز
ثم بيّن رضي الله عنه أن الله سبحانه لما عدّد المحارم فقال :
{ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن .... } الآيات ، لم يقل جل وعلا : ومشايخهن .
ثم بين أن النبي صلى الله عليه وسلم المعصوم لم يصافح امرأة أجنبية ، وذلك عندما طلبت منه المؤمنات المبايعة والدخول في الإسلام .

وأورد حديث السيدة عائشة رضي الله تعالى عنها :
أَنّ رَسُولَ اللَّهِ لَمْ يُصَافِحِ امْرَأَةً قَطُّ [1]
*** إيضاح :
ذكر رضي الله عنه أن الذبيح هو سيدنا اسماعيل عليه الصلاة والسلام
وذكر أن بعض العلماء والعرفاء قالوا : إنه إسحاق عليه الصلاة والسلام
وأجابوا عن حديث [أنا ابن الذبيحين] بأنه حديث ضعيف
ثم قال رضي الله عنه : إنه لم يرد في الكتب الستة وإنما في غيرها [2] .
ثم قال رضي الله عنه : بشّر الله تعالى إبراهيم عليه الصلاة والسلام بإسحق ويعقوب عليهما السلام فكيف يبشره بولد وهو سيدنا إسحق وأنه سيولد له ولد وهو سيدنا يعقوب ثم يأمره بذبحه ؟ !

---

[1] كما في صحيح ابن حبان .
وروى الشيخان عن السيدة عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زَوْجَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَتْ : " كَانَتِ الْمُؤْمِنَاتُ إِذَا هَاجَرْنَ إِلَى النَّبِيِّ يَمْتَحِنُهُنَّ بِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى :
{ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ } إِلَى آخِرِ الْآيَةِ،
قَالَتْ عَائِشَةُ : فَمَنْ أَقَرَّ بِهَذَا الشَّرْطِ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ فَقَدْ أَقَرَّ بِالْمِحْنَةِ، فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ إِذَا أَقْرَرْنَ بِذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِنَّ، قَالَ لَهُنَّ رَسُولُ اللَّهِ: [انْطَلِقْنَ فَقَدْ بَايَعْتُكُنَّ] .
لَا وَاللَّهِ مَا مَسَّتْ يَدُ رَسُولِ اللَّهِ يَدَ امْرَأَةٍ قَطُّ، غَيْرَ أَنَّهُ بَايَعَهُنَّ بِالْكَلَامِ،
وَاللَّهِ مَا أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ عَلَى النِّسَاءِ إِلَّا بِمَا أَمَرَهُ اللَّهُ : يَقُولُ لَهُنَّ إِذَا أَخَذَ عَلَيْهِنَّ - أي العهد - : [قَدْ بَايَعْتُكُنَّ كَلَامًا] .
وفي مسند الإمام أحمد وسنن النسائي الكبرى ومصنف عبد الرزاق عن السيدة عائشة رضي الله عنها قَالَتْ : وَمَا مَسَّتْ يَدُهُ يَدَ امْرَأَةٍ قَطُّ إِلَّا امْرَأَةً يَمْلِكُهَا .

[2] قال الإمام السخاوي في كتابه : المقاصد الحسنة فيما اشتهر على الألسنة :
حَدِيثُ : [ابْنِ الذَّبِيحَيْنِ] أخرجه الْحَاكِمُ فِي الْمَنَاقِبِ مِنْ مُسْتَدْرَكِهِ مِنْ حَدِيثِ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ مُحَمَّدٍ الْعُتْبِيِّ، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَعِيدٍ، عَنِ الصُّنَابِحِيِّ، قَالَ : حَضَرْنَا مَجْلِسَ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فَتَذَاكَرَ الْقَوْمُ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ أَبْنَاءَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، فَقَالَ بَعْضُهُمُ : الذَّبِيحُ إِسْمَاعِيلُ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ : بَلْ إِسْحَاقُ، فَقَالَ مُعَاوِيَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : سَقَطْتُمْ عَلَى الْخَبِيرِ، كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ فَأَتَاهُ أَعْرَابِيٌّ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ، خَلَّفْتُ الْبِلادَ يَابِسَةً، وَالْمَاءَ يَابِسًا، هَلَكَ الْمَالُ، وَضَاعَ الْعِيَالُ، فَعُدْ عَلَيَّ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكِ، يَا ابْنَ الذَّبِيحَيْنِ، قَالَ : فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللَّهِ وَلَمْ يُنْكِرْ عَلَيْهِ ،
فَقُلْنَا : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ! وَمَا الذَّبِيحَانِ؟ قَالَ : إِنَّ عَبْدَ الْمُطَّلِبِ لَمَّا أَمَرَ بِحَفْرِ زَمْزَمَ نَذَرَ لِلَّهِ إِنْ سَهَّلَ لَهُ أَمْرَهَا أَنْ يَنْحَرَ بَعْضَ وَلَدِهِ، فَأَخْرَجَهُمْ فَأَسْهَمَ بَيْنَهُمْ، فَخَرَجَ السَّهْمُ لِعَبْدِ اللَّهِ، فَأَرَادَ ذَبْحَهُ فَمَنَعَهُ أَخْوَالُهُ مِنْ بَنِي مَخْزُومٍ، وَقَالُوا : أَرْضِ رَبَّكَ وَافْدِ ابْنَكَ.
قَالَ : فَفَدَاهُ بِمِائَةِ نَاقَةٍ فَهُوَ الذَّبِيحُ، وَإِسْمَاعِيلُ الثَّانِي .
هَكَذَا رَوَاهُ ابْنُ مَرْدَوَيْهِ، وَالثَّعْلَبِيُّ فِي تَفْسِيرَيْهِمَا، وَرَوَاهُ الْخُلَعِيُّ فِي فَوَائِدِهِ بِزِيَادَةِ وَالِدِ الْعُتْبِيِّ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الصُّنَابِحِيِّ .

وعند ذلك لا يكون هناك أثر للبشارة التي بشر الله بها سيدنا إبراهيم عليه السلام الواردة في قوله تعالى :
{ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ }
وهذا لا يجوز في حق الله تعالى .
ثم قال لأحد المشايخ الحاضرين : هات غيرها من القرآن ؟
فأجابه : قال الله تعالى
{ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ * فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ * وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ * وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ * سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيم * كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ * وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ }
فذكر سبحانه إسماعيل عليه السلام وذكر أنه قد فداه بذبح عظيم
ثم ذكر بشارته بإسحاق عليه السلام .
فأقرّه رضي الله عنه وأيّده .
*** بيان حديث شريف :
سألته رضي الله عنه بعد أن أورد في درس جامع الحموي أن الله تعالى يسأل العباد كما ورد في حديث :
[ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان ولا حجاب يحجبه] [1]
فقال فوراً رضي الله عنه : لعلك تسأل عن الجمع بينه وبين قوله تعالى :
{ ولا يكلّمهم } ؟
فقلت : نعم وكما ورد : {كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ }
فقال رضي الله عنه : لا يكلمهم سبحانه كلام رضا ورحمة ، وإنما كلام تقريع وتعنيف ، ويتجلى عليهم بتجلي الغضب ، نسأل الله تعالى العافية .
أما أهل الجنة فيكلمهم كلام الرضا والأنس والمحبة
قال تعالى مخاطباً أهل النار :{ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ }
ولما توجهوا بالحديث إلى مالك كما أخبر سبحانه عنهم :
{ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ } [2]

---
[1] انظر صحيح البخاري كتاب التوحيد
[2] كما روى الإمام الترمذي في سننه عن أبي الدرداء وفيه :

*** حكم شرعي :
سئل رضي الله عنه : هل تجب الوصية على الإنسان ؟
فأجاب رضي الله عنه وحفظه : إن كان عليه واجبات أوصى بها ، كما إذا كان عليه ديون للعباد أو كفارات أو نذور أو كفارات صيام أو ترك صلاة .
ثم أجمل رضي الله عنه فقال :
إذا كان عليه واجبات لله تعالى أو للعباد وجب عليه الوصية ، أما إذا لم يكن عليه من هذه الواجبات فالوصية سنة .
فقال أحد السامعين : إنه لا يملك إلا داره التي يسكن بها فكيف يوصي ؟
فأجابه رضي الله عنه : إنّ له أن يوصي في حدود الثلث .
فقال السائل : ولمن يوصي ؟
أجاب رضي الله عنه : للفقراء والمحتاجين وفي سبيل الله تعالى
فقال : أولاده فقراء
فقال رضي الله عنه : لا تجوز الوصية لوارث
ثم قال له : لِيوصِ ولو بقليل .
*** إيضاح :
سئل رضي الله عنه :
يقول البعض : أن الفم والأنف والعينين والأذنين هي تقابل السموات السبع فهل هذا صحيح ؟
فأجاب رضي الله عنه : القرآن عربي مبين فينبغي أن يُفهم ويفسر باللغة العربية وما تدل عليه ، ومعنى السماء من حيث اللغة : ما علا ، وكل ما علاك فأظلّك فهو سماء .
وتطلق أحياناً على السحاب كقوله تعالى : { أنزل من السماء ماء }

قال : فيقولون : ادعوا مالكاً فيقولون{ يا مالك ليقض علينا ربك }قال فيجيبهم { إنكم ماكثون }قال الأعمش : نُبّئت أن بين دعائهم وبين إجابة مالك إياهم ألف عام قال : فيقولون : ادعوا ربكم فلا أحد خير من ربكم ، فيقولون{ ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوماً ضالين * ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون }
قال فيجيبهم جل وعلا { اخسئوا فيها ولا تكلمون }
قال فعند ذلك يئسوا من كل خير وعند ذلك يأخذون في الزفير والحسرة والويل . اهـ
وفي المستدرك : عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو فِي قَوْلِهِ تعالى : { وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ } قَالَ : " يُخَلِّي عَنْهُمْ أَرْبَعِينَ عَامًا لا يُجِيبُهُمْ، ثُمَّ أَجَابَهُمْ :
{ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ } ، فَيَقُولُونَ : { رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا، فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ }
قَالَ : فَيُخَلِّي عَنْهُمْ مِثْلَ الدُّنْيَا، ثُمَّ أَجَابَهُمْ : { اخْسَئُوا فِيهَا وَلا تُكَلِّمُونَ }
قَالَ : فَوَاللَّهِ مَا يَنْبِسُ الْقَوْمُ بَعْدَ هَذِهِ الْكَلِمَةِ، إِنْ كَانَ إِلا الزَّفِيرُ وَالشَّهِيقُ " .

أي : من السحاب .
وهل الفم والعينان أعلى من الإنسان أم إنها من رأسه ؟
وهل إذا قطع رأس الإنسان يبقى حياً ؟
هذا من ناحية .
ومن ناحية ثانية : الذي نزل عليه القرآن هو سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف كانت بياناته عن السماء ؟
أليس قد أخبر عليه الصلاة والسلام أن الله تعالى عرج به إلى السماء ، وأخبر عنها صلى الله عليه وسلم أن فيها الملائكة ، وليس فيها موضع أربع أصابع إلا وفيه ملك ساجد لله تعالى [1] .
فهل بعد بياناته صلى الله عليه وسلم بيان ؟!
*** حكم فقهي :
سألته رضي الله عنه عن زكاة المصانع ، وهي أن بعض أصحاب المصانع كلما أصبح لديهم بعض الأموال من أرباحهم اشتروا بذلك المال بعض الآلات وأضافوها إلى المصنع ، والمعروف أن أدوات العامل التي يعمل فيها لا زكاة عليها ؟
فأجاب رضي الله عنه : نعم نَصّ الفقهاء على أن لا زكاة على أدوات الحداد والنجار مثلاً ، ولكنها أدوات بسيطة ، غير أننا ننظر إلى العلة التي من أجلها فرضت الزكاة وهي : (النماء)
والنماء موجود في قضية المصانع والمعامل ، فكلما نما المصنع وزاد تجب في هذه الحالة الزكاة ، ويقوَّم ما في المصنع من أدوات فإذا بلغت النصاب فيُخرج صاحبها زكاتها .
*** تذكرة :
سأله رضي الله عنه رجل عن صيغة للصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم قصيرة ليستطيع الصلاة بها ألف مرة كل يوم ؟
فأجاب : قل : (اللهم صل على سيدنا محمد عبدك ورسولك النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم) .
فقال السائل : إنه يود صيغة أقصر ، فقال له قل : (اللهم صل على سيدنا محمد وآله وسلم) ، ويدخل الصحب مع الآل .

[1] انظر الحديث في سنن الترمذي كتاب الزهد والمسند ٢٠٥٣٩

*** إيضاح :
سئل رضي الله عنه : هل تنام الملائكة ؟
فقال : هم باقون بإبقاء الله تعالى لهم ، كما أن أهل الجنة أيضاً لا ينامون وهم باقون بإبقاء الله سبحانه وتعالى لهم ، أما الإنس والجن في الدنيا فينامون .
*** تذكرة :
سئل رضي الله عنه عن قراءة الفاتحة للشفاء مثلاً أو للرزق ، وهل تكفي قراءة الفاتحة مرة واحدة ؟
فأجاب : قراءة الفاتحة لكل نية صالحة ينويها الإنسان تجوز ، ولكن كلما زاد في القراءة فهو أفضل .
***حكم فقهي :
سئل رضي الله عنه عن المرأة المعتدّة من وفاة وهي حامل ، وبعد وفاة زوجها بفترة يسيرة وضعت حملها
فأجاب بأن عدتها انتهت ، وقرأ قول الله عز وجل :
{ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ }
فقال السائل : المدة لم تبلغ أربعة أشهر وعشرة أيام
فقال : تنتهي عدتها ولو وضعت بعد وفاة زوجها بلحظة . اهـ .

قلت : انتهى ما وجدته في مذكرات الأستاذ الشيخ محمد السبسبي رحمه الله وجزاه خير الجزاء .

الخاتمة

ولا بد من التذكير بأمور نختم بها كتابنا هذا

وهي بيان إجمالي لبعض ما ورد في الكتاب نوردها تذكيراً للعاقل

وتنبيهاً للغافل :

أولاً : إذا جرت عادة الناس عند الحديث عن سيرة العظماء والكبراء أن يتضمن حديثهم الدعوة إلى التأسي بهم وجعلهم نبراساً لهم في سلوكهم اليومي ، فإن الأولى والأجدر بهم الاقتداء بأتباع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين اهتدوا بشريعته واقتدوا بسنته .

ومن هنا فإني أنصح كل من يقرأ هذا الكتاب أن لا يقول :

(هذا شيخ قريب عهدٍ بنا ونعرفه) ، فيجعل بذلك معرفته به أو أنه من بلده يجعلها حجاباً له ومانعاً له عن التأسي به والاطلاع على سيرته دون أن يشعر بهذا الحجاب .

وإلى هذا أشار سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله :

[أزهد الناس في العالم أهله وجيرانه] [1]

---

[1] عزاه في كنز العمال لأبي نعيم في الحلية عن أبي الدرداء وابن عدي عن جابر وذكره المزّي في تهذيب الكمال وابن عساكر في تاريخ دمشق بلفظ :
[أَزْهَدُ النَّاسِ فِي الْعَالِمِ أَهْلُهُ حَتَّى يُفَارِقَهُمْ] .
وروى السهمي في تاريخ جرجان عَنْ عون بْن عَبْد اللَّهِ قَالَ : كَانَ يقال :

أزهد النَّاس فِي العالم أهله، وَكَانَ يضرب لِذَلِكَ مثلاً : مثل قوم كَانَ بَيْنَ أظهرهم سراج، وَكَانَ النَّاس يقتبسون، وَقَالَ أَهْل الدار: هُوَ معنا وفينا ، فلم يفجأهم إلا أَن طفئ وبقي فِي يد غيرهم . اهـ

وذكره الشعراني في كتابه (العقود) بلفظ :
وروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : [أزهد الناس في العالم بنوه ثم قرابته ثم جيرانه ، يقولون : هو عندنا متى شئنا يناولنا علمه ، وإنما مثل العالم كمثل عين يأتيها الناس فيأخذون من مائها ، فبينما هم كذلك إذ غارت فذهبت فندموا] .[1]
- أي لأنهم قريبون منه فيقول أحدهم في نفسه : هذا جاري وأعرفه ، فيكون القرب الظاهر أو المعرفة الظاهرة حجاباً له عن الاستفادة بعلوم الشيخ وإرشاداته كما أن شدة قرب الحاجب من العين حجبت العين عن رؤيته .

وقال الإمام المناوي في فيض القدير [2]:
قال العارف المرسي : ابتلى الله هذه الطائفة بالخلق ليرفع مقدارهم ويكمل أنوارهم ، ويحقق لهم الميراث ليُؤذَوا كما أوذي من قبلهم فصبروا كما صبر من قبلهم ، ولو كان إطباق الخلق على تصديق العالم هو الكمال لكان الأحق بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بل صدّقه قوم هداهم الله بفضله ، وكذّبه آخرون فحجبهم الله بعدله ، فانقسم العباد في هذه الطائفة إلى معتقِد ومنتقِد ، ومصدِّق ومكذِّب .
وإنما يصدّق بعلومهم من أراد الحق إلحاقه بهم ، وقليل ما هم ، لغلبة الجهل واستيلاء الغفلة وكراهة الخلق أن يكون لأحد عليهم شفوف منزلة ، والعامة إذا رأوا إنساناً يُنسب إلى علم أو عرفان جاؤوا من القفار وأقبلوا عليه بالتعظيم والتكريم ، وَكَلُّوا من واحد بين أظهرهم لا يلقون إليه بالاً ، وهو الذي يحمل أثقالهم ويدفع الأغيار عنهم . اهـ .
قلت : ويرحم الله القائل :

وَإِنَّما المَرءُ حَديثٌ بَعدَهُ　　　فَكُن حَديثاً حَسَناً لِمَن وَعى

قلت : وإن آثار الشيخ الإمام رضي الله عنه باقية في عطائها بحمد الله تعالى فهذه مؤلفاته العلمية منتشرة متداولة ، وهذه جمعيته ومدرسته الشرعية التي أسّسها لا تزال تؤتي أكلها ، وهؤلاء أبناؤه خلفاؤه ، وهؤلاء أحبابه متّبعون لتوجيهاته ما استطاعوا .

---
[1] انظر كشف الخفا ١١٨/١
[2] ٦١٦/١

ورُبَّ قائل يقول : إن التحقق بتكاليف الشريعة ـ بما تضمنته من أعمال صالحة وأقوال طيبة وأخلاق كريمة وآداب سامية ـ إن التحقق بها أمر هو من الصعوبة والمشقة بمكان ، فهل هناك من الأُمّة من استطاع أن يحملها ويتحقق بها ؟

فيقال له : إن أتباع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ألزموا أنفسهم بها ، مستعينين بالله تعالى متوكلين عليه سبحانه ، فوفقهم الله تعالى لأداء حقوقها وللعمل بواجباتها ، فصاروا كالسُّرُج المنيرة لغيرهم ، فلا تبرر تقصيرك وتقاعسك بصعوبة تكاليف الشريعة ، فإن هناك من سبقك أو عاصرك قد تحقق بأوامر الله تعالى على أكمل الوجوه ، راجياً رضا الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، فاقرأ وطالع وابحث في سيرة العلماء العاملين الذين حفظ الله تعالى بهم الدين ، وسيحفظه إلى يوم الدين ، فقد قال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم :

[لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق ، لا يضرّهم مَن خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك] [1]

وهذه الطائفة تشمل العلماء والأولياء والفقهاء والمحدثين والعُبّاد و........

وقد يقلّ عدد هذه الطائفة وقد يكثر ، وقد يكثر في ناحية ويقلّ في ناحية ، حسب ما تقتضيه حكمة الله تعالى ، ولكن الأرض لا تخلو منهم بحال من الاحوال إلى يوم الدين .

واعلم أن الله تعالى لا يكلّف الناس إلا بما يطيقون ، ولم يجعل عليهم في الدين من حرج ـ أي عنَتٍ ومشقة ـ ، بل شرع لهم ما فيه زكاة نفوسهم وطيب قلوبهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة .

---

[1] كما في صحيح مسلم كتاب الإمارة

ولا تقل : لقد فسق الناس وانجرفوا في أهوائهم وشهواتهم

فقد قال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في سياق التحذير من هذا القول :

[إذا قال الرجل : هلك الناس فهو أهلكهم] [1]

وفي مسند الإمام أحمد :

[إذا سمعتم رجلاً يقول : قد هلك الناس ، فهو أهلكهم ، يقول الله : إنه هو هالك] [2]

وقوله صلى الله عليه وسلم : [أهلكهم] ـ بفتح الكاف ـ أي أنه هو الذي نسب الهلاك إليهم ولكنهم برآء من ذلك [3]

---

[1] صحيح مسلم كتاب البر والصلة والآداب عن أبي هريرة رضي الله عنه

[2] المسند ٧٣٦٠

[3] قال الإمام النووي في شرحه صحيح الإمام مسلم :
قوله صلى الله عليه وسلم : (إذا قال الرجل : هلك الناس فهو أهلكهم)
روي (أهلكهم) على وجهين مشهورين : رفع الكاف وفتحها ، والرفع أشهر ، ويؤيده أنه جاء في رواية رويناها في حلية الأولياء في ترجمة سفيان الثوري (فهو من أهلكهم)
قال الحميدي في الجمع بين الصحيحين : الرفع أشهر ، ومعناها أشدهم هلاكاً ، وأما رواية الفتح فمعناها : هو جعلهم هالكين ، لا أنهم هلكوا في الحقيقة .
واتفق العلماء على أن هذا الذم إنما هو فيمن قاله على سبيل الإزراء على الناس ، واحتقارهم ، وتفضيل نفسه عليهم ، وتقبيح أحوالهم ، لأنه لا يعلم سر الله في خلقه .
قالوا : فأما من قال ذلك تحزناً لِما يرى في نفسه وفي الناس من النقص في أمر الدين فلا بأس عليه ، هكذا فسره الإمام مالك ، وتابعه الناس عليه اهـ

ثانياً :

إن الأبحاث العلمية والتحقيقات الفريدة التي تجد بعضها في ثنايا هذا الكتاب هي خير رد على بعض السُذّج الذين يظنون أن الشيخ شيخ طريق وعبادة دونما ذلك العلم والمعرفة عنده ، فنقول لهم :

لقد جمع سيدنا الشيخ الإمام رضي الله عنه بين مشيخة الطريق والمشيخة العلمية والعملية والعلم بالحقائق الإيمانية والمعارف الإلهية والتفسير والحديث الشريف والفقه ، يشهد لذلك إجازاته من كبار المحدثين وأوّلُهم والده الكريم مولانا الشيخ محمد نجيب رضي الله عنه ،
ويشهد لذلك دروسه اليومية في المدارس الشرعية والمساجد العامة ومجالسه الخاصة .

ويشهد لذلك مؤلفاته التي تضمنت تحقيقات علمية نادرة لم يتعرض إليها أحد قبله ، وردُّه على شبهات وضلالات تخلّلت بعض كتب التفسير وشروح الحديث الشريف .
ومن ذلك بحث الشيخ الإمام في نجاة الأبوين الشريفين ، وبحث صواب فعله صلى الله عليه وسلم في قصة أسرى بدر وتأبير النخل من وجوه متعددة ، وردّه قصة الغرانيق التي أثبتها بعض كبار الحفّاظ .
وقد كان منهج الشيخ الإمام رضي الله عنه بيان الحق في المسائل العلمية دون ذكر اسم من أخطأ فيها أو التعرض لنقده .
حتى قال مرة السيد الحبيب الشيخ عبد القادر السقاف [1] بعدما حضر مجلساً مع الشيخ الإمام في جامع بانقوسا قال :
(لقد سمعت من الشيخ أمدّه الله تعالى كلاماً لم أسمعه مِن أَحد ممن حضرت عليه من شيوخنا ، ولم أقرأه قط في كتاب) . اهـ

---

[1] الشيخ الصالح الداعية العلّامة الفهّامة الحبيب عبد القادر بن أحمد بن عبد الرحمن بن علي بن عمر بن سقّاف بن محمد بن عمر بن طه السقاف
ولد بمدينة سيؤن بحضرموت وتوفي سنة ١٤٣١هـ عن عمر يناهز المائة عام وصلّي عليه في داره بجدة عصر الأحد ، ثم صلي عليه بالمسجد الحرام بمكة المكرمة شرّفها الله عقب صلاة العشاء ودفن بمقبرة المعلاة بمكة المشرفة ، رحمه الله رحمة واسعة ورضي عنه .

وأعجبني كلام غير واحد من أجلّاء أهل العلم ـ وقد عاصر الشيخَ الإمام منذ صغر سنه إلى شبابه إلى بلوغه مبلغ الرجال الراسخين في العلم والعمل ـ قال عن الشيخ الإمام رضي الله عنه :

(عهدي بالإنسان يولد على الفطرة ، ثم يترقى في مراتب الكمال والجمال والعلم ، ولكني رأيت الشيخ وُلد عظيماً جليلاً ، ونشأ كريماً سامياً ، ثم ازداد بعلمه وعمله رفعة ومهابة) .

وقد تميّز عن سائر الناس منذ نعومة أظفاره إذ لم تصدر منه هفوة ، ولم تكن له في شبابه صبوة ، حتى إذا انطلق في عطائه لم يكن لجواده كبوة ، والفضل كله لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم . اهـ .

فأنصح القارىء أن يقرأ كتب الشيخ الإمام رضي الله عنه ، يقرأها بدراسة وتدبّر وتفكر .

وقد كان من دعاء الشيخ الإمام مراراً أن يجعل الله في كتبه نوراً إلهياً محمدياً يسري في قلب القارىء ، فيزداد هدى وقرباً من الله تعالى ومن رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم .

وإني أسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يجعل هذا الجهد ـ الذي لا يسعني أن أصفه إلا بالمتواضع في صورته ، الكبير في حقيقته ـ وهذا العمل الدؤوب لنشر آثار الشيخ العلمية ، أسأله تبارك وتعالى أن يجعل ذلك خالصاً لوجهه الكريم ، وأن يجعل ثوابه في صحيفة شيخنا الإمام رضي الله عنه ، وفي كتاب أعماله الواسع ، وأن يرفع مقامه في زمرة أحباب سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم . آمين

وقد تم الفراغ من جمع هذا الكتاب بعون الله تعالى وتيسيره في الأول من شهر رمضان سنة ١٤٣٤ من هجرة المصطفى الأكرم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

وصلى الله على سيدنا محمد كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون إلى يوم الدين وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين .

المصادر والمراجع المعتمَد عليها في تراجم العلماء المذكورين في الكتاب :

١ـ من كلام شيخنا الإمام الوالد رضي الله عنه
٢ـ كتاب (سير أعلام النبلاء)
لمؤلفه الحافظ شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي المتوفى سنة ٧٤٨ هـ
٣ـ كتاب (وفيّات الأعيان وأنباء أبناء الزمان)
لابن خلّكان أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر بن خلكان أبي العباس المؤرّخ المتوفى سنة ٦٨١ هـ
٤ ـ كتاب (إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء)
للشيخ راغب الطباخ رحمه الله
٥ ـ كتاب (إعانة المجدّين في تراجم أعلام المحدثين) (مخطوط)
للشيخ المحدّث المؤرخ أحمد سردار الحلبي الشافعي المتوفى سنة ١٤١٨ هـ رحمه الله
٦ ـ كتاب (علماء حلب في القرن الرابع عشر)
لـ محمد عدنان بن عمر كاتبي
٧ ـ كتاب (تاريخ علماء دمشق في القرن الرابع عشر الهجري)
لـ محمد مطيع الحافظ (طبعة دار الفكر ١٤٠٦ هـ)

فهرس الكتاب